كاتب حقّقت رواياته مرتبة الأكثر مبيعاً على قائمة نيويورك تايمز

ستيفن كينغ

STEPHEN KING

بيع من مؤلفاته أكثر من 400 مليون نسخة

قصة خرافية

FAIRY TALE

رواية

مكتبة
Telegram Network

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

قصة خرافية
FAIRY TALE

«مكتبة ♔ النخبة»

ستيفن كينغ

STEPHEN KING

تعريب

ماجد حامد

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

FAIRY TALE
by Stephen King

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من المؤلف عبر
Published by agreement with the Lotts Agency Ltd., 68 Jay Street, Suite 201, Brooklyn, N.Y. 11201, U.S.A (Agent).
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون
Copyright © 2022 by Stephen King
All rights reserved
Arabic Copyright © 2022 by Arab Scientific Publishers

الطبعة الأولى: آذار/مارس 2023 م - 1444 هـ

ردمك 978-614-01-3583-3

جميع الحقوق محفوظة للناشر:

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

التوزيع في المملكة العربية السعودية

إصدار
الدار العربية للعلوم ناشرون م م ح **دار إقراء للنشر**

مركز الأعمال، مدينة الشارقة للنشر
المنطقة الحرة، الشارقة
الإمارات العربية المتحدة
جوال: 585597200 971+ - داخلي: 0585597200
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم ناشرون**

facebook.com/ASPArabic twitter.com/ASPArabic www.aspbooks.com asparabic

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

«دعْ ضميرك يكنْ دليلك دائمًا».

- الجنية الزرقاء

الفصل الأول
الجسر اللعين-المعجزة-النباح

1

أنا واثق من قدرتي على سرد هذه القصة، كما أنني واثق من أن أحداً لن يُصدقها. ليس لديّ مشكلة في هذا، وبإمكاني أن أكتفي بسردها فحسب. إن مشكلتي -وأنا واثق من أن جميع الكتاب يتعرّضون لهذه المشكلة وليس المبتدئين أمثالي وحسب- هي أنني لا أعرف من أين سأبدأ.

في البدء، فكّرت في المستودع لأن مغامرتي بدأت هناك، ولكنني لاحظت أن عليّ ذكر السيد بوديتش أولاً وكيف تقرب أحدنا من الآخر، ولكن هذا ما كان ليحدث لولا المعجزة التي حدثت لوالدي، بإمكانكم القول إن هذه

المعجزة كانت عادية وإنها حدثت مع آلاف الرجال والنساء منذ عام 1935 ولكنها بدت معجزة عظيمة في عيني طفل صغير.

ليس هذا هو المكان الصحيح أيضاً لأبدأ منه، فأنا أعتقد أن والدي ما كان يحتاج إلى معجزة لولا ذلك الجسر اللعين، لذا سأبدأ منه، أي من جسر شارع سيكامور اللعين. وبعد أن فكّرت في تلك الأمور أرى خيطاً واضحاً يبدأ من تلك السنوات ويصل إلى السيد بوديتش وذلك المستودع المقفل وراء منزله ذي الطراز الفيكتوري المتداعي.

لكن هذا الخيط يسهل قطعه، لذلك سأستبدل تعبير السلسلة بتعبير الخيط، ودعوني أقلْ إنها سلسلة قوية، وكنت أنا الطفل الذي قُيّد بها من معصمه.

2

يجري نهر الرامبل الصغير في النهاية الشمالية لسينتري ريست (وتُعرف باسم سينتري بين المحليين) وحتى العام 1996 الذي وُلِدت فيه، كان هناك جسر خشبي فوقه. في ذلك العام، درس مفتشو الولاية من مديرية النقل على الطرق السريعة الأمر، وصنّفوا الجسر بأنه غير آمن. قال لي أبي إن الشعب في قسمنا من بلدة سينتري يعرفون أن الجسر غير آمن منذ العام 1982. قيل إن الجسر يتحمل عشرة آلاف رطل، ولكن سكان البلدة الذين يملكون شاحنات كانوا يبتعدون عنه في معظم الأحيان عندما تكون شاحناتهم محملة، ويلجؤون إلى تفرع من الشارع العام الذي كان مزعجاً ويهدر الوقت. قال أبي إن الشخص كان يشعر بالألواح الخشبية وهي تهتز وتتخلخل تحته، حتّى وإن كان يقود سيارة. لقد كان مفتشو الولاية محقين، فالجسر كان خطراً للغاية، ولكن هذه سخرية القدر: إن لم يُستبدل جسر معدني بالجسر الخشبي ما كانت أمي لتموت.

إن نهر الرامبل صغير فعلاً، ولم تستغرق عملية نصب الجسر الجديد وقتاً طويلاً. تم التخلّص من الجسر الخشبي وافتتح الجسر الجديد في نيسان عام 1997.

ذات ليلة قال أبي: «قصّ العمدة الشريط، وبارك الأب كوغلين ذلك الجسر اللعين، وتم الأمر»، في تلك الليلة، كان أبي ثملاً للغاية «لم تكن تلك المباركة نعمة علينا يا تشارلي أليس كذلك؟».

سُمّي ذلك الجسر بجسر فرانك إيلزوورث تيمناً باسم بطل محلي مات في فيتنام، ولكن المحليين أطلقوا على الجسر اسم جسر شارع سيكامور. عُبّد شارع سيكامور بشكل أنيق وناعم على الطرفين ولكن سطح الجسر الفولاذي -الذي كان يبلغ طوله مئة واثنتين وأربعين قدماً- كان يصدر صوت همهمة كلما عبرته السيارات، وصوت زمجرة حين تستخدمه الشاحنات. وكان بوسع الشاحنات استخدامه حيث إنه استطاع تحمل وزن ستين ألف رطل. لم يكن كبيراً لدرجة أن يتحمّل شبه مقطورة محمّلة، ولكن شاحنات النقل الطويلة لم تستخدم جسر سيكامور يوماً.

في كل عام، جرى الحديث في المجلس البلدي عن تعبيد سطح الجسر، وإضافة رصيف واحد على الأقل، ولكن الأموال كانت تنفق على الأمور الأكثر إلحاحاً عاماً بعد عام. لا أعتقد أن الرصيف كان بوسعه إنقاذ أمي، ولكن تعبيد السطح كان باستطاعته أن ينقذها، قد تقولون إنه ما من طريقة تتيح لي التأكد من ذلك، أليس هذا ما تفكرون فيه؟ يا لذلك الجسر اللعين.

3

كنا نسكن في وسط سفح التلّ التابع لشارع سيكامور أي على بعد ربع ميل عن الجسر، وكان هناك متجر صغير للغاز والبقالية على الطرف الآخر يُدعى زيب مارت، كان يبيع الأشياء الاعتيادية من زيت المحركات إلى خبز

وندر وكعكات ديبي الصغيرة كما كان يبيع دجاجاً مقلياً مصنوعاً من قبل المالك السيد إيليادز (ويعرف بين المحليين باسم السيد زيبي)، كان ذلك الدجاج يماثل الإعلان الذي نشر عنه على الواجهة: أفضل دجاج مقلي على وجه الأرض. ما زلت أتذكر كم كان شهياً، ولكنني لم أتناول قطعة واحدة منه بعد موت أمي، لأنني إن حاولت تناول قطعة واحدة منه كنت سأشعر بغصة.

في أحد أيام السبت من تشرين الثاني عام 2003 -كان المجلس البلدي لا يزال يناقش موضوع تعبيد الجسر، وتوصّل إلى أن الموضوع يمكن تأجيله مجدداً للعام التالي. قالت لنا أمي إنها ستذهب إلى زيبي كي تجلب لنا دجاجاً مقلياً لنتناوله على العشاء، في تلك الأثناء كنت وأبي نشاهد مباراة كرة قدم لأحد الفِرق الجامعية.

قال أبي: «استقلي السيارة، يبدو أن السماء ستمطر».

قالت أمي: «أريد أن أمشي قليلاً، ولكنني سأرتدي معطفي الواقي من المطر».

هذا ما كانت ترتديه في آخر مرة رأيتها فيها. لم تعتمر القبعة لأن المطر لم يكن قد بدأ بالتساقط، لذا كان شعرها يتناثر على كتفيها. كنت في السابعة من عمري، وكنت أعتقد أن أمي صاحبة أجمل شعر أصهب في العالم. لمحتني وأنا أنظر إليها عبر النافذة، فلوّحت لي، ولوّحت لها بدوري، وعاودت مشاهدة التلفاز حيث كان فريق إل.إس.يو متقدماً. تمنيت لو أنني نظرت إليها أكثر، ولكنني لا ألوم نفسي؛ لا أحد يعرف ما يخبئ له القدر، أليس كذلك؟

لم يكن خطئي ولا خطأ والدي، مع أنني أعرف أنه يلوم نفسه ويقول: ما كان ذلك ليحصل ما لم أكن كسولاً. أعتقد أن ما حصل لم يكن خطأ الرجل في شاحنة السباكة؛ قال رجل الشرطة إنه لم يكن ثملاً، وأقسم السائق إنه لم يتجاوز السرعة المسموح بها التي كانت بحدود 25 ميلاً في

الساعة في منطقتنا السكنية. قال أبي مفترضاً أن كلام السائق صحيح، إنه يرجّح فرضية إلتهائه عن مراقبة الطريق لثوانٍ، ولا بدّ أن أبي كان محقاً. كان خبير تسوية طلبات وتأمينات، وقال لي إن الحادث الوحيد الذي سمع به في حياته، والذي لا يمكن أن يُلام عليه أحد، هو موت رجل في أريزونا بعد أن صدمه نيزك في رأسه.

قال أبي: «وراء كل حادث شخص مخطئ، ولا علاقة لما أقوله بأن هذا الشخص يجب أن يُلام ويتحمّل المسؤولية».

سألته: «هل تلوم الشخص الذي صدم أمي؟».

فكّر في الأمر، ثمّ ارتشف من كأسه وتلمظ. جرت هذه المحادثة بعد ستة أو ثمانية أسابيع من موت أمي، بعدها تخلى عن البيرة، وأدمن على جين غيلبي.

«أحاول ألا أفعل هذا، وهذا ما لا أفعله عادة، إلا عندما أستيقظ عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ولا أجد أحداً في جواري فألومه حينها».

4

سارت أمي نزولاً عبر سفح التلّ، وكانت هناك لافتة تدل على موقع انقطاع الرصيف. اجتازت اللافتة وعبرت الجسر، وقد بدأ الظلام يشتد، وتناثرت قطرات مطر خفيفة. دخلت المتجر، وقالت لها إيرينا إيليادز (وتعرف باسم السيدة زيبي) إن مزيداً من الدجاج سيجهز خلال ثلاث دقائق أو خمس دقائق على الأكثر. في غضون ذلك، وفي مكان ما على شارع باين الذي لا يبعد عن منزلنا كثيراً، أنهى السباك آخر مهمة له ليوم السبت ذاك، وكان يعيد عدته إلى حقيبته في صندوق شاحنته.

جهز الدجاج وكان ساخناً ومقرمشاً وذهبياً، وضبت السيدة زيبي علبة فيه ثماني قطع، وقدمت لأمي جانحاً إضافياً لتأكله في طريقها إلى المنزل،

شكرتها أمي، ودفعت ثمن الدجاج، وتوقفت لتنظر إلى رف المجلات، إن لم تفعل ذلك لكانت اجتازت الجسر على الأرجح؛ من يعلم؟ لا بدّ من أن شاحنة السباك كانت تنعطف عند شارع سيكامور وتنزل التلّ الذي يبلغ طوله ميلاً بينما كانت أمي تتصفّح آخر عدد من بيبل.

أعادت المجلة إلى مكانها، وفتحت الباب، وقالت للسيدة زيبي: «طاب مساؤك». لا بدّ من أنها صرخت حين رأت أن الشاحنة كانت على وشك أن تصدمها، والله أعلم ما الذي فكّرت فيه. ولكن تلك كانت الكلمات الأخيرة التي تفوهت بها، خرجت وكان المطر بارداً ويهطل بهدوء، وكان عبارة عن خطوط فضية بسبب النور المنبعث من مصباح الشارع الوحيد الذي كان يقع بجوار زيب مارت.

مشت أمي على السطح المعدني وهي تتناول جانحها المقرمش، سُلّطت الأضواء الأمامية عليها، وألقت بظلها الطويل خلفها، اجتاز السباك اللافتة على الاتجاه الآخر وكان قد كتب عليها: يتجمد سطح الجسر قبل الشارع! خذوا حذركم من فضلكم! هل كان ينظر إلى المرآة الجانبية؟ هل كان يتحقق من رسالة على هاتفه؟ أجاب «لا» على السؤالين. ولكن عندما أفكر في ما حصل في تلك الليلة، أفكّر في أبي وما قاله بخصوص الحادث الوحيد الذي سمع به في حياته والذي لا يمكن أن يُلام عليه أحد، وهو موت رجل في أريزونا بعد أن ارتطم نيزك برأسه.

كان هناك حيز واسع حيث إن الجسر المعدني كان أوسع من الجسر الخشبي السابق، ولكن المشكلة تكمن في التغطية الفولاذية. رأى أمي في منتصف الجسر، وداس على الفرامل ليس لأنه كان مسرعاً (حسب ما قال طبعاً) بل بسبب الغريزة الصرفة. بدأ السطح الفولاذي بالتجمّد، انزلقت الشاحنة وبدأت تميل إلى الممر الجانبي، فالتصقت أمي بسياج الجسر، وأوقعت قطعة الدجاج على الأرض. انزلقت الشاحنة أكثر، واصطدمت بها، وألقت بجثتها عن السياج، فبدت وكأنها تطير. لا أريد أن أفكر بأشلائها التي

تناثرت بعد دوامة الموت تلك، ولكنني أضعف أحياناً، فتتملكني الأفكار السوداء. كل ما أعرفه هو أن مقدمة الشاحنة ألقت بها أخيراً قرب دعامة للجسر بجوار زيب مارت، ألقي قسم منها في نهر الرامبل، ولكن معظمها ظل على الجسر.

أحمل صورة لنا في محفظتي؛ كنت في الثالثة من عمري تقريباً حين التقطت تلك الصورة. كانت تجلسني على فخذها وكانت إحدى يدي في شعرها، وبدا شعرها في غاية الروعة.

5

في تلك السنة، كان عيد الميلاد مروعاً ويجب عليكم تصديقي.

أتذكّر مراسم الاستقبال في منزلنا بعد الجنازة؛ كان أبي هناك، وكان يُرحّب بالناس، ويتقبل التعازي، ثمّ اختفى. سألت أخاه، أي عمي بوب، عن مكانه، فأجابني: «إنه مستلقٍ، فهو متعب للغاية يا تشارلي، لمَ لا تخرج وتلعب؟».

لم أتمنع في حياتي عن اللعب يوماً مثل ذلك اليوم، ولكنني خرجت. مررت بأشخاص بالغين كانوا قد خرجوا ليدخنوا، وسمعت أحدهم يقول: «يا للرجل المسكين، إنه ثمل للغاية» وفي خضم حزني على أمي علمت وقتها عمّن يتحدثون.

قبل أن تتوفى أمي كان يمكن وصف والدي بالمعتدل في شرب الكحول. كنت طفلاً صغيراً في الصف الثاني، لذا لا أنصحكم أن تعتمدوا على كلامي تماماً، ولكنني أتحمل مسؤوليته. لم أسمعه يتلعثم يوماً أو يترنح في الأرجاء، كما أنه لم يخرج إلى الحانات، ولم يمدّ يده عليّ أو على أمي. تعود أن يعود إلى المنزل مع حقيبته، وكانت أمي تقدم له شراباً، وكثيراً ما كان هذا الشراب هو المارتيني.

كانت تشاركه الشراب، وفي المساء، حين كنا نشاهد التلفاز، كان يشرب البيرة. وهذا كل شيء.

تغير كل هذا بعد الجسر الملعون، كان ثملاً بعد الجنازة (كشخص بغيض)، كما كان ثملاً في عيد الميلاد وفي ليلة رأس السنة (واكتشفت لاحقاً أن الأفراد مثله يدعونها ليلة الهواة). في الأسابيع والأشهر التي تلت موت أمي، لطالما كان أبي ثملاً معظم الوقت الذي أمضاه في المنزل، ولم يكن يخرج إلى الحانات في الليل. (ذات مرة قال لي: «هناك كثير من الأشخاص البغيضين أمثالي»). لم يضربني، ولكن احتساء الكحول خرج عن سيطرته. عرفت هذا الآن، وقبلت بالأمر. هذا ما يفعله الأطفال، والكلاب أيضاً.

في البدء، كنت أُحضّر فطوري الخاص مرتين في الأسبوع، ثمّ أصبحت أُحضّره أربع مرات، إلى أن أصبحت أحضّره معظم الوقت. كنت آكل ألفا-بيتس أو آبل جاكس في المطبخ وأسمعه يشخر في غرفة النوم. كان شخيره يشبه صوت المحرك.

في بعض الأحيان، كان ينسى أن يحلق ذقنه قبل أن يغادر إلى العمل، وبعد العشاء (الذي أصبح يعتمد على الطلبات الخارجية في معظم الوقت) كنت أخفي مفاتيح سيارته، إذا احتاج لزجاجة جديدة، فكان عليه أن يذهب إلى زيبي كي يجلب واحدة. كنت أخشى أحياناً أن تصطدم به سيارة على ذلك الجسر اللعين، ولكنني لم أقلق كثيراً. كنت واثقاً (أو واثقاً إلى حدّ كبير) بأن والديّ لن يموتا في المكان نفسه. كان أبي يعمل بالتأمينات، وكنت أعرف ما هي الجداول الاكتوارية، أو التي تتوقع عمر الفرد: وهي معرفة الاحتمالات.

كان أبي متمرساً في عمله، واستمر فيه ثلاث سنوات رغم مشكلته مع الشرب. هل تلقى إنذارات في العمل؟ لا أدري، ولكنني أُرجّح ذلك. هل تم إيقافه بسبب قيادته المتهورة حين بدأ الشرب بعد الظهر؟ لم يجلب أيّ

مخالفات تدل على هذا حتّى وإن تعرض لمثل هذا الموقف. فضلاً عن احتمال ألا يتعرّض لأي مخالفة لأنه كان يعرف كل رجال الشرطة في البلدة. كان التعامل مع الشرطة جزءاً من عمله.

كان هناك إيقاع ناظم لحياتنا خلال السنوات الثلاث تلك؛ كان أبي يصل عند الساعة الخامسة بعد الظهر، وكان يبدو جلياً من رائحة نفسه أنه شرب في هذا الوقت كؤوساً عدة (لم يكن يرتاد الحانات ليلاً، إلا أنني اكتشفت لاحقاً أنه كان زبوناً معتاداً في حانة دافيز في طريقه إلى المنزل من عمله). كان يجلب معه بيتزا أو تاكو أو طعاماً صينياً من جوي فان، وفي بعض الأحيان، التي كان ينسى فيها أن يجلب الطعام في طريق عودته، كنا نطلب طعاماً على الهاتف...كنت أنا من أطلب في العادة، وكان يبدأ الإسراف في الشرب بعد العشاء. كان يفضّل الجين، ولكنه كان يحتسي أنواعاً أخرى في حال عدم وجود الجين. في بعض الليالي، كان ينام وهو يُشاهد التلفاز، وفي ليالٍ أخرى كان يترنح وهو في طريقه إلى غرفة النوم، وكنت أنقل حذاءه وأُعلق معطفه المجعد، وبين الفينة والأخرى، كنت أستيقظ لأسمع بكاءه. يا له من أمر بشع أن أسمع هذا الصوت في منتصف الليل.

حدث الصدام في العام 2006، في العطلة الصيفية. كان لديّ مباراة في دوري شريمب في تمام العاشرة صباحاً؛ قمت بدورتين كاملتين، والتقطت كرة بطريقة رائعة. عندما عدت ظهراً إلى المنزل، وجدت أبي جالساً على كرسيه، ويحدق إلى التلفاز حيث كان يتصارع نجما فيلم على درج قلعة. كان يرتدي سرواله الداخلي، ويحتسي شراباً أبيض يشبه شراب غيلبي الصرف. سألته عما يفعله في المنزل.

قال لي وهو يحدّق إلى صراع السيوف: «يبدو أنني فقدت عملي يا تشارلي. وقال لي مقتبساً من بوبكات غولدذويت: أعلم أين هو، ولكن أحداً ما يقوم به، وليس أنا. أو سرعان ما سيقوم به شخص آخر».

اعتقدت أنني لن أستطيع الرد على كلامه، ولكن الكلمات خرجت من فمي على أيّ حال.

«بسبب مشكلتك في الشرب».

قال: «سأكف عنه».

اكتفيت بالإشارة إلى الكأس. ثمّ توجهت إلى غرفة نومي، أغلقت الباب، وشرعت بالبكاء.

طرق باب غرفتي، وسألني: «هل أستطيع الدخول؟».

لم أجبه لأنني لم أرد أن يسمعني وأنا أشهق.

«هيّا يا تشارلي، لقد سكبت الشراب في المجلى».

وكأنني لم أعرف أن باقي الزجاجة كانت على طاولة المطبخ، وأخرى في خزانة الكحول، ولعله كان يخبئ زجاجتين أو ثلاث.

«هيّا يا تشارلي، ماذا تقول؟». كرهت التلعثم في صوته.

«اللعنة عليك يا أبي».

لم يسبق لي أن قلت له شيئاً كهذا في حياتي، ولعلني كنت أتمنى أن يدخل ويؤنبني أو يضربني أو يعانقني. أردته أن يفعل شيئاً في جميع الأحوال، ولكنني سمعت خطواته المترنحة وهو يتجه إلى المطبخ حيث تنتظره زجاجة غيلبي.

حين خرجت من غرفتي، وجدته نائماً على الأريكة، وما زال التلفاز يعمل، ولكنه كتم صوته. كان التلفاز يعرض فيلماً أبيض وأسود، وكان عن سيارات قديمة تتسابق في موقع لتصوير الأفلام. لطالما شاهد أبي قناة تيرنر كلاسيك موفيز عندما كان يشرب، إلا إذا كنت في المنزل، وأصررت

على أن نشاهد شيئاً آخر. كانت الزجاجة على طاولة القهوة، وكانت فارغة إلى حدّ ما. سكبت ما في داخلها في المجلى، وفتحت خزانة الكحول، وفكّرت في أن أسكب محتويات جميع الزجاجات. ولكن، عندما نظرت إلى الجين والويسكي ونيبس الفودكا وبراندي القهوة، خارت قوتي. أفهم أنكم لا تستطيعون تخيّل طفل في العاشرة من عمره يشعر بهذا التعب، ولكنني لا أبالغ.

سخنت العشاء المجمد في الميكروويف - كان دجاج الجدة المطبوخ طبقنا المفضل - وحاولت إيقاظه بينما يجهز العشاء، نهض وتفحص ما حوله، وكأنه لم يعرف أين كان، ثمّ بدأ بإصدار صوت قرقرة رهيبة لم يسبق لي أن سمعتها، شق طريقه إلى الحمام بينما كان يضع يديه على فمه وسمعته يتقيأ. لقد شعرت أنه لن ينتهي من التقيؤ، ولكنه اكتفى في نهاية المطاف، أصدر الميكروويف صوت انتهاء التسخين، فأخرجت الطبق منه باستخدام قفازي الفرن اللذين كتب عليهما: طبخاً جيداً على القفاز اليسار، وطعاماً هنيئاً على القفاز الأيمن. وضعت بعض الطعام في صحنينا، وذهبت إلى غرفة المعيشة حيث كان أبي يجلس وهو يحني رأسه ويشبك يديه على عنقه.

«هل تستطيع أن تأكل؟».

نظر إليّ وقال: «ربما، ولكن شريطة أن تعطيني بعض الأسبرين».

كانت رائحة الجين المقززة تفوح من الحمام بالإضافة إلى رائحة غريبة أخرى، ولعلها رائحة تغميسة الفاصولياء. ولكنه تخلص منها على الأقل، وألقاها في المرحاض وكبس زر الشطف. نثرت كمية من مسحوق غليد، ثمّ جلبت له علبة الأسبرين وكأساً من الماء. أخذ ثلاث حبات، ووضع كأس الماء محل زجاجة غيلبي. نظر إليّ بتعبير لم يسبق لي أن رأيته حتّى بعد وفاة أمي. يعز عليّ قول هذا، ولكنني كنت سأقوله في جميع الأحوال لأن هذا هو الشعور الذي انتابني حينها: كان تعبيره يشبه نظرة كلب تغوط على الأرضية.

«يمكنني أن آكل إذا عانقتني».

عانقته واعتذرت عما قلته.

«لا عليك، لعلني استحققت ما قلته لي».

ذهبنا إلى المطبخ، وتناولنا كل ما يمكننا هضمه من دجاج الجدّة المطبوخ، ولكننا لم نستطع تناول الكثير منه، وبينما كان يغسل الصحنين في المجلى قال لي إنه سيتوقف عن الشرب، وتوقف فعلاً في تلك العطلة. قال لي إنه سيبدأ في البحث عن عمل ابتداء من يوم الاثنين، ولكنه لم يفعل ذلك. ظل في المنزل، وشاهد أفلاماً قديمة على تيرنر كلاسيك موفيز. وحين عدت من تمرين كرة القاعدة وسباحة الظهر في جمعية الشبان المسيحيين كان ثملاً جداً.

نظر إليّ وأنا أراقبه، ثمّ هز رأسه وقال: «غداً، غداً، أعدك حقاً».

قلت له: «أعتقد أن وعودك محض هراء تافه». ثمّ توجّهت إلى غرفتي.

6

كان ذلك أسوأ صيف في طفولتي، بإمكانكم أن تتساءلوا: هل كان أسوأ من الوقت الذي ماتت فيه أمك؟ وسأقول لكم: أجل، لأنه كان وليّ الأمر الوحيد الباقي لي. كما بدا لي أن كل شيء يتحرك في وتيرة بطيئة للغاية.

لقد حاول لفترة قصيرة العثور على عمل في مجال التأمينات، ولكن لم تتكلل مساعيه بالنجاح حتّى بعد أن حلق ذقنه واستحم وتهندم. أعتقد أن الوسط يتناقل الكلام.

تكدست الفواتير على الطاولة في الرواق الأمامي، ولم يفتحها. كنت أنا من فتح الفواتير عندما أصبحت كدستها مرتفعة، ووضعتها أمامه، فكتب شيكات ليغطيها. لم أعرف متى ستعود هذه الشيكات إلينا، وهي مدموغة بإشارة لا رصيد ولم أشأ أن أعرف. كان الأمر أشبه بالوقوف على جسر، وتخيل شاحنة خرجت عن السيطرة، وتتوجه نحوكم، وأنتم تتساءلون عن ماهية الأفكار الأخيرة التي ستراودكم قبل أن تلاقوا حتفكم.

في النهاية، حصل أبي على عمل بدوام جزئي في مصبغة جيفي، لقد واظب أسبوعاً على هذا العمل، ولكنه ترك العمل أو طرد، لم يخبرني إن ترك العمل بمحض إرادته أو طرد، كما أنني لم أسأله.

وصلنا إلى فريق كل النجوم في دوري شريمب، ولكننا خرجنا في المباراتين الأوليين في بطولة الإقصاء المزدوج، وخلال الموسم العادي، تعودت أن أقوم بست عشرة جولة كاملة، وكنت أقوى ضارب كرة في ستار ماركت، ولكن في كلتا المباراتين ضربت الكرة سبع مرات ومرة على كرة في التراب، وفشلت في المرة الأخرى في ضرب كرة عالية للغاية حيث كنت أحتاج إلى مصعد كي أصل إليها. سألني المدرب عما يجري معي فقلت له: لا شيء، لا شيء، اتركني وشأني. لم أكن على سجيتي فقد أخطأت.

لم أكن أنام بعمق. لم تراودني الكوابيس مثل التي كانت تراودني بعد وفاة أمي، ولكنني لم أستطع أن أخلد إلى النوم، وأحياناً كنت أسهر حتى منتصف الليل أو حتّى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. لقد لجأت إلى قلب ساعتي كي لا أنظر إلى الأرقام.

لم أكن أكره أبي بصريح العبارة (مع أنني أوشكت الوصول إلى هذه المرحلة) ولكنني كنت حاقداً، كنت أقول لنفسي: ضعيف، ضعيف.. وأنا أستلقي على سريري، وأسمع شخيره، ولطالما فكرت بما سيحل بنا. كانت السيارة مؤمنة وهذا شيء جيد، ولكن منزلنا لم يكن كذلك، وكانت نفقاته

هائلة بالنسبة إليّ؛ كم سيمر من الوقت قبل أن يعجز عن تسديد الإيجار الشهري؟ كان ذلك الوقت سيحل لا محالة، لأنه لا يزال علينا أن نسدد دفعات الرهن طيلة السنوات التسع التالية، ولا يوجد لدينا من المال ما يكفي لكل هذه السنوات.

قلت لنفسي: مشردان.. سيضع المصرف يده على المنزل كما في رواية عناقيد الغضب وسنصبح مشردين على الطرقات.

لقد رأيت أناساً كُثراً مشردين في وسط المدينة، وعندما كنت أجد صعوبة في النوم، كنت أفكّر بأمر هؤلاء المشردين، وكثيراً ما فكرت في المتسولين الذين يرتدون ثياباً فضفاضة على أجسادهم النحيلة أو ثياباً ضيقة على أجساد بدينة. كانت أحذيتهم متماسكة بفعل اللاصق الشفاف كما كانت نظاراتهم مكسورة وشعورهم طويل وأعينهم جامحة وأنفاسهم نتنة تفوح منها رائحة الكحول. وتخيّلت صورتنا ونحن نجلس في سيارتنا قرب ساحة القطار أو مرأب وولمارت قرب عربات النوم. فكرت في أبي وهو يدفع عربة تسوق فيها ما تبقى من أشيائنا، لطالما تراءى لي وجود منبهي الذي أضعه قرب سريري في تلك العربة. لا أدري لِمَ أرعبني هذا؟ ولكنني واثق من أن تلك الصورة كانت ترعبني للغاية.

كنت سأعود إلى المدرسة قريباً سواء أكنت مشرداً أم لا. لا شك في أن بعض زملائي في الطريق سينادونني تشارلي الأفكح، ولعله كان أفضل من لقب تشارلي ابن الثمل. ولكن كم سيمر من الوقت قبل أن يجمعوا بين اللقبين؟ لقد عرف الناس في شارعنا أن جورج ريد توقف عن العمل، وأُرجح أنهم يعرفون السبب. لم أكن أضحك على نفسي في ما يخص هذا الموضوع.

لم نكن عائلة ترتاد الكنيسة بانتظام، أو عائلة متدينة بالمعنى الشائع. ذات مرة سألت أمي لمَ لا تذهب إلى الكنيسة؟ هل لأنها غير مؤمنة؟

أجابتني بأنها مؤمنة، ولكنها لم تكن بحاجة لقس ليملي عليها كيف تؤمن. قالت إنها تحتاج لفتح عينيها وتفحص ما حولها لتؤمن. وقال أبي إنه تربى في عائلة متدينة، ولكنه كفّ عن ارتياد كنيسته واهتم بالسياسة أكثر من اهتمامه بعظات يوم الأحد.

قبل أسبوع من بدء المدرسة خطر لي مجدداً أن أصلّي.كانت الرغبة جامحة للغاية، وكأنها كانت واجباً. ركعت على ركبتي قرب سريري، وضممت يديّ، وأغمضت عينيّ، وصلّيت من أجل أن يتوقف أبي عن الشرب. قلت في صلاتي: «إذا تحققت أمنيتي سأسير على الصراط المستقيم طوال حياتي».

وتابعت: «وسأتمنى الموت إن لم أكن مخلصاً في إيماني، أرني يا ربي ما تريده، وأقسم إنني سأكون ممن يسيرون على الصراط المستقيم».

عدت إلى السرير ونمت قرير العين في تلك الليلة، على الأقل حتّى الصباح الباكر.

7

قبل أن يطرد أبي كان يعمل لصالح شركة تأمين أوفرلاند الوطني، وهي شركة كبيرة، لا بدّ من أنكم رأيتم إعلاناتها التي يظهر فيها الجملان الناطقان بيل وجيل، إنها إعلانات مضحكة. تعود أبي أن يقول: «تستخدم كل شركات التأمين إعلانات مضحكة لجذب العين، ولكن الضحك يتوقف حين يقدم المؤمن عليه شكوى، وهنا يأتي دوري، أنا خبير تسوية مطالبات وهذا يعني - لا أحد يقول هذا على الملأ - أنني أتكفل بتخفيض قيمة العقد أو القيمة المتفق عليها، وأحياناً أنجح في ذلك. ولكن دعني أبوح لك بسر: دائماً ما أكون بصف المدعي إلا عندما أجد أسباباً تردعني عن ذلك».

يقع مقر أوفرلاند في وسط غرب الولايات المتحدة الأميركية، في ضواحي شيكاغو، ضمن ما يُطلق عليه أبي بزقاق التأمينات، وفي خضم تطورات النقل هذه كان ذلك الزقاق على بعد خمس وأربعين دقيقة عن

سينتري، ويمكن أن يصل هذا الوقت إلى ساعة إذا كان الازدحام شديداً. كان هناك مئة خبير تسوية مطالبات على الأقل يعملون في ذلك المكتب الوحيد. وفي يوم من أيلول عام 2008 أتى أحد العملاء الذي تعود أن يعمل معهم ليرى أبي. كان اسمه ليندي فرانكلن واعتاد أبي أن يناديه ليندي، أتى في وقت متأخر من الظهيرة، وكنت أجلس إلى طاولة المطبخ وأحل واجباتي.

بدأ ذلك اليوم بشكل سيئ ولا ينسى، وما زالت رائحة الدخان تفوح في المنزل مع أنني رششت غليد. قرر أبي أن يعد الأومليت على الفطور، وحده الله يعرف لِمَ استيقظ في تمام الساعة السادسة صباحاً؟ ولِمَ قرر أنني أريد الأومليت. لكنه تجول في أنحاء المنزل ليدخل إلى الحمام أو يدير التلفاز ونسي ما على الفرن. لا جرم في أنني ما زلت متأثراً بما حدث ليلة البارحة حيث استيقظت على صافرة إنذار حساس الدخان، وركضت إلى المطبخ بسروالي الداخلي، ورأيت سحابة من الدخان. كان الشيء الذي في المقلاة أشبه ما يكون بالحطب المتفحم.

تخلصت منه في سلة القمامة، وتناولت آبل جاكس. كان أبي يرتدي مريول المطبخ وبدا مظهره سخيفاً وهو يرتديه. حاول أن يعتذر، فتمتمت شيئاً كي يتوقف عن الكلام. ما أتذكره عن تلك الأسابيع والأشهر هو محاولاته المستمرة للاعتذار وهذا ما قادني إلى الجنون.

لكنه كان يوماً جيداً بل أحد أفضل أيام تلك الفترة بسبب ما حصل في تلك الظهيرة. لعلكم كشفتم الأمر، ولكنني سأخبركم في جميع الأحوال، لأنني لم أتوقف يوماً عن حب أبي حتّى عندما لم أكن أتقبله. إن هذا القسم من القصة يسعدني للغاية.

كان ليندي فرانكلن يعمل لصالح أوفرلاند، كما كان يحاول الإقلاع عن الكحول. لم يكن أحد الخبراء القريبين من أبي، ولعلّ السبب في هذا هو أن ليندزي لم يتوقف يوماً عند حانة دافي بعد العمل مع الموظفين الآخرين،

ولكنه عرف لم خسر أبي عمله، وقرر أن يفعل شيئاً ليصلح الأمر أو يحاول فعل شيء على الأقل. في وقت لاحق، علمت أنه فعل ما يسمى زيارة الاثنتي عشرة خطوة، كان لديه مواعيد لادعاءات في بلدتنا، وعندما انتهى من تلك المواعيد قرر فجأة أن يعرج على بيتنا. في وقت لاحق قال إنه كان على وشك تغيير رأيه، لأنه لم يكن معه دعم (تعوّد المدمنون المتعافون أن يقوموا بزيارة الاثنتي عشرة خطوة برفقة شريك كالمرمون) ولكنه قال حينها إن لا داعي لذلك، وبحث عن عنواننا على هاتفه. لا أرغب في التفكير في ما كان سيحل بنا إن لم يزرنا، لأنني بالتأكيد ما كنت سأدخل إلى مستودع السيد بوديتش.

كان السيد فرانكلن يرتدي بذلة وربطة عنق، وكان لديه قصة شعر حادة. عرّفنا والدي - أشعث الشعر، رث الثياب وحافي القدمين – أحدنا إلى الآخر. صافحني السيد فرانكلن، وقال إنه مسرور برؤيتي وسألني إن كنت أمانع بالخروج كي يتحدث مع والدي على انفراد. خرجت بإرادتي، ولكن النوافذ كانت مفتوحة بعد كارثة الصباح، وسمعت معظم ما قاله السيد فرانكلن. أتذكر شيئين على وجه الخصوص؛ قال أبي إن مشكلته مع الشراب كانت ناجمة عن شوقه الشديد إلى جيني، وقال السيد فرانكلن: «إذا كانت الكحول ستعيدها إليك فسأوافقك على الأمر، ولكنها لن تعيدها. تخيّل ما ستشعر به إن استطاعت أن ترى حالك وحال ابنك الآن؟».

إن الشيء الآخر الذي قاله هو: «ألم تسأم وتتعب من كونك سقيماً ومتعباً طوال الوقت؟» عندها شرع أبي بالبكاء. لطالما كرهت بكاءه (ضعيف.. ضعيف) ولكنني اعتقدت أن هذه المرة كانت مختلفة.

8

عرفتم ما الذي سيؤول إليه الأمر، ولا بدّ من أنكم عرفتم بقية القصة أيضاً. أنا واثق من أنكم ستعرفون هذا الأمر إن كنتم في برنامج تأهيل أو إن

كنتم تعرفون شخصاً يحاول الإقلاع عن الكحول. تلك الليلة، أخذ ليندي فرانكلن أبي إلى منظمة مدمني الكحول، وحين عادا اتصل السيد فرانكلن بزوجته وقال إنه سيمكث لدى صديقه. نام على أريكتنا القابلة للسحب، وفي صباح اليوم التالي، اصطحب والدي إلى اجتماع في تمام الساعة السابعة صباحاً اسمه سوبير سانرايز أو شروق الشمس الواعي، أصبح ذلك الاجتماع عادة عند أبي، وحاز هناك ميدالية منظمة مدمني الكحول المجهولين في أول سنة من إقلاعه عن الكحول. تغيبت عن المدرسة كي أُقلده إياها، وكنت أنا من تلعثم في تلك المرة. لم يبدُ أن أحداً مانع تلعثمي لأن التلعثم شيء عادي في تلك الاجتماعات. عانقني والدي وليندي حينها، وكنت أناديه باسمه الأول لأنه كان يرافقنا كثيراً. كان راعي والدي في البرنامج.

كانت هذه هي المعجزة، أصبحت أعرف أشياء كثيرة عن منظمة مدمني الكحول المجهولين وأصبحت تلك المعجزة تحدث لكثير من الرجال والنساء في جميع أنحاء العالم في هذه الأيام، ولكنني لا أزال أراها معجزة في عيني. لم يتلقَّ أبي ميداليته الأولى بعد سنة تماماً من نداء الاثنتي عشرة خطوة الذي قام به ليندي، لأنه استسلم مرات عدة، ولكنه تفوّق على الأمر، وقال جماعة منظمة مدمني الكحول المجهولين ما يقولونه دوماً: عد دوماً إلى الطريق الصحيح. وفعل هذا. آخر خطأ له - كان عبارة عن زجاجة بيرة وحيدة من صندوق ألقاه في المجلى - كان قبل الهالوين عام 2009 مباشرة، وحين تكلم ليندي في الحفل السنوي لأبي قال إن البرنامج يعرض على كثير من الأشخاص ولكن لا يحصل عليه الجميع. قال إن أبي كان من المحظوظين. لعلّ هذا كان صحيحاً، ولعلّ صلاتي كانت صدفة ولكنني اخترت ألا أعتبرها صدفة. بإمكانك في منظمة مدمني الكحول المجهولين أن تؤمن بما تريد. كتب هذا في كتاب يدعوه المدمنون المقلعون بالكتاب الكبير.

وكان لدي وعد يجب أن أفي به.

لم أحضر سوى الاحتفالات السنوية الخاصة بأبي، ولكن كما قلت: كثيراً ما كان ليندي بيننا. حفظت معظم الشعارات التي تفوه بها أعضاء تلك المنظمة، وكنت أفضّل: لا تستطيع إعادة المخلل إلى خيار، والله لا يخلق القمامة.

ولكن المثل الذي رافقني -لغاية يومنا هذا- هو شيء سمعت ليندي يقوله لأبي في ليلة ما، عندما كان أبي يتحدث عن الفواتير غير المدفوعة، وعن خوفه من خسارة المنزل. قال ليندي إن تعافي أبي كان معجزة ثمّ أضاف: «ولكن المعجزات ليست سحراً».

بعد ستة أشهر من الاتزان والتعافي، عاود أبي التقدم لأوفرلاند. وبمساعدة ليندي فرانكلن وآخرين - بمن فيهم رئيسه القديم الذي سبق له أن أعطاه إنذاراً - استعاد عمله، ولكنه كان في وضع المراقبة وعرف الجميع هذا. أرغمه ذلك على أن يبذل جهداً مضاعفاً. بعدها، وفي خريف عام 2011 (أي بعد مرور سنتين على تعافيه) خاض نقاشاً مع ليندي دام طويلاً لدرجة أن ليندي بات على الأريكة مجدداً. قال أبي إنه يود أن يتابع بشكل مستقل، ولكنه لم يكن سيمضي في هذا دون مباركة ليندي، وبعد التأكد من أن أبي لن يشرع في شرب الكحول مجدداً إذا فشل عمله الجديد -أي تأكد ضمن المعطيات التي كانت بين يديه على أيّ حال حيث إن التعافي ليس علم ذرة- طلب منه ليندي أن يعطي الأمر فرصة.

أجلسني أبي وشرح ما كان يقصده: العمل دون شبكة: «ما رأيك إذاً؟»

قلت له: «أعتقد أن الوقت قد حان لتوديع الجملين الناطقين» فضحك حينها ثمّ قلت ما توجب عليّ قوله: «ولكنك ستفسد الأمر إذا عاودت الشرب».

بعد مرور أسبوعين على هذا، قدّم استقالته من أوفرلاند وفي خريف عام 2012 أرسى أعمدة عمله المستقل في مكتب صغير على الشارع الرئيسي: جورج ريد: مفتش وخبير تسوية مطالبات مستقل.

لم يمضِ ساعات طويلة في جحر الفئران ذاك حيث أمضى وقته في التجول على الرصيف. تحدث إلى رجال الشرطة والكفلاء والأوصياء (تعوّد أن يقول: «يفيدونني في العثور على دلائل») ولكنه تحدث إلى المحامين بشكل أساسي. عرفه معظمهم من عمله لصالح أوفرلاند، وعرفوا أنه انضم إلى الساحة؛ أعطوه أعمالاً؛ الأعمال الصعبة أي كحالات الشركات الكبيرة التي ستخفض المبلغ المترتب عليه بشكل جذري أو ستنكر الادعاء من أساسه، عمل لساعات طويلة، لقد عدت في معظم الليالي لأرى المنزل فارغاً كما كنت أحضر عشائي بمفردي، لم أمانع هذا الوضع، وحين عاد أبي إلى المنزل أخيراً عانقته لأتحقق إن كان تنفسه ملطخاً بآثار جين غيلبي، وبعد مضي فترة اكتفيت بمعانقته كما أنه نادراً ما كان يفوت اجتماعات شروق الشمس الواعي.

كان ليندي يأتي أحياناً لتناول الغداء في أيام الأحد، وتعوّد أن يحضر طلبات خارجية، وكنا نشاهد ثلاثتنا فريق بيرز على التلفاز أو وايت سوكس إذا كان هناك موسم لكرة القاعدة، ذات مرة قال أبي إن عمله يزدهر كل شهر: «كان سيزدهر بوتيرة أسرع إن وقفت في صف المدعين أكثر في حالات الانزلاق والوقوع، ولكن معظم تلك الحالات تفوح منها رائحة نتنة وخبيثة».

قال ليندي: «أعرف هذا تماماً، بإمكانك تحقيق أرباح على المدى القصير، ولكن في النهاية سيتمكن منك هذا العمل».

قبل أن أبدأ بالمرحلة الثانوية في ثانوية هيلفيو، قال أبي يجب علينا خوض نقاش مهم، حضّرت نفسي لمحاضرة عن الشرب قبل سن البلوغ أو

لنقاش بخصوص المتاعب التي تسببنا بها أنا وبيرتي بيرد خلال سنوات شربه وبعد فترة منها، ولكنه لم يكن يعني هاتين المسألتين، كان يريد التحدث معي بخصوص المدرسة، قالي لي إنه عليّ أن أبلي بلاء حسناً إذا أردت أن ألتحق بجامعة جيدة.

بلاء حسناً للغاية.

«سيستقر عملي، كان الأمر مخيفاً في البدء، ومر عليّ وقت اضطررت فيه أن أقترض من أخي، ولكنني أوشكت أن أسدد ما اقترضته كلّه وأعتقد أنني سأرسو على أرضية صلبة قريباً. يرن هاتفي كثيراً، ولكن حين يصل الأمر إلى الجامعة...» أشاح بوجهه وتابع: «لن أتمكن من مساعدتك كثيراً على الأقل في البداية. إننا محظوظون لأننا نقف على أقدامنا. وهذا خطئي أنا. أحاول بشتى السبل وبأقصى طاقتي أن أكفّر عن...».

«أعلم هذا».

«...ولكن عليك أن تساعد نفسك، عليك أن تعمل وترفع معدلك في امتحانات السات حين تتقدم له».

قررت أن أتقدم لامتحان السات في كانون الأول، ولكنني لم أقل له هذا، كان أبي يتعطش للكلام.

«عليك أن تفكر بالقروض، ولكن كحل أخير - ستطاردك تلك القروض لوقت طويل، فكّر في المنح ومارس الرياضة حيث إنها تفسح طريقاً للمنح، ولكن العلامات هي المفتاح؛ العلامات، ثمّ العلامات، ثمّ العلامات. لا أطلب منك أن تتصدر اللائحة، ولكن أريد منك أن تكون من ضمن العشرة الأوائل، أتفهمني؟».

قلت له: «أجل يا أبي» فربت ظهري.

درست بجد، وحصلت على علامات مشرفة. لعبت كرة القدم في الخريف، وكرة القاعدة في الربيع، ومثلت الجامعة في كلتا الرياضتين بصفتي طالباً. في العام الثاني، أراد مني المدرب هاركنس أن ألعب كرة السلة أيضاً، ولكنني رفضت هذا العرض. قلت له إنني أحتاج إلى ثلاثة أشهر إضافية في السنة لفعل أشياء أخرى. ذهب المدرب مطأطئاً رأسه على حال شباب هذا الجيل المتخلف.

شاركت في حفلات راقصة وقبّلت فتيات عدة. حظيت بأصدقاء جيدين، وكان معظمهم رياضيين ولكن ليس الكل. تعرفت إلى بعض فرق الميتل، واستمعت إليها بصوت عالٍ. لم يعترض والدي يوماً على هذا، ولكنه أهداني سماعتين لاسلكيتين في عيد الميلاد. كان هناك أشياء مروعة في مستقبلي - سأخبركم بها في نهاية المطاف - ولكن لم يحدث أي شيء فظيع من الأشياء التي تخيلتها في يقظتي. لا أزال في منزلنا ولا يزال مفتاحي يفتح الباب الأمامي، وكان هذا جيداً. إذا تخيلتم يوماً أن الأمور ستؤول بكم لقضاء شتاءات قارسة في سيارة أو في ملجأ للمشردين فستفهمون قصدي.

ولم أنسَ يوماً ما ذكرته في صلاتي.

قلت: إذا تحققت أمنيتي سأكون مؤمناً مخلصاً طوال حياتي، وأقسم إنني سأكون ممن يسيرون على الصراط المستقيم. لقد كانت دعوة طفل وتفكير متأثر بالسحر ولكن جزءاً مني (أو معظمي) لم يؤمن بهذا، أو لا يؤمن بهذا الآن. اعتقدت أن صلاتي قد استجيبت كأفلام لايفتايم الدرامية التي يعرضونها بين فترتي عيد الشكر وعيد الميلاد، وهذا يعني أنه توجب عليّ أن أتحمل مسؤولية جانبي من الصفقة. شعرت أنني لو تناسيت هذا الأمر، فسيسحب الله المعجزة، وسيشرع أبي بالشرب مجدداً. عليكم أن

تأخذوا بعين الاعتبار أن شباب الثانوية - على الرغم من حجم الفتيان وجمال الفتيات - لا يزالون أطفالاً في دواخلهم.

حاولت جاهداً، على الرغم من أيامي المزدحمة بالمدرسة وبالنشاطات التي أتت بعدها، وفعلت ما بوسعي كي أفي بما أقسمت عليه.

التحقت بنادي أدوبت-إي-هايوي الذي كان يعنى بتنظيف الشوارع السريعة من القمامة، لقد تولينا ميلين من الشارع الرئيسي 226 الذي كان مثل أرض يباب تعج بمتاجر الطعام السريع، والموتيلات، ومحطات الوقود. لا بدّ من أنني جمعت ما يعادل مليار علبة بيغ ماك وملياري زجاجة بيرة وعدة أزواج من السراويل الداخلية الملقاة. ارتديت مرة في الهالوين بذلة برتقالية وعملت لصالح اليونيسيف، وفي صيف عام 2012 جلست إلى طاولة تسجيل المقترعين في مركز المدينة، على الرغم من أنني كنت أصغر بسنة ونصف السنة من السن التي أحظى فيها بحقي الانتخابي. كما ساعدت في مكتب أبي في أيام الجمعة بعد التمرين في تعبئة الأوراق والإدخال إلى الحاسوب -أي الأعمال الروتينية المعتادة- وحين يحل الظلام كنا نتناول البيتزا من جيوفاني من العلبة مباشرة.

قال أبي إن كل هذه الأمور ستفيدني في ملف الجامعة، ووافقته من دون أن أخبره عن سبب قيامي بهذه الأمور. لم أرد أن أتخلف عن الوفاء بقسمي، ولكنني في بعض الأحيان كنت أسمع همسات من تأنيب الضمير: لست جيداً بالقدر الكافي يا تشارلي، أتعتقد أن جمع القمامة عن الطريق يعادل الحياة الجميلة التي تعيشها مع أبيك الآن؟

ها نحن نصل أخيراً إلى نيسان عام 2013، أي السنة التي بلغت فيها عامي السابع عشر والتقيت أيضاً السيد بوديتش.

تبدو أيام ثانوية هيلفيو وكأنها جرت في عهد قديم للغاية. في الشتاء ركبت الحافلة وجلست في الخلف مع صديقي من أيام الابتدائية آندي تشين؛ كان آندي رياضياً لعب كرة السلة لصالح هوفسترا، في ذلك الوقت لم أعد على صداقة مع بيرتي، وارتحت لهذا بشكل أو بآخر. هناك شيء اسمه صديق جيد وسيئ في الوقت ذاته، وفي الواقع كنا نضر أحدنا الآخر أنا وبيرتي.

في الخريف والربيع قدت دراجتي لأننا نعيش في بلدة هضبية، وكانت الدراجة تفيد في تنمية عضلات ساقيّ وأسفل ظهري، كما كانت تؤمن لي خلوة مع نفسي لأصفي ذهني، وأُفكّر، وهذا شيء كنت أفضله للغاية. كنت أمر في طريق العودة إلى المنزل من إتش.إتش.إس بشارع بلين إلى جادة غوف ثمّ شارع ويلو إلى باين، وكان شارع باين يتقاطع مع شارع سيكامور في أعلى التل الذي يؤدي إلى الجسر اللعين. وعلى زاوية باين وسيكامور كان يقع البيت المريب بحسب ما أطلقه عليه بيرتي بيرد حين كنا في سن العاشرة أو الحادية عشرة.

في الواقع، كان ذلك البيت هو بيت بوديتش حيث كان الاسم متلاشياً عن صندوق البريد، ولكنه لا يزال مقروءاً، إذا ركّزت نظرك. ولكن بيرتي كان لديه وجهة نظر. لقد رأينا جميعاً ذلك الفيلم (بالإضافة للأفلام الاعتيادية في سن الحادية عشرة كطارد الأرواح والشيء) وكان يشبه البيت الذي عاش فيه نورمان بيتس مع أمه المحنطة، لم يشبه أياً من المنازل الأنيقة ذات طراز الدوبلكس والمزارع على شارع سيكامور وفي باقي حينا. كان البيت المريب متداعياً وذا طراز فيكتوري، ولعل لونه كان أبيض في السابق، ولكنه تحول الآن إلى لونٍ رمادي أسميه لون قطط الحظائر. كان هناك سياج خشبي يحيط بالعقار، ولكنه كان منحنياً في بعض الأماكن ومتهاوياً في أماكن أخرى. حجبت بوابة صدئة يصل ارتفاعها إلى الخصر المنطقة المرصوفة المتداعية من الممشى. كان معظم العشب برياً وجامحاً، وبدت الشرفة

على وشك أن تنفصل عن المنزل الذي ألصقت به، وكانت الستائر مسدلة بالكامل. قال آندي تشين إنه لا داعي لإسدالها لأن النوافذ كانت متسخة جداً لدرجة أنه لا يمكننا النظر منها على أيّ حال. وانبثقت من بين العشب لافتة كتب عليها: لا يسمح بتجاوز الملكية، وكان هناك لافتة أكبر منها على البوابة كتب عليها: احذروا الكلب.

كان لدى آندي قصة عن ذلك الكلب، وأنه كان كلب شيبرد ألمانياً يدعى رادار، كذلك الشاب في مسلسل ماش الكوميدي. سمعناها جميعاً (ولم نكن نعرف أن رادار ذاك كان كلبة وليس كلباً) ولمحناها في بعض الأوقات، ولكن آندي تشين هو الوحيد الذي رأى الكلب عن قرب. قال إنه أوقف دراجته في أحد الأيام لأن صندوق بريد السيد بوديتش كان مفتوحاً ومليئاً بالرسائل غير المهمة التي وقع بعضها على الرصيف وكانت تتطاير في الهواء.

قال آندي: «أمسكت بالقمامة، وجمعتها مع الأشياء الأخرى. كنت أحاول أن أسدي له معروفاً يا إلهي! ثمّ سمعت زمجرة ونباحاً يشبه يابا-يابا-رو-رو وعندما نظرت إلى الأعلى رأيت ذلك الكلب الوحشي ولا شك في أن وزنه كان مئة وعشرين رطلاً على الأقل، وكانت أسنانه تلمع ولعابه يسيل والشرر يتطاير من عينيه».

قال بيرتي: «بالطبع، الكلب الوحشي ككوجو في ذلك الفيلم، أليس هذا صحي-حاً؟».

قال آندي: «أجل! أقسم بالله، إن لم يخرج الرجل المسن لينا ديه كان سيعبر تلك البوابة القديمة للغاية والتي تحتاج إلى رعاية».

قلت له: «صيانة».

«لا يهم يا صديقي، ولكن ذلك الرجل المسن خرج إلى الشرفة وصرخ: رادار، إلى الأسفل. فانبطح الكلب على معدته في الحال، ولكنه لم

يكف عن التحديق إليّ ولم يتوقف عن الزمجرة. ثم سألني الرجل: ماذا تفعل هنا يا فتى؟ هل تحاول سرقة بريدي؟ فأجبته: كلا يا سيدي، كانت الرسائل تتطاير، وكنت أحاول أن أمسك بها، إن بريدك ممتلئ للغاية يا سيدي. ردّ عليّ: سأتكفل أنا ببريدي، اغرب من هنا. وهذا ما فعلته»، أشاح آندي بوجهه وقال: «كان ذلك الكلب سينهش عنقي، أنا متأكد من ذلك».

كنت واثقاً من أن آندي كان يبالغ في الوصف كعادته، ولكنني تلك الليلة، سألت أبي عن السيد بوديتش، فأخبرني أنه لا يعرف الكثير عنه. قال إنه رجل عازب يعيش في خرابة قبل أن يقيم أبي في شارع سيكامور، أي منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً.

قال أبي: «لم يكن صديقك آندي الولد الوحيد الذي صرخ عليه. يشتهر بوديتش بمزاجه المضطرب وكلبه الشيبرد الألماني المزمجر. ويتمنى مجلس البلدية أن يموت كي يهدموا هذا المنزل، ولكنه يبدو عصياً على الموت. أتكلم معه حين أراه - وهذا أمر نادر - ويبدو لي مسالماً إلى حدّ ما. إن لدى بعض الرجال المسنين حساسية تجاه الأولاد، أنصحك أن تبتعد عن طريقه يا تشارلي».

لم أواجه مشكلة في تنفيذ هذه النصيحة إلى أن جاء ذلك اليوم في نيسان عام 2013 وسأخبركم عنه الآن.

12

وقفت عند ناصية شارعي باين وسيكامور، في طريقي إلى المنزل، بعد تمرين كرة القاعدة لأريح يديّ من مقبض الدراجة وأهزهما قليلاً، ما زالتا محمرتين قليلاً بسبب التمارين، فقد كان الملعب موحلاً وغير صالح للعب. جعلني المدرب هاركنس - الذي درّب كرة القاعدة بالإضافة لكرة السلة - ألتقط الرميات بينما تمرن عدد من الفتيان الذين يحاولون التقدم لتولي مهمة الرامي على الرميات المتتالية، وكانت رميات بعضهم قوية للغاية. لن

أقول إن المدرب كان ينتقم مني لأنني رفضت أن ألعب كرة السلة - حيث كانت نتيجة فريق القنافذ 5-20 في الموسم السابق - ولكنني في المقابل لن أنفي الأمر تماماً.

كان منزل السيد بوديتش الفيكتوري المتداعي يقع إلى يميني، وبدا من هذه الزاوية أشبه بالبيت المريب أكثر من أي وقت آخر. كنت أضع يدي حول مقبض الدراجة الأيسر وأستعد للانطلاق مجدداً حين سمعت كلباً ينبح. أتى الصوت من خلف المنزل، ففكرت في الكلب الوحشي الذي وصفه آندي ذي الأسنان الكبيرة والعينين الحمراوين والفك المخيف ولكن نباحه هذه المرة لم يشبه يابا-يابا-رو-رو ولم يدل على كلب هجومي، بدا لي ذلك النباح حزيناً وخائفاً وحتى وحيداً، في تلك اللحظة. فكّرت وتساءلت إن كان بسبب ندمه على مهاجمة آندي، ولكنني استبعدت الأمر لأن ذلك النباح تكرر مجدداً، وتكرر لمرة ثالثة، ولكنه كان منخفضاً ومستسلماً وكأن الحيوان يفكر: ما الفائدة.

ثم نبح بشكل أخفض من تلك المرة: «النجدة».

ما لم أسمع ذلك النباح، كنت سأنطلق إلى التل لأصل إلى منزلي وأشرب كأس حليب وأتناول بسكويت بيبريدج فارم ميلانو بهدوء وسكينة. ولكن هذا كان سيضر السيد بوديتش. كان الظلام على وشك أن يحل والظلال الطويلة ترتسم على السطوح، وكان نيسان ذلك العام بارداً للغاية. كان السيد بوديتش سيتمدد هناك طوال الليل البارد.

حصلت على شرف إنقاذه - أي نجمة ذهبية أخرى لملفي الجامعي – ولكنني لم أكن أنا من أنقذه. كانت رادار هي من أنقذه بفعل نباحها المستنجد.

الفصل الثاني

السيد بوديتش - رادار- أمسية في البيت المريب

انعطفت بدراجتي عند الزاوية، وتوجهت إلى البوابة عند شارع سيكامور وأسندتها إلى السياج الخشبي المتداعي، ولكن البوابة -القصيرة التي تصل إلى مستوى الخصر- لم تفتح. نظرت من فوقها، ورأيت ترباساً صدئاً مثل البوابة التي كان عليها.

حاولت فتحه، ولكنه كان عصياً على الفتح. نبح الكلب مجدداً، فأنزلت حقيبتي المليئة بالكتب عن ظهري، واستخدمتها مثل درجة، تسلقت البوابة، ولامست ركبتي لافتة احذر الكلب وكنت سأضم لها ركبتي الأخرى حين علقت فردة حذائي في الأعلى. تساءلت إن كان في مقدوري أن ألقي بها على الرصيف، وأثب فوق البوابة إذا قرر الكلب أن يهجم عليّ كما فعل مع آندي. تذكرت قولاً معناه أن الخوف يعطي لصاحبه أجنحة، وتمنيت ألا أضطر إلى أن أتحقق من صحة هذا الأمر. كان اختصاصي كرة القدم والقاعدة وتركت الوثب الطويل لأصحابه.

ركضت إلى الخلف، وكانت الأعشاب الطويلة تحف ببنطالي، لا أعتقد أنني رأيت المستودع حينها، لأنني كنت أبحث عن الكلب، الذي كان على الشرفة الخلفية. قال آندي تشين إنه يزن مئة وعشرين رطلاً، ولعل هذا صحيح حين كنا صغيرين، ولكن الكلب الذي كنت أنظر إليه وقتها لم يتجاوز وزنه ستين رطلاً أو سبعين. كان نحيلاً، ووبره خفيف، وذيله محني ومنطقة أنفه وفمه بيضاء تقريباً. رآني وتجاوز الدرجات المتهالكة، وكاد أن يسقط وهو يحاول تجاوز الرجل الممدد، اتجه نحوي، ولم يبدُ لي مهاجماً فقد كان يعرج ويركض بتباطؤ.

قلت: «رادار، إلى الأسفل»، لم أتوقع أن يطيعني، ولكنه انبطح على بطنه بين الأعشاب وبدأ بالنحيب. تجاوزته في طريقي إلى الشرفة الخلفية.

كان السيد بوديتش على جانبه الأيسر، وكان هناك انتفاخ أسفل بنطاله الكاكي فوق ركبته اليمنى. لا يفترض بالمرء أن يكون طبيباً ليعرف أن رجله كانت مكسورة، واستناداً إلى ذلك الانتفاخ لا بدّ من أن الكسر كان كبيراً، لم أستطع أن أحدد عمر السيد بوديتش ولكنه كان عجوزاً؛ كان شعره أشيب تقريباً، ولكن لا شك في أنه كان أصهب في شبابه حيث تخللت الشعر الأشيب بعض الخُصلات الحمراء؛ لقد جعلت شعره يبدو وكأنه صدئ، كانت التجاعيد على وجنتيه وحول فمه عميقة للغاية، وكانت أشبه بالصدوع، ومع أن الجو كان بارداً إلا أن العرق كان يغطي جبهته.

قال: «أحتاج إلى بعض المساعدة، وقعت عن السلم اللعين»، حاول أن يشير إليه ولكن هذا استوجب أن يتحرك قليلاً فتأوه.

سألته: «هل اتصلت بالطوارئ؟».

نظر إليّ وكأنني غبي: «الهاتف في المنزل يا فتى وأنا ممدد هنا».

لم أفهم هذا إلا لاحقاً، لم يكن لدى السيد بوديتش هاتف محمول؛ لم يرَ ضرورة في اقتناء واحد ولم يعرف ماهيته.

حاول أن يتحرك مجدداً، ولكنه كز على أسنانه، «يا إلهي، هذا مؤلم جداً».

قلت له: «لا تتحرك».

اتصلت برقم الطوارئ، وطلبت منهم أن يرسلوا سيارة إسعاف عند تقاطع باين وسيكامور لأن السيد بوديتش سقط وكسر ساقه، قلت لهم إن الكسر بدا كبيراً حيث استطعت رؤية العظمة الناتئة من الساق أسفل البنطال، كما بدت ركبته منتفخة هي الأخرى. سألتني السيدة التي ردت على الهاتف عن رقم المنزل لذا سألت السيد بوديتش.

حدق إليّ وكأنه يقول: هل ولدت غبياً؟ ثمّ قال: «رقمه 1».

قلت هذا للسيدة، فأجابت بأنها سترسل سيارة إسعاف حالاً. قالت إن عليّ أن أظل معه وأحرص على أن يبقى دافئاً.

قلت له: «إنه يتعرق».

«إذا كان الكسر بالسوء الذي وصفته، فلا بدّ من أن التعرق بسبب الصدمة».

«نعم، حسناً».

عرج رادار مجدداً، وكانت أذناه مسطحتين وكان يزمجر.

قال بوديتش: «كفي عن هذا يا فتاتي، انبطحي».

نزلت رادار -والتي تبين أنها أنثى وليست ذكراً- على معدتها عند أسفل الدرج، ورسمت على وجهها معالم الارتياح، وبدأت تلهث.

خلعت سترتي الرياضية، وغطيت بها السيد بوديتش.

«ماذا تفعل بحق الجحيم؟».

«يُفترض بي أن أبقيك دافئاً».

«أنا دافئ بالفعل».

ولكنني لاحظت أنه لم يكن كذلك لأنه بدأ يرتعش. أخفض ذقنه ليرى سترتي.

«أنت طالب في الثانوية، أليس كذلك؟».

«أجل يا سيدي».

«لا بدّ من أنك في هيلفيو بسبب اللونين الأحمر والذهبي».

«أجل».

«هل تمارس الرياضة؟».

«كرة القدم وكرة القاعدة».

«القنافذ، يا...» حاول أن يتحرك ولكنه صرخ، تحفزت رادار، ونظرت إليه بخوف: «يا له من اسم سخيف».

لم أستطع أن أخالفه الرأي: «من الأفضل لك ألا تتحرك يا سيد بوديتش».

«إن الدرجات تؤلمني، كان عليّ أن أظل على الأرض، ولكنني اعتقدت أنني أستطيع الوصول إلى الشرفة ثمّ إلى الداخل، كان عليّ أن أحاول. سيصبح الطقس بارداً في غضون وقت قصير». اعتقدت أن البرد كان قارساً بالفعل: «أنا مسرور لأنك أتيت، لا شك في أنك سمعت نباح فتاتي العجوز».

قلت له: «سمعتها أولاً ثمّ سمعتك»، نظرت إلى الشرفة، وتمكنت من رؤية الباب، ولكنني لم أعتقد أن بوسعه أن يفتحه من دون أن يستند إلى ركبته السليمة، وأشك في قدرته على فعل هذا.

تبع السيد بوديتش نظري وقال: «باب الكلبة، اعتقدت أنني أستطيع الزحف من خلاله»، تأوه قليلاً ثمّ قال: «لا أعتقد أن معك أيّ مسكنات أليس كذلك؟ أسبرين أو شيء أقوى منه ما دمت تمارس الرياضة؟».

أشحت بوجهي، ثمّ سمعت صوت صفارة الإسعاف وهي تأتي من بعيد: «ماذا عنك؟ هل لديك بعض المسكنات؟».

تردد قليلاً ثمّ أومأ برأسه: «في الداخل، تقدم إلى نهاية الرواق، ستجد حماماً قرب المطبخ، أعتقد أن هناك علبة أمبرين في خزانة الدواء، لا تلمس أي شيء آخر».

«بالطبع»، قدرت أنه كان متقدماً في السن ومتألماً، ولكنني انزعجت من ذلك التلميح.

مد يده وأمسك بسترتي: «لا تتلصص».

ابتعدت عنه وقلت: «قلت لك إنني لن أفعل شيئاً».

صعدت الدرج، عندها قال السيد بوديتش: «رادار! رافقيه!»

عرجت رادار على الدرج وانتظرتني لأفتح الباب بدلاً من استخدام باب الكلب في اللوح السفلي، تبعتني إلى آخر الرواق الذي كان نوره خافتاً كما كان رائعاً للغاية، صفت على جانب منه مجلات قديمة، عرفت بعضاً منها مثل لايف ونيوزويك ولكن كانت هناك مجلات أخرى -كولييرز ديغ وكونفيدينشل وأول مان- لم يسبق لي أن سمعت بها، كان الجانب الآخر مليئاً بالكتب وكان معظمها قديم وتفوح منها رائحة الكتب القديمة المعتادة. لعل كُثُراً لا يفضلونها، ولكنني أحبها للغاية، كانت عتيقة وعفنة، ولكنني أحب هذا النوع من العفن.

كان المطبخ مليئاً بالمعدات القديمة؛ الموقد من نوع هوتبوينت، والمجلى بورسلان وعليه بعض الصدأ بسبب المياه العسرة، أما مسكات الصنابير فكانت مدببة وفق الطراز القديم، أما الأرضية فكانت من المشمع القديم لدرجة أنني لم أستطع تمييز النقش، وكان المطبخ في غاية الترتيب. كان هناك صحن وكوب وطقم واحد من معدات المائدة الفضية- سكين وشوكة وملعقة - في جرن المجلى. لقد أحزنني هذا، كان هناك صحن نظيف على الأرض كتب عليه رادار وأحزنني هذا أيضاً.

دخلت الحمام الذي لم يكن أكبر من الخزانة- لم يكن هناك سوى مرحاض وكان غطاؤه مفتوحاً كما كان هناك المزيد من الحلقات الصدئة حول الجرن بالإضافة لمغسلة تعلوها مرآة، فتحت المرآة، ووجدت حزمة من الأدوية القديمة التي بدت وكأنها تعود لفترة الطوفان أيام نوح، كتب على

زجاجة على الرف الأوسط اسم أمبرين، وحين أمسكتها رأيت وراءها كبسولة صغيرة، اعتقدت أنها كانت بي.بي.

انتظرت رادار في المطبخ، لأنه لم يكن هناك متسع لكلينا في الحمام، تناولت الكوب من جرن المجلى، وملأته من صنبور المطبخ، ثمّ عبرت الرواق المخطوطات القديمة، ولحقت رادار بي، بدت صافرة سيارة الإسعاف قريبة وقوية، وكان السيد بوديتش يسند رأسه إلى ذراعه.

سألته: «هل أنت على ما يرام؟».

رفع رأسه لأرى وجهه المتعرق وعينيه الذابلتين: «هل أبدو على ما يرام؟».

«ليس تماماً، ولكنني أظن أنه لا يجدر بك تناول هذا الدواء لأن تاريخ انتهاء الصلاحية هو آب عام 2004».

«أعطني ثلاث حبات».

«يا إلهي سيد بوديتش، أعتقد أن عليك انتظار سيارة الإسعاف، سيعطونك...».

«أعطني الحبات وحسب! ما لا يقتلني سيزيدني قوة، لا أعتقد أنك تعرف صاحب هذا القول أليس كذلك؟ لا يعلمونكم شيئاً في هذه الأيام».

قلت له: «نيتشه في أفول الأصنام، لديّ مقرر تاريخ العالم في هذا الفصل».

«بوركت»، بحث في جيب بنطاله وتأوه إثر ذلك، ولكنه لم يتوقف إلى أن عثر على حلقة مفاتيح. «اقفل الباب يا فتى، إن مفتاح الباب هو الفضي ذو الرأس المربع. الباب الأمامي موصد بالفعل، وحالما تنتهي أعدها إليّ».

تناولت المفتاح الفضي من حلقة المفاتيح، ثمّ أعدتها له. تأوه قليلاً حين وضعها في جيبه. كانت صافرة الإسعاف قريبة الآن، فتمنيت أن يحالفهم الحظ في فتح البوابة الصدئة وألا يعانوا مثلي، وإلا سيضطرون إلى اقتلاع البوابة من مفصلاتها، كنت على وشك النهوض حين نظرت إلى الكلبة، كان رأسها على الأرض بين كفيها، لم تزح عينيها عن السيد بوديتش.

«ماذا عن رادار؟».

نظر إليّ نظرته المعهودة وقال: «تستطيع الدخول عبر باب الكلب والخروج منه حين تريد التغوط».

قلت لنفسي: يمكن لطفل أو بالغ ذي حجم صغير أن يدخل منه أيضاً ويسرق بعض الأشياء: «حسناً، ولكن من سيطعمها؟».

لست بحاجة لأقول لكم أن انطباعي الأول عن السيد بوديتش لم يكن جيداً. وجدته رجلاً متذمراً عكر المزاج، ولا عجب في أنه كان يعيش بمفرده. إن كان متزوجاً فلا شك أن زوجته كانت ستقتله أو تهجره. ولكن حين نظر إلى كلبة الشيبرد الألمانية العجوز رأيت شيئاً آخر: الحب والأسى. هل تعرفون ذلك المثل الذي مفاده: القشة التي قصمت ظهر البعير؟ أشار وجه السيد بوديتش إلى أنه قد وصل إلى تلك المرحلة من التعب، لا بدّ من أنه كان متألماً للغاية، ولكن كل ما استطاع أن يفكر فيه هو كلبته.

«اللعنة، اللعنة، اللعنة، اللعنة. لا أستطيع أن أتركها. عليّ أن آخذها معي إلى المستشفى اللعين».

وصلت سيارة الإسعاف، وأوقفت عمل الصافرة، ثمّ سمعت صوت الأبواب وهي تغلق.

قلت له: «لن يسمحوا لك، لا بدّ من أنك تعرف هذا».

زم شفتيه وقال: «حسناً، لا أريد الذهاب إلى المستشفى».

قلت لنفسي: ستذهب بالتأكيد. ثمّ فكّرت في شيء آخر.

صرخ أحد ما: «مرحباً؟ وصل فريق المسعفين، هل هناك أحد يستطيع فتح البوابة؟».

قلت له: «دعني أحتفظ بالمفتاح، سأطعمها. قل لي القدر الذي يجب أن أطعمها إياه و...».

«مرحباً؟ فليجبنا أحد وإلا سنقتحم المكان».

«...والفاصل الزمني بين الوجبات».

كان يتعرق بشدة الآن، واتسعت الهالتان السوداوان تحت عينيه لدرجة أنهما بدتا كالكدمات: «أدخلهم قبل أن يكسروا البوابة اللعينة». أطلق تنهيدة كبيرة ومتعبة ثمّ قال: «يا لهذه الفوضى اللعينة!»

2

كان الرجل والمرأة اللذان وقفا على الرصيف يرتديان معطفين عليهما خدمة إسعاف مستشفى مقاطعة أركاديا؛ كانا يمسكان بنقالة وعليها معدات طبية، لقد أزاحا حقيبتي، وكان الرجل يبذل جهداً كبيراً لفتح البوابة، ولم يحالفه الحظ أكثر مني.

قلت لهما: «إنه في الخلف، سمعته وهو يطلب النجدة».

«ممتاز، ولكنني لا أستطيع فتح هذا الشيء، أمسك الترباس يا فتى لعل الحظ يحالفنا». أمسكت بالترباس وسحبنا، فتهاوى الترباس وجرح إبهامي. في حمأة الأزمة لم ألاحظ هذا، ولكن بحلول الليل كان ظفري قد تلون بالأسود.

اتجها إلى المنزل، وكانت النقالة تشق طريقها بين الأعشاب الطويلة كما كانت المعدات تهتز وتقفز. عرجت رادار إلى الزاوية وهي تزمجر

وتحاول أن تبدو قوية. كانت تحاول بأقصى طاقاتها، ولكنني لاحظت أن قواها قد خارت.

قلت لها: «رادار، انبطحي». فجلست على معدتها ممتنة، تجاوزها المسعفان في طريقهما إلى الخلف.

وجدا السيد بوديتش ممدداً على درجات الشرفة، وانشغلا بتحميل معداتهما. طمأنته المرأة ببعض التعليقات من قبيل إن الكسر لم يكن بهذا السوء، وإنهما سيعطيانه شيئاً ليرتاح.

قلت لها: «لقد أخذ دواء بالفعل» وانتشلت علبة الأمبرين من جيبي. أمسك بها الرجل ونظر إليها ثمّ قال: «يا إلهي، إنها قديمة وأيّ مفعول لها قد زال بالفعل. سيسي، ديميرول، عيار عشرين سيكون كافياً».

عادت رادار، وزمجرت قرب سيسي ثمّ توجهت إلى سيدها نائحة، ربت بوديتش رأسها، ثمّ أبعد يده، فجلست قربه على الدرج.

قلت له: «لقد أنقذت هذه الكلبة حياتك يا سيدي، ولكن لا يمكن لها مرافقتك إلى المستشفى، لذا لا يفترض بها أن تعاني من الجوع».

كنت أمسك بمفتاح الباب الخلفي الفضي، نظر إليه في الوقت الذي أعطته سيسي حقنة لم يشعر بها، تنهد مجدداً وقال: «حسناً، وهل لديّ خيار آخر؟ إن طعامها في دلو ضمن حجرة المؤن خلف الباب، يجب أن تتناول كوباً من الطعام في تمام الساعة السادسة مساء وآخر في تمام الساعة السادسة صباحاً، إذا أجبروني على البقاء هذه الليلة»، نظر إلى المسعف وقال: «هل سيبقونني في المستشفى؟».

«لا أعرف يا سيدي، هذه الأمور ليست من صلاحياتي».

كان يفك جهاز قياس ضغط الدم. رمقتني سيسي بنظرة تدل على أنه سيمكث ليلة على الأقل في المستشفى.

«كوب في تمام الساعة السادسة مساء وكوب في السادسة صباحاً، لقد فهمت الأمر».

«لا أدري ما الكمية الباقية في الدلو»، وبدأت عيناه تلمعان. «إذا احتجت إلى مزيد اذهب إلى بيت بانتري. إنها تفضل أوريجين ريجنل ريد. لا تطعمها لحماً أو نقرشات. لا شك في أن الطفل الذي يعرف نيتشه سيتذكر هذه المعلومات».

«سأتذكرها».

كان المسعف يقرأ جهاز قياس ضغط الدم ولم يعجب بما قرأه. «سنضعك على النقالة يا سيدي. أنا كريغ وهذه سيسي».

قلت له: «أنا تشارلي ريد وهذا هو السيد بوديتش، لا أدري اسمه الأول».

قال السيد بوديتش: «هاورد»، همّا برفعه ولكنه قال لهما أن ينتظرا قليلاً، أمسك بوجه رادار ونظر إلى عينيها: «كوني فتاة جيدة وسأراك قريباً».

ناحت قليلاً ولعقته، انهمرت دمعة من عينه، ربما بسبب الألم، ولكن لا أظن ذلك.

قال: «هناك مال في علبة الطحين في المطبخ» ثمّ غابت تعابير الحزن عن عينيه وزم فمه وقال: «انس هذا، لقد نسيت أن علبة الطحين خالية، إذا...».

قالت سيسي: «سيدي، علينا أن نضعك على...».

نظر إليها، وطلب منها أن تصمت قليلاً، ثمّ نظر إليّ مجدداً وقال: «إذا احتجت إلى شراء كيس آخر من الطعام ادفع ثمنه، وسأعيد لك ما دفعته، هل تفهمني؟».

«أجل»، لقد فهمت شيئاً آخر: مع أن المسكن كان يؤثر فيه، ولكن السيد بوديتش أيقن أنه لن يعود إلى المنزل في هذه الليلة أو في الليلة الآتية.

«حسناً، اعتنِ بها لأنها كل ما لديّ»، ربت رأس رادار للمرة الأخيرة، وحك لها أذنها، ثمّ أومأ برأسه للمسعفين، صرخ صرخة قوية من بين أسنانه حين رفعاه ونبحت رادار.

«يا فتى».

«أجل؟».

«لا تتلصص».

لم أطمأنه بإجابة. حمل كريغ وسيسي النقالة بحذر شديد كي لا يهزاه كثيراً. ذهبت لألقي نظرة على السلم الممدود بين العشب، ثمّ نظرت إلى السطح، اعتقدت أنه كان ينظف المزاريب أو يحاول تنظيفها.

عدت إلى الدرج، وجلست عليه. تصاعد صوت صافرة الإسعاف مجدداً أمام المنزل وكان صوتها عالياً في البداية ثمّ تلاشى حين اتجهت السيارة إلى التل ثمّ إلى الجسر اللعين. نظرت رادار باتجاه الصوت، وتنبهت أذناها. حاولت أن أربت رأسها وكررت محاولتي حين لم تعضني أو تزمجر عليّ.

قلت لها: «لم يبقَ سوانا يا فتاة».

وضعت رادار فمها على حذائي.

قلت لها: «لم يشكرني، يا له من متعجرف».

في الحقيقة لم أكن غاضباً لأنني لم أهتم للأمر، ولم أكن أحتاج للشكر لأنني كنت أسدد ديناً.

اتصلت بأبي، وأخبرته بما جرى بينما كنت أتجول حول المنزل، وتمنيت ألا يكون أحد قد سرق حقيبتي، اكتشفت أنها لا تزال موجودة وأن أحد المسعفين ألقى بها فوق البوابة. سألني أبي إذا كان بوسعه مساعدتي، قلت له: لا، وأنني سأمكث في مكاني، وأدرس قليلاً إلى أن يحين وقت إطعام رادار في تمام الساعة السادسة، وسأعود بعدها إلى المنزل. قال إنه سيشتري بعض الطعام الصيني، وسيراني حين أصل إلى هناك. قلت له إنني أحبه، وقال لي إنه يحبني أيضاً.

تناولت مفتاح الدراجة من حقيبتي، وفكّرت في أن أحمل دراجة شوين، وأضعها في الجهة الداخلية من المنزل، ثمّ تخليت عن الفكرة، وربطتها بالبوابة. تراجعت خطوة، وكدت أن أتعثر برادار، صرختْ وسارعتْ بالركض.

«أنا آسف يا فتاتي، آسف»، جثوت على الأرض، ومددت يدي، فتقدمت بعد ثانية أو ثانيتين وشمتها ولعقتها. إنها لا تمت لكوجو الرهيب بصلة.

عدت إلى الداخل، فلحقت بي، وعندها لاحظت البناء الخارجي، واعتقدت أنه مستودع معدات، لأنه لم يكن يتسع لسيارة. فكّرت أن أُدخل السلم إليه، ولكنني عدلت عن الفكرة لأن السماء بدت صافية، واكتشفت لاحقاً أنني كنت سأحمله أربعين ياردة تقريباً من دون جدوى، حيث كان هناك قفل كبير على الباب، وكانت المفاتيح مع السيد بوديتش.

دخلنا المنزل، وعثرت على قابس ضوء تقليدي، ثمّ عبرنا ممشى المخطوطات القديمة في طريقنا إلى المطبخ،.أنير المطبخ بواسطة مصباح زجاجي علوي، يشبه ديكورات الأفلام القديمة التي يحبها أبي، وتعرضها قناة تورنر كلاسيك موفيز. كانت طاولة المطبخ مفروشة بغطاء مرقط باهت

ولكنه نظيف. رأيت أن كل شيء في المطبخ يشبه ديكورات الأفلام القديمة، وتخيّلت السيد تشيبس وهو يدخل إلى هنا واضعاً مشلحه على رقبته، ومعتبراً قلنسوته، أو باربارا ستانويك تدخل وتقول لديك باويل إنه وصل في الوقت المناسب للشرب. جلستُ إلى الطاولة، وانبطحت رادار تحتها، ونخرت بطريقة أنثوية. قلت لها إنها فتاة جيدة، فهزّت ذيلها.

«لا تقلقي، سيعود قريباً»، وقلت لنفسي: ربما.

وضعت كتبي على الطاولة، وأجبت على بعض مسائل الرياضيات، ثمّ وضعت سماعتي، وراجعت درس الفرنسية ليوم الغد وهو عبارة عن أغنية بوب تدعى «غيان كون فوا» والتي تعني شيئاً يشبه «لمرة فقط». لم تكن هذه الأغنية نوعي المفضل، فأنا أُفضّل الروك الكلاسيكي، ولكن هذه الأغنية كانت من النوع الذي نحبه أكثر في كل مرة نسمعه فيها، إلى أن تحدث حال من التكرار فنكرهه حالاً. شغّلتها ثلاث مرات، ثمّ غنيت معها كما سيطلب منا في الحصة:

«جو سوي سور كو تو ييه سيل كو جي توجوغ أتوندو...».

بعد انتهاء مقطع واحد، نظرت تحت الطاولة، فرأيت رادار تنظر إلّي بتعبير يشبه الشفقة إلى حدّ غريب كما كانت أذناها مرخيتان على وجهها، ضحكت قليلاً ثمّ قلت: «يجدر بي ألا أترك واجبني المدرسي، أليس كذلك؟»

هزت ذيلها.

«لا تلوميني إنه فرض، هل تريدين أن تسمعيه مرة أخرى؟ لا؟ ولا أنا».

نظرتُ إلى العلب المتماثلة التي وضعت بجانب بعضها على المجلى قرب الفرن وكتب عليها: سكر – وطحين - وقهوة - وبسكويت. كنت جائعاً، عندما أكون في المنزل، أفتح البراد في العادة، وأتناول نصف ما فيه، ولكنني لم أكن في المنزل، وما كنت سأعود إلى هناك قبل ساعة - تحققت

من ساعتي- قررت أن أفتش في علبة البسكويت، وأنا واثق من أن هذا لا يعتبر تلصصاً، كانت العلبة مليئة ببسكويت الزبدة وحلوى الخطمي المغطاة بالشوكولاتة. فكرت في أنني ما دمت أجالس الكلب، فإن السيد بوديتش لم يكن سيفتقد قطعة أو اثنتين أو حتى أربعاً. أرغمت نفسي على أن أكف عن تناول الحلوى، ولكنني وجدت صعوبة في ذلك، كان بسكويت الزبدة لذيذاً.

نظرت إلى علبة الطحين، وتذكرت كلام السيد بوديتش أنها تحتوي على بعض المال قبل أن تتغير نظرة عينيه وتتحول إلى نظرة محتدة، انس هذا، لقد نسيت أن علبة الطحين خالية. كدت أن ألقي نظرة، وكنت في مرحلة أسمح لنفسي فيها أن ألقي نظرة، ولكن تلك الأيام قد ولت. عاودت الجلوس، وفتحت كتاب تاريخ العالم.

قرأت بعض المواضيع الصعبة كمعاهدة فيرساي والتعويضات الألمانية، وعندما نظرت إلى ساعتي مجدداً (كان هناك ساعة فوق المجلى، ولكنها معطلة) أشارت إلى السادسة إلا الربع، فأدركت أن وقت إطعام رادار قد حان.

استنتجت أن الباب قرب البراد هو باب غرفة المؤن، وكان استنتاجي صحيحاً، فقد فاحت منها رائحة زكية. سحبت السلك المتدلي لأنيرها، ونسيت لوهلة أمر إطعام رادار. احتوت الغرفة الصغيرة المؤن المعلبة والجافة من أرضها إلى سقفها، كان هناك فاصولياء مطبوخة، وسردين، وشوربة كامبل، ومعكرونة، وصلصة معكرونة وقوارير من عصير العنب والتوت، وأواني الجيلاتين والمربى، وعلب الخضار التي وصل عددها إلى العشرات وربما بلغ المئات. كان السيد بوديتش مستعداً لنهاية العالم.

ناحت رادار وكأنها تقول: لا تنسَ الكلبة. نظرت خلف الباب، ووجدت دلو طعامها البلاستيكي؛ لا بدّ من أنه يتسع لعشرة غالونات أو اثني عشر

غالوناً، ولكن قاعدته لم تكن مليئة. إذا بقي السيد بوديتش في المستشفى لبضعة أيام أو لأسبوع سيتوجب عليّ شراء المزيد.

كان المكيال في العلبة، فعبأته، وسكبت الطعام في الصحن الذي دوّن عليه اسمها. انقضت رادار عليه، وهي تلوّح بذيلها، صحيح أنها مسنة، ولكنها كانت مقبلة على الطعام. اعتقدت أن هذا مؤشر جيد.

قلت لها: «هوني عليك يا فتاة» وارتديت معطفي: «كوني فتاة جيدة وسأراك في الصباح».

ولكنني لم أتأخر عليها كل هذا الوقت.

4

تناولنا وأبي الطعام الصيني بشهية، وقصصت عليه نسخة مفصلة من مغامراتي هذا المساء بدءاً من السيد بوديتش الذي وجدته ممدداً على الأرض، وانتقلت إلى ممشى المخطوطات القديمة، وانتهيت بغرفة المؤن.

قال أبي: «مكتنز الحال والمال! لقد عرفت أشخاصاً كثر من أمثاله، ولكن بعد أن ماتوا قلت إن المكان نظيف أليس كذلك؟».

أومأت برأسي وقلت: «إن المطبخ نظيف على الأقل، وهو يحتوي شياء كثيرة، وهو في غاية الترتيب. كان هناك بعض الغبار على علب الأدوية القديمة في الحمام الصغير، ولكنني لم أرَ غباراً في أي مكان آخر».

«أليس لديه سيارة؟».

«كلا، ولم أرَ مكاناً مخصصاً لركنها في مستودع المعدات».

«لا بدّ، أنه كان يطلب خدمة توصيل لجلب بقالته. لا تنسَ أن هناك أمازون دوت كوم الذي سيسيطر على العالم بحلول العام 2040 ويحقق مخاوف التيار اليميني. أتساءل من أين له بالمال؟ وكم بقي لديه؟».

هذا ما فكرت فيه بدوري. أعتقد أن هذا النوع من الفضول عادي بالنسبة إلى الأشخاص الذي أوشكوا على الإفلاس.

نهض أبي: «لقد اشتريت الطعام وحملته، وعليّ أن أنجز بعض الأعمال الورقية الآن، أما أنت فنطّف المكان».

نظّفت المكان، وتمرّنت على بعض ألحان البلوز على غيتاري، (كان بوسعي أن أعزف أي شيء ما دام المقام هو مي ماجور). كنت أتدرّب على العزف إلى أن تؤلمني أظافري، ولكنني لم أكن على سجيتي في تلك الليلة. أعدت غيتار الياماها إلى الزاوية، وقلت لأبي إنني سأعود إلى منزل السيد بوديتش كي أتفقد رادار، فقد كنت مشغول البال عليها لأنها وحيدة في ذلك المنزل. ربما لا تكترث لهذه الأمور، ولكن ماذا لو كانت تكترث حقاً؟

«حسناً، ما دمت لن تقرر أن تعيده معك».

«تعيدها».

«حسناً، ولكنني لست مهتماً بالإصغاء إلى نحيب كلبة عند الساعة الثالثة بعض منتصف الليل مهما يكن جنسها».

«لن أعيدها معي»، لم أقل له إنني فكرت في الأمر.

«ولا تدع نورمان بيتس ينل منك».

نظرت إليه متفاجئاً.

«ماذا؟ هل اعتقدت أنني لم أعرف؟»، تابع مبتسماً: «تعوّد الناس أن يطلقوا على هذا المنزل اسم البيت المسكون قبل أن تخلق أنت وأصدقاؤك أيها البطل الصغير».

ابتسمت عندما سمعت هذا، لقد نسيت الدعابة في الوقت الذي وصلت فيه إلى زاوية باين وسيكامور. بدا المنزل وكأنه يتربع على التل ويبلغ النجوم. تذكرت نورمان بيتس حين قال: أمي! هناك الكثير من الدم! وتمنيت لو أنني لم أشاهد ذلك الفيلم يوماً.

أصبح ترباس البوابة أسهل على الفتح. استخدمت مصباح هاتفي المحمول كي أجوب أرجاء المنزل، مررت المصباح على جانب منه، ويا ليتني لم أفعل ذلك. كان الغبار يغطي النوافذ وكل الستائر مسدلة. بدت تلك النوافذ وكأنها عيون عمياء ومع ذلك تستطيع رؤيتي، وأنا أدخل بطريقة أو بأخرى، ولا توافق على اقتحامي المنزل، انعطفت عند الزاوية، واتجهت صوب الشرفة الخلفية، فسمعت صوت ارتطام، أجفلت وأوقعت هاتفي المحمول، وعندها رأيت ظلاً. لم أصرخ، ولكنني شعرت بقلبي وهو يغور في صدري. تجمدت حين اتجه ذلك الظل نحوي، وقبل أن ألتف، وأُطلق ساقيّ للريح رأيت رادار وهي تنحب وتشتم ساق بنطالي، وتحاول القفز عليّ. باءت محاولاتها بالفشل بسبب آلام ظهرها ووركها، ولا بدّ أن صوت الارتطام كان ناجماً عن انغلاق باب الكلبة.

جثوت على ركبتي، وأمسكت برأسها، وربت بيد رأسها، وحككت لها بيدي الأخرى المنطقة الواقعة تحت لجامها، فلعقت وجهي، والقت بثقلها عليّ لدرجة أنها كادت توقعني.

قلت لها: «لا عليك، هل كنت خائفة بمفردك؟ لا ضير أن كنت خائفة»، متى كانت آخر مرة بقيت فيها بمفردها بما أن السيد بوديتش لا يملك سيارة ويطلب توصيل بقالته؟ لا بدّ من أن وقتاً طويلاً قد مرّ على المرة الأخيرة التي بقيت فيها بمفردها: «لا بأس، إن الوضع على ما يرام الآن، هيّا بنا».

التقطت هاتفي المحمول، ومنحت قلبي بعض الوقت ليستعيد إيقاعه الطبيعي، ثمّ دخلت عبر الباب الخلفي. ومشت رادار بالقرب مني لدرجة أن

رأسها كان يرتطم بركبتي. في قديم الزمان قابل آندي تشين كلباً وحشياً في الباحة الأمامية لهذا المنزل حسب كلامه، ولكن هذا كان منذ سنوات عديدة. كانت هذه الكلبة مسنة وخائفة، وعندما سمعتني أدخل، اندفعت عبر بابها كي تُرحّب بي.

بعد أن صعدنا درجات الشرفة الخلفية، فتحت قفل الباب، وضغطت على قابس النور لإنارة ممشى المخطوطات القديمة، تحققت من باب الكلبة، ورأيت ثلاثة ترابيس، كان هناك اثنان على كل جانب وواحد في الأعلى، ذكّرت نفسي أن أديرها كي لا تخرج رادار وتتجول في الخارج. لا بدّ من أن الباحة الخلفية كانت مسورة كالباحة الأمامية، ولكنني لم أكن واثقاً من هذا، وكنتُ مسؤولاً عن الكلبة في الوقت الحالي.

جثوت أمام رادار في المطبخ، وربت وجنتيها، نظرت إليّ بلهفة، وتنبهت أذناها فقلت: «لا أستطيع البقاء هنا، ولكنني سأترك لك المكان مناراً، وسأعود في الصباح الباكر لأطعمك، اتفقنا؟».

تأوهت قليلاً، ولعقت يدي، ثمّ انقضت على صحنها، كان فارغاً، ولكنها لعقت ما تبقى، ونظرت إليّ، فهمت ما ترمي إليه، وقلت لها: «لن أعطيك مزيداً الآن، انتظري حتّى الصباح».

جلست على الأرض، ووضعت وجهها بين كفيها، ولم تكف عن النظر إليّ.

«حسناً...».

ذهبت إلى العلبة التي كتب عليها بسكويت، قال لي السيد بوديتش ألا أطعمها لحماً أو نقرشات، وقررت أنه كان يقصد نقرشات اللحم، إن علم دلالات الألفاظ مدهش أليس كذلك؟ لم أتذكر أنني قرأت أي شيء يتعلق بخطورة تحسس الكلاب من الشوكولاتة، لذا تناولت قطعة بسكويت وكسرتها لها، وعندما قدّمتها لها، اشتمتها وأخذتها من يدي.

جلست على الطاولة التي درست عليها، وشعرت أنه يجدر بي الرحيل، كانت كلبة، وليست طفلة، لعلها لا تفضل أن تظل بمفردها، ولكنها لن تذهب إلى المجلى وتلعق الكلور.

رن هاتفي المحمول، وكان أبي هو المتصل: «هل كل شيء على ما يرام؟».

«أجل، ولكن من الجيد أنني أتيت، كنت قد تركت باب الكلبة مفتوحاً، خرجت حين سمعت خطواتي»، لم يكن علي أن أخبره عن صورة جانيت لي التي تراءت لي وهي تصرخ، وتحاول أن تتفادى السكين في الحمام حين رأيت الظل المتحرك.

«ليس خطأك، فلا يمكن لك أن تفكر في كل شيء، متى ستعود؟».

«قريباً جداً» ثمّ نظرت إلى رادار، فبادلتني النظرة بنظرة استعطاف، «أبي، لعله يجدر بي...».

«ليست فكرة سديدة يا تشارلي فلديك مدرسة غداً، إنها كلبة بالغة، وستكون بخير في هذه الليلة».

«بالطبع، أعرف ذلك».

نهضت رادار، وكان من الصعب عليّ مشاهدة ذلك، وحين تمالكت نفسها مشت باتجاه فراغ مظلم، لا بدّ من أنه غرفة المعيشة».

«سأظل لبضع دقائق، إنها كلبة لطيفة».

«حسناً».

أنهيت المكالمة، وسمعت صوت صرير خافت، عادت رادار، ومعها دمية في فمها، اعتقدت أنها كانت دمية قرد، ولكنها كانت مهترئة فلم أستطع تمييزها، ما زال هاتفي المحمول في يدي، لذا التقطت صورة.

أحضرت لي الدمية ووضعتها قرب كرسيي، وأخبرتني عيناها ما الذي تطلبه مني.

قذفتها بشكل خفيف في الغرفة، عرجت رادار وراءها والتقطتها، وعضت عليها قليلاً لتثبت لها من هي ملكة اللعبة ثمّ أعادتها، ووضعتها قرب كرسيي مجدداً. كان بوسعي تخيّلها وهي كلبة يافعة، لا بدّ من أنها كانت ثقيلة ورشيقة وهي تجري خلف القرد القديم (أو أحد خلفائه) بالطريقة التي وصفها فيها آندي تشين ذلك اليوم. كانت قد انتهت أيام ركضها الآن، ولكنها كانت تبذل كامل طاقتها. كان بوسعي أن أتخيلها وهي تفكر: أترى مهارتي في هذه اللعبة؟ ابق معي، بوسعي أن ألعبها طوال الليل!

لكنها ما كانت تستطيع المواظبة على اللعب، وما كان بوسعي البقاء. أرادني أبي أن أعود إلى المنزل، وشككت في قدرتي على النوم إذا مكثت هنا. كان هناك كثير من أصوات الصرير والارتطام الغريبة بالإضافة إلى كثير من الغرف التي يمكن أن يختفي فيها أي شيء... ويتسلل إليّ حين تنطفئ الأنوار.

أعادت رادار القرد مجدداً، فقلت لها: «فلنتوقف عن اللعب، ارتاحي يا فتاتي».

اتجهت نحو الرواق الخلفي، وعندها خطرت لي فكرة. ذهبت إلى الغرفة المظلمة التي تناولت رادار منها اللعبة، وتحسست الجدار لأعثر على مقبس النور، وتمنيت ألا يمسك شيء مريب بيدي (كيد مومياء أم نورمان بيتس مثلاً). أصدر مقبس النور صوت طقطقة حين عثرت عليه وضغطته.

لقد كانت غرفة معيشة السيد بوديتش قديمة، ولكنها مرتبة كمطبخه. الأريكة منجدة بقماش بني داكن، بدت لي أنها غير مستخدمة، وبدا لي أنه كان يجلس على كرسي مريح هبط مقعده وكانت فوق على سجادة تقليدية مهترئة، كان بوسعي تخيّل ساقي السيد بوديتش النحيلتين وهما تجوبان

أرجاء هذه الغرفة، كان هناك قميص شامبراي أزرق ملقى على ظهر الكرسي الذي يواجه تلفازاً يعود للعصر الحجري، كان هناك شيء يشبه الهوائي على سطحه، التقطت له صورة بهاتفي المحمول، لم أعرف أعرف إن كان هذا التلفاز العريق صالحاً للاستخدام. ولكن بالاستناد إلى الكتب المصفوفة قربه المتشحة بالملاحظات لا أتصور أنه كان يستخدم كثيراً، حتّى وإن كان صالحاً. كان هناك سلة في الزاوية البعيدة من الغرفة مليئة بدمى الكلاب، وكانت دليلاً على مدى حب السيد بوديتش لكلبته.

مشت رادار في الغرفة، وتناولت دمية أرنب محشوة، أحضرتها لي وبدت متفائلة.

قلت لها: «لا أستطيع، ولكن تستطيعين أن تحظي بهذه، لا بدّ من أن رائحة سيدك تفوح منها».

تناولت القميص من الكرسي، وفردته على أرضية المطبخ قرب صحنها، اشتمته ثمّ جلست عليه، قلت لها: «يا لك من فتاة جيدة، سأراك في الصباح».

اتجهت إلى الباب الخلفي، وفكرت مجدداً، وجلبت لها القرد المحشو، مضغته قليلاً لترضيني على الأرجح، تراجعت عدة خطوات والتقطت صورة أخرى ثمّ غادرت، ولم أنس أن أوصد باب الكلبة، إذا تغوطت في الداخل كنت سأنظف المكان فحسب.

في طريقي إلى المنزل فكرت في مصارف المياه المسدودة بالأوراق، والباحة غير الممهدة، وفي المنزل الذي يحتاج إلى طلاء. كانت هذه الأمور تفوق مهاراتي على إصلاحها، ولكنني كنت أستطيع تدبر أمر النوافذ التي يغطيها الغبار، بالإضافة إلى السياج المتداعي هذا، إن كان لديّ متسع من الوقت. ولكن بالنظر إلى اقتراب الموسم الجديد لكرة القاعدة لم أفعل. تبقى هناك رادار التي وقعت في حبي من النظرة الأولى، ولعلني

بادلتها الحب بدوري. تحملوا الأمر إذا كنتم تعتقدون أن هذه الفكرة غريبة أو سخيفة أو كلتا الفكرتين. وكما قلت لأبي: إنها كلبة لطيفة.

تلك الليلة، عندما تمددت في سريري، ضبطت المنبه على الساعة الخامسة فجراً ثمّ راسلت مدرس اللغة الإنكليزية الأستاذ نيفيل، وقلت له إنني لن أحضر الحصة الأولى وطلبت منه أن يُبلغ الآنسة فريدلاندر إنني سأفوت الحصة الثانية على الأرجح، لأنني سأزور شخصاً في المستشفى.

الفصل الثالث

زيارة المستشفى- المستسلمون يخسرون-المستودع.

1

بدا البيت المريب أقل ريبة في ساعات الفجر الأولى، مع أن الضباب المتصاعد من العشب الطويل أعطاه طقساً قوطياً. لا شك في أن رادار كانت تنتظرني، لأنها بدأت تتحرك قرب بابها المقفل حين سمعت خطواتي على الدرجات المتداعية والرطبة، والتي يفترض بأحد أن يصلحها حتى لا تكسر ساق شخص آخر.

قلت لها: «اهدئي يا فتاة». ووضعت المفتاح بالقفل ثمّ تابعت: «ستؤذين نفسك».

عندما فتحت الباب ركضت نحوي وقفزت عليّ، ومدت كفيها الأماميين، وليذهب داء المفاصل إلى الجحيم. تبعتني إلى المطبخ، وراقبتني وهي تهز ذيلها حين وضعت لها معياراً من طعامها الذي شارف على الانتهاء. بينما كانت تأكل، راسلت أبي وسألت إن كان بوسعه أن يعرج على مكان اسمه بيت بانتري في استراحة الغداء أو بعد العمل ويشتري كيساً من طعام الكلاب: أوريغن ريجنل ريد، ثمّ بعثت رسالة أخرى أقول فيها إنني سأرد له

المبلغ وإن السيد بوديتش سيعطيني ثمنه، عاينت المعلومات، وبعثت رسالة أخرى: من الأفضل أن تحضر كيساً كبيراً.

لم يمضِ وقت طويل حتّى أنهت رادار طعامها، أحضرت لي القرد، ووضعته قرب كرسيي وتجشأت.

قلت لها: «عافاك الله» وقذفت القرد. قفزت وأعادته إليّ، فقذفته مجدداً. وبينما كانت تلحق به اهتز هاتفي المحمول، لقد بعث أبي برسالة: لا مشكلة.

قذفت دمية القرد مجدداً، ولكن بدلاً من اللحاق بها عرجت في ممشى المخطوطات القديمة وخرجت. لم أكن أعرف إن كان هناك حبل للجام لذا أحضرت معي قطعة بسكويت لأعيدها إن اضطررت لذلك، كنت متأكداً أنها ستفي بالغرض لأنها كانت كلبة نهمة بالتأكيد.

لم تشكل إعادتها مشكلة، ذهبت إلى مكان ما كي تقضي حاجتها الأولى، وإلى مكان آخر لتقضي حاجتها الثانية، عادت ونظرت إلى الدرج كما ينظر متسلقو الجبال إلى منطقة مرتفعة، ثمّ صعدت نصف المسافة، جلست لبرهة وارتاحت قليلاً، لم أعرف كم ستصمد قبل أن تحتاج إلى شخص كي يعينها على هذه المهمة.

قلت لها: «عليّ الذهاب، أراك لاحقاً أيتها اللطيفة جداً».

لم نقتنِ كلباً في حياتنا، لذا لم أعرف قوة تعابير العيون خصوصاً من مسافة قريبة وشخصية. بدت عيناها وكأنهما تقولان لي: لا تذهب، كنت سأسر بالبقاء، ولكن كما تقول الأغنية: كان لديّ وعود لأفي بها. ربت رأسها عدة مرات، وقلت لها أن تتصرف بشكل جيد. تذكرت أنني قد قرأت، في مكان ما، أن الكلاب تكبر بمعدل سبع سنوات، مقارنة بسنة واحدة من عمرنا نحن. إنها قاعدة بدائية بالطبع، ولكنها طريقة تساعدنا على فهم ما يماثل هذا الوقت في عمر الكلاب؟ إذا عدت لأطعمها عند الساعة السادسة

فسأكون قد عدت بعد اثنتي عشرة ساعة، هل ستعادل تلك الساعات ثماني وأربعين ساعة بوقت الكلاب؟ أو ثلاثة أيام ونصف؟ إذا كان هذا التحليل صحيحاً، فهذا يُفسر لماذا كانت متلهفة جداً لرؤيتي، ولا بدّ من أنها كانت تفتقد السيد بوديتش.

أقفلت الباب، ونزلت الدرجات، ونظرت إلى المكان الذي قضت فيه حاجتها. إن تنظيف الباحة الخلفية كان مهمة يجب أن توضع على القائمة، إلا إذا كان السيد بوديتش يتكفل بها. كان من المستحيل أن أستشف الأمر بسبب الأعشاب الكثيفة، إذا لم يكن مالك المنزل يعتني بهذه الباحة فيفترض بأحدهم أن يعتني بها.

قلت لنفسي وأنا أركب دراجتي: أستطيع أن أعتني بها، وكان هذا صحيحاً، ولكنني شخص مشغول. فبالإضافة إلى كرة القاعدة، كنت أفكر في أن أتقدم لمسرحية نهاية السنة: مسرحية الثانوية الغنائية. كنت أحلم بتأدية أغنية «بريكنغ فري» مع جينا باسكاريلي، وهي فتاة كانت في السنة الأخيرة وفائقة الجمال.

وجدت امرأة ترتدي معطف تارتان قرب دراجتي، اعتقدت أنها كانت السيدة راغلاند أو لعلها ريغان. سألتني: «هل أنت من اتصل بالإسعاف؟».

أجبتها: «أجل، يا سيدتي».

«هل وضعه سيئ؟ أقصد وضع السيد بوديتش؟»

«لا أعلم في الحقيقة، لقد كسرت رجله بالتأكيد».

«حسناً. لقد استوفيت حسناتك في ذلك اليوم، أو لعلك قد استوفيتها حتى نهاية هذا العام. السيد بوديتش لا يعتبر جاراً ممتازاً، كما أنه منطوٍ على نفسه، ولكن ليس لديّ شيء ضده، سوى أن مثله يُشكل تلوثاً بصرياً. هل أنت ابن جورج ريد؟».

«نعم».

مدت يدها وقالت: «ألثيا ريتشلاند».

صافحتها قائلاً: «سررت بلقائك».

«ماذا عن ذلك المهجن؟ إن كلب الشيبرد الألماني كلب مخيف. تعود أن يخرجه في الصباح الباكر، وأحياناً في الليل حين يدخل الأطفال إلى منازلهم». أشارت إلى السياج المتداعي وقالت: «لا بدّ من أن هذا السياج لا يحتجزه».

«هذا الكلب أنثى وأنا أعتني بها».

«تفعل خيراً، أتمنى ألا تتعرض للهجوم أو للعض».

«إنها عجوز الآن، وليست عدائية».

قالت السيدة ريتشلاند: «لعلها تتصرف معك بلطف، ولكن أبي كان يقول: 'تعتبر عضة الكلب العجوز بقوة مضاعفة'. أتى مراسل من مجلة أسبوعية وسألني عما حصل. أعتقد أنه المسؤول عن الاستدعاءات كالشرطة والإطفاء والإسعاف وغير ذلك»، حكّ أنفها وقالت: «أعتقد أنه كان في سنك».

قلت لها: «لن أنسى هذا». ولكنني لم أكن واثقاً من ضرورته، «يجب أن أذهب يا سيدة ريتشلاند، أريد أن أزور السيد بوديتش قبل المدرسة».

ضحكت وقالت: «إذا كان في مستشفى أركاديا فلا يسمح بزيارة النزلاء قبل الساعة التاسعة. لن يسمحوا لك بالدخول في مثل هذا الوقت الباكر».

سمحوا لي بالدخول عندما شرحت لهم أنه يفترض بي الذهاب إلى المدرسة، وبعد ذلك إلى تمرين كرة القاعدة. في البدء، لم تقتنع السيدة التي كانت تجلس خلف الطاولة في مكتب الاستقبال، ولكن حين قلت لها إنني من استدعى الإسعاف، قالت لي إن بإمكاني الصعود إلى الغرف. «الغرفة 322، إن المصاعد على يمينك».

عندما وصلت إلى منتصف رواق الطابق الثالث، سألتني ممرضة إن أتيت لزيارة السيد بوديتش، فقلت لها إنني أتيت لزيارته وسألتها عن وضعه.

«لقد خضع لعملية، وعليه أن يخضع لعملية أخرى، ثمّ سيخضع لفترة طويلة من النقاهة كي يتماثل للشفاء. كما سيحتاج لكثير من العلاج الفيزيائي. لعل ميليسا ويلكوكس هي من ستتولى الأمر. كان الكسر وخيماً وهشم له وركه أيضاً، سيحتاج لاستبدال الورك، وإلا سيمضي بقية حياته على جهاز الووكر أو على كرسي متحرك بغض النظر عن مقدار العلاج الذي يخضع له».

قلت لها: «يا إلهي، هل يعرف هذا؟».

«لا بدّ من أن الطبيب الذي قوّم الكسر قال له ما يجب أن يعرفه الآن، هل أنت من اتصل بالإسعاف؟».

«أجل يا سيدتي».

«حسناً، لقد أنقذت حياته على الأرجح. فبسبب الصدمة وإمضاء الليلة في الخارج...»، وأشاحت بوجهها.

«إن الكلبة هي التي أنقذته، لقد سمعت نباحها».

«هل هي من اتصل برقم الطوارئ؟».

اعترفت أنني من اتصلت.

«إذا كنت تريد رؤيته فعليك أن تسرع، لقد أعطيته إبرة مسكن للتو، ولا بدّ من أنها ستؤثر عليه قريباً، ودعك من الورك المكسور، فهو نحيل للغاية، وسيكون ضحية سهلة لهشاشة العظام. يمكن أن تحظى بربع ساعة قبل أن يذهب ليرى الساحر».

3

كانت ساق السيد بوديتش مرفوعة على حمالة، بدت وكأنها تعرض في فيلم كوميدي يعود إلى ثلاثينيات القرن الماضي... لكن السيد بوديتش لم يكن يضحك، وأنا بدوري لم أضحك. كانت التجاعيد التي تخطط وجهه أعمق، وكأنها منحوتة، وازدادت الهالات تحت عينيه سواداً. بدا شعره أشيب وخفيفاً، كما فُقدت الخصلات الحمراء التي كانت تتخلله لونها. اعتقدت أنه يتشارك الغرفة مع أحد، ولكنني لم أره بسبب الستارة الخضراء التي غطت النصف الآخر من الغرفة 322. رآني السيد بوديتش، وحاول أن يعدل جلسته، ولكنه تألم وتأوه.

«مرحباً، ما كان اسمك؟ إذا كنت قد أخبرتني به فقد نسيته، وأعتقد أن بوسعك أن تسامحني بحكم ظروفي».

لم أستطع أن أتذكر إن كنت قد أخبرته باسمي لذا أخبرته به مجدداً (أو للمرة الأولى) ثمّ سألته عن حاله.

«سيئ، انظر إليّ فحسب».

«أنا آسف».

«ليس بقدر أسفي على نفسي». ثمّ حاول أن يكون لبقاً: «شكراً لك يا سيد ريدر الصغير، قالوا لي إنك أنقذت حياتي على الأرجح، لست متأكداً من قيمة حياتي الآن، ولكن كما يقال عن بوذا: لا شيء يبقى على حاله، وأحياناً ما يتغير للأفضل، ولكن بحكم خبرتي أعتقد أن هذا نادر الحدوث».

قلت له - كما قلت لأبي وللمسعفين وللسيدة ريتشلاند - إن الكلبة هي من أنقذت حياته فعلياً، حيث كنت سأتجاوز المنزل لو لم أسمع نباحها.

«كيف حالها؟».

«بخير»، وضعت كرسياً قرب سريره وأريته الصور التي التقطتها لرادار مع قردها، تفحصها مراراً وتكراراً (كان عليّ أن أعلمه كيف يتنقل بين الصور)، بدا أسعد حين رأى الصور بغض النظر عن صحته. قالت الممرضة: سيخضع لفترة نقاهة طويلة كي يتماثل للشفاء.

كانت ابتسامته قد اختفت حين أعاد لي هاتفي المحمول: «لم يخبروني بالوقت الذي سأمكثه هنا، ولكنني لست مغفلاً. أعرف أنني سأبقى لفترة طويلة، وأعتقد أنّ عليّ إنهاء حياتها. لقد حظيت بحياة رغيدة ولكن عضلاتها الآن...».

قلت له متنبهاً: «يا إلهي! لا تفعل هذا، سأهتم بها، وسيسرني ذلك».

نظر إليّ، وللمرة الأولى لم تكن تعابيره تنمّ عن إزعاج أو تأفف: «هل ستفعل هذا حقاً؟ هل أستطيع الوثوق بك لتفعل هذا؟».

«أجل، لقد نفد طعامها تقريباً، ولكنني طلبت من والدي أن يشتري كيساً من طعام أوريغن ذاك، سأكون هناك في تمام الساعة السادسة صباحاً ومساء، اعتمد عليّ».

اقترب مني، ولعله كان يريد أن يصافحني أو يربت يدي على الأقل. كنت سأسمح له بذلك، ولكنه سحب يده. «إن هذا...فضل كبير منك».

«أحببتها وأحبتني بدورها».

«حقاً؟ إن هذا جيد، ليست فتاة عاطلة»، كانت عيناه تلمعان وكان يتكلم بتثاقل. لقد بدأ المسكن الذي أعطته إياه الممرضة يعطي مفعوله: «لا تؤذي أحداً، ولكنها كانت تخيف أطفال الحي، وكنتُ أُقدّر صنيعها هذا. يا لهم من أطفال فضوليين. كانوا فضوليين وفوضويين، أما بالنسبة إلى اللصوص؟

انس الأمر. كانوا ينفدون بجلدهم إلى التل إذا سمعوا صوت رادار، ولكنها تقدمت في السن»، تنهد ثمّ سعل وآلمه هذا، «ولم تتقدم بالسن وحدها».

«سأهتم بها جيداً، ولعلني سأصطحبها إلى منزلي عند التل».

احتدت عيناه قليلاً وهو يفكر في الأمر: «لم تذهب إلى منزل أحد منذ أن تبنيتها عندما كانت جرواً، لقد مكثت في المنزل... والباحة...».

«قالت السيدة ريتشلاند إنك كنت تصطحبها في نزهات».

«أهي تلك الفضولية التي تعيش في الطرف الآخر من الشارع؟ إنها محقة على أيّ حال. كنا نمشي معاً حين كانت رادار تستطيع المشي من دون أن تتعب، أتخوف من اصطحابها إلى أي مكان بعيد الآن، ماذا لو أخذتها إلى شارع باين ولم تستطع العودة؟». نظر إلى حاله وقال: «أصبحت الآن عاجزاً عن العودة إلى المنزل، لن أستطيع العودة إلى أي مكان».

«لن أرهقها أو أُحمّلها ما لا طاقة لها بحمله».

استرخى قليلاً وقال: «سأرد لك ثمن...طعامها ولقاء وقتك أيضاً».

«لا تقلق بهذا الشأن».

«لعلها ستكون بخير ريثما أعود إلى المنزل، هذا إن عدت».

«ستعود إلى منزلك يا سيد بوديتش».

«إذا كنت...ستطعمها...فنادني بهاورد».

لم أثق في قدرتي على مناداته بهذا الاسم، ولكنني وافقته.

«هل يمكنك أن تجلب لي صورة أخرى؟».

«بالطبع، يجدر بي الذهاب يا سيد...هاورد، عليك أن ترتاح».

«ليس لديّ خيار آخر». أغمض عينيه ثمّ رفع جفنيه ببطء. «مهما يكن المسكّن الذي أعطتني إياه...ووه! إنه فعال للغاية!».

أغمض عينيه مجدداً، نهضت واتجهت إلى الباب. «يا فتى، ما كان اسمك؟».

«تشارلي».

«شكراً لك يا تشارلي، اعتقدت أنه ربما...أعطها فرصة ثانية وليس من أجلي... لقد اكتفيت بفرصة واحدة... إن الحياة عبء... إذا أتيحت لك الفرصة لتعيش طويلاً، فستدرك هذه الحقيقة، ولكن هي... رادار... ثم تقدمت في السن ووقعت عن السلم اللعين...».

«سأحضر لك مزيداً من الصور».

«افعل هذا».

هممت بالرحيل، ثمّ تكلم مجدداً، ولكن لا أظن أنه كان يتكلم إليّ «إن الرجل الشجاع هو من يساعد، ولكن الجبان يكتفي بإعطاء الهدايا»، صمت ثمّ بدأ بالشخير.

رأيت الممرضة التي سبق لي أن تحدثت إليها في منتصف الرواق وهي تخرج من غرفة ومعها بولٌ عَكر، رأتني فغطته بمنشفة، سألتني إن كانت زيارتي لطيفة.

«أجل، ولكنني لم أفهم آخر ما قاله».

ابتسمت وقالت: «إن الديميرول لديه هذا التأثير. اذهب الآن، يجب عليك أن تكون في المدرسة».

بحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى هيلفيو، كانت عشر دقائق قد مرت من الحصة الثانية، وكانت الأروقة خالية. ذهبت إلى المكتب لآخذ إذن تأخير من السيدة سيلفيوس، وكانت سيدة كبيرة في السن ولطيفة ولكن لديها شعراً أزرق مخيفاً. لا بدّ من أنها كانت في سن الخامسة والسبعين أي بعد سن التقاعد، ولكنها كانت حذقة ولديها حس عالٍ بالفكاهة، أعتقد أن حس الفكاهة ضروري حين تتعامل مع المراهقين.

قالت وهي توقع على الإذن: «سمعت أنك قد أنقذت حياة رجل مسن ليلة أمس».

«من قال لك هذا؟».

«عصفورة صغيرة، ويت-ويت-ويت، إن الأخبار تتناقل بسرعة يا تشارلي».

أخذت الإذن وقلت: «لم أكن أنا المنقذ بل كلبة الرجل، لقد سمعت نباحها»، كنت قد سئمت من شرح هذا الموقف للناس لأنها لم تصدقني، وكان هذا غريباً لأنني اعتقدت أن الجميع يفضلون القصص التي يكون أبطالها كلاباً. «لقد اتصلت بالطوارئ وحسب».

«كما تريد، اذهب إلى الحصة الآن».

«هل يمكنني أن أريك شيئاً قبل أن أذهب؟».

«إذا وعدتني أن تكون سريعاً».

تناولت هاتفي المحمول وأريتها صورة تلفاز السيد بوديتش.

«هذا هوائي أليس كذلك؟».

قالت السيدة سيلفيوس: «كنا نطلق عليه اسم أذن الأرنب»، لقد ماثلت ابتسامتها ابتسامة السيد بوديتش حين نظر إلى صور رادار مع قردها:

«تعوّدنا أن نلفّه بورق القصدير كي نُحسّن التغطية، ولكن انظر إلى ذلك التلفاز يا تشارلي! يا إلهي! هل يعمل؟».

«لا أدري، لم أجربه».

«إن أول تلفاز حظينا به كان يشبه هذا، كان تلفاز طاولة من نوع زينيث، وكان ثقيلاً للغاية لدرجة أن أبي آذى ظهره وهو يجره على درج الشقة التي عشنا فيها حينها. كنا نشاهد ذلك الجهاز طوال الوقت!آني أوكلي ووايلد بيل هيكوك وكابتن كنغارو وكروسادر رابيت...يا إلهي كنا نشاهده إلى أن نصاب بصداع! وحين توقف عن العمل بدأت الصورة تدور وتدور لذا اتصل أبي بفني متخصص بإصلاح أجهزة التلفاز الذي أتى ومعه حقيبة مليئة بالأنابيب».

«أنابيب؟»

«أنابيب تفريغ، كانت تتوهج باللون البرتقالي كالمصابيح التقليدية. بدّل الأنبوب التالف فعاود التلفاز العمل من جديد»، نظرت إلى الصورة مرة أخرى، «لا بدّ من أن أنابيب هذا الجهاز قد تلفت منذ وقت طويل».

قلت لها: «لا شك في أن السيد بوديتش اشترى كثيراً من إيبي أوكريغليست. يمكنك شراء أي شيء بواسطة الإنترنت إذا كنت تملكين المبلغ الكافي»، ولكنني لم أعتقد أن السيد بوديتش كان يتعامل بالإنترنت.

أعادت لي السيدة سيلفيوس هاتفي المحمول وقالت: «هيّا يا تشارلي، إن الفيزياء بانتظارك».

5

ترصدني المدرب هاركنس كما يترصد القط الفأر أو يترصد الذباب الغائط لأن أدائي كان فاشلاً. لقد ركضت في الاتجاه الخاطئ ضمن تدريب المخاريط الثلاثة، وحين حاولت أن أذهب في الاتجاهين معاً وقعت على

ظهري وضحك الجميع عليّ. وخلال تمرين اللعب المضاعف فوتت فرصتي، وتجاوزتني الكرة، وقطعت جدار النادي. وحين بادلني المدرب التمريرات لمست الكرة بشكل لا بأس به، ولكنني لم أنزل قفازي، كما أن الكرة البطيئة مرت من بين ساقيّ. ولكن الفشل في ضرب الكرة برفق كانت القشة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة إلى المدرب هاركنس، حيث إنني واظبت على إرسالها إلى الرامي بدلاً من إرسالها إلى خط القاعدة الثالث.

نهض المدرب من كرسيه، واتجه نحوي وبطنه تهتز وصافرته تتأرجح بين ثدييه: «ما هذا يا ريد بحق الجحيم! تبدو وكأنك امرأة عجوز! توقف عن العبث بالكرة! أنزل المضرب، ودع الكرة ترتطم به، كم مرة عليّ أن أقول لك هذا؟». أمسك المضرب، وأبعدني عن مكاني، وواجه الرامي المتدرب لذلك اليوم راندي مورغان: «ارمِ! وابذل مجهوداً!»

رمى راندي بكل ما أوتي من قوة، فانحنى المدرب، وتصدى لها بشكل مثالي، سارت على خط القاعدة الثالث، فتلقاها ستيف دومبروسكي، والتقطها بيده الحرة وفوت القبضة.

التفت المدرب صوبي وقال: «أرأيت؟ إنها تحصل بهذه الطريقة! لا أدري ماذا يدور في بالك، ولكن تخلص منه!»

لقد كنتُ مشغول البال برادار التي تنتظرني في منزل السيد بوديتش، لعل الانتظار لمدة اثنتي عشرة ساعة بدا لها وكأنه ثلاثة أيام ونصف اليوم، ما كانت ستعرف سبب بقائها وحدها، وما كانت ستستطيع اللعب بدمية القرد ما لم يرمه أحد لها. هل كانت تحاول ألا تتغوط في المنزل؟ هل قضت حاجتها في مكان آخر أن بابها كان مقفلاً؟ إذا فعلت هذا فلن تفهم أنها لم تكن على خطأ، كما كنت أفكّر في الباحة المهملة والسياج المتداعي.

سلّمني المدرب هاركنس المضرب وقال: «ركّزْ وجرّبْ مجدداً»، لم يحاول راندي أن يضربها بقوة، وخفف الضربة قليلاً ليخلصني من حبل

المشنقة، انخفضت...وضربتها، لم يضطر راندي أن يبتعد عن ساحة اللعب ليمسكها.

قال المدرب: «هذا يكفي، أعطني خمسة»، لقد قصد أن أقوم بخمسة جولات حول النادي.

«كلا».

خفتت كل الهمسات في النادي وليس في قسمنا وحسب، بل في قسم فريق البنات للكرة الطائرة، كان الجميع يشهد هذا الحدث، وضع راندي قفازه على فمه ولعله كان يحاول أن يخفي ابتسامته.

وضع المدرب يديه على فخذيه المكتنزتين وقال: «ماذا قلت لي للتو؟».

لم ألقِ المضرب لأنني لم أكن غاضباً، ناولته إياه وحسب، فأخذه مندهشاً.

«قلت لك كلا، لقد انتهيت»، اتجهت إلى الباب الذي قاد إلى غرفة تبديل الملابس.

«عُدْ إلى هنا يا ريد!»

لم أنظر خلفي وتابعت المشي إلى الأمام.

«عد إلى هنا حالاً، وليس عندما تهدأ لأنه عندها سيكون الأوان قد فات!»

ولكنني كنت هادئاً، كنت سعيداً وكأنني رأيت حلاً لمسألة رياضيات بدد صعوبتها.

«يا إلهي يا ريد!» كان صوته ينم عن فزع، لعله فزع لأنني كنت الضارب الأفضل أو لأن هذه الثورة كانت تحدث أمام الفريق بأكمله، «عُدْ إلى هنا! إن الرابحين لا يستسلمون والمستسلمون يخسرون!»

قلت له: «حسناً، انعتني بالخاسر».

نزلت الدرج، ودخلت غرفة تبديل الملابس حيث بدّلت ملابسي. كانت تلك نهاية مسيرتي في كرة القاعدة في ثانوية هيلفيو والسؤال الذي يطرح نفسه هل ندمت على ذلك؟ والجواب كلا، هل ندمت لأنني خذلت أعضاء فريقي؟ قليلاً وكما يعيد ويكرر المدرب: ليس هناك وجود للأنا في الفريق، كان عليهم أن يتآلفوا من دوني، وكان لديّ أعمال أخرى لأهتم بها.

6

تناولت البريد من صندوق السيد بوديتش - لم يكن هناك شيء خاص بل إعلانات وأشياء غير مهمة - ودخلت إلى المنزل عبر الباب الخلفي. لم تستطع رادار أن تنقض عليّ وأعتقد أن حالتها كانت سيئة في ذلك اليوم. لذا، أمسكت بكفيها برفق، ورفعتها ثمّ وضعتهما على خصري وربّتّ رأسها، ثمّ ربّتّ قليلاً شعر فمها الأشيب لأدللها، فنزلت بعناية درج الشرفة وقضت حاجتها، تفحصتْ الدرجات مجدداً قبل أن تصعدها، فقلت لها إنها كانت فتاة جيدة وأن المدرب هاركنس سيكون فخوراً بها.

لعبت معها بالقرد المحشو مرات عدة، والتقطت لها صوراً. كان هناك مزيد من الدمى في سلتها، ولكن بدا جلياً أنها كانت تفضل دمية القرد.

تبعتني إلى الخارج حين تناولت السلم المرمي، حملته إلى المستودع، ورأيت القفل الضخم، فسحبته من الإفريز، وبينما كنت أفعل ذلك زمجرت رادار. كانت تقرفص على بعد عشرين قدماً من القفل وهي تكشر عن أنيابها وترفع أذنيها.

«ما الخطب يا فتاة؟ إذا دخل ظربان أو مرموط إلى هنا لن أستطيع أن أفعل شيئاً...».

سمعت صوت شطب وتبعه صوت همهمة. انتصب شعر بدني حيث لم تكن تلك الأصوات نابعة من حيوان، ولم يسبق لي أن سمعت شيئاً مشابهاً. نبحت رادار وناحت ثمّ تراجعت، مع أن معدتها ما زالت تلامس الأرض. أردت أن أتراجع أنا الآخر، ولكنني ضربت الباب بقبضتي وانتظرت، فلم يحدث شيء. كنت لأقول إنني أتخيل، ما لم أر وأسمع رد فعل رادار، ولكن لم يكن بوسعي فعل شيء حيال الأمر على كل حال. كان الباب موصداً، ولم يكن هناك أيّ نوافذ.

ضربت الباب مجدداً، وكأنني استفز مصدر الصوت ليكرره، ولكن شيئاً لم يحصل، لذا عدت إلى المنزل. عانت رادار وهي تحاول الوقوف على قدميها وتبعتني، نظرت خلفي مرة أخرى، ولاحظت أنها نظرت هي الأخرى إلى الخلف.

7

لعبت بالقرد مع رادار قليلاً، وحين انبطحت على المشمع ورمقتني بنظرة تقول فيها: لقد اكتفيت، اتصلت بأبي وقلت له إنني انسحبت من كرة القاعدة.

قال لي: «أعرف هذا. اتصل بي المدرب هاركنس بالفعل، وقال لي إن الأمور توترت قليلاً، ولكنه سيرحب بك في الفريق مجدداً، إذا اعتذرت له ولباقي أعضاء الفريق، لأنك خذلتهم، على حدّ تعبيره».

لقد كان هذا كلاماً مزعجاً ومضحكاً في آن: «لم تكن نهائيات الولاية يا أبي، بل مجرّد تدريب في النادي وكان لئيماً معي». ولكنني تعودت لؤمه شأني شأن سائر أعضاء الفريق. يجب أن توضع صورة المدرب هاركنس قرب مفردة اللؤم في القاموس.

«يعني أنك لا تريد الاعتذار؟».

«بإمكاني أن أعتذر عن تفكيري المشتت حيث كان بالي مشغولاً بالسيد بوديتش ورادار وهذا المكان. يمكنني الإسهام بكثير من الأمور إن أتيح لي الوقت. لذا فرغت نفسي».

صمت لوهلة كي يستوعب ما قلت، ثمّ قال: «لم أستشف السبب الكامن وراء شعورك بضرورة فعل هذا، فهمت القسم المتعلق بالاعتناء بالكلبة فهي وصية، ولكنك لا تفرق بين بوديتش وآدم».

ماذا كان يتوجب عليّ أن أجيبه على هذا الكلام؟ هل كان يفترض بي القول إني أقسمت أن أسير على الصراط المستقيم؟ وحتى وإن لم يستخف بي (ولا بدّ من أنه كان سيضحك) كان سيقول لي إن هذا التفكير خاص بالأطفال والإنجيليين ومدمني التلفاز الأرضي الذين يؤمنون بقدرة الوسادة السحرية أو الحمية الغذائية على شفائهم من أمراضهم. وكان أسوأ احتمال هو أنه سيعتقد، على الأرجح، أنني أستخف بمحاولاته الجاهدة في الإقلاع عن الشرب.

وكان هناك شيء آخر: كان هذا أمراً شخصياً وخاصاً بي فحسب.

«تشارلي؟ أما زلت على الخط؟».

«نعم كل ما أستطيع قوله هو أنني أريد أن أبذل ما بوسعي حتّى يستطيع الوقوف على ساقيه مجدداً».

تنهد أبي وقال: «إنه ليس طفلاً وقع عن شجرة تفاح وكسر ذراعه، إنه عجوز ولعله لن يقف على ساقيه مجدداً، هل فكرت في هذا؟» لم أفكر ولم أرَ ضرورة لذلك. «تعرف ما يقولونه في برنامجك: عش كل يوم بيومه».

قهقه وقال: «ونقول أيضاً إن الماضي تاريخ والمستقبل مجهول».

«إنه قول رائع يا أبي، هل نحن متفقان بخصوص كرة القاعدة؟».

«أجل، ولكن الوصول إلى فريق الولاية كان سيغني سيرتك الذاتية الجامعية، أنت تعرف هذا أليس كذلك؟».

«أجل».

«ماذا عن كرة القدم؟ هل تفكر في تركها هي الأخرى؟».

«ليس في الوقت الراهن»، فعلى الأقل لا يفترض بي التعامل مع المدرب هاركنس في تمارين كرة القدم. «يمكن أن يتحسن السيد بوديتش بحلول بدء التمارين، أي في شهر آب تقريباً».

«وقد لا يتحسن».

وافقته وقلت: «قد لا يتحسن، إن المستقبل مجهول».

«إنه مجهول فعلاً، حين أفكر في تلك الليلة التي ذهبت فيها أمك إلى زيبي...».

انقطع كلامه ولم أستطع التفكير بشيء لأقوله.

«افعل شيئاً من أجلي يا تشارلي، جاء مراسل من ذا ويكلي سان وطلب رقمك. لم أعطه إياه، ولكنني أخذت رقمه، يريد أن يجري معك مقابلة بخصوص إنقاذ بوديتش، أعتقد أن عليك مقابلته».

«لم أنقذه في الواقع، إن رادار هي...».

«يمكنك أن تقول له هذا، ولكن إن سألتك الجامعة عن سبب تركك فريق كرة القاعدة فسيكون هذا المقال...».

«فهمت الأمر، أعطني رقمه».

أرسل لي الرقم، وحفظته في جهات اتصالي.

«هل ستعود إلى المنزل لتناول العشاء؟».

«حالما أُقدّم لردار عشاءها».

«حسناً، أحبك يا تشارلي».

قلت له إنني أحبه بدوري، وكان هذا صحيحاً. كان أبي رجلاً صالحاً، عانى لفترة، ولكنه تغلب على الصعاب، وهذا شيء لا يقدر عليه الجميع.

8

بعد أن أطعمت رادار، وقلت لها إنني سأعود في الصباح الباكر، توجهت إلى المستودع. لم أرد أن أفعل ذلك حيث كان هناك شيء مريب حول ذلك المبنى عديم النوافذ، في ليلة ظلماء من شهر نيسان، ولكنني أجبرت نفسي على ذلك. وقفت أمام الباب الموصد وأنصت، لم أسمع صوت شطب أو همهمة غريبة تشبه صوت رجل فضائي في فيلم خيال علمي، ولم أرد أن أضرب الباب بقبضتي، لذا أجبرت نفسي على فعل ذلك.

ضربته مرتين وبقوة.

لم أسمع شيئاً فارتحت.

ركبت دراجتي، وانطلقت إلى التل شارع سيكامور، ثمّ ألقيت بقفازي على رف خزانتي. نظرت إليه، ثمّ أغلقت باب الخزانة، كانت كرة القاعدة لعبة جيدة، لا شيء يضاهي تصدر الجولة التاسعة، وضرب كرة في الفراغ بين المدافعين، ولا شيء يضاهي العودة إلى المنزل في الباص مع الضحكات والمزحات والهتافات بعد نصر كبير في مباراة نهائية. حسناً، سأعترف؛ لقد ندمت قليلاً. فكرت في قول بوذا ذاك: «يتغير الحال». قررت أن كماً كبيراً من الحقيقة يكمن في هاتين الكلمتين الصغيرتين. كان هناك كم هائل جداً.

اتصلت بذلك المراسل، كانت ذا ويكلي سان جريدة حرة تنشر بعض الأخبار المحلية المثيرة للاهتمام، وبعض المقالات عن الرياضة بين كم هائل من الإعلانات. لطالما كان هناك رزمة كبيرة منها قرب باب زيبي مع لافتة كتب عليها: خذ واحدة، وكتب قربها شخص ظريف: خذها كلها. كان اسم الصحفي بيل هاريمان. أجبت عن أسئلته، وعزوت مجدداً معظم الفضل لرادار. سأل السيد هاريمان إن كان بوسعه أن يلتقط صورة لنا.

«يا إلهي، لا أعرف، عليّ أن أحصل على موافقة السيد بوديتش وهو في المستشفى».

«هل يمكنك أن تسأله غداً أو بعد غد؟ عليّ أن أقدم مقالي قريباً فأنا أنوي نشره في إصدار الأسبوع القادم».

«سأقوم بهذا إن استطعت حيث إنهم سيجرون له عملية أخرى، ولعلهم لن يسمحوا لي بزيارته، ولا يمكنني أن أوافق على طلبك من دون موافقته». لم أرد أن يغضب مني السيد بوديتش، فقد كان شديد البأس، سريع الغضب. بحثت عبر الإنترنت عن مصطلح يماثل حالته ووجدت مصطلح المسنثروبيا.

«فهمتك، فهمتك. أبقني على اطلاع بطريقة أو بأخرى وبأقرب وقت ممكن. ألست الفتى الذي سجل هدف الفوز على ستانفورد بريب في توركي بول في شهر تشرين الثاني الماضي؟»

«أجل، ولكنها لم تكن مباراة ضمن أفضل عشر فرق لسبورتس سينتر أو أي شيء. كنا على الياردة الثانية من طرفهم، ورميت الكرة فحسب».

ضحك وقال: «يا لك من متواضع! يعجبني هذا فيك، اتصل بي يا تشارلي».

قلت له: سأفعل ذلك. ونزلت كي أشاهد التلفاز مع أبي قبل أن أدرس، وتساءلت عن حال رادار. حسناً، لقد تأملت أن أتآلف مع روتين حياة جديد. فكّرت في قول بوذا مجدداً، فكان قولاً جديراً بالتأمل.

الفصل الرابع

زيارة السيد بوديتش- آندي تشين- السرداب-

في أخبار أخرى- لقاء في المستشفى.

1

حين وصلت في صباح اليوم التالي إلى المنزل رقم 1 في شارع سيكامور، كان ترحيب رادار حماسياً، ولكن ليس باللهفة المعتادة، وهذا ما جعلني أعتقد أنها بدأت تتعود النظام الجديد. قضت حاجتها الصباحية وتناولت فطورها (اشترى لها أبي خمسة وعشرين رطلاً من طعامها الخاص) ثمّ أرادت أن تلعب بالقرد. كان لديّ متسع من الوقت، بعد أن تعبت من اللعب، لذا دخلت غرفة المعيشة لأرى إن كان التلفاز القديم يعمل. ضيعت بعض الوقت في البحث عن جهاز التحكم عن بعد، ولكن تلفاز السيد بوديتش القديم كان من مرحلة سبقت وجود جهاز تحكم عن بعد للتلفاز، كان هناك زران كبيران تحت الشاشة، كان على الزر الأول بعض الأرقام - اعتقدت أنها تعود لأرقام القنوات - لذا ضغطت الزر الذي كان على اليسار.

لم تكن همهمة التلفاز مزعجة كهمهمة المستودع، ولكنها كانت مقلقة. تراجعت قليلاً، وتمنيت ألا ينفجر. وبعد برهة ظهر على الشاشة برنامج توداي، وكان مات لوير وسافانا غوثري يحاوران مجموعة من السياسيين. لم تكن دقة الشاشة 4 آلاف بكسل أو حتّى ألف بكسل، ولكنها كانت واضحة إلى حدّ ما، حاولت أن أحرك الهوائي الذي أطلقت عليه السيدة سيلفيوس

لقب أذني الأرنب، أدرته في اتجاه فازدادت الصورة وضوحاً أدرته في اتجاه آخر واختفى برنامج توداي واستبدلت به عاصفة ثلجية، نظرت خلف الوحدة.

كان القسم الخلفي مليئاً بالثقوب لتنفذ منها الحرارة -وكان هذا منطقياً- ورأيت منها التوهج البرتقالي للأنابيب، كنت على ثقة أنها هي منبع الهمهمة.

نزعتها وتساءلت عن مدى الإزعاج الذي يحدث كلما أردت أن تغير القناة. قلت لرادار إن عليّ الذهاب إلى المدرسة، ولكنني احتجت لصورة أخرى أولاً، سلمتها القرد.

«هل تمانعين في أن تضعيه في فمك؟ ستكون صورة لطيفة».

لبت رادار طلبي بسرور.

2

وصلت إلى المستشفى قرابة الظهيرة لأنني أقلعت عن تدريبات كرة القاعدة، سألت عند طاولة الخدمة إذا كان مسموحاً للسيد بوديتش باستقبال الزوار، وقلت إن إحدى الممرضات أخبرتني أنه سيجري عملية أخرى. تفحصت الموظفة شيئاً على جهازها، وقالت لي إنني أستطيع زيارته، وحين اتجهت إلى المصعد قالت لي أن أنتظر فكان عليّ أن أملأ استمارة ما، كانت تطلب رقم هاتفي وبياناتي لاستخدامها في حالة الطوارئ. كان المريض المدرج هو هاورد أدريان بوديتش وكتب اسمي على هذا النحو: تشارلز ريد.

سألتني الموظفة: «هذا أنت، أليس كذلك؟».

«أجل، ولكن كنيتي كتبت بشكل خاطئ»، مسحته وكتبت: ريد، «هل طلب منكم أن تتصلوا بي أنا؟ أليس لديه أحد آخر كأخ أو أخت؟ لا أعتقد

أنني قد بلغت السن المناسبة لاتخاذ أي قرار مثل...». لم أرد أن أكمل وهي فهمت ما أقصد.

«لقد وقع طلب دي.إن.آر قبل أن يخضع للعملية، إن هذه الاستمارة تستخدم في حال أراد منك أن تحضر له شيئاً».

«ما هو طلب دي.إن.آر؟»

شرحت لي عن طلب عدم الإنعاش ذاك، كان شيئاً فصّلت عدم سماعه. ولم تجبني عن سؤالي عن إخوة أو أقرباء السيد بوديتش ولعلها لم تكن تعرف - ولِمَ كان عليها أن تعرف؟- ملأت الاستمارة بعنوان منزلي وبريدي الإلكتروني ورقم هاتفي المحمول. صعدت بعدها إلى الأعلى، وفكّرت إن هنالك أشياء لا تعد ولا تحصى لا أعرفها عن هاورد أدريان بوديتش.

3

كان مستيقظاً ولم تكن ساقه على النقالة، ولكن من خلال الثقل في لسانه، والنظرة الدامعة في عينيه، اكتشفت أنه كان مخدراً تماماً.

قال: «أنت مجدداً»، ولم يكن كلامه يرادف لقد سررت بمجيئك يا تشارلي تماماً.

وافقته وقلت: «أنا مجدداً».

عندها ابتسم. إن كانت معرفتي به أكثر عمقاً كنتُ لأقول له إن عليه أن يبتسم «اسحب كرسياً وقلْ لي لماذا تبدو هكذا».

كان هناك غطاء يصل إلى خصره، نزعه وكشف عن جبيرة معدنية تغطي ساقه من أخمصها إلى أعلى فخذه. وكانت هناك أسياخ تخرج من لحمه، وكانت نقاط الالتقاء مغلفة بأشياء مطاطية كانت يحيط بها دم جاف.

كانت ركبته مضمدة، وبدت بحجم رغيف خبز، اختفت أكثر الأسياخ داخل الأغلفة المطاطية.

قهقه عندما رأى التعبير على وجهي: «يبدو كأنه جهاز تعذيب في محاكم التفتيش أليس كذلك؟ يدعى هذا الجهاز بجهاز التثبيت الخارجي».

«هل تتألم؟» فكرت في أن هذا السؤال كان أغبى سؤال في العام، فقد كانت الأسياخ المعدنية تخرج من عظام ساقه.

«بالطبع، ولكن يوجد هذا لحسن الحظ»، رفع يده اليسرى، كان يحمل بها أداة صغيرة بدت وكأنها جهاز التحكم الذي لم يحظَ به تلفازه التقليدي. «إنها المضخة المسكنة، قالوا لي إنها ستساعدني على تسكين الألم ولكن ليس بالقدر الذي يوصلني إلى الانتشاء حيث إنني لم أتناول أي مسكن في حياتي أقوى من الأمبرين. أعتقد أنني منتش وأحلق في السماء».

قلت له: «وأنا أعتقد ذلك»، هذه المرة لم يكتفِ بالقهقهة، بل ضحك بصوت عالٍ، وضحكت معه.

«ستؤلمني على ما أعتقد»، لمس الجهاز الذي شكل سلسلة حلقات حول ساق داكنة وتتشح بالكدمات، لدرجة أنني تألمت بمجرد النظر إليها. «قال لي الطبيب الذي ثبت لي هذا الجهاز في الصباح الباكر إن هذه الأجهزة قد اخترعها الروس خلال معركة ستالينغراد»، لمس أحد الأسياخ المعدنية فوق الحشوة الدامية، «صنع الروس هذه الحلقات المعدنية من أسياخ الدراجات».

«متى سينزعون هذا الجهاز؟».

«في غضون ستة أسابيع إذا كنت محظوظاً وسريع الشفاء، وفي غضون ثلاثة أشهر إذا لم أكن محظوظاً. لقد أعطوني عدة مترفة وأعتقد أنهم قد استخدموا التيتانيوم أيضاً، ولكن بحلول الوقت الذي سينزع فيه جهاز

التثبيت ستكون ساقي قد تصلبت، قالوا لي إن العلاج الفيزيائي سيمرنها كما قالوا لي إن هذا العلاج سيسبب بعض الإزعاجات، وما دمت على دراية بنيتشه فسيمكنك تفسير معنى هذه العبارة».

«أعتقد أنهم يقصدون أنك ستتألم بشكل لا يوصف».

كنت أتمنى أن يضحك مجدداً – أو يقهقه على الأقل - ولكنه اكتفى بالابتسام، وضغط مرتين على جهاز التحكم. «أعتقد أنك محق، إن كنت محظوظاً بما فيه الكفاية للتخلي عن لفائف الموت في العملية، كنت سأوفر على نفسي تلك الإزعاجات».

«لا تقصد هذا فعلاً».

قطّب حاجبيه اللذين كانا رماديين وكثين: «لا تؤول قصدي فهذا يهينني ويظهرك مغفلاً. أعلم ما أواجهه»، ثمّ قال وكأنه مجبر: «شكراً لزيارتك، كيف حال رادار؟».

«بخير»، أريته الصور الجديدة التي التقطتها، تأمل صورة تجلس فيها رادار وهي تضع القرد في فمها. وأخيراً، أعاد لي هاتفي المحمول.

«هل تريد أن أطبع لك نسخة لأنه ليس لديك هاتف محمول؟».

«سأسر بهذا طبعاً، شكراً على إطعامك لها وعطفك عليها، أنا متأكد أنها تثمن هذا كثيراً وأنا أيضاً».

«أنا أحبها يا سيد بوديتش...».

«هاورد».

«هاورد، لقد نسيت. أريد أن أشذب أعشابك إذا لم يكن لديك مانع، هل هناك جزازة عشب في المستودع؟».

ارتسمت ملامح الحذر على وجهه، ووضع جهاز التحكم على السرير وقال: «كلا، ليس هناك شيء في المستودع، ذو فائدة بالطبع».

لماذا كان المستودع مقفلاً؟ كان هذا سؤالاً خطيراً وعرفت أنه يجدر بي ألا أطرحه.

«سأحضر جزازتنا إذاً، نعيش في نهاية الشارع».

تنهد وكأن المصاعب لا تأتي فرادى، لا بدّ أن هذا كان شعوره الحقيقي بعد اليوم الذي مر به. «لماذا تريد أن تفعل هذا؟ هل تريد أن تتقاضى أجراً؟ هل تريد عملاً؟».

«كلا».

«لماذا إذاً؟».

«لا أود أن أتكلم عن الأمر، لا بدّ أن لديك بعض الأمور التي لا تود أن تفصح عنها أليس كذلك؟». كعلبة الطحين مثلاً أو المستودع.

لم يقهقه، ولكنه ابتسم ابتسامة صفراء: «أفهمك تماماً، أهذا متعلق بعادات الصينيين؟ كأن تكون مسؤولاً عن حياة شخص بعد أن تنقذها؟».

«كلا»، لقد فكرت في حياة أبي، «هل يمكن ألا نتطرق إلى هذا الموضوع؟ سأجز عشبك، ولعلني سأصلح السياج إن لم يكن لديك مانع ».

نظر إليّ مطولاً، ثمّ قال باستبصار أخافني قليلاً: «هل أسدي لك معروفاً إذا وافقت؟».

ابتسمت وقلت: «في الواقع، أجل».

«حسناً إذاً، ولكن الجزازة بعد أول جولة لها مع هذه الأعشاب الطويلة ستتعطل؛ هناك أدوات عدة في السرداب، إن معظمها لا يفيد، ولكن هناك

منجلاً يمكن أن يقطع الأعشاب كي يسهل جزها، إذا أزلت عنه الصدأ وشحذته قليلاً، لا بدّ من أن هناك مشحذاً على المنضدة، لا تدع رادار تنزل على الدرج فهو منحدر ويمكن أن تقع».

«حسناً، ماذا عن السلم؟ ماذا عليّ أن أفعل به؟».

«ضعه تحت الشرفة السفلية، إن تركته مكانه ما كنت لأدخل المستشفى، يا لأولئك الأطباء ولأخبارهم السيئة، هل هناك شيء آخر؟».

«حسناً... هناك مراسل من ذا ويكلي سان يريد أن يكتب مقالاً عني».

تأفف السيد بوديتش وقال: «يا لتلك الأساليب المعهودة، هل ستوافق على طلبه؟»

«يريد مني أبي أن أوافق حيث قال إنه سيفيد ملفي عندما أتقدم إلى الجامعة».

«لعلها ستكون مفيدة، ولكنها... ليست بمقام ذا نيويورك كرايمز أليس كذلك؟».

«طلب مني الرجل صورة لي مع رادار، فقلت له إنني أريد موافقتك. ولكنني أعتقد أنك لن تفضل هذا، ولا مانع لديّ في ذلك».

«الكلبة البطلة، هل هذه الناحية التي يريدها أم التي تريدها أنت؟».

«أعتقد أن الفضل يعود لها».

فكّر السيد بوديتش في الأمر قليلاً وقال: «حسناً، ولكنني لا أريده أن يدخل إلى ملكيتي، قف معها على الممشى فيمكنه أن يلتقط صورته من البوابة أو خارجها»، تناول جهاز التحكم وكبس عليه مرتين، ثم قال على مضض «هناك لجام يتدلى من علاقة قرب الباب الأمامي، لم أستخدمه منذ

وقت طويل، لعلها ستستمتع بنزهة إلى التل... ولكن مع اللجام. إذا صدمتها سيارة لن أسامحك أبداً».

قلت له إنني أتفهم هذا الأمر، وكنت أتفهمه حقاً؛ لم يكن لدى السيد بوديتش إخوة أو أخوات أو زوجة سابقة أو زوجة متوفاة، كانت رادار هي مؤنسته الوحيدة.

«ولا تبتعد كثيراً بها، تعودت قطع أربعة أميال في السابق، ولكن تلك الأيام قد ولت. عليك أن تذهب، أعتقد أنني سأنام حتّى يحضروا لي القمامة التي يدعونها بالعشاء».

«حسناً، سررت برؤيتك». لقد سررت حقاً، أحببته ولا أظنكم تنتظرونني لأشرح لكم السبب، ولكنني سأخبركم في جميع الأحوال، أعجبت به بسبب حبه لرادار ولأنني أحبها أنا الآخر.

نهضت، وفكرت في أن أربت يده، ولكنني لم أفعل، واتجهت إلى الباب.

قال لي: «يا إلهي! هناك شيء آخر، إنه شيء تمكنت من تذكره الآن على الأقل؛ إذا كنت هنا في يوم الاثنين - ولعلني سأكون هنا - ستصل المواد من البقالية».

«توصيل من كروغيرز؟».

رمقني بنظرة الاستغباء مجدداً وقال: «تيلير أند سونز».

كنت قد سمعت بتيلير، ولكننا ما كنا نرتاده لأنه كان يصنف على أنه «متجر فخم» أي باهظ الثمن. راودتني ذكرى مشوشة وهي أن أمي اشترت لي قالب حلوى منه بمناسبة عيد ميلادي حين كنت في الخامسة أو السادسة؛ كان عليه زخرفة من الليمون كما كانت الكريما تغطي طبقاته، اعتقدت أن ذلك القالب كان أشهى قالب حلوى في العالم.

«يأتي الرجل صباحاً في معظم الأوقات، هل تستطيع أن تتصل بهم وتطلب منهم أن يؤجلوا الطلبية إلى المساء بحيث تكون موجوداً؟ لديهم طلب باسمي ».

«حسناً».

وضع يداً على جبينه، اعتقدت أنها كانت ترجف قليلاً، ولكنني لم أكن متأكداً لأنني كنت قرب الباب. «وعليك أن تدفع لهم أيضاً، هل يمكنك فعل هذا؟».

«بالطبع»، كنت سأطلب من أبي أن يعطيني شيكاً فارغاً، وسأكتب عليه المبلغ المطلوب.

«أخبرهم أن يوقفوا الطلب الأسبوعي حتّى أطلب منهم ذلك بنفسي»، مرر يده ببطء على وجهه وكأنه يحاول أن يمهد التجاعيد؛ كانت محاولة فاشلة ولا أعتقد أنها كانت محاولة في المقام الأول. «يا إلهي! كم أكره أن أعتمد على الآخرين، لماذا صعدت على ذلك السلم؟ لا بدّ أنني كنت أتعاطى».

قلت له: «ستكون على ما يرام» ولكن في طريقي إلى المصعد، ظللت أفكّر في شيء قاله حين تكلمنا عن السلم: يا لأولئك الأطباء وأخبارهم السيئة، لعله كان يقصد عن الفترة اللعينة التي ستستغرقها ساقه اللعينة لتتماثل للشفاء أو لعله كان يتأفف من فكرة أن يرافقه معالج فيزيائي (أو متلصص في هذه الحال) في المنزل.

ولكنني لم أتوصل إلى نتيجة حاسمة.

4

اتصلت ببيل هاريمان، وقلت له إن بوسعه أن يلتقط صورة لي ولرادار إن لم يفت الأوان بعد، وأخبرته بشروط السيد بوديتش فوافق عليها.

«يا له من رجل منطوٍ أليس كذلك؟ لم أستطع أن أعثر على شيء عنه في ملفاتنا أو في ذا بيكون».

«لا أدري، هل يناسبك صباح يوم الأحد؟».

اتفقنا على أن نلتقي في تمام الساعة العاشرة صباحاً. ركبت دراجتي واتجهت إلى المنزل، وكنت أقود بسهولة ولكنني أفكّر بصعوبة؛ فكّرت في رادار ولجامها الذي كان معلقاً قرب الباب الأمامي، وفكرت في أنني لن أبتعد عن المنزل الكبير القديم، وحين فكرت في الأمر أكثر لاحظت أن طوق رادار كان مجرداً من اسمها، أي ربما لا توجد رخصة خاصة تشير إلى أنها ليست مريضة بالكلَب أو أي شيء آخر، هل سبق لرادار أن ذهبت إلى طبيب بيطري؟ رجحت أنها لم تذهب يوماً إلى هناك.

كان السيد بوديتش يطلب توصيل مواد البقالية وأعتقد أنها طريقة الطبقة العليا للحصول على البيرة والحلوى، كما أن متجر تيلر أند سونز كان مكاناً للطبقة العليا ويتسوّق فيه كثير من الأفراد الذين يملكون رُزماً خضراء لا تعد ولا تحصى. قادني هذا لأن أتساءل كما تساءل أبي عن عمل السيد بوديتش قبل أن يتقاعد، فقد كانت الطريقة التي يتكلم بها راقية وكأنه كان أستاذاً. ولكنني لا أعتقد أن الأساتذة المتقاعدين يستطيعون تحمل تكاليف التسوّق في متجر يتفاخر باحتوائه على سرداب للنبيذ. كان يملك تلفازاً قديماً ولا يملك حاسوباً (كنت مستعداً على أن أراهن على هذا) ولا هاتفاً محمولاً ولا سيارة، عرفت اسمه الأوسط ولم أعرف عمره.

اتصلت بتيلير أند سونز حين وصلت إلى المنزل، وحددت موعداً لاستلام مواد البقالية في تمام الساعة الثالثة عصر يوم الاثنين. فكّرت في أن آخذ فروضي المنزلية إلى منزل بوديتش حين طرق آندي تشين الباب الخلفي للمرة الأولى منذ فترة طويلة. حين كنا صغيرين ما كنت وآندي تشين وبيرتي بيرد نفترق، حتّى أننا أطلقنا على أنفسنا لقب الفرسان الثلاثة.

ولكن عائلة بيرد انتقلت إلى ديربورن (ولعل هذا الانتقال أفادني كثيراً). من جهته، كان آندي عقلاً واعداً وكان يأخذ العديد من الحصص المتقدمة بما فيها الفيزياء في فرع جديد من جامعة إيلينوي. لقد كان بطلاً رياضياً بالتأكيد، وتفوّق في رياضتين لم ألعبهما؛ كانت كرة المضرب إحداها والأخرى كرة السلة التي كان يدربها المدرب هاركنس، فاستطعت أن أستشف سبب قدوم آندي.

تفحص آندي محتويات برادنا ليرى إن كان هنالك أشياء لذيذة ثمّ قال: «يقول المدرب إن عليك معاودة لعب كرة القاعدة». تناول أخيراً بقايا دجاج كانغ باو. «يقول إنك تخذل الفريق بأكمله».

قلت له: «يا إلهي! احزم حقائبك، فسنمشي في طريق الإحساس بالذنب، لا أعتقد هذا».

«قال إنه ليس عليك أن تعتذر».

«ما كنت أُفكر بالاعتذار أصلاً».

قال آندي: «إنه يفقد عقله، أتعرف بما يناديني؟ بالخطر الأصفر. وكأنه يقول لي: انطلق أيها الخطر الأصفر واحرس الوغد الكبير».

اعتراني الفضول والفزع في الوقت ذاته فسألته: «هل يمكنك تحمل هذا؟».

«يعتقد أنه يمدحني وأجد هذا مضحكاً. أضف إلى ذلك أنني سأغادر هيلفيو بعد موسمين لألعب مع هوفسترا. ها أنا قادم أيتها الشعبة1! سأذهب في جولة كاملة يا عزيزي! سأتوقف عن كوني الخطر الأصفر، هل أنقذت حياة ذلك الرجل حقاً؟ هذا ما أسمعه في المدرسة».

«لقد أنقذته كلبته، لقد اتصلت بالطوارئ وحسب».

«ألم تنتزع عنقك؟».

«كلا، إنها كلبة طيبة، كما أنها عجوز».

«لم تكن عجوزاً حين رأيتها؛ في ذلك اليوم كانت متعطشة للدماء. هل الوضع مريب داخل المنزل؟ هل يوجد حيوانات محنطة أو ساعة بعيون قطة تتبعك أينما تذهب؟ يرجح الأولاد أنه قاتل متسلسل».

«إنه ليس بقاتل متسلسل كما أن المنزل ليس مريباً». كان هذا صحيحاً حيث إن المستودع هو من كان مريباً، كما أن صوت الهمهمة كان مريباً. أما بالنسبة إلى رادار: لقد عرفت هي الأخرى أن تلك الأصوات كانت مريبة.

قال آندي: «حسناً، بلغتك الرسالة. هل لديك شيء آخر لآكله؟ كالبسكويت مثلاً؟»

«كلا»، كان البسكويت في منزل السيد بوديتش بالزبدة وبحلوى الخطمي ولا بدّ أنه اشتراها من تيلير أند سونز.

«حسناً، أراك لاحقاً يا صاح».

«أراك لاحقاً أيها الخطر الأصفر».

تبادلنا النظرات ثمّ انفجرنا ضحكاً. شعرت وكأنني عدت إلى سن الحادية عشرة.

5

يوم السبت، التقطت صوراً مع رادار. كان هناك لجام فعلاً في الردهة الأمامية، وكان معلقاً قرب معطف شتوي، وكان تحته حذاء مطري مطاطي. فكّرت في أن أفتش جيبي معطفه - لأرى ماذا يمكن أن أجد. أتفهمونني؟ - وقلت لنفسي يجب ألا أكون متلصصاً. كان هناك طوق إضافي متصل

باللجام، ولكن دون اسم. أي بالنسبة للإدارة البلدية كانت كلبة السيد بوديتش تختبئ ها-ها عن الرادار. سرنا على الممشى، وانتظرت أن يأتي بيل هاريمان. وصل في الوقت المحدد تماماً وكان يقود سيارة موستانغ قديمة، وبدا وكأنه قد تخرج من الجامعة السنة الماضية.

زمجرت رادار قليلاً كعادتها حين ركن سيارته وخرج منها. قلت لها إنه صديق، فهدأت قليلاً. ولكنها أخرجت أنفها من حديد البوابة لتشتمه وتتفحصه. زمجرت مجدداً حين مد يده عبر البوابة ليصافحني.

عاين الوضع وقال: «تبدو حارسة جيدة!».

«أعتقد أنها كذلك».

توقعت أن يكون معه كاميرا كبيرة - لعل هذه الفكرة تراءت لي من فيلم عرض على قناة تورنر كلاسيك موفيز حول المراسلين الصحفيين النشطاء؛ ولكنه التقط الصورة بواسطة هاتفه. وبعد أن التقط صورتين أو ثلاث سألني إن كان بوسعها أن تجلس، «إن استطاعت أن تجلس اجثُ على ركبتك قربها، ستكون صورة جميلة لكلبة وصاحبها».

قلت له: «ليست كلبتي» ولكنني كنت أفكر أنها أصبحت صاحبها لهذه الفترة على الأقل. طلبت من رادار أن تجلس، ولكنني لم أكن واثقاً من أنها ستستجيب لي. جلست حالاً، وكأنها كانت تنتظر هذا الطلب، فجلست بالقرب منها. لاحظت أن السيدة ريتشلاند قد خرجت من منزلها لتراقبنا ووضعت يدها لتحجب الشمس عن عينيها.

قال هاريمان: «ضع ذراعك حولها».

وحين فعلت ذلك، لعقتْ وجنتي. أضحكني هذا، وكانت هذه هي الصورة التي نشرت في العدد التالي من ذا سان، ولم تقتصر الصورة على تلك الجريدة كما تبيّن لاحقاً.

سألني هاريمان وهو يشير إلى المنزل: «كيف الوضع في المنزل من الداخل؟».

رفعت كتفي وقلت: «مثل كل منزل على ما أعتقد، كان عادياً، ولكنني لم أكن متأكداً حيث إنني لم أر سوى ممشى المخطوطات القديمة، والمطبخ، وغرفة المعيشة، والردهة الأمامية.

«ليس هناك شيء خارق للطبيعة أليس كذلك؟ لأنه يبدو مريباً».

فتحت فمي لأقول إن التلفاز يعود للأيام التي سبقت البث الكبلي والبث المباشر ولكنني تراجعت. لاحظت أن هاريمان قد تجاوز مرحلة التقاط الصور وتطرق لإجراء مقابلة، أو أنه حاول إجراء مقابلة على الأقل حيث إنه لم يكن حذقاً لأنه كان مبتدئاً.

«كلا، إنه منزل عادي، يجدر بي أن أذهب».

«هل ستهتم بالكلبة إلى أن يخرج السيد بوديتش من المستشفى؟».

كنت أنا من رفع يده هذه المرة. لم تزمجر رادار، ولكنها كانت مستعدة في حال حصل شيء لم يكن في الحسبان. «أتمنى أن تكون الصور جيدة، هيّا بنا يا رادار».

اتجهت إلى الباب، وحين نظرت إلى الخلف، وجدت أن هاريمان كان يعبر الشارع ليتكلم مع السيدة ريتشلاند، ولم يكن بوسعي فعل شيء حيال هذا الأمر. لذا، ذهبت إلى الخلف وكانت رادار ورائي، لاحظت أنها تمرنت بعد أن مشت قليلاً.

وضعت السلم تحت الشرفة الخلفية، وكان هناك مجرفة للثلج، ومقصات بستنة صدئة كالبوابة، ولعلها صعبة الاستخدام مثلها أيضاً. راقبتني رادار من حيث كانت تقف وسط الدرج، وكانت لطيفة لدرجة أنها أجبرتني

أن ألتقط لها صورة أخرى. أصبحت متعلقاً بها للغاية. عرفت هذا تماماً، ولم أخجل من الاعتراف به.

في المطبخ كان هناك عدة تنظيف تحت المجلى، ورزمة مرتبة من أكياس حزم الخضراوات وعليها شعار تيلير. كما كان هناك قفازات مطاطية. وضعت جوزاً وتناولت كيساً وذهبت لأنظف الروث، لقد نظفت العديد منه.

يوم الأحد، طوقت رقبة رادار باللجام مجدداً، ومشيت معها على التل إلى أن وصلنا إلى منزلنا. في البداية، مشت ببطء بسبب وركيها المتأذيين بالتهاب المفاصل، ولأنها لم تبدُ معتادة على مغادرة المنزل، ظلت تنظر إليّ لتأخذ الأمان ولامس هذا قلبي. ولكن بعد فترة أصبحت تشق طريقها بسهولة وثقة وتوقفت لتشتم أكشاك الهاتف وتقرفص هنا وهناك كي تعرف الكلاب الأخرى أن رادار كلبة بوديتش قد مرت من هنا.

كان أبي في المنزل. في البداية، خافت رادار منه، وزمجرت ولكن حين مد أبي يده لها اقتربت منه لتشمها. حلت نصف قطعة نقانق القضية برمتها، بقينا قرابة الساعة وسألني أبي عن جلسة التصوير، وضحك حين أوضحت له كيف حاول هاريمان أن يسألني عن هيئة المنزل من الداخل وكيف جعلته يصمت.

قال أبي: «سينجح أكثر إذا التزم بالأخبار، إن ذا ويكلي سان هي المكان المناسب ليبدأ ببناء سيرته المهنية».

بحلول هذا الوقت، كانت رادار قد غفت قرب الأريكة التي تعوّد أبي أن يفقد أبي عليها وعيه بسبب الشرب، انحنى وداعب شعرها، «لا بد من أنها كانت شقية حين كانت في أوج شبابها».

فكرت في قصة آندي حول الوحش الرهيب الذي قابله قبل أربع أو خمس سنوات ووافقت أبي.

«يجب أن تتبين إن كان لديه أدوية لالتهاب مفاصل الكلاب، كما يجب أن تأخذ دواء ضد ديدان القلب».

«سأبحث في الأرجاء»، لقد أزلت لجامها، ولكنني ثبته بطوقها. رفعت رأسها فقلت: «علينا أن نعود».

«ألا تريد أن تبقيها هنا طوال اليوم؟ تبدو مرتاحة».

«كلا، يجب عليّ أن أعيدها».

إذا سألني عن السبب، فكنت سأقول له الحقيقة: لأنني لا أعتقد أن هاورد بوديتش سيرغب بهذا، لكنه لم يسألني. «حسناً، هل تريد توصيلة؟».

«لا داعي لذلك، أعتقد أنها ستكون على ما يرام إذا مشينا ببطء».

وكانت على ما يرام فعلاً. وحين صعدنا التل بدت مسرورة باستنشاق رائحة عشب مختلف عن العشب الذي تعودت عليه.

6

عصر يوم الاثنين، رُكنت فان خضراء مرتبة عليها شعار تيلير أند سونز (وكان قد كتب باللون الذهبي). سألني السائق عن السيد بوديتش، فأخبرته أنه وصل، فناولني الأكياس من فوق البوابة بشكل تلقائي، لذا اعتقدت أن هذه كانت العادة فعلاً. كتبت المبلغ المطلوب على الشيك الفارغ الذي وقعه أبي -فزعت بسبب فكرة دفع مئة وخمسة دولارات لقاء ثلاثة أكياس من البقالية- ثمّ سلمته الشيك. كانت هناك أيضاً شرائح لحم ضأن ولحم مفروم وضعتها في الثلاجة، ما كنت سأتناول طعامه (باستثناء البسكويت) ولكنني ما كنت لأدعه يفسد.

بعد أن فرغت من ذلك، نزلت إلى السرداب، وأغلقت الباب خلفي، كي لا تحاول رادار اللحاق بي. لم يكن يشبه سراديب القتلة المتسلسلين

على الإطلاق، ولكنه كان رطباً ويكسوه الغبار، وكأنه كان مهجوراً لوقت طويل، كان النور قادماً من مصباحي فلورسنت؛ كان الأول ينير ثمّ ينطفئ والآخر شبه ميت، وكانت الأرضية من الإسمنت الخشن. كان هناك أدوات كثيرة بما فيها المنجل الذي كان يشبه النوع الذي يحمله رجل الموت العجوز في أفلام الكرتون.

كان هناك في وسط الغرفة طاولة عمل عليها غطاء، رفعته لأنظر تحته، ورأيت أحجية صور مقطوعة مرتبة بشكل مثالي، وبدت أنها تتألف من مليار قطعة، ومن منظوري (لم يكن هناك صندوق لأقارنها معه) بدت صورة لسهل جبلي وكانت الخلفية عبارة عن جبال روكي. كان هناك كرسي قابل للطي قرب الطاولة، وكان عليه عدة قطع متناثرة، وكان يعلوه الغبار. واستشففت أن السيد بوديتش أقلع عن هذه الأحجية منذ وقت طويل.

لعله استسلم! أعترف أنني كنت سأستسلم حيث إن ما تبقى كانت سماء صافية عادية، ولم يكن هناك غيمة واحدة حتّى لتكسر النمطية. لعلني أعطيت هذا التفصيل أكبر من حجمه... ولكن لعلني لم أقصر بذكره. كان هناك شيء حزين حول هذا الأمر، لم أستطع أن أعبّر عن سبب حزني هذا، ولكنني أكبر الآن وأعتقد أن بوسعي فعل ذلك. كان حزني يدور حول الأحجية بالإضافة للتلفاز العتيق وممشى المخطوطات القديمة، وكان حزني يدور حول رجل عجوز طاردته وحدته، كما أن الغبار -على الكرسي القابل للطي والكتب والمجلات- كان يدل على أن هذه الأمور كانت تتداعى هي الأخرى. إن الشيئين الوحيدين في السرداب اللذين بدا أنهما يُستخدمان بشكل مستمر هما الغسالة والنشافة.

غطيت الأحجية مجدداً، وتحققت من خزانة بين الفرن وخزان المياه، كانت تقليدية وفيها أدراج عديدة، وجدت بعض البراغي في درج وملاقط ومفكات في درج آخر، وحزمة من المطاط في الدرج الثالث وأزاميل ومشحذ في الدرج الرابع، وضعت المشحذ في جيبي، وتناولت المنجل

وصعدت إلى الأعلى. أرادت رادار أن تقفز عليّ فأمرتها أن تبتعد قليلاً كي لا أصيبها بالشفرة.

خرجنا إلى الخلف، وعندها اكتشفت أن بطارية هاتفي المحمول على وشك النفاد. جلست على الدرج، وجلست رادار بالقرب مني. فتحت متصفح سافاري وكتبت كيف تشحذ الشفرات بواسطة المشحذ وتصفحت بعض مقاطع الفيديو حول هذا الأمر ثمّ بدأت العمل. لم يستغرق شحذ المنجل وقتاً طويلاً.

التقطت صورة لأريها للسيد بوديتش ثمّ قدت دراجتي إلى المنزل. وجدت أبي نائماً، فقدت دراجتي بعد الظهر لأطعم رادار. لقد اشتقت قليلاً إلى كرة القاعدة.

حسناً... لعلني اشتقت إليها كثيراً.

7

عصر يوم الثلاثاء بدأت قطع العشب الطويل؛ بدأت أولاً بالردهة الأمامية ثمّ انتقلت إلى القسم الخلفي. نظرت بعد ساعة إلى يدي الحمراوين، وأيقنت أن البثور ستظهر قريباً إذا لم أكن حذراً. وضعت اللجام على رادار ومشيت معها إلى منزلنا، وعثرت على قفاز أبي في المرأب. صعدنا التل ومشيت بسرعة رادار. قطعت الأعشاب من الجنب بينما نامت رادار، ثمّ أطعمتها وعدت إلى المنزل. شوى أبي البرغر على شواية الباحة الخلفية فأكلت ثلاث شطائر، وشربت عصير الكرز المركز كنوع من التحلية.

أوصلني أبي إلى المستشفى، وانتظر في الأسفل، وأمضى وقته بقراءة التقارير ريثما أنهيت زيارتي للسيد بوديتش. لاحظت أن السيد بوديتش تناول شطيرة برغر هو الآخر بالإضافة إلى المعكرونة بالجبن ولكنه لم يتناول الكثير من كلا الطبقين، مع أنه لم يمضِ ساعتين من يومه بتقطيع الأعشاب بالمنجل. وعلى الرغم من أنه حاول أن يكون لطيفاً وهو يراقب

صور رادار (بالإضافة إلى صورة المنجل وعشب باحته الأمامية الذي كان قد قطع لنصف طوله) بدا لي وكأنه يتألم كثيراً. ظل يكبس الجهاز الذي يمرر الدواء، حتّى أصدر هذا الجهاز صوت طنين في المرة الثالثة التي كبسه فيها، كالصوت الذي يصدر في مسابقة حين يجيب المتسابق إجابة خاطئة.

«يا لهذا الشيء اللعين! لقد وصلت إلى الحد الأقصى منذ ساعة، يجدر بك أن تذهب يا تشارلي قبل أن أغضب عليك لمجرد أنني بائس. عد يوم الجمعة أو السبت، لعلني أكون في وضع أفضل وقتها».

«هل أخبروك متى ستخرج من المستشفى؟».

«قالوا إنني قد أخرج يوم الأحد. أتت سيدة وقالت إنها تريد مساعدتي بالعمل على...»، ورفع يديه الكبيرتين اللتين كانتا متشحتين بالكدمات من الحقن ومثّل لي علامتي اقتباس «...خطة تماثل للشفاء، فطلبت منها أن تغرب عن وجهي، لم أقلها بهذه الوقاحة حيث إنني أحاول أن أكون مريضاً جيداً، ولكن الأمر صعب، ليس بسبب الألم وحسب بل...»، ورسم بيده دائرة ثمّ أعاد ذراعيه إلى السرير.

قلت له: «هناك كثير من الأشخاص وأنت لست متعوداً على هذا».

«إنك تفهمني، حمداً لله على هذه النعمة، كما أن هناك كثيراً من الضجة. وقبل أن تغادر تلك المرأة -كان اسمها يشبه ريفينهاغر - سألتني إذا كان لديّ سرير في الطابق الأول من منزلي، لا أملك سريراً، ولكن الأريكة قابلة للفتح، ولكنني لم أستخدمها كسرير منذ وقت طويل، أعتقد... أنني لم أجرب استخدامها كسرير من قبل، لقد اشتريتها لأنه كان عليها حسم».

«سأعدها لك إن أخبرتني بمكان الأغطية».

«هل تعرف كيف تفعل ذلك؟».

بصفتي ابن أرمل كان مدمن كحول نشطاً كنت أعرف كيفية فعل ذلك تماماً، كما أعرف كيف أغسل الثياب وأشتري البقالية، كنت مستقلاً إلى حدّ ما. أجبته: «أجل».

«في خزانة البياضات في الطابق الثاني، هل سبق لك أن صعدت إلى الطابق الثاني؟»

أشحت بوجهي.

«حسناً، أعتقد أن هذه هي فرصتك، إنها قبالة غرفتي النوم، شكراً لك».

«لا عليك، وفي المرة الثانية التي تأتي فيها تلك السيدة قل لها إنني خطتك للتماثل للشفاء»، نهضت وقلت: «يجدر بي الذهاب لكي ترتاح قليلاً».

توجهت إلى الباب، ولكنه نادى لي باسمي، فأدرت وجهي.

«أنت أفضل ما حصل لي منذ فترة طويلة»، ثمّ قال وكأنه يتحدث إلى نفسه وليس إليّ: «سأثق بك، فليس لديّ خيار آخر».

أخبرت أبي بالجزء الذي قال فيه إنني أفضل ما حصل له، ولكنني أخفيت عنه جزء الثقة. ردعني حدسي عن البوح بذلك. عانقني أبي بذراع واحد بشدة وقبّل وجنتي وقال إنه فخور بي.

كان ذلك يوماً جيداً.

8

يوم الخميس، أجبرت نفسي على أن أطرق باب المستودع مجدداً، فلم أكن أُحب رؤية ذلك المبنى الصغير على الإطلاق. لم يطرق أحد أو يشطب على الباب، فحاولت أن أقنع نفسي بأنني تخيّلت صوت الهمهمة المريب ذاك، ولكن في هذه الحال ستكون رادار قد تخيّلته أيضاً، ولا أعتقد

أن الكلاب ضليعة بالتخيّل. ومن الممكن طبعاً أن يكون ردّ فعلها صدى لردّ فعلي، أو لأقول الحقيقة: لعلها استشعرت خوفي ونفوري الحدسي.

يوم الجمعة جررت جزازة العشب الخاصة بنا إلى الشارع، وبدأت العمل في الباحة التي سبق أن جُزت، ولاحظت أنه يمكنني جعلها مقبولة بحلول عطلة نهاية الأسبوع. ستبدأ عطلة الربيع الأسبوع القادم، وخططت أن أمضي معظمها في المنزل رقم 1 في شارع سيكامور، كنت سأنظف النوافذ، ثمّ أتوجه للعمل على السياج المتداعي لأعيد تقويمه من جديد. اعتقدت أن رؤية هذه التصليحات سترفع من معنويات السيد بوديتش.

كنت أجز العشب بموازاة حافة المنزل التي تطل على شارع باين (كانت رادار في الداخل، وفضّلت أن تبتعد عن جزازة العشب ذات الصوت الهادر) حين اهتز هاتفي المحمول في جيبي، أطفأت الجزازة وقرأت: مستشفى أركاديا على الشاشة، تلقيت الاتصال وقلبي بين يدي؛ لا بدّ من أن أحداً كان سيقول لي إن حال السيد بوديتش قد تدهورت، أو بسيناريو أسوأ: كان سيقول لي إنه توفي.

كان الأمر يتعلق به بالتأكيد، ولكنها لم تكن أخباراً سيئة. سألتني سيدة تدعى ريفينزبورغر إن كان بوسعي أن آتي صباح يوم الثلاثاء في تمام الساعة التاسعة لنتكلم عن خطة الرعاية والحرص على تماثل السيد بوديتش للشفاء، قلت لها إنني سآتي، ثمّ سألتني إن كان بوسعي أن أحضر أباً أو وصياً، قلت لها على الأرجح.

«رأيت صورتك في الجريدة مع كلبته الرائعة، يدين لكما السيد بوديتش بكثير من الفضل».

اعتقدت بأنها كانت تتكلم عن مقال ذا سان، لا بدّ أن يكون هذا صحيحاً. ولكنني ورادار ظهرنا في أماكن أخرى، أو عليّ القول إننا قد ظهرنا في كل مكان.

كالعادة، عاد أبي متأخراً حيث إنه لطالما تأخر أيام الجُمَع، وكانت معه نسخة من شيكاغو تريبيون مفتوحة على الصفحة الثانية حيث كانت تريب تنشر شريطاً جانبياً يدعى أخبار أخرى، كان يتضمن أخباراً مختصرة وأكثر تفاؤلاً وحيوية من أخبار الصفحة الأولى. عنون الخبر الذي تناولني أنا ورادار: «الكلبة البطلة والمراهق البطل». لم تصبني الدهشة برؤية نفسي في التريب ولكنني تفاجأت قليلاً. إن هذا عالم جيد وبغض النظر عن اللامبالاة المنتشرة، كان هناك آلاف من الناس يفعلون أموراً خيرة كل يوم (ولعل عددهم قد يصل إلى الملايين). لم تكن مساعدة فتى لرجل مسن كان قد وقع عن السلم وكسر ساقه أمراً مميزاً، ولكن الصورة روّجت لهذا العمل. كانت رادار على وشك أن تلعقني وكانت ذراعي حول عنقها كما كان رأسي مائلاً للخلف من شدة الضحك. وإن حق لي القول بدوت وسيماً، ما جعلني أتساءل عما إذا كانت فتاة أحلام يقظتي جينا باسكاريلي قد رأت هذه الصورة.

سألني أبي وهو يشير إلى التعليق: «أترى هذا؟» ثمّ تابع: «أ.ب، وكالة أنباء أسوشيتد برس، لا بدّ من أن هذه الصورة قد انتشرت في خمسمئة أو ستمئة صحيفة اليوم في معظم المناطق، ناهيك عن عرضها على مواقع الإنترنت. قال آندي وارهول إن الجميع سيحظون بفرصة شهر في أميركا لمدة ربع ساعة وأعتقد أنك تمر بهذه الفترة ولكن لوقت أطول. هل تريد الذهاب إلى بينغوز لنحتفل؟»

بالطبع، وبينما كنت أتناول وجبة أضلاع اللحم (والنسخة المدعومة منها) سألت أبي إن كان بوسعه أن يرافقني إلى المستشفى غداً لنتحدث مع سيدة اسمها ريفينزبورغر، فقال: إن هذا من دواعي سروري.

التقينا في مكتب ريفينزبورغر. كانت معها امرأة يافعة اسمها ميليسا ويلكوكس - كانت طويلة ورشيقة وكانت تربط شعرها الأشقر بطريقة جميلة، كما كانت المعالجة الفيزيائية التي عُينت للاهتمام بالسيد بوديتش. لقد تولت الحديث، وكانت تتفحص كراسة صغيرة من وقت إلى آخر كي لا تنسى أي شيء. قالت إنه وبعد نقاش حثيث سمح لها السيد بوديتش بالدخول إلى منزله مرتين في الأسبوع للعمل على تحسين حركته ومساعدته للنهوض على ساقيه مجدداً بمساعدة العكازات الكندية أولاً - ذلك النوع الذي يحوي قبضة معدنية - ثمّ بمساعدة الووكر. كانت ستتحقق من إشاراته الحيوية للتأكد إن كان يحرز تقدماً، كما أرادت التحقق من شيء يدعى مدى رعاية الدبابيس، «وهذا شيء يجب أن تتولاه أنت يا تشارلي».

سألتها عن معنى هذا، فشرحت لي أن الأسياخ التي تخترق ساقه يجب أن تنظف باستمرار بواسطة المساحيق المطهرة. قالت إن هذه عملية مؤلمة، ولكن ليست بمستوى الألم الذي سينشأ نتيجة الالتهاب المتزايد والخطير للغرغرينا.

قالت ميليسا: «أردت أن آتي لمدة أربعة أيام في الأسبوع، ولكنه لم يقبل بهذا. إنه واضح جداً بخصوص الأمور التي يقبل بها والتي يرفضها».

قلت لنفسي: أنا خبير بطبعه هذا.

«سيحتاج مساعدة كبيرة في بادئ الأمر يا تشارلي وقال إنك ستتولى هذا الأمر».

قدمت السيدة ريفينزبورغر مداخلة للحديث وقالت: «بالنسبة إليه أنت خطته للتماثل للشفاء»، كانت تخاطبني ولكنها كانت تنظر إلى أبي، وكأنها تطلب منه أن يعارض هذا.

لم يعارضها.

فتحت ميليسا صفحة جديدة من كراستها، وكان لونها أرجوانياً، وعليها نمر صغير مزمجر في الأعلى: «قال إن هناك حماماً في الطابق الأول هل هذا صحيح؟».

«أجل»، لم أتكبّد عناء أن أقول لها إنه صغير، فهي ستكتشف الأمر في زيارتها الأولى للمنزل.

أومأت برأسها، وقالت: «كان هذا جانباً مهماً، لأنه لن يتمكن من الصعود على الدرج لفترة لا بأس بها».

«لكن هل سيتمكن من صعوده في النهاية؟»

«بالطبع، إذا بذل مجهوداً سيستطيع؛ إنه رجل متقدم في السن - وفي الواقع إنه يدعي أنه لا يعرف سنه تماماً - ولكنه في حال جيدة، لا يدخن، وقال لنا إنه لا يشرب، كما أن وزنه معقول».

قال أبي: «هذا أمر مهم».

«بالطبع، إن الوزن عامل مهم، وخصوصاً بالنسبة إلى كبار السن، الخطة هي أن يغادر المستشفى يوم الاثنين، يجب أن تثبت قضبان حماية على المرحاض قبل ذلك الوقت، هل باستطاعتك فعل ذلك في هذه العطلة؟ إن لم تستطع فعل ذلك، فسنخرجه في يوم الثلاثاء».

«أستطيع فعل هذا»، رأيت أنني سأشاهد كثيراً من مقاطع الفيديو الغريبة في مستقبلي القريب.

«سيحتاج إلى مبولة لليالي ونونية سرير لحالات الطوارئ، هل لديك مشكلة في ذلك؟».

قلت لها: أجل، ولم تكن لديّ مشكلة حقاً، لقد نظّفت القيء مرات عدة، لذا فإن رمي الغائط من النونية إلى المرحاض، لم يكن مشكلة بل

تطور بالأحرى.

أغلقت ميليسا كراستها: «هناك آلاف الأشياء الأخرى؛ ولكنها أشياء صغيرة، ستساعدك هذه، تصفحها».

تناولت نشرة من الجيب الخلفي لبنطالها الجينز، لم يكن عنوانها: الرعاية المنزلية للمبتدئين أوفور داميز. ولكنها بدت كذلك، قلت إنني سأقرأها ووضعتها في جيبي الخلفي.

قالت ميليسا: «سأعرف الحاجيات الضرورية حين آتي لأرى المنزل بنفسي. فكّرت أن أهرول قرب المكان عند العصر، ولكنه مُصرّ ألا أدخل إلى المنزل قبل أن يعود».

أجل، كان السيد بوديتش عنيداً بالفعل، لقد اكتشفت هذا باكراً.

سألت السيدة ريفينزبورغر: «هل أنت متأكد من رغبتك في تولي هذا الأمر يا تشارلي؟». في هذه المرة ما كانت تعني شيئاً لأبي.

«أجل».

سألت ميليسا: «حتى وإن كنتِ ستمضين معه الليالي الثلاث أو الأربع الأولى؟ حاولت أن أناقش فكرة وحدة إعادة تأهيل – هناك وحدة تدعى ريفيرفيو ولديها شواغر – ولكنه لم يرد أن يناقش الأمر على الإطلاق.، قال إنه يرغب في العودة إلى المنزل وحسب».

«يمكنني البقاء معه» مع أن فكرة النوم في الطابق الثاني ضمن غرفة نوم لم أرها من قبل كانت غريبة.

«لا مشكلة، إنها عطلة المدرسة».

نظرت السيدة ريفينزبورغر إلى أبي وقالت: «هل أنت موافق على هذا الترتيب يا سيد ريد؟».

انتظرت قليلاً، ولم أكن واثقاً مما سيقوله، ولكنه اعترف أخيراً.

«أنا قلق حيال هذا الأمر، وأعتقد أن قلقي طبيعي أو مبرر. ولكن تشارلي مسؤول، ويبدو أن السيد بوديتش قد كون رابطاً معه وليس لديه أحد آخر».

قلت: «بخصوص المنزل يا سيدة ويلكوكس...».

ابتسمت وقالت: «نادني ميليسا، فسنكون زميلين من الآن فصاعداً».

كان من السهل عليّ أن أناديها ميليسا على عكس مناداتي للسيد بوديتش بهاورد، لأنها كانت أقرب إلى عمري: «بخصوص المنزل...لا تحسبي الأمر شخصياً وكأنه خائف من أن تسرقي أغراضاً أو شيئاً ما، إنه فقط...حسناً...» لم أعرف كيف سأنهي كلامي ولكن أبي تولى الأمر.

«إنه شخص منطوٍ على ذاته وسري».

قلت لها: «هذا صحيح، وعليك أن تسمحي له أن يكون حانقاً لأنه...».

لم تنتظر ميليسا أن أشرح لها السبب وقالت: «صدقني إذا كانت ساقي مصابة، وكنت أضع لها مثبتاً خارجياً لتلملم شتات عظامي، فسأكون حانقة بالطبع».

سأل أبي السيدة ريفينزبورغر: «ما وضع تأمينه؟ هل تستطيعين البوح بهذه المعلومة؟».

تبادلت السيدة ريفينزبورغر والسيدة ويلكوكس النظرات، ثمّ قالت السيدة ريفينزبورغر: «لا أجد نفسي مرتاحة وأنا أتحدث عن الترتيبات المالية للمرضى، ولكنني سأتحدث نقلاً عن أمين الصندوق. إنه عازم على أن يدفع بشكل شخصي».

قال أبي: «آه»، وكأن هذا قد شرح له كل شيء. لكن وجهه لم يُعبّر عن هذا. نهض وصافح السيدة ريفينزبورغر وصافحتها بدوري.

تبعتنا ميليسا إلى الرواق، وبدت أنها على وشك التزلج بسبب حذائها الأبيض الناصع.

سألتها: «جامعة لويزيانا الحكومية؟».

تفاجأت قليلاً وقالت: «كيف عرفت؟».

«من الكراسة، كرة السلة؟».

ابتسمت وقالت: «وكرة الطائرة».

اعتقدت أنها كانت ناجحة بسبب طولها.

الفصل الخامس

التسوّق-غليون أبي-اتصال من السيد بوديتش-علبة الطحين

1

ذهبنا إلى متجر المعدات لنحضر عدة التركيب لقضبان المرحاض، ثمّ إلى بيت بانتري حيث كان هناك فرع لصيدلية بيطرية. اشتريت دواء ديدان القلب وكاربروفين لمداواة التهاب مفاصل رادار. كانت تلك الأدوية تباع وفقاً لوصفة حصراً، ولكن حين شرحت للسيدة الوضع، أعطتني إياها وأصرّت أن نشتري الأدوية نقداً. قالت إن السيد بوديتش قد اشترى كل حاجيات رادار من هنا، وكان يدفع مبلغاً إضافياً لقاء التوصيل. استخدم أبي بطاقته الائتمانية لدفع ثمن قضبان الأمان، وكانت الصيدلية هي محطتنا الأخيرة، حيث اشتريت مبولة ذات عنق طويل ونونية سرير والمطهر الذي كان يجب أن أستخدمه للعناية بالمثبت الخارجي وعلبتين من منظف النوافذ. دفعت لقاء

تلك الأشياء أيضاً، ولكن ليس نقداً. كان لديّ حدّ على بطاقتي الفيزا قدره 250 دولاراً، ولكنني لم أقلق عليها من أن ترد، فأنا لم أكن من الأشخاص الذين يكثرون من استعمالها.

في طريق العودة إلى المنزل، توقعت أن يفاتحني أبي عن الالتزام الذي ألزمت نفسي به... حيث كان كثيراً على فتى في السابعة عشرة. لم يفاتحني بالموضوع، واكتفى بالاستماع إلى أغاني الروك الكلاسيكي وردد كلماتها. اكتشفت لاحقاً أنه كان يُفكر في ما سيقوله.

مشيت إلى منزل السيد بوديتش ورحّبت بي رادار. وضعت أدويتها على الطاولة، ثمّ تفحصت الحمام، اعتقدت أن ضيق مساحته سيساعد في تركيب قضبان الحماية (كما سيساعده على استخدامها). وجدت حزمة من الأغطية والشراشف النظيفة على الرف فوق الغسالة ضمن السرداب، فنزلت وتناولت غطاءين. كان يوماً ربيعياً لطيفاً وخطر لي أولاً أن أصلح السياج، لكنني قررت أن النوافذ أولى بالاهتمام حتى تزول رائحة المنظفات قبل أن يصل السيد بوديتش إلى المنزل، كما أعطاني هذا عذراً لأتفحص المكان كله.

بالإضافة إلى المطبخ وخزانة المؤن وغرفة المعيشة-وكانت تلك الغرف التي يستخدمها أكثر من غيرها- كان في غرفة طعام طاولة طويلة ومغطاة، ولم يكن فيها أيّ كراس، ما أعطى الغرفة إحساساً بالهجران، وكان هناك غرفة صممت لتكون مكتباً أو مكتبة أو مزيجاً منهما. لاحظت بحزن أن السقف كان يسرّب، وقد أدى الماء إلى تعفن بعض الكتب. وكانت هناك كتب جيدة أخرى، بدت باهظة الثمن بغطائها من الجلد على خلاف المخطوطات القديمة التي كانت في الردهة الخلفية. كانت هناك مجموعة لديكينز ولكيبلينغ ولمارك توين ولشخص اسمه ثاكيري، فقررت أن أفرد هذه الكتب، عندما يتاح لي الوقت على الأرض لأرى إن كان بوسعي إنقاذ بعض

منها. لا بدّ من أنه كان هناك بعض مقاطع الفيديو التي تتناول هذا الموضوع. لقد قاد اليوتيوب حياتي في ذلك الربيع.

كان هناك ثلاث غرف نوم في الطابق الثاني، بالإضافة إلى خزانة البياضات وحمام إضافي كبير.كانت جدران غرفته مزينة برفوف كتب كثيرة، وكان هناك مصباح قراءة إلى جانب السرير الذي كان ينام عليه بالتأكيد. كانت الكتب في الغرفة ذات أغلفة ورقية - كتب ألغاز، وخيال علمي، بالإضافة إلى كُتب رعب تعود إلى أربعينيات القرن الماضي- بدت بعض الكتب رائعة للغاية، وفكّرت في أن أطلب منه استعارة بعضها إذا كانت الأمور على ما يرام. اعتقدت أن ثاكيري سيكون ثقيلاً، ولكن عنوان العروس التي ارتدت الأسود لفت نظري. كان على الغلاف عروس آسرة ترتدي اللون الأسود، ولكنها لم تكن متشحة به. كان هناك كتابان على منضدة سريره، كتب على الغلاف الورقي الأول شيء شرير يأتي من هذا الطريق وكان من تأليف برادبوري. وكُتب على غلاف الكتاب الثاني ذي التجليد الفني أصول الخيال وموقعها في مصفوفة العالم: وجهات نظر جانغ، ورُسم على الغلاف قمع تملؤه النجوم.

كان هناك تخت مزدوج في إحدى الغرف، وكان مرتباً ولكنه مغطى بالنايلون، أما الثالثة فكانت فارغة، وتفوح منها رائحة العفن. إن كنت انتعل حذاءً صلب النعل بدل الحذاء الرياضي، لكانت خطواتي ستصدر صوتاً مرعباً في تلك الغرفة.

كان هناك درج ضيق (اعتقدت أنه كان يشبه درج فيلم سايكو) يؤدي إلى الطابق الثالث، حيث وجدت كثيراً من قطع المفروشات المتداعية داخل غرفه الثلاث بما فيها الكراسي الستة التي كان يُفترض أن توضع في غرفة المطعم بالإضافة إلى سرير من الغرفة المجاورة وكان مطوياً. كانت هناك دراجتان (إحداهما ينقصها عجلة) بالإضافة إلى صناديق من المجلات القديمة. وجدت في الغرفة الثالثة والأصغر بين الغرف صندوقاً يحتوي على أداوت

نجارة، وكتب على الجانب حرفا أي.بي، تناولت المثقاب حيث شعرت أنه سيساعدني في تركيب قضبان الحماية، ولكنه كان متجمداً، ولم يكن الأمر غريباً، لأن الماء كان يتسرب من زاوية سقف هذه الغرفة حيث كان صندوق الأدوات موجوداً. فكرت في ضرورة التصرف بسرعة بخصوص هذا السقف المسرِّب قبل حلول الشتاء وإلا سيلحق التسرّب أضراراً إنشائية بالمنزل إن لم يكن قد فعل ذلك أصلاً.

بدأت بنوافذ الطابق الثالث، لأنها كانت الأوسخ في الواقع، ولاحظت أنني كنت سأبدل الماء في دلوي لمرات كثيرة وبالطبع كان التنظيف من الداخل نصف المهمة. توقفت لأتناول غدائي، وسخنت علبة فليفلة على فرن هوتبوينت القديم.

سألت رادار: «هل عليّ أن أدعك تلعقين الوعاء؟»، نظرت إليّ بعينيها البنيتين الواسعتين، «لن أفضحك إذا قررت فعل ذلك».

أنزلت الوعاء، فانقضت عليه. ثمّ عدت إلى النوافذ، لم أنتهِ قبل الظهيرة، وكانت أصابعي منتفخة كما كانت ذراعاي متعبتين من الفرك، ولكن مسحوق ويندكس مع الخل (نصيحة من اليوتيوب) أحدث فرقاً ملحوظاً، لقد شعشع النور من المنزل.

قلت: «أعجبني هذا، أتريدين أن نذهب إلى منزلي لنرى ماذا يفعل أبي؟».

نبحت لتقول لي إنها موافقة.

2

كان أبي ينتظرني على الشرفة الأمامية، وقد ثبت غليونه على الدرابزين قرب حزمة تبغ، وهذا يعني أننا كنا سنتناقش لا محالة، وسيكون نقاشاً مهماً.

مرت على أبي فترة كان يفضّل فيها السجائر. لم أعد أذكر في أي صف أو عمر كنت، حين أهدته أمي الغليون بمناسبة عيد ميلاده. لم يكن يشبه غليون شيرلوك هولمز، ولكنني أعتقد أنه كان باهظ الثمن. ألحّت عليه كي يترك السجائر المسببة للسرطان، وكان يعدها أنه سيقلع عنها (كان هذا شيء يشبه عادة مدمني الكحول). لقد نفعت حيلة الغليون، فقد كان يقطع أعقاب السجائر أولاً ثمّ أقلع عنها تماماً قبل وقت قصير من عبور أمي لذلك الجسر اللعين، كي تشتري لنا صندوق دجاج مقلي.

كنت أفضل رائحة تبغ ثري سيلز الذي كان يشتريه من بائع التبغ في مركز المدينة، ولكنني لم أشم تلك الرائحة كثيراً، لأنها سرعان ما كانت تتبدد. لا بدّ من أن هذه الحيلة التي كانت وراء خطة أمي الجهنمية، ولكن لم تتسن لي الفرصة لأسألها، كان الغليون يعود إلى علبته على المدفأة لغاية وفاة أمي على الأقل، ثمّ ظهر مجدداً. لم أره مع سيجارة خلال أيام شربه، ولكن الغليون كان رفيقه الدائم وهو يشاهد الأفلام القديمة، على الرغم من أنه نادراً ما أشعل الغليون أو ملأه بالتبغ. لقد مضغ المبسم والساق واضطر أن يستبدل القطعتين، أخذ الغليون معه إلى اجتماعات المدمنين المجهولين حين بدأ ارتيادها، فلم يكن التدخين مسموحاً هناك، لذا كان يمضغ المبسم، وكان أحياناً (كما قال ليندي فرانكلن) يمسك الغليون رأساً على عقب.

مع اقتراب سنته الثانية في الاجتماعات، عاد الغليون إلى مكانه المعتاد. ذات مرة سألته عنه فقال لي: «لقد مرت سنتان على إقلاعي عن الشرب، لذا أعتقد أن الوقت قد حان لأكف عن المضغ».

ولكن الغليون كان يظهر بين الحين والآخر، مثل الاجتماعات المهمة مع الزبائن المهمين في مكتب شيكاغو، وحين كان يقدم عرضاً ما. وكان يظهره دائماً في الذكرى السنوية لوفاة أمي، وها هو يظهره الآن.

كان قد ملأه بالتبغ وهذا يعني أن هذا النقاش سيكون في غاية الأهمية.

صعدت رادار إلى الشرفة كالمرأة العجوز، وتوقفت لتعاين كل درجة، وحين وصلت أخيراً حك لها أبي المنطقة خلف أذنها وقال: «من هي فتاتي الجميلة؟».

نبحت رادار، واستلقت قرب كرسي أبي الهزاز، وجلستُ على الكرسي الآخر.

«هل بدأت بإعطائها الأدوية؟».

«ليس بعد، سأمزج أدوية ديدان القلب والتهاب المفاصل مع عشائها».

«لم تأخذ عدة تثبيت قضبان الحماية».

«لأنني لن أبدأ بتثبيتها قبل الغد، سأقرأ التعليمات الليلة»، بالإضافة لنشرة الرعاية المنزلية للمبتدئين. «سأضطر لاستعارة مثقبك إن لم يكن لديك مانع، وجدت عدة شخص ما - لقد كتب عليها أي.بي ولعلها كانت تعود إلى والده أو جده - ولكن كانكل شيء فيها صدئاً لأن الماء يتسرب من السقف».

«بإمكانك استخدامها متى تشاء». تناول الغليون، وكان وعاؤه قد ملئ بالفعل، كان معه بعض عيدان الثقاب التي جلبها من المطبخ، ووضعها في جيب قميصه، وأشعل عوداً بظفر إبهامه، وكانت هذه مهارة أبهرتني وأنا صغير، ولا تزال تبهرني في الواقع. «أنت تعلم أنني سأسر بمرافقتك ومساعدتك في تركيب القضبان».

«كلا، لا عليك، إنه حمام صغير، وسيعيق أحدنا الآخر».

«ولكن ليس هذا هو السبب الأساسي أليس كذلك يا صديقي؟».

كم مضى من الوقت على مناداته لي بهذا اللقب؟ مرر العود الصغير - الذي كان قد اشتعل معظمه بالفعل - فوق وعاء الغليون، وبدأ بسحب التبغ،

وهو ينتظر إجابتي. وبالطبع لم تكن لديّ أيّ إجابة. رفعت رادار رأسها، واشتمت دخان التبغ الفواح، ثمّ أعادت أنفها إلى ألواح الشرفة، بدت مرتاحة للغاية.

أطفأ العود وقال: «ألا يوجد شيء تريدني أن أراه هناك؟».

جعلني هذا أفكّر في آندي وهو يسألني ما إن كان هناك دمى محشوة وساعة بوجه قطة تتبع الناس بعينيها. ابتسمت وقلت: «كلا، إنه مجرد منزل وعلى وشك الانهيار وسقفه يُسرّب الماء، يجب أن تعالج هذه المشكلة بأسرع ما يمكن».

أومأ برأسه ونفخ الدخان: «تكلمت مع ليندي عن هذا... عن هذا الموقف».

لم أتفاجأ لأن ليندي كان راعيه، وكان على أبي أن يتكلم معه عن الأشياء التي تزعجه: «قال إنك على الأرجح تمتلك عقلية راعٍ، إن الله وحده يعلم عدد المرات التي اعتنيت فيها بي في فترة إدماني على الرغم من صغر سنك، لقد نظّفت المنزل والصحون، وحضّرت فطورك وحتى عشاءك أيضاً»، توقف قليلاً ثمّ قال: «يصعب عليّ تذكر تلك الأيام كما يصعب عليّ التكلم عنها».

«ليس هذا هو السبب».

«ما السبب إذاً؟».

لا أزال راغباً بالحفاظ على سرية ما أقسمت عليه، ولكن كان هناك شيء أستطيع قوله له. كنت سأقول له شيئاً يستطيع فهمه وكان صحيحاً لحسن الحظ: «ألا تتذكر كيف كانوا يتكلمون في اجتماعات المدمنين المجهولين عن الالتزام بالتعبير عن الامتنان؟».

أومأ برأسه وقال: «إن المدمن الممتن لا يثمل، هذا ما يقولونه».

«وأنا ممتن لأنك لا تشرب مجدداً. لعلني لا أخبرك بهذا في جميع الأوقات، ولكن هذا ما أشعر به. لم لا نقول إنني أحاول أن أرد الجميل، ونتوقف عن البحث في الموضوع؟».

أزال الغليون من فمه، ومسح الدمع الذي يترقرق في عينيه وقال: «حسناً، سنفعل ذلك، ولكنني أريد أن أقابله في نهاية المطاف، أشعر أن هذا واجبي، أتفهمني؟».

قلت له إنني أتفهم وجهة نظره: «ربما حين يبدأ بالتعافي؟».

أومأ برأسه وقال: «لا مانع لديّ، أحبك يا صغيري».

«وأنا أحبك أيضاً».

«لطالما فهمت أنك تحمّل نفسك فوق طاقتك. أنت تعلم هذا، أليس كذلك؟».

أجل، وكنت على دراية تامة بأنني لا أعرف كمية الحمل الذي وضعته على ظهري، واعتقدت أن هذا كان جيداً. فإن عرفت حجم الحمل كنت سأتخلى عنه: «هناك قول في برنامجك يدور حول فكرة عِش كل يوم بيومه».

أومأ برأسه وقال: «حسناً، ولكن عطلة الربيع ستنتهي بسرعة، عليك أن تواظب على دراستك مع أنك تحتاج إلى قضاء الوقت في ذلك المنزل، أُصرّ على هذه الفكرة».

«حسناً».

نظر إلى الغليون: «لقد نفد التبغ كالعادة»، وضعه على درابزين الشرفة، ثمّ انحنى وحك رقبة رادار، فرفعت رأسها، ثمّ أخفضته مجدداً.

«إنها كلبة لطيفة للغاية».

«أجل».

«لقد وقعت في حبها، أليس كذلك؟».

«أجل، هذا ما أعتقده».

«لديها طوق من دون اسم وهذا يعني أن السيد بوديتش لم يدفع ضريبة الكلبة، أعتقد أنها لم تذهب يوماً إلى الطبيب البيطري»، وهذا ما أعتقده أيضاً. «لم تُلقح ضد الكَلَب وضد كثير من الأمراض». توقف ثمّ قال: «لديّ سؤال، وأريدك أن تُفكر فيه بشكل جدي للغاية: هل سنتورط بسبب هذا الأمر؟ بخصوص البقالية، وأدوية الكلاب، وقضبان الحماية».

قلت له: «لا تنسَ المبولة».

«هل سنتورط؟ أخبرني ما تعتقده».

«طلب مني أن أُسجل كل المدفوعات، وسيتولى أمرها». لم يكن هذا جواباً كافياً، عرفت هذه الحقيقة وعرفها أبي أيضاً على الأرجح، وبعد أن فكرت قليلاً: احذفوا تعبير على الأرجح.

«لا يعني هذا أننا دفعنا كل ما لدينا، لم ندفع سوى مئتي دولار ولكن المستشفى... هل تعلم كلفة قضاء أسبوع كامل في أركاديا؟ بالإضافة إلى كلفة العمليتين بالطبع وكل الرعاية اللاحقة؟». لم أعرف تلك الكلفة، ولكن أبي عرف ذلك بصفته خبير تسوية مطالبات.

«ثمانون ألفاً على الأقل».

«لا يمكن أن نتورط بدفع كلفة ذلك، أليس كذلك؟».

«كلا، إن هذه الكلفة تقع على عاتقه، لا أعرف ما نوع التأمين الذي يملكه أو إن كان يملك تأميناً في الأساس، تحققت من ليندي، وأخبرني أنه لا يملك شيئاً في أوفرلاند، لعله فضّل ميديكير، ولكن من يعلم ماورائيات الموضوع؟» تحرك في مكانه وتابع: «لقد تحريت عنه قليلاً، أتمنى أنك لن تغضب بخصوص هذا الموضوع».

لم أغضب كما أنني لم أتفاجأ لأن التحري عن الناس كان عمل أبي.

«وهل شعرت بالفضول؟».

«بالطبع».

«وعلى ماذا عثرت؟».

«لا شيء تقريباً، ويمكن القول إن هذا مستحيل في هذا العمر والعصر».

«حسناً، لا يمتلك حاسوباً أو هاتفاً محمولاً، وهذا يعني أنه لا يمتلك حساباً في الفيسبوك وأي منصة تواصل اجتماعي أخرى». تراءت لي فكرة أن السيد بوديتش كان سيهزأ من الفيسبوك حتّى إن كان يملك حاسوباً، كان الفيسبوك أداة للتلصص.

«قلت إن هناك حرفين على علبة المعدات التي عثرت عليها، أي.بي أليس كذلك؟».

«أجل».

«هذه معلومة متطابقة حيث إن شخصاً يدعى أدريان بوديتش كان قد اشترى في العام 1920 العقار في أعلى التل الذي يمتد على مساحة فدان ونصف وعلى بقعة جيدة».

«هل هو جده؟».

«ربما، ولكن ما دام متقدماً في السن فيمكن أن يكون أباه». تناول أبي الغليون عن الدرابزين، ومضغ المبسم قليلاً، ثمّ أعاده. «كم عمره على أيّ حال؟ أتساءل إن كان لا يعرف حقاً».

«هناك احتمال ألا يعرف عمره».

«حين رأيته في الأيام الخوالي - قبل أن يتقوقع على نفسه - بدا في الخمسينات من عمره، كنت ألوّح له وكان يلوّح لي بالمقابل أحياناً».

«ألم يسبق لك أن تحدثت إليه؟».

«ربما حييته أو تحدثت إليه عن الطقس إذا كان خارجاً عن المألوف، ولكنه لم يفضل التحدث. على أيّ حال كان في العمر المناسب تقريباً للمشاركة في حرب فيتنام، ولكنني لم أجد له سجلاً عسكرياً».

«لم يخدم في الجيش إذاً».

«لم يخدم على الأرجح. كنت سأحصل على معلومات أكثر لو كنت في أوفرلاند، ولكنني توقفت عن العمل لصالح أوفرلاند، ولم أود أن أطلب المعلومات من ليندي».

«فهمت الأمر».

«توصلت إلى أنه يملك بعض المال لأن ضرائب العقار بند في السجل العام ووصلت الفاتورة على الرقم 1 على شارع سيكامور في العام 2012 إلى اثنين وعشرين ألفاً مع الفكة».

«هل يدفع هذا المبلغ كل سنة؟».

«يتغير المبلغ كل سنة، المهم أنه لا يتخلف عن الدفع، وكان موجوداً حين انتقلنا أنا وأمك إلى هنا. لعلني أخبرتك بهذا! كان يدفع مبالغ أقل في تلك الأيام لأن ضرائب العقار ارتفعت ككل شيء، ولكن لا يزال الرقم من فئة الستة أرقام، إن هذا مبلغ طائل، ماذا كان يعمل قبل أن يتقاعد؟»

«لا أدري، لقد قابلت الرجل لتوي، وكان متألماً حين قابلته، لم نحظَ بما يسمى لقاء انفتاح القلوب»، ولكن هذا اللقاء من المحتم أن يحدث، ولكنني لا أعرف متى.

«وأنا لا أعرف، لقد بحثت، ولكنني لم أجد شيئاً، واسمح لي أن أكرر كلامي لأن الأمر يستحق: كان هذا مستحيلاً في هذا العمر والعصر، لقد سمعت عن أشخاص يعيشون خارج النظام الحكومي، ولكن في براري ألاسكا وضمن جماعة تعتمد على فكرة أن العالم سينتهي أو في مونتانا كمفجر الجامعات والطائرات الذي يدعى باليونابومر».

«يونا - ماذا؟»

«إرهابي محلي، إن اسمه الحقيقي: تيد كازينسكي. لم تجد أيّ معدات لصنع القنابل في منزل السيد بوديتش، أليس كذلك؟»، قال أبي هذا بطريقة

ساخرة، ورفع حاجبيه، ولكنني لم أظنه يمزح.

«إن المنجل هو أخطر شيء وجدته في المنزل، آه.. وفأس صدئة في صندوق المعدات في الطابق الثالث».

«هل وجدت أيّ صور؟ لأبيه أو لأمه مثلاً؟ أو له وهو صغير؟».

«كلا، لم أرَ سوى صورة لرادار، كانت على الطاولة قرب كرسيه المريح في غرفة المعيشة».

«هكذا إذاً»، مدّ أبي يده ليتناول الغليون، ثمّ غيّر رأيه.. «لا نعرف من أين يأتي بماله، إذا افترضنا أنه لا يزال يحتفظ ببعض منه، ولا نعرف ما كان يعمل قبل تقاعده. أعتقد أن عمله كان من المنزل لأن معه أغروفوربيا، إنها تعني...».

«أعرف ما تعني».

«أعتقد أنه كان يعاني من الأغروفوبيا منذ زمن بعيد، ولكن حالته ساءت مع تقدمه في السن، ثمّ انطوى على نفسه».

«قالت لي السيدة التي تعيش في الجهة المقابلة له من الشارع أنه تعوّد أن يصطحب رادار في نزهة ليلية»، تنبهت حين سمعت اسمها. «لقد بدا هذا غريباً بالنسبة إليّ حيث إن معظم الناس يصطحبون كلابهم في النهار ولكن...».

قال أبي: «هناك أشخاص أقل في الليل».

«أجل، لا يبدو محباً للجيرة».

قال أبي: «هناك شيء آخر، إنه غريب جداً... ولكن ألا تعتقد أنه شخص غريب؟»

تجاوزت السؤال، وتساءلت عن شيء آخر.

«لديه سيارة، ولكنني لا أعرف مكانها، ولكن لديه سيارة بالفعل، عثرت على رخصة السيارة على الإنترنت، إنها من نوع ستيودبيكر 1957. لديه نسبة على الضريبة الانتقائية لأن السيارة مسجلة على أنها أثرية، وكضريبة العقار إنه يدفع النسبة كل سنة، ولكنها أقل بكثير وتصل إلى حوالى ستين دولاراً».

«إذا كانت لديه سيارة فلا بدّ أنك ستستطيع العثور على رخصة القيادة يا أبي، وسنعرف حينها كم يبلغ من العمر».

ابتسم وأشاح بوجهه: «محاولة جيدة، ولكن ليس هناك رخصة في إيلينوي باسم هاورد بوديتش، ولست بحاجة إلى رخصة قيادة لتشتري سيارة، لعلها لا تعمل أصلاً».

«لماذا يدفع الضريبة السنوية على سيارة لا تعمل؟»

«هناك افتراض آخر يا صغيري؛ لماذا يدفع ضريبة وهو لا يقود؟».

«ماذا عن أدريان بوديتش؟ أبوه أو جده؟ ربما كان يملك رخصة قيادة».

«لم أفكّر في هذا، سأتحقق من الأمر»، توقف قليلاً، ثمّ قال: «هل أنت واثق من هذا؟».

«أجل».

«اسأله إذاً عن بعض هذه الحيثيات لأنه، وعلى حدّ بحثي، يبدو وكأنه غير موجود».

قلت له إنني سأفعل هذا، وبدا لي أن الحديث قد انتهى هنا، فكّرت في أن أُخبره بصوت الهمهمة الذي سمعته في المستودع؛ ذلك المستودع

الذي أوصد بابه بقفل كبير على الرغم من عدم وجود شيء فيه على الأرجح، ولكنني ردعت نفسي عن هذا. لقد أصبح ذلك الصوت مشوشاً في عقلي، وكان لديّ أمور كثيرة لأفكر فيها.

3

سكنتني تلك الأفكار وأنا أنزع الغطاء المصنوع من النايلون عن سرير غرفة الضيوف، الذي سأنام عليه في فترة من عطلة الربيع، أو لعلني سأنام عليه طوال العطلة. كان السرير معداً، ولكن رائحة رطوبة انبعثت من الشراشف، بدّلتها بشراشف نظيفة من خزانة البياضات، لم أعرف مدى نظافتها، ولكن رائحتها كانت أزكى. وكان هناك بدل نظيف للأريكة القابلة للفتح بالإضافة إلى اللحاف.

نزلت إلى الطابق السفلي، كانت رادار تنتظرني قرب الأريكة، وضعت الشراشف على كرسي السيد بوديتش المريحة، ولاحظت أنه عليّ أن أزيحها مع الطاولة الصغيرة جانباً كي أسحب الأريكة، حين أزحت الطاولة فتح الدرج جزئياً، وجدت بعض القطع المعدنية النقدية بالإضافة إلى هارمونيكا قديمة لدرجة أن غلافها المصنوع من الكروم كان قد تلاشى تقريباً... ووجدت زجاجة كاربروفين. سررت بهذا لأنني لم أود الاعتقاد بأن السيد بوديتش قد تجاهل صحة كلبته العجوز المتدهورة، وفسر لي هذا مدى حماسة موظفة بيت بانتري لأن تبيعني كمية أكبر. ولكن ما أحزنني هو اكتشاف أن الدواء لم يكن نافعاً بالقدر الكافي.

ملأت طبقها، ووضعت حبة دواء من العبوة الجديدة في طعامها -وأقنعت نفسي أن الحبوب التي اشتريتها حديثاً كانت أكثر فعالية وذات تأثير قوي - ثمّ صعدت إلى الطابق الثاني، لأجلب وسادة للأريكة، كانت رادار تنتظرني قرب الدرج.

«يا إلهي! لقد التهمتِ طعامك بسرعة!».

حرّكت رادار ذيلها، وابتعدت قليلاً مفسحة لي المجال لأمر.

ربتت الوسادة قليلاً، ثمّ وضعتها على الأريكة التي أصبحت تشبه السرير في وسط غرفة المعيشة. لعله سيحتج على هذا، وعلى الأرجح سيفعل ذاك، ولكنني اعتقدت أن الأمر سيسير على ما يرام. بدت العناية بأسياخ مثبته الخارجي أمراً سهلاً، ولكنني تمنيت أن أجد في نشرة العناية المنزلية للمبتدئين كيفية نقله عن الكرسي المتحرك حيث اعتقدت أنه سيصل وهو جالس عليها، ثمّ ينتقل إلى السرير، وهكذا دواليك.

ماذا أيضاً، ماذا أيضاً؟

كان عليّ أن أضع أغطية السرير القديمة من غرفة نوم الضيوف في الغسالة، ولكن هذا الأمر يمكن أن يؤجل ليوم غد أو ليوم الاثنين. لقد كان الهاتف هو العنصر الناقص، كان يحتاج إلى هاتف قرب سريره، وكان هاتفه اللاسلكي أبيض ويبدو وكأنه قادم من فيلم ملاحقة لصوص يعود إلى تسعينيات القرن الماضي. كان جميع الرجال في تلك الأفلام لديهم سوالف أما الفتيات فكانت شعورهن منفوشة. تحققت من صلاحيته وسمعت رنيناً، كنت على وشك أن أرجعه إلى قاعدته حين رنّ. شهقت وتفاجأت وأسقطته من يدي، ونبحت رادار.

قلت لها: «لا عليك يا فتاة». وتناولته عن الأرض، لم يكن هناك زر لتلقي الاتصال. كنت أبحث عن الزر حين سمعت صوت السيد بوديتش وكان ضعيفاً وبعيداً: «مرحباً؟ هل أنت هناك؟ مرحباً؟».

لم يكن هناك زر استقبال إذاً ولا طريقة للتحقق من هوية المتصل، كان عليك أن تجرب حظوظك بالتعامل مع هاتف بهذا القدم.

قلت له: «مرحباً، أنا تشارلي يا سيد بوديتش».

«لِمَ تنبح رادار؟».

«لأنني شهقت، وأوقعت الهاتف، كنت أمسك به حين رنّ».

«فاجأتك أليس كذلك؟» لم ينتظرني كي أجيبه. «تمنيت أن تكون هناك لأنه موعد عشاء رادار. لقد أطعمتها أليس كذلك؟».

«أجل، لقد أنهت طعامها في ثلاث لقمات».

ضحك، ولكن صوته كان مبحوحاً: «هذه هي فتاتي. لعل نشاطها قد غادرها، ولكنها حافظت على شهيتها».

«كيف حالك؟».

«إن ساقيّ تؤلمانني للغاية على الرغم من المسكنات التي يعطونني إياها. ولكنهم أخرجوني من السرير اليوم. إن حمل ذلك المثبت يجعلني أشعر وكأنني جيكوب مارلي».

«هناك سلاسل ارتديتها في حياتي».

ضحك مجدداً، واعتقدت أنه كان مخدراً للغاية: «هل قرأت الكتاب أم شاهدت الفيلم؟».

«شاهدت الفيلم في كل ليلة عيد ميلاد على تي.سي.إم، نتابع كثيراً من أفلام تلك القناة في منزلنا».

«لا أعرف ما هذا»، بالطبع لا يعرف هذا لأن قناة تورنر كلاسيك موفيز لا تظهر على تلفاز ليس مجهزاً سوى... بماذا سمتها السيدة سيلفيوس؟ أذني الأرنب.

«سررت لأنك أجبت على الهاتف، سيسمحون لي بالعودة إلى المنزل في عصر يوم الاثنين وعليّ أن أتكلم معك أولاً. هل يمكنك أن تزورني غداً؟ سيشاهد زميلي في الغرفة في تلك الأثناء مباراة كرة القاعدة في الردهة لذا سنحصل على بعض الخصوصية».

«بالطبع، لقد حضرت الأريكة لك وغرفة الضيوف العلوية لي و...».

«توقف للحظة، تشارلي...» سكت قليلاً ثم قال: «هل تعتبر الحفاظ على الأسرار مهمة كإعداد الأسرة وإطعام الكلبة؟».

فكرت في السنوات التي كان فيها أبي ثملاً؛ سنواته المهدورة، في تلك السنوات كان عليّ أن أعتني بنفسي وكنت غاضباً. كنت غاضباً على أمي لأنها ماتت هكذا، وكان هذا غباء مني، لأن هذا لم يكن خطأها. ولكن عليكم أن تتذكروا أنني كنت في السابعة من عمري حين قتلت على ذلك الجسر اللعين. كنت أحب أبي، ولكنني كنت غاضباً منه أيضاً. لطالما تورط الأطفال الغاضبون في مشاكل. وكان هنالك صديق محفز وهو بيرتي بيرد؛ كنا أنا وبيرتي على ما يرام حين رافقنا آندي تشين لأن آندي كان طفل كشافة. ولكن حين كنا بمفردنا تعودنا أن نقحم أنفسنا بأفعال غريبة ومشينة للغاية، وقمنا بأمور كان يمكن أن تسبب لنا مشاكل إذا قبض علينا، وكان يمكن أن تتدخل الشرطة في بعض الأمور. ولكن لحسن الحظ لم يقبض علينا، ولم يعرف أبي، وما كان أبي ليعرف أبداً. هل أردت أن أقول لأبي إننا لطخنا زجاج سيارة أستاذنا المفضل بروث الكلاب؟ لقد كتبتها هنا فقط حيث وعدت أن أبوح بكل شيء، ولكنني أشعر بالعار، ولم يكن هذا أشنع عمل قمنا به.

«تشارلي؟ أما زلت على الخط؟».

«أنا هنا. أجل، يمكنني الاحتفاظ بالأسرار، إلا إذا كان السر هو أنك قد قتلت شخصاً ما وجثته موجودة في المستودع».

جاء دوره ليسكت، ولكنني لم أسأله إن كان لا يزال على الخط، حيث سمعت تنفّسه الثقيل.

«لا شيء من هذا القبيل، ولكنها أسرار كبيرة، سنتحدث غداً. تبدو شخصاً صريحاً وخلوقاً، وأدعو ربي أن أكون مصيباً بهذا الشأن، سنرى. أما الآن فما هو المبلغ الذي أدين لك ولأبيك به؟».

«هل تقصد كم صرفنا؟ ليس كثيراً، كانت البقالية هي أغلى المدفوعات، أعتقد أن المبلغ يصل إلى قرابة المئتين. لقد احتفظت بالإيصالات...».

«هناك بدل وقتك أيضاً، إن كنت تنوي مساعدتي فيجب أن تتقاضى بدلاً لقاء ذلك. ما رأيك بخمسمئة دولار في الأسبوع؟».

لقد صدمت: «يا سيد بوديتش... هاورد... ليس عليك أن تدفع لي أي شيء، يسرني...».

«يستحق العامل أجره، هذا ما ذُكر في إنجيل لوقا. ستتقاضى خمسمئة دولار في الأسبوع، وإذا استغرق الأمر وقتاً طويلاً سأعطيك علاوة سنوية، هل أنت موافق؟».

مهما يكن عمله السابق، فلم يكن تنظيف الصحون أو حفر الخنادق. كان مرتاحاً بخصوص ما يطلق عليه دونالد ترامب بفن الصفقة؛ وهذا يعني أنه كان فائزاً وفقاً للاعتراضات غير المهيمنة، وكانت اعتراضاتي ضعيفة للغاية. لقد أقسم، ولكن إن أراد السيد بوديتش أن يدفع لي وأنا أنفذ ما أقسمت عليه فلا أجد أي تعارض في ذلك، وكما ذكّرني أبي في كل لحظة: كان لديّ جامعة لأفكر فيها.

«تشارلي؟ هل اتفقنا؟».

«أعتقد أننا اتفقنا»، ولكن إن تبيّن لي أنه قاتل متسلسل في نهاية المطاف فلن أتكتم على أسراره مقابل خمسمئة دولار في الأسبوع حيث كان هذا يستحق ألف دولار، (مزحة)! «شكراً لك، لم أضع في بالي أي...».

قاطعني وقال: «أعرف هذا»، يا له من مقاطع فذ! ذلك هو السيد هاورد بوديتش، «إنك شاب ساحر في نواحٍ كثيرة، يا لك من رجل صريح وخلوق كما قلت سابقاً».

تساءلت إن كان سيحافظ على رأيه هذا، إن عرف أنني وبيرد قد هربنا من المدرسة، ووجدنا هاتفاً محمولاً في هايلاند بارك، وأبلغنا عن قنبلة تستهدف مدرسة ستيفينز الابتدائية. كانت فكرته هو، ولكنني تماشيت معه.

«هناك علبة طحين في المطبخ، لعلك رأيتها»، لم أرها وحسب بل أخبرني عنها، ولكنه نسي على الأرجح حيث إن ألمه كان يطغى على كل شيء. قال إن هناك مالاً فيها ثمّ قال إنها فارغة. قال إنه قد نسي أنها فارغة.

«بالطبع».

«خُذْ منها سبعمئة دولار، خمسمئة دولار كراتب أول أسبوع لك، ومئتين لنفقاتك».

«هل أنت واثق...».

«أجل، وإذا فكرت أنه مال رشوة أو تمهيد الطريق لطلب مناف للأخلاق... فتفكيرك ليس في محله. إن هذا مال لقاء خدماتك يا تشارلي. لقاء خدماتك، وتستطيع أن تصارح أباك بهذا الشأن، ولكن ليس بالأمور التي سنناقشها في المستقبل. أعلم أن هذا حمل كبير».

قلت له: «ليس لديّ مانع إذا لم تكن هناك جريمة». ثمّ أعدت صياغة الجملة: «جريمة شنيعة».

«هل بإمكانك المجيء إلى المستشفى قرابة الساعة الثالثة؟».

«أجل».

«سأقول الآن طاب مساؤك، ربّت على رادار، وقل لها إنها تربيتة من العجوز الغبي الذي لم يكن عليه أن يصعد السلم».

أنهيت المكالمة، ربتت رأس رادار مرات عدة ومررت يدي من رأسها إلى ذيلها. لقد سررت بتقديم هذه الخدمة، ثمّ ذهبت إلى المطبخ، ورفعت غطاء علبة الطحين.

كانت مليئة بالمال، وكان هناك كثير من الأوراق النقدية في أعلى الكومة وكانت من فئة العشرة والعشرين دولاراً وبعض الأوراق من فئة الخمسة الدولارات والدولار الواحد. تناولت تلك الأوراق التي كوّنت رزمة لا بأس بها على المجلى، ووجدت أسفل العلبة رزماً مربوطة من فئة الخمسين دولاراً والمئة دولار. طبع على الأربطة: فيرست سيتيزنز بانك بحبر أرجواني. أخرجتها هي الأخرى، ولكنني عانيت في إخراجها لأنها كانت عالقة في أسفل العلبة، وجدت ست رزم من الخمسينات وفي كل رزمة عشر أوراق، كما وجدت خمس رزم مربوطة من فئة المئات وكان هنالك عشر أوراق في كل رزمة أيضاً.

دخلت رادار إلى المطبخ، وجلست قرب صحنها، وكانت تنظر إليّ بنظرة الاستعطاف المعهودة. «يا إلهي يا فتاة! هناك ثمانية آلاف في هذه العلبة من دون أن أعد المال الذي وجدته متناثراً في الأعلى».

عددت سبعمئة دولار من الأوراق المفردة ورتبتها وطويتها، ثمّ وضعتها في جيبي فأحدثت انتفاخاً بسيطاً. لقد فاق هذا المبلغ أي مبلغ حملته في حياتي بعشرة أضعاف على الأقل، تناولت الرزم المربوطة، وعاودت وضعها في العلبة ثمّ توقفت. وجدت ثلاث حبات صغيرة في قاع العلبة، وكان لونها يميل إلى الحمرة. أفرغت العلبة، ووضعت الحبات في راحة يدي. اعتقدت أنها كانت أثقل من أن تكون حبات بي.بي وإن كان اعتقادي صحيحاً فلعل هذه الحبات كانت تسهم بشكل كبير في تفسير مصدر دخل السيد بوديتش.

اعتقدت أنها كانت ذهباً.

لم أركب دراجتي في العادة، ما كانت تستغرقني المسافة بين المنزلين سوى عشر دقائق أو اثنتي عشرة دقيقة على الأكثر. ولكنني مشيت بتؤدة تلك الليلة، كان عليّ أن أفكر لأتخذ قراري. وبينما كنت أمشي ربّتّ على الانتفاخ الذي كان في جيبي لأضمن وجوده.

كنت سأخبر أبي باتصال السيد بوديتش وعرض التوظيف الذي قدّمه لي، وكنت سأريه المبلغ الذي كان عبارة عن مئتي دولار لقاء ما أنفقناه وخمسمئة دولار لي. كنت سأقول له أن يضع أربعمئة دولار في حسابي الجامعي (الذي صادف أن يكون في فيرست سيتيزنز) وأعده بوضع أربعمئة دولار أخرى في نهاية كل أسبوع أعمل فيه لدى السيد بوديتش... وكان يمكن أن يدوم هذا طوال الصيف أو لغاية بدء موسم كرة القدم في شهر آب على الأقل. ولكن السؤال الذي طرح نفسه هل يُفترض بي أن أخبره بالمبلغ المالي الذي كان موجوداً في علبة الطحين بالإضافة إلى قطع الذهب؟ إن كان ذهباً في الأصل.

بحلول الوقت الذي دخلت فيه منزلنا كنت قد حسمت قراري، كنت سأحتفظ بمعلومة الثمانية آلاف دولار الموجودة في علبة الطحين لنفسي بالإضافة لقطع بي.بي التي لم تكن بي.بي في الواقع، لم أكن سأتفوه بأي شيء قبل أن نحظى أنا والسيد بوديتش بحديثنا الموعود على الأقل.

ناداني أبي من غرفة المعيشة: «مرحباً يا تشارلي، هل الكلبة على ما يرام؟».

«إنها بخير».

«يسرني هذا، أحضر لنفسك سبرايت وكرسي لأن تي.سي.إم تعرض فيلم ريبر ويندو».

جلبت سبرايت، ودخلت ثمّ أخفضت صوت التلفاز: «عليّ أن أطلعك على أمر ما».

«هل هناك أهم من جيمس ستيوارت وغريس كيلي؟».

«ما رأيك بهذا؟». أخرجت النقود من جيبي ووضعتها على طاولة القهوة.

توقعت أن أرى تعابير المفاجأة والحذر والقلق، ولكن ما حصلت عليه كان تعابير الاهتمام والتسلية. اعتقد أبي أن حقيقة إخفاء السيد بوديتش لماله في علبة طحين تطابق عقلية مريض الأغروفوبيا المدخر (أخبرته عن ممشى المخطوطات القديمة، ناهيكم عن التلفاز القديم، ومعدات المطبخ العريقة)، «هل كانت تحوي مزيداً من المال؟».

قلت له: «كان هناك بعض من المال» ولم تكن هذه كذبة.

أومأ أبي برأسه وقال: «هل تحققت من العلب الأخرى؟ لعل هناك بعض المئات في علبة السكر»، كان يبتسم.

«كلا».

أخذ مئتي دولار وقال: «إن هذا أكثر بقليل مما أنفقناه، ولكنه سيحتاج لأشياء أخرى على الأرجح، هل تريدني أن أودع أربعمئة دولار لك؟».

«بالطبع».

«إنه خيار صائب، ولكنني أعتقد أنه مبلغ بخس لقاء الأسبوع الأول على الأقل حيث إن المساعد الدائم يتقاضى أجراً أعلى، ولكن من ناحية أخرى أنت تتقاضى أجراً وتدرس في الوقت ذاته، وستقضي لياليك هناك في عطلة الربيع». نظر إليّ وقال بحزم: «هل نحن متفاهمان بخصوص هذه النقطة؟».

قلت له: «بالتأكيد».

«حسناً، هذا جيد، إن إخفاء بوديتش المال بهذه الطرق يقلقني قليلاً، لأننا لم نعرف مصدر دخله بعد، ولكنني سأُحسن الظن. تعجبني حقيقة أنه

يثق بك كما يعجبني أنك مستعد للتكفل بهذا الحمل، اعتقدت أنك ستخدمه بالمجان، أليس كذلك؟».

«أجل».

«أنت فتى جيد يا تشارلي، لا أعرف ماذا فعلت في حياتي لأستحقك».

وبسبب ما كنت أخفيه -ليس عن السيد بوديتش وحسب، بل المتاعب التي أثرتها أنا وبيرتي- اعترتني موجة شديدة من الشعور بالعار.

في تلك الليلة، حين كنت أتمدد في سريري، تخيلت أن السيد بوديتش يخفي منجم ذهب في مستودعه الموصد، ولعل العاملين كانوا أقزاماً بأسماء غريبة كالنعسان والغاضب. ابتسمت لهذه الفكرة. كنت واثقاً أن السر الكبير كان له علاقة بالمستودع، ولكنني كنت مخطئاً، لم أكتشف أمر المستودع إلا في وقت لاحق.

الفصل السادس

زيارة المستشفى- الخزانة- ستانتونفيل- الطمع بالمال-

عودة السيد بوديتش إلى المنزل.

1

حظيت والسيد بوديتش بمحادثة عميقة، حين كان زميله يشاهد في ردهة الطابق الثالث فريق وايت سوكس يلعب ضد ذا تايغرز وكان هناك جهاز مراقبة نبضات قلب مربوط على صدره.

قال السيد بوديتش: «يعاني من مشكلة في قلبه لا يستطيعون حلها بشكل مباشر، حمداً لله أنني لا أعاني من علل من هذا القبيل، لديّ ما يكفيني من المشاكل».

أراني كيف أصبح بوسعه دخول الحمام بالاستناد إلى العكازين بكل ما لديه من طاقة، لقد آلمه هذا بشكل واضح، وحين عاد بعد أن قضى حاجته كانت العرق يزين جبهته، ولكنني تفاءلت. لعله كان يحتاج المبولة بعنقها الطويل والمشؤوم ليقضي حاجة الليل، ولكن بدا أن بإمكاننا استبعاد النونية ما دام لم يقع في الليل ويكسر ساقه من جديد، كان بوسعي أن أرى عضلات ذراعيه النحيلتين ترتعشان في كل خطوة حذرة، جلس على السرير وتنهد حين شعر بالراحة مجدداً.

«هل يمكنك أن تساعدني بـ...» أشار إلى الخردة التي كانت تطوق ساقه.

رفعت ساقه ومثبتها الخارجي وحين أصبحت ممددة تنهد مجدداً وطلب حبتي دواء من كوب ديكسي الذي كان على المنضدة قرب السرير. ناولته الدواء، وسكبت بعض الماء من الإبريق فشربه، وكانت تفاحة آدم تتحرك في عنقه المجعد كقرد هائج.

قال: «لقد حولوني من مضخة المورفين إلى هذا، يدعى أوكسيكونتين، قال الطبيب إنني سأدمن عليه إن لم أدمن عليه بالفعل، وكان عليّ أن أقلع عنه. تبدو هذه صفقة منصفة لغاية الآن حيث إن المشي إلى الحمام يعادل المشي بماراثون لعين».

كان بوسعي أن ألحظ ذلك، وكان الحمام في منزله أبعد من الحمام الملحق هنا. لعله كان سيحتاج إلى النونية في جميع الأحوال على الأقل في البداية. دخلت إلى الحمام، وبللت خرقة وفركتها، حين انحنيت فوقه تراجع قليلاً.

«لحظة، لحظة! ماذا تحسب نفسك فاعلاً؟»

«أمسح العرق عن جبينك، كف عن التحرك».

لا نعرف متى تحدث نقاط التحول في علاقاتنا بالآخرين، ولكنني اكتشفت لاحقاً أن ما فعلته كان نقطة التحول لنا، تمنع لوهلة ثمّ استرخى (قليلاً) وسمح لي أن أمسح جبينه ووجنته، «أشعر وكأنني طفل صغير».

«تدفع لي أجراً فدعني أعمل لأستحقه».

قهقه حين سمع هذا، نظرت ممرضة من الباب، وسألته إن كان يحتاج شيئاً، قال إنه بخير. وحين غادرت، طلب مني أن أغلق الباب.

قال: «سأطلب منك الآن أن تقف مكاني إلى أن أستطيع أن أقف بنفسي، ولا تنسَ رادار أيضاً، هل أنت جاهز لفعل ذلك يا تشارلي؟».

«سأبذل قصارى جهدي».

«ستفعل هذا على الأرجح، إن هذا يكفيني وما كنت لأضعك في هذا الموقف ما لم أكن مجبراً، أتت امرأة اسمها ريفينزبورغر لتراني، هل قابلتها؟»

قلت له أجل.

«يا له من اسم غريب أليس كذلك؟ تراءت لي صورة لشطيرة بورغر مصنوعة من لحم الغراب».

ما كنت سأقول إنه كان مخدراً بفعل الأوكسي، ولكنني ما كنت سأنفي هذا الاحتمال أيضاً. لا بدّ من أن تأثير تلك الحبوب كان قوياً بسبب جسده النحيل حيث بلغ طوله حوالي ست أقدام، ولم يتجاوز وزنه مئة وخمسين رطلاً.

«حدثتني بخصوص ما سمته خيارات التسديد، سألتها عن التكاليف فأعطتني ورقة مطبوعة، إنها في الدرج هنا...». أشار إليه ثمّ تابع: «...ولكن لا تكترث لهذا الأمر حالياً، قلت لها إن التكاليف باهظة، فقالت: إن الرعاية

الممتازة باهظة الثمن يا سيد بوديتش، وأنت حظيت بأفضل أنواع الرعاية، سألتني إن كنت أحتاج لاستشارة أخصائي مالي - مهما تكن هذه المهنة - وقالت أنها ستساعدني في تدبير لقاء قبل أو بعد أن أعود للمنزل، فقلت لها إنني لا أظن ذلك ضرورياً، وقلت لها إنني سأسدد المبلغ بشكل مباشر شريطة أن أحصل على تخفيض، ثمّ سبحنا في بحر التفاوض. في النهاية استقررنا على حسم بنسبة عشرين بالمئة أي ما يعادل حسم تسعة عشر ألفاً».

صفّرت فابتسم السيد بوديتش.

«حاولت أن أجعلها تحسم نسبة خمس وعشرين بالمئة، ولكنها لم تقبل أن تزيد نسبة الحسم على عشرين بالمئة. أعتقد أن هذه هي القيمة المعتادة في هذا القطاع - تعتبر المستشفيات قطاعاً في حال تساءلت عن الموضوع، أضف إليها السجون حيث إن المستشفيات والسجون لا يختلف بعضها عن بعض بطريقة إدارتها للأعمال، ولكن في السجون يقوم دافعو الضرائب بتسوية الفواتير». مرر يده فوق عينيه وتابع: «كان بوسعي أن أدفع المبلغ كاملاً، ولكنني استمتعت بالتفاوض حيث مر وقت طويل على المرة الأخيرة التي تفاوضت فيها. بإمكانك القول منذ الشراء بساحة المبيعات حيث اشتريت كتباً عديدة ومجلات قديمة. أفضل الأشياء القديمة... هل أثرثر كثيراً؟ أجل، إليك الفكرة الأساسية: أستطيع الدفع، ولكنني أحتاج إليك لتجعل هذا ممكناً».

«إذا كنت تفكر بمحتوى علبة الطحين...».

لوّح بيده وكأن ذلك المبلغ لا يعني شيئاً، كان تافهاً بالنسبة إلى فاتورة المستشفى طبعاً. «إليك ما أريد منك أن تفعله».

أخبرني وحين انتهى سألني إن كنت أفضل أن يكتب المعلومات على الورق: «لا بأس إن فعلت ذلك، إذا أتلفت الورق بعد إتمام العمل».

«لعلني سأحتاج منك أن تكتب شيفرة الخزنة فحسب، أستطيع أن أكتبها على ذراعي ثمّ أمسحها».

«هل ستقدم على ذلك؟»

«أجل»، لم أرَ أي رادع عن فعل هذا حتّى ولو لغاية أن أكتشف حقيقة ما يخبرني به.

«ممتاز، كرر لي الخطوات».

فعلت هذا، واستخدمت القلم الذي كان بجواره لأكتب سلسلة أرقام ودورات على أعلى ذراعي كي يغطيها كم سترتي.

قال: «شكراً لك، عليك أن تنتظر ليوم غد لترى السيد هاينريك، ولكن يمكنك أن تستعد من اليوم حين تطعم رادار».

قلت له حسناً، وودعته، ثمّ غادرت. لقد كنت - وكما يقول أبي – مذهولاً. خطر لي شيء وأنا في المصعد، فعدت.

«هل غيّرت رأيك بالفعل؟» كان يبتسم، ولكن القلق كان بادياً في عينيه.

«كلا، أردت أن أسألك عن شيء قلته».

«ما هو؟».

«شيء يخص الهدايا. قلت إن الرجل الشجاع هو من يساعد، ولكن الجبان يكتفي بإعطاء الهدايا».

«لا أتذكر أنني قلت هذا».

«لقد قلته بالفعل، ما معنى هذا الكلام؟».

«لا أعلم، لا بدّ من أنني قلت ذلك بتأثير من الحبوب المسكنة».

كان يكذب. لقد عشت مع شخص مدمن لسنوات، وكنت أميّز الكذب حين أسمعه.

2

قدت دراجتي إلى المنزل رقم 1 في شارع سيكامور، ولا أبالغ عندما أقول إن الفضول كان يسيطر عليّ. فتحت الباب الخلفي، واستقبلتني رادار بحماسة، استطاعت أن تقف على قائمتيها الخلفيتين لعدة ثوان. لذا، اعتقدت أن الحبوب الجديدة كانت نافعة إلى حدّ ما. أخرجتها إلى الباحة الخلفية لتقضي حاجتها، وواظبت على إعطائها إشارات عقلية كي تسرع، وتعثر على مكان مناسب.

بعد أن دخلت المنزل، صعدت إلى غرفة نوم السيد بوديتش، وفتحت خزانته، كان لديه كثير من الثياب وكان معظمها من النوع المريح كقمصان الفانيلا والبناطيل الرقيقة. وكان هناك بذلتان، الأولى سوداء والأخرى رمادية، وكانتا تشبهان البذلات التي كان يرتديها جورج رافت وإيدوارد جي. روبينسون في أفلام مثل إيتش دون آي داي، أي كانتا مزدوجتي الصدر وأكتافهما عريضة.

دفعت الثياب جانباً وكشفت عن خزنة ووتشمان متوسطة الحجم، تقليدية الطراز، يبلغ ارتفاعها ثلاث أقدام. قرفصت، وحين مددت يدي إلى أرقام الشيفرة شعرت بشيء بارد يداعب ظهري حيث إن سترتي كانت قد ارتفعت عن بنطالي، صرخت ورأيت رادار وكان ذيلها يهتز للأمام وللخلف، كان أنفها هو الشيء البارد.

قلت لها: «لا تفعلي هذا يا فتاة»، جلست على الأرض، وابتسمت وكأنها تقول لي إنها ستفعل ما يحلو لها، أدرت وجهي إلى الخزنة، وأخطأت في إدخال الشيفرة في المرة الأولى، ولكنني نجحت في المرة الثانية وفتح الباب.

في البدء، رأيت مسدساً على رف الخزنة الوحيد، كان أكبر من المسدس الذي أعطاه أبي لأمي لتحتفظ به في الأوقات التي كان يغيب فيها عن المنزل لأيام... أو لمرة كل أسبوع حين كان يذهب في نزهة مع أفراد الشركة. كان نوع ذلك المسدس 0.32 وكان مسدساً للسيدات بالطبع، واعتقدت أنه لا زال يحتفظ به، ولكنني لم أكن متأكداً. كنت أذهب للبحث عنه في الأوقات التي ساء فيه شربه للكحول، ولكنني لم أجده، كان هذا المسدس أكبر. ولعله كان من نوع 0.45 وبدا عريقاً كمعظم أشياء السيد بوديتش. تناولته - بحذر - ووجدت القسم الذي يدير الأسطوانة. كانت الحجرات الست مليئة بالرصاصات. أعدت الأسطوانة مكانها ووضعت المسدس على الرف مجدداً. كان المسدس ضرورياً وفقاً للأمور التي أخبرني بها، وكان يجب أن يضع إنذاراً للسرقات، ولكنه لم يرد أن تدخل الشرطة إلى المنزل 1 في شارع سيكامور، بالإضافة إلى أن رادار كانت تعد إنذاراً مثالياً في وقت شبابها. كان آندي تشين إثباتاً على هذا الكلام.

وجدت في أرضية الخزنة ما أخبرني السيد بوديتش به: دلو فولاذي كبير، وكانت عليه حقيبة ظهر، تناولت حقيبة الظهر ورأيت أن الدلو كان مليئاً برمته بحبوب بي.بي التي لم تكن بي.بي بل قطعاً ذهبية.

كان للدلو أذنان فحملته منهما، لم أستطع أن أحمل كل ثقله بسبب وضعيتي، ولا بدّ من أنه كان يحوي أربعين أونصة من الذهب أو حتّى خمسين. جلست ونظرت إلى رادار.

«يا إلهي! يا لها من ثروة!».

أجابتني بهز ذيلها.

3

بعد أن أطعمتها في تلك الليلة صعدت إلى الطابق العلوي، ونظرت إلى دلو الذهب مجدداً لأتأكد من أنني لم أتخيّل الأمر، وحين وصلت إلى

المنزل سألني أبي إذا كنت مستعداً لعودة السيد بوديتش إلى المنزل، قلت له أجل، ولكن عليّ أن أتدبر أمر بعض الأشياء قبل أن يصل: «ألا تزال عند كلمتك بأنك ستعطيني المثقب والمفك الكهربائي؟».

«بالطبع، ولا يزال عرضي قائماً بمساعدتك إن استطعت، ولكن لديّ اجتماع في تمام الساعة التاسعة. إنه بخصوص حريق الشقة الذي أخبرتك عنه، تبين أنه حريق متعمد».

«سأكون على ما يرام».

«آمل هذا، هل أنت بخير؟».

«بالطبع، لماذا؟».

«لست على طبيعتك، هل أنت قلق بشأن يوم غد؟».

قلت له: «بعض الشيء»، ولم تكن هذه كذبة.

يمكنكم أن تتساءلوا إن كانت لديّ أيّ رغبة بإخبار أبي عما وجدته، والجواب هو كلا. لقد جعلني السيد بوديتش أقسم على كتمان السر، وهذا كان أحد الأسباب. لقد قال إن الذهب لم يكن مسروقاً بالمعنى المعروف وكان هذا سبباً آخر. سألته عن قصده، ولم يقل لي سوى أنه لا يوجد أحد في العالم يبحث عن هذا الذهب، كنت أريد أن أثق به إلى أن أعرف المزيد.

كان هناك شيء آخر؛ كنت في سن السابعة عشرة، وكان هذا أكثر شيء مشوق قد حصل حتى هذه اللحظة، وأردت أن أتابع التشويق.

4

صباح يوم الاثنين قدت دراجتي إلى منزل السيد بوديتش بإشراق، ووصلت أبكر من وقت إطعام رادار. نظرت إليّ بتركيز وأنا أُثبت قضبان الحماية. كان المرحاض ضيقاً بعض الشيء بالنسبة إلى الحمام الصغير،

وكانت قضبان الحماية ستضيق مكان الإفراغ، ولكنني اعتقدت أن هذا كان أمراً مناسباً. لقد تراءت لي صورته وهو يزمجر، ولكن كان من الصعب أن يقع، كان يمكنه الإمساك بقضبان الحماية وهو يتبول، واعتقدت أن هذه كانت إضافة مفيدة، حاولت تحريكها، ولكنها كانت ثابتة.

«ماذا تعتقدين يا رادار؟ هل أصبحت جاهزة؟».

هزّت ذيلها.

قال لي السيد بوديتش خلال حديثنا: «يمكنك أن تزن الذهب على ميزان الحمام، لن يكون الرقم دقيقاً، ولكن ميزان المطبخ يستغرق وقتاً طويلاً - أعرف هذا من خبرتي الطويلة- استخدم الحقيبة لوزن الذهب وحمله، قرّب الرقم ليكون أكثر من الرقم الذي سيظهر، سيزنها هاينريك بنفسه على ميزان أكثر دقة، سيكون ميزاناً ر-ق-ميا كما تعلم».

لقد قالها بتجزئة كباب من السخرية والهزل.

«كيف كنت تنقل الذهب إليه حين تحتاج إلى بيعه؟». كانت ستانتونفيل على بعد سبعة أميال.

«كنت آخذ يوبر على حساب هاينريك».

لم أفهم ما قاله لوهلة، ولكنني فهمته في نهاية المطاف.

«لم تبتسم يا تشارلي؟».

«لا شيء، هل كنت تبيع في الليل؟».

أومأ برأسه وقال: «قرابة الساعة العاشرة حين يدخل معظم سكان الحي إلى منازلهم، وخصوصاً السيدة ريتشلاند التي تسكن في الجهة المقابلة من الشارع، إنها جارة فضولية للغاية».

«سبق لك أن قلت لي ذلك».

«يستحق الأمر الإعادة».

لقد حسبتها كذلك أنا الآخر.

« وافق هاينريك على أن يغلق المتجر غداً كي يمكنك القدوم في الصباح بين الساعة التاسعة والنصف والعاشرة، لم يسبق لي أن بعت هذا المقدار من الذهب، أنا واثق أن الأمور ستجري على ما يرام فهو صريح في تصرفه معي. ولكن هناك مسدساً في الخزنة فإذا أردت أن تأخذه معك - للحماية - فلا مانع لديّ».

لم أنوِ أخذه، أعلم أن المسدسات تُشعر حامليها بالقوة، ولكنني لم أكن منهم، لقد شعرت بالغرابة لمجرد لمسه. لو أخبرتموني أنني كنت سأمسكه في المستقبل القريب لنعتكم بالمجانين.

وجدت مغرفة في المطبخ، وصعدت إلى الأعلى. كنت قد مسحت الأرقام عن ذراعي بعد أن وضعتها في مذكرة محمية بكلمة سر على هاتفي، ولكنني لم أحتج لتفحصها حتّى حيث إنني تمكنت من فتحها من المرة الأولى. أزحت الحقيبة عن الدلو، وتأملت الذهب. لم أستطع أن أمنع نفسي، فمررت أصابعي بين القطع الذهبية، وجعلت القطع تتناثر من بين أصابعي. كررت هذه الحركة مرة ثانية ثمّ ثالثة؛ كان هناك شيء آسر في هذه الحركة، حرّكت رأسي، وكأنني أحاول أن أتجاوز تأثير تنويم مغناطيسي، وبدأت بغرف الذهب.

في المرة الأولى التي زنت فيها الحقيبة أعطى المؤشر رقم ثلاثة أرطال، وضعت المزيد فارتفع المؤشر إلى خمسة، توقفت الإبرة في آخر مرة عند الرقم سبعة أرطال، وقررت أن هذا كاف، إذا أشار مقياس السيد هاينريك الر-ق-مي إلى أكثر من ستة أرطال المتفق عليها كان بوسعي أن أعيد الزيادة. كان عليّ أن أؤدي بعض المهام في المنزل قبل وصول السيد

بوديتش. ذكرت نفسي أن أحضر جرساً كي يرنه لي في الليل إذا احتاج إلى شيء. اقترحت نشرة الرعاية المنزلية للمبتدئين نظام اتصال داخلياً أو جهاز مراقبة الأطفال، ولكنني اعتقدت أن السيد بوديتش كان سيفضل طريقة أكثر تقليدية.

سألته كم تساوي أرطال الذهب الستة من المال وكنت واقعاً بين نارين، ويعني هذا أنني أردت أن أعرف المبلغ الذي كنت سأنقله على دراجتي لمسافة سبعة أميال -التي كانت عبارة عن مساحات قروية - إلى ستانتونفيل ولم أرد معرفته في الوقت نفسه، قال لي إن آخر مرة تحقق من سعر الذهب في تكساس كان السعر يعادل خمسة عشر ألف دولار لقاء الرطل الواحد.

«ولكن من الممكن أن يعطيك أربعة عشر ألفاً لقاء الرطل -كان هذا السعر الذي اتفقنا عليه، سيصل المبلغ إلى أربعة وثمانين ألفاً، ولكنه سيعطيك شيكاً بقيمة أربعة وسبعين ألفاً، سيغطي هذا الشيك فاتورة المستشفى وسيظل لي مبلغ من المال، كما سيتقاضى هو ربحاً لا بأس به».

لم يعبّر مصطلح لا بأس به عن قيمة الربح، لا أعلم متى تحقق السيد بوديتش من مجموعة سعر الذهب، ولكن استناداً إلى نهاية شهر نيسان في عام 2013 كان قد أخفض معاييره للغاية، لقد تحققت من سعر الذهب على حاسوبي قبل أن أخلد للنوم في ليلة يوم الأحد وكان سعره يصل إلى 1200 دولار لقاء الأونصة أي ما يعادل عشرين ألف دولار لقاء الرطل، وكان ثمن ستة أرطال سيفوق 115 ألف دولار وفقاً لسوق الذهب في زيورخ أي أن هاينريك هذا سيربح أربعين ألفاً، ولم يكن الذهب مثل ألماس الأزمات التي يخفض المشتري من ثمنها بسبب الخطورة،. لم تكن على القطع الذهبية أيّ دمغات كما كانت مجهولة ويسهل تذويبها وتحويلها إلى سبائك صغيرة أو مجوهرات.

فكرت في أن أتصل بالسيد بوديتش في المستشفى لأخبره أنه كان يبيع بسعر بخس، ولكنني لم أفعل ذلك، ورغم الأرطال الستة التي سحبت من دلو الذهب الخاص بالكابتن كيد تبقى كثير من الذهب، كان عملي (على الرغم من أن السيد بوديتش لم يقل هذا) يقتصر على إتمام الصفقة وألا أسرق، كانت هذه مسؤولية كبيرة، وكنت مصراً على أن أستحق الثقة التي منحني إياها.

حزمت الحقيبة، وتفحصت الأرضية بين الخزانة وميزان الحمام لأرى ما إن كنت قد أوقعت بعض القطع المتناثرة، ولكنني لم أجد شيئاً، ربت رأس رادار (لتمدني بالحظ) وانطلقت خارجاً وأنا أحمل 115 ألف دولار في حقيبة مهترئة.

كان سيقول صديقي بيرتي بيرد إنني كنت أحمل كثيراً من الفلوس.

5

كان مركز ستانتونفيل عبارة عن شارع مفرد فيه كثير من المتاجر وبعض الحانات ومطعم، يبدو أنه يقدم طعام الفطور طوال اليوم مع كوب من القهوة الجاهزة السيئة، كان هناك بعض المتاجر المغلقة كما علقت عليها لافتات تقول إنها للبيع أو للإيجار. قال أبي مرة إن ستانتونفيل كانت بلدة صغيرة مزدهرة للغاية، ومكاناً ممتازاً للناس الذين لم يودوا أن يذهبوا إلى إيلغين ونيبيرفيل وجولييه، أو أن يعبروا الطريق لشيكاغو. ثم افتتح مركز ستانتونفيل التجاري في تسعينيات القرن الماضي. لم يكن مركزاً تجارياً فحسب، بل كان مركزاً تجارياً ضخماً فيه سينيبليكس باثنتي عشرة شاشة، ومدينة ملاهٍ للصغار، وجداراً للتسلق ومساحة للترامبولين تدعى فلايبرز، وغرفة هروب، وشباب يجوبون المكان وهم يتنكرون كحيوانات ناطقة. كانت قنبلة التجارة تلك شمالي ستانتونفيل، سلبت معالم الحياة من منطقة

المركز والأمور التي تناساها المركز التجاري غطاها وولمارت وسامز كلاب جنوباً على مخرج الشارع الرئيسي الذي يتقاضى رسوماً.

ولمّا كنت أقود دراجتي ابتعدت عن ذلك الشارع وسلكت الطريق 74- أي، وكان عبارة عن مسربين وكان يخترق المزارع وحقول الذرة التي كانت تفوح منها روائح السماد والنباتات. كان صباحاً ربيعياً جميلاً، وكنت سأستمتع بهذه الرحلة ما لم أكن أحمل ثروة على ظهري، أذكر أنني فكّرت بجاك الذي تسلق على نبتة الفاصولياء.

وصلت إلى شارع بلدة ستانتونفيل الرئيسي قرابة الساعة التاسعة والربع وكان هذا وقتاً باكراً لذا توقفت عند المطعم، واشتريت الصودا وشربتها وأنا أجلس على مقعد حديقة في ساحة متسخة صغيرة فيها نافورة جافة مليئة بالقمامة وتمثال متشح بمخلفات الطيور لشخص لم يسبق لي أن سمعت به. فكّرت في تلك الساحة والنافورة الجافة لاحقاً في مكان مهجور أكثر من ستانتونفيل.

لا أستطيع أن أُقسم على أن كريستوفر بولي كان هنا في ذلك الصباح كما لا أستطيع أن أُقسم بعكس ذلك. كان بولي من النوع الذي يتخفى بين عناصر الوسط حتّى يصبح جاهزاً ليظهر نفسه أمامك. لعله كان في المطعم يلتهم اللحم والبيض، أو لعله كان في موقف الباص أو يتظاهر بتفحص الغيتارات ومعداتها في متجر ستانتونفيل للرهانات والقروض، أو لعله لم يكن في أي مكان، كل ما يمكنني قوله هو إنني لا أتذكر أحداً يعتمر قبعة رياضية للوايت سوكس ومن النوع الذي يرسم عليه دائرة حمراء في المقدمة، ولكنني لم أر ذلك الوغد من دونها أبداً.

عندما أصبحت الساعة العاشرة إلا الثلث رميت بكوب الصودا الذي لم أنهِه في سلة قمامة قريبة، وتحركت ببطء إلى الشارع الرئيسي. لم يشغل قطاع الأعمال المعتبر سوى أربعة صفوف من المباني وكان هناك في نهاية

الصف الرابع قرب لافتة كتب عليها: شكراً لزيارتكم ستانتونفيل الجميلة. لافتة أخرى كتب عليها مجوهرات ممتازة: نشتري ونبيع،. بدا المتجر متداعياً كباقي متاجر هذه البلدة المتهالكة، لم يكن هناك شيء معروض على واجهة المتجر المتسخة، كتب على اللافتة المعلقة على الباب من مسكة بلاستيكية: مغلق.

كان هناك جرس فرننت عليه ولم أنل جواباً، رننته مجدداً، وكنت مدركاً للغاية للحمل الذي كان على ظهري. لامست الزجاج بأنفي ووضعت يدي على جانبي وجهي كي أرى بشكل جيد، رأيت سجادة قديمة وعلب عرض فارغة، بدأت أفكر في أنني ارتكبت خطأ ما، أو أن السيد بوديتش قد ارتكب خطأ حين ظهر رجل ضئيل يعتمر قبعة تويد ويرتدي سترة لها أزرار وبنطالاً واسعاً وبدأ يعرج في الرواق المركزي. بدا كمزارع في مسلسل تحقيق بريطاني، حدق إليّ ثمّ عرج بعيداً وضغط زراً قرب عدادة المال ذات الطراز القديم. أصدر الباب صوتاً وفتحته ثمّ دخلت واستقبلتني رائحة الغبار والتدهور البطيء.

قال: «تعالَ إلى الخلف، تعالَ إلى الخلف».

بقيت مكاني وقلت له: «أنت السيد هاينريك، أليس كذلك؟».

«ومن أكون؟»

«هل يمكنني أن أرى، همم، رخصة قيادتك؟».

قطب حاجبيه ثمّ ضحك: «أرسل الرجل العجوز فتى حذراً، لقد أحسن الاختيار».

أخرج محفظة رثة من جيبه الخلفي، وفتحها كي أرى رخصة قيادته، وقبل أن يغلق محفظته مجدداً، قرأت أن اسمه الأول كان ويلهيلم.

«هل أنت راضٍ؟».

«أجل، شكراً لك».

«عد إلى الخلف، بسرعة».

تبعته إلى الغرفة الخلفية التي فتحها بواسطة لوحة مفاتيح وخبأها عني بحذر وهو يدخل الأرقام، كانت جميع الأشياء التي لم تكن معروضة على الواجهة في الداخل حيث كانت الرفوف متشحة بالساعات والمجوهرات والبروشات والخواتم والقلائد والسلاسل. توهج الياقوت والزمرد ورأيت تاجاً مليئاً بالألماس. أشرت إلى التاج وسألته: «هل هذا الألماس حقيقي؟».

«جا، جا، حقيقي، ولكنني لا أعتقد أنك أتيت إلى هنا كي تشتري، أتيت إلى هنا لتبيع، لعلك لاحظت أنني لم أطلب منك أن تظهر لي رخصة قيادتك».

«هذا جيد لأنني لا أملك واحدة».

«أعلم من أنت بالفعل، رأيت صورتك في الصحيفة».

«ذا سان؟».

«أميركا توداي، أنت بطل قومي يا سيد تشارلي ريد على الأقل هذا الأسبوع، لقد أنقذت حياة بوديتش العجوز».

لم أتكبد عناء أن أشرح له أن الكلبة هي من أنقذت حياته فقد تعبت من الأمر وأردت أن أنهي عملي وأخرج من هنا. لقد أفزعني هذا الكم من المال والمجوهرات خصوصاً عندما رأيت المفارقة بينها وبين الرفوف الفارغة على الواجهة. تمنيت إلى حدّ ما لو أحضرت معي المسدس لأنني لم أشعر مثل جاك فتى نبتة الفاصولياء بل مثل جيم هوكنز في جزيرة الكنز. كان هاينريك رجلاً قصيراً وبديناً ومسالماً، ولكن ماذا لو كان لديه مساعد مثل لونغ جونغ سيلفر يترصد لي في مكان ما؟ لم تكن هذه مجرد فكرة نسجها عقلي المرتاب، كان يمكنني أن أقنع نفسي أن السيد بوديتش كان

يتعامل مع هاينريك لسنوات، ولكن السيد بوديتش بنفسه قال إنه لم يسبق له أن باع هذا المقدار من الذهب.

قال: «دعنا نرَ ما لديك»، عادة ما تُمثل هذه الشخصيات في كتاب عن قصص اليافعين الطمع وتقوم الشخصية بفرك يديها ونظرة النهم مرتسمة على وجهها، ولكنه بدا عملياً ولعله كان ضجراً بعض الشيء، لم أثق بهذا كما لم أثق به.

وضعت الحقيبة على الطاولة، كان هناك ميزان قريب وكان ر-ق-مياً بالفعل، فتحت الحقيبة، ووسعت الفتحة، فألقى نظرة ورأيت شيئاً يتغير في تعابير وجهه كما رأيت توسعاً لحظياً لعينيه.

«يا إلهي!، أهذا ما كنت تحمله على دراجتك؟».

كان هناك وعاء زجاجي مربوط بسلاسل، وضع هاينريك حفنات صغيرة من قطع الذهب في الوعاء حتّى أشار المؤشر إلى رطلين، وضعها جانباً في وعاء بلاستيكي ثمّ وزن رطلين آخرين، وحين انتهى من وزن آخر رطلين وإضافتهما إلى البقية كان هناك بحر من الذهب في إحدى طيات قعر الحقيبة، قال لي السيد بوديتش أن آخذ كمية أكثر وفعلت ما قاله لي.

قال لي وهو ينظر إلى الحقيبة: «أعتقد أنه تبقى ثلاثة أرباع رطل أليس كذلك؟ بعني إياها وسأعطيك ثلاثة آلاف دولار نقداً، ليس على بوديتش أن يعرف، اعتبره بقشيشاً».

قلت لنفسي: سيكون مستمسكاً سيستخدمه ضدي. قلت له شكراً في جميع الأحوال، وأغلقت الحقيبة. «أحضرت شيكاً أليس كذلك؟».

«أجل»، كان الشيك مطوياً في جيب معطف الرجل العجوز، كان من مصرف بي.إن.سي في شيكاغو وفرع جادة بيلمونت وكان موجهاً لهاورد بوديتش بمبلغ قدره أربعة وسبعين ألف دولار، كتب في الخانة قرب توقيع

ويلهيلم هاينريك: خدمات خاصة. بدا الشيك صحيحاً، وضعته في محفظتي، ووضعت محفظتي في جيبي الأمامي الأيسر.

قال هاينريك: «إنه رجل عجوز عنيد ويرفض أن يواكب تطور الزمن، وفي مرات عديدة في الماضي وحين كنا نتعامل بمبالغ أقل بكثير كنت أعطيه مالاً نقدياً، وأعطيته شيكاً في مناسبتين. قلت له: ألم تسمع بالإيداع الإلكتروني؟ وهل تعلم ماذا أجابني؟»

أشحت بوجهي ولكن كان بوسعي أن أخمن.

«قال لي: لم أسمع به ولا أريد أن أسمع به، والآن ولأول مرة يرسل لي زويشين غيهين - مبعوثاً - لأنه قد تعرض لحادث، كان بوسعي أن أقول إنه ليس لديه أحد في العالم ليثق به في تأدية هذه المهمة، ولكن ها أنت ذا! شاب على دراجة».

قلت له: «وها أنا ذاهب»، واتجهت إلى الباب الذي يؤدي إلى المتجر القاحل حالياً حيث كان سيركب علب العرض أو لن يركبها، توقعت تقريباً أن يكون الباب موصداً، ولكنه لم يكن كذلك. شعرت بتحسن حالما وقفت في ضوء النهار، ومع هذا كانت رائحة الغبار القديم مزعجة وكأنها منبعثة من تابوت.

سألني هاينريك وهو يتبعني ويُغلق باب الغرفة خلفه: «هل يعرف ما هو الحاسوب؟ أعتقد لا».

لم أخطط لأن أنخرط في حديث عن معلومات السيد بوديتش. لذا، اكتفيت بأن أقول له إنني سررت برؤيته، ولم يكن هذا صحيحاً، لقد سررت لأن دراجتي لم تسرق. فحين تركت المنزل هذا الصباح كنت منشغلاً للغاية لدرجة أنني نسيت قفل دراجتي.

أمسكني هاينريك بمرفقي، استدرت ورأيت لونغ سيلفر جون الداخلي في نهاية المطاف، لم يحتج سوى لببغاء على كتفه لتكمل الصورة. وبالنسبة إلى سيلفر شهد ببغاؤه شروراً أكثر من الشيطان نفسه. أعتقد أن ويلهيلم رأى حصته من الشرور... ولكن عليكم أن تتذكروا أنني كنت في السابعة عشرة من عمري وكنت غارقاً في أمور لم أفهمها. بالمختصر كنت أرتعش خوفاً.

سأل هاينريك بصوت منخفض ومزمجر: «كم يملك من المال؟». اعتبرت استعماله للكلمات الألمانية هنا وهناك نوعاً من اللطافة، ولكنه بدا ألمانياً للغاية في تلك اللحظة وليس ألمانياً لطيفاً. «أخبرني كم لديه وكيف يحصل عليه وسأحرص على أن أعطيك ما تستحق».

قلت له: «سأذهب الآن» وبالفعل ذهبت.

هل كان كريستوفر بولي يراقبني حين امتطيت دراجتي وقدتها بصحبة المال المتبقي في حقيبتي؟ لم يكن من الممكن أن أعرف لأنني كنت أنظر إلى وجه هاينريك المكتنز الشاحب قرب لافتة مغلق على باب متجره القديم. لعل خيالي كان له دور في ذلك - وأرجح هذا - ولكنني اعتقدت أنني استطعت رؤية الطمع في عينيه.

علاوة على إنني فهمته، تذكرت حين مررت يدي في ذلك الدلو، وجعلت القطع تمر من بين أصابعي، لم يكن طمعاً فحسب بل كان طمعاً ذهبياً.

كما في قصص القراصنة.

6

في تمام الساعة الرابعة عصر ذلك اليوم، ركنت شاحنة كتب على جانبها مرضى أركاديا الخارجيون قرب الرصيف. كنت أنتظر عند الممشى مع

رادار، وكنت أطوق رقبتها باللجام، وكانت البوابة -التي أصبحت خالية من الصدأ - مفتوحة على مصراعيها. خرج مسعف من الشاحنة، وفتح البابين الخلفيين. كانت ميليسا ويلكوكس تقف وراء السيد بوديتش الذي كان يجلس على كرسي متحرك، وكانت ساقه المثبتة ممدودة. فكت قفل الكرسي المتحرك، ودفعته إلى الأمام وكبست زراً براحة يدها. وحين بدأت المنصة والكرسي يتحركان هبط قلبي؛ تذكرت الهاتف والمبولة وجرس النداء. كان شيكه من هاينريك بأمان في محفظتي، وكان كل شيء على ما يرام، ولكن لم يكن هناك منحدر للكرسي المتحرك، لا في الأمام ولا في الخلف. شعرت أنني أحمق ولكن الجيد في الأمر هو أنني لم أشعر بالحمق لفترة طويلة؛ كانت رادار إلى جانبي وتولت تشتيتي. رأت السيد بوديتش وقفزت باتجاهه. لم تبدُ أيّ بوادر التهاب مفاصل في وركيها حينها، وتمكنت من شد لجامها في الوقت المناسب كي لا تتسبب بسحق كفيها بالمنصة النازلة، ولكنني شعرت بالصدمة وهي تنخر في عظامي.

يارك! يارك! يارك!

لم يكن هذا نباح الكلبة الذي أخاف آندي في تلك الأيام، بل نحيباً حزيناً وبشرياً لدرجة أنه آلم قلبي. قالت تلك الأصوات: لقد عدت! حمداً لله! ظننتك لن تعود.

مد السيد بوديتش ذراعيه إليها، فقفزت ووضعت كفيها على ساقه الممدودة. تأوه قليلاً ثمّ ضحك وعانق رأسها، قال برفق: «أجل يا فتاتي». كان من الصعب عليّ أن أصدق أن بإمكانه إصدار صوت كهذا حتّى عندما سمعته بأذني ولكنه فعلها؛ لقد دندن ذلك العجوز المتذمر. كانت عيناه تغرغران بالدمع، وكانت رادار تصدر أصواتاً تنم عن الفرح، كما كان ذيلها الكبير العجوز يروح جيئة وذهاباً.

«أجل يا فتاتي، أجل. لقد اشتقت إليك أيضاً، انزلي الآن، فأنت تؤلمينني جداً».

نزلت رادار على أطرافها الأربع، ومشت قرب الكرسي المتحرك بينما كانت ميليسا تديره على الممشى وكان الكرسي يتحرك بصعوبة.

قلت: «ليس هناك منحدر، أنا آسف، أنا آسف. أستطيع بناء منحدر، وسأبحث عن كيفية تركيبه على الإنترنت فكل شيء موجود على الإنترنت». كنت أثرثر ولم أستطع أن أكبح نفسي. «أعتقد أن كل شيء آخر جاهز بطريقة أو بأخرى...».

قاطعني السيد بوديتش وقال: «نستطيع الاستعانة بشخص لوضع المنحدر، لذا كف عن الارتباك؛ ليس عليك أن تفعل كل شيء بنفسك. إن إحدى ميزات أمين السر هي قدرته على تفويض المهام وليس هناك عجلة، لا أغادر المنزل كثيراً كما تعرف، هل توليت أمر ذلك العمل؟».

«أجل، في هذا الصباح».

«ممتاز».

قالت ميليسا: «تستطيعان رفع ذلك الكرسي على الدرج بما أنكما قويان إلى هذا الحدّ، ماذا تقول يا هيربي؟».

قال المسعف: «لا مشكلة لديّ أليس كذلك يا صديقي؟»

قلت له: «بالطبع»، وأمسكت بجانب من الكرسي. صعدت رادار على الدرج، ووقفت على منتصفه حين غدرت بها ساقاها الخلفيتان، ثمّ استجمعت قواها وتابعت طريقها. نظرت إلينا من الأعلى وهزت ذيلها.

قالت ميليسا: «يجب على أحدهم أن يصلح هذا الممر إذا كان سيستخدمه. إنه أسوأ من الشارع الترابي في المنطقة التي ترعرعت فيه

في تينيسي».

سألني هيربي: «هل أنت مستعد يا صديقي؟».

حملنا الكرسي المتحرك إلى الشرفة. بحثت في رزمة مفاتيح السيد بوديتش، ووجدت أخيراً مفتاح الباب الأمامي.

قال المسعف: «يا صديقي! ألم أرَ صورتك في الصحف؟».

تنهدت وقلت: «ربما، كنا نقف أنا ورادار قرب البوابة».

«كلا، كلا، في السنة الماضية، لقد سددت هدف الفوز في توركي بول قبل خمس ثوان من نهاية الشوط».

رفع يداً فوق رأسه، وكأنه يحمل كرة قدم خفية مثل حركتي في الصورة. لم أستطع أن أتبين السبب الذي جعلني أفرح بتذكره تلك الصورة بدلاً من الصورة الحديثة، ولكنني فرحت جداً.

انتظرت في غرفة المعيشة -كنت متوتراً أكثر من أي وقت مضى- بينما تفحصت ميليسا الأريكة المفرودة.

قالت: «حسناً، إنها جيدة، ولعلها منخفضة قليلاً، ولكن الجود بالموجود، سنحتاج سنادة لنعطي ساقه بعض الدعم، من أعد السرير؟».

قلت لها: «أنا»، أسعدتني تعابير المفاجأة التي اعتلت وجهها.

«هل قرأت النشرة التي أعطيتك إياها؟».

«أجل، لقد اشتريت مضادات البكتيريا للاهتمام بالأسياخ والدبابيس...».

أشاحت بوجهها وقالت: «إن المحلول الملحي البسيط هو كل ما تحتاج إليه. إنه ماء دافئ مملح، هل تشعر أنك مستعد لنقله؟».

قال السيد بوديتش: «مرحباً؟ لعلّ بوسعي أن أشارك بهذه المحادثة أليس كذلك؟ أنا هنا».

ابتسمت ميليسا وقالت: «أجل، ولكنني لا أتحدث إليك».

قلت: «إمم، لست متأكداً».

قالت ميليسا: «يا سيد بوديتش، أنا أتحدث إليك الآن، هل تمانع إذا جرب تشارلي جرك بالكرسي المتحرك؟».

نظر السيد بوديتش إلى رادار التي كانت تجلس قربه: «ما رأيك يا فتاة؟ هل يمكننا الوثوق بهذا الفتى؟».

نبحت رادار مرة.

«قالت رادار حسناً وأنا أوافقها، لا توقعني يا فتى، يكفيني مصابي».

قرّبت الكرسي من السرير، ورفعت المكبح، وسألته إن كان بوسعه أن يقف على ساقه اليمنى، رفع نفسه قليلاً، وسمح لي بفك حامي الساق الذي كان يرتديه فوق ساقه المصابة. تأوه قليلاً ولكنه وقف تماماً. ترنح قليلاً ولكن بشكل عمودي.

قلت: «أدر ظهرك إلى السرير، ولكن لا تجلس إلا عندما أقول لك»، أومأت ميليسا رأسها موافقة.

فعل السيد بوديتش هذا، وأبعدت الكرسي المتحرك عن الطريق.

«لا يمكنني أن أقف مطولاً على هذا النحو من دون العكازين»، تفصد حاجباه وجبهته بالعرق مجدداً.

قرفصت وأمسكت بالمثبت: «يمكنك أن تجلس الآن».

لم يجلس بل أرخى ثقله دفعة واحدة، وتمدد بعد أن أطلق تنهيدة راحة. وضعت ساقه على السرير، وكانت نقلتي الأولى ناجحة، لم أتعرق كالسيد بوديتش ولكنني كنت أتعرق بسبب التوتر على الأرجح، كانت هذه مهمة أصعب من تلقي الضربات من الرامي.

قالت ميليسا: «لا بأس بك، وحين تساعده على النهوض عليك أن تعانقه، اشبك يديك وسط ظهره واحمله، استخدم المنطقة تحت إبطيه لـــ...».

قلت لها: «للدعم، ذكرت هذه المعلومة في النشرة».

«أحب الشاب الذي يؤدي وظائفه. احرص دائماً على أن يكون العكازان بالقرب منه وخصوصاً عند النهوض من السرير، كيف حالك يا سيد بوديتش؟».

«كبرميل كبير من الحال السيئ، هل حان وقت دوائي؟».

«تناولت الدواء قبل أن نغادر المستشفى، يمكنك أخذ المزيد في تمام الساعة السادسة».

«أشعر وكأنني قد تناولته منذ وقت طويل، هل يمكنني تناول بعض البيركوسيت ليساعدني قليلاً؟».

«ليس معي»، ثمّ قالت لي: «ستتحسن في هذا، وسيتأقلم مع الوضع وخصوصاً بعد أن يتحسن ويزيد مجال حركته، هل يمكنك أن تخرج معي قليلاً؟».

قال بوديتش: «ستتحدثان من وراء ظهري، مهما يكن الموضوع فلن يقوم الفتى بضرب أيّ حقن شرجية».

قال هيربي الذي أحنى ظهره ووضع يديه على ركبتيه كي يتفحص التلفاز: «واو، إن هذا أقدم تلفاز أرضي رأيته في حياتي يا صديقي، هل يعمل؟».

7

كانت شمس الأصيل رائعة، وبعثت ببعض الدفء الذي أعطى شعوراً مذهلاً بعد شتاء طويل وصيف بارد. قادتني ميليسا إلى الشاحنة، ومدت يدها، وأزالت القفل عن الكونسول المركزي، تناولت كيساً بلاستيكياً ووضعته على المقعد. «إن العكازتين في الخلف، إليك أدويته بالإضافة إلى عبوتين من جيل أرنيكا. هناك ورقة دوّنت عليها الجرعات المطلوبة، أتفهمني؟». أخرجت العبوات، وأرتني إياها واحدة تلو الأخرى. «إن هذه مضادات حيوية وهذه فيتامينات بأربعة أنواع، إن هذه وصفة للينبارزا، بإمكانك أن تشتري عبوات إعادة تعبئة من سي.في.إس في سينتري فيليج. إن هذه مليئات للأمعاء، لا يوجد تحاميل، ولكن عليك تصفح طريقة استخدامها إذا احتاج إليها. لن يفضلها».

قلت لها: «لا يفضّل شيئاً تقريباً إلا رادار».

قالت: «وأنت، إنه يحبك يا تشارلي. يقول عنك إنك أهل للثقة. أتمنى أنه لا يقول هذا لأنك أتيت في الوقت المناسب لتنقذ حياته ».

كانت العبوة الكبيرة مليئة بحبوب أوكسيكونتين عيار عشرين ميليغراماً، نظرت إليّ ميليسا بجدية وحزم: «إن هذا دواء سيئ يا تشارلي فهو يسبب الإدمان الشديد، ولكنه في الوقت ذاته فعال جداً لتخفيف الألم الذي يعاني منه الآن صديقك، ولعله سيعاني منه لمدة تتراوح بين ثمانية أشهر وسنة ويمكن لأكثر من ذلك وفقاً لمشاكله الأخرى».

أشاحت بوجهها وقالت: «ليست لديّ صلاحية البوح بهذا، التزم بجدول الجرعات وتجاهل طلباته إذا أراد المزيد، يمكنه أن يحصل على جرعة

إضافية قبل جلساتنا، وبما أنني واثقة أن هذا سيصبح أحد أهم محفزاته -ولعله سيكون الأهم- لإتمام العلاج على الرغم من تألمه الشديد، وسيتألم جداً، عليك أن تحفظها في مكان لا يستطيع الوصول إليه، هل خطر على بالك مكان؟».

«أجل»، لقد كنت أفكر بالخزنة، «سينفع هذا المكان إلى أن يستطيع الصعود على الدرج».

«لمدة ثلاثة أسابيع إذاً إن التزم بالعلاج، ويمكن أن تصل هذه المدة إلى شهر. حالما يستطيع الصعود على الدرج عليك أن تفكر بمكان آخر، تعادل هذه الحبوب بالنسبة للمدمنين وزنها ذهباً».

ضحكت فلم أستطع أن أمنع نفسي.

«ماذا؟ ما المضحك في كلامي؟».

«لا شيء، سأحفظها في مكان آمن ولن أدعه يستميلني كي أعطيه المزيد».

نظرت إليّ عن كثب: «ماذا عنك يا تشارلي؟ لأنني لا أفضل أن أعطيها لقاصر، حيث إن الأطباء الذين وصفوها يعرفون أن بالغاً هو من سيعطيها. يمكن أن أتورط في مشاكل، هل ستجرب حبة أو اثنتين لتنتشي؟»

فكرت في والدي وما فعله فيه الكحول وكيف اعتقدت لفترة أننا كنا على وشك العيش تحت جسور الشوارع وحفظ كل ممتلكاتنا في عربة متجر مسروقة.

تناولت العلبة الكبيرة من حبوب أوكسي، ووضعتها في الحقيبة قرب الأدوية الأخرى ثمّ تناولت يدها ونظرت في عينيها وقلت: «لن أفعل هذا بحق الجحيم».

كان هناك مزيد من التعليمات التي استوعبتها لأنني كنت متوتراً من البقاء معه وحدي؛ ماذا لو حصل شيء وتوقف هاتف سبعينيات القرن الماضي عن العمل؟

قلت لنفسي: ستتصل إذاً برقم الطوارئ بواسطة هاتفك المحمول المعاصر، كما فعلت حين رأيته على الشرفة الخلفية، ولكن ماذا لو أصابته ذبحة قلبية؟ كل ما أعرفه عن التنفس الاصطناعي تعلمته من برامج التلفاز وإذا توقف محركه فلن يكون هناك وقت كي أتحقق من اليوتيوب حول هذا الموضوع، رأيت المزيد من الوظائف في مستقبلي.

راقبت الشاحنة وهي تغادر ثمّ عدت إلى الداخل، كان السيد بوديتش يستلقي ويضع ذراعاً على عينيه، وكانت رادار تجلس بترقب قرب سريره، لم يعد هناك سوى نحن الثلاثة.

سألته: «هل أنت على ما يرام؟».

أنزل ذراعه، وأدار وجهه لينظر إليّ. كانت تعابيره كئيبة: «أنا في حفرة عميقة يا تشارلي، لا أعرف ما إن كان بوسعي أن أخرج منها».

قلت له: «ستخرج»، وتمنيت لو بدوت أكثر إقناعاً من شعوري الداخلي بخصوص الموضوع، «هل تريد طعاماً؟».

«أريد مسكناتي».

«لا أستطيع...».

رفع يده وقال: «أعلم أنك لا تستطيع ولن أهين نفسي -أو أهينك - بالتوسل إليك أبداً، وأتمنى هذا على الأقل». ربت رأس رادار مراراً وتكراراً،

فجلست من دون حراك، وكان ذيلها يتحرك ببطء من جانب إلى آخر، ولم تشح بناظرها عنه أبداً، «أعطني الشيك وقلماً».

فعلت هذا، وجلبت كتاباً ذا غلاف سميك ليسند الشيك إليه، كتب: للإيداع فقط ثمّ وقع عليه: «هل تستطيع أن تأخذه إلى المصرف غداً؟».

«بالطبع، فيرست سيتيزنز أليس كذلك؟».

«هذا صحيح، حالما يدخل النظام بإمكاني كتابة شيك لتغطية كلفة إقامتي في المستشفى»، سلمني الشيك فأعدته إلى محفظتي. أغمض عينيه ثمّ فتحهما مجدداً، وحدق إلى السقف، لم تفارق يده رأس رادار أبداً، «أنا تعب للغاية، ولا يأخذ الألم إجازة على الإطلاق حتّى إنه لا يأخذ استراحة».

«أتريد طعاماً؟».

«لا أريد، ولكنهم قالوا لي إنّ عليّ أن أتناول الطعام، لعلني سأتناول بعض س و س - أي سردين وسالتينز».

لقد بدا هذا الطعم فظيعاً بالنسبة إليّ، ولكنني أحضرته مع كأس من الماء المثلج. شرب نصف الكأس بشراهة قبل أن يبدأ بالسردين (مبتور الرأس ويلمع من الزيت - يا للقرف!)، سألني إن كنت عازماً على البقاء هنا هذه الليلة.

قلت له: «الليلة وكل الأسبوع».

«هذا جيد، لم أمانع البقاء وحدي من قبل، ولكن الوضع قد تغير الآن. أتريد أن تعلم ماذا علمني الوقوع عن ذلك السلم؟ أو أعاد تعليمي بالأحرى؟».

أشحت بوجهي.

«الخوف، أنا رجل عجوز ومكسور».

قال هذا من دون شفقة على نفسه، ولكن كرجل يقول حقيقة مثبتة: «أعتقد أنّ عليك أن تذهب إلى منزلك لتطمئن والدك أن كل شيء جرى على ما يرام حتى الآن أليس كذلك؟ وتناول بعض العشاء مثلاً، ثمّ تستطيع العودة وإطعام رادار وإعطائي حبوبي اللعينة. قالوا إنني سأصبح مدمناً ولن أستغرق وقتاً طويلاً لأثبت لهم صحة ذلك».

«تبدو هذه خطة جيدة»، توقفت قليلاً ثمّ قلت: «يا سيد بوديتش... هاورد... أريد أن أحضر والدي ليقابلك، أعرف أنك لست منفتحاً حتّى قبل مصابك الأليم ولكن...».

«أفهمك تماماً، يريد أن يطمئن نفسه، وأعتبر هذا منطقياً جداً، ولكن ليس الليلة يا تشارلي ولا غداً، لعله يستطيع القدوم يوم الأربعاء حين أتحسن قليلاً».

قلت له: «حسناً، وهناك شيء آخر». كتبت رقم هاتفي المحمول على ورقة صغيرة ووضعتها على الطاولة الصغيرة قرب سريره، طاولة كانت ستملأ بالقطن والشاش والأدوية (ولكن ليس الأوكسي). «بإمكانك استخدام الجرس حين أكون في الأعلى...».

«إن طرازه فكتوري للغاية».

«ولكن في أي وقت أغيب فيه وتحتاج إليّ اتصل بي على هاتفي المحمول سواء أكنت في المدرسة أم لا. سأطلع السيدة سيلفيوس في المكتب على الوضع».

«حسناً، هيّا اذهب وطمئن والدك، ولكن لا تتأخر في العودة وإلا سأنهض وأحاول العثور على الحبوب بنفسي»، وأغمض عينيه.

قلت له: «فكرة سيئة».

قال دون أن يفتح عينيه: «إن الكون يعج بها».

9

إن أيام الاثنين هي أيام التحقق والمواكبة بالنسبة إلى أبي، فهو لا يعود إلى المنزل في معظم الأحيان قبل الساعة السادسة والنصف أو السابعة. لذا لم أتوقع أن أجده في المنزل ولم أجده بالفعل، كان ينتظرني خارج بوابة السيد بوديتش.

قال لي حين خرجت: «غادرت باكراً من العمل فكنت قلقاً عليك».

«ليس عليك أن...».

وضع ذراعه حول كتفيّ وعانقني: «قاضني إذاً. رأيتك تخرج وتتحدث مع فتاة يافعة حين كنت في وسط التل، لوحت لك ولكنك لم ترني، بدوت مركزاً جداً على كلامها».

«هل انتظرتني هنا طوال هذا الوقت؟».

«فكرت في أن أطرق الباب، ولكنني حسبت نفسي مصاص دماء في هذا الموقف، لا أستطيع الدخول إلا إذا تمت دعوتي».

قلت له: «يوم الأربعاء، تحدثت إليه عن الأمر».

«لا مانع لديّ، في المساء؟»

«قرابة الساعة السابعة فهو يتناول مسكناته في تمام الساعة السادسة».

مشينا باتجاه التل، وما زالت ذراعه تعانق كتفيّ. لم أمانع هذا، قلت له إنني لم أرد أن أترك السيد بوديتش بمفرده لوقت طويل، لذا لن أتمكن من

تناول العشاء معه، قلت له إنني سأرتب بعض أغراضي -خطر في بالي معجون الأسنان- وأعثر على شيء لآكله في خزانته (باستثناء السردين).

قال أبي: «ليس عليك فعل هذا، لقد اشتريت بعض الطعام من جيرزي مايكس، خذه معك».

«ممتاز!»

«كيف حاله؟».

«يتألم، أتمنى أن تساعده الحبوب التي يأخذها على النوم، يتناول المزيد منها في منتصف الليل».

«أوكسي؟».

«أجل».

«ضعها في مكان آمن، لا تدعه يعرف مكانها». كانت هذه نصيحة أعرفها مسبقاً، ولكن أبي لم يسألني على الأقل إن كنت سأنقاد وراء تجربتها بنفسي.

حين كنت في المنزل وضعت ثياباً تكفيني لمدة أيام في حقيبتي بالإضافة إلى نقطة الاتصال المحمولة من نوع نايتهوك. كان هاتفي المحمول لا بأس به، ولكن جهاز نايتهوك كان يؤمن اتصالاً لاسلكياً خارقاً. أضفت فرشاة الأسنان والشفرة التي بدأت استخدامها منذ سنتين. حافظ بعض الفتيان في مدرستي على لحاهم -كانت عادة رائجة- ولكنني فضّلت أن يكون وجهي نظيفاً. وضبت حقيبتي بسرعة، فبوسعي العودة غداً في حال نسيت شيئاً. كنت أفكر أيضاً بالسيد بوديتش وهو وحيد في منزله الذي يسرب ماء، وكانت كلبته العجوز هي مؤنسته الوحيدة.

حين استعددت للذهاب عانقني أبي مجدداً، ثمّ أمسك بكتفيّ. «انظر إلى نفسك وأنت تتحمل أول مسؤولية كبيرة، أنا فخور بك يا تشارلي، يا ليت بوسع أمك أن تراك، لا بدّ أنها كانت ستفخر بك هي الأخرى».

«أنا خائف بعض الشيء».

أومأ برأسه وقال: «سأكون قلقاً إن لم تكن خائفاً، تذكّر أنك تستطيع الاتصال بي إن حدث شيء ما».

«سأفعل هذا».

«أتعرف شيئاً؟ كنت أتطلع لأن تذهب إلى الجامعة، ولكن حماسي خف الآن، سيصبح هذا المنزل فارغاً من دونك».

«أبعد عنك ثلاثة أرباع ميل فقط يا أبي» ولكن كانت هناك غصة في حلقي.

«أعلم هذا، أعلم هذا، هيّا امضِ واخرجْ من هنا يا صديقي، أنجزْ ما عليك فعله»، ازدرد لعابه وغصّ هو الآخر، «ونفذْ عملك على أكمل وجه».

الفصل السابع

الليلة الأولى- أصبحتم تعرفون جاك الآن- حطاب بسيط-

العلاج- زيارة أبي-لينبارزا- السيد بوديتش يقطع وعداً.

1

سألت بوديتش إن كان بوسعي أن أجلس على كرسيه فأجاب: طبعاً. عرضت عليه أن يأكل نصف شطيرتي، وارتحت قليلاً حين رفض؛ كانت شطائر جيرزي مايكس هي الأفضل على الإطلاق.

«لعلني سأجرب شرب بعض الحساء بعد ساعة الدواء من نوع شعيرية الدجاج، سنرى».

سألته إن كان يريد أن يتابع الأخبار، فأشاح بوجهه وقال: «تابعها إذا كنت تريد ذلك، ولكنني لا آبه بهذه الأمور. تتغير الأسماء ولكن الهراء لا يتغير يوماً».

«أتعجب من حقيقة أن هذا التلفاز يعمل، ألا تنفجر الأنابيب؟».

«بالطبع، كما تتلف بطاريات المصباح أو بطارية التسعة فولت في الراديو النقال». لم أعرف ما هو الراديو النقال ولكنني لم أبحْ بهذا، «فتضع بطاريات جديدة حينها».

«من أين تحصل على الأنابيب؟».

«اشتريها من شركة اسمها ريتروفيت في نيو جرسي. ولكن سعرها يزداد كل سنة بسبب نقص المخزون».

«يمكنك تحمل تكاليفها على ما أعتقد».

تنهد وقال: «تقصد الذهب، ينتابك الفضول بالطبع كما سينتاب أي أحد في مكانك. هل أخبرت أحداً؟ هل أخبرت أباك؟ أو معلماً تثق به في مدرستك؟».

«أستطيع كتمان السر، سبق لي أن قلت لك ذلك».

«حسناً، لا داعي للتذمر. كان عليّ أن أسألك وسنتحدث في هذا الأمر ولكن ليس الليلة، لا أشعر أن بوسعي التحدث في أي شيء اليوم».

«لا داعي للعجلة، ولكن بخصوص أنابيب التلفاز... كيف تشتريها إذا لم يكن لديك إنترنت؟».

تأفف وقال: «هل تعتقد أن صندوق البريد للزينة فقط؟ أو شيئاً لأعلق عليه البهشية المقدسة في عيد الميلاد مثلاً؟».

كان يتحدث عن البريد الحلزوني. لقد تبيّن لي أن هناك بعض الأشخاص الذين يستخدمونه لقضاء احتياجاتهم. فكرت في أن أسأله لم لا يشتري تلفازاً جديداً، ولكنني أعتقد أنني أعرف إجابة هذا السؤال مسبقاً؛ كان يحب الأشياء القديمة.

عندما اقترب عقربا ساعة غرفة المعيشة من الساعة السادسة لاحظت أنني كنت أريد إعطاءه الحبوب بقدر ما كان يود تناولها. أخيراً، حان الوقت فصعدت إلى أعلى وجلبت حبتين، كان على وشك أن ينتشل الحبتين من يدي، كانت الغرفة باردة، ولكن جبهته كانت تتفصد عرقاً.

قلت له: «سأعطي رادار طعامها».

«ثم أخرجها إلى الشرفة الخلفية، إنها سريعة في قضاء حاجتها، ولكن ابقَ في الخارج قليلاً، أعطني المبولة يا تشارلي، لا أريدك أن تراني وأنا أستخدم هذا الشيء اللعين يا تشارلي. وبالنظر إلى عمري فإنني أستغرق بعض الوقت في قضاء حاجتي».

2

بحلول الوقت الذي عدت فيه وأفرغت المبولة كان الدواء قد أخذ مفعوله، طلب حساء الدجاج - كان يطلق عليه بنسلين اليهود- شرب السائل وتناول الشعيرية بالملعقة، وحين عدت بعد تنظيف الكوب كان قد خلد للنوم. لم أتفاجأ بهذا، لقد كان يومه صعباً للغاية، صعدت إلى غرفتي، وتناولت نسخته من كتاب العروس التي ارتدت الأسود، واستغرقت إلى أن استيقظ في تمام الساعة الثامنة.

سألني: «لم لا تشغل التلفاز وترى إن كان بوسعك العثور على ذلك البرنامج الغنائي، نحب أنا ورادار مشاهدته من وقت لآخر».

شغلت التلفاز، وقلبت بين القنوات المتوفرة ووجدت ذا فويس وكانت المعالم بالكاد واضحة ضمن زوبعة من التشويش، عدّلت أذني الأرنب إلى أن أصبحت الشاشة صافية بطريقة أو بأخرى وشاهدنا مجموعة متسابقين يؤدون. كان معظمهم ماهرين للغاية، التفت إلى السيد بوديتش كي أخبره أنني أحببت الرجل الذي غنى على ألحان الريف أو الكونتري ولكنني وجدته مستغرقاً في النوم.

3

تركت الجرس بالقرب منه على الطاولة الصغيرة وصعدت إلى الأعلى، التفتّ مرة واحدة، فوجدت رادار تجلس عند أسفل الدرج، وحين رأتني وأنا أنظر إلى الأسفل استدارت وعادت إلى السيد بوديتش حيث أمضت هذه الليلة وكل لياليها. نام على الأريكة المفتوحة حتّى بعد أن استطاع الصعود على الدرج لأنه أصبح صعباً عليه.

كانت غرفتي لا بأس بها على الرغم من أن المصباح الوحيد قد رسم ظلالاً مريبة على السقف، وصدرت أصوات صرير من نظام المنزل الإنشائي كما توقعت تماماً. أعتقد أن أصوات الصرير تلك كانت تقدم سيمفونية معتادة حين تهب الرياح. وصلت جهاز نايتهوك، وخضت عباب الإنترنت. فكرت كيف حملت كل ذلك الذهب على ظهري، وتذكرت أمي وهي تقصّ لي حكاية قديمة من كتاب ذهبي صغير. قلت لنفسي إنني كنت أمضي وقتاً فحسب، ولكنني أصبحت أتساءل الآن. أعتقد أننا نعرف أحياناً مآلنا حتّى حينما نعتقد أننا لا نعرف.

وجدت سبعة إصدارات على الأقل من حكاية جاك ونبتة الفاصولياء.

قرأتها على جوالي في ضوء المصباح الوحيد، ذكّرت نفسي أن أحضر حاسوبي المحمول في الغد، ولكن الجوال كان سيفي بالغرض لهذه الليلة. كنت أعرف الحكاية بالطبع كغولديلوكس وذات الرداء الأحمر، حيث إنها كانت جزءاً من نهر الثقافة الذي يحمل الأطفال عبر التيار. أعتقد أنني رأيت برامج الكرتون المتعلقة بالحكاية في وقت ما بعد أن قرأتها لي أمي، ولكنني لا أستطيع التذكر بالضبط. كانت القصة الأصلية وفقاً لويكيبيديا دامية أكثر من النسخة التي أتذكرها مثل أن جاك كان يعيش مع أمه فقط، لأن العملاق كان قد قتل أباه في إحدى ثورات العملاق العديدة.

لا بدّ أنكم تعرفون هذه القصة أيضاً: كان جاك وأمه مفلسين، ولم يكن لديهما سوى بقرة. طلبت منه أمه أن يبيعها في السوق مقابل خمس عملات ذهبية على الأقل (لم تكن هناك قطع أو حبيبات ذهبية في هذه القصة)، وفي طريقه إلى البلدة قابل جاك بائعاً متجولاً يتحدث بسرعة، وأقنعه أن يبدل بقرته بخمس حبوب ذهبية، غضبت أمه للغاية، وألقت بالحبات من النافذة، ونمت طوال اليوم وظهرت نبتة سحرية تلامس الغيوم، كانت هناك قلعة كبيرة في الأعلى (لم تشرح أيّ نسخة عن آلية طفو القلعة على الغيوم) وكان يعيش فيها العملاق مع زوجته.

سرق جاك بعض الأشياء الذهبية - عملات وإوزة تبيض ذهباً وقيثارة ذهبية تنبه العملاق- ولكنها لا تعتبر سرقة بالمعنى الحقيقي لأن العملاق كان قد سرق هذه الأشياء بدوره. اكتشفت أن أنشودة العملاق المشهورة -في فاي فو فوم! أشم رائحة دم رجل إنكليزي- كانت مستقاة من الملك لير حين تقول شخصية اسمها إدغار: ذهب تشايلد رولاند إلى البرج الداكن ولا تزال عبارته في فاي فو فوم! أشم رائحة دم رجل إنكليزي، وكان هناك شيء لم أتذكره من برنامج الكرتون أو الكتاب الذهبي الصغير: كانت غرفة نوم العملاق مليئة بعظام الأطفال. سبب لي اسم العملاق رعشة عميقة وغريزية.

غوغماغوغ.

4

أطفأت المصباح الوحيد عند الساعة الحادية عشرة، ونمت إلى أن رنّ هاتفي المحمول عند الساعة الثانية عشرة إلا الربع. لم أتكبد عناء إعادة حبات الأوكسي إلى الخزنة، كانت على المكتب حيث وضعت ملابسي القليلة. أنزلت حبتين إلى الأسفل، فزمجرت رادار عليّ في الظلام وتنبهت.

قال السيد بوديتش: «بلا صوت يا فتاة» فصمتت، أنرت المصباح، فوجدته يتمدد على ظهره ويحدق إلى السقف، «ها أنت ذا في الوقت المحدد تماماً، هذا جيد. لم أرد أن أستخدم هذا الجرس في الحقيقة».

«هل نمت؟».

«قليلاً لعلني سأستغرق في النوم بعد الدواء إلى أن يحل الفجر».

أعطيته الحبتين، واستند على مرفقه ليبتلع الدواء ثمّ سلمني الكوب وتمدد مجدداً. «لقد تحسنت بالفعل، أعتقد أن هذا هو التأثير النفسي».

«هل أستطيع أن أحضر لك شيئاً آخر؟».

«لا، عدْ إلى سريرك، يحتاج الشباب في طور النمو إلى كثير من النوم والراحة».

«أعتقد أنني وصلت إلى حدّ نموي»، هذا ما تمنيته على الأقل. كان طولي ست أقدام وأربعة إنشات، وكان وزني مئتين وعشرين، إذا نموت أكثر فسأصبح «غوغماغوغ». قلتها من دون أن أُفكر.

توقعت أن يضحك، ولكنه لم يبتسم: «أكنت تذاكر الحكايات الخيالية؟»

رفعت كتفيّ وقلت: «ذكّرني حملي للذهب إلى ستانتونفيل بالحبوب السحرية ونبتة الفاصولياء».

«أصبحت تعرف جاك الآن».

«أعتقد هذا».

«إن غوغ وماغوغ أو يأجوج ومأجوج في الإنجيل هما الدولتان المتحاربتان في العالم، هل كنت تعلم هذا؟».

«لا».

«سفر الرؤيا، ضعهما سوياً وستحظى بوحش حقيقي يجب الابتعاد عنه. أطفئ النور يا تشارلي، يجب أن ننام. ستحظى أنت بقسط من الراحة ولعلني سأنام قليلاً، سأفضل استراحة صغيرة من الألم».

ربّتُّ رأس رادار، ثمّ أطفأت النور. اتجهت إلى الدرج ثمّ التفت وقلت: «سيد بوديتش؟».

قال: «هاورد، عليك أن تتدرب على هذا، أنت لست حاجباً لعيناً».

حسبت نفسي هكذا ولكنني لم أرد أن أتجادل حول هذه النقطة في الليل: «حسناً، هاورد، ماذا كنت تعمل قبل أن تتقاعد؟».

قهقه، وكان صوته أجش ولكنه مريح في الوقت ذاته. «كنت عامل تنظيف وحطاباً بدوام جزئي، كنت حطاباً بسيطاً بصياغة أخرى. يذكر الحطابون في كثير من حكايات الخيال. اخلد إلى النوم يا تشارلي».

ذهبت إلى سريري ونمت حتّى الساعة السادسة موعد الدواء -ليس المسكنات فحسب بل الجرعة الكاملة، وجدته مستيقظاً مرة أخرى ويحدق إلى السقف. سألته إن حظي ببعض النوم، فأجاب: أجل، ولكنني لم أستطع تصديقه تماماً.

تناولنا البيض على الفطور وخفقته أنا بجلالة قدري. جلس السيد بوديتش على حافة الأريكة لتناول الطعام، ووضع ساقه المثبتة على وسادة تأتي مع كرسيه المريح. طلب مني الخروج مجدداً ريثما يستخدم المبولة، وحين عدت كان قد نهض فعلاً، واستند على عكازيه وينظر من النافذة الأمامية.

قلت له: «كان عليك أن تنتظرني كي أساعدك».

أصدر صوتاً يشبه تشا وقال: «لقد قومت السياج الخشبي».

«ساعدتني رادار».

«لا جرم أنها فعلت هذا، يبدو أفضل مما كان. ساعدني لأستلقي على السرير يا تشارلي. عليك أن تمسك بساقي مثلما فعلت سابقاً».

مددته على السرير، واصطحبت رادار في نزهة على شارع باين. بدت الأدوية الجديدة فعالة لأنها مشت مسافة لا بأس بها، وتركت أثرها عند أكشاك الهاتف وصنبور إطفاء حرائق أو اثنين على طول الطريق. أخذت شيك السيد بوديتش لاحقاً إلى المصرف، وفي المنزل -حين مر وقت طويل على مغادرة أبي- أخذت المزيد من الثياب وحاسوبي المحمول، كان الغداء عبارة عن مزيد من السردين والسالتين للسيد بوديتش والنقانق لي. كنت سأكتفي بالعشاء المجمد (كنت أفضل ستوفيرز)، ولكن السيد بوديتش لم يمتلك ميكروويف. أخرجت بعض اللحم من تيلير وسونز ليذوب، وكان بوسعي أن أشاهد مقاطع تعليم الطبخ على اليوتيوب في المستقبل، إن لم نكن سنعيش على الحساء والسردين. أعطيت السيد بوديتش حبوب الظهر، واتصلت بميليسا ويلكوكس لبعض المراجعة كما طلبت مني. كان عليّ أن أخبرها عدد المرات التي نهض فيها السيد بوديتش، وماذا كان يأكل، وإذا كانت أمعاؤه قد تحركت واضطر للتغوط. أجبت: «لا» على آخر سؤال ولم

تتفاجأ. قالت إن أوكسيكونتين يسبب الإمساك، وبعد الغداء أخذت ظرفاً إلى صندوق البريد ورفعت العلم، تضمن شيكه الشخصي المرسل إلى مستشفى أركاديا، كان بوسعي أن آخذه بنفسي، ولكن السيد بوديتش أراد أن يتحقق من شيك هاينريك أولاً.

أقول لكم هذه الأمور ليس لأنها مهمة فعلاً، ولكن لأنها شكّلت نظام حياة استمر طوال فصل الربيع ومعظم فصل الصيف. وبطريقة ما كانت تلك الأشهر جيدة. شعرت أنني مفيد وهناك شخص يحتاج إليّ. أحببت نفسي أكثر من أي وقت مضى، ولكن النهاية كانت وخيمة.

6

مساء يوم الأربعاء من أسبوع عطلة الربيع، وصلت ميليسا للقيام بأول جلسة ع.ف، كانت تطلق عليها جلسة علاج فيزيائي، أما هو فكان يطلق عليها جلسة عذاب وفناء. كان يحظى بجرعة زائدة من الأوكسي ويرتاح إليها، بالإضافة إلى كثير من تمديد ساقه المتألمة وحملها، ما لم يكن يرتاح إليه. كنت أجلس في المطبخ معظم فترة الجلسة، وأستمع للكلمات النابية: وضيعة، يا للعنة، منحطة وتوقفي. قال توقفي كثيراً وكان يلحق بها عبارة لعنك الله. لكن ميليسا لم يرمش لها جفن.

عندما انتهت الجلسة التي استمرت عشرين دقيقة، ولا بدّ من أنها بدت أطول من وجهة نظره نادتني. كنت قد أحضرت كرسيين إضافيين من الطابق الثالث (ليس من الكراسي ذات الظهر القائم التي كانت تتماشى مع طاولة الطعام حيث بدت لي ضرباً من التعذيب)، وكان السيد بوديتش يجلس على أحد الكرسيين. كانت ميليسا قد أحضرت طراحة إسفنجية وكان كاحل ساقه المتألمة يستند إليها. ولأن الطراحة كانت أخفض من الوسادة كانت ركبته -التي لا تزال مضمدة- مثنية.

قالت ميليسا بلهفة: «انظر إلى هذا! لقد ثنيتها بزاوية قدرها خمس درجات! لست مسرورة وحسب بل مذهولة!»

زمجر السيد بوديتش وقال: «إنها تؤلمني للغاية، أود أن أعود إلى سريري».

ضحكت كثيراً، وكأن هذه كانت أطرف نكتة تسمعها في حياتها. «خمس دقائق إضافية ثمّ ستقف على عكازيك، سيساعدك تشارلي».

تحمّل خمس دقائق ثمّ ترنح وهو يقف وأعاد عكازيه، التف باتجاه السرير، ولكنه أفلت أحد العكازين، فسقط أرضاً، ونبحت رادار. أمسكت به في الوقت المناسب، وساعدته على إكمال اللفة. وخلال اللحظات القليلة التي كنت قريباً منه، وأسنده والتف عليه بذراعي، بينما تلتف ذراعه عليّ، كان بوسعي أن أشعر بقلبه وهو ينبض بشدة وبقوة، لقد خطرت لي كلمة بعنف.

مددته على السرير، ولكن خلال العملية انثنت ساقه المتألمة أكثر من خمس درجات، فصرخ من شدة الألم. تنبهت رادار حالاً، فنبحت وأرجعت أذنيها إلى الخلف.

قال السيد بوديتش وهو يلهث: «أنا بخير يا فتاة، اجلسي».

تمددت على بطنها، ولم تفارقه عيناها. أعطته ميليسا كوب ماء وقالت: «وكمكافأة مميزة لإنجازك العظيم يمكن أن تتناول دواءك اليوم عند الساعة الخامسة مساء. سأعود يوم الجمعة، أعلم أن هذا مؤلم يا هاورد حيث لا تريد هذه الأربطة أن تتمدد، ولكنها ستتمدد إذا التزمت».

قال: «يا إلهي!» ثمّ أضاف على مضض: «حسناً».

«أوصلني يا تشارلي».

فعلت ما طلبته، وحملت حقيبة معداتها، كانت قد ركنت سيارتها الصغيرة من نوع هوندا سيفيك خارج البوابة، وحين رفعت غطاء الصندوق ووضعت الحقيبة فيه رأيت السيدة ريتشلاند تقف في الجهة المقابلة من الشارع، وكانت تحجب أشعة الشمس مرة أخرى لترى النشاطات بدقة، رأتني وأنا أراقبها فحركت أصابعها.

سألتها: «هل سيتحسن فعلاً؟».

«أجل، هل رأيت انثناءة ركبته؟ كانت حركة غير اعتيادية، شهدتها من قبل، ولكن في العادة مع مرضى يافعين». فكرت قليلاً ثمّ أومأت برأسها. «سيتحسن ولفترة محدودة على الأقل».

«ماذا يعني هذا؟».

فتحت الباب الأمامي وسألتني: «إنه عجوز متذمر أليس كذلك؟».

قلت وأنا على دراية تامة بأنها لم تجبني عن سؤالي: «في الحقيقة إنه لا يملك مهارات تواصل».

ضحكت مجدداً وبدت مبتهجة. أحببت مظهرها الجميل تحت ضوء شمس الربيع: «تستطيع قول هذا مجدداً يا صديقي ويجب أن يؤرّخ. سأعود يوم الجمعة وسيكون يوماً مختلفاً ولكن الروتين واحد».

«ما هو دواء لينبارزا؟ أعرف بقية الأدوية التي يأخذها، ولكنني لا أعرف هذا الدواء، ما وظيفته؟».

اختفت ابتسامتها وقالت: «لا أستطيع البوح بهذا يا تشارلي حرصاً على سرية المريض»، جلست وراء المقود وقالت: «ولكن بإمكانك البحث عنه على الإنترنت، كل شيء موجود على الإنترنت».

ثم غادرت.

في تمام الساعة السابعة من تلك الليلة، فتح أبي البوابة الأمامية -ولم أتكبد عناء إقفالها- ومشى باتجاهي حيث كنت أجلس على درج الشرفة، فبعد جلسة العلاج الفيزيائي للسيد بوديتش سألته إن كان يريد أن أؤجل زيارة أبي. كنت أريده أن يقول أجل إلى حدّ ما، ولكنه أشاح بوجهه بعد أن فكّر لبرهة: «دعنا نقمْ بالأمر ونطمئن باله، لا بدّ من أنه يريد التأكد من أنني لست متحرشاً بالأطفال».

لم أجب على هذا على الرغم من أن حالة السيد بوديتش تلك لم تكن لتسمح له بالتحرش بشبل كشافة، ناهيك عن شخص ضخم طوله ست أقدام وأربعة إنشات وتفوق في رياضتين.

«مرحباً يا تشارلي».

«مرحباً يا أبي»، وعانقته.

كان يحمل صندوقاً فيه ست علب صودا: «أتعتقد أنه سيستفيد منها؟ لقد كسرت ساقي حين كنت في الثانية عشرة من عمري، ولم أستطع الاكتفاء منها».

«ادخل واسأله بنفسك».

كان السيد بوديتش يجلس على أحد الكرسيين اللذين سبق لي أن أنزلتهما. طلب مني أن أحضر له قميصاً ومشطاً لشعره، باستثناء بنطال البيجاما الذي كان منتفخاً عند منطقة الركبة. اعتقدت أنه بدا على ما يرام وفي تمام الصحة. كنت متوتراً، وأملت ألا يكون متعجرفاً مع أبي، ولكن ما كان يجدر بي أن أقلق، كان تأثير أدويته فعالاً، ولكن لم يكن هذا هو السبب الوحيد حيث إن هذا الرجل كانت لديه مهارات تواصل بالفعل، كانت متزعزعة ولكن موجودة، أعتقد أن بعض الأمور تشبه ركوب الدراجة.

قال: «سيد ريد، لقد رأيتك في الأيام الخوالي، ولكن يسرني أن أقابلك بشكل رسمي»، مدّ إحدى يديه المتعرقتين وقال: «اعذرني إن لم أقف».

صافحه أبي وقال: «لا عليك. نادني بجورج من فضلك».

«سأفعل هذا، ونادني أنت بهاورد مع أنني عانيت الأمرين في إقناع ابنك بمناداتي بهذا الاسم. وددت أن أقول لك كم كان جيداً معي، إنه فتى الكشافة دون الهراء الذي يأتي مع ذلك، ولا تؤاخذني على كلامي هذا».

قال أبي: «بالطبع لا، أنا فخور به، كيف حالك؟».

«في تحسن... على الأقل هذا ما تقوله لي الملكة المعذبة».

«المعالجة الفيزيائية؟».

«حسبما يقولون عنها».

قال أبي وهو ينحني ليداعب رادار: «وها هي الفتاة الجيدة، سبق لنا أن تقابلنا».

«سمعت هذا، إن لم تخني عيناي، أعتقد أن معك كوكاكولا».

«لم تخنك، هل ترغب ببعض الثلج؟ أخشى أن تكون دافئة قليلاً».

«سأرحب بالثلج على الصودا، مرّ عليّ وقت كنت أفضل فيه بعض الرام عليها».

توترت قليلاً، ولكن أبي اكتفى بالضحك: «أفهمك تماماً».

«تشارلي؟ هل تستطيع أن تحضر ثلاث كؤوس طويلة من الرف العلوي وتضع فيها ثلجاً؟».

«بالطبع».

«لعله يجدر بك أن تغسلها أولاً، لم تُستخدم منذ وقت طويل».

أخذت وقتي، وسمعت المحادثة، وأنا أغسل الكؤوس، وأزلت مكعبات الثلج من علبة السيد بوديتش القديمة. عزّى السيد بوديتش أبي بوفاة زوجته، وقال إنه تحدث معها عدة مرات على شارع سيكامور («حين اعتدت أن أخرج أكثر») وبدت أنها فتاة لطيفة.

قال السيد بوديتش: «كان يجب أن يعبّد ذلك الجسر اللعين فوراً. كان من الممكن أن يحول دون موتها، تفاجأت لأنك لم تقاض البلدية».

قلت لنفسي: كان منغمساً في شربه للكحول ليفكر بمثل تلك الأمور. كنت قد تناسيت حقدي، ولكن ليس بشكل كامل. يترك الخوف والفقدان بصمة أبدية.

8

كان الظلام قد حل حين مشيت مع أبي باتجاه البوابة. كان السيد بوديتش على السرير، وكان قد انتقل إلى سريره بقليل من المساعدة تحت أنظار أبي.

حين وصلنا إلى الرصيف قال أبي: «ليس كما توقعته أبداً، توقعت أن يكون متذمراً وفظاً».

«يمكن أن يكون على هذا النحو ولكن معك كان... لا أعرف كيف سأصف هذا».

قال أبي: «بذل جهداً، أراد أن يروق لي لأنك تروق له، أرى الطريقة التي ينظر إليك فيها يا بُني، أنت تعني له أشياء كثيرة فلا تُخيب أمله».

«سأفعل هذا ما لم يقع مجدداً».

عانقني أبي، وقبّل وجنتي ونزل التلّ. راقبت كيف يظهر تحت هالة كل ضوء قريب من الشارع ثمّ يختفي مجدداً، في بعض الأوقات، كنت أحقد عليه بسبب سنواته الضائعة لأنها ضاعت مني أنا الآخر، لكنني بشكل عام سررت لأنه عاد مجدداً.

سألني السيد بوديتش حين دخلت إلى المنزل: «جرى الأمر على ما يرام أليس كذلك؟».

«أجل».

«ماذا علينا أن نفعل هذا المساء يا تشارلي؟».

«خطرت لي فكرة بخصوص هذا الموضوع، انتظرني دقيقة».

كنت قد حمّلت حلقتين من ذا فويس على حاسوبي المحمول، وضعته على الطاولة قرب سريره حيث نستطيع مشاهدته سوياً.

قال بلهفة: «يا رب السماوات! انظر إلى هذه الصورة!»

«أعلم هذا، ليست سيئة أليس كذلك؟ وليس هناك إعلانات».

شاهدنا الحلقة الأولى، وكنت مستعداً لمشاهدة الثانية، ولكنه خلد إلى النوم بعد مرور خمس دقائق منها، حملت حاسوبي إلى الأعلى وقرأت عن لينبارزا.

9

في يوم الجمعة، حملت حقيبة ميليسا مجدداً إلى سيارتها هوندا سيفيك، أغلقت الصندوق وقلت لها: «لقد بحثت عن لينبارزا».

«عرفت أنك ستفعل هذا».

«إنه يعالج أربع حالات، أعلم أنه لا يأخذه من أجل سرطان الثدي أو المبيض لذا ما حالته؟ البروستات أو الحالة الأخرى؟ دعوت الله ألا تكون حالة البنكرياس». أصيب به جدي من طرف أبي، ومات بعد أقل من ستة أشهر من التشخيص.

«سرية المريض يا تشارلي، لا يمكنني أن أقول». ولكن وجهها كان يُعبّر عن شيء آخر.

«هيّا يا ميليسا، أنت لست طبيبة كما أخبرك أحد بهذا».

«لأن عليّ أن أتعامل معه، ولفعل هذا كان عليّ أن أعرف الصورة الكاملة».

«أستطيع كتم الأسرار، وتعرفين هذا بالفعل أليس كذلك؟» كنت أقصد المسكنات القوية التي كنت أعطيها رغم أنني لم أبلغ السن المناسب لفعل هذا.

تنهدت وقالت: «إن الحالة هي سرطان البروستات، إن أبرامز -أخصائي العظام الذي كان مسؤولاً عنه- شخصه وفقاً للصور الشعاعية، إنه في مرحلة متقدمة، ولكنه لم ينتشر بعد، يُبطء لينبارزا نمو الأورام، وأحياناً يعالجها».

«أليس عليه أن يخضع لمزيد من العلاج؟ كالعلاج الكيميائي أو العلاج الشعاعي؟».

خرجت السيدة ريتشلاند مجدداً. لوّحت لنا، ولوّحنا لها بالمقابل.

ترددت ميليسا، ولا بدّ أنها قررت بعد ذلك أن لا فائدة من التكتم بعد البوح بهذا القدر: «قابل الدكتور باتيرسون الذي كان رئيس قسم الأورام في أركاديا، قدّم له الحلول ورفضها السيد بوديتش برمتها باستثناء لينبارزا».

«لماذا؟».

«عليك أن تسأله بنفسك يا تشارلي، ولكن إن فعلت هذا لا تخبره عن هذه المحادثة، لن أخسر عملي على الأرجح ولكن الاحتمال وارد، اسمعني، هناك أطباء -كثر- سيقولون إنه اختار الحل الأصح، يكون سرطان البروستات بطيئاً عند الرجال المتقدمين بالسن وسيحظى بسنوات على الأرجح إذا واظب على اللينبارزا».

10

تلك الليلة، شاهدنا حلقة أخرى من ذا فويس، وحين انتهت عانى السيد بوديتش في الوقوف على عكازيه: «ستكون هذه ليلة حافلة يا تشارلي، أعتقد أنني سأتغوط».

قلت له: «إن الألعاب النارية جاهزة».

«احتفظ بها لعرضك الفكاهي»، حين حاولت أن ألحق به إلى المطبخ نظر إليّ وقال بغضب: «عدْ وتابع آلتك بحق الرب، إذا وقعت تستطيع انتشالي».

عدت وسمعت صوت إغلاق باب الحمام الصغير، انتظرت، مرت خمس دقائق ثمّ عشر، رميت لرادار قردها إلى أن خارت قواها، وجلستْ على سجادتها. أخيراً، توجهت إلى مدخل المطبخ، وسألته إن كان على ما يرام.

قال لي: «أنا بخير، ولكن سيفيدني إصبع ديناميت، اللعنة على الأوكسيكونتين».

سمعت صوت شطاف الحمام، وحين خرج كان متعرقاً، ولكنه كان يبتسم: «أخيراً، تحقق المراد، شكراً للرب».

ساعدته في التمدد على سريره، وقررت أن أستغل مزاجه الجيد، عرضت علبة اللينبارزا عليه وقلت: «لقد قرأت عن هذا الدواء ويمكنك أن تخضع لمزيد من العلاج».

«أحقاً هذا يا دكتور ريد؟». كان هناك شبه ابتسامة على فمه وهذا ما شجعني لأكمل حديثي.

«يملك الأطباء أسلحة عديدة لمحاربة السرطان، لا أفهم لم لا تستخدم واحداً منها؟».

«إن الأمر بغاية البساطة، تعرف أنني أتألم، كما تعلم أنني لا أستطيع النوم من دون تلك الحبوب التي تُسبب الإمساك. سمعتني وأنا أصرخ على ميليسا التي أعتبرها سيدة لطيفة للغاية، لقد نجحت لحد الآن في تجنب نعتها بالمنحرفة أو الوضيعة ولكن يمكن أن تنبثق مني تلك الكلمات النابية في أيّ لحظة، لم سأرغب بإضافة الغثيان والتقيؤ والتشنجات إلى الألم الذي أعاني منه بالفعل؟»

كنت على وشك الرد، ولكنه استند إلى مرفقه وأصمتني.

«هناك شيء آخر أيها الشاب وهو شيء لا يمكن لشخص بعمرك فهمه، لقد اكتفيت إلى حدّ ما؟ ليس إلى حدّ كبير بل تقريباً، إن الحياة تشيخ، يمكن ألا تصدق هذا، أعرف أنني لم أصدق هذا حين...» توقف قليلاً وقال: «... حين كنت شاباً ولكن الأمر صحيح»، تمدد وبحث عن رادار، وربت رأسها عندما عثر عليها، «ولكنني لم أرد أن أتركها وحيدة حسناً؟ نحن الاثنان صديقان، ولكن ليس عليّ أن أقلق عليها بعد الآن، إذا عاشت أكثر مني فستعتني بها أليس كذلك؟».

«بالطبع».

«وبالنسبة إلى العلاج...» واتسعت ابتسامته، «وصلت اليوم إلى عشر درجات من الثني، وبدأت استخدام الحزام المطاطي ذاك لتمديد كاحلي، سأعمل بجد لأنني لا أريد الموت مقعداً على السرير وخصوصاً ليس على هذه الأريكة الممدودة اللعينة».

11

لم نتناقش عن مصدر الذهب -كانت هذه مسألة عالقة بيننا- ولكنني لاحظت يوم الأحد أن هناك شيئاً علينا مناقشته، كان بوسعي أن أعطيه جرعة الصبح والمساء ولكن ماذا كان سيفعل بشأن جرعة الظهر حين أعود إلى المدرسة؟

«أعتقد أن ميليسا ستعطيك الدواء أيام الاثنين والأربعاء والجمعة ضمن جلسات العلاج الفيزيائي، ولكن لن يتسنى لها وقت لأخذ مفعولها قبل أن تبدأ التدريب، وماذا عن أيام الثلاثاء والخميس؟».

«سأطلب من السيدة ريتشلاند أن تعطيني إياه، تستطيع أن تتفحص المكان وهي هنا ولعلها ستلتقط بعض الصور لتضعها على الفيسبوك أو التويتر».

«هذا مضحك للغاية».

قال: «إن الأمر لا يتعلق بحبوب الظهر وحسب بل حبوب منتصف الليل أيضاً».

«سأكون هنا لـ...».

«كلا يا تشارلي، حان الوقت لتعود إلى المنزل، أنا متأكد أن أباك مشتاق إليك».

«لا أبعد عنه كثيراً!»

«أجل، ولكن غرفة نومك خالية، إنه يتناول العشاء وحيداً، والرجال حين يتركون وحدهم، تراودهم الأفكار السيئة»، أعرف هذا الشعور صدقني. ستترك حبوب الظهر معي في الصباح حين تكشف عليّ وتطعم رادار وستترك حبوب منتصف الليل حين تغادر إلى منزلك مساء».

«لا يفترض بي أن أفعل هذا!»

أومأ برأسه وقال: «وفي حال غششتك، وسيكون هذا إغراء عالياً لأنني مدمن بشكل أو بآخر على الحبوب، ولكنني سأعطيك كلمتي». استند إلى مرفقيه وركّز نظره عليّ وقال: «حين أغش سأقول لك وسأستسلم من الحبوب تماماً وأستخدم التيلينول، هذا وعد وسأحافظ عليه، هل يمكنك أن تقبل هذا الأمر؟»

فكرت بالأمر وقلت له أجل، مدّ يده وتصافحنا، عرضت عليه تلك الليلة كيف أتعامل مع الأفلام والمسلسلات على حاسوبي المحمول، وضعت حبتي أوكسي من عيار عشرين ميليغراماً في صحن صغير على الطاولة قرب سريره. وضعت حقيبتي على ظهري ورفعت هاتفي المحمول.

«اتصل بي إن احتجت إليّ سواء في الليل أو في النهار».

وافقني وقال: «ليلاً أو نهاراً».

تبعتني رادار إلى الباب، فانحنيت وربت عليها وعانقتها، لعقت وجنتي، ثمّ عدت إلى المنزل.

12

لم يغش مطلقاً وإن لمرة واحدة.

الفصل الثامن

عفا عنها الدهر- إبهار الذهب- كلبة عجوز-

أخبار الصحيفة- اعتقال.

1

في البدء، كنت أحمم السيد بوديتش بالإسفنجة ثلاث مرات في الأسبوع، لأنه لم يكن هناك دش في حمام الطابق السفلي، سمح لي بهذا، ولكنه أصر على أن يغسل أعضاءه التناسلية بنفسه (ولم أعارضه). غسلت صدره النحيل وظهره الأنحل كما غسلت مؤخرته النحيلة مرة بعد حادثة مؤسفة جرت حين شق طريقه ببطء إلى الحمام. كان السبب وراء الشتم والكلمات النابية تلك المرة عبارة عن مزيج من الإحراج (الإحراج الحقود) والغضب.

قلت له حين ارتدى سرواله مجدداً: «لا تقلق بهذا الشأن فأنا أنظف روث رادار في الشرفة الخلفية كل الوقت».

رمقني بنظرة الاستغباء المعهودة: «إن الأمر مختلف، فرادار كلبة وستتغوط على المرج أمام برج إيفل إذا سمحت لها».

أثار هذا الأمر اهتمامي قليلاً: «هل هناك مرج أمام برج إيفل؟».

هنا تأفف السيد بوديتش كعادته وقال: «لا أعرف، كنت أوضح الفكرة وحسب، هل بإمكاني أن أشرب زجاجة صودا؟».

«بالطبع»، منذ أن جلب أبي ذلك الصندوق أبقيت زجاجات الصودا في المنزل من أجل السيد بوديتش.

حين أحضرتها، وجدت أن السيد بوديتش قد نهض من السرير وجلس على كرسيه المريح القديم وإلى جانبه رادار. «دعني أسألك شيئاً يا تشارلي، إن كل الأشياء التي تفعلها من أجلي...».

«أحصل على راتب وفير كل أسبوع، وأقدّر هذا فعلاً وأشعر في بعض الأحيان أنني لا أفعل شيئاً يذكر لأستحقه».

«كنت ستقوم بهذه الأمور مجاناً. قلت لي هذا حين كنت في المستشفى، وأصدق أنك عنيت هذا الأمر. لذا هل تحضر نفسك للرهبنة أو هل أنت تكفر عن شيء ما؟».

كان هذا استنتاجاً لماحاً، فكّرت في دعائي -وقسمي- وفكرت أيضاً بالإنذار الخاطئ عن القنبلة الموجهة لمدرسة ستيفينز الابتدائية. اعتقد بيرتي أن هذا أكثر شيء مضحك في العالم. ولكن كل ما فكرت فيه في تلك الليلة في خضم شخير أبي الثمل هو أننا قد أخفنا أناساً كثراً ومعظمهم كانوا أطفالاً صغاراً.

في غضون ذلك، كان السيد بوديتش يراقبني عن كثب. قال: «التكفير إذاً، أتساءل عما ستكفر».

قلت له: «قدمتَ لي فرصة عمل جيدة وأنا ممتن لك، إنك تروق لي عندما تكون متذمراً، ولكنني سأعترف لك إن الأمر يكون صعباً في تلك الأوقات، وكل الأمور الأخرى قد عفا عليها الدهر كالمياه تحت الجسر».

فكر في ما قلته. ثمّ قال شيئاً لم أنسه يوماً. ربما لأن أمي ماتت على جسر حين كنت أرتاد مدرسة ستيفينز الابتدائية بنفسي وربما لأنه بدا شيئاً مهماً بالنسبة لي ولا زال كذلك.

«إن الوقت هو الماء يا تشارلي والحياة ليست سوى الجسر الذي يقوم فوقها».

2

مر الوقت، واستمر السيد بوديتش بالشتم والصراخ بين الحين والآخر أثناء جلسات العلاج، وهذا ما أحزن رادار للغاية، لدرجة أنه كان على ميليسا

أن تخرجها قبل بدء الجلسة. كان الثني مؤلماً للغاية، ولكن بحلول شهر أيار استطاع السيد بوديتش أن يثني ركبته بمقدار ثماني عشرة درجة. أما بحلول شهر حزيران فقد وصل إلى خمسين درجة، بدأت ميليسا في تعليمه كيف يستخدم عكازه كي يصعد إلى الطابق العلوي (والناحية الأهم: كيف ينزل بطريقة يتفادى فيها سقوطاً مدمراً) لذا نقلت حبوب الأوكسي إلى الطابق الثالث، ووضعتها في بيت عصفور قديم يعلوه غراب منحوت أصابني بالقشعريرة. وجد السيد بوديتش نفسه أكثر تحكماً بعكازيه، وبدأ يستحم بنفسه بالإسفنجة (سمى هذا الحمام بحمام العاهرة)، ولم أضطر لتنظيف مؤخرته لأنه لم يتعرض لأية حادثة في طريقه إلى الحمام.

شاهدنا أفلاماً قديمة على حاسوبي المحمول وشاهدنا كل شيء من ويست سايد ستوري إلى ذا مانشوريان كانديديت (وأحببناه كثيراً). ذكر السيد بوديتش أنه يريد شراء تلفاز جديد، وشعرت أنها إشارة إلى رغبته بالانخراط في الحياة مجدداً، ولكنه غيّر رأيه حين قلت له إن هذا يعني إرساء نظام كبلات جديد أو قمر صناعي (لذا لم يحدث الانخراط على أكمل وجه)، كنت آتي في تمام الساعة السادسة صباحاً كل يوم، وبما أنني أقلعت عن تدريبات ومباريات كرة القاعدة (كان المدرب هاركنس يقطب حاجبيه بوجهي كلما التقينا في الرواق). كنت أعود إلى المنزل رقم 1 في شارع سيكامور في تمام الثالثة عصراً أغلب الأحيان، حيث أؤدي بعض المهام المنزلية، وكان معظمها يقتصر على التنظيف، ولم أمانع هذا. كانت الأرضيات العلوية قذرة للغاية وخصوصاً في الطابق الثالث، وحين اقترحت تنظيف المصارف حدق السيد بوديتش إليّ وكأنني جننت، وطلب مني أن أستخدم شخصاً ما ليفعل ذلك، فأتت وكالة سينتري لتنظيف المنازل وحين نظفت المصارف وسر السيد بوديتش (راقب العملية من الشرفة الخلفية وهو يستند إلى عكازيه وكان بنطاله منتفخاً عند المثبت) قال لي أن أطلب منهم تصليح السقف، وحين رأى السيد بوديتش قيمة هذا طلب مني أن أتفاوض معهم (قال لي: «العب بطاقة الرجل العجوز»)، تفاوضت معهم،

وتوصلت إلى حسم بنسبة عشرين بالمئة. أرسى رجال تصليح المنازل منحدراً قرب درج الشرفة الأمامية (لم يستخدمه السيد بوديتش أو رادار يوماً) واقترحوا أن يصلحوا حجارة الممشى التي تقود من البوابة إلى الشرفة. رفضت ذلك العرض وأصلحتها بنفسي، كما بدّلت درجات الشرفتين الأمامية والخلفية المتشققة والملتوية (بمساعدة العديد من مقاطع فيديو افعلها بنفسك على اليوتيوب).

كان ربيع وصيف تلك السنة يعجان بالتنظيف والإصلاح في شارع سيكامور أعلى التل. وقد تسنى للسيدة ريتشلاند الكثير من المشاهدة، واستغلت جميع الفرص. في أوائل تموز، عاد السيد بوديتش إلى المستشفى كي يزيلوا له المثبت الخارجي بعد أسابيع من أكثر تقديرات ميليسا تفاؤلاً. وحين قالت له كم كانت فخورة به، وعانقته، عجز الرجل العجوز عن الكلام للمرة الأولى، كان أبي يأتي كل عشية يوم أحد -بدعوة من السيد بوديتش دون تحفيز مني- وكنا نلعب لعبة جين بورق الشدة وكان السيد بوديتش هو من يفوز في معظم الأوقات.

خلال أيام الأسبوع، تعودت أن أعد له شيئاً ليأكله، وأعبر التل، لأتناول العشاء مع أبي، ثمّ أعود إلى منزل السيد بوديتش لتنظيف الصحون، واصطحاب رادار في نزهة ومشاهدة الأفلام معه. كنا نتناول الفشار أحياناً، وحالما انتزع المثبت الخارجي، لم يعد عليّ مراقبة الأسياخ والدبابيس، ولكن كان عليّ الحفاظ على نظافة الفتحات التي دخلت منها تلك الدبابيس وبدأت تلتحم، كنت أمرّن كاحله بأربطة مطاطية حمراء وكبيرة، وأحرص على أن يتدرب على الثني.

كانت تلك الأسابيع جيدة أو معظمها كان جيداً على الأقل. لم يكن كل شيء على ما يرام، فقد أصبحت مسافات مشي رادار أقصر قبل أن تبدأ بالعرج وهي في طريق عودتها إلى المنزل، وأصبحت تعاني أكثر فأكثر في اجتياز درج الشرفة. ذات مرة، رآني السيد بوديتش أحملها، وطلب مني ألا

أفعل ذلك مجدداً. قال لي: «ليس قبل أن تستطيع أن تفعل ذلك بمفردها»، في بعض الأحيان، كنت أرى قطرات دم على فتحة المرحاض بعد أن يتبول السيد بوديتش كما زادت مدة تبوله.

ذات مرة سمعته من خلف الباب المغلق يقول: «هيّا أيها العضو عديم الفائدة، اقذف بعض الماء».

بغض النظر عن دور اللينبارزا، لكنه لم يكن يؤدي عمله بشكل جيد. حاولت أن أتحدث إليه عن الموضوع، وسألته لم كان يعمل بجد كي يقف على ساقيه، إن كان سيعطي للمرض الذي يعاني منه، أيّاً يكن، سلطة كاملة، فطلب إليّ ألا أتدخل في ما لا يعنيني. وفي النهاية لم ينل منه السرطان. لقد مات إثر ذبحة قلبية.

وذلك بسبب المستودع اللعين.

3

ذات مرة -أعتقد في شهر حزيران- فتحت موضوع الذهب مجدداً، ولكن بشكل غير مباشر. سألت السيد بوديتش إن لم يكن يقلق بشأن الألماني الأعرج بعد التوصيلة الكبيرة التي قمت بها كي يدفع السيد بوديتش فاتورته.

«لا خطر سيأتي منه، إنه يقوم بأعمال كثيرة في غرفته الخلفية تلك، وعلى حدّ علمي لم يجذب انتباه وكالات إنفاذ القانون من قبل، أو دائرة الإيرادات الداخلية وهي الأكثر اهتماماً بالأمر».

«ألا تخاف من أن يتحدث مع شخص ما؟ أقصد أنه ربما يتعامل مع أشخاص لديهم ألماس غير شرعي للبيع، كاللصوص وغيرهم من الخارجين عن القانون، ولعله يتكتم على هذا الأمر. ولكنني أعتقد أن ستة أرطال من الحبيبات الذهبية المتينة تعتبر في مستوى آخر تماماً».

استهزأ وقال: «وهل سيخاطر بالربح الجيد الذي يناله نتيجة تعامله معي؟ سيكون هذا ضرباً من الغباء، وصفة الغبي لا تنطبق على ويلي هاينريك».

كنا في المطبخ نشرب الصودا في كأسين طويلتين (مع قليل من النعناع الذي كان ينمو على طول شارع باين من جهة المنزل)، تربص بي السيد بوديتش وقال: «لا أعتقد أنك تود التحدث بشأن هاينريك على الإطلاق حيث إن الموضوع الذي يشغل بالك هو الذهب وما مصدره».

لم أجبه، ولكنه لم يكن مخطئاً.

«قل لي شيئاً يا تشارلي -هل صعدت إلى هناك مؤخراً؟». نظر إلى السقف وقال: «لتنظر إليه وتتفحصه إذا جاز التعبير؟ لقد فعلت هذا أليس كذلك؟».

احمرت وجنتاي وقلت: «في الواقع...».

«لا تقلق، لن أؤنبك، إنني لا أرى الموجود في الأعلى سوى دلو من المعدن ولعله عبارة عن عزقات ومسامير لا أكثر ولا أقل. إنني عجوز، ولكن هذا لا ينفي أنني أفهم الإبهار، قل لي هل مررت يديك بين القطع؟».

كنت سأكذب، ولكنني لم أجد فائدة من ذلك، كان سيكتشفني في كلتا الحالتين، قلت: «أجل».

لا زال يتربص بي، وكانت عينه اليسرى مغمضة تقريباً، وحاجبه الأيمن الكثيف مرفوعاً، ولكنه كان يبتسم أيضاً. «هل وضعت يديك ضمن الدلو ومررت يديك بين القطع الذهبية؟».

«أجل». ازدادت وجنتاي احمراراً، وكدت أحترق. لم أفعل هذا لمرة واحدة وحسب بل عاودت الكرة عدة مرات منذ تلك المرة.

«إن إبهار الذهب بعيد أشد البعد عن قيمته النقدية، تعرف هذا أليس كذلك؟».

«أجل».

«دعنا نقلْ -من باب النقاش ليس أكثر- إن السيد هاينريك باح بأشياء كثيرة للشخص الخطأ بعد أن احتسى كثيراً من الشراب في الحانة الصغيرة المقرفة في نهاية شارع متجره. سأراهن بهذا المنزل والأرض التي بني عليها على أن ويلي لا يشرب بشكل مفرط ولعله لا يشرب على الإطلاق. ولكن دعنا نكمل الفرضية، وافترض أن هذا الشخص الذي تحدث إليه انتظرك بمفرده أو مع أعوانه وأنت تغادر في ليلة ما ثمّ اقتحموا منزلي وطالبوا بالذهب. إن مسدسي في الأعلى وكلبتي التي اعتادت أن تكون مخيفة...» ربت رأس رادار التي كانت تنام قربه «... حتّى إنها أصبحت أكبر مني، ماذا سأفعل في مثل هذه الحالة؟».

«أعتقد أنه... عليك أن تعطيهم إياه؟».

«بالضبط، لن أتمنى لهم الخير، ولكنني سأعطيهم الذهب».

لذا سألته: «ما مصدره يا هاورد؟».

«ربما سأخبرك عن هذا مع الوقت، لم أقرر بعد لأن الذهب ليس مبهراً وحسب بل هو خطير. كما أن المكان الذي أتى منه خطير أيضاً. أعتقد أنني رأيت قطعة لحم ضأن في الثلاجة، وهل هناك كولسلو؟ يعد تيلير أفضل كولسلو في العالم، عليك تناول بعض منه».

وبتعبير آخر: انتهى النقاش.

ذات مساء من أواخر شهر تموز لم تستطع رادار الصعود على درج الشرفة الخلفية حين عدنا من نزهتنا على شارع باين، حاولت مرتين، ثمّ جلست أسفل الدرج تلهث وتنظر إليّ.

قال السيد بوديتش: «هيّا، احملها».

كان قد خرج وهو يستند إلى أحد عكازيه، وكان الآخر قد تقاعد تقريباً. نظرت إليه لأتأكد من قراره، فأومأ برأسه.

«حان الوقت».

حين حملتها نبحت وكشرت عن أنيابها، أنزلت الذراع التي كانت تعانق فخذيها، وحاولت أن أبتعد عن المنطقة المتأذية وحملتها. كان الأمر سهلاً حيث أصبحت رادار نحيلة كما أصبح شعر فمها أبيض بالكامل، وأصبحت عيناها دامعتين، وضعتها برفق في المطبخ. في البداية، لم تقوَ قائمتاها الخلفيتان على حملها، استجمعت قواها -كان بوسعي أن ألحظ هذا- وعرجت إلى السجادة قرب باب خزانة المونة ببطء، ثمّ تمددت وأصدرت صوت ووف.

«عليها أن تذهب إلى طبيب بيطري».

أشاح السيد بوديتش بوجهه وقال: «ستصاب بالذعر، لن أعرضها لهذا عن قصد».

«ولكن...».

تحدث برفق وهذا ما أشعرني بالذعر، لأنه لم يكن على سجيته: «لا يمكن لأي طبيب بيطري مساعدتها، لقد انتهت رادار تقريباً. لا تحتاج الآن سوى للراحة وعليّ أن أفكر».

«بالله عليك بماذا تُفكّر؟!»

«بالأفضل لها، عليك أن تعود إلى المنزل الآن، تناول العشاء ولا تعد الليلة، سأراك في الصباح».

«ماذا عن عشائك؟».

«سأتناول بعض السردين والكعك، اذهب الآن». ثمّ قالها مجدداً: «عليّ أن أفكر».

عدت إلى المنزل، ولكنني لم آكل كثيراً. لم أكن جائعاً.

5

بعد هذا، توقفت رادار عن إنهاء طبق الفطور والعشاء. ومع أني حملتها على الدرج الخلفي -لا يزال بوسعها أن تنزل بنفسها- بدأت تتغوط من وقت إلى آخر داخل المنزل، عرفت أن السيد بوديتش كان محقاً بخصوص أن الطبيب البيطري لا يمكنه مساعدتها... ولكن في النهاية حين أصبح جلياً مقدار الألم الذي تعاني منه، أصبحت تنام كثيراً، وكانت أحياناً تصرخ وتزمجر على فخذيها، وكأنها تحاول التخلص مما كان يعضها ويؤلمها. كنت مسؤولاً حينها عن حالتين مرضيتين إحداهما تشهد تحسناً في حالتها والأخرى تشهد تدهوراً.

في الخامس من آب، وكان يوم اثنين، تلقيت بريداً إلكترونياً من المدرب مونتغومري يُبين فيه جدول تدريب كرة القدم. وقبل أن أرد عليه، أخبرت أبي أنني لن ألعب في سنتي الأخيرة. ومع أن أبي كان خائباً بشكل واضح (كنت خائباً أنا الآخر) قال إنه يتفهمني. كان في منزل السيد بوديتش في الليلة السابقة، وكان قد لعب بورق الشدة كما أنه رأى حالة رادار.

قلت له: «هناك كثير من العمل الذي ينتظرني هناك، أريد أن أعمل شيئاً بخصوص الفوضى في الطابق الثالث، وحين أطمئن بخصوص السماح لهاورد بالنزول إلى القبو هناك أحجية تحتاج للإنهاء. أعتقد أنه قد نسي الأمر،

أجل وعليّ أن أعلمه كيف يستخدم حاسوبي ليتصفح الإنترنت ويشاهد الأفلام بالإضافة إلى...».

«توقف يا صديقي، إن الأمر يتعلق بالكلبة أليس كذلك؟».

تذكرت حين حملتها على الدرج وتعابير الذل التي اعترتها حين تغوطت في المنزل، ولم أستطع الإجابة.

قال أبي: «كان لديّ كلبة من نوع كوكر حين كنت طفلاً، كان اسمها بيني. من الصعب مراقبة كلبة جيدة وهي تشيخ، وحين تصل الكلاب إلى نهاية عمرها...» أشاح بوجهه، «يدمى قلبك حين تنظر إليها».

كان هذا شعوري، كان هذا شعوري بالضبط.

لم يكن أبي هو الذي غضب مني بخصوص فكرة إقلاعي عن كرة القدم في سنتي الأخيرة، بل السيد بوديتش. لم يغضب بل استشاط غضباً.

كان يصرخ تقريباً حين قال: «هل أنت مجنون؟». كما احمرت وجنتاه النحيلتان. «أعني هل فقدت عقلك تماماً؟ ستصبح نجماً في ذلك الفريق، بإمكانك أن تلعب في الجامعة وأُرجح أن تحصل على منحة».

«لم ترني ألعب من قبل».

«قرأت صفحات الرياضة في سان على الرغم من مستواها المتدني، لقد فزت بمباراة توركي بول في العام المنصرم».

«سجلنا أربعة أهداف في تلك المباراة، ولم أسجل سوى الهدف الأخير».

أخفض صوته وقال: «كنت سآتي وأشاهد مبارياتك».

ذهلت لدرجة أنني توقفت عن الكلام، كان هذا عرضاً مذهلاً من شخص سلم نفسه للعزلة طواعية.

أخيراً قلت: «لا يزال بوسعك أن تأتي، سأذهب معك، وستشتري هوت دوغ، أما أنا فسأشتري الصودا».

«كلا، كلا، أنا صاحب عملك بحق الجحيم. أنا أدفع لك راتبك وأمنعك عن هذا، لن تخسر آخر موسم كرة قدم في مدرستك الثانوية بسببي».

كنت صعب الطباع، لم يسبق لي أن أظهرت طبعي هذا له، ولكنني فعلت هذا في ذلك اليوم. أعتقد أن باستطاعتكم القول إنني انفجرت.

«ليس بسببك، لا يدور كل شيء حولك، ماذا عنها؟» أشرت إلى رادار التي رفعت رأسها وناحت بصعوبة. «هل ستحملها على درج الشرفة كي تقضي حاجتها؟ بالكاد تستطيع المشي بنفسك».

اعتلت وجهه ملامح الصدمة: «س... يمكنها أن تقضي حاجتها في المنزل... سأضع ورقاً...».

«ستكره هذا وأنت على علم بذلك. لعلها مجرد كلبة، ولكن لديها كرامتها، وإذا كان هذا صيفها الأخير وخريفها الأخير...» كان بوسعي أن أشعر بدموعي وهي على وشك الانهمار ولعلكم ستستغربون هذا إذا لم تحظوا بكلب تحبونه، «... لا أريد أن أكون في التدريب وأضرب مهاجماً معرقلاً لعيناً حين تموت! سأذهب إلى المدرسة حيث يجب عليّ فعل ذلك، ولكنني أريد أن أبقى هنا معظم الوقت، وإن لم تكتفِ بهذا الكلام فاطردني».

كان صامتاً وقد طوى يديه، وحين نظر إليّ مجدداً، كان قد زم شفتيه للغاية لدرجة أنهما لم تعودا ظاهرتين. لوهلة اعتقدت أنه سيفعل ما طلبته، ولكنه قال: «هل تعتقد أن الطبيب البيطري يمكن أن يأتي إلى المنزل

ويتجاهل مثلاً حقيقة أن كلبتي ليست مرخصة ومسجلة إذا دفعت له كفاية؟».

تنفست الصعداء وقلت: «دعنا نكتشف الأمر».

6

لم أعثر على طبيب بيطري بل على مساعد طبيب بيطري. كانت أماً عزباء لديها ثلاثة أولاد، كان آندي تشين يعرفها وعرّفني إليها. أتت وفحصت رادار، وأعطت السيد بوديتش بعض الحبوب، وقالت له إنها في طور التجربة، ولكنها أفضل وأقوى من الكربروفين.

قالت لنا: «أريد أن أكون واضحة بهذا الخصوص، ستحسن لها نوعية حياتها، ولكنها ستقصر عمرها على الأرجح»، توقفت وقالت: «ستقصره بالتأكيد، لا تأتيا إليّ حين تموت وتقولا لي إنني لم أخبركما بهذه المعلومة».

سألتها: «إلى متى ستساعدها؟».

«يمكن ألا تساعدها إطلاقاً. قلت لك إنها في طور التجريب، إنها معي لأنها تركت بعد أن أنهى الدكتور بيتري تجربته السريرية، ودعوني أضف أنه تقاضى أجراً عالياً عليها، ولكن هذا لا يعني أنني حظيت بشيء منه. إذا أعطت مفعولاً ستحظى رادار بشهر ممتاز أو شهرين، ولكنها لن تصمد لثلاثة أشهر على الأرجح، لن تشعر وكأنها جروة مجدداً، ولكنها ستتحسن...» رفعت كتفيها وقرفصت وربتت رأس رادار التي هزت ذيلها، «ولكنها سترحل يوماً ما، إذا بقيت على قيد الحياة بحلول عيد الهالوين فسأتفاجأ للغاية».

لم أعرف ماذا أقول، ولكن السيد بوديتش عرف تماماً وكانت رادار كلبته: «هذا جيد بما فيه الكفاية»، ثمّ أضاف شيئاً لم أفهمه، ولكنني بت أفهمه الآن: «وربما طويل بما فيه الكفاية».

وحين رحلت المرأة (بعد أن تقاضت مئتي دولار) انحنى السيد بوديتش وربّت رأس كلبته، وحين نظر إليّ مجدداً كانت ابتسامة صغيرة وملتوية قد اعتلت وجهه: «لن يعتقلنا أي أحد بتهمة التعامل مع دواء للكلاب غير مرخص أليس كذلك؟».

قلت له: «أشك في الأمر». كانت ستحدث مشاكل أكثر من المشاكل المتعلقة بالذهب إذا تم اكتشاف الأمر. «سررت لأنك أخذت قراراً، ما كنت أستطيع أن أتخذ قراراً».

«خيار هوبسون»، لا يزال يداعب رادار ويمرر يده من رأسها إلى عنقها ثمّ إلى ذيلها «وفي النهاية أعتقد أن الشهرين أو الثلاثة الممتازة أفضل من ستة أشهر سيئة، إذا نفع الأمر بالطبع».

لقد نفع الأمر فعلاً، وعاودت رادار إنهاء صحنها تماماً، وكان بوسعها أن تصعد على درج الشرفة (بمساعدتي أحياناً)، والأفضل من ذلك كله هو أنها استطاعت لعب لعبة طاردي -القرد-واجعليه -يصدر-أصوات صرير في الليل عدة مرات. لم أتوقع أن تصمد أكثر من السيد بوديتش. ولكنها صمدت أكثر منه بالفعل.

7

استمرت رادار بـــ... لن أقول بالتحسن، ولكنها أصبحت تشبه الكلبة التي قابلتها حين وقع السيد بوديتش عن السلم (لا تزال تعاني في الصباح من النهوض عن سجادتها لتناول الطعام). تحسن السيد بوديتش بالفعل، وأقلع عن الأوكسي، كما بدّل العكاز المفرد الذي كان يستخدمه منذ شهر آب مستخدماً عصا وجدها في زاوية ضمن القبو، وعاود العمل على أحجيته في القبو، كنت أذهب إلى مدرستي، وأمضي وقتاً مع أبي، كما أمضيت وقتاً أكثر في المنزل رقم 1 في شارع سيكامور. بدأ فريق القنافذ الموسم بنتيجة صفر لثلاثة وتوقف زملائي السابقون عن التحدث إليّ. كان هذا شيئاً

مزعجاً، ولكن بالي كان مشغولاً للغاية، فلم أسمح لهذا أن يثبط عزيمتي. في مرات كثيرة ولا سيما أثناء قيلولة السيد بوديتش على الأريكة المفتوحة التي لا يزال يستخدمها كي يكون قريباً من رادار- كنت أفتح الخزنة وأمرر يدي في دلو الذهب. كنت أستشعر وزنه الذي كنت أتفاجأ به كل مرة، كما كنت أدع القطع تمر من بين أصابعي، وكأنها جداول صغيرة. في تلك الأوقات، كنت أفكر في السيد بوديتش وهو يتحدث عن إبهار الذهب. وتستطيعون القول إنني كنت أمارس التأمل من خلاله. لم تعد ميليسا ويلكوكس تأتي سوى مرتين في الأسبوع، وكانت تثني على تحسن السيد بوديتش. قالت له إن أخصائي الأورام الدكتور باتيرسون يريد رؤيته ولكنه رفض، وقال إنه على ما يرام. لقد جاريته، ليس لأنني كنت أصدقه، بل لأنني رغبت في أن أصدقه. ما أصبحت أعرفه الآن هو أن الدخول في حالة الإنكار لا يقتصر على المرضى فحسب.

كان وقتاً هادئاً، ثمّ حدث كل شيء دفعة واحدة، ولم يكن أي من الأحداث جيداً.

8

كانت لديّ حصة فراغ قبل الغداء وكنت أقضيها عادة في المكتبة لأؤدي بعض الفروض المدرسية، أو أقرأ بعض كتب السيد بوديتش القديمة. وفي أحد الأيام من أواخر شهر أيلول كنت منغمساً بكتاب ذا نيم أوف ذا غيم إز ديث لدان جي. مارلو، وكان كتاباً دامياً للغاية. وعندما أصبحت الساعة الثانية عشرة إلا ربع، قررت أن أترك الذروة لأقرأها بانغماس ذلك المساء، وتناولت صحيفة بشكل عشوائي. كان هناك حواسيب في المكتبة، ولكن جميع الصحف كانت تحتاج إلى اشتراك. بالإضافة إلى أنني كنت أفضل قراءة الأخبار على صحيفة فعلية حيث كنت أشعر وكأنني في الزمن الجميل.

كان من الممكن أن أتناول صحيفة نيويورك تايمز أو شيكاغو تريبيون وأفوت الخبر تماماً، ولكن الصحيفة التي كانت تعلو الحزمة كانت ديلي هيرالد في إلجن فأخذتها. كان العنوانان العريضان على الصفحة الأولى هما: رغبة أوباما في التدخل العسكري في سوريا، وإطلاق نار جماعي في العاصمة الذي أسفر عن ثلاثة عشر قتيلاً. طالعت تلك الصفحة، وتحققت من الساعة -عشر دقائق ويبدأ الغداء- وتصفحت باقي الصفحات في طريقي لصفحة الرسومات الكرتونية. لم أصل إلى تلك الصفحة حيث استوقفتني قصة على الصفحة الثانية من قسم أخبار المنطقة.

وتجمد الدم في عروقي.

تاجر مجوهرات ستانتونفيل ضحية لجريمة قتل

عُثر على ساكن قديم ورجل أعمال في ستانتونفيل مقتولاً في متجر مجوهرات ممتازة في وقت متأخر من مساء الأمس. تلقت الشرطة اتصالاً يفيد أن باب المتجر كان مفتوحاً على الرغم من أن لافتة مغلق كانت تتدلى منه. وجد الشرطي جيمس كوتزيوينكل، ويلهيلم هاينريك في الغرفة الخلفية وكان بابها مفتوحاً أيضاً. وحين سئل رئيس الشرطة ويليام ياردلي إن كان الحافز هو السرقة أجاب: «على الرغم من أن التحقيق بالجريمة لا يزال جارياً يبدو هذا الخيار بديهياً»، وحين سئل إن كان أحد قد سمع صراخاً أو إطلاق نار لم يعلق أي من الرئيس ياردلي والمحقق يسرئيل بوتشر، التابع لشرطة ولاية إيلينوي سوى أن معظم المتاجر في النهاية الغربية لشارع ستانتونفيل الرئيسي كانت خالية منذ إقامة المركز التجاري خارج البلدة. كان متجر مجوهرات ممتازة استثناء ملحوظاً، وعد ياردلي وبوتشر بنتيجة سريعة للقضية».

رنّ جرس الغداء، ولكنني لم أتحرك من مكاني، واتصلت بالسيد بوديتش، أجابني كالعادة: «إذا كنت مسوقاً على الهاتف فأزلني عن

لائحتك».

«هذا أنا يا هاورد؛ لقد قتل السيد هاينريك».

كان هناك صمت طويل ثم: «كيف عرفت؟».

تلفت حولي، لم تكن المكتبة مقصداً لتناول الغداء، وكانت فارغة باستثنائي، لذا قرأت له المقال، لم أستغرق وقتاً طويلاً في هذا.

قال السيد بوديتش حين انتهيت: «يا إلهي، أين من المفترض أن أبدل الذهب الآن؟ لقد كان مقصدي في السنوات الخمس وعشرين الأخيرة»، ولم يظهر أي تعاطف أو دهشة.

«سأقوم ببعض الأبحاث على الإنترنت...».

«بحذر! وبسرية!»

«بالطبع، سأكون سرياً للغاية، ولكنني أعتقد أنك تفوت المغزى هنا؛ لقد أبرمت صفقة كبيرة وهائلة معه، ولقد مات الآن، إن حصل أحد ما على اسمك منه... لو تم تعذيبه أو وعده بأنه لن يقتل...».

«إنك منغمس في كثير من كتبي القديمة يا تشارلي، لقد بعت عني أرطال الذهب تلك في نيسان المنصرم».

قلت له: «لا أعتقد أن هذه المدة تعتبر من العصور الغابرة».

لم يكترث وقال: «لا أفضل إلقاء اللوم على الضحية، ولكنه أبى أن يغادر ذلك المتجر في تلك البلدة الصغيرة المتعفنة. قلت له في آخر مرة أبرمت صفقة معه، أي قبل أربعة أشهر من سقوطي على السلم: ويلي، إن لم تغلق هذا المكان وتنتقل إلى المركز التجاري فستتعرض للسرقة، لقد تعرض للسرقة أخيراً وقتل خلال إحدى صفقاته، هذا هو التفسير البسيط».

«مع هذا، أفضّل أن تضع سلاحك في الطابق السفلي».

«إذا كان هذا الأمر سيطمئنك فسأفعل هذا، هل ستأتي بعد المدرسة؟».

«كلا، فكّرت في أن أذهب إلى ستانتونفيل وأستمتع ببعض الثلج».

قال السيد بوديتش: «إن حس الفكاهة لدى جيل الشباب فظ وغير مضحك في أغلب الأحيان»، ثمّ أنهى المكالمة.

بحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى طابور الغداء كان طوله قد تجاوز الميل، ولا بدّ أن الخليط الذي حضّره المقصف قد برد. لم أكترث لهذا، فقد كنت أفكر في الذهب، قال السيد بوديتش إنه كان يعتبر الذهب في عمره كدلو من المعدن، لعله يعتبره كذلك، ولكنني اعتقد أنه إما كان كاذباً وإما مراوغاً.

وإلا كيف كان معه ذلك الكم الكبير من الذهب؟

9

في يوم الأربعاء دفعت اشتراك صحيفة إلجن كي أقرأها على هاتفي المحمول. صدر خبر آخر على الصفحة الأولى من أخبار المنطقة: تم اعتقال رجل من ستانتونفيل بتهمة سرقة وقتل في متجر مجوهرات، تم الكشف عن هوية المعتقل وكان بينجمن دوايز، عمره 44 عاماً وليس له عنوان ثابت- اعتقدت أن تلك العبارة كانت تعني أنه كان مشرداً- اتصل مالك متجر ستانتونفيل للرهانات والقروض بالشرطة حين حاول دوايز مقايضة خاتم من الألماس ذي قيمة معتبرة، وفي مركز الشرطة اكتشف أنه كان يملك سواراً مرصعاً بالزمرد. اعتبرت الشرطة أن هذه الممتلكات مثيرة للشبهات بالنسبة إلى رجل ليس لديه عنوان ثابت.

قال السيد بوديتش حين أريته المقال: «أترى؟ ارتكب رجل غبي جريمة غبية، واعتقل حين حاول تحويل غنائمه إلى مال نقدي بطريقة غبية. لن تشكل هذه القصة لغزاً جيداً، أليس كذلك؟ حتّى وإن على طريقة تلك المخطوطات القديمة».

«لا أعتقد هذا».

«يبدو أنك لا تزال منزعجاً»، كنا في المطبخ نراقب رادار وهي تتناول طعامها. «يمكن لزجاجة صودا أن تصلح هذا». نهض واتجه إلى البراد من دون عرجة واضحة.

شربت الصودا، ولكنها لم تصلح شيئاً، «كانت غرفته الخلفية مليئة بالمجوهرات، كان هناك تاج من الألماس من النوع الذي تضعه الأميرة على رأسها في حقل ما».

رفع السيد بوديتش كتفيه. كانت القضية مغلقة بالنسبة إليه أي صفقة منتهية. «تبدو مذعوراً يا تشارلي، إن المشكلة الحقيقية هي أنني لا أعرف ماذا سأفعل ببعض الذهب الذي أملكه، ركّز على هذا ولكن...».

«يجب عليّ أن أكون متعقلاً ومتكتماً أعرف هذا».

«الرأي قبل شجاعة الشجعان» أومأ برأسه وكأنه حكيم.

«ما علاقة هذا بأي شيء؟».

ابتسم السيد بوديتش وقال: «لا شيء يذكر، أردت أن أقول هذه العبارة فحسب».

10

فتحت تلك الليلة منصة تويتر وبحثت عن بينجمن دوايز، وما حصلت عليه هو بعض التغريدات عن مؤلف إيرلندي. لذا غيرت بحثي وكتبت

المشتبه به دواير، لم يعطني هذا سوى ست نتائج. كانت النتيجة الأولى من رئيس شرطة ستانتونفيل ويليام ياردلي وكان يهنئ نفسه في الحقيقة على الاعتقال السريع، أما النتيجة الثانية فهي لامرأة لقبت نفسها بانكيت 44 وكباقي المغردين على التويتر كانت رقيقة ورؤوفة: ترعرعت في ستانتونفيل وكان الوضع مزرياً، لو قتل ذلك الرجل دواير جميع سكانها لأسدى للعالم معروفاً.

ولكن القصة التي لفتت انتباهي كانت من شخص اسمه بال.غاي19، كتب: بنجي دواير كمشتبه به في جريمة قتل؟ شيء مضحك، لقد عاش في شيتزفيل البغيضة لمدة ألف عام، كان يجب أن يوشم على جبهته لقب مغفل القرية.

فكرت في أن أعرض هذا المقال على السيد بوديتش في اليوم التالي لأتبين إن كان بال.غاي19 على حق بخصوص أن بنجي دواير هو المغفل المثالي، وكالعادة لم تتسنَّ لي الفرصة أبداً.

الفصل التاسع

ذلك الشيء في المستودع- مكان خطر-

الطوارئ-المحفظة- محادثة جيدة.

1

ما كان عليّ الاستيقاظ في تمام الساعة السادسة لأطعم رادار، حيث إن السيد بوديتش أصبح قادراً على فعل هذا بنفسه. ولكنني تعودت على الاستيقاظ باكراً، كما تعودت قيادة درّاجتي على التل قرابة الساعة السابعة إلا ربع كي أخرجها لتقضي حاجتها. وبعد هذا، ولأن اليوم كان يوم سبت، خطر لي أن أتنزه على شارع باين حيث كنت أتمتع بتصفحّ الرسائل المعلّقة

على أكشاك الهاتف (وترك بعض الرسائل بنفسها). لم أستطع التنزه في ذلك اليوم.

حين دخلت وجدت السيد بوديتش يجلس إلى طاولة المطبخ، يأكل الشوفان، ويقرأ كتاباً بحجم القرميدة لجيمس ميكينير. سكبت لنفسي كأساً من عصير البرتقال، وسألته عن ليلته.

قال من دون أن يشيح بنظره عن الكتاب: «لقد صمدت هذه الليلة»، لم يكن هاورد بوديتش شخصاً نهارياً كما لم يكن يفضل العصر أو حتّى الظهر، «اغسل تلك الكأس حين تنتهي».

«أفعل هذا دائماً».

نخر وقلب صفحة في كتابه السميك الذي كان يدعى تكساس. شربت ما تبقى من عصيري، وناديت رادار التي دخلت المطبخ ولم ألحظ لها عرجاً.

قلت: «نزهة؟ أتود رادار أن تتمشى؟».

قال السيد بوديتش: «يا إلهي! توقف عن مداعبتها وكأنك تتحدث إلى طفلة. يبلغ عمرها وفقاً للزمن الإنساني ثمانية وتسعين عاماً».

كانت رادار عند الباب، فتحته ونزلت على درج الشرفة الخلفية، فشرعت ألحق بها، ثمّ تذكرت أنني كنت سأحتاج للجامها إذا كنا سنمشي على شارع باين، كما أنني لم أغسل كأسي، غسلت كأسي، وكنت أتجه إلى حيث اللجام حين بدأت رادار تنبح بقوة وسرعة وبصوت عالٍ للغاية. كان هذا أبعد ما يكون عن نباح أرى سنجاباً الخاص بها.

أغلق السيد بوديتش كتابه: «ما خطبها بحق الجحيم؟ عليك أن تذهب وتتحقق».

كانت لديّ فكرة واضحة عما كان يجري، لأنه سبق لي أن سمعت هذا الصوت. كان هذا نباحاً ينم عن إنذار بوجود دخيل، كانت تجثو مرة أخرى على عشب الشرفة الخلفية الذي كان أقصر الآن وخالياً من الروث تقريباً، وكانت تواجه المستودع، رافعة أذنيها مكشرة عن أنيابها، وكانت الرغوة تتجمع حول فمها بعد كل نباح، ركضت إليها، وأمسكت بطوقها، وحاولت أن أسحبها. لم ترد أن تغادر، ولم ترد في الوقت نفسه أن تقترب من المستودع الموصد. ورغم النباح المتصاعد كان بوسعي أن أسمع صوت الخدش والشطب المريب، هذه المرة، كان الصوت أعلى، ولاحظت أن الباب كان يتحرك قليلاً، كان الأمر يشبه دقة قلب مرئية، كان هناك شيء يحاول الخروج.

صرخ السيد بوديتش من الشرفة: «رادار، عودي إلى هنا الآن».

لم تعره انتباهاً، وواظبت على النباح. ضرب شيء ما داخل المستودع الباب بقوة لدرجة أنني سمعت الارتطام، وصدر صوت نحيب يشبه مواء القطة، ولكن بنغمة أعلى، وكأنني أسمع صوت صرير الطبشور على سبورة سوداء، فاقشعر بدني.

وقفت أمام رادار كي أحجب المستودع عنها، ومشيت إلى الخلف وأرغمتها على التراجع خطوة أو خطوتين، كانت عيناها تستشيطان غضباً، وظهرت عليهما حلقتان بيضاوان ولوهلة اعتقدت أنها كانت ستعضني.

لم تعضني، وتكرر صوت الارتطام والخدش، ثمّ صوت الصرير والنحيب ذاك. لقد اكتفت رادار بهذا القدر، التفتت وعادت إلى الشرفة، ولم تبدِ أي علامة عن العرج. صعدت الدرج، واحتمت عند قدمي السيد بوديتش، ولكنها واظبت على النباح: «تشارلي، ابتعد من هناك».

«هناك شيء في الداخل، ويحاول الخروج، يبدو كبيراً».

«عد إلى هنا يا فتى، عليك أن تعود إلى هنا».

حدث ارتطام آخر وشطب أكثر، كنت أضع يدي على فمي لأمنع صراخي، لم أتذكر أنني وضعتها في المقام الأول.

«تشارلي!»

ركضت مثل رادار لأنني حين لم أستطع رؤية المستودع كان من السهل أن أتخيل الباب وهو يُخلع من مفصلاته، ويكشف عن كابوس سيحاول اللحاق بي بسرعة وتربص، وهو يصدر تلك الأصوات غير البشرية.

كان السيد بوديتش يرتدي سرواله القصير من نوع برمودا وينتعل حذاء الإصبع الذي كان يطلق عليه مشاية. كانت الجروح الملتئمة الناجمة عن أسياخ المثبت حمراء للغاية بالنسبة إلى جلده الشاحب.

«ادخل! ادخل!»

«ولكن ماذا...».

«لا داعيَ للقلق، إن الباب متين، ولكن عليّ أن أتدبر هذا الأمر».

صعدت الدرج ووصلت في الوقت المناسب لأسمع ما قاله بعدها مع أنه أخفض صوته وكأنه يتحدث لنفسه، «لقد حرك ابن الوضيعة الألواح والطوب، لا شك في أنه كبير».

«سبق لي أن سمعت صوتاً شبيهاً بهذا عندما كنت في المستشفى، ولكنه لم يكن بهذا الارتفاع».

دفعني إلى المطبخ، ولحق بي، وكاد أن يتعثر برادار التي كانت تحتمي عند قدميه، ولكنه أمسك بقبضة الباب في اللحظة الأخيرة.

«ابقَ هنا، سأتدبر الأمر».

أغلق باب الشرفة الخلفية، ثمّ عرج وترنح وأصدر حذاءه صوت طقطقة في طريقه إلى غرفة المعيشة، تبعته رادار واهتز ذيلها، سمعته يتمتم، ثمّ سمعت شتيمة متألمة تبعتها تنهيدة تنم عن بذل جهد. وحين عاد كان يحمل المسدس الذي طلبت منه أن ينزله إلى الطابق السفلي، ولكنه لم يكن يحمل المسدس وحسب، كان في قراب مسدس ملحق بحزام جلدي يتشح بعدة قطع كونشو فضية، بدا المنظر وكأنه ينبثق من غانفايت أت ذا أو.كي. كورال، حزمه حول خصره بشكل يسمح لقراب المسدس أن يكون قريباً من فخذه اليمنى، كانت أربطة جلد الغنم -السفلية- تتدلى وتلامس بنطاله القصير، وكان يفترض بالمنظر أن يبدو سخيفاً -كان من المفروض أن يبدو هو سخيفاً- ولكن لم يكونا كذلك.

«ابق هنا».

«يا سيد بوديتش، ماذا... لا تستطيع...».

«ابق هنا، بالله عليك!»، أمسك بذراعي بقوة كبيرة لدرجة أنها آلمتني، كان يلهث ويتنفس بسرعة شديدة، «ابق مع الكلبة، أنا أعرف ما أقول».

خرج وأغلق الباب خلفه، ونزل الدرج بشكل جانبي، نطحت رادار ساقي برفق وأنّت، ربت رأسها من دون أن أنتبه، وأنا أنظر من النافذة، وحين قطع السيد بوديتش نصف المسافة إلى المستودع تناول السيد بوديتش حلقة مفاتيحه من جيبه الأيسر، واختار مفتاحاً وفتح الباب ووجه المسدس إلى زاوية سفلية تقريباً، توقعت أن ينقض عليه شيء أو شخص ما ولكن لم يحدث هذا. لقد رأيت حركة بالفعل لشيء أسود ونحيل ثمّ اختفى. دخل السيد بوديتش إلى المستودع وأغلق الباب خلفه، لم يحدث أي شيء لفترة طويلة، ولكنها لم تتعد خمس ثوان، ثمّ سمعت صوت طلقتين ناريتين. لا بدّ من أن جدران المستودع كانت سميكة للغاية لأن الصوتين اللذين صدرا كان من المفروض أن يكونا عاليين جداً في تلك المساحة المحصورة، ولكنهما كانا خافتين للغاية كصوت رأس مطرقة ملفوف باللباد.

لم يحدث شيء لفترة أطول من خمس ثوان وربما وصلت إلى خمس دقائق، لقد بقيت متماسكاً بسبب صوت السيد بوديتش الحاد ووجهه الحازم حين أمرني أن أبقى هنا بحق الله، ولكن ضقت ذرعاً في نهاية المطاف، كنت واثقاً أن شيئاً قد حدث له، فتحت باب المطبخ وحين خرجت إلى الشرفة الخلفية فُتح باب المستودع وخرج السيد بوديتش. اجتازتني رادار بسرعة البرق، ولم تظهر أيّ علامات لمرضها حينها، وعبرت الباحة لتصل إليه وهو يقفل الباب ويضع القفل في مكانه، كان تصرفاً حسناً لأنه استطاع أن يتمسك به حين قفزت عليه رادار.

«إلى الأسفل يا رادار! انبطحي!»

انبطحت على معدتها، وهزت ذيلها بشكل جنوني، فعاد السيد بوديتش إلى الشرفة بوتيرة أبطأ من الوتيرة التي انطلق فيها إلى المستودع، وكان

يعرج بشكل ملحوظ على ساقه المصابة. كانت قد فتحت إحدى الندبات وكان الدم ينزف منها بقطرات حمراء داكنة، ذكرتني بحجر الياقوت الذي رأيته في غرفة السيد هاينريك الخلفية. كان قد خسر فردة حذائه.

قال: «أريد بعض المساعدة يا تشارلي، أشعر وكأن ساقي تحترق».

وضعت ذراعه حول عنقي، وأمسكت بخصره النحيل، وكدت أن أحمله على الدرج المؤدي إلى المنزل.

«إلى السرير، يجب أن أتمدد، لا أستطيع أن ألتقط أنفاسي».

أدخلته إلى غرفة المعيشة -فقد فردة حذائه الأخرى على الطريق لأنه كان يجر قدمه- وساعدته في الجلوس على الأريكة.

«ما كان هذا يا هاورد بحق الله؟ علام أطلقت النا...».

قال: «في الخزانة على الرف العلوي وخلف أواني زيت ويسن، هناك زجاجة ويسكي، أحضرها لي»، قرّب إصبع السبابة من الإبهام قليلاً، وكانت أصابعه ترتعش. في السابق كنت أعتبره شاحباً، ولكن الآن وحين تلاشت تلك البقعتان الحمراوان عن وجنتيه بدا كرجل ميت بعيني رجل حي.

ذهبت إلى الخزانة، ووجدت زجاجة جيمسونز في المكان الذي دلني عليه، وعلى الرغم من طولي كان عليّ أن أقف على رؤوس أصابعي كي أصل إليها. غطى الغبار الزجاجة التي كانت شبه ممتلئة، وعلى الرغم من حالة الصدمة التي كنت فيها -حيث كنت خائفاً ومذعوراً تقريباً- أعادت لي الرائحة التي انبثقت من الزجاجة الذكريات المرة عن أبي وهو يستلقي على الأريكة غائباً عن الوعي أو يستند إلى المرحاض ويتقيأ ما في أمعائه. لا تشبه رائحة الويسكي رائحة الجين... ولكنها تشبهها في الوقت ذاته، أعتبر أن رائحة الكحول واحدة بالنسبة إليّ فهي رائحة الحزن والخسارة.

سكبت كمية قليلة في كأس عصير، شربها السيد بوديتش دفعة واحدة وسعل، ولكن شيئاً من اللون عاد إلى وجنتيه. فك الحزام وقال: «أزل هذا الشيء اللعين عني».

سحبت القراب، فتحرر الحزام، وتمتم السيد بوديتش «اللعنة»، فلا بدّ من أن المشبك قد خدش أسفل ظهره.

«ماذا عليّ أن أفعل به؟».

«ضعه تحت السرير».

«من أين جلبت الحزام؟» كنت واثقاً من أنه لم يسبق لي رؤيته.

«من مكان ما. أنجز الأمر، ولكن قبل أن تفعل ذلك أعد تعبئة الذخيرة».

كانت هناك حلقات للرصاصات بين قطع الكونشو، أدرت أسطوانة المسدس الكبير،وملأت الحجرتين الخاليتين وأعدت المسدس إلى قرابه، ووضعته تحت السرير. شعرت وكأنني في حلم يقظة.

«ما كان هذا؟ ماذا كان موجوداً هناك؟».

قال: «سأخبرك، ولكن ليس اليوم، لا داعيَ للقلق، خذ هذه»، أعطاني حلقة مفاتيحه، «ضعها على ذلك الرف، أعطني حبتي أوكسي، وسأخلد للنوم».

أحضرت له الدواء، ولكنني لم أحبذ فكرة أن يأخذ حبوباً للضغط العالي بعد تناول الويسكي التي كانت تسبب ضغطاً عالياً، ولكنه لم يشرب إلا القليل.

قال: «لا تدخل إلى هناك، ربما تدخل في وقت لاحق، ولكن لا تفكر بالأمر الآن».

«هل هذا هو مصدر الذهب؟».

«إن الأمر معقد كما يقولون في مسلسلات المساء الدرامية، لا أستطيع أن أتحدث عن الأمر الآن يا تشارلي، ولا يمكن أن تتحدث عنه أمام أحد، أياً يكن، ليس بإمكانك أن تتخيل العواقب، عدني بذلك».

«أعدك».

«حسناً، اذهب الآن، ودع الرجل العجوز ينلْ قسطاً من الراحة».

2

كانت رادار تفرح حين تتمشّى معي على التلّ، ولكنها أبت أن تفارق السيد بوديتش في ذلك السبت. نزلتُ التلّ وحيداً، وأعددت لنفسي شطيرة لحم مفروم على خبز ووندر بريد؛ كان هذا طعام الشجعان. ترك أبي ملاحظة كتب فيها أنه سيحضر اجتماعاً في تمام الساعة التاسعة لجمعية مدمني الكحول المجهولين، وسيذهب بعدها للعب البولينغ مع ليندي وصديقين آخرين مقلعين عن الكحول. سررتُ بهذا، كنت سأحافظ على وعدي للسيد بوديتش مهما تكن الظروف، فلقد قال لي: لا تستطيع تخيل العواقب، ولكنني كنت واثقاً أن أبي سيقرأ تعابير وجهي في كل الأحوال. ازدادت حساسيته ودقة ملاحظته بعد أن أقلع عن الكحول، يعتبر هذا شيئاً جيداً في العادة، ولكن ليس اليوم.

عندما عدت إلى المنزل رقم 1 وجدت السيد بوديتش نائماً. لقد بدا أفضل حالاً نوعاً ما، ولكنه كان يتنفس بصعوبة كما كان حاله في اليوم الذي عثرت عليه على درج الشرفة الخلفية وساقه مكسورة. قلقت عليه.

بحلول المساء، اختفى الصوت الحاد. جهّزت الفشار، وأكلناه ونحن نشاهد هاد على حاسوبي المحمول.كان السيد بوديتش هو من اختاره، فلم يسبق لي أن سمعتُ به، ولكنه كان جيداً مع أنه أنه لم يكن ملوّناً. طلب

مني السيد بوديتش أن أوقف العرض لبرهة عندما كانت الكاميرا تركّز على وجه بول نيومان: «هل هو أكثر الرجال وسامة يا تشارلي؟ ما رأيك؟».

اعتقدت أنه كان محقاً.

بقيت ليلة السبت عنده، بدا السيد بوديتش أفضل بكثير يوم الأحد، لذا رافقت أبي لاصطياد السمك على سد إلجن الجنوبي. لم نصطد شيئاً، ولكنني استمتعت بقضاء الوقت معه تحت شمس أيلول الساطعة.

قال في طريق العودة: «أنت صامت على غير العادة، ما الذي يشغل بالك؟».

قلت له: «لا شيء سوى الكلبة العجوز»، كان معظم هذا الكلام كذباً، ولكن فيه شيئاً من الصحة.

قال أبي: «أحضرها معك هذا المساء». حاولت ذلك، ولكن رادار أبت أن تفارق السيد بوديتش.

قال السيد بوديتش: «اذهب ونم في سريرك اليوم، سأكون على ما يرام أنا والفتاة العجوز».

«يبدو صوتك مبحوحاً، آمل ألا تمرض».

«لن أمرض، لقد أمضيت يومي اللعين بالكلام».

«مع مَنْ؟».

«مع نفسي، هيّا يا تشارلي».

«حسناً، ولكن اتصل بي إن احتجت شيئاً».

«أجل، أجل».

«عدني، وعدتك ليلة البارحة واليوم دورك».

«أعدك، انصرف الآن».

3

يوم الأحد، لم تستطع رادار صعود درج الشرفة بعد أن قضت حاجتها الصباحية، ولم تأكل إلا قليلاً من طعامها، كما أنها لم تلمس صحنها تلك الليلة.

قال السيد بوديتش: «لعلها تحتاج إلى بعض الراحة» ولكنه لم يبدُ واثقاً من كلامه، «ضاعف لها جرعة الدواء».

سألته: «هل أنت واثق؟».

ابتسم بكآبة وقال: «لا شيء يمكن أن يضرها في هذه المرحلة؟».

تلك الليلة، نمت فعلاً في سريري الخاص، وبدت رادار أفضل حالاً يوم الاثنين، ولكن نتائج جهد يوم السبت ظهرت جلية على صحة السيد بوديتش، فقد عاد لاستخدام عكازيه للدخول والخروج من الحمام. أردت أن أتغيب عن المدرسة لأبقى معه، ولكنه رفض، فقد بدا بحال أفضل في تلك الليلة أيضاً، فصدقته.

يا لغبائي.

4

صباح يوم الثلاثاء، في تمام الساعة العاشرة كنت في حصة الكيمياء المتقدمة. كنا موزعين إلى مجموعات من أربعة أفراد ونرتدي مراييل وقفازات مطاطية لنحدد درجة غليان الأسيتون. كانت الغرفة هادئة باستثناء صوت الهمسات، لذا كان صوت رنين هاتفي المحمول مدوياً حين وردني اتصال. نظر إليّ السيد أكيرلي مستنكراً وقال: «كم مرة قلت لكم يا طلاب أن تضبطوا هواتفكم المحمولة على الوضع الصامت...».

تناولته من جيبي، ورأيت اسم بوديتش. نزعت قفازيّ، وأجبت على الاتصال، متجاهلاً كلام السيد أكيرلي، بدا السيد بوديتش لاهثاً ولكنه هادئ: «أعتقد أنني أتعرض لذبحة قلبية يا تشارلي. في الواقع أنا متأكد من هذا».

«هل اتصلت...».

«لقد اتصلت بك لذا اصمت واسمعني، هناك محام اسمه ليون برادوك في إلجن، وهناك محفظة تحت السرير، كل شيء ستحتاج إليه موجود تحت السرير، هل تفهمني؟ تحت السرير، اعتنِ برادار وحين تعرف كل شيء قرر...» شهق وقال: «اللعنة! هذا مؤلم للغاية! وكأنك تدمغني بالحديد الحامي! حين تعرف كل شيء قرر ماذا تريد أن تفعل بها».

أنهى الاتصال بعد أن قال جملته هذه.

بينما كنت أتصل بالطوارئ، فتح باب غرفة الكيمياء وخرج السيد أكيرلي، وسألني عما أفعله بحق الجحيم. لوّحت له بيدي بينما كانت موظفة الطوارئ تسألني عن ماهية الحال. شرحت لها الحال وأعطيتها العنوان وهو يقف إلى جانبي مذهولاً. نزعت مريولي وألقيت به أرضاً، ثمّ ركضت باتجاه الباب.

5

كانت هذه أسرع مرة أقود فيها الدراجة في حياتي حيث وقفت على الدواستين، وعبرت الشوارع من دون أن أنظر. سمعت صوت بوق وصرير دواليب وصراخ أحدهم يقول: «انظر أمامك أيها المغفل اللعين!».

على الرغم من سرعتي إلا أن سيارة الإسعاف سبقتني. حين التففت عند زاوية شارعي باين وسيكامور، وأسندت قدماً على الأرض، وسحبتها على الرصيف كي لا أطير عن الدراجة، رأيت سيارة الإسعاف وهي تغادر، وكانت أنوارها تتلألأ، وصوت إنذارها يدوّي في وضح النهار.

توجهت إلى الخلف، وقبل أن أفتح باب المطبخ، اندفعت رادار من باب الكلب، وانقضت عليّ. جثوت على ركبتي لأمنعها من القفز وإيلام قائمتيها الخلفيتين الضعيفتين، ناحت وأنّت ولعقت وجهي. لا تحاولوا أن تقولوا لي إنها لم تشعر أن شيئاً سيئاً قد حصل.

دخلنا فوجدت قهوة مسكوبة على طاولة المطبخ والكرسي الذي تعود أن يجلس عليه مقلوباً (إنه لأمر مضحك كيف نختار مواقعنا ونلتزم بها). لا يزال الفرن متقداً ولا تزال ركوة القهوة العريقة ساخنة جداً، وتنبعث منها رائحة حريق. بإمكانكم القول إنها تشبه رائحة تجربة كيميائية. أطفأت عين الموقد، وأمسكت بقفاز لأنقل الركوة إلى عين باردة. لم تبرح رادار جانبي خلال كل هذا الوقت وكانت تسند كتفها على ساقي، وتفرك رأسها على ركبتي.

كانت هناك روزنامة ملقاة على الأرض قرب مدخل غرفة المعيشة، وكان من السهل تخيّل ما جرى، كان السيد بوديتش يشرب القهوة على طاولة المطبخ، وأبقى الركوة على الموقد كي يصب كوباً آخر، ولكن الذبحة أصابته، فألقى بالقهوة. كان هاتفه في غرفة المعيشة، نهض ودخل إلى هناك، وعندما ترنح أوقع كرسيّه، ثمّ استند إلى الجدار، فأوقع الروزنامة على الأرض.

كان الهاتف اللاسلكي على السرير كما كان هناك غطاء بابافيرين، اعتقدت أنه شيء حقنوه فيه قبل أن ينقلوه. جلست على الأريكة، وربت رأس رادار، وحككت خلف أذنيها فلطالما هدّأت هذه الحركة من روعها.

«سيكون على ما يرام يا فتاة، انتظري وسترين أنه سيكون بخير».

نظرت تحت السرير حيث كنت سأرى كل ما أحتاج إليه وفقاً للسيد بوديتش. كان هناك المسدس الملحق بالحزام المرصع بالفضة، كما وجدت حلقة مفاتيحه ومحفظة لم يسبق لي أن رأيتها بالإضافة لمسجلة أشرطة

كاسيت تقليدية رأيتها من قبل على أحد صناديق الحليب البلاستيكية في الطابق الثالث. نظرت من خلال نافذة المسجلة، ووجدت أن هناك كاسيت راديو شيك في الداخل. كان السيد بوديتش يستمع إلى شيء ما، أو يسجل شيئاً ما. أراهن بكل مالي على أنه كان يسجل شيئاً ما.

وضعت حلقة المفاتيح في جيبي والمحفظة في الجيب الآخر. كان بودي أن أضع المحفظة في حقيبتي، لكنني تركتها في المدرسة. أخذت باقي الأشياء إلى الأعلى، ووضعتها في الخزنة. وقبل أن أغلق الباب، وأدخل رمز القفل، جثوت ومررت يدي بين قطع الذهب، وبينما راقبتها وهي تتسلل بين أصابعي، تساءلت ماذا سيحل بها إذا مات السيد بوديتش.

كانت رادار تئن وتنبح أسفل الدرج. نزلت وجلست على الأريكة واتصلت بأبي، وأخبرته بما حصل فسألني عن حاله.

«لا أعرف، لم أره، سأذهب إلى المستشفى الآن».

رنّ هاتفي المحمول، وأنا في منتصف الجسر اللعين، ركنت دراجتي في مرأب زيب مارت، وأجبت على الاتصال، كانت ميليسا ويلكوكس هي المتصلة وكانت تبكي.

«لقد مات في طريقه إلى المستشفى يا تشارلي، لقد حاولوا إنعاشه بشتى الطرق، ولكن الاحتشاء كان قوياً للغاية، أنا آسفة، أنا آسفة جداً».

قلت لها إنني آسف أيضاً. نظرت إلى نافذة زيب مارت، لم تتغير اللافتة: صحن ساخن من أفضل دجاج مقلي على وجه الأرض. ترقرقت عيناي بالدمع، وتشوشت الكلمات أمامي. رأتني السيدة زيبي وخرجت. «هل كل شيء على ما يرام يا تشولي؟»

قلت لها: «في الواقع لا».

لم يكن هناك جدوى من الذهاب إلى المستشفى الآن، عدت أدراجي عبر الجسر، واتجهت إلى شارع سيكامور. كنت محبطاً جداً لدرجة أنني لم أستطع القيادة وخصوصاً على ذلك الانحدار. ركنت دراجتي أمام منزلنا الذي كان فارغاً، وسيبقى فارغاً إلى أن يعود أبي. في غضون ذلك أدركت أن هناك كلبة تحتاج إليّ، اعتقدت أنها أصبحت كلبتي فعلاً.

6

حين عدت إلى منزل السيد بوديتش أمضيت بعض الوقت في تربيت رأس رادار. بكيت وأنا أفعل ذلك بسبب الصدمة، ولأن الحقيقة بدأت ترسي أعمدتها: حلّ فراغ في قلبي كان صديقي يملؤه، ربما هدّأها التربيت كما هدّأني أنا الآخر لأنني بدأت بالتفكير. عاودت الاتصال بميليسا، وسألتها إن كانوا سيشرّحون الجثة، فقالت لي إنهم لن يقوموا بذلك لأنه لم يمت من دون رقابة وكان السبب واضحاً.

«سيكتب المحقق شهادة وفاة، ولكنه سيحتاج إلى ورقة إثبات هوية، هل محفظته معك؟».

كانت معي محفظة في الواقع، ولكنها لم تكن تلك المحفظة البنية اللون التي كان يحملها في جيبه، بل المحفظة السوداء التي وجدتها تحت السرير، ولكنني لم أقل هذا لميليسا، اكتفيت بالقول لها إنها معي، فقالت إنه لا داعي للعجلة فنحن نعرفه.

بدأت أشكك في صحة هذه الحقيقة.

بحثت على غوغل عن رقم ليون برادوك، واتصلت به. كانت المحادثة مقتضبة، حيث أخبرني برادوك أن كل معاملات السيد بوديتش منجزة لأنه توقع أنه لن يعيش طويلاً.

«قال إنه لم يرد شراء ثمار صلبة وينتظرها كي تنضج، اعتقدت أن هذا تفكير مثير للاهتمام».

قلت لنفسي: السرطان هو السبب الذي دفعه لتسوية معاملاته وليس الذبحة القلبية.

سألته: «هل أتى إلى مكتبك؟».

«أجل في مطلع هذا الشهر».

بمعنى آخر: كنت في المدرسة ولم يخبرني شيئاً بخصوص هذا الموضوع.

«أراهن أنه أخذ يوبر».

«ماذا تفضّلت؟».

«لا شيء، إن ميليسا -معالجته الفيزيائية- قالت إن شخصاً، ما وأعتقد أنه المحقق في أسباب الوفيات، سيحتاج إلى هوية من أجل شهادة الوفاة».

«أجل، أجل إنه إجراء روتيني، إذا أخذتها إلى مكتب استقبال المستشفى سيصورون نسخة عنها، تستطيع أخذ رخصة القيادة إذا كانت لديه واحدة، حتّى وإن كانت منتهية الصلاحية، أو تستطيع أخذ أي شيء عليه صورة. لا داعيَ للعجلة، فسيبعثون الجثة إلى دار الجنائز من دونها، لا أعتقد أنك تملك فكرة عن أي دار جنائز...».

قلت له: «كروسلاند»، في تلك الدار دفنت أمي، «تقع هنا في سينتري».

«ممتاز، ممتاز، سأتولى أمر النفقات. لقد وضع بعض المال في حساب ضمان في حال حدوث مثل هذه النهاية الأليمة، أخبرني من فضلك

عن الإجراءات ولعل والديك سيتكفلان بالأمر، سأحتاج لرؤيتك بعدها يا سيد ريد».

«أنا؟ لماذا؟».

«سأخبرك حين أراك، أعتقد أنها ستكون محادثة جيدة».

7

وضّبت طعام رادار وطبقها وأدويتها، فما كنت، بأي شكل من الأشكال، لأتركها في المنزل تنتظر سيدها ليعود من المكان الذي رحل إليه. حزمت اللجام على الطوق ونزلنا التلّ، نزلتْ ببطء ولكن بثبات، وصعدتْ درج الشرفة من دون معاناة. أصبحت تعرف المكان جيداً، واتجهت فوراً إلى وعاء المياه، ثمّ تمددت على السجادة، وخلدت إلى النوم.

بعد الظهر، عاد أبي إلى المنزل، ولا أدري ماذا قرأ على وجهي، ولكنه نظر إليّ نظرة واحدة، ثمّ عانقني بشدة. عاودت البكاء بلوعة، وانهمرت دموعي بغزارة هذه المرة. أمسك برقبتي، وهزني وكأنني فتى صغير، وهذا ما جعلني أبكي أكثر.

حين كففت عن البكاء سألني إن كنت جائعاً، فأجبته أجل، خفق ست بيضات، وأضاف إليها بعض البصل والفليفلة. أكلنا وأخبرته بما حصل، ولكنني أخفيت عنه أحداثاً كثيرة: المسدس والأصوات في المستودع ودلو الذهب في الخزنة، ولم أرِه حلقة المفاتيح أيضاً. فكّرت في أن أعترف له بكل شيء قريباً، لأنّه قد يلومني على تكتمي هذا، ولكنني كنت سأبقي التفاصيل المجنونة لنفسي إلى أن أستمع إلى ذلك الشريط.

أريته المحفظة، وكان هناك في قسم المال فواتير من فئة الخمسة دولارات من نوع لم يسبق لي أن رأيته. قال أبي إنها شهادات فضية، لم تكن نادرة للغاية فقط، ولكنها كانت عريقة كعراقة تلفاز السيد بوديتش وفرنه،

كما كان هناك ثلاث وثائق ثبوتية: بطاقة ضمان اجتماعي مكتوبة باسم هاورد أي. بوديتش، وبطاقة تعريف تفصح أن هاورد أي. بوديتش كان عضواً في اتحاد الحطابين الأميركيين، ورخصة قيادة.

نظرت إلى صورة بطاقة اتحاد الحطابين الأميركيين بإعجاب؛ بدا السيد بوديتش بعمر الخامسة والثلاثين تقريباً وليس أكثر من أربعين. كان الشعر الأحمر يعلو رأسه، وكان مصففاً بطريقة أنيقة، وكانت خصلاته متموجة. وكان يضحك بطريقة لم يسبق لي أن رأيتها. لقد رأيت ابتسامات طفيفة وابتسامة عريضة أو الاثنتين، ولكنني لم أرَ ضحكة لا تخفي الهموم كهذه، كان يرتدي قميصاً مخططاً وكان يظهر بهيئة الحطابين من دون شك.

قال لي قبل فترة: أنا حطاب بسيط، يذكر الحطابون كثيراً في الحكايات الخيالية.

سألني أبي: «هذا أمر جيد للغاية».

رفعت رأسي عن البطاقة التي كنت أحملها.

«ماذا؟».

«هذه».

مرر لي رخصة القيادة التي كانت عليها صورة السيد بوديتش وهو في الستينات من عمره. لقد حافظ شعره على بعض خصلاته الحمراء، ولكنها كانت قد بدأت بالتلاشي وتقاوم الخصل البيضاء، ولكن من دون فائدة. كانت الرخصة صالحة للعام 1996 وفقاً لما كان مطبوعاً تحت اسمه. تحقق أبي من الإنترنت، فوجد أن السيد بوديتش كان يملك سيارة (في مكان ما)، ولكنه لم يحمل رخصة قيادة صالحة في إيلينوي... بخلاف ما أشارت إليه هذه الرخصة، أعتقد أن السيد هاينريك كان يعرف شخصاً يستطيع تزوير رخص القيادة.

سألته: «لماذا؟ لماذا فعل هذا؟».

«ربما لأسباب عديدة، ولكنني أعتقد أنه كان يعرف أن وثيقة الوفاة لا يمكن أن تُستصدر من دون أوراق ثبوتية»، أشاح أبي بوجهه، ليس استنكاراً بل إعجاباً، «تشارلي هذه الوثيقة هي ضمانته لاستخراج وثيقة وفاة».

«ماذا علينا أن نفعل بها؟».

«سنستخدم هذه الوثيقة. من المؤكد أنه كانت لديه أسرار، ولكنني لا أعتقد أنه سرق بنوكاً في أركنساس، أو أطلق النار على حانة في ناشفيل. عاملك وكلبته بطريقة جيدة جداً، وهذا يكفيني. أعتقد أنه يجب أن يدفن مع أسراره الصغيرة، إلا إذا كان محاميه على علم بها، هل لديك رأي آخر؟».

«لا». ما كنت أفكّر فيه هو أنه كان يملك أسراراً، ولكنها لم تكن صغيرة، إلا إذا كنتم تعتبرون الثروة الذهبية أمراً صغيراً. وكان هناك شيء في المستودع أو كان موجوداً قبل أن يطلق النار عليه.

8

خططنا ليجري دفن هاورد أدريان بوديتش بعد يومين أي الخميس الواقع في السادس والعشرين من أيلول عام 2013. تمت مراسم العزاء في دار الجنائز كروسلاند ودُفن في مقبرة سينتريز ريست حيث دفنت أمي. ألقت الموقرة أليس باركر خطبة غير متعصبة لطائفة معينة بناء على طلب أبي. لقد حضرت في جنازة أمي أيضاً، وأوجزت بالكلام، ولكن مع هذا كان لديّ متسعاً من الوقت لأُفكر. فكرت قليلاً في الذهب، ولكن المستودع استولى على جلّ أفكاري. لقد أطلق النار على شيء هناك، وقد قتلته الحماسة بالمقابل، لقد استغرق هذا وقتاً، ولكنني متأكد أنه كان السبب الرئيسي.

حضر مراسم الدفن جورج ريد وتشارلز ريد وميليسا ويلكوكس والسيدة ألثيا ريتشلاند والمحامي ليون برادوك ورادار التي نامت خلال الجنازة وتكلمت لمرة واحدة فقط عند القبر. لقد نبحت أثناء إنزال النعش إلى مكان الدفن. أنا واثق أن هذا يبدو عاطفياً ولا يصدق، وليس لديّ ما يثبت ذلك سوى كلمتي.

عانقتني ميليسا، وقبّلت وجنتي، وطلبت مني أن أتصل بها إذا أردت أحداً أتحدث إليه، فقلت لها إنني سأفعل ذلك.

عدت إلى المرأب مع أبي والمحامي، ومشت رادار ببطء بالقرب مني. ركن برادوك سيارته اللينكولن قرب سيارتنا المتواضعة من نوع شيفي كابريس. كان هناك مقعد قريب مظلل بشجرة بلوط تميل أوراقها إلى اللون الذهبي. سألني السيد برادوك: «لعل بوسعنا أن نجلس هناك للحظات؟ عليّ أن أُخبرك بشيء مهم للغاية».

قلت له: «انتظر، وتابع السير». ركّزت عينيّ على السيدة ريتشلاند التي أخذت وضعية المراقبة كعادتها على شارع سيكامور، وحين رأت أننا كنا نتجه إلى سيارتينا -أو نبدو كذلك- استقلت سيارتها وغادرت.

قلت له: «الآن نستطيع الجلوس».

قال برادوك: «أفهم أن هذه السيدة متلصصة، هل كانت تعرفه؟».

«لا، ولكن السيد بوديتش قال إنها متلصصة وكان محقاً».

جلسنا على المقعد، ووضع السيد برادوك حقيبته على حضنه ثمّ فتحها: «قلت لك إننا سنحظى بمحادثة جيدة وأعتقد أنك ستوافقني الرأي حين تسمع ما سأخبرك به». تناول ملفاً كما تناول كدسة أوراق يجمعها مشبك ذهبي، وكُتب أعلى الورقة الأولى: الوصية والشهادة الأخيرة.

بدأ أبي بالضحك وسأل: «يا إلهي، هل ترك شيئاً لتشارلي؟».

قال برادوك: «ليس تماماً، لقد ترك كل شيء لتشارلي».

تفوهت بأول شيء خطر في بالي، ولم يكن مهذباً للغاية: «أنت تمزح؟».

ابتسم برادوك، وأشاح بوجهه وقال: «إن هذا في قاموس المحاماة نولوم كاكاس ستاتوم؛ أي موقف لا يمكن المزاح فيه. لقد ترك لك المنزل والأرض التي شُيّد عليها، يا لها من أرض، يبلغ ثمنها ستمئة ألف على الأقل، وربما أكثر من ستمئة ألف وفقاً لأسعار عقارات سينتريز ريست. كما ترك لك كل شيء ضمن المنزل بالإضافة إلى سيارة موجودة في مخزن في بلدة كاربينترفيل مع الكلبة بالطبع»، انحنى وربت رأس رادار، رفعت رأسها قليلاً، ثمّ أعادته إلى كتفها.

سأل أبي: «هل هذا صحيح فعلاً؟».

أجابه برادوك: «المحامون لا يكذبون» ثمّ فكّر في ما قاله وشرح: «على الأقل في مثل هذه الأمور».

«أليس لديه أقارب قد يطعنون بهذه الوصية؟».

«سنكتشف هذا حين تصدق الوصية، ولكنه قال إن لا أقارب له».

سألته: «هل... هل لا يزال يسمح لي بأن أدخل إلى هناك؟ أقصد أن لديّ أشياء كثيرة هناك. إن معظمها ثياب ولكن... إممم...» لم أستطع أن أتذكر ماذا تركت في المنزل رقم 1، كل ما أستطيع التفكير فيه هو ما فعله السيد بوديتش في ذلك اليوم من أوائل الشهر حين كنت في المدرسة. لعله غيّر مسار حياتي بينما كنت أخضع لامتحان تاريخ أو أتدرب في النادي الرياضي. لم أفكّر في الذهب فقط حينها أو في المستودع أو في المسدس أو في شريط التسجيل، كنت أحاول أن أتقبّل فكرة أنني أصبحت (أو أنني سأصبح قريباً) مالك الأرض أعلى تل شارع سيكامور، ولماذا؟ لأنني سمعت

في أحد مساءات نيسان الباردة نباح رادار في الشرفة الخلفية للمنزل الذي كان الأولاد يطلقون عليه البيت المسكون.

كان المحامي يتحدث إليّ في تلك في الأثناء، وطلبت منه أن يعيد كلامه.

«بالطبع، بإمكانك الدخول فأنت تمتلكه الآن بكل ما فيه، بالأحرى ستصبح مالكه حين تُصدّق الوصية على الأقل».

أعاد الوصية إلى الملف، وأعاد الملف بدوره إلى الحقيبة، وأغلقها ثمّ نهض. تناول من جيبه بطاقته، وقدّمها إلى والدي، ولعله تذكر أن أبي ليس الوريث الشرعي لأرض قيمة (قيمة للغاية) فأعطاني بطاقة أخرى.

«اتصلا بي إذا خطرت لكما أيّ أسئلة، وسأتواصل معكما بالطبع. سأطلب الاستعجال بتصديق الوصية، ولكنني أظن أن الأمر سيستغرق ستة أشهر، تهانينا أيها الشاب».

صافحناه، وراقبناه وهو يستقل سيارته، لا يلجأ أبي للشتائم كثيراً (على عكس السيد بوديتش الذي كان يلحق كلمة اللعنة بعبارة مرر لي الملح). ولكن بينما كنا نجلس على المقعد والصدمة تعتلي وجهينا على غير عادته قال: «سحقاً!»

فعقبت: «هذا صحيح».

9

حين وصلنا إلى المنزل، تناول والدي زجاجتي صودا من الثلاجة، تبادلنا نخباً وقال: «كيف تشعر يا تشارلي؟».

«لا أعلم، لا أستطيع استيعاب الأمر».

«أتعتقد أنه يملك شيئاً في البنك أم استنزفت المستشفى كل ما لديه؟».

«لا أعلم»، لم يكن يملك كثيراً في سينتريز أي ما يعادل بضعة آلاف، ولكن كان هناك دلو من الذهب في الطابق العلوي وربما هناك مزيد في المستودع بالإضافة إلى ذلك الشيء المجهول الذي كان موجوداً فيه.

قال أبي: «لا يهم هذا، إن ذلك العقار ذهبي».

«ذهبي، هذا صحيح».

«ستكون نفقات دراستك الجامعية مؤمنة»، تنهد مطولاً، وزم شفتيه كي يصدر صوت هووو: «أشعر وكأن حملاً كبيراً قد أزيل عن كاهلي».

قلت له: «هذا إن بعنا العقار».

نظر إليّ باستغراب وقال: «هل تقول لي إنك تريد الاحتفاظ به؟ وتتشبه بنورمان بيتس وتعيش في البيت المسكون؟».

«لم يعد يشبه البيت المسكون يا أبي».

«أعلم هذا، أعلم هذا. لقد رتبته جيداً».

«كان لديّ كثير من الأعمال يفترض بي القيام بها قبل حلول الشتاء».

لا يزال ينظر إليّ باستغراب؛ أحنى رأسه وقطّب حاجبيه قليلاً: «إن الأرض هي الثمينة يا بطل وليس المنزل».

أردت أن أجادله-فقد أرعبتني فكرة التخلص من المنزل رقم 1 على شارع سيكامور، ليس بسبب الأسرار الكامنة فيه بل لأنه يملك أشياء كثيرة من ذات السيد بوديتش- ولكنني تمنعت عن ذلك، فلم يكن هناك مغزى من الجدال كما لم يكن هناك مال لطلاء المنزل بأكمله على أيّ حال إلى أن

تُصدق الوصية، ولم يكن هناك وسيلة لتحويل الذهب إلى مال. أنهيت شرابي وقلت: «أريد أن أذهب إلى هناك لأحضر ثيابي، هل تستطيع رادار البقاء معك هنا؟».

«بالطبع، أعتقد أنها ستمكث هنا من الآن فصاعداً، أليس كذلك؟ على الأقل إلى حين...» لم ينهِ كلامه، واكتفى برفع كتفيه.

قلت له: «بالطبع، إلى ذلك الحين».

10

أول ما لاحظته هو أن البوابة كانت مفتوحة، تذكرت أنني أغلقتها، ولكنني لم أكن واثقاً. جلت حول المنزل، وصعدت درج الشرفة الخلفية، ووقفت على الدرجة الثانية، رأيت باب المطبخ مفتوحاً وكنت واثقاً من أنني أوصدته، حيث كان هناك أشياء مكان القفل الذي كان مخلوعاً إلى حدّ ما من مقبض الباب. لم أفكر في احتمال أن أجد المقتحم، كائناً من كان، في المنزل وللمرة الثانية اليوم. بدوت مصعوقاً لدرجة أنني لم أستطع التفكير، إن الشيء الوحيد الذي تذكرته هو أنني سررت لأنني تركت رادار في منزلنا، فقد كانت مسنة وضعيفة للغاية.

الفصل العاشر

دمار- السيدة ريتشلاند- لصوص النعوات- قصة الشريط-

داخل المستودع- متابعة قصة الشريط.

1

كانت كل خزائن المطبخ مفتوحة، والأوعية والعلب متناثرة على الأرض. يا له من فطور! كان الموقد مُزاحاً عن الجدار كما كان باب الفرن

مفتوحاً، كما كانت محتويات العلب - السكر والطحين والقهوة والبسكويت- مرمية على المجلى، ولكن العلبة التي وضع فيها المال كانت خالية، أول فكرة مفهومة خطرت في بالي كانت: لم يحصل عليه ذلك اللعين؛ كنت قد وضعت المال (وحبات الذهب الصغيرة) في الخزنة منذ أشهر. في غرفة المعيشة كان السرير المفروش -الذي عاد أريكة الآن لأن السيد بوديتش لم يعد يحتاج إليه- مقلوباً وكانت الوسائد ممزقة، كما كان تنجيد كرسي السيد بوديتش المريح ممزقاً هو الآخر، وكانت حشوة الفرش متناثرة في كل مكان.

لم يكن الطابق العلوي أفضل حالاً، لم أحتج إلى فتح الدرج كي أحضر ثيابي لأنها كانت متناثرة في كل أرجاء الغرفة التي كنت أقطنها، ولم تكن فرشتي ووسادتي أفضل حالاً من سائر الفرش والوسائد. كان الحال مشابهاً في غرفة النوم الأساسية: ورق الجدران ممزق وملقى على الأرض، وباب الخزانة مفتوح، والثياب مكومة على الأرض (كانت جيوب البناطيل متدلية إلى الخارج) والخزنة مكشوفة، وتظهر آثار خدش قرب القفل، والكثير منها على أزرار الشيفرة، ولكن الخزنة قاومت محاولات اللص لاقتحامها. ولأتأكد تماماً أدخلت الشيفرة وفتحتها، وتأكدت من أن كل شيء فيها، أغلقتها وأدرت القفل. نزلت إلى الطابق السفلي، جلست على الأريكة التي اعتاد السيد بوديتش أن ينام عليها، واتصلت بالطوارئ لثالث مرة في تلك السنة، ثمّ اتصلت بأبي.

2

لاحظت أن عليّ القيام بشيء قبل أن يأتي أبي وقبل أن تصل الشرطة بالتأكيد، إذا كنت عازماً على الكذب في المطاف الأول، فيجب على الكذبة أن تكون قابلة للتصديق. تدبرت ذلك الأمر، وخرجت لأنتظر، صعد أبي التلّ، وركن سيارته عند الرصيف، لم يحضر رادار، وسررت لهذا لأن حال المنزل كان سيحزنها أكثر من حزنها على التغييرات الحديثة في حياتها.

جاب أبي الطابق السفلي وعاين الخراب، وبقيت في المطبخ لأجمع الأوعية والعلب وأضعها جانباً، وحين عاد ساعدني على إعادة الموقد إلى مكانه، «يا إلهي يا تشارلي! ما الذي حصل برأيك؟».

أجبته بأنني لا أعرف، ولكنني اعتقدت أنني كنت أعرف ما حصل ولكن لم أعرف الفاعل: «هل تستطيع أن تنتظر هنا إلى أن تصل الشرطة يا أبي؟ سأذهب إلى الطرف المقابل من الشارع، إن السيدة ريتشلاند في منزلها حيث رأيت سيارتها، أريد أن أتحدث إليها».

«المتلصصة؟».

«هي بعينها».

«ألا يجدر بك أن تترك هذا الأمر للشرطة؟».

«إذا رأت أي شيء فسأقول لهم أن يسألوها».

«لا أعتقد أنها رأت شيئاً حيث كانت معنا في الجنازة».

«مع ذلك أريد التحدث إليها، لعلها رأت شيئاً من قبل».

«كأفراد يعاينون المكان قبل الاقتحام؟».

«ربما».

لم يكن عليّ أن أطرق الباب حيث كانت في مكانها المعتاد في نهاية المرأب: «مرحباً يا تشارلي، هل كل شيء على ما يرام؟ كان أبوك في عجلة من أمره. أين الكلبة؟».

«في منزلي يا سيدة ريتشلاند. لقد اقتحم أحدهم منزل السيد بوديتش حين كنا في الجنازة، ودمر المكان تقريباً».

«يا إلهي! أحقاً هذا؟» وضعت يدها على صدرها.

«هل سبق لكِ أن رأيتِ أحداً في اليومين الأخيرين؟ هل رأيت أحداً غريباً عن الحي؟».

فكّرت قليلاً، ثمّ قالت: «يا إلهي! لا أعتقد، شاهدت شبان التوصيل الاعتياديين من قِبل مثل فيدرال إكسبرس ويو.بي.أس والرجل الذي يشذب مرج آل هوتونز... أعتقد أن هذا الأمر مكلف للغاية... ما حجم الضرر؟ هل سُرق أي شيء؟».

«لا أعرف حقاً، ستود الشرطة أن...».

«تتحدث إليّ؟ بالطبع! سأسر بذلك! ولكن ربما حدث الأمر عندما كنا في الجنازة...».

«أجل، أعرف ذلك، شكراً في جميع الأحوال». واستدرت لأغادر.

قالت: «كان هناك رجل غريب وصغير يبيع اشتراكات للمجلات، ولكن هذا كان قبل وفاة السيد بوديتش».

نظرت إليها مجدداً، وسألتها: «حقاً؟».

«أجل، لا بد من أنك كنت في المدرسة. كان يحمل حقيبة تشبه حقيبة سعاة البريد في الأيام الخوالي، وكان عليها ملصق خدمة اشتراكات أميركا. أعتقد أن هذا هو الشعار، كما كانت هناك عينات ضمنها -مثل تايم ونيوزويك وفوغ ومجلات أخرى. قلت له لا أريد أيّ مجلات، لأنني أقرأ كل شيء على الإنترنت. إنها وسيلة أكثر سهولة، أليس كذلك؟ كما أنها صديقة للبيئة، وتقلل الصفحات التي يتم التخلص منها في مكبات القمامة».

لم أكن مهتماً بالفوائد البيئية للقراءة على الإنترنت: «هل توجّه إلى منازل أخرى في الشارع؟» واعتقدت أنها الشخص الوحيد الذي بإمكانه الإجابة عن هذا السؤال.

«لقد توّجه إلى بعض منها، أعتقد أنه دخل إلى منزل السيد بوديتش، ولكن ذلك الرجل العجوز لم يخرج إلى الباب، لعله كان مريضاً للغاية أو... لا أعتقد أنه كان يفضل الزوار كثيراً أليس كذلك؟ سررت جداً لأنك صادقته. من المحزن أنه توفي. يقولون إن الحيوانات تذهب إلى الطرف المقابل من جسر قوس قزح حين تموت. أحب هذه الفرضية، ألا تحبها أنت؟».

«أجل، إنها فكرة لطيفة». كنت أكرهها للغاية.

«أعتقد أن كلبه سيعبر قوس قزح قريباً، لقد أصبح ذلك المسكين نحيلاً وأشيب، هل ستحتفظ به؟».

«رادار؟ بالطبع»، لم أتكبد عناء أن أقول لها إن رادار كانت أنثى: «هل باستطاعتك وصف ذلك البائع؟».

«أوه، رجل غريب وصغير يمشي ويتكلم بطريقة غريبة. كان يمشي بعرجة صغيرة وكأنه طفل، وحين قلت له إنني لا أريد أيّ مجلات أجابني: رايتو وكأنه قد غيّر لكنته ليبدو من إنكلترا، ولكنه بدا أمريكياً مثلي ومثلك، هل تعتقد أنه الشخص الذي اقتحم المنزل؟ لم يبدُ خطيراً على الإطلاق، كان رجلاً غريباً وصغيراً ذا لكنة غريبة ومضحكة، قال ها-ها أكثر من مرة».

«ها-ها؟»

«أجل، لم يضحك فعلاً، بل قال ها-ها، هناك حسم سبعين بالمئة عن السعر الأصلي يا سيدتي، ها-ها، وكان رجلاً صغيراً بطولي تقريباً، هل تعتقد أنه الفاعل؟».

أجبتها: «لا أُرجح ذلك».

«تذكرت أنه كان يعتمر قبعة وايت سوكس وبنطالاً قصيراً، وكان هناك دائرة صغيرة على المقدمة».

كنت مستعداً لأبدأ بحملة تنظيف عالمية، ولكن أبي قال إن علينا انتظار الشرطة: «لا بد أنهم سيودون توثيق الموقع».

لقد وصلوا بعد عشر دقائق تقريباً في سيارة دورية وسيارة سيدان من دون لوحات تسجيل. كان شعر سائق السيدان أشيب وكان بديناً، عرّف عن نفسه وقال إنه المحقق غليسون، أما الشرطيان اللذان لم يرتديا الزي الرسمي فكانا ويتمارك وكوبر. حمل ويتمارك كاميرا رقمية أما كوبر فحمل حقيبة صغيرة تشبه علبة الغداء واعتقدت أنها كانت تحوي معدات جمع الأدلة.

عاين المحقق غليسون الضرر ولم يبدُ مهتماً، وكان يُبعد معطفه بين الحين والآخر كي يرفع بنطاله، اعتقدت أنه لم تكن تفصله سنوات كثيرة عن سن يحصل فيه على ساعة ذهبية أو شارة في حفل تقاعده، ولكنه في تلك الأثناء كان على رأس عمله.

أشار لويتمارك أن يصوّر مقطع فيديو لغرفة المعيشة، وأرسل كوبر إلى الطابق العلوي. طرح بعض الأسئلة (ووجهها إلى أبي مع أنني كنت من بلّغ عن الاقتحام) وسجّل أجوبتنا على كراسة صغيرة، أغلق الكراسة، ووضعها في الجيب الداخلي لمعطفه ورفع بنطاله: «إنهم لصوص النعوات، لقد شهدت هذه الحوادث مئات المرات».

سألته: «ما ماهيتهم؟». نظرت إلى أبي، ولاحظت أنه كان يعرف بالفعل، لعله كان يعرف من اللحظة التي دخل فيها إلى المنزل وجال فيه.

«متى أعلن عن موته في الصحف؟».

قلت له: «البارحة، بعثت معالجته الفيزيائية الخبر بعد وفاته بوقت قليل، وساعدتها في إملاء المعلومات».

أومأ غليسون برأسه وقال: «أجل، أجل، لقد شهدت هذه الحادثة مئات المرات، يقرأ هؤلاء الوحوش الصحيفة ويعرفون وقت الجنازة. ينتظرون حتى يفرغ المنزل تماماً، فيقتحمون المكان، ويأخذون أي شيء يعتقدون أنه قيّم. عليك أن تتفحص الأرجاء، وتعد لائحة بالمفقودات، وتحضرها إلى المركز».

سأله أبي: «ماذا عن البصمات؟».

رفع غليسون كتفيه وقال: «لا بد أنهم كانوا يضعون قفازات، في هذه الأيام، يتابع الجميع برامج الشرطة ولا سيما الجناة، وفي مثل هذه القضايا لا نقوم عادة...».

«أيها المحقق!» كان هذا صوت كوبر من الطابق العلوي، «هناك خزنة في غرفة النوم الرئيسة».

قال غليسون: «لقد اختلف الموضوع الآن».

صعدنا إلى الطابق العلوي، وتقدم غليسون الطريق، صعد ببطء وأسند نفسه إلى الدرابزين، وحين وصل أخيراً كان يلهث وكان وجهه محمراً. رفع بنطاله، ودخل غرفة السيد بوديتش، وانحنى لينظر إلى الخزنة: «أها، لقد حاول أحدهم وفشل».

أتى ويتمارك -الذي كان المصور المقيم للقسم- وبدأ بتصوير مقاطع الفيديو.

سأل كوبر: «هل نمسح البصمات أيها المحقق؟». كان يفتح حقيبته بالفعل.

«لعل الحظ سيحالفنا هنا» هكذا قال لنا المحقق (أستخدم الكلمة بتردد)، «لعل الرجل نزع قفازه كي يستطيع إدخال الرمز حين اكتشف أنه لن يستطيع فتحها بالقوة».

وضع كوبر بودرة سوداء على مقدمة الخزنة، بقي القليل منها على المقدمة ووقع بعضها على الأرضية، لقد أضاف فوضى أخرى لأنظفها. نظر كوبر إلى ما صنعته يداه، ثمّ تنحى جانباً كي يلقي غليسون نظرة.

قال: «لقد مسحت تماماً» ثمّ قوّم ظهره ورفع بنطاله، بالطبع كانت ممسوحة تماماً -لقد فعلت هذا بنفسي قبل أن أتصل بالطوارئ، ربما ترك السارق بصماته، ولكن كان يجب مسحها لأن بصماتي كانت على الخزنة أيضاً.

«لا أعتقد أنك تعرف الشيفرة أليس كذلك؟». كان هذا السؤال موجهاً إلى أبي أيضاً.

«لم يسبق لي أن دخلت الغرفة قبل اليوم. اسأل تشارلي، فقد كان راعي الرجل العجوز».

راعي، كانت الكلمة دقيقة إلى حدّ ما، ولكنني لم أتعود عليها بعد، ربما لأنها كلمة تنطبق على البالغين فقط.

قلت له: «ليست لديّ فكرة».

«هاه»، انحنى غليسون ليعاين الخزنة مجدداً، ولكن بشكل سريع، وكأنها لم تعد تهمه. «على الوارث الشرعي لهذه الخزنة أن يجلب حداداً إلى هنا، وإن لم ينفع الحداد عليه أن يستعين بشخص يجيد استخدام النيتروغليسرين، هناك بعض منهم في سجن ستيتفيل»، ضحك وتابع: «ولكن لا أعتقد أن فيها الكثير، ربما بعض الجرائد القديمة وبعض أزرار البذلات، هل تتذكر المشاجرة الكبيرة حول خزنة آل كابوني؟ لا بد من أن جيرالدو ريفيرا ظهر بمظهر الأبله بسببها. حسناً، تعال إلى المركز لنعد تقريراً كاملاً يا سيد ريد».

عاود التحدث إلى أبي. أحياناً أفهم تماماً سبب غضب النساء.

أمضيت الليلة في غرفة الضيوف الصغيرة في الطابق الأرضي، كانت غرفة مكتب أمي بالإضافة إلى أنها كانت غرفة الحكايات عندما كانت على قيد الحياة. وظلت على هذه الهيئة طوال سنوات إدمان أبي على الكحول، وكأنها متحف صغير، وحين أقلع عن الكحول حوّلها أبي إلى غرفة نوم (بمساعدتي). كان ليندي يمكث فيها أحياناً كما مكث فيها مرات عدة بعض أصدقاء أبي المقلعين عن الكحول الذين كان عليه أن يعمل معهم لأن هذا هو نظام المنظمة. استخدمتها يوم جنازة السيد بوديتش ويوم الاقتحام كي لا أجبر رادار على صعود الدرج، فرشت لها غطاء، وخلدتْ للنوم حالاً، بعد أن انكمشت على نفسها. لقد بقيتُ مستيقظاً لفترة أطول لأن السرير كان قصيراً على شاب طوله ست أقدام وأربعة إنشات بالإضافة إلى أن بالي كان مشغولاً للغاية.

قبل أن أطفئ الأنوار بحثت عن خدمة اشتراكات أميركا، كانت هناك شركة شبيهة، ولكن اسمها كان يبدأ بخدمات أي بصيغة الجمع، كان الفرق حرفاً واحداً بالطبع، ولعل السيدة ريتشلاند ارتكبت خطأ فيه. ولكن الشركة التي عثرت عليها كانت تعمل على الإنترنت، ومن دون مندوبين يطرقون الأبواب. فكّرت في احتمال أن يكون هذا الرجل لص نعوات يعاين الحي... ولكنه احتمال ضعيف لأنه جال الحي قبل أن يتوفى السيد بوديتش.

اعتقدت أن بائع المجلات كان قاتل السيد هاينريك، وبالمناسبة كيف قُتل هاينريك؟ لم تذكر الصحيفة هذا. هل يُحتمل أن يكون الرجل الصغير الذي يقول رايتو وها-ها قد عذّبه قبل أن يقتله؟ كي يحصل على اسم الرجل الذي معه دلو الذهب؟

تقلبت يميناً ويساراً، كانت قدماي خارج السرير ووضعت الغطاء فوقهما.

أو لعل التعذيب لم يكن ضرورياً؟ لعل السيد رايتو قال لهاينريك إنه لن يُقتل إذا باح بالاسم.

قلبت من الجانب الأيسر إلى الجانب الأيمن، ورتبت الغطاء مجدداً. رفعت رادار رأسها، ونبحت قليلاً، ثمّ عاودت النوم.

وهناك سؤال آخر: هل تكلم المحقق غليسون مع السيدة ريتشلاند؟ وإذا تكلم معها هل كان سيستشف أن السيد بوديتش قد استهدف قبل أن يموت؟ أم سيعتقد أن الرجل الصغير كان يستطلع في الحي أهدافاً محتملة؟ ربما كان سيعتقد أن الرجل الصغير كان بائعاً عادياً ودوداً، وهذا في حال تكبد عناء السؤال في المقام الأول.

إليكم السؤال الأهم: إذا كان السيد رايتو ها-ها يلحق الذهب فهل كان سيعود؟

تقلبت يميناً ويساراً ويساراً ويميناً وعدّلت الغطاء.

في مرحلة ما فضّلت الاستماع إلى شريط السيد بوديتش في أقرب وقت ممكن، وبعدها خلدت إلى النوم أخيراً. حلمت أن الرجل الصغير ذا العرجة كان يخنقني وحين استيقظت في صباح اليوم التالي كان الغطاء والبطانية ملتصقين برقبتي.

5

يوم الجمعة، ذهبت إلى المدرسة كي لا تنسى السيدة سيلفيوس كيف أبدو. ولكنني قلت لأبي إنني سأذهب يوم السبت إلى المنزل رقم 1 كي أبدأ بتنظيف المكان، فعرض عليّ أن يساعدني.

«لا عليك، ابقَ هنا مع رادار واسترح قليلاً، تمتع بيوم عطلتك».

«هل أنت واثق؟ لا بد من أن لديك ذكريات كثيرة في ذلك المكان».

«أنا واثق».

«حسناً، ولكن اتصل بي حين تكتئب أو تُذعر».

«وهو كذلك».

«من المؤسف أنه لم يخبرك بشيفرة تلك الخزنة، سيتوجب علينا فعلاً أن نستعين بأحد ليشقها كي نرى ما في داخلها، سأسأل في العمل في الأسبوع المقبل، لا بد من أن أحدهم لديه اتصالات مع شخص يتعامل بالنيترو ليس في السجن».

«حقاً؟».

«يملك محققو التأمينات اتصالات مع كل أنواع الأشخاص المشبوهين يا تشارلي، لعل غليسون محق، ولن نجد سوى إيصالات ضرائب قديمة -إذا افترضنا أن السيد بوديتش قد أكمل دفع أي منها مع أنني أشك في ذلك- وبعض أزرار البذلات ولكن لعل هناك بعض الأشياء التي تشرح لنا من كان تماماً».

قلت: «حسناً» وفكّرت في المسدس وشريط المسجلة. «فكّر في هذا الأمر ملياً ولا تعط رادار كثيراً من النقرشات».

«أحضر أدويتها».

قلت له: «أحضرتها بالفعل، إنها على المجلى في المطبخ».

«ممتاز يا عزيزي، اتصل بي إن احتجت شيئاً، سآتي راكضاً».

كان أبي رجلاً خيّراً وخصوصاً بعد أن أقلع عن الكحول. سبق لي أن قلت ذلك، ولكن الأمر يستحق الإعادة.

كان هناك شريط كتب عليه تحقيق للشرطة ممدود على السور، كان التحقيق (إن كان يستحق هذا الاسم في المطاف الأول) قد انتهى حين رحل غليسون ومرافقاه. ولكن، إلى أن نصلح قفل الباب الخلفي، اعتقدت أن عليّ إبقاء الشريط.

جلت حول المنزل، ولكن قبل أن أدخل، اتجهت إلى المستودع، ووقفت أمام الباب، لم أسمع أيّ أصوات -لا شطب ولا ارتطام ولا عويل، قلت لنفسي: لن تكون هناك أصوات لأن مصدر تلك الجلبة قد قُتل، كائناً من كان. طلقتان ناريتان وبوم-بوم، واختفت الأصوات. تناولت حلقة مفاتيحه، وفكّرت في تجريبها إلى أن لاءم أحدها القفل، ثمّ أعدت المفاتيح إلى جيبي، كنت سأستمع إلى الشريط أولاً وإن تبيّن أنه عبارة عن السيد بوديتش وهو يقول «مزرعة في خطر» أو «دراجة صنعت لراكبين» وهو منتشٍ بفعل الأوكسيكونتين، فسأكون قد وقعت في الفخ، ولكنني لم أصدق هذا. قال لي: كل ما ستحتاج إليه موجود تحت السرير أيضاً، وكان الشريط تحت السرير.

فتحت الخزنة وأخرجته. كان في مسجلة سوداء قديمة، لم تكن بِقِدم التلفاز، ولكنها أبعد ما يمكن عن أن تكون جديدة حيث إن التكنولوجيا قد تجاوزتها بمراحل. نزلت إلى المطبخ، ووضعت المسجلة على الطاولة، وكبست على زر التشغيل. لم يظهر شيء سوى صوت الكاسيت وهو يدور، بدأت أفكّر أن هذا رهان خاسر -أو شيء يشبه خزانة آل كابوني التي ذكرها غليسون- ثمّ لاحظت أن السيد بوديتش لم يلفه وحسب، وهذا وارد جداً لأنه كان يسجل أثناء إصابته بالذبحة القلبية. شعرت أن هذه الفكرة غريبة، فقد قال: هذا مؤلم للغاية! وكأنك تدمغني بالحديد الحامي!

كبست على زر إعادة لف الشريط من أوله، لف الشريط بالجهة المعاكسة لوقت طويل، وحين كبست زر التوقف كبست زر التشغيل مجدداً.

مرت لحظات من الصمت ثمّ طقة ثقيلة تلاها صوت تنفس حاد كنت أعرفه تمام المعرفة، بدأ السيد بوديتش بالكلام.

قلت إنني واثق من قدرتي على سرد هذه القصة، كما أنني واثق من أنه لن يصدقها أحد، وهنا ستبدأ شكوككم.

7

هل أجرى أبوك تحقيقاً عني يا تشارلي؟ لا بد من أنه فعل ذلك حيث إنني كنت سأفعل الشيء ذاته إن كنت مكانه، ولا بد من أنه يملك مصادر تفيده في ذلك بحكم عمله. إن فعل هذا، فلا بد أنه قد وجد شخصاً اسمه أدريان بوديتش -لعله اعتقد أنه والدي وعلى الأرجح اعتقد أنه جدي- اشترى الأرض التي شُيد عليها المنزل في العام 1920، لم يكن هذا الشخص أيا منهما. لقد كنت أنا، ولدت باسم أدريان هاورد بوديتش في العام 1894 وهذا يعني أنني أبلغ من العمر مئة وعشرين سنة. لقد انتهى بناء هذا المنزل في العام 1922 أو 1923، لا أستطيع التذكر بالضبط، وبالطبع المستودع أيضاً فلا يجدر بنا أن ننسى المستودع، لقد بني قبل المنزل وأنا من بناه بيدي.

إن هاورد بوديتش الذي تعرفه هو شخص يحب الانطواء على نفسه وعلى كلبته... يجب أن لا ننسى رادار، ولكن أدريان بوديتش والدي المزعوم كان متجولاً، كان المنزل رقم 1 على شارع سيكامور في سينتريز ريست منزله الرئيسي ولكنه كان يغيب عنه بقدر ما كان يسكن فيه. لاحظت التغييرات في البلدة كل مرة أعود فيها وكأنها سلسلة من الصور، وجدت هذا مبهراً، ولكنه يثبط العزيمة في الوقت نفسه، بدا الأمر وكأن أميركا تتجه في المسار الخطأ ولا تزال على هذا النحو، ولكن هذا ليس موضوعنا.

في العام 1969 عدت للمرة الأخيرةبصفتي أدريان بوديتش، وفي العام 1972 أي بعمر الثامنة والسبعين عينت راعياً اسمه جون مكيم -كان رجلاً ممتازاً ومسؤولاً وستجده في سجلات البلدة إذا بحثت عنه -وتوجهت

إلى آخر رحلة لي كنت قد خططت لها وكانت إلى مصر، ولكنني لم أرحل إلى هناك يا تشارلي. بعد مرور ثلاث سنوات أي في العام 1975 عدت بصفتي ابني، هاورد بوديتش الذي يبلغ من العمر أربعين عاماً، وكما زَعم كان هاورد يعيش خلف البحار مع والدته التي هجرت والده. لطالما أحببت ذلك التفصيل، إن الهجر وصف أدق من الطلاق والموت، بالإضافة إلى أنه عالم رائع ومزهو بالألوان، بعد أن مات أدريان بوديتش في مصر كما زعم. قررت العيش في منزل العائلة والبقاء هنا، لم يكن هناك شك في الملكية حيث إنني وضعت نفسي الوارث الشرعي. هذا كلام كبير أليس كذلك؟

قبل أن أُتابع أريد منك أن توقف الشريط، وتتجه إلى المستودع، بإمكانك أن تفتحه لأنك تملك مفاتيحي، أو هذا ما أتمناه على الأقل. لا يوجد هناك شيء يستطيع إيذاءك حيث إن الألواح عادت إلى مكانها الأساسي وفوقها قطع الطوب، كم كانت ثقيلة! ولكن خذ مسدسي معك إن كنت تريد والمصباح الموجود في خزائن المطبخ.. هناك مصباحان في المستودع، ولكنك ستحتاج إلى ذلك المصباح في جميع الأحوال وستعرف السبب. عاين ما عليك أن تعاينه، سيكون الشيء الذي سمعته أول مرة قد اختفى على الأرجح وبالكامل، ولكن بقايا الشيء الذي أرديته لا تزال هناك، أو معظمها على أي حال. وحين تقوم باستطلاع كامل، كما تعوّد أن يقول البريطانيون، عُد واستمع إلى البقية، افعل هذا الآن، ثق بي يا تشارلي فأنا أعتمد عليك.

8

ضغطت على زر الإيقاف، ولم آتِ بحركة لبرهة. لا شك في أنه كان مجنوناً مع أنه لم يبدُ كذلك. لقد كان ذهنه صاحياً حتى الرمق الأخير، حين اتصل بي وقال إنه أصيب بذبحة قلبية، لا شك في أن شيئاً كان في المستودع -أو كان موجوداً- ولا يمكن إنكار هذا، لقد سمعته أنا ورادار، وذهب السيد بوديتش وقتله، ولكن مئة وعشرون عاماً؟ لم يسبق لأحد أن عاش إلى هذه السن، ولعل النسبة كانت واحد إلى عشرة ملايين شخص، ولم يعد

أحد في عمر الأربعين ويتقمص شخصية ابنه، لم تحدث مثل هذه الأمور سوى في الحكايات الخيالية.

قلت: «حكايات خيالية» كنت متوتراً للغاية -ومذعوراً للغاية- لدرجة أنني خفت حين سمعت صوتي.

ثق بي يا تشارلي فأنا أعتمد عليك.

وقفت وشعرت أنني كنت في الخارج بنفسي، لا أعلم كيف أستطيع أن أصف هذا الأمر بشكل أدق، صعدت إلى الطابق العلوي، وفتحت الخزنة، وتناولت مسدس السيد بوديتش عيار 0.45، ما زال في القراب وما زال القراب ملحقاً بحزام الكونشو. فوضعته عليّ، وحزمت الأربطة فوق ركبتي. شعرت بالغرابة حين فعلت هذا وكأنني طفل صغير يلعب لعبة رعاة البقر، أما شخصيتي الخارجية فسرت عندما شعرت بهذا الثقل، وعرفت أن المسدس كان مذخراً.

كان المصباح جيداً، وكان طويلاً ودائرياً ويتسع لست بطاريات من نوع دي، شغلته لمرة واحدة كي أتحقق من فعاليته، ثمّ خرجت وقطعت المرج الخلفي لأصل إلى المستودع، قلت لنفسي: عليّ أن أشذّب هذا المرج مجدداً في أقرب وقت. كان قلبي ينبض بقوة وبسرعة، ولم يكن يوماً دافئاً في الحقيقة، ولكنني كنت أتصبب عرقاً، وأحسست بالعرق وهو يبلل وجنتي ورقبتي.

تناولت حلقة المفاتيح من جيبي وأوقعتها، انحنيت لأمسك بها، وضربت رأسي بباب المستودع. أمسكت بالحلقة، وبحثت بين المفاتيح؛ كان لأحدها رأس مستدير، وحفرت عليه كلمة ستيودبيكر؛ كنت أعرف مفتاحي البابين الخلفي والأمامي للمنزل، وكان هناك مفتاح صغير آخر، ولعله كان يفتح صندوق أمانات أو مفتاح صندوق إيداعات في البنك، وكان هناك مفتاح ييل

لقفل ييل الكبير الفضي الموجود على باب المستودع، وضعته في قاعدة القفل، ثمّ ركلت الباب بقدمي.

صرخت: «من هنا؟!»... ولكن بصوت منخفض لأن آخر شيء كنت أوده هو أن تسمعني السيدة ريتشلاند «إن كان هناك أحد هنا فليتراجع، فأنا مُسلّح!»

لم يكن هناك، ولكنني لم أبرح مكاني، وكنت أمسك بالمصباح والخوف يعتريني. من ماذا؟ من المجهول لأنه أكثر شيء مخيف في العالم.

تخيّلت السيد بوديتش وهو يقول: الوقت من ذهب يا تشارلي فتوقفْ عن إضاعته.

أجبرت نفسي على إدارة المفتاح، فتحت ذراع القفل، ونزعته، وفتحت مقبض الباب، وعلّقت القفل عليه. داعبت نسمة شعري، وفتحت الباب، فسمعت صرير المفصلات، كان المستودع مظلماً، بدا وكأن ضوء المحيط الخارجي يتسلل إلى هنا ويموت. قال في التسجيل أن هناك مصباحين على الرغم من عدم وجود خط كهرباء ممدود إلى المستودع. سلّطت المصباح الذي أحمله إلى يمين الباب ورأيت قاطع كهرباء، رفعته إلى الأعلى، فأنير مصباحان يعملان على البطارية، كل واحد منهما في جهة وكأنهما مصباحا طوارئ حين تنطفئ الكهرباء في مسرح المدرسة أو السينما. لقد أصدرا صوت همهمة ضعيفاً.

كانت الأرضية من الخشب وفي الزاوية اليسرى البعيدة كان هناك ثلاثة ألواح وضع على كل منها قطعة طوب لتثبتها في مكانها. أدرت المصباح إلى اليمين ورأيت شيئاً فظيعاً وغير متوقع لدرجة أنني لم أستوعبه في البداية، أردت أن أستدير وأُطلق ساقيّ للريح، ولكنني لم أستطع الحراك؛ فكّر جزء مني (على قدر ما استطعت التفكير في تلك اللحظة) أن هذه مزحة سوداوية فيها مخلوق من أفلام الرعب، مصنوع من اللاتكس والأسلاك.

استطعت رؤية بصيص ضوء ينبعث من رصاصة أصابت الجدار بعد أن اخترقت الشيء الذي كنت أنظر إليه.

كان يشبه الحشرات، ولكنه بحجم قط بالغ. كان ميتاً كما كانت قوائمه الكثيرة منتصبة، وكانت مطوية في المنتصف كالركب وكان شعر خشن يغطيها. كما كانت هناك عين سوداء تحدق ولا ترى. لقد أصابته إحدى رصاصات السيد بوديتش في معدته وكانت أحشاؤه المجهولة تتناثر حول معدته المفتوحة كالحلوى الغريبة، وكان هناك بخار ينبعث من أحشائه. وحين هبت نسمة أخرى عليّ (وما زلت متجمداً عند عتبة الباب وكانت يدي تتشبث بالمصباح) انبعث مزيد من البخار من رأس ذلك الشيء ومن المناطق التي لم يغطِها الدرع الممدد على ظهره. وقعت العين المحدقة وخلفت وراءها حجرة خالية، بدت وكأنها تحدق إليّ. صرخت قليلاً حيث اعتقدت أنه عاد إلى الحياة مجدداً، ولكن... كلا. كان ميتاً وكان يتحلل، وكان الهواء الدافئ يُسرّع هذه العملية.

أجبرت نفسي على الدخول، وأمسكت المصباح بيدي اليسرى، ووجهته إلى رأس الحشرة الميتة، وكان المسدس بيدي اليمنى، ولم أتذكر أنني حملته من قبل.

حين تقوم باستطلاع كامل كما اعتاد أن يقول البريطانيون.

أعتقد أنه كان يقصد حينها أن ألقي نظرة، لم أحبذ فكرة أن أبتعد عن الباب، ولكنني أرغمت نفسي على فعل ذلك، فعلتْ هذا شخصيتي الخارجية لأنه كان عليها أن تقوم باستطلاع كامل، أما شخصيتي الداخلية فكانت ترتعش من الذعر والذهول وعدم التصديق. اتجهت إلى الألواح التي تعلوها قطع الطوب، وفي طريقي إلى هناك ارتطمت قدمي بشيء، وحين وجهت نور المصباح الذي أحمله عليه صرخت، كانت قائمة حشرة أو بقايا رجل حيث تعرفت إليها بسبب الشعر الذي كان يعلوها، لم أصطدم فيها بقوة، فقد

كنت انتعل حذاء رياضياً، ولكنها انقسمت إلى قسمين، اعتقدت أنها كانت تنتمي للمخلوق الذي سمعت صوته في المرة الأولى، لقد مات هنا وهذا ما تبقى منه.

تخيّلت أبي وهو يقول: يا عزيزي تشارلي، إليك ساق! ويمد لي ساق دجاج مقلي. إنه الأفضل على وجه الأرض!

كنت على وشك التقيؤ، ووضعت راحة يدي على فمي كي تمر هذه اللحظة. إن فاحت رائحة نتنة من الحشرة الميتة بقوة كنت واثقاً من أنني لن أستطيع أن أكبح نفسي، ولكن تبيّن أن رائحتها خفيفة، ربما لأن التحلل تجاوز هذه المرحلة.

كانت الألواح وقطع الطوب تغطي ثقباً في الأرض يمتد على مساحة خمس أقدام، اعتقدت لوهلة أنه بئر بقي من السنين التي تسبق تمديد المياه الحكومية، ولكن حين وجهت نور المصباح بين لوحين، رأيت درجات حجرية قصيرة تلتف حول عمود مركزي، كان هناك أصوات زحف، وتذبذب، وصوت ثرثرة عميق في الظلام، بالإضافة إلى حركات خاطفة جمّدتني في مكاني، كان هناك مزيد من الحشرات... التي لم تكن ميتة، كانت تنحسر وتتراجع عن نور مصباحي، وعرفت ما كانت فجأة: صراصير، كان حجمها هائلاً، ولكنها كانت تتصرف كالصراصير حين توجه إليها الأنوار: الركض للنفاذ بحياتها.

لقد غطى السيد بوديتش الفتحة التي كانت تؤدي إلى مكان لا يعلم موقعه (أو ماهيته) إلا الله، ولكن إما لم ينجز المهمة على أكمل وجه -ولم تكن هذه عادته- وإما تمكنت الحشرات من ضرب أو تحريك أحد الألواح خلال فترة طويلة من الزمن أي منذ العام 1920 مثلاً؟ كان أبي سيضحك من هذا، لأنه لم يسبق له أن رأى صرصاراً بحجم قط من نوع توم.

جثوت على ركبتي، ووجهت نور المصباح بين الألواح، إذا كان هناك مزيد من الصراصير الكبيرة فقد اختفت، لم أرَ سوى تلك الدرجات التي تلتف بشكل لولبي إلى الأسفل. عندها خطرت لي فكرة، وحسبتها غريبة لبرهة، ولكنني لم أعدها غريبة على الإطلاق بعدها. كنت أنظر إلى نسخة السيد بوديتش من حكاية جاك ونبتة الفاصولياء. كان اتجاهها إلى الأسفل بدلاً من الأعلى، ولكن كان هناك ذهب في الطرف الآخر.

كنتُ واثقاً من هذا.

9

تراجعت ببطء، وأطفأت المصباحين اللذين يعملان على البطارية، ووجهت نور المصباح الذي أحمله للمرة الأخيرة إلى الشيء المستند إلى الجدار. كان البخار يتصاعد منه بكثافة الآن، كما انبعثت منه رائحة تشبه الحامض والنعناع. كان الدفء يحلله فعلاً.

أغلقت الباب، وأعدت القفل، وعدت إلى المنزل، أعدت المصباح إلى خزانة المطبخ والمسدس إلى الخزنة، ونظرت إلى دلو الذهب. فلم تتملكني رغبة اليوم كي أمرر يدي فيه. ماذا لو اجتزت كل الطريق المؤدي إلى الأسفل، وشعرت بجزء من رجل حشرة مشعرة؟

توجهت بصعوبة إلى الدرج قبل أن أفقد السيطرة على ساقي، وكان عليّ أن أتمسك بالدرابزين كي لا أسقط وأتدحرج. جلست على قمة الدرج، وكنت أرتعش من رأسي حتى أخمص قدمي. بعد دقيقة أو اثنتين استطعت أن أتمالك نفسي، وأنزل الدرج. تمسكت بالدرابزين بطريقة ذكرتني بالسيد بوديتش، وجلست بتثاقل إلى طاولة المطبخ، ونظرت إلى المسجلة. أراد جزء مني أن يخرج الشريط وينزع اللفائف ويلقيه في القمامة، ولكنني لم أفعل ذلك، ألم يكن بوسعي أن أفعل ذلك.

ثق بي يا تشارلي فأنا أعتمد عليك.

ضغطت زر التشغيل، وشعرت لوهلة بأن السيد بوديتش كان معي في الغرفة وهو يراقب مدى ذعري -وذهولي- ويريد مواساتي وإنقاذي من تذكر كيف وقعت عين تلك الحشرة، وخلّفت وراءها حجرة تحدق إليّ بغضب. نفعت هذه الطريقة قليلاً.

10

إنها صراصير فحسب، وليست خطرة، حيث يمكن أن تذعر من نور المصباح، إلا إذا خرجت راكضاً حين رأيت الصرصار الذي أطلقت النار عليه -ولكن هذا ليس من شيم الشاب الذي تعرفت إليه- فلا بد من أنك نظرت بين الألواح، ورأيت البئر والدرجات اللولبية المتجهة إلى الأسفل. تصعد بعض الصراصير إلى الأعلى حين يصبح الجو دافئاً. لا أعلم السبب، ولكن هواءنا يعتبر مميتاً بالنسبة إليها. في آخر سنتين تقريباً، لم أعد مبالياً بالمحافظة على الحاجز فوق البئر، لم أعد مبالياً بكثير من الأمور... لذا صعد بعض منها إلى الأعلى. لقد مرت سنوات طويلة منذ حدوث مثل هذا الشيء. لقد مات الصرصار الذي سمعته في الربيع من تلقاء نفسه، ولم يبقَ منه الآن سوى ساق وأحد قرني الاستشعار، أما الآخر... فأنت تعرف ما حل به. ولكن الصراصير ليست خطيرة ولا تعض.

أطلق عليها اسم بئر العالمين، وهذا اسم استخلصته من قصة رعب من كتيبات الإثارة كتبت من قبل رجل اسمه هينري كاتنر. أنا لم أعثر على البئر إطلاقاً بل سقطت فيها، سأخبرك ما أستطيع إخبارك به يا تشارلي.

ولدت في رود آيلند بصفتي أدريان بوديتش، ومع أنني كنت جيداً في مادة الرياضيات وكنت أحب القراءة... كما تعلم... إلا أنني لم أبالِ بالمدرسة أو بزوج أمي الذي كان يضربني حين تسوء الأمور في حياته، وكانت تسوء دائماً حيث كان يفرط في احتساء الكحول، ولم يستطع أن يحتفظ بعمله لأكثر من أشهر متواصلة. هربت عندما كنت في السابعة عشرة، واتجهت

شمالاً إلى ولاية مين. كنت شاباً ضخم الجثة، وانضممت إلى مجموعة حطابين، وتوجهت إلى مقاطعة أرووستوك، لا بد من أن العام كان 1911 أي العام الذي وصل فيه أموندسن إلى القطب الجنوبي. هل تتذكر حين قلت لك إنني حطاب بسيط؟ كنت صادقاً في ما قلت.

لقد واظبت على هذا العمل ست سنوات، وفي العام 1917 أتى جندي إلى مخيمنا، وأخبرنا أن الرجال ذوي البنية القوية عليهم أن يتقدموا للخدمة في آيلند فولز. استقل بعض الشبان شاحنة، وكنت من بينهم، ولكن لم تكن لديّ نية لأضحي بنفسي لآلة الحرب في إحدى المناطق الفرنسية؛ اعتقدت أن آلة الحرب كان لديها ما يكفي من الدماء، ولم تكن بحاجة إلى دمي. لذا، ودّعت الشبان حين اصطفوا كي يُسجّلوا أسماءهم واستقللت مقطورة متجهة غرباً. انتهى بي المطاف في جينزفيل التي لا تبعد كثيراً عن مكاننا الآن، والتحقت بمجموعة حطابين. وحين انتهى ذلك العمل، ذهبت بصفتي حطاباً إلى مقاطعة سينتري التي تسمى الآن مقاطعة أركاديا أي مقاطعتنا.

لم يكن هناك سوق عمل، وفكّرت في الانتقال إلى وايومنغ أو مونتانا. كانت حياتي ستختلف للغاية إن انتقلت يا تشارلي. كنت سأعيش مدة زمنية طبيعية، وما كنا سنلتقي. ولكن في بافينغتون -حيث تقع المحمية الحرجية الآن- رأيت لافتة كتب عليها مطلوب حارس للأرض وتحت ذلك كتب شيء بدا وكأنه مصمم لي: لا بد أن تكون ضليعاً بالأمور المتعلقة بالخرائط والغابات.

دخلت مكتب المقاطعة، وبعد أن قرأت بعض الخرائط -خطوط العرض والطول والمخططات الطبغرافية- حصلت على العمل. يا بني، أنا أشعر وكأنني رجل وقع في مغطس وحل وخرج ومعه وردة بين أسنانه، أمضيت وقتي اللعين في التسكع بين أشجار الغابة، وفي إعداد الخرائط، وتسجيل طرق الغابة القديمة وكانت كثيرة. في بعض الأحيان، إذا وافقت إحدى العائلات على استضافتي كنت أمضي الليلة معها، وفي ليالٍ أخرى- وكانت

كثيرة - كنت أخيّم تحت النجوم، وفي بعض الأوقات، مرت أيام لم أرَ فيها شخصاً.

لم يتحمل أشخاص كثر هذا الأمر، ولكنني كنت الشخص المناسب.

ذات يوم، في خريف العام 1919 حين كنت على تل سيكامور الذي كان يعرف سابقاً باسم غابة سينتري، كانت بلدة سينتريز ريست هنا، ولكنها كانت عبارة عن قرية، وكان شارع سيكامور ينتهي عند نهر الرامبل الصغير. ولم يبنَ الجسر -أول جسر- إلا بعد خمس عشرة سنة على الأقل، ولم يظهر الحي الذي ترعرعت فيه إلا بعد الحرب العالمية الثانية، حين عاد جنود الجيش الأميركي إلى البلاد.

كنت أمشي في الغابة، أي مكان مرجي الخلفي الآن، وأشق طريقي بين جذوع الأشجار والشجيرات لأبحث عن طريق ترابي كان من المفترض أن يكون في مكان ما هنا، وجل ما يشغل تفكيري البحث عن مكان في القرية يمكن لشاب أن يحتسي فيه الكحول. في لحظة، كنت أمشي تحت ضوء الشمس، وفي اللحظة الأخرى كنت أنزل إلى الأسفل، إلى بئر العالمين.

إذا سلّطت نور المصباح بين الألواح فستستنتج أنني نجوت بأعجوبة، لم يكن هناك درابزين، وحمتني الدرجات من سقوط عنيف عبر مئة وسبع وخمسين قدماً تقريباً. إن الجدران عبارة عن حجارة منحوتة، هل لاحظت ذلك؟ وقديمة جداً، والله وحده يعلم إلى أي فترة تعود. لقد سقطت بعض القطع منها إلى القاع. وحين حاولت أن أتجه إلى الدرج، مددت يدي، وأمسكت بشق بين تلك الدرجات. لم يكن أعرض من ثلاثة إنشات، ولكنه اتسع لأصابعي. سحبت نفسي إلى الجدار، ونظرت إلى ضوء النهار والسماء الزرقاء الساطعة. نبض قلبي بشدة، وشعرت أنه ينبض مئتي نبضة في الدقيقة. تساءلت عن المكان اللعين الذي وقعت فيه؛ لم تكن بئراً عادية

بالطبع حيث كان هناك درج حجري يؤدي إلى الأسفل وحجر منحوت يكسو الجدران.

عندما التقطت أنفاسي... لا شيء يشبه أن تسقط وتوشك أن تلاقي حتفك في ثقب أسود يخطف أنفاسك... وحين تمالكت نفسي تناولت مصباحي عن حزامي وسلّطت نوره إلى الأسفل، لم أرَ شيئاً، ولكنني سمعت أصوات خشخشة، فأدركت أن هناك شيئاً حياً في الأسفل. لم أشعر بالقلق وقتها لأنه كان بحوزتي مسدس، فالغابة لم تكن آمنة طوال الوقت. لم تكن الحيوانات هي الخطر الفعلي... مع أنه كان هناك دببة كثيرة في تلك الأوقات... كما كان هناك رجال وخصوصاً بائعي كحول. لم أعتقد أن هناك بصيص نور في تلك الحفرة، ولم أعرف مصدر ذلك الصوت، ولكنني كنت شاباً فضولياً، وقررت أن أكتشف الأمر.

وضبت عدتي التي التوت حين سقطت على الدرج، ونزلت إلى الأسفل، نزلت ونزلت واستدرت واستدرت، يبلغ عمق بئر العالمين مئة وخمساً وسبعين قدماً، وهناك مئة وخمس وثمانون درجة مختلفة الارتفاعات، وفي النهاية هناك نفق حجري... ومن الأصح أن أقول عنه دهليز. إنه مرتفع ويسمح لك بالمرور دون أن تحني رأسك يا تشارلي وتمشي براحة إلى حدّ ما.

كانت الأرضية ترابية عند نهاية الدرج، ولكن حين مشيت قليلاً... والآن أعرف أن المسافة تعادل ثلاثة أرباع ميل تقريباً... قبل أن تتحول الأرضية من ترابية إلى حجرية، أصبح صوت الخشخشة أعلى فأعلى، وكان يشبه حفيف الأشجار، وسرعان ما أصبح فوقي. لذا، وجّهت نور مصباحي إلى الأعلى، ورأيت أن السقف كان مغطى بأكبر خفافيش ممكن أن تراها في حياتك، كانت المسافة بين أجنحتها تعادل المسافة بين أجنحة العقاب. ازداد صوتها عندما حط نور المصباح عليها، فأخفضته بسرعة لأنني لم أرد أن أثيرها. أصابتني فكرة أن تغمرني بأجنحتها بالرعاش كما كانت أمي تقول، لم

تزعجني الأفاعي والحشرات كثيراً، ولكنني لطالما خشيت الخفافيش، إن لكل شخص رهابه الخاص، أليس كذلك؟

تقدمت أكثر ولمسافة ميل على الأقل، وبدأ نور مصباحي يخفت. لم تكن هناك بطاريات دوراسيل في تلك الأيام يا فتى! أحياناً كانت هناك مستعمرة من الخفافيش فوقي وأحياناً لا. قررت العودة قبل أن أعلق في الظلام، ثمّ رأيت حينها بصيصاً من ضوء النهار فوقي، فأوقفت عمل مصباحي، وتأكدت أنه ضوء النهار.

مشيت باتجاهه، وانتابني الفضول لأعرف ما الذي يفضي إليه هذا الطريق. خمّنت أنني سأصل إلى الضفة الشمالية من نهر الرامبل الصغير لأنه بدا لي أنني أتجه جنوباً، ولكنني لم أكن متأكدا.، اتجهت إلى الضوء، وحين اقتربت منه حصل لي شيء، لا أستطيع وصفه تماماً، ولكن كان عليّ أن أحاول. إن كنت تريد المشي على خطاي إن جاز التعبير، إن فالأمر يشبه الدوار، ولكنه كان أكثر من ذلك. بدوت وكأنني أتحول إلى شبح يا تشارلي، وكأنني أنظر إلى جسدي وأستطيع النظر من خلاله. بدوت شفافاً وعديم الوزن، وأتذكر أنني فكّرت في أننا كنا جميعاً، على سطح الأرض على هذا النحو؛ أي مجرد أشباح نحاول الإيمان بفكرة أن لدينا وزناً وكتلة في هذا العالم.

لقد دام هذا الأمر قرابة خمس ثوان. واصلت المشي مع أنني بدوت وكأنني غير موجود هناك، ثمّ تلاشى ذلك الإحساس، فذهبت إلى الفتحة في آخر الدهليز... مشيت مقدار ثمن ميل آخر تقريباً... وخرجت، ليس إلى ضفة نهر الرامبل بل إلى جانب التل. كان تحتي حقل من الأزهار الحمراء المذهلة،و كانت الأزهار من نبات الخشخاش بحسب ما أعتقد، ولكن كانت تفوح من الحقل رائحة القرفة. قلت لنفسي: 'لقد فرش لي أحدهم البساط الأحمر!' أودى ممر بين تلك الأزهار إلى طريق تمكنت أن أرى منه منزلاً

صغيراً... كان كوخاً بالأحرى... وكان هناك دخان يتصاعد من المدخنة، وفي الأفق البعيد لذلك الطريق رأيت أبراج مدينة كبيرة.

لم يكن الممر واضحاً، وكأن أحداً لم يمشِ عليه منذ وقت طويل للغاية، بينما كنت أسير نحو المنحدر، قفز أرنب بضعف حجم الأرانب في عالمنا إلى الممر، واختفى بين العشب والأزهار، أنا...

غاب صوت السيد بوديتش، ولكنني استطعت سماع صوت تنفسه. لقد بدا خشناً وأكثر حدة من العادة، وكأنه يعاني في الاستنشاق، ثمّ تابع:

إن مدة هذا الشريط تسعون دقيقة يا تشارلي. عثرت على صندوق كامل منها بين الكومة في الطابق الثالث من الأيام الخوالي قبل أن تهمل أشرطة الكاسيت والطوابع التي تبلغ قيمة الواحد منها ثلاثة سنتات. بإمكاني أن أُسجل على أربعة منها أو خمسة أو حتى كل الصندوق. لقد خضت مغامرات عديدة في العالم الآخر، وكنت سأخبرك عنها إن تسنى لي وقت، ولكنني لا أظن أن الوقت سيتسنى لي، ولم أكن على ما يرام منذ الجهد الذي بذلته في المستودع. إن جانب رقبتي الأيسر يؤلمني، وامتد الألم من ذراعي إلى مرفقي، ويتلاشى هذا الألم أحياناً على عكس الثقل في صدري. أعرف ما الذي تشير إليه هذه الأعراض، هناك عاصفة تتراكم في داخلي، وأعتقد أنها ستهب قريباً. أشعر بالندم على أمور كثيرة، ذات مرة قلت لك: الرجل الشجاع يساعد بخلاف الجبان الذي يكتفي بتقديم الهدايا. هل تتذكر هذا؟ كنت أشتري الهدايا عندما أعرف أنني لم أكن شجاعاً بما يكفي لتقديم المساعدة حين يحدث التغيير الفظيع. لطالما قلت لنفسي إنني متقدم في السن، لذا أخذت الذهب، وهربت، كما نزل جاك عن نبتة الفاصولياء. ولكن الفرق الجوهري أنه كان طفلاً، أما أنا فكان يفترض بي أن أحكم على الأمور بشكل أفضل.

إذا ذهبت إلى ذلك العالم الآخر حيث يبزغ قمران في الليل، ولا توجد مجموعات نجمية كالتي اكتشفها فلكيو الأرض، فعليك أن تعرف بعض الأمور. لذا، أصغِ إليّ بحذر.

إن هواء عالمنا مميت لمخلوقات ذلك العالم ما عدا الخفافيش بحسب ما أعتقد. ذات مرة جلبت معي أرنباً لأُجرّب فمات بسرعة، ولكن هواءهم ليس مميتاً بالنسبة إلينا بل هو مُنشّط في الواقع.

كانت المدينة يوماً مكاناً مزدهراً، ولكن المخاطر تحيق بها الآن وخصوصاً في الليل، إذا أردت زيارتها فاذهب صباحاً، وكن في غاية الهدوء ورباطة الجأش ما إن تعبر بوابتها. أُرجح أن تبدو لك مهجورة، ولكنها ليست كذلك، إن ما يحكم هناك خطير وفظيع وما يسكن في طياتها أفظع. لقد علّمت الطريق إلى ساحة وراء القصر، كما كنت أحدد أشجار الغابة بأحرف اسمي الأصلي أي.بي، إذا تبعتها... وإذا كنت هادئاً... ستكون على ما يرام، وبخلاف ذلك، ستتيه في تلك المدينة الفظيعة إلى أن تموت. أنا أتكلم بصفتي شخصاً يعرف، ولولا شعلتي وإشاراتي كنت سأظل هناك وأموت أو أُجن. ما كان يوماً مشرقاً وجميلاً أصبح رمادياً وملعوناً وميتاً.

غاب صوت السيد بوديتش مجدداً، كان يلهث بشدة، وحين عاد صوته كان أجش ولا يشبه صوته تقريباً. خطرت لي فكرة... وكنت متيقناً منها... كان يسجل عندما كنت في المدرسة، إما في طريقي إلى حصة الكيمياء وإما عندما كنت هناك وأنا أحدد درجة غليان الأسيتون.

رافقتني رادار إلى هناك، وكانت صغيرة للغاية، كانت جروراً. لقد نزلت درج البئر من دون خوف، وأنت تعرف أنها تنبطح على بطنها عندما تؤمر بالنزول إلى الأسفل، وهي تلتزم الصمت حين يقال لها اهدئي أو اصمتي. في ذلك اليوم قلت لها اصمتي، ومررنا تحت مستعمرة الخفافيش من دون أن نزعجها، لقد قطعت ما أسميه الحد من دون أيّ مشاكل تذكر. لقد سرت

حين رأت حقل الأزهار، وغاصت فيه، ثمّ تأرجحت بين الأزهار، وأحبت العجوز التي عاشت في الكوخ. إن معظم سكان عالمنا سيشمئزون من مظهرها الحالي، ولكنني أعتقد أن الكلاب تحس بالجوهر وتتجاهل المظهر الخارجي. هل يبدو كلامي شاعرياً؟ ربما ولكن هذه هي الحقيقة...

توقف، لا يجب أن أثرثر. ليس هناك وقت.

تستطيع أن تصطحب رادار معك بعد أن تقوم باستطلاع كامل بمفردك وتستطيع أن تصطحبها منذ المرة الأولى فالوقت بالنسبة إليها يوشك على النفاد، وبفضل دوائها الجديد، يمكن أن تنزل تلك الدرجات مجدداً. إذا تمكنت من النزول، فأنا متأكد من أن هواء ذلك المكان سينعشها، ويمد بحياتها.

في فترة ما، أقيمت مباريات في المدينة، وتجمع آلاف الذين أتوا لمشاهدتها في الساحة التي أخبرتك عنها، منتظرين دورهم لدخول الملعب الذي هو جزء من القصر... أو بالأحرى ملحق به. وبالقرب من تلك الساحة ساعة شمسية هائلة يصل قطرها إلى مئة قدم، إنها تدور كدوامة الخيل في تلك الرواية، رواية برادبوري، أنا متأكد أنه... لا تكترث لهذا، ولكن اكترث لما سأقوله: إن الساعة الشمسية هي سر طول عمري، ودفعت ثمن ذلك. لا تصعد عليها، ولكن إن وضعت رادار عليها...

بالله عليك! أعتقد أن الأمر يحصل بالفعل! يا إلهي!

جلست، وأحكمت قبضتي على الطاولة، وراقبت الشريط وهو يدور، ومن خلال نافذة حجرة الشريط رأيت أنه كان يقترب من المنطقة التي أعدت تشغيله منها، تشارلي، أكره أن أفكر في إرسالك إلى مصدر كثير من المصائب الأرضية، ولن ألزمك بشيء، ولكن الساعة الشمسية هناك والذهب هناك أيضاً، ستقودك الإشارات إلى هناك، تذكر: أي. بي.

سأمنحك هذا المنزل وهذه الأرض، إنهما ليسا هدية بل عبء. ويزداد العبء كل سنة مع ارتفاع الضرائب. يتملكني ذعر دائم من رجل الضرائب...

ذعر من الرعب القانوني الذي يعرف باسم حق الامتلاك، وأنا... وأنت... ونحن...

أصبح الآن يلهث بشدة، وازدرد لعابه مراراً وتكراراً، كان بوسعي أن أشعر بأظافري وهي تُغرز في راحتي، وعندما تحدث مجدداً كانت المعاناة واضحة على صوته.

اسمع يا تشارلي! هل بمقدورك أن تتخيل ماذا يمكن أن يحدث إذا اكتشف الناس وجود عالم جديد؟ عالم يمكن اختراقه ببساطة عن طريق نزول مئة وخمس وثمانين درجة حجرية، وعبور دهليز طوله أقل من ميل؟ إذا اكتشفت هذا العالم الجديد ستستنزف موارده بشكل كامل تقريباً، هل سيهابون قاتل الرحلة أو إيقاظ الإله الفظيع لذلك العالم من رقاده الطويل؟ هل سيكون بوسعهم استيعاب العواقب... ولكن أنت... إن كنت تملك الوسيلة... أنت...

كان هناك صوت خشخشة وطقطقة وشهقات، عندما عاود التكلم كان صوته مسموعاً، ولكنه بدا واهناً، كان قد أنزل المسجلة ذات مكبر الصوت الداخلي.

أنا أتعرض لذبحة قلبية يا تشارلي.. أنت تعرف... لقد اتصلت بك... هناك محام، ليون برادوك في إلجن، وهناك محفظة، تحت السرير، كل شيء ستحتاج إليه موجود تحت السرير أيضاً...

سمعت صوت طقة أخيرة تبعها صمت مطبق؛ إما أوقف التسجيل عمداً أو كبس على زر الإيقاف بيده المتهاوية. لقد سررت لهذا، لم أرد أن أستمع إليه في الوقت الذي تغادر روحه جسده.

أغمضت عيني، وجلست هناك لـ... لا أعرف كم مضى من وقت، ربما دقيقة وربما ثلاث، أتذكر أنني أنزلت يدي في الظلام، وأملت أن ألمس رادار، وأواسي نفسي قليلاً بتربيت رأسها كالعادة، ولكن رادار لم تكن هناك،

كانت رادار في منزلي الطبيعي حيث لا يوجد باحة غير طبيعية تحتوي بئراً تؤدي فتحتها إلى عالم غريب.

ماذا كان عليّ أن أفعل؟

أخرجت الشريط من المسجلة ووضعته في جيبي، كان خطيراً، ولا أظن أن هناك شيئاً أكثر خطورة منه على الأرض... ولكنه لن يكون خطيراً إلا إذا صدّق الناس أنه كان أكثر من مجرد هلوسات رجل يتعرض لذبحة قلبية، وهم بالطبع لن يصدّقوا، إلا إذا...

وقفت ولم أكن واثقاً من أنني أستطيع الاعتماد على ساقيّ، واتجهت إلى الباب الخلفي. نظرت إلى المستودع الذي بناه السيد بوديتش -عندما كان أصغر بكثير- فوق بئر العالمين، نظرت إليه طويلاً، إذا دخل أحد إلى هناك...

يا إلهي.

ذهبت إلى المنزل.

الفصل الحادي عشر

تلك الليلة- دوّامة المدرسة- أبي يغادر- بئر العالمين- الآخر-

المرأة العجوز- مفاجأة غير سارة.

1

«هل أنت على ما يرام يا تشارلي؟».

أبعدت عينيّ عن الكتاب الذي كنت منغمساً في قراءته، ظننت أن لا شيء يستطيع أن يصرف انتباهي عن الشريط الذي استمعت إليه في مطبخ

السيد بوديتش، والذي أخفيته في الرف العلوي تحت حزمة ثياب قديمة، ولكن هذا الكتاب الذي أخذته من غرفة نوم السيد بوديتش فعل ذلك. كما استطاع أن يخلق عالمه الخاص. كانت رادار نائمة بالقرب مني، وكانت تشخر بين الفينة والأخرى.

«هاه؟».

«سألتك إن كنت على ما يرام. لم تلمس عشاءك تقريباً، ولم تبدُ على سجيتك طوال المساء. هل تُفكّر في السيد بوديتش؟».

«نعم». إنها الحقيقة، كنت أُفكّر فيه، ولكن لأسباب غير التي ظنها أبي.

«هل اشتقت إليه؟».

«نعم، كثيراً»، أنزلت يدي، وربت رقبة رادار. لقد أصبحت الآن كلبتي، وأصبحت مسؤولاً عنها.

«لا بأس بهذا فهو أمر طبيعي، هل ستكون على ما يرام في الأسبوع القادم؟».

«بالطبع، لماذا؟».

تنهد بصبر، وأعتقد أن هذه كانت من شيم الآباء فقط: «لقد سبق لي أن أخبرتك عن المؤتمر، وكان ذهنك مشغولاً بأمور أخرى بحسب ما أعتقد. سأغادر صباح الثلاثاء لقضاء أربعة أيام مذهلة في الغابة الشمالية. في الواقع إنها نزهة لأوفرلاند، ولكن ليندي دبّر لي دعوة لألتحق بهم، هناك محاضرات عدة عن الديون وعن تدقيق عمليات الاختلاس، وهذه مسألة ضخمة وخصوصاً لشركة تحاول النهوض على قدميها».

«كشركتك؟».

«كشركتي، بالإضافة إلى تنمية مهارات التواصل»، وتذمر.

«هل سيكون هناك شرب؟».

«أجل والكثير منه، ولكنني لن أشرب، هل ستكون على ما يرام بمفردك؟».

«بالطبع». افترضت أنني لم أضع في المدينة التي وصفها السيد بوديتش بأنها مدينة خطيرة يحكمها إله نائم. كما افترضت أنه سبق لي الذهاب إليها. «سأكون على ما يرام، سأتصل بك إن طرأ شيء».

«أنت تبتسم، هل هناك شيء مضحك؟».

«لا شيء، كل ما في الأمر أنني لم أعد في سن العاشرة يا أبي»، إن ما جعلني أبتسم في الواقع هو تساؤلي عن وجود خدمة اتصال في بئر العالمين. اعتقدت أن خدمة فيرايزون لم تصل إلى تلك المنطقة بعد.

«هل أنت متأكد من أنك لا تريد مني شيئاً؟».

قلت لنفسي: أخبره.

«لا، كل شيء على ما يرام. ما هي تمارين مهارات التواصل؟».

«سأريك، انهض»، نهض وقال: «قف خلفي الآن».

وضعت كتابي على الكرسي، ووقفت خلفه.

قال أبي: «من المفترض أن نثق بالفريق، ولكن ليس لديّ فريق في المقام الأول حيث قررت الاعتماد على نفسي. ولكنني أستمتع بالرياضة الجيدة، سنتسلق الأشجار مع...».

«أشجار؟ تتسلقون أشجاراً؟»

«في كثير من نزهات ومؤتمرات أوفرلاند كنت أقوم بهذا أحياناً وأنا ثمل، مع مستطلع. نقوم بهذا جميعنا باستثناء ويلي ديغان الذي احتل منصب القيادة».

«يا إلهي».

«ونقوم بهذا»، هوى إلى الخلف من دون إنذار، وكانت يداه تمسكان بخصره، كنت قد أقلعت عن الرياضة، ولكن لم يكن هناك خطب بمنعكساتي. أمسكت به بسهولة، وحين نظرت إليه من الأعلى، رأيت أن عينيه كانتا مغمضتين، وكان يبتسم. رفعته قليلاً، فوقف على قدميه. كانت رادار تنظر إلينا، نبحت قليلاً، ثمّ أنزلت رأسها مجدداً.

«سيتوجب عليّ أن أثق بمن يكون خلفي -لا بد أنه سيكون نورم ريتشاردز- ولكنني أثق بك أكثر يا تشارلي، إننا متوافقان».

«هذا رائع يا أبي، ولكن لا تسقط عن أيّ شجرة. إن الاعتناء بشخص واحد وقع عن مرتفع يكفيني، هل أستطيع الآن معاودة القراءة؟».

«بالطبع»، تناوله عن الكرسي ونظر إلى الغلاف. «هل هذا أحد كتب السيد بوديتش؟».

«أجل».

«لقد قرأته عندما كنت في عمرك بل أصغر. يُقام كرنفال جنوني في بلدة صغيرة هنا في إيلينوي حسب ما أتذكر».

«كوغر وداركس باندیمونیوم شادو شو».

«كل ما أتذكره هو وجود بصارة عمياء، كانت مريبة».

«أجل، إن ساحرة الغبار مريبة حقاً».

«اقرأ، وسأتابع التلفاز، وأعطل دماغي قليلاً، لا تدع الكوابيس تراودك».

قلت لنفسي: إذا استطعت النوم.

2

ربما كانت رادار تستطيع صعود الدرج بفضل أدويتها الجديدة، ولكن مع ذلك دخلتُ غرفة الضيوف الصغيرة، فلحقت بي، بعد أن تعودت منزلنا، وأصبحت تشعر بالراحة فيه. نزعت بنطالي القصير، ووضعت الوسادة الإضافية تحت رأسي، وتابعت القراءة. قال السيد بوديتش في التسجيل إن هناك ساعة شمسية هائلة في ساحة وراء قصر، وكانت تدور كدوامة خيول في رواية برادبوري وهي سر طول عمره. لقد أتاحت له الساعة الذهبية العودة إلى سينتريز ريست بسن يقارب سن ابنه، في رواية شيء شرير كانت الدوامة تزيد سنك حين تتقدم إلى الأمام وتقصره في الوضع المعاكس. وقال السيد بوديتش شيئاً آخر أو بدأ به: أنا متأكد أنه... لا تكترث بهذا.

هل كان ينوي أن يقول إن راي برادبوري استقى فكرته عن دوامة الخيل من الساعة الشمسية في العالم الآخر؟ كانت فكرة التقدم أو التراجع في السن على دوامة خيل في غاية الغرابة، ولكن فكرة أن كاتباً أميركياً قديراً قد زار العالم الآخر فاقتها غرابة، أليس كذلك؟ لقد أمضى برادبوري طفولته في وكغن فعلاً وهي مدينة تبعد سبعين ميلاً عن سينتريز ريست. أقنعتني زيارة مختصرة لبحثي عن برادبوري في ويكيبيديا أنها كانت محض صدفة، إلا إذا كان قد زار العالم الآخر عندما كان طفلاً صغيراً، إن كان هناك عالم آخر في المقام الأول. وعلى أيّ حال لقد عاش في لوس أنجلوس حين كان في عمري.

أنا متأكد أنه... لا تكترث بهذا.

أشرت إلى المكان الذي وصلت إليه، ثمّ وضعت الكتاب على الأرض، كنت متأكداً أن ويل وجيم سيتجاوزان هذه المغامرات على قيد الحياة، ولكنني اعتقدت أنهما لن يكونا بريئين بعدها، يجب أن لا يتعرض الأطفال لأشياء فظيعة، لقد عرفت هذا من التجربة.

نهضت ولبست بنطالي: «هيّا يا رادار، عليك أن تخرجي وتسقي العشب».

خرجت ولم تعترض أو تعرج، لطالما كانت خمولة في الصباح، ولكنها كانت تتحسن بعد تمرينات بسيطة، على الأقل في تلك الفترة. ما كان هذا ليدوم لو كانت مساعدة الطبيب على حق؛ قالت إنها ستتفاجأ إذا عاشت رادار إلى الهالوين، وما كان يفصلنا عنه سوى خمسة أسابيع وربما أقل.

شمت رادار المرج، ونظرت إلى النجوم، رأيت نطاق الجبار وبنات نعش الكبرى كالعادة. وبالنسبة إلى السيد بوديتش كان هناك قمران في العالم الآخر. لا توجد مجموعات نجمية كالتي اكتشفها فلكيو الأرض.

لا يمكن هذا، أبداً.

ولكن البئر كانت هنا، بالإضافة إلى الدرج وتلك الحشرة الفظيعة، لقد رأيت تلك الأشياء.

أخفضت رادار قائمتيها بطريقتها الناعمة، ثمّ أتت إلي وهي تبحث عن جائزة. لقد قرأت وقتاً مطولاً بعد أن خلد أبي إلى النوم، وحان الوقت لأخلد بدوري إلى النوم. أما كلبة السيد بوديتش -كلبتي- فأرخت ثقلها على الأرض، وتنهدت، ثمّ أطلقت غازاً أصدر صوتاً خافتاً. أطفأت نور المصباح، وحدقت إلى الظلام الدامس.

أخبر أباك بكل شيء، خذه إلى المستودع، ستكون الحشرة التي أطلق السيد بوديتش النار عليها هناك -أو ما تبقى منها- وحتى وإن تحللت فستكون البئر موجودة. هذا حمل ثقيل، لذا تشاركه مع أحد.

هل سيحتفظ أبي بالسر؟ أنا أحبه كثيراً ومع هذا أشك في أنه ما كان سيحفظ السر، هناك كثير من الشعارات والأقوال المأثورة في جمعية مدمني الكحول المجهولين وأحدها يقول: ستظل مريضاً ما دامت تحتفظ بأسرارك، هل سيخبر ليندي؟ أو صديقاً موثوقاً في العمل؟ أو أخاه، أي عمي بوب؟

ثم تذكّرت شيئاً من المدرسة في الصف السادس أو السابع من حصة التاريخ الأميركي للآنسة غرينفيلد؛ كان قولاً لبنجامين فرانكلن: لا يمكن لثلاثة أن يحتفظوا بسر إلا إذا مات اثنان منهم.

هل بإمكانك أن تتخيل ماذا يمكن أن يحدث إذا اكتشف الناس وجود عالم جديد؟

لقد كان هذا سؤال السيد بوديتش، وأعتقد أنني أعرف الجواب. سيحتلونه، أو سيفرضون عليه الانتداب كما تعوّد أن يقول أستاذ التاريخ المحب للسلام. سيصبح المنزل رقم 1 على شارع سيكامور قاعدة سرية للحكومة، وبحسب علمي سيتم إخلاء الحي، وستبدأ عملية استنزاف الموارد. وإذا كان السيد بوديتش محقاً ستكون العواقب وخيمة.

أخيراً، نمت، ولكنني حلمت أنني كنت مستيقظاً، وأن هناك شيئاً يتحرك أسفل السرير. من سياق الحلم عرفت ما هو هذا الشيء، لقد كان صرصاراً عملاقاً وكان يعض. استيقظت في ساعة مبكرة من الصباح، وأنا مقتنع أن الحلم كان حقيقة، ولكن إن كان حقيقياً كانت رادار ستنبح، ولكنها كانت مستغرقة في نوم عميق، وتبحر في حلم مجهول خاص بها.

يوم الأحد، ذهبت إلى منزل السيد بوديتش لأفعل ما عزمت أن أفعله في اليوم السابق: البدء في تنظيف المنزل. هناك أشياء لم أستطع التعامل معها كالوسائد الممزقة، وقررت تأجيل أمر ورق الجدران إلى يوم آخر. كثيرة هي الأمور التي عليّ فعلها، ولكن كان يجب أن أتدبر الأمر في مناوبتين منفصلتين لأنه في المرة الأولى رافقتني فيها رادار وكانت هذه غلطة.

جالت رادار من غرفة إلى أخرى في الطابق السفلي بحثاً عن السيد بوديتش، لم تبدُ منزعجة من انتهاك الممتلكات، ولكنها نبحت بشراسة على الأريكة، وتوقفت بين الفينة والأخرى لتنظر إليّ وكأنها تسألني: هل أنت غبي، ألم تلحظ ما حصل؟ لقد اختفى سرير سيدها.

جعلتها تلحق بي إلى المطبخ، وقلت لها أن تنبطح، ولكنها لم تفعل ذلك، وظلت تراقب غرفة المعيشة. عرضت عليها أصبع دجاج مقلي، وكانت تفضله للغاية، ولكنها أوقعته على الأرضية. قررت إعادتها إلى المنزل، وتركها مع أبي، ولكنها ركضت برشاقة عندما رأت اللجام، وعبرت غرفة المعيشة، وصعدت الدرج. عثرت عليها في غرفة نوم السيد بوديتش وهي تنكمش على نفسها أمام الخزنة على مهد من الثياب المكدسة التي نزعت من علاقاتها. بدت بخير هناك. لذا، عدت إلى الطابق السفلي، وعملت على ترتيبه بكل ما أوتيت من طاقة.

قرابة الساعة الحادية عشرة، سمعت صوت أظافرها على الدرج، شعرت بالضيق حين رأيتها. لم تكن تعرج، ولكنها تحركت مطأطأة الرأس والذيل، نظرت إليّ بتعابير تفوق الكلمات وضوحاً: أين هو؟

قلت لها: «هيّا يا فتاة، دعيني أخرجك من هنا».

لم تعترض هذه المرة حين أمسكت اللجام.

في المساء، فعلت ما بوسعي في الطابق العلوي. لم يسبب الرجل الصغير الذي يعتمر قبعة وايت سوكس والبنطال القصير (على فرض أنه هو الفاعل، ولكنني كنت متأكداً من هذا) أي ضرر في الطابق الثالث بحسب علمي على الأقل. اعتقدت أنه أولى الطابق الثاني اهتماماً أكبر... وركّز على الخزنة أيضاً بعد أن عثر عليها، لأن مراسم الجنازة لم تستغرق وقتاً طويلاً.

جمعت ثيابي وكدستها عند الدرج، وعزمت على أن آخذها معي إلى المنزل، ثمّ بدأت العمل في غرفة نوم السيد بوديتش. سوّيت السرير (الذي كان رأساً على عقب) وأعدت تعليق ثيابه (كما أعدت إدخال جيوب المعاطف) وجمعت حشوات الوسائد. لقد كنت غاضباً من السيد رايتو ها-ها لما بدا لي من انتهاك لحرمة الميتظظن ولكنني لم أنسَ المتاعب التي أثرتها مع بيرتي بيرد: روث الكلاب على النوافذ، ومفرقعات نارية في صناديق البريد، وقلب صناديق القمامة الممتلئة. لم يُقبض علينا، ولكنني كنت أعرف أننا الفاعلان. عندما نظرت إلى الفوضى التي خلفها السيد ها-ها وقرفت منها لاحظت أنني قبضت على نفسي بنفسي. كنت في ذلك الوقت بسوء هذا الرجل الصغير الذي يتكلم ويمشي بطريقة غريبة، حتى أنني كنت أسوأ منه في بعض النواحي. فالرجل الصغير كان لديه دافع على الأقل: كان يبحث عن الذهب، أما بيرد وأنا فكنا مجرد طفلين يعبثان ويخفقان.

بالطبع، لم أقتل أنا وبيرد أحداً على الإطلاق، وإن كنت محقاً فقد ارتكب السيد ها-ها هذه الجريمة.

لقد كانت إحدى حافظات الكتب في غرفة النوم مقلوبة، عدّلتها وشرعت في إعادة الكتب إلى الرفوف. وفي قاعدة الكدسة كان هناك مجلد يبدو تثقيفياً رأيته على طاولة قرب سريره من قبل، إلى جانب رواية برادبوري التي كنت أقرأها حينها. تناولته عن الأرض وعاينت الغلاف: قمع تملؤه النجوم، أصول الخيال وموقعها في مصفوفة العالم. يا له من كتاب! وفوق هذا كان وفق وجهات نظر جانغ. بحثت في الفهرس لأرى إن كان

هناك شيء عن قصة جاك ونبتة الفاصولياء وتبينت أنها موجودة. حاولت أن أقرأها، ولكنني اكتفيت بتصفحها: احتوت الكتابة على كل شيء اعتبرته كتابة أكاديمية «متحذلقة» وكانت مليئة بكلمات معقدة دون داع وتراكيب ركيكة. ربما أستطيع أن أعتبر هذا خمولاً ثقافياً من طرفي وربما لا.

كل ما استطعت استخلاصه هو أن كاتب ذلك الفصل بالتحديد كان يقول إن هناك نسختين من قصة نبتة الفاصولياء: القصة الدامية الأصلية، والنسخة المنمقة التي يقرأها الأطفال في الكتب الذهبية الصغيرة التي توافق عليها الأمهات وبرامج الكرتون الموافقة لها. تشعبت (هاكم إحدى الكلمات المعقدة) القصة الدامية إلى فرعين أسطوريين، أحدهما كان مظلماً والآخر منيراً. لقد عُني الفرع المظلم بأمور النهب والقتل (عندما قطع جاك نبتة الفاصولياء ووقع العملاق). أما القصة المنيرة أو المسالمة فعنيت بما أسماها الكاتب أبستمولوجيا معتقدات فتغنشتاين الدينية. وإن كنتم تعرفون ما يعني هذا، وهو في أكثر شكل واضح له، فأنتم أشخاص أفضل مني.

وضعت الكتاب على الرف، وغادرت الغرفة، ثمّ عدت مجدداً لأعاين الغلاف. كان الداخل مليئاً بنثر غير ممتع وجمل مركبة معقدة لم تسمح للعين بأن تأخذ قسطاً من الراحة. ولكن الغلاف كان شاعرياً ومتكاملاً بطريقة تشبه قصيدة ويليام كارلوس ويليامز عن العربة الحمراء: قمع مليء بالنجوم.

5

يوم الاثنين، ذهبت لأرى صديقتي القديمة السيدة سيلفيوس في المكتب، وسألتها إن كان بوسعي أن آخذ يوم خدمة المجتمع الخاص بي الذي كان يعطى مرة في الفصل يوم الثلاثاء. انحنت على المكتب، وتحدثت بصوت منخفض ويعد بالكتمان: «هل أشم رائحة شاب يريد أن يتخلّف عن

المدرسة؟ أسألك فقط لأن الطلاب عليهم أن يخبرونا قبل أسبوع قبل أن يأخذوا هذا اليوم. ليس هذا إجراء احترازياً يا تشارلي بل هو اقتراح قوي».

نظرت إليها وقلت بصدق: «كلا، الأمر جاد»، كانت هذه طريقة مفيدة أثناء التفوه بالأكاذيب تعلمتها من بيرتي بيرد. «سأمر على التجار في مركز المدينة لأعلمهم عن أدوبت-إي».

«أدوبت-إي؟» بدت السيدة سيلفيوس مهتمة غصباً عنها.

«إنه في العادة أدوبت-إي-هايوي وهو نادٍ التحقت به، ولكنني أريد توسيع الأمر، كأن أجعل أصحاب المتاجر مهتمين في أدوبت-إي-بارك -لقد حصلنا على اهتمام ستة أشخاص أتعرفين هذا؟ - وأدوبت-إي-أندرباس- حيث معظم الطرق التحتية تعمها الفوضى، ويا له من عار!- ربما سننشئ أدوبت-إي-فيكنت-لوت للاعتناء بمرائب السيارات إذا استطعت إقناع...».

«فهمت الفكرة»، تناولت استمارة وكتبت عليها، «مرر هذه الاستمارة على معلميك، واجعلهم يوقعونها، ثمّ أعدها إليّ» وحين هممت بالمغادرة قالت: «تشارلي؟ أشم رائحة التغيب عن المدرسة فأنت مشهور بها».

في الواقع، لم أكن أكذب بشأن مشروعي لخدمة المجتمع، ولكنني كنت أخفي الحقيقة التي تخص حاجتي ليوم غياب عن المدرسة لممارسته، في الحصة الخامسة توجهت إلى المكتبة، وأحضرت كتيب غرفة تجارة الولايات المتحدة الأميركية للشباب ودوّنت أسماء جميع التجار في مركز المدينة، وبعثت رسالة موحدة، ولم أُغيّر سوى جمل التحية وأسماء مشاريع أدوبت-إي المتنوعة التي فكّرت بها. لقد استغرقني الأمر نصف ساعة وهذا ما منحني عشرين دقيقة قبل أن يرنّ جرس تبديل الحصص. عدت إلى المكتبة، وسألت السيدة نورمان إذا كان لديها حكايات خيالية من ألمانيا للأخوين غريم. لم يكن الكتاب الأصلي في المكتبة، لذا أعطتني نسخة كندل

عليها لصاقة ملكية ثانوية هيلفيو دايمو، كما أعطتني شيفرة الاستخدام لمرة واحدة لتنزيل الكتاب.

لم أقرأ أيّ حكايات خيالية، واكتفيت بتصفح المحتويات والمقدمة، لقد انبهرت (ولكن لم أتفاجأ تماماً) حين اكتشفت أن معظم القصص التي عرفتها في طفولتي كانت لها نسخ مظلمة. إن نسخة غولديلوكس والدببة الثلاثة كانت حكاية شفوية تم تناقلها منذ القرن السادس عشر، ولم يكن فيها فتاة صغيرة اسمها غولديلوكس، كانت الشخصية الرئيسية هي عجوز شريرة اقتحمت منزل الدببة، وحطمت كل أشيائهم، ثمّ قفزت من النافذة، وهربت إلى الغابة وهي تصدر صوت قوقأة.

أما قصة رومبلستيلتسكين، فكانت أسوأ بكثير، في النسخة التي أتذكرها بشكل مبهم هرب رومبلستيلتسكين متأففاً حين حزرت الفتاة التي كان عليها تحويل القش إلى قصب اسمه. وفي نسخة عام 1857 التي كتبها الأخوان غريم غرز قدماً في الأرض، وأمسك بالأخرى وشق نفسه إلى نصفين. اعتقدت أن هذه كانت قصة رعب كفيلة بأن تطيح بسلسلة أفلام سو.

كانت الحصة السادسة عبارة عن حلقة دراسية لفصل واحد بعنوان أميركا اليوم، لم تكن لديّ فكرة عما يتحدث السيد ماسينسيك حيث كنت أفكر بالحكايات الخيالية، كيف كانت دوامة الخيل في رواية شيء شرير تشبه الساعة الشمسية في أرض العالم الآخر مثلاً. لقد قال السيد بوديتش: إنها سر طول عمري، لقد سرق جاك ذهباً من العملاق كما سرق السيد بوديتش ذهباً من... ممن؟ أو مماذا؟ وحش قصص رعب مبتذلة اسمه غوغماغوغ.

عندما بدأ عقلي يجتاز هذا الطريق، أصبحت أرى تشابهات في كل مكان؛ لقد ماتت أمي على جسر يمتد فوق نهر الرامبل الصغير، وماذا عن

الرجل الصغير غريب الصوت؟ ألم تصف القصة رومبلستيلتسكين على هذا النحو؟ وهناك أنا، كم قصة كان بطلها شاب (كجاك) يمضي في رحلة إلى أرض خيالية؟ ودعونا نأخذ ساحر أوز حيث حمل إعصار فتاة صغيرة من كنساس إلى عالم من السحرة والأقزام، لم أكن دوروثي كما لم تكن رادار توتو ولكن...

«يا تشارلي، هل خلدت إلى النوم أم هل نمت مغناطيسياً على صوتي الشاعري؟ هل اعتبرته تهويدة؟».

لقد تعالت الضحكات من الصف على الرغم من أن معظمهم لم يفهموا كلامه.

«كلا، أنا هنا ومركّز تماماً».

«ربما ستعطينا رأيك القيم في ما يخص الجريمة العنصرية بحق فيلاندو كاستايل وألتون ستيرلنغ؟».

قلت له: «شيء سيئ ولعين»، كنت منخرطاً في عالمي الخاص، ولقد سقطت تلك الكلمات سهواً مني.

أكرمني السيد ماسينسيك بابتسامته الصفراء المشهورة ثمّ قال: «شيء سيئ ولعين فعلاً. عد من فضلك إلى حال الشرود يا سيد ريد».

تابع محاضرته، وحاولت أن أركّز، ولكن بعدها فكرت في شيء قالته السيدة سيلفيوس ولم يكن في فاي فو فوم! أشم رائحة دم رجل إنكليزي، ولكن أشم رائحة التغيب عن المدرسة فأنت مضرج بها.

كانت هذه صدفة بالطبع -قال أبي إن اشتريت سيارة زرقاء، فسترى سيارات زرق في كل مكان- ولكن بعد ما رأيته في المستودع لم أستطع أن أمنع نفسي عن التساؤل، وهناك شيء آخر، في قصة خيالية سيقوم الكاتب باختراع طريقة ما يسمح فيها لبطل يافع أو بطلة يافعة باكتشاف عالم

أصبحت أشير إليه باسم الآخر. يمكن للكاتب مثلاً أن يخترع مؤتمراً كان على أحد الأبوين أو كلاهما حضوره وهذا ما يفسح المجال أمام البطل اليافع بزيارة عالم آخر دون أن يستحضر أسئلة لا يستطيع الإجابة عنها.

قلت لنفسي صدفة حين رنّ الجرس، واندفع الطلاب إلى الباب، متلازمة السيارة الزرقاء.

ولكن الصرصار العملاق لم يكن سيارة زرقاء كما لم تكن تلك الدرجات المؤدية للظلام سيارة زرقاء أيضاً.

أقنعت السيد ماسينسيك بأن يوقع على الاستمارة، وابتسم لي ابتسامته الصفراء المعهودة وقال: «شيء سيئ ولعين، أليس كذلك؟».

«آسف، آسف».

«لم تكن على خطأ في الواقع».

هربت واتجهت إلى خزانتي.

«تشارلي؟».

كانت أرنيتا فريمان، بدت بارعة الجمال في بنطالها الضيق وسترتها الصيفية، أثبتت أرنيتا بعينيها الزرقاوين وشعرها الأشقر أن الجمال الأميركي ليس متواضعاً. في السنة السابقة -حين كنت منغمساً في الرياضة وما زلت أشتهر بسبب بطولاتي مع توركي بول - أمضيت وأرنيتا جلسات دراسية عدة في غرفتها الواقعة في القبو، لقد أنجزنا بعض الدراسة، ولكننا تبادلنا القبل معظم الوقت.

«أهلاً يا أرني، كيف حالك؟».

«هل تريد أن تزورني الليلة؟ يمكننا أن ندرس لامتحان هاملت» حدقت تلك العينان الزرقاوان إلى عيني البنيتين.

«أودّ ذلك، ولكن أبي سيغادر غداً ولباقي الأسبوع لأداء شيء يتعلق بالعمل، ولذلك أفضّل أن أبقى في المنزل».

«يا للأسف»، عانقت كتابين وقربتهما إلى صدرها.

«يمكنني أن آتي يوم الأربعاء إن لم تكوني مشغولة».

أشرق وجهها وقالت: «سيكون هذا رائعاً»، أخذت يدي، ووضعتها على خصرها، «سأسألك عن بولونيوس وربما ستتحقق من فورتينبراس».

قبّلتني على وجنتي، ثمّ غادرت ومشت إلى الخلف بطريقة ساحرة، وللمرة الأولى، بعد زيارة المكتبة لم أفكر بما يوازي الحكايات الخيالية في الواقع، لم يركز دماغي سوى على أرنيتا فريمان.

6

صباح يوم الثلاثاء، غادر أبي باكراً، وحمل حقيبة السفر، وارتدى ثيابه التي تدل أنه ذاهب إلى الغابة: بنطالاً قصيراً وسترة واسعة وقبعة بيرز، كان يضع معطفاً واقياً من المطر فوق كتفه، قال: «ذكرت النشرة الجوية أنها ستمطر، وهذا سيحول دون تسلق الأشجار ولست آسفاً على هذا».

«صودا في ساعة الشرب أليس كذلك؟».

ابتسم وقال: «ربما سأضع فوقها شريحة ليمون، لا تقلق يا صغيري سيكون ليندي هناك وسأظل معه، اعتنِ بكلبتك فقد عادت تعرج».

«أعرف».

عانقني بسرعة بإحدى ذراعيه، وقبّل خدّي، وحين ابتعد عن المرأب أشرت له بيدي أن يتوقف، وركضت إلى نافذة سائق السيارة، أنزلها وقال: «هل نسيت شيئاً؟».

«كلا، أنا من نسيت شيئاً»، اقتربت وعانقت رقبته وقبّلت وجنته.

ابتسم لي متفاجئاً وقال: «لماذا فعلت هذا؟».

«لأنني أحبك».

«وأنا أيضاً يا تشارلي»، ربت وجنتي، وقاد السيارة إلى الشارع، ثمّ انطلق على الجسر اللعين، راقبته وهو يغادر إلى أن اختفى عن ناظري.

أعتقد أنني شعرت بشيء في أعماقي.

7

أخرجت رادار إلى الخلف، لم تكن باحتنا واسعة مقارنة بباحة السيد بوديتش التي تفوق مساحتها فداناً، ولكنها كانت كافية لأن تتمطط رادار فيها، ولكنها لم تتمرن كثيراً. كنت أعرف أن وقتها قد اقترب، إذا كان هناك شيء يمكنني أن أفعله لها فكان عليّ أن أسرع، سكبت لها قليلاً من اللحم الذي تناولناه ليلة البارحة، ودسست فيه حبة إضافية، انقضت على الطعام، ثمّ تمددت على سجادة غرفة المعيشة، وكان هذا مكاناً علمته باسمها، حككت لها وراء أذنيها، كانت تغمض عينيها وتبتسم عندما أفعل ذلك.

قلت لها: «عليّ أن أتحقق من شيء، كوني فتاة مطيعة، وسأعود بأبكر وقت ممكن اتفقنا؟ حاولي ألا تقضي حاجتك في المنزل، ولكن إن اضطررت افعليها في مكان يسهل تنظيفه».

هزت ذيلها على السجادة مرات عدة، اكتفيت بهذا، قدت دراجتي إلى المنزل رقم 1، وكنت أراقب الأرجاء لأرى إن كان هناك رجل صغير وغريب يمشي ويتحدث بطريقة غريبة. لم أرَ أحداً ولا حتّى السيدة ريتشلاند.

صعدت إلى الأعلى، وفتحت الخزنة، وربطت حزام السلاح على خصري، لم أشعر بأنني حامل سلاح متمرس على الرغم من الكونشو

المترف والأحزمة. لم أشعر سوى بأنني فتى خائف. إذا انزلقت على الدرج اللولبي، ووقعت كم سيمضى من الوقت قبل أن يعثر عليّ أحد؟ ربما لن يعثر عليّ أحد إطلاقاً، وإذا عثروا عليّ، ما الذي سيعثرون عليه أيضاً؟ قال السيد بوديتش على الشريط إنه لم يترك لي هدية بل ترك عبئاً. لم أستوعب هذا تماماً، ولكن عندما تناولت المصباح من خزانة المطبخ، ووضعت الأنبوب الطويل في الجيب الخلفي لبنطالي استوعبته تماماً، خرجت إلى المستودع، وتمنيت أن أنزل الدرج، وألا أعثر على دهليز يقودني إلى عالم آخر بل إلى كومة طوب ونبع مياه جوفية مغطى بالزبد.

لا صراصير كبيرة، لا يهمني إن كانت مؤذية أم لا، ولكنني لا أريد رؤيتها.

دخلت إلى المستودع، وأنرته ورأيت أن الصرصار الذي أطلق عليه السيد بوديتش النار قد تحلل إلى مسحوق رمادي غامق، حين وجهت عليه نور مصباحي، سقطت إحدى الصفائح التي كانت على ما بقي من ظهره ففزعت.

أشعلت مصباحي البطارية، واتجهت إلى الألواح وقطع الطوب التي كانت تغطي البئر، ووجهت النور إلى إحدى الفتحات التي كان عرضها ستة إنشات، لم أرَ سوى الدرجات التي كانت تؤدي إلى الظلام، لم يتحرك أي شيء، ولم تكن هناك أصوات خشخشة، لم يشعرني ذلك بالطمأنينة، وتذكرت سطراً كرر في عشرات أفلام الرعب الرخيصة وربما من مئات الأفلام: لا يعجبني الوضع، إنه هادئ للغاية.

قلت لنفسي: كن منطقياً فالهدوء مُطمئن، ولكن الفكرة لم تكن مؤثرة للغاية حين نظرت إلى تلك الحفرة.

لقد أيقنت أنني إذا ترددت لوقت أطول، فسأتراجع عن الأمر، وهذا سيُصعب عليّ العودة مجدداً، لذا ثبتت المصباح في حقيبة الظهر مجدداً،

ورفعت قطع الطوب، أزحت الألواح جانباً، وجلست على حافة البئر، ووضعت قدمي على الدرجة الثالثة، انتظرت حتى يهدأ قلبي (قليلاً)، ثمّ وقفت على تلك الدرجة، وحاولت أن أقنع نفسي أن الدرجة كانت تتسع لقدمي، لم يكن هذا صحيحاً تماماً، مسحت جبيني الذي تفصد عرقاً، وقلت لنفسي إن كل شيء سيكون على ما يرام، لم أصدق هذا التفصيل على وجه الخصوص.

ولكنني شرعت بالنزول.

8

قال السيد بوديتش: هناك مئة وخمس وثمانون درجة مختلفة الارتفاعات عددتها في طريقي إلى الأسفل. تحركت ببطء شديد، وكنت أسند ظهري إلى الجدار الحجري المقابل لعمود الدرج اللولبي. كانت الحجارة خشنة ورطبة، فلم أبعد نور المصباح عن قدمي. درجات مختلفة الارتفاعات، لم أرد أن أتعثر حيث إن التعثر كان سيكتب نهاية حياتي.

عند الدرجة تسعين أي قبل منتصف الطريق، سمعت خشخشة ورائي. ترددت في أن أوجّه نور مصباحي إلى مصدر الصوت، وكنت على وشك أن أعدل عن الفكرة، إذا أزعجت مستعمرة من الخفافيش، وأخذت ترفرف فوقي، فعلى الأرجح سأقع.

كان هذا تفكيراً مقنعاً، ولكن الخوف كان أقوى، ابتعدت عن الجدار قليلاً، ووجهت نور مصباحي صوب أعلى الدرج، فرأيت شيئاً أسود منحنياً على بعد أربع وعشرين درجة، وحين أصابه النور رأيت أنه أحد الصراصير الكبيرة قبل أن يهرب مسرعاً ليختبئ في الظلام.

تنفست بعمق، وقلت لنفسي إنني على ما يرام، ولكنني لم أُصدق ما قلته. تابعت، واستغرق مني الأمر تسع أو عشر دقائق لأصل إلى القاع لأنني كنت أتحرك ببطء شديد. شعرت أنني استغرقت وقتاً أطول، وبين الفينة والأخرى، كنت أنظر إلى الأعلى. في الحقيقة، لم أكن مرتاحاً لفكرة انحسار

الدائرة المنارة بنوريْ المصباح شيئاً فشيئاً، كنت في عمق الأرض، وكنت أغوص أكثر فأكثر.

وصلت إلى أسفل المئة وخمس وثمانين درجة، كانت الأرض ترابية كما قال السيد بوديتش، وكانت هناك بعض الحجارة التي سقطت من الجدار. لا بد من أنها سقطت بفعل تغيرات الطقس. لقد أمسك السيد بوديتش بشق أحد الفراغات التي سقطت منها الحجارة، وأنقذ ذلك الشق حياته، كانت تلك الكومة من الحجارة مغطاة بمسحوق أسود اعتقدت أنه فضلات الصراصير.

كان الدهليز أمامي؛ تخطيت الحجارة، ودخلت الدهليز، كان السيد بوديتش على حق؛ لقد كان مرتفعاً لدرجة أنني لم أشعر بحاجة لأن أحني رأسي. سمعت مزيداً من أصوات الخشخشة فوقي، واعتقدت أنها الخفافيش التي حذّرني منها السيد بوديتش. لا أحب الخفافيش -إنها تنقل الجراثيم وتسبب المرض أحياناً- ولكنها لم ترعبني كما أرعبت السيد بوديتش. عندما تقدمت باتجاه صوتها شعرت بالفضول أكثر من كل شيء، لقد أصابتني تلك الدرجات اللولبية مختلفة الارتفاعات بالدوار، ولكنني الآن أصبحت على أرض صلبة، وهذا تطور مهم. بالطبع كانت هناك آلاف الأطنان من الصخور والحجارة والتربة فوقي، ولكن هذا الدهليز صمد لوقت طويل، ولم أظن أنه سيختار تلك اللحظة لينهار ويدفنني، ولم يعنِ هذا أنه كان عليّ أن أرتعب من فكرة أن أُدفن حياً لأنني سأُقتل فوراً إذا انهار السقف.

قلت لنفسي: تفاءل.

أنا بطبعي لست شخصاً متفائلاً، ولكن شعور الخوف استبدل -أو غُطي- بشعور الخوف. إن كان السيد بوديتش صادقاً فهناك عالم آخر ينتظرني على مسافة قريبة، وبعد أن قطعت شوطاً كبيراً أردت رؤيته، وكان الذهب أقل اهتماماتي.

تحولت الأرضية الترابية إلى أرض حجرية، ثمّ إلى أرضية حصوية وفي الواقع كانت تشبه الأفلام القديمة عن لندن في القرن التاسع عشر التي كانت تعرض على قناة تورنر كلاسيك موفيز، أصبح صوت الخشخشة فوقي تماماً، فأطفأت المصباح، لقد أخافني الظلام الدامس، ولكنني لم أحبذ أن أحاط بغيمة من الخفافيش، أنا لا أعرف إن كانت تلك الخفافيش ماصة للدماء أم لا، لم يسبق أن شوهدت كثيراً في إيلينوي... ولكنني لم أعد في إيلينوي أليس كذلك؟

قال السيد بوديتش: تقدمت أكثر ولمسافة ميل على الأقل، لذا عددت الخطوات إلى أن نسيت الرقم الذي وصلت إليه، لم يتملكني خوف من نفاد بطاريات مصباحي إذا احتجت إليه مجدداً لأنني بدّلتها، انتظرت لأرى ضوء النهار، وأنا أسمع رفرفة الأجنحة فوقي، هل كانت الخفافيش بحجم العقاب حقاً؟ لم أرد أن أعرف.

أخيراً، رأيت نوراً وكان بصيصاً مضيئاً كما قال السيد بوديتش، تقدمت أكثر فتحول النور إلى هالة كبيرة ومشرقة أبهرت عيني، وعندما أغمضتهما رأيت غباشة، لقد نسيت الدوار الذي تحدث عنه السيد بوديتش، ولكنني عندما أصبت به عرفت تماماً ما الذي تحدث عنه.

ذات مرة، عندما كنت في العاشرة، تنفست وبيرتي بيرد بشكل مفرط، ثمّ تعانقنا بشدة لنرى إن كنا سنغيب عن الوعي كما قال بيرتي، لم نغب عن الوعي، ولكنني شعرت بالدوار، ووقعت بطريقة غريبة، وكأنني في وضع الحركة البطيئة، ما شعرت به الآن يشبه ما سبق لي أن شعرت به عندما كنت في العاشرة. أضف إلى ذلك أنني شعرت وكأنني بالون من الهيليوم أطير فوق جسدي، وإذا قطع الحبل الذي يربطني به، فسأطوف بعيداً.

ثمّ اختفى الشعور كما قال السيد بوديتش تماماً، قال إنه كان هناك حدّ ولقد وصلت إليه حينها، لقد تركت سينتريز ريست وإيلينوي وأمريكا خلفي، كنت في العالم الآخر.

وصلت إلى المدخل، ورأيت أن السقف فوقي كان من الطين والتراب وعليه بعض السيقان والجذور والأوراق المتدلية. لقد انحنيت لأمر أسفل السيقان المتدلية، ووقفت عند طرف هضبة منحدرة. كانت السماء رمادية، ولكن الحقل كان ذا لون أحمر قانٍ، لقد زيّنته الأزهار، وجعلته يشبه سجادة مذهلة تغطي الحقل من كل حدب وصوب، لقد كان هناك ممر يقود إلى طريق، كما كان في الجانب البعيد من الطريق المزيد من الأزهار التي امتدت لمسافة ميل تقريباً باتجاه غابة وهذا ما ذكّرني بالغابة التي نمت في ضواحي بلدتي. كان الممر متلاشياً على عكس الطريق، كان ترابياً، ولكنه عريض، كان صلة وصل. هناك كوخ صغير عند نقطة التقاء الممر بالطريق، وهناك دخان يتصاعد من المدخنة الحجرية، وهناك حبال غسيل نشرت عليها أشياء لم تكن ثياباً، لم أستطع أن أُميّز ما هي.

نظرت إلى الأفق، ورأيت معالم مدينة كبيرة، انعكس ضوء النهار على أبراجها العالية التي بدت وكأنها مصنوعة من الزجاج، من الزجاج الأخضر. لقد قرأت ساحر أوز، وشاهدت الفيلم، وكنت قادراً على تمييز مدينة الزمرد حين أراها.

9

كان طول الممر المؤدي إلى الطريق والكوخ ميلاً تقريباً. وقفت مرتين: مرة لأنظر إلى الفتحة في طرف التلّ - بدت وكأنها بوابة كهف صغير مع تلك النباتات المتدلية فوق المدخل- ومرة أخرى لأتحقق من هاتفي- كنت أنتظر أن أرى إشارة تقول إنه لا يوجد تغطية، ولكنني لم أحصل على هذه

الإشارة- لم أستطع تفعيل هاتفي المحمول من نوع آيفون. كان عبارة عن مستطيل أسود لا يفيد في شيء سوى أن يكون سنادة أوراق.

لم أتذكر أنني انبهرت أو تفاجأت بمنظر تلك القمم الزجاجية، ولم أشكك في الإثباتات المنطقية وإثباتات حواسي، كان بوسعي أن أرى السماء الرمادية فوقي وكأنها سقف منخفض ينذر بمطر وشيك، وكان بوسعي أن أسمع أصواتاً غريبة قرب بنطالي وأنا أعبر الممر الضيق. وحين نزلت التلّ اختفت قمم المدينة عن ناظري ولم أرَ سوى أعلى ثلاث قمم. حاولت أن أقدّر كم تبعد عني، ولكنني لم أستطع ذلك، هل كانت تبعد ثلاثين ميلاً؟ أم أربعين؟

فاقت رائحة نبات الخشخاش كل هذا وكانت تشبه الكاكاو والفانيلا والكرز. كانت أجمل رائحة شممتها في حياتي بعد رائحة أمي حين كنت أضع وجهي في شعرها. لقد تمنيت ألا يهطل المطر، لم أتمنَّ هذا حتى لا أتبلل، بل لأنني عرفت أن المطر سيزيد من هذه الرائحة وستقتلني روعتها، (إنني أبالغ في الوصف، ولكن ليس بالقدر الذي تتخيلونه). لم أرَ أيّ أرانب كبيرة أو صغيرة، ولكنني سمعت صوت قفزاتها بين العشب والأزهار، ورأيت مرة ولثوانٍ معدودة أذنين طويلتين. لقد سمعت أصوات جنادب وتساءلت إن كانت عملاقة كالصراصير والخفافيش.

عندما اقتربت من الكوخ -ذي الجدران الخشبية والسقف المصنوع من القش- توقفت لأن ما رأيته أذهلني. كانت هناك أحذية معلقة على الحبال خلف الكوخ، كانت مصنوعة من الخشب والقماش كما كان هناك صنادل وشباشب. وكان أحد الحبال منخفضاً بسبب ثقل فردة حذاء جلدي عليها أزرار فضية، هل كان هذا حذاء ذا الفراسخ السبعة كما في الحكايات الخيالية القديمة؟ لقد بدا لي يشبهه تماماً. اقتربت قليلاً، ومددت يدي لألمسه، كان بنعومة الزبدة وبرقة الحرير، قلت لنفسي: صُنع للطريق، صُنع للقط ذي الجزمة، أين الفردة الأخرى؟

فتح باب الكوخ الخلفي، وكأنني استدعيت هذا بأفكاري، وخرجت منه امرأة تحمل الفردة الأخرى بيدها، وكانت الأزرار تلمع تحت الضوء الخافت المتسرب من ذلك اليوم الغائم. عرفت أنها كانت امرأة لأنها كانت ترتدي ثوباً ورديا وتنتعل حذاء أحمر ولأن صدرها كان كبيراً، ولكن بشرتها كانت رمادية ووجهها مشوها. بدت ملامحها وكأنها رسمت بالفحم ثم قام رسام عكر المزاج بتلطيخ وجهها وتشويش معالمها وكأنها لم تكن موجودة. كانت عيناها تشبهان عيني القطة وكانت فتحتا أنفها طوليتين، أما فمها فكان عبارة عن هلال من دون شفتين. كلمتني ولكنني لم أفهم ما قالت؛ أعتقد أن حبالها الصوتية كانت مشوشة كوجهها، ولكنني رأيت ابتسامة على الهلال الذي حل محل شفتيها. شعرت بأنه لا يفترض بي الخوف منها.

«هيز، هاز! آزي؟ إيرن؟» ولمست فردة الحذاء المعلقة على الحبل.

قلت لها: «أجل، جميل جداً، هل تفهمينني؟».

أومأت برأسها، ورسمت دائرة بواسطة السبابة والإبهام وهذا يعني حسناً حتّى في هذا العالم، (إلا عندما يقوم بها بعض المتعصبين الحمقى لتمثيل شعار هيمنة البيض). تفوهت بمزيد من هيز وهاز، ثمّ أشارت إلى حذائي الرياضي.

«ماذا؟».

نزعت فردة الحذاء التي كانت معلقة بوساطة ملقطين خشبيين عن الحبل، وكانا من النوع التقليدي الذي لم يحتوِ على نوابض. أشارت إلى حذائي الرياضي بيد وهي تمسك فردة الحذاء بيدها الأخرى، ثمّ أشارت إليها مجدداً.

لعلها كانت تسألني إن كنت أريد المقايضة.

«إنه عرض مغرٍّ، ولكنني لا أعتقد أنه يناسب قدمي».

رفعت كتفيها، وعلقت الحذاء مجدداً، تحرك حذاء آخر جيئة وذهاباً بفعل نسمة خفيفة، لقد شوشني النظر إلى ذلك الوجه الذي تكاد ملامحه تكون ممحية، حاولت بإصرار أن أتبين معالمها كما كانت من قبل، وكدت أنجح.

اقتربت مني، وشمت سترتي بأنفها ذي الفتحتين الطوليتين، ثمّ رفعت يديها إلى كتفيها ونبشت في الهواء.

«لا أفهم».

قفزت على قدميها، وأصدرت صوتاً، وعندما قارنت تينك الحركتين بالطريقة التي شمتني فيها توضحت لي الأمور.

«هل تقصدين رادار؟».

أومأت برأسها بقوة لدرجة أن شعرها البني تطاير حولها، أصدرت صوت واز-واز-واز اعتقدت أنه كان أقرب شيء لنباح كلب أي ووف-ووف-ووف.

«إنها في منزلي».

أومأت برأسها، ووضعت يداً على صدرها فوق قلبها.

سألتها: «إن كنت تقصدين أنك تحبينها فأنا أحبها أيضاً، متى رأيتها آخر مرة؟».

نظرت بائعة الأحذية إلى السماء، وكأنها تحسب الوقت، ثمّ رفعت كتفيها وقالت: «بعي».

«إن كنت تقصدين منذ زمن بعيد فهذا صحيح على الأرجح، لأنها عجوز الآن، لم تعد تقفز كثيراً في هذه الأيام، ولكن السيد بوديتش... هل تعرفينه؟ إن كنت تعرفين ريدز فلا بد من أنك تعرفين السيد بوديتش».

أومأت بالحماسة السابقة نفسها، وابتسمت بما تبقى من فمها، لم يكن لديها سوى القليل من الأسنان، ولكنها كانت بيضاء ناصعة ومتناقضة مع بشرتها الرمادية، «أريان».

«أدريان؟ أدريان بوديتش؟».

أومأت بشدة ولا بد أنها قد آلمت رقبتها.

«ولكنك لا تعرفين كم مر من الوقت على قدومه إلى هنا، أليس كذلك؟».

نظرت إلى السماء، ثمّ أشاحت بوجهها.

«هل كانت رادار صغيرة حينها؟».

«إيه-إيه».

«هل كانت جروا؟».

أومأت برأسها مجدداً.

أمسكت بذراعي وأبعدتني عن الزاوية، (كان عليّ أن أحني رأسي تحت حبل آخر من الأحذية المعلقة كي لا أموت مشنوقاً). كانت هناك بقعة من التراب وكانت محروثة وكأنها كانت تعدها لزراعة شيء ما، كما كانت هناك عربة صغيرة من الطراز القديم ذات مقبضين خشبيين طويلين، كان فيها كيسان من القش كما ظهر منهما أشياء خضراء اللون. انحنت، وأشارت لي أن أفعل مثلها.

كان كلّ منا يواجه الآخر في تلك الوضعية، حركت إصبعها ببطء شديد وبتردد وهي تكتب على التراب، توقفت مرة أو مرتين لتتذكر الحرف التالي على ما أعتقد ثمّ تابعت.

حظ بحيا جميل

ثم كتبت بعد برهة:

؟

حاولت أن أفهمها، ثمّ أشحت بوجهي، جثت المرأة على أطرافها الأربعة، وقلّدت صوت النباح بطريقتها ففهمت حينها.

قلت لها: «أجل، لقد حظيت بحياة جميلة، ولكنها أصبحت عجوزاً الآن كما سبق لي وأن أخبرتك... ليست على ما يرام».

عندها توضحت لي الأمور، واستوعبت هولها، ليس بشأن رادار أو السيد بوديتش وحسب بل بشأن كل شيء. كانت الهدية عبئاً كان عليّ حمله، بالإضافة إلى الصراصير المتحللة والعثور على المنزل رقم 1 على شارع سيكامور وهو في حال خراب الرجل الذي قتل السيد هايرنيك على الأرجح، كما فكّرت في الوضع الذي كنت فيه حينها وأنا أجثو على التراب مع امرأة شبه عديمة الملامح كانت تجمع الأحذية وتعلقها على حبال متقاطعة. ولكن ريدز كانت فوق كل هذا، فكرت كيف كانت تعاني أحياناً في النهوض صباحاً أو بعد قيلولة وحين كانت تنظر إليّ عندما لا تنهي طعامها كله وكأنها تقولي لي: أعرف أنه عليّ أن أرغب بتناوله كله، ولكنني لا أريد ذلك، فشرعت بالبكاء.

وضعت امرأة الأحذية ذراعها حول كتفي وعانقتني.

قالت: «اهد'أ»، ثمّ قالتها بعد عناء ولكن بوضوح تام.

«اهدأ».

عانقتها بدوري، كانت رائحتها زكية، لاحظت أنها كانت تشبه رائحة نبات الخشخاش، لقد شهقتُ وأنا أبكي فعانقتني وربتت ظهري، وعندما ابتعدت

عنها لم تكن تبكي -لعلها لم تكن تستطيع البكاء- ولكن الهلال الذي حلّ محل شفتيها كان ينحني إلى الأسفل وليس إلى الأعلى، مسحت وجهي بكم سترتي، وسألتها إن كان السيد بوديتش قد علمها الكتابة أم أنها كانت تعرف أن تكتب بالفعل.

وضعت إبهامها قرب أول إصبعين من يدها وكانا ملتصقين إلى حدّ ما.

«لقد علمك القليل؟».

أومأت برأسها، ثمّ كتبت على التراب مجدداً.

سديك

«كان صديقي أيضاً ولكنه مات».

أمالت رأسها جانبياً فنزل شعرها إلى كتف ثوبها.

«لقد مات».

غطت عينيها اللتين كانتا تشبهان عيني القطة، وكان هذا أصدق تعبير عن الأسى رأيته في حياتي، ثمّ عانقتني مجدداً، أفلتتني وأشارت إلى الحذاء على أقرب حبل وأشاحت بوجهها.

وافقتها الرأي وقلت: «كلا، لن يحتاج أحذية بعد الآن».

أشارت إلى فمها، ومضغت، كانت هذه حركة مريعة للغاية، ثمّ أشارت إلى الكوخ.

«إذا كنت تسألينني هل أريد تناول الطعام فشكراً، ولكنني لا أستطيع، عليّ أن أعود إلى المنزل، ولكن ربما سأعود لأتناول الطعام مرة أخرى وفي أقرب وقت، سأحضر معي رادار إن استطعت. قال السيد بوديتش قبل أن يموت أن هناك طريقة لأعيد لها الشباب مجدداً، أعلم أن هذا غير منطقي،

ولكنه قال إن الأمر قد نفع معه، أخبرني عن ساعة شمسية عملاقة، هناك»، وأشرت باتجاه المدينة.

اتسعت عيناها قليلاً، وفُتح فمها فتحول الهلال إلى ما يشبه دائرة، وضعت يديها على وجنتيها الرماديتين وكانت تشبه تلك اللوحة المشهورة التي تصور امرأة تصرخ. انحنت على التراب مجدداً، ومسحت ما كتبته، لقد كتبت بشكل أسرع هذه المرة. لا بد أنها كانت كلمة تكثر من استخدامها لأنها كتبتها بشكل صحيح.

خطر

«أعلم هذا، سأكون حذراً».

وضعت إصبعها المتهالك على فمها الممحو لتقول لي أن ألتزم الهدوء.

«أجل، عليّ أن أكون هادئاً هناك، لقد أخبرني بهذا أيضاً، ما اسمك يا سيدتي؟ هل بإمكانك أن تخبريني باسمك؟»

أشاحت بوجهها بسرعة، ثمّ أشارت إلى فمها.

«يصعب عليك أن تتكلمي بوضوح».

أومأت برأسها، وكتبت على التراب.

ديري، نظرت إلى ما كتبته، ثمّ أشاحت بوجهها ومسحت الاسم، ثمّ حاولت مجدداً.

دورا.

سألتها إن كان ديري لقباً، أو حاولت أن أسألها، ولكنني لم أستطع أن أتفوه بكلمة لقب. لم يعنِ هذا أنني نسيتها، ولكنني لم أستطع أن أنطق بها. استسلمت وسألتها: «هل كان يناديك السيد بوديتش ديري تحبباً يا دورا؟».

أومأت برأسها، ثمّ نهضتْ ومسحت يديها، ونهضتُ بدوري.

«لقد سررت بلقائك جداً يا دورا»، لم أكن أعرفها بشكل جيد لأناديها ديري، ولكنني تفهمت لما كان السيد بوديتش يُلقبها بذلك الاسم، كانت طيبة القلب.

أومأت برأسها، وربتت صدري، ثمّ على صدرها، أعتقد أنها فعلت ذلك لتريني أننا أصبحنا صديقين أو «سديكين»، ارتفع هلال فمها مرة أخرى، وقفزت على حذائها الأحمر كما كانت تقفز رادار بحسب ما أعتقد قبل أن تؤلمها مفاصلها.

«أجل، سأحضرها معي إن استطعت وإذا كانت قادرة، كما سآخذها إلى الساعة الشمسية إن استطعت»، على الرغم من أنني لم أمتلك أيّ فكرة عن كيفية فعل ذلك.

أشارت إليّ، ثمّ أشارت برفق إلى الهواء وكانت راحتاها إلى الأسفل. لست متأكداً ولكنني أعتقد أنها كانت تقول لي أن آخذ حذري.

«سأفعل هذا، شكراً للطفك يا دورا».

اتجهت إلى الممر، ولكنها أمسكت بسترتي وسحبتني إلى الباب الخلفي لكوخها الحميم.

«لا أستطيع حقاً...».

أومأت برأسها لتقول إنها تفهمت أنني لن أستطيع تناول وجبة معها، ولكنها ظلت تشدني، عندما وصلنا إلى الباب الخلفي أشارت إلى الأعلى، كان هناك شيء محفور على عتبة الباب العلوية، وكان أعلى من متناول يد دورا. كان الحرفان الأولان من اسمه محفورين عليها: أي. بي. وكانا حرفيه الأصليين.

خطرت لي فكرة حينها، وانبثقت من عدم قدرتي على لفظ كلمة لقب، أشرت إلى الحرفين وقلت: «هذا...» شيء خلبي وكان هذا أغبى تعبير يمكنني التفكير به، ولكنه كان اختباراً جيداً.

لم أستطع أن أتفوه بتلك الكلمات، لم تخرج من فمي.

نظرت دورا إليّ.

قلت لها: «رائع، هذا رائع».

10

صعدت التلّ، وانحنيت أسفل السيقان المتدلية، وانطلقت على الممر، راودني شعور الدوار أو الاستغراب من العالم الآخر واختفى بالتناوب، كانت الخفافيش ترفرف فوقي، ولكنني كنت مشغولاً بما حدث لدرجة أنني لم أعرها كثيراً من اهتمامي وشغلت المصباح بغبائي لأرى كم تبقى لي من مسافة. لم تطر جميعها، ولكن بعضها طار بعيداً ورأيتها ببصيص النور، كانت كبيرة فعلاً بل عملاقة، مشيت في الظلام، ومددت يدي كي أبعدها عني في حال اقتربت مني، ولكنها لم تقترب، وإن كانت هناك صراصير كبيرة فلم أسمعها.

لم أستطع أن أقول كلمة لقب ولا شيء خلبي، هل كنت سأستطيع التفوه بكلمة متحذلق أو لعبة ناكل ساندويش أو ماذا تخترع يا صاح؟ لم أعتقد أنني سأستطيع فعل ذلك، لم أكن واثقاً مئة في المئة أنني كنت أعرف معنى عدم القدرة ولكنني كنت متأكداً إلى حدّ كبير. اعتقدت أن دورا فهمتني لأنها كانت تفهم اللغة الإنكليزية... ولكن ماذا لو فهمتني لأنني كنت أتحدث لغتها؟ وهي لغة لا توجد فيها كلمة لقب أو شيء خلبي؟

وحين انتهت الأرض الحصوية، وبدأت الأرضية الترابية شعرت أن بوسعي إنارة المصباح، ولكنني أبقيته موجهاً إلى الأسفل. كانت هناك مسافة

ربع ميل بين الأرض الحصوية وبداية الدرجات، لقد قال لي السيد بوديتش هذا وادعى حتّى أنه حسبها، لم أنسَ أن أعد خطواتي هذه المرة وكنت قد وصلت للخطوة خمسمئة وخمسين حين رأيت الدرجات. استطعت رؤية مصباحي البطارية اللذين وضعهما بنفسه أعلى البئر.

صعدت بثقة بعكس ما شعرت به وأنا أنزل، ولكنني أبقيت كتفي اليمنى ملاصقة للجدار. خرجت دون أي حادثة وانحنيت لأعيد اللوح الثاني إلى مكانه حين شعرت بفوهة دائرية وصلبة تلامس رأسي. تجمدت في مكاني.

«هذا صحيح، ابق مطيعاً والتزم الهدوء ولن نختلف، سأقول لك متى تتحرك»، كان من السهل عليّ أن أتخيل ذلك الصوت الغنائي الخافت وهو يقول: ماذا ستعطيني إذا حولت قشك ذهباً؟

«لا أريد أن أطلق النار عليك يا صغيري، ولن أقوم بذلك إن حصلت على ما أتيت لآخذه» ثمّ أضاف: «ها-ها».. ولم تكن ضحكة بل كالكلمات الواردة في الكتب.

الفصل الثاني عشر

كريستوفر بولي- ذهب سائب- لست مطواعاً- التحضيرات.

1

لا أتذكر ما شعرت به في تلك اللحظة، ولكنني أتذكر ما فكّرت فيه: إن رومبلستيلتسكين يوجّه مسدساً إلى مؤخرة رأسي.

«ماذا يوجد في الأسفل؟».

«ماذا؟».

«لقد سمعتني، لقد أمضيت وقتاً طويلاً في تلك الحفرة لدرجة اعتقدتُ أنك مت، لذا أجبني ماذا يوجد في الأسفل؟».

راودتني فكرة أخرى حينها: لا يجب أن يعرف، لا يجب أن يعرف أحد بهذا.

«آلة ضخ»، إنها الفكرة الأولى التي خطرت في بالي.

«آلة ضخ؟ آلة ضخ؟ أهذا صحيح ها-ها؟»

«أجل، وإلا سيفيض كل شيء في الباحة الخلفية عندما يهطل المطر كما أن المضخة تصل إلى الشارع»، كان دماغي في وضع التفكير الأقصى. «إنها قديمة، تحققت منها لأرى إن كان يجدر بي الاتصال بشخص من المدينة كي ينزل ويتفحصها، وكما تعلم إن مديرية الميا...».

«هذا هراء ها-ها، ماذا هناك حقاً؟ هل هناك ذهب في الأسفل؟».

«كلا، فقط آلات».

«لا تتحاذق أيها الفتى، فلن يفيدك هذا شيئاً على الإطلاق، لقد نزلت إلى هناك مع مسدس كبير ها-ها لتتحقق من مضخة مياه؟».

قلت له: «جرذان» وكان فمي جافاً جداً، «اعتقدتُ أن هناك جرذاناً».

«هذا هراء كما أن قصتك ليس لها أساس من الصحة، ماذا هناك إذاً؟ المزيد من آلات الضخ؟ لا تتحرك، انظر إلى يمينك فقط».

نظرت ورأيت الجثة المتحللة للصرصار الكبير الذي أطلق السيد بوديتش النار عليه، لم يتبقَّ منه الكثير.

لقد خذلني اختراعي الواهي حينها، وقلت له لا أعرف، ولم يكترث الرجل الذي شبهته برومبلستيلتسكين. كان يركّز على الجوائز.

«لا عليك، دعنا نتحقق الآن من خزنة الرجل العجوز، ولعلنا سنتحقق من آلة الضخ في وقت لاحق، هيّا إلى المنزل يا صغيري، وإذا أحدثت أيّ جلبة على الطريق، فسأطلق النار عليك، ولكن عليك أولاً أن تفك حزام المسدس يا صاح ها-ها، أنزله».

شرعت أنحني كي أفك عقد الحزام، فضربني بالمسدس بقوة على رأسي.

«هل قلت لك أن تنحني؟ كلا، قلت لك أن تفك الحزام».

فككت الحزام، وضرب القراب بركبتي، وانقلب فسقط المسدس على أرضية المستودع.

«احزمه مجدداً، يا له من حزام جميل ها-ها».

(سوف أتوقف الآن عن ذكر جملة ها-ها اللعينة لأنه لم يكف عن التفوه بها، وكانت نوعاً من أدوات الترقيم اللفظية، دعوني أضفْ أنها كانت تشبه كلام رومبلستيلتسكين لدرجة بعيدة، أي أنها كانت مريبة للغاية).

«استدر الآن».

استدرت واستدار معي، كنا نشبه شكلين في صندوق موسيقي.

«ببطء يا صاحِ، ببطء».

خرجت من المستودع وخرج معي، كان الطقس غائماً في العالم الآخر، ولكنه مشمس هنا. استطعت رؤية ظلينا؛ كان ظله يظهر أن ذراعه كانت ممدودة، وظل يده يمسك ظل مسدس، ازدادت قدرة دماغي على التفكير، ولكن ليس بالشكل المطلوب، لقد وقعت في الفخ تماماً.

صعدنا درجات الشرفة الخلفية، فتحت الباب ودخلنا المطبخ. تذكرت أنني فكرت في كل المرات التي كنت فيها هنا، ولم أشك أبداً أنني كنت

سأدخل إلى هنا لآخر مرة قريباً، وهذا لأنه كان سيقتلني.

ولكنه لا يستطيع قتلي، ولا أستطيع السماح له بقتلي، فكّرت كيف سيعرف الناس ببئر العالمين، وأيقنت أنه ليس بإمكاني أن أسمح له بقتلي، فكّرت كيف ستهيمن شرطة المدينة أو قوات التدخل السريع لشرطة الولاية أو الجنود على مرج امرأة- الأحذية الصغير، وكيف سيقتلعون حبالها ويرمون أحذيتها على التراب ويخيفونها، وأيقنت أنني لا أستطيع السماح بهذا، تراءى لي كيف سيقتحم أولئك الرجال المدينة المهجورة، ويوقظون من كان نائماً هناك، وأيقنت أنني لا أستطيع السماح بحدوث هذا، ولكنني لم أستطع إيقافه، والمقلب انطلى عليّ.

ها-ها.

2

صعدنا إلى الطابق الثاني، وكنت أنا في المقدمة ومشى خلفي رومبلستيلتسكين اللعين. فكّرت في أن أنقض من الخلف، وأدفع به على الدرج، ولكنني لم أُحاول. كان من الممكن أن ينجح ذلك، ولكن احتمال أن ينتهي بي المطاف مقتولاً إن لم أنجح كان كبيراً. كانت رادار ستنقض عليه إن كانت هنا بغض النظر عن عمرها، وكانت ستقتل هي الأخرى.

«إلى غرفة النوم التي فيها الخزنة يا صديقي».

دخلت غرفة نوم السيد بوديتش: «لقد قتلت السيد هاينريك أليس كذلك؟».

«ماذا؟ هذا أغبى شيء سمعته في حياتي، لقد ألقوا القبض على قاتله».

لم أتابع الموضوع، فأنا أعرف أنه الفاعل، وكنت متأكداً من أنه يعرف أنني أعرف ذلك. كما كنت أعرف أموراً أخرى أيضاً. وأول شيء كنت أعرفه

هو أنه سيقتلني إن ادعيت أنني لا أعرف شيفرة الخزنة، وأصررت على هذا، أما الشيء الثاني فكان تعديلاً للشيء الأول.

«افتح الخزانة يا صاح».

فتحت الخزانة، وارتطم القراب الفارغ بفخذي، كم أنا سيئ في حمل السلاح!

«افتح الخزنة الآن».

«إذا فعلت هذا فستقتلني».

عَمّ الصمت لوهلة وهو يستوعب تلك الحقيقة القاطعة ثمّ قال: «كلا، لن أقتلك بل سأكتفي بتقييدك ها-ها».

كانت تلك العبارة في مكانها الصحيح، لأنني تساءلت كيف سيفعل ذلك، قالت السيدة ريتشلاند إنه رجل صغير وبطولها وهذا يعني أن طوله خمس أقدام وأربعة إنشات تقريباً، كنت أطول منه بقدم كاملة كما كان جسمي رياضياً في تلك الأيام بفضل أعمال التصليح في المنزل وقيادة الدراجة، ولذا استخلصت أن تقييدي من دون مرافق له ليقوم بكبحي كان مستحيلاً.

«أحقاً ستفعل هذا؟» وجعلت صوتي يبدو مهزوزاً. وصدقوني لم أعانِ في هذا.

«أجل! افتح الخزنة الآن!»

«هل تعدني؟».

«رايتو يا صاحبي بالتأكيد، افتحها الآن، وإلا سأطلق النار على ركبتك كي لا ترقص التانغو مجدداً ها-ها».

«حسناً، ولكن بشرط أن تعدني ألا تقتلني».

«اعتراض! كما يقولون في المحكمة حيث إنك سألتني مسبقاً وأجبتك، افتح الخزنة!»

بالإضافة إلى كل الأشياء التي كان عليّ أن أعيش من أجلها لم أفضل أن يكون ذلك الصوت المريب آخر شيء أسمعه في حياتي، لم أستطع أن أقبل بذلك، «حسناً».

جثوت أمام الخزنة وقلت لنفسي: سيقتلني ولا يمكنني أن أسمح له بفعل ذلك.

من أجل رادار.

ومن أجل امرأة- الأحذية.

ومن أجل السيد بوديتش الذي أعطاني عبئاً عليّ تحمله، لأنه لم يكن هناك مرشح آخر لفعل ذلك ببساطة.

هدأت حينها.

قلت له: «هناك كثير من الذهب، لا أعرف ما مصدره، ولكنه شيء خلبي، لقد دفع فواتيره منه لمدة سنوات».

«كف عن الكلام وافتح الخزنة!»، ثمّ قال وكأنه لم يستطع أن يكبح نفسه: «كم يوجد؟».

«لا أعرف يا رجل! ربما ما يعادل مليون دولار، إنه في دلو ثقيل لدرجة أنني لا أستطيع رفعه».

لم تكن لديّ أدنى فكرة عن الطريقة التي سأقلب فيها الطاولة على ذلك اللعين، كانت لديّ فرصة إن كنا وجهاً إلى وجه، ولكن فرصي نضبت

بسبب فوهة المسدس التي كانت تبعد أقل من إنش عن مؤخرة رأسي، ولكن حين وصلت لمستوى احترافي في الرياضتين اللتين كنت ألعبهما تعلمت أن أفصل دماغي في المباراة وأسلم الراية لجسدي، كان عليّ أن أفعل هذا الآن، فلم يكن لديّ خيار آخر، وأحياناً في مباريات كرة القدم حين نكون متأخرين وخصوصاً في مباريات الذهاب حيث يكون هناك حضور حافل يستخف بنا، كنت أرُكّز على الظهير الرباعي للفريق الآخر، وأقول لنفسي كم هو لعين وأنه عليّ أن أنهيه تماماً، لم تنجح هذه الخطة كثيراً إلا إذا كان هذا الشخص متعجرفاً ويتهكم على الناس بعد مباراة كبيرة، ولكنها نفعت مع هذا الشخص، لقد كان لديه صوت متعجرف ولم أجد صعوبة في كرهه.

«كف عن التباطؤ أيها الجذع الطويل، يا صاحب الجذع الطويل، افتح الخزنة، وإلا لن تمشي بشكل مستقيم مجدداً».

كانت العبارة الأنسب هي: وإلا لن تمشي مجدداً.

أدرت دولاب الشيفرة باتجاه... ثمّ بالاتجاه الآخر... ثمّ بالاتجاه الأول مجدداً، لقد أدخلت ثلاثة أرقام وبقي واحد. خاطرت ونظرت خلفي، فرأيت وجهاً متذمراً -وجه نمس تقريباً- تحت قبعة وايت سوكس عليها تاج عال ودائرة حمراء في اسم سوكس: «هل يمكنني أن أحظى ببعض منه؟».

ضحك بخبث، يا له من وغد: «افتحها! كف عن النظر إليّ وافتحها!»

أدرت الدولاب لأدخل الرقم الأخير، وسحبت المقبض، لم أستطع أن أراه وهو يراقبني، ولكنني شممت رائحته: عرق متخمر من النوع الذي يتراكم على جلد شخص بعد أن يمضي فترة طويلة من دون استحمام.

فتحت الخزنة لم أتردد لحظة، حيث إن المترددين يخسرون. أمسكت الدلو من فتحته، وقلبته بين ركبتي المتباعدتين، فتناثرت قطع الذهب على الأرض في كل حدب وصوب، وفي اللحظة نفسها دخلت إلى الخزانة، أطلق النار ولم يكن الصوت عالياً؛ كان أشبه ما يكون بمفرقعات نارية متوسطة

الحجم. شعرت بالرصاصة وهي تمر قرب كتفي وأذني واهتزت معاطف السيد بوديتش التقليدية حين مرت الرصاصة بينها.

كان السيد بوديتش يملك كثيراً من الأحذية ولا بد من أن دورا كانت ستغار منه. أمسكت فردة حذاء ثقيل ورميته بها، فتجنب تلك الرمية. رميت الفردة الأخرى، فاصطدمت بصدره. تراجع حيث كانت قطع الذهب تقفز في كل مكان فانزلق، سقط أرضاً بقوة، وفتح ساقيه لتخفيف وقع السقوط، ولكنه تشبث بمسدسه. كان أصغر بكثير من مسدس السيد بوديتش من عيار 0.45، وهذا ما فسّر لي صوته المنخفض.

لم أحاول أن أقف على قدمي بل جلست القرفصاء، ثمّ مددت فخذي وساقي، طرت فوق الذهب المتدحرج كسوبرمان وحططت فوقه. كنت كبيراً وكان صغيراً، فلم يستطع التنفس وشهق، كانت عيناه منتفختين أما شفتاه فكانتا حمراوين ولامعتين بسبب لعابه.

همس لي لأنه لم يستطع التنفس: «ابتعد... عني... في الحال!»

وكأنني كنت سألبي طلبه.، حاولت الإمساك بيده التي يقبض بها على المسدس، ولكنني أخفقت، فحاولت مجدداً قبل أن يقربها من وجهي، أطلق المسدس النار مجدداً. لم أعرف ما الذي أصابته الرصاصة، ولم أكترث لأنها لم تصبني. كان معصمه يتفصد عرقاً، فعانيت في إحكام قبضتي. لذا طبقت كامل قوتي وحنيته، سمعت صوت طقة، صرخ بصوت عالٍ، وبعدها سقط المسدس من يده وارتطم بالأرض، تناولته ووجهته نحوه.

صرخ مجدداً، ووضع يده السليمة على وجهه، وكأنها ستوقف الرصاصة. تخبطت يده الأخرى حول معصمه المكسور الذي بدأ بالتورم: «لا! لا تفعلها! لا تطلق النار عليّ! أرجوك!»

لم يقل حينها ها-ها اللعينة أبداً.

لا بد من أن رأياً جيداً تكوّن لديكم عن الفتى تشارلي حتى هذه النقطة على ما أعتقد -وكأنه بطل في كتب مغامرات اليافعين تلك، أنا الطفل الذي لم يبرح جانب أبيه حين كان ثملاً، وكان يمسح قيئه، ويصلي من أجل تعافيه (على ركبتيه!)، ونال ما صلى من أجله فعلاً. أنا الفتى الذي أنقذ رجلاً عجوزاً حين سقط عن السلم، وهو يحاول تنظيف مصارف المياه. كما أنني الفتى الذي ذهب لزيارته في المستشفى، واعتنى به حين عاد إلى المنزل. والفتى الذي وقع في حب كلبته الوفية التي بادلته الحب. لقد حملت مسدس 0.45 وتشجعت على قطع دهليز مظلم (ناهيكم عن البرية الهائلة) وخرجت إلى عالم آخر، وصادقت امرأة عجوزاً مشوهة الوجه كانت تجمع الأحذية. أنا الفتى الذي تفوق على قاتل السيد هاينريك عن طريق إلقاء دلو قطع الذهب على الأرض كي يفقد توازنه ويسقط، يا إلهي! كما أنني كنت ألعب رياضتين باحتراف! بالإضافة إلى أنني قوي وطويل ولم يظهر عليّ حب الشباب! إنني مثالي أليس كذلك؟

لكنني كنت كذلك الطفل الذي وضع مفرقعات نارية في صناديق البريد، وفجّر ما كان على الأرجح بريداً مهماً لبعض الأشخاص، كما كنت الفتى الذي لطّخ نافذة سيارة السيد داودي بروث الكلب، وعصر لاصق إيلميرز في فتحة محرك سيارة السيدة كيندريك الفورد القديمة حين وجدناها أنا وبيرتي مفتوحة. لقد رافقني بيرتي بيرد في جميع تلك الحوادث وكان الإخبار عن إنذار القنبلة من أفعال بيرد، ولكنني لم أوقفه. هناك أمور أخرى لن أقولها لكم لأنني أشعر بالعار حيالها، كل ما سأقوله هو أننا أخفنا بعض الأطفال الصغار كثيراً لدرجة أنهم بكوا وبللوا أنفسهم.

لست مطواعاً أليس كذلك؟

كنت غاضباً من هذا الرجل الصغير الذي كان يرتدي بنطالاً قصيراً متسخاً وسترة نايك، كما كان شعره المتسخ يغطي حاجبيه اللذين كانا على وجهه الذي يشبه وجه النمس. كنت غاضباً (بالطبع) لأنه كان سيقتلني حين يحصل على الذهب -سبق له أن فعل ذلك فما الذي يردعه؟ كنت غاضباً لأنه إن قتلني فسيدخل رجال الشرطة -الذين سيترأسهم على الأرجح المحقق غليسون ومساعداه المقدامان الشرطيان ويتمارك وكوبر- إلى المستودع من أجل التحقيق، ويعثرون على شيء سيجعل من جريمة قتل تشارلز ماكغي ريد شيئاً لا يذكر أمامه، كنت أكثر فتى غاضب في العالم -ربما لن تصدقوني، ولكنني أقول الحقيقة- لأن تدخل الرجل الصغير صعّب كل شيء. هل كان عليّ أن أُبلغ عنه الشرطة؟ كان هذا سيقود لاكتشاف الذهب، وسيقود إلى عدد لا نهائي من الأسئلة، وحتى لو جمعته عن الأرض وأعدته إلى الخزنة فكان السيد ها-ها سيخبرهم إما لاستعطاف محامي المنطقة أو ستخرج منه المعلومة عفوياً.

كان الحل لمشكلتي بديهياً، إن مات فلن يستطيع إخبار أحد، وعلى فرض أن سمع السيدة ريتشلاند لم يكن حاداً كبصرها (كما أن تينك الطلقتين لم تكونا عاليتين بالفعل)، فلم يكن هناك داع لقدوم الشرطة، كما كان لديّ مكان لإخفاء الجثة.

أليس كذلك؟

4

مع أن يده لا تزال أمام وجهه، استطعت أن أرى عينيه من الفراغات بين أصابعه، كانتا زرقاوين معشقتين بالأحمر، وكان على وشك البكاء. لقد عرف ما يدور في ذهني حيث استطاع أن يستشف هذا من تعابير وجهي.

«كلا، أرجوك، أفلتني أو اتصل بالشرطة إن كان عليك هذا، فقط لا تق-تق-تقتلني».

«ولكنك كنت ستقتلني؟».

«ما كنت لأقتلك، أقسم بالله وبقبر أمي أنني ما كنت سأقتلك. أقسم إنني ما كنت سأقتلك».

«ما اسمك؟».

«ديريك! ديريك شيبرد».

ضربته على وجنته بمسدسه، كان بوسعي أن أقول لكم إنني لم أرد فعل ذلك أو أنني لم أدرك أنني سأفعل ذلك إلى أن فعلت، ولكن تلك الكلمات محض أكاذيب، كنت على دراية تامة بما سأفعل وشعرت بتحسن، سال الدم من أنفه، كما سال دم إضافي من جانب فمه.

«هل تعتقد أنني لم أتابع مسلسل غريز أناتومي أيها الوغد؟ ما اسمك؟».

«جاستن تاونز».

ضربته مجدداً، حاول أن يفلت مني، ولكن محاولاته باءت بالفشل. في الواقع، لم أكن سريعاً جداً، ولكن لم يكن هناك خطب في انعكاساتي، أنا واثق أن تلك الضربة كسرت أنفه ولم تكتفِ بإدمائه، صرخ... ولكن صراخه لم يكن أعلى من همس.

«لا بد من أنك تعتقد أنني لا أعرف جاستن تاونز إيرل أيضاً، في الواقع لديّ ألبوم موسيقي له، سأمنحك آخر فرصة أيها اللعين، وبعدها سأطلق النار على رأسك».

قال: «بولي»، بدأ أنفه يتورم -كانت وجنته قد تورمت بالكامل- وتكلم وكأنه مصاب بالزكام.

«كريس بولي».

«ألق لي بمحفظتك».

«ليست معي...».

راقبني وأنا أتراجع لأكبح يده السليمة مجدداً، كان لديّ مخططات كثيرة بخصوص تلك اليد، ولا بد من أنها ستخفض من تقييمي لديكم أكثر فأكثر على الأرجح. ولكن عليكم أن تتذكروا أنني كنت في ثورة غضب، كما كنت أفكر برومبلستيلتسكين مجدداً. لعلني لم أستطع أن أرغم هذا اللعين على أن يغرز قدمه في الأرض، ويشق نفسه إلى قسمين، ولكن كان بوسعي أن أجعله يهرب كرجل كعكة الزنجبيل ها-ها.

«حسناً، حسناً!».

نهض ومدّ يده إلى جيب بنطاله الخلفي، الذي لم يكن متسخاً فحسب، بل كان قذراً. كان كم معطفه ممزقاً، كما كان طرفه مهترئاً، بغض النظر عن المكان الذي مكث فيه هذا الرجل. ولكنني واثق أنه لم يكن يعيش في هيلتون. كانت المحفظة مهترئة وبالية، فتحتها لبرهة، واستطعت أن أرى ورقة عشرة دولارات ورخصة قيادة باسم كريستوفر بولي، كان عليها صورة له وهو يافع وكان عابس الوجه. أغلقتها ووضعتها في جيبي الخلفي قرب محفظتي.

«يبدو أن رخصة قيادتك منتهية الصلاحية منذ العام 2005، عليك أن تجددها في حال بقيت على قيد الحياة».

«لا أستطيع...». ثمّ أغلق فمه.

«لا تستطيع تجديدها؟ هل عليها مخالفة بسبب القيادة تحت تأثير المخدرات؟ أو بسبب السجن؟ هل كنت في السجن؟ هل كان هذا هو السبب الذي جعلك تستغرق وقتاً طويلاً قبل أن تسرق وتقتل السيد هاينريك؟ لأنك كنت في سجن الولاية؟»

«لم أكن هناك».

«حسناً، أين كنت؟».

صمت قليلاً، ولم أكترث. وكما تعوّد السيد بوديتش أن يقول: لم يكن هذا التفصيل وثيق الصلة بالموضوع.

«كيف عرفت بشأن الذهب؟».

«رأيت بعضاً منه في متجر الألماني قبل أن أُنفذ عقوبة في سجن المقاطعة». كان بوسعي أن أسأله كيف اكتشف مصدر الذهب وكيف أوقع بالمتسول دواير، ولكنني كنت واثقاً إلى حدّ كبير من معرفتي بالأمرين. أضاف: «دعني أذهب ولن أزعجك مجدداً».

«لا، لن تفعل ذلك لأنك ستكون في السجن وليس في سجن المقاطعة فحسب. سأتصل بالشرطة لأبلغ عنك يا بولي، سيحكم عليك بالسجن بتهمة القتل. لذا دعني أسمعك تقول ها-ها».

«سأبوح بكل شيء، سأبوح بأمر الذهب، ولن تحصل على أي شيء منه».

لقد كان مخطئاً حيث كنت سأحصل عليه لأنه ملكي حسب الوصية، ولكنه لم يعرف ذلك.

قلت له: «هذا صحيح، شكراً لأنك أوضحت لي هذه المسألة. سيتوجب عليّ أن ألقي بك إلى جانب آلة الضخ إذاً، إنني محظوظ لأنك رجل صغير، ولن أؤذي ظهري إذا فعلت ذلك».

رفعت المسدس. كان بوسعي أن أقول لكم أنني رفعته لإخافته فحسب، ولكنني لم أكن متأكداً من ذلك، كما كنت أكرهه لأنه عبث بمنزل السيد بوديتش ودنسه، وأعتقد أنني قلت لكم إن قتله سيسهّل كل شيء.

لم يصرخ -لا أعتقد أنه كان يتنفس بشكل جيد- ولكنه تأوه، وتبللت المنطقة الوسطى من سرواله. أخفضت المسدس... قليلاً.

«لنفترض أنني قلت لك إنك تستطيع العيش يا سيد بولي، وليس هذا فقط بل ستنفد بجلدك كما يُقال، هل سيفيدك هذا؟».

«أجل، دعني أذهب، ولن أزعجك مجدداً».

قلت لنفسي: قال تلك الكلمات كبرومبلستيلتسكين حقيقي.

«كيف وصلت إلى هنا؟ هل مشيت؟ أم ركبت الباص إلى جادة ديربورن؟». واستناداً إلى الدولارات العشرة في محفظته لم أعتقد أنه استقل أوبر، من الممكن أنه قد أخلى غرفة السيد هاينريك -حيث إن الأشياء التي وضعت بحوزة دواير كانت إثباتاً على هذا- ولكن إن فعل ذلك فهو لم يُبدل أياً من غنائمه إلى مال نقدي. لعله لم يعرف الآلية، وربما كان ماكراً، ولكن هذا لم يعنِ أنه كان ذكياً أو لم تكن هناك علاقة بين الأمرين.

«لقد أتيت عن طريق الغابة». أشار بيده السليمة إلى الحزام الأخضر وراء عقار السيد بوديتش. وكان هذا كل ما تبقى من غابة سينتري التي كانت تغطي هذا الجانب من البلدة منذ قرن.

لقد أعدت تقييم بنطاله القذر ومعطفه الممزق. لم تقل السيدة ريتشلاند إن بنطاله كان متسخاً، وكانت ستقول هذا -إذ كان بصرها حاداً- لو لم يمض أيام على تلك الحادثة. اعتقدت أنه لم يأتِ من الغابة بل كان يعيش فيها، وفي مكان لا يبعد كثيراً عن السور الذي يطوق باحة السيد بوديتش، كان هناك مكب قمامة يتخذه ملجأ ومأوى لأغراضه لا بد أن أيّ غنيمة من متجر السيد هاينريك كانت مدفونة بالقرب منه على طريقة القراصنة المذكورين في القصص. ولكن قراصنة القصص كانوا يخبئون العملات الذهبية والدولارات الإسبانية في صدورهم، أما بولي فكان من النوع الذي يخفي غنائمه في كيس عليه لصاقة خدمة اشتراكات أميركا.

إن كنت محقاً فمخيمه لا يبعد كثيراً من هنا كي يتمكن من التربص بتشارلز ريد المشهور. لقد عرف من أنا من هاينريك، ومن الممكن أنه رآني في رحلتي إلى ستانتونفيل، وبعد أن أسفر بحث بولي في منزل السيد بوديتش عن خزنة غير مفتوحة فقط، اكتفى بانتظاري لاعتقاده أنني كنت سآتي من أجل الذهب لأن هذا التصرف من شيمه.

«انهض، سننزل إلى الأسفل، احترس من قطع الذهب، إلا إذا أردت أن تسقط مرة أخرى».

«هل بإمكاني أن أحظى ببعض القطع؟ القليل منها فقط فأنا مفلس يا رجل».

«لتفعل ماذا؟ لتستخدم واحدة منها كي تدفع ثمن عشاء في ماكدونالدز؟».

«أعرف رجلاً في شيكاغو، لن يعطيني قيمتها تماماً، ولكن...».

«يمكنك أن تحظى بثلاث منها».

«ما رأيك في خمس قطع؟». حاول أن يبتسم، وكأنه لم ينوِ قتلي حالما أفتح الخزنة.

«أربع قطع».

انحنى والتقطها بسرعة بيده السليمة، ومدّ يده كي يخبئها في جيب بنطاله الخلفي.

«لقد التقطت خمس قطع أسقط واحدة».

زمجر -مثل برومبلستيلتسكين - وأسقط واحدة فتدحرجت. «يا لك من فتى لئيم».

«وهذه أقوال القديس كريستوفر من الغابة التي تجعل العار يدب في عروقي».

«اللعنة عليك».

رفعت مسدسه الذي ظننت أنه كان أوتوماتيكياً من عيار 0.22: «يجب ألا تقول: اللعنة عليك، لشخص معه سلاح ناري، ليس قراراً حكيماً منك ها-ها، والآن انزل إلى الأسفل».

غادر الغرفة وهو يثبت معصمه المكسور على صدره، ويشد على قطع الذهب بيده السليمة، لحقت به، ومشينا عبر غرفة المعيشة إلى المطبخ، وتوقف عند الباب.

«هيّا، امضِ في طريقك لتصل إلى الباحة الخلفية».

استدار لينظر إليّ بعينين واسعتين وفم مرتعش: «هل ستقتلني وترميني في الحفرة؟».

قلت: «ما كنتُ سأعطيك ذهباً إذا كنت سأفعل هذا».

«ستستعيدها»، شرع بالبكاء مجدداً. «ستستعيدها وتلقي بي إلى الحف-الحف-الحفرة».

أشحت بوجهي وقلت: «هناك سور ولديك معصم مكسور، لن تستطيع تسلقه من دون مساعدة».

«سأتدبر أمري! لا أريد مساعدتك».

قلت له: «امشِ».

مشى وهو يبكي، وكان متأكداً أنني سأطلق النار على مؤخرة رأسه، وأعيد وأكرر: لأن هذا التصرف كان من شيمه. لم يتوقف عن النحيب، إلا

عندما عبرنا باب المستودع المفتوح، ولاحظ أنه لا يزال على قيد الحياة. وصلنا إلى السور الذي بلغ ارتفاعه قرابة خمس أقدام؛ كان ارتفاعه مناسباً لمنع رادار من تسلقه حين كانت صغيرة.

«لا أريد أن أراك مجدداً».

«لن تراني».

«أبداً».

«أعدك أنك لن تراني مجدداً».

«صافحني إذاً» ومددت يدي له.

صافحني، وكما قلت: لقد كان ماكراً، ولكنه لم يكن ذكياً. لويت يده، وسمعت صوت طقطقة عظامه. صرخ وجثا على ركبتيه وهو يسند يديه إلى صدره. دسست مسدسه عيار 0.22 في مؤخرة بنطالي كرجل شرير في فيلم، ثمّ انحنيت وأمسكت به وحملته. كان الأمر سهلاً؛ لم يكن وزنه يتجاوز مئة وأربعين رطلاً على الأرجح، وكنت متحفزاً للغاية لدرجة أنني شعرت بالأدرينالين يسري في كل خلايا جسمي، وألقيت به فوق السور. حط على ظهره بين كومة من الأوراق اليابسة والأغصان المكسورة ولهث من الألم، حاول أن يحرك يديه، ولكن من دون جدوى، استندت إلى السور كربة منزل ريفية تتلهف لسماع الثرثرة التي تدور في القرية.

«هيّا يا بولي، اذهب ولا تعد مجدداً».

«لقد كسرت يدي! لقد كسرت معصمي اللعينين...».

صرخت عليه قائلاً: «أنت محظوظ لأنني لم أقتلك، وإذا رأيتك مجدداً سأقتلك. اذهب الآن ما دامت الفرصة متاحة».

نظر للمرة الأخيرة بعينيه الزرقاوين ووجهه المنتفخ الملطخ بالدموع والمخاط ثمّ استدار وركض باتجاه ما تبقى من غابة سينتري وهو يعانق يديه إلى صدره، راقبته وهو يذهب دون أن أشعر بذرة ندم على ما فعلته.

لست مطواعاً أليس كذلك؟

هل كان سيعود؟ ما كان ليعود بمعصميه المكسورين. هل كان سيخبر أحداً آخر كصديق أو شريك في الجريمة؟ لم أعتقد أن بولي كان يملك أصدقاء أو شركاء. هل كان سيذهب إلى الشرطة؟ كانت الفكرة مضحكة استناداً لما كنت أعرفه عن هاينريك، ورغم كل هذا لم أستطع أن أجبر نفسي على قتله بدم بارد.

عدت إلى الداخل مجدداً، وجمعت قطع الذهب. كانت في كل مكان، واستغرق مني هذا وقتاً أطول من مواجهتي مع بولي. وضعتها في الخزنة قرب حزام الكونشو الفارغ والقراب ثمّ غادرت، وحرصت على أن أغطي بسترتي المسدس الذي دسسته في بنطالي. لكنني كنت مسروراً لأن السيدة ريتشلاند لم تكن في مرأب السيارات، وهي تضع يدها فوق عينيها الحادتين.

5

نزلت التلّ ببطء لأن ساقي كانتا ترتعشان، ويا إلهي! حتّى عقلي كان مشوشاً، لاحظت أيضاً أنني كنت جائعاً وأنا أصعد درج شرفتي الأمامية، لقد كنت بالأحرى أتضور جوعاً.

كانت رادار تنتظرني لترحب بي، ولكنها لم ترحّب بي بطريقتها الحماسية كما توقعت، بل اكتفت بتحريك ذيلها بسعادة وببعض القفزات كما داعبت فخذي برأسها قبل أن تعود إلى سجادتها. لاحظت أنني توقعت منها الحماسة لاعتقادي بأنني غبت لوقت طويل. في الواقع، لم أغب سوى أقل من ثلاث ساعات، لقد جرت أحداث كثيرة في تلك الساعات تُغير مجرى

الحياة. فكرت في سكروج في رواية ترنيمة عيد الميلاد وهو يقول لقد فعلت الأرواح كل شيء في ليلة واحدة.

كانت هناك بعض قطع اللحم في الثلاجة، فحضّرت شطيرتين سميكتين، وأكثرت من صلصة الطماطم، كنت بحاجة لأشحن طاقاتي لأن اليوم كان في بداياته، وكان عليّ أن أقوم بكثير من التحضيرات ليوم غد. ما كنت سأعود إلى المدرسة وربما كان أبي - على الأرجح- سيعود إلى منزل فارغ. كنت سأجرب الساعة الشمسية التي أخبرني عنها السيد بوديتش، لم أعد أشك بوجودها، كما أنني لم أعد أشك في قدرتها على إعادة الزمن لكلبة الشيبرد الألمانية العجوز التي كانت تنام في هذه الأثناء على سجادتها في غرفة المعيشة، ولم أكن واثقاً من قدرتها على نزول تلك الدرجات اللولبية، كما لم أعرف كيف كنت سأدعها تمشي أربعين (أو خمسين أو ستين) ميلاً إلى المدينة. ولكنني كنت واثقاً من شيء واحد: ما كنت أستطيع الانتظار أكثر.

6

وأنا أتناول الطعام، فكّرت ملياً. إن كنت سأغيب مع رادار كان عليّ أن أخطط لوجهة مزيفة أخرى تصرف النظر عن منزل السيد بوديتش. خطرت لي فكرة في طريقي إلى المرأب، واعتقدت أنها كانت مناسبة، وكان عليها أن تكون كذلك.

أخذت عربة أبي ذات المقبضين مع شيء إضافي، كان هناك على أحد الرفوف هيدروكسيد الكالسيوم المعروف بالكلس المطفأ، لماذا كان أبي يحتفظ بهذا؟ لقد حزرتم: من أجل الصراصير. كان هناك بعض منه في قبونا وفي المرأب. وضعت الحقيبة في العربة، ثمّ دخلت إلى المنزل وعرضت على رادار لجامها.

«إذا أخذتك إلى أعلى التلّ هل ستكونين مطيعة؟».

أكدت لي بعينيها أنها ستكون كذلك. لذا، وضعت اللجام واتجهنا إلى المنزل رقم 1 على شارع سيكامور وأنا أدفع العربة وهي تمشي إلى جانبها. لقد عادت السيدة ريتشلاند إلى موقعها المعتاد، وتوقعت منها أن تسألني عن كل تلك الجلبة التي حدثت مسبقاً. ولكنها لم تسأل، واكتفت بسؤالي إن كنت أخطط لأقوم بمزيد من الأمور حول المنزل، وأجبتها بنعم.

«إنك تبلي بلاء حسناً بفعلك هذا، أعتقد أن وكالته العقارية ستعرضه للبيع أليس كذلك؟ لعل الوكالة ستعطيك أجرك، ولكنني لست واثقة من هذا فالمحامون بخلاء. آمل ألا يهدم المالكون الجدد المنزل فهو الآن أجمل من أي وقت مضى. هل تعرف من ورثه؟».

قلت لها: لا.

«حسناً، إذا عرفت السعر المطلوب أعلمني حيث إننا نخطط للبيع».

إن ضمير نون الجماعة دلّ على أن هناك سيد ريتشلاند، من كان سيخطر له هذا؟

قلت لها إنني سأحرص على إعلامها (بنبرة توضح أنني لن أفعل ذلك) ودفعت العربة خلف المنزل بينما كان طرف لجام رادار حول معصمي. كانت الفتاة العجوز تتحرك بشكل جيد، ولكنها لم تمشِ لمسافة طويلة. هل كانت ستستطيع المشي لأميال باتجاه المدينة المهجورة؟ لا، لن تستطيع.

هذه المرة، كانت رادار أهدأ، ولكن حالما فككت لجامها انطلقت إلى الأريكة المفتوحة في غرفة المعيشة وشممتها من كل الجهات، ثمّ استلقت بالقرب منها، أحضرت لها وعاء للمياه، ثمّ خرجت إلى المستودع مع كيس من الكلس المطفأ، نثرته فوق بقايا الصرصار، وراقبت بذهول كيف تسرعت عملية التحلل.كان هناك صوت هسهسة وغليان، انبثق بخار من البقايا التي كانت سرعان ما ستتحول إلى مادة كلسية.

تناولت المسدس، وعدت إلى المنزل، ووضعته في الخزنة، رأيت بعض القطع التي كانت قد تدحرجت واستقرت في إحدى الزوايا، فالتقطتها ووضعتها في الدلو مع باقي الذهب، وحين نزلت رأيت رادار قد خلدت لنوم عميق في غضون وقت قصير.

قلت لنفسي: هذا جيد، خذي قسطك من النوم الآن لأن يوم غد سيكون حافلاً بالنسبة إليك يا فتاة.

كان هذا اليوم حافلاً بالنسبة إليّ وكان هذا جيداً، ولكنه لم يشغلني عن التفكير بالعالم الآخر -أزهار الخشخاش التي تحيط بالممر وامرأة الأحذية التي لم يكن لديها وجه تقريباً والأبراج الزجاجية في المدينة- ولكن الانشغال حفظني غالباً من أن أحظى بردّ فعل متأخر على نجاتي بأعجوبة من كريستوفر بولي، لقد كنت سأحظى بنهاية وشيكة، للغاية.

لم يكترث الوغد الصغير بالمخطوطات والكتب القديمة في الردهة بين المطبخ والباب الخلفي أثناء بحثه عن الذهب. لم أتعب نفسي بالكتب، ولكنني أمضيت ساعة في جر المجلات القديمة -التي كانت ملفوفة بحبال القش- بواسطة العربة ذات المقبضين إلى المستودع، وضعت بعضها فوق بقايا الصرصار والبعض الآخر قرب بئر العالمين، فعندما سأنزل في المرة القادمة -أو سننزل- كنت سأضع بعض رزم المجلات على الألواح كي أحاول تغطية الفتحة بالكامل.

حين انتهيت عدت إلى المنزل، وأيقظت رادار، أعطيتها مكافأة من خزانة المؤن واصطحبتها إلى المنزل. ذكّرت نفسي أن أجلب لها قردها في اليوم التالي، فلا بد أنها كانت سترغب باللعب حال وصولنا إلى وجهتنا، إلا إذا وقعت على تلك الدرجات وجرتني معها، وهذا إذا نزلت على الدرج في المقام الأول.

عندما عدت وضعت مسدس بولي عيار 0.22 ومحفظته وبعض الأشياء الأخرى في حقيبتي- لم يكن حملاً ثقيلاً ولكنني كنت سأضع المزيد في اليوم التالي من خزنة مؤن السيد بوديتش- ثمّ جلست لأكتب إلى أبي، أردت أن أزيح الحمل عن كاهلي، وكنت على دراية تامة بأنني لا أستطيع فعل ذلك، كانت هذه رسالة صعبة.

أبي العزيز

ستعود إلى منزل فارغ لأنني ذهبت إلى شيكاغو مع رادار. وجدت شخصاً على الإنترنت حقق نجاحات عظيمة في تجديد صحة الكلاب المسنة ودورة حياتها. لقد عرفت بشأن هذا الرجل منذ وقت، ولكنني لم أرد إخبارك لأنني أعرف رأيك بخصوص الأطباء الدجالين. ربما يكون واحداً منهم، ولكن بوسعي أن أصرف 750 دولاراً بسهولة بفضل إرثي. لن أطلب منك ألا تقلق، لأنني أعرف أنك ستقلق لا محالة، مع أنه لا يوجد شيء يدعوك للقلق، ولكن ما سأطلبه منك هو ألا تعالج قلقك بمشروب. إذا عدت ورأيتك تشرب حتّى الثمالة مجدداً سينفطر قلبي. لا تحاول الاتصال بي لأنني سأطفئ هاتفي المحمول، (لم يكن وضع هاتفي المحمول مهماً في المكان الذي كنت ذاهباً إليه). سأعود بالتأكيد وإذا نجح هذا فسأعود مع كلبة بصحة جيدة وجديدة!

ثق بي يا أبي، فأنا مدرك لما أفعله.

مع حبي،

تشارلي.

تمنيت أن أكون مدركاً لما أفعله.

وضعت الرسالة في المغلف، وكتبت أبي على مقدمته، وتركته على طاولة المطبخ، ثمّ فتحت حاسوبي المحمول، وأرسلت بريداً إلكترونياً للسيدة سيلفيوس على بريد المدرسة. لقد وضّحت لها كما وضّحت لأبي،

خطر لي أن السيدة سيلفيوس ستقول إنها تشتم رائحة التغيب عن المدرسة إذا رأتني وأنا أكتب الرسالة، فضبطت البريد ليصل إلى مكتبها مساء يوم الخميس. كنت أستطيع الإفلات بيومي غياب غير مبررين، ولكن ليس ثلاثة. كان هدفي هو أن أعطي أبي مزيداً من الوقت ليمضيه في المؤتمر، وأملت ألا تتصل به السيدة سيلفيوس حين تستلم البريد، ولكنني كنت متأكداً من أنها ستفعل ذلك، ولكن وقتها ربما سيكون في طريق العودة، أما الهدف الأساسي فهو إخبار أكبر قدر من الناس أنني ذاهب إلى شيكاغو.

لهذه الغاية، اتصلت بمركز الشرطة، وسألت إن كان المحقق غليسون موجوداً، كان هناك وسألته إن كان لديهم أيّ أخبار جديدة بخصوص عملية السطو على المنزل رقم 1 في شارع سيكامور: «أردت أن أسألك اليوم لأنني ذاهب إلى شيكاغو غداً، لقد وجدت شخصاً هناك يفعل المعجزات مع الكلاب المسنة».

قال لي غليسون إنه لم يكن هناك أيّ مستجدات، وكان هذا ما توقعته. لقد تدبرت أمر الفاعل بنفسي... أو هكذا كان أملي. تمنى لي غليسون الحظ الجيد مع الكلبة العجوز، وكانت هذه أمنية حفظتها بقلبي.

7

مساء وضعت ثلاث حبات في طعام رادار، كنت سأعطيها ثلاث حبات أخرى في اليوم التالي. لم يبقَ المزيد في الزجاجة ولكن لعل هذا كان أفضل. لم أكن واثقاً ما مفعولها، ولكنني اعتقدت أنها كانت تُحسن صحتها بينما تُسرع موتها. كانت تقصر حياتها في الوقت نفسه الذي كانت تشحذ طاقاتها فيه. قلت لنفسي إن عليّ إنزالها على الدرج وبعد ذلك... حسناً، لم أعرف ماذا كنت سأفعل.

عاد هاتفي المحمول للعمل (ولكن كان عليّ أن أعيد ضبطه بطريقة صعبة كي يظهر الوقت الصحيح) رنّ قرابة الساعة السابعة، كان أبي هو المتصل. فشغلت التلفاز، ورفعت الصوت قليلاً قبل أن أجيبه.

«مرحباً يا تشارلي، هل كل شيء على ما يرام؟».

«أجل، هل تسلقت أيّ أشجار؟».

ضحك وقال: «لا، إنها تمطر هنا، كما دبت الروح الحماسية بين أعضاء الفريق، لقد جن رجال التأمين، ماذا تتابع؟».

«سبورتس سينتر».

«هل الكلبة بخير؟».

«ريدز؟» نظرتْ من على سجادتها، «إنها بخير».

«لا تزال تأكل؟».

«لقد أنهت طبقها تماماً ولعقته».

«يسرني سماع هذا».

تحدثنا قليلاً، ولم يبدُ قلقاً، لذا أعتقد أنني كنت جيداً في التظاهر، لقد سررت بهذا، ولكنني شعرت بالعار في الوقت ذاته.

«سأتصل بك مساء غد إذا أردت».

«لا، ربما سأخرج لتناول الشطائر ولعب الغولف المصغر مع مجموعة رفاق».

«وماذا عن الفتيات؟».

«حسناً... من الممكن أن تحضر بعض الفتيات، سأتصل بك إن حدث شيء كأن ينشب حريق في المنزل».

«اتفقنا، نم بعمق يا صغيري».

«وأنت أيضاً». من مكاني استطعت أن أرى الرسالة على طاولة المطبخ، لم أحبذ أن أكذب على أبي، ولكنني لم أجد خياراً آخر، كان وضعاً خارجاً عن الطبيعة.

أوقفت عمل التلفاز، واستعددت للنوم في تمام الساعة الثامنة للمرة الأولى منذ وقت طويل، ولكنني كنت أخطط أن أستيقظ باكراً، تعوّدت أمي أن تقول: كلما نهضت أبكر أنجزت أكثر، لم أستطع أحياناً أن أستذكر شكلها من دون أن أنظر إلى صورتها، ولكنني كنت أتذكر جميع أقوالها القصيرة، إن العقل سلاح غريب.

أقفلت المنزل، ليس لأنني كنت خائفاً من بولي، لا بد أنه كان يعرف منزلي، ولكن معصميه كانا مكسورين وكنت أحتفظ بمسدسه، كما لم يكن معه أي مال أو هوية. اعتقدت أنه كان يعرج إلى المكان الذي سيحاول فيه بديل تلك القطع إلى مال نقدي، هذا إن استطاع بيعها في المقام الأول. اعتقدت أنه لن يحظى بأكثر من عشرين بالمئة من ثمنها وكان هذا يناسبني، أو كان شيئاً خلبياً، كلما انتابني شعور الشفقة عليه أو الذنب على ما فعلته فكرت كيف ضغط فوهة مسدسه على مؤخرة رأسي، وأمرني بألا أستدير، فلن يكون هذا تصرفاً ذكياً، لقد سررت لأنني لم أقتله وهاكم هذه الحقيقة.

تفحصت نفسي جيداً في المرآة بينما كنت أنظف أسناني، اعتقدت أنني كنت أبدو كما أنا، واعتبرت هذا إنجازاً بعد كل ما حصل معي. غسلت فمي وعندما استدرت رأيت رادار تجلس عند باب الحمام، انحنيت وداعبت الفرو الذي كان على جانبي وجهها: «هل تريدين أن تذهبي في مغامرة غداً يا فتاة؟».

هزت ذيلها، ثمّ توجهت إلى غرفة الضيوف، واستلقت عند نهاية سريري. لقد أعدت التحقق من منبهي كي أحرص على أنه مضبوط على الساعة الخامسة صباحاً، ثمّ أطفأت النور، واعتقدت أنني سأستغرق وقتاً طويلاً لأخلد إلى النوم بعد دوامة اليوم، ولكن سرعان ما غلبني النعاس.

سألت نفسي إن كنت سأخاطر بحياتي فعلاً وأتعرض لمشاكل مع أبي وفي المدرسة من أجل كلبة عاشت -وفقاً لسنوات الكلاب- حياة طويلة وحافلة. بدا لي أن الجواب هو نعم، ولكن لم يكن هذا كل شيء. لقد لفتني الإعجاز واللغز اللذان يطوقان هذا الأمر، وجدت عالماً آخر. أردت أن أرى المدينة وأبراجها الزجاجية وأكتشف ما إن كانت أوز ولكن مع وحش فظيع -غوغماغوغ- في جوهرها بدلاً من دجال يعرض صوته وراء ستارة، أردت أن أرى الساعة الشمسية لأتأكد إن كانت فعلاً كما وصفها السيد بوديتش، وعليكم أن تتذكروا أنني كنت في السابعة عشرة من عمري أي في ذروة حب الاكتشاف والقرارات المغفلة.

ولكنني أردت أن أفعل ذلك من أجل الكلبة بنسبة كبيرة. لقد كنت أحبها كثيراً ولم أرد أن أودعها.

استدرت على جانبي وخلدت إلى النوم.

الفصل الثالث عشر:

الاتصال بآندي- رادار تقرر-الحساء- غوغر.

1

بدَت رادار مندهشة من استيقاظنا في الظلام، لكنّها بدت مستعدّة لتناول وجبة الفطور (التي دسست فيها ثلاث حبات) وصعود التلّ إلى المنزل الرقم 1. كان منزل ريتشلاند مظلماً. صعدتُ إلى الأعلى، ووضعتُ مسدس

عيار 0.45 على خصري. وشعرت بأنّني سام صاحب المسدسين، مع وجود مسدس بولي عيار 0.22 في حقيبتي. وجدتُ بعض علب صلصة السباغيتي الفارغة في المخزن. ملأتُ اثنتين منها بطعام الكلاب الجاف أوريجن، وأحكمت إغلاقهما، ولففتهما في منشفة، ووضعتُهما في حقيبتي أسفل القميص وزوج الملابس الداخلية (لا تذهب في رحلة من دون ملابس داخلية نظيفة، كان هذا أحد أقوال أمي القصيرة). وأضفتُ عشرات علب السردين (الملك أوسكار)، وبعض البسكويت، والقليل من شطائر الجوز (القليل فقط لأنني كنت ألتهمها)، وحفنة من أصابع مرتديلا الديك الرومي من بيركي جيركي، وعلبتي الكولا المتبقيتين في الثلاجة. وضعتُ محفظتي في حقيبتي أيضاً، كي أتمكّن من وضع مصباحي في جيبي الخلفي، كما كان من قبل.

بإمكانكم الحكم على هذه الإمدادات بأنّها ضئيلة للغاية لما قد يكون رحلة مئة ميل، وبالطبع أنتم على حق، لكن حقيبتي كانت كبيرة جداً. وإلى جانب ذلك، عرضَت عليّ امرأة الأحذية أن تقدّم لي وجبة، وربما قد تضيف لي بعض المستلزمات، وإلا فسيتعينّ عليّ البحث عن الطعام. ملأتني هذه الفكرة بالقلق والإثارة.

لكنّ أكثر ما أقلقني هو قفل باب المستودع. لا أعتقد أن أحداً سيهتم، إذا أُقفل المستودع. وفي حال لم يكن مقفلاً، قد يقوم شخص ما بتفقده. لذا، يُعتبر إخفاء الألواح التي تغطي البئر بأكوام من المجلات القديمة تمويهاً ضعيفاً للغاية. خلدت إلى النوم، وأنا أفكر بهذه المشكلة التي لم أجد لها حلاً (وكأنها لغز لأغاثا كريستي)، لكنني استيقظتُ وفي ذهني إجابة بدت لي جيدة. لن يكون المستودع مُقفلاً من الخارج فحسب، بل سيكون هناك شخص آخر يقول إنّني أخذت رادار إلى شيكاغو لتحصل على علاج معجزة.

آندي تشين هو الحل.

انتظرتُ حتّى الساعة السابعة لأتصل به، معتقداً أنّه بحلول ذلك الوقت سيكون مستيقظاً ويستعدّ للمدرسة، ولكن بعد أربع رنّات كنت شبه متأكد من توجيه مكالمتي إلى البريد الصوتي. كنت أفكّر في الرسالة التي سأتركها، وأتنفس بصبر نافد، عندما سمعت صوته: «ماذا تريد يا ريد؟ خرجت للتو من الحمام اللعين، والماء يقطر منّي على الأرض».

قلت بصوت مرتفع: «أوه، هل الخطر الأصفر عارٍ الآن؟».

أجابني: «مضحك جدّاً، أيّها العنصري اللعين. ماذا تريد؟».

قلت: «شيء مهمّ».

سألني بصوتٍ جاد: «ما الأمر؟».

أجبته: «انظر، أنا في هايبول خارج المدينة. تعرف هايبول، أليس كذلك؟».

بالطبع يعرفها، فهي محطة توقف للشاحنات تضمّ أفضل تشكيلة من ألعاب الفيديو في سينتري. كنا نحشر أنفسنا في سيارة مرخصة - أو نركب الحافلة، إذا لم يكن هناك رخصة في متناول اليد – ونلعب هناك حتّى تنفد أموالنا، أو إلى أن نُطرد.

سألني: «ماذا تفعل هناك؟ إنّه يوم دراسي».

أجبته: «معي الكلبة التي كانت تخيفك بشدة عندما كنا أطفالاً. إنّها ليست على ما يرام، وهناك شخص ما في شيكاغو من المفترض أن يكون قادراً على مساعدة الكلاب المسنة. شيء أشبه بتجديد شبابها».

قال آندي بشكل قاطع: «من المؤكد أن الشخص محتال، لا تكن غبيّاً يا تشارلز. عندما تتقدم الكلاب في السن، لا نستطيع فعل شيء لنعيد شبابها...».

قلت له: «هلّا صمتت قليلاً، وسمعتني؟ سيمنحني هذا الرجل أنا وريدز رحلة في شاحنته مقابل ثلاثين دولاراً...».

قال: «ثلاثون..».

قلت: «يجب أن أذهب الآن، وإلا سيغادر من دوننا. أريدك أن تقفل المنزل».

قال: «لقد نسيت أن تقفل...».

قلت: «لا، لا، نسيت أن أقفل منزل السيد بوديتش».

سألني: «كيف ذهبت إلى هايبول؟».

أجبته: «سأفوّت رحلتي إن لم تصمت، أقفل المنزل، حسناً؟ اترك المفاتيح على طاولة المطبخ. أقفل المستودع أيضاً، القفل معلق على الباب».

قال: «سأضطر إلى ركوب دراجتي إلى المدرسة بدلاً من ركوب الحافلة. كم ستدفع لي؟».

أجبته: «آندي، أرجوك».

قال: «أنا أمزح يا ريد، لن أطلب منك حتّى أن تلعق.... ولكن إذا سألني أحد عنك...».

قلت: «لن يسألك أحد، وإن حصل ذلك أخبره الحقيقة، بأنني ذهبت إلى شيكاغو. لا أريدك أن تتورط في المشاكل. أقفل المنزل من أجلي، ولا تنسَ إقفال المستودع. سآخذ المفاتيح منك عندما نعود».

قال: «نعم، يمكنني فعل ذلك. هل ستبقى لليلة أو...».

قلت: «ربما، وربّما لليلتين، سأنهي المكالمة الآن، شكراً آندي، أنا مدين لك».

أنهيتُ المكالمة، وحملت حقيبة ظهري على كتفي، وأمسكت باللجام، ووضعت حلقة مفاتيح السيد بوديتش على الطاولة، وربطت رادار. توقّفتُ عند أسفل الدرج، نظرت إلى المستودع خلف العشب. هل أنوي حقاً أن أجعلها تنزل كل تلك الدرجات اللولبية الضيقة (ذات الارتفاعات المختلفة) وهي مقيّدة، إنّها فكرة سيئة لكلينا.

لم يفت الأوان لإلغائها، يمكنني الاتصال بآندي وإخباره بأنني غيّرت رأيي في اللحظة الأخيرة، أو أنّ سائق الشاحنة قد غادر من دوني. كنت أستطيع إعادة رادار إلى المنزل، وتمزيق الرسالة التي وضعتها على طاولة المطبخ، وحذف رسالة البريد الإلكتروني التي كانت تنتظر في صندوق البريد لتُرسل إلى السيدة سيلفيوس. كان آندي محقّاً: عندما تكبر الكلاب، لا نستطيع فعل شيء حيال ذلك، نهاية القصة. هذا لا يعني أنني لا أستطيع استكشاف المكان الآخر؛ عليّ فقط أن أنتظر، حتّى تموت.

فككتُ لجامها، وبدأت أتوجه نحو المستودع. في منتصف الطريق، نظرت إلى الخلف. رأيتها لا تزال جالسة حيث تركتها. فكرتُ في مناداتها، لكنّني لم أفعل. تابعت سيري. نظرت إلى الخلف مرّة أخرى عند باب المستودع، وجدتها لا تزال جالسة أسفل الدرجات الخلفية. شعرت بخيبة أمل فظيعة، لأنّ كل استعداداتي - خاصّةً فكرتي بشأن القفل - قد ذهبت سدىً، لكن كان من المستحيل أن أتركها جالسة هناك.

كنت على وشك أن أعود، عندما وقفت رادار وتحركت بتردد عبر الباحة الخلفية إلى حيث أقف عند المدخل المفتوح. وبدأت تشمّ. لم أشعل لها مصباحي البطارية فهي لم تكن بحاجة إليهما بوجود أنفها. نظرَت إلى كومة المجلات التي كنت قد وضعتها فوق ما تبقى من الصرصار الكبير،

واستطعت أن أرى أنفها يهتز بسرعة. ثمّ نظرَت إلى الألواح التي تغطي البئر، وحدث شيء مذهل. هرولت إلى البئر، وبدأت تخدش الألواح، وتنبح بشيء من الإثارة.

قلت لنفسي، إنّها تتذكر. ولا بدّ أنّها ذكريات جيدة، لأنّها أرادت العودة مرّة أخرى.

علّقتُ القفل على المزلاج، وأغلقتُ الباب جزئيّاً، ما يتيح دخول بعض الضوء حتّى أتمكن من رؤية طريقي إلى البئر، وقلتُ لها: «عليكِ أن تكوني هادئة الآن يا رادار».

توقفَت رادار عن النحيب، لكنّها لم تتوقف عن خدش الألواح. جعلني حنينها إلى المستودع، أشعر بتحسن حيال ما ينتظرني في نهاية الدهليز. ولماذا أشعر بالضيق حيال ذلك حقّاً؟ كانت نباتات الخشخاش جميلة ورائحتها جميلة، ولم تلحق بي امرأة الأحذية أي ضرر؛ لقد رحّبت بي، وطمأنتني عندما انهرت، وأردت أن أراها مرّة أخرى.

كما أنّها أرادَت رؤية رادار مرّة أخرى أيضاً... وأظنّ أنّ رادار تريد رؤيتها.

قلت لها: «انزلي».

نظرَت رادار إليّ، لكنّها بقيت واقفة. حدّقت إلى الظلام بين الألواح، عادَت إليّ، ثمّ ذهبَت إلى الألواح. تجدُ الكلاب طرقاً لإيصال أفكارها، وبدا هذا واضحاً تماماً بالنسبة إليّ، فهي تقول لي: أسرع يا تشارلي.

قلتُ لها: «رادار، انزلي».

استلقَت رادار كاشفة عن بطنها على مضض، لكنّها نهضت في اللحظة التي حرّكتُ فيها الألواح من الوضع المتوازي إلى شكل V، نزلت الدرجات

كجرو صغير. رأيت بقعاً بيضاء على مؤخرة رأسها وقاعدة عمودها الفقري، بالقرب من ذيلها، ثمّ غابت عن ناظري.

وأنا الذي كنت قلقاً بشأن نزولها الدرج!! كان ذلك مضحكاً، أليس كذلك؟ كما كان السيّد نيفيل، مدّرس اللغة الإنجليزية الخاص بي، مولعاً بقول: السخرية، جيدة لصحّتك.

2

كنتُ على وشك مناداتها كي تعود، لكنّني أدركت أنّها كانت فكرة مروّعة. ربّما لن تولي أيّ اهتمام لكلامي، ولكن إذا أصغَت لي، وحاوَلت الالتفاف على تلك الدرجات الصغيرة، فمن شبه المؤكد أنّها ستسقط، وتموت. كلّ ما استطعتُ فعله هو أن أتمنى ألا تسقط في الظلام وتموت، وألا تبدأ بالنباح. لأنّ هذا حتماً سيولّد هجوم الصراصير الضخمة، وسيتسبب في طيران الخفافيش الكبيرة.

أياً يكن الأمر، لم يكن هناك شيء أستطيع القيام به حيال ذهابها. كلّ ما يمكنني فعله هو الالتزام بالخطة. نزلتُ الدرجات ولم يبقَ مني خارجها سوى رأسي وصدري، وأحاطت بي الألواح من كلّ الجهات. بدأتُ بوضع أكوام المجلات عليها، وألصقتُ نفسي بالجدار. كنت أتخيّل طوال الوقت، سماع صراخ رادار من شدّة الألم، أو -في حال لم تمت من السقوط- أن أسمعَ صرخاتها وهي ملقاة على التراب، وعلى وشك الموت بسبب أفكاري السيئة.

تصببت عرقاً وأنا أسحب الألواح من حولي. رفعتُ ذراعي إلى الأعلى، وأمسكت بمجموعة مجلات أخرى، وضعتها على رأسي ووازنتها مثل امرأة قبلية تحمل الغسيل إلى أقرب نهر، ثمّ نزلت ببطء. استقرت الحزمة الأخيرة على الفتحة التي تسببت بها. انحرفت قليلاً، لكنّها ستفي بالغرض. في حال ألقى آندي نظرة خاطفة قبل أن يقفل المستودع، فسيكون كلّ شيء

طبيعيّاً. وهنا راودني السؤال عن كيفية خروجي من المستودع مرّة أخرى، لكنّي سأقلق بشأن هذا في يوم آخر.

نزلت الدرجات، وقد أسندت كتفي إلى الجدار، موجّهاً ضوء المصباح على قدميّ، وقد أبطأت الحقيبة من حركتي. عددتُ الدرجات مرّة أخرى، وعندما وصلتُ إلى المئة، سلّطت الضوء على ما تبقى من العمود. انعكس الضوء على عيني رادار اللامعتين فشعرت بشيء من القلق. كانت على الأرض بخير، وكانت تنتظرني بدلاً من الجري في الممر. شعرت بارتياح هائل عند رؤيتها. وصلت إلى القاع بأسرع ما يمكن، ولم أكن سريعاً حقّاً، لأنني لم أرغب في أن أرقد هناك بساق مكسورة، أو اثنتين. جثوت على ركبتي وعانقت رادار، كانت مستعدة تماماً للعناق في ظل الظروف العادية، لكنّ في ذلك الوقت ابتعدت عنّي على الفور، واستدارت نحو الدهليز.

قلت لها: «حسناً، لكن لا توقظي الأحياء هنا».

سارت أمامي، لم تركض بل مشت بسرعة، من دون أن تعرج، على الأقل حتّى الآن. تساءلت مرّة أخرى عن نوعية الحبوب المعجزة، وكم كانت تأخذ منها مقابل ما تقدّمه لها. كما كان يقول والدي: لا يوجد شيء بلا مقابل.

خاطرت بإزعاج الخفافيش، عندما اقتربنا من المكان الذي اعتقدت أنّه الحدّ، ورفعت المصباح من الأرض حتّى أتمكن من مشاهدة ردّ فعلها على ضوئه. لم أرَ شيئاً على الإطلاق، وتساءلتُ إن كان هذا التأثير قد تلاشى بعد تعرّضي له للمرة الأولى عندما اجتاحني الشعور بالدوار، حدث كلّ شيء بسرعة، وبعد ذلك بوقت قصير رأيتُ شرارة الضوء، حيث انفتح الدهليز على منحدر التل.

أمسكت برادار. ومشيت عبر الجذوع المتدلية ونظرت إلى الخشخاش.

رأيت السجادة الحمراء.

أصبحنا في العالم الآخر.

3

وقفت رادار ثابتة تماماً للحظة، مدت رأسها إلى الأمام، وكانت أذناها مقلوبتين، وحرّكت أنفها. ثمّ بدأت الهرولة في الممر، فهي ما كانت تستطيع التحرك بأسرع من ذلك، أو هذا ما ظننته. خرجت دورا من كوخها الصغير وفي يدها فردتي حذاء، عندما كنتُ في منتصف الطريق أسفل التلّ. سبقتني رادار بعشر أقدام تقريباً. رأتنا دورا قادمين – ولاحظت من كان يقترب منها على أربع قوائم بدلاً من قدمين، فأسقطت فردتي الحذاء. جثت دورا على ركبتيها، وبسطت ذراعيها، فانطلقت رادار نحوها، وهي تنبح بفرح. في النهاية، حاولَت التخفيف من سرعتها قليلاً، لكن ليس بما يكفي لمنع اصطدامها بدورا، التي سقطت على ظهرها فارتفعت تنورتها كاشفةً عن جوربها الأخضر الزاهي. بدأت رادار بلعق وجهها وهي تنبح، وتهزّ ذيلها بحماسة شديدة.

وركضت أنا بدوري، واهتزّت حقيبة ظهري. انحنيت تحت صف من الأحذية المتدلية، وأمسكت بلجام رادار، وقلت لها: «كفى يا رادار، ابتعدي عنها».

لكن لم يحدث ذلك على الفور، لأنّ دورا كانت تحتضن رادار وتطوق رقبتها بذراعيها، واضعةً رأسها على صدرها... كانت تنتعل الحذاء الأحمر نفسه (مع الجورب الأخضر وكأنّها تتحضّر للكرسمس). حرّكت قدميها إلى الأعلى والأسفل، وهي ترقص بسعادة، ثمّ جلَست. وعندها رأيت وجنتيها الرماديتين تتلونان بلون شاحب، وسائلاً صمغياً ينسكب من عينيها الضيقتين.

ثمّ صرَخت: «راي»، وعانقَت رادار مجدداً. عادت رادار للعق رقبة دورا، وهي تُحرك ذيلها بحماسة. قالت دورا: «راي، راي، راي!».

قلت: «أعتقد أن كلا منكما تعرف الأخرى».

لم أضطر لاستخدام إمدادات الطعام التي جلبتها معي؛ فقد أُطعمنا جيداً. لم يسبق لي أن تناولت حساء ألذ من الذي تناولته؛ كان مليئاً باللحم والبطاطا وكان المرق مالحاً. خطر ببالي - ربّما لتأثري ببعض أفلام الرعب - أنّنا ربما نأكل لحماً بشريّاً، لكنني بعد ذلك طردت الفكرة من ذهني، واعتبرتها سخيفة. إنّها امرأة جيدة. لست بحاجة لرؤية تعبير مرح أو عينين لطيفتين لأعرف ذلك؛ كانت الطيبة تشعّ منها. وإذا لم أكن أثق بإحساسي، فماذا بشأن الطريقة التي استقبلت بها رادار، أضف إلى ذلك أنها عانقتني عندما ساعدتها على الوقوف على قدميها، ولكن ليس كعناق رادار.

قبّلتُ وجنتها التي بدت لي طبيعية تماماً، فربتت دورا ظهري وجذبتني إلى الداخل. كان الكوخ عبارة عن غرفة واحدة كبيرة ودافئة. لم يكن هناك نارٌ في المدفأة، لكن كان هناك وعاء حساء يغلي فوق لوح معدني - ما أعتقد أنّه يسمّى موقد- (مع أنني قد أكون مخطئاً في ذلك). كان هناك طاولة خشبية في وسط الغرفة تتوسطها مزهرية فيها أزهار الخشخاش. وضعت دورا وعاءين أبيضين يبدوان وكأنهما مصنوعان يدويّاً، وملعقتين من الخشب. ثمّ أشارت لي أن أجلس.

اقتربت رادار أكثر ما يمكنها من الموقد. جلبت دورا وعاء آخر من إحدى الخزائن، وملأته بالماء. ووضعته أمام رادار، التي كانت تتمايل بصبر نافد، ولكنها لم ترفع قائمتيها الخلفيتين عن الأرض، وهذا ليس جيداً، فقد كنت حريصاً على تدريبها. لكنّها عندما رأت منزل صديقتها القديمة، لم يعد هناك شيء يردعها. لو كانت مُلجمة (اللجام في حقيبتي)، كانت ستجذب لجامها من يدي.

وضعت دورا إبريق الشاي، وقدّمت الحساء، ثمّ عادت إلى الموقد، وجلبت الأكواب من إحدى الخزائن - والتي كانت مُحفّرة إلى حدّ ما مثل

الأوعية – ووضعت بضع ملاعق من الشاي المُخزّن في الإبريق. تمنّيت أن يكون شاياً عاديّاً، وليس شيئاً من شأنه أن يخدّرني. ظللت أفكّر أن هذا العالم كان بطريقة ما تحت عالمي. يصعب عليّ التخلص من هذه الفكرة لأنّني نزلتُ للوصول إلى هنا. مع ذلك كانت هناك سماء في الأعلى. شعرت وكأنّني تشارلي في بلاد العجائب، وأنني إذا نظرت من النافذة الأمامية المستديرة للمنزل سأشاهد صانع القبعات المجنون هناك (ربّما مع قطة شيشاير المبتسمة على كتفه)، ولن أتفاجأ، أو بالأحرى، لن أتفاجأ أكثر.

لم تؤثّر غرابة الموقف على مدى جوعي. كنت متوتراً جدّاً عند تناول الفطور، ومع ذلك، انتظرت حتّى أحضرَت الأكواب وجلسَت. كان ذلك تصرّفاً مهذباً عادياً بالطبع، لكنني اعتقدت أيضاً أنّها قد ترغب في تلاوة صلاة ما؛ نسخة خاصّة بها من مباركة الطعام الذي نحن على وشك تناوله. لم تفعل ذلك، أمسكَت ملعقتها فقط، ثمّ أشارَت إليّ لأبدأ بتناول الطعام. كما سبق لي أن قلت، كان لذيذاً. أخرجتُ قطعة من اللحم، وأريتها إياها رافعاً حاجبي.

ابتسمَت على طريقتها. وضعَت اصبعيها فوق رأسها، وقفزت قليلاً في مكانها.

خمّنت قائلاً: «أرنب؟».

أومأت برأسها، وأصدرَت صوت صرير وغرغرة. فهمتُ أنّها كانت تضحك، أو تحاول ذلك، وقد أحزنني ذلك، تماماً كشعوري عندما أرى شخصاً أعمى، أو شخصاً على كرسيّ متحرك لن يمشي مرّة أخرى. معظم هؤلاء الناس لا يريدون شفقتنا، فهم يتعاملون مع إعاقاتهم، ويساعدون الآخرين، ويعيشون حياة جيدة. إنهّم شجعان. أفهمّ كل ذلك، ولكنني لا زلت أرى - ربّما لأنّ كلّ شيء في عالمي الشخصي يسير بشكل مثالي - أنّ هناك شيئاً غير منصف في الاضطرار إلى التعامل مع مثل هذه الأشياء. تذكّرت جورجينا ووماك، الفتاة التي كانت معي في المدرسة الابتدائية. كان لديها وحمة

ضخمة على شكل فراولة على وجنتها. كانت جورجينا كائناً صغيراً مُبهجاً، حادّة الذكاء، وكان معظم الأطفال يعاملونها معاملة حسنة. اعتاد بيرتي بيرد أن يبادلَ طعام صندوق الغداء معها. اعتقدتُ أنّها ستشق طريقها في الحياة، لكنّني شعرتُ بالأسف تجاهها لأنها ستضطر إلى النظر إلى تلك العلامة على وجهها في المرآة كلّ يوم. لم يكن ذنبها، ولم يكن ذنب دورا أنّ ضحكتها، التي كان ينبغي أن تكون جميلة وحرّة، بدت وكأنّها زمجرة سيئة.

قفزَتْ قفزة أخيرة للتأكيد، ثمّ أومأت بإصبعها، وكأنّها تقول: كُل، كُل.

أخيراً، نهضت رادار بصعوبة، مستخدمة قائمتيها الخلفيتين واتجهت نحو دورا. صفعت المرأة جبهتها الرمادية بيدها الرمادية. ثمّ وجدت وعاءً آخر، ووضعت فيه بعض اللحم والحساء لرادار. نظرَت إليّ، ورفعت حاجبيها الرفيعين.

أومأتُ، وابتسمتُ قائلاً: «الجميع يأكلون في بيت الأحذية». ابتسمت دورا على طريقتها، ووضعت الوعاء أمام رادار، التي شرعت تهز ذيلها.

تفحّصت القسم الآخر من الغرفة وأنا أتناول الطعام. هناك سرير مرتّب بشكل أنيق، بحجم مناسب للمرأة الصغيرة، لكنّ معظم ما تبقّى من هذا القسم هو عبارة عن ورشة عمل، أو ربّما وحدة إصلاح للأحذية المتهالكة. معظم تلك الأحذية مهترئة أو مفكوكة النعال كالفك المكسور. كان هناك زوج من الأحذية الجلدية بنعل متشقق، وكأنه وُرِّث لشخص قدماه أكبر من قدمي المالك الأصلي. خُيطت شقوق الحذاء الحريري ذي اللون الأرجواني الملكي بخيط أزرق داكن، ربّما كان ذلك أقرب لون تملكه دورا. كانت بعض الأحذية متسخة وكان بعضها - على طاولة العمل - مجّهز للتنظيف والتلميع، وكانت العدّة موضوعة في أوانٍ معدنية صغيرة. تساءلتُ من أين أتت كلّ هذه الأحذية، لكن أكثر ما أثار فضولي هو الشيء الذي تصدّر ورشة العمل في وسط الكوخ.

في هذه الأثناء، كنت قد أنهيتُ وعائي، وكذلك رادار. أخذت دورا الوعاءين، ورفعت حاجبيها متسائلة.

فأجبتها: «نعم، من فضلك. ولكن لا تكثري من الحساء لرادار، وإلا لن تنام طوال الليل».

وضعت دورا يديها المشبوكتين بالقرب من رأسها، وأغمضت عينيها، ثمّ أشارت إلى رادار، وقالت: «نيس».

سألتها: «الرُكب؟».

هزّت دورا رأسها، وقامت بتمثيل الإيماءة نفسها مرّة أخرى، وقالت: «نيس!»

سألتها: «هل هي بحاجة إلى النوم؟».

أومأت برأسها، وأشارت إلى المكان الذي كانت فيه رادار قبل ذلك الحين، بالقرب من الموقد.

سألتها: «هل سبق لها أن نامت هنا؟ عندما أحضرها السيد بوديتش؟».

أومأت دورا مرّة أخرى، وجثت على إحدى ركبتيها لتداعب رأس رادار. نظرت إليها رادار نظرة مليئة بالعشق، وقد أكون مخطئاً في ذلك.

أنهيت طبق الحساء الثاني وكذلك فعلت رادار. قلت: شكراً، وكذلك قالت رادار بعينيها. في الوقت الذي أخذت فيه دورا الأطباق، نهضت لألقي نظرة على الشيء الذي لفت انتباهي؛ كان ماكينة خياطة من الطراز القديم، من النوع الذي يعمل بدفع الدواسة، وقد حُفرت على سطحها الأسود كلمة (سنغر) بلون ذهبي باهت.

سألتها: «هل جلبها لكِ السيد بوديتش؟».

ربّتت صدرها، وأمأت برأسها وأخفضته. رأيت الدموع في عينيها عندما رفعت رأسها.

قلت لها: «لقد كان جيداً معكِ».

أومأت برأسها موافقةً.

قلت: «وأنت كنتِ جيّدة معه، ومع رادار».

بذَلت جهداً، واستطاعت قول كلمة واحدة مفهومة: «نعم».

قلت لها: «لديك الكثير من الأحذية هنا، من أين حصلتِ عليها؟ وماذا تفعلين بها؟».

لم يبدُ أنّها تعرف كيف تجيب عن أسئلتي، ولم تسعفها الإيماءات. أشرقت ملامحها، وكأن فكرة قد خطرت لها، وذهبت إلى ورشة العمل. كان هناك خزانة لا بدّ أنها تحتوي على ملابسها، إضافة إلى عدد كبير من الخزائن الصغيرة. افترضتُ أنّها تخزن فيها معدات إصلاح الأحذية. انحنَت صوب إحدى الخزائن الصغيرة، وأخرَجت منها لوحاً صغيراً، يشبه الألواح القديمة التي كان الأطفال يستخدمونها قديماً في المدارس المكونة من غرفة واحدة ومقاعد مزودة بمحبرة. فتّشَت أكثر، وأخرَجت قطعة من الطبشور. دفعَت ببعض الأحذية التي تعمل عليها على طاولة العمل جانباً، وكتبت ببطء، ثمّ رفعت اللوح إلى الأعلى لأتمكن من قراءة ما كتبته: عليك أن ترى غوغر.

قلت: «لم أفهم».

تنهّدَت، ومسحَت ما كتبته، وأخذَتني إلى المقعد. نظرتُ من فوق كتفها، وهي ترسم صندوقاً صغيراً وخطين متوازيين أمامه. أشارَت إلى الصندوق، ولوّحت بذراعها قاصدةً الكوخ، ثمّ أشارت إلى الصندوق مرّة أخرى.

قلت: «هل تقصدين هذا البيت؟».

أومأت برأسها، مشيرةً إلى الخطوط المتوازية، ثمّ أشارَت إلى النافذة المستديرة الوحيدة إلى يسار الباب الأمامي.

قلت لها: «الطريق».

قالت: «نعم». رفعت إصبعها أمامي، وكأنّها تقول: انتبه أيّها الشاب، ومدّدت الخطوط المتوازية قليلاً. ثمّ رسمت صندوقاً آخر، وكتبَت فوقه مرّة أخرى (عليك أن ترى غوغر).

قلت: «غوغر».

قالت: «نعم». ربّتَت فمها، ثمّ جمعَت أصابعها معاً بسرعة أمام فمها. فهمتُ إيماءتها على الفور، وقلت: «التكلم!».

قالت: «نعم».

أشارَت إلى كلمة غوغر. ثمّ أمسكَتني من كتفي. كانت يداها قويتين من عملها بالأحذية، وأطراف أصابعها الرمادية متصلّبة. ثمّ قادتني إلى الباب الأمامي. عندما وصلت إلى هناك، أشارت إليّ، وأومأت بإصبعيها بإشارة تدلّ على المشي، ثمّ أشارت إلى اليمين.

سألتها: «هل تريدينني أن أذهب وأرى غوغر؟».

أومأَت برأسها موافقةً.

قلت لها: «رادار تحتاج إلى الراحة، فهي ليست على ما يرام».

أشارت دورا إلى رادار، وأعادت تمثيل إيماءة النوم.

فكرتُ في أن أسألها إلى أيّ مدى كان يُفترض بي أن أسير، لكنني شككتُ في قدرتها على الإجابة عن هذا النوع من الأسئلة. يجب أن أصيغ

سؤالي بأسلوب جواب نعم أو لا.

سألتها: «هل هو بعيد؟».

هزّت رأسها.

سألتها: «هل تستطيع غوغر التحدث؟».

بدا أنّ كلامي يروق لها، أومأت برأسها.

سألتها: «غوغر؟ هل تقصدين فتاة جيدة؟».

ابتسمَت على طريقتها، استهجنت، وهزّت رأسها.

قلت لها: «اعذريني، لكنني لم أفهم تماماً. هل سأعود قبل أن يحلّ الظلام؟».

أومأت برأسها بقوّة.

سألتها: «وأنت ستعتنين برادار؟».

أجابت: «نعم».

فكّرت في الأمر، وقرّرت الذهاب فعلاً. إذا كان بإمكان غوغر التحدث، فعندها سأتمكن من الحصول على بعض الإجابات، عن دورا وعن المدينة. قد تعرف غوغر أيضاً شيئاً عن الساعة الشمسية التي كان من المفترض أن تُجدد شباب رادار. قرّرتُ أن أمشي لمدّة ساعة تقريباً، وإذا لم أجد منزل غوغر، فسأستدير وأعود أدراجي.

فتحتُ الباب (له مزلاج حديدي قديم الطراز بدلاً من المقبض). أمسكَت دورا بمرفقي ورفعت إصبعها: انتظر. أسرعَت إلى ورشة إصلاح الأحذية، فتحَت درجاً في طاولة العمل، وأخرجَت شيئاً منه، وعادَت إليّ

بسرعة. كانت تحملُ ثلاث قطع صغيرة من الجلد، أصغر من كفّ اليد. بدت وكأنها نعال أحذية مصبوغة باللون الأخضر. أشارت إليّ كي أضعها في جيبي.

سألتها: «ما الغرض منها؟».

عبست، ثمّ ابتسمت، وقلبت يديها إلى أعلى. يبدو أن هذا كان معقداً للغاية. لمست أحزمة حقيبتي، ونظرت إليّ متسائلة، وضعت حقيبتي بجانب الباب، جلستُ القرفصاء، فتحتها، أخذت منها محفظتي ووضعتها في جيبي الخلفي - وكأنّ شخصاً ما كان سيطالبني بإظهار هويّتي؛ هذا تفكير سخيف حقّاً. نظرتُ إلى رادار، وتساءلتُ ردّ فعلها عندما سأتركها مع دورا. رفعَت رأسها عندما وقفتُ وفتحتُ الباب، ثمّ أنزلتهُ مرّة أخرى، بدت راضية تماماً عن بقائها في مكانها والنوم. لمّ لا؟ فهي مع صديقتها، وبطنها مليء بالطعام.

مشيتُ قليلاً إلى الطريق الترابي الواسع - الطريق العام - المحاط بالخشخاش. كانت هناك أزهار من نوعٍ آخرٍ أيضاً، لكنّها بدت ميتة أو على وشك الموت. نظرت إلى الخلف، فرأيت حذاءً خشبيّاً كبيراً لامعاً فوق الباب، يشبه الحذاء الذي تنتعله دورا. ظننتُ أنه ربّما يمثّل لافتة، ووجدتها تقف تحته، تبتسمُ وتشير إلى اليمين، وكأنها تذكّرني بالطريق الذي يجب عليّ أن أسلكه في حال نسيت. كان تصرّفها يشبه تصرّف الأمّهات لدرجة أنّني اضطررت إلى الابتسام، وقلت لها: «اسمي تشارلي ريد يا سيدتي. وإذا لم أقل ذلك من قبل، فأنا أشكرك على تقديم الطعام لنا. سُعدتُ جدّاً بالتعرّف إليك».

أومأت برأسها، وأشارت إليّ، ثمّ ربّتت صدرها.

سألتها: «هل لي أن أسألك شيئاً آخر؟».

أومأت برأسها.

قلت لها: «هل أتحدّث لغتك؟».

ضحكَت، وهزّت كتفيها. إمّا أنّها لم تفهم، أو لم تعرف، أو تعتقد أنّ الأمر غير مهم.

قلت: «حسناً، على ما أعتقد».

قالت: «حسناً». ثمّ دخلت، وأغلقت الباب.

رأيتُ لافتة في أول الممر، تشبه قائمة المطاعم التي تُوضع على الرصيف. كان الجانب الأيمن الذي من المفترض أن أذهب إليه، فارغاً. كُتب على الجانب المقابل لليسار، أربعة أسطر بلغة إنجليزية مفهومة تماماً:

أعطني حذاءك المتهالك.

ستجد حذاءً جديداً بديلاً على طريقك.

إذا وثقت بي،

ستكون محظوظاً في رحلتك.

أنهيتُ قراءة الأسطر، لكنني بقيت أتمعّن فيها لفترة طويلة. أعطتني اللافتة فكرة عن مصدر الأحذية التي كانت دورا تُصلحها، لكن لم يكن هذا هو السبب الوحيد الذي جعلني أمعن النظر. سبق لي أن رأيت هذه الأسطر، في قوائم التسوّق، وعلى كثير من مغلفات صندوق البريد في شارع سايكامور 1. كتب السيد بوديتش تلك اللافتة، والله وحده يعلم منذ متى.

5

كان المشي سهلاً من دون حقيبتي، وهذا أمر جيّد. لكنّ التفاتي دوماً لتفقّد رادار وعدم رؤيتها بجواري لم يكن جيداً، لكنني كنت متأكداً من أنّها بأمان مع دورا. لم أتمكن من معرفة الوقت بشكل دقيق للغاية، لأنّ هاتفي

كان خارج الخدمة، ولم تتح لي الغيوم الحكم على الوقت بشكل تقريبي اعتماداً على الشمس. رأيت الشمس، لكنّها كانت كنقطة عديمة النفع خلف الغيوم. قرّرت أن أستخدم الطريقة القديمة لتحديد الوقت اعتماداً على المسافة: كنت سأذهب لثلاث أو أربع جولات، وإذا لم أرَ علامة على وجود غوغر، فسأستدير وأعود.

بينما كنت أسير، فكّرتُ في اللافتة التي كُتبت عليها الأسطر الأربعة. عادةً ما يُكتب على لافتة قائمة المطعم من الجانبين، كي يتمكن الناس من رؤيتها أثناء قدومهم أو ذهابهم. لكن تلك الأسطر كانت مكتوبة على جانب واحد فقط، وهذا ما يوحي لي أنّ حركة المرور على هذا الطريق هي في اتجاه واحد فقط: نحو المنزل الذي كان من المفترض أن أجده. لم أستطع فهم سبب ذلك، لكن ربّما تستطيع غوغر إخباري، إذا كان هذا المخلوق موجوداً من الأساس.

كنت قد وصلت إلى نهاية الجولة الثالثة، عندما رأيت جسراً خشبيّاً محدّباً (يوجد تحته جدول جاف)، وبدأت أسمع أصوات أبواق. لم تكن أصوات سيارات بل طيور. عندما وصلت إلى أعلى نقطة في الجسر رأيت منزلاً إلى يميني، وغابة تمتد على مدّ النظر، على الجهة اليسرى من الطريق. كان المنزل أكبر بكثير من كوخ الأحذية، تقريباً مثل منزل مزرعة، وكان هناك مبنيان ملحقان، أحدهما كبير والآخر صغير. لا بدّ أن أكبرهما حظيرة. كانت مزرعة، يوجد خلفها حديقة كبيرة مزروعة بصفوف مرتّبة من مختلف المزروعات. لم أعرف ما هي تلك المزروعات، فأنا لست بستانياً، لكنني أعرف الذرة عندما أراها. كان المبنيان قديمين ورماديين كلون بشرة امرأة الأحذية، لكنّها بدت متينة بما فيه الكفاية.

كانت الأصوات قادمة من الإوزات، على الأقل اثنتي عشرة إوزة، أحاطت بامرأة ترتدي ثوباً أزرق ومئزراً أبيض. رفعت المئزر بإحدى يديها، ونثرَت حفنة من الطعام بيدها الأخرى. تبعتها الإوزات، التي كانت ترفرف

وتأكل بنهم، وكان هناك حصان أبيض نحيف ومسنّ، يأكل بجوارها. خطرَت على بالي عبارة (التهاب مفاصل الأحصنة)، ولكن بما أنّني لم أعرف بالضبط ما تعنيه، فلم يكن لديّ فكرة إذا كانت وصفاً صحيحاً. كانت هناك فراشة على رأسها، فراشة بحجم طبيعي، وهذا أراحني نوعاً ما. طارَت عندما اقتربت منها.

لابدّ أنّ الفتاة رأتني بطرف عينها، لأنّها نظرت إلى الأعلى وبقيت ساكنة، واضعةً إحدى يديها في جيب مئزرها، في الوقت الذي تدافعت فيه الإوزات، وقفزت حول قدميها، لتحصل على مزيد من الطعام.

بقيتُ ساكناً، لأنّني فهمت عندها ما كانت دورا تحاول قوله: فتاة الإوز. لكن لم يكن هذا وحده ما تسبّب بسكوني، كان شعرها أشقر داكناً جميلاً تتخلّله خصلات بلون أفتح، وكانت عيناها واسعتين زرقاوين، وهو أبعد ما يكون عن عيني دورا الحولاء، وكانت وجنتاها ورديتي اللون. إنها شابة، ليست جميلة فحسب، بل فاتنة. لكن كان هناك شيء واحد فقط أفسدَ مظهرها. لم يكن هناك شيء بين أنفها وذقنها سوى خط أبيض معقود، مثل ندبة لجرح خطير تلتئم منذ فترة طويلة. وهناك تشوّه أحمر صغير الحجم في الطرف الأيمن من الندبة، يشبه الوردة الصغيرة التي لم تتفتح بعد.

لم تكن فتاة الإوز تمتلك فماً.

6

اتّجهت نحوها، فخطَت خطوة نحو أحد المباني الملحقة. ربّما كان ملجأً. خرج منه رجلان رماديّا البشرة أحدهما يحمل مذراة. توقفت، وتذكرت أنّني لست غريباً فقط بل مسلّح أيضاً. رفعت يديّ الفارغتين، وقلتُ: «حسناً، لم آتِ بقصد الأذى. أرسلتني دورا».

وقفَت فتاة الإوز ساكنة تماماً، وفكّرتْ للحظات، ثمّ أخرجَت يدها من مئزرها، ونثرت المزيد من الذرة والحبوب، وأشارَت بيدها الأخرى أولاً إلى

عامليّ المزرعة كي يعودا إلى الداخل، ثمّ أشارت إليّ للمضي قدماً. مشيت، ولكن ببطء، وما زلت رافعاً يديّ. اقتربت منّي ثلاث إوزات ترفرف، وعندما رأت أنّ يديّ فارغتين، هرعت إلى الفتاة. نظر الحصان حوله وعاد لتناول غدائه، وربّما عشائه، لأنّ الشمس كانت تتحرك الآن باتجاه الغابة على الجانب الآخر من الطريق.

استمرّت فتاة الإوز في إطعام الإوزات، وبدت غير مبالية بعد أن تفاجأت مؤقّتاً. وقفتُ عند طرف فناء منزلها، لم أعرف ماذا أقول. وعند ذلك خطر لي أنّ صديقة رادار الجديدة قد خدعتني. كنت قد سألتها عما إذا كان بإمكان غوغر التحدث، فأومأت دورا برأسها، لكنّها كانت تبتسم أيضاً. وكأنّها نكتة كبيرة، أرسلَت الطفل للحصول على إجابات من امرأة شابة ليس لديها فم.

قلت: «أنا غريب هنا»، وكان ذلك غبيّاً. أنا متأكدٌ من أنّها تعرفُ ذلك من تلقاء نفسها. كانت جميلة جدّاً. بطريقة ما، والندبة التي كان يجب أن تكون فماً والتشوّه الذي بجانبها زاداها جمالاً. أنا متأكدٌ من أنّ هذا يبدو غريباً، وربّما منحرفاً، لكنّه صحيح.

قلت: «أنا... آآخ». نقرت إحدى الإوزات كاحلي. بدا أنّ هذا يروق لفتاة الإوز. مدّت يدها إلى مئزرها، وأخرجَت ما بقي من طعام، وأعطتني إيّاه. فتحتُ يدي، ورششت كومة صغيرة ممّا بدا وكأنّه قمح ممزوج بالذرة. استخدمَت يدها الأخرى لتثبيت يديّ، وشعرت عندما لمستني بأصابعها أنني أُصبت بصدمة كهربائية خفيفة، لقد أُغرمت بها. أعتقد أنّ أيّ شابّ في مكاني كان سيغرم بها.

قلت: «أنا هنا لأنّ كلبتي كبيرة في السن، وأخبرني صديقي أنّه يوجد في هذه المدينة طريقة لجعلها تستعيد شبابها مرّة أخرى، فقرّرت المحاولة.

لديّ قرابة ألف سؤال، لكنّني أرى أنك... لست، كما تعلمين... قادرة تماماً على...».

توقفت هناك، ولم أرغب في إحراجها أكثر، ورششت حفنة من العلف للإوز. شعرت باحمرار وجنتيّ وكأنهما تحترقان.

يبدو أنّ هذا راقَ لها أيضاً. أزالت مئزرها، ونفضته. تجمعت الإوزات حولها للحصول على ما تبقّى من العلف، ثمّ اتجهت نحو الحظيرة ترفرف وتثرثر. رفعت فتاة الإوز ذراعيها فوق رأسها، وشدّت قماش فستانها على ثدييها الرائعين. (نعم، لقد لاحظت ذلك – يمكنكم مقاضاتي)، وصفّقت مرتين.

رفع الحصان الأبيض العجوز رأسه واتجه نحوها. رأيت شريطة فوق رأسه وهذا ما أوحى لي بأنه فرس. وهذا ما تأكدت منه بعد برهة، لأنّه عندما تحدّثت الفرس، كان صوتها أنثويّاً. قالت الفرس: «سأجيب عن بعض أسئلتك، لأنّ دورا أرسلتك، ولأنّ سيّدتي تعرف الحزام الذي ترتديه».

لم تبدِ الفرس أيّ اهتمام بمسدسي 0.45 أو قرابه؛ بل كانت تنظر إلى الطريق والأشجار على الجانب الآخر. لكنّ فتاة الإوز كانت تنظر إلى حزامي. ثمّ نظرت إليّ مرّة أخرى بعينيها الزرقاوين اللامعتين.

سألتني: «هل أتيت من أدريان؟».

جاء الصوت من الفرس الأبيض، لكن بإمكاني رؤية حركة العضلات حول حلق الفتاة، وما كان في السابق فمها.

صرختُ: «هل تتكلمين من بطنك؟!».

ابتسمت بعينيها، وأمسكت يدي. وشعرت مجدداً بتلك الصدمة الكهربائية.

قالت: «تعالَ».

قادتني فتاة الإوز حول بيت المزرعة.

الفصل الرابع عشر:

ليا وفلادا- ساعِدها- لقاء على الطريق- ولفيس- قمران.

1

تحدثنا لساعة، وكنتُ المتحدث معظم الوقت، لكن هذه المحادثة كانت كفيلة بأن تؤكّد لي أنها ليست فتاة مزارِعة عادية. قد يبدو هذا فظّاً، كما لو أنني لا أعتقد أن الفتيات المزارعات يمكنهنّ أن يكنّ ذكيات، أو حتّى جميلات. لا أقصد أيّاً من هذه الأشياء. أنا متأكدٌ من أن هناك فتيات مزارعات في مكان ما في عالمنا الدائري العظيم، قادرات على ممارسة التكلم البطني. لكن كان هناك شيء آخر يميّزها. تمتلك نوعاً معيّناً من الثقة، كما لو أنها تعودت على وجود أشخاص - وليس مجرد عمّال مزارع - يفعلون ما تريده. لم تُظهر أيّ خوف على الإطلاق بعد ترددها الأوّلي، الذي تسبب به ظهوري المفاجئ.

ربّما لا أحتاج أن أخبركم أن الأمر لم يستغرق سوى تلك الساعة حتّى أقع في حبّها أيضاً، لأنكم ربّما توقّعتم ذلك بالفعل. كما تسير أحداث مثل هذه القصص، أليس كذلك؟ لكن بالنسبة إليّ لم تكن قصة، لقد كانت حياتي. قصّة حظ تشارلي ريد: وقع في حب فتاة لم تكن أكبر سنّاً منه فحسب، بل لن يستطع تقبيل فمها أبداً. كنت سأكون سعيداً بتقبيل الندبة حيث كانت. وهناك شيء آخر كنت متأكد منه، أنه بوجود فمها أو عدم وجوده، لم تكن هذه الفتاة مخصّصة لأمثالي. كانت أكثر من مجرد فتاة تطعم الإوز، أكثر بكثير.

إلى جانب ذلك، ما مقدار الرومانسية التي سنحظى بها، عندما تتحدث الفتاة الجميلة مع روميو العاشق عن طريق الفرس؟

لكن هذا ما فعلناه.

2

كان هناك كشك بالقرب من الحديقة. جلسنا بداخله حول مائدة صغيرة مستديرة. خمّنت من منظر الذرة أنه فصل الصيف في هذا العالم بدلاً من أوائل تشرين الأول في عالمي. أكلت الفرس العشب في مكان قريب، وأحضرت فتاة رمادية ذات وجه مشوّه للغاية طبقاً ووضعته أمامنا. كان عليه منديلان قماشيّان، وكأس، وأبريقان، أحدهما كبير والآخر صغير. احتوى الأبريق الكبير على سائل يشبه عصير الليمون، والصغير على شيء أصفر قد يكون مهروس القرع. طلبت منّي فتاة الإوز أن أسكب من الإبريق الكبير وأشرب. فعلتُ ذلك مُحرجاً، لأن لديّ فم لأشرب منه.

قلت: «جيد»، وكان طعمه جيّداً – مزيج مثاليّ من الحلو والحامض.

ظلّت الفتاة الرمادية تقف بالقرب من كتف فتاة الإوز، وأشارَت إلى الشيء الأصفر في الإبريق الصغير.

أومأت فتاة الإوز برأسها، وحرّكت أنفها وكأنها تتنهّد، فانشدّت الندبة التي كان من المفترض أن تكون فماً، إلى الأسفل قليلاً. أخذت الفتاة الرمادية أنبوباً زجاجيّاً من جيب فستان رمادي كلون بشرتها. انحنَت، ودفعت الأنبوب إلى الإبريق الصغير، لكن فتاة الإوز أخذته ووضعته على الطاولة بدلاً من ذلك، ثمّ نظرَت إلى الفتاة، وأومَأت برأسها، وأطبقت إحدى يديها على الأخرى أمام وجهها كنوع من التحيّة. أومأت الفتاة الخادمة برأسها، وغادرت.

صفّقت فتاة الإوز للفرس عندما ذهبت الفتاة الرمادية. جاءت الفرس، ومدّت رأسها فوق الحاجز الفاصل بيننا، وهي تمضغ ما تبقّى في فمها.

قالت الفرس: «اسمي فلادا»، لكن فمها لم يتحرك بالطريقة التي تتحرك بها الدّمى التي تتحدث من بطنها؛ فقط واصَلت المضغ، لم يكن لديّ أيّ فكرة عن سبب استمرار الفتاة في تمثيلية الصوت هذه: «السيّدة اسمها ليا».

عرفت ذلك فيما بعد بفضل دورا، لكن ما سمعته حينها كان ليا، كما في فيلم (حرب النجوم). وجدتُ الأمر معقولاً بما فيه الكفاية بعد كلّ ما حدث. لقد التقيت بالفعل بنسخة من رامبيلستيلتسكين، وامرأة عجوز لا تعيش في حذاء ولكنّها تعيش تحت لافتة حذاء؛ وأنا كنت أمثّل شخصيّة جاك وشجرة الفاصولياء. أوليس فيلم حرب النجوم مجرّد حكاية خيالية أخرى، لكنّه ذو تأثيرات خاصّة ممتازة؟

قلت: «سررتُ بلقائكما». من بين كلّ الأشياء الغريبة التي حدثت لي في ذلك اليوم (والأشياء الغريبة التي كانت تنتظرني)، كان ذلك أغربها، أو ربّما أكثرها سريالية. لم أعرف إلى من يفترض بي أن أنظر، وانتهى بي الأمر بالنظر إليهما بالتناوب وكأنني أشاهد مباراة كرة مضرب.

سألتني: «هل أرسلك أدريان؟».

أجبتها: «نعم، لكنني أعرفه باسم هوارد. كان أدريان.. سابقاً. متى قابلته آخر مرّة؟».

اقترب حاجبا ليا أحدهما من الآخر. حتّى عبوسها كان جميلاً (سأحاول الامتناع عن قول مثل هذه الملاحظات من الآن فصاعداً، لكن هذا سيكون صعباً).

قالت فلادا: «كنت أصغر سناً بكثير، وكذلك الأمر بالنسبة إلى أدريان. وكان لديه كلبة، أو بالأحرى جرو، تتحرك وترقص في كلّ مكان، وامتلَكَت اسماً غريباً».

«رادار».

«نعم».

أومأت ليا برأسها، واستمرت الفرس في المضغ، وبدَت غير مهتمّة بما نقوله.

سألتني: «هل توقّي أدريان؟ أقول ذلك لأنك أتيت إلى هنا مرتدياً حزامه وسلاحه».

أجبتها: «نعم».

«لقد قرّر استخدام الساعة الشمسية؟ إذا كان الأمر كذلك، فقد كان حكيماً».

«نعم. لقد قرّر ذلك». شربت قليلاً من عصير الليمون، ثمّ وضعت الكوب وانحنيت إلى الأمام، وتابعت كلامي: «أنا هنا من أجل رادار. إنها عجوز الآن، وأريد أن آخذها إلى الساعة الشمسية، وأرى إن كنت أستطيع...» وهنا خطر ببالي فيلم الخيال العلمي (لوغانس رن)، ثمّ تابعت: «أن أُعيد لها شبابها. لديّ بعض الأسئلة...».

قالت فلادا: «أخبرني قصّتك، قد أجيب عن أسئلتك بعد سماعك، إذا بدا لي هذا صائباً».

دعوني أتوقف هنا، وأقول إنني حصلت على بعض المعلومات من ليا بواسطة فلادا، لكنّها عرفت الكثير عنّي. كان لديها أسلوب معيّن، وكأنها تعوّدت أن تكون مُطاعة... لكن أسلوبها لم يكن وضيعاً أو مُتسلطاً. هناك أشخاص - ذوو تربية جيدة - يدركون أن عليهم الالتزام باللطف والتهذيب، ويكون هذا الالتزام مضاعفاً لديهم عندما لا يضطرون لأن يكونوا كذلك. سواءً أكان ذلك ممتعاً أم لا، لكنّهم عادةً ما يحصلون على مبتغاهم.

أردت العودة إلى منزل دورا قبل حلول الظلام (لم يكن لديّ فكرة عمّا قد يخرج من تلك الغابات بعد حلول الليل). شرحت لها كيف قابلت السيد بوديتش، وكيف اعتنيت به، وكيف أصبحنا صديقين. أخبرتُها عن الذهب، وأوضحتُ لها أن لديّ ما يكفيني في الوقت الحالي، لكنني قد أحتاج إلى مزيد مع مرور الوقت، من أجل حماية البئر التي تؤدي إلى هذا العالم السري من الأشخاص الموجودين في بلدي، والذين قد يسيئون استخدامه. لم أكلّف نفسي عناء إضافة أنه يتوجّب عليّ إيجاد طريقة لتحويل الذهب إلى نقود الآن بعد أن مات السيد هاينريك.

قلت: «لأنه في وقت لاحق، بعد سنوات من الآن، ستظل هناك ضرائب يتوجّب عليّ أن أدفعها، وستكون مرتفعة للغاية. هل تعرفين شيئاً عن هذه الضرائب؟».

قالت فلادا: «أوه، نعم».

قلت: «لكن ما يثير قلقي حقّاً في الوقت الحالي هو رادار. الساعة الشمسية في المدينة، أليس كذلك؟».

أجابتني: «نعم، عليك أن تكون هادئاً جداً في حال ذهبت إلى هناك، وأن تتتبّع علامات أدريان، وألّا تذهب إلى هناك في الليل. أنت واحد من شعبٍ كامل».

قلت: «شعب كامل؟».

مدّت يدها فوق الطاولة لتلمس جبهتي، وجنتي، أنفي، وفمي. لمستني أصابعها لمسات خفيفة عابرة، لكنّها تسبّبت بمزيد من الصدمات الكهربائية في جسمي.

قالت فلادا: «كامل. ليس رمادياً، ولا مشوّهاً».

سألتها: «ماذا حدث؟ هل كان غ».

ضربَت فمي بكفّها، لم تكن لمستها خفيفة هذه المرّة، ما تسبب باصطدام شفتي بأسناني. هزّت رأسها، وقالت: «لا تقل اسمه كي لا تُسرّع في استيقاظه».

قلت: «أنتِ متعبة، لا بدّ أن الكلام يتعبك».

أومأت برأسها موافقةً.

قلت لها: «سأذهب، ربّما يمكننا التحدث أكثر غداً».

نهضتُ، لكنّها أشارت لي أن أبقى. لقد أمرَت بذلك من دون شك، رفعَت إصبعها في إيماءة كانت لتفسّرها رادار على أنها تعني: اجلس.

وضعَت الأنبوب الزجاجي في الإبريق الصغير، ثمّ رفعَت سبابة يدها اليمنى مشيرة إلى التشوه الأحمر بالقرب من فمها - العيب الوحيد في وجهها الجميل. رأيت أن أظافرها كلّها مقصوصة باستثناء ظفر هذا الإصبع، غرست الظفر في التشوّه بجانب فمها، حتّى اختفى الظفر. انفتح اللحم كاشفاً عن تدفّق الدم إلى الفك. أدخَلَت الأنبوب في الحفرة الصغيرة التي صنعتها، وُجوّفت خديها، وبدأت تسحب من الأنبوب حتّى التهمت نصف ما كان يوجد في الإبريق الصغير. كنت سألتهم الكمية نفسها بسحبة واحدة، لكن الأمر بدا مختلف بالنسبة إليها، فقد انثنى حلقها عدة مرات وليس مرة واحدة. لا بدّ أن طعمها سيئ، لأنها كانت تختنق. سحبّت الأنبوب من ما بدا أشبه بشق في القصبة الهوائية. اختفت الحفرة على الفور، لكن التشوّه بدا فظيعاً أكثر من أيّ وقت مضى.

سألت: «هل كان ذلك كافياً حقّاً؟ بالكاد شربتِ». بدوت مرعوباً، ولم أستطع تمالك نفسي.

أومأت برأسها بإرهاق، وقالت: «هذه العملية مؤلمة، والطعم غير مستساغ خاصة بعد تناولي الأشياء القليلة نفسها لسنوات عديدة. أعتقد

أحياناً أنني أفضّل أن أتضوّر جوعاً». أمالت رأسها إلى اليسار، في الاتجاه الذي أتيت منه، وباتجاه المدينة.

قلت: «أنا آسف، هل يمكنني القيام بأي شيء...».

أومأت برأسها وكأنها فهمت ما كنت أرمي إليه (بالطبع سيرغب الناس في القيام بأشياء من أجلها، سيقاتلون ليكونوا أول من يساعدها) وحيتني بيدها مرّة أخرى. ثمّ التقطَت أحد المناديل ومسحَت به الدم. لقد سمعتُ عن اللعنات من قبل - القصص مليئة بها - ولكن هذه المرة الأولى التي أرى فيها واحدة.

قالت فلادا: «اتبع علاماته، لا تضيع، وإلا سينال جنود الليل منك ومن رادار». لا بدّ أن نطق اسم رادار كان صعباً عليها، لأنها قالت راير، وهذا ما جعلني أفكّر في استقبال دورا لها. ثمّ تابَعت كلامها: «الساعة الشمسية في ساحة الملعب، في باحة القصر الخلفية. يمكنك تحقيق هدفك هناك إذا تحلّيت بالسرعة والهدوء. أمّا الذهب الذي تتحدث عنه فهو في الداخل. سيكون الحصول عليه أكثر خطورة بكثير».

سألتها: «هل سبقَ لكِ أن عشتِ في ذلك القصر يا ليا؟».

أجابت فلادا: «منذ زمن بعيد».

سألتُها: «هل أنت... هل أنت أميرة؟». أجبرت نفسي على قول ذلك، على الرغم من أن الإجابة كانت واضحة بالنسبة إليّ.

هزّت رأسها.

قالت فلادا: «نعم». أشارت ليا إلى نفسها - من خلال فلادا – ثمّ تابعت كلامها: «أصغر أميرة بينهم جميعاً، كان لديها أربع شقيقات يكبرنها سنّاً، وشقيقان - أميران، إذا أردت تسميتهما بذلك. ماتت أخواتها – دروسيلا،

إيلينا، جولين، وفلادا، التي أحمل اسمها. مات روبرت وإلدن، الذي كان دائماً يُحسن معاملتها. مات والدها ووالدتها. لم يبقَ من عائلتها سوى القليل».

بقيت صامتاً، أحاول أن أفهم حجم هذه المأساة. فقدت والدتي، وكان ذلك سيئاً بالنسبة إليّ.

قالت: «يجب أن ترى عمّ سيّدتي. إنه يعيش في منزل من الطوب بالقرب من طريق الواجهة البحرية. سيخبرك أكثر عن قصّتها. سيدتي متعبة جدّاً الآن، وتتمنّى لك يوماً جيّداً، ورحلة آمنة. عليكَ أن تقضي الليلة مع دورا».

نهضتُ، ووجدت أن الشمس أوشكت أن تغيب خلف الأشجار.

قالت: «سيدتي تتمنى لك حظّاً سعيداً. وتقول إنه إذا استطعت إعادة شباب كلبة أدريان كما تأمَل، فعليك إحضارها إلى هنا حتّى تتمكن سيّدتي من مشاهدتها ترقص وتتحرك كما فعلَت في السابق».

قلت: «سأفعل ذلك. هل أستطيع طرح سؤال آخر؟».

أومأت ليا برأسها بضجر ورفعت يدها - قل، لكن بإيجاز.

أخرجتُ القطع الجلدية الصغيرة من جيبي وأريتها لليا - شعرت بالغباء- ثمّ أريتها لفلادا، التي لم تُظهر أيّ اهتمام على الإطلاق. وقلت: «أعطتني دورا هذه، لكنني لا أعرف ماذا أفعل بها».

ابتسمَت عينا ليا، وداعبَت أنف فلادا.

قالت: «من الممكن أن تصادف مسافرين في طريق عودتك إلى منزل دورا. إذا رأيتهم حفاة، فهذا يعني أنهم قدّموا أحذيتهم البالية لها لتصلحها، عندما ترى أقدامهم العارية قدّم لهم تلك القطع الجلدية. يوجد

متجر صغير على هذا الطريق، يملكه أخ دورا الصغير. عندما يرى معهم تلك القطع الجلدية، فهو سيتكفّل بمنحهم أحذية جديدة».

قلت: «دورا تصلح الأحذية المتهالكة».

أومأت ليا برأسها.

قلت: «ثمّ يذهب الناس حفاة إلى متجر أخيها».

أومأت ليا برأسها مرّة أخرى.

قلت: «وعندما يتمّ تجديد الأحذية المتهالكة - كما أتمنى أن يتمّ تجديد حياة رادار – تأخذها دورا لأخيها؟».

هزّت ليا رأسها.

سألتها: «هل يبيعها أخوها؟».

هزت ليا رأسها نافية.

قلت: «لم لا؟ عادةً ما تحقّق هذه المتاجر ربحاً».

قالت فلادا: «هناك أشياء في الحياة أهمّ من الربح. سيدتي متعبة جدّاً، ويجب أن تستريح الآن».

أخذَت ليا يدي وعصرتها، ليس عليّ أن أحدّثكم عن شعوري في تلك اللحظة.

أفلتت يدي، وصفّقت مرّة واحدة. ابتعدت فلادا، وخرج أحد عمال المزارع ذوي البشرة الرمادية من الحظيرة، وربّت برفق على جانب الفرس، فسارت إلى الحظيرة عن طيب خاطر، وسار الرجل ذو البشرة الرمادية بجانبها.

نظرتُ حولي، فرأيتُ المرأة التي أحضرت الهريس وعصير الليمون هناك. أومأت إليّ، وأشارت إلى الطريق وراء المنزل.

قلت: «وداعاً، وشكراً».

حيتني ليا بيديها، ثمّ أخفضت رأسها، ووضعت يديها على مئزرها. سارت معي الخادمة (أو ربّما المُساعدة الشخصيّة للأميرة ليا) إلى الطريق، وأسفل ثوبها الرمادي الطويل يمسح الأرض.

سألتها: «هل يمكنك التحدث؟».

أجابتني: «قليلاً، لكن الحديث يؤلمني».

وصلنا إلى الطريق العام. أشرتُ إلى طريق الذي أتيت منه، وسألتها: «هل تعرفين كم يبعد بيت عمّها المبني من الطوب عن هنا؟».

رفعَت إصبعاً رمادياً مشوّهاً.

قلت: «يوم؟».

أومأَت برأسها؛ إنه الأسلوب الأكثر شيوعاً للتواصل هنا، بالنسبة إلى أولئك غير القادرين على التحدث من بطونهم. بدأتُ أتعلّم بسرعة.

سيستغرقني الوصول إلى العمّ يوماً. إذا كانت المسافة عشرين ميلاً، فقد أستغرق يوماً آخر للوصول إلى المدينة، وربّما يومين، وربما ثلاثة. وبأخذ طريق العودة إلى الدهليز المؤدي إلى البئر بعين الاعتبار، فغالباً ما ستستمرّ رحلتي ستّة أيام في المجموع، وذلك على افتراض أن كلّ شيء سار على ما يرام. كان والدي سيبلغ عن اختفائي بحلول ذلك الوقت.

سيكون خائفاً وقد يبدأ بالشرب. هل سأخاطر برصانة والدي من أجل حياة الكلبة... وحتّى إن كانت الساعة الشمسية السحرية موجودة، فمن يعلم إن كانت ستنجح مع كلبة الشيبرد المسنّة؟ أدركت - ستقولون إنه كان

ينبغي عليّ التفكير بذلك مُسبقاً - إن ما كنت أفكّر في فعله لم يكن مجرّد جنون، بل أنانية. إذا عدتُ الآن، سأضطّر بالطبع إلى كسر باب المستودع، إذا كان آندي قد أقفله بالفعل، لكنني اعتقد أنني قويّ بما يكفي للقيام بذلك. لقد كنت أحد اللاعبين القلائل في فريق هيلفيو الذين ضربوا دمية المواجهة، وأعادوها إلى الخلف مسافة قدم أو قدمين، بل وضربتها مرّة أخرى. وهناك شيء آخر: بدأتُ أشتاق إلى دياري، صحيحٌ أنني ذهبتُ لبضع ساعات فقط، ولكن مع انتهاء اليوم في هذه الأرض الحزينة، حيث كان اللون الحقيقي الوحيد هو لون حقول الخشخاش الكبيرة... نعم، كنت أشعر بالحنين إلى دياري.

قرّرتُ أن آخذ رادار، وأعود. عليّ أن أعيد التفكير في خياراتي، وأن أضع خطة أفضل، بحيث أتمكّن من الغياب لمدّة أسبوع أو حتّى أسبوعين من دون أن يقلق أحد. لم يكن لديّ أدنى فكرة عن تلك الخطة، وأظنّ أنني أدركت في أعماقي (في تلك الخزانة الصغيرة المظلمة حيث نحاول إخفاء الأسرار عن أنفسنا) أنني سأستمرُّ في تأجيل هذه الخطّة إلى أن تموت رادار، ولكن هذا ما كان عليّ فعله.

أمسكت الخادمة مرفقي. كان خوفها واضحاً على ملامح وجهها، لكن قبضتها كانت قوية على الرغم من ذلك. جذبتني نحوها، ووقفَت على رؤوس أصابعها، وهمست لي مُتألّمة: «ساعدها».

3

عدتُ ببطءٍ إلى بيت دورا، وبالكاد كنت أبصر ضوء النهار. فكّرت في ليا، وتذكّرتُ كيف فتحت ذلك التشوه بجانب ما يفترض به أن يكون فمها، وكم كان ذلك مؤلماً، لكنّها تفعل ذلك لأن ذلك الطعام المهروس كان كلّ ما يمكنها تناوله للبقاء على قيد الحياة.

تساءلتُ، تُرى متى كانت المرة الأخيرة التي تناوَلت فيها حبّة ذرة، أو كرفس، أو وعاءً من حساء أرنب دورا اللذيذ؟ هل كانت بلا فم عندما كانت رادار جرواً، وتتحرّك حول فلادا الأصغر سنّاً آنذاك؟ هل كان جمالها الحاضر على الرغم من سوء التغذية الشديد نوعاً من نكتة قاسية؟ هل كانت ملعونة بأن تكون صحتها جيدة على الرغم من الجوع الدائم؟

ساعدها.

هل كان هناك طريقة لفعل ذلك؟ سيكون هناك طريقة إن كنّا نعيش في حكاية خيالية. تذكرتُ والدتي وهي تقرأ لي قصة ريبانزل عندما كنت في الخامسة من العمر تقريباً. كانت الذكرى حاضرة في ذاكرتي، بسبب نهاية الحكاية، حين تغلّب الحبّ على القسوة الفظيعة. عاقبَت ساحرة شريرة الأمير الذي أنقذ ريبانزل وأفقدته بصره. تذكّرتُ بوضوح صورة الرجل المسكين الذي يتجول في الغابة المظلمة ماداً ذراعيه ليستشعر العراقيل في طريقه، وأخيراً اجتمع مع ريبانزل، وتسبّبت دموعها باستعادته لبصره. هل هناك طريقة أستطيع من خلالها أن أعيد لليا فمها؟ ربّما ليس بالبكاء عليه، هذا صحيح، لكن ربّما أجد شيئاً يمكنني فعله في هذا العالم، حيث يمكن لإرجاع الساعة الشمسية الكبيرة للخلف أن يُلغي مرور بعض السنوات.

بالإضافة إلى ذلك، أروني فتى مراهقاً سليماً لا يريد أن يكون بطل الحكاية، الشخص الذي يساعد الفتاة الجميلة، أما عن احتمال أن يبدأ والدي في الشرب مرّة أخرى، قال لي ليندي ذات مرة: «لا يمكنك أن تنسب فضل رصانته إلى نفسك، لأنه فعل ذلك بنفسه. وفي حال قرّر العودة إلى الشرب مرّة أخرى، فلا يمكنك أن تلوم نفسك، لأنه سيفعل ذلك أيضاً بنفسه».

كنت أنظر إلى حذائي وأنا أُفكّر عندما سمعت صرير العجلات. نظرت إلى الأعلى فرأيت عربة صغيرة متداعية تقترب منّي، يجرها حصان كبير في

السن بحيث جعل فلادا تبدو وكأنها مثالٌ للصحّة والشباب. كانت تحوي على عدد من الحزم، ودجاجة تجلس على قمّة أكبرها. وهناك شابّ وشابّة يسيران بجانب العربة. كانا رماديّ اللون، ولكنهما لم يكونا رماديين كعمّال مزرعة ليا وخادمتها. إذا كان لون الأردواز علامة على المرض، فلا يزال هذان الشخصان في المراحل الأولى... بالطبع، لم تكن ليا رمادية على الإطلاق، لم يكن بها خطب سوى أن فمها مفقود. وهذا لغزٌ آخر.

سحبَ الشاب لجام الحصان، فأوقفه. نظر إليّ الشابان بمزيجٍ من الخوف والأمل. استطعت قراءة تعابير وجهيهما بسهولة، فقد كانت معظم ملامحهما موجودة. بدأَت عينا المرأة بالظهور، لكنّهما كانتا بعيدتين كلّ البعد عن الشقّين التي ترى دورا العالم من خلالهما. أما الشاب فكان سيبدو وسيماً ما لم يكن أنفه ذائباً.

سألني: «هل سبق لنا أن التقينا؟ إذا لم نلتقِ من قبل، فخذ ما تريد. أنت مُسلّح أما أنا فأعزل، إضافة إلى أنني متعب للغاية، ولن يتحمّل قلبي المعلول قتالك».

قلت: «أنا لست لصّاً، أنا مجرّد مسافر، مثلك».

كانت الشابة تنتعل حذاءً قصيراً برباط، يعلوه الغبار، ولكنّه بحال جيّدة. بينما كانت قدما الشاب عاريتين وقذرتين.

سألني: «هل أنت الشخص الذي قالت لنا السيدة صاحبة الكلب أننا قد نلتقي به؟».

أجبت: «أظنّ ذلك، نعم».

سألني: «هل تمتلك تلك القطع الجلدية؟ هذا ما أخبرتنا به السيدة، ولهذا أعطيتها الحذاء الذي كنت أنتعله. كان لوالدي، لكنّه أصبح متهالكاً».

سألَتني الشابة: «أنت لن تؤذينا، أليس كذلك؟»، بدا صوتها أشبه بصوت امرأة عجوز. لم يصل إلى درجة الزمجرة مثل صوت دورا، لكنّه على وشك أن يصل.

فكّرت في نفسي، هؤلاء الناس ملعونون، كلّهم. ملعونون بلعنة بطيئة، والتي قد تكون أسوأ أنواع اللعنات.

قلت: «لن أؤذيكما». وأخذتُ إحدى قطع الأحذية الجلدية الصغيرة من جيبي، وأعطيتها للشاب. فوضعها في جيبه.

سألت الشابة: «هل سيُعطى حذاءً؟».

أعطيتها إجابة تليق فتى كان والده يعمل في مجال التأمين، قائلاً: «هذا ما فهمته عن الصفقة».

قال زوجها: «يجب أن نتابع رحلتنا، شكراً لك». كان صوته أفضل قليلاً، لكن لم يكن أحد ليمنحه وظيفة مذيع تلفزيوني أو قارئ كتب مسموعة، لو كان في دياري.

سمعتُ صوت عواء من الغابة على الجانب الآخر من الطريق. ظلّ الصوت يتصاعد حتّى تحوّل إلى صرخة تقريباً. كان صوتاً فظيعاً، خافت الشابة والتصقت بزوجها.

قال مرّة أخرى: «يجب أن نذهب، ولفيس».

سألتهما: «أين ستبقيان؟».

أجاب: «رسمَت لنا السيدة صاحبة الكلب لوحة لما نعتقد أنه منزل وحظيرة. هل رأيته؟».

قلت: «نعم، وأنا متأكد من أنهم سيستقبلونكما. لكن عليكما أن تسرعا، وأنا سأسرع أيضاً. لا أظنّ أن تواجدنا على الطريق بعد حلول الظلام

سيكون... خياراً حكيماً».

بالطبع لن يكون خياراً حكيماً، لا يملك هذان منزلاً من القش أو مخبأً من الأغصان ولا من الطوب ليحتميا به في حال جاءت الذئاب. إنهما غريبان في هذه الأرض، أما أنا فقد كان لديّ صديق على الأقل. قلت لهما: «هيّا الآن. أعتقد أنك ستحصل على حذاء جديد غداً. قيل لي إن هناك متجر. سيعطيك مالكه حذاءً إذا أريته... أنت تعرف... القطعة الجلدية التي أعطيتك إيّاها. أتسمح لي أن أطرح عليك سؤالاً».

انتظرا سؤالي.

قلت: «ما هذه الأرض؟ ماذا تسمّونها؟».

نظرا إليّ كما لو أنني فقدت صوابي، ثمّ أجابني الرجل: «تيس إمبيس».

قلت: «شكراً لك».

ذهبا في طريقهما، وذهبت في طريقي، أسرعتُ وكنت أقرب للهرولة من المشي. لم أسمع مزيداً من العواء، لكن كآبة الشفق كانت واضحة. رأيت نافذة كوخ دورا المرحّبة متوهّجة. لقد وضعت مصباحاً عند أسفل الدرجات.

رأيت ظلّاً يتّجه نحوي في الظلام، وضعت يدي على سلاح السيد بوديتش. تجمّد الظل، وظهرَت رادار. جثوت على ركبتيّ حتّى لا تُجهد قائمتيها المتعبتين بمحاولة القفز. وهذا ما كانت تستعد للقيام به بوضوح. أمسكتُ بها حول رقبتها، فوضعتُ رأسها على صدري. قلت: «مرحباً يا فتاة - كيف حالك؟».

اهتزّ ذيلها بشدّة لدرجة أن مؤخرتها كانت تتأرجح ذهاباً وإيّاباً كرقّاص، وهل كنت سأدعها تموت إذا كان بإمكاني فعل شيء حيال ذلك؟ يا لي من

أحمق.

ساعِدها، كما قالت خادمة ليا. هناك على الطريق المظلم، قرّرت أن أساعدهما - الكلبة العجوز وأميرة الإوز.

إذا استطعت.

ذهبَت رادار إلى جانب حقل الخشخاش من الطريق، وجلست القرفصاء.

قلت لها: «فكرة جيّدة»، فككت بنطالي، وأبقيت يدي على مسدسي، بينما قضيتُ حاجتي.

4

أعدّت لي دورا سريراً بالقرب من المدفأة، حتّى إنها وضعت لي وسادة غطاؤها مُطبّع بالفراشات الملوّنة. شكرتها، فانحنت أمامي. ذُهلتُ عندما رأيت أنها استبدلت حذائها الأحمر (كالحذاء الذي كانت تنتعله دوروثي غيل في أوز) بحذاء كونفرس أصفر.

سألتها: «هل جلب لكِ السيد بوديتش هذا الحذاء؟».

أومأت برأسها، ونظرَت إلى حذائها مبتسمة.

سألتها: «هل تحتفظين به للضيوف المهمّين؟». بدا الأمر كذلك بالنسبة إليّ، لأنه كان نظيفاً تماماً، كما لو أنها أخرجته للتّو من علبته.

أومأت برأسها، أشارت إليّ، ثمّ إلى الحذاء الرياضي: انتعلته من أجلكَ.

قلت: «شكراً لكِ يا دورا».

شعرت أن حاجبيها يذوبان في جبهتها، لكنّها رفعت ما تبقّى منهما، وأشارت إلى الاتجاه الذي أتيت منه. وسألت: «زي؟».

أجبتها: «لم أفهم».

جلبت السبورة الصغيرة من ورشتها، مسحَت المربعات التي تمثّل المنزل والحظيرة - والتي لا بدّ أنها رسمتهما للشاب والشابة- ثمّ كتبت بخطّ كبير: ليا؟

قلت: «نعم، تقصدين فتاة الإوز. لقد رأيتها. شكراً لك على السماح لنا بالبقاء ليلاً. سنذهب غداً».

ربّتت صدرها فوق قلبها، وأشارت إلى رادار، ثمّ أشارت إليّ، ورفعت يديها، وكأنها تقول: منزلي هو منزلك.

5

تناولنا مزيداً من الحساء، لكن هذه المرّة بقطع من الخبز المحمص، وكان لذيذاً. أكلنا على ضوء الشموع، وحصلت رادار على نصيبها. أخرجتُ زجاجة الحبوب من حقيبتي، ووضعتُ حبّتان في حساء رادار قبل أن أدعها تتناوله، ثمّ تذكّرت المسافة التي كان علينا قطعها، فأضفت حبّة ثالثة. لم أستطع أن أتغلب على فكرة أنني عندما كنت أعطيها هذه الحبوب، كانت تسلبُ منها شيئاً آخر.

نظرَت دورا إلى الحبوب، ثمّ نظرَت إليّ محتارة.

قلت: «يفترض بهذه الحبوب أن تساعدها. ما زال أمامنا طريق طويل، وهي ليست قويّة كما كانت في السابق. إنها تظن نفسها قويّة، لكنّها في الواقع ليست كذلك».

سمعتُ عواءً طويلاً لذئبٍ من الجانب البعيد من الطريق، ثمّ انضمّ إليه ذئبٌ آخر، إلى أن أصبحوا ثلاثة. كانت أصواتها صاخبة بشكل لا يُصدّق، وتحوّلت إلى صراخ في النهاية، وهذا ما جعلني أصرّ أسناني. رفعت رادار رأسها، لكنّها لم تنبح، أصدرَت هديراً خافتاً من أعماق صدرها.

قلت: «ولفيس».

هزّت دورا رأسها، وعقدَت ذراعيها فوق صدرها، ثمّ أمسكَت بكتفيها، وبدأت ترتجف بشكل لا يصدّق.

ازداد عدد الذئاب، لا أعتقد أنني سأشعر براحة قبل البدء برحلتي، إذا استمرّت في العواء طوال الليل. لا أعرف إن قرأت دورا أفكاري، أم ماذا. لكنّها نهضَت، وطلبَت منّي أن أدنو من النافذة المستديرة، ثمّ أشارَت إلى السماء. وعلى عكسي، لم يكن عليها الانحناء للنظر عبر النافذة لأنها قصيرة القامة. ما رأيته شكّل لي صدمة، ولكنه بدا في هذا العالم أمراً طبيعياً.

انشقّت الغيوم في صدع طويل في عرض السماء، كاشفةً عن قمرين يتسابقان في الفراغ، أحدهما أكبر من الآخر. كان الكبير عملاقاً، لدرجة أنني استطعت رؤية حفر، وديان سطحه القديم دون الحاجة إلى تلسكوب. بدا وكأنه سيسقط فوقنا. انغلق الصدع، فتوقفت الذئاب عن العواء على الفور. كما لو أن صوت عوائها كان يُبثّ عبر مضخم عملاق، وسحب شخص ما القابس فجأة.

سألتها: «هل يحدث هذا كلّ ليلة؟».

هزّت رأسها، وبسطَت يديها، ثمّ أشارت إلى الغيوم. كانت بارعة في إيصال أفكارها باستخدام إيماءاتها وكلماتها القليلة التي يمكن أن تكتبها، لكنني لم أفهم معنى تلك الإشارة.

6

كان الباب الوحيد في الكوخ الذي لم يؤدّ إلى الخلف أو الأمام صغيراً بحجم دورا. نظّفت دورا مائدة عشاءنا الصغير (أبعدتني عندما حاولت مساعدتها)، ثمّ عبرت هذا الباب وخرجَت منه بعد خمس دقائق، مرتديةً ثوب نوم يصل إلى قدميها العاريتين، واضعةً منديلاً على ما تبقّى من شعرها،

وممسكةً بحذائها الرياضي في يدها، والذي وضعته بعناية على رفّ فوق سريرها. هناك شيء آخر على الرّف بالقرب من الحذاء. طلبتُ منها أن تدعني ألقي نظرة عليه، فأعطتهُ لي بتردّد. كانت صورة صغيرة مؤطّرة للسيد بوديتش، وهو يحمل جرواً من الواضح أنه رادار. احتضنت دورا الصورة وربّتت عليها، ثمّ أعادتها إلى الرّف.

أشارَت إلى الباب الصغير، ثمّ إليّ. أخذتُ فرشاة أسناني ودخلت. لم أعرف عن المراحيض الخارجية إلا في الكتب وبعض الأفلام القديمة، لكنني اعتقدت أن هذا أفضل وأنظف مرحاض خارجي أراه على الإطلاق. كان هناك حوض مليء بالمياه النظيفة، ومرحاض بغطاء خشبي، ومزهرية جدارية مليئة بأزهار الخشخاش تنبعث منها رائحة الكرز الحلوة ولم تكن هناك رائحة لفضلات بشرية على الإطلاق.

غسلتُ يديّ ووجهي، وجفّفتهما بمنشفة صغيرة مطرّزة بمزيد من الفراشات. غسلتُ أسناني بالفرشاة. وصلت إلى مكان نومي بغضون خمس دقائق وربّما أقل، لكنني وجدت دورا نائمة بالفعل في سريرها الصغير، وكانت رادار تنام إلى جانبها.

استلقيتُ على سريري المكوّن من عدّة بطّانيات لأنام عليها وبطانيات أخرى مطويّة لكي أتغطّى بها. وهو ما لم أكن بحاجة إليه في ذلك الوقت، لأن جمر الموقد لا يزال يولّد حرارة كافية. مشاهدة الجمر وهو يحترق تارة وينطفئ تارة كان له تأثير منّوم. هدأَت الذئاب بعد غياب ضوء القمر، وبقي صوت الرياح وهي تهبّ حول السقف، كان صوتها يرتفع أحياناً ويتحوّل إلى صرخة منخفضة، وكان من المستحيل ألّا أفكر في المسافة التي تبعدني عن عالمي. أوه، يمكنني العودة إليه مرّة أخرى، احتاج فقط إلى نزهة قصيرة على التلّ، وقطع مسافة ميل عبر الدهليز، إضافة إلى مئة وخمسة وثمانين درجة إلى قمة البئر، لكن هذا لم يكن حساباً دقيقاً. أنا الآن في الأرض الأخرى، في أرض إمبيس، التي تضمّ قمرين في سمائها. فكرت في غلاف

ذاك الكتاب الذي يظهر قمعاً ممتلئاً بالنجوم. لم تكن نجوماً، بل قصصاً. عدد غير منتهٍ من القصص التي تصبّ في القمع، وتخرج في عالمنا كما هي.

ثمّ فكرت في السيدة ويلكوكسن، معلمتي في الصف الثالث، والتي كانت تسألنا دوماً في نهاية كلّ يوم: «ما الذي تعلمناه اليوم أيّها الفتيان والفتيات؟».

ماذا تعلمتُ؟ إن هذا مكان للسحر يعمل تحت تأثير اللعنة، إن الناس الذين يعيشون هنا يعانون من نوع من الداء أو المرض التدريجي. أظنّ أنني فهمت الآن السبب وراء لافتة دورا - التي طبعها السيد بوديتش – والتي كُتبت عليها قصيدة الأحذية على جانبٍ واحدٍ منها فقط، وهو الجانب المواجه للمدينة المهجورة. حيث كان جميع الناس يأتون من هذا الاتجاه. لا أعرف عددهم، لكن الجانب الفارغ من اللافتة يشير إلى عودة القليل منهم. باعتبار أن الشمس المحجوبة بالغيوم تغرب في الغرب، فإن الشاب والشابة اللذين قابلتهما (بالإضافة إلى جميع الأشخاص الآخرين الذين يقومون بتبادل الأحذية مع دورا وشقيقها) أتوا من الشمال. هل النزوح هو من الشمال؟

هل كانت لعنة متجدّدة، أم أنها نوع من الإشعاع النابع من المدينة نفسها؟ لم يكن لديّ معلومات كافية للتأكد من ذلك، لكنّ الفكرة لم تشعرني بالسرور. هل سيتحول لون بشرتي إلى الرمادي؟ هل سيصبح صوتي بالتدريج مثل صوت دورا، وخادمة ليا؟ لم يكن هناك خطب في جلد السيد بوديتش أو صوته، ولكن ربّما كان هذه البقعة من إمبيس على ما يرام، عندما زارها.

فكّرت أنه بمجرد أن أشعر بأي تغيير يمكنني الاستدارة والهروب فوراً.

ساعِدها.

هذا ما قالته لي الخادمة الرمادية. ظننت أنني أعرف طريقة لمساعدة رادار، لكن كيف لي أن أساعد أميرة بلا فم؟ لا بدّ أن يجد الأمير طريقة

للقيام بذلك. من المحتمل أن يكون شيئاً غير متوقّع، مثل دموع ريبانزل التي تحوّلت إلى سحر أعاد له بصره، ولكنّها مستساغة للقراء الذين أرادوا نهاية سعيدة حتّى وإن اضطر الراوي إلى اختلاق فكرة غير متوقّعة. على أيّ حال، أنا لستُ أميراً بل مجرد فتى في المدرسة الثانوية وجد طريقه إلى واقع آخر، وليس لديّه أيّ أفكار.

كان للجمر سحره الخاص، يحترق عندما تهبّ الرياح على المدخنة، ويهمد عندما تخبو الرياح. شعرت بثقل جفني كلّما نظرت إليه. نمت، وفي وقت ما من الليل، أتَت رادار واستلقت بجانبي. اندلعت النار صباحاً في الموقد، ولكن رادار كانت ترقد بجانبي دافئة.

الفصل الخامس عشر:

مغادرة منزل دورا- اللاجئون- بيتركين- وودي.

1

كان الفطور، عبارة عن بيض مخفوق – بيض إوز، نظراً للحجم- وقطع من الخبز المحمّص على النار. لم يكن هناك زبدة، لكن كان هناك مربى فراولة شهيّ. جمعتُ حقيبتي بعد الانتهاء من الوجبة، ووضعت طوق رادار. لم أردها أن تطارد أيّ أرانب عملاقة في الغابة، وتلتقي بنسخة هذا العالم من داير وولف في مسلسل صراع العروش. قلت لدورا بثقة تفوق ما أشعر به حقاً: «سأعود». كنت على وشك أن أضيف، أن رادار ستستعيد شبابها مجدداً، لكنني اعتقدت أن ذلك قد يُلغي الصفقة. أضف إلى ذلك أنني ما زلت أجدُ فكرة التجديد السحري سهلة نظرياً، ولكنها صعبة عملياً، حتّى في إمبيس.

قلت: «أظنّ أنه يمكنني البقاء في منزل عمّ ليا الليلة - بافتراض أنه ليس لديه حساسية تجاه الكلاب، أو شيء من هذا القبيل - لكنني أُفضّل أن

أكون هناك قبل حلول الظلام». كان من الصعب عليّ، عدم التفكير في الذئاب.

أومأت برأسها، ثمّ أمسكت بمرفقي وقادتني إلى الخارج عبر الباب الخلفي. تجوّلنا حول الكوخ كانت هناك عربة صغيرة سبق لي أن رأيتها. تمّ استبدال الأكياس التي تبرز من قممها نباتات خضراء بحزمة ملفوفة بالخيش. أشارَت دورا إلى الحزم، ثمّ إلى فمي. وضعَت يدها أمام فمها، وفتحت أصابعها الذائبة جزئيّاً وأغلقتها بإيماءة تدلّ على المضغ. لم يتطلّب الأمر عالم صواريخ لفهم ما تريد قوله.

قلت: «يا إلهي، كلا! لا يمكنني تناول طعامك ولا يمكنني أخذ عربتك! أليست هذه عربتك التي توصلين بها الأحذية التي قمت بإصلاحها إلى متجر أخيك؟».

أشارت إلى رادار، وخطَت بضع خطوات وهي تعرج، أولاً نحو العربة ثمّ نحوي. أشارت بعدها إلى الجنوب (إذا كنت صحيحاً بتقدير اتجاهاتي) وحرّكت أصابعها كأنها تسير في الهواء. فهمت الجزء الأول، كان سهلاً، قصدَت أن العربة لرادار، بمجرّد أن بدأت تعرج. اعتقدت أنها كانت تخبرني أيضاً أن شخصاً ما - ربّما شقيقها - سيأتي من أجل الأحذية.

أشارت دورا إلى العربة، ثمّ ضربتني بقبضتها الرمادية بخفّة على صدري ثلاث مرات، وكأنها تقول: يجب عليك أخذها.

تفهّمت وجهة نظرها؛ عليّ أن أعتني بكلبتي المسنّة طوال الطريق الطويل الذي سنجتازه. لكنني في الوقت نفسه، كرهت أن آخذ منها أكثر مما أخذت بالفعل، سألتها: «هل أنتِ متأكدة؟».

أومأت برأسها. ثمّ مدّت ذراعيها طلباً للعناق، وسعدتُ بمعانقتها. جثَت على ركبتيها، وعانقت رادار. وقفت مرّة أخرى، وأشارت أوّلاً إلى الطريق، ثمّ إلى الخطوط المتقاطعة، وبعدها إلى نفسها.

أشارَت لي: امضِ في طريقك، لديّ عمل لأقوم به.

أومأتُ لها على طريقتي، رافعاً إبهاميّ إلى الأعلى، ثمّ توجهت صوب العربة، وألقيت فيها حزم الطعام التي صنعتها دورا لنا... والتي ستكون ألذّ بكثير من سردين السيد بوديتش، هذا ما كنت واثقاً منه. أمسكتُ بالمقبضين الطويلين، فرحتُ لأن وزن العربة كان خفيفاً للغاية، بدت لي وكأنها مصنوعة من نسخة هذا العالم من خشب البلزا، وكانت عجلاتها مشحمّة جيداً ولم تصدر صريراً، على عكس عجلات عربة الشابّين. أظنّ أن سحبها لن يكون أصعب من سحب عربتي الصغيرة التي كنت أملكها في سنّ السابعة.

أخذت العربة، وسرت على الطريق جنباً إلى جنب مع رادار. وصلت إلى ما ظننته طريق المدينة (لم يكن هناك يافطة صفراء تحمل اسم المدينة)، والتفتّ إلى الخلف، فرأيت دورا تقف بجانب بيتها شابكة يديها فوق صدرها. رأتني أنظر إليها، فرفعت يديها إلى فمها ثمّ فتحتهما نحوي.

تركتُ مقبضيّ العربة وكرّرت حركاتها، ثمّ انطلقت في طريقي. إليكم شيئاً تعلمته في إمبيس: يتألّق الأشخاص الطيبون في الأوقات المظلمة.

فكّرت في نفسي، ساعِدها أيضاً، ساعد دورا أيضاً.

2

صعدنا تلاً ونزلنا وادياً، كما يذكر في معظم الحكايات الخيالية القديمة. سمعتُ أصوات الصراصير، وزقزقة العصافير. رأيتُ بعض الرجال والنساء الرماديّين يعملون في حقول تمتدّ خلف نباتات الخشخاش. وعندما رأوني بدورهم توقفوا عمّا يفعلونه إلى أن مررت. لوّحت لهم، لم يردّ لي أحد التحيّة، سوى امرأة تعتمر قبعّة كبيرة من القش. كانت هناك حقول أخرى منسيّة، نبتت فيها الحشائش بين الخضروات، جنباً إلى جنب مع الخشخاش، والتي اعتقدت أنها ستملأها في النهاية.

كانت الغابة جهة اليمين، رأيتُ عدداً قليلاً من بيوت المزارع، وكان معظمها مهجور. قفزت أرانب كبيرة بحجم الكلاب الصغيرة أمامنا على الطريق مرّتين. نظرت رادار إليها باهتمام، لكنّها لم تُظهر أيّ ميل لمطاردتها، لذا قمت بفكّ طوقها، ورميتُه في العربة، وقلتُ لها: «لا تخيّبي ظنّي يا فتاة».

مشينا لساعة تقريباً، ثمّ توقّفت لفكّ حزمة الطعام التي عبّأتها لنا دورا. وجدت كعكات دبس السكر من بين الأطعمة الجيدة الأخرى، أعطيت واحدة لرادار -لأنها خالية من الشوكولاتة- ففرحت بها. وجدتُ أيضاً ثلاث زجاجات طويلة ملفوفة بمناشف نظيفة. اثنتان منها مملوءتان بالماء، والثالثة مملوءة بالشاي على ما يبدو. شربت قليلاً من الماء وأعطيت بعصاً منه لرادار في فنجان فخاريّ كانت صديقتي قد حزمته لنا أيضاً. شربَته رادار بلهفة. انتهيت من إعادة حزم الطعام، وعندها رأيت ثلاثة أشخاص يسيرون على الطريق باتجاهي. كان الرجلان قد بدآ للتو في التّحول إلى اللون الرمادي، لكن المرأة التي تسير بينهما كانت مظلمة مثل سحابة رعد صيفية. إحدى عينيها مسحوبة في شقّ امتدّ إلى جبهتها، وبدت فظيعة المظهر. رأيت بريقاً أزرق وحيداً في إحدى قزحيّتها مثل قطعة من الياقوت، بينما دُفن الآخر في كتلة من اللحم الرمادي. كانت ترتدي ثوباً قذراً يخفي ما قد يكون آخر مراحل حملها، وتحمل حزمة ملفوفة بغطاءٍ قذر. انتعل أحد الرجلين حذاء ذا مشابك على الجانبين - ذكّرني بالحذاء الذي رأيته معلقاً في الباحة الخلفية لمنزل دورا عند زيارتي الأولى- بينما انتعل الرجل الآخر صندلاً، وكانت المرأة حافية القدمين.

رأوا رادار جالسة على الطريق، فتوقفوا.

قلت: «لا تقلقوا، لن تعضّكم».

اقتربوا ببطء، ثمّ توقفوا مجدداً. لكن هذه المرّة نظروا إلى مسدّسي، رفعت يديّ في الهواء، فعاودوا المشي، ثمّ تراجعوا إلى الجانب الأيسر من الطريق، ونظروا تارة إليّ وتارة إلى رادار.

قلت: «لن نتسبّب لكم بأيّ أذى».

كان الرجلان نحيفين ومتعبين، وبدت المرأة مُنهكة.

قلت: «أرجوكم، انتظروا دقيقة». لم أكن متأكداً من أنهم يفهمون كلامي، لذا رفعت يدي كشرطيّ يقوم بإيماءة توقف.

توقفوا في مكانهم. بدا الثلاثة بائسين للغاية. بدأ فم كل رجل من الرجلين بالظهور، استطعتُ أن أرى ذلك عندما اقتربا منّي. وسرعان ما سيصبح كهلال بالكاد يتحرك، مثل فم دورا. وقف الرجلان بجانب المرأة، أدخلتُ يدي في جيبي، فقامَت بضمّ حزمتها إلى صدرها. أخرجتُ إحدى القطع الجلدية، وقدّمتُها لها، قائلاً: «خذي هذه، من فضلك».

مدّت يدها بتردّد، ثمّ انتزعتها من يدي، وكأنها كانت تتوقع منّي أن أمسكها. عندما فعَلت ذلك سقطَ الغطاء عن حزمتها، كاشفاً عن طفلٍ ميّتٍ، عمره عام أو عام ونصف تقريباً. كان رمادياً كلون غطاء تابوت أمّي. ستحظى هذه المرأة المسكينة قريباً بطفلٍ آخر، وربّما سيموت هذا الطفل أيضاً. وقد تموت هي قبله، أو ربّما أثناء ولادتها.

سألتهم: «هل تفهمون كلامي؟».

قال الرجل ذو الحذاء: «نعم، بماذا سنكون مدينين لك أيّها الغريب، إن لم تكن حياتنا؟ ليس لدينا أيّ شيء آخر لنقدّمه». كان صوته مُزعجاً، ولكنّه طبيعي نوعاً ما.

بالطبع لم يكن لديهم سوى حياتهم. إذا كان شخص ما قد فعل هذا بهم - أو تسبّب في حدوثه - فعليه أن يذهب إلى الجحيم، إلى أعمق حفرة فيه.

قلت: «لا أستطيع إعطائكم عربتي أو طعامي، فعليّ أن أجتاز مسافة طويلة، وأصبحت كلبتي مسنّة. لكن إذا مشيتم ثلاث... «حاولت أن أقول أميال، لكن الكلمة غابت عن بالي. تابعت: «إذا مشيتم حتّى منتصف النهار تقريباً، سترون لافتة الحذاء الأحمر. ستؤمّن لكم السيدة التي تسكن في ذلك المكان الراحة، وقد تعطيكم الطعام والشراب».

لم يكن ذلك وعداً بالضبط (كان والدي مولعاً بالإشارة إلى ما يُطلق عليه «كلمات ابن عرس» التي تُستخدم في الإعلانات التلفازية للترويج للعقاقير المذهلة) وكنت أعرف أنه ليس بمقدور دورا أن تُطعم وتسقي كلّ اللاجئين الذين يمرّون بكوخها. لكنني اعتقدت أنها عندما ترى حالة المرأة، والحزمة المروّعة التي تحملها، فقد تقدّم لهم المساعدة. في هذه الأثناء، كان الرجل الذي ينتعل الصنادل يتفحص القطعة الجلدية الصغيرة، ثمّ سألني عن الغرض منها. أجبته: «بعد منزل المرأة التي أخبرتك عنها هناك متجر يُمكّنك من استبدال القطعة الجلدية التي أعطيتكم إيّاها بحذاء جديد».

قال الرجل ذو حذاء الذي يمتلك مشابك: «هل هناك مكان لأدفن فيه ولدي؟».

قلت: «لا أعلم. أنا غريبٌ هنا. اسأل السيدة التي تسكن في المنزل ذي لافتة الحذاء الأحمر، أو في مزرعة فتاة الإوز الأبعد. أنا آسف لخسارتكِ يا سيّدتي».

قالت وهي تنظر إلى طفلها الميّت: «لقد كان فتى جيّداً، وُلد بصحة جيدة، لونه ورديّ مثل الفجر، ولكن بعد ذلك أصابه اللون الرمادي. سِر في طريقك يا سيّدي، وسنسير في طريقنا».

قلت لها: «أرجوكِ، انتظري دقيقة». فتحت حقيبتي، وبحثت، ووجدت علبتي سردين (الملك أوسكار). وأخرجتهما من حقيبتي. ابتعدوا عنّي خائفين. قلت لهم: «لا تخافوا، إنه طعام. سردين، سمكة صغيرة. افتحوهما من الأعلى هكذا، أترون؟».

تبادل الرجلان النظرات، ثمّ هزّا رأسيهما. لم يظهرا أي اهتمام بعلبتي السردين، وبدا أن المرأة قد انفصلت تماماً عن المحادثة.

قال الرجل الذي ينتعل الصندل: «سنتجه صعوداً، أمّا أنت أيّها الشاب فتسير في الاتجاه الخطأ».

قلت: «لكن يجب أن أذهب في هذا الاتجاه».

نظر إلى عيني مباشرة وقال: «أنت تذهب إلى الموت».

مضوا في طريقهم، ومشت المرأة حاملةً عبئها الفظيع على صدرها. لماذا لم يأخذه أحد الرجلين منها؟ كنتُ مجرد فتى، لكنني أظنّ أنني عرفت الإجابة. كان لها، وجسده لها، ما دامت تستطيع حمله.

3

شعرتُ بالغباء لأنني لم أعرض عليهم الكعكات الباقية، وظللت أشعر بأنني أناني لاحتفاظي بالعربة لنفسي، إلى أن سقطَت رادار.

شردتُ لدرجة أنني لم ألحظ متى حدث ذلك، وقد تفاجئون (أو لا) عندما تعلمون أن ليس لهذه الأفكار علاقة بكلمات وداع الرجل الذي ينتعل الصندل. لم تفاجئني فكرة تعرّضي للقتل وأنا ذاهب باتجاه المدينة؛ فقد

أوضح لي ذلك كلّ من السيد بوديتش، ودورا، وليا على طريقته الخاصة. ولكن يسهُل عليك الاقتناع بأنك ستكون الاستثناء عندما تكون صغيراً، وبأنك ستكون الشخص الذي ينتصر، ويصنع الأمجاد. فمن الذي انتزع سلاح كريستوفر بولي؟ كنت في سنّ يجعلني أصدّق أنه يمكن لردود الأفعال السريعة والرعاية المنطقيّة أن تتغلب على العقبات.

فكّرتُ في اللغة التي نتحدث بها هنا. لم يكن ما سمعته لغة إنكليزية أمريكيّة عاميّة تماماً، لكنّها لم تكن قديمة أيضاً، ولم تكن كاللغة الإنكليزية المستخدمة في جميع أفلام آيماكس الخيالية، حيث يبدو كلّ الهوبيت، الجان، والسحرة كأعضاء برلمان. كانت أشبه باللغة الإنكليزية الذي تتوقع أن تقرأها في حكاية خيالية حديثة نوعاً ما.

قلتُ لهم إنني لا أستطيع إعطاءهم عربتي لأنه عليّ أن أجتاز مسافة طويلة وكلبتي مسنّة. لو كنت أتحدث إلى شخص ما في سينتري، كنت سأقول ذلك بطريقة بمختلفة. قلت لهم «لافتة الحذاء الأحمر» بدلاً من القول إنه منزل صغير يوجد أمامه لافتة حذاء. فكّرتُ مرّة أخرى في القمع المليء بالنجوم، وظننت أنني أمثّل إحدى النجمات الآن، وأنني أصبحت جزءاً من القصة.

شعرتُ بالخوف والصدمة عندما التفتّ إلى رادار ولم أرها إلى جانبي. أنزلتُ مقبضيّ العربة، وضعتها على الطريق، ونظرت إلى الخلف. رأيتها هناك، على بعد عشرين ياردة منّي، تعرجُ بأقصى سرعتها، ولسانها يتدّلى من جانب فمها.

قلت: «يا إلهي، أنا آسف يا فتاتي».

حملتُها ووضعتها في العربة، كنت حريصاً على وضع يديّ تحت بطنها، وعدم لمس قائمتيها الخلفيّتين المتعبتين. أعطيتُها شراباً آخر بكوبها، أملتُه

لها حتّى تتمكن من شرب بقدر ما تريد، ثمّ داعبتُها خلف أذنيها، قائلاً: «لماذا لم تقولي شيئاً؟».

حسناً، لسنا بهذا النوع من القصص الخيالية.

4

مشينا عبر التلال والوديان، ورأينا المزيد من اللاجئين. بعد ذلك، توقّف رجلان بالقرب منّا، ووقفا على رؤوس أصابعهما ليريا ما بداخل العربة. زمجرت رادار عليهما، لكنني أشكّ في أنها أخافتهما. كانا ينتعلان حذاءين، لذا لم أعطيهما أيّ قطع جلدية. ما كنت لأقترح عليهما التوقف عند دورا حتّى وإن كانا حافيي القدمين على ما أظن، أو أعطيهما أياً من طعامي أيضاً. يمكنهما البحث في الحقول الموجودة بالجوار إذا كانا جائعين حقّاً.

قال أحدهما: «إذا أردت الذهاب إلى الواجهة البحرية فاستدر يا فتى. يأتي الرماديون إلى هناك أيضاً».

قلت: «شكراً على...» لم أعرف ماذا أقول، فقلت: «شكراً لأنكما أخبرتماني». أمسكتُ مقبضيّ العربة، وراقبتهما للتأكد من أنهما ابتعدا.

عند الظهيرة، وصلنا إلى مكان يشبه المستنقع الموحل. انحنيت، وسحبت العربة بسرعة لنتجاوز هذا المكان، لا أريد أن نتعثر. لم تكن العربة أثقل بكثير بوجود رادار، وهذا ما أقلقني وأحزنني في الوقت نفسه.

بمجرّد أن استقررنا على أرض جافّة مرّة أخرى، توقفت تحت ظلّ شجرة تشبه شجرة البلوط في متنزه كافانو. وجدتُ لحم أرنب مقليّ في إحدى الحزم الصغيرة التي حزمتها لنا دورا. أكلَت رادار قطعتين، ثمّ وضعَت الثالثة بين قائمتيها الأماميتين ونظرت إليّ معتذرة. حتّى في الظل، استطعتُ أن أرى عينيها محمرتين ودامعتين مرّة أخرى. فكّرت أنها استوعبت كلّ ما يحصل – العالم الرمادي - لكنني أبعدتُ الفكرة عن ذهني.

كانت فقط تتقدّم بالعمر، بكلّ بساطة. يصعب عليّ تقدير كم من الوقت قد بقي لها، لكنني لا أعتقد أنه كثير.

ازداد عدد الأرانب العملاقة التي تتجول على الطريق بينما كنّا نأكل، وكذلك الصراصير التي تبلغ من الحجم ضعف حجمها الطبيعي في عالمنا، كانت تقفز برشاقة على قوائمها الخلفية، أدهشتني طريقة قفزها. انقضّ صقر – ذو حجم طبيعي –وحاول الإمساك بواحد منها، لكن الصراصير راوغته، واختفت بين الأعشاب التي تحيط بالغابة. شاهدت رادار الكائنات البريّة باهتمام، ولكن من دون الوقوف على قوائمها، ناهيك عن المطاردة.

شربتُ بعض الشاي الذي كان حلواً ولذيذاً. اضطررت إلى إيقاف نفسي عن الشرب بعد بضع رشفات. قلت: «هيّا يا فتاة. علينا الوصول إلى منزل العمّ. لا تعجبني فكرة التخييم بالقرب من هذه الغابة».

حملتُها، ثمّ توّقفتُ، لأنني رأيت شجرة بلوط كُتب عليها بالون الأحمر الباهت: أي. بي. فكرة أن السيد بوديتش كان هنا من قبل، أشعرتني بالتحسن، وبأنه لم يرحل تماماً.

5

كان اليوم دافئاً بما يكفي لجعلي أتعرّق. لم نرَ أيّ لاجئين خلال الظهر، إلى أن وصلنا إلى مكان يشبه التلّ، حينها سمعت صوت هرولة خلفي. أتت رادار إلى مقدّمة العربة. جلست رافعة أذنيها. توقفتُ، وسمعت صوتاً يشبه ضحكة خافتة. تقدّمتُ إلى الأمام قليلاً، وسمعت: «هل تحبّين ذلك يا حبيبتي؟ هل تشعرين بالدغدغة؟».

كان صوتاً عالياً، لكنّه بدا مألوفاً. أدركت السبب بعد لحظة، ذكّرني صوته بصوت كريستوفر بولي. أعلم أنه لا يمكن أن يكون هو، لكنّه كان يشبهه بالتأكيد.

تقدمت قليلاً إلى الأمام، وتوقفت بمجرد أن رأيت منحدراً على الجانب الآخر من المُرتفع. رأيت بعض الأشياء الغريبة في هذا العالم الآخر، لكن لم يكن هناك شيء أغرب من منظر فتى يجلس بين الغبار مثبّتاً بيديه صرصاراً من قوائمه الخلفية. كان أكبر صرصار رأيته إلى الآن، لونه أحمر وليس أسود. وحمل الفتى بيده الأخرى ما يشبه الخنجر قصير النصل.

بدا مستغرقاً جدّاً في ما كان يفعله، لدرجة أنه لم يرنا. جرَح الصرصار في بطنه، فقطرت منه نقطة دم. لم أكن أعرف أن الصراصير تنزف. رأيت قطرات دمٍ أخرى على التراب، ففهمتُ أن هذا الفتى كان يفعل هذا الأمر الشائن منذ فترة.

قال الفتى: «هكذا يا عزيزي؟» حاول الصرصار الهرب، ولكنّه لم ينجح في ذلك لأنه مثّبت القوائم. سحبه الفتى بسهولة إلى الخلف، وقال: «ماذا عن القليل من...».

نبحت رادار. نظر الفتى حوله، ولم يُفلت قبضته عن الصرصار، لم يكن فتى بل قزماً متقدماً في السن. تدلّى شعره الأبيض على وجنتيه. كان وجهه مُجعّداً، وهلال فمه عميقاً لدرجة أنه بدا كدمية تتكلّم من بطنها، والتي كان يمكن أن تستخدمها ليا (ما لم تتظاهر بأن فرسها يمكنها التحدث). لم يكن وجهه يذوب، لكن بشرته كانت بلون الطين. وما زال يذكرني ببولي، ربّما لأنه صغير الحجم، ولكن في الغالب بسبب المكر في وجهه. بالنظر إلى نظرته الخبيثة تلك المرافقة لما كان يفعله، يمكنني بسهولة تخيّله يقتل صائغ مجوهرات أعرج.

سألني: «من أنت؟». لم يكن خائفاً منّي، فقد كنت بعيداً عنه، ولم يستطع أن يرى سلاحي بعد لأنني كنت أقف في الظل.

سألته: «ماذا تفعل؟».

أجابني: «أمسكت بصديقي هذا. كان سريعاً، لكن بيتركين العجوز كان أسرع منه. أريد أن أعرف إن كان يشعر بالألم. وحده الله يعلم كم بذلت من جهد في سبيل ذلك».

وخز الصرصار مرّة أخرى، فنزف مجدداً. سحبت العربة إلى أسفل التل، فنبحت رادار مرّة آخر.

قال لي: «اكبح كلبتك يا فتى. لو كنت مكانك، لفعلت ذلك. سأقطع حلقها إذا اقتربت منّي».

وضعتُ مقبضيّ العربة على الأرض، وأخرجتُ مسدس السيد بوديتش من قرابه للمرة الأولى. وقلت: «لن تمسّها أو تمسّني. توقّف عن فعل ذلك، دع الصرصار».

نظر القزم - بيتركين - إلى المسدس بحيرة لا برعب، وقال: «لماذا تريد منّي أن أفعل ذلك الآن؟ لا أملك سوى القليل من الأشياء المسليّة في عالم يكاد يخلو من التسلية».

قلت: «أنت تعذبّه». بدت على بيتركين علامات الدهشة، وقال: «تعذيب؟ هل قلتَ تعذيب؟ أوه أيّها الأحمق، إنه حشرة عديم النفع. الحشرات لا تتعذب! لماذا يهمك أمره؟».

بدا منظره قبيحاً وقاسياً وهو يمسك بقائمتي الصرصار الذي يحاول القفز باستخدام ما يمثّل وسيلته الوحيدة للهروب، واستمر القزم بوخزه مراراً وتكراراً.

قلت: «لن أكرّر كلامي مرّتين».

ضحكَ، قائلاً: «هل ستطلق النار عليّ من أجل حشرة؟ لا أعتقد أن...». شعرت بأنه يشبه بولي قليلاً بتعليقاته الساخرة.

صوّبتُ أعلى يساره، وضغطت على الزناد. كان دويّ الطلقة أعلى بكثير مما كان عليه داخل منزل السيد بوديتش. نبحت رادار، فذُعر القزم تاركاً الصرصار، الذي قفز ملتوياً في العشب. تسبّب له هذا الرجل القصير اللعين بالعرج. كم هو عدد الصراصير الحمراء التي رأيتها؟ كان هذا هو الوحيد. ربّما كان كائناً نادراً مثل الغزلان البيضاء.

نهض القزم، ونفض الغبار عن بنطاله الأخضر، ودفع بشعره الأبيض المتكتّل إلى الوراء مثل عازف البيانو يستعدّ لعزف مقطوعة مهمّة. بدا مفعماً بالحيوية، بغضّ النظر عن لون جلده الرمادي. بدا مفعماً بالحيوية مثل الصرصار، إن جاز التعبير. مع أنه لم يغنِ أبداً في برنامج (نجم أمريكا الأول)، إلا أنه كان يتمتع بصوتٍ أجمل بكثير من معظم الأشخاص الذين التقيت بهم في الساعات الأربع وعشرين الماضية، وكان لديه حضور. بدا طبيعيّاً تماماً، بخلاف كونه قزماً (ذات مرّة قال لي والدي: «لا تطلق عليهم لقب الأقزام، فهم يكرهون ذلك») ولديه بشرة قذرة يلزمها جرعة من أبريميلاست.

قال وهو ينظر إليّ باشمئزاز، وبقليل من الخوف (أو ربّما هذا ما تمنّيته): «أرى أنك فتى سريع الانفعال. لماذا لا يذهب كلّ منّا في طريقه؟».

قلت: «حسناً، لكنني أريد أن أسألك شيئاً قبل أن نفترق. كيف لوجهك أن يكون طبيعيّاً إلى حدّ ما، ويبدو أن العديد من الأشخاص الآخرين يزدادون قبحاً طوال الوقت؟».

لم أقصد أنه كان وسيماً، وأنا متأكدّ من كون سؤالي وقحاً نوعاً ما، ولكن إذا لم أكن وقحاً مع رجل ضبطه وهو يعذب صرصاراً عملاقاً، فمع من يمكنني أن تكون وقحاً؟

قال بتذمّر: «ربّما لأن الآلهة، إذا كنت تؤمن بها، قد أدت دورها بالفعل معي. كيف يمكن لشخص كبير الحجم مثلك أن يعرف شعور أن تكون صغير الحجم مثلي؟».

قلت له: «لا أشعرُ بأيّ تعاطف تجاهك».

سألني عابساً: «ماذا؟».

قلت: «لا تهتم. مجرّد دعابة صغيرة».

قال: «سأذهب الآن، إذا لم يكن لديك مانع».

قلت: «حسناً، لكن أنا وكلبتي سنشعر بتحسّن إذا ألقيت هذا الخنجر من يدك قبل أن تغادر».

قال القزم: «أنت تتحدث بهذه الطريقة فقط لأنك واحد من هؤلاء، أنت أفضل منّي. سترى ما سيفعلونه بك إذا قبضوا عليك».

سألته: «من تقصد؟».

أجابني: «جنود الليل».

سألته: «من هؤلاء، وماذا يفعلون لمن هم مثلي؟».

أجابني بسخرية: «لا عليك. أتمنى فقط أن تكون قادراً على القتال، لكنني أشكّ في ذلك. تبدو قوياً من الخارج، لكنني أعتقد أنك هشّ من الداخل. هكذا يتصرف الناس عندما لا يضطرون إلى الكفاح. لم تفوّت كثيراً من الوجبات، أليس كذلك يا سيدي الصغير؟».

قلت: «ألاحظ أنك ما زلت تمسك بالخنجر يا سيد بيتركين. ضعه جانباً أو قد أجعلك تتخلص منه».

دس القزم الخنجر في حزام خصره، وكنت آمل أن يجرح نفسه وهو يفعل ذلك. كانت هذه فكرة لئيمة، ثمّ خطرت ببالي فكرة أكثر لؤماً: ماذا لو أمسكت باليد التي كانت تُمسك قائمتي الصرصار الأحمر معاً وقطعتها، كما فعلت مع بولي؟ كنوع من الدروس العملية. أستطيع أن أكذب وأخبركم بأنها

لم تكن فكرة جديّة، لكنّها في الواقع كانت كذلك. كان من السهل جدّاً تخيّله وهو يستخدم خنجره على رادار: غرزة، غرزة، غرزة. ما كان يستطيع فعل هذا بها عندما كانت في شبابها.

لم أنفّذ أيّ من أفكاري تلك، وتركته يمضي في طريقه. نظرَ إلى الخلف مرة واحدة قبل أن يمشي، ولم يقصد بتلك النظرة: أسعدني اللقاء بك أيها الفتى الغريب، بل كانت تعني: لا تدعني أعثر عليك نائماً.

من المحال أن يحدث ذلك، مضى في طريقه إلى المكان الذي يتجه إليه باقي اللاجئين. فكّرت بعد رحيله، بأنه كان عليّ حقّاً إجباره على رمي الخنجر بعيداً.

6

حلّ العصر، لم أعد أرى حقولاً محروثة، ولا مزارع، ولا لاجئين، على الرغم من أنني رأيت عربات ذات مقبضين مليئة بالممتلكات في الفناء الأمامي لإحدى المزارع المهجورة، ورأيت أيضاً دخاناً خفيفاً يتصاعد من المدخنة. ظننت أنهم ربّما قرروا الاختفاء قبل أن تبدأ الذئاب في العواء. سيكون من الحكمة أن أفعل الشيء نفسه، إذا لم أصل إلى منزل عمّ ليا قريباً. كان لديّ مسدس السيد بوديتش ومسدس بولي عيار 0.22، لكن الذئاب تميل إلى التنقّل في مجموعات، إضافة إلى أنها أن تكون كبيرة مثل الموظ، على حدّ علمي. وقد بدأت أشعر بالتعب في ذراعي، وكتفي، وظهري. كانت العربة خفيفة، وعلى الأقل لم يكن هناك المزيد من بقع الوحل، لكنني كنت قد عبرت مسافةً طويلةً منذ أن غادرت كوخ دورا.

رأيتُ الأحرف الأولى من اسم السيّد بوديتش- أي. بي- ثلاث مرّات أخرى، مرّتين على الأشجار المجاورة للطريق، ومرّة أخيرة على صخرة ضخمة. بحلول ذلك الوقت، كانت الشمس قد اختفت خلف الأشجار، وخيّم الظلام على الأرض. مرّ وقت لم أرَ فيه أي منازل، وبدأت أشعر بالقلق من

أننا قد نضطر للبقاء على الطريق عندما يصبح الظلام دامساً. لم أرد ذلك حقاً.

أعطتنا الآنسة ديبينز عشرين قصيدة لنختار منها واحدة، ونحفظ منها ستة عشر بيتاً على الأقل بصفتنا طلاباً في السنة الثانية. اخترت قصيدة (البحّار العجوز)، وتمنيت الآن لو أنني اخترت شيئاً آخر، لأن الأبيات كانت مناسبة جدّاً: كذلك الذي يسير على طريق مهجور في خوف ورهبة، وبعد أن استدار لمرّة واحدة، بعدها مضى دون التفات...

أنهيتها بصوتٍ عالٍ: «لأنه يعرف، أن هناك شيئاً شريراً خفيّاً يدنو منه من الخلف». أنزلتُ مقبضي العربة، ونظرت إلى اسم السيد بوديتش المحفور على الصخرة. لا بدّ أنه أرهق نفسه بالفعل في كتابته؛ كانت الحروف بارتفاع ثلاث أقدام. قلت: «ستنبحين لتنبّهيني إذا رأيت شيئاً شريراً مخيفاً خلفنا يا رادار، أليس كذلك؟».

كانت نائمة في العربة. فكّرت في شرب بعض الماء – كنت أشعر بعطش شديد- لكنني قرّرت أنه يمكنني التحمّل قليلاً. رغبت في المضي قدماً لأطول مسافة ممكنة ما دام هناك شعاع من ضوء النهار. أمسكت بالمقبضين ومشيت، معتقداً أن رؤية أيّ كوخ وإن كان خشبياً ستكون علامة جيّدة في هذه المرحلة.

كان الطريق متعرجاً، ثمّ استوى تماماً لينتهي مباشرة بالشفق. رأيت منزلاً نوافذه مضاءة، على بعد ميل تقريباً. اقتربت، ورأيت فانوساً معلّقاً على عمود في الخارج. يمكنني القول إن الطريق تشعّب قبل ستين أو سبعين ياردة من المنزل، والذي كان مبنياً من الطوب... تماماً كالمنزل في قصّة الخنزير الصغير المجتهد.

رأيتُ ممرّاً مرصوفاً بالحجر يؤدي إلى الباب الأمامي، لكن قبل أن أتجه إليه، توقفت لأتفحص الفانوس، الذي ينبعث منه ضوء أبيض قويّ، ممّا

يصعّب رؤيته عن قرب. سبق لي أن رأيت واحداً مثله، في قبو السيد بوديتش، لم أكن مضطراً لتفقّد قاعدته لمعرفة أنه من صنع كولمان، المتوفرة في أيّ متجر أجهزة أمريكي. خمنت أن الفانوس، حاله حال ماكينة خياطة دورا، هديّة من السيد بوديتش. ألم يقل إن الجبان يقدّم الهدايا.

كان هناك مطرقة ذهبيّة وسط الباب. أنزلتُ العربة، وسمعت رادار تهرول وتشقّ طريقها مقتربة منّي. كنت على وشك طرق الباب عندما فُتح. استقبلني رجل يناهزني طولاً، لكنّه أنحف منّي بكثير، ويمكنني وصفه بالهزيل. بدا كذلك بسبب نيران المدفأة خلفه، لم أتمكّن من تحديد ملامحه، لاحظتُ قطاً على كتفه، وشعره الأبيض الخفيف على رأسه الأصلع. عندما تحدّث إليّ، تخيّلت مرّةً أخرى أنني دخلت كتاب القصص القصيرة، وأصبحت أحد شخصيّاته.

قال لي: «مرحباً أيّها الأمير الشاب. كنت أنتظرك. أهلاً وسهلاً بك في منزلي».

7

أدركتُ عندها أنني تركتُ لجام رادار في العربة، فقلت: «اممم، ربّما عليّ أن أجلب لجام كلبتي أولاً يا سيّدي. لا أعرف كيف ستتعامل مع القطط».

قال الرجل العجوز: «ستكون بخير، لكن في حال كان لديك طعام، أقترح عليك إدخاله، إذا لم ترد أن تفقده صباحاً».

ذهبتُ وأحضرتُ حقيبتي وحزمة الطعام التي أعدّتها لنا دورا، بالإضافة إلى لجام رادار من باب الاحتياط.

انحنى الرجل قليلاً، وقال لرادار: «ادخلي يا رادار، لكن كوني جيّدة. أنا أعوّل عليكِ».

تبعتني رادار إلى غرفة جلوس أنيقة يُغطي بساط أرضيتها الخشبيّة، وفيها كرسيّان مريحان بالقرب من المدفأة، وكتاب مفتوح على ذراع أحدهما، وبضعة كتب أخرى على الرفّ القريب. كان الجانب الآخر من الغرفة عبارة عن مطبخ صغير. على الطاولة كان هناك خبز، وجبن، ودجاج بارد، ووعاء مليء بهلام التوت البرّي، وإبريق من الفخار. أصدرت معدتي صوت قرقرة عالياً.

فضحك الرجل، وقال: «سمعتُ ذلك. هناك قول مأثور يقول يجب الاهتمام بالشباب».

كان هناك كرسيّان، ووعاء على الأرض بجانب أحدهما، والذي كانت رادار قد بدأت بالشرب منه.

سألته: «كنت تعلم أنني قادم، أليس كذلك؟ كيف عرفت؟».

قال لي: «هل تعرف الاسم الذي نفضل عدم التحدث عنه؟».

أومأتُ برأسي. غالباً ما يوجد في مثل هذه قصص التي بدا لي أنني دخلتها، اسم لا يتوجّب علينا نطقه، كي لا يوقظ الشر.

قال: «لم يأخذ كلّ شيء منّا. كما رأيت، استطاعت ابنة أخي أن تتحدّث إليك، أليس كذلك؟».

قلت: «عبر فرسها».

قال: «نعم، فلادا. ليا تتحدث معي أيضاً أيّها الأمير الشاب، على الرغم من ندرة ذلك. لكنّها عندما تفعل، فليس بالضرورة أن يكون تواصلها واضحاً، يحزنها ضياع أفكارها أكثر من ضياع صوتها. لدينا أشياء كثيرة نناقشها، لكن دعنا نأكل أولاً، تفضّل».

ظننت أنه يقصد التخاطر عندما ذكر التواصل. لا بدّ أن يكون الأمر كذلك، لأنها بالتأكيد لم تتواصل معه، أو ترسل له رسالة نصية.

سألته: «لماذا تدعوني بالأمير الشاب؟».

هزّ كتفيه، فتحرك القطّ على كتفه، وقال: «كنوع من الألقاب النمطيّة التقليدية. ربّما سيأتي أميرٌ حقيقيّ في يومٍ من الأيام، لكن لا أظنّ أنه أنت، بالحكم على صوتك. أنت صغيرٌ جداً».

ابتسمَ واستدار نحو المطبخ. فأضاءت النار وجهه بالكامل للمرّة الأولى، سبق لي أن عرفت أنه أعمى، بسبب الطريقة التي يمدّ بها يده أمامه وهو يمشي، وكأنه يتفحّص الهواء بحثاً عن العقبات.

8

جلسَ، فقفزَ القطّ بني الشعر على الأرض. اقتربَ من رادار، واستعددت لإمساك طوقها إذا هاجمته. لكنّها لم تفعل شيئاً، أخفضت رأسها فقط، وشمت أنف القطّ. ثمّ استلقت على الأرض.

سارَ القطّ أمامها كأنه ضابط يتفقد جنديّاً في موكب (فوجدها قذرة)، ثمّ تبخترَ في غرفة المعيشة، قفز إلى الكرسي الذي وضع الكتاب على ذراعه، وجلس متقوقعاً على نفسه.

قلت: «اسمي تشارلي ريد، تشارلي. هل أخبرتكَ ليا بذلك؟».

قال: «كلا، لا يعمل التخاطر بهذه الطريقة. إنه أشبه بالحدس. تسرّني مقابلتك أيّها الأمير تشارلي». الآن بعد أن أنار الضوء وجهه، استطعت أن أرى ملامحه بوضوح، اختفت عيناه تماماً مثل فم ليا، وتركتا مكانهما ندبتين. قال: «اسمي ستيفن وودلي. كان لقبي سابقاً - وليّ العهد- لكن تلك الأيام قد ولّت. نادني وودي، إذا أردت، فنحن نعيش بالقرب من الغابة، أليس كذلك؟ أنا وكاتريونا».

سألته: «قطّتك؟».

أجابني: «نعم. وأعتقد أن اسم كلبتك هو... رايمار؟ أو شيء من هذا القبيل. لا أذكر بالضبط».

قلت: «رادار، إنها كلبة السيد بوديتش. لكنّه مات».

قال: «أووه، يؤسفني سماع ذلك». وبدا حزيناً، لكنّه لم يتفاجأ.

سألته: «ما مدى معرفتك به يا سيّدي؟».

أجابني: «أرجوك نادني بوودي. قضينا بعض الوقت معاً. كما سأفعل معك يا تشارلي، أو هذا ما آمله. ولكن يجب أن نأكل أولاً، لأنك اجتزت طريقاً طويلاً اليوم، على ما أعتقد».

قلت: «هل يمكنني أن أطرح سؤالاً واحداً أولاً؟».

ابتسم ابتسامة عريضة، مما تسبّب بتجعّد وجهه، وقال: «إذا كنت تريد أن تعرف كم عمري، فأنا لا أتذكّر حقّاً. أظنّ أحياناً أنني كنت عجوزاً عندما بدأ العالم».

قلت: «لا، ليس هذا ما أردت أن أسأل عنه. رأيت الكتاب وتساءلت... إذا كنت، كما تعلم...».

قال: «كيف أقرأ إذا كنت أعمى؟ ألقِ نظرة على الكتاب. هل ترغب في تناول الفخذ أو الصدر؟».

قلت: «الصدر، من فضلك».

بدأ يضع الطعام في طبقي، لا بدّ أنه اعتاد على القيام بذلك، فلم يكن هناك أيّ تردّد في حركاته. نهضتُ، وذهبت إلى كرسيه. نظر كاتريونا إليّ بعينيه الخضراوين الحكيمتين. كان الكتاب قديماً، يُظهر غلافه خفافيش تطير

في اتجاه القمر الكامل، كتاب (الملاك الأسود) لكاتبته، كورنيل وولريتش. ربّما كان أحد الكتب المكدسة في غرفة نوم السيد بوديتش، لكنني عندما التقطته ونظرت إلى الصفحة التي توقّف عندها وودي، لم أرَ أيّ كلمات، فقط مجموعة من النقاط الصغيرة. تركت الكتاب، وعدت إلى الطاولة.

قلت: «أنت تقرأ بطريقة البرايل». فكّرت في نفسي، لا بدّ أن لغة الكتب تغيّرت أيضاً، تمّت ترجمتها. كم هذا غريب؟

أجابني: «نعم. أحضر لي أدريان كتاب تعليميّ يظهر بعض الأحرف، وبعدها تمكّنت من تعليم نفسي. كان يحضر لي كتباً أخرى مكتوبة بطريقة البرايل من وقتٍ إلى آخر. كان منحازاً للحكايات الخيالية، مثل التي كنت أقرأها وأنا أنتظر وصولك. رجال خطيرون وفتيات يعشن في المصائب ويعيشون في عالم مختلف تماماً عن هذا العالم».

هزّ رأسه وضحك، وكأن قراءة الحكايات الخيالية كان نشاطاً تافهاً، بل وربّما جنونيّاً. تورّدت وجنتاه من الجلوس بالقرب من النار، ولم أرَ فيهما أثراً للون الرمادي. وكأنه كان سليماً، لكنّه في الحقيقة لم يكن كذلك، وكذلك الأمر بالنسبة إلى ابنة أخيه. لم يكن لديه عينان ليرى بهما، ولم يكن لديها فم لتتحدّث منه، فقط ندبة تفتحها بأظافرها لتتناول القليل من الطعام. تماماً كإحدى الفتيات الضعيفات في تلك الحكايات الخيالية.

قال لي: «تفضّل، اجلس».

اقتربت من الطاولة. عوى ذئبٌ في الخارج، وهذا يعني أن القمر أو بالأحرى القمرين قد ظهرا. لكننا كنّا بأمان في هذا المنزل المبني من الطوب. إذا نزل ذئبٌ ما من المدخنة، فستحرق النار فراءه.

قلت: «يبدو هذا العالم خياليّاً بالنسبة إليّ».

قال: «ابقَ هنا لفترة كافية وسيبدو لك عالمك الأساسي خياليّاً. الآن تناول الطعام يا تشارلي».

9

كان الطعام لذيذاً جداً. طلبتُ مرتين أن يسكب لي مجدداً. ثمّ شعرت بقليل من الذنب حيال ذلك، لكنّه كان يوماً طويلاً وقد جررت تلك العربة لثمانية عشر أو عشرين ميلاً. أكل وودي باعتدال، القليل من أفخاذ الدجاج وهلام التوت البري، ممّا زاد شعوري بالحرج. تذكرتُ يوم أوصلتني والدتي لأنام في منزل آندي تشين، وأخبرت والدته بأنني آكل بشراهة، وأنني قد آكل كلّ ما في منزلهم من طعام إذا سمحَت لي بذلك. سألتُ وودي من أين حصل على مؤونه.

أجابني: «الواجهة البحرية. هناك بعض الذين ما زالوا يتذكرون مثلنا.. أو مثلما كنّا... ويقدّرون ذلك. جاء اللون الرمادي إلى هناك الآن. الناس يغادرون، ربّما قابلت بعضاً منهم على الطريق».

قلت: «نعم»، وأخبرته عن بيتركين.

قال: «صرصار أحمر، أليس كذلك؟ هناك أساطير... لكن لا تهتم. سعيد لأنك أوقفته. ربّما أنت أمير بعد كلّ شيء. هل شعرك أشقر، وعيناك زرقاوان؟».

أجبت: «لا، كلاهما بنّي».

قال: «لست أميراً، ولست الأمير بالتأكيد».

قلت: «من هو الأمير؟».

قال: «مجرّد أسطورة أخرى. هذا عالم من القصص والأساطير، كما هو عالمك. بالنسبة إلى الطعام... اعتدت الحصول على كمّية كبيرة من

الطعام من الواجهة البحرية، أكثر من حاجتي، وغالباً ما يكون سمكاً بدلاً من اللحوم. كما قد تتوقع من الاسم. مرّ وقت طويل على غزو اللون الرمادي لهذا الجزء من العالم – لا أعلم منذ متى حقّاً، تصبح الأيام متشابهة عندما يبقى المرء دائماً في الظلام». قال ذلك من دون أيّ شعور بالشفقة على الذات، وكأنه يذكر الحقائق فقط. ثمّ تابع كلامه: «أعتقد أن الواجهة البحرية سلِمت من غزو اللون الرمادي لبعض الوقت، لأنها تقع في شبه جزيرة ضيّقة، حيث تهب الرياح دائماً، لكن لا أحد يعلم على وجه اليقين. كنت قد التقيت بالعشرات من الأشخاص على طريق الملوك في العام الماضي يا تشارلي. لكن العدد ينحسر الآن».

قلت: «طريق الملوك؟ هذا ما تسميه؟».

قال: «نعم، ولكن بمجرد أن تجتاز مفترق الطرق، يصبح طريق المملكة. إذا اخترت الذهاب يساراً عند مفترق الطرق، فستصبح على طريق الواجهة البحرية».

سألته: «إلى أين هم ذاهبون؟ أعني، بعد منزل دورا، ومزرعة ليا، ومتجر شقيق دورا».

قال باندهاش: «هل ما زال يحتفظ بذلك المتجر؟ أنا متفاجأ حقّاً. أتساءل ما الذي يبيعه؟».

قلت: «لا أعلم. أنا أعرف فقط أنه يبدّل أحذيتهم القديمة بأحذية جديدة».

ضحك وودي، وقال بسرور: «دورا وجيمس! الحيل القديمة! الإجابة عن سؤالك هي أنني لا أعرف، وأنا متأكد من أنهم لا يعرفون. فقط بعيداً، بعيداً، بعيداً».

صمتت الذئاب لفترة، ثمّ عاودت العواء. بدا الأمر وكأنه هناك العشرات منها، كنت سعيداً جدّاً لأنني في منزل وودي. بدأت رادار بالأنين، ربّتتُ رأسها. قلت: «لا بدّ أن القمرين قد ظهرا».

قال: «هناك قمر واحد فقط في مملكتك الخيالية، وفقاً لأدريان. يقول أحد شخصيات كتاب السيد كورنيل وولريتش: «لقد خُدعنا». أتريد قطعة كعك يا تشارلي؟ أخشى أنك قد تجدها فاسدة قليلاً».

قلت: «سيكون الكعك رائعاً، هل تريدني أن أجلبها؟».

قال: «لا عليك. أعرف طريقي جيّداً بعد كلّ هذه السنوات هنا، إنه مكان مريح للمنفى، ألا تعتقد ذلك. الكعك على رف في الخزانة. اجلس وارتاح، سأعود مع قطعتين».

أثناء جلبه الكعك، سكبتُ لنفسي مزيداً من عصير الليمون من الإبريق. يبدو أن عصير الليمون هو المشروب المفضل في إمبيس. أحضر لكل منا قطعة من كعك الشوكولاتة. أشعرني مذاق الكعك أن ما كنا نحصل عليها في المدرسة الثانوية بسيط للغاية. لم أعتقد أن الكعك فاسد على الإطلاق، كل ما في الأمر أن أطرافه كانت قاسية قليلاً.

صمتت الذئاب فجأة، وهذا ما جعلني أفكر مرّة أخرى أن شخصاً ما سحب قابس مضخم الصوت. قلت: «أعتقد أن الغيوم قد عادت من جديد، ستذهب الذئاب بعيداً، أليس كذلك؟».

هزّ رأسه ببطء، وقال: «ليس منذ قدومه. إنها تمطر هنا أيّها الأمير تشارلي لكنّها تكاد لا تشرق أبداً».

قلت: «يا الله».

أجاب وودي مبتسماً: «أميرٌ آخر، للسلام، وفقاً للكتاب المقدس بطريقة البرايل الذي جلبه لي أدريان. هل شبعت؟ هذا يعني...».

قلت: «أعرف ما تعنيه، لقد شبعت حقّاً».

وقف، وقال: «إذاً تعالَ واجلس بجانب النار. علينا أن نتحدّث».

تبعته إلى كرسيّي صالونه الصغير، وتبعتني رادار. بحث وودي عن كاتريونا، وجده وحمله. استلقى على يديه، وكأنه مشلح من الفرو، إلى أن وضعه على الأرض. نظر نظرة متعجرفة إلى كلبتي، ثمّ أدار لها ذيله وابتعد. استلقت رادار بين الكرسيين. أطعمتُها بعضاً من الدجاج، لكنّها أكلت قليلاً فقط. نظرَت رادار إلى النار وكأنها تفكّ أسرارها. فكرتُ بسؤال وودي عمّا سيفعله بشأن المؤون الآن بعد أن بدأ إخلاء بلدة الواجهة البحرية، لكنني قرّرتُ عدم القيام بذلك. خشيتُ أن يخبرني أنه لا يعلم.

قلت: «أريد أن أشكرك على الوجبة».

لوّح بيديه.

قلت: «ربّما تتساءل عمّا أفعله هنا».

قال: «لا على الإطلاق». مدّ يده إلى الأسفل، وربّتَ ظهر رادار. ثمّ وجّه الندبتين التي تمثّل عينيه إليّ. وتابع: «كلبتك تحتضر، وليس هناك وقت لتضيعه إذا كنت تنوي تحقيق ما جئت من أجله».

10

كنتُ مسترخياً، معدتي مليئة بالطعام، وأشعر بالأمان في منزل من الطوب مع صمت الذئاب والمدفأة. كنت أشعر بالرضا، لكنني جلست منتصباً، عندما قال إن رادار تُحتضر. قلت: «ليس بالضرورة. لقد تقدّمت في العمر، وتعاني من التهاب المفاصل، لكنّها ليست كذلك...».

تذكّرتُ مساعدة الطبيب البيطري التي قالت إنها ستكون متفاجئة إذا بقيت رادار حيّة حتّى الهالوين، وصمتُّ.

قال: «أنا أعمى، لكن حواسي الأخرى تعمل بشكل جيد». كان صوته لطيفاً، وهذا ما جعل كلامه مخيفاً أكثر. في الواقع، أصبحت أذنيّ أكثر حدّة أكثر من أيّ وقت مضى. اعتدتُ أن يكون لديّ خيول وكلاب في القصر، عندما كنت طفلاً وشاباً دائماً ما كنت في الخارج معها، وأحببتها جدّاً. أعرف كيف تبدو عندما تقترب من نهاية عمرها. استمع! أغمض عينيك، واستمع!».

فعلت ما قاله لي، سمعت صوت فرقعة من حين إلى آخر من المدفأة، سمعتُ الساعة تدقّ في مكان ما، وصوت نسيم الهواء في الخارج. ثمّ سمعت صوت تنفّس رادار: الأزيز في كلّ مرّة تستنشق فيها الهواء، والحشرجة مع كلّ زفير.

قال: «أتيت من أجل الساعة الشمسية».

قلت: «نعم، هناك ذهب، قطع ذهب صغيرة، شيء يشبه الخرطوش. لستُ بحاجة إلى ذلك الآن، لكن السيد بوديتش قال لي لاحقاً...».

قال: «لا تهتمّ بالذهب الآن. مجرّد الذهاب إلى الساعة الشمسية... واستخدامها... أمر خطير بما يكفي لأمير شابّ مثلك. لم تكن هانا في زمن بوديتش. قد تجد طريقك وتتخطّاها إذا كنت حريصاً... ومحظوظاً. لا يمكنك إلغاء دور الحظ في مثل هذه الأعمال. بالنسبة إلى الذهب... الأمر أكثر خطورة. من الجيد أنك لست بحاجة إليه الآن».

هانا، تجاهلت الاسم حاليّاً. لأن هناك شيئاً آخر أثار فضولي على الفور.

سألته: «لماذا أنت على ما يرام؟ أعني، عدا عن كونك أعمى». تمنّيت لو استطعت استعادة ما قلته بمجرد خروج الكلمات من فمي، فاعتذرت قائلاً: «آسف، لم يكن هذا لبقاً».

ابتسم، وقال: «لا داعي للاعتذار. بالنظر إلى الاختيار بين أن أكون أعمى أو أن أصبح رمادياً، فسأختار العمى في كلّ مرة. لقد اعتدت على

كوني كذلك. وبفضل أدريان، لديّ حكايات خيالية لأقرأها. الرمادي يعني الموت البطيء، يجعل التنفس أصعب وأصعب، ويحوّل الوجه لقطعة لحم عديمة الفائدة. فينغلق الجسد». رفع إحدى يديه وقبضها، وتابع: «هكذا».

سألته: «هل سيحدث ذلك لدورا؟».

أومأ برأسه، لكنه لم يكن مضطرّاً للإجابة فأنا مجرّد فتى يسأل.

سألته: «كم من الوقت لديها؟».

أجابني: «من المستحيل معرفة ذلك. إنها عملية بطيئة، وليست متماثلة عند الجميع، لكنها قاسية، وهذا هو الرعب بحدّ ذاته».

سألته: «ماذا لو غادرَت؟ ذهبَت إلى حيث يذهب الآخرون؟».

قال: «لا أعتقد أن هذا مهمّ. لا شيء يمكن أن يوقف اللون الرمادي بمجرّد أن يظهر. مثل مرض الهزال. هل هذا ما تسبب في موت أدريان؟».

افترضت أنه كان يتحدث عن السرطان، وأجبته: «كلا، أصيب بنوبة قلبية».

قال: «آه، قليل من الألم، ثمّ رحل. أفضل من الرمادي. قال أدريان إن العديد من قصص عالمك تبدأ بـ كان يا مكان».

قلت: «نعم، ورأيت هنا الكثير من الأشياء المشابهة لتلك القصص».

قال: «وكذلك أشياء تشبه عالمك، أنا متأكد من ذلك، كلّها قصص أيّها أمير تشارلي».

عوت الذئاب. أغلق وودي كتابه، ووضعه على طاولة صغيرة بجانب كرسيه. تساءلت كيف سيجده مرّة أخرى. عاد كاتريونا، وقفز إلى حجره، وبدأ يخرخر.

قال: «كان يا مكان، في مدينة ليليمار في أرض إمبيس، كانت هناك عائلة ملكية تعود إلى آلاف السنوات. حكَم غالبيّتهم – ليس جميعهم - بحكمة. ولكن عندما حان الوقت العصيب، قُتل كلّ أفراد العائلة تقريباً، لقد ذُبحوا».

قلت: «أخبرتني ليا عن ذلك. عن طريق فلادا، كما تعلم. قالت إن أباها وأمّها ماتا. كانا الملك والملكة، أليس كذلك؟ لأنها قالت إنها أصغر الأميرات».

ابتسم، قائلاً: «نعم بالفعل، أصغرهنّ جميعاً. هل قالت لك إن شقيقاتها قتلن؟».

قلت: «نعم».

قال: «وماذا عن شقيقيها؟».

قلت: «لقد قُتلا أيضاً».

تنهّدَ، داعبَ قطّه، ونظرَ إلى النار. أنا متأكّد من أنه يشعر بحرارته، لكنني تساءلت إن كان يمكنه رؤية شيء ما منه - كأن تنظر إلى الشمس وعيناك مغمضتان وترى الاحمرار. فتحَ وودي فمه كأنه يريد أن يقول شيئاً ما، ثمّ أغلقه مرّة أخرى وهزّ رأسه قليلاً. شعرت أن الذئاب قريبة جدّاً... ثمّ توقفت عن العواء بطريقة مخيفة.

قال: «كانت عملية تطهير. هل تعرف معنى ذلك؟».

أجبت «نعم».

قال: «نجا القليل منّا. هربنا من المدينة، لكن هانا لم تغادرها لأنها منبوذة في أرضها، في أقصى الشمال. نجا ثمانية منّا وتمكّنوا من عبور البوابة الرئيسية. تاسعنا كان ابن أخي الويسيوس... لكنّه لم ينجح»، هزّ

وودي رأسه مرّة أخرى، وتابع: «نجا ثمانية منّا من الموت في المدينة، وحمتنا دمائنا من اللون الرمادي، لكنّا أُصبنا بلعنة أخرى. هل يمكنك أن تخمّن ما هي؟».

قلت: «فقد كلّ واحد منكم إحدى حواسّه؟».

قال: «نعم، يمكن لليا أن تأكل، ولكن هذا يؤلمها، كما رأيت على الأرجح». أومأتُ برأسي، رغم أنه لم يستطع رؤيتي، «بالكاد تستطيع تذوّق ما تأكله، وكما رأيت، لا يمكنها التحدث إلا من خلال فلادا. أنها مقتنعة بأنه ينخدع بذلك، إذا استمع لها. لا أعلم، قد تكون مُحقّة، ربّما هو يسمع حقّاً وهذا يسلّيه».

تفاجأت عندما قال: «هو... ».

انحنى وودي نحوي، وهمس في أذني. توقّعته أن يقول (غوغماغوغ)، لكنّه قال (قاتل الرحلة).

11

قال: «يمكن أن يرسل قتلة ليتخلّصوا منّا، لكنّه لا يفعل ذلك، يتركنا نعيش. العيش بالنسبة إلى أولئك الذين بقوا، هو عقاب كافٍ. كما قلت لك، لم ينجح الويسيوس في الهروب من المدينة. قُتلت إلين، ورنر، وجريتا. أعتقدّ أن يولاند لا تزال على قيد الحياة، لكنّها أُصيبت بالجنون. إنها عمياء، مثلي، تعيش في الغالب مُعتمدةً على لطف الغرباء. أُطعمها عندما تأتي وأثرثر معها. هكذا هم بنات وأبناء العم، كما تعلم – رابطة الدم. هل ما زلت تسمعني؟».

قلت: «نعم».

قال: «أصبح بيرتون ناسكاً يعيش في أعماق الغابة، يصلّي باستمرار من أجل تحرير إمبيس بيدين لا يمكنه أن يشعر بهما عندما يضغط عليهما

معاً. لا يشعر بالجروح إلا عندما يرى الدم. يأكل، لكنّه لا يعرف ما إذا كانت معدته ممتلئة أو فارغة».

قلت: «يا إلهي». كنت أعتقد أن العمى هو الخيار الأسوأ، لكنّه لم يكن كذلك.

قال: «تترك الذئاب بيرتون وشأنه، ربما سبق لها أن تركته. لقد مرّ عامان أو أكثر منذ مجيئه إلى هنا، قد يكون ميتاً أيضاً. غادرت مع مجموعتي الصغيرة باستخدام عربة، لم أكن أعمى حينها كما تراني الآن، كنت أضرب السوط على ستّة خيول خائفة. كانت معي ابنة عمي كلوديا، ابن أخي الويسيوس، وابنة أخي ليا. قدنا بسرعة الريح يا تشارلي، كانت عجلات العربة الحديدية تصطدم بالأحجار المرصوفة، مُصدرةً شرارات. طارت العربة في الهواء لمسافة عشر أقدام أو أكثر من أعلى جسر رامبا. لدرجة أنني ظننت أنها قد تنقلب أو تنكسر، لكنّها كانت متينة وجيّدة الصنع. كان بإمكاننا سماع زمجرة هانا خلفنا، أقرب من أيّ وقت مضى. لا يزال بإمكاني سماع تلك الزمجرة حتّى يومنا هذا. جلدتُ الخيول فركضت وكأن الجحيم يلاحقها... نظرَ الويسيوس إلى الوراء قبل أن نصل إلى الباب بقليل، فسحقت هانا رأسه من بين كتفيه. لم أرَ ذلك، كان كلّ انتباهي مثبّتاً نحو الأمام، وكذلك ليا لله الحمد، كانت ملفوفة في بطانية. لكن كلوديا رأت ذلك.. ثمّ دمّرت هانا الجزء الخلفي من العربة. أستطيع أن أذكر رائحة أنفاسها إلى الآن. رائحة الأسماك واللحوم الفاسدة، ورائحة عرقها. عبرنا البوابة في الوقت المناسب. صرخَت عندما عرفت أننا هربنا منها. لقد كان صوتها مشحوناً بالكراهية والإحباط. نعم، ما زلت أذكر كلّ ذلك».

توقف ومسح فمه بيده التي كانت ترتجف. لم أشاهد من قبل اضطراب ما بعد الصدمة خارج أفلام (خزانة الألم)، لكنني أراه الآن أمام عينيّ. لا أعرف متى حدث كلّ هذا، لكن الرعب لا يزال حيّاً. لم أحبّذ فكرة

كوني المسؤول عن جعله يتذكر ذلك الوقت ويتحدث عنه، لكنني كنت بحاجة إلى معرفة ما حدث.

قال: «هل تستطيع أن تذهب إلى حُجرة المؤن الخاصة بي يا تشارلي؟ ستجد هناك زجاجة من نبيذ التوت الأسود في الخزانة الباردة. أريد كأساً صغيرة، اسكب واحداً لنفسك، إذا كنتَ ترغب في ذلك».

وجدتُ الزجاجة، وسكبت له كأساً. كانت رائحة التوت الأسود المخمّر كفيلة بقتل أيّ رغبة لي بالشرب، حيث كان من الممكن أن أسكب كأساً من دون الحذر الصحي من شرب الكحول، لكنّي سكبت لنفسي المزيد من عصير الليمون بدلاً من ذلك.

شربَ من كأسه مرّتين، حتّى أفرغَ ما في الكأس تقريباً، ثمّ تنهّد وقال: «هذا أفضل، هذه الذكريات حزينة ومؤلمة. تأخّر الوقت، ولا بدّ أنك متعب. لذا، حان الوقت للتحدث عمّا يجب عليك فعله لإنقاذ كلبتك. إذا كنت لا تزال تنوي المضيّ قدماً في خطّتك».

قلت: «نعم، بالطبع».

سألني: «هل ستخاطرُ بحياتك وصحّتك العقليّة من أجل كلبتك؟».

أجبته: «هي كلّ ما تبقى من السيد بوديتش.» تردّدتُ قليلاً، ثمّ قلت: «وأنا أحبّها».

قال: «رائع، أنا أفهم حبّك لها. إليك ما يجب عليك فعله. استمع جيداً. عليك أن تمشي يوماً لتصل إلى منزل ابنة عمّي كلوديا، إذا تحركت بسرعة. عندما تصل إلى هناك... ».

استمعت بعناية. كأن حياتي تعتمد على كلامه.

كان مرحاض وودي عبارة عن مبنى خارجي متّصل بغرفة نومه بممرّ خشبي قصير. كنت أسير في ذلك الممر، حاملاً الفانوس (قديم الطراز، ليس كولمان)، وعندها سمعت صوت ضربة قوية، شيء ما اصطدم بالحائط. غسلتُ أسناني بالفرشاة واستخدمت المرحاض. تمنّيت أن تتمكّن رادار من التحمّل حتّى الصباح، فلن أستطيع إخراجها في هذا الوقت أبداً.

لم أضطرّ للنوم بجوار النار هنا، كانت هناك غرفة نوم ثانية، بسرير صغير مزيّن بغطاء مكشكش مطرز بالفراشات وكأنه من صُنع دورا، وجدران مطليّة باللون الوردي. أخبرني وودي أن كلّاً من ليا وكلوديا قد استخدمتا هذه الغرفة من قبل، وليس منذ زمن بعيد.

قال: «ها هما». مدّ يده بعناية وحمل صورة صغيرة بيضوية الشكل ذات إطار مذهّب من أحد الرفوف. رأيتُ فيها فتاة مراهقة وامرأة شابة. كلتاهما جميلتان. وقفتا أمام نافورة، وقد وضعت كل منهما ذراعها على كتف الأخرى. ارتدتا فستانين جميلين ووضعتا قطعاً من الدانتيل على شعريهما. كان لليا فم تبتسم به، وفعلاً بدتا من عائلة ملكيّة.

أشرتُ إلى الفتاة، وسألته: «هل هذه ليا؟ قبل...؟».

أجابني: «نعم». ثمّ أعاد الصورة إلى مكانها برفق. قال: «كانتا جميلتين، قبل أن يحدث ذلك الفعل الانتقامي الحاقد بعد فرارنا من المدينة. أليس كذلك؟».

قلت: «نعم». بقيت أتأمّل الفتاة الصغيرة المبتسمة، وفكّرت في نفسي أن لعنة ليا كانت أفظع بمرتين من عمى وودي.

سألته: «انتقام من؟».

هزّ رأسه، وقال: «لا أريد التحدث عن ذلك. أتمنى فقط أن أرى تلك الصورة مرّة أخرى. لكن الأمنيات مثل الجمال تعدّ أشياء تافهة. نم جيداً يا

تشارلي، يجب أن تذهب غداً مبكراً إذا كنت تريد الوصول إلى مطعم كلوديا قبل غروب الشمس، والتي بدورها قد تخبرك بالمزيد. لا تخرج أبداً إذا استيقظت في الليل - أو إذا أيقظتك كلبتك، مهما يكن السبب.

قلت: «نعم، أفهم ذلك تماماً».

قال: «حسناً. سُعدتُ بمعرفتك أيّها الأمير الشاب. كما يقولون، أيّ صديق لأدريان، هو صديقي».

غادر وهو يمشي بثقة، ويده ممدودة أمامه. لا بدّ أنه اعتاد على ذلك بعد كلّ هذه السنوات التي عاشها في الظلمة. تساءلتُ كم من الوقت مضى على ظهور غوغماغوغ، والتطهير الذي أهلكَ عائلته؟ ما هو أو من هو قاتل الرحلة؟ متى كانت ليا فتاة بفم مبتسم، وتستطيع الأكل وكأنه شيء من المسلّمات؟

كان ستيفن وودلي أو وودي... مثل راعي البقر في فيلم حكاية لعبة. ربّما كان ذلك مجرد صدفة، لكنني لا أعتقد أن الذئاب وبيت الطوب كانا كذلك، ثمّ كان هناك ذلك الشيء الذي قاله عن جسر رامبا.

موت والدتي فوق الجسر، وشبيه رامبيلستيلتسكين الذي كاد أن يقتله. هل من المفترض أن أصدّق أن كلّ ذلك مجرّد صدفة؟

نامت رادار بجانب سريري، والآن بعد أن لفت وودي انتباهي إلى خشخشة وأزيز تنفسها، لم أستطع عدم التفكير في ذلك. اعتقدتُ أن تنفّسها وعواء الذئاب المتقطع سيجعلانني أبقى مستيقظاً. لكنني غفوت بسرعة، كنت قد مشيت طويلاً طوال النهار، وسحبت عربة ورائي. لم أحلم بأيّ شيء، ولم أستيقظ إلى أن أوقظني وودي وهو يهزّ كتفي في الصباح الباكر، ويقول: «استيقظ يا تشارلي. لقد أعددتُ الفطور، ويجب أن تذهب في طريقك بمجرّد أن تأكل».

كان هناك وعاء مليء بالبيض المخفوق، ووعاء آخر مليء بالنقانق المدخّنة. أكل وودي قليلاً، وأكلت رادار قليلاً أيضاً، وأنهيت أنا كلّ ما تبقّى.

قال: «وضعت أشياءك في عربة دورا، وأضفت شيئاً عليك إظهاره لابنة عمي عندما تصل إلى منزلها. كي تعلم أنك من طرفي».

قلت: «أعتقد أنها لا تتعامل بالحدس، أليس كذلك؟».

ابتسم، قائلاً: «بلى، في الواقع، وقد بذلتُ قصارى جهدي في هذا الصدد، لكن ليس من الحكمة الاعتماد على الحدس في مثل هذه الأمور. إضافة إلى أنه شيء ستحتاج إليه لاحقاً إذا نجحت مهمتك، وتمكنت من العودة إلى عالم الحكايات الخيالية الخاص بك».

سألته: «ما هو؟».

أجاب: «انظر في حقيبتك وسترى». ابتسم ومدّ يده نحوي، وأمسكني من كتفي، وقال: «قد لا تكون الأمير تشارلي، لكنّك فتى شجاع».

دندنت: «يوماً ما سيأتي أميري».

ابتسم إلى أن أصبح وجهه مليئاً بالتجاعيد، وقال: «كان أدريان يغنّي الأغنية نفسها، وقال لي إنها من إحدى الرسوم المتحرّكة».

قلت: «بياض الثلج والأقزام السبعة».

أومأ وودي برأسه، وقال: «قال أيضاً إن القصة الحقيقية كانت أكثر قتامة».

فكّرت في نفسي، أليس هذا حال جميع القصص.

قلت: «شكراً لك على كلّ شيء. اعتنِ بنفسك، وبكاتريونا».

قال: «نحن نعتني ببعضنا. هل تتذكر كلّ ما قلته لك؟».

قلت: «نعم، أعتقد ذلك».

سألني: «ما الأكثر أهميّة؟».

أجبت: «أن أتبع علامات السيد بوديتش، وأن أبقى هادئاً وأخرج من المدينة قبل حلول الظلام لتجنّب جنود الليل».

قال: «هل تصدق ما قلته لك عنهم يا تشارلي؟ يجب عليك ذلك، وإلا قد تميل إلى البقاء لفترة طويلة، إذا لم تصل إلى الساعة الشمسية».

قلت: «لقد قلت لي إن هانا عملاقة، وأن جنود الليل هم الموتى الأحياء».

قال: «نعم، ولكن هل تصدق ذلك؟».

فكّرت في الصراصير الكبيرة والأرانب العملاقة، والصرصار الأحمر الذي بحجم كاتريونا تقريباً، وفي وجه دورا الذي اختفى تاركاً ندبة على فمها. وقلت: «نعم، أنا أصدّق كلّ ما قلته لي».

قال: «جيّد، لا تنسَ أن تُظهر الشيء الذي وضعته في حقيبتك لكلوديا».

رفعتُ رادار، ووضعتها في العربة. فتحت حقيبتي، فرأيت مطرقة ذهبيّة تتلألأ أعلى حقيبتي تحت ضوء يوم غائم آخر. نظرتُ إلى باب المنزل المبني من الطوب، ولاحظتُ أن المطرقة قد اختفت. حملتُها بيدي وتفاجأتُ بثقلها.

قلت: «يا إلهي، وودي! هل هذه من الذهب الخالص؟».

قال: «نعم، في حال شعرت بأيّ إغراء للدخول إلى الخزانة وتأجيل الوصول إلى الساعة الشمسية، تذكر أن لديك هذا لتضيفه إلى كلّ ما استخلصه أدريان من القصر في زيارته الأخيرة.. رافقتك السلامة أيّها الأمير تشارلي. آمل ألا تحتاج إلى استخدام سلاح أدريان، لكن لا تتردّد إذا كان عليك ذلك».

الفصل السادس عشر:

طريق المملكة- كلوديا- التعليمات- الملوك.

1

اقتربت ورادار من مفترق الطرق، ووجدنا لافتة تشير إلى أن طريق المملكة على اليمين. كانت اللافتة التي تشير إلى طريق الواجهة البحرية مفكوكة وموجّهة إلى الأسفل بشكل مستقيم، وكأن الواجهة البحرية كانت تحت الأرض. رأيت رجلاً وصبيّاً قادمين من جهة الواجهة البحرية، نبحَت رادار عليهما بشكل ضعيف. كان الرجل يمشي على عكاز، وقدمه اليسرى ملفوفة بضمادة قذرة وبالكاد تلامس الأرض كلّ بضع خطوات. تساءلتُ إلى أيّ مدى سيكون قادراً على الاستمرار بالمشي على ساق واحدة مُعافاة. لم يكن الصبي قادراً على المساعدة كثيراً، فقد كان صغيراً يحمل كيس بضائع ينقله من يد إلى أخرى وأحياناً يَجرّه على الطريق. وقفَ عند مفترق الطرق، وشاهدني وأنا أتّجه يميناً، متجاوزاً اللافتة.

صاح الصبي: «لا تسلك هذا الطريق يا سيّدي! إنه طريق المدينة المسكونة! كان الولد رمادي اللون، لكن ليس بقدر الرجل الذي معه. ربّما كانا أباً وابنه، لكن رؤية الشبه بينهما كانت مستحيلة، لأن وجه الرجل بدأ بالاختفاء تقريباً.

ضربَ الرجل الصبي على كتفه، وكاد أن يُسقطه أرضاً ما لم يثبت نفسه.

قال الرجل: «اتركه، اتركه يفعل ما يريد». كان كلامه مفهوماً لكن صوته مكتوماً، كما لو أن حباله الصوتية ملفوفة بمناديل. اعتقدت أنه سرعان ما سيتحوّل صوته إلى صوت دورا.

صاح لي بصوتٍ عالٍ: «مرحباً أيّها الرجل الكامل! مَن عاشرت أمّك حتّى أتى وجهك جميلاً هكذا؟»، بدا جلياً أن الصراخ آلمه، أصبحت ملامحه أكثر فظاعة بسبب تعابير الألم.

لم يكن لديّ أيّ فكرة عمّا يتحدث عنه، لذلك لم أقل شيئاً. نبحَت رادار بشكل ضعيف مرّة أخرى.

سألني الصبي: «هل هذا كلب؟ أم ذئب مروّض؟».

ضربَه الرجل مرّة أخرى على كتفه. ثمّ سخر منّي، وقام بإيماءة فهمتها تماماً. هناك أشياء لا تتغير، على ما يبدو، بغضّ النظر عن العالم الذي تعيش فيه. شعرت برغبة بأن أردّ له تلك الإيماءة على الطريقة الأمريكية، ولكنني لم أفعل، لأن السخرية من الأشخاص ذوي الإعاقة هو سلوك فظّ للغاية، حتّى وإن كان الشخص المعاق أحمق يضرب ابنه ويستهزئ بوالدتك.

صرخ بصوت مكتوم: «امضِ في طريقك أيّها الرجل الكامل، قد يكون هذا يومك الأخير!».

فكّرت في نفسي، من الجيد دائماً مقابلة أشخاص لطيفين على الطريق. لكن بسرعة لم أعد أرى أحداً.

2

كان طريق المملكة كلّه ملكي، ممّا منحني متسعاً من الوقت للتفكير... والتساؤل.

مثلاً، الأشخاص الكاملون - ماذا كانوا؟ من هم؟ هناك أنا بالطبع، لكنني ظننت أنه لو كان هناك كتاب يسجّل عدد الأشخاص الكاملين، فسيكون اسمي أعلى القائمة، لأنني لم أكن من إمبيس (على الأقلّ هذا الجزء من العالم يسمى كذلك؛ أخبرني وودي أن هانا العملاقة جاءت من مكان يُدعى كراتشي). ارتحت عندما أكّد لي وودي أنني لن أبدأ بالتحوّل إلى اللون الرمادي ولن أفقد وجهي، لأن الأشخاص الكاملون - كما قال- محصّنين ضدّ اللون الرمادي.

سألتُه عن قاتل الرحلة صباح هذا اليوم ونحن نتناول الفطور، لكنّه رفضَ مناقشة الأمر قائلاً إن لديّ طريقاً طويلاً لأقطعه ويجب أن أذهب، وعندما ألححت عليه، كرّر أن ابنة عمه كلوديا قد تخبرني أكثر عنه، وأنه عليّ أن أكون راضياً عن ذلك. مع ذلك، ما الذي كان يرمي إليه الرجل صاحب العكاز عندما قال: مَن عاشرت أمّك حتّى أتى وجهك جميلاً هكذا؟

تساءلت أيضاً عن كون السماء رمادية باستمرار، على الأقل في النهار. تنفصل الغيوم أحياناً في الليل للسماح لضوء القمر بالسطوع. والذي بدوره ينشّط الذئاب، ليس قمراً واحداً بل اثنين، أحدهما يطارد الآخر، وهذا جعلني أكثر حيرة. قرأتُ ما يكفي من الخيال العلمي لأفهم فكرة العوالم المتوازية والأرض المتعدّدة، لكنني تخيّلت أنه عندما أتجاوز ذلك الممر تحت الأرض حيث بدا أن ذهني وجسدي ينفصلان، سأصل إلى مستوى وجودي مختلف كلّيّاً. بدت فكرة وجودي على كوكب في مجرة بعيدة، منطقيّة إلى حدّ ما بسبب وجود القمرين، لكن لا يوجد فضائيين هنا، مجرّد ناس.

فكرت في ذلك الكتاب الموجود على طاولة السيد بوديتش، الكتاب الذي تملأ النجوم غلافه. ماذا إن وجدت طريقي إلى مصفوفة هذا العالم؟ (تمنيت من الله أن أجدها وأضعها في حقيبتي مع الطعام وحبوب رادار ومسدس بولي). ذكّرتني هذه الفكرة بفيلم (القصّة التي لا تنتهي)، الذي شاهدته مع أمي وأبي عندما كنت صغيراً جدّاً. لنفترض أن إمبيس كانت

كفانتازيا في ذلك الفيلم، عالم تمّ إنشاؤه اعتماداً على الخيال الجماعي؟ ما هي نظريّة يونغي؟ كيف لي أن أعرف ذلك، بينما لا أعرف حتّى إذا كان اسم الرجل يُنطق جونغ أم يونغ؟

تساءلت عن هذه الأشياء، لكن ما كان يشغل تفكيري حقّاً هو أبي. هل لاحظ غيابي الآن؟ ربّما لا يزال يجهل الحقيقة (والجهل نعمة، كما يقولون)، وربّما كان لديه حدس مثل وودي - سمعت أن الآباء قد يشعرون بذلك. سيحاول الاتصال بي، ثمّ سيرسل لي رسالة نصيّة إن لم أُجب. قد يَفترضُ فقط أنني مشغولٌ في قرف المدرسة، لكن هذا لن يدوم طويلاً، لأنه كان يعلم تماماً أنني كنت سأعاود الاتصال به في أقرب وقت ممكن. أزعجتني فكرة قلقه عليّ، لكن ما باليد حيلة. لقد اتخذتُ قراري. وفي الحقيقة -لأكون صريحاً- كنت سعيداً لوجودي هنا. لا أستطيع القول إنني كنت مستمتعاً تماماً، لكن نعم، كنت سعيداً. لدّي رغبة في الحصول على إجابات لألف سؤال في ذهني. أردتُ رؤية ما سيحدث مع كلّ خطوة، وما نعتَه الصبي بالمدينة المسكونة. كنت خائفاً بالطبع - من هانا، وجنود الليل، وشيء ما أو شخص ما يسمّى قاتل الرحلة، والأهمّ من ذلك كلّه كنت خائفاً من غوغماغوغ - لكنني كنت مبتهجاً في الوقت نفسه. إذا كان بإمكاني منح رادار فرصة ثانية، فهذا كلّ ما أرغب فيه.

وقفت لأرتاح وأتناول الغداء، كانت الغابة مُغلقة من الجانبين. لم أرَ أيّ شكل من أشكال الحياة البريّة، فقط الكثير من الظلال. سألت رادار: «هل تريدين شيئاً يا رادار؟».

كنت آمل أن تأكل، لأنني لم أعطِها أيّ حبوب في ذلك الصباح. فتحتُ حقيبتي، وأخرجت علبة سردين، فتحتها، وأملتُ العلبة نحو أنفها كي تشمّ الرائحة الشهية. رفعَت أنفها لكنّها لم تنهض. رأيت المزيد من تلك الأشياء الصمغية تتسرب من عينيها.

قلت: «هيّا يا فتاة، أنت تحبّين السردين».

تمكّنَت من النزول ثلاث أو أربع درجات أسفل منحدر العربة، ثمّ خذلتها قائمتاها. انزلقت بشكل جانبيّ، وصرخَت مُتألّمة. رفعت رأسها، ونظرت إليّ لاهثة. كان جانب وجهها مليئاً بالغبار. حاولَتْ النهوض، ولكنّها لم تستطع.

توقفت عن التساؤل عن الأشخاص الكاملين، والرماديون، وحتّى أبي. نسيت كلّ ذلك، حملتُها، نفضت الغبار عنها، ووضعتها على حافة العشب الضيقة بين الطريق والأشجار الضخمة. داعبتُ رأسها، ثمّ عاينت قائمتيها الخلفيتين. لا أظنّ أن هناك كسراً، لكنّها صرخت وكشفت عن أسنانها - ليس لتعض، ولكن لأنها تتألم – لمست أسنانها، وشعرت أنها بخير، لكنني كنت شبه متأكد من أن الأشعة السينية ستظهر تورّماً شديداً والتهاب مفاصل.

شربَت بعض الماء، وأكلت السردين... أعتقد أنها فعلت ذلك لتُسعدني. فقدتُ شهيتي، لكنني أجبرتُ نفسي على تناول بعضاً من الأرنب المقلي الذي أعطتني إيّاه دورا، بالإضافة إلى كعكتين. كان عليّ أن آكل كي أُكمل طريقي. حملتُ رادار بحذر، وأعدتُها إلى العربة، استطعتُ سماع صوت تنفسها والشعور بكلّ ضلع من أضلعها. قال وودي إنها تحتضر، وكان مُحقاً، لكنني لم أقطع كلّ هذا الطريق لأرى كلبتي ميتةً في عربة دورا. أمسكت بالمقبضين ومضيتُ قدماً، لم أركض - كنت أعلم أن ذلك سيُرهقني - لكنني مشيت بسرعة.

قلت: «انتظري للغد فقط يا رادار، قد تكون الأمور أفضل غداً، لذا انتظري من أجلي يا فتاة».

سمعتُ صوت اهتزاز ذيلها في العربة.

ملأت الغيوم السماء، وكاد الظلام أن يحلّ، وأنا أسحب العربة على طول طريق المملكة، لم تكن تُمطر، وهذا جيّد. لم أكن أمانع التبلل، ولكن هذا سيجعل حال رادار أسوأ، وليس لديّ الكثير لأغطيها به. أضف على ذلك، قد يكون سحب العربة أمراً صعباً أو مستحيلاً بسبب الوحل.

توقّفتُ قليلاً لالتقاط أنفاسي، بعد أربع أو خمس ساعات من انزلاق رادار، وأخذتُ أتأمل في الطبيعة أمامي. امتدَّت الأرض أمامي، وللمرة الأولى تمكنتُ من رؤية أبراج المدينة بوضوح. كانت الأبراج مثل الحجر الأملس في هذا الضوء الخافت، ورأيتُ جداراً رماديّاً طويلاً يمتد على جانبي الطريق. ما زلت على بعد أميال منه، ومن المستحيل معرفة مدى ارتفاعه.

كان الطريق بين منزل وودي والمكان الذي توقفت فيه للراحة مُتعرّجاً، لكنّه أصبح مستقيماً باتجاه بوابة المدينة. بدأَت الغابة بالاختفاء عن ناظري على بعد أميال قليلة. رأيتُ عربات مهجورة وما يبدو محاريث يدويّة في حقول مهجورة. رأيت شيئاً آخر أيضاً: سيارة، أو نوع من وسائل النقل، قادمة باتجاهي. نظري جيّد، لكنّها لا تزال تبعد عنّي بضع أميال لذا لم أستطع تحديد ما كانت عليه. وضعتُ يدي على سلاح السيد بوديتش، ليس للتأكّد من أنه لا يزال موجوداً، ولكن من أجل راحتي النفسية.

سألتها: «رادار؟ هل أنتِ بخير؟».

نظرتُ إليها، فوجدُتها تنظر إليّ من مقدّمة العربة، وهذا جيّد. أمسكتُ بالمقبضين وعاودت التحرك مجدداً. تمنّيت لو كنت أملك قفازات عمل أو زوجاً من القفازات العادية. لحسن الحظ كانت الأرض منحدرةً لبعض الوقت.

اختفَت الأبراج خلف سور المدينة العالي على بعد ميل أو ميلين، ثمّ توقفت مرّة أخرى. استطعتُ الآن أن أرى الشخص المُنّجه نحوي، يبدو أنه يركب درّاجة ثلاثية العجلات كبيرة الحجم. اقتربت الدراجة منّي، رأيت أن من يقودها امرأة ترتدي ثوباً أسود. كان من المستحيل عدم التفكير مرّة

أخرى في ساحرة أوز. خاصّةً في البداية، عندما ركبت ألميرا غولش دراجتها لإحضار كلب دوروثي وقتله لأنه عضّها. على الرّغم من أن هذه كانت أكبر بكثير من حجم دراجة ألميرا غولش.

قلت: «لا تقلقي يا رادار، لن تأخذكِ إلى أيّ مكان».

اقتربَت منّي، فتوقفتُ ولوّحتُ لها بيدي. كنت على استعداد لأن أكون ودوداً، لكنني كنت مستعداً أيضاً للدفاع عن نفسي وعن كلبتي إذا شعرتُ أنها تمثل شخصيّة الساحرة الشريرة.

أوقّفت المرأة درّاجتها، وهذا ما أثار الغبار. سقط ثوبها على جسدها. كانت ترتدي بنطالاً أسود تحت فستانها وتنتعل حذاء طويلاً أسود. ليس عليّ أن أعطيها أيّ من القطع الجلديّة الخاصّة بدورا، لأن وجهها كان ورديّاً وبلا أيّ أثر للون الرمادي. خمّنت أنها قد تكون في الأربعينات أو الخمسينات من عمرها. لكن الوقت غريب في إمبيس، وكذلك الشيخوخة.

سألتها: «أنتِ كلوديا، أليس كذلك؟ انتظري، لديّ شيء لأريك إيّاه». فتحتُ حقيبتي، وأخرجتُ مقبض الباب الذهبي. بالكاد نظرَت إليه، واكتفت بالإيماء برأسها. كانت ترتدي قفازات جلديّة، مما جعلني أحسدها بشدّة.

قالت: «أنا كلوديا! لا أحتاج لرؤية المقبض، فقد حلمت بأنك قادم!». نقرَت على جبهتها وضحكت قائلة: «لا يمكنك الوثوق بالأحلام دائماً، لكنني رأيت هذا الصباح علامة تدلّ إمّا على المطر أو الصُّحبة!».

لم يكن صوتها عالياً فحسب، بل كان بلا نغمة تماماً، مثل صوت كمبيوتر شرير في فيلم خيال علمي قديم. ثمّ قالت: «أنا صمّاء!». لم يكن عليها قول ذلك حقّاً، خمّنت ذلك من تلقاء نفسي.

كان شعرها مرفوعاً ومربوطاً فوق رأسها، واستطعت أن أرى أنها لا تملك أذنين. كما هو الحال مع فم ليا، وعيني وودي، كان هناك ندبة فقط.

نزلَت عن دراجتها، ومضَت إلى العربة لتنظر إلى رادار. ثمّ نقرت على مؤخرة قراب سلاحي، قائلة: «هذا سلاح السيد بوديتش، أتذكره! أتذكره جيّداً!».

رفعَت رادار رأسها عندما ربّتت كلوديا، ثمّ داعبتها خلف أذنيها بالطريقة التي تحبّها رادار حقّاً. انحنت كلوديا واقتربَت من رادار، ولم يبدُ أنها خائفة منها. لعقت رادار خدها.

قالت كلوديا: «أنها مريضة للغاية!».

أومأتُ برأسي، لا جدوى من إنكار ذلك.

قالت: «لن ندعها تموت، حسناً! هل ستأكل؟».

حرّكت يديّ، كنت أقصدُ قليلاً. سألتها: «هل يمكنكِ قراءة شفتيّ؟» وأشرتُ إليهما، ثمّ إلى شفتيها.

صرخَت: «ليس كثيراً، لا أحد يمارس هذه الطريقة هنا! سوف نعطيها لحم البقر! يجب أن تأكله! وضعها في العربة تصرّف ذكيّ منك! هل تريد وضعها في سلّتي؟ سنذهب بشكل أسرع هكذا!».

لم أستطع أن أخبرها أنّي خائف من إيذاء قائمتي رادار المتألمتين، لذ هززتُ رأسي فقط.

قالت: «حسناً، لكن امشِ بذكاء، لن تستغرق وقتاً طويلاً، هناك ذئاب ملعونة، كما تعلم».

دفعَت دراجتها الثلاثية الكبيرة، ثمّ ركبتها، وتحرّكَت ببطء، كان الطريق واسعاً بما يكفي ليسمح لي بالمشي إلى جانبها، لذا لم أعانِ أنا ورادار من غبار درّاجتها.

صرخَت بصوتها الخالي من النغمات: «أربعة أميال! انتبه لنفسك أيّها الشاب، كنت لأعطيك قفازي لكن يديك كبيرتين، سأعطيك مرهماً مناسباً عندما نصل، إنه من صنعي، وهو جيّد للغاية، تبدو يديك متورمتين».

5

كان الظلام قدّ حلّ عندما اقتربنا من منزل كلوديا، وقد غلبني التعب. إن جرّ عربة دورا لمدّة يومين جعلني أشعر أن ممارسة كرة القدم تبدو وكأنها استراحة. رأيتُ شيئاً ما أمامنا، على بعد ميل أو ميلين تقريباً، قد تكون بداية ضواحي ما، على الرغم من أن هذه الكلمة بالكاد تكون مناسبة؛ رأيت أكواخاً ككوخ دورا، ولكن سطوحها محطمة. بُنيت بشكل متباعد، وكانت لها ساحات أو حدائق صغيرة. احتوت الأكواخ على مداخن، ولكن الدخان لم يتصاعد من أي مدخنة. رأيت مركبة ما - لم أستطع معرفة نوعها – مركونة في منتصف الطريق الرئيسي. في البداية اعتقدت أنها عربة طويلة لنقل البضائع. ولكن عندما اقتربت منها، وجدتُ أنها مجرّد حافلة. أشرتُ إليها، فقالت كلوديا: «الترولي، أنها هناك منذ فترةٍ طويلة، هيّا أيّها الشاب، استجمع قواك، لقد أوشكنا على الوصول». لم أسمع هذه الجملة من قبل؛ سأحتفظ بها من أجل آندي تشين، على افتراض أنني سأراه مرَّة أخرى.

سمعنا صوت أجراس بينما كنّا نبتعد عن المدينة، ثلاث رنّاتٍ متباعدة ومهيبة: دونغ دونغ دونغ.

حرّكت رادار رأسها باتجاه الصوت.

قالت: «ثلاث أجراس؟».

أومأتُ برأسي.

قالت: «قديماً، كان صوت الجرس يعني أن وقت ترك العمل والعودة إلى المنزل لتناول العشاء قد حان. الآن، ليس هناك عمل ولا يوجد أحد ليقوم به أساساً، ولكن الأجراس ما زالت ترن! لا يمكنني سماعها، ولكنني أستطيع الشعور بها، خاصّة في العواصف».

يقع منزل كلوديا على قطعة أرضٍ مليئة بالأعشاب أمام بركة قذرة مُغطّاة بالأعشاب. كان المنزل مستديراً ومُشيّداً من الألواح والصفيح. لم يبدُ لي متيناً، وهذا ما جعلني أعاود التفكير في الخنازير والذئاب مرّة أخرى. كان منزل وودي مبنيّاً من الطوب، بينما منزل كلوديا من العصي. لو كان هناك قريب آخر من عائلة ملكيّة يعيش في منزل من القش، لخمّنت أنه قد تمّ التهامه منذ فترة طويلة.

وصلنا إلى منزلها، فرأيت عدداً من الذئاب الميتة، ثلاثة أو أربعة بالقرب من بعضها. لم أستطع الرؤية بوضوح، لكن الذئاب في المقدمة كانت متحللة جدّاً، أقفاصها الصدرية ظاهرة عبر ما تبقّى من فرائها. اختفت عيونها، ربّما اقتلعتها الغربان الجائعة، شعرت بأن التجاويف تحدّق إلى وجهي بينما كنّا نسير في الطريق المؤدّي إلى الباب. ثمّ شعرت بالارتياح لرؤية أنها لم تكن ذئاب عملاقة، مثل الحشرات التي سبق لي وأن رأيتها... لكنّها كبيرة جدّاً، أو بالأحرى كانت كذلك عندما كانت على قيد الحياة. جعَلها الموت تبدو وكأنها خضعت لحمية غذائية صارمة، كما هو الحال مع جميع الكائنات الحية.

قالت كلوديا وهي تترجّل من دراجتها: «أقتلها عليها عندما أستطيع، وهذا ما يبعد البقية عن منزلي معظم الوقت، عندما أشعر أن رائحتها قد خفّت، أقتل المزيد منها».

فكّرت في نفسي، إنها فعلاً تستخدم لغة سوقيّة بالنسبة لعائلة ملكيّة.

أنزلتُ مقبضي العربة، وربتّ كتفها، وسحبتُ مسدس السيد بوديتش من القراب. رفعتُ حاجبي مُتسائلاً. لم أكن متأكداً من أنها ستفهمني، لكنّها

فعلت. أظهرَت ابتسامتها عدّة أسنان مفقودة.

قالت: «لا، لا، لا أملك مثل هذا المسدّس، لديّ قوسٌ ونشاب، صنعتهما بنفسي، وهناك شيء آخر أفضل، أحضره لي أدريان عندما كانت رادار لا تزال جروواً!».

صعدَت الدرجات إلى الباب، وفتَحته بكتفها المفتولة العضلات. أخرجتُ رادار من العربة وتفقّدتُ قائمتيها. كانت قادرة على الوقوف والمشي، لكنّها توقفت عند الدرج الحجريّ ونظرت إليّ طلباً للمساعدة، فحملتها. كان المنزل يتألف من غرفة واحدة كبيرة مستديرة، وما خمّنت أنه غرفة أصغر مُحاطة بستارة زرقاء مخملية مزيّنة بخيوط من اللون القرمزي والذهبي. كان هناك موقد ومطبخ صغير وطاولة عمل مليئة بالأدوات المُبعثرة، كان عليها أيضاً سهام قيد الإنجاز، وسلة مصنوعة من الخيزران تحتوي على مجموعة من السهام الجاهزة. لمعت مقدمات السهام عندما أنارت كلوديا بعض المصابيح الزيتية بعود ثقاب. أخذتُ أحد السهام لإلقاء نظرة فاحصة، كانت مقدمته ذهبيّة وحادة. لمستُها بسبّابتي، فسال الدمّ على الفور.

قالت: «أنت، هناك، هل تريد أن تتسبّب لنفسك بمأساة؟».

أمسكَتني من قميصي، وسحبتني إلى مغسلة مصنوعة من القصدير. عُلّقت فوقها مضخة يدوية. فتحت كلوديا المضخّة بقوّة، وأمسكَت إصبعي النازف ووضعته تحت الماء شديد البرودة.

قلت: «إنه فقط...» ثمّ استسلمتُ للأمر وتركتُها تفعل ما تريد. أخيراً، انتهت وذُهلت عندما قبّلت جرحي الصغير.

قالت: «اجلس، ارتاح، سنأكل قريباً، علينا الاعتناء بكلبتك، ثمّ سأهتمّ بقفازاتك».

وضعت غلاية على الموقد، وعندما أصبح الماء دافئاً ولكن قبل أن يغلي، جلبَت وعاءً من أسفل المغسلة وأفرَغَت الماء فيه. ثمّ أضافت أشياء ذات رائحة كريهة من فخارة موجودة على أحد الرفوف. كانت تلك الرفوف مليئة بالأشياء والشاش - بعضها في علب، وبعضها في عبوات زجاجية. وهناك قوس ونشاب معلّق على الحائط إلى يمين الستارة المخملية، بدا الأمر وكأنها محترفة. ذكّرني المكان بمنزل ريفيّ بشكلٍ عام، ولم تبدُ لي كلوديا شخصاً ينحدر من عائلة ملكيّة بل بدت مثل امرأة تسكن منطقة حدودية لقد كانت قويّة، وقاسية، ومستعدة.

نقعَت قطعة قماش في السائل النّتِن، وعصرَتها، ثمّ جلست مقابل رادار، الأمر الذي بدا مريباً. بدأت تضغطُ قطعة القماش بلطفٍ على الأجزاء العلوية من قائمتي رادار. أصدرَت أصواتاً غريبة عندما كانت تفعل ذلك، اعتقدتُ أنها كانت تغني. ارتفع صوتها تارة وانخفض تارة أخرى، مثل نظام مكبّرات الصوت في مدرستي الثانوية تقريباً.

اعتقدتُ أن رادار قد تحاول الهرب منها، أو حتّى عضّها، لكنّها لم تفعل. وضعَت رأسها على الأرضيّة القاسية، وتنهّدت برضا.

وضعَت كلوديا يديها تحت جسد رادار، وقالت: «استديري يا جميلتي، أريد أن أرى القائمة الأخرى».

لم تتدحرج رادار فقط، بل انهارت نوعاً ما. أعادت كلوديا نقع القماش، وشرعت تضغط على القائمة الأخرى. عندما انتهت، ألقَت القماش في حوض القصدير وجلبت قطعتي قماش جديدتين. نقعتهما وعصرتهما، ثمّ اتجهت نحوي.

قالت: «أمسك أيّها أمير شاب، هذا ما ناداك به وودي في حلمي».

لن ينفعني أخبارها بأنني مجرّد فتى يُدعى تشارلي، لذا لم أقل شيئاً، وأمسكتُ بالقماش. لفّت يديّ بقطع القماش المبللة الدافئة، كانت الرائحة

كريهة، لكنني شعرت بالراحة على الفور. لم أستطع أن أعبّر عن ذلك بكلمات، لكنّها رأت تعابير الارتياح على وجهي.

قالت: «يا إلهي، مفعوله سحريّ، أليس كذلك، علّمتني جدّتي كيفيّة صنعه منذ وقت طويل، منذ أن كانت تلك الترولليّ لا تزال تعمل، ومنذ أن كان هناك أشخاص يسمعون الأجراس، يحتوي على لحاء شجر الصفصاف، لكن هذه مجرد بداية يا عزيزي، انتظر هنا بينما أجلب لنا بعض الأرانب، لا بدّ أن تكون جائعاً».

6

تناولنا شريحة لحم مع فاصوليا خضراء، وشيئاً يشبه حلوى التفاح والخوخ. حصلتُ على نصيبي من الطعام المجاني – الأرانب البنيّة - منذ قدومي إلى إمبيس بالطبع. ظلّت كلوديا تعيد ملأ طبقي، وقدّمت لرادار قطعة من اللحم البقري مع القليل من الدهون التي تطفو على سطحها. أنهت رادار طبقها بالكامل، ولعقته لتنظفه، ونظرت إلى كلوديا للحصول على المزيد.

صرخَت: «ناه، ناه، ناه» وانحنت لتداعب خلف أذني رادار، ثمّ تابعت: «لقد الهمتَها على الفور أيّتها الكلبة الملعونة العجوز، وماذا سينفعك هذا؟ لكنّه لن يؤذيك!».

كان هناك رغيف من الخبز الأسمر على الطاولة. التقطت قطعة منه بأصابعها القوية الصلبة (كان بإمكانها جرّ تلك العربة طوال اليوم من دون أن تتأثّر يداها)، ثمّ أخذت سهماً من السلة. غزّت السهم في رغيف الخبز، فتحت باب موقدها، ووضعت الرغيف فيه، ثمّ أخرجَته بلون بنّي داكن وملتهب. وضعته على الطاولة وكأنه شمعة عيد ميلاد، دهنتهُ بالزبدة الموضوعة في فخّارة على الطاولة. وقفت رادار على قدميها، والتقطَت الخبز من طرف السهم بأسنانها، وأخذتهُ إلى الزاوية. خف عرجها قليلاً.

فكّرت إن أَتيح للسيد بوديتش أن يحظى بالقليل من مرهم كلوديا ربما ما كان سيحتاج إلى مسكنات الألم.

دخلَت كلوديا خلف الستارة المخملية، وخرجَت حاملة كدسة من الورق وقلم رصاص، وسلمتني إياها. نظرتُ إلى ما تبقّى من الكلمات المحفورة على قلم الرصاص (تحيّات لحرّاس المدخنة)، وشعرت بشيء من عدم الواقعية. لم يتبقَ سوى عدد قليل من الأوراق في الكدسة. نظرتُ إلى الخلف، وقرأتُ ما كُتب على مُلصق السعر الذي كان على وشك التلاشي: ستابل، دولاراً وتسعة وتسعين سنتاً.

قالت: «اكتب عندما تشعر أنك مُضطرّ لذلك، يمكنك الإيماء أو هزّ رأسك إذا كان ذلك يفي بالغرض. لا تُهدر الورقة اللعينة، فقد اشتراه لي أدريان في رحلته الأخيرة وهذا كل ما تبقّى. هل تفهم؟».

أومأتُ برأسي.

سألتني: «لقد أتيتَ لإنقاذ كلبتك، أليس كذلك؟».

أومأتُ برأسي.

ثمّ سألتني: «هل يمكنك أن تجد طريقك إلى الساعة الشمسية أيّها الشاب؟».

أمسكتُ الورقة بحيث تراها، وكتبتُ: كتب السيد بوديتش الأحرف الأولى من اسمه كعلامات لتدلّني على الطريق. وهذا برأيي أفضل من فتات الخبز، على افتراض أن المطر لم يمحِها.

أومَأت برأسِها وفكّرت. تحت ضوء المصابيح، بدا الشبه واضحاً للغاية بينها وبين ابن عمها وودي، على الرغم من أنه كان أكبر سنّاً منها بكثير. كان تتمتّع بجمالٍ حادٍّ خاص على الرغم من سنوات العمل واستهداف الذئاب.

اعتقد أن هذا هو الجمال الملكيّ في المنفى، ينطبق القول نفسه على جمال وودي وليا.

أخيراً، نظرت إليّ وقالت: «طريقكَ محفوفٌ بالمخاطر».

أومأتُ برأسي.

سألتني: «هل قال لك وودي كيف يجب أن تذهب، وما يتوجّب عليك فعله؟».

هززتُ كتفي وكتبتُ، أخبَرني أن أبقى هادئاً.

تأفّفَت، وقالت: «لا يمكنني الاستمرار بمناداتك بالأمير الشاب، على الرغم من أن لديك مظهر الأمراء، ما اسمك؟».

كتبتُ اسمي بأحرف كبيرة، تشارلي ريد.

قالت: «تشارلي؟».

أومأَت برأسها. أخذَت قطعة خشب من الصندوق المجاور للموقد، فتَحت الموقد، ورمتها بداخله، ثمّ أغلقَته. جلسَت وشبكَت يديها، وانحنت، كانت نظراتها خطيرة.

قالت: «ستكون متأخراً جداً عن مهمّتك غداً يا تشارلي، لذا عليك قضاء الليل في مستودع بعيد قليلاً عن البوابة الرئيسيّة، فيها عربة حمراء من دون عجلات في الأمام. اكتب ذلك».

كتبتُ: مستودع، عربة حمراء من دون عجلات.

قالت: «جّيد إلى الآن! ستجدُها مفتوحة، وهناك قفل داخلي. اقفله إذا لم ترد أن يرافقك ذئب أو ثلاثة. اكتب».

كتبتُ: باب بقفل.

قالت: «ابق مكانك حتّى تسمع جرس الصباح. رنة واحدة. ستجدُ بوابة المدينة مغلقة، ولكن اسم ليا سيفتحها. فقط اسمها. ليا غالين. اكتب ذلك».

كتبتُ: ليا جالين. نظرَت إلى الورقة لترى ما كتبتُه، عبَست، ثمّ أخذت قلم الرصاص، شَطَبت (جالين) واستبدلتها بـ (غالين)، وقالت: «ألَم يعلّموك كيفيّة التهجئة في أرضك تلك أيها الفتى؟».

هززت كتفي. فكّرت في نفسي، جالين أو غالين، كلاهما يبدو الشيء نفسه بالنسبة إليّ. وإذا كانت المدينة مهجورة، فمن سيسمعني ويسمح لي بالدخول على أيّ حال؟

قالت: «اعبر البوابة اللعينة بعد الجرس الصباحي، فسيكون لديك طريق طويلٌ لعينٌ أمامك».

فركَت جبهتها، ونظرَت إليّ بقلق، وقالت: «إذا رأيت علامات أدريان، فكلّ شيء سيكون على ما يرام، وإذا لم ترها، غادر قبل أن تضيع، فالشوارع مثل المتاهة، ولا أريدك أن تتجول في تلك الشوارع الملعونة طوال الليل».

كتبتُ، ستموتُ إذا لم أتمكن من إعادة شبابها.

قرأَتها، وأعادَت الورقة لي.

قالت: «هل تُحبّها بما يكفي لتموت معها؟».

هززتُ رأسي. فاجأتني كلوديا بضحكة مختلفة النغمة. اعتقدت أن هذا ما تبقّى من صوتها قبل أن تُلعن في حياة صامتة.

قالت: «ليست إجابة نبيلة، ولكن الإجابات النبيلة تُسبّب المشاكل لأصحابها. هل ترغب ببعض البيرة؟».

أومأتُ برأسي. نهضَت، بحثَت في مخزنها البارد، وعادَت ومعها زجاجة بيضاء. فَتحتها وتركتها قليلاً، ثمّ ارتشفت رشفة طويلة كما خمّنت، تجشّأت بصوتٍ عالٍ. عاودت الجلوس، أمسكت الزجاجة ووضعَتها في حجرها.

قالت: «إذا كانت العلامات موجودة يا تشارلي - علامات أدريان - اتبعها بهدوء، دائماً بهدوء، لا تهتمّ بالأصوات التي قد تسمعها، أصوات الموتى... وأسوأ من الموتى».

أسوأ من الموتى؟ لم يعجبني ذلك. وبالحديث عن الصوت، ماذا عن صوت العجلات الخشبية التي قد تصدره عربة دورا عند جرّها على الشوارع المرصوفة؟ قد تسير رادار لجزء من الطريق، ويمكنني أن أحملها لما تبقّى منه.

قالت: «قد ترى أشياء غريبة.. تغيراً في أشكال بعض الأشياء.. لكن لا تهتمّ. في النهاية، ستصل إلى مربع فيه نافورة جافّة».

اعتقدتُ أنها تقصد تلك النافورة في صورة كلوديا وليا التي أراني إيّاها وودي.

قالت: «سترى منزلاً أصفراً ضخماً بنوافذ بنيّة، يخترقه ممرّ في مركزه. هذا هو بيت هانا. تعيش هانا في نصف المنزل. والنصف الآخر يمثّل المطبخ حيث تتناول وجباتها. اكتب ما قلته».

فعلتُ ما طلبته منّي، ثمّ أخذَت الورقة. رسمت ممرّاً وقمّة مقوّسة، وفوقها رسمت فراشة بأجنحة ممدودة. كان رسمها جيّداً جدّاً بالنسبة لرسمة سريعة.

قالت: «عليك أن تختبئ يا تشارلي. أنت وكلبتك. هل ستبقى هادئة؟».

أومأتُ برأسي.

قالت: «عليكما أن تبقيا هادئان مهما يحدث، مفهوم؟».

لم أستطع ضمان ذلك، لكنّي أومأت برأسي مرة أخرى.

قالت: «انتظر أن يرن الجرس مرّتين. اكتب ذلك».

كتبتُ، جرسين.

قالت: «قد ترى هانا في الخارج قبل رن الجرسين. وقد لا تراها. لكنّك ستراها بالتأكيد عندما تذهب إلى المطبخ لتناول وجبتها في منتصف اليوم. عندها يتوجّب عليك العبور بأقصى سرعتك. اكتب».

لم أعتقد أنني بحاجة إلى ذلك. لن أرغبَ في قضاء الكثير من الوقت بجوار هانا المخيفة كما سمعت، ولكن كان قلق كلوديا عليّ واضحاً للغاية، لذا كتبته.

قالت: «لن تكون الساعة الشمسية بعيدة كثيراً.ستلاحظ ذلك بسبب الممرات الواسعة. ضع رادار عند الساعة الشمسية واجعلها تدور بالاتجاه المعاكس. استخدم يديك. انتبه، إذا أدرتها إلى الأمام، فسوف تقتل رادار. وابتعد عنها أيضاً! اكتب!».

كتبتُ ذلك فقط لإرضائها. قرأتُ سابقاً رواية (شيء ما شرير يأتي من هذا الطريق)، وأدركتُ خطورة تحريك الساعة الشمسية بطريقة خاطئة. الشيء الوحيد الذي لم تكن رادار بحاجة إليه هو التقدم في السن.

قالت: «عُد كما ذهبت. لكن احذر من هانا. استمع لصوتها في الممر».

رفعت يديّ، وأومأتُ برأسي: لم أفهم.

ابتسمت كلوديا بتجهّم، وقالت: «تلك الحقيرة دائماً ما تأخذ قيلولة بعد أن تأكل. كما أنها تشخر. سوف تسمع شخيرها يا تشارلي. صوت شخيرها مثل صوت الرعد».

رفعتُ إبهاميّ إلى الأعلى.

قالت: «عُد بسرعة. المكان بعيد، وليس لديك الكثير من الوقت. ليس ضروريا أن تعبر البوابة عندما ترن الأجراس الثلاثة، ولكن يجب أن تخرج من ليليمار بعد ذلك بقليل. قبل أن يحلّ الظلام».

كتبتُ، جنود الليل؟ وأريتها. شربت كلوديا المزيد من البيرة. بدت متجّهمة، وقالت:» نعم، الآن اشطب هذا».

فعلتُ ذلك، وأريتُها.

قالت: «حسناً. سيكون من الأفضل أن نقلّل ما نقوله أو نكتبه عن هؤلاء الأوغاد. اقضِ اللّيل في حيث تقف العربة الحمراء! غادِر عندما تسمع جرس الصباح. عُد إلى هنا. اكتب ذلك».

فعلتُ ذلك.

قالت: «انتهينا. يجب أن تخلد إلى النوم الآن، لا بدّ أنك متعب ولديك الكثير لتقوم به غداً».

أومأتُ برأسي وكتبتُ (شكراً لك).

قالت: «ناه، ناه، ناه!» أمسكَت يدي، ثمّ رفعَتها وقبّلَتها. قالت: «لقد أحببتُ أدريان. ليس كما تحب المرأة رجلاً، لكن كحبّ الأخت لأخيها. آمل فقط ألا أكون قد أرسلتك إلى الموت... أو ما هو أسوأ من ذلك».

ابتسمتُ، ورفعت إبهامي إلى الأعلى، في محاولة للتعبير عن أنني سأكون بخير، لكنني لم أكن مقتنعاً بذلك بالطبع.

7

بدأت الذئاب تعوي، قبل أن أتمكّن من طرح المزيد من الأسئلة؛ كان لديّ الكثير من الأسئلة. رأيت ضوء القمرين، ثمّ سمعتُ ضربة قويّة على جانب الكوخ لدرجة أن كلّ شيء اهتز. وقفَت رادار ونبحت. سمعنا بعدها ضربة ثانية، وثالثة، ثمّ ضربتين معاً. سقطت زجاجة من إحدى رفوف كلوديا، وفاحت رائحة مخلل.

وضعت يدي على مسدس السيد بوديتش، معتقدٌ أنهم سوف يضربون حتّى يتسبّبون بانهيار كوخها.

قالت: «ناه، ناه، ناه. اتبعني يا تشارلي، لترى ما جلبه لي أدريان». بدَت مُستمتعة نوعاً ما.

دفعَت الستارة المخملية إلى الوراء وسمحَت لي بالعبور. كانت الغرفة الكبيرة نظيفة، على عكس غرفة نومها. لم أكن لأنعتها بالكسولة بسبب منظر غرفة نومها، لكن في الواقع.. كانت الغرفة قذرة. رأيت لحافين غير

مرتّبين، وبناطيل وقمصان وملابس الداخلية منثورة على الأرض. ركلَت الملابس من طريقها وهي تقودني إلى الجانب البعيد من الغرفة. لم أكن مهتمّاً بما نوَت إظهاره لي، بقدر ما كنت قلقاً من هجوم الذئب الذي يحدث في الخارج. لقد كان هجوماً بحق. خشيت من انهيار الكوخ الخشبي المتهالك. وفكّرت في نفسي، ماذا لو يتوقّف الهجوم حتّى لو غطّت السحب القمرين!

فتحَت باباً، وكشفت عن غرفة بحجم خزانة تحتوي مرحاضاً، يشبه المراحيض في عالمي. قالت: «مرحاض. في حال احتجت إليه في الليل. لا تقلق بشأن إيقاظي، فأنا أنام بعمق، ولا أسمع شيئاً.

كنت أعرف ذلك بالتأكيد، نظراً لأنها كانت صماء، لكنني لا أعتقد أنني سأحتاج إلى الحمام في حال هاجمتني الذئاب، على الأقل ليس الليلة، أو مُطلقاً. شعرتُ أن العشرات منها تحاول الدخول، بينما كانت كلوديا تعطيني جولة في كوخها الجميل.

قالت كلوديا: «الآن انظر إلى هذا»، حرّكت بيدها لوحة بجانب المرحاض، تحوي بداخلها بطارية سيارة من ماركة (آي سي ديلكو). تم ربط المشابك بالأطراف، وتوصيل الأسلاك بنوع من محولات الطاقة. وهناك سلك آخر يخرج من المحول ومتّصل بما يشبه مفتاح الإضاءة العادي. ابتسمَت كلوديا ابتسامة عريضة، وقالت: «أحضره أدريان، والذئاب اللعينة تكرهه».

فكّرت في نفسي، الجبناء يجلبون الهدايا.

أدارَت المفتاح، فصدرَت أصوات تشبه بوق سيارة، لكنّها مُكبرة خمسين أو مئة مرّة. وضعت يديّ على أذنيّ، خائفاً من أنني إذا لم أفعل ذلك فقد ينتهي بي الأمر أصمّ مثل كلوديا. أدارَت المفتاح بالاتجاه المعاكس، بعد عشر أو خمس عشرة ثانية طويلة جدّاً. أبعدتُ يديّ بحذر عن أذني. كانت رادار تنبح كالمجنونة في الغرفة الكبيرة، لكن الذئاب توقفت عن العواء.

قالت: «ستة مكبّرات. ستهرب تلك الذئاب اللعينة بأقصى سرعتها. هل أعجبك ذلك يا تشارلي؟ هل كان الصوت عالياً بالنسبة إليك؟».

أومأتُ برأسي، وربّتتُ على أذني. لا شيء يمكن أن يصمد أمام هذا الحاجز الصوتي لفترة طويلة.

قالت كلوديا: «أتمنى فقط أن أسمع ذلك. لكنني أشعر به. ها».

كنت ما أزال أحمل الورقة وقلم الرصاص. كتبت عليها: ماذا يحدث عندما ينتهي شحن البطارية؟ وأريتها إياها.

فكّرَت قليلاً، ثمّ ابتسمت وربّتَت وجنتي قائلة: «أعطيتُك غرفة وورق، أنت ستجلب لي بطاريّة ثانية. اتفقنا أيّها الأمير شاب؟!».

8

نمت بجوار الموقد، كما حدث في كوخ دورا. أعطتني كلوديا كومة من المناشف لأنام عليها، وخرجت بمجرد أن وضعت رأسي عليها. أيقظتني في الصباح الباكر - شعرت أنني غفوت لثانيتين فقط - كانت ترتدي معطفاً طويلاً عليه فراشات، ممّا ذكّرني بدورا من جديد.

قلت: «دعيني أنام».

كانت صماء، لكنهّا عِلمت تماماً ما قلته. لذا قالت: «ناه، ناه، ناه. استيقظ يا تشارلي. المكان بعيد. حان وقت رحلتك. علاوة على ذلك، هناك شيء أريد أن أريك إيّاه.

حاولتُ الاستلقاء، لكنها أجبرتني على الجلوس. قالت: «كلبتك تنتظر. استيقظنا منذ ساعة أو أكثر. أعطيتُها جرعة أخرى من دوائي المُهدّئ وهي سعيدة. انظر إليها.

كانت رادار تقف إلى جانبها وتهزّ ذيلها. عندما رأتني أنظر إليها، اقتربَت من رقبتي، ولعقَت وجنتي. نهضتُ، كانت قدماي تؤلمانني، وكذلك الأمر بالنسبة إلى ذراعي وكتفي. حرّكت كتفيّ وهززتهما قليلاً، كما كنّا نفعل في تمرينات الإحماء لمباريات كرة القدم قبل بداية الموسم.

قالت: «انهض، وافعل ما عليك فعله. سأعدّ لك شيئاً دافئاً».

ذهبتُ إلى الحمام الصغير، حيث تركَت لي وعاء من الماء الدافئ مع صابونة صفراء. تبوّلتُ، ثمّ غسلتُ وجهي ويدي. كان هناك مرآة صغيرة على الحائط، تقريباً بحجم مرآة الرؤية الخلفية في السيارة. كانت مخدوشة وقديمة، لكن عندما انحنيت، استطعتُ رؤية نفسي. استدرتُ، ثمّ نظرت مرة أخرى عن كثب. شعرت أن شعري البني الداكن قد أصبح أفتح قليلاً. يحصل هذا عادةً في الصيف، بعد قضاء النهار في الشمس، لكن لا يوجد شمس هنا، فقط سحب. ما عدا الليل، عندما تبتعد السحب لتسمح لضوء القمرين بالسطوع.

خرجتُ من الحمام، فقدّمت لي كلوديا قطعة كبيرة من الخبز تحوي على بيض مخفوق، فالتهمتها فوراً.

سلّمَتني حقيبتي، وقالت: «وضعتُ فيها الماء والشاي البارد. الورق وقلم الرصاص أيضاً. في حال احتجت إليهما. اترك عربتك هنا».

هززتُ رأسي، وأمسكت مقبضي العربة.

قالت: «ناه، ناه، ناه! اترك هذه. وخذ دراجتي ذات العجلات الثلاث».

قلت: «كلا، لا أستطيع أخذ دراجتك».

ابتعدَت عني، وقالت: «تعال يا تشارلي. سيحلّ الفجر قريباً. لا تفوّت هذا».

تبعتُها إلى الباب، على أمل ألا أرى مجموعة من الذئاب الشرسة أمام الباب. لم أرَ أيّ ذئاب. تباعَدت الغيوم في اتجاه ما أسماه الصبي المدينة المسكونة، واستطعتُ أن أرى مجموعة من النجوم المتناثرة في السماء. كانت دراجة كلوديا الكبيرة مركونة بالقرب من طريق المملكة. فرشَت كلوديا السلّة الكبيرة الخلفيّة بقماش أبيض ناعم يشبه الصوف. أدركت أن هذا هو المكان الذي يُفترض أن تجلس فيه رادار. وعندها اقتنعتُ أن عربتها ذات الثلاث عجلات ستكون أسهل وأسرع من عربة دورا. ولكن كان هناك شيء آخر أفضل.

انحنت كلوديا، وأمسكَت المصباح ووجّهته على العجلة الأمامية الضخمة، قائلة: «أحضر أدريان هذه الإطارات أيضاً. إطارات مطاطيّة. سمعت عنها ولكنني لم أرها من قبل. هناك الكثير من الأشياء الساحرة في عالمك يا تشارلي».

أقنعني ذلك، لا داعي للقلق بشأن صوت العجلات الخشبيّة على الحصى. أشرتُ إلى الدراجة ثلاثية العجلات، ثمّ إلى نفسي. ربّتُت على صدري فوق قلبي، وقلت: «سأعيدها يا كلوديا، أعدكِ بذلك».

قالت: «لا أشك في أنك ستعيدها إليّ أيّها الأمير الصغير تشارلي». ربّتتَ على ظهري، ثمّ أعطتني ضربة على مؤخرتي ممّا ذكرني بالمدرب هاركنيس. ثمّ قالت: «انظر الآن إلى السماء الساطعة».

فعلتُ ذلك. اصطبَغت سماء مدينة ليليمار بلون خوخي جميل. قد يكون هذا لون بزوغ الفجر في بعض المناطق الاستوائية، لكنني شخصياً لم يسبق لي أن رأيت مثله. جلسَت رادار بيننا، مرفوعة الرأس، تشمّ الهواء. كنت سأعتقدُ أنها بخير تماماً لولا ضَعفها، والمادة اللزجة التي تخرج من عينيها.

سألتها: «ما الذي نبحث عنه؟».

لم تجبني كلوديا، لأنها لم ترني أتكلم. كانت تنظر إلى المدينة، حيث الأبراج الزجاجيّة الطويلة في ضوء النهار. لم يعجبني مظهر تلك الأبراج الزجاجية، حتّى من مسافة بعيدة. بدَت مثل وجوه تنظر إلينا تقريباً. أخبرتُ نفسي، هذا مجرّد توهّم، لا يختلف عن رؤية فتحة شجرة قديمة على أنها فم، أو سحابة على أنها تنين. لكن هذا لم ينجح، تسلّلَت الفكرة - السخيفة - إلى ذهني، بأن المدينة نفسها كانت غوغماغوغ: واعية، مُراقبة، وشريرة. أخافتني فكرة الاقتراب من تلك المدينة؛ وكذلك فكرة استخدام اسم ليا للمرور عبر بوابتها المرعبة.

قلتُ لنفسي، فعلَ السيد بوديتش ذلك وعاد. أنتَ تستطيع فعل ذلك أيضاً.

ثمّ سمعنا الجرس يرن: دونغ.

وقفت رادار على قائمتيها، وخطَت خطوة نحو الصوت.

قالت كلوديا: «الجرس الأول يا تشارلي؟».

رفعتُ إصبعاً واحداً، وأومأتُ برأسي.

رأيتُ شيئاً أكثر إثارة من الصرصار الكبير الحجم أو الصرصار الأحمر الكبير: بدأَت السماء فوق الأكواخ المتكدّسة خارج المدينة تُلقي بظلالها، وكأن الظل كان يرتفع إلى الأعلى.

أمسكتُ بذراع كلوديا للحظة، خائفاً من أنني قد أرى كسوفاً غريباً ليس للشمس أو القمر بل للأرض نفسها. ثمّ تلاشى صوت الجرس، تكسرّ الظلام وانتشر ضوء النهار. رأيتُ عدّة ألوان تكسو السماء: أسود وذهبي، أبيض وبرتقالي، والأرجواني الملكي.

بعدها، ظهرَت الفراشات الملكية، كلّ واحدة منها بحجم العصفور، لكنّها كانت رقيقة وشفّافة، لدرجة أن ضوء الصباح أشرق من خلالها وحولها.

صرَخت كلوديا ورفعَت يديها إلى السماء، قائلة: «تحيا إمبيس. تحيا عائلة غالين. لعلّهم يحكمون مرّة أخرى وإلى الأبد».

قالت ذلك بأعلى صوتها. كنتُ مذهولاً، لم يسبق لي أن رأيت شيئاً غريباً في حياتي وسرياليّاً وجميلاً إلى هذا الحدّ. طارَت أسراب الفراشات فوقنا، لا أحد يعرف إلى أين، شعرتُ برياح أجنحتها، وعندها قبلتُ أخيراً - وبشكل كامل - حقيقة هذا العالم الآخر، حقيقة إمبيس. لقد جئت من عالم خيالي.

هذا حقيقي.

الفصل السابع عشر

فراق كلاوديا- ذكرى جيني- ليلة في المستودع-

البوابة- مدينة الأشباح.

1

أصابت رادار نوبة سعال، واستمرت لفترة طويلة وهذا ما أقلقني. وعندما توقفت، أمسكت كلاوديا طرف ثوبها، ومسحت به الدموع عن عيني كلبتي والمفرزات عن أنفها، ثمّ رمقتني بنظرات صارمة.

«إياك وإضاعة الوقت إذا أردت إنقاذها يا تشارلي».

أومأت، فاحتضنتني كلاوديا قبل أن تضع يديها على كتفي وتقول: «توخَ الحذر. سأشعر بالأسف إن عدت من دون رادار، ناهيك عن غيابك تماماً. هل أخذت ما طلبت منك أنه تكتبه معك؟».

رفعت إبهاميّ، ثمّ ربتت حقيبة ظهري.

«تجنب استعمال سلاحك في المدينة أو حتّى التفكير في ذلك ».

أومأت ووضعت إصبعاً على شفتي.

رفعت يدها إليّ وداعبت شعري بقوة، ثمّ ابتسمت وقالت: «رافقتك السلامة أيها الأمير الشاب تشارلي».

جلست على مقعد الدراجة ثلاثية العجلات، وبدا ركوبها مثل اعتلاء برج شاهق مقارنةً مع دراجتي، كما تطلّب تحريك الدواسات جهداً كبيراً في البداية، وجهداً أقلّ بعد الانطلاق. عندما تحرّكت الدراجة، التفتت إلى كلاوديا ملوّحاً، فلوّحت لي بدورها، وأرسلت لي قبلةً عبر الهواء.

أخذت استراحةً قصيرةً عند الوصول إلى الترولي، ولاحظت أن إحدى عجلاتها منفصلة عنها ومائلة قليلاً، كما رأيت علامات مخالب قديمةً على جانبها الخشبي القريب، إضافةً إلى بعض بقع الدم الجافة، فقلت في نفسي: «إنها الذئاب».

ولذلك تجنبت إلقاء نظرة داخلها.

2

ساعدني الطريق المستوي في الحفاظ على سرعة من شأنها إيصالي قبل فترة طويلة من حلول الظلام إلى المستودع الذي أخبرتني عنه كلاوديا. التصقت الغيوم المنخفضة ببعضها، تاركةً الأرض القاحلة تحتها من دون ظلال، فتذكّرت حينها كيف قصدت الفراشات الكبيرة نهاراً وجهتها المجهولة، وتساءلت إن كنت سأراها مجدداً تحلّق عائدةً إلى منازلها خارج المدينة، وهنا فكّرت في احتمال مغادرة الذئاب المنازل والأبنية خارج أسوار المدينة بعد أن يخيّم الليل على المكان، بحيث يمكنني المبيت في أحدها، ولكن تجنبت المخاطرة بحياتي، أو حياة رادار.

وصلتُ المجموعة الأولى من المنازل والأكواخ قبل الظهيرة، وبعدها بقليل إلى الممر الفرعي الأول لطريق المملكة. لقد غطى الطين الصلب

بدايته، ورصفتِ الحجارة الصغيرة بقيته، ما جعله وعراً بسبب الفراغات والحفر بينها، وقد وجب أن أتفادى الأخيرة جميعها. ورغم سهولة قيادة الدراجة ثلاثية العجلات على طريق مستقيم، إلا أنّ المناورة بها صعبة قليلاً، وظهر ذلك في ارتفاع إحدى عجلتيها الخلفيتين عن الأرض بعد كل انحراف، وأمكنني الحفاظ على توازنها عبر إمالة جسدي في جهة المنعطف، كما اعتدت أن أفعل عند قيادة دراجتي، ولكنني كنت متيقناً أن منعطفاً حاداً سيرميني وإياها أرضاً مهما أملت جسدي، ولا بأس لو سقطت أرضاً، ولكن رادار عجزت عن تحمل ذلك.

خلت المنازل من ساكنيها، وشعرت أن نوافذها تُحدق إلينا، كما احتلت الغربان الكبيرة – ولكنها ليست عملاقة – حدائقها البور، ونبشت التراب بمناقيرها بحثاً عن أيّ بذور أو مقتنيات لامعة منسية. صحيح أن بعض الأزهار قد شقت طريقها إلى الحياة، ولكن بدت شاحبةً وغريبةً نوعاً ما، كما تسلقت تعريشات تشبه الكرمة جوانب الأكواخ المنهارة. مررت بجوار مبنىً غريب مائل، برزت حجارته الكلسية البيضاء من بين بقايا كسوته الجصية المتآكلة، وحرّك الهواء بابيه المفتوحين قليلاً ما منح مدخله هيئة فم عديم الأسنان، وتربّع أعلاه كوب جعة أبهت الزمان ألوانه حتّى بدا الشراب فيه قريباً من البول، وكتب فوقه بلون كستنائي باهت كلمة «احذر»، وإلى الجوار انتصب ما كان متجراً ذات يوم. التفتت أمامي كي أرى بعض شظايا الزجاج على الطريق، فابتعدت عنها مسافةً كافيةً حرصاً على سلامة عجلات الدراجة المطاطية.

تقدّمنا أكثر، فاصطفت الأبنية إلى جانبي الطريق ملاصقةً بعضها تقريباً تاركةً ممرات ضيقةً جداً بينها، وشيئاً فشيئاً فاحت رائحة كريهة ونتنة جداً أثارت غثياني وأجبرتني على إمساك أنفاسي، وتوقعتها منبعثة عن جثث متحللة، وربما عن شيء دُنس بطريقة شيطانية. انزعجت رادار كثيراً، فنبحت بصوت خافت، وتحرّكت في مكانها ما جعل الدراجة الثلاثية تتأرجح

قليلاً، وقد خططت مسبقاً من أجل التوقف هنا وتناول بعض الطعام، ولكن الأجواء القذرة جعلتني أُغير رأيي.

قلت في نفسي: «أشياء خفية... الجنون دنسها... كانت العشبة البرية المتوحشة نفسها»، وفتح هذا السطر كتاب ذكرياتي على فصل جيني سكوستر، وتحديداً كيف جلسنا معاً قرب جذع الشجرة وسط ظل أغصانها المرقط بضوء الشمس، وتذكرت معطفها الرث المميز، والكتاب ورقيّ الغلاف بين يديها، والذي حمل اسم ذا بيست أوف أتش بي لوفكرافت – أفضل أعمال هاورد فيلبس لوفكرافت، وقد قرأت جيني إحدى قصائده بعنوان «فونجي فروم يوغوث»، وأذكر تماماً بدايتها: كان المكان مظلماً ومغبراً، وفي هيئة متاهة من الأزقة القديمة قرب أرصفة الميناء، ثمّ فجأةً، أدركت سبب خوفي الشديد من هذا المكان، إذ رغم وجود أميال بيننا وبين ليليمار، أو المدينة المسكونة كما أطلق عليها ذلك الطفل، إلا أن الأمور بدت معقدةً قبل الوصول إليها حتّى بطريقة ما كنت لأفهمها لولا جيني وصديقها لوفكرافت، فقد عرفتني إليه في الصف السادس، أي خلال عمر صغير وحساس جداً تجاه هذا النوع من الرعب.

اعتدت وجيني القراءة معاً خلال فترة والدي الانتقالية بين إدمان الكحول والإقلاع عنه، وقد كانت صديقتي العزيزة وليست الحميمة، إذ شتان بين الاثنتين.

ذات مرة قال بيرتي: «لن أفهم أبداً لماذا تقضي الوقت معها»، واعتقدت أن الغيرة اتقدت في نفسه، ولكنه عبّر عن فضوله بصراحة، وسألني إن أردت تقبيلها.

أخبرته إن لا شيء يجمعنا سوى الصداقة، ولست منجذباً إليها بتلك الطريقة، فرسم ابتسامةً متكلفةً وقال: «وهل توجد طريقة أخرى؟». كنت أستطيع شرح الأمر، ولكن الشرح كان سيربكه أكثر.

كان بيرد محقاً في عدم امتلاك جيني «جسداً تود اكتشافه» مثل بقية الفتيات في سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة واللواتي تبدأ انحناءات أجسادهن الأولى في البروز، على عكس جسد جيني المسطح تماماً، ووجهها النحيل، وشعرها البني البسيط الأشعث دوماً، ومشيتها الشبيهة بمشية طائر اللقلق، وهذا ما جعلها محط سخرية الفتيات الأخريات. لم يبدُ أنها أرادت الانضمام إلى المشجعات أو الظفر بلقب ملكة الحفل، أو الانفراد وسط دائرة الأضواء في مسرحية مدرسية، أو أي شيء يحتاج موافقة الفتيات الاجتماعيات ذوات مساحيق التجميل وظل العيون، وربما كتمت رغبتها في ذلك، ولكنني أشك في أنها عانت وإن قليلاً من ضغط البيئة المحيطة. صحيح أنها لم ترتدِ مثل القوطيين بل ارتدت سترات رياضيةً تحت معطفها البالي، وأحضرت طعامها في علبة حملت صورة هان سولو ولكنها تصرفت مثلهم تماماً، وكانت شغوفةً بفرقة موسيقية تعزف موسيقى صاخبةً وتدعى ذا ديد كينديز، واعتادت الاقتباس من فيلم تاكسي درايفر، كما أحبت قصص لوفكرافت وقصائده. لقد ارتبطنا نحن الثلاثة - أنا وجيني ولوفكرافت – في الفترات الأخيرة من حقبتي المظلمة وما فيها من تصرفات غبية برفقة بيرتي بيرد.

دار نقاش في أحد دروس اللغة الإنكليزية خلال الصف السادس حول أعمال روبرت لورانس شتين، والذي قرأت أحد كتبه بعنوان - كان يو كيب أ سيكريت؟ وأعلنت أمام الجميع أنني وجدته غبياً جداً، وأتطلع كي أقرأ شيئاً مخيفاً ومرعباً حقاً.

سألتني جيني بعد انتهاء الدرس: «مرحباً يا ريد، أود أن أطرح عليك سؤالاً، هل تربكك مصادفة كلمات صعبة عند قراءتك كتاباً؟».

نفيت ذلك، وقلت إنني سأبحث عنها عبر الإنترنت إن عجزت عن فهم معناها من سياق القصة، وبدت مرتاحةً لسماع ذلك.

قالت: «اقرأ هذه، وأخبرني إن أخافتك، لأنها أرعبتني كثيراً»، وأعطتني كتاباً ورقيّ الغلاف، مهترئ، ومدعم بطبقة من الشريط اللاصق.

كان عنوان الكتاب ذا كول اوف كثولو، وقد أخافتني قصصه كثيراً وخاصةً المسماة «ذا راتس إن ذا وولز»، واحتوى كلمات معقدةً مثل شاذة، وشنيعة (وتصف هاتان الكلمتان تماماً تلك الرائحةً قرب الحانة)، ولكن أحببنا قصص الرعب كثيراً، ولعل ذلك بسبب تطرفنا في هذا المجال بين أقراننا، ورغبتنا وسعادتنا في خوض غمار نثر لوفكرافت المعقد. قضينا أكثر من عام نلقي أشعاره ونقرأ قصصه على بعضنا حتّى انفصال والدي جيني وانتقالها إلى ديس موين برفقة والدتها. كما شاهدنا بضعة أفلام مقتبسة من أعماله، ولكن تبيّن أن جميعها سيئة جداً، إذ عجزت عن محاكاة سعة خيال لوفكرافت وتجسيد الرعب القابع بين صفحات كتبه.

فكّرت خلال طريقي إلى أسوار ليليمار أن حلقة المنازل الصامتة حولها تشبه كثيراً إحدى قصص لوفكرافت الخيالية بعنوان أركهام ودونويتش، وقد ساعدتني إضافةً إلى أعمال كتاب آخرين (مثل كلارك أشتون سميث، وهينري كونتر، وأوغست ديرليث)، على فهم الرعب الكامن على الطرقات الفارغة وداخل البيوت المهجورة، لقد كانت مخيفةً حقاً.

عبرنا جسراً حجرياً فوق جدول جاف. استبدلت القمامة بمياهه، وقد أكل الزمان عليها وشرب حتّى عجزت عن معرفة ماهيتها، وغاصت جرذان كبيرة فيها، كما لطخت جدران الجدول الحجرية المائلة قذارة بنية داكنة، وكان لوفكرافت ليطلق عليها دون شك اسم الدناسة، ويصف رائحتها النتنة بالـ سامة.

لقد استحضر هذا المكان ذلك الوصف في نفسي.

وصلت إلى ضفة الجدول المقابلة، حيث اكتظت الأبنية أكثر فأكثر، وشعرت أنها تقترب من دراجتي شيئاً فشيئاً وتغطي كل شيء باستثناء خط

رفيع متعرج من السماء البيضاء فوقي. كما أحسست أنها تراقبني برفقة النوافذ السوداء عديمة الزجاج، وضاقت الممرات بينها كي تستحيل شقوقاً يحتاج المرء أن يمشي جانبياً حتّى يعبرها، ومن يدري ماذا ينتظره فيها؟ تيقنت من حدوث شيء وحشي هناك، ومخيف ومريع أيضاً، ورغم أن مصدر اللون الرمادي كان قابعاً في المدينة، إلا أنه تأثيره الشديد بلغ تلك الضواحي المهجورة.

زاد الطين بلةً شعوري بأن أحدهم يتبعني، فالتفتت خلفي بضع مرات محاولاً رصد شخص أو شيء (مثل شيطان مخيف) خلفنا، ولكنني لم أرَ شيئاً سوى الغربان وبعض الجرذان أحياناً، ربما كانت في طريقها إلى أوكارها أو مستعمراتها في ظلال تلك القناة الموحلة.

انتاب رادار الشعور نفسه، وزمجرت بضع مرات، حتّى أنها جلست واضعةً قائمتيها الأماميتين على طرف سلة الخيزران تراقب الطريق خلفنا.

قلت في نفسي: «لا شيء سوى الخلاء في تلك الشوارع الضيقة والمنازل المنهارة المجهورة، ولكنني متوتر فحسب، وكذلك رادار».

وصلنا جسراً يعبر فوق جدول، ولاحظت شيئاً على أحد دعائمه أدخل البهجة إلى نفسي – حرفا اسم السيد بوديتش الأولى أي بي، من دون أن تغطيها الطحالب الخضراء المصفرة. كما أمكنني رؤية جدار المدينة من الجسر بوضوح بعد أن غاب عن ناظري فترة ساعة أو اثنتين بسبب الأبنية المكتظة؛ كان رمادياً أملس وبلغ طوله أربعين قدماً على الأقل، واحتلت منتصفه بوابة عملاقة مدعمة بقضبان ثخينة متقاطعة بدت مصنوعةً من زجاج أخضر قاتم. وقد استطعت رصد ما سبق لأن معظم الأبنية بيني وبين الجدار استحالت ركاماً، وكأن قنبلةً انفجرت بينها، أو أصابها زلزال عنيف مثلاً، ولكن بضع مداخن متفحمة انتصبت وسط ذلك الحطام مثل أصابع تشير إلى السماء، كما بقيت بعض الأبنية على حالها، وقد شابه أحدها

كنيسةً. كذلك رأيت مبنى آخر طويلاً، جدرانه خشبية وسقفه من ألواح القصدير، رُكنت أمامه عربة حمراء خسرت عجلاتها وغلفتها أعشاب شاحبة.

سمعت قبل أقل من ساعتين جرساً يرن مرتين معلناً حلول الظهيرة (أو وقت تناول هانا طعامها حسب ما أعتقد). لقد وصلت أبكر مما توقعت كلاوديا، وامتلكت معظم ساعات النهار في صالحي، ولكنني أردت الحصول على قسط من الراحة إن أمكن كي أصفي ذهني قليلاً، من دون أن أقترب من البوابة في ذلك اليوم.

أخبرت رادار: «أعتقد أن هذا المكان مناسب، ولعله ليس فندق هولیداي إن، ولكن سيفي بالغرض».

تابعت طريقي على الدراجة متجاوزاً العربة المهجورة صعوداً إلى المستودع، حيث صادفت باباً كبيراً دواراً، وكان لونه أحمر جميلاً، ولكن استحال باهتاً كئيباً، وإلى جواره باب صغير بحجم رجل عادي، وقد حفر عليه الحرفين أي بي، ما بعث الراحة في نفسي كما حدث عند رؤيتهما على دعامة الجسر، وما أسعدني أكثر في ذلك الوقت هو غياب ذلك الإحساس المخيف، أو ما قد يسميه لوفكرافت الشر القديم، وقد أرجعت الأمر إلى استبدال المساحة الخالية بالأبنية، وقدرتي على رؤية السماء مجدداً، من دون أن يكفيني هذا التفسير، ولكن وجدت الجزء الناقص من الإجابة بعد فترة قصيرة من سماع صوت رنين الجرس ثلاث مرات مساء.

3

واجهت صعوبةً في تحريك الباب الصغير حتّى دفعته بكتفي، فانفتح بقوة، وأوشكت أن أسقط أرضاً. هنا نبحت رادار من السلة. بدا المستودع مظلماً وفاحت منه رائحة عفونة، ولكن ليست في سوء سابقتها قرب الحانة. كما رقدت في الظلام عربتان إضافيتان بلونين أحمر وأزرق، لا شك في مضي سنوات على وجودهما في الداخل، حيث ساعد ذلك في حفظ

طلائهما على طبيعته تقريباً، وقد برز عمود من سقف كل منهما، فاستنتجت أن كلتاهما استمدتا الطاقة الكهربائية يوماً ما عن طريق أسلاك مرت فوقهما، وإن كان ذلك صحيحاً، فقد أزيلت الأسلاك قبل فترة طويلة جداً، إذ لم أرَ أياً منها خلال رحلتي. كذلك لاحظت كلمة (سيفرونت) على مقدمة إحدى العربتين في خط قديم، و(ليليمار) على الأخرى، ثمّ التفتت حولي فرأيت أكواماً من الإطارات المعدنية التي انطلقت من مركزها إلى محيطها قضبان خشبية ثخينة، كما ملأت أدوات صدئة بعض الصناديق، واصطفت مجموعة فوانيس على شكل قذائف على طاولة مقابل الحائط البعيد من المستودع.

نبحت رادار مجدداً، فذهبت إليها، وأخرجتها من السلة. ترنحت رادار قليلاً، وعرجت ناحية الباب، ثمّ شمّت المدخل، ودخلت من دون تردّد.

حاولت فتح الباب الجرار الخاص بالعربات، ولكنني عجزت، لذلك ركنت دراجة كلاوديا الثلاثية خارجاً لأنها كبيرة ولا تمر عبر الباب الصغيرالذي تركته مفتوحاً من أجل الإضاءة. تفقدت المصابيح فوجدت أن خزّاناتها قد فرغت من الزيت قبل وقت طويل، وأن ليلةً مظلمةً تنتظر الأمير تشارلي ورفيقة دربه المخلصة رادار.

بدت القضبان الخشبية في العجلات الإضافية جافة وسهلة الكسر. لقد أحضرت معي ولاعةً استخدمها والدي كي يشعل غليونه، ولكن وجدت البيئة داخل المستودع غير ملائمة من أجل إشعال نار قد تصل ألسنتها إلى العربتين القديمتين وتحرقهما، فنبقى من دون ملجأ سوى ذلك المبنى المتداع الذي يشبه الكنيسة.

أخرجت من الحقيبة بعض علب السردين إضافةً إلى قطع لحم وضبتها دورا من أجلي. تناولت الطعام وشربت عبوة مياه غازية، في حين رفضت رادار اللحم. تذوقت السردين، ثمّ رمته على الأرضية الخشبية المتسخة.

كنت أعرف أنها أحبت كعك دورا المحلى، فأعطيتها القليل منه، ولكنها شمته، ثمّ أشاحت ببصرها عنه، وكذلك الأمر مع لحم بيركي جيركي المقدد.

مسحت على جانبي وجهها وقلت: «ماذا عساي أفعل من أجلك يا صغيرتي؟».

وقلت في نفسي: «سأعالجها إن أمكنني ذلك».

اتجهت إلى الباب كي ألقي نظرةً أخيرةً على الجدار حول القلعة قبل أن يخطر في بالي شيء ما، فعدت أدراجي، وبحثت في حقيبتي جيداً كي أجد بعض حلوى جوز البقان في كيس صغير تحت هاتفي المحمول عديم الفائدة، فأعطيت رادار واحدةً، فشمتها بحذر، ثمّ وضعتها في فمها وتناولتها إضافةً إلى ثلاث أخريات قبل أن تدير وجهها مجدداً.

تبقى أفضل من لا شيء.

4

راقبت الضوء عبر الباب المفتوح، ثمّ خرجت فجأةً كي ألقي نظرةً في أرجاء ذلك المكان المقفر الذي عزفت الجرذان والغربان حتّى عن زيارته. ألقيت قرد رادار إليها، فأمسكته بين أسنانها وعصرته قليلاً من دون أن تحضره إليّ، ثمّ وضعته بين قائمتيها الأماميتين، وغطت في نوم عميق ملامسةً إياه بأنفها. لقد ساعدها مرهم كلاوديا، ولكن تأثيره أخذ يتلاشى، كما أنها لم تتناول حبوب الدواء الثلاث التي أعطتني إياها مساعدة الطبيب البيطري، وفكّرت في أن رادار استهلكت ما بقي من طاقتها في نزول السلم اللولبي والركض من أجل لقاء دورا، وإن تأخرت في إيصالها إلى الساعة الشمسية، ستنام ولن تستيقظ مجدداً.

حاولت إعادة تشغيل هاتفي المحمول من أجل لعب بعض الألعاب الإلكترونية وتمضية الوقت، ولكن من دون فائدة، فالهاتف لم يعدُ عن كونه

مجرد مستطيل زجاجي أسود، وكأن سحر عالمي غير فعال في ذلك العالم السحري، فأعدته إلى حقيبتي. راقبت الباب المفتوح وكيف انسحب الضوء الأبيض من المستودع شيئاً فشيئاً، ثمّ سمعت جرس المساء يرن ثلاث مرات، وأوشكت أن أغلق الباب حينها، ولكنني تراجعت خشية البقاء في الظلام من دون مصدر إضاءة سوى ولاعة والدي. أبقيت عيني على الكنيسة (أو ما يشبهها) مقابل المستودع، وقررت إغلاق الباب حين أعجز عن رؤيتها، لأن غياب الطيور والجرذان لا يعني غياب الذئاب أو الحيوانات المفترسة الأخرى، كما أخبرتني كلاوديا أن أقفل المزلاج من الداخل، وذلك ما أردت فعله.

استحالت الكنيسة شكلاً مبهم المعالم وسط الظلام، وبينما نهضت كي أغلق الباب، رفعت رادار رأسها وأذنيها ونبحت بصوت ضعيف، واعتقدت بدايةً أنها فعلت ذلك إشارةً إلى استيقاظها، ونسيت أنها امتلكت حاسة سمع أقوى من حاسة السمع لدي سواء كانت عجوزاً أم شابة، وسمعت بعد بضع ثوان ما استرعى انتباهها؛ كان صوت رفرفة يشبه ما تصدره قصاصة ورق عالقة في مروحة، واقترب سريعاً وازدادت شدته حتّى أصبح كالرياح العاتية، فأدركت مباشرةً مصدره، توجهت إلى الباب ووضعت إحدى يديّ على الدراجة الثلاثية، وانضمت رادار إليّ، وراقبنا السماء معاً.

اقتربت آلاف الفراشات على الأقل من الجنوب حسب ما أعتقد، وتحركت في شكل سحابة تحت الغيوم، وزادت السماء المظلمة ظلمةً، وحطت على المبنى الشبيه بالكنيسة، وحط بعضها على المداخن القليلة البارزة، أو أكوام الحطام، وكذلك فوق سقف المستودع حيث لجأت برفقة رادار، وبدا صوتها هناك أقرب إلى تنهيدة عميقة منه إلى رفرفة.

أعتقد الآن أنني فهمت سبب إيجادي ذلك المكان آمناً أكثر منه مقفراً؛ لقد اتخذته الفراشات الكبيرة موطناً في عالم كان جميلاً ذات يوم، قبل اغتيال أفراد الأسرة الحاكمة أو نفيهم.

اعتقدت في عالمي، وليس وحدي، أن لقب الأسرة الملكية مجرد واجهة إعلانية من أجل صحف شعبية مثل ناشيونال إينكوايرر، وإنسايدر فيو، فقد شكّل الملوك والملكات، والأمراء والأميرات مجرد عائلة بسيطة أخرى ويشبهون الناس العاديين، ولكن حالفهم الحظ كثيراً حتّى أصبحوا يصنعون حظهم بأنفسهم.

ولكن الأمور اختلفت في إمبيس.

يا لها من بلاد غريبة حقاً.

اختتمت الفراشات الكبيرة مراسم عودتها تاركةً الظلام خلفها، وشيئاً فشيئاً تلاشى حفيف أجنحتها، ثمّ أقفلت الباب لأن كلاوديا طلبت مني ذلك فقط، ولكنني شعرت بالأمان، وأنني محمي من المخاطر.

قلت بصوت خافت: «تحيا إمبيس، وتحيا أسرة غالين، ربما يستعيدون يوماً السلطة ويحكمون هذا العالم إلى الأبد».

ولمَ لا؟ إن أي شيء أفضل من ذلك الخراب.

أغلقت الباب والمزلاج بإحكام.

5

يبقى النوم سبيل المرء الأخير وسط الظلام، لذلك وضعت حقيبتي بين العربتين إلى جوار رادار، واستلقيت واضعاً رأسي عليها. فكّرت لوهلة في احتمال أن أستغرق في النوم طويلاً دون وجود منبه، وبالتالي التوقيع على مذكرة وفاتي شخصياً، ثمّ غفوت مباشرةً، ولكن أيقظني سعال رادار المتواصل، فأعطيتها بعض المياه، ما خفف وطأته قليلاً.

كانت حاجتي إلى التبول ساعة المنبه الوحيدة في جعبتي، وفكّرت في أن أقضي حاجتي في إحدى زوايا المستودع، ولكن بدا تصرفاً غير لائق في

حق ملجأ آمن، فسحبت مزلاج الباب، وفتحته ما يكفي كي أتفقد المكان في الخارج، حيث عمَّ السكون والظلام من دون أيّ نجمة أو بصيص من ضوء القمر بين الغيوم المنخفضة، وبدا شكل الكنيسة على الطرف المقابل ضبابياً قليلاً، ففركت عينيّ كي تتضح صورتها أكثر، ولكن بقيت على حالها، واكتشفت أن ذلك بسبب الفراشات الكبيرة النائمة هناك، وقد اعتقدت أن عمرها لا يتجاوز أسابيع أو أشهراً في عالمي، أما في إمبيس، فمن يدري؟

أحسست بطرف عيني أن شيئاً تحرك، فالتفتت ولم أرَ شيئاً، وبالتالي إما تخيلت ما حدث، وإما اختفى الجسم المتحرك أياً كان. تبولت (وراقبت المكان حولي في أثناء ذلك)، ثمّ دخلت المستودع، وأغلقت الباب والمزلاج، واتجهت ناحية رادار من دون الحاجة إلى استعمال ولاعة والدي، بل تبعت أنفاس كلبتي المرتفعة والخشنة، وخلدت إلى النوم مجدداً لساعة أو ساعتين، راودني خلالها حلم بأنني مستلقٍ على سريري في المنزل، فجلست وحاولت التثاؤب من دون أن أستطيع فتح فمي؛ لأنه اختفى.

أيقظني ذلك المشهد مباشرةً، إضافةً إلى سعال رادار، ولاحظت أن إحدى عينيها مغمضة بسبب المفرزات في حين بقيت الأخرى مفتوحةً، ما منح كلبتي منظراً حزيناً حقاً، فمسحت عينيها، واسترقت النظر عبر الباب مجدداً، فرأيت الفراشات الكبيرة في مكانها، ولكن برز ضوء باهت في السماء، وبالتالي حان وقت تناول شيء ما، ثمّ مواصلة طريقنا.

قرّبت علبة سردين مفتوحةً إلى أنف رادار، ولكنها أشاحت بوجهها عنها مباشرةً، وكأن رائحتها زادت شدة مرضها، ثمّ تناولت واحدةً من قطعتي حلوى جوز البقان الباقيتين، وحاولت مضغ الأخرى، ولكن بصقتها، ونظرت إليّ.

أمسكت وجهها بين يدي وحركته من جهة إلى أخرى بطريقة أحبتها وقلت: «تماسكي قليلاً يا عزيزتي، اتفقنا؟»، وأوشكتُ على البكاء.

حملتها إلى الخارج، ووضعتها برفق على الأرض، فمشت يساراً بحذر وكأنها عجوز، حتّى وصلت إلى حيث قضيت حاجتي، وفعلت مثلي، ثمّ انحنيت كي أحملها، ولكنها التفت حولي واتجهت إلى العجلة الخلفية اليمنى في دراجة كلاوديا والأقرب إلى الطريق، وشمتها، ثمّ تبولت مجدداً، وأصدرت أنيناً وهي تتبول.

اتجهت إلى ذلك الدولاب الخلفي وانحنيت وتفحصت المكان من دون رؤية شيء، ولكن تيقنت أن ما لمحته يتحرك مسبقاً، قد اقترب أكثر بعد دخولي إلى المستودع، وتبول على دراجتي أيضاً، وكأنه يقول: «هذه حدود منطقتي». بعد ذلك، أخذت حقيبتي وهممت بالرحيل، ولكن تذكرت شيئاً أردت إحضاره، فدخلت المستودع مجدداً تحت أنظار رادار، وبحثت في أنحائه حتّى عثرت على مجموعة بطانيات عفنة في إحدى الزوايا – ربما استخدمها المسافرون لاتقاء البرد خلال انتظار عرباتهم، ولولا قضيت حاجتي في الخارج، لتبولت عليها عن طريق الخطأ بسبب الظلام، فأخذت إحداها ونفضتها كي تتساقط بعض حشرات العث النافقة منها مثل ندف ثلج كبيرة، ثمّ طويتها ووضعتها في الدراجة الثلاثية.

«هيّا بنا ننطلق إلى وجهتنا يا ريدس، ما قولك؟».

حملتها إلى السلة، ووضعت البطانية المطوية إلى جوارها، وتذكرت توجيهات كلاوديا بالانتظار حتّى سماع صوت الجرس الأول قبل مواصلة طريقي، ولكن شعرت بالأمان وسط الفراشات الكبيرة المنتشرة في الأرجاء، ولذلك صعدت الدراجة، واتجهت ببطء ناحية البوابة في الجدار. مضت نصف ساعة تقريباً قبل أن أسمع صوت جرس الصباح الذي كان قوياً جداً بسبب قربي من المدينة، فاستيقظت الفراشات وحلقت في موجة عظيمة من اللونين الأسود والذهبي، واتجهت جنوباً، حيث أردت الذهاب بنفسي وملاقاة دورا، ودخول النفق، والعودة إلى عالم ملؤه الحواسيب

وطيور آلية تحلق في السماء، ولكن القصيدة قالت: توجد أميال كي أقطعها، ووعود كي أنفذها.

قلت في نفسي: «لقد اختفى جنود الليل على الأقل، وعادوا إلى السراديب والقبور كي يناموا بهدوء»، ولم يكن لدي وسيلة كي أتحقق من الأمر، ولكن تيقنت منه في نفسي.

6

وصلنا إلى البوابة خلال أقل من ساعة، فترجلت عن الدراجة الثلاثية، ولاحظت أن الغيوم سوداء هناك أكثر من أي مكان آخر، وبالتالي سيهطل المطر قريباً جداً، كما تبينت خطأي في تقدير ارتفاع الجدار الرمادي، فقد تجاوز طوله سبعين قدماً على الأقل، وكانت البوابة عملاقةً حقاً وبطول ملعب كرة القدم، ومصنوعة من الذهب الحقيقي، وليس مجرد طلاء، وقد تقاطعت قضبانها في زوايا وأشكال غير متناسقة، ولكنني كنت متأكداً أنها وضعت عمداً على ذلك النحو الغريب، ما أعادني إلى أعمال لوفكرافت مجدداً والعالم غير الإقليدي المجنون الذي جعلت وحوشه السيطرة على عالمنا نصب أعينها.

وما لفت انتباهي أيضاً هو المادة التي صُنعتْ منها تلك القضبان، إذ بدت مثل زجاج معدني، إضافةً إلى بخار أسود يتحرك داخلها، وهذا ما أثار غثياني، فأشحت بنظري عنه، وعندما التفتت مجدداً، لم أجد له أثراً، ولكن استطعت رؤيته من طرف عيني، ما أصابني بالدوار.

نظرت إلى قدمي كي أتجنب تقيؤ ما تناولته على الفطور، فرأيت شيئاً مكتوباً على إحدى الحصوات الكبيرة بلون ربما كان أزرق يوماً ما، ولكن استحال رمادياً: إنهما حرفا اسم السيد بوديتش أي بي، وقد بعثا الراحة في نفسي، فنظرت مجدداً إلى أعلى، كي أرى البوابة فحسب، ويا لها من بوابة ضخمة حملت مجموعةً من الدعائم الخضراء المتشابكة، وقد كانت مثل

التأثيرات البصرية الخاصة التي تضاف إلكترونياً إلى فيلم ملحمي، مع وجود فرق واحد فقط، لم يكن هناك تأثيرات بصرية، وقد ضربت أحد تلك القضبان كي أتأكد من ذلك.

تساءلت ما قد يحدث لو استعملت اسم كلاوديا أو ستيفن وودي كي أفتح البوابة، لأن كلاهما من الأسرة الملكية، أليس كذلك؟ ولكن حسب فهمي المتواضع للعلاقات الأسرية، فإن الأميرة ليا وحدها وريثة عرش إمبيس، أو عرش غالين، لم يكن الاسم مهماً بقدر فعاليته في فتح البوابة، وإلا سأعلق في الخارج، وتموت رادار.

بحث تشارلي الغبي عن جهاز اتصال داخلي، والذي يضعه ساكنو المنزل عادةً قرب المدخل، من دون أن يعثر عليه طبعاً، وليس أمامه سوى تلك القضبان الغريبة المتشابكة، والمادة السوداء المحمية داخلها.

تمتمت: «ليا غالين».

لم يحدث شيء.

قلت في نفسي: «ربما أحتاج أن أرفع صوتي»، ولكن بدا الصياح أمراً خاطئاً وخطيراً جداً وسط الصمت خارج سور المدينة، ولكنني أقنعت نفسي أنني في أمان هناك، وقررت المجازفة والصراخ من أجل رادار.

عجزت في النهاية عن الصراخ عالياً، ولكن سعلت ورفعت صوتي قائلاً: «افتحي باسم ليا غالين!».

جاءت الإجابة في هيئة صرير مخيف، فأجفلت وتراجعت إلى الخلف حتّى أوشكت أن أسقط على مقدمة الدراجة الثلاثية. يُقال في مثل هذه الحالات إن قلب المرء يكاد يخرج من فمه، وهذا ما حدث معي، فقد أوشك قلبي أن يتركني وحيداً ميتاً على الأرض، وأدركت بعد برهة أن الصرير ناجم عن آلة عملاقة تعمل للمرة الأولى بعد سنوات وعقود من الركود، ولعل

السيد بوديتش آخر من فتح تلك البوابة مستخدماً نسخة هذا العالم من تعويذة افتح يا سمسم. اهتزت البوابة، ورأيت الخيوط السوداء تسير مضطربةً وسط القضبان الخضراء، وبدت حينها تماماً مثل الرواسب في عبوة مياه بعد رجها، وتحول الصرير إلى ضجيج صاخب تحركت معه البوابة يساراً وفق مسار ضخم خفي. شعرت بالدوار مجدداً خلال مراقبتها، وكان أسوأ من ذي قبل، فأشحت بناظري، وترنحت مسافة أربع خطوات حتّى وصلت إلى مقعد درّاجة كلاوديا الثلاثية. وضعت رأسي عليه، وشعرت نبضات قلبي تضرب صدري ورقبتي وصولاً إلى جانبي وجهي أيضاً، وتوقعت أن نظرةً واحدةً إلى تلك الزوايا المتغيرة باستمرار مع انفتاح البوابة ستفقدني وعيي، أو سأرى شيئاً سيئاً جداً يجبرني أن أعود أدراجي مباشرةً وأترك كلبتي المريضة خلفي، فأغمضت عيني ووضعت يدي على فرائها وقلت في نفسي: «تماسكي، تماسكي قليلاً بعد».

7

أخيراً، توقف الضجيج وخيّم الصمت فجأةً. فتحت عيني ووجدت رادار تنظر إلي، ثمّ التفتت إلى يدي كي أجد أنني انتزعت بعض فرائها دون أن تشتكي أبداً، ولعل ذلك بسبب آلامها الأخرى، ولكن أرجح التزامها الصمت لأنها أدركت مدى حاجتي إليها في تلك اللحظة.

قلت: «هيّا بنا نكتشف ما ينتظرنا».

كشفت البوابة عن ساحة شاسعة مرصوفة بالبلاط، وانتصبت في محيطها بقايا تماثيل حجرية ضخمة على شكل فراشات، وقد تربع كل منها على قاعدة ارتفاعها عشرين قدماً تقريباً، كما حطمت أجنحتها ورميت في أكوام متناثرة على أرضية الساحة، وقد شكلت ما يشبه ممراً بينها، فتساءلت إن مثلت كل من تلك الفراشات العملاقة ملكاً أو ملكةً في شجرة عائلة غالين.

عاد الصرير مجدداً، وأدركت أن البوابة على وشك الإغلاق، ولعل اسم ليا سيفتحها مجدداً، وربما لا، ولكن أردت المواصلة ولم تكن لديّ أدنى نية في تجربة ذلك حينها، فصعدت الدراجة الثلاثية ودخلت المدينة.

أصدرت العجلات المطاطية صوتاً خلال تحركها على البلاط الذي كانت ألوانه زاهيةً ذات يوم، ولكن أصبحت باهتةً، وفكّرت في أن كل شيء يستحيل رمادياً أو أخضر عاتماً، وكذلك الأمر بالنسبة إلى تماثيل الفراشات الكبيرة المنتصبة حولنا، ولاحظت أن أجسادها بقيت في مكانها، في حين حطمت رؤوسها وأجنحتها، فتذكرت المقاطع المصورة عن داعش، وكيف دمروا التماثيل، والأعمال الفنية، والمعابد بذريعة أنها ضرب من ضروب الكفر.

وصلنا إلى قوس مزدوج على شكل جناحي فراشة، وقد كتبت كلمة ما فوقه، وقد تلاشت معظم ملامحها باستثناء حرفي (لي)، فخطر لي أنها ليليمار، ولكن لعلها كانت غالين.

التفتت إلى رادار كي أطمئن عليها قبل عبور القوس، وفكّرت في ضرورة بقائنا هادئين، لأن جميع من التقيتهم أكدوا على هذه النقطة بطريقة أو أخرى، وعلمت أن ذلك ليس مشكلةً نسبةً إلى ريدس، لأنها غطت في نوم عميق، وهذا جيد من جهة، ومقلق من جهة أُخرى.

كان الطريق رطباً، وفاحت منه رائحة العفن. عبرت القوس حتّى وصلت إلى بركة دائرية مبلطة بحجارة كستها الطحالب، وربما كانت مياهها زرقاء جميلةً في أحد الأيام، وجلس الناس على المقاعد الصخرية حولها وتناولوا الطعام خلال مراقبة طيور البط أو البجع الإمبيسي تسبح فيها، ولعل الأمهات حملن أطفالهن كي يبللوا أقدامهم في المياه قليلاً، ولكن المكان حينها خلا من أيّ طيور أو زائرين، وفي حال جاء أحدهم، سيتجنب الاقتراب من البركة وينظر إليها وكأنها مسمومة، وربما كانت كذلك فعلاً؛ حيث بدت

المياه مثل كتلة خضراء لزجةً وربما صلبةً، وفاحت منها رائحة نتنة جداً، ما رسم أمامي صورة قبر مفتوح يعج بالجثث المتعفنة، والتف حولها طريق متعرج يتسع من أجل الدراجة الثلاثية، ولاحظت شيئاً منقوشاً على إحدى حجارة البلاط إلى اليمين؛ حرفا اسم السيد بوديتش، فسلكت ذلك الاتجاه، ثمّ استوقفني صوت سمعته من الخلف، لعلها همسات أو خطوات أقدام، فالتفتت وتفقدت المكان.

قالت كلاوديا: «تجاهل ما تسمعه من أصوات خلال طريقك»، ولذلك أقنعت نفسي أن الصمت يخيّم على المكان، ولا شيء يتحرك في ظلال القوس خلفي.

قدت الدراجة على الطريق المحاذي لحافة البركة القذرة، وصادفت في نهايته قوس جناحي فراشة آخر، وبينما اقتربت منه، سقطت قطرة مطر على عنقي، ثمّ واحدة أخرى، وازداد عددها شيئاً فشيئاً وانهمرت على مياه البركة ما جعلها منقطةً، فحفرت فيها ثقوباً آنيةً تلاشت مباشرةً، ثمّ لاحظت أن شيئاً أسود برز إلى السطح لثانية أو اثنتين، ثمّ غاص مجدداً، وقد عجزت عن تبين ماهيته، ولكن تيقنت أنني رأيت فيه ما يشبه الأسنان.

اشتد هطول المطر، وكاد يتحول وابلاً غزيراً، فأسرعت حتّى وصلت إلى بداية القوس الثانية، وأخرجت البطانية وغطيت كلبتي النائمة بها مع أنها كانت قديمة وعفنة، ولكن أسعدني إحضارها كثيراً.

8

وجدت أمامي متسعاً من الوقت، ولذلك أردت البقاء في ظل القوس فترةً قصيرةً حتّى تمسك السماء قليلاً من دون المخاطرة في أخذ رادار تحت المطر مع أنني غطيتها، أو تمنيت لو أمكنني ذلك، لأن التوقع كم ستطول تلك (الفترة القصيرة) مستحيل تقريباً، ناهيك عن قياسها، فقد اعتدت استخدام هاتفي من أجل مراقبة الساعة، وعضضت أصابعي ندماً

لأنني تركت ساعة السيد بوديتش. في الوقت الذي تأملت فيه، انهمر المطر بغزارة وسط ما يشبه شارعاً تجارياً اصطفت على جانبيه متاجر ذات واجهات خضراء. تذكرت مدى إدماني على هاتفي المحمول، ومقولةً رددها والدي دوماً عن استعمال الأجهزة الإلكترونية: «امنح أي شخص عكازاً فترةً من الزمن، وسيعجز عن المشي من دونه».

اصطفت المتاجر على الطرف المقابل من جدول جاف، وأعتقد أن الناس الأثرياء اعتادوا ارتيادها، حيث بدت مثل النسخة القديمة من روديو درايف من المناطق الراقية أيضاً، واستطعت من مكاني قراءة عبارة مطلية بالذهب (ولكن ليس ذهباً حقيقياً هذه المرة): متجر أحذية صاحب الجلالة، وقد انكسر زجاج واجهة عرضه قبل زمن طويل، وكذلك الأمر في المتاجر المجاورة، وجرفت سيول الأمطار بعض الشظايا معها، وتموضع في منتصف الشارع شيء يشبه أفعى طويلةً جداً، وتوقعت أنه سلك تشغيل العربات.

لاحظت شيئاً محفوراً على الرصيف قرب ملجئنا من المطر، فجلست القرفصاء كي ألقي نظرةً عليه، وقد شوهت معظم الكتابة كما حدث مع وجوه الفراشات وأجنحتها، وعندما مسحت بدايتها ونهايتها، استطعت قراءة الحروف غين ولام. قد تعني أي شيء، ولكن فكّرت في احتمال أنني على طريق رئيسي يمثل امتداد طريق المملكة من خارج أسوار المدينة، ولعل اسمه هنا طريق غالين، واتجه ناحية المباني الشاهقة في مركز المدينة مباشرةً، حيث انتصبت أيضاً ثلاثة أبراج خضراء أطول من أي بناء آخر، وقد اخترقت قممها الزجاجية الغيوم، وتوقعت أنها جزء من القصر الملكي من دون أن أتيقن من ذلك.

توقف المطر قليلاً عندما عزمت على مواصلة طريقي بالرغم من أنني قد أتبلل، فتفقدت أمر رادار وغطيتها جيداً، لم يبرز شيئاً من تحت البطانية سوى أنفها وقائمتيها الخلفيتين، ثمّ صعدت الدراجة ودوّست ببطء عبر

الجدول الجاف، وتساءلت حينها إن كنت أعبر جسر رومبا الذي أخبرني وودي عنه.

9

تأملت المتاجر الفاخرة، ولاحظت شيئاً مريباً حيالها. لم تكن مهجورة فحسب، بل نهبت قبل فترة طويلة، ولعل ساكني ليليمار أقدموا على ذلك بعد انتشار الداء الرمادي. أحسست بوجود أمر أكثر تعقيداً... وسوءاً، وكان تأثيره سارياً حينها؛ بدت المباني متينة سواء خربت أم لا، ولكنها التوت بطريقة ما، وكأن قوةً عظيمةً غيّرت شكلها تماماً. عندما دققت النظر إليها مباشرةً – متجر أحذية صاحب الجلالة، والأطباق الشهية، والكنوز العجيبة، وخياطو منزل (طمست بقية هذه العبارة، وكأن تتمتها شيء مدنس)، ومتجر العجلات – وجدتها طبيعيةً، وذلك في حال انطبق وصف «طبيعي» على أي شيء في ذلك العالم الغريب. عندما نظرت مجدداً إلى الأمام، شعرت أن الزوايا المستقيمة قد انحنت في مجال رؤيتي المحيطية، وتحركت النوافذ عديمة الزجاج وكأنها عيون تحدق إليّ وتتفحصني، كما استحالت الأحرف رموزاً قديمةً، فأخبرت نفسي أن ذلك مجرد نتاج عن خيالي الخصب، ولكن عجزت عن إثبات ذلك، وتيقنت من شيء واحد فقط؛ لقد أردت الخروج من هناك قبل حلول الظلام.

وصلت إلى أحد التقاطعات، ورأيت تمثالاً مائلاً ناحية الطريق، يحدّق إليّ رأساً على عقب بفم مفتوح عديم الشفتين داخله نابا أفعى ولسان رمادي مشقوق. التففت حوله في شكل قوس، وعندما تركته ورائي فرحاً بتجاوز نظراته المخيفة المقلوبة، سمعت صوت صدمة مكتومة. التففت فوجدته قد انهار على الأرض، ولعل إحدى العجلتين الخلفيتين قد ارتطمت به أو لمسته فقط، فأخلت التوازن الذي حافظ عليه سنوات طويلةً، وربما لا.

عاد يحدق إليّ مجدداً.

اقتربت من القصر (حسب ما أعتقد)، وبدت الأبنية على جانبي طريقي مثل المنازل الريفية الصغيرة، والتي كانت مترفةً يوماً ما لا شك في ذلك، ولكن استحالت ركاماً في ذلك الوقت، وانهارت شرفاتها، واحتل نبات القراص المسافات بينها، وبالتالي سيتمزق جلدك إرباً عند محاولتك المرور عبرها، واخترقت الأعشاب الرمادية المائلة إلى اللون البني الكريهة أرضية الممرات المرصوفة بالحجارة، وسقطت عليها حوامل المصابيح بعد تخريبها أو تلفها.

اشتد هطول المطر مجدداً مع وصولنا إلى منازل فاخرة أكثر، مبنية من الرخام والزجاج وذات سلالم عريضة (كانت سليمةً)، وأروقة معمدة مهيبة (معظمها محطم). ورغم المطر الغزير، إلا أنّ حلقي كان جافاً، ولذلك تحدّثت بصوت منخفض إلى رادار، وأخبرتها أن تتماسك قليلاً، لأننا اقتربنا. لم يخطر على بالي قط فتح فمي أمام السماء إثر جهلي ماهية تلك المياه وما قد تجره على جسدي، إذ كنت وسط مكان رهيب تغلغل المرض في أرجائه، ولذلك امتنعت عن تجربة شرب أي شيء هناك.

نبهتني كلاوديا ألا أضلّ طريقي، لذا سلكت درباً مستقيماً حتّى هذه اللحظة، وتمسكت ببصيص أمل أشرق وسط كآبة ذلك المكان؛ سيقودني طريق غالين مباشرةً إلى منزل هانا الأصفر والساعة الشمسية في حال تربعا إلى جوار مجتمع الأبنية الملكية المصفوفة حول الأبراج الثلاث، وبعد برهة استطعت رؤية نوافذها العملاقة، ولاحظت أن زجاجها ليس ملوناً كما في الكنيسة، بل أخضر داكناً متلألئاً مثل نظيره في قضبان البوابة الخارجية، وفي البركة القذرة.

أوشكت خلال التحديق إليها أن أغفل عن حرفي اسم السيد بوديتش المكتوبين على عمود صخري توجد حلقة في قمته، ولعلها من أجل ربط

لجام الحصان. لقد اصطفت أعمدة مثله جنباً إلى جنب مثل صف أسنان خشنة أمام مبنى رمادي عملاق امتلك عشرة أبواب على الأقل في قمة سلالمه المنحدرة بشدة، وكان عديم النوافذ. احتل العمود الذي دوّن عليه حرفا أي. بي نهاية الصف وبداية ممر فرعي ضيق إلى اليسار، وقد رسم الخط المعترض في حرف (أي) على شكل سهم يشير إلى نهاية تلك الطريق، حيث انتصبت مبانٍ حجرية عادية بارتفاع ثمانية أو عشرة طوابق. تخيلت كيف احتشد الموظفون الحكوميون ضمنها يوماً من أجل تسيير أعمال المملكة، ودخلوا وخرجوا سريعاً، وارتدى كل منهم معطفاً صوفياً أسود طويلاً، وسترةً ذات ياقة طويلة، مثل الرجال في رسوم إحدى روايات ديكنز (تصورتهم جميعاً رجالاً)، ولكني عجزت عن تحديد أيها السجن الملكي، فقد بدت جميعها كذلك بالنسبة إليّ. توقفت وحدقت إلى حرف (أي) وكيف رسم خطه المعترض في شكل سهم أشار إلى اتجاه بعيد عن القصر، ولذلك سألت نفسي ما يلي: هل أواصل التقدم، أم أتبع السهم؟ وقاطع سلسلة أفكاري سعال رادار من تحت البطانية التي بللتها مياه المطر، وستغرقها قريباً، وأوشكت تجاهل السهم ومواصلة طريقي، وفكّرت في أنني أستطيع عودة أدراجي متى أردت، ولكن تذكرت شيئين قالتهما كلاوديا: الأول أنني سأصل إلى وجهتي بخير عند اتباع تعليمات السيد بوديتش، والآخر أن رحلةً طويلةً جداً في انتظاري، ولكن التعليمات ستختصرها كثيراً.

في النهاية، قررت التزام نصائح كلاوديا والسيد بوديتش، وأدرت مقود الدراجة في اتجاه السهم، وتابعت طريقي.

لقد أصابت كلاوديا عندما قالت إن الشوارع متشابكة كالمتاهة، وقد خضت غمارها سعياً وراء علامات السيد بوديتش، ولعلك تستطيع حفظ طريقك في نيويورك، وتذكره قليلاً في شيكاغو، ولكن ليس في ليليمار، لم أجد مثيلاً لها (وإن في ذلك الوقت على الأقل) سوى مدينة لندن خلال فترة شارلوك هولمز وجاك السفاح. لقد انتصبت على جوانب بعض الشوارع

أشجار عارية لا يمكن الاحتماء تحتها، وكانت بعض الطرق ضيقةً جداً على دراجتي ثلاثية العجلات، ولكن امتدت شرفة مبنىً مؤلف من طابقين فوق أحدها وكانت قريبة جداً من الأرض، فلجأنا إليها لنتقي من وابل المطر. لاحظت خلال طريقي أن قلةً من أسلاك العربات تدلت رخوةً إلى الأرض، وامتد معظمها في الشوارع، ورأيت عبر إحدى نوافذ العرض دمية خياطة اقتلع رأسها وحلت محله قبعة مهرج، كما علقت أجراس على رقبتها، وغرست سكين بين ثدييها، ورغم الجهد المبذول في تصميم تلك الدعابة، إلا أنها لم تضحكني.

مضت ساعة تقريباً دون أدرك كم مرةً الفتت يميناً ويساراً، ودخلت نفقاً رطباً عكرت عجلات الدراجة هدوء مياهه الراكدة مصدرةً صوتاً بدا صداه مثل ضحكات هامسة.

لقد تلاشت علامات السيد بوديتش المكشوفة أمام تغيرات الطقس حتّى أن بعضها طُمس تقريباً، وقررت أنني إذا وصلت إلى طريق مسدود من دون رؤية أي منها، سأعود أدراجي متتبعاً العلامات مجدداً حتّى الأبراج الثلاثة البارزة من القصر (حسب ما أعتقد)، ولكن الشك راودني حيال قدرتي على فعل ذلك، وخاصةً في ظل وجود الأبنية المتلاصقة على طول الطريق، ما جعل الضياع وسط تلك المتاهة محتملاً جداً حتّى سماع الجرس الذي يرن مرتين... وربما جرس المساء الذي يرن ثلاث مرات، ويأتي حينها دور القلق حيال جنود الليل، وقد كنت متأكداً أن المنيّة ستوافي رادار بسبب المطر وسعالها بحلول ذلك الوقت.

تعثرت الدراجة في حفرتين اخترقتا الأرض عميقاً، وشعرت أنهما مصدر الأصوات الهامسة التي حذّرتني منها كلاوديا، كما فاحت منهما رائحة كريهة، وكان الصوت والرائحة أشد في الحفرة الثانية، وقد حاولت من دون فائدة استبعاد فكرة أن الرعب جر ساكني المدينة إلى ملاجئ واسعة تحت الأرض، ولبثوا فيها حتّى مماتهم، وأن تلك الأصوات صادرة عن أشباحهم.

أردت العودة إلى المنزل في عالمي المتوازن، حيث يمكن سماع الأصوات عبر سماعات الأذن فقط.

وصلت إلى زاوية انتصب فيها عمود إنارة حمل إما حرفي اسم السيد بوديتش، وإما مجرد لطخة من الدماء القديمة، ولذلك ترجلت عن الدراجة ثلاثية العجلات كي أتفقدها من دون أن أجرؤ على تنظيفها وإن قليلاً خشية محوها كلياً، فانحنيت واقتربت حتّى أوشك أنفي على ملامستها، وتأكدت (تقريباً) أن الخط المعترض في حرف (أي) أشار يميناً. عندما صعدت الدراجة مجدداً، أخرجت رادار رأسها من تحت البطانية، وأنّت بوهن، وقد التصق جفنا إحدى عينيها بسبب المفرزات، وكانت الأخرى نصف مفتوحة، واستعملتها كي تنظر خلفنا، فتبعت نظراتها وسمعت خطوات أقدام؛ كنت متأكداً من ذلك حينها، كما لمحت جزءاً من قطعة ملابس، ولعلها عباءة على الأرجح، خلال انعطاف مرتديها على بعد بضعة شوارع خلفنا.

صرخت: «هل من أحد هنا؟»، ثمّ وضعت يدي على فمي، وتذكرت كيف أخبرني الجميع أن ألتزم الصمت والهدوء، ولكن تابعت كلامي في صوت منخفض أكثر أقرب إلى الهمس: «أظهر نفسك، يمكننا أن نكون أصدقاء».

عمّ الهدوء المكان، ولكنني توقعت ظهور أحدهم، ولذلك وضعت يدي على مسدس السيد بوديتش.

قلت: «أملك مسدساً، ولن أتردد في استعماله، هل تسمعني؟ أنصحك أن تظهر نفسك أيها الغريب»، وقد كانت مجرد خدعةً طبعاً، إذ حذرتني كلاوديا بشدة من ذلك، وشعرت أنني أتحول إلى شخصية خيالية من كتاب أو فيلم، وتوقعت سماع نفسي أقول: «أدعى إنيغو مونتويا، وأنت قاتل والدي، فاستعد كي تلقى حتفك».

مجدداً عانت رادار من نوبة سعال، وبدأت ترتجف، فصعدت الدراجة مجدداً، وتابعت طريقي في اتجاه السهم الأخير، والذي قادني إلى طريق متعرج مرصوف بالحصى، واصطفت براميل على طرفيه لسبب مجهول، ومعظمها مقلوب رأساً على عقب.

11

واصلت تعقب علامات السيد بوديتش، وقد كان بعضها واضحاً جداً في طلاء أحمر، وبعضها مطموس تماماً، فقادتني يميناً ويساراً وسط رائحة العفن الكريهة المنتشرة في كل مكان، من دون أيّ جثث أو هياكل عظمية، وراودني إحساس أن أشكال المباني تتغير باستمرار.

قدت الدراجة عبر برك المياه الضحلة، وكذلك وسط الشوارع المغمورة كلياً حيث غاصت عجلاتها حتّى منتصفها تقريباً، ثمّ أمسكت السماء قليلاً، واستحال وابل المطر رذاذاً حتّى توقف، وما زلت أجهل مقدار المسافة الفاصلة بيني وبين منزل هانا الأصفر، فلا هاتف كي أتفقد الوقت، ولا شمس في السماء ترشدني، وبقي توجهي الزماني مضطرباً وسط ترقبي سماع صوت رنين جرس منتصف النهار.

قلت في نفسي: «لقد ضللت طريقي تماماً ولا أملك سبيلاً إلى تحديد موقعي، وسأعجز عن الوصول في الوقت المناسب حتماً، وأنا بحاجة إلى معجزة كي أخرج من هذا المكان قبل حلول الليل».

عبرت ساحةً صغيرةً توسطها تمثال امرأة مقطوعة الرأس، واستطعت من هناك رؤية الأبراج الثلاثة مجدداً، ولكن أصبح منظرها جانبياً، وهنا فكّرت في شيء سخيف – ولكن حقيقي – صرخ به مدرب كرة السلة وكرة القاعدة السيد هاركنس عند القفز قرب خطوط الملعب الجانبية خلال مراقبة أفراد الفريق، في حين احمرّ وجهه وتصبب العرق تحت إبطيه مبللاً

قميصه الأبيض الذي اعتاد ارتداءه في أيام المباريات: «طبّق خطة الباب الخلفي، الباب الخلفي! اللعنة!».

الباب الخلفي هي إحدى الاستراتيجيات المتبعة في مباريات كرة السلة، وفيها يوهم المهاجم خصمه أنه سيتلقى الكرة من الأمام، ثمّ يلتف من وراء ظهره.

لقد لعب السيد بوديتش بهذه الطريقة، وقادني بعلاماته إلى خلف ذلك المبنى المركزي العملاق لا إلى مقدمته حيث يؤدي طريق غالين بالتأكيد، فانعطفت إلى يسار الساحة متوقعاً رؤية حرفي اسمه في بداية أحد الطرق المتجهة بعيداً عن القصر. لقد أصبت في ذلك، ورأيتها مرسومةً على جانب مبنى زجاجي محطم ربما كان دفيئةً يوماً ما، عندها أصبح القصر إلى يميني، وأبعدتني العلامات عنه أكثر فأكثر، حتّى تبينت سقفاً حجرياً منحنياً خلف امتداد المباني الرئيسية.

قدت الدراجة بسرعة أكبر، وقادتني العلامة التالية إلى اليمين عبر ما كان يوماً جادةً واسعةً وفاخرةً جداً، ولكن وصلت إليها في وقت تصدعت أرصفتها، وتحولت بعض حجارتها إلى فتات، وقطعتها جزيرة وسطية عشبية إلى نصفين، وبرزت بين الأعشاب ورود بتلاتها صفراء وذات مركز أخضر، فتباطأت ما يكفي كي أتأمل المتدلية على الشارع من جذعها الطويل، وعندما حاولت لمس إحداها، أطبقت بتلاتها سريعاً وقريباً جداً من أصابعي، وخرج سائل أبيض لزج من بينها، وعندما أحسست بحرارتها، سحبت يدي سريعاً.

قطعت ربع ميل إضافياً تقريباً قبل أن تبرز ثلاث قمم في الأفق؛ واحدة على كل من جانبي الجادة، والثالثة في نهايتها مباشرةً، وكان لونها أصفر مثل تلك الورود الجائعة، فتابعت طريقي وصولاً إلى ساحة أخرى تربعت في منتصفها نافورة عظيمة خضراء ولكن جافة، وقد رصعت قعرها قطع

الجرانيت عشوائية الأشكال، وتذكرت عبارة كلاوديا المميزة: «اكتب ذلك أيها الأمير تشارلي»، فأخرجت الملاحظات من حقيبتي، وتأكدت من توافر العناصر المذكورة فيها: نافورة جافة، ومنزل أصفر كبير يمتد على جانبي الطريق، والاختفاء عن الأنظار؛ جميعها محققة، فأقحمت الورقة في جيب حقيبتي الجانبي بدلاً من جيب ملابسي كي لا يبللها المطر، وكان تصرفاً طبيعياً حينها، ولكن أدركت أهميته العظيمة في وقت لاحق، وكذلك الأمر مع هاتفي المحمول.

قدت الدراجة ببطء عبر الساحة، وأسرعت ناحية النافورة التي بلغ ارتفاع قاعدتها ثماني أقدام على الأقل، وعرضها في مقاس جذع شجرة، ما جعلها مخبأً مثالياً، فترجلت عن الدراجة وحدقت من جانب القاعدة إلى منزل هانا... أو منازلها القابعة على بعد خمسين قدماً من النافورة فقط، وقد ربط بينها بهو أصفر مر فوق الطريق المركزي، مثل المعابر المعلقة في مينيابوليس.

ورأيت هانا في الخارج.

الفصل الثامن عشر

هانا- طرق دولاب الهواء- سر البركة المرعب- الوصول

إلى الساعة الشمسية- لقاء غير مرحب به.

1

لا شك في أن هانا خرجت بعد توقف المطر كي تسترخي قليلاً في الطقس الصحو، وجلست تحت مظلة مخططة بالأحمر والأزرق على عرش ذهبي عملاق مسروق بالتأكيد، وقد صنع من الذهب الخالص حتماً، ورصعت خلفيته بجواهر حقيقية لا مزيفة، وتخيّلت المنظر المضحك لملك إمبيس، أو ملكتها، ومدى صغر حجمهما عند الجلوس عليه، في حين امتلكت هانا جسداً

ممتلئاً جداً إلى درجة أن ترهلات جسدها قد تدلت عن جانبي ذراعيه الذهبيين وقماشه الأرجواني.

كانت هانا قبيحةً بشكل مروع، وقد عجزت عن تحديد مدى ضخامتها تماماً من مخبئي خلف النافورة الجافة، أنا أبلغ من الطول ست أقدام ونيف، وقدرت أنها أطول بخمس أقدام إضافية على الأقل من دون أن تقف حتّى، وبالتالي سيتجاوز طولها عشرين قدماً عندما تنهض.

بعبارة أخرى: كانت عملاقةً حقيقيةً.

ارتدت هانا ثوباً يشبه خيمة السيرك، أرجواني اللون مثل قماش العرش، وقد وصلت حاشيته حتّى ربلتي ساقيها الثخينتين، وكان كل من أصابعها في حجم ذراعي، وقد اكتظت الخواتم فيها، ولمعت تحت ضوء النهار الخافت وكانت لتشرق تماماً لو وصلت أشعة الشمس إليها، كما تدلى شعرها البني الداكن في خصلات كثيفة إلى كتفيها والفراغ بين ثدييها.

تدرك من فستانها أنها أنثى، ولكن ليس من دونه، كما غطت مجموعة كبيرة من الكتل والدمامل وجهها، وتربع صدع أحمر في مركز جبهتها، وقد انخمصت إحدى عينيها وانتفخت الأخرى، والتصقت شفتها العليا إلى أنفها المشقوق كاشفةً عن أسنان أقرب إلى الأنياب، والأسوأ من ذلك كله أن عظاماً - بشريةً بالتأكيد - تراكمت حول عرشها.

عانت رادار من نوبة سعال جديدة، فالتفتت إليها، وقربت وجهي منها وحدّقت إلى عينيها وهمست: «اهدأي يا صغيرتي أرجوك»، فسعلت مرةً واحدةً والتزمت الصمت، ولكنها ارتعشت من البرد. وعندما أدرت وجهي، عادت نوبة السعال مجدداً، وكانت هانا لتكتشف أمرنا لولا اختارت تلك اللحظة تحديداً كي تغني:

«أحبني يا عزيزي جو،

أحبني دوماً يا عزيزي جو،

مارس الحب معي طوال الليل،

أحبني برونغ دي دونغ،

برونغ دي دونغ، برونغ دي دونغ،

أحبني برونغ دي دونغ!».

خطرت لي فكرة أشك في أنها وردت في مؤلفات الأخوين غريم.

واصلت هانا ترديد ما بدا أنها أغنية تشبه تلك المسماة «ون هاندرد بوتلز أوف بير» والمؤلفة من أبيات لا تنتهي، وقد ناسبني ذلك كثيراً نظراً إلى سعال رادار، فمسحت على صدرها وبطنها محاولاً مساعدتها في حين وصلت هانا إلى سطر يقول: «يا عزيزي جوي، يا بطلي الشجاع»، (توقعت أن تتبعه عبارة: «مارس الحب معي بإبداع»)، في تلك الأثناء، رنّ جرس الظهيرة مرتين، ودوى صوت يصم الآذان، وذلك بسبب اقترابي كثيراً من القصر.

خمد الصوت شيئاً فشيئاً، وانتظرتُ أن تنهض هانا وتذهب إلى مطبخها، ولكنها بقيت في مكانها. ضغطت إحدى دمامل ذقنها العريضة بين إصبعيها، فخرج منها القيح الأصفر بغزارة، مسحته براحة يدها، وفحصته، ثمّ رمته إلى الشارع، واستقرت على عرشها، وهنا انتظرت أن تسعل رادار مجدداً، ولكنها لم تفعل ذلك، إلا أنها مسألة وقت فحسب.

قلت في نفسي: «تابعي الغناء أيتها الوضيعة القبيحة. هيّا تابعي قبل أن تسعل كلبتي مجدداً وينتهي أمرنا وسط أكوام العظام التي منعك كسلك عن جمعها أيتها...».

لكنها نهضت بدل الغناء، وبدا الأمر مثل مشاهدة جبل يتحرك، وقد استخدمتُ معادلةً بسيطةً تعلمتها من دروس الرياضيات من أجل حساب ارتفاعها واقفةً، ولكنني أخطأت في تقدير طول ساقيها، وقد بلغ ارتفاع المعبر بين نصفي منزلها عن الأرض عشرين قدماً تقريباً، فانحنت هانا كي تمر تحته.

عندما نهضت، أخرجت جزء ثوبها العالق في شق مؤخرتها، وأطلقت ريحاً مدويةً استمرت فترةً لا بأس بها، وذكرتني بمقطع المترددة (الترومبون) في معزوفة والدي المفضلة ميد نايت إن موسكو، فوضعت يدي على فمي كي أكتم ضحكةً قويةً، واتجهت إلى رادار مباشرةً، ودفنت رأسي في الجانب الرطب من فرائها، وشهقت قليلاً من الضحك، وأغمضت عيني في انتظار أن تسعل رادار، أو تقبض إحدى يدي هانا على عنقي وتقتلع رأسي من مكانه مباشرةً.

لكن أيّاً من ذلك لم يحدث، فاسترقت النظر من وراء النافورة كي أجد هانا تشق طريقها ناحية نصف منزلها الأيمن - أذهلتني ضخامة حجمها مجدداً، فقد استطاعت النظر عبر نوافذ الطوابق العلوية دون عناء - ثمّ فتحت بابه الكبير وانحنت كي تدخل، وفاحت راحة لحم بقر مشوي، ولكن انتابني حدس سيئ بأنه لحم كائن مختلف تماماً.

صرخت بصوت مرتفع جداً: «أنا جائعة أيها الطاهي المخصي! أين طعامي؟».

أخبرتني كلاوديا أن تلك اللحظة هي الأنسب من أجل التحرك.

صعدت الدراجة ثلاثية العجلات، وقدتها ناحية الممر، وانحنيت فوق المقود مثل راكب دراجة يقطع المسافة الأخيرة قبل خط النهاية في سباق تور دو فرانس. وقبل أن أصل إلى الممر، استرقت النظر يساراً ناحية العرش، ورأيت العظام الصغيرة المتناثرة حوله، وقد كانت عظام أطفال

على الأرجح، وحمل بعضها غضاريف، وبعضها الآخر شعوراً، وأدركت حينها مدى سوء تلك النظرة، وأتمنى حتّى اليوم لو أنني أستطيع محوها من ذاكرتي، ولكن نعجز أحياناً - أو غالباً - أن نمنع أنفسنا عن فعل شيء ما، أليس كذلك؟

2

امتد الممر على مسافة ثماني أقدام باردة ورطبة، واصطفت على جانبيه حجارة غطتها الطحالب، وسطع ضوء قوي في نهايته، وتوهمت أنني سأصل إلى ساحة تتربع الشمس في سمائها.

ولكن تبخر جهدي وحماسي فور الخروج من الممر منحنياً فوق المقود، لأنني رأيت كيف افترست الغيوم تلك الرقعة الزرقاء الصغيرة اليتيمة وحل محلها اللون الرمادي وحيد الدرجة. وقد صدمني شيء آخر، فأنزلت قدمي عن الدواستين لا إرادياً فتابعت الدراجة الثلاثية الحركة من تلقاء نفسها حتّى توقفت تماماً؛ وجدت نفسي على مشارف ساحة عظيمة مفتوحة، وقد تفرعت عنها ثمانية طرق في ثمانية اتجاهات مختلفة، ولاحظت أن بلاط كل منها ملون بأحد الألوان الآتية: الأخضر، والأزرق، والأرجواني، والنيلي، والأحمر، والوردي، والأصفر، والبرتقالي، ولكن غدت جميعها باهتةً في ذلك الوقت، وتوقعت أنها ستستحيل رماديةً مثل كل شيء في ليليمار، وبقية مدن إمبيس. وعلى أيّ حال، فقد بدا مشهد تلك الطرق المنحنية مثل دولاب هواء ضخم، وملوّن أيضاً في السابق، واصطف على جانبي كل منها أعمدة حملت أعلاماً مثلثة الشكل، والتي ربما رفرفت قبل بضع سنوات - لا أدري عددها تحديداً - مع نسيم الهواء المنعش المجرد من رائحة العفن الكريهة، في حين رقدت أمامي حينها ساكنةً وتقطرت منها مياه المطر.

تربع وسط ساحة دولاب الهواء العملاقة تمثال فراشة آخر، وقد تحطم وجهها وجناحاها، وتناثرت أشلاؤهما حول قاعدتها، وانطلق خلفها طريق

متسع أكثر يقود إلى خلفية القصر بأبراجه الثلاثة الخضراء الداكنة، وتخيّلت كيف اجتمعت تلك الطرق الثمانية في مكان واحد موحدةً الإمبيسيين القادمين من أماكن مختلفةً يضحكون ويتدافعون مرحاً، ويتوقعون الاستمتاع بوقتهم كثيراً، ويحمل بعضهم غداءه في سلة أو وعاء، ويتوقف بعضهم الآخر كي يشتري الطعام من البائعين الجوالين، إضافةً إلى التذكارات والأعلام من أجل الأطفال؛ لقد رأيت ما سبق وكأنني بينهم، إذ خضت هذه التجربة الغامرة بنفسي عندما قصدت الملاعب من أجل مشاهدة وايت سوكس، إضافةً إلى شيكاغو بيرز في ذلك الأحد التاريخي الوحيد.

برز فوق ذاك القسم الخلفي من القصر مترامي الأطراف جدار أحمر منحنٍ، وانتصبت إلى جواره أعمدة حملت كل منها جهازاً يشبه طبقاً طويلاً، وتوقعت أن الألعاب أقيمت هناك وشاهدها يوماً حشود عظيمة هتفت بأعلى صوتها، ولكن ليس خلال الوقت الذي قضيته في ليليمار، حيث كانت الطرق المنحنية والمدخل الرئيسي مقفرين تماماً مثل حال المدينة المسكونة.

بنيت خلال دروس التاريخ في الصف الخامس قلعةً من مكعبات اللعب برفقة أصدقائي، وكان النشاط أقرب إلى تسلية منه إلى التعليم، ولكن ظهرت فائدته الأخيرة عندما تأملت القصر وتعرفت إلى معظم أجزائه المعمارية: أكتاف التدعيم، وأبراج الرماة، والأسوار ذات الفتحات، والحواجز، وما بدت أنها بوابة خلفية، ولكن وجب أن يحوي ذلك القصر شيئاً معيباً مثل أي شيء في ليليمار، مثل السلالم المنتشرة في كل مكان (دون فائدة حسب ما أعتقد) والملتفة حول بوارز تشبه فطر الغاريقون ذات نوافذ صغيرة عديمة الزجاج، ولعلها كانت مراكز حراسة، أو أي شيء آخر، وقد تقاطعت بعض السلالم بطريقة ذكرتني برسومات إيشر التي تخدعك بصرياً باستمرار، إذ بدت مقلوبةً رأساً على عقب للوهلة الأولى، وعندما أغمضت عيني وفتحتهما، وجدتها صحيحةً.

وأسوأ من ذلك، بدا القصر غير المتناظر متحركاً، مثل قلعة هاول، ولكن عجزت عن رؤية ذلك بشكل مباشر نظراً إلى صعوبة جمع أجزائه كلها في حقلي البصري... أو حتّى تخيّله، وتنوعت ألوان السلالم مثل طرق دولاب الهواء، ما أضفى بهجةً على المكان، ولكن طغى عليها إحساس مجهول يخبرك إنه ليس قصراً أبداً بل مخلوقاً يفكر بغرابة، وأعلم أنني وقعت تحت سيطرة مخيلتي (لم أدرك ذلك حينها)، ولكن أسعدني كيف أوصلتني علامات السيد بوديتش ناحية الملعب حيث عجزت نوافذ الكنيسة عن مراقبتي، ولم أكن متأكداً من قدرتي على احتمالها نظراتها المريضة في ذلك الوقت.

عبرت المدخل ببطء، واصطدمت عجلات الدراجة ببعض الحجارة البارزة من الطريق، وقد انعدمت النوافذ من ناحية القصر الخلفية، واحتلته مجموعة من الأبواب الحمراء الكبيرة - ثمانية أو تسعة - إضافةً إلى مجموعة من العربات القديمة، وقد انقلب عدد منها رأساً على عقب، واستحال بعضها الآخر أشلاءً، ولا شيء أسهل من تصور هانا تحطمها كهواية بدافع الغضب مثلاً، أو الرياضة، وتوقعت أن الأسرة المالكة لم يسبق أن رأت منطقة التخزين تلك، بل ارتادها عامة الناس.

لاحظت حرفي اسم السيد بوديتش على إحدى الصخور قريباً من منطقة التحميل والتفريغ، وقد كرهت الاقتراب من القصر إلى ذلك الحد، حتّى في المنطقة عديمة النوافذ، لأنني رأيته يتحرك وينبض بالحياة، وقد أشار الخط المستعرض في حرف (أي) الأخير إلى اليسار، فخرجت عن الطريق الرئيسي ملتزماً التعليمات، وسعلت رادار بقوة مرةً أخرى، وتذكرت كيف لمست فراءها قبل قليل ووجدته رطباً وبارداً ومتلبداً، وتساءلت في نفسي: هل تصيب ذات الرئة الكلاب؟ وقد وجدته سؤالاً غبياً، لأنها قد تصيب أي كائن له رئتين.

قادتني حروف إضافية ناحية سلسلة من ست أو ثماني أكتاف تدعيم أمكنني المرور تحتها، ولكنني تجنبت ذلك. كانت خضراء داكنةً مثل نوافذ

الأبراج، ولعلها صنعت من أحد أنواع الزجاج فقط، وتساءلت عن مصدر قدرته الكبيرة على حمل وزن تلك الدعامة الخلفية، وقد احتوى مجدداً تلك الخيوط السوداء التي تلوت ببطء داخله حول بعضها، وجعلتني أُفكّر في بعض أفلام الرعب مثل آلين، وبيرانها، وتمنيت أن أمحوها من ذاكرتي تماماً، وبدت الأكتاف مثل صف من الأضواء الخضراء الغريبة وداخلها نار سوداء.

بدأت أفكّر في أنني وسط جولة تعريفية عن القصر، وهذا يعني الدخول في نطاق رؤية أبراج القصر الثلاثية، ثمّ وصلت إلى فجوة بين جناحين متباعدين عديمي النوافذ رسما رقم (V)، حيث انتصبت مقاعد حول بركة صغيرة ظللتها أشجار النخيل، والتي غطت أوراقها ما أخفته تلك الفجوة، حيث انبثق أعلاها بمئة قدم تقريباً عمود على قمته رمز شمس له وجه وعينين تحركتا يميناً ويساراً مثل ساعة كيت كات، وقد رسم السيد بوديتش إلى يمين البركة حرفي اسمه، ولكن دون سهم في الخط المستعرض من حرف (أي)، بل انطلق من قمته، وكأنه يقول: «تابع طريقك إلى الأمام مباشرةً ولا تهدر الوقت».

«تماسكي يا رادار، أوشكنا على الوصول».

قدت الدراجة في اتجاه السهم ناحية يمين البركة الجميلة الصغيرة، وبالتالي لا حاجة كي ألقي نظرةً إلى البركة المخفية وراء أشجار النخيل، وخاصةً بعد الاقتراب كثيراً من هدفي، ولكنني فعلت ذلك، وبئس ما رأيته هناك، ولكن أسعدني حدوث ذلك لأنه قلب الموازين في وقت لاحق بعد فترة طويلة. ننظر أحياناً لأننا نحتاج أن نتذكر شيئاً ما، ونستمد القوة من أكثر الأمور رعباً، ولكن جل ما استطعت التفكير فيه خلال تلك اللحظة: «يا له من منظر مروع، إنها إريل».

وسط البركة الطينية القاتمة بسبب العفن، والتي ربما كانت زرقاء صافيةً يوماً ما، برزت بقايا حورية بحر، ولكن ليست إريل أميرة ديزني وابنة

الملك تريتون والملكة أثينا، لأنها لم تمتلك ذيلاً أخضر لماعاً، أو عينين زرقاوين، أو شعراً متموجاً أحمر، ولا حتّى صدريةً أرجوانيةً صغيرةً لطيفةً، وتصورت أن شعرها كان أشقر سابقاً، ولكنه تساقط وطفا على سطح البركة، ولعل لون ذيلها كان أخضر أيضاً، ولكن استحال رمادياً جامداً مثل جلدها، وقد اختفت شفتاها وكشفتا عن حلقة أسنان صغيرة، وتركت عيناها حفرتين فارغتين مكانهما.

لكنني واثق أن الماضي شهد جمالها، وحيويتها، وسعادتها وسحرها البريء عندما سبحت في موطنها وسط تلك البركة، حيث وقف الناس وتأملوها، وأسعدوها كما أسعدتهم، ولكنها رقدت ميتةً مع رمح اخترق نقطة تحول ذيلها إلى جسد بشري، وبرزت منها تلافيف أمعائها الرمادية، وقد احتفظت بلمحة طفيفة من جمالها، ولكن طفت مثل أيّ سمكة ميتة في حوض مائي كما تلاشت ألوانها الزاهية، وجل ما بقي منها جثة رمادية هامدة حفظتها المياه الباردة، في حين بقيت كائنات قبيحة حقاً مثل هانا على قيد الحياة، تغني وتطلق الريح وتتناول طعامها المقرف.

قلت في نفسي: «لقد حلت اللعنة على هذه البلاد المشؤومة»، وليست تلك من أقوال تشارلي ريد، ولكنها فكرة صحيحة.

لقد كرهت هانا أكثر، ليس لأنها قتلت حورية البحر (توقعت أنها مزقتها)، بل لأنها ما زالت على قيد الحياة.

سعلت رادار مجدداً وبقوة حتّى استطعت سماعها من سلة الخيزران خلفي، فتجاهلت مشهد حورية البحر المؤسف، وتابعت طريقي حول البركة ناحية العمود الذي حمل رمز الشمس.

3

تربعت الساعة الشمسية في ملتقى الجناحين، وانتصبت قبلها لافتة حملت عبارةً مطموسةً ولكن مقروءةً قليلاً كُتب عليها: ممنوع الاقتراب،

وامتدت الساعة على شكل قرص بلغ قطره عشرين قدماً، وبالتالي ستين قدماً في المحيط (إن أصبت في حسابه)، ثمّ لمحت حرفي اسم السيد بوديتش، وأردت إلقاء نظرة أقرب إليهما، حيث أرشدتني العلامات السابقة إلى هنا، ولعلها تخبرني الاتجاه الصحيح لتدوير الساعة الشمسية، ولكن استحالت قيادة الدراجة الثلاثية عبرها نظراً إلى وجود أوتاد سوداء وبيضاء انتصبت على محيطها بارتفاع ثلاث أقدام تقريباً.

سعلت رادار كثيراً، ولهثت وارتعشت من البرد، وقد أغلقت المفرزات إحدى عينيها، وحدقت بالأخرى إليّ، وتلبد فراؤها والتصق على جسدها مظهراً مدى نحولها. لم أرد رؤية ذلك المشهد، حيث بدت رادار مثل هيكل عظمي، فترجلت عن الدراجة وحملتها، فارتعشت بشدة بين يدي.

«سينتهي العذاب قريباً يا صغيرتي».

تمنيت أن أكون محقاً، لأن تلك فرصة رادار الأخيرة... وقد نجح الأمر مع السيد بوديتش، أليس كذلك؟ ورغم رؤية العملاقة وحورية البحر، إلا أنني عجزت عن الإيمان في إمكانية تحقق تلك المعجزة.

تجاوزت الأوتاد، ومشيت عبر الساعة الشمسية المقسمة إلى أربعة عشر مثلثاً حجرياً، وقلت في نفسي: «أعتقد الآن أنني سأعرف مدى طول الأيام في إمبيس»، ونقش في مركز كل مثلث رسم بسيط بالٍ، ولكن أمكن التعرف إليه: القمران، والشمس، وسمكة، وعصفور، وخنزير، وفأس، وفراشة، ونحلة، وحزمة قمح، وبضع حبات من التوت، وقطرة ماء، وشجرة، ورجل عار، وامرأة حامل عارية؛ إنها رموز الحياة، وبينما مررت إلى جوار العمود المرتفع في المركز، استطعت سماع طقطقة العيون في وجه الساعة الشمسية.

تجاوزت الأوتاد القصيرة على الجانب البعيد حاملاً رادار، وقد تدلى لسانها عن جانب فمها خلال سعالها الذي لم يتوقف، وأدركت أن منيّتها

اقتربت بالتأكيد.

وقفت أمام الساعة الشمسية وحرفي اسم السيد بوديتش، وأنعمت النظر كي أجد الخط المستعرض في حرف (أي) على شكل سهم صغير يشير إلى اليمين، وهذا يعني وجوب تدوير الساعة عكس اتجاه عقارب الساعة إن استطعت ذلك، وبدا الأمر منطقياً، وإلا فقد قطعت مسافةً طويلةً من أجل قتل كلبتي وزيادة عمرها أكثر.

لقد سمعت الهمسات، ولكنني تجاهلتها، وركزت اهتمامي على رادار فقط، ولا شيء غيرها، وأدركت ضرورة فعل ذلك، فانحنيت ووضعتها برفق في القسم ذو نقش رزمة القمح، وحاولت رفع رأسها قليلاً ولكنها لم تستطع، فأمالته على الأرضية الحجرية بين قائمتيها وحدقت إليّ بعينها السليمة، وقد خارت قواها حتّى عن السعال، واكتفت باللهاث.

صليت كي ينجح الأمر.

ركعت وأمسكت واحدةً من الأوتاد في محيط الساعة الشمسية، وسحبته بإحدى يديّ ثمّ بكلتيهما ولكنه لم يتحرك، وسمعت شهقات الموت تخرج من رادار، وقد خفق جانباها مثل المنفاخ، فسحبت بقوة أكبر من دون فائدة، وهنا تذكرت تمرينات كرة القدم، وكيف كنت اللاعب الوحيد القادر على تحريك دمى التدريب، وطرحها أرضاً، فقلت في نفسي: «اسحب بقوة أيها الأحمق. وأنقذ حياتها».

بذلت كل ما في وسعي موظفاً ساقيّ وظهري وذراعيّ وكتفيّ، وأحسست بالدماء تشق طريقها عبر عنقي إلى ذراعي، ورغم التعليمات الصارمة لالتزام الصمت في ليليمار، إلا أنني عجزت عن كتم صرختي خلال شدها، وتساءلت كيف استطاع السيد بوديتش فعل ذلك.

في الوقت الذي بدأ فيه الإحباط يتسلل إليّ، أحسست بأولى حركات الساعة إلى اليمين، ما بعث قوةً جديدةً في نفسي كي أسحب الوتد، فبرزت

إثر ذلك عضلات ذراعيّ وظهري وعنقي جميعها، وأخذت الساعة الشمسية تتحرك، وأصبحت كلبتي إلى يميني، ثمّ وقفت خلف الوتد ودفعته إلى الأمام، وفكرت في كلاوديا عندما قالت: «ابذل قصارى جهدك»، وهذا ما فعلته تماماً، وأوشكت أن أنجح.

دارت العجلة بسهولة أكبر شيئاً فشيئاً بعد تشغيل الساعة، وتحرك العمود الأول حتّى أصبح خلفي، فأمسكت التالي، وألقيت ثقلي كاملاً من أجل تحريكه وسحبته بأقصى طاقتي، وتوالت الأخرى وراء بعضها مثل الأرجوحة الدوارة في متنزه كافاناو، وتذكرت كيف اعتدت تدويرها برفقة بيرتي بيرد حتّى يصيح الأطفال فرحاً وخوفاً وسط صراخ أمهاتهم وكيف علينا أن نتوقف قبل أن يسقط أحدهم أرضاً.

قطعت رادار ثلث دورة، ثمّ نصفها... ولاحظت أن الساعة تحركت بسهولة أكبر حينها، ولعل عائقاً بين مسنناتها قد تحطم، ولكن واصلت شد تلك الأوتاد ودفعها مستخدماً كلتا يديّ وكأنني أتسلق حبلاً، واعتقدت أنني أرى تغيراً في شكل رادار، وقد اعتبرت ذلك مجرد وهم أتمنى حدوثه حتّى وصلت رادار إليّ نافيةً شكوكي في ذلك؛ إذ رفعت رأسها وحدقت إليّ بعينين مفتوحتين، كما اختفى ذلك اللهاث المخيف وبقي السعال فقط.

توقفت عن دفع الأوتاد مع زيادة سرعة الساعة، وراقبت كيف حاولت رادار رفع قائمتيها الأماميتين خلال الدورة الثانية، وقد انتصبت أذناها بدل التدلي برخاوة على جانبي رأسها، فجلست القرفصاء وتنفست بصعوبة، والتصقت سترتي المبتلة بصدري وجانبيّ، وبينما حاولت حساب عدد الدورات الكافية، أدركت أنني أجهل عمر رادار، فتساءلت إن كان أربعة عشر أم خمسة عشر عاماً، وفي حال تكافئ كل دورة عاماً من الزمن، فتكفيها أربع دورات، ومع اثنتين إضافيتين، ستغدو في ريعان شبابها مجدداً.

لاحظت بعد الدورة الثانية أنها جالسة تماماً، ورأيت بعد الثالثة شيئاً عجزت عن تصديقه للوهلة الأولى: لقد اكتسبت رادار بعض الوزن واستعادت حيويتها، وأوشكت أن تعود الكلبة التي أرعبت آندي تشين.

رغم التوقف عن دفع الأوتاد القصيرة، إلا أن سرعة دوران الساعة ازدادت شيئاً فشيئاً، ما أثار القلق في نفسي، ورسمه على وجه رادار بعد الجولة الرابعة، في حين أخافها بعد الخامسة، كما أحدثت تياراً هوائياً أبعد خصلات شعري المتعرقة عن جبهتي، فأدركت ضرورة إخراج كلبتي من الساعة، لأن بقاءها يعني تحولها إلى جرو أمام ناظري، ثمّ تلاشيها تماماً، وسمعت صوت حركة عيني الشمس المتسارعة أكثر فأكثر، وتوقعت أنني لو نظرت إليهما، سأجدهما ضبابيتان تماماً من سرعتهما.

تدور أحياناً أفكار مذهلة في رأس المرء خلال الأوقات الحرجة، ومنها فيلم بوني إكسبرس شاهدته برفقة والدي على قناة (تي سي أم) خلال فترة إدمانه على الكحول، وأذكر منه كيف امتطى تشارلتون هيستون حصانه مسرعاً ناحية عمود حمل حقيبة رسائل، وخطفها من دون أن يبطء حصانه أبداً، وقد قررت اعتماد تلك الخطة في سحب رادار، ولكن دون الصراخ في تلك المرة، لذلك جلست القرفصاء، وفتحت ذراعيّ، فأدركت كلبتي مباشرةً أنني أطلب منها القفز إليّ.

نهضت رادار على قوائمها الأربع، وقد تموج فراؤها تحت ما يشبه يداً خفيةً تمسح عليه، وفي حال فشلت تلك الخطة (رغم أن تشارلتون هيستون خطف حقيبة الرسائل دوماً، ولكنه مجرد فيلم)، قررت أن أصعد الساعة، وأحمل رادار، ثمّ أترجل عنها مجدداً، وقد يكلفني ذلك إحدى سنواتي السبعة عشر، ولكن الظروف اليائسة تتطلب إجراءات تناسبها.

لقد عجزت رادار عن المشي عندما وضعتها في الساعة الشمسية، ولكنها أصبحت كلبةً مختلفةً تماماً بعد خمس دورات ونصف تقريباً، إذ قفزت

وحطت على قوائمها، واندفعت إلى ذراعيّ الممدودتين، فشعرت وكأن كيس حجارة ارتطم بي فسقطت إلى الخلف، وثبتت رادار قائمتيها الأماميتين على كتفي ولعقت وجهي وحركت ذيلها بجنون.

همست: «توقفي!»، ولكن قالت ابتسامتي غير ذلك.

جلست في النهاية وتفحصتها؛ لقد زاد وزنها حوالى عشرة كيلوغرامات، واختفى سعالها ولهاثها، وتلاشت المفرزات الجافة من دون أن تترك أثراً، كما استعادت فراء ظهرها الأسود، وعاد ذيلها كثيف الفراء بعد أن كان مثل قطعة ملابس ممزقة، ولوحت به إلى الأمام والخلف، ولكن ما أثبت فعالية الساعة الشمسية حقاً هما عيناها، فقد أشرقتا بعد فترة طويلة من الضبابية والضياع.

همست، وقد أوشكت على البكاء: «يا إلهي! انظري إلى نفسك!».

4

عانقتها، ثمّ نهضت من دون التفكير في البحث عن القطع الذهبية، فقد واجهت ما يكفي من المخاطر في هذا اليوم.

أدركت من نظرة واحدة استحالة أن تتسع سلة الدراجة الثلاثية من أجل رادار الجديدة، وقد تركت لجامها في منزل كلاوديا ضمن عربة دورا، ولكن أخبرني شيء ما في نفسي أنني لن أحتاج إليه مجدداً.

انحنيت وأمسكت رأسها بكلتا يدي، وحدقت إلى عينيها البنيتين الداكنتين، وقلت: «اهدئي يا ريدس».

ركبت الدراجة ثلاثية العجلات، وعدت أدراجي، وهرولت رادار إلى جواري، وكنت حريصاً على تجنب النظر ناحية البركة. وعندما وصلنا إلى الممر الصخري، هطل المطر مجدداً، فتابعت طريقي حتّى منتصفه، ثمّ توقفت وترجلت عن الدراجة، وأخبرت رادار أن تلزم مكانها. تحركت ببطء

وظهري يلاصق جدار الممر المغطى بالطحالب، وقد راقبتني رادار من دون أن تتحرك - يا لها من كلبة مطيعة، وتوقفت عند رؤية ذراع العرش الذهبي البشع مفرط الزينة، وتقدمت خطوةً واحدةً، ورفعت رأسي كي أتفقده؛ كان فارغاً وسط تساقط قطرات المطر على المظلة المخططة.

أين كانت هانا؟ وفي أي جزء من المنزل؟ وماذا تفعل؟

لعلها تتناول غداءها المؤلف من أشياء فاحت منها رائحة اللحم، وربما قصدت جناح المعيشة كي تأخذ قيلولةً؛ عجزت عن التأكد من أي شيء، وخطر لي أن غيابنا استغرق فترةً قصيرةً كي تنتهي من طعامها، ولم تخطر لي أي فكرة أخرى، فقد مررت بأحداث قاسية حقاً؛ حورية البحر أولاً، ثمّ الساعة الشمسية.

استطعت من مكاني رؤية النافورة الجافة أمامي مباشرةً على بعد خمسين ياردةً، وكانت لتمنحنا تغطيةً ممتازةً إن استطعنا الوصول إليها من دون أن يرانا أحد. وعندما فكرت في احتمال كشف أمرنا خلال ذهابنا إليها، بدت بعيدةً جداً، فحاولت الإنصات محاولاً سماع خوار هانا المرتفع والأعلى من صوت كلاوديا، ولكن من دون فائدة. كانت بضعة أسطر من أغنيتها تكفي من أجل تحديد موقعها، ولكن إليك شيئاً تعلمته عن عمالقة مدينة ليليمار المسكونة: لن تغني العمالقة أبداً عندما تريدها أن تفعل ذلك.

في النهاية، قررت الذهاب ناحية النافورة، فعدت أدراجي إلى رادار. عندما هممت بركوب الدراجة، صدر صوت ضربة قوية من نهاية الممر اليسرى، فأجفلت رادار، والتفتت إلى ذلك الاتجاه، وزمجرت بصوت ضعيف، فأمسكتها قبل أن تطلق العنان لنباحها، وقلتُ: «اهدأي يا رادار، الزمي الصمت».

سمعت هانا تتمتم شيئاً مبهماً، ثمّ صدر صوت ريح متقطعة، ولكن لم تضحكني حينها، لأن هانا شقت طريقها ناحية مدخل الممر، وقد أمكنني

ورادار الاختفاء وسط الظلام، ولكن الدراجة ثلاثية العجلات كانت كبيرة جداً كي تغفلها رغم عينيها الحسيرتين.

سحبت مسدس السيد بوديتش ووضعته إلى جانبي كي أطلق النار إن اتجهت صوبنا، وأدركت تماماً أين سأصوب؛ إلى الصدع الأحمر وسط جبهتها، ولكن لم يسبق أن تمرنت على استخدام ذلك السلاح (أو أي سلاح آخر)، ولكن امتلكت نظراً ثاقباً، ربما قد أخطئ في واحدة وليس في الرصاصات الخمس جميعها.

تابعت هانا طريقها من دون أن تنظر إليّ أو إلى النافورة، وتمتمت كما فعل والدي قبل إلقاء كلمة خلال العشاء السنوي في أوفرلاند، عندما نال جائزة الموظف الإقليمي لذلك العام، ولاحظت شيئاً في يدها اليسرى، ولكن خصرها حجب الرؤية قبل أن ترفعه إلى فمها، واختفى عن ناظري قبل أن تقضمه، وقد أسعدني ذلك، وتيقنت في نفسي أنها تناولت قدماً ذات قضمة هلالية ناحية الكاحل.

لقد أقلقني احتمال جلوسها على العرش كي تنتهي من تحلية ما بعد الغداء، ولكن بدا أن الأمطار جعلت الفكرة مستبعدةً رغم وجود المظلة، أو أن هانا أرادت الحصول على قيلولة. وفي كلتا الحالتين، سمعت صوت باب آخر، ولكن إلى يميني في تلك المرة، ثمّ خيّم الصمت على المكان، فأعدت المسدس إلى قرابه، وجلست قرب كلبتي، واستطعت ملاحظة صحتها الجيدة رغم الظلام، وهذا بعث البهجة في نفسي، ولعل البهجة كلمة عادية بالنسبة إليكم، ولكنني أجدها وصفاً عظيماً جداً، وقد عجزت أن أرفع يدي عن فرو رادار والتعجب من مقدار كثافته.

5

لقد تعبت من الانتظار، وأردت مغادرة ليليمار أسرع ما يمكن برفقة كلبتي بعد استعادة شبابها، وأخذها إلى المستودع، ومراقبتها تتناول قدر ما

تشاء من الطعام، وتوقعت أنها سترغب في الكثير، وسأعطيها دلواً من أوريجين إن أرادت، وبعض قطع بيركي جيركي أيضاً، ثمّ سنشاهد الفراشات الكبيرة خلال عودتها إلى مكان مبيتها.

هذا ما تمنيته، ولكن أجبرت نفسي على انتظار استقرار هانا، وقد عددت عشرةً عشرةً حتّى خمسمئة، ثمّ خمسةً خمسةً، ثمّ اثنين اثنين، من دون أن أدرك متى ستأتي اللحظة التي ستستغرق فيها تلك الوضيعة في نومها تماماً، ولكن عجزت عن الانتظار، لأن الإفلات من منطقتها ضروري جداً، ناهيك عن مغادرة المدينة قبل حلول الظلام، ليس بسبب وجود جنود الليل، بل لأن علامات السيد بوديتش ستختفي تقريباً دون ضوء، ما يضعني في ورطة كبيرة لو فشلت في تتبعها.

قلت: «هيّا بنا يا رادار، ولكن الزمي الصمت أرجوك».

أمسكت مقود الدراجة ثلاثية العجلات، وأردت جرها خلفي تحسباً من أجل دفعها ناحية هانا إن ظهرت فجأةً وهاجمتنا، وبالتالي قد تنشغل في تحطيمها وتمنحني بعض الوقت كي أسحب مسدسي وأطلق النار، كما لدي رادار أيضاً بعد استعادتها لقدرتها الهجومية، وبالتالي يمكنها إلهاء هانا قليلاً، وربما تصيبها ببعض الجروح، وكان ذلك سيسعدني، ولكن تراءى أمامي مشهد آخر تضرب هانا فيه رادار بيدها العملاقة فتقتلع رأسها من مكانه، ولن يكون ذلك المشهد مفرحاً أبداً.

توقفت في بداية الممر، ثمّ بدأت طريقي ناحية النافورة، وهرولت رادار إلى جانبي، وتذكرت في أثناء ذلك بعض المباريات (وخاصةً ضد خصمنا اللدود، فريق سينت جون) التي بدت مستمرةً إلى الأبد، ولكن ليس مثل الخمسين ياردةً تلك بيني وبين النافورة، فقد كانت الأطول في حياتي، كما توقعت سماع النسخة الإمبيسية من أغنية في في فو فام، والإحساس باهتزاز الأرض تحتنا عندما تركض هانا ناحيتنا.

سمعت صوتاً ربما صدر عن عصفور، أو بقرة، أو صقر، ولا شيء سواه، ثمّ وصلنا إلى النافورة، واستندت إليها كي أمسح مزيج العرق والمياه عن وجهي تحت أنظار رادار، دون أن ترتعش الأخيرة أو تسعل، بل كشرت عن أنيابها وسط مغامرتها الأولى خلال حياتها الجديدة.

ألقيت نظرةً أخرى على هانا، ثمّ صعدت الدراجة، واتجهت ناحية الجادة ذات الجزيرة الوسطية العشبية والمتاجر التي اعتاد أفراد الطبقات الاجتماعية الراقية ارتيادها وتناول الطعام فيها، وتجاذب أطراف الحديث عن آخر مستجدات البلاط الملكي خلال احتسائهم بعض الشاي، وربما احتضنت الحدائق الخلفية في منازلها حفلات الشواء الإمبيسية والحفلات الراقصة، ولكنها استحالت الآن مأوىً للأعشاب الضارة، والنباتات الشائكة، والورود الخطيرة.

قدت الدراجة بسرعة لا بأس بها، ولكن رادار استطاعت اللحاق بي بسهولة ولسانها متدلٍ خارج فمها، وقد انهمر المطر بغزارة أكبر ولم أنتبه إلى ذلك لأن جل ما أردته أن أعود أدراجي وأخرج من المدينة، وعندها يمكنني القلق حيال تجفيف نفسي، ولو أصابني المرض ستعد كلاوديا حساء الدجاج من أجلي حتّى تصيبني التخمة قبل متابعة طريقي إلى وودي... ثمّ دورا... ومن هناك إلى المنزل، حيث سيوبخني والدي بعنف، ولكن عندما يرى رادار سـ...

ماذا سيفعل؟

قررت التفكير في أولوياتي حينها، وهي مغادرة تلك المدينة المسكونة، والتي اتضح أنها ليست مهجورةً أبداً، وسيخترق شيء ما هدوءها بعد فترة من الزمن.

توقعت أن يكون الأمر سهلاً؛ أي تتبع علامات السيد بوديتش ولكن عكس جهة السهم في كل منها حتّى بلوغ البوابة الرئيسية، وعندما وصلت إلى مدخل الجادة، بحثت عن الحرفين هناك، وكنت متأكداً من وجودهما على إحدى حجارة الرصيف أمام المبنى مترامي الأطراف بقبته الصفراء المتسخة، ولكنني لم أعثر على شيء. تساءلت في نفسي إن كانت الأمطار قد أزالتهما، ولكن بدا احتمالاً مستبعداً فقد تحملا الأمطار طيلة سنوات ناهيك عن وضوحهما نوعاً ما عندما رأيتهما مسبقاً.

بحثت في أنحاء الجادة عن حرفي أي بي، وسلكت ثلاثة طرق فرعية من دون فائدة، ولذلك أدرت المقود وعدت ناحية المبنى شبيه المصرف.

التفتت ناحية الطريق المعوج حيث سقط أصيص خزفي يحوي شجيرةً يابسةً، وأشرت إلى هناك قائلاً: «أعلم أنها في ذلك المكان، ولكن لعل المطر قد أزالها في نهاية المطاف، هيّا نتابع طريقنا يا رادار».

قدت الدراجة ببطء وبحثت بدقة عن علامة السيد بوديتش التالية وسط هالة من القلق والارتباك، لأن مجموع تلك الثنائيات يشبه سلسلة الأحداث المتتالية التي قادت إلى وفاة والدتي على ذلك الجسر وصولاً إلى مستودع السيد بوديتش، وفي حال خسرت إحدى حلقاتها، فيحتمل جداً أن أضل طريقي، وكما قالت كلاوديا: «ستبقى تائهاً وسط ذلك المكان المسكون ليلاً».

وصلنا عبر ذلك الشارع الضيق إلى صف من المتاجر القديمة المجهولة، وكنت متأكداً أننا مررنا مسبقاً بها، ولكنني لم أرَ أيّ علامة، وقد توقعت أنني رأيت ما كان صيدليةً ربما قبل انهياره، إضافةً إلى مبنىً حدقت نوافذه إلّي من دون أن أستطيع تبين ماهيته تماماً، وحاولت رصد القصر في الأرجاء على أمل أن أتخذ منه بوصلةً لطريقنا، ولكن عجزت عن ذلك في ظل غزارة الأمطار.

أشرت إلى الزاوية وقلت: «هل تشمين أيّ رائحة هناك يا رادار؟».

ذهبت رادار في اتجاه يدي، وشمت الرصيف الحجري، ثمّ التفتت إليّ منتظرة مزيداً من التعليمات، ولكن لم يكن في جعبتي أي منها، وبالتأكيد ليس ذنب رادار، لأنها جلست في سلة الدراجة ثلاثية العجلات طوال الطريق، وحتى إن قطعنا طريقنا سيراً على الأقدام، كان المطر سيغسل أيّ رائحة عن الأرض.

تابعت في ذلك الطريق لأنني تذكرت أنه سبق لي أن رأيت الصيدلية، كما وجب علينا السير في اتجاه ما، وكانت الخطة المثالية في رصد القصر ومحاولة عبور طريق غالين حتّى البوابة، صحيح أن استعمال المدخل الرئيسي خطير، ولذلك اتخذ السيد بوديتش عند كتابة علاماته منحىً يتجاوزه قدر الإمكان، إلا أنه سيقودنا إلى الخارج مباشرةً.

بدا وكأن الشوارع تعمدت إبعادنا عن القصر حتّى بعد أن شحت الأمطار، رغم أنني استطعت رؤية الأبراج الثلاثة مجدداً إلى يساري، كما سلكت طرقاً كثيرةً باتجاهه، ولكنها انعطفت جميعها يميناً في نهايتها، كما تعالت الأصوات الهامسة، وحاولت تجاهلها واعتبارها صفير رياح دون فائدة، لأن لا رياح هناك، كما لمحت من طرف عيني أحد المباني المؤلف من طابقين وقد ازداد طابقاً، وعندما التفتت إليه، وجدته أنه مؤلف من طابقين فقط، وشعرت أن بناءً مربع الشكل يتقدم نحونا، وأن تمثالاً يشبه الغريفين قد أدار رأسه كي يراقبنا.

بدت رادار مستمتعةً في جسدها الجديد من دون الاكتراث حيال تلك التغيرات، في حين أربكتني الأخيرة كثيراً، وعجزت تماماً عن اعتبار ليليمار مجرد مدينة عادية مجردة من الحياة، بل كانت تعي ما تفعل ومصممةً على احتجازنا ضمنها.

انتهت الشوارع أمامنا إلى جدول منحدر الضفة مليء بالحطام والمياه الراكدة؛ لقد وصلنا إلى نهاية أخرى مسدودة، ولذلك انعطفت تلقائياً، وسلكت زقاقاً ضيقاً جداً حتّى احتكت عجلات الدراجة الخلفية بجدرانه وتناثرت منها القشور الصدئة، ومشت رادار أمامي، ولكنها توقفت فجأةً، وبدأت تنبح بقوة وصوت مرتفع بفضل رئتيها القويتين.

«ما الأمر؟».

نبحت مجدداً، ثمّ جلست وأمالت أذنيها وحدقت عبر قطرات المطر إلى نهاية الزقاق وبداية الشارع المقابل، فصدر من هناك صوت قوي تعرفت إليه مباشرةً.

«كيف حالك يا حامي الحشرات، هل ما زلت ولداً مزعجاً، أم أصبحت ولداً خائفاً؟ من يريد البكاء بين أحضان والدته لأنه عاجز عن إيجاد طريقه؟.. لقد محوت علاماتك مستخدماً بعض الصابون، دعنا نكتشف إن أمكنك مغادرة ليلي قبل استيقاظ جنود الليل! ولا مشكلة لدي، لأنني أعرف هذه الشوارع عن ظهر قلب!»، وتبع ذلك ضحكة شريرة.

لقد كان بيتركين، وبدا وكأنه كريستوفر بولي شخصياً، ولكنني كسرت يديّ الأخير، ما منحه سبباً كي ينتقم مني، ولكن ماذا فعلت لبيتركين سوى منعه عن تعذيب صرصار الليل الأحمر العملاق؟

لم أجد مبرراً سوى أنني أحرجته حينها، ولكنني أعلم شيئاً يجهله ذلك القزم، وهو أن الكلبة المريضة التي رآها على طريق المملكة لم تعد مريضة، فالتفتت رادار إليّ، وعندها أشرت إلى نهاية الزقاق وقلت: «أمسكيه».

استجابت رادار مباشرةً، وانطلقت كالسهم تجري ناحية ذلك الصوت المشؤوم وقطرات المياه تتناثر من قوائمها إلى جانبي الزقاق، فأجفل

بيتركين وسط نباحها، النباح نفسه الذي أرعب آندي شين يوماً ما، ثمّ سمعت صرخة ألم.

صاح بيتركين: «ستندم أنت وكلبتك اللعينة».

قلت في نفسي: «سأمسك بك يا عزيزي»، وقدت الدراجة إلى نهاية الزقاق الضيق، ولكن احتكاك العجلتين الخلفيتين بالجدران أعاقني عن بلوغ السرعة المطلوبة.

صرخت: «أمسكيه يا رادار»، وفي حال استطاعت فعل ذلك، يمكنني إقناعه أن يخرجنا من هنا، كما أقنعت بولي.

لكن بينما اقتربت من نهاية الزقاق، عادت رادار أدراجها وقد بدت الخيبة على محياها - تستطيع الكلاب رسم مشاعرها على وجهها، ويدرك ذلك مالكو الكلاب جميعهم - لأن بيتركين أفلت منها، ولكن ليس سالماً، لأنها حملت بين فكيها قطعةً لا بأس بها من ملابس خضراء فاتحة تعود إلى سروال بيتركين بالتأكيد، وقد لطختها قطرتا دم، وأسعدني ذلك حقاً.

وصلت إلى نهاية الزقاق، ونظرت إلى اليمين، ورأيته متشبثاً إلى إفريز في الطابق الثاني من مبنى حجري يبعد بضعة أمتار عنا، وبدا مثل ذبابة بشرية، واستطعت رصد الأنبوب المعدني الذي رجحت أنه تسلقه كي يصبح آمناً من فك رادار (ولكن ليس سريعاً كفايةً)، ثمّ رفع نفسه إلى حافة صخرية، وجلس هناك، وقد بدت هشةً، وتمنيت أن تسقط تحته، ولكن ساعده حجمه الصغير على النجاة.

صرخ بيتركين وهو يهز قبضته ناحيتي: «ستدفع ثمن ما أفسدته كلبتك اللعينة، وسيقتلها جنود الليل، ولكن آمل أن يتركونك كي تقتلع ريد مولي أحشاءك من بطنك في الفير ون. وسأستمتع بمشاهدتك حينها».

سحبت مسدس السيد بوديتش، ولكن قبل أن أطلق النار عليه أطلق واحدةً من صرخاته الكريهة، وتدحرج عبر نافذة محتضناً ركبتيه الصغيرتين إلى صدره بين ذراعيه، واختفى عن الأنظار.

التفتت إلى رادار وقلت: «لقد كانت مغامرةً مشوقةً أليس كذلك؟ ما رأيك في الخروج من هذا المكان؟».

نبحت رادار مرةً واحدةً.

«اتركي قطعة القماش هذه قبل أن تسممك».

أطاعت رادار الأمر، وتابعنا طريقنا، والتفتت ناحية النافذة عندما مررنا إلى جوارها ولم ألمح بيتركين، وتمنيت لو يظهر أمامي مثل الأهداف في ملعب الرماية، ولكن لم يحدث ذلك، ولعل الجبناء أمثاله لا يمنحونك فرصةً ثانيةً... وقد يقف القدر في صفك أحياناً، فتحصل على واحدة ثالثة.

أمكنني أن أتمنى ذلك فحسب.

الفصل التاسع عشر

مشكلة الكلاب- القاعدة- المقبرة- البوابة الخارجية.

1

تكمن مشكلة الكلاب (على فرض أنك تتجنب ضربها أو تعنيفها طبعاً) في ثقتها بك، لأنك مصدر الغذاء والمأوى والحب، إضافةً إلى قدرتك على سحب لعبة القرد من تحت الأريكة مستخدماً إحدى قائمتيك الرشيقتين ذات الأصابع الخمسة، وتلقي هذه الثقة بدورها مسؤوليةً على كاهلك، ولا بأس في ذلك معظم الأوقات، ولكن ليس الآن.

اتضح أن رادار تعيش أفضل أوقات حياتها، ولم لا؟ فقد تخلصت من كونها كلبة شيبرد عجوزاً ونصف عمياء، وعالةً في عربة دورا، وبعدها في

سلة دراجة كلاوديا ثلاثية العجلات، كما قفزت إلى جوار مصدر الغذاء والمأوى والحب، واستعادت شبابها وقوتها، ومزقت جزءاً من بنطال قذر قديم ارتداه ذلك القزم، وكانت هادئةً جسدياً وذهنياً؛ أي اجتمعت ملذات حياتها في مكان واحد.

أما أنا، فقد خبرت نوعاً من الرعب ستعرفه تماماً عند ضياعك في مدينة كبيرة، أضف إلى ذلك غياب أي أشخاص ودودين تستطيع سؤالهم عن الاتجاهات، ناهيك عن تجنيد المدينة أنقاضها كاملةً ضدي؛ فقد تشابكت الشوارع مع بعضها، وأخذتنا الطرقات الجديدة إلى نهايات مسدودة، حيث سقطت تماثيل من أبنية مجهولة أقسم إنها لم تكن هناك قبل أن ألتفت خلفي بحثاً عن بيتركين الذي يتعقبنا، ورغم أن المطر استحال رذاذاً بسيطاً، إلا أنني عجزت عن رؤية القصر، بسبب الأبنية التي بدت تنمو ويزداد حجمها في كل مرة أشيح بنظري عنها، وكأنها تحاول إعاقتي.

وحدث شيء أسوأ أيضاً؛ بدا أن القصر يغير مكانه في كل مرة أنظر فيها إليه، واعتقدت أنه مجرد وهم بسبب الخوف، أو أردت إقناع نفسي بذلك من دون فائدة، وقد أوشكت فترة العصر أن تنتهي، وتذكرت مع كل منعطف أسلكه أن الظلام يقترب شيئاً فشيئاً، واتضحت حالتي تماماً: لقد ضللت طريقي كلياً بفضل بيتركين، وتوقعت أن أصل قريباً إلى منزل الحلوى، وستدعونا ساحرة شريرة كي ندخل إليه، كما حدث مع هانسل وغريتل.

واصلت رادار الهرولة إلى جوار الدراجة الثلاثية، والتفتت إليّ مع ابتسامة معناها: ألسنا نستمتع بوقتنا؟

تابعنا طريقنا.

استطعت بين الفينة والأخرى رؤية الأفق أمامنا بشكل أفضل، فوقفت على مقعد الدراجة ثلاثية العجلات محاولاً رصد جدار المدينة، وهو ثاني أكبر

شيء في المكان بعد أبراج القصر الثلاثية، وقد انتصبت الأخيرة إلى جهة اليمين، ما كان أمراً مستحيلاً تماماً، لأن تجاوز القصر من الأمام يعني عبور طريق غالين، وهذا ما لم يحدث. انتابتني رغبة في الصراخ، والانكماش على نفسي والتدحرج على الأرض واضعاً رأسي بين يدي، وأردت إيجاد رجل شرطة كي أتحدث إليه، لأن والدتي أخبرتني أن ذلك ما يفعله الأطفال عندما يضلون طريقهم.

كشرت رادار عن أنيابها طيلة الوقت وكأنها تقول: «ألسنا نخوض مغامرتنا الأروع على الإطلاق؟».

«نحن في مأزق يا صغيرتي».

تابعنا طريقنا ولم نرَ أيّ بقعة زرقاء في السماء، أو شمس ترشدنا، واقتصر الأمر على أبنية تعترض طريقنا، بعضها منهار، وبعضها فارغ تماماً، ولكن بدت جميعها جائعةً بطريقةً ما، كما خيّم صمت تخللته تلك الهمسات الخافتة المبهمة فقط، وإن كانت متواصلةً لاستطعت الاعتياد عليها، ولكن جاءت متناوبةً، وكأنني أمر كل حين إلى جوار مجموعة من الموتى الخفيين.

أعجز عن وصف هول تلك الفترة المريعة بدقة، وشعرت أنها ستستمر إلى الأبد، وذلك قبل أن ترتسم ملامح الليل، ولست متأكداً إن بكيت حينها أم لا، وإن حدث فعلاً، فقد بكيت أسفاً على نفسي وعلى رادار أيضاً، لأنني من أحضرها إلى هناك، صحيح أننا حققنا غايتنا، ولكن سيضيع كل شيء هباءً إن لقينا حتفنا، وكل ذلك بسبب القزم اللعين، وتمنيت لو اقتلعت رادار حنجرته من مكانها بدل مؤخرة بنطاله.

وزاد الأمر سوءاً الثقة المتلألئة في عيني رادار، فقلت في نفسي: «لقد وثقتِ في أحمق يا عزيزتي، وها هو الحظ السيئ يصبح حليفاً لك».

وصلنا إلى حديقة مغطاة بالأعشاب، حدتها أبنية رمادية من ثلاث جهات، وبرزت من الأخيرة شرفات فارغة، وبدت مثل مزيج بين الشقق الفارهة على جانبي غولد كوست في شيكاغو وزنزانات السجن، وانتصب في مركز الحديقة جزء من تمثال عملاق فوق قاعدة مرتفعة، وبدا أنه يُجسد رجلاً وامرأة يلهوان مع فراشة عملاقة، ولكنه تحطم عن آخره تقريباً، شأنه شأن الأعمال الفنية الأخرى في أحضان ليليمار (ناهيك عن حورية البحر المسكينة)، فقد انسحق رأس الفراشة وأحد جناحيها، وبقي الآخر سليماً، واستنتجت أنه يعود إلى فراشة كبيرة حتماً نظراً إلى الطريقة التي نحت فيها (وقد زالت ألوانه كلها، هذا إن وجدت أصلاً)، وربما جسّد الرجل والمرأة الملك والملكة في الأيام الخوالي، ولا أستطيع الجزم بذلك لأنهما خسرا جسديهما أعلى الركبتين بالكامل.

في الوقت الذي جلست فيه أتأمل التمثال المشوه، رن جرس الليل ثلاث مرات في أنحاء مدينة الأشباح، وقد أخبرتني كلاوديا: «لا تحتاج أن تكون خارج البوابة عند سماع رنين الجرس ثلاث مرات، ولكن يجب أن تخرج في أقرب وقت ممكن بعد سماعها، وقبل حلول الظلام!».

سيحل الظلام قريباً.

تابعت قيادة الدراجة رغم إدراكي أنني عالق في شراك فخ بيتركين، أو ليلي كما أسماه ذلك القزم اللعين، وحاولت استيعاب مقدار الرعب الذي ينتظرني عند مواجهة جنود الليل، ثمّ خطرت لي فكرة أوقفتني فجأةً، وكانت متطرفةً بعض الشيء، ولكن منطقيةً في الوقت نفسه.

أدرت المقود وعدت إلى الحديقة، وأخذت أنزل من الدراجة محاولاً تقدير ارتفاع القاعدة التي انتصب التمثال عليها، ولكنني غيّرت رأيي، وقدت الدراجة إلى مكان يحوي عشباً طويلاً وخالٍ من الورود الصفراء المتوحشة، وتمنيت ألا تعلق العجلات في شيء قد يعيق طريقي، لأن الأرض أصبحت

رخوةً بسبب الأمطار، وبقيت رادار تقفز حولي دون مشي أو ركض، وكان مشهداً رائعاً رغم سوء حالنا.

ركنت الدراجة وسط إطار المياه الراكدة حول التمثال، وعلقت حقيبتي على المقود، ثمّ وقفت على المقعد برؤوس أصابع قدمي حتّى أمكنني التمسك بحافة القاعدة الخشنة، وقد حالفني الحظ لامتلاكي لياقتي المعتادة، فرفعت ذقني إلى أعلى، ثمّ وضعت أحد ساعديّ على السطح المغطى بالنواتئ الصخرية المبعثرة، واعتقدت لوهلة أنني سأنزلق وأسقط على الدراجة الثلاثية وأكسر بعضاً من عظامي، ولكن استطعت رفع نفسي بدفعة أخيرة وقبضت على قدم المرأة الحجرية، ودفعت ثمن ذلك بعض الخدوش المؤلمة على بطني، ولكن لم يكن هناك ضرر حقيقي جسيم.

حدقت رادار إليّ ونبحت، فطلبت منها أن تصمت، فالتزمت الأمر ولكن لوّحت بذيلها فرحاً وكأنها تقول: «أليس ارتفاع هذا التمثال رائعاً».

نهضت وأمسكت بما بقي من جناح الفراشة، واعتقدت أنها احتفظت ببعض السحر الجيد فيها، فقد شعرت وكأنها امتصت خوفي قليلاً، ثمّ درت حولها ببطء، ورأيت أبراج القصر الثلاثة تحت السماء المظلمة، وكانت في مكانها الصحيح وفق ما بقي من وعيي المكاني، ولكن عجزت عن رؤية جدار المدينة كما توقعت، فقد منعتني كثرة الأبنية عن ذلك رغم ارتفاع القاعدة الشاهق.

قلت: «انتظريني يا رادار، سأعود سريعاً»، وتمنيت أن أكون محقاً في ذلك، ثمّ التقطت حجراً مدبباً وحملته في يدي.

مر الوقت، وعددت حتّى خمسمئة عشرةً عشرة، ثمّ خمسةً خمسة، ثمّ ضعت بين الأرقام، وازداد قلقي مع اقتراب الظلام، وشعرت به مثل السم في عروقي، وعندما بدأت الخيبة تُسيطر عليّ حيال تسلقي القاعدة من دون فائدة، نهضت غيمة مظلمة من الاتجاه الذي قررت تسميته

بالجنوب؛ لقد عادت الفراشات من أجل قضاء ليلتها، فمددت ذراعي مثل بندقية وأشرت ناحيتها، واختفت عن ناظري عندما ركعت إلى الأرض، ولكن حافظت على وضعية يدي، واستعملت الحجارة المدببة كي أحفر إشارةً على حافة القاعدة، ثمّ وجهت ذراعي الممدودة ناحية فجوة بين مبنيين في الجانب البعيد من الحديقة، واتخذتها نقطة بداية كي أنطلق منها، في حال بقيت ولم تختفِ.

وقفت وظهري إلى الهاوية، وأنزلت ساقي عن الحافة، وقد اقتضت خطتي التشبث حتّى أتدلى كلياً عن جانب القاعدة، ولكن يديّ عجزتا عن احتمال الوزن فانزلقتا وسقطت أرضاً، فنبحت رادار مرةً واحدةً كي تحذرني، وقد امتلكت المهارة الكافية كي أثني ركبتي وأتدحرج عند الوصول إلى الأرض، ساعدتني رطوبة الأرض بفضل الأمطار، وقد كان أمراً جيداً، على عكس الطين الذي سقطت فيه فغطاني من وجهي وحتى رؤوس أصابعي. نهضت (وقد أوشكت أن أسقط على كلبتي)، ومسحت وجهي، وبحثت عن علامتي السابقة، وأشرت بذراعي في اتجاهها، وأسعدتني كثيراً رؤية الفجوة بين المبنيين - الخشبيين وليس الحجريين، ولاحظت وجود مياه راكدة في بعض الأماكن، وهذا يعني أن الدراجة الثلاثية ستعلق لا محالة، ولذلك حملت حقيبتي على ظهري، واعتذرت إلى كلاوديا في نفسي عن ترك دراجتها ورائي.

التفتت إلى رادار وقلت: «هيّا بنا يا صغيرتي»، وبدأت أركض.

3

مررنا عبر برك المياه الراكدة، وكان بعضها ضحلاً، ووصلت مياه بعضها الآخر حتّى ركبتي، واستطعت الشعور بالطين يحاول نزع الجوارب من قدمي، أما رادار فركضت إلى جانبي بسهولة، ولسانها خارج فمها، وعيناها

تلمعان، وتبلل فراؤها والتصق إلى عضلاتها الجديدة كلياً، وبدت غير مهتمة بذلك، لأنها ظنت أننا نخوض مغامرة.

بدا البناءان مثل مستودعين، وتوقفت عند بلوغهما كي ألتقط أنفاسي وأعقد رباط إحدى فردتي حذائي، ثمّ نظرت إلى القاعدة وعجزت عن رؤية علامتي، لأننا ابتعدنا مسافة مئة ياردة على الأقل، ولكن علمت موقعه، ثمّ أشرت بكلتا ذراعي؛ واحدة إلى الأمام والأخرى إلى الخلف، وركضت برفقة رادار بين المبنيين، وتبين أنهما مستودعان فعلاً، لأنني استطعت شم الرائحة العفنة المنبعثة عن الأسماك المُخزّنة فيها منذ فترة طويلة جداً. اهتزت حقيبتي على ظهري خلال الجري ووصلنا إلى طريق ضيق تحده المزيد من المستودعات، وبدا لي أنها نُهبت منذ فترة طويلة، ولاحظت أن المسافة بين تلك الواقعة أمامي مباشرةً ضيقة جداً ولا أستطيع المرور من بينها، لذلك انعطفت يميناً، ووجدت زقاقاً ركضت عبره حتّى وصلت حديقة منزل ملأتها الأعشاب، واستدرت يساراً أملاً في العودة إلى طريقي المستقيم السابق، وتابعت الجري، محاولاً إقناع نفسي أن الغسق ما زال بعيداً، ولكن الحقيقة كانت خلاف ذلك.

اضطررت أن ألتف حول المباني مراراً وتكراراً كي أتابع طريقي وأستعيد مساري الأساسي إلى حيث رأيت الفراشات، صحيح أن نجاحي في ذلك غير مؤكد، ولكنني لم أمتلك خطة سواها، وتوجب عليّ المحاولة.

دخلنا ممراً ضيقاً جداً بين منزلين حجريين فاضطررت إلى المشي جانبياً خلاله (ولم تعانِ رادار من مشكلة) حتّى خرجنا من الطرف المقابل، فنظرت إلى اليمين، ولاحظت شيئاً بين بناء كان متحفاً ضخماً على الأرجح وبين دفيئة ذات جدار زجاجي؛ إنه سور المدينة، وقد انتصب عالياً وراء الأبنية في نهاية الشارع، وقد حلقت الغيوم في مستوىً منخفض حتّى اختفت حافته العلوية بينها.

«هيّا بنا يا رادار!».

لقد منعتني السماء وغيومها من التأكد إن حل الظلام فعلاً أم لا، وقد أفزعني الاحتمال الأول تماماً، فأسرعنا عبر الشارع الذي وصلنا إليه، ولعله ليس الشارع الصحيح، ولكنه قريب من طريق غالين بالتأكيد، ولكن تربعت أمامنا بضع مبان وبعدها مقبرة احتوت شواهد قبور مائلةً، ولوحات تذكارية، وبضع أبنية توقعت أنها سراديب، وكان ذلك المكان الأخير الذي أردت دخوله بعد حلول الظلام، ولكن إن كنت محقاً - صليت من أجل ذلك - فقد وجب أن أمر عبر المقبرة.

دخلت مسرعاً عبر باب حديدي ثنائي الدرفة مفتوح قليلاً، أما رادار فترددت للمرة الأولى، ووضعت قائمتيها الأماميتين على بلاطة إسمنتية مفتتة، وبقيت الخلفيتان في الشارع، أما أنا فتوقفت لأستجمع قواي، ثمّ قلت: «أنا خائف مثلك يا صغيرتي، ولكن يجب أن ندخل، هيّا بنا».

وافقت رادار، وانطلقنا بين شواهد القبور المائلة، والضباب المنبعث من الأعشاب الكثيفة والأشواك، حتّى لمحت سياجاً من الحديد المطاوع على بعد أربعين ياردةً تقريباً، وبدا مرتفعاً جداً كي أستطيع تسلقه حتّى وإن كنت وحيداً من دون كلبتي، ولكن لاحظت وجود بوابة قريبةً.

ركضت ناحيتها، ولكن تعثرت فوق ضريح وتدحرجت أرضاً، وعندما حاولت النهوض، تجمدت في مكاني عاجزاً عن تصديق هول ما رأته عيناي وسط نباح رادار بجنون؛ لقد انبثقت من تحت الأرض يد جافة ذات عظم مصفر بارز عبر الجلد المتمزق، وانفتحت وانغلقت باستمرار قابضةً في كل مرة على بعض التراب الرطب. اعتدت الضحك عند رؤية مشاهد كهذه في أفلام الرعب، وتناول المزيد من الفوشار، ولكنني لم أفعل ذلك الآن، إذ صرخت... وسمعتني اليد، واستدارت ناحيتي مثل رادار لعين يقبض مراراً وتكراراً على الهواء وسط الظلام.

نهضت على قدمي وركضت، ورادار إلى جواري تنبح وتزمجر وتلتفت خلفها حتّى وصلنا إلى بوابة المقبرة، وتبين أنها مقفلة، فتراجعت، وأنزلت كتفي قليلاً، ثمّ دفعتها كما دفعت المهاجمين في مباريات كرة القدم، ولكنها لم تنفتح بل اهتزت فقط، وتعالى نباح رادار شيئاً فشيئاً، وبدت وكأنها تحاول الصراخ.

التفتت ورائي كي أجد الروح دبت في عشرات من الأيدي، وربما وصل عددها إلى مئات، وقد تصورتها ورواداً مرعبةً ذات أصابع بدل البتلات، ورافقها شيء آخر أسوأ منها؛ صرير مفصلات صدئة صادر من سراديب أوشكت أن تفتح أبوابها أمام موتاها، وقارنت حينها بين عاقبة تدنيس حرمة مكان ما، والأمور التي واجهتها، وشتان بينهما.

دفعت البوابة مجدداً، فانكسر القفل، وانفتحت البوابة بقوة واندفعت عبرها وأوشكت على السقوط أرضاً فلوّحت بذراعي كي أحفظ توازني قدر الإمكان، ولكنني سقطت أرضاً على ركبتي بعد أن تعثرت بشيء ما، ربما كان حجر رصيف.

التفتت حولي فوجدت نفسي في طريق غالين.

نهضت بعد أن تمزق بنطالي وآلمتني ركبتاي، ونظرت خلفي فلم أرَ أحداً يلاحقني، ولكن منظر تلك الأيدي الملوحة كان سيئاً بما يكفي، وفكّرت في القوة اللازمة من أجل اختراق غطاء التابوت والحفر في التراب حتّى بلوغ سطح الأرض، ولكن وفقاً لمعلوماتي حينها، فقد امتنع الإمبيسيون عن استخدام التوابيت، بل ربما وضعوا موتاهم في قطع قماشية فحسب، وقاطع أفكاري حينها وهج أزرق وسط الضباب وكأن تياراً كهربائياً مرّ عبره.

صرخت: «اركضي يا رادار. هيّا».

ركضنا باتجاه البوابة كي نبقى أحياء.

لقد أضعنا طريقنا كثيراً منذ أن خسرنا سلسلة علامات السيد بوديتش، ولكن بقي نصف ميل أو أقل حتّى نهاية رحلتنا في البحث عن الخلاص، لأن البوابة الخارجية تربعت أمامنا وسط الظلام، وقد كنت ألهث، وشعرت أن ساقيّ ثقيلتان، ويعود جزء من ذلك إلى بنطالي المبلل والملطخ بالطين جراء سقوطي عن القاعدة، ولكن معظمه إرهاق محض. مارست الرياضة دوماً خلال سنواتي الدراسية، ولكنني تجنبت كرة السلة، ليس لأنني أردت تجاهل السيد هاركنس، بل لأن وزني وحجمي يحولان دون أن أركض كثيراً، وهذا ما جعلني أركض أولاً في مباريات كرة القاعدة، لأن مركز الدفاع يتطلب سرعةً أقل، وقد احتجت أن أقلل سرعتي خلال الجري ناحية البوابة كي أتجنب التعرض إلى شد عضلي والسقوط أرضاً من دون التقدم خطوةً واحدةً.

التفتت رادار خلفها، ونبحت مذعورة، فألقيت نظرةً خاطفةً، ورأيت قطيعاً من الأضواء الزرقاء الساطعة يقترب منا، اعتقدت أنه خرج من القصر، وتيقنت أنهم جنود الليل، وتجنبت إضاعة الوقت كي أقنع نفسي بعكس ذلك، فأسرعت مجدداً.

تكاثفت أنفاسي، وازدادت قوتها شيئاً فشيئاً، وخفق قلبي بشدة، وخاصةً بعد رؤية بقع ضوئية ساطعة أمامي واقتراب تلك القادمة من خلفي، وقد حصلت على أقدام، وتحولت إلى رجال مغلفين بهالات زرقاء قوية جداً، وعجزت عن رؤية وجوههم، ولم أرغب في ذلك حتى.

تعثرت بقدمي الغبية، ثمّ استعدت توازني، وتابعت الجري تحت خيمة الظلام الحالك الذي برزت فيه البوابة وسط الجدار بلون من درجات الرمادي، وقد اقتربت منها شيئاً فشيئاً، وشعرت أنني أملك فرصةً في النجاح إن تابعت الجري بالوتيرة نفسها.

شعرت بتشنج بسيط في خاصرتي، ولكن عمقه ازداد أكثر، ثمّ وصل إلى صدري وإبطي، كما تدلى وتعرج شعر رأسي الرطب الملطخ بالطين أمام جبهتي، وارتطمت حقيبتي الثقيلة بظهري مع كل خطوة، ولذلك خلعتها ورميتها وسط أجمة من نبات العليق إلى جوار مبنىً ذي أبراج، وانتصبت حوله أعمدة مخططة بالأحمر والأسود وفوقها تماثيل حجرية لفراشات عملاقة، وكانت الأخيرة سليمةً تماماً، ولعل ذلك بسبب صعوبة الوصول إليها من دون سلالم.

تعثرت مجدداً، ولكن هذه المرة بسبب مجموعة من أسلاك العربات المتدلية التي علقت قدمي بها، فتخلصت منها، وتابعت الركض في الوقت الذي اقترب فيه جنود الليل مني، وفكّرت في استعمال مسدس السيد بوديتش، ولكن إن كان فعالاً في مواجهة تلك الأشباح، لا أظنه سيكفي للتخلص منها كلها.

في تلك الأثناء، حدث شيء مدهش؛ استطعت التنفس بعمق أكبر، وزال التشنج من خاصرتي، وصحيح أنها المرة الأولى التي أكتسب فيها طاقةً جديدةً بعد ممارسة الجري مطولاً، ولكن سبق لهذا أن حدث عدة مرات خلال قيادة الدراجة مسافات طويلة، وقد علمت أنها مؤقتة فقط، ولكنها جل ما احتجته، فقد اقتربت من البوابة كثيراً، وخاطرت مرةً أخيرةً، وألقيت نظرةً خاطفةً خلفي كي أجد أن جنود الليل البراقين قد توقفوا، فالتفتت إلى الأمام، وأسرعت أكثر حتّى حنيت رأسي إلى الخلف، وقبضت يديّ بشدة وحركتهما إلى الأمام والخلف بسرعة كبيرة، وتنفست أعمق من أي وقت آخر، إلى درجة أنني تقدمت على رادار خلال الثلاثين ياردة الأخيرة، فنظرت إليّ وقد زالت ابتسامتها العريضة التي تعكس سعادتها واستمتاعها بوقتها، بل تدلت أذناها على جانبي رأسها، وارتسمت حلقتان بيضاوان حول عينيها البنيتين؛ لقد بدت خائفةً جداً.

في النهاية، وصلنا إلى البوابة.

أخذت نفساً عميقاً أخيراً وصرخت: «افتحي باسم ليا غالين».

أصدرت آليات البوابة صريرها الصاخب مجدداً، ثمّ تحول إلى ضجة خفيفة، وارتجت البوابة وبدأت تنزلق على مسارها الخفي ببطء شديد جداً، ما أرعبني كثيراً، وتساءلت في نفسي عن إمكانية مغادرة جنود الليل المدينة واللحاق بنا إن استطعنا عبور البوابة؟ ونفيت ذلك لاعتقادي أن هالاتهم الزرقاء تضعف خارج السور، وبالتالي سيموتون... أو يذوبون، كما حدث مع ساحرة الغرب الشريرة.

انفتحت البوابة بضعة سنتمترات فقط.

استطعت رؤية شريط فضي ضئيل من العالم الخارجي، حيث انتشرت الذئاب، ولكن من دون أي رجال بهالات زرقاء لامعة، أو أيادٍ متعفنةً تنبعث من أرض المقبرة.

التفتت خلفي كي أراهم بوضوح للمرة الأولى: كانوا عشرين رجلاً أو أكثر، وامتلكوا شفاهاً بلون كستنائي يشبه لون الدماء الجافة، إضافةً إلى وجوه رقيقة شاحبة، وارتدوا بناطيل وقمصاناً واسعةً بدت على نحو غريب مثل ملابس الجيش، وقد تدفق الضوء الأزرق من عيونهم وانصب إلى الأسفل وغطاهم عن آخرهم، وقد امتلكوا ملامح رجال عاديين، ولكن بشرتهم رقيقة جداً بحيث يمكن رؤية جماجمهم عبرها.

لقد ركضوا ناحيتنا وتركوا وراءهم بقعاً من الضوء الأزرق، والتي تلاشت شيئاً فشيئاً، واعتقدت أنني أستطيع الهروب قبل وصولهم.

انفتحت البوابة أكثر، ولكن ببطء شديد.

سمعت صوت صافرة إطفاء قديمة الطراز، وعندها فتحت كتيبة الهياكل العظمية الزرقاء طريقاً عبرها، وقف بعضهم يميناً، والقسم الآخر يساراً، وانطلقت مسرعةً على طريق غالين عربة كهربائية مثل سيارة غولف عملاقة أو حافلة قصيرة مفتوحة، وجلس في مقدمتها رجل طويل ونحيل (وصفته بالرجل عمداً) يحرك ما يشبه عصا التوجيه إلى الأمام والخلف، وقد

تدلى شعره الرمادي على جانبي وجهه المخيف نصف الشفاف، وازدحم الآخرون خلفه في هالاتهم الزرقاء التي سالت إلى الرصيف الرطب مثل دماء غريبة، وقد قاد عربته باتجاهي مباشرةً وأراد سحقي في مواجهة البوابة، وباتت فرصي في النجاح معدومةً تماماً... على العكس من رادار.

«اذهبي إلى كلاوديا يا رادار».

ولكنها وقفت في مكانها ولم تتحرك، وحدقت إليّ مذعورةً.

«اذهبي يا رادار بحق الجحيم».

تخليت عن حقيبتي لأن وزنها بعد أن ابتلت خفّض من سرعتي، ولكن اختلف الأمر نسبةً إلى سلاح السيد بوديتش، فقد كان عدد رصاصاته غير كاف من أجل القضاء على جنود الليل، ولم أرغب في حصولهم عليه أبداً، لذلك خلعت الحزام، وألقيته في الظلام خارج البوابة، وبالتالي إن أرادوا الحصول عليه، يجب أن يتجاوزوا سور المدينة، ثمّ ضربت رادار بقوة على مؤخرتها كي تنطلق، عندما اقتربت الهالات الزرقاء مني. أعلم ماهية شعور الاستسلام أمام الموت، لأنني فعلت ذلك حينها.

«اذهبي إلى كلاوديا. أو دورا. اذهبي فحسب».

رمقتني رادار بنظرة بائسة أخيرة - لن أنساها أبداً - وخرجت عبر شق البوابة.

دفعني شيء ما بقوة كبيرة كافية من أجل تثبيتي - وليس سحقي - على البوابة المتحركة، فالتفتت كي أرى جندي الليل ذو الشعر الرمادي يضغط عصا التوجيه بقوة إلى الأمام، ورأيت يديه الممدودتين وعظام أصابعه البارزة عبر شحم جلده المتوهج، إضافةً إلى الابتسامة الأبدية المرتسمة على أسنان جمجمته، ولاحظت بعض تيارات الطاقة المرعبة تنبثق عبر عينيه.

انفتحت البوابة مسافةً كافيةً من أجلي، وحاولت الإفلات من أصابع ذلك الشيء التي أمسكت بي، والتدحرج ناحية الفتحة، ورأيت رادار لبرهة واقفةً على طريق المملكة وسط الظلام تحدّق إليّ وتنتظر خروجي، فاندفعت ناحيتها، ومددت يدي إليها، ولكن قبضت تلك الأصابع الشنيعة على رقبتي.

همس جندي الليل الميت الحي: «لا أيها الصغير الكامل، لقد دخلت ليلي من دون دعوة، وستبقى أسيرها».

اقتربت مني جمجمته الضاحكة القابعة وسط جلد شاحب رقيق، لقد كان هيكلاً عظمياً حياً، واقترب بقية الجنود منا، وصرخ أحدهم كلمةً، وأعتقد أنها كانت «إيليمار» - مزيج بين إمبيس وليليمار، ولكن أعلم الآن ما هي تماماً، وبدأت البوابة تنغلق، وأطبقت اليد بقوة على حلقي حتّى كدت أختنق.

قلت في نفسي: «اهربي يا رادار إلى بر الأمان»، ثمّ فقدت وعيي.

الفصل العشرون

الزنزانة الأبدية – هامي- وقت تناول الطعام-

لورد هاي- الاستجواب.

1

قاومت رادار ضرورة الذهاب إلى سيدتها الجديدة والقفز فوق البوابة، وأخذت تخرمش بقائمتيها الأماميتين بحثاً عن مدخل، لقد عصت أمر الرحيل والهروب، رغم إدراكها قدرتها على الجري طوال الليل، ولكنها لم تفعل ذلك، إذ ستصل بر الأمان إن أمكنها الدخول.

صفعة – صفعة.

قفزت مراراً وتكراراً من أن ترتفع كثيراً. ما زال ضوء القمر سرير السماء، وغاب معه عويل الذئاب التي ستهاجمها فور ظهوره، وأحست أن هذا الحدث يقترب، فعزمت على القتال إلى النهاية حتّى لو تفوقت عليها عدداً.

صفعة – صفعة.

«استيقظ أيها الصغير».

شق ضوء القمر طريقه إلى الأرض عبر إحدى الغيوم الصغيرة التي أخذت تتلاشى وراء شقيقتها الكبرى كالمعتاد، وانطلق عواء الذئب الأول، ولكن توجد أمام رادار العربة الحمراء، والملجأ الذي قضت فيه ليلةً برفقة تشارلي عندما كانت مريضةً، واعتقدت أن تشارلي ترك بابه مفتوحاً، ولكنها لم تكن متأكدةً، إذ مضى وقت طويل على ذلك! حيث يمكنها الانسلال إلى هناك والبقاء في أمان إن استطاعت الوقوف على قائمتيها الخلفيتين وإغلاقه، وإلا ستسند ظهرها إليه وتقاتل حتّى الرمق الأخير.

صفعة – صفعة.

«هل تريد أن تفوتك وجبة أخرى؟ هذا لا يجوز!».

كان الباب مفتوحاً قليلاً، فاندفعت رادار عبره، ثم...

صفعة!

2

أيقظتني تلك الصفعة من الحلم أخيراً، وفتحت عينيّ أمام ضوء طفيف مجهول المصدر وشخص راكع فوقي، والذي امتلك شعراً متدلياً حتّى كتفيه ووجهاً شاحباً جداً، واعتقدت لوهلة أنه جندي الليل الذي كان يقود الحافلة الكهربائية الصغيرة، فجلست سريعاً، واندفعت صاعقة ألم في رأسي تلتها

موجة دوار. رفعت قبضتي، فاتسعت عينا ذلك الشخص وتراجع، وتبين أنه رجل، وليس شيئاً شاحباً وسط هالة ضوء أزرق يشع من عينيه، بل كانتا غائرتين وسط الكدمات، ولكنهما بشريتان، إضافةً إلى شعره البني الداكن المائل إلى السواد تقريباً، إذ لم يكن رمادياً.

صرخ أحدهم: «دعه يمت يا هامي! إنه الفرد الحادي والثلاثون، ولن ينتظروا أن يبلغ عددنا أربعةً وستين أبداً! لقد ولت تلك الأيام! لقد بقي واحد فقط كي تبدأ المعركة!».

التفت هامي – إن كان هذا اسمه – إلى مصدر الصوت مبتسماً وكاشفاً عن أسنانه البيضاء في وجهه المتسخ، وبدا وكأنه ابن عرس منعزل، وقال: «أنا أحاول تحصين روحي يا آي! يجب أن تقدم الخير إلى الآخرين كما تعلم! وتفكر في الحياة الأبدية إذ اقتربت النهاية كثيراً».

قال ذلك المدعو آي: «اللعنة عليك وعلى حياتك الأبدية! يوجد هذا العالم، وتليه الألعاب النارية، وهذا كل شيء».

كنت على أرضية باردة ورطبة، ونظرت فوق كتف هامي النحيل، كي أرى المياه تنز من جدار فيه نافذة أغلقتها القضبان، ولا شيء خلف الأخيرة سوى الظلام، وأدركت أنني في زنزانة، ثمّ خطرت في ذهني عبارة الزنزانة الأبدية، دون أن أعلم أين قرأتها أو سمعتها أو أدرك معناها حتى، وجل ما عرفته أن رأسي يؤلمني كثيراً، وأن الرجل الذي أيقظتني صفعاته كريه رائحة الفم، وكأن بعض الحيوانات الصغيرة ماتت في فمه، وتبين أنني بللت سروالي أيضاً.

انحنى هامي قريباً مني، وحاولت الابتعاد عنه، ولكن وجدت قضباناً أخرى خلفي، ثمّ تمتم فمه الخشن أمام أذني، والذي بدا صوته مروعاً وحزيناً بعض الشيء: «تبدو قوياً أيها الصغير، فهل ستحميني كما فعلت معك؟».

أردت أن أسأل عن مكان وجودي، ولكن بدا صوتي متقطعاً، ولعقت شفتي الجافتين المتورمتين وقلت: «أشعر بالعطش».

«أستطيع مساعدتك في ذلك».

أسرع إلى دلو في زاوية ما فتأكدت أنني في زنزانة... وكان هامي شريكي فيها، لقد ارتدى بنطالاً ممزقاً حتّى ساقيه مثل المنبوذين في القصص المصورة في المجلات، وبالكاد يمكن اعتبار أنه يلبس قميصاً، إذ لمعت ذراعاه العاريتان النحيلتان جداً في الضوء الضعيف، ولكنهما لم تكونا رماديتين، ويصعب التأكد من ذلك في ظروف الإضاءة السيئة هناك.

قال شخص آخر ليس هامي أو ذاك المدعو آي: «يا لك من غبي، لماذا تفسد الأمر؟ هل أسقطتك الممرضة على رأسك بعد ولادتك؟ لقد كان الصغير منهكاً تماماً وبالكاد يتنفس. أمكنك الجلوس على صدره وإنهاء حياته! فنعود ثلاثين فرداً في لمح البصر».

تجاهله هامي، وأخذ كوباً قصديرياً عن الرف الواقع فوق ما ظننت أنه فراشه، وملأه مياهاً من الدلو، وحمله واضعاً إصبعاً – وكان متسخاً بقدر أصابعه الأخرى – أسفله وأحضره لي، وقال: «ضع إصبعك على الثقب هنا».

تجرعته سريعاً، وتجنبت فعل ذلك إذ لن تسنح فرصة كي تتسرب المياه منه، ودون الاكتراث إلى الحصى الموجودة فيه أيضاً، إذ شعرت وكأنني في الجنة.

قال صوت آخر: «مارس الجنس الفموي معه يا هاميس، وسيستعيد وعيه مباشرةً».

«أين أنا؟».

انحنى هامي ناحيتي مجدداً كي يتجنب رفع صوته، وقد كرهت رائحة أنفاسه التي زادت شدة ألم رأسي، ولكنني تحملتها كي أحصل على الإجابة،

وخاصةً بعد أن بدأت أتعافى قليلاً وأستفيق أكثر من حلم شوقي إلى رادار. لقد فاجأني بقائي على قيد الحياة.

همس: «أنت في مالين.. ديب مالين... عشرة... تحت القصر»، دون أن أفهم بعض كلماته.

صرخ آي: «بل عشرون! وستبقى في الظلام طيلة حياتك أيها الفتى الجديد! ونحن كذلك، وبالتالي اعتد على الأمر».

تناولت الكوب من هامي ومشيت عبر الزنزانة، وشعرت وكأن رادار في أسوأ حالاتها حينها، ثمّ ملأته ووضعت إصبعي على الثقب الصغير في القاع، وشربت مجدداً، لقد احتوت ما تأكدت أنها زنزانة ذلك الفتى الذي شاهد يوماً قناة تورنر كلاسيك موفيز، وطلب أشياءه من موقع أمازون الإلكتروني. توزعت الزنزانات على طرفي ممر مظلم، وعلقت مصابيح الغاز بينها كي تنشر ضوءها الأصفر الضارب إلى الزرقة، كما تساقطت قطرات المياه من حجارة السقف المتصدعة واجتمعت في برك صغيرة ضمن الممر الرئيسي. كان في الزنزانة المقابلة رجل ضخم يرتدي ما تبين أنه بقايا سروال داخلي طويل، ورآني أنظر إليه، فقفز ناحية القضبان وهزها مُقلداً صوت القرد، وقد امتلك صدراً عارياً عريضاً ومشعراً، ورأساً كبيراً وجبهةً منخفضةً، وصوتاً قوياً يحسب حسابه، لقد كان قبيحاً جداً... ولكن من دون أي من التشوهات المخيفة رأيتها خلال طريقي إلى هذه الغرفة الساحرة.

قال أحدهم: «أهلاً بالفتى الجديد. مرحباً بك في الجحيم، سأنتظر حتّى يحل (فير ون)... إن حدث ذلك... سأواجهك في الجولة الأولى، وأقتلع كبدك من مكانه وأعتمره قبعة، ثمّ أنتقل إلى خصمي أياً كان في الجولة التالية، فاستمتع بإقامتك إلى حينها»، لقد كان آي... الذي أدركت لاحقاً أن اسمه اختصار آيوتا.

رأيت سجيناً آخر في نهاية الممر قرب بوابة خشبية مدعمة بالحديد، وقد كانت أنثى، وصرخت: «وجب أن تبقى في سيتادل أيها الصغير... وأنا كذلك، إذ أن التضور جوعاً أفضل من هذه الحال»، وأخفضت صوتها عندما قالت العبارة الثانية.

سار هامي إلى زاوية الزنزانة مقابل دلو المياه، وأنزل سرواله وجلس القرفصاء فوق حفرة في الأرض وقال: «إن أمعائي تؤلمني، لعل ذلك بسبب فطور الحقل».

سأل آي: «ماذا، ألم تقض عاماً وأكثر من دون تناول أي منها؟ أعلم أنك تتألم، ولكن فطور الحقل بريئة من ذلك».

أغمضتُ عينيّ.

3

لا أدري كم مر من الوقت، ولكنني استعدت وعيي شيئاً فشيئاً، وتسللت إلى أنفي رائحة القذارة والرطوبة والغازات عبر الثقوب التي تسلل عبرها ضوء خافت إلى هذا المكان، وسمعت صوت تساقط قطرات المياه، وخطوات السجناء وحديثهم مع بعضهم أحياناً، وربما مع أنفسهم.

جلس شريكي في الزنزانة قرب دلو المياه، وحدق بحزن عميق إلى يديه.

«هامي؟».

التفت إليّ.

«من هم الكاملون؟».

ضحك هامي عالياً، ثمّ اكفهر وجهه وقبض معدته وقال: «نحن هم الكاملون، هل أنت غبي؟ أم سقطت من السماء إلى هنا مباشرةً؟».

«تظاهر أنني كذلك».

«اجلس إلى جواري».

ترددت في ذلك.

قال حينها: «اطمئن، إذ لن أتحرش بك إن هذا ما يدور في ذهنك، ولكن قد يزعجك شخص أو اثنين هنا لا أكثر، كما مضى على آخر انتصاب حظيت به ستة أشهر تقريباً، إذ تُسبب آلام البطن ذلك».

جلست إلى جواره، فربّت ركبتي.

تنهد وقال: «هذا أفضل، حيث أكره أن يسمع الجميع ما أقوله، ولكنني لا أهتم، فنحن جميعاً أسماك في الدلو ذاته، ولكن أحب إبقاء أسراري لنفسي – هكذا تعلمت. ليس القلق دواء هذه الآلام، وأستطيع إخبارك ما يلي، هل ترى كيف تزداد الأعداد هنا؟ هذا بغيض! خمسة وعشرون... ستة وعشرون... والآن واحد وثلاثون، ولن يبلغوا الرقم أربعة وستين أبداً، إن آي محق في كلامه. لقد كنا – نحن الكاملين – أكياساً مملوءة بالسكر، ولكن فرغنا الآن إلا من البلورات الأخيرة القليلة».

هل قال كلمة بلورات؟ أم شيئاً آخر؟ بدأ رأسي يؤلمني مجدداً، وكذلك ساقاي من المشي والدوس والركض، ناهيك عن التعب الذي أصابني وكأن طاقتي استنزفت بطريقة ما.

أطلق هامي تنهيدةً أخرى والتي تحولت إلى نوبة سعال، وأمسك بطنه حتّى انتهائها، وقال: «يواصل قاتل الرحلة و... خاصته استهلاكنا، ولن يكتفي حتّى ينال منا جميعاً، ولكن... أربعة وستون؟ لا، ستكون هذه الفير ون الأخيرة، وسأكون ضمن المشاركين الأوائل، وربما الأول، لست قوياً كما ترى، إذ أصابتني الآلام ولا يناسبني الطعام، أما أنت... يعتقد آي أنك كبير وسريع ربما عندما تكون في كامل قوتك»، وبدا أنه يتذكر وجودي هناك –

شريك زنزانته الجديد، وقد قال كلمةً بعد قاتل الرحلة مثل روغامونكاس، ولكن عجزت عن تفسيرها.

فكرت في إخباره أنني لست سريعاً تحديداً، ولكن قررت تجنب ذلك، وتركه يظن ما يريد.

«آيوتا ليس خائفاً منك أو من أي أحد – سوى ريد مولي ووالدتها الوضيعة – ولكنه يرفض بذل جهد إضافي أيضاً. أخبرني، ما هو اسمك؟».

«تشارلي».

أخفض صوته أكثر وقال: «وأنت تجهل أين نحن حقاً؟».

خطرت في بالي اسم الزنزانة الأبدية، وقلت: «حسناً، إنه سجن... أعتقد أننا في زنزانة تحت القصر، وهذا كل شيء».

عزمت على إخفاء نية قدومي إلى هنا، أو هوية الذين التقيتهم خلال رحلتي، إذ كنت أستعيد وعيي شيئاً فشيئاً رغم التعب، وبدأت أفكر بشكل صحيح؛ لعل هامي يحاول استجرار المعلومات مني كي يقايضها مقابل المنافع، والتي أشك في وجودها في ديب مالين، إذ يبدو هذا المكان مثل نهاية مسدودة إن صح القول، ولعل هروب كلبة شيبرد من سينتري في إيلينوي خارج دائرة اهتمامهم... ولكن مع ذلك، لا أود المخاطرة.

«أنت لست من سيتادل، أليس كذلك؟».

هززت رأسي نافياً.

«ألا تعلم مكانها؟».

«لا».

«ماذا عن غرين إيزليس؟ أو ديسك؟ أو أحد التايفوس ربما؟».

«أجهل أي مكان منها».

«من أين أنت يا تشارلي؟».

التزمت الصمت.

همس هامي بعنف: «حافظ على صمتك، هذا جيد، إياك أن تخبر أحداً منهم، وسأكتم سرك أيضاً إن حميتني، ومن الحكمة فعل ذلك. قد ترفض تصديقي، ولكن أدرك تماماً ما أقوله، توجد عواقب أسوأ من ديب مالين أيها الصغير، مثل لورد هاي، ولكن قاتل الرحلة هو الأسوأ».

«من يكون قاتل الرحلة؟ ولورد هاي؟».

«نطلق على لورد هاي اسم كيلين، وهو رئيس جنود الليل، وقد أحضرك شخصياً إلى هنا، وبقيت حينها في الزاوية».

تصاعد صوت جرس خافت من وراء الباب المدعم بالحديد القابع في طرف غرفة الزنزانات.

قفز آيوتا إلى القضبان، وأخذ يهزّها مجدداً ويصرخ: «بيرسي! لقد تأخّرت يا صديقي القديم! ادخل ودعنا نرَ ما بقي من وجهك!».

سمعت صوت أربعة أقفال تنفتح، وتلاها الباب. في البداية دخلت منه عربة خشبية، تشبه تلك الموجودة في المركز التجاري، ودفعها رجل رمادي بدا أن وجهه قد أذيب سوى إحدى عينيه، وبالكاد برز أنفه وسط قطعة لحم، وخيط فمه باستثناء مكان في حجم قطرة الماء على جانبه الأيسر، كما أذيبت أصابعه حتّى بدت يداه كالزعانف، وارتدى ملابس فضفاضة، وعلّق حول رقبته جرس يتدلى من حلقة جلدية.

وقف في مدخل الممر، وتفحص الجرس، ثمّ هزّه، والتفت مباشرةً بعينه الوحيدة إلى الأمام والوراء وقال: «هاف! هاف! هاف أيها الأوغاد!».

بدت دورا مقارنةً به مثل لورانس أوليفير عندما أدى دور شيكسبير.

سحبني هامي من كتفي إلى الخلف، وكذلك تراجع آي، وبقية السجناء أيضاً، واستمر بيرسي في رنّ الجرس حتّى تأكّد من ابتعاد الجميع عن القضبان كي يستحيل الإمساك به، رغم أنني أجهل سبب إقدام أحدهم على ذلك؛ إذ بدا مثل الإداريين في أفلام السجون، وهؤلاء لا يحملون مفاتيح.

كانت زنزانتي وهامي الأقرب إليه. مد بيرسي يده إلى العربة، وأخرج قطعتي لحم كبيرتين، وألقاهما عبر القضبان إلينا، فأمسكت خاصتي في الهواء، ولكن قطعة هامي أفلتت منه وسقطت أرضاً.

بدأ السجناء يصرخون على بيرسي، وتساءل أحدهم – والذي علمت لاحقاً أن اسمه فيرمي – إن كانوا قد خاطوا شرج بيرسي أيضاً، وفي حال صح ذلك فهل يتغوط من فمه؟ شعرت أنهم مثل الأسود في حديقة الحيوانات خلال وقت تناول الطعام، بل كانوا ضباعاً، ويمكن استثناء آيوتا منهم.

دفع بيرسي العربة ببطء إلى نهاية الممر بين الزنزانات، وحذاؤه الصيفي يخوض في برك المياه (لقد خيطت أصابع قدميه معاً أيضاً)، ورمى قطع اللحم يميناً ويساراً من دون أن يخطئ رغم امتلاكه عيناً واحدةً، إذ دخلت جميعها بين القضبان ولم تسقط أي منها في الممر وسط المياه الراكدة.

قربت قطعة اللحم من أنفي كي أشمها، واعتقدت أنني قابع في عالم الخيال، حيث توقعت رائحةً عفنةً ومقرفةً، أو وجود يرقات الحشرات فيها، ولكنها شريحة لحم بقر من متجر (سنتري هي في) ربما، رغم أنها من دون التغليف البلاستيكي الصحي، ولاحظت أنها مطهوة قليلاً (فكرت في والدي الذي اعتاد عند ذهابنا إلى المطعم طلب شريحة لحم مطهوة قليلاً في

الفرن فقط)، ولكن رائحتها تكفي كي يسيل لعابي وتتضور معدتي جوعاً، إذ تناولت وجبتي الحقيقية الأخيرة في منزل كلاوديا الخشبي.

رأيت آي في الزنزانة المقابلة جالساً على سريره وعاقداً ساقيه ويقضم قطعة اللحم خاصته التي سالت عصارتها الحمراء على لحيته المتلبدة. لاحظ أنني أنظر إليه، فابتسم وقال: «تناول قطعتك أيها الصغير واستغل سلامة أسنانك، إذ سأحطمهم مباشرةً».

تناولت لقمةً من قطعتي، والتي كانت قاسيةً، وشهيةً، وزادتني كل قضمة جوعاً من أجل الأخرى.

وصل بيرسي إلى الزنزانتين الأخيرتين، ورمى قطعتي لحم إليهما، وعاد أدراجه وهو يرن جرسه بإحدى زعانفه، ويجر العربة بالأخرى، ويصرخ: «هاف! هاف!»، وتوقعت أنه يقصد إلى الخلف، إلى الخلف، ولكن بدا أن الجميع غير مهتمين في إطلاق صيحات الاستهجان الآن، ناهيك عن محاولة إمساكه، إذ تصاعدت من خلف القضبان أصوات القضم والمضغ.

التهمت قطعتي كلها سوى حلقة من الشحم والغضاريف، ثمّ أجهزت عليها أيضاً، بينما تناول هامي بضع لقمات من قطعته ثمّ استلقى على سريره ووضعها على إحدى ركبتيه النحيلتين، وحدق إليها محتاراً، وكأنه يتساءل عن سبب رفضه إياها، ثمّ رآني أنظر إليه، فأمسكها وقال: «هل تريدها؟ يوجد كره متبادل بيني وبين الطعام، رغم أنني اعتدت التهام أفضل أصنافه خلال الأيام التي قضيتها في المنشرة. أنا متأكّد أنّ تلك الفطور هي سبب حالي هذه، تناول النوع الخاطئ منها وستقتلك آلام أمعائك، وهذا ما أصابني».

حسناً، لقد أردت قطعة اللحم، إذ ما زلت جائعاً، ولكن عجزت عن سؤاله مجدداً إن كان متأكّداً، وقد أخبرني أنه كذلك، فأخذتها سريعاً خشية أن يبدّل رأيه.

توقف بيرسي خارج زنزانتنا، وصوب إحدى يديه الذائبتين إليّ وتمتم بضع كلمات غير مفهومة.

أجبته واللحم النيء تقريباً يملأ فمي: «لا أفهم ما تقوله».

ولكن بيرسي عاود المشي مجدداً حتّى خرج من الباب، ورنّ جرسه مرةً أخيرةً، وأغلق الأقفال الأربعة كلها.

قال هامي: «قال إن كيلين يريد رؤيتك، لقد توقعت ذلك، فأنت كامل، ولكنك مختلف عنا، رغم أن لهجتك ليست كذلك...».

توقف عن الكلام، واتسعت عيناه وكأن فكرةً لمعت في ذهنه، ثمّ تابع: «أخبره أنك من أولوم! إذ تقع بعيداً شمال سيتادل. وسينجح ذلك.».

«ما هي أولوم؟».

«المتدينون. إنهم مختلفون عن الجميع. أخبرهم إنك تفاديت السم!».

«أنا أجهل كل ما تقوله».

صاح أحدهم: «توقف عن التفوه بأشياء يجب كتمانها يا هامي. يا لك من محتال».

صرخ هامي: «اصمت يا ستوكس. إن هذا الصغير سيحميني».

نهض آي في الطرف المقابل، وأمسك القضبان بأصابعه التي لمع الشحم عليها وابتسم قائلاً: «ربما لست معتوهاً يا هامي، ولكن لا أحد سيحميك، أو أي فرد منا».

4

أدركت وجود سرير واحد في الزنزانة وهو لهامي، ثمّ فكّرت في سلبه إياه – فهو يعجز عن الدفاع عن نفسه أمامي – ولكنني تساءلت لبرهة: «ما

الذي أفكّر فيه؟... أو ما الذي أتحوّل إليه؟»، فقد سبق لي أن تناولت طعامه، ولكنه قدّمه لي على الأقل، كما أنني أستطيع الاستغراق في النوم على الأرضية الصخرية الرطبة. لقد جئت إلى هنا منذ فترة قصيرة نوعاً ما، وأجهل كم بقيت فاقداً للوعي. شعرت بإرهاق شديد، فشربت كوب مياه من الدلو، ثمّ استلقيت حيث اعتقدت أنه جانبي من الزنزانة.

جلس في الزنزانة المجاورة رجلان يدعيان فيرمي وستوكس، وكانا شابين قويين، رغم أنهما أصغر حجماً من آيوتا.

فيرمي: «هل سيأخذ الفتى قيلولةً؟».

ستوكس: «هل نال التعب منك؟».

يا لي من محظوظ، إذ حصلت على أبوت وكوستيلو ديب مالين وفي الزنزانة المجاورة تماماً.

قال هامي: «تجاهلهما يا تشارلي، واخلد إلى النوم، إذ يخسرها الجميع بعد وقوعهم في قبضة حراس الليل، فهم يمتصونها منك، إنها... لا أدري...».

سألت: «هل تقصد قوة الحياة؟»، وشعرت أن أجفاني ثقيلة وتلتصق ببعضها.

«أجل هذا صحيح. وهذا ما يفعلونه. لقد أحضرك كيلين شخصياً إلى هنا، وهذا يعني أنك قوي، وإلا سحقك أولئك الأوغاد كالبيضة، وصدقني، لقد سبق لي أن رأيت شيئاً كهذا».

حاولت سؤاله عن الفترة التي قضاها هنا، ولكنني عجزت سوى عن التمتمة لأن النعاس غلبني، وفكّرت في الدرجات الحلزونية التي قادتني إلى هنا، وشعرت أنني أجري عبرها إلى الأسفل مجدداً وراء رادار، وقلت في نفسي: «احذري من الصراصير، والخفافيش أيضاً».

ركع هامي فوقي كما فعل عندما استيقظت للمرة الأولى في هذا المكان الشنيع، وقال: «تذكّر، لقد جئت من أولوم شمال سيتادل، وقد وعدتني أن تحميني، إياك أن تنسى ذلك أيضاً».

لم أتذكّر أنني وعدته بشيء، ولكنني استغرقت في النوم قبل أن أخبره ذلك.

5

استيقظت بين يدي هامي الذي أخذ يهزني – كان ذلك أفضل من الصفعات – وقد زالت آثار دوار السكر، وهذا ما كان الأمر عليه، وما عانى منه والدي في كل صباح بعد إفراطه في الشرب، بل أشدّ منه، كما آلمتني كتفي اليسرى؛ إذ ربما لويتها وأنا أسقط عن قاعدة التمثال، ولكن خفّت حدة آلامي الأخرى كلها.

«ماذا... كما مضى على...».

«قف مباشرةً. لقد جاؤوا. واحذر العصي المرنة».

وقفت، ووجدت الباب في نهاية الممر مفتوحاً ورأيت ضوءاً أزرق، تلاه ثلاثة حراس ليل طوال وشاحبين وسط هالاتهم، وأخذت هياكلهم العظمية تبرز تارةً وتختفي تارةً أخرى مثل الظلال المتقطعة التي تعكسها الغيوم المتسارعة، وقد حملوا عصياً طويلةً تشبه هوائيات السيارات القديمة.

صاح أحدهم: «انهضوا. لقد حان وقت اللعب».

تقدمه الحارسان الآخران وأذرعهما ممدودة مثل المبشرين الذين يرحبون بالمنتسبين الجدد لديانة ما، ومشيا حتّى وصلا نهاية الممر، فانفتحت أبواب الزنزانات مصدرةً صوتاً قوياً، وتناثرت منها ملايين الرقائق المعدنية الصدئة، وأشار الحارس الثالث إليّ وقال: «أنت لا».

خرج ثلاثون سجيناً إلى الممر، وابتسم هامي إليّ يائساً قبل أن ينسل متجنباً هالة حارس الليل الساكنة، بينما كشّر آي عن أسنانه، ورفع يديه، وصنع دوائر بواسطة إبهاميه وسبابتيه، ثمّ وجه إصبعيه الوسطى إليّ، وقد وجدت ذلك مختلفاً عن الإهانة الأمريكية التقليدية، ولكنني أدركت أنهما تملكان المعنى ذاته. تبع السجناء الحارسين إلى نهاية الممر، وتبينت وجود امرأتين بينهما ورجلين أسودين، وكان أحدهما أكبر من آيوتا عريض المنكبين والمؤخرة، وأشارت المعطيات إلى أنه لاعب كرة قدم محترف، ولكنه مشى ببطء مطأطئاً رأسه، كما ترنح قليلاً قبل عبور الباب في نهاية ممر الزنزانات، لقد كان اسمه دومي، وكانت المرأتان تدعيان جايا وإيريس.

مدّ جندي الليل الثالث إصبعه الشاحب إليّ وعكفه، وقد كان وجهه صارماً، ولكن جمجمته الوامضة عكست ابتسامته الداخلية، وأشار بعصاه كي أسير أمامه إلى الباب، وقال قبل أن أخرج منه: «انتظر... اللعنة».

توقفت، ووجدت أن أحد مصابيح الغاز إلى يميننا قد سقط عن الجدار، وتدلى منحرفاً عن حامله المعدني تحت ثقب يشبه فماً مفتوحاً، ولكن لا تزال ناره مشتعلة ويلوث سخامها الحجارة المجاورة، ولذلك اتجه حارس الليل إليه كي يعيده إلى مكانه، فلامستني هالته الزرقاء، وشعرت حينها أن عضلاتي قد خارت قواها مباشرةً، وأدركت سبب حذر هامي منها، إذ يشبه التعرض إليها الصعق الكهربائي، فابتعدت قليلاً.

أمسك حارس الليل المصباح الذي بدا أنه مصنوع من النحاس الأصفر، وقال: «اللعنة عليك. اثبت في مكانك»، من دون أن يتألم أبداً، رغم يقيني أن حرارته مرتفعة جداً. أخيراً وضعه في الفتحة، ولكنه سقط مجدداً.

«اللعنة».

شعرت وكأنني في حلم؛ إذ احتجزت في زنزانة، ويقودني إلى المجهول مخلوق من الأحياء الأموات يشبه ألعاب الهياكل العظمية التي

امتلكتها في طفولتي... ولكنه ينفّذ الآن ما يصنف ضمن الأعمال المنزلية.

أمسك المصباح مجدداً، وغطى النار بيده الأخرى حتّى انطفأت، ثمّ أفلته كي يعيده إلى الجدار، وقال: «تحرّك. تابع سيرك أيها اللعين».

جلد كتفي المصابة فآلمتني كثيراً، وقد كان الضرب مهيناً وأغضبني في الوقت نفسه، ولكنه أفضل من الضعف الشديد الذي انتابني حين مستني هالته.

مشيت.

6

تبعني عبر ممر حجري طويل قريباً مني، ولكن هالته لم تلمسني، ومررنا بجوار باب هولندي ترك نصفه العلوي مفتوحاً وفاحت منه رائحة طعام شهي يطهونه هناك، كما تجاوزنا رجل يحمل دلوين، وامرأة تحمل صينيةً خشبيةً من أجل الطهو على البخار، وقد ارتديا ملابس بيضاء، وكانت بشرتهما رمادية ووجهاهما نحيلين.

لسعتني العصا المرنة مجدداً، ولكن في الكتف الأخرى هذه المرة، وسمعت الجندي يقول: «تابع طريقك».

«لا تحتاج أن تضربني يا سيدي، فأنا لست حصاناً».

قال، وقد بدا صوته غريباً وكأن الحشرات تملأ حنجرته: «بل أنت حصاني، واشكرني لأنني لا أطلب منك أن تجري».

رأيت خلال طريقنا غرفةً مليئة بالأدوات وتمنيت لو أنني أجهل أسماءها: المخلعة، والعذراء الحديدية، ومقلاع الثدي، كما لاحظت وجود بقع داكنة على الأرضية الخشبية، ووقف جرذ بحجم جرو صغير على قائمتيه الخلفيتين إلى جوار المخلعة وكأنه يسخر مني.

صليت في نفسي: «يا ربي... يا إلهي القدير».

قال الحارس: «هل يسعدك أنك من الكاملين؟ سنرى ذلك بعد انطلاق فير ون».

سألته: «ماذا يعني ذلك؟».

تلقيت الإجابة على هيئة جلدة أصابت هذه المرة الجزء الخلفي من عنقي، فوضعت يدي هناك، ووجدت أن الدماء لطختها.

«اتجه إلى اليسار أيها الصغير. ولا تتردد فالباب مفتوح».

فتحت الباب وصعدت سلماً ضيقاً وطويلاً وكأنه يمتد إلى ما لا نهاية، وعددت أربعمئة درجة قبل أن أتوه بين الأرقام، كما تسلل الألم إلى ساقي مجدداً، ناهيك عن نظيره الحارق في الجزء الخلفي من رقبتي المجروحة إثر جلدة العصا.

«أنت تتباطأ أيها الصغير، وأنصحك بالإسراع إذا أردت تفادي النار الباردة».

حتماً كنت أريد تفادي النار الباردة إن كان يقصد بها هالته، ولذلك تابعت طريقي حتّى شعرت أن فخذيّ على وشك أن يتشنجا ويخذلاني، ولكن في تلك اللحظة وصلنا إلى باب في القمة، فحاولت جاهداً التقاط أنفاسي في ظل هدوء ذلك الشيء خلفي، فهو ميت في نهاية المطاف.

كان هذا الممر أوسع من سابقه، وغطت جدرانه أقمشة مخملية حمراء، وبنفسجية، وزرقاء، كما توضعت قناديل زجاجية فاخرة على فتحات الغاز، فقلت في نفسي: «إنه جناح السكن»، مررنا بجوار تجاويف جدارية صغيرة وتساءلت في نفسي إن احتوت تماثيل فراشات يوماً، وقد كان معظمها فارغاً سوى قلة ضمت أشكالاً رخامية تمثل رجالاً ونساءً عراةً، كما تربع في إحداها شيء شنيع جداً غطت بعض المجسات رأسه، فتذكرت

جيني سكوستر التي عرفتني إلى الوحش الأليف كثولو الذي يفضله الكاتب الأمريكي هاوارد فيليبس لوفكرافت، ويعرف باسم «الذي ينتظر في الأسفل».

لقد قطعنا نصف ميل تقريباً في هذا الممر المجهز عن آخره، وعبرنا قبل بلوغ نهايته بضع مرايا متقابلة ذات إطار ذهبي، والتي خلقت انعكاسات لا نهائيةً عني، ورأيت فيها شعري القذر الذي خلفته الساعات الجنونية الأخيرة خلال محاولة الهروب من ليليمار، إضافةً إلى الدماء على رقبتي، ولم أرَ أحداً سواي، فلم يكن لحارس الليل الذي يرافقني أي انعكاس، ولكن رأيت مكانه هالةً زرقاء خافتةً فقط... وقد طفت العصا المرنة وحدها، ولذلك التفت كي أتأكّد من وجوده، فانهالت العصا عليّ مجدداً وأصابت البقعة ذاتها في مؤخر عنقي، والتي آلمتني مباشرةً.

«تابع سيرك أيها اللعين».

تابعت السير حتّى نهاية الممر حيث وجدت باباً متيناً بدا أنه مصنوع من خشب الماهوجاني الصلب ومُلبّس بالذهب. لمس جندي الليل يدي بعصاه الكريهة، ثمّ نقرها على الباب، ففهمت قصده وطرقته، فجلد كتفي ممزقاً سترتي، وقال:

«أقوى».

ضربت الباب بجانب قبضتي، وسالت الدماء من أعلى ذراعي ومؤخر عنقي وامتزجت مع قطرات العرق اللاذعة. قلت في نفسي: «لا أعرف إذا كان من الممكن قتلك أيها الأزرق البائس الحقير، ولكن سأقتلك إن كان ذلك ممكناً».

انفتح الباب كاشفاً النقاب عن كيلين، المعروف باسم اللورد هاي، الذي اختار ارتداء معطف مخملي فاخر أحمر اللون من بين أي شيء آخر.

قادني دماغي مجدداً إلى عالم الخيال، وبدا ذلك الشيء الذي أمسكني قبل ثوانٍ من هروبي الناجح وكأنه من قصص الرعب المصورة القديمة؛ حيث تألف من مزيج بين مصاصي الدماء، والأحياء الأموات، والهياكل العظمية، وتدلت حينها خصلات شعره الرمادي السميكة حتّى وجنتيه الشاحبتين، ولكنه سرّحه الآن بأناقة إلى الخلف كاشفاً عن وجه رجل مسن يبدو في أوج صحته، وبرزت شفتاه الممتلئتان، وارتسمت خطوط ابتسامة لطيفة حول عينيه البارزتين تحت حاجبيه الكثيفين الأشعثين الرماديين. لقد ذكّرني بشخص ما من دون أن أعرف هويته تماماً.

ابتسم وقال: «تفضّل وادخل أيها الضيف الجديد... تستطيع الذهاب يا أرون».

تردّد حارس الليل – أرون – الذي أحضرني، ولكن كيلين أشار إليه بهدوء، فانحنى قليلاً، وتراجع مغلقاً الباب.

تفقدت المكان حولي، ووجدت أننا في ردهة تكسوها الألواح الخشبية، وتؤدي إلى غرفة معيشة تشبه أحد أندية النبلاء المذكورة في قصص شارلوك هولمز؛ حيث الجدران مكسوة بأناقة، والكراسي ذات ظهر مرتفع، إضافةً إلى أريكة طويلة يغطيها قماش مخملي أزرق داكن، وذلك وسط الإضاءة اللطيفة المنتشرة من ستة مصابيح اعتقدت أن مصدر طاقتها مختلف عن تلك الغازية التي سبق لي أن رأيتها، حيث بدا أن هذا الجزء من القصر لديه إمدادات من الطاقة الكهربائية.

«تفضّل أيها الضيف».

أدار ظهره إليّ من دون أن يبدو قلقاً من مهاجمتي إياه، وقادني إلى غرفة المعيشة التي تمثل نقيض الزنزانة الرطبة وعندها انتابتني موجة الخيال للمرة الثالثة. لعله مطمئن لأنه يمتلك عينين في مؤخر رأسه تحدقان

من وراء شعره الرمادي المُسرّح والذي يغطي عنقه، لن يفاجئني ذلك، ولا أي شيء آخر بعد الآن.

انتصب اثنان من كراسي نادي النبلاء مقابل طاولة صغيرة رُسم على سطحها حصان ووحيد قرن يقفز، ووضعت على مؤخرته صينية صغيرة عليها إبريق شاي، ووعاء سكر في حجم قارورة صغيرة (وتمنيت ألا يكون مسحوق الزرنيخ الأبيض)، إضافةً إلى ملاعق صغيرة وفنجانين نقشت ورود على حافتيهما.

«تفضّل واجلس، هل تود احتساء الشاي؟».

«أجل من فضلك».

«هل تريد إضافة السكر؟ أخشى أن لا كريما لديّ، فهي تسبب لي عسر الهضم، وكذلك الطعام أيضاً».

صبّ الشاي في فنجاني أولاً، ثمّ فنجانه. أفرغت نصف قارورة السكر الصغيرة في فنجاني مقاوماً رغبتي في إفراغها كلها، إذ تملكتني رغبة قوية بتذوّق طعمه الحلو، ثمّ رفعت الفنجان إلى فمي، وتردّدت قبل أن أرتشف أيّ رشفة.

قال كيلين مبتسماً: «هل تعتقد أنه سم؟ اطمئن، إذ أردت تسميمك سأفعل ذلك ضمن مالين في الأسفل، حيث توجد وسائل لا تحصى من أجل قتلك».

لقد فكّرت في السمّ، هذا صحيح، ولكنه ليس سبب تردّدي في احتساء الشاي، حيث أدركت أن الورود على حافته هي نباتات الخشخاش في الحقيقة، فتذكرت دورا، وتمنيت من أعماق قلبي أن تجد رادار طريق العودة إلى تلك المرأة اللطيفة، وأدركت أن احتمالات حدوث ذلك ضعيفة، ولكن

تعلم ما يقولونه عن الأمل: «يملك أجنحةً تحمله إلى أي أحد حتّى أولئك المسجونين».

رفعت فنجاني إلى كيلين وقلت: «أياماً طويلةً وليال سعيدةً»، وشربت، وقد كان مذاقه حلواً ولذيذاً.

«يا له من نخب مميّز، هذه المرة الأولى التي أسمعه فيها».

«لقد تعلمته من والدي». اعتقدت أن الأكاذيب ستملأ إجاباتي في هذه الغرفة الأنيقة، ولكنني لم أكن كاذباً هذه المرة، إذ ربما قرأها والدي في أحد الكتب أو غيرها، ولكن تجنبت ذكر ذلك، إذ ربما وجب أن أمثل دور شخص يعجز عن القراءة.

«أنا أناديك بالضيف، أخبرني ما هو اسمك؟».

«تشارلي».

توقعت أنه سيسألني عن اسم عائلتي، ولكنه لم يفعل، وقال: «تشارلي؟ تشارلي. إنها المرة الأولى التي أسمع فيها هذا الاسم». شعرت أنه يستسيغه، وانتظرني أن أشرح معنى اسمي الغريب، الذي كان أشهر من نار على علم في عالمي، وعندما التزمت الصمت، سألني عن موطني، إذ وجد لهجتي غريبةً عند مسامعه.

قلت: «أولوم».

«آه! لقد جئت من مكان بعيد جداً. أليس كذلك؟».

«أجل، إن كان هذا ما تراه».

اكفهر وجه كيلين، ولاحظت شيئين؛ أولهما أنه شاحب تماماً، وقد وضع مساحيق تجميل على شفتيه ووجنتيه، كما عرفت هوية الشخص الذي يذكرني به: إنه الممثل دونالد ساذرلاند، حيث شاهدته يتقدّم سناً بشكل

سحري في أفلام قناة تيرنر كلاسيك موفيز، انطلاقاً من فيلم ماش وحتى ذا هانغر غيم. والشيء الآخر هو وجود الهالة الزرقاء رغم ضعفها على شكل دوامة شفافة في فتحتي أنفه، ومثلث خفي تقريباً في القوس السفلي من عينيه.

«أخبرني يا تشارلي، هل من الأدب التلصص إلى الناس في أولوم؟ هل هي علامة احترام؟».

قلت: «أنا آسف، ولكن أجد هذا المكان غريباً تماماً، وأنت كذلك»، ثمّ أنهيت فنجان الشاي الذي بقي بعض السكر في قعره، فمنعت نفسي عن جمعه عبر أحد أصابعي المتسخة وتناوله.

«أجل أتفهم ذلك... هل تريد مزيداً من الشاي؟ تستطيع إعداد فنجانك بنفسك، ووضع مقدار السكر الذي تحب، إذ أدرك رغبتك في ذلك، كما أنني لست من هواته أيضاً. إنها صفقة رائعة، ويتعلم الناس إبرام مثلها من أجل أوقات شدتهم».

أجهل كم مضى على إعداد إبريق الشاي قبل وصولي، ولكن ما زال الشاي ساخناً ويتصاعد قليل من البخار منه، ولعله مزيد من السحر، ولكنني لم أكترث، إذ مللت منه، وجل ما أريده أن أجد كلبتي وأعود إلى دياري، ولكن... ما زالت هناك حورية البحر، لقد كان ذلك خاطئاً وكريهاً إلى حدّ إبادة الجمال تماماً.

«لماذا غادرت أولوم يا تشارلي؟».

تبينت وجود مكيدة في ذلك السؤال، ولكنني أدركت إمكانية تفاديها بفضل هامي، وأجبت: «كي أتجنب الموت».

«ماذا؟».

«لقد تفاديت السمّ».

«أقر أن هذا تصرف حكيم جداً، ولكن من الغباء قدومك إلى هنا، أليس كذلك؟».

قلت: «لقد أوشكت على الخروج»، وفكرت في أحد أقوال والدي الأخرى: «يختلف الاقتراب من الهدف تماماً عن الوصول إليه». بدت أسئلة كيلين كالألغام، ووجب أن أتجاوزها جميعها وإلا قُضي عليّ.

«كم عدد الأفراد الآخرين الذين «تفادوا السمّ» كما تقول؟ وهل جميعهم من الكاملين؟».

هززت كتفي، فعبس كيلين، ووضع فنجانه بقوة على الطاولة (وهو بالكاد شرب منه) وقال: «إياك واستنفاد صبري يا تشارلي، فمن الخطأ القيام بذلك».

«أجهل عددهم». إنها الإجابة الأكثر أماناً، إذ جل ما أعرفه عن الكاملين أن لونهم ليس رمادياً، ولم يخسروا أصواتهم، أو يحتمل أنهم توفوا عند ذوبان أحشائهم الداخلية وانسداد سبلهم التنفسية، إذ أجهل صحة هذه الأفكار حتّى.

«يتوق سيدي قاتل الرحلة من أجل جمع الأفراد الاثنين والثلاثين، إنه حكيم جداً، ولكنه طفولي بعض الشيء، إذ يجهل امتلاكي واحداً وثلاثين فرداً يا تشارلي، وبالتالي أستطيع التخلص منك متى أريد، ولذلك أجب بدقة وصدق عن أسئلتي».

أومأت، وتمنيت أنني بدوت مهذباً، وقد كنت كذلك في الحقيقة، وأردت منح هذا الوحش إجابات دقيقةً جداً... ولكن ليست صادقةً.

قلت: «لقد كان الأمر مربكاً جداً في النهاية»، وفكّرت في التسميم الجماعي الذي حدث في جونزتاون، وصليت أن يشبه ما حدث في أولوم.

أدرك أن هذا التصرف شنيع، ولكنني أعلم تماماً أن حياتي على المحك وسط هذه الغرفة الجميلة المضاءة جيداً.

«أستطيع تصور ذلك. لقد حاولوا الصلاة كي يتخلصوا من اللون الرمادي، وعندما فشلوا... ما الذي يضحكك؟ هل تجد الأمر مسلياً؟».

عجزت عن إخباره حول وجود مسيحيين متعصبين في عالمي – الذي أراهن أنه أبعد كثيراً من أولوم – يؤمنون أنهم يستطيعون الصلاة كي يتخلصوا من المثليين، ولكنني قلت: «إنني أضحك من غباء هذا التصرف».

لقد ابتسم أيضاً، إذ رأيت النار الزرقاء تتوارى خلف أسنانه، وقلت في نفسي: تملك أسناناً كبيرةً يا كيلين، وقال: «إنها إجابة قوية، هل أنت كذلك؟ سنرى».

التزمت الصمت.

«أي غادرت قبل أن يصبوا عصير البلادونا في فمك».

لقد لفظ كلمة عصير بطريقة مختلفة، ولكنني أدركت مباشرة ما يرمي إليه.

«أجل».

«أنت وكلبتك».

قلت: «كانوا سيقتلونها أيضاً»، وانتظرته أن يقول: أنت لست من أولوم، إذ لا كلاب هناك، بل تختلق إجاباتك خلال حديثنا.

ولكنه أومأ وقال: «أجل، كانوا سيفعلون ذلك. أخبروني أنهم قتلوا الأحصنة، والأبقار، والخراف»، ثمّ تأمّل فنجان شايه مباشرةً، ورفع رأسه إلى الأعلى، فأضاءت عيناه بلون أزرق رائع، وذرفت دموعاً كهربائيةً اختفت عند خديه المتجعدين، ورأيت العظم يومض لوهلة تحت جلده.

«أخبرني لماذا جئت إلى هنا؟ لماذا اخترت ليلي؟ أجبني بصدق، وإلا سأدير رأسك اللعين حول رقبتك اللعينة، وستموت محدقاً إلى الباب الذي أوصلك حظك السيئ إلى عتبته».

تمنيت أن تساعدني الحقيقة كي أحافظ على موقع رأسي لبعض الوقت، وقلت: «لقد كانت عجوزاً، وسمعت قصصاً حول حجر دائري يمكنه إعادة الشباب إليها»، وحركت إصبعي في الهواء على شكل دائرة.

«وهل نجح الأمر؟».

إنه يعرف أن الأمر نجح، إذ ربما غفل عنها تجري وسط دورية جنود الليل لأنه كان في عربته الكهربائية الصغيرة، ولكنهم رأوها.

«أجل، لقد نجح».

«لقد حالفك الحظ، فالساعة الشمسية خطيرة، لقد اعتقدت أن ذبح إيلسا في بركتها سيقضي على قوتها، ولكن السحر القديم عنيد حقاً».

إيلسا، حسناً هذا اسم إريال في هذا العالم.

«أستطيع إرسال بعض الجنود كي يحطموها بمطارقهم، ولكن لا يزال الأمر ينتظر موافقة قاتل الرحلة، وأعتقد أن بيريتا تمنعه عن ذلك لأنها تحب تلك الساعة الشمسية. هل تعلم ما يفعله السحر يا تشارلي؟».

اعتقدت أنه يفعل أي شيء – مثل أن يمنح الرحالة اليائسين مثلي القدرة على زيارة العوالم الأخرى – ولكن هززت رأسي نافياً.

«إنه يمنح الناس الأمل، وهذا ما أعتبره شيئاً خطيراً، ما قولك؟».

فكّرت في قول إن الأمل يملك أجنحةً، ولكنني قررت الامتناع عن ذلك، وأجبت: «لا أعرف يا سيدي».

ابتسم، ورأيت للحظة عظم فكه يومض تحت شفتيه، وقال: «ولكنني أعرف ذلك حق المعرفة، لم يدفع سكان محافظتك غير المحظوظين إلى تسميم أنفسهم وحيواناتهم سوى الأمل بحياة أبدية سعيدة بعد أن فشلت صلواتهم في التصدي للون الرمادي؟ أنت تملك أحلاماً دنيويةً، ولذلك نجوت، ووصلت إلى هنا، حيث تموت آمال الأشخاص مثلك، وستصدق ذلك عاجلاً أم آجلاً. أخبرني كيف تجاوزت هانا؟».

«لقد انتظرت حتّى سنحت الفرصة أمامي واستغللتها».

انحنى إلى الأمام حتّى استطعت شم رائحة عفن قديم، وقال: «أنت لست شجاعاً فقط بل قوي. يا إلهي، ولكنك قصدت ليليمار من أجل شيء آخر غير كلبتك، أليس كذلك؟ أخبرني الحقيقة، وإلا قطعت رقبتك»، ورفع يده وذلك الظفر الطويل مجدداً.

قلت مباشرةً: «الذهب».

لوّح كيلين يده غير مصدق وقال: «تستطيع إيجاد الذهب حيث نظرت في ليلي، ناهيك عن أن عرش هانا مصنوع منه».

«ولكنني أعجز عن حمل العرش وحدي يا سيدي، أليس كذلك؟».

أضحكته إجابتي، وبدا صوته مروعاً وكأن عظاماً جافةً تحتك مع بعضها، وتوقف فجأةً كما بدأ.

«لقد سمعت... قصصاً ولكن لعلها مجرد شائعات... عن وجود قطع من الذهب...».

«هل تقصد الخزينة، طبعاً، ولكن ألم يسبق لك أن رأيتها؟».

«لا».

«ولم تحضر الألعاب أو تراقبها عبر النوافذ؟».

«لا»، لقد كنت وسط محادثة خطيرة، لأنني أملك فكرةً سطحيةً جداً عن معنى كلماته التي ربما تكون فخاً.

«ماذا عن البئر المظلمة؟ هل توجد قصص عنها في أولوم؟».

«أجل... هذا صحيح». لقد تصببت عرقاً، وأدركت حتمية الوقوع في أحد فخاخه إن استمر هذا الاستجواب لفترة أطول.

«ولكنك عدت من أجل الساعة الشمسية، لماذا فعلت ذلك يا تشارلي؟».

استقمت في جلستي، وحاولت أن تنم كلماتي وتعابير وجهي عن الشجاعة، وقلت: «لقد أردت الخروج قبل أن يحل الظلام، وكدت أنجح».

ابتسم مجدداً، وظهرت جمجمته تحت جلده الوهمي، وتساءلت إن سبق أن كان – والآخرون – بشراً؟ أعتقد ذلك. ربت كيلين شفتيه بظفره الطويل البشع، وتفحصتني عيناه، ثمّ قال: «تحمل كلمة كدت ألماً شديداً بين حروفها، أليس كذلك؟ لا أهتم لأمرك يا تشارلي، ولا أصدقك أيضاً، وأود إرسالك إلى بيلتس، ولكن قاتل الرحلة لن يقبل، إذ يريد إيجاد الكاملين الاثنين والثلاثين، ولم يعد ينقصنا سوى شخص واحد غيرك في ظل وجودك في مالين، ولذلك عد إلى هناك».

رفع صوته عالياً جداً إلى درجة أنني أردت تغطية أذني، ومرت لحظة تحوّل فيها رأسه إلى مجرد جمجمةً وسط نار زرقاء أعلى معطفه المخملي الأحمر المصطنع، وقال: «أرون».

انفتح الباب، ودخل أرون وقال: «نعم يا سيدي».

«خذ تشارلي إلى الزنزانة مجدداً، ولكن أره بيلتس أولاً، أريده أن يعلم أن مالين ليست أسوأ الأقدار في القصر الذي حكمه يوماً الملك جان، عسى أن يتلاشى اسمه قريباً، وأنت يا تشارلي...».

«نعم؟».

قال، وقد ابتسم وجهه الوهمي وجمجمته الحقيقية معاً: «أتمنى أنك استمتعت خلال هذه الزيارة وتناول الشاي والسكر، لأنها المرة الأخيرة التي ستنال فيها هذه المعاملة. تعتقد أنك ذكي وقوي، ولكنني أستطيع قراءة أفكارك، وستضعف مع الوقت... خذه من هنا».

رفع أرون عصاه المرنة، ولكن وقف جانباً كي أمر من دون أن تمسني هالته التي تشل جسدي، وفور وصولي إلى الباب، وقبل لحظات من نجاتي من هذه الغرفة المرعبة، قال كيلين: «يا إلهي أوشكت أن أنسى، تعالَ يا تشارلي».

لقد شاهدت رفقة والدي حلقات مسلسل كولومبو بعد ظهر أيام الأحد، وهذا ما جعلني أدرك الفخ الكامن في عبارة: «يوجد سؤال واحد بعد»، ولكن تملكني الرعب تماماً.

استدرت ووقفت إلى جوار الكرسي الذي جلست عليه قبل قليل، بينما فتح كيلين درجاً صغيراً في طاولة الشاي، وأخرج منه شيئاً تبيّن أنه محفظة... ولكنها لم تكن محفظتي، إذ امتلكت واحدةً جلديةً من لورد بوكستون، والتي أهداني إياها والدي في عيد ميلادي الرابع عشر، بينما كانت هذه سوداء لينة وبالية.

«ما هذه؟ ينتابني الفضول حيالها؟».

«لا أدري».

ولكنني تعرفت إليها بعد زوال صدمتي الأولية، وتذكرت أن دورا أعطتني قطع الحذاء الجلدي المميزة، ثمّ أشارت أن أترك حقيبتي كي أتجنب حملها إلى ليا، ففتحتها ووضعت محفظتي في جيبي الخلفي تلقائياً من دون التفكير في الأمر أو النظر حتى، إذ التفتت حينها إلى رادار

وتساءلت إن كانت ستبقى سليمةً برفقة دورا، وحملت محفظة كريستوفر بولي طوال الوقت.

«لقد وجدتها، فأخذتها معتقداً أنها تملك قيمةً ما، ووضعتها في جيبي ونسيت أمرها».

فتح محفظة الجيب، وأخرج منها ورقة عشرة دولارات، وهي الأموال التي حملها بولي فقط، وقال: «لعل هذه ورقة مالية، ولكن لم يسبق أن رأيت واحدةً منها».

بدا أن ألكسندر هاملتون ينتمي إلى شعب إمبيس، أو طبقتها الحاكمة، ولكن الورقة خلت من أيّ كلمات، بل مجرد كتابات غامضة معقدة آلمت عيني تقريباً، وارتسم بدل الرقم 10 في زواياها الرمزان التاليان: . «هل تعلم ما معنى هذين؟».

هززت رأسي نافياً، وقد عجزت عن ترجمة الكلمات والأرقام المكتوبة إلى الإنكليزية أو الإمبيسية، لأنها تنتمي إلى حقل لغوي مجهول.

أخرج كيلين رخصة قيادة بولي منتهية الصلاحية أيضاً والتي كان من الممكن قراءة اسمه عنها بوضوح؛ بينما كان باقي محتواها مجموعةً من الحروف القديمة التي شكلت رسالةً مألوفةً.

«من هو بولي، وما هذه الصورة؟ لم يسبق أن رأيت مثلها».

«لا أدري»، وقد علمت شيئاً واحداً: وهو أن الحظ حالفني كثيراً بعد ترك حقيبة ظهري كي أركض أسرع، إذ احتوت على محفظتي وهاتفي – الذي كان سيجذب اهتمام كيلين حتماً – إضافةً إلى التوجيهات المختصرة التي أملتها عليّ كلاوديا، وأشك أن كلمات تلك الورقة مجرد خربشات قديمة، وكذلك ما كتب على ورقة العشرة دولارات هذه، أو رخصة قيادة بولي، بل لعلها كتابات إمبيسية.

«أنت تكذب يا تشارلي».

قلت، وبدا صوتي أجش: «إنها الحقيقة، لقد وجدتها في حفرة إلى جوار الطريق».

أشار إلى قطعتي الجلد وقال: «وهذين؟ هل وجدتهما في حفرة إلى جوار الطريق أيضاً؟».

قلت: «أجل، مع هذه»، وأشرت إلى المحفظة، وانتظرت أن يخرج مسدس السيد بوديتش ويسألني: «وماذا عن هذا؟ لقد وجدناه وسط العشب الطويل خارج البوابة الرئيسية». أيقنت أن هذا ما سيحدث.

ولكن بدل أن يضع المسدس أمامي مثل الساحر الذي يخرج الأرنب من القبعة، أمسك المحفظة ورماها عبر الغرفة وصرخ على أرون: «أخرج هذا القذر من هنا. لقد لوث بساطي، وكرسيي، وحتى الفنجان الذي استخدمه. أخرج هذا الكاذب القذر من مسكني».

لقد أسعدني خروجي من هناك.

الفصل الحادي والعشرون

بيلتس- المرهم- ليس هناك أي بقعة رمادية- أيام الزنزانة.

1

قادني أرون عبر ثلاثة أدراج إلى الأسفل بدل أن يعيدني إلى زنزانتي، ومشى خلفي يدفعني بعصاه بين الفينة والأخرى، وكان ذلك كريهاً ومهيناً، إذ بدا وأنه يقود بقرةً إلى الحظيرة. ومن حسن حظي أنه لم يقدني إلى المذبح على الأقل، لأنني الفرد الحادي والثلاثين في نهاية المطاف، وبالتالي أملك قيمةً معتبرةً. لمعت فكرة في ذهني حينها ولم أعرف سببها؛ وهي أن العدد

واحد وثلاثين أولي، أي يقبل القسمة على واحد والعدد نفسه فقط، على عكس العدد اثنين وثلاثين الذي يمكن تجزئته إلى عوامل أصغر منه.

مررنا بجوار أبواب كثيرة معظمها مُغلق، وأخرى مفتوحة بالكامل أو جزئياً، وقد عمَّ السكون خلفها. انتابني خلال رحلتنا شعور الهجر والخراب، وقد رأيت جنود الليل، ولم أتوقع أن ساكني القصر قليلون إلى هذا الحدّ. أجهل حتّى الآن وجهتنا. في النهاية، تناهى إلى مسامعي صوت صخب آليات وضربات مكتومة منتظمة تشبه نبضات القلب، وتيقنت حينها أننا في مكان أعمق من ديب مالين، إذ تباعدت مصابيح الغاز عن بعضها أكثر، ناهيك عن ارتعاش ضوء معظمها. ارتفع صوت الضربات، وارتفع أكثر منه صخب الآليات عند وصولنا إلى الدرج الثالث، واقتصر الضوء بمعظمه على هالة أرون الزرقاء. رفعت قبضتي كي أطرق الباب القابع في نهاية الدرج وبقوة أيضاً – حيث أردت تجنب جلدة أخرى على الجزء الخلفي من عنقي بواسطة العصا الكريهة.

قال أرون بصوته الغريب الذي يشوبه أزيز الحشرات: «لا، لا، افتحه فقط هذه المرة».

فتحت المزلاج الحديدي، ودفعت الباب فقابلني مقدار هائل من الصوت والحرارة، وحثني أرون على الدخول، فتصبب العرق من وجهي وذراعيّ مباشرةً، وأدركت أنني أقف على شرفة ذات سياج معدني يصل إلى مستوى خصري، وأمامي ما يشبه صالة رياضة في الجحيم؛ إذ احتوت الساحة الدائرية في الأسفل اثني عشر رجلاً وامرأةً رماديين على الأقل يمارسون المشي السريع على أجهزة المشي الرياضية، وقد لُفّ حبل مشنقة حول عنق كل واحد منهم، وراقبهم ثلاثة من جنود الليل المتكئين إلى الجدران الصخرية حاملين عصيهم المرنة، بينما اعتلى واحد آخر ما يشبه المنصة وضرب أسطوانة خشبية وكأنها طبل كبير، وقد رسمت عليها فراشات كبيرة دامية، ولكن لعل هذه الصورة غير صحيحة، إذ أشك في أن

الفراشات تنزف. انتصبت الآلة الصاخبة في الطرف المقابل تماماً وراء أجهزة المشي، وتألفت من المكابس وأحزمة المراوح، واهتزت في مكانها، وتدلى من السقف ضوء كهربائي واحد يشبه ما يستعمله الميكانيكيون من أجل فحص محركات السيارات التي يصلحونها.

تذكرت بعد رؤية هذا المشهد القوارب الحربية من فيلم بين هور، أحد أفلامي المفضلة التي شاهدتها على قناة تورنر كلاسيك موفيز؛ إذ كان الرجال والنساء هنا عبيداً مثل الرجال الذين جذفوا في القوارب. تعثرت إحدى النساء خلال وجودي هناك، فتشبثت بأطراف أصابعها إلى الحبل الذي خنقها قبل أن تستعيد توازنها، وراقبها اثنان من حراس الليل، ثمّ تبادلا النظرات وقهقها.

سألني أرون من الخلف: «هل ترغب أن تكون هنا أيها الصغير؟».

عجزت عن تحديد أي الأمور أكثر رعباً؛ السجناء الذين كان مشيهم السريع أقرب إلى الجري، أم الطريقة التي ضحك فيها الهيكلان العظميان من المرأة التي تعثرت وأوشكت أن تختنق، فأجبته: «لا، لا أريد ذلك».

تساءلت عن مقدار الطاقة التي تولدها هذه الآلة القديمة التي تديرها أجهزة المشي، لم أعتقد أنه كبير، فهي لا تزود بالكهرباء سوى مساكن لورد هاي، فقد انتشرت مصابيح الغاز البالية في سائر الأماكن.

«كم يجب أن...».

«تستمر المناوبة اثنتي عشرة ساعةً إلا إن اختنق أحدهم، ولذلك نضع بعضهم على مقاعد الاحتياط... حسناً، لقد ألقيت نظرةً أيها الصغير، وحان وقت الرحيل»، قال كلمةً مختلفةً عن ساعة، ولكن فهمت قصده كما حدث سابقاً، حيث كنت أسمع الإمبيسية وأتحدث بها، وأجيدها شيئاً فشيئاً رغم أنني لم أتقن بعد الألفاظ العامية ولكن سأصل إلى هذه المرحلة في النهاية.

صدقني، لقد أسعدني الخروج من هذا المكان، ولكن قبل أن أستدير، رأيت المرأة التي سقطت قبل قليل وهي تحدق إليّ، وقد تدلى شعرها في خصلات سميكة بللها العرق، ودفنت وجهها وسط البقع والنتوءات الرمادية دون بعض ملامحها التي كانت كافيةً كي ألاحظ يأسها.

هل أغضبني هذا المشهد كما حدث حين رأيت حورية البحر؟ لا أدري، إذ كنت غاضباً من كل شيء، لقد انحرفت الأمور عن مسارها، وأدى ذلك إلى احتجاز أشخاص في الزنزانات، وإجبار آخرين مرضى أن يركضوا على أجهزة المشي وحبال المشنقة حول رقابهم من أجل تشغيل المصابيح الكهربائية في مسكن لورد هاي وربما بعض المحظوظين الآخرين الذين ينتمي إليهم الرجل أو المخلوق المسؤول عن كل هذا: قاتل الرحلة.

قال أرون: «يجب أن تسعد لأنك من الكاملين، وإن لفترة قصيرة، إذ قد تندم على ذلك بعدها».

وجلدني مجدداً على مؤخر عنقي كي يؤكد وجهة نظره، فانفتح الجرح مجدداً.

2

وضع أحدهم بطانيةً قذرةً (كان حجمها عادياً بحسب ما أعتقد) في الزنزانة التي أتشاركها مع هامي، ولعله حارسنا/سجاننا بيرسي. عندما نفضتها تساقطت منها بعض حشرات القمل، ثمّ جلست عليها، بينما استلقى هامي على ظهره محدقاً إلى السقف، ولاحظت وجود خدش على جبهته، ودماء جافة أسفل أنفه، كما غطت الجروح ركبتيه، وجرت الدماء من أحدها إلى أسفل ساقه اليسرى.

سألته: «ماذا أصابك؟».

قال بصوت ضعيف: «إنه وقت اللعب».

قال فيرمي من الزنزانة المجاورة الذي أصيبت عينه: «ليس نداً من أجل هذه الأمور».

تابع ستوكس: «ولا مرةً واحدةً»، وامتلك الأخير كدمةً على صدغه من دون أي إصابة أخرى.

صاح آي من الطرف المقابل: «اصمتا، ساعداه، ودعاه وشأنه حتى ذلك الحين».

سكت فيرمي وستوكس، وجلس آي وظهره إلى جدار زنزانته عابساً ونظر إلى الأرض بين ركبتيه وتبيّن أنه تلقى ضربةً فوق إحدى عينيه، كما تصاعد الأنين وصرخات الألم المكتومة من الزنزانات الأخرى، بينما بكت إحدى المرأتين في هدوء.

انفتح الباب، ودخل بيرسي حاملاً دلواً يتأرجح من أحد مرفقيه، ثمّ وقف ونظر إلى مصباح الغاز الذي سقط عن الحائط، فوضع الدلو على الأرض، وثبت المصباح، ولكنه لم يقع هذه المرة، وأخرج عود ثقاب خشبياً من جيب ثوبه، ومرره على إحدى الحجارة في الجدار كي يشعله، وقرّبه من فتحة المصباح النحاسي حتّى أضاء مجدداً، وتوقعت أن يقول فيرمي شيئاً، ولكن بدا أن تعليقاته الطريفة قد نفدت منه.

تمتم فيرمي بضع كلمات غير مفهومة عبر الفوهة التي تسمح بمرور قطرة مياه والتي كانت فماً يوماً.

قال آي: «سآخذ قليلاً منه... وأعط الفتى الجديد أيضاً، إذ يحتاجها شريكه عديم الفائدة»، فأخرج فيرمي من الدلو قرصاً صغيراً وناوله إياه، وقد بدا ذلك مثل خمس سنتات خشبية كما في المثل الشعبي الذي يقول: «تجنب أخذ أيّ سنتات خشبية».

سألت: «هل هذا مرهم؟».

قال آيوتا: «وماذا تعتقد أنه بحق الجحيم؟»، وبدأ يدهنه على رقبته العريضة.

التفت إليّ بيرسي ولاحظت أنه تمتم شيئاً.

أعتقد أنه طلب مني أن أمد يدي، فأخرجتها من بين القضبان، وأعطاني أحد الأقراص الخشبية الذي احتوى مادة كريهة الرائحة.

قلت: «شكراً لك يا بيرسي».

نظر إليّ وبدا أنه مذهول، إذ لعلها المرة الأولى التي يشكره أحد فيها ضمن ديب مالين على الأقل.

جلست قرب هامي، وسألته عن مكان الألم.

أجابني: «كل جسدي يؤلمني»، وحاول الابتسام.

«ما هو المكان الذي يؤلمه أكثر من غيره؟».

تنقل بيرسي في هذه الأثناء بين الزنزانات في الممر والدلو يتأرجح من مرفقه ويقول ما أظن أنه: «مرهم، هل تريد مرهماً؟».

«ركبتاي، وكتفاي، ويتركز الألم في أمعائي طبعاً، ولكن لا مرهم يستطيع مداواتها».

لهث عندما فركت المرهم على جروح ركبتيه، ولكنه تنهد مرتاحاً عندما دلكت باطنهما وكتفيه؛ إذ تلقيت شخصياً (وأجريت) عمليات تدليك بعد المباريات في موسم كرة القدم، وأعلم تماماً أين أضغط.

قال: «هذا جيد، شكراً لك».

لقد كان متسخاً قليلاً مقارنة بي، وتذكّرت مباشرةً كيف صرخ كيلين مذعوراً: «أخرج هذا القذر من هنا»، وهذا ما كنت عليه تماماً، ويعود ذلك

إلى نشاطي الدائم خلال إقامتي المؤقتة في إمبيس، انطلاقاً من الاستلقاء وسط طين المقبرة وحتى رحلتي الأخيرة إلى بيلتس التي تشبه الحمام البخاري.

«أظن أن هذا المكان يخلو من الحمامات، أليس كذلك؟».

«أجل، لقد احتوت غرف الفرق سابقاً صنابير مياه تعود إلى زمان إقامة مباريات حقيقية، أما الآن فلا يوجد شيء سوى الدلاء التي تحتوي مياهاً باردةً، ولكن... آخ».

«أنا آسف، ولكن الكدمات تُغطي الجهة الخلفية من عنقك».

«تستطيع أخذ حمام وضيعة – هكذا نسميه – بعد وقت اللعب التالي، ولكن يجب أن تتعايش مع الأمر الآن».

«يبدو من مظهركم أنكم خضتم معركةً قاسيةً، فالجراح تغطيكم جميعاً بمن فيكم آي».

قال ستوكس: «ستكتشف ذلك بنفسك».

أضاف فيرمي: «ولكنك ستكره الأمر».

سعل أحدهم في نهاية الممر، فصرخت إحدى المرأتين: «غطِ فمك يا دومي، لا يريد أحد أن يصاب بالعدوى».

واستمر السعال.

3

في وقت لاحق، عاد بيرسي يدفع عربة تضم قطع الدجاج المطهو جزئياً، وألقاها في الزنزانات. تناولت قطعتي ونصف قطعة هامي، ورأيت آي

على الطرف المقابل يرمي العظام في حفرة المرحاض ويصرخ: «اصمتوا جميعاً. أريد أن أنام».

ولكن بالرغم مما قاله، دارت بعد تناول الطعام أحاديث بين الزنزانات، ثمّ خفتت الهمسات حتّى خيّم السكون تماماً، ولذلك اعتقدت أن قطع الدجاج هي العشاء، وأن الوقت ليلاً، ولكن لم تكن لديّ طريقة للتأكد من ذلك؛ إذ خيّم الظلام الدامس فقط وراء نافذتنا ذات القضبان. تناولنا قطع الدجاج تارةً وشرائح اللحم تارةً أخرى، وأحياناً فيليه السمك كثيرة العظام، ولكن لم يكن هناك تحلية، أو بعبارة أخرى، أشياء يعجز بيرسي عن رميها بين القضبان، وقد كان اللحم جيداً مقابل ما تناولت اليرقات منه والذي توقعت الحصول عليه في الزنزانة. لقد أرادوا إبقاءنا في صحة جيدة، وكنا كذلك باستثناء دومي الذي عانى من مشكلة في جهازه التنفسي، وهامي الذي عجز عن تناول الطعام كثيراً لأنه يؤلم أمعاءه.

واظبت مصابيح الغاز القليلة جداً على نثر ضوئها ليل نهار، ولكن الغسق كان يخيّم على ديب مالين معظم الوقت، وهذا ما حيرني وأشعرني بالكآبة، وبالتالي إذا فرضت أنني أعلم موعد قدومي إلى هنا (ولكن لست كذلك)، فأنا خسرت الآن القدرة على تحديد الوقت خلال أيام إقامتي الثلاث الأولى على الأكثر.

ما زال الألم حيث لسعتني عصا أرون المرنة، فوضعت بقايا المرهم على رقبتي ووجهي، وهذا ساعدني قليلاً، وتساقطت كتل الأوساخ مني. غفوت في لحظة، وراودني حلم عن رادار، كانت قويةً وشابة وتقفز إلى جواري بين فوج فراشات برتقالية وسوداء، ثمّ استيقظت فجأةً وسط صمت الزنزانات، الذي قاطعته أصوات الشخير وإطلاق الغازات المعتادة، إضافةً إلى سعال دومي. نهضت وشربت الماء من الدلو، وانتبهت أن أضع إصبعي حيث الثقب في قعر الكوب القصديري، وعندما التفت كي أعود إلى

بطانيتي، وجدت هامي يحدق إليّ، وقد بدت الدوائر المنتفخة تحت عينيه مثل الكدمات.

«لست مضطراً أن تحميني، لا أريد ذلك، سأواجه مصيري أياً كان، فهم يقذفونني كالكرة وما زلنا في وقت اللعب. ماذا سيحدث عندما يقام فير ون؟».

«لا أدري». فكرت في سؤاله ما هو فير ون، ولكن أعلم أنه مسابقة ما في رياضة دامية، مثل المبارزة ضمن القفص، سبق لي أن لاحظت إمكانية تقسيم العدد اثنين وثلاثين إلى ثنائيات، وليس وقت اللعب سوى تمرين وفترة تحضيرية قبل الحدث الرئيسي، ولكن ينتابني الفضول أكثر حول شيء آخر.

«لقد التقيت رجلاً وفتىً خلال طريقي إلى ليليمار، وكانا رماديين كما تعلم».

قال هامي: «لقد أصبح معظم الناس على هذه الحال منذ عودة قاتل الرحلة من البئر المظلمة»، وابتسم بمرارة.

هناك أمور كثيرة تخفيها هذه الكلمات، وأردت أن أسمعها، ولكن التزمت قصة الرجل الرمادي الذي كان يمشي على عكازه، وقلت: «لقد جاءا من سيفرونت...».

همس هامي من دون أن يبدو مهتماً: «وأين هما الآن؟».

«التزم الرجل الصمت، ولكن ناداني بدايةً بالرجل الكامل...».

«ألست كذلك؟ أعلم أن القذارة تغطيك تماماً، ولكن لا أثراً رمادياً عليك».

ثم قال: «مَن عاشرت أمّك حتّى أتى وجهك جميلاً هكذا؟. هل تعلم معنى ذلك؟».

اتسعت عينا هامي، وجلس محدقاً إليّ، وقال: «أخبرني بحق الفراشات البرتقالية التي حلقت يوماً، من أين أتيت؟».

نخر آي من الطرف المقابل وبدّل وضعية نومه.

«هل تعلم معناها أم لا؟».

تنهد وقال: «لقد حكم أفراد أسرة غالين إمبيس منذ الأزل، أنت تعلم ذلك، أليس كذلك؟».

أشرت بيدي إليه كي يكمل كلامه.

«حكموها آلاف وآلاف السنوات».

لقد حدثت الترجمة التلقائية مجدداً، وكأنني أملك لغتين في دماغي منسجمتين معاً وكأنهما واحدة.

قال هامي: «ويمكن القول إنهم ما زالوا كذلك، حيث يتصرف قاتل الرحلة وفق طبيعته فحسب... إن فرضنا أنه ما زال كذلك ولم يتحول إلى إحدى مخلوقات البئر المظلمة... ولكن... ما الذي كنت أقوله؟».

«أفراد أسرة غالين».

«لقد توفوا جميعاً وانتهت سلالتهم... رغم أن قلةً منهم على قيد الحياة الآن...».

لقد علمت ذلك لأنني التقيت ثلاثاً منهم، ولكن أردت كتمان ذلك عن هامي.

«عاش جدي في ظل سلطة أسرة غالين، لقد كان رجالهم ونساؤهم شقراً، مثل الفراشات الكبيرة التي قضى قاتل الرحلة عليها تماماً».

حسناً، لم يقضِ عليها كلها، ولكن أردت إخفاء هذا الأمر أيضاً.

«كما تملكتهم الشهوانية كثيراً، أنت تعلم معنى هذه الكلمة، أليس كذلك؟»، وابتسم كاشفاً عن أسنانه البيضاء الصحية التي استغربت وجودها وسط وجهه الشاحب.

«أجل».

«لقد عاشر رجال العائلة نساءً كثر، ليس ضمن حدود ليليمار أو سيتادل فقط، بل في سيفرونت... وديسك... وأولوم، وصولاً إلى غرين إيزليس الأبعد منها حتى... كما خاضت النساء مغامرات سريةً صغيرةً أيضاً... إذ قيل رجال شهوانيون، ونساء شهوانيات، واغتصاب ثمين، حيث سعد بعض العامة في معاشرة بعض ممن تسري في عروقهم دماء ملكية، وأنت تعلم نتيجة هذا النوع من اللهو، أليس كذلك؟».

قلت: «أطفال».

«أجل، هذا صحيح يا تشارلي. تحمينا تلك الدماء من اللون الرمادي، ولعل أميراً أو أحد رجال الحاشية أو حتّى الملك نفسه قد عاشر جدتي الكبرى، أو حتّى والدتي.. إذ أنني هنا دون بقعة رمادية واحدة، وكذلك آي عظيم الجسد، ودومي، وتوم الأسود... وستوكس وفيرمي... وجايا وإيريس... ودوبل... وبولت... ودوك وفريد... والبقية جميعاً وأنت منهم، ولكنك تجهل كل هذه الأمور، وهذا ما يجعلني أتساءل..».

همست: «ما الذي يدور في ذهنك؟».

قال: «لا شيء، ولكن فكّر مرتين قبل تنظيف نفسك»، واستلقى واضعاً إحدى ذراعيه النحيلتين فوق عينيه التي بدا أن الكدمات تحيط بهما.

صرخ من نهاية الممر وبصوت أجش شخص يدعونه غالي: «هناك شخص يحاول النوم هنا».

أغمض هامي عينيه.

4

استلقيت ولم أنم وقارنت بين العنصرية وفكرة أن ما يدعونهم الأشخاص الكاملين محصنون ضد اللون الرمادي، حيث يشبه الأمر عقلية المتعصبين الأغبياء الذين يقولون إن البيض أذكى فطرياً من السود. لقد آمنت – كما قلت مسبقاً – أن ذوي الدماء الملكية المزعومة بشر عاديون مثل تلك المخلوقات المسكينة التي تتعرق على بيلتس من أجل الحفاظ على مصابيح لورد هاي مضاءةً.

لكن توجد أمور وراثية كي نضعها في عين الاعتبار، أليس كذلك؟ إذ ربما يجهلها شعب إمبيس، ولكنني أدرك العواقب المترتبة على التزاوج السيئ الذي مارسته العائلات الملكية، مثل ظهور داء الناعور، لقد تعلمت هذه الأشياء من صف التثقيف الجنسي في الصف الثامن، وبالتالي ألا توجد شيفرة وراثية تؤمن الحصانة ضد هذا التشوه الرمادي؟

أعتقد أن الحاكم في العالم الطبيعي سيلجأ إلى حماية هؤلاء الناس، على عكس نظيره هنا الذي يريد قتلهم – فلم يكن اسم قاتل الرحلة يمنحك إحساس السلامة والأمان، ولعل الناس الرماديين يعيشون فترةً قصيرةً فقط، حيث ما أصابهم مرتبط بداء أو لعنةً، وبالتالي من سيبقى في النهاية سوى جنود الليل؟ هل يملك قاتل الرحلة كادراً من الأتباع المحميين؟ إن كان ذلك صحيحاً، من سيحكمون بعد إبادة الكاملين ووفاة الرماديين؟ ما هي الحلقة الأخيرة من خطتهم؟ وهل توجد واحدة أساساً؟

يوجد شيء آخر: لقد ذكر هامي إن سلالة غالين حكمت إمبيس منذ الأزل ولكن سلالتهم انتهت، ثمّ بدا أنه يناقض نفسه عندما قال إن بعضاً

منهم لا يزال على قيد الحياة. هل يقصد أن قاتل الرحلة من هذه السلالة؟ مثل رواية غيم أوف ثرونز؟ توجد قطعة ناقصة من القصة، حيث أخبرتني ليا (عبر فرسها طبعاً) إن المنيّة قد وافت أخواتها الأربع وشقيقيها، وكذلك والديها اللذين يحتمل أنهما الملك والملكة، وبالتالي من بقي؟ بضعة أوغاد مثل جون سنو في رواية صراع العروش؟ أم أحد الناسكين المجانين الذي يقطن في مكان ما من الغابة؟

نهضت واتجهت إلى قضبان الزنزانة، ورأيت جايا تقف مثلي في زنزانتها، وقد ربطت ضمادة حول جبهتها، وتسللت منها قطرة دم فوق عينها اليسرى. همست: «هل أنت بخير؟».

«أجل، ولكن يجب أن نلزم الصمت يا تشارلي، إنه وقت النوم».

«أعلم، ولكن... متى انتشر الداء الرمادي؟ وكم مضى على تقلد قاتل الرحلة الحكم؟».

فكّرت في السؤال، وأخيراً قالت: «لا أدري، إذ كنت فتاةً صغيرةً في سيتادل عندما بدأ كل هذا».

كانت إجابةً عديمة الفائدة، إذ تعني كلمة صغيرة سن السادسة، أو الثانية عشرة، أو الثامنة عشرة حتّى، ولكن اعتقدتُ أن بداية الداء الرمادي وسيطرة قاتل الرحلة على البلاد حدثتا قبل اثني عشر أو أربعة عشر عاماً، وذلك اعتماداً على شيء قاله السيد بوديتش: «يُقدم الجبناء الهدايا»، وكأنه شهد ما حدث، وأعطى معارفه بعض الأشياء، وحصل على قدر كبير من قطع الذهب، ولاذ بالفرار، وكذلك أخبرتني دورا أمراً، وهو أنها التقت السيد بوديتش آخر مرة عندما كانت رادار جرواً، وبالتالي كانت اللعنة موجودة على الأرجح، وما يضحك في الأمر أنني أجهل إن كانت سنوات إمبيس مثل السنوات التي أعرفها.

قالت جايا: «اخلد إلى النوم يا تشارلي، إنه خيارنا الوحيد الآن»، ثمّ بدأت تلتفت كي تعود إلى الداخل.

«انتظري يا جايا.. أخبريني، هل تعرفين هوية قاتل الرحلة قبل أن يتحول إلى ما هو عليه الآن؟»، سمعت آيوتا يشخر حينها، ثمّ رأيته يبدل وضعية نومه.

قالت: «كان إلدن، إلدن غالين».

عدت واستلقيت على بطانيتي، وفكرت في اسم إلدن، إذ سمعته مسبقاً حين أخبرتني الفرس فالادا نيابةً عن سيدتها أن الأخيرة تملك أربع أخوات وشقيقين، وأنها رأت جسد أخاها روبرت المسكين بعد أن سحق، بينما توفي الآخر، دون أن تذكر كيف حدث ذلك، أو ترى جثته، وقد أحسن إليها دوماً. هكذا قالت فالادا، أي ليا نفسها.

كان إلدن شقيقها الآخر.

5

مرت ثلاثة أيام، واستنتجت ذلك لأن بيرسي جاء تسع مرات يدفع عربة اللحم غير الناضج تماماً، ولكن ربما مضت فترة أطول، يستحيل التأكد من ذلك وسط ضوء الغسق الذي تنثره المصابيح الغازية في ديب مالين. حاولت خلال ذلك الوقت جمع القطع الناقصة من تاريخ سقوط إمبيس، أو نهوض قاتل الرحلة، أو ولادة اللعنة، وبدا أمراً غبياً وسط بعض المعلومات التي أعرفها، ولكنه ساعدني على أن أمضي الوقت وإن قليلاً، وهذا ما كان في جعبتي:

تقول إحدى المعلومات: تحدّث السيد بوديتش عن مكان حيث يبزغ قمران في الليل ولا توجد مجموعات نجمية كالتي اكتشفها فلكيو الأرض، وقد لمحت بضع نجوم مسبقاً فقط، باستثناء تلك البقعة الزرقاء العابرة التي

ظهرت خلال اقترابي من الساعة الشمسية، إذ غطت الغيوم سماء إمبيس معظم الأوقات، ولو حالياً على الأقل.

تقول معلومة أخرى: غاب ذكر هانا عن حديث السيد بوديتش تماماً، وأعتقد أنه كان سيخبرني عنها، ولكن سمعت عن العملاقة للمرة الأولى عند زيارتي «غوغر».

تركز اهتمامي على القصاصة الثالثة التي احتوت توقعات كثيرةً، حيث تحدّث السيد بوديتش عن الأشياء المحتمل حدوثها إذا اكتشف الناس من عالمنا الطريق إلى إمبيس حيث الثروات التي لم تمسها الأيدي، وليس الذهب سوى أحدها، وقال قبل إدراكه أن ذبحة قلبيةً تصيبه: «هل سيخافون (يقصد أولئك الناهبين من عالمنا) إيقاظ الإله الفظيع لذلك العالم من رقاده الطويل؟».

يؤكد الشريط سوء الأحوال في إمبيس خلال زيارة السيد بوديتش الأخيرة، رغم غياب هانا حينها عن موقعها الحالي، ولكن كانت مدينة ليليمار مهجورةً وتعج بالمخاطر، وخاصةً ليلاً. هل يقصد أنه أدرك ذلك من تجربته الشخصية، مثل حملته الأخيرة كي يجلب ذهباً أكثر، أو لعله سمع الخبر من مصادر موثوقة؟ ربما من وودي؟ أعتقد أنه جاء مرةً أخيرةً من أجل الذهب عند غياب هانا عن هنا.

لقد بنيت برج فرضيات على هذا الأساس الهش: كانت زيارة السيد بوديتش الأخيرة إلى هذا المكان في ظل حكم ملك غالين (المدعو جان ربما) والملكة (مجهولة الاسم) واللذان نحيا عن العرش، وقتل خمسة من أبنائهم السبعة على الأقل، إذ فرت ليا برفقة كلاوديا و وودي، وادعت ليا أن شقيقها إلدن ميت أيضاً، وقد وضحت تماماً أنها أحبته أكثر من أي شخص آخر (لقد قالت الفرس ذلك، هذا مضحك). ألا تُفضل ليا أن يكون شقيقها ميت بدل أن يكون قاتل الرحلة؟ وهل سترغب أيّ أخت في تصديق أن شقيقها المحبوب تحول إلى وحش؟

أليس ممكناً أن إلدن فرّ من عملية التطهير – إن كان هذا فحواها – وأيقظ الإله الفظيع في ذلك المكان من رقاده؟ اعتقدت أن هذا التفسير هو الأكثر واقعيةً بين فرضياتي نظراً إلى شيء قاله هامي: «منذ أن عاد قاتل الرحلة من البئر المظلمة».

لعله مجرد أسطورة فارغة، ولكن ماذا لو كان حقيقةً؟ وأن شقيق ليا ذهب إلى أعماق البئر المظلمة (التي عبرت واحداً منها كي أصل إلى هنا) إما هروباً من التطهير أو عمداً؟ وماذا إن نزل إلى هناك بصفته إلدن وعاد متقمصاً شخصية قاتل الرحلة؟ ولعل إله البئر المظلمة يتحكم بإلدن، أو يملكه. إنها فكرة مروّعة، ولكنها منطقية بعض الشيء، وذلك اعتماداً على كيفية سحقه البطيء والمؤلم للجميع سواء كانوا رماديين أم كاملين.

قليلة هي الأمور غير القابلة للتفسير مقابل تلك التي احتلت مكانها الصحيح في الأحجية، وكما سبق لي أن قلت، مرّ الوقت سريعاً بفضلها.

ولكن فشلت في الإجابة عن سؤال واحد فقط: ما الذي يمكن فعله حيال ذلك؟

تعرفت قليلاً إلى رفاقي في السجن، ولكن من دون الوصول إلى ما يمكن تسميته علاقات جادة، نظراً إلى احتجازنا في زنزاناتنا دوماً، وقد كان فيرمي وستوكس الثنائي المضحك، وقد اندهشا من خفة دمهما (أو ما يفعلانه) أكثر من أي شخص آخر، بمن فيهم أنا. كان جسد دومي ضخماً، وعانى من سعال قاتل، والذي يصبح أكثر سوءاً عندما يستلقي، أما الرجل الأسود الآخر المدعو توم فكان جسده أصغر من دومي، ولكن صوته عذب ونغمته موسيقية، ولم يستطع أحد سوى إيريك إقناعه بالغناء، وروت إحدى أغنياته قصةً أعرفها عن فتاة صغيرة تذهب كي تزور جدتها فتجد ذئباً يرتدي ملابس نومها. أذكر أنه كان لقصة ذات الرداء الأحمر نهايةً سعيدةً، على عكس نسخة توم التي اختتمها بيت شعر حزين: لقد هربت، ولكن الذئب أمسكها، وضاع جهدها سدى.

بدا أن النهايات السعيدة قليلة في ديب مالين.

في اليوم الثالث، بدأت أفهم معنى جنون الاحتجاز، إذ لعل زملائي في السجن أفراد كاملون، ولكن ليسوا مرشحين كي ينضموا إلى منسا، وقد تبينت أن جايا ذكية جداً، إضافةً إلى شخص يدعى جاكاه الذي يمتلك مخزوناً لا ينضب من الأحجيات، وأي كلام خلاف ذلك مجرد ثرثرة عابرة.

مارست تمارين الضغط كي أحافظ على تدفق الدماء في عروقي، إضافةً إلى القرفصاء والجري في المكان.

ذات مرة قال آي: «انظروا إلى الأمير الصغير كيف يستعرض قدراته». كان آيوتا شخصاً مخبولاً، ولكن حاولت أن أحب جانباً فيه؛ فهو يشبه بطريقة ما صديقي القديم بريتي بيرد، فهو صريح تماماً حيال جنونه، ولطالما أحببت الأشخاص الذين يجيدون التعليقات المهينة، وصحيح أن آيوتا ليس أفضلهم، ولكن لا بأس به، وقد استمتعت بإثارة غضبه.

رفعت راحتي يدي إلى صدري، ثمّ ضربت ركبتي بهما وقلت: «انظر إلى هذه الحركة يا آي، حاول تجربتها».

«هل تريدني أن أشد عضلاتي فتتشنج أو تتمزق؟ سيعجبك هذا الأمر، أليس كذلك؟ وبالتالي تستطيع الإفلات مني عند إقامة فير ون».

قلت: «لن يقام هذه المرة، وسنبقى واحداً وثلاثين شخصاً على حالنا، إذ نفد الأفراد الكاملون من جعبة قاتل الرحلة، هيّا دعنا نرَك تفعل هذه الحركة»، رفعت يديّ إلى ذقني تقريباً، وواظبت على ضرب ركبتي إليهما، وساندني جسدي أمام الألم حينها، وإن قليلاً.

قال بيرند: «تابع ما تفعله وستمزق مؤخرتك إلى نصفين»، كان أكبرنا سناً، وأصلع تقريباً باستثناء بعض الشعرات الرمادية.

لقد أضحكني ذلك وأرغمني على التوقف، وكذلك هامي الذي كان مستلقياً على سريره.

قال آي: «يجب أن نحصل على الفرد الثاني والثلاثين، وإلا سيقحمون ريد مولي في الأمر، إذ أوشكت أن تعود من كراتشي، ويعجز قاتل الرحلة أن ينتظر أكثر كي يستمتع».

قال فيرمي: «ليس هي!».

صاح ستوكس: «إياك أن تقول ذلك!»، وقد اعتلت ملامح ذعر متطابقة وجهيهما.

قال آي: «لقد قلته، إنها كاملة، أليس كذلك؟ رغم أن والدتها الجامحة الضخمة قبيحة جداً»، وقفز إلى قضبان زنزانته مجدداً وأخذ يهزها، إذ كان ذلك نمط التمرين الذي يحبه.

لمعت في ذهني فكرة مريعة، وقلت: «مهلاً، هل تقول إن والدتها...».

قال هامي: «أجل، إنها هانا، حارسة الخزينة والساعة الشمسية، ويعني وصولك إلى الأخيرة أن هانا تتقاعس في أداء واجبها، وسيزعج ذلك قاتل الرحلة».

لقد تشتت انتباهي تماماً، حيث أدهشني امتلاك هانا ابنةً، ولعل ذلك بسبب عجزي عن تخيل الشخص الذي عاشرها.

«وهل ريد مولي... كما تعلم، عملاقة أيضاً؟».

قال أميت من نهاية الممر: «إنها كبيرة ولكن أصغر من والدتها، وتزور أقرباءها في كراتشي، أو أرض العمالقة، وستعود وتسحقك مثل عود خشبي رفيع، ولكنني سريع وهي بطيئة، لذلك سأفلت منها. إليك أحجيةً يجهلها جاكاه: أنا طويلة في شبابي وقصيرة عندما أتقدم في السن، من أكون؟».

قال جاكاه: «إنها الشمعة، يعرف الجميع ذلك أيها الغبي».

قلت من دون تفكير: «جاءت شمعة كي تقودك إلى سريرك، وفأس كي تقطع رأسك» – كلمات من أغنية تدعى أورانجز أند ليمونز، ويقال إن الشطر الأول يشير إلى مصير المساجين الوشيك، والشطر الثاني إلى مرحلة الإعدام.

عمّ الصمت، ثمّ سأل آي: «أين سمعت هذه الكلمات بحق الآلهة؟».

«لا أدري، أعتقد أن والدتي غنتها من أجلي في طفولتي».

«يعني ذلك أن والدتك غريبة الأطوار، إياك وذكرها مجدداً، إنها سيئة».

تعالى صوت سعال دومي من آخر الممر البارد الرطب في ديب مالين.

بعد يومين أو ثلاثة –أعتقد أن الوقت يتوقف داخل الزنزانة – دخل بيرسي كي يرمي الفطور إلينا، والذي كان فطوراً حقاً؛ إذ تضمن سلاسل النقانق التي احتوت كل منها تسع قطع أو عشر قطع، فألقاها بين القضبان، فالتقطت خاصتي في الهواء، بينما ترك هامي سلسلته تسقط على الأرض القذرة قبل أن يأخذها ويمسح الأوساخ عنها بهدوء، ثمّ يحدق إليها قليلاً، ويرميها على الأرض مجدداً، تشبه تصرفاته ما فعلته رادار عندما كانت عجوزاً تُحتضر. عاد إلى سريره، وضم ركبتيه إلى صدره، ونظر إلى الحائط، بينما جلس آي القرفصاء قرب قضبان زنزانته والتهم سلسلته من منتصفها إلى طرفيها ذهاباً وإياباً وكأنه يتناول كوز ذرة، ولمعت العصارة حول فمه وعلى لحيته.

قلت: «هيّا يا هامي، جرّب واحدةً على الأقل».

قال ستوكس: «ارمها إلينا إن لم يردها».

تابع فيرمي: «سنجهز عليها سريعاً جداً».

استدار هامي وجلس، ثمّ سحب سلسلة النقانق إلى حضنه، ونظر إليّ وسأل: «هل يجب عليّ فعل ذلك؟».

قال آي الذي بقي لديه قطعتين فقط على طرفي السلسلة: «أجل يا عديم الفائدة، أنت تعلم معنى حصولنا على هذا الطعام».

أصبحت النقانق باردةً، وكان اللحم في وسط القطع نيئاً، ذكّرني ذلك بقصة قرأتها على الإنترنت عن شاب دخل المستشفى لأنه يشكو من آلام بطنية، وأظهرت صورة الأشعة السينية وجود دودة شريطية ضخمة في أمعائه، والتي أصابته نتيجة تناول اللحم غير المطبوخ جيداً، فحاولت نسيان ذلك (رغم استحالة الأمر) وبدأت الأكل وقد راودتني فكرة جيدة عن معنى تقديم النقانق على الفطور؛ أي أن وقت اللعب المميت هو التالي.

عاد بيرسي أدراجه عبر الممر، فشكرته مجدداً، فتوقف وأشار بإحدى يديه الذائبتين كي أقترب. ذهبت إلى القضبان، فهمس لي بكلمات غير مفهومة بصوته الأجش الصادر من فمه الدائري.

هززت رأسي وقلت: «أنا لا أفهـ..».

كرر العبارة نفسها، ثمّ تابع طريقه يجر عربته الفارغة وراءه، وأغلق الباب ومعه الأقفال الأربعة. التفتت إلى هامي الذي تناول إحدى قطع النقانق، ولكنه تقيأها مباشرةً وبصقها في يده، ثمّ نهض ورماها في حفرة المرحاض.

قلت: «لا أعرف ما قاله بيرسي».

أحضر هامي كوبنا ومسحه بما بقي من سترته مثل رجل يلمّع تفاحةً، ثمّ جلس على سريره وقال: «تعال إلى هنا... واجلس من دون حراك»، وربت البطانية، ففعلت مثله.

التفت حوله؛ تراجع فيرمي وستوكس إلى الجزء البعيد من زنزانتهما الصغيرة المزرية، بينما انشغل آيوتا في تناول قطعة النقانق الأخيرة ببطء كي تدوم لأطول فترة ممكنة، وكذلك تعالت أصوات المضغ والطقطقة والتجشؤ من الزنزانات الأخرى. قرر هامي أننا غير مراقبين، فباعد بين أصابعه – إثر امتلاكه يدين لا زعانف لها لأنه شخص كامل – ومررها في شعري، فتراجعت قليلاً.

«اهدأ يا تشارلي، اثبت في مكانك».

فرك فروة رأسي وشد شعري كي تتساقط كتل من الأوساخ على الأرض، لم يبدُ لي الأمر محرجاً (ستخسر الجانب الجميل من شخصيتك إن قضيت بضعة أيام تقضي حاجتك في حفرة داخل هذه الزنزانة)، ومع ذلك،

فقد أدهشني مقدار الأوساخ التي غطتني، إذ شعرت أنني مثل بيغ بين صديق تشارلي براون.

حمل هامي الكوب القصديري كي أستطيع رؤية انعكاس وجهي، كما يفعل الحلاق الذي يضع أمامك المرآة ليريك قصة شعرك الجديدة، باستثناء أن الكوب كان منبعجاً ومنحنياً، وبالتالي بدا الأمر وكأنني أنظر إلى المرآة في منزل المرح، حيث كان أحد نصفي وجهي أكبر من الآخر.

«هل ترى؟».

«ماذا يجب أن أرى؟».

أمال الكوب قليلاً كي ألاحظ أن مقدم شعري حيث أزال هامي الأوساخ قد استحال لونه أشقر بدلاً من البني رغم أنني في هذا المكان من دون خيط من أشعة الشمس، فأخذت الكوب وقرّبته إلى وجهي، لقد صعب عليّ التأكد من ذلك، ولكن تبين أن لون عيني قد تغير أيضاً من البني الداكن إلى الفاتح.

أمسك هامي مؤخر عنقي وشدني قريباً من فمه وهمس: «لقد قال بيرسي لا تغسل شعرك».

ابتعدت عنه، فحدق إليّ وقد اتسعت عيناه البنيتان؛ مثل لون عيني السابق. وشدني إليه مجدداً.

«هل أنت الأمير الحقيقي؟ الذي جاء كي ينقذنا؟».

8

سمعت صوت أقفال الباب تنفتح قبل أن أجيب، ولكن لم يكن بيرسي هو من أتى، بل أربعةً من جنود الليل يحملون عصيهم المرنة، وتقدم اثنان منهما فاتحين أذرعهم كي تنفتح بوابات الزنزانات على الجانبين بدورها

مصدرةً صوتاً قوياً، وصاح أحدهما بصوته الغريب: «هيّا إلى اللعب أيها الصغار. حان وقت اللعب».

غادرنا الزنزانات، واتجهنا جميعاً إلى اليسار – بينما سلكت الاتجاه الأيمن حين أخذني آرون والذي غاب عن هذه المجموعة المخيفة – واصطففنا في خط مزدوج، وبقيت وحدي دون شريك إلى جواري، حيث مشى حارسا الليل الآخرين خلفي. في البداية، اعتقدت أنني أتخيل صوت فرقعة خفيفة مثل التي يصدرها تيار كهربائي ضعيف، وذلك اعتماداً على المرات السابقة التي لمستني فيها هالة هذه المخلوقات المخيفة والتي تبقيهم أحياء، ولكنها لم تكن كذلك، بل كان حراس الليل أحياءً أموات كهربائيين، وفكرت حينها أن هذا الاسم – الأحياء الأموات الكهربائيون – مناسب تماماً من أجل فرقة موسيقية تعزف موسيقى الميتال الصاخبة.

مشى هامي إلى جوار آيوتا الذي دفع بكتفه شريك زنزانتي النحيل باستمرار فجعله يتعثر، وأردت أن أصرخ كف عن ذلك، ولكنني قلت: «هلّا توقفت؟».

التفت آي وابتسم إليّ قائلاً: «ومن أعطاك السلطة عليّ؟».

قلت: «لماذا تضايق أحد أصدقائك في هذا المكان القذر؟».

بدا أنني شخص مختلف تماماً عن تشارلي ريد الذي كان سيقول: توقف عن العبث أيها الأحمق بدل ما نطقت به للتو، ولكن ما زلت أنا. استبدل آيوتا ابتسامته بنظرة تأمل وحيرة، وأدى تحيةً بريطانيةً؛ وضع ظهر إحدى يديه الكبيرتين إلى جبهته المنخفضة، وقال: «حاضر يا سيدي، ولكن سنرى كم ستأمرني حين تملأ الأوساخ فمك».

ثم التفت إلى الأمام مجدداً.

الفصل الثاني والعشرون

ساحة اللعب- أميت- الاغتسال- صابونة المبولة- مصابيح الغاز.

1

صعدنا السلالم بالطبع، إذ يغدو ذلك جزءاً من حياتك عندما تسجن في ديب مالين، ولكن هامي شعر بصعوبة في التنفس بعد عشر دقائق، فأمسك آي ذراعه، وجذبه نحوه قائلاً: «أسرع هيّا أسرع يا عديم الفائدة، وإلا سيوبخك والدك».

بلغنا أعلى الدرج حيث كانت المساحة واسعة والأبواب مزدوجة، وتقدم أحد الجنديين اللذين قادا هذا الموكب المتهالك، ورفع يده برفق أمام الباب الذي انفتح مباشرةً، كاشفاً عن مكان مختلف، وأكثر نظافةً؛ ظهر خلفه ممر أبيض الأرضية عُلّقت على جدرانه مصابيح غاز لامعة براقة، وامتد صعوداً. مشينا في الضوء الساطع غير المعتاد (الذي دفعنا إلى إغماض أعيننا)، وبدأت أشم رائحة شيء أعرفه من خبرتي في غرف تبديل الملابس: إنه الكلور التي يحتويه صابون المباول والمواد المستخدمة في حمامات تعقيم القدمين.

هل أدركت حينها تماماً معنى وقت اللعب؟ بالطبع، وهل فهمت ماهية الـفير ون؟ أجل. اقتصرت نشاطاتنا في الزنزانات على تناول الطعام، والنوم، وتبادل الأحاديث، وقد انتبهت إلى أسئلتي كي أحافظ على كذبة انتمائي إلى مجتمع ديني من أولوم، واستمعت إلى الآخرين أكثر من التحدث إليهم. لا أزال وسط دهشتي من هذا الممر الصاعد، والذي كأنه في منشأةً رياضيةً متطورةً ومجهزةً تماماً في إحدى الجامعات التي تولي الرياضة اهتماماً كبيراً. لقد دُمرت ليليمار تماماً، وكذلك إمبيس كلها، ولكن بدا هذا الممر رائعاً، وفكّرت في أنه ربما يؤدي إلى مكان مثله وربما أروع، وأصبت في ذلك.

بدأنا نعبر الأبواب التي عُلّق مصباح غازي أعلى كل واحد منها، وكتب على الأبواب الثلاث الأولى كلمة الفِرق، وعلى الرابع كلمة المعدات، بينما كُتبت كلمة موظفين على الباب الخامس، وما إن عبرته (وما زلت وحيداً في نهاية الصف) حتّى لمحت أن كلمة موظفين تحولت إلى شبكة من الرموز القديمة التي تشبه ما كتب على رخصة قيادة بولي حين أراني إياها كيلين. التفت إلى الخلف بما يكفي لأتأكّد أنّ الكلمة عادت إلى شكلها الطبيعي، فأصابتني جلدة من العصا المرنة على كتفي، لم تكن قويةً جداً، ولكن تكفي كي أستعيد انتباهي مجدداً.

«تابع سيرك أيها الصغير».

في نهاية الممر وصلنا إلى فيض من النور الساطع، وتبعت الآخرين إلى ساحة اللعب... وأيّ ساحة كانت، إذ حدقت حولي مثل المزارع الأولومي الذي تقمصت شخصيته. لقد صدمتني أشياء كثيرة منذ عبرت النفق الواصل بين عالمي وبين إمبيس، ولكن هذه المرة الأولى التي تراودني فيها عبارة: «لا بد أنني أحلم».

شعّلت مصابيح غازية ضخمة على الحوامل الواسعة التي رأيتها من الخارج، حيث انتصبت حول الملعب الذي ستجد فرق النخبة من رياضة كرة القاعدة سعادتها فيه، وانطلقت شعلات زرقاء وبيضاء إلى السماء، ثمّ انعكست عن الغيوم الموجودة في كل مكان.

السماء؛ نحن في الخارج.

ليس ذلك فحسب، بل كان الوقت ليلاً، رغم أنها بداية اليوم بالنسبة إلينا، وسيبدو هذا الأمر منطقياً طالما أن الهياكل العظمية التي تعتقلنا عاجزة عن الخروج نهاراً، وما أثار حيرتي هو كيف قُلِب نظام النوم واليقظة المعتاد خاصتي رأساً على عقب.

عبرنا طريقاً ترابياً إلى أرض يكسوها العشب الأخضر الرطب. لقد سبق لي أن دخلت كثيراً من ملاعب كرة القدم والقاعدة، ويشبه بعضها هذا الملعب إلى حدّ كبير، ولكن لم يكن أيّ منها مدوراً تماماً؛ ما هي اللعبة التي يمارسونها هنا؟ عجزت عن معرفة ذلك، ولكنني متأكّد أنها شعبية جداً؛ حيث شغل آلاف المشجعين الإمبيسيين طرق الدخول بين الدواليب الهوائية، وصفوف المقاعد التي تلتف حول الملعب صعوداً حتّى حافته الدائرية.

انتصبت ثلاثة أبراج خضراء أمامي مباشرةً ولامست الغيوم، وأخرى حجريةً إلى يميني ويساري، ووصلت بينها شرفات اعتلاها جنود الليل يراقبوننا وسط هالاتهم الزرقاء الملتهبة. لقد استطعت رؤية حافة الملعب العلوية فقط خلال مسيري إلى الساعة الشمسية لأنها في قاع الجزء الخلفي من القصر.

تقع غرفة العرش والمساكن الملكية في مكان ما، ربما في قاعدة تلك الأبراج الثلاث الخضراء الزجاجية، إذ توجد دوماً أماكن من أجل الشخصيات المرموقة كما في المتاجر على طريق غالين الواسع، واعتقدت أن هذا المكان يعني شيئاً في نفوس عامة الشعب، إذ رأيتهم كيف يصعدون طرق الدواليب الهوائية ذات الألوان المشرقة في أيام المباريات، ويأتون من كل حدب وصوب سواء من سيفرونت وديسك، وربما أولوم وغرين إيزليس، حاملين سلال الطعام وينشدون أغاني فرقهم أو يهتفون بأسمائها....

انهالت عصا مرنة على ذراعي بقوة أكبر هذه المرة، فالتفتت ورأيت جمجمةً تبتسم وسط تجهم وجه وهمي نصف شفاف، ثمّ قال حارس الليل: «كفاك تحديقاً مثل الأحمق، لأنه وقت الجري أيها الصغير. آن الأوان أن تُسرع».

قادنا آيوتا إلى مضمار دائري حول الملعب الأخضر الرائع، وتبعناه في مجموعات مؤلفة من شخصين أو ثلاثة، وجاء هامي أخيراً، كما هو متوقع.

برزت شرفة فوق ما اعتقدت أنه واجهة الملعب، وتبيّن أنها جناح يشبه غرفة معيشة في الهواء الطلق، لم ينقصه سوى ثريا فاخرة كي يكتمل، حيث وضِعتْ كراسٍ مبطنة تشبه تلك الموجودة في مقدمة ملعب غرانتيد ريت إلى جانبي ما بدا أنه مقعد الشرف، والذي لم يكن بحجم عرش هانا حيث تجلس لتحرس مدخل القصر الخلفي (عندما تنتهي من طعامها ونومها)، ولكنه واسع جداً وله ذراعين مائلتين إلى الخارج، وكأن الشخص الذي سيجلس عليه يملك جسداً عريضاً انطلاقاً من وركه إلى الأعلى بسبب تعاطيه الستيروئيدات. كان المقعد فارغاً الآن، بينما شغل بعض الناس الكراسي المبطنة على طرفيه، وشاهدونا نجري ونتجاوزهم. لقد ارتدوا ملابس جيدةً؛ أي أنها أفضل من الأسمال التي تغطي معظمنا. رأيت امرأةً شاحبة الوجه بينهم. في البداية، ظننتها تضع مساحيق تجميل من نوع ما، وقد جلست في ثوبها الطويل ووشاحها كثير الطيات، كما رصعت الجواهر اللامعة أصابعها ومشابك شعرها. احتسى رواد هذا الجناح جميعهم مشروباً لعله جعة في كؤوس طويلة، ورآني أحد الرجال أحدّق، فرفع كأسه إليه، وكأنه نخب، وقد اعتلت وجوههم جميعاً تعابير سأدعوها مزيجاً من الملل الذي تشوبه حماسة خفيفة. كرهتهم مباشرةً، لأن السجين الذي يتلقى جلدات العصي المرنة وحده يستطيع كره مجموعة من الناس الكسولين الذين يقضون الوقت مرتاحين في ملابسهم الفاخرة.

فكّرت في نفسي: هذا المكان ليس لأمثال هؤلاء الحمقى، أعلم ذلك تماماً، وأجهل كيف خطر لي هذا الأمر.

جلدني حارس الليل مجدداً، ولكن هذه المرة على الجهة الخلفية من بنطالي الذي تزداد قذارته شيئاً فشيئاً، فشعرتُ أن الجلدة حارقة مثل ألسنة اللهب، وقال: «ألا تدري أن التحديق إلى أسيادك غير لائق؟».

لقد كرهت هذه الأصوات الطنانة التي تشبه أزيز الحشرات أيضاً، فهي تماثل الاستماع إلى مجموعة كاملة من دارث فيدر. أسرعت وتجاوزت

ستوكس الذي رفع إصبعه الوسطى لي على الطريقة الإمبيسية، ففعلت مثله.

عبرت بين زملائي في ديب مالين، وصدمني توم مازحاً، على عكس أميت الضخم مقوس الساقين قليلاً، والذي دفعني بقوة أكبر وقال: «انتبه إلى أين تذهب أيها الأولومي، إذ لا إله كي يحميك هنا، لقد تركت كل شيء خلفك».

تركته هو خلفي، وقد أسعدني فعل ذلك، لأن الحياة قذرة كفايةً، ولا تحتاج زميلاً غاضباً من السجن كي يزيدها سوءاً.

لاحظت وجود أشياء وسط الملعب، وقد عرفتها من التمرينات الرياضية المتنوعة التي يمارسها الجميع حتّى أفراد فرق كرة القدم والهوكي الصغار، إذ ضمت صفين من قطع خشبية تشبه تلك الموجودة في السكك الحديدية، إضافةً إلى أكياس قماشية كبيرة ذات نتوءات دائرية قد تكون كرات، وأعمدة يغلفها الخيش، ورسم بفظاظة وجه عابس أعلى كل واحدة منها، وتيقنت تماماً أنها دمى التدريب الإمبيسية. كما تدلت حبال من قضيب على شكل حرف (T) حاملةً حلقات في نهايتها، ووضع لوح واسع على مسند خشبي مرتفع حاملاً حزمة قش على أحد طرفيه، كما احتوت سلة خيزران ما بدا أنه مقابض فؤوس، ولكنني تجاهلتها. لقد أجبرنا المدرب هارنيس على ممارسة تمارين اعتبرها البعض ساديةً، ولكننا لم نضرب بعضنا أبداً بالعصي.

وصلت إلى حيث يجلس الجمهور مقابل جناح الشخصيات المهمة، وتحدثت هنا إلى آيوتا، الذي كان يجري ورأسه إلى الخلف، وصدره منتفخ، ويحرك ذراعيه على جانبيه، وجل ما ينقصه بضع أوزان من أجل اليدين، وربما بذلة تدريب كي يشبه مراهقي حيي الذين يريدون تحسين أجسادهم.

سألته: «هل تريد أن نتسابق؟».

«ماذا؟ هل أقامت تلك الوضيعة بيترا وبقيتهم رهاناً على الفائز؟». رفع إبهامه نحو الأفراد ذوي الملابس الجميلة الذين يسترخون ويحتسون شرابهم المنعش، وقد انضم آخرون إليهم، في ما بدا أنه حفلة شراب أقامها الإله شخصياً. سار جنديا ليل إلى جوار المجموعة.

«ألا تكفينا الأمور التي تقلقنا؟».

«أتفق معك».

«من أين أنت حقاً يا تشارلي؟ فأنت لست من أولوم».

أعفتني رؤية هامي من الإجابة، إذ خرج عن المسار متثاقلاً ناحية معدات التمرين المتنوعة، وقد طأطأ رأسه وانتفخ صدره النحيل، وأخذ واحداً من الأكواب الفخارية التي تشبه الفناجين الصغيرة، وشربه، وأعاده إلى مكانه على طاولة وسط بعض المقاعد الطويلة القابعة بين سلة القش ذات عصي القتال (أجهل ما قد تكون سوى ذلك) ودمى التدريب بوجوهها العابسة، ثمّ جلس مطوقاً فخذيه بذراعيه خافضاً رأسه، وقد حرس الطاولة – أو راقبها – أحد جنود الليل الذي نظر إلى هامي من دون أن يحرك ساكناً.

قال آي لاهثاً: «إياك أن تجرّب ذلك، وإلا سيضربونك حتّى تنزف».

«وكيف أفلت هامي بفعلته؟».

«لأنهم يدركون عجزه عن فعل أي شيء، إنه السيد عديم الفائدة، أليس كذلك؟ ولكنه فرد كامل، وسنعود ثلاثين من دونه».

«أنا لا أفهم ما يجري... أقصد دعنا نفرض انطلاق فير ون، ما الذي يتوقعونه منه... أنت تعلم، أن يقاتل؟».

قال آي: «لا يتوقعون منه شيئاً»، ولاحظت نبرةً غريبةً في صوته، ولعلها نابعة عن العطف، ربما يقاسمه شعوره، ليس لأنه أحب هامي، بل

لأنه كره الحال التي نعيشها.

«ألا تتعب أبداً أيها الصغير؟ إذ سأجلس بعد جولة أخرى إلى جوار عديم الفائدة وستنهال عصيهم عليّ قدر ما يشاؤون».

فكرت في إخباره أنني مارست رياضات كثيرةً، ولكنه سيسألني عنها، وأجهل تماماً ما يلعبونه في هذا القرص الأخضر الكبير، لذلك: «واظبت الحفاظ على لياقتي قبل القدوم إلى هنا على الأقل، وتستطيع مناداتي تشارلي، إذ هم من يدعوننا بالصغار».

رفع آي إبهامه إلى هامي، الذي بدا كئيباً عندما جلس على المقعد، ثمّ قال: «سأدعوك تشارلي إذن... انظر إلى ذلك الغبي المسكين، إنه مجرد جسد حي، وليس إلا قرباناً من أجلهم، فهم يحبون معرفة نتيجة إحدى المباريات سريعاً».

ولكنه قال شيئاً مختلفاً عن الغبي والقربان، بل إنها ترجمة دماغي عن المصطلح الذي استعمله، وفكرت أن مواجهة هامي تشبه المباراة بين الرقم واحد والسادس عشر في بيغ دانس أو بطولة الفئة الأولى في الرابطة الوطنية لرياضة الجامعات.

اقتربنا من جناح الشخصيات المهمة مجدداً، وحان دوري كي أوجه إبهامي إلى ذوي الملابس الأنيقة الذين يشاهدوننا حين ينتهون من تبادل الأحاديث، إذ تستطيع إدراك أن موضوع نقاشهم أياً كان يهمهم أكثر من الأشخاص المتسخين ممزقي الملابس الذين يركضون في الأسفل، فنحن مجرد عذر كي يجتمعوا معاً مثل جمهور تدريبات كرة القدم في عالمي. أُرهق الآخرون خلفنا، وانضم اثنان – دوبل وشخص يدعى يانو – إلى هامي على المقاعد.

«كم يبلغ عددهم هناك؟».

قال آيوتا وقد بدأ يلهث: «ماذا؟ هل تقصد رعايا إلدن؟ لعلهم عشرون أو ثلاثون، وربما أكثر، ولكن تتباهى الوضيعة أمامهم لأن قاتل الرحلة يفضلها عنهم»، وأكد على كلمة رعايا وكأنه يضعها بين علامتي اقتباس.

«هل تقصد بيترا؟».

«أجل».

«وهل تلك هي؟».

خرج صديقي آرون الذي أكرهه من أحد الممرات تحت جناح الشخصيات المهمة ملوحاً بعصاه المرنة مثل قائد الأوركسترا الذي يوشك أن يشير إلى علامة المعزوفة الأولى، وصاح: «اتجهوا إلى الوسط جميعاً».

هرول آيوتا ناحية المعدات وسط الملعب، وتبعته إلى هناك. كان الجميع يلهثون وينفخون، وانحنت جايا وإيريس ووضعت كل منهما يديها على ركبتيها محاولةً التقاط أنفاسها، ثمّ انضمتا إلى مائدة الأكواب الصغيرة مع الآخرين، وقد شربت سريعاً من أحدها الذي احتوى مياهاً في معظمه باستثناء شيء مُرّ يزيد حماستك، إذ زاد نشاطي أكثر.

في الملعب الآن خمسة من حراس الليل بمن فيهم آرون، وقد وقفوا في نصف دائرة أمامنا، وحرس اثنان آخران الشخصيات المهمة، واعتلى اثني عشر حارساً الشرفات بين الأبراج، وقد عددتهم بسهولة نظراً إلى هالاتهم الزرقاء الساطعة، وهذا يعني أن عددهم الإجمالي تسعة عشر، ووجدت أنه يعادل تقريباً عدد أولئك الذين طاردوني عندما هربت مع رادار ناحية البوابة الخارجية، ويصبحون عشرين حارساً عند إضافة كيلين الذي تجنب الحضور أو أنّه يراقب من إحدى الشرفات. هل أولئك هم جميعاً؟ إذ يفوقهم السجناء عدداً في هذه الحال، وعدلت عن سؤال آي، إذ شعرت أن آرون يراقبني.

قال ستوكس: «أحسنت الجري يا تشارلي».

قال فيرمي: «إنه أفضل من ممارسة الجنس».

قال ستوكس: «باستثناء ممارسته معك».

مددت يدي كي آخذ كوباً آخر، ولكن أحد الحراس وجّه عصاه ناحيتي وقال: «لا، لا، يحق لك شرب كوب واحد فقط يا صغير».

عدا أنه قال شيئاً مختلفاً عن يحق لك تناول كوب واحد فقط.

2

حان وقت اللعب، والذي كان أقل وحشيةً بكثير من ممارسة كرة القدم، باستثناء نهايته.

في البداية، استعملنا الكرات وبلغ عددها ستة عشر كرةً موزعةً على ثلاثة أكياس، وبدت مثل كرات الشاطئ، ولكن غطتها مادة فضية زادت وزنها، وجل ما عرفته أنها فضة، ومن خلالها استطعت رؤية الانعكاس المشوه عن وجهي وشعري المتسخين، وقررت أنني سأتجنب غسل الأخير مهما بلغت قذارته، رغم استبعادي فكرة أنني: «الأمير الحقيقي الذي جاء كي ينقذنا»، حيث أعجز عن إنقاذ نفسي، ولا أريد أن أتميز عن أحد، إذ رأيت غرفة التعذيب في القصر وأود تجنبها تماماً.

وقفنا في صفين ضم كل منهما خمسة عشر فرداً، أي من دون هامي الذي أمره أحد الحراس بعصاه أن يرمي الكرات الست عشرة إلى الأعلى والأسفل، فنفذ هامي ذلك بضعف، إذ ما زالت قواه خائرةً بسبب الممر الصاعد ودورته الجزئية في المضمار، وابتسم عندما رآني أنظر إليه رغم الكآبة التي تحتل عينيه، إضافةً إلى مظهره الذي يوحي أنه أول الخاسرين.

رمى بقيتنا الكرات الثقيلة – تزن بضعة كيلوغرامات تقريباً – إلى الأمام والخلف، وقد كان مجرد إحماء من أجل الذراعين والقسم العلوي من الجسد، ولكن بدا أنه غير مألوف لدى معظم السجناء خلال حياتهم قبل احتجازهم، إذ أخطأوا كثيراً خلال أدائه، وتساءلت إن كانوا من عمال الياقات البيضاء في المكان الذي يدعونه سيتادل قبل سحق حكومة الفراشات الكبيرة (يوجد تلاعب لفظي غير مقصود هنا). امتلك بعضهم لياقةً جيدةً وحركات ملائمة – مثل آي، وإيريس، وتوم وآميت، واثنين آخرين، بينما افتقر البقية إليها تماماً، وكان المدرب هارنيس ليطلق عليهم لقب «الكسالى»، الذي تجسد في فيرمي وستوكس، وكذلك جايا ودوبل. ساعد دومي جسده الضخم، ولكنه عانى من السعال، ويبقى هامي الذي أسماه آيوتا عديم الفائدة.

شاركت آيوتا التمرين؛ قذف بضع كرات ضعيفة إليّ مستخدماً رسغه، وطُلب منا أن نتراجع خطوةً بعد كل بضع رميات، ثمّ أمرونا بعد عشر دقائق أن نعاود الجري في المضمار، وقد بذل هامي قصارى جهده، ولكن تباطأ بعد فترة قصيرة وتابع مشياً، فهرولت هذه المرة بكسل، واستطاع أميت اللحاق بي بسهولة، رغم أن تقوس ساقيه دفعه إلى التأرجح خلال الجري مثل قارب وسط أمواج خفيفة، وفور أن تجاوزنا جناح الشخصيات المهمة، مال إليّ ودفعني مجدداً، ولكنها لم تكن دفعة ودية بل نظيرتها القوية المقصودة قديمة الطراز، وقد فاجأتني فسقطت أرضاً، وتعثرت جايا فوقي، ثمّ أمسكت ركبتيها وصرخت، وتابع الآخرون طريقهم.

أخيراً، لفتنا كامل انتباه المغرورين الجالسين في الجناح، حيث نظروا إليّ وإلى جايا وضحكوا كما كنت لأفعل برفقة آندي وبيرتي عند متابعة مشهد كوميدي معتاد في أحد الأفلام.

ساعدت جايا على النهوض، ولاحظت أن الدماء تسيل من مرفقيها، وسألتها إن كانت بخير، فأجابتني بنعم، ثمّ تابعنا الجري قبل أن يقترب أحد

الحراس حاملاً عصاه المرنة قائلاً: «إياك ولمس أحدهم أيها الصغير. أبداً، أبداً»، فرفعت يدي قليلاً كي أظهر أنني فهمت، ولكنني أردت في الحقيقة تجنب أن تصيب عصاه وجهي.

تراجع جندي الليل خطوةً، ووصلت إلى أميت، فسألته: «لماذا فعلت ذلك؟».

«شعرت أنني أريد دفعك».

أجابني شيئاً ربما سمعته من الأفراد ذوي الشخصية المسيطرة والذين مارست معهم الرياضة خلال سنواتي الماضية وخاصة في الثانوية، وهم كثيرون، وقد انتهى بهم الأمر يتسكعون قرب سياج ملاعب التدريب في عشرينيات وثلاثينيات عمرهم، ويكسبون الوزن ويتحدثون عن ماضيهم العريق.

يعني ذلك أن أميت يحتاج من يلقنه درساً، وإلا سيستمر الصدم والدفع والتعثر دوماً.

أنهينا دورةً واحدةً، ثمّ أرسلونا كي نمارس تمارين شد الجسم إلى أعلى بواسطة الحلقات، وقد استطاع نصف رفاقي فعلها خمس مرات، واكتفى ستة أو سبعة منهم بمرة أو مرتين، ولكنني فعلتها اثنتي عشرة مرةً، ثمّ قررت بغباء أن أتباهى، فأخبرت آي وهامي: «شاهدا هذه الحركة».

رفعت نفسي عالياً مجدداً، وساقي أعلى رأسي، وأنجزت دورةً كاملةً مثاليةً، ولكن بالكاد هبطت على قدمي بعد أن تلقيت جلدةً قويةً أسفل ظهري، وقد أحسست بالألم أولاً، ثمّ بالحرارة التي ازدادت تدريجياً.

صرخ أرون: «تجنب أداء هذه الخدع، وإلا ستكسر معصمك أو ساقك، وسأجلدك حينها!»، وقد زاد غضبه شدة هالته وأوشك وجهه الوهمي أن يختفي تماماً – والذي كان رقيقاً من البداية. إليك هذه الحقيقة: قد تعتقد أنك

اعتدت أجواء السجن في قبضة الأحياء الأموات، ولكن يستحيل أن يحدث ذلك.

حدقت إليه وأنا أجلس على الأرض عاضاً شفتي، ومستنداً إلى يدي اليسرى. تراجع أرون، ليس خوفاً، ولكن كي يحصل على مساحة كافية من أجل التلويح بعصاه، وقال: «هل ترغب في المزيد من هذه؟ اقترب. سألقنك درساً إن أردت ذلك».

هززت رأسي نافياً، فتدلت خصلات من شعري المتسخ أمام حاجبي، ووقفت ببطء شديد؛ كنت أكبر حجماً من أرون، فوزني يفوق وزنه بحوالى الخمسين كيلوغراماً – حيث أنه مجرد كتلة من العظام – ولكن تحميه هالته، وبالتالي هل أريد أن تصعقني الكهرباء؟ لا.

قلت: «أنا آسف»، واعتقدت لوهلة أن اعتذاري قد فاجأه كما حدث مع بيرسي عندما شكرته، فأشار إليّ أن أنضم مجدداً إلى الآخرين.

صرخ علينا: «اركضوا. اركضوا أيها القرود».

قال كلمةً مختلفةً عن القرود، ولكن استبدلها ذهني مجدداً. أنجزنا دورةً أخرى حول المضمار (من دون أن يحاول هامي فعل ذلك)، وشربنا المزيد من مياه الطاقة، ثمّ أمرونا أن نتجه إلى دمى التمرين.

تراجع أرون ووقف مكانه جندي ليل آخر وقال: «سيحصل أول من يقتل أعداءه كلهم على كعكة. توجد كعكة من أجل القاتل الأول. فليتقدم كل واحد منكم ويختار عموداً».

كنا واحداً وثلاثين فرداً أمام اثنتي عشرة دميةً. أمسك آي معصمي وقال بصوته الخشن: «تعلم كيفية فعل ذلك أولاً».

لقد فاجأني هذا التلميح المفيد والذي أحتاج إليه حقاً. تقدم اثنا عشر من زملائي المساجين سريعاً طمعاً بجائزة الكعكة ولمسوا واحداً من

الأعمدة التي لفها الخيش، وكان من بينهم إيريس، وفيرمي، وستوكس، ودوبل، وأميت.

«والآن تراجعوا».

عاد جميعهم إلى حيث الطاولة.

«والآن اقتلوا أعداءكم».

ركضوا ناحية الدمى، وقد ارتد نصفهم قليلاً بسبب الاصطدام – كان ارتداداً ضعيفاً، ولكنني لاحظته. صدم ثلاث أشخاص أعمدتهم بقوة كبيرة وكذلك إيريس، ولكن بالنظر إلى أنها نحيلة اهتز رأس عمودها سخيف الوجه، والأمر نفسه نسبةً إلى ذلك القبيح المدعو مورف الذي لم يجفل، ولكن جاءت ضربة أميت قاضيةً تماماً، إذ حلق الرأس عن قمة عموده وحط على بعد عشر أقدام تقريباً.

صاح أرون: «كعكة من أجله. سيحصل على كعكة».

تعالى الهتاف من جناح الشخصيات المهمة بقيادة المرأة ذات الوجه الأبيض.

رفع أميت قبضتيه، وانحنى من أجلهم، وأعتقد أنه يجهل السخرية الكامنة في هذه الصيحات، إذ إنه ليس السكين الأكثر حدةً أو المصباح الأكثر إضاءةً بيننا كما يقال –أي ليس الأقوى أو الأذكى.

جاء دور الدفعة التالية، ولكن آي أمسك معصمي مجدداً فلزمت مكاني. وفشل الجميع في إزاحة الرأس هذه المرة، وبقيت رفقة آي، وهامي، وجايا آخر المشاركين.

«تراجعوا».

فعلنا ذلك.

«والآن اقتلوا أعداءكم».

ركضت إلى عمودي، وأخفضت كتفي اليمنى – أي جانبي الأقوى – من دون التفكير في الأمر، إذ تيقنت من قدرتي على ضرب العمود بقوة تكفي من أجل اقتلاع الرأس من مكانه من دون أن أستعمل الواقي، ولكن ارتد كما حصل مع الآخرين، وبالكاد اهتز رأس عمودي، على عكس نظيره لدى آيوتا الذي حلق وهبط في مكان رأس دمية أميت تقريباً، ولكن من دون أن يهتف أحد من الشخصيات المهمة؛ حيث انشغلوا في أحاديثهم مجدداً.

عاد أرون إلى الممر أسفل جناح الشخصيات المهمة، حيث التقى كيلين، الذي لم يكن يرتدي معطفه الفاخر اليوم، بل ارتدى اليوم بنطالاً ضيقاً وقميصاً أبيض مفتوح الياقة، واتجها صوبنا، ثمّ انتابتني البصيرة ذاتها التي راودتني عندما رأيت أدوات التدريب وطاولة المشروبات. لعل كيلين هو المدرب وآرون مساعده، وبالتالي لسنا في فترة تدريب السجناء، بل هو أمر مهم، أي سيقام الفير ون، واعتقدت حينها أن كيلين وأرون مسؤولان عن سير الأمور وفق الخطة.

صرخ أرون حينها: «حان وقت العصي الآن».

أثار ذلك اهتمام الأشخاص في الجناح، إضافةً إلى جنود الليل على الشرفات.

ذهبنا إلى سلة الخيزران التي تحوي عصي الشجار، وكانت تشبه سيوف التدريب، ولكن من دون مقبض وكان طرفاها مدببين، وبلغ طولها متراً تقريباً، وقد صنعت من خشب أبيض ناعم وقاس، ولعله الدردار كما في مضارب لاعبي دوري كرة القاعدة للمحترفين.

أشار كيلين إلى إيريس التي تقدمت وأخذت عصا، ثمّ إلى هامي؛ وهذا ما أزعجني نوعاً ما، فتناول واحدةً وأمسكها من طرفيها المدببين، بينما

أمسكتها إيريس بيد واحدة، يمثلان الدفاع والهجوم على الترتيب، ولكن لم تبدُ الحماسة على وجهيهما، واحتل الخوف ملامح هامي، وله الحق في ذلك.

صاح أرون: «اقتل عدوك»، وبدا صوته طناناً أكثر هذه المرة.

لوّحت إيريس عصاها، فتفاداها هامي، ثمّ جاءته من الجانب، وتفاداها مجدداً، ولكن بضعف هذه المرة؛ ولاحظت أنها لا تستعمل كامل طاقتها، وإلا لطرحته أرضاً مباشرةً.

صاح كيلين: «اجهزي عليه أيتها الوضيعة عديمة الفائدة، وإلا سأقضي عليك بنفسي».

سددت إيريس ضربتها التي لم يتكبد هامي عناء تجنبها، فسقط بقوة لاهثاً على العشب، فتزايد هتاف الجماهير في الجناح، انحنت إيريس إليهم، وتمنيت أنهم بعيدون كفايةً كي يغفلوا عن نظرة القرف التي اعتلت وجهها.

جلد أرون مؤخرة هامي وساقيه وقال: «انهض. هيّا انهض يا كومة الروث».

بذل هامي قصارى جهده ليقف على قدميه، وانهمرت الدموع على خديه وسال المخاط من منخريه. رفع أرون عصاه المرنة لكي يجلده مجدداً، ولكن هز كيلين رأسه مرةً واحدةً مانعاً إياه، إذ وجب أن يبقى هامي سليماً حتّى بدء المسابقة على الأقل.

بقيت إيريس كي تواجه خصماً آخر، وحدث التفادي والدفع كثيراً دون ضربات قوية، ثمّ تراجعا مفسحين المجال للثنائي التالي، سارت الأمور على النحو السابق، ولكن من دون صرخات اقض عليه أو اقتل عدوك، ومع ذلك نال ستوكس وفيرمي نصيبهما من أحد جنود الليل بسبب كسلهما، وأعتقد من كيفية تعاملهما مع الأمر أنها لم تكن المرة الأولى.

تواجه آي وتوم، ثمّ بيرند وبولت، وفي النهاية أنا وأميت، وأعتقد أن أرون اختار أن تسير الأمور على هذا النحو بعد أن رأى أميت يدفعني على مضمار الجري، أو ربما شهد كيلين ذلك من مكانه قبل ظهوره في الملعب.

صاح أرون: «أمسكا العصي. هيّا أنتما الاثنان. دعونا نرَ كيف ستنتهي هذه المواجهة»، لقد كرهت ذلك الصوت الطنان كثيراً.

أمسك أميت عصاه من نهايتها مبتسماً، وهذا يعني أنه سيهاجمني، بينما أمسكت خاصتي من الطرفين أفقياً كي أتفادى ضرباته في البداية على الأقل. سبق لأميت أن خاض مبارزات وتوقع أن مواجهة الولد الجديد سهلة وخاصةً أنه سيدافع، ولعله محق في ذلك، وربما لا، سنرى.

صاح كيلين هذه المرة: «اقتل عدوك».

لم يتردد أميت في مهاجمتي، وتأرجح إلى جانبيه بسبب ساقيه المقوستين، آملاً أن يحاصرني بين طاولة المشروبات وسلة عصي الشجار التي استبدلها الزوج الذي خاض المعركة السابقة، ثمّ رفع عصاه، وسدد ضربةً قويةً لا تصد ولا ترد؛ لقد أراد أن يصيبني بارتجاج في المخ أو أسوأ من ذلك، ولم يبدُ أنه يكترث للعقوبة التي قد يتلقاها إثر تراجع عدد السجناء إلى ثلاثين مجدداً، وبالتالي تأخير فير ون حتّى إيجاد فردين كاملين إضافيين، وربما يحاول فعل ذلك من أجل زملائه، ولكنني أشك في الأمر؛ لقد قرر أميت لسبب أجهله أنه يكرهني.

انحنيت قليلاً، ورفعت العصا فأصابها بدل رأسي، ثمّ نهضت دافعاً إياه والعصا إلى الخلف، وعندها سمعت هتافاً خافتاً من جناح الشخصيات المهمة، تابعت حتّى خرجت من بين السلة والطاولة إلى منطقة مفتوحة حيث أستطيع الاستفادة من سرعتي رغم أنها ليست مفتاح الفوز، ولكن أعتقد أن ساقي أميت المقوستين تمنعانه عن إمساكي.

سدد ضربةً إلى جانبي الأيسر أولاً، ثمّ إلى يميني، فتفاديتهما بسهولة عندما تحررت من الحصار، وتملكني غضب شديد جداً كما حدث عندما كسرت إحدى يدي كريستوفر بولي، ثمّ ضربته وكسرت الأخرى، وكذلك حين غضبت من والدي عندما أسرف في شرب الكحول بعد وفاة والدتي، لقد تركته وحده من دون الشكوى من إدمانه، ولكن عبرت عن غضبي بطرق كثيرة أخبرتك بعضها، وأخجل أن أفصح عن بعضها الآخر.

تابعنا السير والانحناء والمراوغة على العشب، وقد راقبتنا عيون السجناء بصمت، وكذلك كيلين، وأرون، وجنود الليل الآخرين عن الشرفات، وهدأت صيحات جماهير جناح الشخصيات المهمة. تثاقلت أنفاس أميت، وتباطأت ضرباته، وتلاشت ابتسامته أيضاً، وصب ذلك في صالحي.

صرخت: «تعال أيها الأحمق عديم الفائدة، دعنا نرَ ما لديك».

هجم رافعاً عصاه أعلى رأسه، فغطيت نهاية العصا المدببة بيدي وضربته أعلى ملتقى فخذيه بقليل، ولكنه أصاب كتفي فخدرها تماماً، ومع ذلك التزمت مكاني، ورميت العصا، ودفعته وانتشلت عصاه أيضاً، وضربته بها على فخذه، ثمّ سحبتها وضربته على وركه، وقد وضعت وركي في وضعية ضرب كرة مستقيمة منخفضة ناحية منطقة العمق اليمنى.

صرخ أميت متألماً: «توقف. توقف».

ولكنني ضربته مجدداً على ذراعه ولم أكترث إلى صيحاته، فالتفت وأطلق ساقيه للريح، ولكن خذلته أنفاسه المتقطعة وساقاه المقوستان. نظرت إلى كيلين الذي هز كتفيه مستهجناً، وأشار بيده إلى عدوي السابق، وكأنه يقول: «افعل ما تريد»، وهذا ما فعلته على أيّ حال، فتبعت أميت، ويمكنني إخبارك أنني فكرت في الطريقة التي دفعني بها، وكيف ضحك الناس في الجناح حين سقطت أرضاً، وكيف تعثرت جايا فوقي، وكذلك أردت إيصال رسالة فحواها أن يتجنب أي شخص العبث مع الولد الجديد، ولكن لم

يكن أي مما سبق صحيحاً، إذ رأيت الود من الجميع، باستثناء آي في البداية، وذلك قبل أن يعرفني جيداً.

لقد أردت أن أوسعه ضرباً فقط.

سددت ضربتين قويتين على مؤخرته، وأسقطته الثانية على ركبتيه وهو يصرخ: «توقف. توقف. توقف».

رفعت العصا فوق رأسي، وقبل أن أضربه، أمسك لورد هاي مرفقي، شعرت وكأنني لامست سلكاً كهربائياً مكشوفاً، فشعرت باضمحلال طاقتي، وكدت سأفقد وعي إذا استمر الأمر لوقت أطول كما حدث عند البوابة الخارجية، ولكنه أفلتني.

«هذا يكفي».

انفتحت قبضتاي، وسقطت العصا منهما، ثمّ هويت على إحدى ركبتيّ وسط تصفيق الجماهير وهتافهم، ورأيت أمام عيناي المشوشتين رجلاً طويلاً توجد ندبة على إحدى وجنتيه يهمس إلى المرأة ذات الوجه الأبيض، ويداعب أحد ثدييها.

«انهض يا تشارلي».

فعلت ذلك بصعوبة، ثمّ أومأ كيلين إلى أرون.

قال أرون: «لقد انتهى وقت اللعب، فليتناول كل منكم كوب شراب آخر».

أجهل حال الآخرين، ولكنني كنت بحاجة إلى الشراب حقاً.

اقتادنا الحراس إلى إحدى غرف الفرق المطابقة للمعايير التي اعتدت عليها؛ غرفة كبيرة وفاخرة، وذات مصابيح كهربائية في السقف، ولكنها لم تكن موصولة بالمولّد المتهالك، ولذلك استبدلت بمصابيح غاز إضافية، وكانت الأرضية والجدران بيضاء نظيفةً تماماً إلى أن لوثتها أوساخنا... إضافةً إلى بقع الدماء التي خلّفتها مبارزات العصي. ربما واظب الرماديون على تنظيف هذا المكان، رغم غيابهم كلياً في بعض الأحيان. ضمت الغرفة جدول مياه جارية من أجل التبول، وفعل معظم الرجال ذلك، إضافةً إلى حفرتين في المركز، واعتقدت أنهما من أجل النساء، ولكن جايا وإيريس تجنبتا استعمالهما، رغم خلعهما ملابسهما العلوية مثل الجميع، ومن دون أي حيطة أو حذر، ولاحظت انتشار الكدمات على أضلاع جايا، إذ تلقت عدة ضربات بواسطة العصي.

شغلت إحدى جوانب الغرفة خزائن خشبية، والتي يضع أعضاء الفريق أشياءهم فيها (وبالطبع لم نكن نمتلك أي أشياء)، واحتل الجانب المقابل رف طويل حمل دلاءً من أجل الاستحمام، واحتوى كل منها خرقةً، ولكن من دون صابون.

خلعت قميصي وأجفلت من الآلام التي تسببت بمعظمها ضربات العصي المرنة، وكان الأسوأ بينها في أسفل ظهري، والذي عجزت عن رؤيته، ولكنني تلمست مكانه وشعرت أن الدماء جافة ودبقة.

معظمنا اتجهوا إلى الدلاء، وبدأوا غسل القسم العلوي من أجسادهم، وقد خلع البعض سراويلهم التحتية كي يغسلوا تلك المنطقة أيضاً، ولكن فكرت شخصياً في تجاوز هذا الجزء خلال الاغتسال، وقد لفت انتباهي أن الإمبيسيين يشبهون الفرنسيين قليلاً (على الأقل بحسب ما تفيد به إحدى الأغاني)، إذ يتجنبون ارتداء ملابس داخلية.

عرج أميت إليّ، بقينا من دون الحراس الذين قد يحولون دون أخذه بثأره، ولم يكن لدي مانع في ذلك، فانحنيت قليلاً بصدري العاري الذي غطته الأوساخ بسبب الأيام التي قضيتها هنا (ولعلها كانت أسابيع في ذلك الوقت)، ورفعت قبضتي، ثمّ حدث شيء مدهش؛ اصطف آي، وفيرمي، وستوكس، وهامي أمامي مقابل أميت مباشرةً.

هز الرجل مقوس الساقين رأسه، ووضع معصمه على جبهته وكأنه يعاني الصداع، وقال: «لا، لا. لم أصدق الأمر في البداية، ولكن ربما أصدقه الآن، أنت حقاً...».

تقدم آيوتا ووضع يده على فم أميت مباشرةً قبل أن يكمل كلامه، وأشار بيده الأخرى إلى نافذة لعلها إحدى مخارج الحرارة في الملعب – ومدينته – خلال فترة تشغيله السابقة. نظر أميت إلى هناك وأومأ، ثمّ نزل أمامي متألماً على إحدى ركبتيه، ثمّ أعاد وضع يده على جبهته.

«أنا أعتذر يا تشارلي».

فتحت فمي كي أقول: «لا مشكلة»، ولكنني قلت: «انهض يا أميت، اعتذارك مقبول».

كان جميع السجناء ينظرون إليّ الآن، وقد وضع بعضهم (باستثناء آيوتا حتّى ذلك الحين) أيديهم على جبهاتهم، وأشك في أن الصداع أصابهم جميعاً، لذلك ظننتهم يؤدون تحية. لقد صدقوا جميعاً شيئاً سخيفاً تماماً، ومع ذلك....

قال غالي: «اغتسل يا تشارلي»، ومد يده إلى أحد الدلاء، كما رأيت إيريس تمشي مشية البطة إلى جوار الرف من دون أن أفهم سبب ذلك وهي تقول: «هيّا يا تشارلي، نظّف نفسك»، ولكنني ترددت في الاستجابة لها.

قال آي: «وشعرك أيضاً... لا بأس، إذ يريدون رؤية الأمر، وأنا كذلك... وأعتذر عن قولي إنني سأحشو الأوساخ في فمك».

أخبرته أن لا بأس بذلك، من دون ذكر أنني سمعت مثله كثيراً خلال حياتي، ليس في المباريات الرياضية فقط، فهو قول شائع بين الشبان.

اتجهت إلى أحد الدلاء، وحملت الخرقة الطافية منه، وغسلت وجهي، ورقبتي، وبطني، وأدركت تماماً وبشكل غير محتمل وجود جمهور يشاهدني، وعندما انتهيت من كل شيء أستطيع الوصول إليه، طلبت مني جايا أن أستدير، ومسحت بهدوء حول الشق الذي سببه أرون عندما نفّذت تلك الدورة على الحلقات، ولكنني أجفلت عندما لمسته.

ولكنها قالت بصوتها اللطيف: «اهدأ يا تشارلي، يجب أن أنظف الجرح من الأوساخ وإلا سيتقيح».

بعد انتهائها أشارت إلى أحد الدلاء غير المستخدمة بعد، ثمّ سرّحت شعري لبرهة ثم تراجعت وكأنها لمست شيئاً ساخناً.

التفتتُ إلى آيوتا كي أتأكد من ذلك، فأومأ لي، ولذلك ومن دون أي تردد أخذت الدلو، وأفرغته على رأسي، وكانت المياه باردةً وجعلتني ألهث، ولكنها أنعشتني، ثمّ مررت أصابعي عبر شعري فتساقطت أكوام من الأوساخ والكتل الترابية، ناهيك عن المياه الملوثة حول قدميّ، وتابعت تسريح شعري بيدي إلى الخلف قدر الإمكان، وفكرت: «إنه يزداد طولاً، وربما أصبحت أشبه الهيبيين الآن». يعود مصطلح الهيبي إلى أواخر الستينيات، وهو يطلق على الأفراد الذين يخالفون تقاليد المجتمع كاللباس وغيره.

حدق السجناء الثلاثون إليّ، وقد فغر بعضهم فاه من الدهشة، واتسعت عيونهم جميعاً، وهنا وضع آي معصمه على جبهته، وركع على إحدى ركبتيه، وفعل الآخرون مثله، ولا تكفي كلمة «مذهول» لتصف حالي حينها.

قلت: «انهضوا، فأنا لستُ من تظنونه».

ولم يكن أحد سواي متشكك في ذلك.

نهض الجميع، ثمّ اقترب آي مني، والتقط خصلة شعر متدليةً على أذني، وانتزعها – لقد آلمني ذلك – ووضعها في راحة يده؛ لقد لمعت الخصلة رغم أنها مبللة في ضوء مصابيح الغاز مثل قطع السيد بوديتش الذهبية.

سألته: «وماذا عن لون عيني، ما هو لونهما؟».

دقق آي النظر، واقترب مني ولامس أنفي، وقال: «ما زال بنياً فاتحاً، ولكن ربما سيتغير، ولذلك حاول أن تنظر إلى الأسفل قدر الإمكان».

قال ستوكس: «يحب الأوغاد هذا الأمر على أيّ حال».

أضاف ستوكس: «بل يعشقونه».

قالت إيريس: «سيدخلون إلى هنا في أي وقت، ولذلك دعني... أنا أعتذر أيها الأمير تشارلي، ولكن يجب أن...».

صاح توم: «إياك أن تدعيه بهذا الاسم، هل تريدين أن يقتلوه؟ ناده تشارلي فقط».

جمعت إيريس بعض الطين الأسود من تحت الرف؛ مزيج من الشحم والتراب.

قالت إيريس: «أنا أعتذر، ولكن يجب أن أفعل ذلك... انحن يا تشارلي فأنت طويل جداً».

قلت في نفسي: «أنا كذلك طبعاً؛ شاب قوقازي طويل، وذو شعر أشقر جديد، وربما سأحصل على عينين زرقاوين قريباً، مثل أمير أنيق من أحد برامج الرسوم المتحركة في ديزني»، ولكنني وقتها لم أجد نفسي أنيقاً،

فقد بدا الأمر سخيفاً للغاية، إذ متى ألقى أمير من ديزني الأوساخ على زجاج السيارات الأمامي، أو وضع الألعاب النارية داخل صناديق البريد؟

انحنيت، فمررت أصابعها برفق عبر شعري، ملوثةً إياه مجدداً، وجاعلةً لونه أغمق، وسأعترف أن ملامستها لفروة رأسي قد أثارني قليلاً، وبدا لي من تورّد وجنتيها أنها أُثيرت مثلي.

طرق أحد جنود الليل الباب، وصرخ: «لقد انتهى وقت اللعب. هيّا اخرجوا سريعاً، ولا تجعلوني أكرر كلامي أيها الصغار».

تراجعت إيريس ونظرت إليّ، ثمّ إلى آي، وجايا، وهامي.

همست جايا: «أعتقد أنه يبدو جيداً»، وتمنيت أن أكون كذلك، فلم تكن لدي النية في زيارة مسكن لورد هاي أو غرفة التعذيب مجدداً، حيث سيجبروونني أن أفصح عن كل شيء... وهذا ما سأفعله في النهاية؛ إذ سأخبرهم عن موطني في البداية، والشخص الذي ساعدني في القدوم إلى هنا وأين يسكن، ثمّ هوية من، أو ما، يعتقد رفاقي السجناء أنني عليه.

مخلصهم اللعين.

4

عدنا إلى ديب مالين، وانغلقت الأبواب مجدداً أمام أذرع جنود الليل المفتوحة، وقد كانت حيلةً جميلةً، وتساءلت ما أمكنهم فعله أيضاً، إلى جانب صعقنا بالكهرباء عندما يريدون.

حدق هامي إليّ بعينيه المتسعتين من طرف الزنزانة الأكثر بعداً عني، وأخبرته أن يكف عن ذلك، فقد أربكتني نظراته». قال: «أنا أعتذر أيها الأمـ... تشارلي».

قلت: «يجب أن تبذل جهداً أكبر، عدني أنك ستحاول».

«أعدك».

«ويجب أن تحاول إخفاء ما تعتقد أنك تعرفه قدر الإمكان».

«لقد أخفيت شكوكي عن الجميع».

نظرت خلف هامي كي أجد فيرمي وستوكس يحدقان إليّ من زنزانتهما، وأدركت كيف انتشر الخبر، إذ تجبرك روعة بعض القصص على تناقلها (ولعلك تعرف ذلك مسبقاً).

كنت وسط إحصاء آلامي وأوجاعي عندما انفتحت أقفال الباب الأربعة، ودخل بيرسي حاملاً قطعة كعك كبيرة على طبق معدني واتجه إلى نهاية الممر حيث زنزانة أميت وغالي، وأدركت من مظهرها أنها كعكة شوكولاته، وعندها شعرت بالجوع الشديد.

مدّ أميت يده بين القضبان وقبض جزءاً كبيراً منها وأقحمه في فمه، ثمّ قال بشيء من الحسرة: «أعط البقية إلى تشارلي، لقد هزمني شر هزيمة في مبارزة العصي وكأنني ابن زوجه الأصهب».

تشبه العبارة التي سمعتها، وليس التي قالها، ما اعتادت والدتي قوله بعد الانتهاء من لعب الورق مع صديقتها هيدا، فتصف نفسها أنها ابنة زوجها الصهباء، أو بغلتها المستأجرة، أو طبل صوتي كبير إضافةً إلى عبارات أخرى تعجز عن نسيانها.

عاد بيرسي أدراجه، حاملاً قطعة الكعك الناقصة والتي لاحقتها نظرات الشهوة، وقد كانت كبيرةً إلى درجة دفعت بيرسي إلى إمالة الطبق كي يدخل بين القضبان، فوضعت يدي فوقها كي أحول دون سقوطها على الأرض، ثمّ لعقت بعض الكريما العالقة على راحتي، وقد كانت لذيذةً جداً، وما زلت أستطيع تذوقها.

تناولت لقمةً واحدةً (وقطعت وعداً أن أعطي هامي منها، وربما قليلاً إلى الثنائي المضحك في الزنزانة المجاورة)، ثمّ ترددت، وأدركت أن بيرسي ما زال في مكانه أمام الزنزانة، وحين وجدني أنظر إليه، وضع معصمه على وجهه البائس المذاب أمام جبهته الفضية.

وانحنى إلى ركبته.

5

خلدت إلى النوم، وراودني حلم عن رادار.

رأيتها تهرول على طريق المملكة إلى المستودع حيث قضينا ليلةً قبل دخولنا المدينة، وتقف بين الفينة والأخرى تئن وتبحث عني، ثمّ التفتت كي تعود إليّ، ولكن تراجعت وتابعت طريقها. قلت في نفسي: «كلبة مطيعة، اذهبي إلى بر الأمان ما استطعت».

برز القمران بين الغيوم، وتعالى عويل الذئاب فور رؤيته. توقفت رادار عن الهرولة، وأطلقت ساقيها للريح وسط اقتراب صوت الذئاب أكثر فأكثر، وقد استطعت في الحلم رؤية الظلال ذات العيون الحمراء تطوق جانبي طريق المملكة. قلت في نفسي: «يتحول الحلم هنا إلى كابوس»، وأخبرت نفسي أن أستيقظ، إذ لا أرغب في رؤية مجموعة ذئاب – بل مجموعتان، واحدة من كل جانب – تندفع من الشوارع والأزقة المتهدمة كي تهاجم صديقتي.

تلاشى الحلم شيئاً فشيئاً، واستطعت سماع أنين هامي، وثرثرة فيرمي وستوكس من الزنزانة المجاورة، ولكن قاطع شيء مذهل رحلة عودتي إلى الواقع؛ اقتربت سحابة أكثر سواداً من الليل ناحية رادار، لقد كانت الفراشات الكبيرة –التي وجب أن تكون نائمةً حينها، ولكن هكذا تسير الأحلام – ومرت إلى جوار القمرين وتحولت السحابة إلى قطعة قماش مباشرةً، فهبطت إلى مسافة بضع أقدام عن كلبتي، وغطتها خلال رحلتها،

وقد حطت بعض الفراشات على رأس رادار، وظهرها، وساقيها اللتان استعادتا قوتهما، وخفقت أجنحتها ببطء، حتّى توقف عويل الذئاب، واستيقظت من نومي.

جلس هامي فوق حفرة المرحاض في الزاوية، وقد أنزل بقايا سرواله إلى قدميه، وقبض على بطنه.

صاح آي من الطرف المقابل: «ألا تستطيع الصمت؟ يحاول أحدهم النوم هنا».

صرخت: «اصمت أنت»، وذهبت إلى هامي وسألته عن شدة الألم.

قال: «إنه ليس شديداً»، ولكن تعابير وجهه المتعرق أعلمتني بشيء مختلف، قبل أن يستريح قليلاً عند إطلاق ريح قوية جداً.

كانت الرائحة فظيعةً، ولكنني أمسكت ذراعه قبل أن يسقط أرضاً خلال رفع بقايا سرواله.

سأل فيرمي: «يا إلهي، من الذي توفي؟».

أضاف ستوكس: «أعتقد أن مؤخرة هامي قد انفتحت أخيراً».

قلت: «توقفا عن ذلك، إذ لا شيء يضحك حيال المرض».

صمتا مباشرةً، ورفع ستوكس يده كي يضعها على جبهته.

قلت: «لا، لا، (ستعتاد أسلوب الكلام المشترك سريعاً عند سجنك) إياك أن تفعل ذلك أبداً».

ساعدت هامي في العودة إلى سريره، ونظرت إلى وجهه الهزيل الشاحب، وتأكدت من سخافة فكرة مواجهته أي أحد في الحدث المدعو فير

ون، حتّى دومي الذي سيقتله سعاله، إنها فكرة مريعة، إذ يشبه الأمر أن تطلب من ببغاء صغير أن يقاتل كلب روتوايلر.

«أخبرتك أن الطعام لا يلائمني. لقد كنت قوياً، واستطعت العمل اثنتي عشرة ساعةً يومياً في منشرة بروكي، وفي بعض الأحيان كنت أعمل لأربع عشرة ساعة من دون أن أطلب فترة استراحة إضافية، ولكن... أجهل ما حدث، هل الفطور هو السبب؟ أشك في ذلك، ربما تناولت حشرةً سامةً على الأرجح، والآن أعجز عن تناول الطعام تماماً، رغم أنه كان جيداً في السابق. هل تعلم ماذا أتمنى؟».

هززت رأسي نافياً.

«آمل أن يقام فير ون وأن أُشارك فيه، فأموت في الخارج وليس لأن بطني تؤلمني خلال محاولة التغوط في هذه الزنزانة اللعينة العفنة».

«هل أصابك المرض هنا؟».

اعتقدت ذلك – إذ كانت الفطور السامة لتقتله سريعاً وربما كان سيتحسن في نهاية المطاف، إضافةً إلى البيئة الملوثة في ديب مالين، ولكن هامي هز رأسه قائلاً: «أظن خلال الطريق من سيتادل بعد انتشار الداء الرمادي، الذي أفكر أحياناً أنه أفضل من هذه الحال».

«كم مضى على ذلك؟».

مسحت ذراعه قطرات العرق عن وجهه، وهز رأسه مجدداً، ثمّ فرك بطنه المترهل وقال: «لا أدري، ربما سنوات، وأعتقد أحياناً أنني أستطيع سماع طنين الحشرة هنا في بطني، وهي تجهز عليّ ببطء شديد شيئاً فشيئاً... لقد كنت وجاكاه الفردين السادس والسابع هنا، ثمّ ازداد عددنا... ولم يمت أحد منا، وها نحن أصبحنا واحداً وثلاثين الآن. جاء بولت قبلي ولعله مكث هنا فترةً أطول من الجميع... الذين بقوا أحياء... وأخبرنا أن قاتل

الرحلة أراد أربعةً وستين فرداً حينها، وبالتالي منافسات أكثر، بحيث تلوث الدماء عشباً أكثر. أعتقد أن كيلين وراء إقناع قاتل الرحلة أنه سيعجز عن جمع ذلك العدد من الأفراد الكاملين، ولذلك اكتفى باثنين وثلاثين منا. يقول آي إن قاتل الرحلة سيقحم ريد مولي بدل ادخارها حتّى النهاية إن فشل في إيجاد الفرد الكامل الأخير».

أعلم هذا الأمر، وقد ارتعدت خوفاً من ريد مولي مع أنه لم يسبق لي أن رأيتها لأنني التقيت والدتها مسبقاً، ولكن يوجد شيء أجهله، فاقتربت من هامي، وقلت: «إلدن هو قاتل الرحلة».

«هذا ما يقولونه».

«هل لديه اسم آخر؟ هل هو غوغماغوغ؟».

اكتشفت حينها الفرق الشاسع والهوة الكبيرة بين الحكايات الخيالية السحرية مثل الساعات الشمسية التي تغير الوقت، وبين الأمور الخارقة، إذ سمعت شيئاً ما.

تبدلت إضاءة مصابيح الغاز الباهتة المعتادة فجأةً إلى أسهم زرقاء مضيئة حوّلت ديب مالين إلى مصباح ساطع، وتعالت صرخات الخوف والمفاجأة من بعض الزنزانات. رأيت آيوتا واقفاً أمام قضبان زنزانته واضعاً إحدى يديه أمام عينيه، ولم يستمر الأمر سوى لثانية أو ثانيتين، قبل أن تنتفض حجارة الأرض تحتي وتعود إلى مكانها، كما تساقط الغبار من السقف، وتأوهت الجدران، وكأن سجننا صرخ على وقع ذلك الاسم.

لا.

ليس «وكأنها»...

بل صرخت حقيقةً.

ثم انتهى الأمر.

أحاطت ذراعا هامي النحيلتان بعنقي بقوة تكفي كي أختنق، وهمس في أذني: «إياك وذكر ذلك الاسم مجدداً. هل تريد إيقاظ الشيء النائم في البئر المظلمة؟».

الفصل الثالث والعشرون

الوقت ظل في العقل- تاريخ غامض-كلا - ملاحظة- التوزيعات.

1

تلقيت خلال عامي الأول في هيلفيو دروساً في المستوى الأول من اللغة اللاتينية، إذ بدا لي تعلّم لغة منسية فكرةً رائعةً، كما أخبرني والدي أن والدتي تعلمتها في المدرسة ذاتها، ومن المعلمة يونغ نفسها، التي درّست اللغة الفرنسية أيضاً، وقد وجدتها والدتي رائعةً، وأدركت صحة ذلك حين التقيتها رغم تقدمها في السن، وضم صفها ثمانية طلاب حينها، ثمّ تقاعدت في العام التالي، ولذلك لم أتلقَ دروساً في المستوى الثاني إذ أزيل من برنامج ثانوية هيلفيو اللغوي.

سألت المعلمة يونغ خلال الدرس الأول عن أيّ جمل لاتينية نعرفها، فرفعت كارلا جوهانسون يدها وقالت: «كارب ديم – carpe diem»، والتي تعني اغتنم نهارك، ثمّ عم الصمت ولم يقل أحد شيئاً، ولذلك رفعت يدي وأخبرتها عبارةً اعتاد عمي بوب قولها عندما يحتاج الذهاب إلى مكان ما: «تيمبوس فوجيت – tempus fugit»، وتعني يمر الوقت سريعاً. أومأت المعلمة يونغ، وأعطتنا أمثلةً إضافية بعد نفاد الإجابات من الجميع، مثل: « أد هوك – ad hoc (تعني من أجل شيء معين)»، و«دوفاكتو – de facto (تعني في الحقيقة)»، و«بونا فيد – bona fide (تعني بصحتك)». نادتني المعلمة بعد نهاية الدرس، وقالت إنها تتذكر والدتي جيداً، ومتأسفة لأنني

خسرتها باكراً جداً، فشكرتها من دون أن أذرف دمعةً واحدةً، فقد مرّت ست سنوات على وفاتها، ولكن أحسست غصةً في حلقي.

قالت: «إن عبارة تيمبوس فوجيت جيدة، ولكن ليس الوقت سريعاً دوماً، وسيؤكد ذلك أولئك الذين احتاجوا انتظار شيء ما، ولذا أفضل عبارة تيمبوس إت أومبرا إن مينتي، وتعني تقريباً أن الوقت ظل في عقولنا».

راودني هذا الحديث مراراً في ديب مالين، لأننا مدفونون، والسبيل الوحيد إلى تمييز النهار – أي أن الوقت نهاراً في مكان ما غير زنزانتنا الأبدية – هو قلة عدد المرات التي يأتي فيها جنود الليل، وخفوت هالاتهم، وزيادة وضوح وجوههم البشرية العابسة الشاحبة والمتعبة في معظمها، وتساءلت إن عقد هؤلاء خلال حياتهم البشرية صفقةً ما مع الشيطان ويندمون عليها الآن أو تأخر الوقت كثيراً على الانسحاب، ولكن ربما ليس أرون، وقطعاً ليس لورد هاي، بل لعل بقيتهم كذلك، أو أنني أرى ما أريد رؤيته فحسب.

أعتقد أنني تتبعت الوقت تماماً خلال أسبوع الاحتجاز الأول، ولكنني عجزت عن ذلك بعدها، وأظن أنهم أخذونا إلى الملعب كل خمسة أو ستة أيام، حيث مارسنا تمارين بسيطة من دون قتال دامٍ، باستثناء يانو الذي خلعت كتفه بعد تسديده ضربة عصا قوية جداً إلى إيريس (أعتذر عن ذكر أسماء جديدة ولكن يجب أن تتذكر وجود ثلاثين سجيناً معي) والتي انحنت وتفادتها، وقد توقعت حدوث ذلك، إذ يفتقر يانو ومعظم رفاقي هناك إلى ما قد تسميه بنية دوين جونسون الجسدية ناهيك عن وقت الاحتجاز الطويل والذي لم يساعده في امتلاك بنية جسدية قوية، بينما مارست الرياضة حتّى في زنزانتي، وكذلك بعض السجناء الآخرين.

أعاد سجين آخر يدعى فريد كتف يانو إلى مكانها بعد عودتنا إلى غرفة تبديل الملابس، وذلك بعد أن طلب منه البقاء ساكناً، ثمّ شد مرفقه، ورفعه فحصلت طقة عندما عاد المفصل إلى وضعه الطبيعي.

أخبرته على الطريق إلى ديب مالين: «أحسنت صنعاً».

هزّ فريد كتفيه مستهجناً وقال: «لقد كنت طبيباً في سيتادل قبل سنوات كثيرة».

لكنه استخدم كلمةً أخرى غير سنوات، وأعلم أنني قلت ذلك سابقاً، وأنت تعلم ذلك أيضاً، ولكن يجب أن أشرح، أو أحاول على الأقل تفسير سبب عجزي عن فهم التناقضات؛ حيث سمعت كلمة سنوات دوماً، ولكن تبين بعد استخدامها في أسئلتي عن إمبيس أن معناها يختلف نسبةً إلى الأشخاص. لقد رسمت صورةً عن التاريخ الإمبيسي مع مرور الأسابيع (استخدمت هذه الكلمة عمداً)، ولكن من دون وضع خط زمني متناسق.

حضر والدي لقاءات جمعية مدمني الكحول المجهولين، حيث طُلب من المبتدئين إزالة قطع القطن من آذانهم ووضعها في فمهم؛ أي أن يتعلموا كيفية الإصغاء وبالتالي أن يصغوا كي يتعلموا. لقد طرحت الأسئلة أحياناً، ولكن حافظت على صمتي معظم الأوقات، إذ تحدّث الجميع (لأنه الشيء الوحيد المتاح أمامهم) واختلفوا حيال وقت حدوث هذا وذاك (أو حقيقة وقوع الأمر حتّى)، كما رووا القصص التي سمعوها عن آبائهم وأجدادهم، وقد كانت صورةً مشوشةً كي يبدأ المرء منها، ولكن تبقى أفضل من لا شيء.

يحكى أنه في قديم الزمان، امتلكت الفراشات الكبيرة سلطةً فعليةً وجيشاً حقيقياً، وحتى أسطولاً بحرياً على حدّ معرفتي، إذ شابهت إنكلترا تقريباً خلال فترات حكم جيمس، وتشارلز، وهنري وزوجاتهن. تقلد ملوك إمبيس القدماء – وأحد الأمور التي أجهلها هو وجود ملكات بينهم – بناءً على قرار الآلهة العظمى الحاسم الذي لا يقبل الجدل، واعتبر الملوك أنفسهم آلهةً، وسمعت أنهم كذلك فعلاً. هل يصعب تصديق أن الملوك (وربما أفراد عائلاتهم) قادرون على الطيران وقصف الأعداء وقتلهم عبر نظراتهم

الغاضبة، أو شفاء المرضى عبر لمسهم، وذلك في بلاد تضم حوريات البحر والعمالقة؟

جاء زمان اعتلت فيه أسرة غالين عرش الحكم، وقدر زملائي في السجن حدوث ذلك قبل سنوات طويلة، أحسنت التخمين، ثمّ تزعزعت سلطتهم مع مرور الوقت، أي بعد خمسة أو ستة أجيال حسب اعتقادي، وخسرت حكومة إمبيس سطوتها قبيل الداء الرمادي، وحافظت الأسرة الحاكمة على اعتبارها من دون أن تكون الآمرة الناهية في البلاد، حيث تحدث الطبيب فريد عن سيتادل وكأنها إحدى المدن الكبيرة المهمة؛ حيث أدارها مجلس من سبعة مستشارين منتخبين، ولكنني تصورتها بلدةً غنيةً ازدهرت بفضل التجارة بين سيفرونت وليليمار، ولعل الأمر نفسه بالنسبة إلى البلدات والمقاطعات الأخرى مثل ديسك وأولوم (قبل توغل السذاجة الدينية فيها على الأقل)، حيث امتلك كل منها ما يميزها، واهتم مواطنوها بأعمالهم.

أدركت أن معظم السجناء الذين أصبح معظمهم أصدقائي – وقد شق عليهم التعامل مع إيمانهم بأنني أمير سحري أو احتمال ذلك – يعرفون القليل فقط عن ليليمار والقصر، ليس لأن ذلك سر كبير، بل لأنهم منحوا اهتمامهم إلى حيواتهم الخاصة وبلداتهم. لقد دفعوا الضرائب إلى الملك (وقد اعتقد دوبل أن اسمه الملك جام – تعني المربى في الإنكليزية، مثل شيء تضعه على الخبز)، نظراً إلى واقعية المبالغ المطلوبة، ومواظبة الجيش على حماية الطرق والجسور والذي كان وقتها جيشاً صغيراً وأطلق عليه اسم حراس الملك، كما دفعوها إلى أشخاص أطلق عليهم توم اسم خيالة الشرطة، وأسماهم أميت القوات الشعبية (هذه هي الكلمات التي سمعتها). التزم شعب إمبيس دفع الضرائب إلى جان لأنه الملك – مفاجأة! – إضافةً إلى ميلهم ناحية تنفيذ العادات والتقاليد، ولكن لعل الأمر أزعجهم

قليلاً، وهذه حال الجميع حيال دفع الأموال، ثمّ نسوا كل شيء عن الأمر حتّى مجيء اليوم الإمبيسي الذي يكافئ الخامس عشر من نيسان مجدداً.

هل تتساءل عن السحر؟ والساعة الشمسية؟ وجنود الليل؟ والأبنية التي يبدو أنها تغير شكلها أحياناً؟ لقد اعتادوا عليها، وإن وجدت ذلك غريباً، تخيّل أن شخصاً سافر عبر الزمن من عام 1910 إلى عام 2010 كي يجد عالماً يجوب الناس سماءه ضمن طيور معدنية عملاقة، ويركبون سيارات تتحرك بسرعة تسعين ميلاً في الساعة، ويتجولون حاملين حواسيب قويةً في جيوبهم، كما يشبه الأمر شخصاً شاهد بضعة أفلام صامتة بالأبيض والأسود، ويجلس الآن في الصف الأمامي من سينما آي ماكس كي يشاهد فيلم أفاتار ثلاثي الأبعاد.

ستعتاد على الأشياء المذهلة، هذا كل ما في الأمر؛ أي ستتقبل أن يجمع عالمك حوريات البحر وآي ماكس، أو العمالقة والهواتف المحمولة، وستجده أمراً رائعاً، أليس كذلك؟ ولكنه يبدو سيئاً من ناحية أخرى. هل يخيفك غوغماغوغ؟ ماذا لو علمت أن عالمنا يضم مخزوناً من الأسلحة النووية الذي يكفي كي يبيد وجودنا؟ وأجهل ما قد أسميه إن لم يكن سحراً أسود.

2

توالى الملوك على حكم إمبيس، وقد علمت وجود جثث أفراد أسرة غالين في أحد المباني الرمادية الضخمة التي مررت برفقة رادار بجوارها عندما تبعنا الحرفين الأولين من اسم السيد بوديتش إلى الساعة الشمسية حيث غسل الملك جان حسب الطقوس المتعارف عليها، وزعم بولت أنهم استعملوا كأساً ذهبياً مقدساً.

أصر جاكاه أن الملكة كلارا هي زوجة الملك جان، وربما اسمها كارا، ولكن آخرين أصروا أن الاسم هو كورا، وأنها قريبته من الدرجة الثالثة أو ما

شابه، وقد جهل الجميع عدد أولادهم؛ إذ قال بعضهم أربعة، وآخرون ثمانية، وأقسم أميت أنهما أنجبا عشرة أطفال، إذ قال: «لا بد أنهما مارسا الجنس مثل الأرانب الملكية»، ولكن أخبرتني فرس أميرة محددة شيئاً أثبت أنهم مخطئون – إذ كانوا سبعة أبناء، خمس فتيات وصبيان، وهنا أثارت القصة اهتمامي، أو أصبحت ذات صلة رغم أنها بقيت غامضةً إلى حدّ الجنون.

أصاب المرض الملك جان، وانتظر ابنه المفضل الأكبر روبرت أن يخلفه، وكان جاهزاً كي يشرب من الكأس المقدسة (والتي تخيّلتُ أن رسوم الفراشات قد نقشت على حافتها)، بينما تلاشى الأخ الأصغر إلدن من ذاكرة الجميع... باستثناء ليا، التي أحبته كثيراً.

ذات ليلة قال دومي: «أجمعت الروايات على أنه أحمق أعرج، حيث ابتليت قدماه بالحنف».

قال أوكا: «وسمعت أن الثآليل تغطيه أيضاً».

أضاف فيرمي: «ويملك حدبةً في ظهره».

قال ستوكس: «قيل إن هناك كتلة في عنقه».

استمتعت خلال هذا الحديث، وتعلمت منه أيضاً، إذ ذكر الأمير إلدن – القبيح، والأعرج، والمنسي تقريباً – وقاتل الرحلة وكأنهما شخصان مختلفان، أو مثل اليسروع الذي يتحول إلى فراشة، وأعتقد أن جزءاً من حراس الملك على الأقل قد تحولوا إلى جنود الليل.

اشتعلت الغيرة في قلب إلدن من شقيقه قبل أن تستحيل كراهيةً، وقد اتفق الجميع على هذه النقطة، ولما لا؟ إذ تمثل العداوة بين الإخوة محور حكاية خيالية تقليدية في عالمي، وأعلم أن القصص الجيدة ليست حقيقيةً دوماً وإن في جزء منها على الأقل، ولكنها معقولة بما يكفي، حيث تجسّد طبيعة النفس البشرية، إذ قرر إلدن السيطرة على عرش أبيه عبر

القوة أو الخداع وأن ينتقم من عائلته، حتّى وإن سبب ذلك معاناة شعب إمبيس كله.

أعلم تماماً كيف حصل إلدن على اسمه الجديد، ولكن هل حل الداء الرمادي قبل تحوله إلى قاتل الرحلة أم بعده؟ قال معظم رفاقي أنه قبله، ولكنني أعتقد العكس، وأن قاتل الرحلة خلقه بطريقة ما.

قال الطبيب فريد: «لقد انتشرت الفراشات في أنحاء إمبيس جميعها، وغطت السماء تماماً».

جرى هذا الحوار على طريقنا إلى الزنزانة بعد أن أعاد الطبيب كتف يانو التي أصيبت خلال التمرين، إذ مشينا معاً وتحدث الطبيب بصوت منخفض أقرب إلى الهمس، وأصبح الكلام أسهل خلال نزولنا السلالم كما تباطأت خطواتنا لأن التمرين أنهكنا، وقد جعلني حديثه أُفكّر كيف ملأ الحمام المهاجر سماء وسط غرب الولايات المتحدة قبل أن يصطاده الناس حتّى انقرض، ولكن من اصطاد الفراشات الكبيرة؟

سألته: «هل كانت لذيذةً؟»، إذ شكّل الحمام المهاجر طعاماً رخيص الثمن، وهذا سبب انقراضه.

تنهد وقال: «إن الفراشات الكبيرة سامة يا تشارلي، إذ قد تؤلمك معدتك عند تناول واحدة، ولكن إذا تناولت عدداً كبيراً منها فقد تموت. لقد انتشرت في كل مكان كما أذكر، وخاصةً في ليليمار وضواحيها».

هل قال ضواحي أم أحياء صغيرةً؟ إنهما تمتلكان المعنى نفسه.

«لقد زرع الناس نبات الصقلاب في حدائقهم كي تتناولها اليرقات، والورود كي تمتص الفراشات رحيقها، حيث اعتبرت الأخيرة رمز الحظ في المملكة».

فكرت في التماثيل المحطمة التي رأيتها وقد نقشت على أنقاضها أجنحة مفتوحة.

«تفيد القصة أن إلدن بقي حياً بعد مقتل أفراد أسرته جميعاً، فارتدى معطفاً أحمر ووشاح فرو أبيض، ووضع تاج أسرة غالين على رأسه، ومشى في الشوارع تحت ظل الفراشات الكبيرة التي احتلت السماء، ولكن انهمرت الآلاف منها ميتةً بعد كل مرة يرفع إلدن يده فيها. بقي بعض السكان في المدينة وبايعوا إلدن وأقسموا له بالولاء، بينما غادرها الآخرون وشقوا طريقهم بين ملايين الفراشات الميتة التي بلغ ارتفاعها عشر أقدام، وقد تلاشت ألوانها الساطعة كي يحل الرمادي محلها».

قلت عندما أوشكنا الوصول إلى الزنزانات: «هذا رهيب، وهل تُصدّق ذلك؟».

فرك عينيه، ثمّ نظر إليّ مجدداً وقال: «أعلم أنها قتلت في سيتادل، وقد رأيتها تتساقط من السماء بنفسي، وسيخبرك الآخرون الأمر نفسه... سأدفع أي شيء مقابل رؤية فراشة واحدة على الأقل خلال التمرين في ساحة اللعب، واحدةً فقط، ولكن أعتقد أنها انقرضت تماماً».

«هذا غير صحيح، إذ رأيت أعداداً كبيرةً منها».

أمسك ذراعي، وقد فاجأتني قوة قبضته نسبةً إلى حجمه؛ إذ اعتقدت أنه احتمالات صموده في فير ون تعادل نظيرتها لدى هامي، وقال:» هل ما تقوله حقيقي؟ هل تقسم على ذلك؟».

«أجل».

«أقسم باسم والدتك الآن».

التفت أحد الحراس إلينا عابساً، وأشار مهدداً بعصاه المرنة قبل أن يستدير إلى الأمام مجدداً.

همست: «أقسم باسم والدتي».

مازالت الفراشات الكبيرة حيةً، وكذلك أفراد أسرة غالين، ولكنهم تحت لعنة القوة التي يمتلكها إلدن الآن أياً كانت – وهي ذاتها التي دمرت الضواحي القريبة وأحالتها ركاماً – ولكن ما يهم أنهم أحياء، وقد تجنبت إخبار فريد ذلك حفاظاً على حياتنا.

فكّرت في القصة التي رواها وودي حول مطاردة هانا أفراد عائلته الباقين حتّى بوابات المدينة، وكيف سحقت رأس ابن أخيه ألويسيوس. «متى جاءت هانا؟ وما سبب قدومها من أرض العمالقة شمالاً؟».

هزّ رأسه وقال: «لا أدري».

اعتقدت أن السيد بوديتش جاء في رحلته الأخيرة من أجل الذهب خلال زيارة هانا أقاربها في كراتشي، ولكن لا سبيل للتأكد من ذلك لأنه مات، وكما قلت سابقاً؛ إن التاريخ الإمبيسي غامض.

بقيت تلك الليلة يقظاً لفترة طويلة، ولكنني لم أُفكّر في إمبيس، أو الفراشات، أو قاتل الرحلة؛ بل في والدي الذي افتقدته وقلقت عليه، إذ لعله يعتقد أنني ميت مثل والدتي.

3

مرّ الوقت سريعاً خلال جمع المعلومات الصغيرة دون أن أتيقن سبب إقدامي على ذلك. في أحد الأيام عدنا من تمرين مرهق أكثر من المعتاد، كي نجد رجلاً ملتحياً أكبر حجماً مني، ومن دومي، وآيوتا، قابعاً في زنزانة الأخير، ومرتدياً بنطالاً قصيراً متسخاً، وسترةً مخططةً ملوثةً مثله وقد تمزق كماها كي يكشفا عن عضلات ذراعه المفتولة. جلس الرجل أرضاً في الزاوية وركبتاه في مستوى أذنيه وبعيداً قدر الإمكان عن الهالة الزرقاء حول لورد هاي.

رفع كيلين متكاسلاً إحدى يديه، ولكنها كانت كافيةً كي يقف جنديا الليل اللذان يقوداننا على أهبة الاستعداد، فتوقفنا جميعاً، في ذلك اليوم كانت جايا تسير إلى جانبي، ولمست يدي بيدها التي كانت باردةً جداً.

تقدم كيلين إلى زنزانة آي، ثمّ التفت إلينا قائلاً: «أود أن أعرفكم يا أصدقائي الأعزاء إلى زميلكم الجديد، إن اسمه كلا. لقد وجدناه على شاطئ بحيرة ريملا بعد أن تسربت المياه إلى قاربه الصغير، حيث أوشك أن يغرق، أليس كذلك يا كلا؟».

التزم كلا الصمت، وحدّق إلى كيلين فقط.

«أجبني!».

«أجل، لقد أوشكت على الغرق».

«حاول الإجابة مجدداً، ونادني لورد هاي».

«أجل أيها اللورد هاي، لقد أوشكت على الغرق».

«التفت كيلين إلينا مرةً أخرى وقال: «ولكن أنقذناه يا أصدقائي الأعزاء، وأنا متأكّد أنكم لاحظتم غياب أي بقعة رمادية عنه، ولكن بعض الأوساخ تغطيه»، ثمّ ضحك ضحكةً مكتومةً سيئة الصوت، وهنا شدت جايا قبضتها على يدي.

«أدرك أن تقديم السجناء الجدد ليس شائعاً في ديب مالين كما تعلمون، ولكن أعتقد أن صديقنا الجديد كلا يستحق واحداً، لأنه ضيفنا الثاني والثلاثين، أليس ذلك رائعاً؟».

التزم الجميع الصمت.

أومأ كيلين إلى أحد جنديي الليل اللذان يقودان موكبنا عاثر الحظ، ثمّ إلى بيرند الواقف في المقدمة إلى جوار أميت، فضربه الجندي بالعصا

المرنة على عنقه، كي يصرخ الأخير متألما ويسقط إلى ركبتيه واضعاً يده حيث تسيل الدماء، ثمّ انحنى كيلين إليه.

«أخبرني ما اسمك؟ سأتجنب الاعتذار عن نسيانه إذ أنكم كثيرون».

أجاب مختنقاً: «أدعى بيرند، وأنا من سيتـ...».

قال كيلين: «لا يوجد مكان يدعى سيتادل بعد اليوم، يكفي أن تقول بيرند. إذن أخبرني يا بيرند من اللامكان، أليس رائعاً حصول الملك إلدن الملقب بـ قاتل الرحلة على المتنافس الثاني والثلاثين؟ وأجبني بصوت قوي ومرتفع».

قال بيرند: «أجل»، وقد سالت قطرات الدماء بين أصابع يده القابضة على رقبته.

قال لورد هاي وكأنه يُعلّم طفلاً صغيراً كيفية القراءة: «أجل ماذا؟ ر.. را..؟ أخبرني بصوت قوي ومرتفع فوراً!».

أجاب بيرند: «رائع»، ونظر إلى أرض الممر الصخرية الرطبة.

قال كيلين: «أيتها المرأة. إيريس. أليس كذلك؟».

أجابت إيريس: «أجل يا لورد هاي»، إذ يستحيل أن تصوب كلامه.

«أليس رائعاً انضمام كلا إلينا؟».

«أجل يا لورد هاي».

«ما مدى روعة ذلك؟».

«إنه أمر في غاية الروعة يا لورد هاي».

«هل تفوح هذه الرائحة النتنة من فرجك أم مؤخرتك يا إيريس؟».

تجمد وجه إيريس تماماً، ولكن اشتعل الغضب في عينيها، فتصرفت بحكمة والتفتت إلى الأرض قائلةً: «ربما كلاهما يا لورد هاي».

«أجل، أعتقد ذلك أيضاً. حان دورك يا آيوتا، اقترب مني».

تقدم آيوتا إلى الأمام، وأوشك أن يلامس الهالة الزرقاء التي تحمي كيلين.

«هل أنت سعيد لأنك حصلت على شريك في زنزانتك؟».

«أجل يا لورد هاي».

«أليس أمراً ر... را..؟»، وفتح كيلين يده البيضاء كي يكمل آيوتا الكلمة، وقد لاحظت أنه سعيد، بل مبتهج جداً، ولم لا؛ إذ أكمل مهمة جمع الأفراد الكاملين على أكمل وجه، وأدركت الآن كم أكرهه إضافةً إلى قاتل الرحلة الذي لم ألتقِ به بعد.

«إنه أمر رائع».

مدّ كيلين يده ببطء صوب آيوتا الذي حاول أن يثبت في مكانه، ولكنه أجفل إلى الخلف عندما أصبحت اليد على مسافة سنتمترات قليلة عن وجهه، وقد سمعت طقطقةً في الهواء، ورأيت شعر آيوتا منتصباً أمام القوة التي أبقت كيلين حياً أياً كانت.

«رائع ماذا يا آيوتا؟».

«إنه أمر رائع يا لورد هاي».

انتهى كيلين من العبث معنا، ثمّ سار بخطوات واسعة بيننا، وقد حاولنا الابتعاد عن طريقه، ولكن بعض السجناء عجزوا عن ذلك ووقعوا ضحية هالته، فركع كل واحد منهم على ركبتيه إما صامتاً أو يئن من الألم. دفعت جايا بعيداً عنه كي يدخل مرفقي الهالة الزرقاء حوله ويمتد ألم حارق حتّى

كتفي وتتشنج عضلاته كلها، وقد مضت دقيقتان طويلتان قبل أن تعود إلى طبيعتها مجدداً.

فكرت في نفسي: «يجب أن يعتقوا العبيد الرماديين ويستعملوا طاقتهم من أجل تشغيل ذلك المولد القديم».

وقف كيلين عندما وصل إلى الباب، والتفت إلينا، وضرب قدمه إلى الأرض مثل رقيب تدريب عسكري بروسي، ثمّ قال: «أنصتوا إليّ يا أصدقائي الأعزاء، باستثناء قلة من المنفيين غير المهمين، وبعض الأفراد الكاملين الهاربين الذين ربما فروا خلال بدايات حكم قاتل الرحلة، أنتم القطرات الباقية من الدماء الملكية، والبذور الأخيرة الضعيفة من نسل الخبيثين الأوغاد المغتصبين، لذلك أوكلت إليكم مهمة إسعاد قاتل الرحلة، وستنفذونها قريباً، إذ انتهى وقت اللعب، وستطأ أقدامكم ملعب إلدن، الذي عرف باسم ملعب الفراشات الكبيرة سابقاً، إلى الجولة الأولى من فير ون».

أشرت بذراعي التي استعادت عافيتها إلى كلا وقلت: «ولكن ماذا عنه يا لورد هاي، ألن تتسنى له فرصة التمرن؟».

نظر كيلين إليّ وقد ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجهه، واستطعت رؤية تجويفي عينيه الفارغين في جمجمته، وقال: «ستكون أنت تمرينه أيها الصغير، لقد نجا كلا من بحيرة ريملا، ولذلك سيتجاوزك بسهولة، انظر إلى حجمه! لا، لا... ستفشل يا صديقي المتغطرس في التأهل إلى الجولة الثانية، وسيسعدني حينها أن أتخلص منك بنفسي».

رحل بعد هذه الكلمات المطمئنة.

تلك الليلة، تناولنا شرائح اللحم على العشاء، وفي كل ليلة بعد «وقت اللعب» تقريباً. دفع بيرسي عربته عبر الممر وهو يلقي الشرائح غير المطبوخة جيداً إلى زنزاناتنا الست عشرة والتي احتجز الآن سجينان في كل منها، ورفع بيرسي مجدداً يده المشوهة إلى جبهته عندما ألقى قطعة اللحم إليّ، ستدرك أنه يؤدي التحية مباشرةً رغم تنفيذها بسرعة وخفية. التقط كلا شريحته قبل أن تسقط على الأرض، وجلس في الزاوية حاملاً إياها، والتهمها في لقمات كبيرة شرهة، فقلت في نفسي: «يا لهذه الأسنان الكبيرة التي تملكها يا كلا».

تناول هامي بضع لقمات من قطعته، ثمّ حاول أن يعطيني إياها، ولكنني قلت: «تستطيع أن تأكل أكثر من ذلك».

أجابني: «ولماذا سأتناولها؟ كي أعاني من الآلام، ثمّ أموت على أيّ حال؟».

تذكرت قول والدي الذي تعلمه من جمعية الكحوليين المجهولين: «يوم واحد كل مرة»، لم يبدُ أن السجين يدرك مرور الأيام في مالين، ولكن هامي تناول بضع لقمات أخرى من أجلي، إذ كنت الأمير الأسطوري المنتظر، ورغم امتلاكي قدرةً سحريةً غامضةً على تغيير لون شعري وعيني، فقد عجزت عن التحكم فيهما أو استعمالهما.

طرح آي سؤالاً على كلا عن حادثة الغرق، ولكن الأخير التزم الصمت، وقد أراد فيرمي وستوكس معرفة موطنه ووجهته؛ في حال احتوى العالم جنةً آمنةً في مكان ما، كما سأله غالي عن الفترة التي قضاها هارباً، من دون أن ينبس ببنت شفة، بل تناول شريحته، ومسح العصارة عن أصابعه بقميصه المخطط.

وقف دوبل خلف قضبان زنزانته المشتركة مع بيرند والتي تبعد قليلاً عن زنزانتي، وقال: «هل يجب أن يحضر لورد هاي كي ينطلق لسانك؟»،

وقد حمل بقية قطعته في يده، وأنا أعلم أنه يدخرها كي يتناولها بعد الاستيقاظ ليلاً – إن عادات السجن بسيطة ولكنها مؤسفة.

أجاب كلا من زاويته دون أن ينهض أو يلتفت إلينا: «لماذا الحديث إلى أشخاص سيموتون قريباً؟ أفهم أمر المسابقة جيداً، ولكنني سأفوز بها، وأخطف الجائزة في حال وجودها».

عمّ صمت تام بعد سماع هذه الكلمات.

أخيراً، قال فيرمي: «إنه لا يفهم».

تابع ستوكس: «أو لعله تلقى معلومات خاطئةً، أو ما زال بعض الماء يسد أذنيه فلا يسمع جيداً».

شرب آيوتا كوب ماء من دلوهما، ثمّ قفز إلى قضبان زنزانته التي كانت انفراديةً حتّى ذلك اليوم، وأخذ يمطط عضلاته ويهز القضبان كعادته، ثمّ أفلتها والتفت مواجهاً العملاق الأخرق الجالس أرضاً في الزاوية.

قال: «دعني أخبرك شيئاً يا كلا، أو أوضحه كما يقال؛ لقد أقيمت بطولات مثل فير ون خلال حكم أسرة غالين على أرض ملعب الفراشات الكبيرة، وجاء آلاف الناس كي يشاهدوها من كل مكان، وحتى العمالقة من كراتشي، وتفيد الأخبار أن حراس الملك قد شاركوا فيها، وأتيح المجال أمام أفراد عامة الشعب أيضاً والذين يريدون اختبار قوتهم، وقد جرت مبارزات دموية وحُمل المتسابقون فاقدين وعيهم أحياناً إلى خارج الملعب، ولكن ينطبق هذا الوصف على النسخة القديمة من المسابقة، وحتى قبل وصول أسرة غالين إلى الحكم، أي حين كانت ليليمار مجرد قرية صغيرة مثل ديسك».

ما زلت أجهل بعض ما قاله آيوتا حتّى بعد قضاء أيام وأسابيع طويلة هنا، ولذلك أنصت بانتباه، وكذلك بقية السجناء؛ إذ يندر أن نناقش أمر فير

ون في زنزانتنا الأبدية لأنه موضوع مُحرّم، مثل كراسي التعذيب الكهربائية في الأيام القديمة والحقن القاتلة في أيامنا هذه.

«سيتنافس ستة عشر فرداً منا ضد النصف الآخر حتّى الموت من دون استراحة أو انسحاب، وأي شخص يرفض القتال سيجد نفسه – أو نفسها – على المخلعة، أو في العذراء الحديدية، أو حزام التعذيب – تربط الضحية إلى حبل وترمى من مكان شاهق وتسحب فجأةً قبل وصولها إلى الأرض، هل تفهم ما أقوله؟».

جلس كلا في زاويته وكأنه يفكر، ثمّ قال أخيراً: «أستطيع أن أَقاتل».

أومأ آي: «أعلم أنك كذلك عندما لا تكون أمام لورد هاي أو غارقاً في البحيرة. سيتبارز الفائزون الستة عشر مجدداً، كي يبقى ثمانية، ثمّ أربعة، ويصبح الأربعة اثنين».

أومأ كلا وقال: «سأكون أحدهما، وسأحصل على جائزتي عندما يموت خصمي أمام قدمي».

اقترب هامي، ووقف إلى جانبي وقال: «ستحقق ذلك حتماً... يقال إن الفائز حصل قديماً على كيس مليء بالذهب، وأعفي مدى الحياة من ضرائب الملك، ولكن تلك الأيام ولت، وستكون جائزتك اليوم قتال ريد مولي؛ إنها عملاقة، وهي كبيرة جداً على الجلوس في الجناح الخاص الذي يشغله متملقو قاتل الرحلة. لقد رأيتها بضع مرات واقفةً تحته، وأدرك أنك كبير ويبلغ طولك سبع أقدام تقريباً، ولكن الساقطة الحمراء أكبر».

قال داش: «لقد أطلقوا عليّ اسم داش لسبب معين، حيث أنني سريع، وهي بطيئة، ولذلك تعجز عن إمساكي».

التزم الجميع الصمت؛ إذ سيقضى على داش قبل أن يواجه أحد ريد مولي.

فكر كلا في الأمر مجدداً، ثمّ نهض أخيراً، وأصدرت ركبتاه طقطقةً مثل الأخشاب التي تشتعل في النار، ثمّ اقترب من دلو المياه، وقال: «سأهزمها أيضاً، وأضربها حتّى أجعل دماغها يخرج من فمها».

قلت: «سنفرض أنك فعلت ذلك».

التفت كلا إليّ.

«ما زالت النهاية بعيدةً، إذ يجب بعد قتل الابنة – رغم ضآلة احتمال ذلك – أن تواجه أمها، ويستحيل أن تحصل على فرصة أمامها، لقد سبق لي أن رأيتها، وهي تشبه غودزيلا!».

لم أقل ذلك طبعاً، ولكن أياً كان فقد تعالت همسات الخلاف من الزنزانات الأخرى.

قال كلا: «لقد جردوكم من شجاعتكم حتّى أصبحتم خائفين من ظلالكم»، ولعله نسي أن ذلك ما أصابه عندما أمره كيلين أن يناديه لورد هاي، ولكن يختلف الأخير وجنود الليل عنا طبعاً، إذ يملكون تلك الهالات، وتساءلت عن كيفية شلل عضلاتي عندما لمسني كيلين.

حمل كلا دلو مياه الشرب، ولكن قبض آيوتا على ذراعه الضخمة.

«لا، لا. استعمل الكوب أيها الغبي، فبيرسي لن يُحضر عربة مياه الشرب مجدداً قبل...».

لم يسبق أن رأيت رجلاً ضخماً مثل كلا وسريعاً في الوقت نفسه ولا حتّى في مقاطع أبرز لقطات شاكيل أونيل التي تعرضها قناة (إي أس بي إن) عن الفترة التي لعب فيها كرة السلة من أجل فريق جامعة لويزيانا (ولكن امتلك ارتقاءات رائعةً رغم أن طوله سبع أقدام ووزنه مئة وخمسون كيلوغراماً تقريباً.

كان الدلو في يد كلا ومائلاً ناحية فمه، ولكن صدر بعد لحظة صوت قعقعته على أرضية الغرفة الحجرية، وقد انسكبت المياه منه، بينما جلس آي على الأرض مستنداً إلى إحدى يديه وواضعاً الأخرى على عنقه. اتجه كلا إلى الدلو والتقطه.

قال يانو: «ستنال عقاباً قاسياً إن قتلته، إذ سيلغى فير ون»، وقد بدا مرتاحاً.

قال هامي حزيناً: «بل سيقام لا محالة، إذ سيرفض قاتل الرحلة الانتظار، وسيقحم ريد مولي مكان آي».

ولكن آي ما زال حياً، واستطاع الوقوف في النهاية، ثمّ مشى مترنحاً إلى سريره واستلقى عليه، وذلك من دون أن أرى الضربة التي وجهها كلا إلى عنقه فطرحته أرضاً. لقد كان آي أكبرنا حجماً قبل مجيء كلا، وأكثرنا قوةً، والشخص الذي تتوقع صموده حتّى نهاية البطولة الدموية المسماة فير ون، ولكنه عجز عن رفع صوته عن مستوى الهمس بعد أن لكمه كلا إلى عنقه.

من يجب أن يواجه شخصاً يستطيع فعل ما سبق خلال الجولة الأولى في البطولة؟

وفقاً إلى كيلين، إنه أنا.

5

راودتني الأحلام عن رادار عادةً، ولكن بعد ليلة عراك آي وكلا، رأيت الأميرة ليا، وقد ارتدت في الحلم ثوباً أحمر مرتفع الخصر وصدرية مشدودة على جسدها، وبرز تحت حاشية ثوبها حذاء أحمر يلائمه ورصع الألماس مشبكه، كما ربطت شعرها إلى الخلف بواسطة طوق من اللآلئ، وأحاطت عنقها قلادة ذهبية تحمل فراشةً تربعت بين نهديها، وكنت جالساً إلى جوارها مرتدياً بذلةً سوداء مخمليةً وقميصاً أسود حريرياً، وليس الملابس البالية التي جئت فيها إلى إمبيس رفقة كلبتي المريضة، كما انتعلت حذاءً جلدياً حافته العلوية مطوية، يشبه ما قد ينتعله فرسان دوما وأنا متأكد أنه من مجموعة دورا، وكانت فلادا ترعى بهدوء في الأرجاء بينما مشطتها بالفرشاة وصيفة ليا الرمادية.

أمسكت وليا أيدي بعضنا وراقبنا انعكاس أنفسنا في حوض مياه ساكنة؛ امتلكت شعراً ذهبياً طويلاً، وقد اختفى العد – حب الشباب – من

وجهي، وبدوت وسيماً وكذلك ليا، وذلك بعد أن استعادت فمها، إذ ارتسمت ابتسامة صغيرة على شفتيها الحمراوين اللتين حملتا غمازتين إلى جانبيهما من دون أي قرحة أو ما شابه، سأقبلهما لو استمر هذا الحلم الذي أدركت أنه يشبه المشهد الأخير من أحد أفلام ديزني المتحركة، إذ ستسقط بتلة في الحوض خلال أيّ لحظة كي تشوش انعكاس صورة الأمير والأميرة في المياه بينما تتلاقى شفاههما بعد لم شملهما، وسيعلو صوت الموسيقى. هكذا يجب أن تكون النهاية، ويمنع أن يخربها أي ظلام.

ولكنني وجدت شيئاً غير منطقي، وهو أن الأميرة ليا حملت في حضنها مجفف شعر أرجواني، والذي أعرفه جيداً رغم أنني كنت في السابعة حين توفيت والدتي، ولكن والدي أرسل أدواتها جميعها إلى متجر غودويل، إذ قال إن قلبه يتحطم في كل مرة ينظر فيها إلى ما أسماه «أغراض المرأة»، ولم أُمانع تخليه عن معظمها، ولكنني طلبت منه أن أحتفظ بكيس الطيب خاصتها ومرآتها اليدوية، ووافق على ذلك. ما زلت أحتفظ بهما في المنزل داخل خزانتي.

لقد أطلقت والدتي على مجفف شعرها اسم سلاح الإشعاع الأرجواني المميت.

فتحت فمي كي أسأل ليا عن سبب امتلاكها مجفف شعر والدتي، ولكن وصيفتها قالت قبل أن أتفوه بأي شيء: «ساعدها».

أجبت: «ولكن أجهل كيفية فعل ذلك».

ارتسمت ابتسامة على فم ليا الجديد والساحر، وداعبت وجنتي قائلةً: «أنت أسرع مما تتصور أيها الأمير تشارلي».

أردت إخبارها أنني لست سريعا أبداً، وهذا ما جعلني ألعب على الخط في مباريات كرة القدم وعلى القاعدة الأولى في كرة القاعدة، وأعترف أنني أظهرت سرعةً كبيرة في مباراة تركي باول ضد فريق ستانفورد ولكنه

استثناء أحدثته فورة الأدرينالين في جسدي، وقبل أن أستطيع الكلام مجدداً، ضربني شيء على وجهي فاستيقظت مباشرةً.

لقد كانت قطعة لحم أخرى، ولكنها صغيرة وبالكاد أكبر من كسرة خبز، وقد ألقاها بيرسي خلال سيره في الممر وهو يقول: «آيا، آيا»، والذي افترضت أنها نتاج جهوده المبذولة كي ينطق كلمة بقايا.

استغرق هامي في النوم وسط شخيره، إذ أرهقه «وقت اللعب» ومعاناته اليومية في التغوط بعد العشاء. تناولت لقمةً صغيرةً من قطعتي، وجلست مستنداً إلى الحائط، ثمّ أخذت قضمةً أخرى، فأحسست أنني أمضغ شيئاً ما بين أسناني الأمامية، أخرجته من فمي وتبيّن أنها قطعة ورق تشبه تلك الموجودة في كعكة الحظ، ويبدو أن أحداً دسها في شريحة اللحم خاصتي، وقد كتب كلماته بخط صغير متصل أنيق مثل الأشخاص المثقفين، وقال فيها:

سأساعدك قدر استطاعتي يا سمو الأمير، إذ يوجد مخرج من هنا عبر غرفة الإداريين، ولكن الأمر خطير، دمر هذه الرسالة إن كنت تقدر حياتي.

في خدمتك، بيرسيفال.

قلت في نفسي: «إن اسمه بيرسيفال وليس بيرسي، إنه شخص حقيقي وليس رمادياً ويملك اسماً أيضاً».

ابتلعت الورقة.

6

كان فطور اليوم التالي مؤلفاً من النقانق، وعرفنا جميعاً معنى ذلك، فالتفت هامي إليّ وابتسم رغم الكآبة في عينيه وقال: «سأتخلص من الآلام البطنية على الأقل، والمعاناة من أجل التغوط. هل تريد حصتي من النقانق؟».

لم أرغب في قطعه الأربعة، ولكنني تناولتها على أيّ حال آملاً أن تمنحني طاقةً إضافيةً، ولكنها استقرت في معدتي كالحجارة. لاحقتني عينا كلا من زنزانته في الطرف المقابل، وسحقتني نظراته، وهنا رفع آيوتا كتفيه وكأنه يقول: «ماذا ستفعل؟»، فرفعت كتفي أيضاً وتساءلت: «ما الذي أستطيع فعله حقاً؟».

يمكننا الانتظار، إذ نعجز عن إيقاف الوقت، ولكنه أصبح بطيئاً على أيّ حال، وسمعت فيرمي يقول لستوكس الذي جلس جواره في الزنزانة: «لا بأس طالما لن نواجه بعضنا يا صديقي القديم».

فكّرت في أرجحية حدوث هذا الأمر لأنه قاس، ولكن تبين أن هذا التوقع خاطئ على الأقل بدليل ما سأذكره تالياً.

إذ توقعت عدم انطلاق فير ون في ذلك اليوم، وذلك قبل أن يدخل أربعة من جنود الليل بقيادة آرون الذي شاهد «وقت اللعب» دوماً من أرضية الملعب، ولوح بعصاه مثل قائد الأوركسترا، وقد كانت المرة الأولى التي يأتي فيها إلى ديب مالين بعد أن أخذني كي أقابل لورد هاي، وأُلقي نظرةً على غرفة التعذيب طبعاً.

انفتحت البوابات الصدئة، وقال آرون: «اخرجوا. هيّا اخرجوا أيها الصغار. إنه يوم جيد بالنسبة إلى نصفكم، وسيئ بالنسبة إلى نصفكم الآخر».

خرجنا جميعاً من الزنزانات باستثناء شخص نحيل أصلع يدعى هاتشا الذي قال: «أنا مريض، أريد البقاء هنا».

اقترب أحد جنود الليل منه، ولكن آرون أشار إليه أن يتوقف، ووقف شخصياً في مدخل الزنزانة التي يجلس فيها هاتشا برفقة شخص أكبر حجماً منه بكثير ويدعى كويلي من ديسك، والذي تراجع بعيداً عن هالة آرون ولكنها لمسته قليلاً، فأطلق صرخةً واهنة وقبض على ذراعه.

«أنت هاتشا من المكان الذي كان يُسمى سيتادل، هل هذا صحيح؟».

أومأ هاتشا في بؤس.

«وتقول إنك مريض، هل تعتقد أن النقانق هي السبب؟».

قال هاتشا دون أن يرفع ناظريه عن يديه المرتجفتين: «ربما».

«ولكن أجد أنك تناولت حصتك كاملةً».

التزم هاتشا الصمت.

«أنصت إليّ أيها الصغير، يجب أن تختار بين فير ون أو العذراء الحديدية، وسأشرف على زيارتك إياها شخصياً، كما سيطول لقاؤكما، وسأغلق الباب ببطء، وستحس الأشواك تلامس جفنيك... بلطف مبدئياً... قبل أن تخترقها، ثمّ تطعن معدتك! التي لعلها ليست طريةً مثل عينيك، ولكنها ملائمة، وبذلك ستتدفق النقانق التي تناولتها إلى الخارج إثر صراخك. والآن، هل سيعالج هذا الدواء آلامك؟».

تأوه هاتشا وخرج من الزنزانة مترنحاً.

صاح آرون: «هذا ممتاز. ها نحن جميعاً هنا. وسننطلق إلى البطولة. أسرعوا يا صغار. هيّا أسرعوا، أسرعوا. إذ ينتظرنا مرح كثير».

أسرعنا.

فكرت في الحلم الذي راودني عندما صعدنا الأدراج المعتادة – وكانت المرة الأولى التي ندرك فيها أن نصفنا سيعود فقط – وفي العبارة التي قالتها ليا: «أنت أسرع ما تتصور أيها الأمير تشارلي».

من دون أن أصدق أنني كذلك حقاً.

قادونا إلى غرفة الفرق التي استعملناها خلال التمارين بدل الذهاب إلى الملعب مباشرةً، وقد انتظرنا لورد هاي هناك متألقاً وهو يرتدي زياً رسمياً كاملاً، والذي بدا لونه أسود عبر الهالة الزرقاء، فقد كان كيلين مشحوناً تماماً من أجل هذه المناسبة، وتساءلت من أين تأتي الطاقة التي تغذي هالته، ولكن هذه الأسئلة ليست أولويةً في ذلك الوقت.

حمل رف دلاء المياه ستة عشر واحداً فقط، لأن هذا العدد من الأفراد فقط يحتاج الاغتسال بعد انتهاء فعاليات اليوم، وانتصب أمام الرف لوح يحمل ملصقاً كبيراً كتب أعلاه الجولة الأولى من فير ون، وتلاها توزيعنا على المباريات، وأذكرها تماماً؛ أعتقد أن المرء يستطيع تذكر أي شيء أو نسيان كل شيء في المواقف السيئة، وأعتذر لأنني سأذكر أسماء أكثر، ولكن يجب علي ذلك لأن رفاقي في السجن يستحقون تذكرهم، وإن بإيجاز.

قال كيلين: «إليكم ترتيب المبارزات، وأتوقع منكم تقديم عرض جيد من أجل سمو الملك إلدن، هل فهمتم؟».

التزم الجميع الصمت.

«قد تجد أنك ستواجه شخصاً اعتبرته صديقاً لك، ولكن تنتهي صلاحية الصداقة اليوم، إذ تستمر المبارزات كلها حتّى الموت، حتّى الموت، وسيجر الرفق بخصمك وإضعافه دون قتله موتاً أكثر إيلاماً إليكما معاً، هل تفهمون؟».

أجاب كلا فقط: «أجل»، والتفت إليّ ومرر إبهامه أمام عنقه، وابتسم.

«سيحين دور المشاركين في المجموعة الأولى، ولذلك استعدوا».

غادر كيلين وبقية جنود الليل، ثمّ اتجهنا كي نقرأ الملصق وسط الصمت الذي خيّم على المكان.

الجولة الأولى من فير ون

المجموعة الأولى

فيرمي ضد مورف

جايا ضد هامي

أميت ضد والي

المجموعة الثانية

يانو ضد فريد

جاكاه ضد آيوتا

ميسيل ضد سام

المجموعة الثالثة

توم ضد بولت

دومي ضد كاميت

بيندو ضد داش

الظهيرة

المجموعة الرابعة

دوبل ضد إيفاه

ستوكس ضد هاتشا

باغ ضد كويلي

المجموعة الخامسة

بيرند ضد غولي

هيلت ضد أوكا

إيريس ضد فيز

المجموعة السادسة

كلا ضد تشارلي

لقد شاهدت توزيعات مماثلةً ليس فقط على التلفاز خلال قرعة الأحد في الرابطة الوطنية لرياضة الجامعات، بل شخصياً عند إعلان توزيع الفرق المتنافسة في بطولة أركاديا بيب روث لكرة القاعدة، إذ تعلق الملصقات كل ربيع في ملاعب الفرق المشاركة. كان ذلك غريباً، والأكثر غرابةً كلمة الظهيرة في الوسط، أي سيشاهد قاتل الرحلة وحاشيته مقتل تسعة سجناء قبل أخذ استراحة من أجل تناول الغداء.

سأل أميت: «وماذا سيحدث إذا رفضنا جميعاً المشاركة؟ أنا أسأل فحسب، فكروا في الأمر»، وقد تحدث في نبرة متأملة تستغرب سماعها من شخص يبدو أنه كسب لقمة عيشه عبر تركيب حدوات الأحصنة، وطرحها أرضاً إن لم تتعاون معه.

ضحك أوكا، الذي كان رجلاً كبيراً أحول وحسير البصر، وقال: «هل تقصد أن نُضرب؟ كما فعل الطحانون في زمان والدي؟ ونحرم قاتل الرحلة من يوم متعته؟ أعتقد أنني أفضل العيش حتّى الغد على قضاء اليوم أصرخ من العذاب، شكراً جزيلاً لك».

توقعت أن أوكا قد يعيش حتّى الغد، نظراً إلى خصمه هيلت الصغير النحيل الأعرج، وربما سيهزم في الجولة الثانية، ولكن يعني فوزه اليوم إطالة فترة حياته حتّى يغتسل بعد ذلك ويتناول العشاء الليلة، وقد رأيت هذه المعادلة البسيطة ذاتها في وجوه الحاضرين جميعاً، باستثناء هامي، الذي ألقى نظرةً واحدةً على اللوح، ثمّ ذهب وجلس على المقعد مطأطئاً رأسه،

وقد كرهت رؤيته على هذه الحال، ولكن كرهت أكثر أولئك الذين وضعونا في هذا الموقف المريع.

نظرت إلى اللوح مجدداً؛ لقد توقعت أن يتبارز فيرمي ضد ستوكس، وجايا وإيريس معاً في قتال فتيات، إذ ما الذي سيكون ممتعاً أكثر من ذلك؟ ولكن تبين أن القائمين على التوزيع يجهلون كيفية تنفيذه تماماً، ولعلهم أجروا قرعةً وسحبوا الأسماء من القبعة من أجل تحديد كل زوج من المتنافسين، باستثناء الأخير بينهم، الذي يعد خاتمة عرض اليوم.

كلا ضد تشارلي.

الفصل الرابع والعشرون

الجولة الأولى- المجموعة الأخيرة- مولاي الأمير- «ماذا تعتقد؟»

1

جلست جايا على المقعد بجوار هامي، وأمسكت يده التي استلقت دون حراك بين يديها، وقالت: «لا أريد فعل ذلك».

قال هامي: «أنا أعلم، لا بأس».

«لعلك تستطيع هزيمتي، إذ لست قويةً مثل إيريس».

«ربما».

انفتح الباب ودخل اثنان من جنود الليل، وبدت عليهما أقصى درجات الحماسة التي يستطيع الأموات الأحياء إظهارها، إذ توهجت هالاتهما وكأن قلوبهما الميتة تنبض مرةً أخرى.

«المجموعة الأولى. هيّا أسرعوا، أسرعوا. لا تجعلوا جلالة الملك ينتظر أكثر، لقد جلس في مكانه».

وقف الجميع ساكنين، واعتقدت لوهلة أن الإضراب الذي تحدث عنه أميت سيحدث... ولكن تذكرت العواقب المترتبة على المضربين، فالتفت إلى اللوح مجدداً آملاً في حدوث معجزة تغير قائمة الأسماء: فيرمي ضد مورف، وأميت ضد رجل قصير نحيل يدعى والي، إضافةً إلى هامي ضد جايا، التي أمسكت يده في طريقهما إلى الخارج، وتنحت بعيداً عن هالة جندي الليل القريب منها.

كنت في زمن حكم أسرة غالين ستسمع هتافات المشجعين وتوقعاتهم من المدرجات المكتظة فور خروج المتنافسين، ولكنني أنصت جيداً كي يتناهى إلى مسامعي بعض التصفيق الضعيف، ولعله مجرد خيال، لأن مدرجات ملعب إلدن (ملعب الفراشات الكبيرة سابقاً) فارغة تقريباً، وقد صدق الولد الذي التقيته خلال رحلتي في قوله أن ليليمار مدينة أشباح، ومكان يعيش فيه الموتى والأحياء الموتى، وبعض المتملقين.

لا فراشات هنا.

فكرت في أن الهروب ممكن لولا وجود جنود الليل، ولكن تذكرت أن أضع في عين الاعتبار عملاقتين ضخمتين... و قاتل الرحلة شخصياً، الذي أجهل شكله الآن وماهية التحول الذي طرأ عليه، ولكنني متأكد من شيء واحد؛ وهو أن إلدن الحالي مختلف عن شقيق ليا الصغير أحنف القدمين الذي يملك حدبةً على ظهره أو كتلةً في عنقه.

انتظرنا ونحن نجهل الوقت الذي مضى، واتجه معظمنا وأنا منهم كي يقضي حاجته في مجرى التبول، إذ لا شيء يدفعك إلى ذلك أكثر من الخوف من الموت. أخيراً، انفتح الباب ودخل أميت منه، وتبين أنه تلقى جرحاً صغيراً على ظهر يده كثيرة الشعر من دون أي إصابة أخرى.

أسرع ميسيل إليه فور تراجع جندي الليل الذي رافقه، وقال: «كيف تجري الأمور هناك؟ وهل... والي حقاً».

ولكن أميت دفعه قبل أن يكمل، فطرحه أرضاً وقال: «لقد عدت أنا وليس هو، وهذا كل ما سأقوله، وما تحتاج أن تسمعه، دعني وشأني».

سار أميت إلى طرف المقعد، وجلس هناك مطأطئاً رأسه وواضعاً إياه بين يديه؛ رأيت هذه الوضعية مرات كثيرةً في ملاعب كرة القاعدة، وخاصةً عندما يهدر الرامي كرةً حاسمةً فيخرجه المدرب من الملعب، أي كانت وضعية الخاسرين الذين سنمثلهم جميعاً إلا إذا حدث شيء ما.

همست خادمة ليا الرمادية: «ساعدها»، ولكن هل يجب أن أنقذ الجميع الآن لأنني أملك شعراً ذهبياً تحت القذارة التي أخفيته بها مراراً وتكراراً؟ لقد كان أمراً سخيفاً، في ظل نظرات كلا الساحقة التي تلاحقني، إذ بدا أنه ينوي تناول العشاء الليلة.

أنا عاجز عن حماية نفسي حتّى في مباراة اليوم المميتة الختامية.

وصل مورف تالياً، وقد تورمت إحدى عينيه وانطبق جفناها، وأغرقت الدماء قميصه ناحية كتفه اليسرى، وأدرك ستوكس بعد رؤية هذا المنظر أن شريكه الفكاهي قد فارق الحياة، فأطلق صرخةً مكتومةً وغطى عينيه.

انتظرنا أكثر، وشخصت أعيننا صوب الباب، الذي دخلته أخيراً، وقد بدت شاحبةً مثل زجاج النافذة، ولكن من دون أي إصابة، باستثناء جدول الدموع الذي شق طريقه على وجنتيها.

أخبرت الجميع وليس أنا فقط: «كنت مجبرةً على ذلك، وإلا لقينا مصرعنا معاً».

2

استدعي المشاركون في المجموعة الثانية؛ يانو ضد الطبيب فريد، وآيوتا ضد جاكاه، وميسيل ضد سام، فخرجوا جميعاً، وجلست حينها إلى

جوار جايا التي تجنبت النظر إليّ، ولكن تحدثت وكأن كتمان كلماتها سيفجر شيئاً داخلها.

«لقد عجز عن القتال، أنت تعلم كيف حاله، أو كيف كانت، ولكن أعتقد أنه ضحى بنفسه من أجلي، إذ صرخوا من أجل الدماء، ستسمع ذلك عندما يحين دورك، لقد طالبوه أن يقضي على منافسته الوضيعة، وصرخوا من أجل أن ألتف حوله وأطعن عنقه...».

سألتها: «هل أعطوكما سكاكين؟».

«لا، بل رماحاً ذات مقابض قصيرة، إضافةً إلى قفازات تحمل أشواكاً في موضع مفاصل الأصابع، وقد وضعوها مكان المشروبات على الطاولة حيث اعتدنا أن نتدرّب. يريدون رؤية المنافسة عن قرب كي يشاهدوا أكبر كمية ممكنة من الطعنات والضربات قبل أن يسقط أحدنا ميتاً، ولكنني أخذت واحدةً من القضبان، تلك التي...»، وحركت ذراعيها وكأنها تضرب شيئاً بعصا.

«عصي القتال».

«أجل، واستمر النزال حتّى قتل فيرمي بعد نحر رقبته، وقد أوشك هامي أن ينزلق بسبب الدماء، بينما استلقى والي ميتاً على المضمار».

قال أميت من دون أن يرفع ناظريه: «أجل، لقد حاول ذلك الغبي السخيف أن يهرب».

«بقيت وهامي آخر المتبارزين، حتّى قال آرون أن أمامنا خمس دقائق إضافية وإلا سيقضي علينا معاً، إذ أدرك أننا نماطل فحسب، وهنا اندفع هامي ناحيتي حاملاً رمحه الصغير إلى أحد جانبيه، وكان ذلك تصرفاً غبياً، فضربت معدته بمقبض العصا، كي يصرخ متألماً ويرمي الرمح على العشب».

قلت في نفسي: «إنها معدة هامي وألمها الذي لا ينتهي».

«لقد عجزت عن احتمال الصوت، ناهيك عن التصفيق والضحك الصادر عن الجماهير، وقولهم أشياء مثل: «إنها ضربة رائعة!»، أو: «لقد أهانته الفتاة بهذه الضربة»، وكل ذلك وسط صراخ هامي، فالتقطت الرمح... لم يسبق لي أن قتلت أحداً... ولكن عجزت عن مشاهدته يصرخ... لذلك...».

قلت: «تستطيعين التوقف هنا».

نظرت إليّ وقد اغرورقت عيناها بالدموع وتبللت وجنتاها تماماً، وقالت: «يجب أن تفعل شيئاً يا تشارلي إن كنت الأمير المنتظر حقاً، عليك أن تتصرف».

أردت إخبارها أن مهمة الأمير تشارلي الأولى هي النجاة أمام كلا، ولكن يكفيها الحزن والسوء اللذان أثقلا كاهلها، لذلك اكتفيت باحتضانها.

«هل قاتل الرحلة هناك؟».

ارتجفت ثمّ أومأت.

«وكيف يبدو؟»؛ إذ فكرت في مقعد الشرف الذي يمتلك ذراعين مائلتين نحو الخارج والذي يوحي أن صاحبه أياً كان سمين أو ضخم جداً على أقل تقدير.

«بدا مروعاً حقاً، وكأن به خطب ما، إذ امتلك وجهاً أخضر عريضاً جداً مقارنةً مع الوجه البشري، وبرزت منه عينان كبيرتان تشبهان بيضتين مسلوقتين جزئياً، إضافةً إلى شفتين ممتلئتين وحمراوين وكأنه انتهى من تناول الفراولة للتو، وانسدل شعره الأبيض الطويل من تحت التاج إلى خديه، وهذا جل ما رأيته من شكله، أما ملابسه؛ فقد ارتدى رداءً فضفاضاً أرجوانياً يمتد من ذقنه إلى الأسفل، ولاحظت أنه يتحرك، وكأنه يغطي حيواناً أليفاً تحته. إنه مروع، ووحشي، وقد ضحك وصفق الآخرون عندما قتـ... عندما

توفي هامي، لقد ضحك فحسب، وسال اللعاب إلى جانبي فمه حينها، إذ رأيته تحت إضاءة مصابيح الغاز، كما جلست امرأة طويلة وجميلة إلى جواره، وامتلكت شامةً صغيرةً قرب فمها...».

قلت: «إنها بيترا، لقد أمسك أحدهم ثديها، وقبّلها في عنقها بعد أن هزمت أميت».

ارتجفت جايا مجدداً وقالت: «لقد... لقد... لقد قبلته حيث سال لعابه، ولعقته عن وجهه الأخضر».

دخل آيوتا رفقة أحد حراس الليل، وأومأ إليّ عندما رآني؛ لقد رحل جاكاه.

3

ذهبت إلى آيوتا بعد انغلاق الباب، ولاحظت أنه سليم من الإصابات.

قال: «إن الساقطة ريد مولي هناك، إذ تشاهد المبارزات من المضمار أسفل جناح الشخصيات المهمة، وليس شعرها أحمر بل برتقالياً مثل الجزر، وقد انتصب في رأسها مثل أشواك القنفذ، ويبلغ طولها خمس عشرة قدماً، وارتدت تنورةً جلديةً، وامتلكت ثديين يشبهان صخرتين مدورتين، وكل منهما في وزن طفل في الخامسة من عمره، كما حملت سكيناً في غمد معلق إلى وركها ويعادل في طوله الرماح الصغيرة التي أعطونا إياها من أجل القتال. أعتقد أنها تشاهد كي تعرف الحركات التي ينفذها الفائزون، من أجل الحدث القادم كما تعلم».

تذكرت حينها المدرب هاركنس وتمارين أيام الثلاثاء قبل مباريات ليالي الجمعة، إذ اعتدنا التوقف عن التمرين قبل عشرين دقيقةً من انتهائه، والجلوس في إحدى غرف تبديل الملابس التي تشبه هذه، ولكنها أقل ترفاً منها، ثمّ يأتي المدرب ويشغل التلفاز كي نشاهد خصومنا القادمين وحركاتهم

ومهاراتهم، وخاصةً لاعبي مركز الظهير الربعي، إذ أعاد عرض لقطاتهم الفردية عشرين وثلاثين مرةً والتي شملت خطواتهم المخادعة ومراوغاتهم وأخطائهم كلها، وقد أخبرت العمّ بوب مرةً عن ذلك، فضحك وأومأ قائلاً: «إن المدرب محق يا تشارلي، إذ يموت جسد عدوك بعد قطع رأسه مباشرةً».

قال آي: «لقد كرهت الطريقة التي راقبتني بها، إذ تمنيت أن تعتبرني خصماً سهلاً، وبالتالي ربما أستطيع عند مواجهتها إيجاد طريقة كي أطعنها أو أسحق رأسها، ولكنها ستدرس حركاتي أربع مرات من دون أن أحصل على فرصة واحدة كي أشاهدها تقاتل».

تجنبت التعليق على فرضيته الكامنة التي تقول إنني سأقتل إلى ذلك الحين سواء كنت الأمير المنتظر أم لا، ولكنني قلت: «أعتقد أنها ستواجه كلا».

ضحك آي متناسياً أنه قتل للتو أحد رفاقه القدامى في مالين، وقال: «سنتواجه أنا وكلا في النهاية، لا شك في ذلك – لقد بدأت أحبك يا تشارلي، ولكن أعتقد أنك عاجز عن لمس كلا حتّى، ولكنني أعرف نقطة ضعفه».

«ما هي؟».

«لقد تغلب عليّ مرةً، ولكمني بقوة هائلة على حلقي إلى درجة أن معجزةً منحتني القدرة على الكلام مجدداً، ولكنني تعلمت من ذلك»، لم تكن تلك الإجابة التي كنت بحاجة إليها.

دخل ميسيل، وبالتالي قضي على سام، وقد فاجأني دخول الطبيب فريد بعد بضع دقائق، رغم كونه خائر القوى، إذ رافقه بيرسي الذي وضع إحدى يديه الأقرب إلى الزعانف تحت ذراعه كي يساعده، حيث نزف الطبيب بشدة من وجهه المهشم بطريقة بشعة، ولكنه على قيد الحياة، وليس يانو.

كنت جالساً مع دوبل وإيريس حينها، وقلت: «سيعجز عن القتال مجدداً، إلا إن أقيمت الجولة التالية بعد ستة أشهر من الآن، وربما سيبقى عاجزاً حينها أيضاً».

قالت إيريس: «ليست ستة أشهر، ولا أيام حتّى، ولكنه سيقاتل أو يموت».

يختلف الأمر تماماً عن مباريات كرة القدم في الثانوية.

4

نجا بولت وبيندو من المجموعة الثالثة، وكذلك كاميت الذي أصابته جروح كثيرة، وقد أخبرنا بعد وصوله عن اعتقاده أن أمره انتهى خلال النزال، قبل أن تنتاب دومي نوبة سعال قوية جعلته ينحني، فاستغل كاميت الفرصة كي يندفع نحوه ويغرس رمحه القصير في مؤخر عنقه.

استلقى الطبيب على الأرض إما نائماً – واستبعدت ذلك نظراً إلى إصاباته – أو فاقداً للوعي، وانتظر الجميع انتهاء مبارزات الجولة الثالثة بينما واصلت نظرات آي الساحقة ملاحقتي، وقد أفلت منها مرةً واحدةً عندما ذهبت إلى الدلاء كي أشرب بعض المياه، واستأنف مراقبتي عندما عدت.

لقد قال آيوتا: «أنا أعلم نقطة ضعفه، لقد تغلب عليّ مرةً ولكنني تعلمت منها».

ما الذي تعلمه؟

راجعت مشهد العراك (قد تدعوه هكذا) الذي وقع في زنزانة آي: سدد كلا ضربةً سريعةً جداً إلى عنق آي، ثمّ تدحرج الدلو على الأرض، والتفت كلا كي يرى مكانه، وكلمات الراحل يانو: «ستدفع ثمناً كبيراً إن قتلته»، ثمّ وقوف آي على قدميه، وتوجهه صوب سريره بينما انحنى كلا كي يلتقط

الدلو، إذ لعله فكر في استخدامه من أجل سحق رأس آي إن حاول لمسه مجدداً.

وأغفلت أي شيء آخر قد حدث هناك.

دخل بيرسي برفقة آرون دافعاً عربةً بعد انتهاء الجولة الثالثة، وفاحت منها رائحة الدجاج المشوي الذي سأجده مغرياً في ظروف أخرى، بخلاف أن يكون الوجبة الأخيرة التي سأتناولها في حياتي.

صاح آرون: «تناولوا الطعام بشهية يا صغار. اعترفوا أننا نطعمكم جيداً».

اندفع معظم الذين خاضوا المبارزات اليوم وخطفوا من العربة قطع اللحم بحماسة، بينما امتنع من لم يحن دورهم بعد... باستثناء واحد منهم... إذ أخذ كلا نصف دجاجة من عربة بيرسي وبدأ يلتهمها من دون أن يرفع ناظريه عني.

الضربة.

سقوط آيوتا على أرضية الزنزانة الحجرية.

الدلو المتدحرج.

توجّه آي إلى سريره واضعاً يده على حلقه.

بحث كلا عن الدلو والتقطه.

ما الذي رآه آيوتا ولكنني غفلت عنه؟

وصلت العربة إليّ، وكان آرون يراقب بيرسي وبالتالي لم يُحيني اليوم، وصدر في هذه الأثناء أنين الطبيب فريد، الذي تدحرج على جانبه، وتقيأ على

الأرض»، فالتفت آرون وأشار إلى كاميت وبيندو الجالسين إلى جوار بعضهما على مقعد قريب: «أنتما. نظّفا هذه الفوضى».

استغللت هذا الإلهاء الوجيز كي أرفع يدي جاعلاً إبهامي وسبابتي في وضعية إمساك القلم وحركتهما وكأنني أكتب شيئاً، فرفع بيرسي كتفيه بطريقة شبه خفية، لعله فهم إشارتي أو ربما أرادني أن أتوقف قبل أن يراني آرون، الذي استدار كي يجدني آخذ فخذ دجاج من المائدة المتحركة، وفكرت حينها أن فهم بيرسي من عدمه غير مهم ما دمت سأُقتل بين يدي كلا خلال المباراة الأخيرة لهذا اليوم.

قال ذلك الرجل النبيل العملاق: «استمتع أيها الصغير، إنها وجبتك الأخيرة».

قلت في نفسي: «إنه يحاول التلاعب بي ذهنياً».

بالطبع، سبق لي أن عرفت ذلك، ولكن التفكير في ذلك حرفياً صب تركيزي عليه وجعله واقعياً، إذ تملك الكلمات هذا التأثير، كما أنها فتحت شيئاً في داخلي، لعله حفرة، أو بئر، يشبه هذا الشعور مثيله الذي انتابني خلال نزهاتي السيئة مع بيرتي بيرد، ومواجهتي مع كل من كريستوفر بولي، والقزم بيتركين. لست ذلك الأمير الأشقر – إن كنت كذلك حقاً – الوسيم السخيف الذي يحتضن في نهاية الفيلم الفتاة الجميلة السخيفة أيضاً، لا يمكننا القول إن هناك شيئاً جميلاً حيال الشعر الأشقر الذي تغطيه الأوساخ، أو معركتي مع كلا، التي قد تكون قصيرةً، ولكن بالتأكيد لن تكون جميلة.

قلت في نفسي: «إن وجب عليّ أن أكون أميراً، فسأختار الشرير منهم، وليذهب أمراء ديزني إلى الجحيم».

قلت: «توقف عن النظر إليّ يا قبيح الوجه».

ابتسم كلا وارتسمت علامات الدهشة والاستغراب على وجهه حتّى قبل أن أرمي قطعة الدجاج عليه، وذلك بسبب عبارة قبيح الوجه التي حصلت عليها من البئر، ونطقتها بالإنكليزية ولذلك لم يفهم معناها، كما أنني أخطأته – فقد ارتطمت قطعة الدجاج بأحد الدلاء، وسقطت على الأرض – ولكنه أجفل من الصوت المفاجئ والتفت ناحيته، وهنا ضحكت إيريس، فاستدار إليها، ووقف على قدميه، وتحولت ابتسامته إلى زمجرة غاضبة.

صرخ آرون: «لا، لا، لا! وفّر جهودك من أجل النزال أيها الصغير، وإلا سأصعقك حتّى تعجز عن الخروج كي يفوز تشارلي غيابياً، هذا لن يروق لقاتل الرحلة، ولكنه سيجعلك تكرهه أكثر!».

جلس كلا في مكانه غاضباً وساخطاً، وقد بدا أنه خارج عن طوره حينها، وعبس في وجهي، ولكن حان دوري كي أبتسم، ومنحني ذلك شعوراً شريراً وجيداً جداً، فأشرت إليه وقلت:

«سأوسعك ضرباً يا عزيزي».

كانت كلمات جريئةً قد أندم عليها، ولكنني شعرت بالطمأنينة ما إن تفوهت بها.

5

استُدعي مشاركو المجموعة الرابعة بعد الظهيرة، وانتظرنا مجدداً كي يدخلوا واحداً تلو الآخر: جاء دوبل أولاً، ثمّ ستوكس، وكويلي أخيراً، وقد نزف ستوكس بشدة من جرح عميق جداً في وجنته إلى درجة أنني رأيت لمعان سنه عبره، ولكنه دخل من دون مساعدة أحد، وأعطته جايا منشفةً كي يوقف النزف الغزير، فأخذها وجلس على مقعد قرب الدلاء، واستحالت المنشفة البيضاء حمراء مباشرةً. جلس فريد في الزاوية المجاورة، فسأله ستوكس عن إمكانية فعل شيء من أجل الجرح، ولكن الطبيب هزّ رأسه نافياً من دون أن يرفع ناظريه. يجب أن يخوض هؤلاء الجرحى نزالاً جديداً

بعد وقت قصير، وأدركت أن هذه الفكرة مجنونة وتتجاوز كونها سادية، ولكنها حقيقة. لقد قتل مورف أحد فردي الثنائي الفكاهي، وفي حال واجه ستوكس في الجولة التالية، سيقضي عليه بسهولة من دون النظر إلى الطعنة التي تلقاها في كتفه.

واصل كلا النظر إليّ، ولكنه توقف عن الابتسام، ففكرت في أنه من الضروري تغيير فكرته حول أنني هدف سهل، ويعني ذلك عدم الاعتماد على كونه مستهتراً.

قلت في نفسي: «سيتحرك بسرعة، كما حدث مع آي»، وقد أخبرتني ليا في الحلم: «أنت أسرع مما تتصور أيها الأمير تشارلي»... ولكن المشكلة الوحيدة أنني لست كذلك، عدا عن قدرتي على توظيف الكراهية في زيادة سرعتي.

استُدعي مشاركو المجموعة الخامسة: بيرند ضد غولي، وهيلت الصغير ضد أوكا الكبير، وأخيراً إيريس ضد رجل قصير ولكن قوي البنية يدعى فيز، وقد عانقتها جايا قبل أن تخرج.

قال أحد جنود الليل بصوته الكريه الذي يشبه صوت الجراد: «لا، لا، دعاكما من ذلك. هيّا أسرعي، أسرعي».

كانت إيريس آخر من غادر وأول من عاد إلينا ولم يصبها مكروه سوى نزف من إحدى أُذنيها، وهنا اندفعت جايا إليها من دون وجود أحد كي يمنع معانقتهما، إذ تركنا جنود الليل وحدنا. بعد ذلك عاد أوكا، ومضى وقت طويل قبل أن يدخل رجل رمادي – ليس بيرسي – حاملاً غولي ثمّ مدده على الأرض، إذ كان الأخير فاقداً للوعي، وبالكاد يتنفس، وتبين أنه تلقى ضربةً قويةً جداً أعلى صدغه.

قال بولت: «أريد مواجهته في الجولة التالية».

تذمّر أميت قائلاً: «أود أن أواجهك أنت في الجولة التالية، اصمت».

مرّ وقت أطول ولم يستفق غولي، ولكنه تحرك قليلاً، ثمّ انتابتني الحاجة إلى التبول، ولكن عجزت عن الذهاب كي أقضيها، فجلست مكاني واضعاً يديّ بين ركبتي كما اعتدت أن أفعل خلال مباريات كرة القاعدة وكرة القدم قبل ترديد النشيد الوطني، ولم أنظر إلى كلا، ولكنني شعرت أنه يحدق إليّ وكأن نظراته تحمل وزناً وتلقيه عليّ.

انفتح الباب، ودخل اثنان من جنود الليل، وعبر آرون ولورد هاي بينهما، وقال آرون: «حان موعدة المبارزة الأخيرة لليوم، وستجمع كلا ضد تشارلي، هيّا أيها الصغيران، أسرعا».

نهض كلا مباشرةً وتجاوزني، ثمّ التفت إليّ وابتسم مرةً أخيرةً، وتبعته تحت أنظار آيوتا، الذي أدى تحيةً غريبةً، إذ رفع يده ليس إلى جبته، بل إلى جانب وجهه.

أنا أعلم نقطة ضعفه.

مررت إلى جوار لورد هاي الذي قال: «سيسعدني التخلص منك يا تشارلي، وكنت سأفعل ذلك قبلاً لولا حاجتنا إلى اثنين وثلاثين فرداً منكم».

تقدمنا اثنان من جنود الليل، وسار كلا أمامي مطأطئاً رأسه قليلاً ويداه تتأرجحان على جانبيه، وقد ضم راحتيه إلى قبضتين ضعيفتين مبدئياً، بينما مشى لورد هاي خلفنا إلى جوار ملازمه آرون، وخفق قلبي بقوة وببطء في صدري.

لقد هزمني مرةً، ولكنني تعلمت منها.

تابعنا طريقنا إلى نهاية الممر ناحية صفوف المصابيح الغازية المبهرة والمنتصبة على حواف الملعب، كما تجاوزنا غرف الفِرق، ثمّ غرفة المعدات.

الضربة، وسقوط آيوتا على أرضية الزنزانة الحجرية، والدلو المتدحرج، وذهاب آي إلى سريره واضعاً يده على حلقه، وبحث كلا عن الدلو والتقاطه.

مررنا إلى جوار غرفة الموظفين حيث المخرج المزعوم حسب رسالة بيرسي على الأقل.

رميت قطعة الدجاج فارتطمت بأحد الدلاء، واستدار كلا إلى مصدر الصوت.

بدأت أفهم الأمر حينها، وأسرعت قليلاً عندما خرجنا من الممر إلى المضمار الترابي حول الملعب. لم أكن في مستوى كلا، ولكنني أوشكت أن أقترب منه، لقد تجنب النظر إليّ، وصب انتباهه على الوسط حيث الأسلحة موضوعة في خط، وقد أزيلت الحبال والحلقات، وتربع على طاولة المشروبات سابقاً قفازان جلديان يحملان أشواكاً مكان مفاصل الأصابع، وضمت إحدى سلتي الخيزران عصي القتال، والأخرى رماحاً قصيرةً.

تجنب آيوتا الإجابة عن سؤالي عندما طرحته، ولكن ربما فعل ذلك خلال مغادرتي؛ أي لعل تلك التحية الغريبة ليست تحيةً إطلاقاً، بل رسالةً ما.

تعالت أصوات التصفيق خلال سيرنا وراء جنود الليل ناحية جناح الشخصيات المهمة، ولكن بالكاد سمعته في البداية أو لاحظت المشاهدين الجالسين في الجناح، أو حتّى إلدن قاتل الرحلة، بل ركّزت على كلا الذي التفت إلى الدلو المتدحرج على أرضية زنزانته المشتركة مع آيوتا، وقطعة الدجاج التي رميتها عليه في غرفة الفريق، والذي بدا وكأنه أغفل وقوفي إلى جواره، ولكن لماذا؟

قال آيوتا: «أنا أعلم نقطة ضعفه»، وأعتقد أنني كذلك الآن، إذ فهمت رسالة آيوتا: لقد مثل وضعية الغمامة التي يضعونها على عين الحصان.

يعاني كلا من سوء في الرؤية المحيطية وربما هي غائبة تماماً.

لقد قادونا – مثل القطيع – إلى جزء من المضمار أمام جناح المشاهدة الملكي. وقفت بجوار كلا الذي أدار وجهه كله كي ينظر إليّ ولم يكتفِ بتحريك عينيه فقط، وهنا جلده كيلين مباشرةً بعصاه المرنة على مؤخر عنقه فسالت الدماء منها في خط رفيع.

«انتبه إلى الملك الحقيقي أيها الغبي الكبير، وليس إلى هذا الأمير المزعوم».

إذن يعرف كيلين ما يعتقده السجناء الآخرون، وهل فاجأني ذلك؟ ليس كثيراً، إذ تعجز الأوساخ عن تغطية التغير المفاجئ في لون شعري طويلاً، ناهيك عن استحالة لون عيني من البني الفاتح إلى الرمادي الضارب إلى الزرقة، وبالتالي لولا إصرار إلدن على جمع المشاركين جميعاً، لقتلت قبل أسابيع عديدة.

صاح آرون بصوته الطنان الكريه: «اركعا. اركعا يا صاحبا الدماء القديمة أمام صاحب الدماء الجديدة. اركعا أمام جلالة الملك».

صرخت بيترا: «اركعا يا صاحبا الدماء القديمة. هيّا اركعا»، وقد كانت طويلةً ذات شعر أسود، وبشرة بيضاء مثل جبنة القريش، وامتلكت شامةً إلى جوار فمها، وارتدت ثوباً حريرياً أخضر.

ردّ الآخرون – والذين لا يزيد عددهم عن ستين أو سبعين فرداً على الأكثر – العبارة نفسها: « اركعا يا صاحبا الدماء القديمة. هيّا اركعا».

هل حدث هذا الأمر مع المشاركين الآخرين؟ لا أعتقد ذلك، بل إنه يخص كلانا فقط، لأننا طرفا المباراة الأخيرة المنتظرة لهذا اليوم. امتثلنا إلى الأوامر وركعنا كي نتجنب التعرض إلى جلدة من العصي المرنة أو أسوأ من ذلك، مثل أن تصعقنا هالات آسرينا.

بدا إلدن مثل رجل على حافة الموت، وخطرت في بالي فكرتان، الأولى هو أن العمّ بوب سيقول عنه: «يضع قدماً في قبره، والأخرى على قشرة موز»، والثانية أنه ليس رجلاً على الإطلاق، وإن كان كذلك مرة، إذ تحول لون بشرته إلى الأخضر مثل لون الكمثرى غير الناضجة، وقد برزت في وجهه المجعد المترهل عينان زرقاوان رطبتان وكبيرتان في حجم راحتي يدي، وامتلك شفتين حمراوين أقرب إلى شفاه النساء، وكانتا رخوتين إلى درجة أنهما تدلتا، وتربع تاج مائل بشكل بشع على شعره الأبيض الخفيف، وارتدى معطفاً أرجوانياً تتخلله خيوط ذهبية يشبه قطفاناً هائلاً يغطيه كاملاً بدءاً من عنقه الضخمة، وأجل، لقد كان يتحرك كما قالت جايا: «يبدو أنه يغطي حيواناً أليفاً تحته»، باستثناء تموج أماكن كثيرة منه في الوقت نفسه.

وقفت ريد مولي على المضمار إلى يساري، مرتديةً تنورتها الجلدية التي تشبه ما يرتديه الإسكتلنديون، وكان فخذاها عضليان وكبيران جداً، وتدل سكينها الطويل في الغمد إلى وركها الأيمن، وانتصب شعرها البرتقالي على شكل أشواك قصيرة كما يسرحه أفراد فرق البانك روك، وغطت حمالتا تنورتها العريضتان جزءاً من ثدييها العاريين. رأتني أنظر إليها، فضمت شفتيها وكأنها تقبلني.

تحدث قاتل الرحلة بصوته الخشن المختلف تماماً عن أزيز جنود الليل، إذ بدا وكأن هناك سائلاً دبقاً في حنجرته، وكان الآخرون ليخبروني إن شهدوا حدثاً كهذا، إذ يعجز المرء عن نسيان هذا الصوت المرعب.

«من هو ملك العالم الرمادي، أو إمبيس سابقاً؟».

ردد الجالسون في الجناح إضافةً إلى الحاضرين الآخرين سريعاً: «إلدن».

التفت قاتل الرحلة إلينا بعينيه الكبيرتين اللتين تشبهان البيض، فتلقيت وكلا جلدةً من العصا المرنة على مؤخر رقبتينا، وقال كيلين: «أجيبا».

قلنا: «إلدن».

«من قضى على الفراشات الكبيرة في الأرض والسماء؟».

صرخت بيترا مع الآخرين بصوت أقوى: «إلدن!»، وداعبت بيدها أحد خدي إلدن الخضراوين المترهلين، واستمر الرداء الأرجواني يتموج في مواضع كثيرة منه.

قلت وكلا: «إلدن»، كي نتجنب أن نتلقى جلدةً أخرى.

«فلتبدأ المبارزة».

وبدا أن التصفيق وبعض الهتاف كافٍ من أجل الرد على هذه العبارة.

وقف كيلين بيننا وعلى مسافة بعيدة كي يحول دون أن تلمسنا هالته، وقال: «استديرا ناحية الملعب».

فعلنا ذلك، واستطعت رؤية كلا بطرف عيني اليمنى، بينما أدار رأسه كاملاً، وألقى نظرةً خاطفةً عليّ، ثمّ نظرنا إلى الأمام حيث تبعد أسلحة المبارزة سبعين ياردةً عنا تقريباً، والسخرية في الأمر وجود مسافات متساوية بين أحدها والآخر، مثل الجوائز التي تربحها بعد الفوز في برامج ألعاب القتال التي تعرض على التلفاز.

استنتجت مباشرةً أن أحدهم (لعله قاتل الرحلة شخصياً، ولكن أشك في لورد هاي أكثر) جعل الكفة تميل لصالح كلا، وربما قلب الموازين تماماً؛ إذ وضعت سلة الخيزران التي تضم رماح الطعن، والتي تمثل السلاح المثالي، إلى اليمين، أي قريباً من كلا، وتوضعت على مسافة عشرين ياردةً إلى اليسار منها طاولة القفازات الجلدية ذات الأشواك، وعلى مسافة عشرين ياردةً أخرى وأمامي تقريباً سلة عصي القتال، التي تفيدك من أجل تسديد ضربات قوية وليس قتل أحدهم. لم يخبرنا أحد بالخطوة التالية؛ ولم

نكن بحاجة إلى ذلك، إذ وجب أن نركض إلى الأسلحة، وعليّ تجاوز كلا إذا أردت الحصول على الرمح بدل القفاز أو عصا الباندو، ثمّ أعبر أمامه.

لقد أخبرتني ليا: «أنت أسرع مما تتصور»، ولكن حدث ذلك في الحلم لا الحياة الواقعية.

لقد كنت خائفاً جداً، وأفكّر في الوقت نفسه حيال البئر المظلمة التي اكتشفتها في طفولتي؛ أي عندما أراد والدي تكريم ذكرى والدتي عبر التحطيم والإحراق وتركنا مشردين، لقد كرهت أفعاله تلك ثمّ كرهت هذه الكراهية التي انعكست في تصرفات سيئة، ولكن توجد أشياء أخرى كي أكرهها الآن من دون سبب يمنعني عن ذلك، ولذلك أجل، لقد كنت خائفاً، ولكن اشتعلت الحماسة في جزء مني أيضاً.

لقد أراد هذا الجزء ما يحدث الآن.

صاح قاتل الرحلة بصوته ذي الخراخر غير البشري، وهذا سبب آخر كي أكرهه: «الآن».

7

بدأنا الجري. لقد تحرك كلا بسرعةً هائلة عندما هاجم آي، ولكنها كانت اندفاعة سريعةً ضمن مساحة مغلقة، بينما تفصل سبعين ياردةً بيننا وبين الأسلحة، ناهيك عن وزنه الذي يفوق مئةً وخمسين كيلوغراماً، وبالتالي أستطيع اللحاق به في منتصف المسافة إلى عتاد القتال أمامنا إن بلغت أقصى سرعتي. لقد أصابت ليا في الحلم – فأنا أسرع مما أتصور، ولكن ما زلت أحتاج العبور أمامه، وعندها سأغدو في مجال رؤيته الضعيف، ولكن تكمن الخطورة في كون ظهري مكشوفاً أمامه.

انحرفت إلى اليسار بدلاً من ذلك، وأفسحت الطريق أمامه إلى الرماح، وبالكاد لمحت قفازات الأشواك التي لعلها قاتلة، ولكن يتطلب

استعمالها أن أضع نفسي في مرمى ضربات كلا، وقد رأيت سرعته أمام خصم قريب، لذلك اتجهت إلى عصي القتال التي اعتدت عليها بعد التمرين مرات كثيرةً خلال «وقت اللعب».

أخذت واحدةً من السلة، وعندما التففت رأيت كلا وقد حمل رمحاً وصوبه إلى الأسفل قرب وركه الأيمن، ثمّ رفعه آملاً أن يقسمني إلى نصفين بدءاً من منشعب فخذي إلى بطني وينهي الأمر سريعاً، فتراجعت خطوةً وضربته على ذراعيه كي يفلت الرمح من يده، فصرخ متألماً وغاضباً ولكنه تماسك. صفق الجمهور، وسمعت امرأةً تصرخ قائلةً: «اقطع قضيبه وأحضره إليّ»، واعتقدت أنها بيترا.

هجم كلا عليّ مجدداً، ولكنه رفع الرمح أعلى كتفه هذه المرة، وقد افتقر إلى المهارة، مثل مايك تايسون في مقاطع الملاكمة المصورة القديمة التي شاهدتها برفقة آندي تشين ووالدي، إذ اتبع أسلوباً هجومياً مباشراً واعتاد القضاء على خصمه عبر هجوم أمامي وحشي، وقد نجح كلا في ذلك سابقاً ضد آيوتا، وكان ليفلح حينها ضد خصم أصغر منه، إذ امتلك أفضلية الوزن وإمكانية بلوغ هدفه.

لقد قالت ليا إنني أسرع مما أتصور، وأعلم تماماً أنني أسرع من كلا، فتنحيت جانباً مثل مصارع الثيران الذي يتفادى ثوراً مندفعاً وضربته بالعصا على ذراعه فوق مرفقه، فسقط الرمح من يده إلى العشب، وهنا صرخ الجمهور من المفاجأة، وكذلك بيترا معبرةً عن استيائها.

انحنى كلا كي يخطف سلاحه، فضربته مستخدماً كلتا يديّ وبكل قوتي على رأسه كي تنكسر العصا إلى نصفين، ويسيل فيض الدماء من فروة رأسه على وجنتيه ورقبته، وكانت الضربة لتقضي على أي رجل آخر بما في ذلك آي وأميت، ولكن كلا هزّ رأسه فحسب، ثمّ التقط رمحه، ووقف أمامي ولم يبتسم هذه المرة؛ بل زمجر وقدحت عيناه غضباً.

«تعال إليّ يا ابن الوضيعة».

«اصمت ودعني أرى ما يمكنك فعله، فأنت غبي بقدر ما أنت قبيح».

حملت ما بقي من عصاتي، أصبحت النهاية الموجهة ناحية كلا تحمل بعض الشظايا الخشبية القاسية، وبالتالي لن تنثني إن اندفع إليها بل ستدخل أحشاءه، وهذا ما عرفه كلا، فحاولت خداعه، واتجهت يميناً عندما تراجع، فاضطر أن يدير رأسه بالكامل كي يستطيع رؤيتي، واندفع إلى الأمام فطعنته في ذراعه كي أقتلع سديلةً جلديةً منها، فتناثرت الدماء على العشب.

صاحت بيترا: «اقضِ عليه. هيّا أجهز عليه أيها العملاق الضخم القبيح»، لقد ميّزت صوتها وكرته، وكرهتها شخصياً، وكذلك جميع الحاضرين.

هاجمني كلا، ولكن تحركت يساراً هذه المرة، وتراجعت إلى خلف الطاولة التي تحمل قفازات القتال، تحرك كلا بسرعة وكان تنفسه جافاً وخشناً. ارتميت جانباً وبالكاد أخطأ رأس رمحه رقبتي، فضرب كلا الطاولة، وقلبها ووقف عليها كي يقتلع إحدى قوائمها، ويمسكه رفقة رمحه، ولكنني تجاهلت ذلك، واتجهت إلى المنطقة العمياء من مجاله البصري، وقفزت على ظهره، وعصرت منتصف جسده وسط فخذيّ فانتفض جسده، ووضعت ما بقي من عصاي مقابل حلقه عندما سقط على قدميه، وحاول أن يمسك بي بيديه الكبيرتين اللتين سحقت ضرباتهما كتفي.

تبع ذلك جولة جنونية على كتفيه، إذ ما زال فخذاي حول خصره الثخين، وأحاول إدخال ما بقي من عصا القتال في حلقه إلى درجة أنني استطعت الاحساس بكل محاولاته من أجل البلع، وبدأ يصدر صوت خرخرة، حتّى بقي أمامه إما فقدان الوعي أو الموت، فرمى نفسه على ظهره كي يسحقني تحته.

لقد توقعت ذلك، ولكن هذا لا ينفي أن وزنه الذي يتجاوز مئةً وخمسين كيلوغراماً يكفي كي يقضي عليّ، وأخذ يتدحرج إلى جانبيه محاولاً الإفلات مني، بينما تشبثت إليه رغم أنني بدأت أرى نقاطاً سوداء أمامي وتخافتت هتافات المشجعين كي تبدو مجرد أصداء بعيدة إلا واحداً سمعته بوضوح؛ كان صوت رفيقة قاتل الرحلة الذي أحسست وكأنه إبرة تطعنني في رأسي، إذ قالت بيترا: «انهض. أفلت من قبضته أيها الحيوان الكبير. انهض».

كان باستطاعة ذلك الحيوان الضخم أن يسحقني تحته، وكنت سأهلك حتماً إن استطاع الإفلات من قبضتي، وقد أوشكت أن أفقد الوعي، ولكنني سخّرت قوتي وعضلاتي التي درّبتها جيداً خلال ممارسة تمارين الضغط في زنزانتي، والشد إلى أعلى على الحلقات، فسحبت... وسحبت... حتّى خفّت مقاومته، ثمّ استجمعت بقايا طاقتي ودفعته عني وتملصت من تحت جسده الضخم، وزحفت على العشب وشعري يتدلى أمام عيني. تنفست بعمق ولم أكتفِ أو أستطيع ايصال ما يكفي من الهواء إلى رئتيّ المسحوقتين، كما عجزت عن الوقوف في البداية، ولذلك تابعت الزحف وسط اللهاث والسعال وثقتي أن ذلك الكريه كلا ينهض ورائي، وأنني سأشعر بالرمح يخترق المسافة بين كتفي.

استطعت الوقوف في محاولتي الثانية، وترنحت في دائرة كالسكير حتّى لمحت خصمي الذي كان يزحف أيضاً... أو يحاول ذلك، وقد غطت الدماء معظم وجهه من الضربة التي تلقاها على رأسه، بينما استحال ما بقي منه أرجوانياً بسبب الاختناق.

صرخت بيترا: «اقضِ عليه. هيّا اقضِ عليه»، وقد برزت نقاط حمراء من تحت مسحوق التجميل الأبيض على وجهها، وبدا أنها غيرت الطرف الذي تشجعه، ولكنني لم أكن أريد دعمها.

صاح الآخرون أيضاً: «اقضِ عليه. اقضِ عليه. اقضِ عليه».

انقلب كلا على ظهره ونظر إليّ، وكأنه يطلب الرحمة التي ليس في صلاحيتي منحها.

«اقضِ عليه. اقضِ عليه. اقضِ عليه».

التقطت رمحه...

رفع كلا إحدى يديه ووضع رسغه على جبهته وقال: «مولاي الأمير».

... ثمّ طعنته.

أود إخبارك أنني استعدت نفسي الطيبة في النهاية إلى درجة أن الندم تملكني، ولكن هذا غير صحيح، إذ أعتقد أننا جميعاً نملك بئراً مظلمةً في داخلنا، والتي لن تجف أبداً، وتستطيع الشرب منها على مسؤوليتك الخاصة، لأنها مياهها سامة.

8

أرغموني على الانحناء أمام إلدن، ووضيعته، وأفراد حاشيته المهمين الآخرين.

قال إلدن في برود: «أحسنت القتال، أحسنت القتال... أيها الحمالون، أريد الحمالين خاصتي. إذ تعبت ويجب أن أستريح حتّى العشاء»، وقد سال اللعاب حقاً من جانبي فمه الرخو، إضافةً إلى سائل يشبه القيح – ليس دموعاً – من زوايا عينيه الكبيرتين.

أسرع أربعة رجال رماديين – مشوهين ولكن مفتولي العضلات – عبر أحد الممرات الوعرة حاملين محملاً مذهباً له ستائر مخملية أرجوانية اللون.

عجزت عن رؤيته يصعد إلى المحمل لأن أحداً أمسكني من شعري ورفعني حتّى أصبحت قدماي فوق الأرض. لقد كنت طويلاً، ولكن ليس مثل ريد مولي، إذ ذكرني الالتفات إلى أعلى والنظر إليها بالتحديق إلى التمثال

الذي تسلقته كي أرى الفراشات الكبيرة وهي تعود إلى منزلها. بدا وجه ريد مولي مثل عجينة مدورة مسطحة، حيث يشبه طبق فطيرة كبيراً يغطيه الطحين، وامتلكت عينين سوداوين.

قالت في صوت جهير صاخب غير مريح أبداً، ولكنه أفضل من أزيز جنود الليل وخرخرة إلدن: «لقد قاتلت عدواً اليوم، ولكن صديقاً في المرة القادمة، وإن نجوت، سأقطع قضيبك... وأعطيه إلى بيترا كي تضيفه إلى مجموعتها»، لقد أخفضت صوتها عندما قالت العبارة الأخيرة.

كنت متأكداً أن بطل أفلام الإثارة يملك رداً قوياً في لحظات كهذه، ولكن عجزت عن التفكير في أي شيء لعين عندما نظرت إلى ذلك الوجه العريض والعينين السوداوين.

9

قادني لورد هاي شخصياً إلى غرفة الفريق، والتفت مرةً أخيرةً خلفي قبل دخول الرواق في الوقت المناسب كي أرى المحمل يتأرجح على أكتاف الحاملين صعوداً في الممر، وقد انسدلت ستائره، واعتقدت أن بيترا ذات الشامة في الداخل برفقة قاتل الرحلة.

قال كيلين مرتاحاً وقد أدى واجبه في إدارة فعاليات اليوم وأزال ضغوطات هذه المهمة عن كاهله: «لقد فاجأتني يا تشارلي، لقد اعتقدت أن كلا سيسحق رأسك في لمح البصر. ستواجه أحد أصدقائك في المرة القادمة، ولكن ليس آيوتا، بل سأتركه إلى وقت لاحق، ربما سأضع جايا ضدك، هل ستستمتع خلال قتلها كما فعلت مع كلا؟».

التزمت الصمت، وتابعت السير أمامه في الرواق المنحدر بعيداً قدر الإمكان عن هالته عالية الجهد الكهربائي، وقد تركني أدخل الغرفة وحدي، واكتفى بإغلاق الباب خلفي. خاض كل منا – نحن الاثنين والثلاثين فرداً – نزالاً في الملعب، ويوجد خمسة عشر مشاركاً الآن – بل أربعة عشر، إذ ما

زال غولي فاقداً وعيه – وفاجأت الجميع أنني من دخلت عليهم حياً وليس كلا، رغم الضرب المبرح الذي تلقيته.

لبرهة حدق الجميع إليّ، ثمّ ركع ثلاثة عشر منهم على ركبهم واضعين أيديهم على جباههم، باستثناء الطبيب فريد الذي عجز عن ذلك، ولكنه ألقى التحية عليّ من حيث يجلس مستنداً إلى الحائط.

قالت جايا: «مولاي الأمير».

ردد الآخرون: «مولاي الأمير».

لقد أسعدني كثيراً حينها افتقار إمبيس إلى تغطية تلفازية محلية.

10

اغتسلنا من التراب والدماء، ولكن فشلنا في التخلص من الرعب الذي شهدناه في ذلك اليوم. أزالت إيريس بنطال الطبيب فريد، ونظّفت جروح فخذيه قدر استطاعتها، وتوقفت بضع مرات عن عملها كي تنظر إليّ، وهذا ما فعله الآخرون، وقد أخافني الأمر فطلبت إليهم في النهاية أن يتوقفوا عن ذلك، كي يجعلوا عدم النظر إلي محور عملهم، والذي كان في مثل سوء تحديقهم، وربما أسوأ.

دخل أربعة جنود بعد عشر أو خمس عشرة دقيقةً، وأشار قائدهم إلينا بعصاه كي نتحرك، ووجب علينا أن نحمل غولي نظراً إلى غياب الرماديين، فاتجهت كي أرفع نصفه العلوي، ولكن أميت دفعني بكتفه بلطف كي أبتعد وقال: «لا، لا، يمكنك مساعدة الطبيب إن أردت ذلك، وسأتعاون مع الرجل الضخم على حمل غولي»، وفرضت أنه قصد آيوتا، لأن الرجل الضخم الثالث مجرد جثة هامدة الآن.

لكنهم منعوني أيضاً من حمل الطبيب، فأنا الأمير المنتظر، أو هذا ما اعتقدوه، ولكن دون النظر إلى لون الشعر والعينين، فقد كنت مجرد ولد في

السابعة عشرة من عمره صادف امتلاكه لياقةً جيدةً، وحالفه الحظ في الحصول على خصم يعاني من عمى محيطي، ونجا من أسوأ هجمات الأخير ونزاعه من أجل البقاء على قيد الحياة، وإضافةً إلى ذلك، هل أردت أن أكون الأمير في هذه الحكاية الخيالية المظلمة؟ لا، بل كان هدفي أخذ كلبتي والعودة إلى المنزل الذي لم يسبق أن بدا بعيداً إلى هذا الحدّ.

ببطء، عدنا أدراجنا إلى زنزاناتنا في ديب مالين: مورف مصاب في كتفه، وجايا وإيريس، وأميت، وآيوتا، والطبيب فريد، وبولت، وبيندو، وميسيل، وكاميت، ودوبل، وستوكس يعاني من جرح بليغ، وكويلي، وأوكا، وغولي فاقد الوعي... وأنا، كنا ستة عشر، ولكن الطبيب فريد وغولي عاجزان عن القتال في الجولة القادمة، وأعلم أن فوزهما ليس متوقعاً، إذ سيضعونهما ضد خصمين سيقضيان عليهما في لمح البصر من أجل متعة إلدن، وبيترا، وحفنة رعايا قاتل الرحلة، وبالتالي سيتأهل هذان الخصمان تلقائياً إلى الجولة التالية، كما أستبعد وصول مورف وستوكس أيضاً إلى ما ندعوه في مارش مادنس.

انفتح الباب في نهاية ممر الزنزانات ودخله آي وأميت يحملان غولي، تلاهما فريد وكويلي الذي حمل الطبيب كي يتجنب محاولة المشي على ساقه المصابة، لم يكن فريد قادراً على السير، إذ كان شبه فاقد للوعي، وارتطمت ذقنه إلى صدره بضع مرات، وقال فور دخوله مالين شيئاً مروعاً ويائساً سأذكره ما حييت: «أريد والدتي».

سقط مصباح الغاز القريب من الباب عن محمله مجدداً، وتدلى على أنبوبه المعدني ثمّ انطفأ، فأمسكه أحد الحراس وأقحمه في مكانه وحدق إليه قليلاً وكأنه يتحداه أن يسقط مجدداً، ولكنه بقي ثابتاً.

أعلن حارس آخر: «ستنالون عشاءً مميزاً الليلة أيها الصغار. سيكون وليمةً عامرةً تليها تحلية».

دخلنا الزنزانات، واستمتعت – وأجهل إن كان هذا الوصف مناسباً – وآي، وستوكس ضمن زنزاناتنا التي أصبحت انفراديةً، بينما حمل كويلي الطبيب فريد إلى زنزانته ومدده برفق على سريره، وعاد إلى زنزانته المشتركة مع كاميت، وانتظرنا خروج جنود الليل فاتحين أذرعهم كي يقفلوا بوابات الزنزانات، ولكنهم غادروا ولم يفعلوا ذلك، واكتفوا بإغلاق الباب المؤدي إلى العالم الخارجي وأقفاله الأربعة، إذ يبدو أن الاختلاط مسموح اليوم إلى جانب الوليمة الكبيرة، وإن لفترة قصيرة.

جلست إيريس في زنزانة غولي وفحصت جروح رأسه التي كانت مروعةً (دون الحاجة إلى ذكر تفاصيل أكثر)، إضافة إلى عدم انتظام أنفاسه، فالتفتت إليّ بعينيها المتعبتين وقالت: «سيموت قبل انجلاء الليل يا تشارلي... ولكن هذه حالنا جميعاً، فالوقت ليل دائماً هنا»، وضحكت بمرارة.

ربّت كتفها، وعدت إلى زنزانة آيوتا الذي اختار البقاء فيها، وجلس مستنداً إلى الحائط واضعاً معصميه على ركبتيه مرخياً يديه أمامهما، فجلست إلى جواره.

سألني: «ماذا تريد بحق الجحيم؟ سأكون وحيداً بحلول ذلك الوقت أيضاً إن أسعدك ذلك يا سمو الأمير اللعين».

همست إليه: «تصور وجود مهرب من هذا المكان، هل ستحاول الفرار معي؟».

رفع رأسه ببطء، والتفت إلي، ثمّ ابتسم وقال: «أرشدني إليه فقط يا عزيزي».

«ولكن ماذا عن الآخرين القادرين على الهرب أيضاً؟».

اتسعت ابتسامة آيوتا وأجاب: «هل جعلتك دماؤك الملكية غبياً أيها الأمير الصغير؟ ماذا تعتقد؟».

الفصل الخامس والعشرون

الوليمة- جاءني زائر- يأتي الإلهام فجأةً

«من يريد العيش إلى الأبد؟».

1

لقد تجاوزت حصة الناجين تلك الليلة مجرد قطع اللحم غير الناضجة تماماً؛ بل كانت وليمةً حقيقيةً، إذ دخل بيرسي برفقة رجل وامرأة رماديين يرتدي كل منهما سترةً بيضاء متسخةً، ودفعوا أمامهم ثلاث عربات وليس واحدةً فقط، وقد رافقهم جنود الليل من الأمام والخلف حاملين عصيهم المرنة؛ احتوت العربة الأولى قدراً كبيرةً ذكرتني بمطبخ الساحرة الشريرة في قصة هانسل وغريتل، وقد كدست أوعية صغيرة إلى جوارها، بينما ضمت الثانية إناءً خزفياً طويلاً وأكواباً صغيرةً، والثالثة ست فطائر ذات قشرة ذهبية مائلة إلى البني، وبدا مزيج الروائح مبهجاً جداً. لقد كنا قتلةً حينها، ومجرمين سَلبوا حياة رفاقهم، ولكننا جائعون أيضاً، وربما كنا سنهجم على العربات لولا وجود بضع هياكل عظميةً تحرسها، لذلك التزمنا حدود بوابات زنزاناتنا المفتوحة وراقبناهم، وواظب دوبل على مسح فمه بذراعه.

حصلنا على ملاعق خشبية وأوعية، والتي صب بيرسي اليخنة في كل منها، وقد كانت كثيفةً ودسمة (أعتقد أنها احتوت قشدةً حقيقيةً)، وتألفت من قطع دجاج كبيرة، وبازلاء، وجزر، وذرة. في السابق كنت أتساءل عن مصدر الطعام، لكنني الآن لم أفكّر في شيء سوى في رغبتي بتناوله.

قال بيرسي بصوته الخشن الضعيف: «ضعوها في الزنزانة، إذ يوجد المزيد».

احتوى الإناء الخزفي سلطة فواكه طازجة مكونة من الدراق، والكرز، والفراولة. لقد غلبني مشهد الفاكهة الحقيقية ورائحتها، فعجزت عن

الانتظار، فأملت الكوب الخزفي إلى فمي وتناولته كاملاً، ومسحت العصارة عن ذقني ولعقت أصابعي، وشعرت أن جسدي استقبل هذا الطعام الجديد بحرارة بعد حمية اقتصرت على اللحم والجزر. تقاسمنا الفطائر، وتناولنا حصة غولي التي انتهت أيام تناوله الطعام، وحملناها بين أيدينا نظراً إلى عدم توزيع أطباق من أجلها، أنهى آيوتا قطعته قبل حصول الآخرين على حصصهم، وقال والفتات يتطاير من بين شفتيه: «إنها فطيرة تفاح، وهي لذيذة جداً».

قال أحد جنود الليل: «املؤوا بطونكم أيها الصغار». ثمّ قهقه.

قلت في سرّي: «لأنكم ستموتون غداً»، وتمنيت أن تقام الجولة الثانية في يوم آخر على أن لا يكون غداً، أو بعد غد، إذ ما زلت أجهل كيفية الهروب من هنا مع أن بيرسي دلني على مكان الهرب عبر غرفة الموظفين، ولكن أعلم أنني أريد الفرار قبل الجولة الثانية من فير ون والتي يرجح أن أواجه فيها جايا، وسيكون ذلك ظالماً بشدة.

غادر الحراس والطباخون وبقيت بوابات الزنزانات مفتوحةً، وبدأت تناول يخنة الدجاج التي كانت لذيذةً جداً، أو كما اعتاد صديقي بيرد أن يقول: «لقد أحبتها معدتي»، وذلك خلال جلوسنا على دراجتينا خارج زيب مارت وتناول كعك تونكي أو سليم جيم. التفتت إلى الزنزانة المجاورة فرأيت ستوكس يلتهم الطعام واضعاً يده إلى الجرح في خده كي يمنع مرق الدجاج من التسرب عبره، وهذا أحد الأشياء التي شهدتها في ديب مالين وسيبقى محفوراً في ذاكرتي إلى الأبد.

وضعت حصتي من الفطيرة في طبقي بعد أن أنهيته (ولا أشعر بالخجل من الاعتراف بأنني لعقت البقايا عن آخرها، مثل جاك سبارت وزوجته)، وقد احتوت قطعتي على عجين أكثر من التفاح، شعرت بعد تناول

بعضها بشيء صلب بين أسناني، فأخرجته ووجدت أنه عقب قلم رصاص، وقد لف حوله قطعة ورق صغيرة.

في تلك الأثناء كان الآخرون ينظرون إلى طعامهم غير المعتاد، فدسست الورقة وعقب قلم الرصاص تحت سرير هامي، ولا أظنه يمانع ذلك.

سمحت البوابات المفتوحة لنا بالجلوس معاً والتحدث بعد الوليمة، فجاء آيوتا إلى زنزانتي، وتبعه أميت، وجلس كل منهما إلى جانب، لم أكن خائفاً منهما، إذ شعرت أن مكانتي حصنتني ضد التنمر.

سألني آيوتا: «كيف تنوي تجاوز جنود الليل يا تشارلي؟»، وقد استخدم كلمةً أخرى غير تنوي، ولكن ذلك ما سمعته.

اعترفت قائلاً: «لا أعرف، أو لا أعرف الآن... كم تُقدّر عددهم إضافةً إلى كيلين؟».

تذمر أميت.

قال آيوتا، والذي مضى وقت طويل على وجوده في ديب مالين: «أعتقد أنهم عشرون أو خمسة وعشرون على الأكثر، إذ انضمت قلة فقط من حراس الملك إلى إلدن بعد عودته في هوية قاتل الرحلة، ولقي الباقون حتفهم».

قال أميت: «إنهم ميتون مسبقاً»، وقصد جنود الليل، وقد أصاب في ذلك.

قال آيوتا: «أجل، كما يصبحون أضعف نهاراً؛ أي خلال النهار في العالم العلوي، وتخفت قوة الهالات التي تحيط بهم، لا بد أنك لاحظت ذلك يا تشارلي».

لقد لاحظت ذلك فعلاً، ولكن سنحصل من مجرد محاولة لمس أحدهم على صدمة كهربائية تشل عضلاتنا، وهذا ما يعرفه آيوتا والآخرون، وبالتالي يملك الأعداء الأفضلية، قبل الجولة الأولى كنا نفوقهم عدداً، ولكننا لم نعد كذلك الآن، كما سنغدو ثمانيةً بعد انتهاء الجولة الثانية، وأقل من ذلك إذا تعرض أحدنا إلى إصابات خطيرة مثل فريد وغولي.

قال أميت: «أنت لا تملك أي فكرة عن طريقة للهرب؟»، وانتظر آملاً أن أناقض كلامه.

لقد عجزت عن ذلك، ولكنني علمت شيئاً يجهلانه، ولذلك قلت: «استمعا إليّ، انشرا الخبر حيال وجود مهرب من هنا؛ في حال كان بيرسي محقاً، وأننا سنلجأ إليه في حال استطعنا تجاوز جنود الليل».

سألني آيوتا: «أي مهرب؟».

«دعك من ذلك الآن».

«سنفرض وجود واحد، كيف سنتجاوز جنود الليل وهالاتهم الزرقاء؟». لقد عدنا مجدداً إلى هذا السؤال.

«أنا أعمل على هذا الأمر».

لوّح أميت بيده قريباً جداً من أنفي، وكاد أن يصيبني: «أنت لا تملك شيئاً مفيداً في جعبتك».

حاولت تجنب استعمال ورقتي الرابحة، ولكن نفدت الخيارات مني، فمررت أصابعي عبر شعري ورفعته كاشفاً جذوره الشقراء وقلت: «هل أنا الأمير المنتظر أم لا؟».

التزم كلاهما الصمت حيال ذلك، ورفع آيوتا راحة يده إلى جبهته أيضاً، ولعل لطفه قد جاء من امتلاء معدته عن آخرها.

عاد بيرسي والطباخان بعد فترة قصيرة ورافقهم اثنان من جنود الليل وكانت هالتاهما ضعيفتين بشكل ملحوظ؛ بدا لونهما أزرق فاتحاً بدل النيلي الداكن، وهذا يعني أن الشمس أشرقت في مكان ما فوقنا، رغم أنها خلف كومة الغيوم المعتادة على الأرجح، وفي حال منحوني خيار الحصول على طبق إضافي من يخنة الدجاج أو رؤية ضوء النهار، فسأختار الثاني.

فكّرت في نفسي: «يسهل قول ذلك عندما تكون المعدة ممتلئة».

وضعنا أوعيتنا وأكوابنا اللامعة في العربة، وتذكرت حينها رادار التي اعتادت لعق طبقها عن آخره في أيام شبابها، ثمّ انغلقت بوابات زنزاناتنا وسط النهار في الأعلى، وظلام الليل الذي خيّم علينا.

تجشأ سجناء مالين، وأطلقوا الريح أكثر من المعتاد، قبل أن يناموا ويطلقوا العنان لشخيرهم، فقد كانوا منهكين من القتال والقتل، وما زاد من إنهاكهم ترقبهم لمصيرهم في الغد فهل سيُقتلون أم سينجون. فكّرت في إضافة سرير هامي إلى بطانيتي كي يصبح النوم على الأرضية الحجرية مريحاً أكثر، ولكن عجزت عن فعل ذلك، فاستلقيت ونظرت إلى نافذة زنزانتي ذات القضبان والتي تفصلني عن الظلام الدائم القابع خلفها، وكنت متعباً جداً، ولكن في كل مرة أُغمض فيها عينيّ أرى إما مشهد اللحظات الأخيرة من حياة كلا، أو ستوكس الذي وضع يده على خده كي يمنع اليخنة من التسرب عبره.

في النهاية، غفوت وراودني حلم عن الأميرة ليا قرب البركة حاملةً مجفف شعر والدتي الغريب؛ مسدس الإشعاع الأرجواني المميت، ولعل هذا الحلم ضرب من ضروب السحر الإمبيسي أو آخر عادياً يمارسه لاوعيي خلال محاولته إخباري شيئاً ما، إذ أعلم وجود مغزىً من هذه الرؤيا، ولكن شيئاً ما

أيقظني قبل أن أكتشف ماهية الأمر، وقد كان صوت خشخشة وشيء يخرمش في الصخر.

جلست والتفتت حولي، كي أجد مصباح الغاز المطفأ يتحرك في مكانه باتجاه عقارب الساعة، ثمّ عكسها.

«ماذا...».

حاول آيوتا الاستفسار عن مصدر الضجيج، ولكنني وضعت إصبعي على شفتي مشيراً إليه أن يصمت.

فعلت ذلك غريزياً، إذ غط الجميع في النوم، وصدر أنين من بعضهم بسبب ما اعتقدت أنها كوابيس على الأرجح، وبالتأكيد لا أجهزة تنصت هنا، ليس في إمبيس.

راقبنا مصباح الغاز يدور ذهاباً وإياباً، حتّى سقط وتدلى معلقاً إلى إطاره المعدني الذي لاحظت وجود شيء في داخله، واعتقدت في البداية أنه جرذ عجوز ضخم، ولكن بدا أن لظله زوايا حادة جداً ولا يمكن أن تكون لجرذ، ثمّ خرج ذلك الشيء ونزل سريعاً على الجدار وصولاً إلى الأرضية الصخرية الموحلة.

همس آيوتا: «ما هذا بحق الجحيم؟!».

حدقت مذهولاً إلى صرصار الليل الكبير الذي في حجم قط وهو يقفز باتجاهي على قائمتيه الخلفيتين القويتين، وبدا أنه يعرج قليلاً مقارنةً مع السابق، وقد ذكّرني قرنا استشعاره البارزان من رأسه بلاقط الإشارة على تلفاز السيد بوديتش القديم. وصل إلى زنزانتي وحدقت عيناه السوداوان إليّ، واللتان توضعت قشرة واقية بينهما، وفم ارتسمت عليه ابتسامة شيطانية ثابتة، وقد حمل شيئاً تحت بطنه يشبه قصاصةً ورقيةً.

ركعتُ على إحدى ركبتيّ وقلت: «لقد تذكرتك، كيف حال قائمتك؟ تبدو أفضل الآن».

وثب صرصار الليل إلى الزنزانة، ولعله أمر سهل نسبةً إلى أقرانه في عالمي، ولكن حجمه كبير في إمبيس إلى درجة أنه اضطر أن يضغط نفسه بين القضبان حتّى يدخل، ثمّ نظر إليّ، وشعرت أنه تذكرني. مددت يدي ببطء، ومسحت على رأسه الكيتيني وبدا أنه انتظر لمستي كي يستلقي إلى جانبه، عندها تأكدت من وجود ورقة مطوية معلّقة إلى قشرة بطنه بواسطة غراء من نوع ما، فسحبتها بلطف كي أحول دون تمزيقها. وقف صرصار الليل مجدداً على قوائمه الست- اعتقدت أن أربعةً منها من أجل المشي، بينما الخلفيتان الكبيرتان من أجل القفز – ووثب إلى سرير هامي، وواظب التحديق إليّ من هناك.

لقد بدأت الاعتياد على المزيد من السحر.

فتحت الورقة، كي أجد كلمات مكتوبةً في خط صغير جداً، فاضطررت أن أقربها كثيراً من وجهي كي أقرأها، ولكن أدركت وجود شيء إضافي يهمني أكثر حينها؛ إذ ألصقت خصلة شعر إلى الورقة بواسطة ذلك الغراء نفسه، فرفعتها إلى أنفي فشممت رائحةً ميزتها مباشرةً رغم أنها ضعيفة.

رادار.

كتب في الملاحظة: هل أنت على قيد الحياة؟ هل نستطيع مساعدتك؟ أرجوك أرسل رداً إن استطعت. كلبتك في أمان. ك.

همس آي: «ما الأمر؟ ماذا أحضر إليك؟».

لقد حصلت على قصاصة ورقية وعقب قلم رصاص من بيرسي، وبالتالي أستطيع الإجابة، ولكن ماذا سأكتب؟».

«تشارلي! ما الذي...».

همست له: «اصمت. أريد أن أَفكّر».

كُتب في الملاحظة: «نستطيع مساعدتك؟».

ولكن السؤال الذي تبادر إلى ذهني كان بشأن الضمير المستخدم في الملاحظة التي أرسلتها كلاوديا بالتأكيد، إذ وجدت رادار طريقها إلى منزل كلاوديا الخشبي بطريقة ما، ربما وظفت قدرتها على الشم وإيجاد الاتجاهات غريزياً، وهذا أمر رائع، ولكن كلاوديا تسكن وحدها، أي كانت لتكتب أنا وليس نحن، وبالتالي هل انضم وودي إليها؟ أو ربما ليا حتّى وهي تمتطي فرسها المخلصة فلادا؟ ولكنهم ما زالوا قلةً سواء امتلكوا دماءً ملكيةً أم لا، إلا إن حصلوا على دعم الآخرين، مثل الرماديين... هل هذا الاحتمال مستحيل؟ ربما، ولكن إذا آمنوا حقاً في أنني الأمير المنتظر، فربما...

فكّر يا تشارلي، هيّا فكّر.

فكّرت في ملعب إلدن، أو الفراشات الكبيرة سابقاً، والذي أنارته الأضواء الغازية العملاقة المنتشرة حول حافته الدائرية وإن خلال فير ون على الأقل، من دون أي مصدر كهربائي، والذي لن يكون بالتأكيد المولد المتداع الذي يُشغلّه العبيد.

جالت آلاف الأسئلة في رأسي من دون أن أملك سوى تلك القصاصة الورقية الصغيرة، وبالتالي وجدت نفسي في موقف لا أحسد عليه، خاصةً في ظل عجزي عن إيجاد إجابة لأي منها، ولكن فكرة خطرت في ذهني، وبدت أفضل من لا شيء رغم انعدام إمكانية تطبيقها تماماً، إلا إذا توصلت إلى طريقة أتخلص فيها من جنود الليل.

هذا إن أمكنني التوصل إليها... وإن أمكن صرصار الليل الأحمر الذي ساعدته مرةً... أن يوصل رسالتي إلى كلاوديا...

طويت قصاصتي الورقية الوحيدة الثمينة، ومزقتها بحذر إلى نصفين، ثمّ كتبت بخط صغير جداً: ما زلت حياً. انتظروا حتّى الليلة التي تضاء فيها مصابيح ملعب الفراشات. تعالوا إن كنتم كُثر، وتجنبوا ذلك في حال كنتم قِلة. وقد أردت بدايةً توقيع حرف (ت) في نهاية الرسالة، ولكن كتبت بخط أصغر (وقد أحرجني ذلك): الأمير تشارلي.

همست إلى صرصار الليل: «تعالَ إليّ».

ولكنه جلس من دون حراك على سرير هامي، وقد برز مفصلا قائمتيه الكبيرتين إلى أعلى مثل مرفقين مثنيين، فطقطقت أصابعي، وعندها وثب وحط أمامي، وقد بدا رشيقاً أكثر منه في لقائنا الأخير، ثمّ دفعته بلطف بكلتا يدي كي يستلقي طوعاً إلى جانبه. ما زالت المادة اللاصقة لزجةً جداً، فوضعت الملاحظة عليها، وقلت له: «هيّا، أعدها».

نهض الصرصار من دون أن يغادر، وقد حدق آيوتا إليه واتسعت عيناه كثيراً حتّى أصبحتا في خطر السقوط من محجريهما.

همست مشيراً إلى الفتحة فوق مصباح الغاز المتدلي: «اذهب، هيّا اذهب وخذ الرسالة إلى كلاوديا»، وشعرت أنني فقدت عقلي عندما فكّرت في أنني أملي التعليمات على صرصار.

واصلت عيناه السوداوان المهيبتان النظر إليّ لبعض الوقت، ثمّ التفت وانكمش بين القضبان، وقفز بعدها إلى الجدار، وتحسس الصخرة بقائمتيه وكأنه يختبرها، وغادر المكان ببراعة.

قال ستوكس من الزنزانة المجاورة: «ما كان ذلك بحق الجحيم؟».

التزمت الصمت، إذ لعل لونه أحمر وحجمه ضخم، ولكن ستوكس سيكون أعمى إذا لم يعرف أنه جدجد.

كانت الفتحة في الجدار أضيق من المسافة بين قضبان الزنزانة، ولكن صرصار الليل الأحمر استطاع المرور عبرها من دون أن تهتز الملاحظة المعلقة أسفل بطنه، وذلك ممتاز نظراً إلى هوية الأشخاص الذين سيقرؤونها إن سقطت على أرضية الممر، وبالطبع أعجز أن أجزم بقاءها معه خلال رحلته في المتاهة التي قادته إلى هنا، ولكن سأفرض حدوث ذلك، يستحيل أن أتأكد من وصولها إلى كلاوديا، أو أن وجهته إلى هناك أساساً، ولكن أيّ خيارات أخرى أمتلكها، أو نمتلكها؟

«استمعا إليّ يا ستوكس وآي، أخبرا الآخرين أننا يجب أن ننتظر ميعاد الجولة الثانية، وسنخرج من هذا المكان اللعين قبل بدايتها».

لمعت عينا ستوكس وقال: «كيف؟».

«ما زلت أعمل على هذا الأمر، والآن دعاني وشأني».

أردت أن أُفكّر، وأن أمسح على خصلة الشعر الصغيرة التي أرسلتها كلاوديا إليّ، وتمنيت أن أستطيع مداعبة الكلبة التي تعود إليها هذه الأشعار، ولكن أزالت معرفة أن رادار سليمة عبئاً ثقيلاً جداً عن كاهلي من دون أن أدري أنني أحمله.

قال آي: «ولكن ما زلت أجهل سبب قدوم الحشرة الحمراء إليك، هل لأنك الأمير؟».

هززت رأسي نافياً وقلت: «هل تعرف قصة الفأرة التي انتزعت الشوكة من قدم الأسد؟».

«لا».

«سأقصها عليك بعد أن نخرج من هنا».

قضينا اليوم التالي من دون وليمة أو وقت لعب، ولكننا تناولنا الفطور، واستطعت إعطاء بيرسي – الذي جاء وحده هذه المرة – الملاحظة التي كتبتها على نصف القصاصة الآخر، وتألفت من خمس كلمات فقط: «كيف السبيل خارج غرفة الموظفين؟»، وقد أخذها مني من دون أن يقرأها، ودسها في مكان ما ضمن قميصه الفضفاض الذي يشبه السترة، وتابع دفع عربته حتّى نهاية الممر.

انتشر الخبر: يملك الأمير تشارلي خطةً من أجل الهروب.

تمنيت أن يغفل جنود الليل عن الطاقة الجديدة التي تولّدت في نفوس محاربيهم الأسرى إن جاءوا في جولة مراقبة إلى هنا، مع أن حصول ذلك قليل الاحتمال في الليل، وقد لاحظت أن معظمهم غبي جداً، باستثناء آرون، ولورد هاي.

لقد حدث ما حدث على أيّ حال، وتصورت دوماً أن صرصار الليل العجيب قد أوصل الملاحظة إلى كلاوديا، وأن ورثة أسرة غالين الباقين سيظهرون على أبواب مدينة الأشباح مع بداية الجولة الثانية برفقة مجموعة من الرماديين، وبالتالي لدينا فرصة للحصول على حريتنا إن استطعنا الخروج من هنا والانضمام إليهم، إضافةً إلى إمكانية القضاء على المخلوق الذي سخّر قوته من أجل لعن أرض إمبيس التي كانت ساحرةً يوماً.

كل ما أريده هو الحرية وعدم الموت في هذه الزنزانة الكئيبة، أو على ملعب القتل في سبيل متعة إلدن وأتباعه المعتوهين، ولا أستطيع تحمل مقتل أحد آخر من أصدقائي في السجن، إذ بقينا خمسة عشر فرداً بعد وفاة غولي ليلة الوليمة؛ حيث توفي خلال تناولنا الطعام على حدّ علمي، وأخذه رجلان رماديان في اليوم التالي بعد الفطور تحت إشراف جندي ليل يدعى ليميل، أو لاميل، وربما لامويل، لم يكن اسمه مهماً، إذ أردت قتله على أيّ حال.

أردت قتلهم جميعاً.

قال أميت بعد أن أخذ الرجلان هامي: «يجب أن تجد سبيل التخلص من جنود الليل سريعاً أيها الأمير الصغير، إذ أجهل أمر قاتل الرحلة، ولكنني أعلم توق بيترا الشديد كي ترى المزيد من القتل، إذ يثيرها الأمر بطريقة ما».

سمعت كلمةً مختلفةً عن يثيرها، ولكنه أصاب في ذلك.

تناولنا الليلة على العشاء بعد الوليمة قطع لحم غير ناضجة تماماً، وقد شعرت بالغثيان فور النظر إلى حصتي، وأوشكت أن أرميها في حفرة المرحاض، ولكن حسناً فعلت عندما عدلت عن ذلك، فقد دس بيرسي ملاحظةً جديدةً فيها، والتي كتبها بخطه الأنيق نفسه:

حرك الخزانة الطويلة. يوجد باب. ربما يكون له أقفال. دمّر هذه الملاحظة.

خادمك المطيع.

بيرسيفال.

لقد احتجت تفاصيل أكثر، ولكن ذلك جل ما امتلكته حينها، وسيفيدنا إن وصلنا إلى غرفة الموظفين فقط. أمكننا التعامل مع العصي المرنة، ولكن تلزمنا وسيلة كي نتخلص من الهالات الزرقاء الصاعقة التي تحمي آسرينا، ولكن سنفرض أننا نجحنا في ذلك.

هل نستطيع قتل شيء ميت بالفعل؟

4

لقد خشيت أن يحضر بيرسي النقانق على الفطور في اليوم التالي، إذ يعني ذلك قدوم ميعاد الجولة الثانية، وأنا ما زلت أجهل كيفية هزيمة ذوي الهالات الزرقاء، ولكنه أحضر فطائر كبيرةً يغطيها ما يشبه مربى التوت. أخذت قطعتي، وتناولتها، ثمّ استعملت الكوب مثقوب القعر كي أغسل المربى عن يدي، وذلك تحت أنظار آيوتا من وراء القضبان وهو يلعق أصابعه في انتظار مغادرة بيرسي المكان.

قال آيوتا بعد خروج بيرسي: «سيمنحوننا يوماً إضافياً كي تتعافى جراحنا قليلاً، وبالتالي ستكون الجولة الثانية غداً أو بعد غد، أو بعد ثلاثة أيام على الأكثر».

لقد أصاب آيوتا في ذلك، وقد اعتمد الجميع عليّ، وكان أمراً سخيفاً أن يضعوا ثقتهم في فتى من المدرسة الثانوية، ولكنهم احتاجوا مبشراً، واختاروني كي أُؤدي هذا الدور.

ترددت على مسامعي كلمات المدرب هاركنس: «هيّا مارس عشرين تمرين ضغط يا عديم الفائدة».

أطعت أمره لأنني عجزت عن التفكير في حلّ، وشعرت أنني عديم الفائدة؛ وضعت راحتي يدي على الأرض وباعدت بينهما، ونزلت ببطء حتّى لامست ذقني الأرض، ثمّ رفعت جسدي ببطء أيضاً.

قال ستوكس وهو يمشي قرب القضبان ويراقبني: «ما هدفك من ذلك؟».

«أن أُهدّئ نفسي».

يصبح التمرين مريحاً دوماً بعد تغلبك على اليبوسة الأولية (وهي احتجاج الجسم المتوقع عندما تطلب منه أداء عمل متعب). فكّرت خلال ممارسة تمارين الضغط في الحلم الذي امتلكت فيه ليا مجفف شعر والدتي الأرجواني، وقد بدا أن فكرة وجود حل مشكلتي – مشكلتنا – هناك وكأنها سحرية، ولكنني في مكان سحري، وبالتالي أين الغرابة في الأمر؟

إليك ملاحظة جانبية، والتي ليست كذلك على الإطلاق – انتظر سماع المزيد فحسب- قرأت رواية دراكولا في الصيف الذي سبق بداية الصف السابع في المدرسة بناءً على طلب جيني سكوستر، وذلك قبل فترة قصيرة من انتقال عائلتها إلى آيوا، إذ أردت قراءة فرانكشتين – وقد أحضرتها من المكتبة أيضاً – ولكن جيني أخبرتني أنها مملة وتسرد أفكاراً فلسفيةً سخيفةً في أسلوب روائي سيئ، وأن رواية دراكولا أفضل منها مئات المرات، وأروع قصة كتبت عن مصاصي الدماء.

أجهل مدى صحة أقوالها – إذ تصعب الثقة في النقد الأدبي الصادر عن فتاة في الثانية عشر، حتّى وإن كانت خبيرةً في مجال الرعب – ولكن تبيّن أن رواية دراكولا جيدة حقاً. تلاشت بعد فترة أفكار مص الدماء، وطعن الأشواك في القلوب، وحشو الثوم في أفواه الموتى، كي أتذكر شيئاً قاله فان هيلسينغ عن أحد أشكال الضحك الذي أسماه (سيدة الضحكات)، ووصفها بأنها تظهر فجأةً دون طلبها، أي أن تضحك فجأةً من شيء طريف صادفته، وعند كل مرة تتذكره فيها. أعتقد أن الإلهام الحقيقي يقوم على المبدأ نفسه، أي يخلو الأمر من رابط تضغط عليه قائلاً: «بالطبع، لقد فكرت في الأمر وقادني إلى هنا». يأتي الإلهام فجأةً.

أنهيت عشرين تمرين ضغط، ثمّ ثلاثين، وأوشكت أن أتوقف قبل أن تلمع فجأةً ملامح فكرة ما في ذهني، حتّى تتضح تماماً، فنهضت واتجهت إلى القضبان.

«أعلم ما يجب أن نفعله، إنها الطريقة الوحيدة ولكنني أجهل إن كانت فعّالة».

قال آيوتا: «أخبرني»، فأخبرته عن مجفف شعر والدتي، والذي كان يجهل ماهيته؛ إذ جاء من مكان تترك فيه النساء شعورهن الطويلة كي تجف تحت أشعة الشمس، ولكنه فهم بقية القصة، وكذلك ستوكس الذي استمع إليّ من الزنزانة المجاورة.

قلت: «انشرا الخبر بين الآخرين».

وضع ستوكس راحة يده على جبهته وانحنى أمامي، وقد أخافني أمر الانحناء، ولكن سأقبله إن كان سبيلاً إلى وحدتهم معاً إلى حين استعادتي شخصيتي العادية، رغم أنني أشك في حدوث ذلك حتّى وإن نجوت؛ إذ تدوم بعض التغييرات إلى الأبد.

حصلنا صباح اليوم التالي على النقانق.

اعتاد بيرسي توزيع الطعام صامتاً، ولكنه قال شيئاً قصيراً يومها: «ألو، ألو»، وقد فهمت أنه يقصد: «كلوا، كلوا».

حصل الجميع على ثلاث قطع نقانق وأنا على أربع، ليس لأنني أمير ديب مالين فحسب، بل احتوت كل منها عود ثقاب خشبي له رأس كبريتي لين، فدسست اثنين في كل فرد من زوج الجوارب القذرة خاصتي آملاً أن تخميني صحيح حيال استعمالها.

6

مرت فترة انتظار قاسية أخرى، وانفتح الباب أخيراً كي يدخل ليميل – أو أياً كان اسمه – برفقة اثنين آخرين بقيادة آرون الذي فتح يديه أمام البوابات وصاح: «اخرجوا أيها الصغار. إنه يوم جيد من أجل ثمانية منكم، وسيئ من أجل الباقين. أسرعوا. أسرعوا».

خرجنا من زنزاناتنا من دون سماع احتجاج هاتشا حول مرضه؛ إذ أجهز ستوكس عليه سابقاً، ودفع ثمن ذلك تشوه وجهه إلى الأبد. التفت آيوتا إليّ، ارتسمت ابتسامة خافتة على وجهه، وبدا أنه غمزني نوعاً ما، وقد منحني ذلك بعض الشجاعة، وحصلت عليها أيضاً من معرفة أن إلدن قاتل الرحلة، وبيترا، وطاقم المتملقين سيخدعون خلال الفير ون، سواء أمكننا الهروب أم لا.

خرجت وتجاوزت آرون، ولكنه أوقفني موجهاً رأس عصاه المرنة إلى بقايا قميصي البالية، وارتسمت ابتسامة على وجهه البشري نصف الشفاف الذي يغطي جمجمته وقال: «هل تظن أنك مميز؟ لا يستحسن بك ذلك، وهل يوافقك الآخرون الرأي أيضاً؟ حسناً، سيعرفون الحقيقة قريباً».

قلت: «أنت خائن، لقد خنت كل ما أقسمت عليه».

تلاشت الابتسامة من بقايا إنسانيته وظهرت نظيرتها الأبدية على جمجمته، ثمّ رفع عصاه المرنة، وهذا يعني أنه سيضربني بها على وجهي نزولاً من مقدم شعري وحتّى ذقني، فوقفت مستعداً، وأدرت وجهي قليلاً كي أتلقاها، إذ تحدّث حينها شيء ما في داخلي، وقد كان صادقاً.

أنزل آرون عصاه وقال: «لا، لا، لن أجلدك، بل سأترك الأمر إلى خصمك. أسرع الآن قبل أن أُبدّل رأيي وأعانقك حتّى تتغوط في بنطالك».

لكنني أعرف وإياه أنه لن يفعل ذلك، إذ وضعتْ توزيعات الجولة الثانية، وبالتالي يعجز عن فعل أي شيء قد يفسدها مثل صعقي كهربائياً حتّى أفقد الوعي أو أموت.

تبعت الآخرين بعد أن تلقيت جلدةً اخترقت سروالي إلى فخذي، وأحسست بلسعة العصا التي تلاها ألم حارق وسيلان الدماء، وتجنبت الصراخ تماماً كي أحول دون إرضاء ابن الوضيعة الميت.

7

أخذونا إلى غرفة الفريق نفسها والتي يفصلها بابان عن غرفة الموظفين حيث يُفترض بنا أن نجد مهرباً من هنا. وضع ملصق التوزيعات على اللوح في منتصف الغرفة كما في السابق، ولكن دوّنت عليه مباريات أقل هذه المرة.

الجولة الثانية من فير ون

المجموعة الأولى

أوكا ضد غولي (متوفى)

تشارلي ضد جايا

مورف ضد فريد

المجموعة الثانية

بيندو ضد بولت

كاميت ضد ستوكس

إيريس ضد كويلي

دوبل ضد ميسيل

المجموعة الثالثة

أميت ضد آيوتا

يبدو أنهم تركوا العمالقة من أجل المباراة الأخيرة هذه المرة، وقد كان خياراً جيداً، ولكن لن تقام تلك المباراة أيا كان ما سيحدث في الدقائق القليلة التالية.

انتظرنا اللورد هاي كما في الجولة الأولى مرتدياً بذلته الفاخرة، والتي وجدتها تشبه ما قد يرتديه أحد طغاة البلاد الفقيرة في أمريكا الوسطى خلال مناسبة رسمية.

قال: «ها نحن ذا مجدداً... يبدو أن بعضكم مصاب قليلاً، ولكن أعلم أنكم جاهزون ومتشوقون من أجل القتال، أليس كذلك؟».

قلت: «أجل يا لورد هاي».

ردد الآخرون: «أجل يا لورد هاي».

ألقى كيلين نظرةً على جرح فخذي النازف وقال: «أرى أنك تلقيت إصابةً صغيرةً مسبقاً أيها الأمير تشارلي».

التزمت الصمت.

نقل لورد هاي نظراته بين الآخرين وقال: «ألستم تدعونه الأمير تشارلي؟».

قال أميت: «لا يا لورد هاي، إنه مجرد ابن حرام يحب أن يتباهى».

أحب كيلين هذه الإجابة، ولاحظت ذلك من الابتسامة الخفيفة التي ارتسمت على شفتيه البشريتين، اللتين غطتا الابتسامة الأبدية على جمجمته، ثمّ التفت إليّ وقال: «يقال إن الأمير يستطيع الطيران وتغيير شكّله، فهل تستطيع الطيران؟».

قلت: «لا يا لورد هاي».

«ماذا عن تغيير شكلك؟».

«لا».

رفع عصاه المرنة التي كانت أطول وأثخن من تلك التي يملكها جنوده وقال: «لا، ماذا؟».

«لا يا لورد هاي».

قال كيلين: «هذا أفضل. سأمنحكم بعض الوقت كي تستعدوا أيها الصغار، واغتسلوا من أجل أسيادكم من فضلكم، إذ يرغبون في رؤية وجوهكم، لذلك رطبوا شعوركم وسرحوها إلى الخلف، وألقوا نظرةً على توزيع المباريات وأنتم تفعلون ذلك. أتوقع منكم تقديم عرض جيد من أجل جلالة الملك كما فعلتم في الجولة الأولى، هل هذا مفهوم؟».

قلنا: «أجل يا لورد هاي»، مثل مجموعة طلاب مطيعين في الصف الأول الابتدائي.

حدق لورد هاي بعينيه العميقتين إلينا مجدداً وكأنه شك في وجود شيء ما، ولعله كذلك حقاً، ثمّ غادر وتبعه الآخرون.

قال أوكا مبتهجاً: «انظروا، لقد وضعوني ضد رجل ميت. حسناً، أعتقد أنني سأفوز في هذه المباراة».

قلت: «سنفوز جميعاً اليوم أو لن يفوز أحد منا». نظرت إلى الرف حيث وضعوا ستة عشر دلو مياه من أجل الاغتسال، لقد جلبوا واحداً من أجل غولي أيضاً.

قال آي: «هذا صحيح».

«جايا وإيريس، أريدكما أن تحملا هذين الدلوين، وتقفا إلى جانبي الباب، ويجب أن تملآهما تماماً في حال لم يكون ممتلئين، وعلى الآخرين أن يأخذوا دلاءهم وينحنوا على أيديهم وركبهم».

سأل بيندو: «ولماذا نفعل ذلك؟».

«لأنني أجهل ما قد يحدث».

ولكن قلت في نفسي: «ربما لأن والدتي أخبرتني أن أتجنب استخدام مجفف الشعر خلال الاستحمام».

قلت بصوت مرتفع: «سننفذ أمر التنظيف، ولكن ليس تنظيف أنفسنا. ستنجح خطتنا».

بدت الخطة محكمةً من دون أن أدري فعاليتها تماماً، ولكن ما أعرفه أن نتائجها فوريةً.

8

همست إيريس: «أسمع خطوات أقدامهم، إنهم قادمون».

قلت: «انتظري حتّى يدخلوا الغرفة، إذ ستكون أنظارهم موجهةً إلى الأمام ولن يرونكما».

أو تمنيت ذلك.

رفعت المرأتان الدلوين إلى صدريهما، بينما جثا الآخرون جميعاً على أيديهم وركبهم ووضعوا دلاء الاغتسال قريباً منهم، وقد انحنى أميت وآيوتا فوقي من كل جانب كي يحمياانني. انفتح الباب، ودخل منه جنديا الليل اللذان رافقا مشاركي المجموعة الأولى في الجولة السابقة قبل بضعة أيام، وقد توقعت ذلك رغم أنني أردت قدوم كيلين أو آرون، ولكن أعتقد أنهما على أرض الملعب من أجل تنظيم مراسم اليوم.

وقف جنديا الليل ونظرا إلى صف السجناء الجاثمين على الأرض، فقال أحدهما: «ما الذي..».

صرخت: «الآن!».

أفرغت جايا وإيريس دلوي المياه عليهما.

قلت إنني أجهل ما قد يحدث، من دون أن أتخيل ما حدث حقاً: لقد انفجرا، ولمعت ومضات ساطعة أعمت بصيرتي لفترة قصيرة، ثمّ سمعت شيئاً – بل أشياء – تصدر أزيزاً فوق رأسي، وشعرت وكأن نحلةً لسعتني في ذراعي، وتلا ذلك صرخة حادة مثل صيحات الحرب من جايا أو إيريس، إذ كان رأسي منخفضاً ولذلك عجزت عن معرفة صاحبتها، وسمعت أخيراً صرخات خائفةً ومتألمةً حولي.

صرخت: «انهضوا!».

بقيت جاهلاً ما حدث حينها، وجل ما أدركته هو وجوب الخروج من هناك. أصدر انفجار جنديي الليل صوتاً عادياً يشبه سقوط أثاث ثقيل على بساط، ونجم الضجيج عن صوت صراخ المرأة المرتفع جداً، وانطلقت بعض الشظايا في الأرجاء، فبعد أن وقفت على قدمي رأيت دماءً تسيل على

جانب أنف آيوتا بسبب شيء بارز من جبهته أعلى عينه اليسرى، والذي كان قطعة عظم، وانغرست واحدة أخرى في ذراعي، فانتشلتها ورميتها أرضاً.

لقد أصيب الجميع من دون أن يبدو أي منهم عاجزاً أو ما شابه باستثناء فريد، وهذا ما كان عليه حاله قبلاً، وقد ساعده مورف، الذي وجب أن ينافسه في مباراتهما ضمن المجموعة الأولى.

أخرج آيوتا قطعة العظم من جبهته والتفت حوله في دهشة؛ إذ تناثرت الشظايا العظمية حولنا وبدت مثل بقايا آنية فخارية مكسورة، وقد بقي من جنديي الليل ملابسهما التي تمزقت وكأنها تعرضت إلى إطلاق نار قريب من بندقية صيد محشوة بالخردق.

التفت يد أحدهم حول عنقي، وقد كان أميت، الذي شدني وعانقني بقوة وقال: «كنا سنتحول إلى أشلاء ما لم تخبرنا أن نجثوا على الأرض، كيف عرفت أن هذا سيحدث؟». وقبّل وجنتي.

في الحقيقة، أردت أن نتخذ وضعية الاستعداد من أجل الهجوم، مثل الصف الأمامي في كرة القدم، فقلت له: «كنت أجهل ذلك... هيّا لنخرج جميعاً من هنا، وخذوا دلاءكم معكم، سأترك المقدمة من أجلكما يا آي وأميت، سنذهب إلى غرفة الموظفين التي تقع بعد بابين صعوداً عن هنا، وفي حال صادفنا بعض جنود الليل أفرغا دلويكما عليها، وانبطحا أرضاً، وليفعل الجميع ذلك، ولكن حاولوا تجنب سكب دلائكم، فقد أصبحنا نعرف ما سيحدث».

خرجنا من الغرفة حاملين دلاء المياه (ركلت إيريس إحدى البذلتين الممزقتين جانباً، ثمّ بصقت عليها)، وألقيت نظرةً خلفي كي أجد غرفة الفريق حيث وجب أن ننتظر دورنا من أجل القتال قد تحولت إلى ساحة تغطي العظام أرضيتها.

هذا جيد.

سار أميت وآيوتا أمامنا، وحملت إيريس دلو الراحل غولي بدلاً من دلوها، وسارت جايا في الخلف لأن دلوها فارغ، وتابعنا طريقنا حتّى وصلنا إلى باب غرفة الموظفين، وصادفنا حينها جنديي ليل آخرين يدخلان الممر من أرضية الملعب المضاءة.

صاح أحدهما: «أوي! (متأكد أنه قال أوي)، ماذا تفعلون هنا؟ يجب أن يخرج مشاركو المجموعة الأولى الآن».

وقفنا جميعاً وكذلك آيوتا وأميت الذي بدا مرتبكاً بشكل جميل وقال: «ولكن ألا يجب أن نكون جميعاً هناك هذه المرة؟ كي نحيي جلالة الملك؟».

اقترب الجنديان، وقال الآخر: «بل المجموعة الأولى فقط أيها الحمقى. وعلى الباقين أن يعودوا إلى...».

تبادل أميت وآيوتا النظرات، فأومأ آي، وتقدم الاثنان خطوةً إلى الأمام واحداً تلو الآخر بشكل متناغم وكأنهما تدربا على ذلك، وأفرغا دلويهما، ثمّ ارتميا أرضاً، وكنا قد سبقناهما واستلقينا على بطوننا تماماً ولم نجثوا على أيدينا وركبنا فقط كما في المرة السابقة، إذ حالفنا الحظ كثيراً حينها، ولا أظنه أنه سيحالفنا كل مرة.

انفجر الجنديان وانطلقت الومضات وأصوات السقوط المكتوم، ولكن سمعت هذه المرة شيئاً إضافياً يشبه الطقطقة الكهربائية الصادرة عن محول كهربائي صغير قبل أن يتلفه حمل طاقة زائد، وشممت بعض الأوزون، كما تطايرت أشلاء العظام فوقنا، وارتدت عن الجدران والأرضية.

نهض أميت والتفت إليّ، وقد اصطفت أسنانه كلها في ابتسامة شريرة – بل شيطانية، وقال: «هيّا بنا نتوجه إلى المعلب يا تشارلي، فهناك دزينة من الدلاء الإضافية. دعنا نفجّر أكبر عدد ممكن منهم».

«لا أبداً، إذ قد نقضي على بعضهم، ولكن سيسفك الآخرون دماءنا، كما أننا نهرب الآن ولا نريد القتال».

توقدت الحماسة في نفس أميت، واعتقدتُ أنه لن يصغي إليّ، ولكن آي أمسك عنقه وهزه قائلاً: «من هو الأمير أيها الأحمق؟ أنت أم هو؟».

«هو».

«هذا صحيح. حسناً، افعل ما يقوله».

قلت: «هيّا بنا، بيندو وبولت، هل دلواكما ممتلئان؟».

قال بولت: «دلوي نصف ممتلئ، يؤسفني أنني سكبت بعضه مولا...».

«تقدم إلى بداية الممر، وكذلك دوبل وكاميت، إن جاء المزيد...».

قال كاميت: «سنمنحهم حماماً لطيفاً».

قدت الآخرين ومشيت مترنحاً بسبب دلوي الذي سكبت بعض المياه منه – إذ تبللت ساقا بنطالي – ولكن ما زال يحوي ثلاثة أرباعه. كان باب غرفة الموظفين مقفلاً، فقلت: «أميت، آي، افعلا ما يمكنكما فعله».

ضربا الباب معاً فانفتح بقوة، وقد خيمّ الظلام في الداخل، وكانت رؤيتي مشوشةً بسبب الانطباع الذي تركه وميض الانفجار السابق، فصرخت: «هل يستطيع أحدكم رؤية شيء ما؟ يجب أن نبحث عن خزانة طويلة، من يمكنه...».

قاطعتني حينها صرخة من الخلف، وتلاها وميض ساطع منحني القدرة على رؤية الخزانة المنتصبة أمام الحائط البعيد عنا، وحولها بضع كراس خشبية، ثمّ سمعت عويلاً وألماً، ثمّ صدر وميض آخر بعده.

دخل بيندو، ودوبل، وكاميت الذي نزف بشدة من وجهه وذراعه، وبرز من جرحيه شظايا عظمية تشبه ريشاً أبيض مصفراً. قال بيندو لاهثاً: «لقد فجّرنا اثنين إضافيين، ولكن وصل ثانيهما إلى بولت قبل أن أنال منه، إذ عانقه... ثمّ بدأ بولت يرتجف...».

لقد خسرنا واحداً منا مقابل ستة من جنود الليل إن كان بيندو محقاً، وهذه نتيجة جيدة، ولكن ما زال هناك الكثير منهم.

«ساعدني يا آي في تحريك الخزانة».

اندفع آي إلى الخزانة التي تشبه نظيرتها الويلزية لدى جدتي، وذلك قبل أن أقترب منها، وأسند كتفه عليها ودفعها بقوة كبيرة، كي تنزاح مسافة أربع أقدام وتتمايل ثمّ تسقط على الأرض كاشفةً عن باب خلفها، كما ورد في ملاحظة بيرسي.

تعالت صرخات يشوبها الأزيز من مكان ما، والتي أرعبتنا رغم بعدها عنا، حيث كنت أجهل اكتشاف لورد هاي نية سجنائه في الهروب، ولكن أجزم أنه جنود الليل يعلمون وجود أمر مريب.

رفع ستوكس مزلاج الباب وشده كي ينفتح، وقد فاجأني ذلك، ولكن منحني الأمل أيضاً، إذ ذكر بيرسي في الملاحظة: «ربما يكون للباب أقفال»، وليس: «إن الباب مقفل»، وتمنيت أنني أصبت في فهم قصده.

قلت: «ادخلوا جميعاً».

اندفع الجميع عبر الباب، بمن فيهم مورف الذي ما زال يساعد فريد. استعدت قدرتي على الرؤية قليلاً، ولاحظت وجود فانوس يشبه قذيفة مدفع على أحد الكراسي الخشبية، دعوت كثيراً في تلك الأثناء من أجل بيرسي – بيرسيفال، إذ سيلقى مصيراً سيئاً إذا فشلنا في الهرب واكتشفوا أنه ساعدنا، وربما سيعاقب إن نجونا أيضاً.

عاد آيوتا وقال: «إن الظلام دامس جداً هناك يا تشارلي... أوه. يا ليتنا نستطيع إشعال هذا الفانوس»، إذ تنبه إلى وجوده.

وضعت دلو المياه أرضاً كي أخرج عيدان الثقاب من جوربي، وذلك وسط نظرات آي الذاهلة، حيث قال: «أنت الأمير حقاً».

أعطيته عيدان الثقاب وقلت: «ربما، ولكنني أجهل كيفية استخدام هذا الشيء، ولذلك حاول إشعاله».

بدأ آي إشعال الفانوس الذي ملأ خزانه الزجاجي الكيروسين أو ما شابه، وهنا سمعت صوت خطوات أقدام تتجه إلينا من الملعب.

«أوي، أوي. ما الذي يجري هنا؟ لماذا هذا الباب مفتوح؟»، أنا أعرف صاحب هذا الصوت، سواء مع أزيز الحشرات الذي رافقه أو من دونه.

نظر آيوتا إليّ ورفع كلتا يديه حاملاً الفانوس المضيء في واحدة، وكانت الأخرى حرة لأنه لا يمتلك دلواً.

قلت: «ادخل وأغلق الباب، أعتقد أن إقفاله من الداخل ممكن».

«لا أريد أن أتركك...».

«اذهب!».

رحل آيوتا.

ظهر آرون عند مدخل الغرفة وسط هالته الساطعة جداً التي يصعب النظر إليها، وكنت أمامه حاملاً دلو مياه في إحدى يدي، إن دهشته مما رآها حالت دون تقدمه أكثر.

قلت في نفسي: «وجب أن تتقدم أكثر»، وخطوت إلى الأمام، وأفرغت الدلو عليه.

رأيت المياه معلقةً في الهواء كما في مشاهد الحركة البطيئة: بدت وكأنها بلورة غير منتظمة. واصلت جمجمة آرون الابتسام، ولكن اختفت بقايا وجهه البشري وسط هول المفاجأة، فألقى عصاه المرنة اللعينة أرضاً، ورفع إحدى ذراعيه وكأنه يحاول صد ما هو قادم، هنا تذكرت فجأةً ساحرة الغرب الشريرة تصرخ مذعورةً: «أنا أذوب. أنا أذوب». استلقيت أرضاً قبل وقوع الانفجار العظيم ودعوت بصدق أنني أرسلته إلى حياته الأبدية في الجحيم.

تطايرت العظام فوقي... ولكن بعضها أصابني، وتجاوز الأمر إحساس لسعة نحلة في ذراعي، بل شعرت أن الألم يتدفق عبر فروة رأسي وحتّى كتفي اليسرى، ثمّ نهضت مترنحاً، واتجهت إلى الباب، واستطعت سماع أصوات الجنود الآخرين تقترب، وتمنيت وجود مياه أكثر، فلاحظت وجود مغسلة في الجهة البعيدة من الغرفة، ولكن الوقت ضيق.

رفعت مزلاج الباب وسحبته، فانفتح مع أنني توقعته مقفلاً، فدخلت وأغلقته، وحملت الفانوس من مقبضه الخشبي وأنزلته كي يسقط ضوءه على مزلاجين بدا أنهما قويان، وصليت من أجل ذلك، وما إن أغلقت ثانيهما حتّى شعرت أن المزلاج في الطرف المقابل قد انفتح، وأخذ الباب يهتز في مكانه، فتراجعت مباشرةً رغم أن الأخير مصنوع من الخشب لا المعدن، ولكنني أردت تجنب التعرض إلى صدمة كهربائية.

«افتح الباب. افتح باسم إلدن قاتل الرحلة».

قال أحدهم من ورائي: «قبّل مؤخرتي باسم إلدن قاتل الرحلة».

التفتت كي أرى رفاقي الثلاثة عشر في ظل ضوء الفانوس الضعيف، ووقفنا جميعاً ضمن ممر واسع أرضيته مرصوفة ببلاط أبيض، كما هي الحال في نفق قطار الأنفاق، وعلقت على جدرانه مصابيح غاز في مستوى رؤوسنا وعلى طول الطريق بعيداً في الظلام. وقف رفاقي السجناء – أو السجناء

السابقين- يحدقون إليّ بأعينهم الجاحظة، واعترى الخوف وجوههم جميعاً، باستثناء أميت وآيوتا، إذ انتظروا الأمير تشارلي كي يقودهم.

استمر الطرق على الباب، وانسل ضوء أزرق ساطع عبر شقوقه، ومن أسفله وجانبيه.

كانت قيادتهم سهلةً نظراً إلى وجود طريق واحد كي نسير فيه، فمشيت عبرهم، وشعرت على نحو سخيف أنني تمثال الحرية حاملاً شعلته، ثمّ خطر شيء في ذهني حينها؛ كان عبارةً من فيلم حرب شاهدته على قناة (تي سي إم)، وقلتها قبل أن أدرك ذلك، وأعتقد أنني كنت وسط حال من الهلع أو الإلهام.

«هيّا أيها الحقيرون. هل تريدون العيش إلى الأبد؟».

ضحك أميت وصفعني على ظهري بقوة إلى حدّ أنني أوشكت أن أسقط الفانوس أرضاً، فنغرق وسط ما اعتادت روايات الرعب القديمة أن تسميه: «الظلام الحي».

بدأت أمشي وتبعني الآخرون، وتخافتت أصوات الطرق على الباب حتّى تلاشت وراءنا تماماً، وقد أصبح أمام جنود كيلين مهمة صعبة جداً وهي تحطيم الباب، إذ يجب شده لا دفعه كي ينفتح، إضافةً إلى أنهم لا شيء من دون هالاتهم... كما اكتشفنا في ذلك الوقت.

فليحفظ الرب بيرسيفال الذي كتب ملاحظةً صائبةً، إذ كانت تلميحاً كما توقعت في البداية، حيث يشبه سياق عبارة: «يملك الباب أقفالاً» نظيره في كلمة: «وراءك»، والتي تعني تحذيرك من شيء خلفك.

صاح آيوتا: «من يريد أن يعيش إلى الأبد؟»، وارتد صداه ضعيفاً عن البلاط.

صرخت جايا: «أنا!»... ولعلك لن تصدق ذلك، ولكن ضحكنا جميعاً.

الفصل السادس والعشرون

النفق والمحطة- الصرير- مركز العربات- ريد مولي-

حفلة الاستقبال- حزن أم.

1

أعتقد أن طول النفق لم يتجاوز ميلاً ونصف الميل انطلاقاً من غرفة الموظفين وحتى نهايته، ولكنني شعرت أنه طويل جداً وسط ضوء فانوسنا الوحيد الذي ينير طريقنا، وبدا أنه صاعد دوماً، وقد تخللته مجموعات أدراج تألف الدرج الأول من ست درجات، والثاني من ثمان درجات، والثالثة من أربع درجات، ثمّ انعطف بزاوية قائمة إلى اليمين كاشفاً عن درجات أخرى، ولكن فاقت سابقتها عدداً، وهنا عجز مورف عن مساعدة فريد أكثر، فحمله أميت.

وصلنا إلى القمة، فتوقفت قليلاً كي ألتقط أنفاسي، وتبعني أميت الذي بدا تنفسه مرتاحاً تماماً، اللعنة عليه.

قال أميت: «يقول فريد إنه يعرف إلى أين يؤدي هذا الطريق... أخبره يا فريد».

التفت فريد إليّ، وبدا وجهه مرعباً وسط ضوء الفانوس الباهت، إذ غطته الكتل والكدمات والجروح، والتي قد يتعافى منها، ولكن الإنتان أصاب جرح ساقه، حيث استطعت شم رائحتها.

قال فريد: «سبق لي أن جئت عدة مرات إلى غرفة الموظفين برفقة الحكام والحراس من أجل معالجة الجروح والكسور وإصابات الرأس، إذ كانت الأمور مختلفةً عن فير ون الذي يهدف إلى القتل من أجل القتل، ومع ذلك كان [قال كلمةً عجزت عن ترجمتها] عنيفاً جداً».

احتشد باقي أفراد فرقتنا السعيدة تحتنا على الدرجات رغم ضرورة المشي باستمرار، ولكن احتجنا (بل احتجت) أن نتوقف قليلاً كي نعلم ما ينتظرنا، ولذلك أشرت بيدي إلى الطبيب كي يسرع في كلامه.

«لقد استخدمنا النفق خلال مغادرتنا ملعب الفراشات وليس الدخول إليه، وخاصةً عند خسارة إمبيس بسبب قرارات تحكيمية تغضب الجماهير».

قلت: «اقتلوا الحكم».

«ماذا؟».

«لا شيء، إذن إلى أين يؤدي هذا الطريق؟».

ارتسمت ابتسامة واهنة على وجه فريد وقال: «إلى مركز الحافلات طبعاً، إذ عليك فهم أن من الحكمة مغادرة المدينة فور الإمكان عند خسارة إمبيس إحدى المباريات».

«كم يبعد مركز الحافلات عن البوابة الرئيسية؟».

منحني فريد الإجابة التي أردتها وخشيت عدم سماعها: «إنه قريب جداً».

قلت: «هيّا بنا»، وقد أوشكت أن أضيف: أسرعوا، أسرعوا، ولكن امتنعت عن ذلك، إذ كانت تلك لغة آسرينا، وكرهت كلامهم المهين. لقد قتلنا سبعةً منهم، وهذا ما حدث من دون النظر إلى أي شيء حدث في نهاية النفق.

التفتت إلى الخلف وقلت: «هل يملك أحدكم دلواً ممتلئاً؟».

امتلكنا ستة دلاءً، ولكن أياً منها لم يكن ممتلئاً عن آخره، فطلبت منهم السير خلفي مباشرةً كي نستعمل ما لدينا عند الحاجة، وسنفكر بما علينا فعله بعدها.

وصلنا إلى درج آخر. عندما وصلنا إلى آخره سيطر التعب على أميت، فتولى آيوتا مهمة حمل فريد الذي قال: «دعوني، فأنا لا أعدو عن كوني وزناً ميتاً».

قال آي بصوته الخشن: «وفّر أنفاسك كي تبرد عصيدتك»، كما في قصة غوديلوك والدببة الثلاثة، ولعلها كانت حساءً حينها.

شيئاً فشيئاً ازداد انحدار الممر، وأصبح مثل ذلك المؤدي إلى الملعب، ودعوت أن نصل قريباً إلى نهايته، إذ أوشك وقود الفانوس أن ينتهي وبدأ ضوءه يضعف، ولكن بعد برهة سمعت صوت صرير وحك من الجدار المرصوف إلى اليمين، وكان قريباً جداً، فتذكرت حينها انطلاقتي الفاشلة ناحية البوابة الخارجية، والتعثر فوق حجارة المقابر، وانتصاب شعر جسدي من الخوف.

سأل كويلي: «ما هذا الصوت؟ يبدو مثل...».

توقف عن الكلام، فقد عرفنا جميعاً أنه يشبه صوت خرمشة أصابع تقترب من ممرنا.

قلت: «لا أدري ما هو»، وكانت تلك كذبةً على الأرجح.

قالت إيريس: «لقد سمعت أن الموتى يضطربون عندما يسيطر القلق على إلدن، ولعلها مجرد قصة من أجل إخافة الأطفال، وإن كانت حقيقة، أعتقد... أعتقد أنهم عاجزون عن الدخول إلى هنا».

لقد شككت في ذلك، إذ رأيت الأيادي تنبثق من التراب، والأموات يشقون طريقهم إلى عالم الأحياء، كما سمعت صوت احتكاك المفصلات الصدئة، وكأن شيئاً يخرج من الأقبية والقبور، وربما بضعة أشياء.

قال ميسيل: «إنها مجرد جرذان، أو فئران حقل، أو حيوانات ابن مقرض، ولا يتجاوز الأمر قصصاً اختلقت من أجل إخافة الأطفال كما قالت إيريس»، وحاول أن يبدو جازماً.

لقد استبعدت فكرة إمكانية اختراق أصحاب تلك الأصوات الحائط الذي يفصلنا عنهم، ولكن أسعدني الابتعاد عنهم وترك الصرير وراءنا، وإن كانت تلك المقبرة، وأصبت في تخميني، فنحن قريبون حقاً من البوابة.

وصلنا إلى درج طويل آخر، وهنا بدأ المصباح يرتعش.

أخذ فريد يئن ويقول: «اتركوني، اتركوني، لقد انتهى أمري».

قال آي لاهثاً: «اصمت وإلا سأقضي عليك بنفسي»، وصعد الدرج حاملاً فريد بين ذراعيه، ومشيت خلفه وتبعني الباقون حتّى وصلنا إلى الأعلى، ووجدنا غرفةً صغيرةً مع مقاعد على جانبيها، وكان بابها مقفلاً من الخارج هذه المرة، وبالتالي وجب أن يكون فتحه سهلاً، إذ أكل الصدأ مقبضه إلى درجة أن أميت اقتلعه من مكانه عند محاولة تحريكه.

جرح المقبض يد أميت فرماه أرضاً وصاح متفحصاً يده المدماة: «اللعنة. ساعدني يا آي لنحطمه معاً».

سلّم آي الطبيب فريد إلى كاميت وكويلي، ثمّ وقف إلى جوار أميت كتفاً إلى كتف، وفي تلك اللحظة، لفظ ضوء الفانوس أنفاسه الأخيرة، ورأيت ظلالنا على البلاط الأبيض قبل أن تندمج مع الظلام الحالك، وهنا تنهدت جايا.

صاح أميت: «سأعد حتّى ثلاثة، ثمّ سننطلق معاً وندفع الباب كما لم يسبق لنا أن دفعنا شيئاً في حياتنا. واحد... اثنان... ثلاثة!».

عندما اهتز الباب تسلل بعض الضوء لبرهة، ثمّ خيّم الظلام مجدداً.

«هل تستطيع أن تدفع بقوة أكبر من هذه أيها...»، الجبان؟ السافل؟ لقد سمعت الكلمتين متداخلتين. «عند ثلاثة واحد... اثنان... ثلاثة».

فكّرت أن أقفال الباب متينة جداً لأنها تحملت تلك الضربات القوية، ولكن في النهاية استسلمت مفصلاته وانحلت كي ينفتح الباب بقوة إلى الأمام ويتعثر الرجلان الضخمان عبره فيسقط آيوتا على ركبتيه قبل أن يساعده أميت ليقف مجدداً، وتبعهما الباقون.

صاح أوكا: «الشكر للرب»، وتردد صدى صوته في أرجاء المساحة الواسعة، قبل أن تحيط بنا غيمة من الأجنحة الجلدية.

3

صرخت جايا وإيريس في انسجام تام، وليس وحدهما: بل صاح الجميع خائفين، وأنا منهم، وقد رميت الفانوس كي أحمي رأسي، وسمعت صوت انكساره على الأرضية الصخرية.

قال فريد لاهثاً: «إنها مجرد خفافيش تسكن...»، وقاطعت كلامه نوبة سعال، فأشار إلى الظلام الدامس.

سمعه أميت وأذاع الخبر: «إنها مجرد خفافيش غير مؤذية. اثبتوا في أماكنكم وأبعدوها عنكم».

لوّحنا بأذرعنا في الهواء، وتمنيتُ أن لا تكون خفافيش ماصة للدماء، إذ كان حجمها كبيراً جداً وتشبه تلك الموجودة في النفق بين إيلينوي وإمبيس، حيث استطعت أن ألمحها خلال طيرانها في ضوء القمر الخافت الذي شتته الغيوم ودخل من إحدى النوافذ الصغيرة العالية، كما رأيت الآخرين وهم يلوحون أذرعهم بجنون. كان كاميت وكويلي يحملان الطبيب فريد، وبالتالي عجزا عن إبعاد الخفافيش عنهما، ولكن فريد بذل قصارى جهده في ذلك.

ابتعدت مجموعة الخفافيش، وعادت إلى سقف القاعة الهائلة التي وجدنا أنفسنا فيها، وتبيّن أننا في مرأب مركز الحافلات، حيث اصطفت عشرون حافلة على الأقل في صف أنيق، وكتبت وجهة كل منها على مقدمتها المسطحة: سيفرونت، وديسك، وأولوم، وتايفو الشمالية، وتايفو الجنوبية، وغرين إيزليس، كما حملت أعمدةً على سطحها من أجل توصيل الطاقة إليها عبر الأسلاك العلوية المترهلة (والمرمية في الشوارع الآن). ورأيت على الجهة الخلفية للعربات بضع كلمات بلون ذهبي، والتي خرجت من قاموس إمبيس الحالي: الصداقة، والوئام، واللطف، والحب.

سأل ستوكس: «كيف سنخرج من هنا؟».

قالت إيريس: «ألم تتعلم القراءة قبلاً؟».

قال ستوكس: «مثل أي ولد ريفي»، وبدا متأففاً، وما كنت لأتصرف بعكسه، إن توجب عليّ وضع يدي على فكي كي أمنع تسرب الطعام منه إلى الخارج.

قالت إيريس: «اقرأ ما كتب هناك إذن»، وأشارت إلى قوس عالٍ في الجزء البعيد من المرأب.

كتب عليه: المخرج.

عبر تحت القوس ثلاثة عشر ناجياً محتملاً وراء أميرهم الجاهل، ووصلنا إلى قاعة كبيرة بحجم المرأب تقريباً تحوي ما بدا أنه صف من مراكز قطع التذاكر محطمة النوافذ، وقبالتها عدد من الأقواس الصغيرة التي كتب على كل منها اسم إحدى الوجهات، لقد حطّم المخربون تمثال فراشة كبيراً إلى أشلاء، ولطخوا بالطلاء لوحةً جداريةً رسمت فيها فراشات كبيرة، ولكنهم عجزوا عن طمسها كلها؛ إذ بقيت العلوية منها سليمةً في شتى أنحاء القاعة، واحتلت كل فراشة كبيرة قطعة بلاط أصفر، وقد ارتحت لأن أتباع إلدن

فشلوا في محوها تماماً، وإن صدق حدسي، هناك شيء أستطيع استعماله قريباً.

قلت: «هيّا بنا»، وأشرت إلى مجموعة أبواب، وركضت نحوها.

4

اندفعنا إلى العالم الخارجي، ولا يزال بعض منا يحملون دلاءهم، واجتمعنا معاً أعلى الدرجات المؤدية إلى طريق غالين، وزمجر كاميت وكويلي خلال حملهما فريد. سمعت هدير عربة لورد هاي، ورأيت حوالى اثني عشر فرداً من جنود الليل يركضون أمامها، وينتشرون في أنحاء الشارع. فكّرت في أن عربة كيلين الصغيرة هي وسيلة النقل الوحيدة الباقية في ليليمار، ولكن أخطأت في ذلك، إذ توجد واحدة تقود الجنود أيضاً، ولكنها لا تعمل بالطاقة الكهربائية؛ برز مقود ضخم من مقدمة تلك العربة الواسعة، التي قذفت بعض الحصى صوبها عند اقترابها بسبب احتكاك عجلاتها الحديدية بالأرض.

جلست ريد مولي في المقدمة على مقعد عال تدوس قدر استطاعتها كي تشغل العربة إلى جانب الطاقة التي تغذيها أياً تكن. تناوبت حركة ركبتيها إلى الأعلى والأسفل، وقد انحنت فوق المقود مثل راكب دراجة نارية طائش، وبالتالي قد نستطيع الوصول إلى البوابة قبل الباقين، ولكنها تتحرك بسرعة.

رأيت أعمدةً مخططةً بالأبيض والأحمر، وأسلاك الحافلات الساقطة والمتشابكة، فقد أوشكت أن أتعثر بها، كما انتبهت إلى شجيرات العليق التي رميت حقيبتي فيها كي أستطيع الجري أسرع، ولكنني فشلت في المرة السابقة، وأظنني سأفشل هذه المرة أيضاً، أنا وكلّ من معي، إلا إن كانت الحقيبة في مكانها.

قال آيوتا بخشونة وجعل يديه قبضتين: «سأقتل تلك الوضيعة».

قال أميت: «سأساعدك وإلا تباً لي».

قلت: «لا، انتظر يا آي»، وفكّرت في ألويسيوس ابن أخ وودي الذي اقتلعت والدة ريد مولي رأسه من بين كتفيه.

«ولكنني أستطيع...».

أمسكته من كتفه، والتفتت مخاطباً الجميع: «لم ترنا بعد، إنها تنظر إلى الأمام مباشرةً، ولديّ خطة، ثقوا بي... ابقوا هنا جميعاً».

انحنيت ونزلت الدرجات، وقد أصبح ضجيج العربة قريباً كفايةً كي أرى ملامح ريد مولي... التي كانت تنظر إلى الأمام وقد أغمضت عينيها جزئياً – لعلها حسيرة البصر – في انتظار رؤيتنا نركض ناحية البوابة.

ربما أستطيع مفاجأتها، ولكن اندفع شيء صغير يرتدي بنطالاً أخضر ممزقاً من الخلف، ولوّح بذراعيه قائلاً: «إنه هنا». صرخ بيتركين مشيراً إليّ مباشرةً، ولكن كيف كشفنا؟ هل كان ينتظرنا، ما زلت أجهل ذلك، ولا أكترث، ولكن اعتاد ذلك القزم الحقير الظهور خلال أسوأ اللحظات الممكنة.

أشار قائلاً: «إنه هناك تماماً. ألا ترينه أيتها الوضيعة نصف العمياء، إنه هناك...»، وقفز في مكانه من فرط الحماسة.

حافظت ريد مولي على سرعتها، وانحنت إلى الأمام ببساطة وضربته، فحلّق بيتركين عالياً، واستطعت استراق نظرة إلى وجهه الذي اعتلته ملامح الصدمة قبل أن ينقسم إلى قسمين حرفياً إثر ضربتها القوية، إذ لا بد أنه ارتفع مسافة عشرين قدماً في الهواء على الأقل خلال تناثر أحشائه في الأرجاء، وعندها لم أستطع إلا التفكير في رومبيلستيلتسكين.

ارتسمت ابتسامة على وجه ريد مولي كاشفةً عن أسنان فكيها البعيدة عن بعضها.

وجدت حقيبتي بين شجيرات العليق، وشكرت الرب أنهم لم يعثروا عليها، خدشت الأشواك ذراعيّ العاريتين عندما سحبتها، ولكن من دون أن أشعر بالألم، ثمّ أرخيت أحد حزاميها بسهولة، ولكن بقي الآخر عالقاً، فمزقته وأخرجت علب السردين المعلب، ومرطبان جيف، وآخر احتوى صلصة المعكرونة يوماً، ولكنني ملأته بطعام الكلاب، وقميصاً، وفرشاة أسنان، وزوجاً من السراويل الداخلية.

أمسكني آيوتا من كتفي، وتبعته فرقة محاربي المياه خاصتي إلى أسفل الدرجات عكس أوامري، ولكن رب ضارة نافعة.

«اهربوا يا آي. وتولى مهمة حمل فريد، وعلى حاملي دلاء المياه السير في الخلف. وعندما تصلون إلى البوابة قولوا العبارة التالية عالياً: «افتحوا باسم ليا غالين»، هل تستطيعون تذكّر ذلك؟».

«أجل».

صرخت ريد مولي من أعماقها بصوتها الذكوري القوي: «ستموتون الآن».

«هيّا انطلقوا».

لوّح آي بإحدى ذراعيه الثخينتين إلى الآخرين وقال: «أسرعوا لتنقذوا حياتكم»، وأطاع الجميع أمره باستثناء أميت، الذي بدا أنه كلف نفسه أمر حراستي.

لم يكن هناك متسع من الوقت للشجار معه. وجدت مسدس بولي عيار 0.22، فأخرجته أيضاً إضافةً إلى بضع علب سردين أخرى. توقفت ريد مولي على بعد ثلاثين قدماً، وترجلت عن مقعدها المرتفع وقد لطخت دماء بيتركين ذراعها حتّى المرفق. وقف أميت أمامي، ووجدت ذلك مشكلةً إلا إذا أردت ضربه على رأسه، فنحيته جانباً.

«ابتعد من هنا يا أميت».

ولكنه لم ينصت إليّ، واندفع يصرخ بقوة صوب ريد مولي، لقد فاجأها لبرهة هذا الهجوم المفاجئ، واستغل أميت الأفضلية قدر الإمكان، وأمسك واحدةً من حمالتيها وشد نفسه بإحدى يديه إلى الأعلى، ثمّ فتح فمه وغرس أسنانه في ذراعها أعلى مرفقها، فصرخت متألمةً.

صحيح أن أميت رجل ضخم، ولكن ريد مولي لم تجده إلا أكبر بقليل من بيتركين الذي ارتمى ميتاً بعد أن انشطر إلى شطرين، فأمسكته من شعره اللزج، وأبعدت رأسه عنها، ثمّ سددت لكمةً اخترقت وجهه، فبرزت عيناه في اتجاهين متعاكسين وكأنهما رفضتا النظر إلى الفجوة الحمراء التي تشكلت مكان أنفه وفمه، ثمّ رفعته وما زالت تستخدم يداً واحدةً فقط، وهزته إلى الأمام والخلف وكأنه دمية متحركة، ثمّ رمته باتجاه المقبرة والدم يتطاير من المكان الذي عضها فيه. كان أميت شجاعاً ومفتول العضلات، ولكنها تخلصت منه وكأنه طفل صغير.

ثم التفت إليّ.

كنت جالساً على رصيف طريق غالين المرصوف بالحصى، مباعداً ساقيّ، وحاملاً مسدس بولي الآلي في كلتا يدي، وتذكرت ماهية شعور توجيه أحدهم سلاحاً إلى مؤخر رأسك، وفكرت مجدداً في رومبيلستيلتسكين، وكم ذكر بولي قصة ذلك القزم على مسامعي: «ماذا ستعطيني إذا حولت القش خاصتك إلى ذهب؟». كان بولي سيقتلني مباشرةً بعد الحصول على ذهب السيد بوديتش ويرميني في البئر السحرية المخفية في مخزنه.

أتذكر فقط صلاتي كي ينجح ذلك المسدس الصغير في إيقاف العملاقة، كما أوقف حجر ديفيد الصغير غولايث، وربما يستطيع ذلك إن كان

محشواً تماماً، ولكن سبق لي أن ضغطت مرتين على زناده في عالم أقل سحراً.

اقتربت ريد مولي مني مبتسمةً، والدماء تسيل بغزارة من ذراعها، ولكن بدت غير مهتمة، وتمنيت أن يصيبها إنتان إثر عضة أميت فيقتلها إذا عجزتُ عن ذلك.

قالت بصوتها الذكوري الخشن: «أنت لست أميراً، بل مجرد حشرة، ولا شيء سواها، وسأدوسك و...».

أطلقت النار، فأصدر المسدس صوتاً أعلى قليلاً من صوت بندقية ديزي الهوائية التي امتلكتها عندما كان عمري ست سنوات، وأحدثتْ رصاصاته ثقباً أسود صغيراً فوق عين ريد مولي اليمنى، فتراجعت إلى الخلف، وهنا أطلقت النار مجدداً كي يظهر ثقب آخر في عنقها، والذي تطايرت الدماء منه على شكل سهم صلب أحمر اللون إثر الضغط الناجم عن صراخها من الألم، ثمّ ضغطت الزناد مجدداً، فبرزت فتحة صغيرة على رأس أنفها مثل النقطة التي تضعها في آخر الجملة، ولكن تلك الرصاصات عجزت عن إيقافها.

صرختْ: «أنت...»، واندفعت ناحيتي.

حافظت على مكاني ولم أحاول تفاديها، إذ سيكلفني ذلك وضعية التصويب، أضف إلى ذلك أن أوان الهرب قد فات، وكانت ستمسكني بعد خطوتين واسعتين إن لعبنا لعبة هل تسمحين لي يا أمي وقبل أن تقبض على رأسي كما فعلت مع أميت، أطلقت خمس رصاصات سريعاً، ودخلت جميعها في فمها المفتوح خلال صراخها، واقتلعت الرصاصتان – وربما الثلاث – الأوائل معظم أسنانها. لقد فشلت أكثر أسلحتنا تطوراً في صد اعتداء المريخيين في حرب العوالم، ولكن الجراثيم الأرضية قتلتهم، وكذلك أشك

في تأثير أيّ رصاصة مفردة من مسدسي الصغير على ريد مولي، ولا حتّى الثمانية الباقية كلهم.

أعتقد أن أسنانها المكسورة سقطت في حلقها... فاختنقت بها.

5

كان وزنها البالغ مئتين وخمسين كيلوغراماً على الأقل ليثبتني في مكاني حتّى وصول كيلين وجنود الليل إليّ، أو ليقتلني مباشرةً، ولكنها لم تسقط عليّ، بل ركعت على ركبتيها أولاً وهي تلهث مختنقةً ووضعت يديها على عنقها النازف، وبرزت عيناها إلى الخارج، فاندفعت في تلك اللحظات إلى الخلف كي أسقط على مؤخرتي، ثمّ ارتميت إلى جانبي وتدحرجت. أوشك جنود الليل على الوصول، وقد عجزت سابقاً عن تجاوزهم كي أصل إلى البوابة، كما فرغ المسدس من الرصاصات تماماً.

بذلت ريد مولي محاولةً أخيرةً لتصل إليّ، ولوّحت ذراعها المجروحة كي تلطخ دماؤها وجنتيّ وجبهتي، ثمّ سقطت على وجهها، فنهضت مباشرةً عندما رأيت الفرصة سانحة من أجل الهرب، ولكن ما الفائدة؟ ولذلك فضّلت مواجهتهم والموت بعد بذل قصارى جهدي أمامهم.

فكّرت في والدي حينها، الذي ما زال ينتظر عودتي إلى المنزل، وربما نشر صورتي مع رادار في جميع البلدات الواقعة بين سنتري وشيكاغو بمساعدة ليندي فرانكلين والعمّ بوب – هل رأيتم هذا الفتى أو هذه الكلبة؟ ولعل الممر إلى إمبيس مكشوف الآن، وقد يكون هذا الأمر أهم من والدي المفجوع، ولكنني فكرت فيه خلال اقتراب جنود الليل مني، إذ أقلع عن شرب الكحول، ومن أجل ماذا؟ لقد توفيت زوجته، ورحل ابنه من دون أن يترك أثراً.

لكن سيحصل الآخرون على حريتهم إن قادهم آيوتا عبر البوابة، واعتقدت أن جنود الليل عاجزين عن الذهاب إلى هناك.

صرخت: «تعالوا إلي يا أولاد الوضيعة».

ألقيت المسدس عديم الفائدة جانباً، وفتحت ذراعي أمام جنود الليل، وأوقف كيلين عربته الصغيرة وراءهم كي يراقبني أموت، ولكن تبيّن أنه ينظر إلى شيء آخر في السماء، كما توقف جنود الليل على بعد سبعين أو ثمانين ياردةً أيضاً وقد شخصت أعينهم إلى الأعلى، وارتسمت ملامح الدهشة نفسها على وجوههم البشرية الرقيقة التي غطت جماجمهم.

كان الضوء كافياً من أجل الرؤية رغم اختفاء القمرين المتلاحقين، واقتربت غيمة أدنى من نظيراتها متجاوزةً الجدار الخارجي، واقتربت ناحية طريق غالين، والمتاجر الفاخرة والأقواس، حتّى القصر حيث لمعت الأبراج الزجاجية الخضراء الثلاث وسط أضواء الملعب.

لقد كانت سحابة من الفراشات الكبيرة التي اجتمعت مع بعضها في هيئة مشكال، وطارت فوقي من دون توقف حتّى وصلت إلى هدفها، أي جنود الليل، فتباطأت وحلّقت في دوائر، ثمّ هجمت عليهم دفعةً واحدةً. رفع الجنود أذرعهم، كما شاع أن قاتل الرحلة قد فعل بعد انقلابه، ولكنهم افتقروا إلى القوة التي امتلكها، وعجزوا عن قتل الفراشات، باستثناء تلك التي لمست هالاتهم الكهربائية الزرقاء أولاً، ونجم عن ذلك التماس ومضات ساطعة، مثل الألعاب النارية في أيدي مجموعة من الأطفال الخفيين خلال يوم الرابع من تموز. احترقت مئات الفراشات، ولكن تلتها الآلاف التي إما خففت الهالات المميتة أو قضت عليها تماماً، وتكاثفت السحابة مجدداً خلال التهامها جنود الليل.

انعطف لورد هاي بعربته الصغيرة على شكل حرف (U) وعاد أدراجه مسرعاً إلى القصر، وقد حاولت بعض الفراشات أن تلحق به من دون فائدة، فقد كان أسرع منها، كما أن سقف العربة حماه، بينما قضي على جنود الليل الذين طاردونا جميعهم تحت رفرفة أجنحة الفراشات الرقيقة، وقد رأيت يداً

عظميةً واحدةً ترتفع... ثمّ تخبو مجدداً وسط الكتلة الحمراء البرتقالية التي غطتها.

ركضت ناحية البوابة الخارجية التي كانت مفتوحةً، التي سبق لرفاقي السجناء جميعاً أن عبروها، ولكن دخل منها شيء آخر يجري بأقصى سرعته؛ كان صغيراً وأسود، وينبح كثيراً. اعتقدت أن جل ما أردته هو الخروج من مدينة ليليمار المسكونة، ولكن أدركت الآن أنني أرغب في شيء آخر، وفكرت في دورا عندما رأت كلبتي، وكيف نادتها بأعلى صوتها المريض، والذي بدا صوتي مثله حينها، ولكن بسبب البكاء لا بسبب إحدى لعنات التخريب. ركعت على ركبتي، وفتحت ذراعي.

«رادار. رادار. رايدس».

اصطدمت رادار بي وطرحتني أرضاً، وأخذت تئن وتلعق وجهي من الأسفل وقد عانقتها بكل طاقتي، وبكيت وعجزت أن أوقف سيل دموعي، وأعتقد أن هذا الأمر ليس من شيم الأمراء، ولكن كما يدور في ذهنك الآن، لقد كنت في حكاية خيالية من نوع آخر.

6

تناهى صوت خشن أعرفه إلى مسامعي وأنهى لقاءنا السعيد: «تشارلي، أيها الأمير تشارلي، أخرج من هناك كي نستطيع إغلاق البوابة، تعال إلينا أيها الأمير تشارلي».

نهضت على قدمي وقلت في نفسي: «حسناً، وتمالك نفسك، أيها الأمير تشارلي».

قفزت رادار حولي ونبحت عندما ركضت ناحية البوابة، فرأيت كلاوديا جالسةً في الخارج، ولم تكن بمفردها، بل جاء وودي معها، وكذلك ليا التي

امتطت فلادا، ووقف خلفهم بقية الهاربين من ديب مالين، واحتشد وراءهم أيضاً مجموعة أشخاص عجزت عن التعرف إليهم.

تجنبت كلاوديا دخول ليليمار، ولكنها سحبتني إليها فور خروجي من البوابة وعانقتني بقوة حتّى أوشكت أن تكسر عمودي الفقري.

سأل وودي: «أين هو؟ لقد سمعت الكلب، ولكن أين...».

قلت، وقد حان دوري من أجل العناق: «هنا، أنا هنا».

وضع وودي راحة يده على جبهته عندما أفلته، وركع على إحدى ركبتيه قائلاً: «لقد كنت أنت منذ البداية يا مولاي الأمير، وجئت إلينا كما ورد في القصص القديمة».

قلت: «انهض، أرجوك انهض يا وودي»، وسالت الدموع من عيني (إضافةً إلى المخاط من أنفي ولكنني مسحته سريعاً بظاهر يدي)، وغطتني الدماء تماماً، لقد كنت أقرب إلى مشرد منه إلى أمير.

نهض وودي، ثمّ التفتت إلى رفاقي وهم يراقبون باحترام؛ عانقت إيريس وجايا بعضهما، واستلقى فريد بين ذراعي آي، وقد أدرك بعضهم، وربما كلهم، هوية هؤلاء الأفراد الثلاثة الذين ليسوا كاملين فحسب، بل أصحاب الدماء الحقيقية؛ إنهم أفراد العائلة الحاكمة المنفيون عن إمبيس، وأتصور أن يولاند والناسك بورتون آخر فرعين من شجرة أسرة غالين.

وقف ستون أو سبعون شخصاً رمادياً خلف الناجين من الأسر، وحملوا مشاعل وفوانيس تشبه الذي تركه بيرسي من أجلي، ورأيت بينهم فتاةً أعرفها، وقد سبقتني رادار إليها، فتبعتها من دون الانتباه إلى أن الأشخاص المشوهين بفعل لعنة إلدن – أو الكائن الذي يُسيّره – قد ركعوا ووضعوا راحات أيديهم على جباههم، وحاولت دورا فعل ذلك ولكنني منعتها، واحتضنتها، وقبّلت وجنتيها الرماديين وزاوية فمها الهلالي.

أخذتها إلى حيث وودي، وكلاوديا، وليا.

صاحت كلاوديا: «أغلقي باسم ليا غالين».

أخذت البوابة تنغلق ببطء، وشعرت أنها تصدر صوتاً مثل شخص يتأوه متألماً، ولكنني في تلك اللحظة رأيت امرأةً ضخمةً جداً تقفز في خطوات واسعة ناحية الشارع المركزي، ورفرفت غيوم الفراشات فوقها وحولها وقد حط بعضها على كتفيها العريضين ورأسها الكبير رغم أنها ليست من جنود الليل، فتجاهلتها ببساطة، وما أن وصلت البوابة إلى منتصف مسارهم الخفي نحو الإغلاق، أطلقت المرأة صرخة حزن صاخبةً جداً إلى درجة أننا غطينا آذاننا جميعاً، باستثناء كلاوديا.

صاحت هانا: «مولي. أوه يا عزيزتي مولي. كيف أمكنك الموت هكذا؟».

انحنت فوق ابنتها الميتة، ثمّ وقفت، ونظرت إليّ من بين كل الأفراد المجتمعين الذين ينتظرون إغلاق البوابة.

رفعت قبضتيها الأقرب إلى صخرتين وهزتهما قائلةً: «عد إلى هنا أيها الجبان كي أقتلك جزاء ما اقترفته في حق ابنتي».

انغلقت البوابة، وحجبت عنا مشهد والدة ريد مولي المفجوعة.

7

التفتت إلى ليا، التي خالفت أناقتها المعتادة حينها؛ إذ لا فستاناً أزرق أو مئزراً أبيض، بل ارتدت بنطالاً أسود دسته تحت حذاء جلدي عالي الساق، إضافةً إلى سترة زرقاء محشوة رُسمت عليها فراشة كبيرة، وصليب غالين الملكي إلى اليسار حيث قلبها، وربطت حزاماً عريضاً حول خصرها وتدلى من جانبه خنجر صغير، وسيف قصير ذو مقبض ذهبي على الجانب الآخر.

قلت، وقد تملكني الخجل فجأةً: «مرحباً يا ليا، لقد أسعدتني رؤيتك كثيراً».

أشاحت بنظرها وكأنها لم تسمعني – لعلها صماء مثل كلاوديا، وقد تجمدت ملامح وجهها عديم الفم أيضاً.

الفصل السابع والعشرون

اجتماع- السناب- ليس أحد أمراء ديزني- الأمير والأميرة- الميثاق.

1

أذكر شيئين بوضوح تام عن اجتماعنا؛ الأول أن الجميع امتنع عن لفظ اسم غوغماغوغ، والثاني أن ليا تجنبت النظر إليّ تماماً.

2

في وقت لاحق من تلك الليلة، اتجهنا إلى المستودع الذي لجأت إليه برفقة رادار قبل دخولنا ليليمار. كنا ستة أشخاص وحيوانين، جلست برفقة وودي وكلاوديا على الأرض، وجلست رادار إلى جانبي وقد ثبتت رأسها بقوة على ساقيّ وكأنها تريد أن تتأكد أنني لن أتركها مجدداً، بينما جلست ليا وحدها على الدرجات في مقدمة عربة سيفرونت، أما فرانا المرأة الرمادية التي همست لي: «ساعدها» قبل أن أغادر مزرعة غوغر، فوقفت في الزاوية البعيدة ومسحت على رأس فلادا المنهمكة في تناول الحبوب من كيس حمله آيوتا من أجلها، وجلس في الخارج الناجون الباقون من ديب مالين، بالإضافة إلى الرماديين الذين يزداد عددهم شيئاً فشيئاً، وخلت الأجواء من عواء الذئاب؛ إذ بدا أن التجمعات خارج نطاق اهتمامها.

وضعت سلاح السيد بوديتش من عيار 0.45 على خصري مجدداً؛ لعل كلاوديا صماء، ولكن نظرها ثاقب، حيث لمحت بريق الحجارة الزرقاء في حزام الكونشو المرمي وسط الأعشاب الكثيفة خارج الجدار قرب البوابة،

ولكن السلاح يحتاج إلى تنظيف وتزييت قبل أن يصبح استعماله ممكناً، لقد توجب عليّ القيام بذلك في وقت لاحق، وفكّرت في احتمال وجود ما احتاج إليه على إحدى طاولات العمل المبعثرة خلف المستودع الذي أعتقد أنه كان ورشة تصليح خلال الأيام القديمة الجميلة.

قال وودي: «لقد جُرحت الأفعى، ولكنها على قيد الحياة، ولذلك يجب أن نقطع رأسها قبل أن تجدد سمها، وعليك أن تقودنا يا تشارلي».

أخرج دفتراً صغيراً وريشة كتابة من جيب معطفه وكتب عليها سريعاً خلال كلامه مثل أي شخص بصير، وعرضها على كلاوديا التي أومأت بقوة، وقالت: «يجب أن تقودنا يا تشارلي. أنت الأمير المنتظر. وريث أدريان من العالم السحري».

نظرت ليا إلى كلاوديا لبرهة، ثمّ نظرت عاودت النظر إلى الأرض، وقد غطت خصلات من الشعر وجهها، وداعبت أصابعها مقبض خنجرها.

كنت متعباً وخائفاً، ومتأكداً من أنني لم أعد أحداً بشيء، ولكن هناك أمور أكثر أهميةً الآن، فقلت: «سنفرض أنك محق، وأن استعادة قاتل الرحلة قوته يهددنا وإمبيس أجمعين».

قال بهدوء: «نحن لا نفترض، بل هذا ما سيحدث فعلاً».

«مع ذلك، أرفض قيادة حشد من الناس غير المسلحين إلى المدينة إن كان هذا ما تفكّر فيه، إذ لعل نصف جنود الليل قد قتلوا، وعددهم الكلي قليل...».

وافقني وودي قائلاً: «هذا صحيح، إذ فضل معظمهم الموت الحقيقي على خدمة الوحش وهم نصف أحياء».

لاحظت أن ليا أجفلت وكأنها تلقت صفعة من وودي، وأنا الذي بالكاد أبعدت عينيّ عنها.

«لقد قتلنا سبعةً منهم، وأجهزت الفراشات على بعضهم، ما يترك الأفراد الباقين».

قال آي بصوته الخشن من الزاوية: «ليسوا أكثر من اثني عشر واحداً وربما أقل من ذلك، إذ أحصيت عشرة جنود منهم لقوا حتفهم بين الفراشات، ولم يكن كيلين يمتلك أكثر من عشرين منهم بالمجمل».

«هل أنت متأكد؟».

هزّ كتفيه مستهجناً وقال: «لقد احتجزت في ذلك المكان فترةً طويلةً جداً، ولم يكن لديّ شيء أقوم به سوى العد، وحين أفرغ من جنود الليل، كنت أعد القطرات المتساقطة من السقف، أو الطوب في سقف زنزانتي، لقد تألفت أرضية زنزانتي من ثلاث وأربعين قطعة طوب».

قلت: «ما زال اثني عشر جندياً عدداً كبيراً مقابل قدرتهم على صعقك كهربائياً وإفقادك الوعي بمجرد لمسك، إضافةً إلى قتلك عند معانقتك، ناهيك عن قائدهم كيلين».

كتب وودي اسم كيلين سريعاً على الورقة، وأدارها ناحية كلاوديا بسبب عجزه عن الرؤية، فحركتها إلى حيث تستطيع قراءتها.

صرخت كلاوديا: «أجل كيلين. وإياكم نسيان هانا».

سنضع هانا في الحسبان طبعاً، إذ كيف ننسى سعيها من أجل القصاص.

تنهد وودي وفرك وجهه ثمّ قال: «لقد قاد كيلين حراس الملك خلال فترة حكم أخي، إنه ذكي وشجاع، ووجدته مخلصاً حينها، ولم أتصور يوماً أنه سينقلب على جان أو أن يفعل ما فعله».

أشاحت ليا بوجهها عن وودي كما فعلت حين ألقيت التحية عليها، ولكنه غفل عن ذلك.

قلت: «إليك فكرتي: يجب أن نوقف قاتل الرحلة قبل اقترافه شيئاً أسوأ من الأمور الفظيعة التي اقترفها حتّى الآن، إذ أحال شعب المملكة رمادياً عن بكرة أبيه، باستثناء بعض الأفراد الكاملين والذين يحاول إبادتهم، ولكن أجهل كيف نتعامل مع الأمر، ومتى». بدا كلامي ضعيفاً في النهاية، وأوشكت أن أقول عبارة غير الشرعيين بدل الكاملين، والتي وصف بها والدي أحد زملائي في المدرسة الابتدائية والمدعو سكوتر ماكلين، إذ امتلك أذنين بارزتين قبيحتين.

أنهى آيوتا إطعام فلادا، ودس الكيس الفارغ في إحدى السلال المربوطة إلى خاصرتيها، وقال: «لا مشكلة في تحديد الوقت؛ يجب أن نتحرك نهاراً، لأن الفتيان الزرق يكونون ضعفاء حينها، وسيتبخرون مباشرةً تحت ضوء الشمس، أو هذا ما سمعته على الأقل»، والتفت إلى وودي.

قال وودي: «لقد سمعت ذلك أيضاً، ولكنني لا أستطيع التعويل على هذا الأمر كلياً»، وأخذ يكتب خلال كلامه شيئاً على الورقة ثمّ رفعه إلى كلاوديا، فشلت في رؤية ما كتبه، ولكن كلاوديا هزت رأسها وابتسمت.

«لا، لا، فهو يعجز عن فعل أمور أكثر قبل الذهاب إليها، وتقول الأسطورة إن عليه انتظار قبلة القمرين، وأنا أعتقد أن ذلك حقيقي».

التفتت ليا إلى أعلى، وبدت منسجمةً معنا للمرة الأولى، ثمّ نظرت إلى فلادا، فبدأت الفرس الكلام وسط ذهول آيوتا على أقل تقدير.

«لقد رأتهما سيدتي هذه الليلة عندما تباعدت الغيوم قليلاً، وقد أوشك بيلا أن يلامس أرابيلا».

مدّ وودي يده وربت ذراع كلاوديا كي يلفت انتباهها، وأشار إلى ليا، ثمّ إلى السماء، وحرك إصبعيه أمام وجه كلاوديا وكأن أحدهما يلاحق الآخر وأوشك أن يلمسه، فاتسعت عيناها واختفت ابتسامتها، والتفتت إلى ليا وقالت: «هل رأيت ذلك؟».

أومأت ليا.

التفتت كلاوديا إليّ وقد ارتسم على وجهها تعبير لم يسبق لي أن رأيته؛ لقد كانت خائفةً، وقالت: «الموعد غداً. عليك أن توقفه يا تشارلي. أنت الوحيد الذي تستطيع ذلك، يجب أن يُقتل قبل أن تُقبل أرابيلا أختها. للحيلولة دون فتحه البئر المظلمة مجدداً».

نهضت ليا بسرعة، وأخذت لجام فلادا وقادتها إلى الباب، وهنا رفعت رادار رأسها وأنّت، ثمّ تبعتها فرانا ولمست كتفها، ولكن الأخيرة انتفضت وأبعدتها.

وقفت كي أتبعها، ولكن كلاوديا قالت: «دعها، دعها وحدها، لقد فُطِر قلبها ويحتاج إلى وقت كي يشفى»، أعلم أنها قصدت شيئاً حسناً، ولكن نبرة صوتها المرتفعة جرّدت الكلمات من العاطفة، فأجفلت ليا منها.

توجهت إليها وقلت: «ليا، من فضلك أن تعو...».

دفعتني بقوة كبيرة أسقطتني أرضاً.

ثم غادرت متبعة صوتها المتجسد في هيئة فرس.

3

لقد تركنا الباب مفتوحاً نظراً إلى غياب الذئاب عن الأرجاء، ولذلك خرجت ليا من دون أن تضطر إلى فتحه. شيئاً فشيئاً ازداد عدد الرماديين، وركع كل منهم على إحدى ركبتيه ووضع يداً على جبهته فور رؤية ليا أمام

فرسها، وكنت متأكداً أنهم سينفذون أوامرها – هي أو الاثنان الباقيان من السلالة الملكية – إن أمرتهم أن يعاودوا الاستيلاء على المدينة أو يحاولوا ذلك.

لقد حدث ما حدث بسبب قدومي إلى هنا، وتلاشى أي جهد بذلته من أجل إنكار ذلك أمام حقيقة بسيطة واحدة: لقد اعتقدوا جميعاً أنني الأمير المنتظر، بمن فيهم وودي وكلاوديا، ولا أدري إن كانت ليا توافقهم، ولكن نصبني ذلك مسؤولاً عن حشد الثائرين المحتملين، ومن بينهم دورا.

أردت أن أتبع ليا، ولكن كلاوديا أمسكت بذراعي وقالت: «لا، ابقَ هنا. وستهتم فرانا بها».

قال وودي: «اطمئن يا تشارلي، واسترح إن استطعت، لا بد أنك مرهق».

شرحت له أن السجناء قد ينامون عند شروق الشمس بسبب بقائهم مستيقظين تماماً خلال حديثنا، كما أنه لا ضرر من النشاط إثر فورة الأدرينالين والفرحة الكبيرة بعد الخروج من السجن والابتعاد عن ملعب القتل.

أنصت وودي إليّ وأومأ، ثمّ كتب الملاحظة التالية إلى كلاوديا: اعتاد تشارلي ورفاقه الاستيقاظ ليلاً والنوم نهاراً. أدهشتني أناقة خطه وانتظامه رغم عجزه عن الرؤية. أومأت كلاوديا عندما فهمت الأمر.

«لقد أحبته وهذا ما يغضبها، أليس كذلك؟ إذ أخبرتني عندما التقيتها – عبر فلادا – إن إلدن أحسن إليها دوماً».

كتب وودي ما يلي على ورقة من دفتره ورفعها إلى كلاوديا: يريد أن يعرف عن (إ) و(ل)، ورسم إشارة استفهام تحتها.

صرخت كلاوديا: «أخبره ما تريد، فأمامنا ليلة طويلة، وهي الوقت المثالي من أجل رواية القصص، كما أنه يستحق معرفة ذلك».

قال وودي: «حسناً، كما تعلم يا تشارلي، لقد رغبت ليا في تصديق أن إلدن ميت لأنها ترفض، بل تعجز، عن تقبّل فكرة تحوله إلى قاتل الرحلة، إذ كانا مقربين جداً في طفولتهما، ويعود ذلك إلى كونهما آخر العنقود، وتعرضا إما إلى الإهمال أو المضايقة دوماً، حيث عانت ليا من كراهية أخواتها الكبار، درو وإيلي وجوي وفالا، لأنها الصغرى المدللة لدى والديهم، ولأن مظهرهن كان عادياً، وهي...».

صاحت كلاوديا، وقد قررت في النهاية أنها تستطيع قراءة الشفاه: «ما الذي يخبرك إياه؟ هل يتحدث بلباقة كما اعتاد أن يفعل خلال عمله في ظل حكم جان؟ لا،لا، أخبره الحقيقة يا ستيفين وودلي. كانت ليا جميلةً مثل صباح يوم صيفي، وكانت الأخريات قبيحات مثل والدهن، بينما كانت ليا صورة طبق الأصل عن والدتها.

لقد سمعت عبارة قبيحات ولكنها قالت شيئاً آخر، ولا أرى ضرورة أن إخبارك إنني استمعت حينها إلى حكاية خيالية أخرى، وجل ما كان ينقصها حذاء زجاجي.

قال وودي: «لقد كانت الفتيات يتكلمن بالسوء عن إلدن، فوصفنه بالقصير السمين، وصاحب القدم الميتة، والسيد الأحول، وصاحب الوجه الرمادي...».

«صاحب الوجه الرمادي؟ حقاً؟».

ارتسمت ابتسامة خفية على وجه وودي وقال: «لقد بدأت ترى جزءاً من انتقامه أليس كذلك؟ لقد ملأ الرماديون إمبيس منذ تولي إلدن قاتل الرحلة الحكم، وأخذ يقضي على الأشخاص المنيعين ضد لعنته، وسيقتل كل

فراشة كبيرة إن استطاع ذلك، فهو لا يريد أن تنبت الأزهار في حديقته بل الأعشاب فقط».

انحنى وودي إلى الأمام، واحتضن ركبتيه بيد وحمل دفتره بالأخرى.

«اكتفت الفتيات بالكلام، أمّا شقيقه روبرت فقد أوسعه ضرباً في كل مرة انفردا فيها من دون رقابة أحد باستثناء حاشيته الملكية من المتملقين، وقد كان وسيماً ولا يقارن بإلدن. لقد حظي روبرت بمحبة والديه واهتمامهما وما كانا يرفضان له طلباً، وبالمقابل أهملا إلدن. لقد كان الشقيق الأكبر ولي عهد جان وسيتولى العرش بعد وفاته أو تنحيه، وبالتالي لم يكن هناك من سبب ليغار من شقيقه أو يكره، ولكنه كرهه واشمأز منه... شخصياً، أعتقد أن هناك سبباً يجعلنا نحب أحدهم، وأعتقد أن الكراهية قد تحصل من دون سبب. لذا، يمكننا وصفها بأنها شر منفلت من عقاله ويجول حولنا...»، وعبس وودي.

التزمت الصمت، وفكّرت في شبيهي رومبيلستيلتسكين خاصتي: كريستوفر بولي وبيتركين؛ لماذا تكبد القزم عناء إزالة أثر الحروف الأولى التي كان من شأنها إخراجي من المدينة قبل وقت طويل من حلول الظلام؟ ولماذا خاطر بحياته –وخسرها– كي يكشف موقعي لريد مولي؟ هل لأنني تجاوزته في مسألة صرصار الليل الأحمر؟ أم لأنني طويل وهو قصير؟ في البداية، عجزت عن تصديق ذلك، ولكن الحقيقة أنه أقدم على هذه الأمور بسبب قدرته على فعلها ورغبته في افتعال المتاعب فقط.

دخلت فرانا، وهمست شيئاً في أذن وودي الذي أومأ وقال: «أخبرتني فرانا عن وجود كنيسة سليمة في الجوار، وأن ليا ذهبت كي تنام هناك برفقة دورا وبضعة أشخاص آخرين».

تذكرت أنه سبق لي رؤية كنيسة، وقلت: «خيراً فعلت، لا بد أنها متعبة»، ثمّ التفتت إلى كلاوديا، وأشرت إلى فرانا الواقفة عند الباب، ثمّ

أطبقت راحتي يدي على بعضهما، وأسندت رأسي إليهما.

«هل هي متعبة؟ نحن متعبون فقد اجتزنا مسافةً طويلةً جداً، واستغرق بعض أولئك الناس أياماً حتّى وصلوا إلى هنا».

قلت لوودي: «تابع من فضلك، لقد أخبرتني عن كره الفتيات لليا، وعن كره روبرت لإلدن...».

قال وودي: «لقد كره الجميع إلدن باستثناء ليا، وساد في القصر فكرة أنه سيموت قبل بلوغه عامه العشرين».

تذكرت ذلك الشيء اللزج الذي سال من فمه عندما كان يجلس في جناح الشخصيات المهمة، وتبدّل لون بشرته من الرمادي إلى الأخضر، فتساءلت عندها عن عمره، وعن ماهية الشيء الذي تموج تحت قفطانه الأرجواني المقرف... ولم أكن متأكداً من رغبتي في معرفة الجواب.

«لقد عانى إلدن وليا من كره أشقائهما، وأعتقد أنهم كرهوهما بسبب حبهما الصادق لبعضهما... وربما بسبب ذكائهما، فقد اكتشفا معاً تفاصيل القصر كاملةً انطلاقاً من قمم الأبراج المحظورة عنهما وحتى الأعماق، لقد خالفا الأوامر على أيّ حال».

«هل تقصد ديب مالين؟».

«ربما، وربما أعمق من ذلك، إذ توجد طرقات قديمة كثيرة تحت المدينة، ويعود تاريخ بناء بعضها لسنوات طويلة، ولا أعرف إن رافقته ليا عند ذهابه إلى البئر العميقة، فهي ترفض الحديث عن السنوات التي تلي طفولتهما، ولكنهما كانا يذهبان إلى أي مكان برفقة بعضهما، باستثناء مكتبة القصر، فقد كرهت ليا القراءة مع أنها ذكية، بينما كان إلدن قارئاً نهماً».

قال آيوتا: «وأراهن أن شقيقه سخر منه حيال ذلك أيضاً».

التفت وودي إليه وقال: «هذا صحيح يا صديق تشارلي، ليس روبرت فقط، بل شقيقاته أيضاً».

سألت كلاوديا: «ما الذي تخبره به الآن؟». كتب وودي ملخصاً قصيراً على دفتره، وأداره إلى كلاوديا التي قرأته ثمّ قالت: «أخبره عن إيلسا».

استقمت في جلستي وقلت: «هل تقصدين حورية البحر؟».

قال وودي: «أجل، إنها حورية بحر القصر، هل سبق لك أن رأيتها؟».

أومأت، وأردت كتمان أنني رأيت ما بقي منها فقط.

تابع وودي: «لقد سكنت في تجويف خفي صغير يشبه الكهف تقريباً، وأنا أتمنى أنها لا تزال سليمة هناك، ولكنني أشك في ذلك، فربما ماتت إثر الهجر، أو الجوع، وربما الحزن».

لقد ماتت حقاً، ولكن ليس بسبب تلك الأمور.

«اعتاد إلدن وليا إطعامها، وغنت من أجلهما أغنيات غريبةً ولكن جميلةً، ورددتها ليا أحياناً... وذلك عندما كانت تمتلك فماً كي تغني من خلاله».

مسحت على رأس رادار، التي نظرت إليّ وقد تمكن النعاس منها. لقد خضنا رحلةً قاسيةً معاً، ولكن تحسنت الأمور بالنسبة إليها؛ إذ حصلت على حياة جديدة رفقة أشخاص أحبوها، وقد جعلتني فكرة هروبها أفكر في نفسي عندما تلقيت خبر أنها على قيد الحياة.

سألت كلاوديا: «ما زلت أجهل كيف وصل صرصار الليل الأحمر إليكِ، هل جاء مع رادار؟ أخبريني عنه، إنه في هذا الحجم، ولماذا..»، ورفعت يدي أمامها وباعدت بينهما قبل أن تقاطع كلامي قائلةً: «هل نسيت أنني صماء يا تشارلي؟»، ونظرت إليّ ساخطة.

في الحقيقة، لقد غفلت عن ذلك، يمكنني القول إن شعرها انسدل في تلك الليلة على جانبي رأسها وغطى أذنيها، ولكن هذا غير صحيح، إذ نسيت أنها صماء فحسب، ولذلك أخبرت وودي كيف أنقذت صرصار الليل الأحمر من بيتركين، وكيف رأيته لاحقاً يخرج من ثقب في جدار الزنزانة حاملاً ملاحظةً ألصقت إلى بطنه، وفي داخلها بعض من شعر رادار، وكيف ألصقت ملاحظتي وأرسلتها معه اعتماداً على قول مأثور ذكره والدي: «توقع أي شيء، ولكن إياك أن تفقد الأمل».

قال وودي: «إنها نصيحة جيدة»، ثمّ بدأ يكتب على دفتره بسرعة وانتظام مدهش في الوقت نفسه. استعد الرماديون في الخارج من أجل النوم، وقد أحضر بعضهم بطانيات شاركوها مع الآخرين، ورأيت وراءهم فلادا تتناول العشب وقد ربط لجامها إلى عمود خارج الكنيسة.

أعطى وودي الدفتر إلى كلاوديا التي ابتسمت فور قراءة المكتوب، وبدت جميلةً حينها، وتحدثت في نبرة منخفضة أكثر بكثير من صوتها المرتفع المعتاد، وكأنها تتكلم إلى نفسها.

قالت: «يصعب تدمير السحر، إذ صمد رغم رغم الجهد الذي بذله إلدن بالنيابة عن الكائن الذي يخدمه – ولعله لم يصدق أنه مجرد أداة لديه، ولكنه كذلك بالتأكيد – وقد شهدت ذلك بنفسك، أليس هذا صحيحاً؟».

أومأت ومسحت على شعر رادار، التي كانت تُحتضر ولكنها عادت شابةً قويةً بعد دوراتها الستة على الساعة الشمسية.

«هذا صحيح، لقد صمد السحر. يدعو إلدن نفسه قاتل الرحلة الآن، ولكن رأيت بنفسك أن آلاف الفراشات الكبيرة، بل الملايين ما زالت على قيد الحياة، وربما توفيت إيلسا، ولكن نجا السناب بفضلك يا تشارلي».

اعتدل آيوتا في جلسته، وضرب على رأسه براحة يده الكبيرة وقال: «السناب؟ يا إلهي، كيف لم أتعرف إليه عندما رأيته؟».

«عندما جاء إليّ... أوه يا تشارلي... عندما جاء...».

شعرت أنها بدأت تبكي.

«أود أن أسمع مجدداً يا تشارلي. أتمنى لو أستطيع الإنصات إليها مرةً أخرى. صحيح أن صوتها ليس بشرياً، ولكنه رائع..».

نهضت رادار وهرولت صوب كلاوديا، التي وضعت رأسها قريباً من رادار، ومسحت على جانبيها من عنقها إلى ذيلها كي تطمئن، ثمّ اقترب وودي ووضع ذراعه حولها، وقد فكرت في فعل الشيء نفسه ولكنني تجنبت ذلك، إذ تملكني الخجل تماماً سواء كنت الأمير أم لا.

رفعت كلاوديا رأسها ومسحت دموعها عن وجنتيها بمعصمها، وتابعت الكلام في نبرة صوتها المعتادة.

«هل أخبرك ستيفن أن الحورية إيلسا غنت من أجل إلدن وليا؟».

قلت: «أجل»، ثمّ تذكرت أنها صماء فأومأت.

«لقد غنت من أجل أي شخص يريد الإصغاء إليها، ولكن وجب أن يصفي ذهنه من الأفكار الأخرى أولاً كي يستطيع سماعها، وقد عجز روبرت وشقيقات ليا عن الوصول إلى تلك المرحلة من السكون، ولكن إلدن وليا نجحا في ذلك، وسمعا أغانٍ جميلةً، أليس كذلك يا وودي؟».

قال: «أجل، لقد كانا كذلك»، ولكن تبينت من ملامح وجهه أنه لم يملك وقتاً كافياً كي يستمع إلى أغاني إيلسا أيضاً.

نقرت جبهتي، ثمّ انحنيت ونقرت جبهة كلاوديا، ورفعت يدي في علامة تساؤل.

«أجل يا تشارلي، ليست ذلك النوع من الأغاني الذي تسمعه عبر الآذان، إذ تعجز الحوريات عن الكلام».

رسمت بيدي إشارة القفز وقلت: «ولكن ماذا عن الصرصار؟ الـ... ماذا دعوته؟ سناب؟».

ما رأيك إن أرحتك من صوت كلاوديا الصاخب قليلاً؟ ليس صرصار الليل الأحمر مجرد سناب، بل الـسناب، وقد أطلقت عليه كلاوديا اسم ملك العالم الأصغر، واعتقدت أنها قصدت الحشرات (إذ قال بيتركين: «إنه مجرد حشرة لعينة)، ولكن أدركت أن سلطة السناب تشمل معظم المخلوقات التي رأيتها، مثل حورية البحر إيلسا، كما استطاع الكلام إلى البشر، فتحدث مع كلاوديا بعد مرافقة رادار إلى منزلها، وأخبرتني بدورها أن السناب قطع معظم الطريق يمتطي ظهر رادار، وقد شق عليّ تصور المشهد، ولكن فهمت السبب؛ إذ كان يتعافى من إصابة ساقه الخلفية في نهاية الأمر.

أخبرها السناب أن سيد الكلبة قتل في ليليمار أو احتجز في إحدى زنزاناتها، وسألها إمكانية فعله أي شيء من أجل المساعدة غير إيصال الكلبة سالمةً إليها، لأن ذلك الشاب أنقذ حياته ويجب أن يرد دينه، فقالت كلاوديا إنهم سيحتجزونني في ديب مالين إن كنت حياً، وعلم الصرصار سبيل الدخول إلى هناك.

قال آيوتا متعجباً: «لقد رأيت السناب من دون أن أتعرف إليه، سيسخرون مني بسبب ذلك».

قلت: «ولكنه لم يتحدث إليّ».

ابتسم وودي وسألني: «وهل أصغيت إليه؟».

بالطبع لا؛ إذ تطايرت الأفكار في ذهني حينها... مثل حال أشخاص كثر مروا جوار إيلسا من دون سماع أغنياتها، بسبب انشغالهم جداً عن الإنصات إليها، وينطبق هذا الكلام على أغنيات (وقصص كثيرة) حتّى في عالمي، أي أنها تخاطب العقول التي تصغي فقط.

فكّرت في أن حلماً حول مجفف شعر والدتي أنقذ حياتي، وكذلك صرصار ليل ملكي أحسنت إليه مرةً، هل تتذكر عندما قلت في البداية إن أحداً لن يصدق قصتي؟

4

سيطر التعب على وودي وكلاوديا، وأوشكت رادار أن تنام، ولكنني أردت معرفة شيء واحد إضافي: «ماذا قصدت ليا عندما ذكرت قبلة القمرين؟».

قال وودي: «لعل صديقك يستطيع إخبارك عن الأمر».

تحمس آيوتا جداً ليخبرني، إذ سمع قصة الأخوات السماويات خلال طفولته، وكما تعلم يا عزيزي القارئ؛ تترك قصص الطفولة الانطباعات الأعمق في أنفسنا ويدوم أثرها فترةً أطول من غيره.

حدق آيوتا إلى ندبات وودي وقال: «لقد رأى جميع الأشخاص البصيرين كيف يلاحق القمران بعضهما، وعلى الأقل قبل أن تغدو الغيوم كثيفةً وساكنةً إلى هذه الدرجة، إذ يتناوبان على المقدمة دوماً، وتفصل بينهما مسافة طويلة معظم الأوقات، ولكنها بدأت تقصر شيئاً فشيئاً».

لقد رأيت ذلك بنفسي عندما تباعدت الغيوم بضع مرات.

«سيتجاوز أحدهما الآخر في إحدى الليالي، وعندها سيقبلان بعضهما».

قال وودي: «لقد روى الحكماء قديماً أن القمرين سيصطدمان يوماً ما، ويتفتتا، وأشاروا إلى أن ذلك قد يحصل من دون أن يتلامسا، بل بتأثير جاذبية كل منهما في الآخر، كما يحصل في حياة البشر أحياناً».

بدا آيوتا غير مهتم بتلك الفرضيات الفلسفية، وقال: «قيل أيضاً إن في ليلة قبلة الأختين السماويتين تنطلق الشرور جميعها كي تعيث خراباً في

العالم... لقد منعنا خلال طفولتنا من الخروج في ليالي قبلة الأختين؛ إذ انتشر عواء الذئاب، وعويل الرياح، وليس ذلك فقط... بل صاح العالم كله وكأنه يتألم يا تشارلي»، ورمقني بنظرة حزينة جداً.

«ويستطيع إلدن فتح البئر العميقة عند حدوث ذلك؟ هل هذا ما تقوله الأسطورة؟».

التزم وودي وآيوتا الصمت، ولكنني عرفت الإجابة من القلق الذي ارتسم على ملامحهما؛ إنها ليست أسطورةً على الإطلاق.

«هل يعيش مخلوق ما في البئر العميقة؟ وهل هو ذاته الذي حوّل إلدن إلى قاتل الرحلة؟».

قال وودي: «أجل، وأنت تعرف اسمه وبالتالي تدرك أن مجرد لفظه يعد مخاطرةً».

كنت أعرف ذلك.

تحدثت كلاوديا بصوتها المرتفع الخشن الذي أفزع رادار، ففتحت عينيها ورفعت رأسها، ثمّ أنزلته مجدداً: «استمع إليّ يا تشارلي. سندخل المدينة غداً ونستولي عليها خلال فترة ضعف جنود الليل. ويجب عليك أن تعثر على إلدن وتقتله قبل أن يفتح البئر. وستقودنا ليا، فهي وريثة العرش الشرعية بعد إلدن، وهذه مهمتها... صحيح أنه عبء عليها... ولكن...».

لقد امتنعت عن إكمال كلامها، ولا بأس في تجنبها نطق اسم غوغماغوغ، الكائن المختبئ في البئر العميقة. لقد آمنت ليا أن شقيقها المحبوب الذي استمعت برفقته إلى أغنيات الحورية ليس قاتل الرحلة، ووجدت السبيل الأسهل في تصديق موته رغم كل الأمور التي سمعتها والمعاناة التي قاستها، واعتبار الوحش حاكم أطلال ليليمار وساكنيها الباقين مجرد محتال سرق اسم شقيقها، وبالتالي إذا اكتشفت أنه إلدن فعلاً،

وصادفته في مكان ما وسط متاهة الأنفاق وسراديب الموتى السفلية، فقد تتردد في تنفيذ مهمتها.

وتقتل كما حدث مع أقاربها الآخرين.

قالت كلاوديا: «أنت الأمير المنتظر، وتملك الحواس التي سرقت منها جميعها، إضافةً إلى شعر أدريان القادم من العالم السحري، وبالتالي يجب عليك أن تقتل إلدن قبل أن يفتح بوابة الجحيم تلك».

كسر وودي صمته وتحدث بهدوء، وصدمتني كلماته واحدةً تلو الأخرى، كما أنصت آيوتا وقد جحظت عيناه وفغر فاه من الدهشة.

انحنى إلى الأمام وقرّب وجهه عديم العينين من وجهي وقال: «إليك أسوأ الاحتمالات: من يدخل البئر العميقة قد لا يخرج منها مجدداً، وسيضع إلدن وجود عالمنا على المحك عند فتحها؛ أي ربما يتجاوز الأمر جعله رمادياً إلى تدميره تماماً، ومن يدري ماذا سيحدث بعد ذلك، قد يشمل الدمار إمبيس... بيلا... أرابيلا... هناك عوالم أخرى غير هذا العالم يا تشارلي».

هذا صحيح، ألست أنا من أحدها؟

أعتقد أن البرود انتابني في تلك اللحظة، إنه البرود نفسه الذي سيطر عليّ في أسوأ جولاتي مع بيرتي بيرد، وحين كسرت يدي بولي، وعندما رميت فخذ الدجاج ناحية كلا وقلت له: «سأوسعك ضرباً يا عزيزي»، ونفّذت كلامي من دون أن يرف لي جفن، وهذا يؤكد لي أنني لست أحد أمراء ديزني، ولعل هذا أمر جيد، فلا يحتاج شعب إمبيس إلى أمير من هذا النوع.

5

خلد وودي وكلاوديا إلى النوم، وكذلك مرافقيهما من الرماديين بعد أن عانوا من تعب الرحلة، فقد كان ينتظرهم في الغد يوم شاق، بل في الأيام القادمة، أما أنا فشعرت أنني في أعلى درجات يقظتي، ليس بسبب انقلاب

ساعات نومي واستيقاظي، بل لأنني كنت أفكّر في آلاف الأسئلة وأنتظر إجابتها، وأكثرها رعباً هو ما الذي قد يفعله غوغماغوغ عندما يخرج من البئر؟ وطاردتني فكرة إمكانية اقتحامه، كما سبق للصرصار العملاق أن فعل.

قلت في نفسي: «لقد بدأ الأمر من حشرة»، وأوشكت أن أضحك.

خرجت من المستودع، وسمعت أصوات شخير النائمين وتنهداتهم، إضافةً إلى إطلاق الريح المعتاد؛ فذكّرني بالليالي التي قضيتها في ديب مالين. استندت إلى حائط المستودع، ونظرت إلى السماء آملاً أن أرصد مسافةً بين الغيوم كي أرى منها نجمةً أو اثنتين، وربما بيلا وأربيلا، ولكنني لم أرَ إلا الظلام، الذي سيغدو رمادياً خلال النهار. تابعت فلادا تناول العشب خارج الكنيسة على الطرف الآخر من طريق المملكة، وألقت النيران الخافتة الضوء على أشخاص إضافيين نائمين هناك؛ وقدّرت أن إجمالي عدد الناس قد بلغ المئة الآن على الأقل، صحيح أن عددهم ليس كبيراً لوصفهم بالجيش، ولكنهم سيغدون كذلك.

تحركت الظلال إلى جانبي، فنظرت ورأيت رادار وآي اللذين جلسا أرضاً بجوار بعضهما، وحركت رادار أنفها بلطف وكأنها تستنشق عبير الليل.

سألته: «هل تعجز عن النوم؟».

«لا، لا، بل إنها ساعة جسدي المضطربة».

قلت في نفسي: «انضم إلى النادي».

«كم مرةً يظهر القمران في السماء؟».

فكّر آيوتا ثمّ أجاب: «ثلاث مرات كل ليلة على الأقل، وربما يظهران عشر مرات في بعض الأحيان».

وجدت ذلك غير منطقي، إذ جئت من عالم يسير وفق نظام زمني ثابت؛ أي يمكن تحديد مواعيد ظهور القمر وغيابه بدقة لفترات تصل إلى عشرة أعوام، أو خمسين عاماً، أو مئة عام، ولكن ليس في هذا العالم الذي يضم حورية بحر وصرصار ليل أحمر يدعى السناب، ناهيك عن قدرتهما على بث الأغاني والأفكار إلى عقول من يستمع إليهما.

«أتمنى أن تتاح لي فرصة رؤيتهما كي أُقدّر مدى قربهما من بعضهما».

«في الحقيقة لن تستطيع ذلك، ولكنك قد تستطيع تبين وهجهما عبر الغيوم خلال مرورهما، فهو يزداد مع اقترابهما من بعضهما، ولكن لماذا تكلف نفسك هذا العناء يا صديقي؟ هل تعتقد أن الأميرة تكذب حيال رؤيتهما؟».

هززت رأسي نافياً، إذ لا مجال للشك بعد رؤيتي للذعر الذي اعتلى وجه ليا.

فجأةً، سأل آيوتا: «هل صحيح أنك جئت من عالم سحري آخر؟ أنا أُصدق ذلك، لأنها المرة الأولى التي أرى فيها سلاحاً يشبه ما تضعه على خصرك... أو أحداً مثلك، وأشكر الرب أنني واجهت خصماً غيرك في الجولة الأولى من فير ون، وإلا ما كنت واقفاً هنا الآن».

«كنتَ لتقضي عليّ يا آيوتا».

«لا، لا، ربما لم أعتقد في البداية أنك الأمير، ولكن تبيّن أنك هو؛ أنت تحمل شيئاً صلباً وقوياً في داخلك مثل الطلاء القديم».

قلت في نفسي: «وبئري المظلمة الخاصة أيضاً، والتي يجب أن أحذر منها».

مسح آيوتا على رأس رادار بيده الكبيرة التي غطتها الندبات، وقال: «هل تستطيع إيجاده؟ أثق في قدرتنا على تدبير أمر جنود الليل الباقين نظراً

إلى ضعفهم نهاراً – وسيهرب رعايا إلدن المتملقين مثل الأرانب فيعكسون حقيقتهم، وسنقتلهم كما نقتلها – ولكن يبقى قاتل الرحلة، هل تستطيع العثور عليه إن ذهب إلى الأعماق؟ هل تملك، لا أدري... بعض...».

قلت في نفسي: «حدساً عنكبوتياً»، ولكن خرجت عبارة أخرى من فمي، وهي: «بعض حدس الأمراء؟».

ضحك آيوتا، ولكنه قال أجل، بمعنى أن هذا ما يقصده.

أجبته بالنفي.

«ماذا عن بيرسي الذي ساعدنا؟ هل يعرف طريقاً إلى البئر المظلمة؟».

فكّرت في الأمر، ثمّ هززت رأسي نافياً، وتمنيت أن لا يكون بيرسي قد قُتل، ولكنني شككت في ذلك، لأن كيلين سيعرف أن أحداً ساعدنا على الهرب، صحيح أنه سينسب إليّ فكرة استخدام دلاء المياه المميتة، ولكنه سيعرف أن أحداً سرّب لنا المعلومة بخصوص الباب الموجود خلف الخزانة، وإن كان بيرسي قد نجا من التعذيب ولم يمت، فأنا أشك في أنه يعرف الطريق إلى البئر المظلمة.

جلسنا في الظلام الدامس بعيداً عن وهج ما تبقى من النار، ولذلك أخرجت عود ثقاب آخر من أحد جوربيّ، ومررته على جانب المبنى، ثمّ قرّبته إلى وجهي أمام عيني بعد أن أرجعت شعري إلى الخلف وقلت: «ماذا ترى؟ هل ما زال لونهما بنياً فاتحاً؟».

انحنى آيوتا واقترب مني ثمّ قال: «لا، بل أزرق فاتحاً يا مولاي الأمير».

لقد توقعت ذلك، ثمّ أطفأت عود الثقاب وقلت: «نادني تشارلي... أما نسبةً إلى العالم الذي جئت منه... أعتقد أن العوالم كلها سحرية، ولكننا اعتدنا عليها فحسب».

«ماذا الآن؟».

«أنا سأنتظر، لك حرية الانتظار معي أو الدخول كي تنام قليلاً».

«سأبقى معك».

قال صوت من خلفنا: «ونحن أيضاً»، وعندما استدرت رأيت جايا وإيريس التي قالت: «ما الذي تنتظرانه يا مولاي الأمير؟».

قال آي: «ناده تشارلي لأنه يحب اسمه أكثر، مثل الأمراء المتواضعين في القصص».

«سنرى ما أنتظره، وربما لا، دعونا نبقَ هادئين الآن».

جلسنا هادئين وسط صوت صراصير الليل – ليسوا حمراً على الأرجح – المنبعث من بين الأعشاب وأنقاض الضواحي المنهارة عند أطراف المدينة، وتسلل الهواء المنعش إلى رئاتنا، ومنحنا إحساساً جيداً، مرّ بعض الوقت قبل أن تنتهي فلادا من تناول الأعشاب، واكتفت بالوقوف وإخفاض رأسها، فظننتها تأخذ غفوةً، أما رادار فاستسلمت للنوم سريعاً. بعد فترة، أشارت جايا إلى السماء، حيث مر ضوءان ساطعان سريعاً جداً خلف الغيوم الكثيفة، ومع أن الغيوم حجبتهما إلا أننا لاحظنا أن القمرين قريبان جداً من بعضهما لكنهما لم يتلامسا، أو يقبلا بعضهما، ثمّ عبرا السماء خلف أبراج القصر الثلاثة واختفيا، كانت مصابيح الغاز حول الملعب منطفئة، وكان الظلام مخيماً على المدينة، في الوقت الذي سيّر فيه جنود الليل الباقون دوريات خلف الأسوار.

مرت ساعة، ثمّ ساعتان، وصحيح أن ساعتي الداخلية مضطربة مثل آيوتا، ولكن لا بد أن شعاع ضوء النهار الأول قد أوشك على الظهور عندما حدث ما توقعت حدوثه؛ وما تمناه الجزء المظلم من طبيعتي. خرجت الأميرة ليا من الكنيسة مرتديةً بنطالها ومنتعلة حذاءها وحاملةً سيفها

القصير، لا شك أنها هي. بسرعة وقف آي وفتح فمه كي يتحدث، ولكنني وضعت يدي على صدره ورفعت إصبعي إلى شفتي، وراقبناها تفك لجام فلادا وتقودها صوب بوابة المدينة، وأبقتها خارج الطريق المرصوفة كي لا تصدر حوافرها أصواتاً توقظ ذوي النوم الخفيف، وبدت حين امتطت فلادا وكأنها شكل مظلم وسط الظلام.

وقفت وقلت: «لستم مضطرين لمرافقتي، ولكن لن أمنع أحداً من مرافقتي بعد كل ما مررنا به معاً».

قال آي: «أنا إلى جانبك».

قالت إيريس: «وأنا أيضاً».

واكتفت جايا بالإيماء.

قلت: «ستبقين يا رادار مع كلاوديا».

أنزلت رادار أذنيها، وتوقفت عن هز ذيلها، ورمقتني بنظرات التوسل.

قلت: «لا، إن حصتك رحلة واحدة فقط إلى ليلي».

قال آي: «ستسبقنا الأميرة يا تشارلي، كما أن البوابة الرئيسة مغلقة، وإن أردنا اللحاق بها...».

«لا يزال الوقت في صالحنا، لذا دعونا نمشي ببطء، فأنا أعرف أن لدى ليا رغبة جامحة في التأكد أن قاتل الرحلة ليس شقيقها، وستسعى لإنقاذ إلدن إن استطاعت إلى ذلك سبيلاً، إلا أنها ذكية وستنتظر حلول النهار كي تدخل المدينة، ولكن سنصل إليها قبل حدوث ذلك ونقنعها بالانضمام إلينا».

سألتني إيريس: «ولكن كيف ستفعل ذلك؟».

قلت: «لن أعدم وسيلة... لعل إلدن ينتظر قبلة القمرين قرب البئر المظلمة الآن، وعلينا الوصول إلى هناك وإيقافه في الوقت المناسب».

التزم الجميع الصمت.

قالت إيريس بصوت منخفض: «لن أعدم وسيلة».

سأل آيوتا: «ماذا سيحدث إن لم تكن ليا تعرف الطريق إلى البئر؟».

قلت: «عندها سيقضى علينا».

قالت جايا: «انظر يا مولاي الأمير، أقصد يا تشارلي». كانت تشير إلى ورائنا.

لقد تبعتنا، ورأتني أنظر إليها، فأسرعت كي توافينا، ركعت أمامها، وأمسكت رأسها بين يدي وقلت: «أنت كلبة مشاكسة. هلّا عدت أدراجك؟».

ولكنها اكتفت بالتحديق إليّ.

تنهدت ونهضت قائلاً: «حسناً، تعالي معنا».

مشت رادار قرب قدمي، وهكذا تابعنا نحن الأربعة، بل الخمسة مع رادار، طريقنا إلى مدينة الأشباح.

6

لاحت البوابة أمامنا عندما قفز شيء ناحيتنا من بين حطام أحد الأبنية على جانب الطريق الأيسر، فسحبت مسدس السيد بوديتش، ولكن ذلك الشيء وثب وثبةً كبيرةً (ومنحنيةً قليلاً) وحط على ظهر رادار قبل أن أستطيع رفع سلاحي حتى، ناهيك عن تصويبه. لقد كان السناب، والذي أدهشنا حضوره، باستثناء رادار التي سبق لها أن حملته، وبدت مستعدة لحمله مجدداً، فاستقر الصرصار على رقبتها وكأنه يراقب المحيط.

لقد أزعجني عدم رؤية ليا وفلادا أمام البوابة، عندما وقفت أفكّر في خطوتنا التالية، قفز السناب عن ظهر رادار واتجه إلى البوابة، ثمّ انعطف يميناً، فلحقت به رادار، ودفعته بأنفها (وبدا موافقاً على ذلك)، ثمّ التفتت إلينا كي ترى إن كنا سنتبعها.

وجدنا طريقاً مُعبّداً بين الحطام حيث نمت نباتات اللبلاب قرب الجانب الخارجي من الجدار، ولعله استخدم سابقاً من أجل الصيانة، فقادنا السناب عبره قافزاً بين الحشائش ومتجاوزاً بخفة قطع الطوب المتناثرة. رأيت بعد أقل من مئة خطوة شيئاً أبيض وسط الظلام، والذي أطلق صهيلاً؛ لقد كانت فلادا، وجلست الأميرة ليا إلى جوارها عاقدةً ساقيها منتظرة الفجر. رأت صرصار الليل أولاً، ثمّ رأت الآخرين، فوقفت مباشرةً أمامنا واضعةً يدها على مقبض سيفها ومباعدةً بين قدميها، وكأنها مستعدة من أجل الهجوم.

تحدثت فلادا، ولكنها لم تستخدم ضمير الغائب: «قادكم السيد سناب إليّ إذن، وها قد عثرتم عليّ، عودوا أدراجكم».

«من يرعى الإوزات في غيابك يا سيدتي؟».

ليست العبارة أو الأسلوب اللذين توقعتهما من تشارلي ريد القادم من سينتري في إيلينوي.

اتسعت عينا ليا، ثمّ تجعدت زواياهما قليلاً، ويصعب التأكد من حقيقة ملامحها من دون فمها، ولكنني أظن أن السؤال أذهلها وفاجأها، قالت فلادا: «يعتني بها جيداً خادما سيدتي المدعوان ويت وديكون».

قلت في نفسي: «كما في ديك ويتينتون».

قالت جايا: «هل تستطيع هذه الفرس...».

لكن ليا لوّحت لها كي تصمت، فتراجعت جايا إلى الخلف ونظرت إلى الأرض، ثمّ قالت فلادا: «لقد حصلت على إجابة عن سؤالك السخيف، والآن

دعنا وشأننا، هناك عمل مهم عليّ أن أَنجزه».

نظرت إلى وجه ليا المضطرب والجميل باستثناء الندبة مكان فمها، والقرحة القبيحة إلى جوارها.

سألتها: «هل تناولت الطعام؟ إذ يجب أن تكوني قويةً من أجل القادم يا سيدتي».

قالت فلادا: «لقد تناولت ما يكفي، والآن اذهب وهذا أمر»، لاحظت أن ليا تبذل جهداً كبيراً كي تخرج ذلك الصوت.

أمسكت يديها الصغيرتين مقارنةً بيديّ، وكانتا باردتين، وأرادت سحبهما، ولكنني شددت عليهما، ورغم محاولتها تقمص شخصية الأميرة المتكبرة التي تمسك زمام الأمور كي تبدو في هيئة جيدة، إلا أنني أحسست بخوفها الشديد.

«لا يا ليا، أنا من يجب أن يأمرك، فكما تعلمين أنا الأمير المُنتظر».

قالت فلادا: «لست أمير هذا العالم»، وهنا سمعت النقرات والغمغمة في حنجرة ليا، وتبينت أن كلامها المؤدب نابع عن الضرورة وليس الرغبة، وإن لم تكن مجبرة – وبقوة كبيرة – على الكلام عبر هذه الفرس، لمزقتني إلى نصفين، حيث غاب الذهول من عينيها وحل محله الغضب، إذ تعودت هذه المرأة التي أطعمت الإوز من مئزرها أن يطيعها الآخرون من دون أن يطرحوا أسئلة.

وافقتها قائلاً: «لا، لست أمير هذا العالم، أو ذاك الذي جئت منه، ولكنني قضيت أياماً طويلةً في السجن، وأجبرت على القتل، ورأيت رفاقي يُقتلون، هل تفهمينني يا مولاتي الأميرة؟ هل تدركين الحق الذي أملكه كي آمرك؟».

التزمت فلادا الصمت، وسالت دمعة من عين ليا اليسرى وشقت طريقها ببطء على وجنتها الناعمة.

«هلّا مشيت معي قليلاً من فضلك؟».

هزت ليا رأسها بقوة إلى درجة أن شعرها تطاير حول وجهها، وحاولت مجدداً سحب يديها ولكنها أحكمت إمساكهما.

«لا تزال تفصلنا ساعة على الأقل على ظهور أشعة الضوء الأولى، ويعتمد عالمك كله على الأشياء التي نقولها إلى بعضنا، كما أن عالمي على المحك أيضاً، ولذلك رافقيني من فضلك».

أفلتت يديها، وأخرجت أحد عيدان الثقاب الباقية في جوربي، وأبعدت بعض نباتات اللبلاب جانباً عن الجدار، ومررت عود الثقاب على إحدى صخوره الخشنة، وقرّبته من وجهي كما فعلت مع آيوتا، فوقفت ليا على رؤوس أصابعها كي تستطيع النظر إليّ، واقتربت مسافةً تكفي كي أقبّل هلالها المقلوب.

قالت فلادا: «إنهما زرقاوان».

تمتمت إيريس: «تستطيع هذه الفرس الكلام».

همس آيوتا أيضاً: «لا، لا، إنها الأميرة». لقد أذهلهما ذلك، وأنا أيضاً، ولم لا؟ إذ ملأ السحر ذلك المكان وجعلني جزءاً منه أيضاً، وقد أخافني الأمر في الوقت نفسه بعد أن تجردت من شخصيتي وأصبحت رفيع الشأن.

«تعالي يا سيدتي، علينا أن نتحدث، تعالي من فضلك».

وافقت ليا.

مشينا على الطريق قليلاً بعيداً عن الآخرين تحت السماء المظلمة ووسط نبات اللبلاب الذي غطى الجدار إلى يسارنا وحطام الأحياء المنهارة إلى يميننا.

قلت: «يجب أن نوقفه، قبل أن يتسبب بكارثة فظيعة».

مشت رادار إلى جوارنا وتشبث السناب بعنقها، والذي تحدث بلسان ليا هذه المرة، وكان صوتها أوضح كثيراً مما يكون عليه عند الحديث عبر فلادا: «إن قاتل الرحلة ليس شقيقي، فإلدن الذي أعرفه لطيف محب، وأنا متأكدة أن أفعالاًشنيعةً كهذه خارج قاموسه تماماً».

قلت في نفسي: «يتغير الناس دوماً، كما حدث مع والدي، ومعي عندما كنت برفقة بيرتي، وأذكر سؤال نفسي عن سبب اقتراف شخص جيد مثلي تلك الأفعال القذرة».

قال السناب: «إن كان حياً، فهو مسجون في مكان ما، ولكنني لا أعتقد ذلك، بل هو ميت مثل سائر أفراد عائلتي».

قلت: «وأنا أوافقك الرأي»، وهذا صحيح تماماً، إذ مات إلدن الذي عرفته واكتشفت معه الممرات السرية في القصر، واستمعت برفقته إلى أغنيات الحورية، لم يبقَ منه الآن سوى دمية غوغماغوغ.

توقفنا، وتحركت حنجرتها عندما تحدث السناب؛ لقد أتعبها أسلوب الكلام هذا كثيراً رغم أن نيابة السناب عنها مناسبة تماماً، ولكنها كانت مضطرة للتعبير عما كبتته في نفسها ردحاً من الزمن.

«سأحرره إن كان سجيناً، وأنتقم له إن كان ميتاً، وأبطل اللعنة الملقاة على هذه الأرض الحزينة، إنها مهمتي وليست مهمتك يا ابن أدريان بوديتش».

لست ابنه بل وريثه فقط، ولكن بدا الوقت غير ملائم كي أخبرها ذلك.

«أثق أن قاتل الرحلة ذهب إلى البئر المظلمة يا مولاتي الأميرة، وسينتظر هناك قبلة القمرين كي ينفتح الطريق أمامه، هل تستطيعين إيجادها؟».

بدت مترددة عندما أومأت.

«هل ستقودينا إلى هناك؟ فنحن لا نستطيع الوصول إلى هناك من دونك، هل ستفعلين ذلك إذا وعدتك أن أترك مصير قاتل الرحلة بين يديك عند مواجهته؟».

التزمت ليا الصمت طويلاً؛ لقد شكت في صدق وعدي، ولها الحق في ذلك، وما أدراها أنني سأحترم رغبتها في ترك إلدن حياً إن تعرفت إليه وعجزت عن قتله رغم وضعه الحالي؟ فكرت في وجه دورا المشوه وقلبها النزيه، وفي شجاعة بيرسي التي أعتقد أنه دفع ثمنها غالياً حينها، وتذكرت اللاجئين الرماديين الذين رأيتهم يشقون طريقهم من سيفرونت إلى ملجأ آمن شككت في وجوده. ولكن هؤلاء الناس المصابين والملعونين في كفة، وقلب الأميرة الرقيق في كفة أخرى، وما من طريقة لإقامة التوازن بينهما.

«هل ستعد ليا غالين شيئاً كهذا؟».

أعتقد أن السناب تحدث بنفسه حينها وليست ليا مستخدماً ضمير الغائب، ولكنني أظنها أرادت معرفة الأمر نفسه.

«أجل».

قالت: «هل تقسم بروح والدتك التي قد تذهب إلى الجحيم إن أخلفت وعدك؟».

قلت من دون تردد: «أجل»، ووجب أن أنفذ ذلك الوعد، فقد اعتقدت أن ليا ستقتل إلدن بنفسها عندما ترى ما تحوّل إليه، وإلا سأعطي مسدس السيد بوديتش إلى آيوتا، وأعلم أنها ستكون المرة الأولى التي يستخدم فيها

سلاحاً كهذا، ولكن تشبه المسدسات آلات التصوير الرخيصة؛ جل ما عليك فعله أن تصوب وتضغط.

«وهل سيتبع أصدقاؤك ليا، ويطيعونها؟».

لعل الآخرين سيطيعون أوامر ملكة إمبيس المستقبلية إن طلبت منهم العودة، ولكنها أدركت أنني سأتبعها على أيّ حال، وهي التي سبق لها أن قالت عبر فلادا إنني لست أمير هذا العالم، وبالتالي لست مجبراً على طاعتها.

شيئاً فشيئاً، أضاءت السماء فوقنا، فنظرنا إلى الأعلى، وهذا ما فعلته رادار والسناب، ورأينا جرمين سماويين يتوهجان خلف الغيوم؛ اقترب القمران كثيراً من بعضهما حتّى بدا شكلهما مثل رقم ثمانية مستلق إلى أحد جانبيه، أو رمز اللا نهاية، وعبرا في غضون ثوانٍ خلف أبراج القصر وخيّم الظلام مجدداً.

قال السناب: «أوافق على شروطك، ولكن يكفينا كلاماً من فضلك، إنه مؤلم».

قلت: «أعلم، وأعتذر عن ذلك».

ناحت رادار ولعقت يد ليا، التي انحنت إليها وداعبتها بعد أن أبرمنا الصفقة.

الفصل الثامن والعشرون

إلى داخل المدينة- صوت الحداد- هانا- إنها من غنت مرةً-الذهب- المطبخ- غرفة الاستقبال- يجب أن نصعد كي ننزل.

سارت ليا أمامنا إلى حيث انتظرنا الباقون، وجلست مجدداً ولم يقل السناب أو فلادا شيئاً. نظر آيوتا إليّ، فأومأت؛ لقد أبرمنا صفقةً. جلسنا معها وانتظرنا انبلاج ضوء الفجر، ثمّ انهمر مطر خفيف ولكن مستمر، فأخرجت ليا عباءةً من الحقيبة الوحيدة المرفقة بسرج فلادا، ووضعتها على كتفيها وأشارت إلى رادار، فنظرت كلبتي إليّ تنتظر موافقتي، ثمّ اقتربت من ليا، وبدوره انضم السناب إليهما، واحتمى ثلاثتهم من المطر الذي بللنا – نحن السجناء – وثيابنا الممزقة التي هربنا فيها من السجن، ثمّ ارتجفت جايا من البرد فعانقتها إيريس، وأخبرتهما أنهما يستطيعان العودة، ولكنهما رفضتا ذلك، بينما بدا أن آيوتا منسجم مع الوضع، فجلس حانياً رأسه وشابكاً يديه مع بعضهما.

مر الوقت، وفي اللحظة التي رفعت فيها رأسي أدركت أنني أستطيع رؤية ليا، فأشرت بيدي كي أسألها شيئاً، ولكنها اكتفت بهز رأسها، ومضى وقت أكثر حتّى أشرقت شمس ذلك اليوم المطير، فنهضت ليا على قدميها، وربطت لجام فلادا إلى قضيب حديدي بارز من بقايا جدار حجري في الحطام، واعتلى السناب ظهر رادار مجدداً، ومشت ليا ببطء على الطريق ولم تلتفت إلى الخلف كي تتأكد إن كنا نتبعها أم لا، وبحثت بين عرائش اللبلاب الكثيفة بين الفينة والأخرى، ثمّ توقفت بعد خمس دقائق تقريباً، وبدأت تقطعها في مكان محدد، وعندما تقدمت كي أساعدها، هزت رأسها؛ لقد أبرمنا اتفاقاً، ولكن بدت مستاءةً بوضوح حياله.

أبعدت المزيد من اللبلاب كي تكشف عن باب صغير مخبأ خلفه من دون مزلاج أو مقبض، فأشارت إليّ ثمّ إلى الباب، وعجزت عن تفسير ما أرادته مني، ثمّ فهمت قصدها.

قلت: «افتح باسم ليا غالين»، فانفتح الباب.

دخلنا المبنى الذي يشبه الحظيرة من الداخل، وملأته أدوات الصيانة القديمة، مثل المجارف، والمعاول، والعربات اليدوية، وغطتها جميعها طبقة غبار كثيفة كما غطت الأرضية التي لم يكن عليها آثار أقدام سوى آثار أقدامنا، ولاحظت وجود واحدة أخرى من تلك العربات التي تشبه الحافلات الكهربائية، فنظرت داخلها كي أجد بطاريةً متآكلة جداً تحولت إلى كتلة خضراء اللون، وتساءلت عن مصدر هذه العربات الصغيرة – وجدت اثنتان منها، وأمكن تشغيل إحداهما؛ هل أحضر السيد بوديتش الأدوات من عالمنا واحدةً تلو الأخرى وجمعها هنا؟ لم أجد إجابةً عن هذا السؤال، وجل ما عرفته أن النظام السائد حينها أهمل انتظام ليليمار وترتيبها، وصب اهتمامه على الرياضات الدموية.

قادتنا ليا إلى الخارج عبر باب في الطرف البعيد من الحظيرة، فوجدنا أنفسنا وسط ما يشبه ساحة الخردة المملوءة بالعربات المفكوكة، وأكوام من أعمدة الطاقة، وحزم هائلة متشابكة من أسلاك العربات، فمررنا بين تلك الأدوات عديمة الفائدة وصعدنا مجموعةً من الدرجات الخشبية، ودخلنا غرفة عرفتها والهاربون الآخرون مباشرةً: مركز الحافلات.

مشينا عبر المحطة الرئيسية وعندما رن جرس الصباح مرة واحدة تردد صداه في الأرجاء، فتوقفت ليا حتّى خمد الصوت تماماً، ثمّ تابعت طريقها ولم تنظر خلفها، وتردد صدى خطواتنا في القاعة، فرفرفت مجموعة الخفافيش العملاقة أجنحتها ولكن التزمت مكانها في السقف.

قالت إيريس بصوت منخفض: «لقد غادرنا هذا المكان في المرة الماضية، وها نحن نعود إليه الآن. أملك حساباً كي أصفيه مع تلك الوضيعة».

التزمت الصمت لأنني وقتها كنت أُفكر في شيء آخر.

خرجنا إلى المطر مجدداً، فنزلت رادار درجات مركز العربات الخشبية وتجاوزت أحد الأعمدة الحمراء والبيضاء وتمثال الفراشة الحجري فوقه،

وبدأت تشم شيئاً وسط نبات العليق، فلاحظت أحد حزامي حقيبتي المرمية هناك، ثمّ سمعت صوتاً فاجأني تماماً ولكن تعرفت إليه مباشرةً؛ هرولت رادار إليّ حاملةً دمية القرد المطاطية خاصتها ذات الصوت، وألقتها قرب قدمي، والتفتت إليّ وهي تهز ذيلها.

قلت: «كلبة لطيفة»، وأعطيت الدمية إلى آي؛ إذ امتلك جيوباً في ملابسه. كان الطريق الواسع المؤدي إلى القصر مهجوراً ولكنه لم يكن فارغاً؛ إذ أزالوا جثة ريد مولي، ولكن ملأته عظام من لاحقنا من جنود الليل وتناثرت على مسافة أربعين ياردةً، وغطت معظمها أكوام الفراشات الكبيرة الميتة.

وقفت ليا في نهاية الدرجات، وانتصبت في مكانها وكأنها تصغي إلى شيء ما، فانضممنا إليها، واستطعت سماعه أيضاً: كان مثل أنين مرتفع يشبه صوت الرياح عندما تعصف إلى جوار حواف الأسطح في ليالي الشتاء، وقد تعالى وخمد مراراً وتكراراً ثمّ تحول إلى صيحة قبل أن يعود أنيناً مجدداً.

همست جايا: «يا إلهي، ما هذا؟».

قلت: «إنه صوت الحداد».

سأل آيوتا: «أين ذهب السناب».

هززت رأسي وقلت: «لعله يكره المطر».

سارت ليا على طريق غالين ناحية القصر، ولكن وضعت يدي على كتفها وأوقفتها قائلاً: «يجب أن نذهب من الخلف فنصل إلى ساحة اللعب، ولكن أجهل الطريق إلى هناك لأن قزماً لعيناً يدعى بيتركين مسح علامات السيد بوديتش، ولكن أراهن أنك تعرفين كيفية الوصول إلى هناك».

وضعت ليا يديها على خصرها النحيل، وحدقت إليّ ساخطةً، ثمّ أشارت إلى صوت نحيب هانا على ابنتها، ورفعت يديها عالياً فوق رأسها كي أفهم

قصدها في حال كنت غبياً.

قال آيوتا: «إن الأميرة محقة يا تشارلي، لماذا نسلك ذلك الطريق ما دمنا نستطيع تفادي مواجهة الوضيعة الكبيرة عبر الدخول من الباب الأمامي».

فكرت في هذه النقطة، ولكن ارتأيت وجود أمور أخرى أهم منها، فقلت: «لأنها تتناول لحم البشر، وأنا متأكد أنه سبب طردها من أرض العمالقة، أو أياً كان اسمها هنا، هل تفهمين ذلك؟ إنها تتناول لحم البشر، كما أنها تخدمه».

حدقت ليا إلى عيني، وأومأت ببطء شديد، وأشارت إلى المسدس الذي أحمله.

قلت: «أجل، ويوجد سبب آخر يا مولاتي، يوجد شيء أريدك أن تريه».

3

قطعنا مسافةً قصيرةً من طريق غالين، ثمّ انعطفت ليا يساراً إلى طريق فرعي لا يتجاوز كونه زقاقاً، ثمّ قادتنا عبر متاهة من الشوارع من دون أن تتردد خلال سيرها أبداً، وتمنيت أنها تدرك ما تفعل؛ إذ مضت سنوات كثيرة على قدومها إلى هنا، ولكننا نستطيع أن نتبع صيحات هانا المفجوعة على أيّ حال.

مشت جايا وإيريس إلى جواري، وبدت الأولى متجهمةً، بينما اعترى الخوف الشديد الأخرى، وقالت: «إن الأبنية تتحرك، أعلم أن هذا جنون، ولكنني أراها تتغير من طرف عيني في كل مرةً أشيح ناظري عنها».

قال آي: «وأعتقد أنني أسمع أصواتاً أيضاً، يبدو هذا المكان... لا أدري... وكأن الأشباح تسكنه».

قلت: «لأنه كذلك، وسنطردها من هنا، أو نموت ونحن نحاول».

سألت إيريس وسط عويل هانا الذي أخذ يعلو شيئاً فشيئاً: «ماذا قلت؟».

قلت: «لا تهتمي، شيء واحد في كل مرة».

قادتنا ليا عبر زقاق ضيق جداً إلى درجة شعرت وكأننا ننسل من شق صغير، واستطعت رؤية بعض حجارة جدران الأبنية القريبة من بعضها وهي تتحرك في مكانها إلى الأمام والخلف وكأنها تتنفس.

خرجنا إلى شارع تعرفت إليه مباشرةً؛ إنه الجادة التي تتوسطها الجيرة الوسطية المزروعة بالأعشاب، واحتل جانبيها ما كان سابقاً متاجر متنوعةً تلبي حاجات أفراد العائلة الملكية ومتملقيهم، ولمحت آيوتا يمد يده كي يلمس (أو يقطف) واحدةً من الأزهار الصفراء العملاقة، ولكنني أمسكت معصمه وقلت: «أنصحك أن تتجنب ذلك يا آي، لأنها قد تعضك».

التفت آي إلي وسألني: «حقاً؟».

«أجل».

استطعت أخيراً رؤية قمم منزل هانا الهائل المطل على الشارع، فاتجهت ليا حينها إلى اليمين وبدأت تمشي خفيةً بمحاذاة واجهات المتاجر المحطمة، ونظرت عبر قطرات المطر إلى الساحة المهجورة ونافورتها الجافة، وقد أصبح نحيب هانا عالياً جداً وغير محتمل في كل مرة تصرخ بعد تنهدها، أخيراً نظرت ليا إلى الخلف، وأشارت إليّ كي أتقدم، وربتت الهواء بإحدى يديها، وكأنها تقول: «تعال ولكن بهدوء».

انحنيت إلى رادار، وهمست لها أن تلتزم الصمت، ثمّ انضممت إلى الأميرة.

تربعت هانا على عرشها المرصع بالجواهر دون أغانيها عن المحبوب جوي في ذلك الصباح، وكانت تضع جثة ابنتها في حضنها، والتي تدلى رأسها على أحد جانبي العرش، وساقاها على الجانب الآخر، ومسحت على شعر ريد مولي البرتقالي المنتصب، ورفعت وجهها المترهل إلى السماء تحت قطرات المطر وصرخت مجدداً، ثمّ وضعت إحدى ذراعيها الثخينتين تحت عنقها، ورفعت رأسها، وقبّلت جبهتها وبقايا فمها الملطخ بالدماء.

أشارت ليا إلى هانا، ثمّ إليّ وبسطت يدها، وكأنها تقول: «وماذا الآن؟».

قلت في نفسي: «راقبي ما سيحدث»، وبدأت أمشي عبر الساحة ناحية عرش هانا، واضعاً إحدى يدي على مسدس السيد بوديتش، ولم ألحظ أن ردار بالقرب مني حتّى بدأت تنبح بقوة من أعماقها، وتزمجر خلال كل شهيق تأخذه، ما لفت أنظار هانا إلينا ورأتنا قادمين.

قلت: «حافظي على هدوئك يا رادار، وامشي إلى جانبي».

وضعت هانا جثة ابنتها جانباً كي تسقط إحدى يديها في كومة من العظام الصغيرة، ثمّ نهضت وصرخت عالياً وسط موجة من الغضب: «أنت... أنت».

قلت: «هذا أنا، هذا صحيح، ولكنني الأمير المنتظر، ولذلك اركعي أمامي وتقبلي قدرك».

توقعت أنها ستتجاهل كلامي تماماً، وأصبت في ذلك؛ إذ اندفعت ناحيتي في خطوات واسعة، والتي تكفي خمسة منها كي تمسكني، فانتظرت حتّى الثالثة لأنني أردت أن أصيب الهدف مباشرةً، وذلك دون أي خوف، حيث سيطر الظلام عليّ، وكان قاسياً ولكن واضحاً، وأعتقد أن هذه مفارقة، ولكنني أؤيدها. استطعت رؤية ذلك الصدع أحمر الحافة الذي احتل منتصف جبهتها، وتريثت حتّى اقتربت إلى حدّ أنها حجبت عني السماء كلها

وهي تصرخ شيئاً عجزت عن فهمه، فأطلقت رصاصتين، وكان المسدس من عيارة 0.45 مقارنة بالمسدس عيار 0.22 أقرب إلى البندقية فقد تشكلت وهدة مكان بثور جبهتها كما يحدث عندما يدوس أحدهم بحذائه الثقيل على قشرة ثلجية، وتطايرت خصلات شعرها البنية إلى الخلف، وتناثرت الدماء، وانفتح فمها كاشفاً عن أسنان ملوثة لن تمزق لحم الأطفال أو تمضغه بعد الآن.

ارتفع ذراعا هانا ناحية السماء الرمادية، وهطل المطر على أصابعها وسط رائحة البارود القوية واللاذعة، ثمّ ترنحت في نصف دائرة، وكأنها تريد إلقاء نظرة أخيرة على محبوبتها الراحلة قبل أن تسقط أرضاً، فاهتزت الأرض تحت قدمي إثر ذلك الاصطدام.

هكذا سقطت العملاقة هانا حارسة الساعة الشمسية، والبركة، ومدخل ملعب الفراشات خلف قصر ليليمار.

4

وقف آيوتا أمام الجناح الأيمن من منزل هانا حيث المطبخ، وإلى جواره رجل رمادي خسر كل ملامح وجهه تقريباً؛ بدا وكأن اللحم خرج من جمجمته وتدلى إلى الأسفل مغلفاً إحدى عينيه وأنفه كله، وقد ارتدى سترةً بيضاء ملطخةً بالدماء وبنطالاً أبيض، وفرضت أنه طباخ هانا – أو كان كذلك، وقد أطلقت عليه اسم الوغد المخصي، ولكن حسابي ليس معه، بل مع من يقطن القصر.

ولاحظت أن حساب ليا مع هانا لما ينته بعد، إذ استلت سيفها ومشت ناحية جثة العملاقة حيث سالت الدماء حول رأسها بين الصخور.

تقدمت إيريس وأمسكت ذراع ليا، فالتفتت إليها وقد قالت ملامح وجهها بوضوح: «كيف تجرئين على لمسي؟».

«لا يا سيدة غالين، لا أقصد أن أقلل من احترامك، ولكن أطلب منك الانتظار قليلاً من أجلي، أرجوك».

بدا أن ليا تفهمت الأمر، وتراجعت قليلاً.

اتجهت إيريس إلى العملاقة، وباعدت قدميها كي تقف فوق إحدى ساقي هانا الضخمتين المفلطحتين، ثمّ رفعت تنورتها القذرة، وتبولت على فخذ هانا الأبيض الهامد، ثمّ عادت أدراجها وقد انهمرت الدموع على خديها، ونظرت إلينا.

«لقد سافرت جنوباً من قرية وايفا التي لم يسبق لأحد أن سمع بها... ولن يحدث ذلك مستقبلاً لأن هذه السافلة الشريرة دمرتها وقتلت العشرات من ساكنيها، ومن بينهم والدتي وجدي، والآن تستطيعين فعل ما تريدينه يا سيدتي»، وانحنت احتراماً أمام ليا.

ذهبت كي أقف إلى جانب آيوتا والطباخ المرتعش، ووضع كلاهما راحة يده على جبهته عندما رؤيتي، وقال آي: «سأذكر ما حييت كيف قتلت عملاقتين وليس واحدةً فقط، وكيف تبولت إيريس على هانا، وقد فوجئت أن كلبتك لا تريد فعل الأمر نفسه».

وقفت ليا بجانب العملاقة، ورفعت سيفها عالياً، وضربتها به ثلاث مرات فقط كي تفصل رأسها عن جسدها؛ صحيح أن الأميرة وريثة العرش، ولكنها مارست أعمال المزارعين في المنفى، وهذا ما عزز قوتها.

انحنت ليا ومسحت نصل سيفها بقطعة قماش من تنورة العملاقة الأرجوانية، وأعادته إلى غمده، ثمّ اتجهت إلى آيوتا فانحنى وحياها، وعندما نهض، أشارت إلى جثة العملاقة التي بلغ طولها عشرين قدماً، ثمّ إلى النافورة.

قال آيوتا: «سمعاً وطاعةً يا سيدتي».

اتجه إلى الجثة، واحتاج استعمال كلتا يديه رغم قوته وحجمه الكبير كي يرفع رأسها، وأرجحه إلى الأمام والخلف وهو يحمله إلى النافورة وقد نظرنا إليه جميعاً باستثناء إيريس؛ التي أجهشت بالبكاء بين ذراعي جايا.

صرخ آيوتا وتمزق قميصه من الجانبين عندما رفع الرأس وألقاه في النافورة، ونظرت عينا هانا المفتوحتان إلى قطرات المطر المتساقطة، مثل التمثال الذي رأيته على طريقي إلى هذا المكان.

5

تقدمت المجموعة على أحد طرق دواليب الهواء، ومشينا حتّى لاح جانب القصر الخلفي أمامنا، وقد لاحظت أنه حي مجدداً، لعل النعاس تملكني ولكن بقيت قادراً على الرؤية، وأقسم إن بعض أبراجه قد غيّرت أماكنها، وكذلك الأمر نسبةً إلى السلالم المتقاطعة وأسوار الشرفات التي بدت حجريةً لوهلة، وزجاجيةً خضراء ذات أشكال سوداء ملتوية لوهلة أخرى، وفكرت في قصيدة القصر المسكون بقلم إدغار ألان بو والتي قال فيها:

يمر جمهور بشع مسرعاً على الدوام.

يريد أن يضحك ولكنه لا يعرف الابتسام.

وجدت حرفيّ اسم السيد بوديتش الأولى في مكانها، وكان النظر إليهما مثل لقاء صديق في المكان الخطأ، ثمّ وصلنا إلى أبواب التحميل الحمراء والعربات المحطمة المزدحمة أمامها، وتلتها الدعامات الخضراء الداكنة العالية، وقد التففت حولها وتبعني الجميع من دون أي اعتراض منهم رغم استغراق رحلتنا وقتاً أطول قليلاً.

قال آيوتا: «هل تسمع كيف يزداد عدد الأصوات؟».

قلت: «أجل».

«من أين تأتي؟ هل هم العفاريت أم الأموات؟».

«أعتقد أنها عاجزة عن إيذائنا، ولكن أشعر بوجود طاقة سيئة هنا».

نظرت إلى ليا التي حرّكت يدها اليمنى في شكل دائرة، وأدركت أنها تقول: «أسرعوا»، وفهمت قصدها؛ علينا أن نستغل ضوء النهار قدر الإمكان، ولكن أردت أن أريها شيئاً مهماً، لأن رؤية ذلك المشهد يمثل بداية فهم الحقيقة التي أنكرتها طويلاً، والسبيل إلى تقبّلها.

6

انتهى الطريق المتعرج قرب البركة الواقعة وسط حلقة أشجار النخيل ذات الأوراق المنحنية بسبب قطرات المطر، واستطعت رؤية القطب العلوي في مركز الساعة الشمسية، ولكن الشمس تنحت عنه واحتلت الطرف المقابل بسبب رحلة رادار فيها، وتربع عليه قمرا إمبيس اللذان امتلكا وجهين وعيوناً تحركت بدورها... كي تنظر إلى بعضها، وكأنها تقدر المسافة الفاصلة بينهما، ورأيت علامة السيد بوديتش الأخيرة، وهي حرفا اسمه (أي بي)، ورسم سهم من قمة الحرف (أي) مشيراً إلى الساعة الشمسية مباشرةً.

والبركة.

نظرت إلى مجموعتي الصغيرة وقلت: «هلّا تفضلت معي يا سمو الأميرة؟ وابقوا جميعاً هنا حتّى أناديكم، وأنت كذلك يا رادار».

وافق الجميع من دون أسئلة أو احتجاج.

مشت ليا إلى جواري، واتجهنا إلى البركة، وأشرت إليها كي تنظر فيها، وترى ما بقي من الحورية الراقدة في قاع المياه الملوثة بالعفن، وقد برز عود الرمح من بطن إيلسا ومعه جزء من أمعائها الملتفة.

أصدرت ليا تأوهاً كان سيستحيل صرخةً قويةً إن استطاعت إخراجه، ووضعت يديها على عينيها قبل أن تنهار على أحد المقاعد حيث جلس الإمبيسيون ربما بعد رحلاتهم من بلداتهم وقراهم كي يتأملوا تلك الحورية الجميلة وهي تسبح في المياه، أو يستمعوا إلى أغنية تغنيها. انحنت ليا على فخذيها وسط أنين مكتوم وجدت فيه ألماً وفاجعةً أكبر منها في شهقات الحزن الحقيقية، فوضعت يدي على ظهرها، وخشيت فجأةً أن عجزها عن الصراخ حزناً قد يقتلها، كما قد تعلق لقمة طعام في حلق شخص سيئ الحظ فيختنق ويموت.

أخيراً، رفعت ليا رأسها ونظرت إلى بقايا إيلسا الرمادية الباهتة مجدداً، ثمّ نظرت إلى السماء، وسالت الدموع وقطرات المطر معاً على وجنتيها الناعمين وصولاً إلى ندبة فمها، والقرحة الحمراء التي احتاجت تمسيدها رغم الألم كي تنفتح في كل مرة أرادت تناول الطعام، ثمّ رفعت قبضتيها إلى السماء الرمادية وهزتهما.

أمسكت يديها بلطف، وشعرت أنهما مثل صخرتين قبل أن ترخيهما، وتقبض على يدي، وانتظرت إلى أن نظرت إليّ.

«لقد قتلها قاتل الرحلة، أو ربما أمر أحدهم أن يقتلها؛ إذ كانت جميلةً، وتكره القوة التي تسيطر عليه الجمال كله – انطلاقاً من الفراشات، والأشخاص الطيبين مثل دورا التي كانت فرداً كاملاً يوماً، وصولاً إلى الأرض التي يجب أن تحكميها. إنه يحب العنف والألم والقتل، والرمادي أيضاً، وبالتالي هل ستقتلينه إن وجدناه، وعجزت أنا عن ذلك؟».

نظرت إليّ بريبة وقد اغرورقت عيناها بالدموع، ولكنها أومأت في النهاية.

«وإن كان إلدن؟».

هزت رأسها بعنف كما سبق لها أن فعلت، وأفلتت يدي، ثمّ خرج من البحيرة حيث استلقت الحورية الميتة صوتها الكئيب مرتعشاً: «لقد أحب إيلسا ولن يقتلها أبداً».

قلت في نفسي: «ليست تلك الإجابة نفياً قاطعاً».

مر الوقت، وبقيت ساعات معدودة على انتهاء النهار، وكنت أجهل مدى ضرورة حدوث قبلة القمرين فوق إمبيس كي تنفتح البئر المظلمة، وجل ما عرفته أنها ستؤدي إلى النتائج السيئة ذاتها حتّى وإن حدثت والقمران في القطب الآخر من العالم، وقد تربعا هناك على العمود المركزي المرتفع في الساعة الشمسية، وتحركت عيونهما ذهاباً وإياباً وكأنها تؤكد تلك الفكرة.

التفتت وناديت الآخرين.

7

مشينا حول الساعة الشمسية، في حين سارت رادار عبرها، وتوقفت قرب العمود المركزي بما يكفي كي تتبول إلى جواره، فتذكرت إيريس وجثة العملاقة.

اجتمعت طرق دواليب الهواء في واحد واسع مركزي انتهى إلى سبعة أبواب حاولت فتح الأوسط بينها، ولكنني وجدته مقفلاً، وأخبرته أن ينفتح باسم ليا غالين، وتمثل هذه العبارة النسخة الإمبيسية من «افتح يا سمسم»، فانفتح كما توقعت، ولكن حدث شيء آخر لم يكن في الحسبان؛ بدا أن البناء اهتز على وقع اسم الأميرة، وربما رأيت ذلك ولكن أحسسته بوضوح أكبر في قدمي كما حدث عندما سقط وزن هانا الميتة حديثاً على الأرض، والذي بلغ ألفاً وخمسمئة كيلوغراماً تقريباً.

فجأةً، صمتت مجموعة الأصوات الهامسة والتي تسمعها في رأسك أكثر منها عبر أذنيك، وبدا كأن القصر تطهر كلياً منها – وقد استعملت كلمة الطرد مع آيوتا سابقاً، ولست غبياً كي أعتقد ذلك، ولكن اتضح أن شخصاً آخر امتلك القوة إلى جانب قاتل الرحلة، وقلت في نفسي: «ستكون أقوى إن استطاعت التحدث بنفسها»، ولكنها عجزت عن ذلك حينها.

كشف الباب عن رواق واسع خلفه، واحتلت لوحة جدارية محيطه كما في مركز الحافلات، ولكن لطخت بالطلاء الأسود هذه المرة، وطمس كل شيء باستثناء بعض الفراشات الكبيرة القريبة من السقف، وتذكرت عناصر داعش مجدداً وكيف دمروا المعالم الثقافية التي بنتها الحضارات القديمة قبلهم.

كان هناك مجموعة أكشاك حمراء في منتصف الرواق، وقد وجدت شبهاً قليلاً بينها وبين أخرى مررت بجوارها كثيراً برفقة والدي خلال رحلاتنا إلى ملعب غرانتيد ريت من أجل مشاهدة فريق وايت سوكس. تمتم آيوتا وأشار إلى مكان ما: «أعلم أين نحن يا تشارلي، انتظر لحظةً».

ذهب واعتلى أحد المنحدرات، وألقى نظرةً، ثمّ عاد مسرعاً.

«إن المقاعد فارغة، وكذلك الملعب، لقد رحلوا، وأزالوا الجثث أيضاً».

رمقته ليا بنظرة مستاءة وكأنها تسأله: «ما الذي توقعته غير ذلك؟»، ثمّ قادتنا يساراً، فسلكنا ممراً دائرياً إلى جوار عدد من الغرف الصغيرة المحطمة، ورجحت أنها كانت غرف استجواب، هرولت رادار قريباً مني، واعتقدت أنها ستشعر وجود أمر مريب قبل أي منا، ولكنها بدت هادئةً في ذلك الوقت. تجاوزنا الغرفة الصغيرة الأخيرة قبل أن أقف في مكاني محدقاً، وكذلك رفاقي السجناء من دون أن تبدي ليا اهتماماً في الأمر الذي أدهشنا، وتابعت طريقها قبل أن تدرك أننا لا نتبعها، وأشارت إلينا بيدها بحركة دائرية مجدداً كي نسرع، ولكننت تجمدنا في أماكننا لبرهة.

استبدل لوح زجاج منحن بالجدار الجانبي الصخري هناك، وقد بلغ طوله ثلاثين قدماً تقريباً، وغطاه الغبار – مثل أي شيء آخر في القصر، ولكننا استطعنا رؤية ما خلفه تحت ضوء مصابيح الغاز المزودة بغطاء كي تبدو مثل الأضواء الكاشفة، وتكشف عن سرداب تكدس فيه ركام من القطع الذهبية تشبه ما رأيته في خزنة السيد بوديتش، وقدرت أنها تساوي مليارات الدولارات الأمريكية، وتناثرت بينها ما وجب أن تكون أحجاراً كريمةً: الأوبال، واللآلئ، والزمرد، والألماس، والياقوت الأحمر والأزرق، كان السيد هينريك صائغ المجوهرات الأعرج سيصاب بذبحة قلبية إن رأى هذا المشهد.

همست: «يا إلهي».

بدا كل من آيوتا، وجايا، وإيريس مهتمين ولكن لم يبدُ الذهول عليهم.

قال آيوتا: «لقد سمعت عن هذا المكان، إنها خزينة إمبيس، أليس كذلك يا سيدتي؟».

أومأت ليا بصبر نافد، وأشارت إلينا أن نتبعها، وكانت محقةً، فعلينا أن نتحرك، ولكنني بقيت في مكاني قليلاً، محاولاً استيعاب وجود تلك الثروة الطائلة المخبأة، وتذكرت كم ذهبت كي أشاهد فريق وايت سوكس باستثناء يوم أحد مميز تابعت فيه مباراة فريق بيرز في ملعب سولدير، وقد امتلك ملعبا الفريقين خزائن زجاجيةً تعرض جوائزهم على طريقة ملعب الفراشات، وربما اعتاد العامة التوقف قبل مشاهدة المباريات كي يتأملوا ثروات المملكة التي حماها حراس الملك دون أدنى شك خلال فترة حكم أسرة غالين، وأخذت هانا مكانهم مؤخراً، وأجهل إن حصل السيد بوديتش على إذن الدخول إليها أم لا، ولكن لا يتجاوز ما جمعه في الحالتين أكثر من ملء جيبه إن صح القول.

أشارت ليا بإلحاح أكثر، ورفعت يديها من الأمام إلى كتفيها، فتبعناها، وألقيت نظرةً أخيرةً خلفي، وفكرت في أن أكوام القطع الذهبية ستغطيني

حتّى عنقي إن قفزت بينها، ثمّ تذكرت كيف توفي الملك ميداس جوعاً لأن لمسته حولت كل شيء إلى ذهب، وحتى طعامه.

8

تسللت رائحة خفيفة إلى أنفي عندما بلغنا نهاية الممر حاملةً معها ذكريات ديب مالين السيئة؛ إنها رائحة النقانق. وصلنا إلى باب مزدوج مفتوح إلى اليسار، كاشفاً عن مطبخ ضخم خلفه، حيث اصطفت مجموعة من الأفران إلى جوار بعضها عند الجدار، إضافةً إلى ثلاثة مواقد، وأسياخ من أجل تحريك قطع اللحم، وبضع مغاسل كبيرةً كفايةً كي يستحم أحدهم فيها. هنا طُبخ طعام الحشود التي جاءت من أجل حضور المباريات، وكانت أبواب الأفران مفتوحةً حينها، والمواقد مطفأةً، ولا شيء يدور على الأسياخ، ولكن فاحت رائحة النقانق الخفية في الأرجاء، وقلت في نفسي: «سأمتنع عن تناول النقانق ما حييت، وكذلك شرائح اللحم».

انكمش أربعة رجال رماديين مقابل الحائط البعيد وسط بناطيلهم وستراتهم البيضاء الفضفاضة الشبيهة بملابس بيرسي، ولم أجده بينهم، ورفع أحد أولئك الرجال ذوي الحظ السيئ مئزره وغطى بقايا وجهه عند رؤيتنا، بينما اكتفى الآخرون بالتحديق إلينا، وقد تراوحت تعابير ما بقي من ملامحهم بين الحيرة والخوف، فدخلت المطبخ متجاهلاً محاولة ليا سحبي إلى نهاية الممر، وركع أفراد طاقم المطبخ على ركابهم واحداً تلو الآخر أمامي ورفعوا راحات أيديهم إلى جباههم.

قلت، وقد أخافتني سرعة تلبيتهم الأوامر: «لا، لا، انهضوا، لا نريد أذيتكم، ولكن أي بيرسي؟ أو بيرسيفال؟ أعلم أنه واحداً منكم».

تبادلوا النظرات، ثمّ التفتوا إليّ، ثمّ إلى كلبتي، وإلى آيوتا الضخم الواقف إلى جانبي... وألقوا نظرات خاطفةً خجولةً إلى الأميرة العائدة إلى

القلعة أو منزلها القديم، ثمّ أنزل الرجل الذي غطى وجهه المئزر في النهاية، وتقدم إلينا وهو يرتجف، وسأعفيك من لهجته الغريبة، إذ كان كلامه واضحاً.

«لقد جاء جنود الليل من أجله واحتضنوه، فصعقته هالاتهم، وأغمي عليه، ثمّ حملوه بعيداً، أنا أجزم أنه مات لأن لمساتهم قاتلة».

أعلم ذلك، ولكن ليس دوماً، وإلا لقتلت قبل أسابيع طويلةً: «إلى أين أخذوه؟».

هزوا رؤوسهم جميعاً، ولكن خطرت لي فكرة جيدة؛ سيبقى بيرسي – بيرسيفال – على قيد الحياة ما دام لورد هاي يريد استجوابه.

في تلك الأثناء، رأت ليا شيئاً ما وأسرعت عبر الغرفة إلى طاولة تجهيز الطعام الكبيرة في المنتصف، حيث وُضعت حزمة من الأوراق المربوطة بواسطة خيط إلى جوار ريشة كتابة لوثها الشحم وغطى الحبر الداكن رأسها، فأخذتهما معاً، وأشارت إلينا كي نتحرك، وكانت محقةً طبعاً، ولكن وجب عليها أن تحتمل زيارةً جانبيةً قصيرةً إلى المسكن الذي زرته سابقاً؛ فأنا مدين لبيرسيفال، وكلنا كذلك، كما أنني مدين إلى كيلين، أو لورد هاي، أيضاً.

أريد أن أنتقم منه، ونعلم جميعاً أن الانتقام قاس.

9

انتهى الممر قريباً من المطبخ عند باب طويل غطته شبكة من الألواح الحديدية الكبيرة، عُلقت عليه لافتة بارتفاع ثلاث أقدام، فدققت النظر إليها، واستطعت قراءة كلمتي: «الدخول ممنوع»، وعندما أصبحت في نطاق رؤيتي المحيطية التي افتقر كلا إليها، تحولت الكلمات إلى رموز قديمة متداخلة تيقنت من قدرة رفاقي على قراءتها بوضوح.

أشارت ليا إليّ، فاقتربت ونطقت الكلمات السحرية، فيتحرك كل مزلاج إلى الطرف الآخر، وأصدر الباب صريراً، وانفتح جزئياً.

قالت إيريس: «كان يفترض بك أن تُجرب هذا الأمر في ديب مالين كي تقينا من معاناة كبيرة».

أمكنني القول إن الفكرة غابت عن ذهني، وهذا ما حدث، ولكنها ليست الحقيقة كاملةً، فأجبتها: «لم أكن الأمير بعد، بل...».

سألتني جايا: «بل ماذا؟».

قلت في نفسي: «بل كنت في طور التغيير، وأدت ديب مالين دور شرنقتي».

أنقذتني ليا من ذلك السؤال، وأشارت إليّ بإحدى يديها، وشدت بقايا سترتي بيدها الأخرى، وكانت محقةً؛ إذ وجب أن نوقف نهاية العالم.

كشف الباب عن رواق واسع تدلت على جدرانه منسوجات صورت كل شيء انطلاقاً من حفلات الزفاف الملكية والحفلات الراقصة وملابس الناس التنكرية فيها، إلى مشاهد الصيد والمناظر الطبيعية من الجبال إلى البحيرات، وعرضت واحدة مميزة صورة سفينة شراعية علقت بين مخالب كائن قشري عملاق بارزة من تحت سطح المياه، ثمّ مشينا نصف ميل تقريباً قبل الوصول إلى أبواب مزدوجة بلغ ارتفاعها عشر أقدام، وعُلق على أحدها راية حملت صورة رجل عجوز يرتدي رداء أحمر غطاه من رقبته وحتى قدميه، واعتلى رأسه تاج قاتل الرحلة نفسه، وحمل الباب الآخر صورة امرأة أكثر شباباً، وضعت تاجاً أيضاً فوق شعرها الأشقر المجعد.

قالت جايا في صوت ورع وناعم: «إنهما الملك جان والملكة كوفا، لقد امتلكت والدتي وسادةً رُسم وجهاهما عليها أيضاً، ومنعتنا عن لمسها أبداً، ناهيك عن وضع رؤوسنا عليها».

انفتح البابان إلى الداخل بعد أن دفعتهما ليا من دون أن أقول اسمها أمامهما، ودخلنا كي نجد أنفسنا على شرفة واسعة، وبدا أن القاعة الواقعة تحتها فسيحة أيضاً دون أن نتأكد من ذلك بسبب ظلمتها الحالكة، ولكن اتجهت ليا إلى اليسار وانسلت وسط الظلام حتّى اختفت تماماً، ثمّ سمعت صوت صرير خافت تلته رائحة الغاز وانطلق حفيف ضعيف من الظلام فوقنا وحولنا، قبل أن تضيء مصابيح الغاز واحداً تلو الآخر، ثمّ كل اثنين معاً، وبعدها كل ثلاثة، حتّى تجاوز عددها المئة تقريباً على الجدران حول القاعة الكبيرة، وصولاً إلى مجموعة حملتها ثريا عملاقة؛ أعلم أنك تقرأ كلمات (كبير، وعظيم، وهائل) كثيراً، ولكن حاول الاعتياد عليها، إذ كانت تلك حال كل شيء... على الأقل حتّى وقوعنا في كابوس رهاب الاحتجاز الذي سأقصه عليك قريباً.

أدارت ليا عجلة صمام صغيرةً، فازدادت شدة إضاءة المصابيح الغازية، وتبين أن الشرفة معرض في الحقيقة، واصطف مقابل جدرانها كراس ذات مسند ظهر مرتفع، وتربعت تحت أقدامنا غرفة دائرية ذات بلاط أحمر لامع، واحتلت منصة مركزها حاملةً عرشين أحدهما أكبر قليلاً من الآخر، وتناثرت حولها كراس (كانت محشوةً أكثر من تلك على الشرفة)، إضافةً إلى أرائك صغيرةً تشبه المقاعد المزدوجة.

فاحت رائحة كريهة وكثيفة جداً إلى درجة أنها قد تتجسد أمامك وتلمسها، ولاحظت وجود أكوام من الطعام المتعفن المرمي في الأرجاء، وملأت اليرقات بعضها، وهذا ليس كل شيء، إذ تناثرت أكوام من الغائط على البلاط، إضافةً إلى كتلتين كبيرتين على العرشين، كما لطخت الدماء الجدران، وجفت كي يتحول لونها إلى الأحمر الداكن، واستلقت جثتان مقطوعتا الرأس دون حراك تحت الثريا، وتدلت اثنتان إضافيتان عن طرفيها، وكأنهما تحاولان الحفاظ على توازنها، وقد تجعد الوجهان – وتحنطا تقريباً – مع مرور الوقت، وتمطط عنق كل منهما طويلاً جداً لكن دون الانفصال عن

الرأس، وبدا المشهد أمامنا مثل النظر إلى النتائج الكارثية التي خلفتها حلفة قتل شنيعة.

سأل آيوتا في همسة خشنة: «يا إلهي، ماذا حدث هنا؟».

ربتت الأميرة ذراعي، وقد خيّم الحزن والإرهاق على وجهها عديم الفم، وكانت تحمل إحدى الأوراق التي أحضرتها من المطبخ، وقد كتبت وصفة معقدة على أحد جانبيها في خط متصل سيئ، وحمل الوجه الآخر ما كتبته ليا في خطها الجميل: كانت هذه قاعة استقبال والدي ووالدتي، ثمّ أشارت إلى إحدى الجثتين المعلقتين على الثريا، وكتبت: أعتقد أنه مستشار والدي، ويدعى لودوم.

وضعت ذراعي حول كتفيها، فأمالت رأسها قليلاً إليها، ثمّ ابتعدت.

سألتها: «ألم يكتفِ القاتل بقتلهم، لماذا دنس هذا المكان؟».

أومأت ليا وقد بدت ضجرة، ثمّ أشارت إلى سلسلة أدراج خلفي، وقادتنا عبرها نزولاً حتّى وصلنا إلى مجموعة أخرى من الأبواب المزدوجة بطول ثلاثين قدماً على الأقل، أي كان باستطاعة هانا دخولها من دون أن تنحني.

أشارت ليا إلى آيوتا، ووضعت راحتي يديها على البابين وانحنت إلى الأمام كي تدفعهما عبر مسارهما الخفي، ففعل آيوتا ذلك، والتفتت ليا حينها إلى عرشي والديها حيث استمعا يوماً إلى مطالب رعاياهما، وركعت على إحدى ركبتيها واضعةً راحة يدها على جبهتها، وتساقطت دموعها على البلاط الأحمر القذر.

صمتاً، صمتاً.

تتفوق الغرفة خلف قاعة الاستقبال كثيراً على نظيرتها في كنيسة نوتردام؛ لقد بدت خطواتنا نحن الخمسة وكأنها صادرة عن كتيبة جنود بسبب الصدى، كما عادت تلك الأصوات الهامسة المتداخلة الخبيثة إلى مسمعنا.

ارتفعت الأبراج الثلاثة فوقنا مثل أنفاق عمودية وقد ملأتها الأضواء الخضراء الخافتة المنغرسة في أنقى أنواع خشب الأبنوس، ورصعت مئات آلاف قطع البلاط الصغير الأرضية تحتنا كي ترسم صورة فراشة ضخمة، ورغم ما أصابها من تخريب، إلا أنها حافظت على شكلها، واحتلت منصة ذهبية المكان تحت البرج المركزي، وانتصب في وسطها سلك فضي ضخم شق طريقه عبر الظلام، وتوضعت قاعدة إلى جواره برزت عجلة ضخمة من جانبها، فأشارت ليا إلى آيوتا، ثمّ إلى العجلة، ومثلت حركة التدوير بواسطة يديها.

تقدم آي، وبصق في يديه، وبدأ التدوير؛ آي رجل قوي، واستمر في العمل فترةً جيدةً من دون تلكؤ، ثمّ أخذت مكانه حين تراجع أخيراً، وقد كان عملاً شاقاً رغم حركة العجلة الثابتة، إذ شعرت بعد عشر دقائق وكأنني أدور ذلك الشيء اللعين وسط الغراء، ثمّ ربتت إيريس ظهري وأرادت تولي زمام الأمور، وأنجزت دورةً واحدةً قبل أن تستسلم وتوكل المهمة إلى جايا، صحيح أن الأخيرة بذلت جهداً رمزياً، ولكن ضير من رغبتها في المساهمة.

سألتُ ليا: «ما الذي نفعله ولماذا في حال اتجه قاتل الرحلة إلى الأسفل؟»، كان واضحاً أن المنصة الذهبية مصعد ينقلنا إلى قمة البرج المركزي، ولكنه بقي ساكناً في مكانه.

سمعت همسةً غامضةً فحواها: «يجب علينا ذلك»، وأعتقد أنها ليا، التي وضعت يديها على حنجرتها وهزت رأسها، وكأنها تقول إن أسلوب كلامها صعب التطبيق الآن، ثمّ وضعت ورقة وصفة أخرى على ظهر جايا

وكتبت عليها باستخدام ريشة الكتابة التي كان حبرها باهتاً جداً، ولكنني استطعت قراءة الجملة كاملةً حين أنهتها.

يجب أن نصعد كي ننزل، ثق بي.

وهل لديّ خيار غير الوثوق بها؟

الفصل التاسع والعشرون

المصعد- السلم اللولبي- جيف- لورد هاي.

«ستؤدي ملكة إمبيس واجبها»

1

أصبحت العجلة أقسى خلال دور آيوتا الأخير إلى درجة صرخ فيها في كل ربع دورة، واستطاع تحريكها ست مرات، ولم يتمكن من تحريكها أكثر من بضع بوصات في المرة الأخيرة، ثمّ صدر فجأةً من مكان ما فوقنا رنين ناعم تردد صداه في الأرجاء قبل أن يتلاشى تماماً، فأشارت ليا إلى آي كي يتراجع، ثمّ أشارت إلى المنصة، وبعدها أشارت إلينا، ورفعت ذراعيها في الهواء وعانقت الخلاء.

سألتها: «هل تقصدين أن نقترب من بعضنا؟».

أومأت ولجأت إلى أسلوب كلامها المرهق مجدداً، ثمّ قبضت على عنقها وسالت دموع الألم على وجنتيها، وقد أردت تجنب تخيّل وجود شريط من الأسلاك الشائكة حول عنقها، ولكنني عجزت عن ذلك.

«الكلبة. الوسط. الآن».

بدأنا صعود المنصة باستثناء رادار، إذ تراجعت وانكمشت على نفسها قلقةً، وبدأت المنصة ترتفع فور أن وقفنا جميعاً عليها.

صرختُ: «هيّا اقفزي يا رادار».

اعتقدت لبرهة أنها ستتخلف عنا، ولكنها ثنت قائمتيها الخلفيتين وقفزت، فأمسكها آيوتا من طوق عنقها الذي خسرنا لجامه قبل فترة، وأفسحنا مكاناً لأجلها في الوسط، حيث جلست ونظرت إليّ وأنّت؛ لقد أدركت ما تشعر به، إذ بالكاد اتسعت لنا المنصة.

ارتفعنا عن الأرض شيئاً فشيئاً، كنا نستطيع القفز من ارتفاع ست أقدام من دون أن نتأذى، ومن ارتفاع اثنتي عشرة قدماً من دون أن نموت، ولكننا استبعدنا فكرة القفز عند وصولنا إلى ارتفاع ثماني عشرة قدماً.

وقف آي على أحد جانبي المنصة ورؤوس أصابع قدميه خارج حافتها، وأنا على الطرف المقابل وربع قدمي الخلفي على الأقل خارجها، بينما اجتمعت إيريس وجايا وليا في الوسط، وجلست رادار بين قدمي ليا. وصلنا إلى ارتفاع سبعين قدماً عن سطح الأرض، فشعرت أن الهواء مُحمّل بالغبار، وكنت واثقاً أنني إذا عطست سأتعثر وأسقط، وهذا المصير وصمة عار في حق الأمير المنتظر.

همست الأصوات وتداخلت مع بعضها، ولكن استطعت سماع جملة واحدة بوضوح: «إن وضع والدك الذهني يتدهور».

بدأت جايا تتأرجح، فأغمضت عينيها قائلةً: «لطالما كرهت المرتفعات، بما فيها شرفة الحظيرة العلوية، أعجز عن الاستمرار، أنزلوني».

ترنحت في مكانها، ورفعت ذراعيها ودفعت إيريس كي تصطدم بآيوتا، فأوشك أن يسقط عن الحافة، وهنا نبحت رادار، إن ذعرت وتحركت بيننا، فستسقط ليا، وأهوي خلفها.

صرخ آيوتا بخشونة: «أوقفي تلك المرأة يا إيريس قبل أن تتسبب بموتنا جميعاً».

انحنت ليا إلى الأسفل قليلاً فوق رادار كي تمد إيريس ذراعيها وتحتضن جايا قائلةً: «أغمضي عينيك يا عزيزتي وتظاهري أنك تحلمين».

أغمضت جايا عينيها، ووضعت يديها بالقرب من عنق إيريس.

ازدادت برودة الهواء على ذلك الارتفاع، وبدأت أرتجف مع أنني كنت أتعرق بشدة، ثمّ شعرت أن نسمةً خفيفةً همست إلي: «أريدك أن تمرض، امرض وانزلق، انزلق واسقط».

تحولت الأرضية الحجرية إلى مجرد مربع صغير وسط الظلام، وصفرت الرياح، وسمعت صوت صرير عبر جوانب البرج الحجرية تارةً، والزجاجية تارةً أخرى.

همست الأصوات: «ستمرض وتنزلق، وستسقط بعدها بالتأكيد».

مضى بنا المصعد صعوداً إلى الأعلى، وقد أثار ذلك جنوني لأن قاتل الرحلة في مكان ما تحتنا، ولكن فات الأوان على تغيير خطتنا الآن، ولم يكن بوسعي سوى الدعاء أن تكون ليا مدركة لما تفعله.

مررنا بجوار مجموعة من الدعامات الحجرية المصقولة التي تغطيها طبقة سميكة من الغبار، حتّى أحاطنا الزجاج الأخضر، ورأيت أشكالاً سوداء تسبح ضمنه، ثمّ أخذت الجدران تضيق علينا.

فجأةً، توقفت المنصة.

وضاق البرج فوقنا، واستطعت تبين شيء هناك في الأعلى وسط الظلام الدامس، لعله رصيف المنصة التالي، ولكنه يبعد أربعين قدماً على الأقل عن المكان الذي نحتشد فيه حول كلبة توشك أن تتحرك في أيّ لحظة، ولا يفصلنا عن الأرض سوى مسافة شاسعة فارغة.

سألت إيريس: «ماذا يحدث؟ ولماذا توقفنا؟»، وقد تخلل الرعب صوتها الخافت، هنا حرّكت جايا ذراعيها ودفعت آيوتا مجدداً، فلوح بذراعيه كي يحافظ على توازنه.

صرخ بصوته الخشن: «يفضل أن تسألي كيف السبيل إلى النزول عن هذه المنصة اللعينة. هذا ما أعده بالمأزق الشنيع!».

تابعت ليا السلك الفضي بعينيها القلقتين إلى أعلى.

قال آي ضاحكاً: «لم نعبر سوى نصف المسافة، وها نحن نقف الآن على ارتفاع أربعمئة قدم محتشدين مثل الأغنام».

فكرت أن أصرخ عبارة: «ارتفعي باسم ليا غالين»، مع أنني أعرف سخافة ذلك، إلا أنني أردت تجربته قبل أن تتحرك المنصة مجدداً، وجاء دوري حينها كي ألوح بذراعي وأحافظ على توازني، وربما كنت سأسقط ما لم تطوق ليا عنقي بذراعيها بقوة منعتني عن التنفس لثوانٍ، ولكنني لم أجد الشكوى من ذلك مناسبة وقتها.

نهضت رادار وتأرجحنا جميعاً في انسجام تام، وبدا أن المنصة تضيق علينا حقاً، إذ اقتربت جدران البرج المنحنية كثيراً إلى حدّ كنا نستطيع لمسها، نظرت إلى الرصيف في الأعلى ودعوت أن نصل إليه قبل توقف المصعد مجدداً، أو هبوطه إلى الهاوية.

ولكن حدث العكس؛ توقفت المنصة قرب الرصيف، وصدر رنين آخر أعلى من سابقه، فركضت رادار دافعةً ليا ناحية إيريس وجايا، وتمايلن جميعاً وسط الظلام، فاصطدمت ليا وجايا، ودفع آيوتا إيريس، وسقطنا جميعاً على الأرض فوق بعضنا، مثل المهرجين عندما يخرجون من السيارة الصغيرة في السيرك، فضحكت وكذلك فعل آيوتا، ثمّ ضحكت إيريس وجايا وسط دموع الأخيرة، وعانقنا بعضنا.

نظرت ليا إلى ظهر رادار، ومدت يدها إليّ، فصافحتها وشددت عليها، وبادلتني ذلك أيضاً.

قال آيوتا: «أود أن أعرف ما هذا المكان اللعين ولماذا جئنا إليه؟».

أشرت إلى ليا ورفعت كتفي مستهجناً وقلت في نفسي: «إنها خطتها».

2

كان الرصيف صغيراً ومن دون سياج على حوافه، ولكننا استطعنا الوقوف في صف بشكل آمن أكثر مما كنا عليه على المنصة الذهبية المربعة التي هبطت إلى الأسفل تاركةً إيانا في الأعلى.

أشارت ليا إلى يمينها، فتقدمنا آيوتا في ذلك الاتجاه وهو ينظر إلى الهاوية المظلمة حيث نزلت المنصة، في حين نظرت جايا بثبات على الجانب البعيد من البرج، وتبعناه جميعاً ممسكين أيدي بعضنا مثل مجموعة من الدمى الورقية، وربما كان تصرفاً غبياً لأنه إذا فقد أحدنا توازنه سنسقط جميعاً عن الحافة، ولكننا تابعنا سيرنا.

في نهاية المطاف، وصلنا إلى قوس منخفض، فأفلت آيوتا يد إيريس وتجاوزها حانياً ظهره، وتبعته رادار، ثمّ جايا وليا، ودخلت خامساً بعد إلقاء نظرة أخيرة على المنصة الهابطة قبل أن تختفي في الأسفل.

وجدنا أنفسنا في قمة البرج الأيمن، وأوشكنا أن نصل إلى نظيرته في البرج المركزي، ولكن وقفنا أمام ممر ضيق ملتو وراء القوس وفي نهايته فوهة أخرى، فشقت ليا طريقها إلى مقدمة موكبنا الصغير، وأمسكها كل منا من خصرها خلال مرورها أمامه، واستطعت سماع صوت أنفاسها القوية عندما اقتربت مني، وتساءلت عن مقدار الجهد الذي تبذله خلال كلامها أو

عندما تناولت وجبتها الأخيرة، وكنت واثقاً أنها تابعت طريقها ولم تتناول شيئاً منذ ذلك الحين... وتلك حالنا جميعاً.

عاودنا السير بخطوات حذرة متعاقبة إلى قمة البرج الثاني، فهمست لجايا: «هل أسعدتك مرافقتنا؟».

أجابتني هامسةً: «اصمت يا مولاي الأمير».

أفضى الممر الضيق إلى قوس آخر على الجانب البعيد من البرج، وقد أغلقه باب خشبي بلغ ارتفاعه خمس أقدام تقريباً، واستطعنا تجاوزه دون استخدام الكلمات السحرية؛ إذ فتحت ليا قفلاً علوياً، واستعملت يديها كي تحرك مزلاجين، وعرفت عندها أنه سبق لها أن أتت إلى هنا برفقة إلدن طبعاً، وتخيلت كيف اكتشف الولدان المستضعفان المنسيان في طفولتهما الأسرار القديمة المخبأة في القصر الذي يحتوى أكثر من سبعين أو مئة قوس، إضافةً إلى مواجهتهما الموت على تلك المنصة، ناهيك عن الأماكن الخطيرة الأخرى التي نجهلها (كيف أمكنهما تدوير العجلة وتشغيل المصعد؟)، إن بقاءهما على قيد الحياة خلال رحلاتهما أعجوبة، وكنا لنعيش مستقبلاً أفضل لو أن إلدن قُتل وقتها.

ما إن فُتح الباب حتّى سمعنا صوت صفير الرياح الخافت في الخارج، فتذكرت نحيب هانا على جثمان ابنتها الراحلة، ورأيت أمامي رصيفاً آخر لا يتسع إلا لشخص واحد (أو طفلين صغيرين فضوليين يقفان بالقرب من بعضهما).

دخلت ليا أولاً، وتبعتها كي أجد نفسي على قمة برميل ضيق يمتد حتّى الأرض، وانتصب إلى يسارنا جدار صخري، وتحركت إلى يميننا تلك الخطوط السوداء عالياً ببطء وسط الزجاج الأخضر المنحني، الذي كان عاتماً وثخيناً، ومع ذلك يتيح لضوء النهار أن يخترقه وينير طريقنا إلى الأسفل، وهو سلم حلزوني دون سياج على حافته، حاولت حينها لمس الزجاج فحدث شيء

مذهل؛ تكاثفت الخطوط السوداء معاً، واندفعت إلى المكان الذي وضعت يدي عليه، فسحبتها سريعاً كي تتابع الخطوط حركتها البطيئة.

قلت في نفسي: «تستطيع تلك الأشياء رؤيتنا والاحساس بنا، كما أنها تبدو جائعة».

أخبرت الآخرين: «تجنبوا لمس الزجاج، أعتقد أن تلك الخطوط عاجزة عن اختراقه، ولكن لا جدوى من استفزازها على أيّ حال».

سألت جايا: «ماذا تعني كلمة استفزاز؟».

«انسي أمرها، كل ما أقوله هو أن تتجنبوا لمس الجدار الزجاجي».

تقدمتني ليا عشر درجات إلى الأسفل، وأشارت لنا بيديها مجدداً أن نسرع، مثل الحكم عند إعلانه عن ضربة تسجيل نقطة في مباراة كرة القاعدة.

بدأنا طريقنا إلى الأسفل.

3

تقدمت المجموعة برفقة ليا، وتلانا رادار وآيوتا ثمّ جايا، وأخيراً إيريس، وقد فضلت السلالم أكثر من منصة المصعد لأنها لم تكن مخيفة بقدر المنصة، ولكن التفافها ودورانها حافظا على خطورتها، ناهيك عن جعلنا في حال دوار (باستثناء رادار على ما أعتقد) ازدادت كلما نظرنا إلى مركز السلم في الأسفل.

نزلنا مئة درجة تقريباً حتّى وصلنا إلى باب صغير آخر تجاوزته ليا، ولكن انتابني الفضول فحدقت عبره إلى أرجاء الغرفة الطويلة العفنة والمغبرة والمليئة ببعض الأشكال المظلمة المغطى بعضها بالملاءات،

فأدهشتني فكرة أنني أنظر إلى علية هائلة، ثمّ أدركت ضرورة وجودها في كل قصر، ولكن لا يتكبد المؤلفون عناء ذكرها في القصص.

ازدادت سماكة الجدار الزجاجي وأصبحت الإضاءة أضعف كلما نزلنا أكثر، ووصلنا إلى باب آخر، حجب خلفه ممراً أضاءته مجموعة من مصابيح الغاز ذات النيران الضعيفة، وقد انطفأ بعضها، وافترشت الأرض سجادة مجعدة ومغبرة.

«تمهلي يا ليا».

نظرت ليا إليّ ورفعت راحتي يديها إلى الأعلى.

«هل توجد أبواب أخرى في طريقنا إلى الأسفل؟ وهل يؤدي بعضها إلى أقسام مختلفة من القصر، مثل غرف المعيشة؟».

أومأت ليا، وحركت يديها بشكل دائري مجدداً، أي وجب علينا أن نمضي قدماً.

« هل تعرفين مكان شقة تحوي مصابيح كهربائيةً بدل الغازية؟»، وأعتقد أنني استعملت كلمة غرفة بدل شقة، ولكن ليست هذا ما أثار حيرتها، بل كهربائيةً، فهي تعرف معنى كلمة الكهرباء بالمقدار نفسه الذي تعرف فيه جايا معنى كلمة استفزاز.

قلت: «أقصد أضواءً سحريةً».

فهمت قصدي حينها، ورفعت ثلاثة أصابع، ثمّ أربعاً.

سألت جايا: «لماذا توقفنا؟ أريد الوصول إلى الأسفل بعيداً عن هذه السلالم».

قال آيوتا: «انتظري قليلاً، أعلم ما يريده تشارلي، أو لديّ فكرة على الأقل».

فكّرت في سؤال ليا إن كان السيد بوديتش قد ركّب أضواءً سحريةً ومولداً من أجل تشغيلها، ولكن علمت ذلك مسبقاً من جملة قالها: «يعطي الجبناء الهدايا»، ولعله فعل ذلك قبل فترة طويلة نظراً إلى طراز المولد القديم، وربما حين كان اسمه أدريان بدلاً من هاورد.

اعتقدت أن جناح الملك والملكة الخاص أحد الأماكن القليلة التي حصلت على الطاقة الكهربائية من المولد الذي يشغله العبيد، ولكنه ليس وجهتنا.

أشارت ليا إلى الأسفل أكثر من مرة مؤكدةً أنها تفكر في أمرين فقط: إيجاد قاتل الرحلة قبل أن يفتح البئر المظلمة، والتأكد من أن الطاغية ليس شقيقها، ولكنني مهتم في شيء آخر أيضاً، فأنا جرّبت جحيم ديب مالين، وكذلك آيوتا والمرأتان اللتان اختارتا القدوم معنا.

«ليس الآن يا ليا. أنصتي إليّ، هل تتذكرين وجود جناح يضم غرفةً تنيرها تلك المصابيح السحرية، وتملك أريكةً زرقاء مخمليةً طويلة؟ إضافةً إلى طاولة عليها بلاطة رُسم عليها حصان وحيد القرن وكأنه يرقص، هل تتذكرين شيئاً كهذا؟».

اتسعت عينا ليا، وأومأت.

«هل توصلنا هذه السلالم إلى باب ذلك الجناح؟».

وضعت ليا إحدى يديها على السيف والأخرى على الخنجر ورمقتني بنظرة ساخطة، ثمّ أشارت بقوة إلى الأسفل.

لقد اعتدت اللغة المحكية من وقتي في مالين، وقلت: «لا، لا يا سيدتي، أخبريني وإلا سنفترق من هنا، أخبريني».

أومأت ليا على مضض.

قلت: «ما زال النهار طويلاً، وهناك أمور أخرى علينا الاهتمام بها، ولذلك خذينا إلى هناك»، وربما استعملت كلمةً أخرى غير طويل.

سألت جايا من الخلف: «أيّ أمور؟».

«أعتقد أننا سنجد لورد هاي هناك».

قالت إيريس: «يجب أن نذهب مباشرةً، إذ عليه الإجابة عن أسئلة كثيرة».

فكرت: «أنت محقة».

4

تجاوزنا ثلاثة أبواب خلال نزولنا المستمر، وساورني شك في أن ليا تريد تجاوز جناح كيلين الفاخر المزود بالكهرباء، ولكنها توقفت أمام باب آخر وفتحته فأجفلت وتراجعت مباشرةً، فأمسكتها بإحدى يدي وسحبت بالأخرى مسدس السيد بوديتش قبل أن أنظر عبر الباب، وأسرعت رادار ووقفت أمامي تهز ذيلها، ثمّ نظرت إلى ليا غوجدتها تضع راحة يدها على جبهتها، ليس من أجل التحية، بل في إيماءة يائسة من امرأة تشعر أن مصائبها مستمرة إلى الأبد.

كان السناب في الممر خلف النقطة التي كان الباب المتأرجح عندها، واقتربت رادار تهز ذيلها وشمته بين قرنيه، ثمّ جثمت على الأرض، فقفز على ظهرها.

حدق آيوتا مذهولاً من خلفي وقال: «تعلم جميع الطرق أيها السيد سناب أليس كذلك؟ كيف وجدتنا؟».

خطرت لي فكرة حيال ذلك، إذ أمكن كلاوديا والسناب التواصل عبر التخاطر، وبالتالي ربما تعقبنا السناب عبر تقنية تشبه نظام تحديد المواقع

العالمي التخاطري، أعلم أنه تفسير غير منطقي، ولكن غير منطقي بالقدر نفسه عند الحديث عن حورية بحر تملك القدرة نفسها، أو ساعة شمسية تعيد للمرء شبابه.

أما كيف وصل السناب إلى هذا المكان، فأعتقد أن ليا ليست وحدها من عرفت طرق القصر السرية، إضافةً إلى قدرة صرصار الليل أن يجوب أماكن يعجز البشر عنها، وقد رأيت ذلك شخصياً في ديب مالين.

سألت إيريس: «لماذا جاء؟ هل يريد إرشادنا؟».

لقد فات الأوان على ذلك لأنني تعرفت إلى المكان الذي نقف فيه مع أن آرون قادني إليه من طريق مختلف، ولكنني أمام الممر الواسع نفسه الذي تنيره مصابيح الغاز الموجودة ضمن الزجاجات الفاخرة، والبساطات الجدارية المزخرفة، والتماثيل الرخامية ذاتها، رغم سقوط أحدها أرضاً وانقسامه إلى نصفين؛ إنه التمثال الذي يشبه كثولو... ربما لا يكون تحطمه خسارة كبيرة.

وضعت يدي على ركبتي واقتربت من السناب حتّى أوشك وجهانا أن يتلامسا، وحدق إليّ من دون خوف من حيث يقف على عنق رادار، ثمّ قلت: «لماذا جئت إلى هنا؟ هل كنت تنتظرنا؟ ما قصتك؟».

قالت كلاوديا شيئاً عن ضرورة تصفية الذهن، وقد حاولت فعل ذلك، وأعتقد أنني أنجزت عملاً جيداً نظراً إلى الظروف وضغط الوقت اللذين أثقلا كاهلنا، وفي حال أرسل السناب بضع رسائل عبر التخاطر، فقد كانت غير متوافقة مع طول موجتي.

ولكن استقبلها شخص آخر.

قالت جايا: «يتمنى السناب أن تبقى في صحة جيدة أيها الأمير تشارلي، وتنجح في مسعاك».

اعتقدت أنها اختلقت ذلك بطريقة ما، أو قالته لأنها تتمنى حدوثه، ولكنني بدّلت رأيي بعد أن أخبرتنا شيئاً آخر.

أنصت آيوتا، وابتسم كاشفاً عن فراغات كبيرة بين أسنانه وقال: «حقاً؟ هذا لا يصدق! (لقد استخدم عبارةً أخرى، ولكن هذا ما سمعته)، دعني أتولَ هذا الأمر يا تشارلي، ما رأيك؟ اعتبره معروفاً من أجل شخص قضى وقتاً أكثر منك في ديب مالين».

سمحت له بذلك، وإن عاد بي الزمن لمنعته واستعملت مسدسي، وكان السناب سيخبر جايا حيال أي شيء يعرفه، ولعل هذه الأفكار تخفف عني أحياناً ولكنها غير كافية أبداً؛ يبقى الجهل عاجزاً عن تغيير أيّ غلطة اقترفت في تاريخ العوالم كلها.

5

لاحظت وجود فتحة كبيرة في الألواح الخشبية خلف قاعدة التمثال ذي المجسات المخيفة، وذكرتني بمصباح الغاز في ديب مالين، ثمّ سمعنا صوت صفير الهواء من المساحات الفارغة خلف الجدار، وفاحت رائحة سيئة.

قال آيوتا: «لقد خرج السيد الصغير من هنا، إنه يستحق الثناء حقاً»، ثمّ تقدم موكبنا وتبعته ليا على مقربة منه، وقد حاولت أن أمشي إلى جوارها، ولكنها تابعت طريقها من دون أن تلتفت إليّ، ومشت رادار والسناب على ظهرها، وبقيت جايا وإيريس في الخلف. مررنا بجوار المرايا ذات الأطر الذهبية التي سبق لي أن رأيتها، ثمّ وصلنا أخيراً إلى باب مصنوع من خشب الماهوجاني الذي يؤدي إلى جناح لورد هاي، وتوقعت أن هذا الجناح كان في الماضي للودوم مستشار الملك جان، لأنه من الأجنحة القليلة التي تصلها الكهرباء، ولكنني لم أكن واثقاً من ذلك.

سحبتْ ليا خنجرها، وأخرجتُ مسدسي، ولكن بقينا خلف آيوتا الذي التفت إلى جايا وحرّك شفتيه من دون صوت قائلاً: «خلف الباب؟».

أومأت جايا، فطرقه آيوتا بقوة بيده الكبيرة القذرة وقال: «هل هناك أحد؟ هل نستطيع الدخول؟».

أدار المقبض (الذهبي طبعاً) ولم ينتظر الإجابة، ووضع كتفه على الباب ودفعه، فخرج صوت تأوه من الداخل، فشد آيوتا الباب إليه ودفعه بقوة مجدداً، فسمعنا التأوه مرةً أخرى، ولذلك أعاد آيوتا الكرة خمس مرات، ونبحت رادار، وعندما سحب الباب إليه مجدداً، سقط رجل فجأةً من خلفه إلى البساط الأحمر السميك الممدود على أرضية الممر، وقد سالت الدماء من جبهته وأنفه وفمه، وكان يحمل سكيناً طويلاً في يده، ثمّ التفت كي يرانا، وتعرفت إليه مباشرةً؛ إنه الرجل ذو الندبة الذي همس إلى بيترا في جناح الشخصيات المهمة، وقد رفع سكينه ولوح بها، مسبباً جرحاً سطحياً في مقدمة ساق آيوتا المشعرة.

قال آيوتا: «لا، لا، توقف عن هذا أيها الصغير»، وداس على رسغه وضغط حتّى انفتحت يد الرجل ذو الندبة وألقى السكين على الأرض، فالتقطتها ووضعتها في حزام الكونشو في الجهة المقابلة لقراب المسدس.

ركعت ليا على ركبتيها إلى جواره، وقد تعرف إليها وابتسم، وسالت الدماء من شفتيه المتشققتين، وقال: «أدعى جيف أيتها الأميرة ليا. لقد وضعت ضمادةً على ذراعك عندما جرحتها في طفولتك، هل تتذكرين ذلك؟».

أومأت ليا.

«كما أخرجت فرسك الصغيرة من حفرة الوحل، وقد ساعدني رجلان آخران حينها، ولكنني كنت قوياً ودفعت أكثر منهما من أجلك يا عزيزتي، هل تذكرين ذلك أيضاً؟».

أومأت ليا مجدداً.

«أقسم إنني لم أنوَ المشاركة في هذا الأمر يا سيدتي، هل تتركينني أرحل من أجل ذكرى الأيام الخوالي في طفولتك وحين كانت ليليمار أرضاً جميلةً؟».

أومأت ليا وأرادت تركه يرحل فعلاً، فأقحمت خنجرها سريعاً في إحدى عينيه المحدقتين إلى أعلى.

6

افتقر الجناح إلى الكهرباء، ولكن ربما أطفأ جيف ذو الندبة – وربما لفظ اسمه جيوف –مصابيح الغاز كي يستطيع تنفيذ لعبته القذرة، وأعتقد أن دخول خمسة أشخاص قد صدمه، ناهيك عن اكتشافنا مخبأه، إضافةً إلى رؤيته السناب يمتطي ظهر كلبتي مثل رعاة البقر.

وجدت إيريس مقبضاً نحاسياً يتحكم بالغاز وأضاءت المصابيح إلى أقصى حدّ، عثرنا على كيلين في الغرفة المجاورة المظلمة مستلقياً على سرير ذو قبة في المعطف الأحمر نفسه الذي ارتداه عندما استجوبني، وقد شبك يديه على صدره، وسرّح شعره إلى الخلف، وغلفته هالته الزرقاء

الخافتة، وبدت مثل مسحوق تجميل على أجفانه المغلفة، فاقتربنا منه دون أن يحرك ساكناً، وقد كانت المرة الأولى التي أرى فيها شخصاً يجسد الأموات إلى هذا الحدّ، وقد اقترب من أن يصبح ميتاً حقاً، وفكرت في إمكانية وجود مياه في المرحاض الواقع إلى يسار الغرفة، ولكنه امتلك صنبوراً بالتأكيد، ورأيت أن صديقي القديم لورد هاي يستحق حماماً جيداً.

قالت جايا: «أين السناب؟».

وقالت إيريس في الوقت نفسه: «ما هذا الصوت؟».

سمعت مزيجاً من الصرير والاصطكاك، قاطعه حفيف حاد وسريع، وبدأ الصوت يقترب، فنبحت رادار، فالتفتت ناحية غرفة المعيشة لأرى ما يجري، ولاحظت أن آيوتا شاحب جداً، ولكن ركزت انتباهي على مدخل غرفة النوم حيث دخل السناب بعد وثبتين رشيقتين، ثمّ قفز جانباً، كي يتبعه ساكنو جدران القصر وأماكنه المظلمة؛ إذ تدفق فوج هائل من الجرذان الرمادية وسط صراخ جايا وإيريس، وقد عجزت ليا عن ذلك ولكنها تراجعت ناحية الحائط وقد اتسعت عيناها ووضعت يديها على ندبة فمها.

تيقنت أن السناب استدعاهم بصفته سيد المخلوقات الصغيرة، مع أن معظم الجرذان تفوقه حجماً.

تراجعت عن السرير، وأمسكت بآيوتا الذي تعثر، ولاحظت أن تنفسه سريع، ولكنني انشغلت في مراقبة الجرذان ولم أُدرك أن مكروهاً أصابه، إذ تسلقت الجرذان أغطية السرير المتدلية وصولاً إلى جسد لورد هاي الذي أضاءت عيناه بقوة جعلت النظر إليهما صعباً، واستحالت هالته الزرقاء الشاحبة قاتمةً ونقيةً، فأحرقت موجة الجرذان الأولى عندما دخلتها، وفاحت رائحة اللحم المشوي والفراء المحروق الكريهة، ولكن الهجوم استمر وشقت مجموعات جديدة طريقها بين جثث أقرانها، وقد جاهد كيلين كي يبعدها عنه، ورفع ذراعه وسط كومة الجرذان الهائجة وأخذ يضربها، وقد

تشبث أحدها بيده العظمية ولف ذيله حول رسغها وتأرجح معها ذهاباً وإياباً مثل رقاص الساعة، واستطعت رؤية ضوء أزرق يلمع بين الفينة والأخرى وسط الجرذان، ثمّ صرخ كيلين، ولاحظت أن جرذاً بحجم القط قد تمزقت شفته العليا كاشفةً عن أسنانه المتلاصقة. واصلت الجرذان التدفق عبر باب غرفة النوم واحتلال السرير حتّى دفن لورد هاي وسط كومة من الفراء الحية والذيول والأسنان التي تعض.

سمعت صوتاً مكتوماً بجواري، وعندما نظرت رأيت آيوتا وقد انهار أرضاً في زاوية الغرفة مقابل مكان تجمع النسوة الثلاث ونباح رادار التي شدتها ليا من طوقها بكلتا يديها، ولاحظت خروج رغوة بيضاء من زاويتي فم آيوتا ومقدم ساقه، فنظر إليّ وحاول الابتسام.

«السكين مسـ...».

تفقدت سكين جيف فوجدته على حاله، ما أثار استغرابي، ولكن فهمت بعد برهة الكلمة التي عجز آي عن إنهائها.

لمع ضوء وسط انفجار مكتوم، وتطايرت الجرذان في الأنحاء، وقد اشتعلت النيران في بعضها وتصاعد الدخان من بعضها الآخر، واصطدم أحدها بصدري وانزلق حتّى أسفل ثيابي الممزقة ملوثاً إياها بأحشائه، ثمّ سمعت صراخ جايا وإيريس مجدداً، وتخللها صوت صرصار الليل المميز الصادر عن رفرفة أجنحة السناب، وقد أطاعته الجرذان مباشرةً وغادرت من حيث جاءت تاركةً خلفها مئات الجثث، وغطت أحشاء الضحايا ودماؤها سرير كيلين الذي تحول شخصياً إلى هيكل عظمي مفكك تعلوه جمجمته الضاحكة، والمستلقية بشكل منحرف على وسادة حريرية.

حاولت حمل آيوتا، ولكن فاق وزنه قدرتي كثيراً، فصرخت: «ساعديني يا إيريس، لقد أصيب آي، إنه في وضع سيئ».

شقت إيريس طريقها عبر موجة الجرذان المتلاشية، وقفزت صارخة عندما مشت فوق قدميها... وقد تجنبت جميعها عض أي منا، ثمّ تبعتها ليا مباشرةً، وترددت جايا قبل أن تلحق بهما.

رفعت آيوتا من تحت ذراعيه، وأخذت ليا وإيريس ساقيه، وحملناه محاولين تجنب إسقاطه على الجرذان الأخيرة المغادرة، ولاحظت أن أحدها خسر قائمتيه الخلفيتين ولكن واظب على جر نفسه خلف رفاقه.

قال آيوتا بصعوبة وقد أوشك على الاختناق وخرجت الرغوة البيضاء من فمه: «أنا آسف، لقد أردت المتابعة حتّى النهاية...».

«اصمت واحتفظ بأنفاسك».

مددناه على الأريكة الزرقاء الطويلة، وبدأ يسعل ويبصق رغوة متخثرة من فمه إلى وجه ليا التي انحنت كي تسرّح شعره الأسود إلى الخلف بعيداً عن جبهته المتعرقة، كما أحضرت جايا منديلاً أو شيئاً يشبهه من سطع الطاولة المرسوم عليها الحصان ووحيد القرن، ومسحت وجه ليا دون أن تلاحظ ذلك، بل ركّزت أنظارها على آيوتا، ورأيت اللطف والشفقة والرحمة في عينيها.

حاول آيوتا الابتسام أمامها ثمّ التفت إليّ وقال: «لقد كان نصل السكين مسموماً، إنها خدعة... قديمة».

أومأت وفكرت في استهتاري عندما أقحمت السكين في حزام الكونشو، ربما كنت لأصيب نفسي، وأرقد رفقة آي حينها وأبصق الرغوة من فمي.

نظر إلى ليا مجدداً، ورفع ذراعه ببطء شديد وكأنها تزن خمسين كيلوغراماً، ووضع معصم راحته على جبهته وقال: «نفذي واجبك يا ملكتي عندما يحين الوقت المناسب»، وأنزل يده.

لقد رحل آيوتا الذي رأيته في لقائنا الأول يمسك قضبان زنزانته كالقرد، ورغم حجمه الكبير والمعاناة التي خاضها، إلا أن جرحاً صغيراً في الجهة الأمامية من ساقه أرسله إلى عالم الأموات.

أغلقت ليا عينيه المفتوحتين، وضغطت ندبة فمها إلى إحدى وجنتيه الخشنتين، وكان ذلك أقرب محاكاة للقبلة، ثمّ نهضت وأشارت إلى الباب، فتبعناها متجاوزين جثث الجرذان التي ماتت وهي تغادر الغرفة، ثمّ توقفت ليا قبل الوصول إلى الممر، والتفتت خلفها، ووضعت يديها على حلقها.

تحدث آيوتا مرةً أخيرةً مثل فلادا والسناب.

«أقسم إن ملكة إمبيس ستؤدي واجبها».

الفصل الثلاثون

خطوة واحدة إضافية- الزنزانة- العزم- نجوم غريبة-

البئر المظلمة- غوغماغوغ- العضة.

1

تبعنا آثار الجرذان الجريحة والميتة حتّى الفتحة في الألواح الخشبية؛ وقد ساعدت إيريس واحداً بثلاث قوائم كي يدخل، ثمّ ابتسمت ومسحت يديها على ملابسها (رغم عدم فائدة ذلك نظراً إلى أنها متسخة ومغطاة بالدماء)، ثمّ وصلنا إلى باب أفضى إلى سلالم حلزونيةً خلفه، واعتقدت أنها استخدمتْ كمخرج طوارئ من أجل أفراد الأسرة الملكية في حال نشب حريق أو ما شابه، ثمّ ربتّت كتف ليا.

قلت: «علينا القيام بخطوة إضافية قبل ملاحقة قاتل الرحلة؛ أريد الذهاب إلى غرفة التعذيب في ديب مالين، هل تستطيعين أخذنا إلى هناك؟».

وافقت ليا مباشرةً، وبدت مرهقة وهي تومئ، فلاحظت بقاء بعض الرغوة المختلطة بالدم على خدها، فمددت يدي ومسحتها، وسمحت لي بذلك ولم تتراجع هذه المرة.

«شكراً لكِ، لقد ساعدنا شخص على الهروب وأعتقد أنه...».

استدارت ليا قبل أن أكمل كلامي، وفكّرتُ في أن وودي وكلاوديا ورفاقهما قد دخلوا المدينة بعد أن ازداد عددهم ليصبحوا وكأنهم جيش حقيقي، ولعلهم يُجهزون الآن على ما بقي من جنود الليل خلال نومهم في الثكنات إن وجدت، وهذا ما بعث السرور في نفسي، ولكن مر الوقت سريعاً تحت الأرض ولم يكن هناك ساعة شمسية تعود بالزمن إلى الخلف.

نزلنا السلالم الحلزونية طويلاً، ولم ننبس ببنت شفة بعد أن أثقلت وفاة آيوتا كواهلنا جميعاً بمن فينا رادار، التي مشت خلفي واصطدم أنفها بربلة ساقي نظراً إلى ضيق المساحة، وقد أنزلت ذيلها وأذنيها. ازداد الهواء برودة، ونزت المياه من الطحالب التي نمت على الجدران الصخرية، والتي يعود تاريخ تشيدها لمئات بل آلاف السنوات.

عندها تسللت رائحة خفيفة إلى أنفي، ثمّ ضحكت إيريس وقالت: «يا إلهي، لقد عادت الأحداث بنا إلى حيث بدأنا»، مع أن الأمر لم يكن مبهجاً على الإطلاق.

تجاوزنا عدة أبواب إضافية في طريقنا إلى الأسفل، والتي تراوحت أحجامها بين الكبير والصغير مثل الذي توقفت عنده ليا وأشارت إليه، فنزلنا درجات إضافية أفضت إلى غرفة، وعندما دفعت الباب انفتح، واضطررت أن أنحني كثيراً كي أمر عبره فوجدت نفسي في مطبخ آخر أصغر من السابق وأقرب إلى خزانة مقارنةً به، إذ امتلك موقداً واحداً من دون فرن، ومشواةً طويلةً لعلها تعمل على الغاز الذي نفد الآن، وضِعتْ عليها مجموعة من النقانق المحترقة والمسودة.

أصدرت جايا صوتاً بين السعال والتقيؤ، وأعتقد أنها فكّرت في الوجبات التي تناولناها في زنزاناتنا، وخاصةً قبل وقت اللعب والجولة الأولى من الفير ون، وقد قرأت مرةً عن اضطراب ما بعد الصدمة، ولكن القراءة عن أمر تختلف تماماً عن تجربته.

هناك على الرف المجاور للمشواة كوب قصديري يشبه ما استعملناه في السجن، ولكن قعره لم يكن مثقوباً، وقد ملأته عيدان الثقاب مثل التي أعطاني إياها بيرسي، فأخذت الكوب وأقحمته في قراب المسدس في حزام الكونشو لأنني لم أمتلك جيوباً، ووضعت سلاحي في مكان آخر.

قادتنا ليا إلى الباب، واختلست النظر عبره، ثمّ أشارت إلينا أن نتبعها واستعجالنا مجدداً، وتساءلت كم ساعةً مرت على ما نقوم به، إذ كان الوقت نهاراً بالطبع، ولكن هل يهم إن قبّل بيلا وأرابيلا بعضهما على الجانب الآخر من العالم؟ اعتقدت أن قاتل الرحلة سبق له أن وصل إلى البئر المظلمة وينتظرها أن تنفتح كي يعقد صفقةً جديدةً مع المخلوق القاطن فيها، والذي إما يجهل النتائج السيئة المترتبة على ذلك، وإما لا يكترث حيالها، وقد رجحت الاحتمال الأخير أكثر. مع ذلك يريد قاتل الرحلة استدعاءه من عالمه في البئر إلى هذا العالم... وربما عالمي هو التالي على القائمة، لذلك فكّرت في إخبار ليا أن تنسى أمر أخذنا إلى غرفة التعذيب نظراً إلى احتمال عدم وجود بيرسي – بيرسيفال – هناك، وربما موته، كما أن إيقاف قاتل الرحلة أهم منه.

لمست إيريس كتفي وقالت: «هل أنت متأكد من رغبتك في هذا الأمر أيها الأمير تشارلي؟ هل من الحكمة فعل ذلك؟».

لا، لم يكن تصرفاً حكيماً، ولكننا ما كنا لنقف في هذا المكان لولا بيرسيفال الذي وصلت إصابته بالداء الرمادي إلى مرحلة متقدمة جعلته بالكاد قادراً على الكلام.

قلت بخشونة واختصار: «سنذهب».

وضعت إيريس راحة يدها على جبهتها والتزمت الصمت.

2

تعرفت إلى الممر حيث انتظرتنا ليا وهي تمشي جيئةً وذهاباً وتمسك مقبض سيفها ثمّ تفلته، فهو يؤدي إلى طريق بجوار المطبخ الإضافي في الجهة اليمنى من الزنزانات، بينما تقع غرفة التعذيب في مكان قريب إلى اليسار.

ركضتُ تاركاً الآخرين خلفي باستثناء رادار التي هرولت إلى جواري وتدلى لسانها من جانب فمها، وبدا أطول من المعتاد، حتّى وصلت باب الغرفة وانتظرت طويلاً وتأكدت أنني سمعت شيئاً يشبه الدعاء واقتصر على كلمة أرجوك، ولا شيء سواها، ثمّ دخلت.

في البداية، ظننت المكان فارغاً... إن كان بيرسي محتجزاً في العذراء الحديدية كنت سأرى الدماء تسيل منها، ولكن لاحظت بدلاً من ذلك كومة قماش تتحرك في الزاوية المقابلة، وبرز فيها وجه حاول الابتسام عبر بقايا فمه عند رؤيتي.

صرخت وركضت إليه: «بيرسي. بيرسيفال».

حاول أن يلقي التحية عليّ.

«لا، لا، بل أنا من تجب عليه تحيتك، هل تستطيع الوقوف؟».

ساعدت بيرسي في الوقوف على قدميه، واعتقدت أنه لف إحدى يديه في جزء من سترته القذرة، ولكن عندما أنعمت النظر وجدت قطعة القماش حول معصمه وقد عقدت بشدة منعاً للنزف، ولاحظت وجود قشرة داكنة واسعة على الصخور حيث سبق له أن جلس؛ لقد قطع الأوغاد يده.

وصل الآخرون، وانتظرت إيريس وجايا عند المدخل أما ليا فدخلت، وعندما رآها بيرسيفال رفع بقايا يده إلى جبهته وبدأ يصيح عبارةً غير مفهومة ولكنها أقرب ما تكون إلى: «مولاتي الأميرة».

حاول أن يركع أمامها، وكاد أن يسقط ما لم أُمسك به، ولكن ليا اندفعت إليه وطوقت عنقه بذراعيها واحتضنته رغم قذارته وشكله المشوه والدماء التي تغطيه، وقد أحببتُ ما أقدمتْ عليه.

سألته: «هل يمكنك المشي ببطء والاستراحة بين الفينة والأخرى؟ لأننا مستعجلون جداً».

أومأ بيرسي.

«هل تعرف سبيل الخروج؟».

أومأ مجدداً.

قلت: «حان وقت افتراقك عنا يا جايا، سيرشدك بيرسيفال إلى الخارج، فرافقيه وامنحيه قسطاً من الراحة عندما يحتاج إليه».

«ولكنني أريد...».

«لا أهمية لمَ ترغبين به الآن، كل ما أريده منك أن تخرجيه من هذه... هذه الهاوية، وسيصل الآخرون كي يدعموننا قريباً- لم أكن واثقاً من ذلك بل هذا ما كنت أتمناه- فأوصليه إلى وودي وكلاوديا كي ينال العناية الطبية اللازمة»، وقد استعملت عبارةً غير العناية الطبية، ولكن جايا أومأت.

احتضنت بيرسيفال مثل ليا وقلت: «شكراً لك يا صديقي، يجب أن يبنوا تمثالاً من أجلك إذا نجحنا في هذه المهمة»، وتابعت في نفسي: «ولعل الفراشات تحط على ذراعيك المفتوحتين»، وتوجهت إلى الباب حيث تنتظرني ليا.

وضعت جايا إحدى ذراعيها حول رقبته وقالت: «سنمشي كل خطوة معاً، أرشدني فحسب يا بيرسي».

سمعت صوت بيرسيفال فالتفتت إليه، ووجدته يجاهد كي يقول شيئاً، ثمّ أشار إلى الباب، وتمتم مجدداً، وأشار ناحية ليا، ثمّ إلى الأعلى.

نظرت إلى ليا وسألتها: «هل فهمت ما قاله؟».

أومأت ليا، وقد استحال وجهها شاحباً جداً، حتّى بدت قرحة التغذية خاصتها وكأنها شامة سوداء.

سألت إيريس: «ماذا عنك؟».

أجابت: «سمعت عبارات قاتل الرحلة، وأربعة آخرين إضافةً إلى الوضيعة، وربما قال الساحرة، وأعتقد أنه يقصد بيترا في الحالتين، تلك السافلة ذات الشامة على وجهها والتي جلست إلى جوار قاتل الرحلة في جناح الشخصيات المهمة، كما قال إن الأميرة تعرف الطريق، وأضاف شيئاً عن بيلا وأرابيلا».

قالت جايا: «ستحدث القبلة قريباً»، فأومأ بيرسيفال.

«اعتني به يا جايا، وأخرجيه من هنا».

«سأفعل ذلك إن كان يعرف الطريق، وانتبهوا إلى أنفسكم كي أراكم جميعاً مجدداً»، ثمّ داعبت رادار سريعاً مودعةً إياها.

3

قادتنا ليا بعيداً عن السلالم الحلزونية إلى ممر مختلف، واتجهت إلى أحد الأبواب وفتحته، ولكن هزت رأسها، وتابعت طريقها.

همست إيريس: «هل تعرف الأميرة الطريق حقاً؟».

«أعتقد ذلك».

«بل تأمل ذلك».

«لقد غابت عن هذا المكان فترةً طويلةً».

تجاوزنا باباً آخر وانتقلنا إلى التالي، فحدقت ليا عبره ثمّ أشارت إليه، وناحية كوب عيدان الثقاب الذي أخذته من المطبخ، فحاولت خدش أحد أعواد الثقاب على الجزء الخلفي من بنطالي، فقد رأيت تلك الخدعة المميزة في أحد أفلام رعاة البقر على قناة (تي سي أم)، ولكنني فشلتُ في تنفيذها، فاستعملت الحائط الصخري إلى جوار الباب ورفعت عود الثقاب أمام غرفة غطت ألواح خشبية جدارها بدل الحجارة، واحتشدت بشتى أنواع الملابس من البذلات الرسمية إلى ملابس الطباخين والعمال، والسترات الصوفية، ولاحظت وجود كومة من الثياب قديمة الطراز مرمية تحت صف من الأوتاد الخشبية، ورأيت في الزاوية صندوقاً يحوي على قفازات بيضاء استحالت صفراء بمرور الوقت.

دخلت ليا الغرفة، وتبعتها رادار والتي لم تكف عن النظر إليّ فأشعلت عود ثقاب آخر ومشيت خلفهما. وقفت الأميرة على رؤوس أصابعها، وأمسكت وتدين خشبيين وشدتهما فلم يحدث شيء، فتراجعت وأشارت إليّ.

أعطيت إيريس كوب عيدان الثقاب وقبضت على الوتدين وسحبتهما، إلا أنني أحسست بدفعة خفيفة مع أن كل شيء بقي على حاله، فسحبت بقوة أكبر كي يخرج الجدار من مكانه وسط صرير مفصلاته الخفية، ويفسح المجال أمام نسمة هواء ثقيلة، فأضاءت إيريس عود ثقاب آخر أمام شبكات العنكبوت الممزقة والمتدلية في هيئة خرق رمادية، وشكّل ذلك دليلاً قاطعاً على أن أحداً سبق له أن مرّ من هنا، وأضف إليه كومة الثياب الساقطة عن الأوتاد، فأشعلت عود ثقاب وانحنيت كأنني المحقق شارلوك هولمز كي أرى

مجموعةً من آثار الأقدام المتداخلة وسط الغبار، وربما أمكنني استنتاج عدد الأفراد الذين عبروا هذا الباب الخفي، والمسافة التي قطعوها، ولكنني لست شارلوك في الواقع، إلا أنني قدّرت أنهم حملوا شيئاً ثقيلاً نظراً إلى عدم وضوح الآثار، إذ تصورتهم يجرون أقدامهم وهم يمشون، وفكرت في محمل قاتل الرحلة الفاخر.

نزلنا بضع درجات، وانعطفنا يساراً كي نجد آثار أقدام أخرى على الأرضية المغبرة تحت الضوء الخافت المخضر الصادر عن شيء آخر غير مصابيح الغاز، فلم يعجبني الأمر، ولم تعجبني الهمسات التي حملها الهواء إليّ.

قالت: «يحتضر والدك وسط قذارته».

لهثت إيريس وقالت: «لقد عادت الأصوات».

قلت: «تجنبي الاستماع إليها».

«لماذا لا تطلب مني كتم أنفاسي أيضاً أيها الأمير تشارلي؟».

أومأت ليا إلينا، فبدأنا نزول السلالم، وهنا أنّت رادار وبدت قلقة، ولعلها سمعت الأصوات أيضاً.

4

ازدادت شدة الأضواء الخضراء الراشحة من الجدران كلما نزلنا أكثر، وكذلك قوة الأصوات، وهمست أشياء مزعجةً معظمها عن مغامراتي الشنيعة رفقة بيرتي بيرد، وقد بكت إيريس خلفي بهدوء، وتمتمت مرةً: «ألن تتوقفي أبداً؟ لم أقصد ذلك، أرجوك أن تتوقفي».

أوشكت أن أتمنى مواجهة هانا أو ريد مولي مجدداً بدل الأصوات، فهما تملكان جسداً مادياً تستطيع ضربه على الأقل.

في تلك الأثناء، حافظت ايا على هدوئها ولم توحِ لنا بأنها تسمع شيئاً، ونزلت السلالم منتصبةً وثابتة الخطوات، وتأرجح شعرها الأسود المربوط إلى الخلف على ظهرها، وقد كرهت عنادها ورفضها الاعتراف بأن قاتل الرحلة شقيقها، ألم نسمع رفاقه يصيحون باسمه في فير ون؟ ولكنني أحببت شجاعتها.

لقد أحببتها.

قادتنا الدرجات إلى قوس تغطيه الطحالب وشباك العناكب الممزقة وكنا أدنى من ديب مالين بخمسمئة قدم تقريباً وربما أكثر، حيث استبدل أزيز مبهم بالأصوات وصدر إما عن صخور الجدار الرطبة وإما عن الضوء الأخضر الذي توهج أكثر هناك، وتبين لي أن مصدر هذا الأزيز كائن حي، وشعرت أننا نقترب من طاقة عظيمة، وعندها زالت كل شكوكي السابقة حول وجود الشر كقوة حقيقية، أو شيء منفصل عن نظيره القاطن في قلوب البشر الفانين وعقولهم، فقد وقفنا على شفا منبعه، وكنا ندنو منه مع كل خطوة نخطوها.

لمست كتف ليا فأجفلت، ولكن الطمأنينة عادت إليها عندما رأتني، ولاحظت اتساع عينيها وشدة سوادهما، وتبينت من وجهها مقدار الرعب المستتر وراء حزمها الظاهر، فربما هي خائفة أكثر منا لأنها عرفت أشياء أكثر.

همست: «هل سبق لكِ أن جئتِ إلى هنا برفقة إلدن في طفولتكما؟».

أومأت بالإيجاب، وقبضت الهواء بيدها.

«وأمسكتما يدي بعضكما؟».

أومأت مجدداً.

استطعت تخيلهما يمسكان يديّ بعضهما ويركضان في كل مكان... ولكن ذلك خطأ؛ لعل ليا استطاعت الركض ولكن إلدن لم يستطع لأن قدميه مشوهتان، وبالتالي سارت إلى جواره متجاهلةً رغبتها في الإسراع واكتشاف ما أمامهما، أو المكان السري الجديد، أو المفاجأة التي انتظرتهما، وذلك لأنها أحبته.

«هل استخدم عكازاً؟».

رفعت ليا إصبعيها السبابة والوسطى في شكل حرف (V)، أي عكازان.

اكتشفا معاً كل الأماكن باستثناء واحد، إذ قال وودي: «لقد كرهت ليا الكتب، في حين كان إلدن قارئاً نهماً».

«سبق لإلدن أن عرف بأمر الباب السري في مخزن الملابس أليس كذلك؟ لقد قرأ عنه في المكتبة، ولعله يعرف وجود أماكن أخرى أيضاً».

أجل.

تخيلت الكتب القديمة وربما المحظورة منها مثل كتاب نيكرونوميكون الخيالي الذي أحب لوفكرافت ذكره، مفتوحةً على الطاولة كي تشبع شغف إلدن صاحب القدمين المشوهتين والظهر الأحدب والوجه المليء بالكتل في منفاه بعيداً عن ذاكرة الآخرين – باستثناء شقيقته الصغرى – إلا في سياق مقالب السخرية منه (وقد خبرت هذا النوع من المزاح مع بيرتي بيرد خلال فترتي المظلمة)، وهل كان ليمنعهم شيء عن نسيانه عند وراثة شقيقه الأكبر الوسيم روبرت العرش؟ وربما كانت المنّية ستوافيه قبل أن يتقلد شقيقه الحكم، إذ عاش أمثال إلدن المريض الأعرج عاشق الكتب فترةً قصيرةً، وتوفوا بعد أن يعانوا من المرض والسعال والحمى.

قرأ إلدن الكتب القديمة المهملة الموضوعة على الرفوف العالية أو في الخزائن المقفلة بعد أن تطفل وفتحها، ولعله بحث فيها بدايةً عن قوة يستخدمها ضد تنمر شقيقه وكلام شقيقاته الجارح، ولم تراوده أفكار الانتقام إلا في وقت لاحق.

«لقد اقترحت زيارة أماكن أخرى من القصر، ولكن ليس هذا المكان، أليس كذلك يا ليا؟».

أومأت بالإيجاب.

«وصحيح أنك استمتعت خلال اكتشاف الغرف السرية ومنصة المصعد، ولكن علمت مدى سوء ما تخفيه وكرهت هذا القسم من القصر، أليس كذلك؟».

تجمدت ملامح ليا ولم توحِ بالإيجاب أو النفي، في حين أغرقت الدموع عينيها الداكنتين القلقتين.

«بينما جذب هذا المكان إلدن كثيراً، أليس كلامي صحيحاً؟».

حرّكت ليا يديها مستعجلة إيانا مجدداً، ونظرت إليّ وتابعت المشي منتصبةً.

لقد استعادة حزمها مجدداً.

5

سبقتنا رادار قليلاً، ووصلت إلى شيء ملقى على أرضية الممر وأخذت تشمه، وتبيّن أنه قطعة قماش حريري خضراء، فالتقطتها وفحصتها، ثمّ وضعتها في قراب المسدس إلى جوار كوب عيدان الثقاب ونسيت أمرها.

كان الطريق عريضاً ومرتفع السقف ويشبه نفقاً أكثر منه ممراً، وافترق في نهايته إلى ثلاث سبل أضاءها ذلك الضوء الأخضر النابض، ونحتت

صخرة أعلى كل منها في هيئة مخلوق سبق لي أن رأيت تمثاله مكسوراً إلى نصفين على أرضية جناح السكن: كان شبيه الحبار بمجسات ممتدة أمام وجهه المرعب، وقد اعتبر هذا الكائن لعنةً بالقدر نفسه الذي اعتبرت فيه الفراشات الكبيرة نعمة.

قلت في نفسي: «إنها قصة خيالية أخرى، ولكنها لا تستهدف الأطفال بل البالغين، فهي تخلو من ذئب شرير كبير أو عملاق أو القزم رومبيلستيلتسكين، وها أنا أقف الآن أمام صورة كثولو التي تعلو الأقواس، هل هذا ما يبدو عليه إله الآلهة غوغماغوغ؟ وهل تراوده الأحلام الشريرة عن بقايا مدينة رلييه؟وهل هو نفسه من يريد إلدن منه معروفاً آخر؟».

في البدء، وقفت ليا واتجهت ناحية الممر الأيسر، ولكنها ما لبثت أن اتجهت ناحية الأوسط، وترددت مجدداً لأنها نظرت إلى الأمام، في الوقت الذي نظرت فيه إلى الأسفل كي أرى آثار الأقدام على الغبار تتجه يميناً، أي حيث ذهب قاتل الرحلة برفقة حاشيته، ولكنني انتظرت كي أختبر ذاكرتها، وقد نجحتْ في ذلك، ودخلت الممر الأيمن، فتبعناها بدورنا، وازداد الرائحة الكريهة حولنا سوءاً، في حين حافظ الطنين على شدته، ولكن تعددت مصادره، كما برزت من شقوق الجدران فطور مترهلة مشوهة بيضاء مثل أصابع يد رجل ميت، في البداية اعتقدت أنني تخيّلتها، ولكن تبيّن أنها حقيقة.

قالت إيريس في صوت ضعيف وبائس: «هذا رهيب، لقد ظننت أن مالين سيئة... وكذلك ملعب القتال، ولكنهما لا شيء مقارنةً بهذا المكان».

التزمتُ الصمت لأنها كانت محقة في ما توصلت إليه.

تابعنا انحدارنا إلى الأسفل، وازدادت الرائحة سوءاً، وازدادت شدة الطنين حتّى تجاوز الجدران واستطعت سماعه داخل رأسي وهذا ما شوش تفكيري إذا لم أرد أن أقول إنه منعني من التفكير، ولم أعلم أين موقعنا نسبةً إلى العالم الخارجي، ولكننا بالتأكيد تجاوزنا حدود القصر، كما تلاشت

شباك العناكب وآثار الأقدام أمامنا تدريجياً نظراً إلى غياب الغبار عن أرضية هذا المكان البائس.

مع تقدمنا تغير شكل الجدران، فاستبدلت حجيرات زجاجية ضخمة ببعض الصخور، وكانت خضراء داكنةً واحتوت بداخلها خطوطاً سوداء متحركةً اندفع أحد طرفيها عديمة الرأس نحونا واستحالت مقدمته فماً، فصرخت إيريس بوهن، وهرولت رادار إليّ ولامست ساقي في كل خطوة.

أخيراً، دخلنا غرفة من الزجاج الأخضر الداكن ذات سقف مقبب، وانتشرت الفروع السوداء المتعرشة في كل مكان داخل جدرانها، وتحركت باستمرار راسمةً أشكالاً تتغير عندما تنظر إليها... بالإضافة إلى وجوه أشخاص أيضاً...

قلت لإيريس: «إياك والنظر إلى تلك الأشياء، أعتقد أنها تمتلك القدرة على التنويم المغناطيسي»، وتصوّرت أن ليا عرفت ذلك مسبقاً لأنها تذكرت الطريق إلى هنا.

وقفت ليا تحت مركز القبة المخيفة، ونظرت حولها محتارةً بين عشرات الممرات والتي يغمرها الضوء الأخضر النابض.

همست إيريس بصوت مرتعش: «آسفة يا تشارلي، ولكنني عاجزة تجاهلها».

قلت: «لست مضطرةً إلى مواجهتها... عودي أو ابقي هنا وانتظرينا»، بدا صوتي خافتاً وغريباً، ولعل ذلك بسبب الطنين، ولكنني وجدته أقرب إلى صوتي في شخصية تشارلي ريد شريك بيرتي بيرد في ألاعيبه القذرة، باستثناء الجملة الثانية النابعة عن الجانب اللطيف منه.

دارت ليا حول نفسها ببطء، وحدقت إلى كل ممر بدوره، ثمّ التفتت إليّ ورفعت يديها وهزتهما.

لا أعرف.

«هنا انتهت رحلتك برفقة إلدن الذي تابع بمفرده أليس كذلك؟».

أجل.

«ولكنه عاد في النهاية».

أجل.

تصورت كيف انتظرت تلك الفتاة الصغيرة وحيدةً بثبات وحزم في هذه الغرفة الخضراء الغريبة ذات الرسوم العجيبة التي تتحرك الخطوط السوداء في جدرانها، ولا يجب أن ننسى الأصوات الماكرة.

«هل سبق لك أن رافقته إلى هنا؟».

أجل، ثمّ أشارت إلى الأعلى فلم أفهم قصدها.

«وهل جاء في وقت لاحق من دونك؟».

ظلت ساكنة فترةً طويلةً... ثمّ أومأت: أجل.

«وفي إحدى المرات ذهب ولم يعد».

أجل.

«ولكنك تجنبتِ اللحاق به، أو وصلتِ إلى هنا وخفتِ التقدم أكثر، أليس كذلك؟».

غطت ليا وجهها، وكانت حركتها هذه الإجابة التي أنتظرها.

فجأةً، صرخت إيريس: «سأعود يا تشارلي، أنا آسفة، ولكنني... لا أستطيع».

هربت إيريس ناحية المدخل وتبعتها رادار، وتركت لها حرية مرافقتها، في تلك الأثناء، اجتاح الصوت عظامي وأخبرني حدسي أن العالم الخارجي أضحى مجرد حلم بالنسبة إليّ وإلى الأميرة ليا.

عادت رادار، فركعتُ واحتضنتها محاولاً استمداد الطمأنينة منها قدر الإمكان.

«وافترضتِ أنه مات».

أومأت ليا، ثمّ قبضتْ على عنقها وقالت الكلمات التالية: «إنه ميت فعلاً».

لقد تحولتُ شيئاً فشيئاً إلى شخص أكثر حكمة من فتى المدرسة الثانوية الذي ظهر في حقل الخشخاش، وأدرك الأمير تشارلي الذي أنا عليه الآن ضرورة تصديق ليا ذلك، وإلا سيغدو حمل عدم محاولتها إنقاذ إلدن ثقيلاً جداً على كاهليها.

ولكن لعلها فهمت الأمر حينها.

6

احتشدت الأشياء السوداء تحتنا، ولم يكن لدينا شك في أنها جائعة، وتحركت ضمن الأرضية الزجاجية الخضراء المصقولة والعميقة جداً، والنظيفة تماماً من الغبار وآثار الأقدام، إذا كان قاتل الرحلة قد ترك شيئاً خلفه فقد مسحه فرد من حاشيته ليمنع أحداً من اقتفاء أثره واللحاق بهم، ومع عجز ليا عن تذكّر الاتجاه الصحيح، استحالت معرفة أي ممر سلكوا من بين الممرات الاثني عشر.

وربما هناك طريقة أخرى.

تذكرت المرأة ذات الشامة إلى جوار فمها وهي تصرخ: «اركعوا يا أصحاب الدماء القديمة!»، وكان اسمها بيترا، وارتدت ثوباً حريرياً أخضر.

أخرجت قطعة القماش الحريرية من القراب ووضعتها أمام رادار، فشمتها ولم تبدِ اهتماماً بها فقد شتتها الأصوات والأشكال السوداء المتحركة ضمن الزجاج، ولكن لم يكن في يدي، أو يدينا، حيلة سواها.

سألتها: «من أين ذهبوا؟»، وأشرت إلى الممرات، ولكن رادار وقفت ساكنةً واكتفت بالتحديق إليّ، وأدركت أن سوء هذا المكان قد زاد من نسبة غبائي؛ فرادار تفهم أوامر محددة، وليست عبارة من أين ذهبوا واحدةً منها، فأعدت الكرة ووضعت قطعة القماش أمام أنفها وقلت: «اعثري عليهم يا رادار».

في الوقت الذي قرّبت فيه رادار أنفها من الأرضية، اندفعت إحدى تلك الأشكال السوداء إليها، فقفزت إلى الخلف، ولكنها استأنفت عملها مجدداً، لقد مشت كلبتي الشجاعة، ثمّ تراجعت، والتفتت ناحية الممر الأيمن المجاور، ثمّ نظرت إليّ ونبحت.

لم تتردد ليا بالاندفاع إلى داخل الممر، فتبعتها، وقد تجاوزتني بمسافة كبيرة حينها، وكانت في منزلة عداءة سريعة وأنا الأخرق المجبر أن يلعب في القاعدة الأولى فقط، ووجدت أرضية الممر الزجاجية الخضراء منحدرةً، وإذا ازدادت ميلانها قليلاً ستفقدنا توازننا.

«انتظري يا ليا».

ولكنها تجاهلتني، فأسرعت قدر الإمكان محاولاً تجنب الانزلاق على الأرضية المنحدرة، وقد تفوقت رادار عليّ بفضل قوائمها الأربع وقرب جسدها من الأرض، وبدأ الطنين يتلاشى وكأن أحدهم أطفأ مضخّم صوت عملاقاً، ما منحنا بعض الراحة، كما تخافت الوهج الأخضر الصادر عن الجدار وحل محله في نهاية الممر ضوء أضعف منه، ولكن أكثر سطوعاً.

لقد خضت تجارب خياليةً في ذلك العالم، ولكن عجزت عن تصديق ما رأيته هناك، واعترض عقلي على الحقيقة المتجسدة أمام عيني؛ إذ دخلنا غرفةً أكبر كثيراً من سابقتها حيث الممرات الاثني عشر، واحتلت سقفها سماء الليل المرصعة بالنجوم الصفراء المتوهجة التي كانت مصدر الضوء.

اعتقدت أنني أحلم، ولكنها حقيقة؛ ألم أصل إلى إمبيس عبر نزول السلالم؟ لقد وجدت نفسي حينها على مشارف الوصول إلى عالم ثالث.

التفت سلالم أكثر حول عمود عملاق انبثق من صخرة صلبة، وركضت ليا عبرها بأقصى سرعتها، وعندما نظرت إلى الأسفل رأيت محمل قاتل الرحلة على عمق خمسمئة قدم أو أكثر وقد انسدلت ستائره الأرجوانية المطرزة بالذهب، وتأرجح حاملوه إلى جوار الحائط المنحني وراقبوا تلك النجوم، ورغم الحاجة إلى قوة وشجاعة كبيرتين من أجل حمل قاتل الرحلة طوال الطريق، ولكنهم بدوا من حيث أقف مع رادار صغار الحجم وخائفين.

انتصبت رافعة ضخمة وسط الأرضية الحجرية وبلغ طولها مئة ياردة على الأقل، وشابهت رافعات مواقع البناء في عالمي، ولكنها كانت خشبية ما أضفى عليها طابع المشنقة، وشكّلت صاريتها وذراعها المؤلفتين من قطع عديدة مثلثاً مثالياً، وقد ربط خطاف التحميل إلى باب ذي مفصلات، وليس إلى غطاء البئر الذي تخيلته عندما تصورت البئر المظلمة، وقد لمع تحته ضوء أخضر مشؤوم.

وقف مخلوق إلى جوار البئر مرتدياً قفطانه الأحمر، ووضع بشكل مائل تاج غالين فوق شعره الأبيض المتدلي، إنه قاتل الرحلة.

صرخت: «انتظري يا ليا».

تجاهلتني ولعلها أصبحت صماء مثل كلاوديا، وركضت عبر السلالم اللولبية الأخيرة وسط الضوء الخافت الصادر عن نجوم العالم الجديد المخيفة، فتبعتها حاملاً مسدس السيد بوديتش.

نظر حاملو المحمل إلى ليا عندما وقفت وباعدت ساقيها في وضعية المبارزة واستلت سيفها من غمده، في حين نبحت رادار بجنون إما بسبب خوفها من وجودنا في هذا المكان المرعب الذي اعتقدت أننا سنعلق فيه إلى الأبد، وإما لأنها اعتبرت الرجال يهددون ليا، وربما للسببين، عندما نظر قاتل الرحلة إلى الأعلى سقط التاج عن رأسه، وعندها خرج شيء- ليس ذراعاً- من تحت ردائه الأرجواني والتقطه، وقد عجزت عن معرفة ماهيته حينها (ولم أرغب في ذلك) وتجاهلته لأنني أردت الوصول إلى ليا، وأدركت فوات الأوان على إنقاذها من حاملي قاتل الرحلة، إذ اقتربت منهم كثيراً، ناهيك عن بعدهم عن مدى نيران مسدسي، ووجود ليا في مرماه.

حملت ليا السيف من مقبضه أمام معدتها، ثمّ سمعت أحد الحاملين في المقدمة يصرخ بعبارة ما، وفهمت منها كلمتي «لا، لا» ولم أفهم غيرهما، ولوّح بذراعيه خلال صعوده السلالم إلينا، وتبعه الثلاثة الآخرون، لم تجد ليا داعياً كي تضربه، لأنه اندفع مذعوراً وبلا هوادة نحو السيف، فانغرس الأخير فيه وخرج من الطرف الآخر وتناثرت الدماء في الأرجاء، فتأرجح الرجل ناحية الهاوية، ولم تتمكن ليا من انتزاع السيف منه، فوجد نفسها بين خيارين بسيطين وواضحين؛ إما أن تترك السيف وتحافظ على حياتها، وإما أن تتشبث به وتسقط معه، فاختارت الأول فهوى الرجل المطعون مسافة مئة قدم أو أكثر عن نقطة معركتهما القصيرة وارتطم بالقرب من المحمل الذي حمله مقابل وعود بالذهب، أو النساء، أو عقار في الريف، وربما الأمور الثلاثة معاً، ولكنه لم ينل إلا الموت.

تقدم الثلاثة الآخرون، ورغم ركضي أسرع منهم متجاهلاً احتمال تعثري والسقوط ميتاً، إلا أنني بقيت متأخراً ووصلوا قبلي إلى ليا، فسحبت خنجرها كي تدافع عن نفسها وأسندت ظهرها إلى الحائط مستعدةً من أجل القتال حتّى الموت، ولم يكن لديها خيار آخر.

ولكن حدث شيء خالف التوقعات، وتبيّن أن الرجل المطعون لم يشأ الوقوف في وجه ليا، وقد صرخ: «لا، لا» قبل أن يقتل، واتضح أنه كان يسعى وراء الهروب والخروج من هذا المكان، وكذلك رفاقه، فركضوا متجاوزين ليا ولم ينظروا إليها حتى.

صاح إلدن: «يأمركم ملككم بالعودة إلى هنا أيها الجبناء».

لكنهم واصلوا صعود السلالم كل درجتين معاً ولم يكترثوا به، فأمسكت طوق رادار وسحبتها ناحيتي، فتجاوزنا اثنان بسلام، أما الثالث فقد تعثر بها، وبدا أن صبرها قد نفد، فاندفعت وغرست أسنانها عميقاً في فخذه، فلوح بذراعيه محاولاً الحفاظ على توازنه قبل أن يسقط في الهاوية وتتخافت صرخته شيئاً فشيئاً قبل أن تختفي فجأةً عند اصطدامه بالقاع.

استأنفت طريقي نزولاً كي أجد ليا جامدةً في مكانها تحدق إلى ذلك الكائن البشع وسط ردائه الأرجواني المتموج، وتحاول تبين ملامحه تحت الضوء الخافت الصادر عن النجوم المتوهجة في الفضاء المرعب المخيم فوقنا، وكدت أصل إليها عندما ازدادت شدة الإضاءة، ولكنها لم تكن نابعة من النجوم هذه المرة، كما عاد الصوت مجدداً واختلف عن سابقه، إذ بدا وكأن مخلوقاً فضائياً عملاقاً ومجهولاً أخرجه من أعماقه بعد أن شم رائحة وجبة شهية.

نظرت ورادار وليا إلى الأعلى، واتسعت أعيننا أمام المشهد المرعب الذي احتل السماء المرصعة بالنجوم، وتمثلت الصدمة الكبرى في جماله أيضاً.

أخبرتني ساعتي الداخلية أن الوقت نهار في مكان ما فوقنا، وبالتالي كان بيلا وأرابيلا على الجانب الآخر من العالم بعيداً عن إمبيس، ولكن أدركت أن ساعتي معطلة تماماً، إذ رأيت قمرين مثلهما تماماً أمام عيني، وأطلقا

نوراً ساطعاً سحرياً حل محل ظلمة الفضاء الشاسع وأضاء الحفرة الكريهة حولنا.

اقترب القمر الكبير من الصغير ولم يبدُ أنه يريد تجاوزه، بل أوشكا على الاصطدام بعد مرور سنوات لا تعد ولا تحصى على ملاحقتهما بعضهما، كحال القمرين الحقيقيين الموجودين في مكان ما حول الكوكب.

تلامس القمران من دون أي صوت، ولكن رافق اصطدامهما ضوء ساطع جداً، وتطايرت أجزاؤهما في الاتجاهات كلها كي تحتل القطع الحجرية المتوهجة كل السماء المظلمة، وهنا تعالى ذلك الصوت العميق مجدداً إلى درجة تصم الآذان، ومعه ذراع الرافعة وضاق المثلث بينها وبين دعامتها في صمت، ولكنني لم أستطع سماعها حينها.

غمر وهج القمرين الساطع الأرض وطمس معالم النجوم في الفضاء، وبدأت بوابة البئر المظلمة تنفتح بواسطة خطاف الرافعة في الوقت الذي كان فيه البشع الذي يرتدي القفطان الأرجواني يتأمل المشهد فوقه، وعندما نظرت ليا إلى الأسفل، التقت عيناها الواسعتان الزرقاوان بعينيه الغائرتين عميقاً وسط رأسه الأخضر.

تعرفت ليا إليه بالرغم من التغييرات التي حصلت له والسنوات التي فصلتها عن آخر لقاء جمعهما، فحاولتُ سحبها إلى الخلف، ولكنها انتفضت بشدة كادت أن تودي بحياتها عن الحافة، وارتسم الرعب والحيرة على وجهها بوضوح، في حين صدمني وأذهلني مشهد تصادم القمرين، وبدأت أشلاء الحطام تتباعد وتلاشى الضوء شيئاً فشيئاً.

ظهر هلال أسود على حافة بوابة البئر المظلمة، وسرعان ما استحال ابتسامةً، وارتفع صوت صرخة الرضا الأجش عالياً في أثناء سير قاتل الرحلة مترنحاً صوب البئر، وارتفع رداؤه الأرجواني في اتجاهات مختلفة حاجباً رأسه المترهل لوهلة قبل أن يسقط عن أحد جانبيه على الأرضية الحجرية كاشفاً

عن كائن نصفه رجل، مثل الحورية التي نصفها امرأة، حيث اختفت أرجله وحلت محلها كتلة مجسات سوداء تتحرك بسرعة وتتأرجح يميناً ويساراً، كما برزت أخرى إضافية من كيس معلق إلى بطنه، وانتصبت ناحية البوابة المفتوحة، وتحولت ذراعاه إلى ما يشبه ثعبانين تمايلا حول وجهه مثل أعشاب بحرية تواجه تياراً قوياً، ورغم مقايضة قدميه المشوهتين وظهره المنحني الأحدب مقابل شيء أسوأ بكثير، إلا أن ذلك المخلوق لم يكن كثولو، ولعله شبيهه في ذلك العالم، كما أدت دورا دور العجوز القاطنة في منزل على هيئة حذاء، وتقمصت ليا شخصية فتاة الإوز، وفي النهاية هل كفاه الانتقام وتدمير المملكة شيئاً فشيئاً من أجل تحقيق عدالته؟

وصلت ليا أسفل السلالم في الوقت الذي ظل فيه حطام بيلا وأرابيلا ينتشر في الفضاء فوقنا.

صرخت: «أتوسل إليك أن تتوقفي يا ليا».

أخيراً، توقفت ليا إلى جوار المحمل وستائره المتدلية، ليس استجابةً ليّ لأنني أُرجح أنها لم تسمعني، ولكن صبت انتباهها على شقيقها مترهل الجسد وهو ينحني فوق بوابة البئر متلهفاً، وقد تدلت مكونات وجهه كالعجين وسقط التاج عن رأسه مجدداً، وانبثقت مجسات سوداء إضافية من عنقه، وظهره وشق مؤخرته، ورأيت بعينيّ كيف دبت الحياة في كابوس الحكايات الخيالية، وتحول إلدن إلى سيد الآلهة القديمة؛ كثولو.

ولكن ما زال الوحش الحقيقي في الأسفل وقد اقترب ميعاد خروجه.

غوغماغوغ.

8

أذكر ما حدث بوضوح مفجع، إذ شهدت كل شيء من مكاني برفقة رادار على بعد عشر أقدام تقريباً فوق المحمل الفارغ، وما زال كابوس ذلك

اليوم يراودني حتّى الآن.

نبحت رادار، ولكنني عجزت عن سماعها وسط الطنين الصادر عن البئر المظلمة، ثمّ رفعت ليا خنجرها وغرسته وسط القرحة بجوار فمها المختفي، ووضعت كلتا يديها فيها وشدتها يميناً ويساراً ناحية الندبة.

تناثر رذاذ الدماء من فمها المفتوح حديثاً وصرخت ليا: «إلدن!» بصوت ربما جعله أسلوب كلامها السابق أجش، وكانت كلمتها الحقيقية الأولى منذ فترة طويلة قويةً كفايةً كي يسمعها شقيقها البائس رغم طنين البئر، فالتفت ورآها فعلاً للمرة الأولى.

«توقف يا إلدن. لنتحدث أولاً».

تردد إلدن وسط غابة المجسات المتموجة أمامه والمتزايدة باسمرار، ولاحظت في عينيه الضبابيتين شيئاً ما؛ هل هو الحب، أو الندم، أو الألم؟ وربما هو الخزي لأنه ألقى لعنةً على الشخص الوحيد الذي يحبه وعاملها كما عامل الذين يكرهونه، أو الرغبة في الحفاظ على بقايا ما خسره بعد فترة حكم قصيرة جداً (ولكن ألا نواجه جميعنا الشعور نفسه عند اقتراب نهايتنا؟).

عجزت عن إدراك ماهيته، ونزلت الدرجات الأخيرة متجاوزاً المحمل ولم أكن أنوي شيئاً أو أفكر في شيء سوى رغبتي في إبعادها من هناك قبل ظهور المخلوق القابع في البئر، وفكرت في الصرصار العملاق الذي هرب إلى مخزن السيد بوديتش، وكيف أراده الأخير ميتاً، فتذكرت أنني أحمل سلاحاً في يدي.

مشت ليا ناحية كتلة المجسات المتموجة ولم تعرف خطورتها، وقد داعب أحدها خدها في أثناء تأمل إلدن إياها. هل كان يبكي؟

قال إلدن بصوت أجش: «تراجعي ما دمت تستطيعين ذلك، لأنني عاجز عن...».

التفت إحدى المجسات حول عنق ليا الملطخة بالدماء، وأدركت ما عجز إلدن عن فعله؛ إنه عاجز عن إيقاف جزء منه واقع تحت سيطرة المخلوق السفلي، أليس في مئات كتب مكتبة القصر التي قرأها قصة نشأت المخلوقات جميعها حيث ذكر أن التعامل مع الشيطان يفرض عليك الاستغناء عن شيء ما؟

قبضتُ على مجس ربما كان جزءاً من ذراع إلدن قبل عقده الصفقة، وحررت عنق ليا منه، وشعرت أنه قوي ومغطىً بمادة لزجة، ثمّ أفلتته عندما توقفت ليا عن الاختناق، وعندها التف مجس آخر حول رسغي، وأمسك مجس ثانٍ بفخذي، وجذبني المجسان صوب إلدن والبئر المفتوحة.

رفعت سلاح السيد بوديتش كي أطلق النار، وقبل أن أستطيع ذلك، التف مجس حول سبطانته وانتزعه من يدي ورماه على الأرضية الصخرية الصلبة ناحية المحمل الفارغ، في تلك الأثناء كانت نظرات رادار تنتقل بين إلدن والبئر وبدت غاضبة جداً ونبحت بقوة حتّى تطاير اللعاب من فمها وسارعت كي تعضه، ولكن إحدى مجسات إلدن جلدتها مباشرةً – التي كانت جزءاً من ساقه اليسرى – وطرحتها أرضاً في حين واصلت المجستان سحبي إلى الأمام، ولعل الوحش بكى على حال شقيقته، ولكنه ابتسم محتفلاً بنصره المروع الحقيقي أو الخيالي، ثمّ برز مجسان صغيران إضافيان عبر تلك الابتسامة كي تتحسس الأجواء، وما زالت الرافعة تفتح بوابة البئر، وكان هناك شيء يدفعها من الأسفل.

قلت في نفسي: «يوجد عالم آخر مظلم في الأسفل، وأنا لا أرغب في رؤيته».

صرخ ذلك المخلوق الرخو أخضر الوجه في ليا: «لقد كنتِ جزءاً من كل هذا، ولو وافقت على مرافقتي لأصبحت ملكتي».

في الوقت الذي التفت مجسات إضافية حول ساقي ليا وخصرها وعنقها وسحبتها إلى الأمام، بدأ شيء زيتي أسود رصعته أشواك بيضاء يخرج من البئر، وصفع الأرض مبللاً إياها بشيء ما، وتبين أنه جناح.

صاحت ليا: «أنا الملكة الحقيقية، وأنت لست شقيقي فشقيقي لطيف، وأنت مجرد مجرم محتال».

سحبت خنجرها والدماء تتقطر منه، وغرسته في عين شقيقها، فتراجع إلى الخلف وأفلتتها المجسات، في حين رفرف الجناح مرةً واحدةً وأرسل موجةً هوائيةً كريهة الرائحة إليّ، ثمّ التف حول إلدن، وطعنته أشواكه، وشده إلى فوهة البئر، فأطلق قاتل الرحلة صرخةً أخيرةً قبل أن تخترق الأشواك صدره، وينزل إلى الأسفل.

لكن لم يبدُ أن استرجاع الوحش لدميته كافٍ، فنهض ذلك المخلوق الغريب من البئر، وتفحصتنا عيناه الذهبيان الضخمتان والبارزتان من شيء لا يمكن وصفه بالوجه أبداً، كما سمعت صوت خرمشة وطحن تلاه ظهور جناح آخر مغطىً بالأشواك، وحمل معه عاصفةً أخرى من الهواء كريه الرائحة.

صرخت ليا: «تراجع بأمر من ملكة إمبيس»، وتناثرت قطرات الدماء الصغيرة من فمها المتحرر المتمزق على ذلك الشيء البارز.

تابع الشيء طريقه إلى الخارج مرفرفاً بجناحيه الشائكين كي يسيل سائل كريه الرائحة منهما، وبالكاد استطعت تبين شكله المحدب الملتوي وجانبيه النابضين مثل المنفاخ خلال خروجه وسط ضوء القمرين الذي تخافت قليلاً، وامتص جسده الغريب رأس إلدن ووجهه المذعور، واختفى مثل شخص سحبته الرمال المتحركة.

استحال نباح رادار صراخاً.

اعتقدت أنه تنين من نوع ما، ولكن يختلف عن أقرانه في كتب الحكايات الخيالية من عالمي، أو عالم ليا؛ حيث كشفت البئر المظلمة عن عالم فاق تخيلات البشر أجمعين، وفشلت أوامر ليا في إيقاف ما حدث.

خرج ذلك الكائن.

لقد خرج حقاً.

لقد سبق للقمرين أن قبّلا بعضهما، وسيتحرر الكائن قريباً.

9

تجنبت ليا إصدار أي أمر بعد أن أدركت عدم فعاليته، بل اكتفت بالنظر ومراقبة انبثاق ذلك المخلوق من البئر، وسيطر في المكان نباح رادار، التي لم تبارح مكانها بشكل عجيب وبطولي أيضاً.

رأيت الموت ينتظرني، وأدركت أنه رحمة أمام أي مصير آخر، مثل قضاء بقية حياتي وسط هذا الطنين المريع رفقة رادار وليا بعد أن يسحبنا ذلك الشيء إلى جسده الغريب.

سبق لي أن قرأت أن المرء يرى شريط حياته في لحظات مثل هذه اللحظة، وقد شهدت شخصياً مرور صور من أحد الكتب سريعاً أمام عيني، واحتوت حكايات خياليةً صادفتها في إمبيس، انطلاقاً من سيدة الحذاء، وفتاة الإوز، ومنازل المنفيين الثلاثة الصغار، وحتى الشقيقات الشريرات وتركهن شقيقتهن الصغرى (أو شقيقهن الصغير المشوه) دون أخذها إلى الحفلة الراقصة.

ازداد حجم الوحش شيئاً فشيئاً وخفق بجناحيه في حين اختفى إلدن وسط أحشائه الغامضة.

يحكى أن شاباً شريراً يدعى كريستوفر بولي حاول سرقة ذهب السيد بوديتش.

ويحكى أن قزماً شريراً يدعى بيتركين حمل خنجراً كي يعذب السناب.

ويحكى أن شاحنة سباك صدمت والدتي على جسر شارع سيكامور ودفعتها ناحية سياجه كي تلاقي حتفها ويبقى معظم جسدها عليه، في حين هوى رأسها وكتفاها إلى نهر ليتل رامبل.

قد تجد كل شيء متفرعاً عن قصة أساسية واحدة؛ رومبيلستيلتسكين، ولكن كيف تخلصت ابنة الملكة من ذلك القزم المزعج؟

صرخت: «أعرف اسمك»، وبدا صوتي مختلفاً عن صوت الفتى الذي وطأت قدمه للمرة الأولى أرض إمبيس، وكذلك كثير من الأفكار والتأملات الواردة في هذه القصة ليست وليدة تشارلي ريد الذي يبلغ من العمر سبعة عشر؛ ورغم أنني أمير افتقر السلطة سواء هناك أو في عالمه، ولكنني تحولت إلى شخص مختلف، وقد أطلقت بدايةً لقب «الغريب» على عالم إمبيس، ثمّ تبيّن أنني ذلك الغريب المرسل إليها، وبدت الفكرة الأخيرة حقيقةً حتميةً في تلك اللحظة تحديداً، وكذلك عودتي قبل هنيهة في الزمن سنوات ورؤيتي كيف تعرضت والدتي إلى حادث خلال عبورها الجسر وهي تتناول أجنحة الدجاج، وربما أشك فيها عند استعادة شخصيتي الحقيقية، ولكن ليس حينها.

«أعلم اسمك يا غوغماغوغ. وأنا أأمرك أن تعود إلى عرينك».

صرخ الوحش فاهتزت الأرضية تحتنا وتصدعت، وكذلك اخترق شق كبير ملعب الفراشات فوقنا وخرج الموتى من قبورهم، ثمّ حرّك ذلك المخلوق جناحيه الهائلين فتناثرت منها قطرات لاذعة كريهة الرائحة وكأنها حمض حارق، وقد أحببت صراخه؛ لأنني أمير شرير، وكانت تلك صرخة ألم.

«يا غوغماغوغ. أنت تدعى غوغماغوغ».

صرخ بشدة عندما ذكرت اسمه، واقتحم صوته رأسي مثل الطنين حتّى أوشك أن يفجر جمجمتي، ورفرف بجانحيه بجنون وحدقت عيناه العظيمتان إليّ.

فتحت ذراعي وقلت: «عد إلى عرينك يا غوغماغوغ. قد يحين موعد عودتك مجدداً يا غوغماغوغ. ربما خلال العشرة آلاف سنة القادمة يا غوغماغوغ. ولكن الموعد ليس اليوم يا غوغماغوغ. وإن التهمتني يا غوغماغوغ. فسأصرخ باسمك من داخل جسدك حتّى أموت».

أخذ الوحش يتراجع وطوى جناحيه فوق عينيه القبيحتين في الوقت الذي كان يُحدق فيه إليّ، ونزل من حيث جاء مصدراً صوتاً مقرفاً جداً شبيهاً بصوت انسكاب الماء، وتساءلت كيف السبيل إلى تشغيل الرافعة العملاقة وإغلاق بوابة البئر، ولكن ليا كانت تعرف، فتكلمت بصوتها الأجش الحزين... وبدا لي أن شفتيها برزتا حول فوهة فمها المشوه، ولكن التزمت الصمت حيال ذلك نظراً إلى كثرة الأمور التي أجبرت على تصديقها.

«أغلقي باسم ليا غالين».

تحركت ذراع الرافعة إلى الأسفل ببطء يفوق قدرتي على تحمله، وتنفست الصعداء عندما ارتخى الحبل وأفلت الخطاف عن الغطاء.

ارتمت ليا بين ذراعي وعانقتني بقوة، وأحسست دفء دماء فمها المفتوح حديثاً على عنقي، وفجأة انقض عليّ شيء من الخلف؛ كانت رادار، وقد وقفت على قائمتيها الخلفيتين، وثبتت الأماميتين أسفل ظهري، وهزت ذيلها بجنون.

سألتني ليا بصوتها الحزين: «كيف عرفت كيفية إيقافه؟».

أجبتها: «استنتجت ذلك من قصة أخبرتني إياها والدتي... يجب أن نغادر الآن يا ليا وإلا سنتلمس طريقنا وسط الظلام، وعليك التزام الصمت، أعلم كم يؤلمك التحدث»، وقد أخبرتها الحقيقة نوعاً ما حيال طريقة إيقاف غوغماغوغ؛ حيث استخلصت القصة حينها من ذكرى وفاة والدتي.

قالت: «هذا صحيح ولكن الألم رائع... دعنا نتفقد المحمل، لا بد من أنهم أحضروا فانوساً واحداً على الأقل، هل بقي لديك أي عيدان ثقاب؟».

تبين أن لديّ بعضاً منها، ويا لها من أعجوبة، ثمّ أمسكت يدها ومشينا صوب المحمل الفارغ وسارت رادار بيننا، وبالكاد لاحظت أن ليا انحنت مرةً واحدةً خلال طريقنا، ولكن انصبذ تركيزي على إيجاد شيء يضيء طريقنا قبل أن يتلاشى النور الصادر عن حطام القمرين إلى الأبد.

فتحت إحدى ستائر المحمل كي أجد امرأةً منكمشةً في الجانب المقابل، وكانت فرداً نسيته من حاشية إلدن، حيث قال بيرسيفال: «قاتل الرحلة، وأربعة آخرون، والوضيعة»، وربما وصفها بـالساحرة.

وضعت بيترا سلاسل لآلئ بشكل متصالب على شعرها، وقد خرجت بضع خصلاته من بينها، كما انحلت مساحيق تجميلها وبرزت تشققات قليلة فيها، والتفتت إليّ بعينيها وسط وجهها المقرف الخائف وقالت: «لقد أفسدت كل شيء أيها القذر الكريه».

أضحكتني كلمة القذر، وقلت: «لا، لا يا عزيزتي، تستطيع العصي والحجارة إيذائي ولكن الكلمات لا تستطيع».

تدلى شيء أسعدني من خطاف نحاسي أخضر في مقدمة المحمل؛ إنه أحد الفوانيس الشبيهة بالقذائف.

«لقد اختارني زوجه، هل تسمعني؟ وسمحت له أن يلمسني بتلك الأفاعي الكريهة التي كانت ذراعاه يوماً، وقد لعقت لعابه، لم يكن يفصله

عن الموت سوى أيام قليلة، أي أحمق سيلاحظ ذلك، وكنتُ عندها سأستولي على عرش إمبيس».

في الحقيقة، لم أجد أن كلامها يستحق الردّ.

أخذت الفانوس، ولاحظت أن شفتيها كشفتا عن أسنان بعيدة عن بعضها، مثل هانا، ولعل ذلك النمط لاقى رواجاً في بلاط قاتل الرحلة الكريه، فاندفعت إليّ فجأة وعضتني فجأة بشدة في ذراعي عضةً آلمتني، وسالت الدماء من تحت شفتيها المثبتين بإحكام على جلدي وبرزت عيناها من وجهها، وكانت محاولة التحرر منها لتكلفني جزءاً من جسدي ومع ذلك لم أستطع التحرر من أسنانها.

صرخت ليا بخشونة: «خذي هذه أيتها الكريهة النتنة».

دوى صوت رصاصة مسدس السيد بوديتش وصم آذاننا، وأدركت أن ليا انحنت سابقاً والتقطته كي تفتح فوهةً في مسحوق التجميل الكثيف المتكتل فوق عين بيترا اليمنى، فتراجع رأس الأخيرة إلى الوراء، ولاحظت قبل ارتطامها بأرضية المحمل شيئاً أمكنني الاستغناء عنه؛ لقد تدلت قطعة لحم من ساعدي في حجم مقبض الباب بين أسنانها المصقولة.

تصرفت ليا بسرعة، وانتزعت إحدى ستائر المحمل الجانبية المتدلية، ومزقت قطعةً طويلاً من أسفلها وربطتها حول الجرح بعد أن استحال أسود تماماً، ثمّ مددت يدي الأخرى وسط الظلام كي أمسك الفانوس (وجدت احتمال عودة بيترا إلى الحياة مجدداً كي تعض ذراعي السليمة أمراً سخيفاً، ولكنه ممكن جداً)، وأوشكت أن أوقعه لأنني ارتجفت من الخوف، وسواء كنت الأمير أم لا، فقد شعرت أن بيترا وضعت الوقود على ذراعي بعد عضها وأشعلت ناراً فيها.

قلت: «أشعلي أعواد الثقاب إنها في قراب المسدس».

أحسست يديها تلمسان خصري حتّى سمعت صوت خدش عود ثقاب على جانب المحمل، فأزلت زجاجة الفانوس وأدارت ليا مقبضاً جانبياً كي ترفع الفتيل وتشعله، ثمّ أخذت الفانوس مني، وهذا ما أسعدني لأنه أوشك أن يفلت من يدي.

بدأت صعود السلالم الحلزونية (اعتقدت أنني لن أسعد أبداً عند رؤيتها مرةً أخرى)، ولكن ليا سحبتني إلى الخلف وشدتني إليها، وشعرت بحركة فمها الممزق أمام أذني عندما همست:

«بيترا هي عمتي الكبرى».

قلت في نفسي: «إنها يافعة جداً كي تكون الكبرى في أي شيء»، ثمّ تذكرت كيف ذهب السيد بوديتش في رحلة وعاد بصفته ابنه.

قلت: «دعينا نخرج من هنا ولا نعود مجدداً».

10

صعدنا السلالم ببطء، واحتجت إلى الراحة بعد كل خمسين درجةً تقريباً، واهتزت ذراعي مع نبضات قلبي وتكرر في مخيلتي مشهد سقوط بيترا ميتةً وفي فمها قطعة لحم مني، ورأيت كيف أشبعت الدماء ضمادة ليا الإسعافية.

أجبرني الإرهاق على الجلوس عندما وصلت إلى قمة السلالم، وأخذ رأسي يهتز مثل ذراعي، وتذكرت شيئاً قرأته في مكان ما عن الإصابة بإنتان خطير وربما قاتل، وهو أن لا شيء أسوأ من عضة حيوان مسعور سوى نظيرتها من فم إنسان بصحة جيدة، وما أدراني حيال نظافة فم بيترا بعد سنوات من مصاحبة إلدن؟ (رفض دماغي فكرة حدوث جماع فعلي)، وتصورت أن سمها يصعد عبر ذراعي وصولاً إلى كتفي ثمّ قلبي، ولم تكن أي من هذه الأفكار ترياقاً لألمي.

اقتربت رادار مني وداعبت متلهفةً جانب وجهي بأنفها، ومنحتني ليا بعض الوقت كي أجلس معها، ولكنها أشارت إلى خزان الفانوس وكانت رسالتها واضحةً: لقد أوشك الوقود أن ينفد، كما تلاشى وهج الجدران بعد موت إلدن وعودة غوغماغوغ، لذا علينا أن نتحرك مباشرةً إذا لم نرد تلمس طريقنا وسط الظلام.

ارتعشت شعلة الفانوس وانطفأت عندما قطعنا نصف المسافة تقريباً على الممر المنحدر المؤدي إلى الغرفة الكبيرة ذات الاثني عشر ممراً، فتنهدت ليا، وأمسكت يدي، وتابعنا طريقنا ببطء وسط الظلام المزعج، ورغم أن غياب الأصوات الهامسة والطنين عزاني، إلا أن ذراعي آلمتني بشدة، واكتشفت أن الدماء ما زالت تقطر، وأحسست دفئها في راحة يدي وبين أصابعي، وعندما شمتها رادار ناحت، وفكرت في آيوتا وكيف قُتل نتيجة جرح من سكين مسموم، وحاولت استبعاد هذه الفكرة من رأسي وكذلك مشهد قطعة اللحم المتدلية من أسنان بيترا المدببة، ولكنني عجزت عن ذلك.

توقفت ليا وأشارت أمامنا، وأدركت أنني أستطيع رؤية يدها عندما ظهر الضوء مجدداً في الممر، لم يكن ذلك الضوء الأخضر البغيض الصادر عن الجدران نصف الحجرية ونصف الزجاجية، بل وهجاً أصفر يتناوب بين التوهج والخبو، وانطلقت رادار ناحيته فور أن ازدادت شدته، ونبحت بقوة.

صرخت: «مهلاً. توقفي يا رادار»، وزاد ذلك من شدة الصداع الذي أعاني منه.

ولكنها مضت في طريقها ولم تصغِ إليّ، وأدركت أن نباحها ليس غاضباً وخائفاً مثل نظيره عند مواجهة العالم المظلم خلفنا (ولكنه ما زال قريباً وسيبقى كذلك)، بل نباحاً يُعبر عن الحماسة، كما لاحظت شيئاً خرج من الوهج المتزايد، أو قفز منه.

انحنت رادار ولامس بطنها الأرض وهزت ذيلها كي يثب السناب على ظهرها، ويليه فوج من اليراعات.

قلت: «يا إلهي، إنه سيد المخلوقات الصغيرة».

اجتمعت آلاف اليراعات على الأقل في هيئة سحابة براقة حول كلبتي وصرصار الليل الأحمر الكبير الراقد فوق ظهرها، وبدا كلاهما جميلاً وسط ذلك الضوء الخافت المتلألئ، ثمّ وقفت رادار استجابةً إلى أمر أصدره السناب بحسب ما أعتقد مستخدماً لغةً لا تسمعها الآذان البشرية، وصعدت الممر المنحدر، وكذلك اليراعات المحلقة فوقهما.

شدت ليا على يدي، وتبعناها.

11

انتظرتنا إيريس في الغرفة العملاقة ذات الاثني عشر ممراً، وقد ترك السناب معها كتيبةً من اليراعات كي تقيها الظلام الدامس، وعندما رأتنا ركضت صوبي واحتضنتني حتّى تأوهت ألماً، فتراجعت ونظرت إلى الضمادة الإسعافية المشبعة بالدماء والقطرات المتساقطة منها.

«يا إلهي، ما الذي أصابك؟.. يا مولاي».

قلت وقد فكرت في استحالة الحديث عن كل شيء: «حصلت أمور كثيرة، أخبريني لماذا عدت إلى هنا؟».

«لقد أرشدني السناب وأحضر الضوء كما ترى، انس أمري، إنكما تحتاجان إلى العناية الطبية، ولكن فريد مريض جداً».

قلت في نفسي: «سنقصد كلاوديا إذن، لأنها تدرك تماماً إمكانية فعل شيء».

ثم أجبتها: «نحتاج أن نخرج من هنا أولاً، فقد كرهت التجوال تحت الأرض».

نظرت إلى صرصار الليل الأحمر الكبير على ظهر رادار، الذي نظر إليّ بدوره وقد منحته عيناه السوداوان رهبةً فريدةً، وقلت: «أرشدنا من فضلك أيها السيد سناب».

فأجاب طلبي.

12

اجتمع بضعة أشخاص أمام المخرج في غرفة الملابس وحلّقت الفراشات فوق رؤوسهم في سحابة مضيئة، ورأيت جايا وبيرسيفال بينهم إضافةً إلى آخرين من ديب مالين ولكن أعجز عن تذكر هويتهم الآن، وما أذكره جيداً كيف شعرت بالدوار شيئاً فشيئاً، وتجسد الصداع على هيئة كرة بيضاء نابضة تتدلى على مسافة بضع سنتمترات فوق عيني، كما لاحظت شيئين إضافيين بوضوح؛ نزول السناب عن ظهر رادار، وتعافي بيرسيفال قليلاً من دون أن أدري كيف حدث ذلك أبداً نظراً إلى الألم الشديد في رأسي وذراعي، وقد ركع وفد الاستقبال أمامنا عند رؤية الأميرة، ورفعوا أيديهم إلى جباههم.

قالت الأميرة بصوت أجش: «انهضوا»، وبدا صوتها ضعيفاً جداً، وأرجعت ذلك إلى كثرة الكلام وتوقعت أن يتحسن مع مرور الوقت وقد عجزت حتّى عن تصور تخرب حبالها الصوتية إلى الأبد.

نهض الجميع، ومشيت مستنداً إلى ليا وإيريس من الجانبين، وخرجنا من المستودع المزدحم، واستطعت صعود معظم السلم الأول قبل أن تخذلني ساقاي، فحملني بعض الأشخاص وأعجز عن تذكر إن كانوا أصدقائي من ديب مالين، أو الرماديون، وربما من المجموعتين، ولكنهم أخذوني إلى قاعة الاستقبال حيث رأيت ما يفوق ثلاثين فرداً رمادياً على الأقل بين رجال

ونساء منهمكين في إزالة أوساخ خونة الملك جان عن بلاطه، وبدا أن دورا بينهم وقد عقدت رباطاً أحمر على شعرها وانتعلت حذاء قماشياً في قدميها، وعندما رأتني وضعت يديها اللتين أوشكتا أن تستعيدا عافيتهما على فمها، وأرسلت لي قبلةً عبر الهواء.

قلت في نفسي: «إن دورا ليست هنا، وما هذه إلا أوهام أيها الأمير تشارلي لأنها عاجزة عن ترميم أصابعها، ولا تحدث أمور كهذه سوى في...».

أين؟ في قصص كهذه طبعاً.

رفعت رأسي فرأيتها مجدداً قبل أن يدخلوني إلى غرفة أخرى في الجوار تشبه غرفة الانتظار، ولمحت رباط رأسها الأحمر الزاهي وحذاءها الأصفر الفاقع دون التأكد من كونها دورا لأنها كانت تولييني ظهرها راكعة على ركبتيها تمسح القذارة.

مررنا عبر غرف أكثر وعبرنا رواقاً طويلاً وحينها بدأت أفقد وعيي شيئاً فشيئاً، وأسعدني الانتقال إلى مكان يستأصل الألم من رأسي ويريح ذراعي من كونها حطبة عيد الميلاد الملتهبة، ولكنني قاومت أكثر لأنني أردت الموت في الخارج واستنشاق الهواء النقي مع أنفاسي الأخيرة.

أعمى ضوء ساطع بصيرتي وزاد شدة صداعي، ولكنه منحني إحساساً رائعاً لأنه ليس الوهج البغيض الصادر عن العالم السفلي القابع تحت ليليمار، ولا حتّى اللطيف المنبعث من اليراعات، بل أكثر من ذلك.

إنه ضوء الشمس.

حملوني إلى الخارج نصف جالس ونصف مستلقٍ، واستطعت رؤية السماء الزرقاء من بين الغيوم المتباعدة أعلى ساحة القصر العظيمة، وليس في مجرد بقعة أو اثنتين، بل رأيت أقواساً من اللون الأزرق وأميالاً

مترامية على مد البصر، وأي شمس أنارت المكان! إذ الفتت إلى الأرض كي أرى ظلي، فشعرت وكأنني بيتر بان أمير الفتيان الضائعين.

تعالت صيحات صاخبة من رماديي إمبيس الواقفين وسط ساحة القصر، وركعوا جميعاً في مشهد مهيب جداً عند رؤية ليا.

نظرت ليا إليّ وشعرت أنها تقول: «أحتاج بعض العون هنا».

قلت: «أنزلوني من فضلكم».

أطاعني الحاملون واكتشفت أنني أستطيع الوقوف رغم الألم، وراودني شيء شعرت به عندما صرخت اسم غوغماغوغ بصوت ليس صوتي، ثمّ رفعت ذراعي اليمنى السليمة واليسرى المصابة وألقيت نظرةً على ضمادتها الجديدة، لعل جايا بدّلتها في لحظة ما، ولاحظت أن قطرات الدماء المتساقطة دون هوادة جعلتها حمراء قرمزيةً مثل أزهار الخشخاش المنتشرة على التلّ خلف منزل دورا الصغير الأنيق.

ظل الرماديون راكعين بصمت، ورغم الطاقة المتدفقة في عروقي حينها، إلا أنني تذكرت هوية سيدتهم التي ركعوا من أجلها، وانتمائي إلى «العالم الغريب»، ولكن هناك عمل أخير يفترض بي القيام به هنا.

«اسمعوني يا أفراد شعب إمبيس. لقد مات قاتل الرحلة».

هتفوا استحساناً وشكراً.

«وقد أغلقنا بوابة البئر المظلمة على المخلوق القاطن فيها».

هتف الإمبيسيون مجدداً.

عندها تجردت من شعور أنني «الغريب» ومن طاقته، ومن القوة التي منحني إياها، وتصورت أنني سأعود إلى شخصية تشارلي ريد القديمة البسيطة مجدداً... وذلك إن بقيت حياً ولم أموت بسبب عضة بيترا.

«حيوا ملكتكم ليا يا أفراد شعب إمبيس. حيوا ليا غالي. حيوا ملكتكم».

كان والدي ليضحك من هيئتي حينها، وقد عجزت عن تبين ردّ فعل الجماهير أمامي، لأنني فقدت توازني في تلك اللحظة وسقطت أرضاً فاقداً وعيي.

الفصل الحادي والثلاثون

الزائرون- الملكة ترتدي ثوبها الأبيض- الشفقة-

وودي وكلاوديا- مغادرة إمبيس.

1

قضيت وقتاً طويلاً في غرفة جميلة تموجت ستائرها مع نسيم الهواء المنعش الداخل من النوافذ المفتوحة، وتساءلت إن مضت ثلاثة أسابيع أم أربعة على وجودي هناك، ثمّ تجاهلت الفكرة لأن الأسابيع ليست في تقويم إمبيس، وإن كانت موجودة ربما اختلفت عن نظيرتها في عالمي على أقل تقدير، إذ اعتمدوا هناك شروق الشمس وغروبها، وقد اصطفت بقايا حطام بيلا وأرابيلا في شكل قلادة زينت عنق السماء ليلاً، ولكنها اختفت عن ناظريّ في وقت لاحق، وجل ما بقي منها ضوء متناوب مر عبر الستائر الناعمة جداً، وحاولت ممرضاتي (وكانت دورا، أو سيدة الأحذية، الفضلى بينهن) إغلاق النوافذ خلف الستائر أحياناً خشية أن تسوء حالي بسبب «ضباب الليل»، ولكنني منعتهن من ذلك رغبةً مني في استنشاق ذلك الهواء العذب، وقد أطعنّ أوامر الأمير لأنها في منزلة القانون، ولم يكن لديهن أدنى فكرة حيال استعادتي شخصية تشارلي ريد القديم البسيط، ولم أكن أعرف إن كن سيصدقن ذلك على أيّ حال.

جاء أشخاص كثير كي يطمئنوا على حالي في غرفة الستائر المتموجة، وبعضهم من الموتى أيضاً.

في أحد الأيام، دخل آيوتا؛ وأتذكر تلك الزيارة تماماً، ثمّ ركع على إحدى ركبتيه ووضع راحة يده على جبهته، ثمّ جلس على كرسي صغير سبق للممرضات الرماديات أن جلسن عليه من أجل إزالة الضمادات القديمة (وقد آلمني ذلك)، وتنظيف الجرح (وآلمتني تلك العملية أيضاً)، ووضع ضمادات جديدة، وقد فاحت رائحة قذارة بيترا المقززة في ذراعي بشدة، ولكن الألم خف شيئاً فشيئاً.

أعتقد أنني فضّلت تناول قرصين من دواء مسكن.

قال آي: «تبدو حالك مزرية يا صديقي».

«شكراً لك، هذا من لطفك».

قال آي: «هل تذكر الرجل المختبئ خلف الباب وسكينه؟ لقد غطاه سم الدبور، وهذا ما قتلني».

تذكرته، يلفظ اسمه (جيف) في الأمريكية و(جيوف) في البريطانية.

«فكّرت في أن بيترا أرادته زوجها بعد وفاة إلدن وتقلدها حكم العالم».

«ربما طلب من أحد الرماديين إقحام سيفه في عش دبابير فترةً طويلةً كي يغطيه سمها، ولعلها لسعت صديقنا المسكين حتّى قتلته».

أرجح حدوث ذلك حقيقةً، لأن الدبابير في إمبيس كبيرة وفي حجم الأسماك.

تابع آيوتا: «وهل أراد هذا التافه منصب الملك؟ لا أعتقد ذلك... لم تكن الدبابير خطيرةً سابقاً، ولكن...»، وهز كتفيه مستهجناً.

«ساءت الأمور عندما تقلد قاتل الرحلة الحكم».

بدا آيوتا هادئاً على غير العادة خلال جلوسه على ذلك الكرسي الصغير وقد وصلت ركبتاه إلى مستوى أذنيه، وقال: «تغيرت إلى الأسوأ، هذا صحيح، وقد احتجنا شخصاً كي ينقذنا، ولكننا حصلنا عليك، وأعتقد أنك أفضل من لا شيء».

قال آيوتا: «لعل سم بيترا أقل وطأةً من ذاك على سيف جيف، ولكن يبدو من هيئتك أنه سيئ كفايةً».

إنه سيئ طبعاً، وخاصةً بعد أن لعقت لعاب إلدن، ناهيك عن الفضلات المتراكمة في فمها قبل أن تعضني، وقد جعلتني تلك الأفكار أجفل قرفاً.

قال آي وهو ينهض: «قاوم أكثر أيها الأمير تشارلي».

غفلت عن لحظة دخوله، ولكن رأيته يخرج ويختفي خلف الستائر المتموجة.

دخلت إحدى الممرضات الرماديات والقلق بادٍ على محياها؛ رغم بقاء التشوهات الشديدة، إلا أنهن استعدن قدرة التعبير عن مشاعرهن في إيحاءات وجوههن، أي توقف تطور المرض؛ أو اللعنة، وحدث بعض الشفاء وإن كان بطيئاً، ولاحظت تصبغاً خفيفاً في معظم وجوه الرماديين، كما تلاشت الأغشية بين أصابعهم كي تعود أيديهم إلى طبيعتها، ولكن أشك في شفائهم تماماً، صحيح أن كلاوديا استعادت حاسة السمع قليلاً، ولكن تصورت أن وودي لن يبصر مجدداً.

قالت الممرضة إنها سمعتني أتكلم فاعتقدت أنني أهلوس مجدداً.

قلت: «كنت أتحدث إلى نفسي»، وربما ذلك صحيح، لأن رادار تعجز عن فعل شيء سوى رفع رأسها.

زارني كِلا أيضاً، من دون أن يزعج نفسه ويلقي التحية أو يجلس، بل وقف إلى جوار السرير وقال: «لقد غششت، ولو لعبت بنزاهة لقتلتك أميراً

كنت أم لا».

سألته: «وماذا توقعت؟ تفوقني وزناً بخمسين كيلوغراماً على الأقل، ناهيك عن سرعتك، ضع نفسك في مكاني ثمّ أخبرني أنك كنت ستلعب بنزاهة».

ضحك كِلا وقال: «أعترف أنك نلت مني هناك، ولكن أعتقد أن أيام تحطيمك العصي على رأس أحدهم قد انتهت، هل ستتحسن حالتك؟».

«لا أدري حقاً».

ضحك كِلا قليلاً ثمّ خرج من الستائر المتموجة قائلاً: «يا لك من فتى صلب حقاً، لن أقول أكثر من ذلك»، واختفى، ولكنه لم يأتِ حقيقة، وتذكرت أن عبارة يا لك من فتى صلب حقاً قد وردت في مشهد من فيلم قديم شاهدته برفقة والدي على قناة (تي سي أم) خلال فترة إدمانه، وأعجز عن تذكر اسم الفيلم، ولكن أذكر أن بول نيومان أدى دور دور شخص هندي فيه، حاول تخيل هذا المزيج الخيالي بين الممثل والشخصية إن وجدت قصتي صعبة التصديق.

في تلك الليلة سمعت- وربما في ليلة أخرى- صوت رادار تزمجر، والتفتت كي أرى كيلين، اللورد هاي شخصياً، جالساً في الجوار مرتدياً معطفه الأحمر الفاخر.

قال: «قد تسمع من الآخرين أن مكان العضة يتحسن وأخباراً جيدةً عن صحتك، ولكنها تسوء يا تشارلي لأن الإنتان يتغلغل عميقاً في جسدك ويواصل ذلك حتّى ترتفع حرارتك كثيراً وتتسارع ضربات قلبك وينفجر، وأنا بانتظارك برفقة كتيبتي من جنود الليل».

قلت: «اخرج أيها الخائن، لا أريد مشاركتك هواء الغرفة»، وكان رداً سخيفاً، لأن كيلين عاجز عن التنفس، وكان ميتاً حتّى قبل أن تقتله الفئران.

خرج كيلين، ولكن واصلت رادار الزمجرة، فتبعت نظراتها كي أرى بيترا تقف في الظلال، وتبتسم كاشفةً عن أسنانها القذرة.

اعتادت دورا النوم في غرفة الانتظار، فدخلت مسرعةً على ساقيها المقوستين عندما سمعت صراخي دون أن تشعل مصباح الغاز لأنها حملت واحداً من المصابيح شبيهة القذائف، وسألتني عن حالتي وخاصةً ضربات قلبي، إذ أوكلت إلى الممرضات مهمة رصد أي تغير في النظم، فأخبرتها إنني بخير، ولكنها أخذت نبضي وفحصت ضماد ذراعي.

«هل زارتك الأشباح؟».

أشرت إلى الزاوية.

مشت دورا بهدوء في خفيها القماشيين اللامعين إلى هناك، ورفعت المصباح أمام الزاوية الفارغة، وقد علمت أنها كذلك مسبقاً لأن رادار استغرقت في النوم مجدداً، ثمّ عادت إليّ وانحنت وقبّلت خدي بقدر ما سمح لها فمها المنحني، وقالت: «لا بأس، كل شيء بخير يا تشارلي، والآن اخلد إلى النوم كي تتعافى».

2

جاءني زوار أحياء أيضاً، مثل كاميت وكويلي، ثمّ دخل ستوكس متبجحاً وكأنه يملك المكان، وقد خيط خده المشقوق عبر عشرات القطب السوداء المتداخلة، ما جعلني أفكر في فيلم فرانكنشتاين الذي شاهدته على قناة (تي سي أم) برفقة والدي.

قال ستوكس وهو يحك القطب: «لقد منحني ذلك الوغد ندبةً كبيرةً، ولن أعود وسيماً مجدداً».

«لطالما كنت قبيحاً يا ستوكس».

زارتني كلاوديا بضع مرات، وفي أحد الأيام، عندماتأكدت نوعاً ما أنني سأنجو، رافقها الطبيب فريد، وقد دفعته إحدى الممرضات على كرسي متحرك ملكي أو ما شابه؛ إذ بدت الأسلاك المنبثقة من مركز العجلة وحتى محيطها مصنوعةً من الذهب الخالص، وكان عدوي اللدود كريستوفر بولي ليقتل نفسه من الحسد.

بتر الأطباء ساق فريد المشوهة بعد أن أصابها الإنتان، ولاحظت ألمه الشديد من هيئته وكذلك تجاوز هو مرحلة الخطر، وقد أسعدتني رؤيته. أزالت كلاوديا ضمادة ذراعي وعقمت الجرح ثمّ انحنا كلاهما فوقه حتّى أوشك رأساهما أن يتلامسا.

صاح فريد: «إنه يتعافى، ألا تعتقدين ذلك؟».

صرخت كلاوديا: «أجل! لقد أصبحت الذراع ورديةً. واختفت الرائحة سوى من البقايا العالقة في الضمادة»، ورغم استعادتها حاسة السمع وإن قليلاً، إلا أنها ستحافظ على نبرة صوتها الجافة المرتفعة طوال حياتها.

قلت: «ولكن لعل الإنتان موجود، وتغلغل عميقاً في جسدي».

تبادل فريد وكلاوديا نظرات الدهشة، وقد تألم الطبيب كثيراً كي يضحك، ولكن كلاوديا ضحكت عنهما معاً، وقالت: «من أعطاك هذه الفكرة الغبية؟».

«أليس هذا صحيحاً؟».

قال الطبيب فريد: «قد يختبئ المرض أيها الأمير تشارلي، ولكن ليس الإنتان، بل يتظاهر مباشرةً على هيئة قيح ورائحة كريهة... كم استأصلتم من ذراعه يا كلاوديا؟».

«لقد اقتطعنا قسماً بين مرفقه ومعصمه بسبب المثلث الكبير الذي قضمته بي، وسيترك ذلك فجوةً في هذه المنطقة إلى الأبد، أي ربما انتهت

أيام ممارستك الرياضة يا تشارلي».

قال فريد: «ولكن تستطيع استخدام كلتا يديك من أجل حك أنفك»، وقد أضحكني ذلك، وبعث الابتسام راحةً في نفسي ولا سيما بعد أن راودتني موجة كوابيس بعد العودة من البئر المظلمة، وقد افتقرت إلى اللحظات السعيدة حقاً.

أخبرت الطبيب: «يجب أن تستريح وتتناول بعض الأوراق التي تمضغونها من أجل تسكين الألم، إذ تبدو في حال أسوأ مني».

قال فريد: «لا تقلق فأنا أتحسن، نحن ندين لك بحياتنا يا تشارلي».

ولكن هذه ليست الحقيقة كاملةً، لأن السناب أدى دوراً كبيراً على سبيل المثال، حيث ظهر في الأوقات المناسبة دوماً (امتلك أسلوباً فريداً في فعل ذلك)، وكذلك بيرسيفال، ولكن قصته مختلفة تماماً، وقد تجنب زيارتي حتّى طلبت حضوره، فدخل بخجل غرفة الستائر المتموجة مرتدياً ملابس الطهاة البيضاء وحاملاً قلنسوةً ضمها بقوة إلى صدره، وافترضت أنها قبعة الطهاة في إمبيس.

انحنى كثيراً أمامي وارتجفت يده عندما حياني، وقد خاف النظر إليّ حتّى طلبت منه الجلوس وقدمت له كوباً من الشاي المثلج، وشكرته على تضحياته وأخبرته كم أنا سعيد برؤيته، فأطلق ذلك لسانه قليلاً في البداية قبل أن يقص عليّ أخبار ليليمار كاملةً والتي لم أسمعها سوى منه، ربما لأنه شهد الأحداث من منظور العاملين.

غادر معظم من جاء كي يساعد في إسقاط حكم قاتل الرحلة إلى بلدته أو مزرعته، ولكن حل محلهم مئات غيرهم من أجل تأدية واجبهم تجاه الملكة ليا قبل العودة إلى أوطانهم في مناطق مثل سيفرونت وديسك، ووجدت الأمر قريباً من شيء قرأت عنه في المدرسة حول أسلوب وكالة إدارة مشروعات العمل، وقد انهمك السكان في تنظيف الشوارع وإزالة

الأوساخ والحطام، وغسلوا النوافذ ورمموا الحدائق، كما أصلح سمكري خبير النوافير واحدةً تلو الأخرى، ودفن الأموات مجدداً بعد أن رقدوا في سلام مرةً أخرى، كما أعيد افتتاح بعض المتاجر، وقريباً سيعاد افتتاح متاجر أخرى، ولاحظت أن حديث بيرسيفال ما زال مشوهاً ومتداخلاً ويصعب فهمه أحياناً، ولكن سأعفيك منه.

«يتغير لون زجاج الأبراج الثلاثة شيئاً فشيئاً أيها الأمير تشارلي من الأخضر الداكن القبيح إلى الأزرق كما عهدناه في الأيام الخوالي ويحاول بعض الخبراء إصلاح أسلاك العربات اعتماداً على ذاكرتهم، وسيمر وقت طويل قبل رؤية السيارات تعمل مجدداً، ورغم أنها تعطلت دوماً في أحسن حالاتها، إلا أن وجودها أمر جميل».

قلت: «ما زلت أجهل كيف تعمل تلك العربات في غياب الكهرباء، باستثناء الناتجة عن المولد الصغير القابع في مستويات القصر الدنيا، وأعتقد أن صديقي السيد بوديتش قد أحضره».

بدا بيرسيفال محتاراً لأنه يجهل معنى كلمة كهرباء، وأعتقد أنني نطقتها بالإنكليزية وليس الإمبيسية.

قلت: «أقصد الطاقة، من أين تستمد العربات الطاقة؟».

أشرق وجهه كثير الحفر، وبطيء التحسن، وقال: «لقد فهمت الآن، نحصل عليها من المحطات طبعاً، وهي...».

لفظ بيرسيفال هنا كلمةً مبهمةً، وأدرك ذلك فحرك إحدى يديه على شكل موجة.

«لدينا محطات على النهر والجداول الكبيرة أيها الأمير تشارلي، ونستطيع الحصول الطاقة من البحر، كما توجد محطة كبيرة جداً في سيفرونت».

أعتقد أنه تحدث عن آلية توليد الكهرباء اعتماداً على حركة المياه، ولكن عجزت عن فهم كيفية تخزينها، وبقي ذلك غامضاً بالنسبة إلى جانب أمور كثيرة في إمبيس، ومقارنةً مع حقيقة وجود تلك البلاد – وموقعها، فقد بدا الاستفسار عن مخزن الطاقة تافهاً وعديم الجدوى أيضاً.

3

زارني أشخاص كثيرون من الأحياء والأموات بين شروق الشمس وغروبها، باستثناء من رافقتني إلى البئر.

ثم جاءت فتاة الإوز في أحد الأيام بعد أن أصبحت ملكة إمبيس.

بينما كنت جالساً على الشرفة وراء الستائر أتأمل ساحة القصر المركزية وأتذكر أموراً محزنةً، تحركت الستائر البيضاء إلى الخارج بدل الداخل ووقفت ليا بينها مرتديةً ثوباً أبيض تزينه سلسلة من الذهب الخالص حول خصرها النحيل (ما زال نحيلاً جداً) ولكنها لم تضع تاجاً على رأسها، ولكن وضعت في أحد أصابعها خاتماً يحمل فراشةً، وتصورت أنه رمز المملكة، ومنحوها إياه اتقاء أيّ متاعب قد يسببها التاج.

نهضت وانحنيت أمامها، وقبل أن أرفع يدي إلى جبهتي أمسكتها ووضعتها فوق قلبها وقالت: «لا، لا تفعل ذلك»، وبدت لهجتها قريبةً جداً من لهجة العاملين ما أضحكني كثيراً، وقد اختفت بحة صوتها ولكنه لا يزال أجش قليلاً، وجميلاً حقاً، ولكن أشك أنه يشبه ما كان عليه قبل اللعنة.

«أفضل الحصول على عناق في حال تسمح ذراعك المصابة بذلك».

عانقتها بشدة، وفاحت منها رائحة عطر خفيفة تشبه شجيرة العسلة، وأردت احتضانها إلى الأبد.

قلت: «اعتقدت أنك لن تزوريني أبداً، ونسيت وجودي».

أجابت: «كنت مشغولةً جداً، تفضل واجلس يا عزيزي، أريد رؤيتك والتحدث إليك»، وقد حاولت تجنب تلاقي عيوننا.

أعفيت الممرضات من رعايتي كي يؤدين واجباتهن نظراً إلى كثرة الأعمال في الأسابيع التالية لسقوط قاتل الرحلة، ولكن بقيت دورا وأعدت من أجلنا إبريقاً كبيراً من الشاي الإمبيسي.

قالت ليا: «سأشرب كثيراً لأن حلقي يبقى جافاً دوماً، ولكن ازدادت سهولة الكلام وخف الوجع، ولا داعي كي أصف حال وجهي».

تلاشت قرحة التغذية القبيحة تقريباً، وانفتح فمها، ولكن ندبات كثيرة شوهت شفتيها، وحلت قشور حمراء قاتمة مكان جروحها، وستبقى عاجزةً عن تحريكه بشكل طبيعي، حالها كحال بصر وودي وسمع كلاوديا، ثمّ فكّرت في عبارة ستوكس: «لن أعود وسيماً مرة أخرى» وكيف انطبقت تماماً على حالة الملكة ليا، إلا أنها كانت جميلةً حقاً.

قالت: «خشيت أن تراني هكذا، إذ أميل إلى تغطية فمي عند التعامل مع الآخرين؛ أي معظم وقتي، ويجب أن أمنع نفسي عن ذلك، وحين أنظر إلى المرآة...»، رفعت يدها ولكنني أمسكتها وثبتها في حضنها قبل أن تضعها على فمها.

«أود تقبيله إن كان لا يؤلمك».

ارتسمت على شفتيها ابتسامة مائلة وساحرة في الوقت نفسه، لعل ميلانها منحها ذلك الجمال، وقالت: «تبدو صغيراً على قبلات الحب».

قلت في نفسي: «أحبك على أيّ حال».

سألتها: «كم عمرك؟»، ومن الوقاحة طبعاً طرح سؤال مثل هذا على الملكة، ولكن أردت معرفة نوع الفتيات اللواتي يجذبنني.

«أبلغ من العمر ضعف عمرك وربما أكثر».

فكرت في السيد بوديتش حينها وقلت: «هل سبق لك أن استخدمت الساعة الشمسية؟ أعني لست على وشك الاحتفال بعيد ميلادك المئة، أليس كذلك؟».

أستغرب كيف أمكن وجهها أن يجمع ملامح الذعر والدهشة في الوقت نفسه، وقالت: «لا أحد يذهب إلى الساعة الشمسية أبداً لأنها خطيرة جداً، وجرت العادة أن تقفل ويحرسها الجنود عند إقامة الألعاب في ملعب الفراشات – سنعيد إحياءها مجدداً بعد الانتهاء من أعمال الترميم الكثيرة – خشية أن تستميل واحداً من الجماهير الغفيرة في تلك الأيام، وقد أخبرني إلدن أنها قديمة جداً وموجودة قبل قيام ليليمار أو التفكير في بنائها».

أقلقني سماع تلك الأمور، فانحنيت ومسحت على كلبتي الراقدة بين قدمي وقلت: «ولكن رادار استعملتها، ولعل كلاوديا أخبرتك أن مرض رادار الشديد ما أحضرني إلى هنا».

انحنت الملكة ومسحت على رادار بنفسها فنظرت الأخيرة إليها متكاسلةً، ثمّ قالت ليا: «أعلم ذلك، ولكنها حيوان بريء مجرد من جذور الشر المتأصلة في قلوب البشر جميعاً، وأخي منهم، وقد دمرته في النهاية، وأعتقد أنها موجودة في عالمك أيضاً».

عجزت عن معارضة ذلك.

«تغير الساعة الشمسية الأفكار والمشاعر يا تشارلي، ناهيك عن تأثيرات أخرى، ولذلك يتجنب أفراد الأسرة الحاكمة استعمالها وإن لمرة واحدة».

«لقد صعد صديقي السيد بوديتش عليها، وكان شخصاً طيباً في الحقيقة».

ولكنها أدركت بعد التفكير في الأمر أنه ليس صحيحاً تماماً، حيث وجدت التعامل صعباً مع شخصية السيد بوديتش الانطوائية الغاضبة، بل مستحيلاً تقريباً، وكنت لأستسلم لولا قطعت عهداً أمام الرب (وكما يقول أفراد جمعية الكحوليين المجهولين)، وقد لعب سقوطه وكسر ساقه دوراً كبيراً في معرفتنا، إضافةً إلى وحدته دون زوجة أو أطفال أو أصدقاء، بل مجرد دلو من القطع الذهبية في خزنته، وتشبثه بمقتنياته القديمة: الأثاث، والمجلات، والتلفاز، وسيارة ستودبيكر القديمة، وقد كان، وأقتبس كلماته، شخصاً جباناً أحضر الهدايا بدل أخذ موقف، وإذا أردت وصفه بأسلوب قاس قليلاً لقلت إنه يشبه كريستوفر بولي بعض الشيء، وبالتالي رومبيلستيلتسكين، وهذا ليس رأيي الشخصي، بل مجرد مقارنة حاولت تجنبها كثيراً وعجزت إلا عن ذكرها، ولكن لولا وجودي ومحبة كلبة السيد بوديتش له، لتوفي في منزله على قمة التل دون أن يعرفه أحد أو يتذكره، تاركاً الممر بين العالمين دون حراسة وعرضةً كي يكتشفه أي شخص، ألم يخطر في باله هذا الأمر أبداً؟

في تلك الأثناء، تأملتني ليا ودورت خاتم الفراشة حول إصبعها، ثمّ ارتسمت الابتسامة المائلة على وجهها وقالت: «هل كان شخصاً لطيفاً من الداخل، أم أصبح كذلك بفضلك أيها الأمير تشارلي؟».

قلت: «أرجوك أن تتوقفي عن مناداتي بهذا اللقب»، لأنني أريد أن أكون أميرها فقط ولا أحد سواها، وكأن لدي خيار، وقد بدأ لون شعري وعيني يعود إلى طبيعته شيئاً فشيئاً.

وضعت ليا يدها على فمها، ثمّ أجبرت نفسها على إنزالها إلى حضنها مجدداً وقالت: «هل كان طيباً من تلقاء نفسه يا تشارلي، أم أرسلتك ملائكة السماء نعمةً إليه؟».

وجدت نفسي عاجزاً عن الإجابة، وأعلم مقدار ما امتلكت من الحكمة والقوة خلال وقتي في إمبيس، ولكن تلاشى ذلك وعدت ضعيفاً ومتردداً مجدداً، وقد أزعجتني كثيراً الذكريات المؤلمة عن السيد بوديتش، مثل كثرة غبار منزله والرائحة الكريهة التي استوطنته قبل أن أجدد هواءه بنفسي.

فجأةً قالت ليا: «هل استعملت الساعة الشمسية يا تشارلي؟».

«لا، بل أنزلت رادار عنها، كما أنها قفزت أيضاً، ولكن أحسست هالة طاقتها... هل أستطيع سؤالك شيئاً؟».

«أفكر في كيفية اعتلائنا المنصة الذهبية وصعودنا إلى أعلى قبل النزول إلى الأسفل عبر السلالم اللولبية».

ارتسمت ابتسامة صغيرة على وجه ليا، وكانت أقصى ما استطاعت: «لقد نجحنا رغم خطورة الأمر».

«هل تقود السلالم بين الجدران إلى الغرفة تحت الأرض؟».

«أجل، وقد عرف إلدن طريقين إليها؛ ما ذكرته الآن، وما عبرناه من غرفة الملابس، وربما يوجد غيرها، ولكنه لم يخبرني سوى عن هذين».

سألتها: «ولماذا سلكنا الطريق الطويل؟». وأوشكنا أن نسقط، ولكن أسررت الجملة الأخيرة.

«سمعت أن قاتل الرحلة يستطيع المشي بضع خطوات فقط، لذا فهو يُفضل السلالم بين الجدران لأنها أكثر أماناً، كما أردت تجنب لقاء حاشيته، ولكن نفدت الخيارات منا في النهاية».

«لولا عرجنا إلى شقة لورد هاي...لبقي آيوتا حياً».

«لقد فعلنا ما يجب فعله يا تشارلي، وأعترف أنك أصبت في حين أخطأت أنا حيال أمور كثيرةً، وأريدك أن تعلم شيئاً آخر، وهو أن وجهي

قبيح..».

«لا، إنه ليس قبيحاً».

رفعت يدها كي تسكتني وقالت: «كفى يا تشارلي. تنبع أقوالك هذه من وجهة نظر صديق، وأحبك الآن وأبداً من أجل ذلك، ولكن يجب أن أتزوج بصفتي الملكة قبل التقدم في السن أكثر سواء كنت قبيحةً أم لا، ويرغب كثيرون بمعاشرتي وإن في الظلام على الأقل، وليس التقبيل ضرورةً من أجل إنجاب وريث العرش، ولكن أي رجل يصعد الساعة الشمسية وإن لمرة واحدة يصبح عقيماً، وتصبح المرأة عاقراً؛ لأن الساعة تمنحك حياةً وتأخذ أخرى مقابلها».

قد يفسر ذلك عدم امتلاك السيد بوديتش أبناءً، قلت: «ولكن بيترا...».

ضحكت ليا باستهزاء وقالت: «بيترا! جل ما أرادته الاستيلاء على مملكة إلدن المنهارة، كما أنها عاقر أيضاً، ناهيك عن وحشيتها وجنونها، إن سقطت ليليمار في قبضتها، كانت ستصعد إلى الساعة الشمسية مراراً وتكراراً، وقد رأيت بنفسك حالها»، ثمّ تنهدت ليا وشربت كوب الشاي عن آخره وسكبت لنفسها واحداً آخر.

رأيتها فعلاً، وأحسستها، وما زلت كذلك، حيث استبدلت حكة شديدة بالسم والألم في جرحي، وقد أقسمت دورا إنها ستزول في أي وقت.

«تأخرت عن زيارتك بسبب إلدن يا تشارلي، ولكن رافقتني أفكار عنك على الدوام، وأعتقد أنها لن تفارقني أبداً».

أردت سؤالها إن كانت متأكدةً حيال فرق السن بيننا، ولكن منعتني أمور عدة عن ذلك؛ وهو أنني لست مناسباً كزوج للملكة، ناهيك عن منصب الملك، إضافةً إلى وجود والد يتوق إلى معرفة حال ابنه، وربما قضينا على تهديد غوغماغوغ عالمنا (في الوقت الراهن على الأقل)، ولكن ماذا لو انتشر

بين سكان الأرض خبر وجود إمبيس وإمكانية الوصول إلى ثرواتها الدفينة من مستودع محدد في إلينوي؟

«لقد شهدت يا تشارلي كيف قتلت شقيقي رغم أنني أحببت نفسه القديمة جداً وحاولت رؤيتها وإيجادها ولكنك أجبرتني أن أفتح عيني على الوحش الذي تحول إليه، ولذلك أتذكره عندما أنظر إليك، وأذكر ما اقترفت وما كلفني ذلك، هل تفهمني؟».

«لقد أحسنت صنيعاً يا ليا، لأنك أنقذت المملكة حباً بها وليس طمعاً في منصب الملكة».

«هذا صحيح، ولا داعي إلى ادعاء التواضع بين شخصين خاضا الكثير، ولكنك حتى الآن لا تفهم؛ لقد عرفت أنك ترى قاتل الرحلة وشقيقي شخصاً واحداً، وقد نعتت كلاوديا بالكاذبة حين أخبرتني ذلك قبل سنوات، ولكن يتملكني الندم لأنني تأخرت إلى هذا الحد عند رؤيتك، وقد منعتني رغبتي الأنانية في حب ذكراه عن المضي قدماً، فاعتنيت بطيور الإوز خاصتي وحديقتي في ظل معاناة المملكة وشعرت بالأسف حيال نفسي... أعتذر يا تشارلي، ولكنني أرى العار في نفسي عند النظر إليك لأنني اخترت حياة فتاة مزارعة بكماء وأنا أرى انهيار بلادي وشعبها شيئاً فشيئاً حولي، رغم معرفتي كل شيء من البداية».

وأخذت تبكي، حاولت الاقتراب منها، ولكنها هزت رأسها، وأشاحت عينيها عني وكأنها ترفض أن أرى دموعها.

قلت: «كنت أفكر في شيء سيئ ومعيب سبق لي أن اقترفته، ولكن قاطعني خروجك إلى الشرفة، هل تسمحين أن أخبرك به؟».

قالت من دون أن تنظر إليّ: «يمكنك ذلك إذا أردت».

«كان لي صديق طيب يدعى بيرتي بيرد، ولكن ليس طيباً بكل ما للكلمة من معنى، ولكن مررت بأوقات عصيبة بعد وفاة والدتي، وقد منعني تفكيري المحدود وصغر سني حينها عن استيعاب معاناة والدي، وجل ما أعرفه أنني احتجت إليه ولم أجده إلى جانبي، لعلك تفهمين ما أعنيه».

قالت ليا: «تعلم أنني أفهم»، وشربتْ مزيداً من الشاي وأوشكت على إنهاء الإبريق رغم حجمه الكبير.

«لقد اقترفنا أفعالاً سيئةً، وقد تذكرت قبل رؤيتك بين الستائر شيئاً فعلناه في متنزه كافاناو حيث اعتدنا المرور بعد المدرسة في طريقنا إلى المنزل. في أحد الأيام شاهدنا رجلاً مقعداً يطعم الحمامات، وقد ارتدى بنطالاً قصيراً وطوقين داعمين كبيرين على ساقيه، فوجدنا منظره مضحكاً، وأطلق عليه بيرتي لقب الرجل الآلي».

«لا أدري معنى...».

«انسي الأمر، ما يهم أنه كان مجرد شخص عاجز جالس على المقعد تحت أشعة الشمس، فتبادلت وبريتي النظرات، وقال الأخير: «دعنا نسرق عكازيه»، وأعتقد أن هذه بذور الشر التي تحدثت عنها، وقد فعلنا ذلك في النهاية وصرخ كي نعيدها إليه، ولكننا أخذناها إلى طرف المتنزه ورميناها في بركة طيور البط وضحكنا طوال الوقت؛ لقد رمينا عكازي الرجل المقعد في المياه وضحكنا من ذلك دون أن أدري حتّى الآن كيف عاد إلى منزله».

أفرغت ما بقي من الشاي في كوبي فلم يمتلئ سوى نصفه، وقد ناسبني ذلك بسبب ارتعاش يدي ودموع عيني؛ لم أبك قط بعد تلك المرة في ديب مالين من أجل والدي.

«ولماذا تخبرني هذا الأمر يا تشارلي؟».

تشوشت قليلاً، إذ اعتقدت أن تلك القصة ستموت معي، ثمّ أجبت: «ليس في جعبتي شيء أقوله سوى أنني اضطررت إلى ذلك».

لمست ليا جانب وجهي وقالت: «اهدأ يا تشارلي، تعجز عن العيش مرتاحاً في هذا العالم على أيّ حال لأنك غريب عنه، وإن أطلت الغياب عن عالمك، ستجده غريباً أيضاً... يجب أن أذهب الآن، فهناك أعمال كثيرة تنتظر إنجازها»، ثمّ نهضت.

رافقتها إلى الباب، وخطرت لي في أثناء ذلك قصيدة جميلة تعلمتها من شعر الهايكو الياباني في الصف الثامن، ثمّ وضعت أحد أصابعي بلطف كبير على قشور شفتيها وقلت: «تغدو الندبات جميلةً كالغمازات حيث يوجد الحب، وأنا أحبك يا ليا».

لمست ليا شفتي أيضاً وقالت: «وأنا أحبك أيضاً».

خرجت من الباب واختفت.

5

في اليوم التالي، زارتني إيريس وجايا وقد ارتدت كل منهما زي العمل واعتمرت قبعة قش كبيرةً مثل كل العاملين في الخارج، لأن الشمس أشرقت يومياً وكأنها أرادت تعويض ما خسرته إمبيس من الضوء خلال سنوات الغيوم الكثيفة، ولاحظت امتلاك الجميع بشرةً بيضاء ناصعةً، وليس مساجين الزنزانة الأبدية فقط.

قضينا وقتاً ممتعاً، وأخبرتني المرأتان عن عملهما اليومي وأطلعتهما على مستجدات شفائي وأنني أوشكت أن أتعافى كلياً، ولم ترغب أي منهما في ذكر ديب مالين، أو الفير ون، أو عملية الهروب، أو جنود الليل، وبالتأكيد ليس عن ضحايا الأحداث السابقة، وقد أضحكهما حديثي عن كيفية دخول ستوكس متبجحاً، ولكن كتمت أمر الزيارات الليلية من كيلين وبيترا، فلا

شيء مضحكاً حيالها، وسمعت منهما عن قدوم مجموعة عمالقة من كراتشي كي يعلنوا الولاء إلى الملكة الجديدة.

فحصت جايا حقيبتي ثمّ انحنت أمامها وتحسست قماشها الصنعي وحزاميها، وقد ركعت إيريس إلى جوار رادار وداعبت فراءها.

قالت جايا: «إنها رائعة يا تشارلي، هل صنعت في عالمك؟».

«أجل»، في فيتنام على الأرجح.

رفعتها جايا من الحزامين وقالت: «يا إلهي كم أود الحصول على واحدة، كما أنها ثقيلة جداً، هل تستطيع حملها؟».

قلت: «سأتدبر أمري»، وابتسمت مكرهاً، لأنها ثقيلة فعلاً وتضم ملابسي كلها وقرد رادار، إضافةً إلى مطرقة باب من الذهب الخالص وقد أصر وودي وكلاوديا أن أخذها.

سألتني إيريس: «متى ستغادر يا تشارلي؟».

«اشترطت دورا عليّ أن أستطيع المشي حتّى بوابة المدينة والعودة دون الإغماء كي تمنحني إذن الرحيل في اليوم التالي».

سألتني جايا: «هل ستغادر بهذه السرعة؟! هذا مؤسف، لأننا نقيم الحفلات ليلاً بعد انتهاء العمل».

قلت: «لا بأس، احتفلي من أجلي أيضاً».

في تلك الليلة، عادت إيريس وحدها وقد أسدلت شعرها وارتدت ثوباً جميلاً بدل ملابس عملها، وتجنبت إضاعة أي وقت أو كلمات وقالت مباشرةً: «هل معاشرتي يا تشارلي؟».

أخبرتها أن ذلك سيسعدني كثيراً، ولكن عليها التغاضي عن أيّ حماقات يحتمل أن أرتكبها لأنها تجربتي الأولى.

قالت: «هذا رائع، ويمكنك»، وبدأت تفك أزرار ثوبها.

وحدث ما حدث... ولست مهتماً في سببه سواء كان وسيلة شكر أم شفقة، وإن كانت شفقة فلتحيا الشفقة.

6

زارني ضيفان أخيران قبل مغادرة ليليمار؛ دخل وودي مرتدياً سترةً سوداء من صوف اللاما، وتقدمته كلاوديا ممسكة مرفقه، وقد انحلت ندبتا عينيه وتفتحتا قليلاً، ولكن جل ما استطعت رؤيته عبرهما كان بياضاً خالصاً.

صرخت كلاوديا قرب أذن وودي اليسرى، فأجفل وتراجع قليلاً: «لقد جئنا كي نشكرك ونتمنى لك حظاً سعيداً. نحن لا نستطيع رد جميلك كاملاً يا تشارلي، ولكن سنبني تمثالاً من أجلك قرب بحيرة إيلسا، وقد رأيت مخططاته بنفسي وهي...».

قاطعت كلاوديا، دون أن أدرك مدى غضبي منهما حتّى سمعت نبرة صوتي: «لقد قتلت إيلسا وترقد الآن في قاع البحيرة مع رمح يخترق بطنها، كما توفي عشرات، بل آلاف الناس على حدّ علمي، وجلستما تشاهدان ذلك، أتفهم موقف ليا لأن حب شقيقها قد أعمى بصيرتها وعجزت عن تصديق أنه اقترف كل تلك الجرائم الشنيعة، على عكسكما، لقد عرفتما كل شيء ولم تحركا ساكناً».

التزما الصمت، وتجنبت كلاوديا النظر إلّي في حين عجز وودي عن ذلك.

«أنتما آخر أفراد السلالة الحاكمة إلى جانب ليا، وكان الجميع سيسمعون توجيهاتكما».

قال وودي: «أنت مخطئ يا تشارلي، سيطيعون أمر ليا فقط، وقد حملها مجيؤك على أداء واجبها كملكة».

«ولماذا امتنعت عن نصحها؟ ألست أكبر سناً وأكثر حكمةً؟».

خيّم الصمت مجدداً، صحيح أنهما كاملان ومنيعان ضد الداء الرمادي، ولكن خاضا غمار مصائبهما الخاصة، وأتفهم كيف أضعفهما ذلك وزرع الخوف في قلبيهما، من دون أن تطفئ هذه الأفكار نيران غضبي.

«لقد احتاجت إليك».

أمسكت كلاوديا يديّ، وأوشكتُ أن أسحبهما، ولكنني تجنبت ذلك، وقالت في صوت خافت ربما عجزت عن سماعه: «لقد احتاجتك أنت يا تشارلي، لأنك الأمير المنتظر، وقد انتهى الانتظار الآن، أعترف بصحة كلامك؛ كنا ضعيفين، وخسرنا شجاعتنا، ولكن أرجوك ألا تغادرنا غاضباً».

هل يستطيع المرء اختيار الهدوء بدل الغضب؟ لا أعتقد ذلك، ولكن ما علمته أنني أردت المغادرة سعيداً.

قلت بصوت مرتفع كفايةً كي تسمعني كلاوديا: «أنا موافق، ولكن فقط لأنني ضيعت عربتك ثلاثية العجلات».

استقامت كلاوديا في جلستها وابتسمت، ثمّ أخذت رادار تشم حذاء وودي، فانحنى ومسح على فرائها وقال: «نعجز عن رد جميلك يا تشارلي، ولكن تستطيع أخذ أي شيء تريده».

حصلت على مطرقة الباب، وقدرت وزنها بكيلوغرامين تقريباً، أي ما يعادل 84 ألف دولار إن بقي سعر الذهب نفسه حتّى عودتي إلى سينتري، وأضف إليها القطع الذهبية في الدلو، وبالتالي كنت جاهزاً تماماً من أجل العودة إلى الوطن ثرياً، ولكن فكرت في شيء أخير أمكنني الاستفادة منه.

«ماذا عن المطرقة الثقيلة؟».

لقد استخدمت كلمةً أخرى، ولكن فهما ما قصدته.

7

سيبقى مشهد الوحش المجنح وهو يحاول الخروج من البئر عالقاً في ذهني ما حييت، وهذه ذكرى سيئة تحتاج واحدةً جيدةً كي تمحيها، مثل مغادرة ليليمار في اليوم التالي، ولكن الأخيرة غير كافية من ناحية، وتشبه قطعة خبز يابسة تسد بها رمقك في ظل غياب لطف الآخرين والتشويق من حياتك، وجميلة من ناحية أخرى وليس بسبب مغادرة ليليمار (وسأكذب لو أنكرت مقدار شوقي إلى رؤية والدي)، بل لأنهم يقيمون حفل وداع يليق بـ... كنت سأقول يليق بملك، ولكنني مجرد أمير يستعيد طبيعته بصفتى فتى من ضواحي إلينوي.

ركبت مقدمة عربة جرها بغلان أبيضان أمسكت دورا لجامهما، وقد وضعت وشاح رأسها الأحمر وانتعلت حذاءها القماشي الجميل، وجلست رادار خلفنا بأذنين منتصبتين وذيل يهتز ببطء إلى الأمام والخلف، واصطف الرماديون على جانبي طريق غالين، وركعوا واضعين راحات أيديهم على جباههم عندما اقتربنا منهم، ثمّ نهضوا وهتفوا مع مرور العربة، ومشى رفاقي من ديب مالين وراءنا، باستثناء الطبيب فريد الجالس على كرسي متحرك مطلي بالذهب دفعته إيريس من الخلف، التي نظرت إليّ مرةً واحدةً وغمزتني، وبادلتها ذلك أيضاً، كما حلّقت فوقنا سحابة كثيفة من الفراشات الكبيرة إلى درجة أنها حجبت ضوء الشمس، وحط بعضها على كتفي ورفرفت أجنحتها ببطء، كما هبطت واحدة على رأس رادار.

وقفت أمام البوابة المفتوحة امرأة ترتدي ثوباً أزرق داكناً بلون لون الأبراج الزجاجية الجديد، وتربع تاج غالين على رأسها؛ إنها ليا، وقد باعدت

بين قدميها قليلاً، فتذكرت كيفية وقوفها على الدرجات الحجرية أعلى البئر المظلمة بعد أن استلت سيفها، يا لها من حازمة حقاً.

حثت دورا البغلين كي يتوقفا، فخيّم الصمت على الحشد خلفنا، ولاحظت بين يدي ليا إكليلاً من الخشخاش الأحمر، نوع الزهور الوحيد الذي قاوم ونما في حقبة الداء الرمادي، وليس مفاجئاً أن شعب إمبيس قد أطلق عليه اسم الأمل الأحمر.

رفعت ليا صوتها كي يسمعها الجميع وقالت: «سيعود الأمير تشارلي إلى موطنه يا شعب إمبيس. حاملاً شكرنا وامتناني الخالص. أريدكم أن تتمنوا له رحلةً سعيدةً».

هتف الجميع، وحنيت رأسي كي أستلم الإكليل... وأخفي دموعي أيضاً، لأن الأمير لا يبكي أبداً في الحكايات الخيالية كما تعلم، ورغم ندبات شفتيها، إلا أن الملكة منحتني أفضل قبلة حصلت عليها بعد وفاة والدتي.

ما زلت أشعر بها حتّى الآن.

الفصل الثاني والثلاثون

إليك نهايةً سعيدةً

1

قضيت ليلتي الأخيرة في إمبيس كما الأولى؛ في منزل دورا الصغير قرب البئر بين العالمين، وتناولت الحساء معها، ثمّ خرجنا إلى الهواء الطلق كي نتأمل إكليل السماء الذهبي المضيء والباقي من حطام بيلا وأرابيلا، وقد بدا جميلاً مثل أشياء محطمة كثيرة، وتساءلت مجدداً عن موقع هذا العالم من الكون، ولكن أدركت عدم أهمية ذلك، لأن وجوده في حدّ ذاته كافٍ.

استلقيت مجدداً إلى جوار مدفأة دورا واضعاً رأسي على الوسادة المطبعة برسوم الفراشات، واستغرقت في النوم دون زائرين أو أحلام عن إلدن أو غوغماغوغ، واستيقظت قبل الظهر في أثناء انهماك دورا وسط عملها على آلة الخياطة التي أحضرها لها السيد بوديتش، وتراكمت الأحذية المرتقة على يمينها والتالفة على يسارها، وتساءلت متى ستنتهي من إصلاحها.

تناولنا وجبةً أخيرةً معاً من شرائح اللحم المقدد، وقطع سميكة من الخبز منزلي الصنع، والعجة المطهوة من بيض الإوز، وعندما انتهينا، وضعت حزام سلاح السيد بوديتش مرةً أخيرةً، وركعت على إحدى ركبتي، ووضعت راحة يدي على جبهتي.

قالت دورا: «لا، لا انهض يا تشارلي»، وقد تحسن صوتها بعض الشيء ولكنه لا يزال مختنقاً قليلاً، فنهضت، ثمّ فتحت ذراعيها أمامي، لم أحتضنها فحسب، بل حملتها وأرجحتها حتّى ضحكت، ثمّ انحنت كي تطعم كلبتي قطعتي لحم من مئزرها، ثمّ عانقتها وقالت: «أحبك يا راي».

رافقتني دورا حتّى نصف المسافة إلى قمة التل حيث عرائش الكرمة المتدلية أمام مدخل النفق، وقد اخضرت أوراقها في ذلك الوقت تحت جدائل الشمس اللطيفة، وقد تعبت بسبب حقيبتي الثقيلة، دون نسيان المطرقة المتأرجحة إلى جانبي الأيمن.

احتضنتني دورا للمرة الأخيرة، وداعبت رادار مودعةً إياها، وفاضت الدموع في عينيها أعلى ابتسامة لطيفة على شفتيها؛ إذ أمكنها الابتسام حينها، ثمّ افترقنا، وتابعت وحيداً رفقة كلبتي حتّى التقيت صديقاً قديماً آخر ينتظرنا، وقد برز لونه الأحمر على خلفية عرائش الكرمة الخضراء، فرقدت رادار على بطنها مباشرةً ليثب السناب إلى ظهرها وحدق إلي وقرناه يرتعشان.

جلست إلى جوارهما وخلعت الحزام ووضعت حقيبتي جانباً وقلت: «كيف حالك أيها السيد سناب؟ هل شفيت قائمتك تماماً؟».

نبحت رادار مرةً.

«هذا جيد، ولكن لن تسير معنا أكثر، أليس كذلك؟ إذ قد لا يناسبك طقس عالمي».

تربع فوق مطرقة الباب المصباح الصغير ملفوفاً وسط سترة ثانوية هيلفيو، وقد أطلقت دورا عليه اسماً غريباً حين واجهت مشكلةً في الحروف الساكنة، ولكن تصورت أن نطقها سيتحسن مع مرور الوقت، وتألف المصباح من كرة زجاجية تحوي داخلها ما يشبه شمعةً صغيرةً أشعلتها بواسطة عود ثقاب بعد أن ارتديت حقيبتي مجدداً.

«لقد حان وقت الرحيل يا رادار، هيّا بنا».

نهضت رادار، ونزل السناب قافزاً عن ظهرها، ووقف في مكانه وتأملتنا عيناه السوداوان الصغيرتان مرةً أخيرةً، ثمّ تابع طريقه وسط العشب، واستطعت رؤيته خلال طيرانه في الهواء الساكن، ولكن اختفى عن ناظري بعد دخوله بين أزهار الخشخاش.

ألقيت نظرةً أخيرةً أسفل التل إلى منزل دورا، وبدا جميلاً ومريحاً أكثر تحت أشعة الشمس، فلوحت ناحيته، ثمّ حملت المطرقة وأبعدت فروع الكرمة عن مدخل النفق كاشفاً عن الظلام خلفها.

«هل تودين العودة إلى المنزل يا عزيزتي؟».

تقدمت رادار طريقنا.

وصلنا إلى الحدود بين العالمين، وأصابني الدوار كما حدث خلال رحلاتي الأخرى، وعانيت قليلاً عندما انطفأ المصباح الصغير رغم سكون الهواء، فطلبت من رادار الانتظار في أثناء أخذ عود ثقاب آخر من قراب السيد بوديتش، ومررته على حجر خشن وأشعلت الشمعة مجدداً، وهنا رفرفت الخفافيش العملاقة وحلقت فوق رأسينا، ثمّ عادت إلى أماكنها واستقرت، فتابعنا طريقنا.

وصلنا إلى البئر ودرجات السلم اللولبي الضيقة، فغطيت الشمعة ونظرت إلى أعلى آملاً في عدم رؤية شيء سوى الظلام، لأن أي بصيص نور يعني تحريك أحدهم المجلات التي وضعتها كي أغطي فتحة البئر، ولكن لمحت ضوءاً خافتاً جداً فحسب، ولعله نتيجة سوء في تموضع المجلات لأن التمويه لم يكن مثالياً في نهاية المطاف.

صعدت رادار أربع أو خمس درجات، ثمّ التفتت خلفها تدعوني كي أتبعها، فقلت: «لا، لا يا كلبتي العزيزة، أريد أن أصعد في المقدمة».

أطاعتني رادار على مضض، إذ لعلها استطاعت شم رائحة عالمها القديم ينتظرها في الأعلى، لأن قدرة الشم لدى الكلاب أقوى أربعين مرةً منها لدى البشر، وأعلم أنها خاضت رحلة عودة مزعجةً بسبب حاجتي كي أستريح بين كل حينة والأخرى، ولكن أخبرني فريد أن أتجنب إرهاق نفسي حتّى أتحسن كلياً، وكنت ألتزم تعليماته فحسب.

بلغنا القمة، وشعرت بارتياح كبير بعد رؤية حزمة المجلات الأخيرة في مكانها، وأقصد التي وزانتها على رأسي وكأنها كومة ملابس تحتاج إلى غسييل، ولكن بقيت في الأسفل دقيقةً واحدةً على الأقل وربما أكثر، ليس من أجل الراحة فحسب، بل قاومت شوقي الكبير إلى المنزل واستسلمت أمام الخوف وبعض الحنين إلى منزل آخر تركته ورائي، حيث القصر والأميرة الجميلة والأعمال البطولية، ولعل مكاناً ما قبالة سواحل سيفرونت مثلاً يعج

حتّى الآن بحوريات البحر وأغنياتها، أما في الأعلى، فينتظرني إخراج القمامة وكتابة طلبات الالتحاق الجامعة.

دفعت رادار مؤخر ركبتي بأنفها ونبحت بقوة مرتين، ومن قال إن الكلاب تعجز عن الكلام؟

«انتظري قليلاً، سأنهض».

وضعت رأسي أسفل اللوح ورفعته، ثمّ دفعت اللوح الآخر جانباً ببطء بسبب ضعف ذراعي اليسرى بفضل تلك الساقطة بيترا (لقد تحسنت قليلاً، ولكن ليس إلى حدّ لعب مباريات كرة القدم أو القاعدة)، ونبحت رادار بضع مرات كي تستعجلني، وكأنني أواجه مشكلة في الخروج من بين الألواح التي وضعتها على فتحة البئر قبل الرحيل، فقد خسرت وزناً كثيراً خلال فترتي في إمبيس، وخاصةً ديب مالين، ولكن وجب أن أدفع حقيبتي إلى السطح أولاً، ولكن خرجت في نهاية المطاف، وقفزت رادار خلفي بسهولة تامة، ما أثار غيظي، ولكن نسيت ذلك بسبب الألم الشديد في ذراعي اليسرى، فتفقدت الوهدة مكان عضة بيترا خوفاً من نكس الجرح، ولكن بدا سليماً، وقد أدهشتني برودة الجو في المستودع إلى درجة قدرتي على رؤية أنفاسي.

وجدت المستودع على حاله، وتبين أن الضوء انسل دخله عبر الشقوق في جدرانه وهذا ما رأيته في الأسفل، ثمّ حاولت فتح الباب، ولكن أحدهم أقفله من الخارج، وأدركت أن آندي شين جاء بحثاً عني، رغم استبعادي احتمال تفقد أحدهم المستودع المهجور في الساحة الخلفية من أجلي (أو من أجل جثماني)، ولكن أسعدني الأمر، لأنه يعني الحاجة إلى استعمال المطرقة الثقيلة، وفعلت ذلك بيد واحدة.

أسعفتني ألواح الباب الخشبية القديمة والجافة، فتشقق أحدها مع الضربة الأولى وانكسر بعد الثانية، فاتحاً المجال أمام ضوء نهار إلينوي... وكومة من الثلج، فحطمت لوحين إضافيين وسط نباح رادار التحفيزي، وما

إن أصبحت الفتحة تسعها حتّى عبرتها مباشرةً وأخذت وضعية التبول، وفي أثناء ذلك لوحت بالمطرقة مرةً أخيرةً وحطمت لوحاً آخر، وألقيت حقيبتي خارجاً، واستدرت كي أخرج بشكل جانبي إلى أشعة الشمس المطلة على عشرة سنتمترات من الثلج.

3

قفزت رادار في أنحاء الفناء وتوقفت بين الفينة والأخرى كي تغرس أنفها في الأرض وترفعه فيتناثر الثلج في الهواء، وقد أضحكني تصرفها الطفولي هذا، ثمّ تابعت طريقي إلى الشرفة الخلفية، ونظراً إلى تعرقي بسبب صعود السلم اللولبي واستعمال المطرقة، فقد ارتجفت برداً في طريقي إليها، وتيقنت أن الحرارة لم تتجاوز خمساً وعشرين فهرنهايت، ولعلها نصف تلك القيمة مع إضافة نسيم الهواء الجليدي.

أخذت المفتاح الاحتياطي من مكانه تحت البساط (وقد أطلق عليه السيد بوديتش اسم بساط الترحيب)، ودخلت المنزل كي تخترق رائحة العفن أنفي، والبرودة جسدي، ولكن لعل أحدهم – ليس أبي غالباً – قد رفع حرارة المدفأة قليلاً كي يحمي الأنابيب من التجمد، وتذكرت رؤية معطف حظيرة قديم سابقاً في الخزانة الأمامية، ووجدته في مكانه إضافةً إلى حذاء جلدي برز من فردتيه جوربان صوفيان أحمران، وقد كان ضيقاً على قدمي، ولكن سأرتديه حتّى أسفل التل فقط، ثمّ وضعت حزام السيد بوديتش ومسدسه على رف في الخزانة، وأمكنني وضعهما في الخزنة لاحقاً... لقد تصورت دوماً أن الخزنة ومحتواها السري في مكانهما هناك.

خرجنا من الخلف ثمّ التففنا حول المنزل وعبرنا البوابة التي تسلقتها في المرة الأولى استجابةً إلى نباح رادار وصيحات السيد بوديتش الضعيفة طلباً للعون، وشعرت أن ذلك حدث قبل فترة طويلة جداً، ثمّ أردت متابعة طريقي باتجاه تل شارع سيكامور قبل أن يلفت شيء ما انتباهي، وكان هذا

الشيء «أنا» شخصياً؛ إذ رأيت صورتي من صف قبل التخرج في الثانوية ملصقةً على عمود الهاتف الواقع في تقاطع شارعي بين وسيكامور، أي كانوا يبحثون عني فعلاً، وجل ما فكرت فيه حينها ملامح وجهي الطفولية، وكيف بدوت طفلاً يجهل كل شيء عن أي شيء، واعتقد أنه يعرف الأمور كلها، ولكن لا، لا.

طبعت العبارة التالية في حروف حمراء كبيرة فوق الصورة: هل رأيتم هذا الفتى؟

وفي خط أحمر قان تحت ما سبق: تشارلز مكغي ريد، عمره سبعة عشر عاماً.

وتحتها أيضاً: اختفى تشارلز «تشارلي» ريد في شهر تشرين الأول من عام 2013، ويبلغ طوله ست أقدام وأربع بوصات، ويزن 117 كيلوغراماً، وقد شوهد للمرة الأخيرة...

صدمني شيئان في تلك اللحظة؛ أولهما كيف أفسد الطقس الملصق، وثانيهما عدم تطابق الوزن في الملصق مع وزني الحالي، فالتفتت حولي وتوقعت رؤية السيدة ريتشلاند تحدق إليّ وعيناها في ظل يدها، ولكن لم يكن في حقل بصري سوى رادار واقفةً على الرصيف المملح.

أوقفني دافع قوي جداً في منتصف طريقي إلى المنزل كي أعود أدراجي عبر البوابة إلى 1 سيكامور والتف حول المنزل وأدخل المستودع ثمّ أنزل السلم اللولبي وصولاً إلى إمبيس مجدداً، حيث أستطيع تعلم مهنة ما وبدء حياة جديدة، وربما أتمرن لدى فريد كي أصبح طبيباً جراحاً.

ولكن فكرت في الملصقات التي وزعها العم بوب ووالدي وليندي في أنحاء البلدة والريف، وربما ساهم في ذلك أصدقاؤه من جمعية الكحوليين المجهولين أيضاً، في حال كان مستمراً في إقلاعه عن شرب الكحول.

تمنيت أن يكون كذلك بالفعل.

تابعت المشي مجدداً، وصعدت التل وسط طقطقة مشبك حذاء الرجل الميت، وتبعتني كلبته التي استعادت شبابها، ولاحظت ولداً صغيراً يمشي متثاقلاً خلفي وقد ارتدى معطفاً أحمر وبنطالاً خاصاً بالثلج، وقد جر خلفه مزلاجاً بوساطة حبل قماشي، ولعله قصد تل التزلج في متنزه كافاناو.

«انتظر أيها الصغير».

نظر إليّ مرتاباً ولكنه توقف.

سألته: «في أي يوم نحن؟»، ورغم خروج الكلمات بسلاسة ولطف، إلا أنها بعثت في نفسه الشك، وأعلم أن الأمر غير منطقي، ولكن هذا ما بدت عليه، وذلك لأنني تحدثت الإنكليزية للمرة الأولى تقريباً بعد فترة طويلة.

رمقني الولد بنظرات تتساءل إن كنت غبياً، ثمّ قال: «إنه يوم السبت».

أي إن والدي في المنزل إلا في حال ذهب إلى اجتماع جمعية الكحوليين المجهولين.

«وأي شهر؟».

أجاب: «شهر شباط»، وقد تبينت من نظراته يقينه بغبائي.

«وفي العام 2014؟».

«أجل، يجب أن أذهب».

تابع طريقه إلى أعلى التل ثمّ نظر إليّ ورمقني وكلبتي بنظرةً مرتابةً أخيرةً، وربما أراد التأكد أننا لم نتبعه بقصد أذيته.

لقد غبت أربعة أشهر، ويبدو الأمر غريباً عند التفكير فيه، ولكن ليس أكثر غرابةً من الأمور التي رأيتها وفعلتها.

4

وقفت دقيقةً أو أكثر أمام المنزل أشجع نفسي على الدخول آملاً في إيجاد والدي حياً يرزق لا فاقداً وعيه على الأريكة خلال مشاهدة فيلم كيس أوف ديث أو ماي دارلينغ كليمينتين على قناة (تي أم سي)، ولكن لاحظت أن الثلج قد أزيل من الممر، فاعتبرتها علامةً جيدةً.

سئمت رادار من انتظاري فصعدت الدرجات وجلست استعداداً من أجل الدخول، ويحكى أنني امتلكت المفتاح يوماً، ولكن فقدته في مكان ما على الطريق، مثل حال دراجة كلاوديا ثلاثية العجلات، وعذريتي كذلك، ولكن اكتشفت أن الباب مفتوح، فدخلت وسمعت صوت مذيع نشرة الأخبار، وليس قناة (تي أم سي)، وانطلقت رادار تجري في أنحاء المنزل وتنبح معلنةً وصولنا.

دخلت غرفة المعيشة ورأيت رادار واقفةً على قائمتيها الخلفيتين وقد وضعت الأماميتين على صحيفة كان والدي يقرأها. في البدء، بدا أنه لم يتعرف إلينا، ثمّ ترهل وجهه من الصدمة، وسأذكر ما حييت كيف جمع وجهه حينها بين ملامح شخص في ستينات أو سبعينات عمره، وآخر شاباً مثلي، وكأن ساعةً شمسيةً داخله دارت باتجاهين متعاكسين في اللحظة نفسها.

«هل هذا أنت يا تشارلي؟».

حاول الوقوف، ولكن ساقيه خذلتاه فسقط مجدداً إلى كرسيه.

«هل هذا أنت حقاً؟».

«أجل يا أبي».

استطاع الوقوف حينها، وانهمرت الدموع من عينيه وعيني أيضاً، ثمّ اندفع إلي ولكن اصطدم بطاولة صغيرة وأوشك أن يقع لولا أنني أمسكته.

«شكراً للرب على سلامتك يا تشارلي. اعتقد الجميع وأنا بينهم أنك...».

عجزنا عن الكلام رغم امتلاكي أموراً كثيرة كي أقصها عليه، ولكن احتضننا بعضنا فحسب فوق رادار الجالسة بيننا تهز ذيلها وتنبح فرحاً.

لقد منحتك شيئاً أردته من البداية؛ إليك نهايةً سعيدةً أخيراً.

الخاتمة

بعض الأسئلة والإجابات. رحلة أخيرة إلى إمبيس.

1

أصبت في حال ظننت أن بعض المواضيع في هذه القصة ليست بقلم شاب يافع في السابعة عشرة من العمر، وذلك لأنني عدت من إمبيس قبل تسع سنوات، وقرأت وكتبت الكثير خلال هذه الفترة، وقد تخرجت في جامعة نيويورك بمرتبة شرف في اللغة الإنكليزية (بفاصل ضئيل جداً عن الامتياز ومرتبة الشرف)، وأعمل الآن مدرساً في كلية الفنون الليبرالية في شيكاغو، حيث أقيم ندوةً سيحضرها كثيرون بعنوان «الخرافة والحكايات الخيالية»، كما يعتبرونني هناك شخصيةً لامعةً وذكيةً، ويعود ذلك إلى مقال موسع كتبته في سنة التخرج، وقد نشر في مجلة يونيان ستاديز العالمية، ورغم مردوده المادي بخس، ولكنه منحني مصداقيةً لا تقدر بثمن، وفي المقابل تعتقد إنني اقتبست قصتي من كتاب يحمل غلافه صورة مخروط ملأته النجوم.

قد تقول في نفسك: «أسعدتني معرفة ذلك، ولكن أريد طرح بعض الأسئلة».

لست وحدك، لأنني أريد معرفة كيف تسير الأمور في عهد الملكة ليا، وهل استعاد الرماديون عافيتهم، وهل ما زال صوت كلاوديا غالين صاخباً، كما أود الاستعلام عن حال الطريق إلى عالم غوغماغوغ المروع، وهل أغلقوه أم لا؟ ومن تدبر أمر جنود الليل الباقين، وهل شهد رفاقي في ديب مالين مصيرهم؟ (أستبعد ذلك، ولكن يمكن للمرء أن يتصور ما يشاء)، وقد أثار فضولي أيضاً كيف فتح جنود الليل بوابات زنزاناتنا عبر فتح أذرعهم أمامها.

لعلك تريد الاطمئنان عن حال رادار، إنها بحال جيدة وشكراً لسؤالك، ولكنها تقدمت في السن طبعاً بعد تسع سنوات، ما جعلها عجوزاً جداً نسبةً إلى كلبة شيبرد، خاصة إذا أضفنا حياتها الجديدة إلى سابقتها.

تود أيضاً معرفة إن أخبرت والدي حيال تلك الأشهر الأربعة، أود قبل الإجابة استعارة ملامح الفتى الذي سألته عن تاريخ ذلك اليوم، ثمّ أقول: «وكيف لا؟»، أم وجب إخباره إنني أحضرت دواءً عجيباً من شيكاغو امتلك تأثيراً حول رادار من كلبة عجوز أصابها التهاب المفاصل إلى كلبة شيبرد في الرابعة من عمرها؟

أخبرته عن الأمور الأساسية كلها، وليس كل شيء دفعةً واحدةً؛ أطلعته بدايةً على وجود علاقة بين عالمنا وعالم آخر (دون أن أذكر اسم إمبيس، بل أطلقت عليه اسم العالم الغريب، نفس ما أسميته عند الوصول إليه للمرة الأولى)، كما قلت إنني ذهبت إلى هناك من مستودع السيد بوديتش، وقد أنصت إليّ باهتمام، ثمّ سألني – ولعلك توقعت ذلك – أن أفصح عن حيث ذهبت حقاً.

أريته ذراعي والوهدة العميقة التي سترافقنني ما حييت، دون أن يقنعه ذلك، ولذلك فتحت حقيبتي وأريته مطرقة الباب الذهبية، فتفحصها، وقدر

وزنها، واقترح – مؤقتاً – أنها مجرد قطعة رخيصة مصنوعة من الرصاص ومطلية بالذهب.

قلت: «تستطيع كسرها والتأكد بنفسك، كما أننا سنصهرها ونبيعها في نهاية المطاف، ويوجد دلو من القطع الذهبية في خزنة السيد بوديتش وقد أحضرها من المكان نفسه، وأنا مستعد كي أريك إياه متى أردت ذلك، لقد اقتات السيد بوديتش منها، وقد بعت بعضها إلى تاجر مجوهرات في ستانتوفيل، ويدعى السيد هاينريك، ولكنه قُتل، وبالتالي يجب أن نبحث عن شخص آخر غيره».

حمله ذلك على تصديقي أكثر، وكانت رادار قطعة الأحجية الناقصة في إقناعه، لأنها عرفت الطريق إلى أماكنها المفضلة في منزلنا، وما أثبت هويتها إثباتاً قاطعاً بعض الندبات النقطية على منخرها جراء عراك صغير في طفولتها بينها وبين نيص (تعلمت رادار عدم العبث معه من المرة الأولى على عكس بقية الكلاب)، وقد لاحظها والدي سابقاً خلال إقامة رادار في منزلنا بعد أن كسر السيد بوديتش ساقه، ثمّ وفاته – وأوشكت أن تلحق به أيضاً، ولعل هذه الندبات بقيت لأنني أخرجتها من الساعة الشمسية قبل أن تصغر إلى سن سبق عراكها مع النيص، وقد تأملها والدي طويلاً، ثمّ التفت ناحيتي مذهولاً.

«هذا مستحيل».

قلت: «أعلم ذلك».

«هل يوجد دلو من القطع الذهبية في خزنة السيد بوديتش حقاً؟».

قلت مجدداً: «سأريك إياها متى شئت... أعلم مقدار الأمور التي تحاول استيعابها».

جلس عاقداً ساقيه على الأرض، وربت رأس رادار وسط دوامة أفكاره، ثمّ قال: «هل تزعم أنك زرت عالماً سحرياً، مثل إكزانث في روايات بيريس أنتوني التي اعتدت قراءتها في المدرسة الإعدادية؟ وقابلت الغوبلين والباسيليك وغيرها من المخلوقات؟».

أجبته: «في الحقية، لم أصادف أياً منها في إمبيس، ولكن توجد حوريات البحر... والعمالقة...».

«هل أستطيع الذهاب إلى هناك؟».

قلت: «بل يجب عليك ذلك، وإن لمرة واحدة»، لأن إمبيس مختلفة عن إكزانث، فقد خلت كتب بيريس أنتوني من ديب مالين أو غوغماغوغ.

قضيت أسبوعاً في المنزل أتناول طعاماً أمريكياً تقليدياً لذيذاً، وأنام في فراش أمريكي مريح وأجيب عن أسئلة رجال شرطة أمريكيين عجائز، ناهيك عن أسئلة العم بوب، وليندي فرانكلين، وأندي تشين، ومديري المدارس المختلفة، وحتى متلصصة الحي، السيدة ريتشلاند، ثمّ اتجهنا بعد مرور سبعة الأيام تلك إلى إمبيس، الأمير الذي ليس أميراً بعد الآن رفقة جورج ريد من شركة ريد إنشورنس، وأريته دلو قطع الذهب، والضوء الصغير، وقد تفحصه باهتمام كبير.

لفقت قصةً مع والدي الذي عمل سابقاً محققاً في الاحتيال على الضرائب؛ أي صادف أمثلةً كثيرةً عن الكذب حتّى أدرك تماماً كيف يخفي كذبته بإتقان، وأعلم أنك تريد معرفة تفاصيلها، ولكن سأخبرك بدايةً أن فقدان الذاكرة قد أدى دوراً فيها، وأضف إلى ذلك وفاة كلبة السيد بوديتش في شيكاغو قبل أن أقع في مشكلة أعجز عن تذكرها (ولكن أذكر كيف تعرضت إلى ضربة على رأسي)، أي أملك ووالدي الآن النسخة الثانية من رادار، وأراهن أن السيد بوديتش، من عاد إلى سينتري بصفته بوديتش الابن، سيحبها أكثر من سابقتها. لقد طلب مراسل من ذا ويكلي سان المدعو بيل

هاريمان الإذن كي يجري مقابلةً معي (أعلم أنه قابل أحد رجال الشرطة سابقاً)، ولكن رفضت ذلك، لأن الشهرة آخر ما أحتاجه.

هل تعلمون ماذا أصاب كريستوفر بولي شبيه رومبيلستيلتسكين القذر والذي أراد قتلي وسرقة كنز السيد بوديتش؟ لقد بحثت عبر الإنترنت ووجدت ما حدث.

قد تتذكر ما أخبرتك عنه في بداية قصتي عن خوفي حيال التشرد رفقة والدي في نهاية المطاف، والنوم تحت الجسور إلى جوار أشياءنا المتراكمة فوق بعضها في عربة تسوق، هذا ما أصاب بولي (ولست متأكداً من أمر عربة التسوق)، وقد وجدت الشرطة جثته تحت جسر تري ستيت تولواي في سكوكي، وكشفت في تقريرها أنه تعرض إلى طعن متكرر، ورغم غياب محفظته أو أشياء تعرف عنه في موقع الحادثة، ولكن اكتشفت هويته عن طريق تطابق بصمات أصابع الجثة مع نظيرتها في ملف اعتقالات كثيرة تعود إلى سنوات المراهقة، وقد نقل الخبر الصحفي تصريح رئيس شرطة سكوكي، براين بيكر حول أن الضحية عجز أن يدافع عن نفسه بسبب كسر في معصميه.

أعلم أن بولي كان سيلاقي المصير نفسه على أي حال لأن بنيته ضعيفة وقد سلبته مسدسه سابقاً، ولكن لا أستطيع إثبات ذلك أبداً، أو أن دافع القتل غنيمة كبيرة مسروقة من متجر مجوهرات، أي هل حاول بيعها إلى الشخص الخطأ ودفع حياته ثمناً؟ ربما لا، ولكنني على يقين من صحة ذلك، وما أشك فيه، هو مقتله في وقت مقتل بيتركين على يد ريد مولي بعد أن ضربته بقوة كافية كي تقسمه إلى قسمين، ولكن احتمال تواقت الحدثين قائم.

أعلم تماماً أن بولي قد جر الأمر على نفسه، ولكن لا يتملكني سوى الأسف والعار عندما أتصور كيف طرحه قاتله أرضاً تحت الجسر وسط

النفايات، وانحنى فوقه يطعنه في حين رفع بولي يديه العاجزتين كي يصد ضربات السكين، ولعلك تبرئني من الذنب لأن فعلي جاء دفاعاً عن حياتي وسر المستودع، ولكن يتقاطع الإحساس بالذنب مع الضحك والإلهام؛ أي يأتي ثلاثتهم فجأةً.

2

هبت عاصفة ثلجية قوية من جبال روكي في أول يوم سبت بعد عودتي إلى المنزل، وقد صعدنا حينها إلى منزل السيد بوديتش - انتعلت حذاءً مريحاً من أجل الرحلة - ثمّ اتجهنا إلى الخلف، وتفحص والدي جانب المستودع المحطم مستاءً.

«يحتاج بعض الإصلاحات».

«أعلم ذلك، ولكن عجزت عن الخروج سوى بهذه الطريقة بعد أن أقفل آندي الباب».

حملنا مصباحين يدويين، وبالتالي لا حاجة إلى المصباح الصغير، كما تركنا رادار في المنزل، لأنها ستجري ناحية منزل الأحذية فور خروجنا من النفق، ولكن الغاية من ذهابي إلى هناك إقناع والدي بحقيقة وجود ذلك العالم فقط دون أن تراني دورا أو أي أحد التقيته خلال فترتي هناك، إضافةً إلى شيء آخر غريب وربما أناني؛ لم أرغب في سماع والدي يتحدث الإمبيسية، وأردت الاحتفاظ بتلك الميزة لي.

تقدمت طريقنا عبر الدرجات اللولبية وسط تكرار والدي عبارة: «أعجز عن تصديق ذلك فحسب»، ودعوت ألا يصيبه انهيار نفسي بسببي، ولكن بقيت رؤية إمبيس الحل الوحيد أمامي.

ومازلت متمسكاً بصحة قراري حتّى الآن.

طلبت منه توجيه ضوء المصباح إلى الأرضية الصخرية عند دخول النفق بسبب وجود خفافيش كبيرة، وكي نتجنب طيرانها فوق رؤوسنا وإرباكنا لأننا سنصل إلى مكان نشعر فيه بالدوار، ونختبر ما يشبه انفصال الروح عن الجسد، وتلك هي نقطة العبور بين العالمين.

سأل والدي بصوت خافت: «يا إلهي، أخبرني من صنع هذا المكان يا تشارلي؟».

«اسأل نفسك من خلق الكون كله».

أعلم وجود عوالم أخرى، ولعل عددها يكافئ عدد نجوم السماء، كما نشعر بها وتؤدي جميعها إلى عالمنا في القصص القديمة كلها.

وصلنا إلى الحدود بين العالمين وأوشك والدي أن يسقط، ولكنني كنت مستعداً فوضعت يدي حول خصره.

قال: «أشعر بالغثيان، ربما يجدر بنا العودة».

«تحمّل قليلاً بعد، ألا ترى الضوء في نهاية النفق؟».

وصلنا إلى تعريشة الكرمة، فنحيتها عن طريقنا كي تطأ أقدامنا عالم إمبيس تحت سماءه الخالية من الغيوم، وقد تربع أمامنا منزل دورا أسفل التل، ولكن دون أيّ أحذية متدلية على السياج حوله، وقد لاحظت وجود فرس ترعى قرب طريق المملكة دون أن أتأكد من صحة ذلك نظراً إلى المسافة البعيدة الفاصلة بيننا، ولكن تيقنت من كونها فرساً أعرفها، وكيف لا؟ لأن الملكة لم تعد تحتاج إلى فلادا كي تنطق باسمها، ناهيك عن أن المدينةً لا تلائم الأحصنة.

تأمل والدي المكان حوله مذهولاً، وخاصةً بعد رؤية حشرات صرصار الليل - ليست حمراء - تقفز وسط العشب الأخضر.

«يا لحجمها الكبير!».

قلت وقد شعرت أنه سيقع أرضاً: «اجلس واسترح يا أبي، وانتظر حتّى ترى الأرانب أيضاً».

جلسنا ومنحته بعض الوقت كي يستوعب ما رأته عيناه، وسألني عن كيفية وجود سماء تحت الأرض، وعن سبب كثرة الفراشات، ناهيك عن حجمها الكبير، وقد أجبته بشيء واحد فقط: «لا أدري».

أشار إلى منزل دورا وقال: «من يعيش هناك؟».

«إنه منزل دورا، ولكن أجهل اسم عائلتها».

«هل تعتقد أنها في المنزل الآن ونستطيع رؤيتها؟».

«لقد أحضرتك يا أبي كي تصدق ما أخبرتك إياه، وليس من أجل لقاء الآخرين والتعرف إليهم، وهذه زيارتنا الأخيرة إلى هنا، ويجب كتمان سر هذا العالم إلى الأبد، لأن كشفه يعني كارثةً كبيرةً».

«أعتقد أنك محق يا تشارلي نظراً إلى ما عانته شعوب كثيرة بسببنا ناهيك عن أذيتنا مناخ بلادنا... ما الذي تفكر فيه الآن؟».

أسعدتني بدايةً تمالكه نفسه، إذ خشيت أن يهلع أو ينكر الأمر تماماً، وأجبته: «أفكر في أشياء وجب أن يفعلها السيد بوديتش قبل سنوات طويلة».

ولكن ربما منعته الساعة الشمسية عنها، وقد ذكرت ليا مرةً شيئاً عن البذور الشريرة الموجودة في قلوب البشر أجمعين رجالاً كانوا أم نساءً.

«حان وقت العودة يا أبي».

نهض والدي، ولكنه توقف وألقى نظرةً أخيرةً على العالم في حين أبعدت الكرمة عن مدخل النفق، وقال: «يا له من عالم جميل، أليس كذلك؟».

«أجل، وسيبقى كذلك».

سنحمي إمبيس من عالمنا، ونحاول حمايته منها أيضاً بسبب الظلام القابع تحتها في قبضة غوغماغوغ، ولعله عاجز عن الخروج الآن بسبب تحول بيلا وأرابيلا إلى حطام بعد القبلة الأخيرة، ولكن يجب الحذر على الأقل عند التعامل مع مخلوقات مجهولة مثله.

تعاونت مع والدي خلال ذلك الربيع على إصلاح الفتحة في جانب المستودع، ثمّ حصلت على وظيفة صيفاً في شركة كرامر للإنشاءات، واقتصرت مهامي على الأمور المكتبية بسبب ذراعي المصابة، ولكن قضيت فترةً لا بأس بها وسط ورشات العمل، وتعلمت قدر الإمكان عن الإسمنت وأساسات البناء، ورغم وجود معظم المعلومات على موقع يوتيوب، ولكن لا شيء يضاهي الخبرة العملية عند وجود عمل مهم كي تنجزه.

وضعت برفقة والدي صفيحةً فولاذيةً على فتحة البئر قبل أسبوعين من مغادرتي لدراسة فصلي الأول في جامعة نيويورك، وفي الأسبوع التالي، فرشنا أرضية المستودع بالإسمنت، وشجعت رادار كي تضع بصمة قوائمها فيه قبل أن يجف.

سأخبرك الحقيقة: لقد آلمني حقاً إخفاء البئر تحت صفيحة فولاذية وطبقة إسمنتية سميكة، لأنها طريق إلى عالم سحري، وموطن أشخاص أحببتهم، وأخص أحدهم بذلك، وبينما صبت الإسمنت أمام عيني شاحنة استعرتها من كرامر، فكرت في ليا، وكيف وقفت على الدرجات بعد أن استلت سيفها، وجعلت ساقيها في وضعية المبارزة، ومزقت فمها كي تصرخ باسم شقيقها.

لقد كذبت في هذا الموضع فقط؛ لأن قلبي لم يؤلمني فحسب، بل شعرت أنه يتمزق ويصيح رافضاً فعل ذلك، ويسألني كيف أمكنني ترك السحر ورائي، وإن أردت فعلاً سد فوهة القمع ومنع النجوم عن التدفق عبرها.

فعلت ذلك مجبراً، وقد تفهم والدي ذلك.

3

لعلك تسألني: «هل تراودك أحلام؟»، طبعاً، ويدور بعضها حول وحش البئر المظلمة، وأستيقظ منها واضعاً يدي على فمي كي أكتم صراخي، ولكن مرت سنوات كثيرة، وأصبحت هذه الكوابيس أقل تواتراً أمام أحلام تأخذني إلى حقل من زهور الخشخاش؛ الأمل الأحمر.

أعلم أننا فعلنا الشيء الصحيح، والوحيد أيضاً، وما زال والدي يراقب المنزل الواقع في 1 شارع سيكامور، وأفعل المثل عند عودتي من الجامعة، وسيأتي يوم أستقر فيه وسط ربوع سينتري إلى الأبد، وربما أتزوج، وفي حال رزقت بأطفال، سأمنحهم ذلك المنزل، وحين يتساءلون عنه في طفولتهم، سأقرأ عليهم القصص القديمة التي تبدأ بعبارة يحكى أن.

الخامس والعشرون من تشرين الثاني عام 2020 –

السابع من شباط عام 2022

الفصل الأول

الجسر اللعين-المعجزة-النباح

1

أنا واثق من قدرتي على سرد هذه القصة، كما أنني واثق من أن أحداً لن يُصدقها. ليس لديّ مشكلة في هذا، وبإمكاني أن أكتفي بسردها فحسب. إن مشكلتي -وأنا واثق من أن جميع الكتاب يتعرّضون لهذه المشكلة وليس المبتدئين أمثالي وحسب- هي أنني لا أعرف من أين سأبدأ.

في البدء، فكّرت في المستودع لأن مغامرتي بدأت هناك، ولكنني لاحظت أن عليّ ذكر السيد بوديتش أولاً وكيف تقرب أحدنا من الآخر، ولكن هذا ما كان ليحدث لولا المعجزة التي حدثت لوالدي، بإمكانكم القول إن هذه المعجزة كانت عادية وإنها حدثت مع آلاف الرجال والنساء منذ عام 1935 ولكنها بدت معجزة عظيمة في عيني طفل صغير.

ليس هذا هو المكان الصحيح أيضاً لأبدأ منه، فأنا أعتقد أن والدي ما كان يحتاج إلى معجزة لولا ذلك الجسر اللعين، لذا سأبدأ منه، أي من جسر شارع سيكامور اللعين. وبعد أن فكّرت في تلك الأمور أرى خيطاً واضحاً يبدأ من تلك السنوات ويصل إلى السيد بوديتش وذلك المستودع المقفل وراء منزله ذي الطراز الفيكتوري المتداعي.

لكن هذا الخيط يسهل قطعه، لذلك سأستبدل تعبير السلسلة بتعبير الخيط، ودعوني أقلْ إنها سلسلة قوية، وكنت أنا الطفل الذي قُيّد بها من معصمه.

2

يجري نهر الرامبل الصغير في النهاية الشمالية لسينتري ريست (وتُعرف باسم سينتري بين المحليين) وحتى العام 1996 الذي وُلِدت فيه، كان هناك جسر خشبي فوقه. في ذلك العام، درس مفتشو الولاية من مديرية النقل على الطرق السريعة الأمر، وصنّفوا الجسر بأنه غير آمن. قال لي أبي إن الشعب في قسمنا من بلدة سينتري يعرفون أن الجسر غير آمن منذ العام 1982. قيل إن الجسر يتحمل عشرة آلاف رطل، ولكن سكان

البلدة الذين يملكون شاحنات كانوا يبتعدون عنه في معظم الأحيان عندما تكون شاحناتهم محملة، ويلجؤون إلى تفرع من الشارع العام الذي كان مزعجاً ويهدر الوقت. قال أبي إن الشخص كان يشعر بالألواح الخشبية وهي تهتز وتتخلخل تحته، حتّى وإن كان يقود سيارة. لقد كان مفتشو الولاية محقين، فالجسر كان خطراً للغاية، ولكن هذه سخرية القدر: إن لم يُستبدل جسر معدني بالجسر الخشبي ما كانت أمي لتموت.

إن نهر الرامبل صغير فعلاً، ولم تستغرق عملية نصب الجسر الجديد وقتاً طويلاً. تم التخلّص من الجسر الخشبي وافتتح الجسر الجديد في نيسان عام 1997.

ذات ليلة قال أبي: «قصّ العمدة الشريط، وبارك الأب كوغلين ذلك الجسر اللعين، وتم الأمر»، في تلك الليلة، كان أبي ثملاً للغاية «لم تكن تلك المباركة نعمة علينا يا تشارلي أليس كذلك؟».

سُمّي ذلك الجسر بجسر فرانك إيلزوورث تيمناً باسم بطل محلي مات في فيتنام، ولكن المحليين أطلقوا على الجسر اسم جسر شارع سيكامور. عُبّد شارع سيكامور بشكل أنيق وناعم على الطرفين ولكن سطح الجسر الفولاذي -الذي كان يبلغ طوله مئة واثنتين وأربعين قدماً- كان يصدر صوت همهمة كلما عبرته السيارات، وصوت زمجرة حين تستخدمه الشاحنات. وكان بوسع الشاحنات استخدامه حيث إنه استطاع تحمل وزن ستين ألف رطل. لم يكن كبيراً لدرجة أن يتحمّل شبه مقطورة محمّلة، ولكن شاحنات النقل الطويلة لم تستخدم جسر سيكامور يوماً.

في كل عام، جرى الحديث في المجلس البلدي عن تعبيد سطح الجسر، وإضافة رصيف واحد على الأقل، ولكن الأموال كانت تنفق على الأمور الأكثر إلحاحاً عاماً بعد عام. لا أعتقد أن الرصيف كان بوسعه إنقاذ أمي، ولكن تعبيد السطح كان باستطاعته أن ينقذها، قد تقولون إنه ما من

طريقة تتيح لي التأكد من ذلك، أليس هذا ما تفكرون فيه؟ يا لذلك الجسر اللعين.

3

كنا نسكن في وسط سفح التلّ التابع لشارع سيكامور أي على بعد ربع ميل عن الجسر، وكان هناك متجر صغير للغاز والبقالية على الطرف الآخر يُدعى زيب مارت، كان يبيع الأشياء الاعتيادية من زيت المحركات إلى خبز وندر وكعكات ديبي الصغيرة كما كان يبيع دجاجاً مقلياً مصنوعاً من قبل المالك السيد إيليادز (ويعرف بين المحليين باسم السيد زيبي)، كان ذلك الدجاج يماثل الإعلان الذي نشر عنه على الواجهة: أفضل دجاج مقلي على وجه الأرض. ما زلت أتذكر كم كان شهياً، ولكنني لم أتناول قطعة واحدة منه بعد موت أمي، لأنني إن حاولت تناول قطعة واحدة منه كنت سأشعر بغصة.

في أحد أيام السبت من تشرين الثاني عام 2003 -كان المجلس البلدي لا يزال يناقش موضوع تعبيد الجسر، وتوصّل إلى أن الموضوع يمكن تأجيله مجدداً للعام التالي. قالت لنا أمي إنها ستذهب إلى زيبي كي تجلب لنا دجاجاً مقلياً لنتناوله على العشاء، في تلك الأثناء كنت وأبي نشاهد مباراة كرة قدم لأحد الفِرق الجامعية.

قال أبي: «استقلي السيارة، يبدو أن السماء ستمطر».

قالت أمي: «أريد أن أمشي قليلاً، ولكنني سأرتدي معطفي الواقي من المطر».

هذا ما كانت ترتديه في آخر مرة رأيتها فيها. لم تعتمر القبعة لأن المطر لم يكن قد بدأ بالتساقط، لذا كان شعرها يتناثر على كتفيها. كنت في السابعة من عمري، وكنت أعتقد أن أمي صاحبة أجمل شعر أصهب في العالم. لمحتني وأنا أنظر إليها عبر النافذة، فلوّحت لي، ولوّحت لها بدوري، وعاودت مشاهدة التلفاز حيث كان فريق إل.إس.يو متقدماً. تمنيت لو أنني

نظرت إليها أكثر، ولكنني لا ألوم نفسي؛ لا أحد يعرف ما يخبئ له القدر، أليس كذلك؟

لم يكن خطئي ولا خطأ والدي، مع أنني أعرف أنه يلوم نفسه ويقول: ما كان ذلك ليحصل ما لم أكن كسولاً. أعتقد أن ما حصل لم يكن خطأ الرجل في شاحنة السباكة؛ قال رجل الشرطة إنه لم يكن ثملاً، وأقسم السائق إنه لم يتجاوز السرعة المسموح بها التي كانت بحدود 25 ميلاً في الساعة في منطقتنا السكنية. قال أبي مفترضاً أن كلام السائق صحيح، إنه يرجّح فرضية إلتهائه عن مراقبة الطريق لثوانٍ، ولا بدّ أن أبي كان محقاً. كان خبير تسوية طلبات وتأمينات، وقال لي إن الحادث الوحيد الذي سمع به في حياته، والذي لا يمكن أن يُلام عليه أحد، هو موت رجل في أريزونا بعد أن صدمه نيزك في رأسه.

قال أبي: «وراء كل حادث شخص مخطئ، ولا علاقة لما أقوله بأن هذا الشخص يجب أن يُلام ويتحمّل المسؤولية».

سألته: «هل تلوم الشخص الذي صدم أمي؟».

فكّر في الأمر، ثمّ ارتشف من كأسه وتلمظ. جرت هذه المحادثة بعد ستة أو ثمانية أسابيع من موت أمي، بعدها تخلى عن البيرة، وأدمن على جين غيلبي.

«أحاول ألا أفعل هذا، وهذا ما لا أفعله عادة، إلا عندما أستيقظ عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ولا أجد أحداً في جواري فألومه حينها».

4

سارت أمي نزولاً عبر سفح التلّ، وكانت هناك لافتة تدل على موقع انقطاع الرصيف. اجتازت اللافتة وعبرت الجسر، وقد بدأ الظلام يشتد، وتناثرت قطرات مطر خفيفة. دخلت المتجر، وقالت لها إيرينا إيليادز

(وتعرف باسم السيدة زيبي) إن مزيداً من الدجاج سيجهز خلال ثلاث دقائق أو خمس دقائق على الأكثر. في غضون ذلك، وفي مكان ما على شارع باين الذي لا يبعد عن منزلنا كثيراً، أنهى السباك آخر مهمة له ليوم السبت ذاك، وكان يعيد عدته إلى حقيبته في صندوق شاحنته.

جهز الدجاج وكان ساخناً ومقرمشاً وذهبياً، وضبت السيدة زيبي علبة فيه ثماني قطع، وقدمت لأمي جانحاً إضافياً لتأكله في طريقها إلى المنزل، شكرتها أمي، ودفعت ثمن الدجاج، وتوقفت لتنظر إلى رف المجلات، إن لم تفعل ذلك لكانت اجتازت الجسر على الأرجح؛ من يعلم؟ لا بدّ من أن شاحنة السباك كانت تنعطف عند شارع سيكامور وتنزل التلّ الذي يبلغ طوله ميلاً بينما كانت أمي تتصفّح آخر عدد من بيبل.

أعادت المجلة إلى مكانها، وفتحت الباب، وقالت للسيدة زيبي: «طاب مساؤك». لا بدّ من أنها صرخت حين رأت أن الشاحنة كانت على وشك أن تصدمها، والله أعلم ما الذي فكّرت فيه. ولكن تلك كانت الكلمات الأخيرة التي تفوهت بها، خرجت وكان المطر بارداً ويهطل بهدوء، وكان عبارة عن خطوط فضية بسبب النور المنبعث من مصباح الشارع الوحيد الذي كان يقع بجوار زيب مارت.

مشت أمي على السطح المعدني وهي تتناول جانحها المقرمش، سُلّطت الأضواء الأمامية عليها، وألقت بظلها الطويل خلفها، اجتاز السباك اللافتة على الاتجاه الآخر وكان قد كتب عليها: يتجمد سطح الجسر قبل الشارع! خذوا حذركم من فضلكم! هل كان ينظر إلى المرآة الجانبية؟ هل كان يتحقق من رسالة على هاتفه؟ أجاب «لا» على السؤالين. ولكن عندما أفكر في ما حصل في تلك الليلة، أفكّر في أبي وما قاله بخصوص الحادث الوحيد الذي سمع به في حياته والذي لا يمكن أن يُلام عليه أحد، وهو موت رجل في أريزونا بعد أن ارتطم نيزك برأسه.

كان هناك حيز واسع حيث إن الجسر المعدني كان أوسع من الجسر الخشبي السابق، ولكن المشكلة تكمن في التغطية الفولاذية. رأى أمي في منتصف الجسر، وداس على الفرامل ليس لأنه كان مسرعاً (حسب ما قال طبعاً) بل بسبب الغريزة الصرفة. بدأ السطح الفولاذي بالتجمّد، انزلقت الشاحنة وبدأت تميل إلى الممر الجانبي، فالتصقت أمي بسياج الجسر، وأوقعت قطعة الدجاج على الأرض. انزلقت الشاحنة أكثر، واصطدمت بها، وألقت بجثتها عن السياج، فبدت وكأنها تطير. لا أريد أن أفكر بأشلائها التي تناثرت بعد دوامة الموت تلك، ولكنني أضعف أحياناً، فتتملكني الأفكار السوداء. كل ما أعرفه هو أن مقدمة الشاحنة ألقت بها أخيراً قرب دعامة للجسر بجوار زيب مارت، ألقي قسم منها في نهر الرامبل، ولكن معظمها ظل على الجسر.

أحمل صورة لنا في محفظتي؛ كنت في الثالثة من عمري تقريباً حين التقطت تلك الصورة. كانت تجلسني على فخذها وكانت إحدى يدي في شعرها، وبدا شعرها في غاية الروعة.

5

في تلك السنة، كان عيد الميلاد مروعاً ويجب عليكم تصديقي.

أتذكّر مراسم الاستقبال في منزلنا بعد الجنازة؛ كان أبي هناك، وكان يُرحّب بالناس، ويتقبل التعازي، ثمّ اختفى. سألت أخاه، أي عمي بوب، عن مكانه، فأجابني: «إنه مستلقٍ، فهو متعب للغاية يا تشارلي، لمَ لا تخرج وتلعب؟».

لم أتمنع في حياتي عن اللعب يوماً مثل ذلك اليوم، ولكنني خرجت. مررت بأشخاص بالغين كانوا قد خرجوا ليدخنوا، وسمعت أحدهم يقول: «يا للرجل المسكين، إنه ثمل للغاية» وفي خضم حزني على أمي علمت وقتها عمّن يتحدثون.

قبل أن تتوفى أمي كان يمكن وصف والدي بالمعتدل في شرب الكحول. كنت طفلاً صغيراً في الصف الثاني، لذا لا أنصحكم أن تعتمدوا على كلامي تماماً، ولكنني أتحمل مسؤوليته. لم أسمعه يتلعثم يوماً أو يترنح في الأرجاء، كما أنه لم يخرج إلى الحانات، ولم يمدّ يده عليّ أو على أمي. تعود أن يعود إلى المنزل مع حقيبته، وكانت أمي تقدم له شراباً، وكثيراً ما كان هذا الشراب هو المارتيني.

كانت تشاركه الشراب، وفي المساء، حين كنا نشاهد التلفاز، كان يشرب البيرة. وهذا كل شيء.

تغير كل هذا بعد الجسر الملعون، كان ثملاً بعد الجنازة (كشخص بغيض)، كما كان ثملاً في عيد الميلاد وفي ليلة رأس السنة (واكتشفت لاحقاً أن الأفراد مثله يدعونها ليلة الهواة). في الأسابيع والأشهر التي تلت موت أمي، لطالما كان أبي ثملاً معظم الوقت الذي أمضاه في المنزل، ولم يكن يخرج إلى الحانات في الليل. (ذات مرة قال لي: «هناك كثير من الأشخاص البغيضين أمثالي»). لم يضربني، ولكن احتساء الكحول خرج عن سيطرته. عرفت هذا الآن، وقبلت بالأمر. هذا ما يفعله الأطفال، والكلاب أيضاً.

في البدء، كنت أُحضّر فطوري الخاص مرتين في الأسبوع، ثمّ أصبحت أُحضّره أربع مرات، إلى أن أصبحت أحضّره معظم الوقت. كنت آكل ألفا-بيتس[1] أو آبل جاكس[2] في المطبخ وأسمعه يشخر في غرفة النوم. كان شخيره يشبه صوت المحرك.

في بعض الأحيان، كان ينسى أن يحلق ذقنه قبل أن يغادر إلى العمل، وبعد العشاء (الذي أصبح يعتمد على الطلبات الخارجية في معظم الوقت) كنت أخفي مفاتيح سيارته، إذا احتاج لزجاجة جديدة، فكان عليه أن يذهب إلى زيبي كي يجلب واحدة. كنت أخشى أحياناً أن تصطدم به سيارة على ذلك الجسر اللعين، ولكنني لم أقلق كثيراً. كنت واثقاً (أو واثقاً إلى حدّ كبير)

بأن والديّ لن يموتا في المكان نفسه. كان أبي يعمل بالتأمينات، وكنت أعرف ما هي الجداول الاكتوارية، أو التي تتوقع عمر الفرد: وهي معرفة الاحتمالات.

كان أبي متمرساً في عمله، واستمر فيه ثلاث سنوات رغم مشكلته مع الشرب. هل تلقى إنذارات في العمل؟ لا أدري، ولكنني أُرجّح ذلك. هل تم إيقافه بسبب قيادته المتهورة حين بدأ الشرب بعد الظهر؟ لم يجلب أيّ مخالفات تدل على هذا حتّى وإن تعرض لمثل هذا الموقف. فضلاً عن احتمال ألا يتعرّض لأي مخالفة لأنه كان يعرف كل رجال الشرطة في البلدة. كان التعامل مع الشرطة جزءاً من عمله.

كان هناك إيقاع ناظم لحياتنا خلال السنوات الثلاث تلك؛ كان أبي يصل عند الساعة الخامسة بعد الظهر، وكان يبدو جلياً من رائحة نفسه أنه شرب في هذا الوقت كؤوساً عدة (لم يكن يرتاد الحانات ليلاً، إلا أنني اكتشفت لاحقاً أنه كان زبوناً معتاداً في حانة دافيز في طريقه إلى المنزل من عمله). كان يجلب معه بيتزا أو تاكو أو طعاماً صينياً من جوي فان، وفي بعض الأحيان، التي كان ينسى فيها أن يجلب الطعام في طريق عودته، كنا نطلب طعاماً على الهاتف...كنت أنا من أطلب في العادة، وكان يبدأ الإسراف في الشرب بعد العشاء. كان يفضّل الجين، ولكنه كان يحتسي أنواعاً أخرى في حال عدم وجود الجين. في بعض الليالي، كان ينام وهو يُشاهد التلفاز، وفي ليالٍ أخرى كان يترنح وهو في طريقه إلى غرفة النوم، وكنت أنقل حذاءه وأُعلق معطفه المجعد، وبين الفينة والأخرى، كنت أستيقظ لأسمع بكاءه. يا له من أمر بشع أن أسمع هذا الصوت في منتصف الليل.

حدث الصدام في العام 2006، في العطلة الصيفية. كان لديّ مباراة في دوري شريمب في تمام العاشرة صباحاً؛ قمت بدورتين كاملتين، والتقطت كرة بطريقة رائعة. عندما عدت ظهراً إلى المنزل، وجدت أبي جالساً على كرسيه، ويحدق إلى التلفاز حيث كان يتصارع نجما فيلم على

درج قلعة. كان يرتدي سرواله الداخلي، ويحتسي شراباً أبيض يشبه شراب غيلبي الصرف. سألته عما يفعله في المنزل.

قال لي وهو يحدّق إلى صراع السيوف: «يبدو أنني فقدت عملي يا تشارلي. وقال لي مقتبساً من بوبكات غولدذويت[3]: أعلم أين هو، ولكن أحداً ما يقوم به، وليس أنا. أو سرعان ما سيقوم به شخص آخر».

اعتقدت أنني لن أستطيع الرد على كلامه، ولكن الكلمات خرجت من فمي على أيّ حال.

«بسبب مشكلتك في الشرب».

قال: «سأكف عنه».

اكتفيت بالإشارة إلى الكأس. ثمّ توجهت إلى غرفة نومي، أغلقت الباب، وشرعت بالبكاء.

طرق باب غرفتي، وسألني: «هل أستطيع الدخول؟».

لم أجبه لأنني لم أرد أن يسمعني وأنا أشهق.

«هيّا يا تشارلي، لقد سكبت الشراب في المجلى».

وكأنني لم أعرف أن باقي الزجاجة كانت على طاولة المطبخ، وأخرى في خزانة الكحول، ولعله كان يخبئ زجاجتين أو ثلاث.

«هيّا يا تشارلي، ماذا تقول؟». كرهت التلعثم في صوته.

«اللعنة عليك يا أبي».

لم يسبق لي أن قلت له شيئاً كهذا في حياتي، ولعلني كنت أتمنى أن يدخل ويؤنبني أو يضربني أو يعانقني. أردته أن يفعل شيئاً في جميع الأحوال،

ولكنني سمعت خطواته المترنحة وهو يتجه إلى المطبخ حيث تنتظره زجاجة غيلبي.

حين خرجت من غرفتي، وجدته نائماً على الأريكة، وما زال التلفاز يعمل، ولكنه كتم صوته. كان التلفاز يعرض فيلماً أبيض وأسود، وكان عن سيارات قديمة تتسابق في موقع لتصوير الأفلام. لطالما شاهد أبي قناة تيرنر كلاسيك موفيز عندما كان يشرب، إلا إذا كنت في المنزل، وأصررت على أن نشاهد شيئاً آخر. كانت الزجاجة على طاولة القهوة، وكانت فارغة إلى حدّ ما. سكبت ما في داخلها في المجلى، وفتحت خزانة الكحول، وفكّرت في أن أسكب محتويات جميع الزجاجات. ولكن، عندما نظرت إلى الجين والويسكي ونيبس الفودكا وبراندي القهوة، خارت قوتي. أفهم أنكم لا تستطيعون تخيّل طفل في العاشرة من عمره يشعر بهذا التعب، ولكنني لا أبالغ.

سخنت العشاء المجمد في الميكروويف - كان دجاج الجدة المطبوخ طبقنا المفضل - وحاولت إيقاظه بينما يجهز العشاء، نهض وتفحص ما حوله، وكأنه لم يعرف أين كان، ثمّ بدأ بإصدار صوت قرقرة رهيبة لم يسبق لي أن سمعتها، شق طريقه إلى الحمام بينما كان يضع يديه على فمه وسمعته يتقيأ. لقد شعرت أنه لن ينتهي من التقيؤ، ولكنه اكتفى في نهاية المطاف، أصدر الميكروويف صوت انتهاء التسخين، فأخرجت الطبق منه باستخدام قفازي الفرن اللذين كتب عليهما: طبخاً جيداً على القفاز اليسار، وطعاماً هنيئاً على القفاز الأيمن. وضعت بعض الطعام في صحنينا، وذهبت إلى غرفة المعيشة حيث كان أبي يجلس وهو يحني رأسه ويشبك يديه على عنقه.

«هل تستطيع أن تأكل؟».

نظر إليّ وقال: «ربما، ولكن شريطة أن تعطيني بعض الأسبرين».

كانت رائحة الجين المقززة تفوح من الحمام بالإضافة إلى رائحة غريبة أخرى، ولعلها رائحة تغميسة الفاصولياء. ولكنه تخلص منها على الأقل، وألقاها في المرحاض وكبس زر الشطف. نثرت كمية من مسحوق غليد[4]، ثمّ جلبت له علبة الأسبرين وكأساً من الماء. أخذ ثلاث حبات، ووضع كأس الماء محل زجاجة غيلبي. نظر إليّ بتعبير لم يسبق لي أن رأيته حتّى بعد وفاة أمي. يعز عليّ قول هذا، ولكنني كنت سأقوله في جميع الأحوال لأن هذا هو الشعور الذي انتابني حينها: كان تعبيره يشبه نظرة كلب تغوط على الأرضية.

«يمكنني أن آكل إذا عانقتني».

عانقته واعتذرت عما قلته.

«لا عليك، لعلني استحققت ما قلته لي».

ذهبنا إلى المطبخ، وتناولنا كل ما يمكننا هضمه من دجاج الجدّة المطبوخ، ولكننا لم نستطع تناول الكثير منه، وبينما كان يغسل الصحنين في المجلى قال لي إنه سيتوقف عن الشرب، وتوقف فعلاً في تلك العطلة. قال لي إنه سيبدأ في البحث عن عمل ابتداء من يوم الاثنين، ولكنه لم يفعل ذلك. ظل في المنزل، وشاهد أفلاماً قديمة على تيرنر كلاسيك موفيز. وحين عدت من تمرين كرة القاعدة وسباحة الظهر في جمعية الشبان المسيحيين كان ثملاً جداً.

نظر إليّ وأنا أراقبه، ثمّ هز رأسه وقال: «غداً، غداً، أعدك حقاً».

قلت له: «أعتقد أن وعودك محض هراء تافه». ثمّ توجّهت إلى غرفتي.

كان ذلك أسوأ صيف في طفولتي، بإمكانكم أن تتساءلوا: هل كان أسوأ من الوقت الذي ماتت فيه أمك؟ وسأقول لكم: أجل، لأنه كان وليّ الأمر الوحيد الباقي لي. كما بدا لي أن كل شيء يتحرك في وتيرة بطيئة للغاية.

لقد حاول لفترة قصيرة العثور على عمل في مجال التأمينات، ولكن لم تتكلل مساعيه بالنجاح حتّى بعد أن حلق ذقنه واستحم وتهندم. أعتقد أن الوسط يتناقل الكلام.

تكدست الفواتير على الطاولة في الرواق الأمامي، ولم يفتحها. كنت أنا من فتح الفواتير عندما أصبحت كدستها مرتفعة، ووضعتها أمامه، فكتب شيكات ليغطيها. لم أعرف متى ستعود هذه الشيكات إلينا، وهي مدموغة بإشارة لا رصيد ولم أشأ أن أعرف. كان الأمر أشبه بالوقوف على جسر، وتخيل شاحنة خرجت عن السيطرة، وتتوجه نحوكم، وأنتم تتساءلون عن ماهية الأفكار الأخيرة التي ستراودكم قبل أن تلاقوا حتفكم.

في النهاية، حصل أبي على عمل بدوام جزئي في مصبغة جيفي، لقد واظب أسبوعاً على هذا العمل، ولكنه ترك العمل أو طرد، لم يخبرني إن ترك العمل بمحض إرادته أو طرد، كما أنني لم أسأله.

وصلنا إلى فريق كل النجوم في دوري شريمب، ولكننا خرجنا في المباراتين الأوليين في بطولة الإقصاء المزدوج، وخلال الموسم العادي، تعودت أن أقوم بست عشرة جولة كاملة، وكنت أقوى ضارب كرة في ستار ماركت، ولكن في كلتا المباراتين ضربت الكرة سبع مرات ومرة على كرة في التراب، وفشلت في المرة الأخرى في ضرب كرة عالية للغاية حيث كنت أحتاج إلى مصعد كي أصل إليها. سألني المدرب عما يجري معي فقلت له: لا شيء، لا شيء، اتركني وشأني. لم أكن على سجيتي فقد أخطأت.

لم أكن أنام بعمق. لم تراودني الكوابيس مثل التي كانت تراودني بعد وفاة أمي، ولكنني لم أستطع أن أخلد إلى النوم، وأحياناً كنت أسهر حتى منتصف الليل أو حتّى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. لقد لجأت إلى قلب ساعتي كي لا أنظر إلى الأرقام.

لم أكن أكره أبي بصريح العبارة (مع أنني أوشكت الوصول إلى هذه المرحلة) ولكنني كنت حاقداً، كنت أقول لنفسي: ضعيف، ضعيف.. وأنا أستلقي على سريري، وأسمع شخيره، ولطالما فكرت بما سيحل بنا. كانت السيارة مؤمنة وهذا شيء جيد، ولكن منزلنا لم يكن كذلك، وكانت نفقاته هائلة بالنسبة إليّ؛ كم سيمر من الوقت قبل أن يعجز عن تسديد الإيجار الشهري؟ كان ذلك الوقت سيحل لا محالة، لأنه لا يزال علينا أن نسدد دفعات الرهن طيلة السنوات التسع التالية، ولا يوجد لدينا من المال ما يكفي لكل هذه السنوات.

قلت لنفسي: مشردان.. سيضع المصرف يده على المنزل كما في رواية عناقيد الغضب وسنصبح مشردين على الطرقات.

لقد رأيت أناساً كُثراً مشردين في وسط المدينة، وعندما كنت أجد صعوبة في النوم، كنت أفكّر بأمر هؤلاء المشردين، وكثيراً ما فكرت في المتسولين الذين يرتدون ثياباً فضفاضة على أجسادهم النحيلة أو ثياباً ضيقة على أجساد بدينة. كانت أحذيتهم متماسكة بفعل اللاصق الشفاف كما كانت نظاراتهم مكسورة وشعورهم طويل وأعينهم جامحة وأنفاسهم نتنة تفوح منها رائحة الكحول. وتخيّلت صورتنا ونحن نجلس في سيارتنا قرب ساحة القطار أو مرأب وولمارت قرب عربات النوم. فكرت في أبي وهو يدفع عربة تسوق فيها ما تبقى من أشيائنا، لطالما تراءى لي وجود منبهي الذي أضعه قرب سريري في تلك العربة. لا أدري لِمَ أرعبني هذا؟ ولكنني واثق من أن تلك الصورة كانت ترعبني للغاية.

كنت سأعود إلى المدرسة قريباً سواء أكنت مشرداً أم لا. لا شك في أن بعض زملائي في الطريق سينادونني تشارلي الأفكح، ولعله كان أفضل من لقب تشارلي ابن الثمل. ولكن كم سيمر من الوقت قبل أن يجمعوا بين اللقبين؟ لقد عرف الناس في شارعنا أن جورج ريد توقف عن العمل، وأُرجح أنهم يعرفون السبب. لم أكن أضحك على نفسي في ما يخص هذا الموضوع.

لم نكن عائلة ترتاد الكنيسة بانتظام، أو عائلة متدينة بالمعنى الشائع. ذات مرة سألت أمي لمَ لا تذهب إلى الكنيسة؟ هل لأنها غير مؤمنة؟ أجابتني بأنها مؤمنة، ولكنها لم تكن بحاجة لقس ليملي عليها كيف تؤمن. قالت إنها تحتاج لفتح عينيها وتفحص ما حولها لتؤمن. وقال أبي إنه تربى في عائلة متدينة، ولكنه كفّ عن ارتياد كنيسته واهتم بالسياسة أكثر من اهتمامه بعظات يوم الأحد.

قبل أسبوع من بدء المدرسة خطر لي مجدداً أن أصلّي.كانت الرغبة جامحة للغاية، وكأنها كانت واجباً. ركعت على ركبتي قرب سريري، وضممت يديّ، وأغمضت عينيّ، وصلّيت من أجل أن يتوقف أبي عن الشرب. قلت في صلاتي: «إذا تحققت أمنيتي سأسير على الصراط المستقيم طوال حياتي».

وتابعت: «وسأتمنى الموت إن لم أكن مخلصاً في إيماني، أرني يا ربي ما تريده، وأقسم إنني سأكون ممن يسيرون على الصراط المستقيم».

عدت إلى السرير ونمت قرير العين في تلك الليلة، على الأقل حتّى الصباح الباكر.

7

قبل أن يطرد أبي كان يعمل لصالح شركة تأمين أوفرلاند الوطني، وهي شركة كبيرة، لا بدّ من أنكم رأيتم إعلاناتها التي يظهر فيها الجملان الناطقان بيل وجيل، إنها إعلانات مضحكة. تعود أبي أن يقول: «تستخدم كل

شركات التأمين إعلانات مضحكة لجذب العين، ولكن الضحك يتوقف حين يقدم المؤمن عليه شكوى، وهنا يأتي دوري، أنا خبير تسوية مطالبات وهذا يعني - لا أحد يقول هذا على الملأ - أنني أتكفل بتخفيض قيمة العقد أو القيمة المتفق عليها، وأحياناً أنجح في ذلك. ولكن دعني أبوح لك بسر: دائماً ما أكون بصف المدعي إلا عندما أجد أسباباً تردعني عن ذلك».

يقع مقر أوفرلاند في وسط غرب الولايات المتحدة الأميركية، في ضواحي شيكاغو، ضمن ما يُطلق عليه أبي بزقاق التأمينات، وفي خضم تطورات النقل هذه كان ذلك الزقاق على بعد خمس وأربعين دقيقة عن سينتري، ويمكن أن يصل هذا الوقت إلى ساعة إذا كان الازدحام شديداً. كان هناك مئة خبير تسوية مطالبات على الأقل يعملون في ذلك المكتب الوحيد. وفي يوم من أيلول عام 2008 أتى أحد العملاء الذي تعود أن يعمل معهم ليرى أبي. كان اسمه ليندي فرانكلن واعتاد أبي أن يناديه ليندي، أتى في وقت متأخر من الظهيرة، وكنت أجلس إلى طاولة المطبخ وأحل واجباتي.

بدأ ذلك اليوم بشكل سيئ ولا ينسى، وما زالت رائحة الدخان تفوح في المنزل مع أنني رششت غليد. قرر أبي أن يعد الأومليت على الفطور، وحده الله يعرف لِمَ استيقظ في تمام الساعة السادسة صباحاً؟ ولِمَ قرر أنني أريد الأومليت. لكنه تجول في أنحاء المنزل ليدخل إلى الحمام أو يدير التلفاز ونسي ما على الفرن. لا جرم في أنني ما زلت متأثراً بما حدث ليلة البارحة حيث استيقظت على صافرة إنذار حساس الدخان، وركضت إلى المطبخ بسروالي الداخلي، ورأيت سحابة من الدخان. كان الشيء الذي في المقلاة أشبه ما يكون بالحطب المتفحم.

تخلصت منه في سلة القمامة، وتناولت آبل جاكس. كان أبي يرتدي مريول المطبخ وبدا مظهره سخيفاً وهو يرتديه. حاول أن يعتذر، فتمتمت شيئاً كي يتوقف عن الكلام. ما أتذكره عن تلك الأسابيع والأشهر هو محاولاته المستمرة للاعتذار وهذا ما قادني إلى الجنون.

لكنه كان يوماً جيداً بل أحد أفضل أيام تلك الفترة بسبب ما حصل في تلك الظهيرة. لعلكم كشفتم الأمر، ولكنني سأخبركم في جميع الأحوال، لأنني لم أتوقف يوماً عن حب أبي حتّى عندما لم أكن أتقبله. إن هذا القسم من القصة يسعدني للغاية.

كان ليندي فرانكلن يعمل لصالح أوفرلاند، كما كان يحاول الإقلاع عن الكحول. لم يكن أحد الخبراء القريبين من أبي، ولعلّ السبب في هذا هو أن ليندزي لم يتوقف يوماً عند حانة دافي بعد العمل مع الموظفين الآخرين، ولكنه عرف لم خسر أبي عمله، وقرر أن يفعل شيئاً ليصلح الأمر أو يحاول فعل شيء على الأقل. في وقت لاحق، علمت أنه فعل ما يسمى زيارة الاثنتي عشرة خطوة، كان لديه مواعيد لادعاءات في بلدتنا، وعندما انتهى من تلك المواعيد قرر فجأة أن يعرج على بيتنا. في وقت لاحق قال إنه كان على وشك تغيير رأيه، لأنه لم يكن معه دعم (تعوّد المدمنون المتعافون أن يقوموا بزيارة الاثنتي عشرة خطوة برفقة شريك كالمرمون[5]) ولكنه قال حينها إن لا داعي لذلك، وبحث عن عنواننا على هاتفه. لا أرغب في التفكير في ما كان سيحل بنا إن لم يزرنا، لأنني بالتأكيد ما كنت سأدخل إلى مستودع السيد بوديتش.

كان السيد فرانكلن يرتدي بذلة وربطة عنق، وكان لديه قصة شعر حادة. عرّفنا والدي - أشعث الشعر، رث الثياب وحافي القدمين – أحدنا إلى الآخر. صافحني السيد فرانكلن، وقال إنه مسرور برؤيتي وسألني إن كنت أمانع بالخروج كي يتحدث مع والدي على انفراد. خرجت بإرادتي، ولكن النوافذ كانت مفتوحة بعد كارثة الصباح، وسمعت معظم ما قاله السيد فرانكلن. أتذكر شيئين على وجه الخصوص؛ قال أبي إن مشكلته مع الشراب كانت ناجمة عن شوقه الشديد إلى جيني، وقال السيد فرانكلن: «إذا كانت الكحول ستعيدها إليك فسأوافقك على الأمر، ولكنها لن تعيدها. تخيّل ما ستشعر به إن استطاعت أن ترى حالك وحال ابنك الآن؟».

إن الشيء الآخر الذي قاله هو: «ألم تسأم وتتعب من كونك سقيماً ومتعباً طوال الوقت؟» عندها شرع أبي بالبكاء. لطالما كرهت بكاءه (ضعيف.. ضعيف) ولكنني اعتقدت أن هذه المرة كانت مختلفة.

8

عرفتم ما الذي سيؤول إليه الأمر، ولا بدّ من أنكم عرفتم بقية القصة أيضاً. أنا واثق من أنكم ستعرفون هذا الأمر إن كنتم في برنامج تأهيل أو إن كنتم تعرفون شخصاً يحاول الإقلاع عن الكحول. تلك الليلة، أخذ ليندي فرانكلن أبي إلى منظمة مدمني الكحول، وحين عادا اتصل السيد فرانكلن بزوجته وقال إنه سيمكث لدى صديقه. نام على أريكتنا القابلة للسحب، وفي صباح اليوم التالي، اصطحب والدي إلى اجتماع في تمام الساعة السابعة صباحاً اسمه سوبير سانرايز أو شروق الشمس الواعي، أصبح ذلك الاجتماع عادة عند أبي، وحاز هناك ميدالية منظمة مدمني الكحول المجهولين في أول سنة من إقلاعه عن الكحول. تغيبت عن المدرسة كي أُقلده إياها، وكنت أنا من تلعثم في تلك المرة. لم يبدُ أن أحداً مانع تلعثمي لأن التلعثم شيء عادي في تلك الاجتماعات. عانقني والدي وليندي حينها، وكنت أناديه باسمه الأول لأنه كان يرافقنا كثيراً. كان راعي والدي في البرنامج.

كانت هذه هي المعجزة، أصبحت أعرف أشياء كثيرة عن منظمة مدمني الكحول المجهولين وأصبحت تلك المعجزة تحدث لكثير من الرجال والنساء في جميع أنحاء العالم في هذه الأيام، ولكنني لا أزال أراها معجزة في عيني. لم يتلقَّ أبي ميداليته الأولى بعد سنة تماماً من نداء الاثنتي عشرة خطوة الذي قام به ليندي، لأنه استسلم مرات عدة، ولكنه تفوّق على الأمر، وقال جماعة منظمة مدمني الكحول المجهولين ما يقولونه دوماً: عد دوماً إلى الطريق الصحيح. وفعل هذا. آخر خطأ له - كان عبارة عن زجاجة بيرة وحيدة من صندوق ألقاه في المجلى - كان قبل الهالوين عام 2009 مباشرة، وحين تكلم ليندي في الحفل السنوي لأبي قال إن البرنامج يعرض

على كثير من الأشخاص ولكن لا يحصل عليه الجميع. قال إن أبي كان من المحظوظين. لعلّ هذا كان صحيحاً، ولعلّ صلاتي كانت صدفة ولكنني اخترت ألا أعتبرها صدفة. بإمكانك في منظمة مدمني الكحول المجهولين أن تؤمن بما تريد. كتب هذا في كتاب يدعوه المدمنون المقلعون بالكتاب الكبير.

وكان لدي وعد يجب أن أفي به.

9

لم أحضر سوى الاحتفالات السنوية الخاصة بأبي، ولكن كما قلت: كثيراً ما كان ليندي بيننا. حفظت معظم الشعارات التي تفوه بها أعضاء تلك المنظمة، وكنت أفضّل: لا تستطيع إعادة المخلل إلى خيار، والله لا يخلق القمامة.

ولكن المثل الذي رافقني -لغاية يومنا هذا- هو شيء سمعت ليندي يقوله لأبي في ليلة ما، عندما كان أبي يتحدث عن الفواتير غير المدفوعة، وعن خوفه من خسارة المنزل. قال ليندي إن تعافي أبي كان معجزة ثمّ أضاف: «ولكن المعجزات ليست سحراً».

بعد ستة أشهر من الاتزان والتعافي، عاود أبي التقدم لأوفرلاند. وبمساعدة ليندي فرانكلن وآخرين - بمن فيهم رئيسه القديم الذي سبق له أن أعطاه إنذاراً - استعاد عمله، ولكنه كان في وضع المراقبة وعرف الجميع هذا. أرغمه ذلك على أن يبذل جهداً مضاعفاً. بعدها، وفي خريف عام 2011 (أي بعد مرور سنتين على تعافيه) خاض نقاشاً مع ليندي دام طويلاً لدرجة أن ليندي بات على الأريكة مجدداً. قال أبي إنه يود أن يتابع بشكل مستقل، ولكنه لم يكن سيمضي في هذا دون مباركة ليندي، وبعد التأكد من أن أبي لن يشرع في شرب الكحول مجدداً إذا فشل عمله الجديد -أي تأكد ضمن المعطيات التي كانت بين يديه على أيّ حال حيث إن التعافي ليس علم ذرة- طلب منه ليندي أن يعطي الأمر فرصة.

أجلسني أبي وشرح ما كان يقصده: العمل دون شبكة: «ما رأيك إذاً؟»

قلت له: «أعتقد أن الوقت قد حان لتوديع الجملين الناطقين» فضحك حينها ثمّ قلت ما توجب عليّ قوله: «ولكنك ستفسد الأمر إذا عاودت الشرب».

بعد مرور أسبوعين على هذا، قدّم استقالته من أوفرلاند وفي خريف عام 2012 أرسى أعمدة عمله المستقل في مكتب صغير على الشارع الرئيسي: جورج ريد: مفتش وخبير تسوية مطالبات مستقل.

لم يمضِ ساعات طويلة في جحر الفئران ذاك حيث أمضى وقته في التجول على الرصيف. تحدث إلى رجال الشرطة والكفلاء والأوصياء (تعوّد أن يقول: «يفيدونني في العثور على دلائل») ولكنه تحدث إلى المحامين بشكل أساسي. عرفه معظمهم من عمله لصالح أوفرلاند، وعرفوا أنه انضم إلى الساحة؛ أعطوه أعمالاً؛ الأعمال الصعبة أي كحالات الشركات الكبيرة التي ستخفض المبلغ المترتب عليه بشكل جذري أو ستنكر الادعاء من أساسه، عمل لساعات طويلة، لقد عدت في معظم الليالي لأرى المنزل فارغاً كما كنت أحضر عشائي بمفردي، لم أمانع هذا الوضع، وحين عاد أبي إلى المنزل أخيراً عانقته لأتحقق إن كان تنفسه ملطخاً بآثار جين غيلبي، وبعد مضي فترة اكتفيت بمعانقته كما أنه نادراً ما كان يفوت اجتماعات شروق الشمس الواعي.

كان ليندي يأتي أحياناً لتناول الغداء في أيام الأحد، وتعوّد أن يحضر طلبات خارجية، وكنا نشاهد ثلاثتنا فريق بيرز على التلفاز أو وايت سوكس إذا كان هناك موسم لكرة القاعدة، ذات مرة قال أبي إن عمله يزدهر كل شهر: «كان سيزدهر بوتيرة أسرع إن وقفت في صف المدعين أكثر في

حالات الانزلاق والوقوع، ولكن معظم تلك الحالات تفوح منها رائحة نتنة وخبيثة».

قال ليندي: «أعرف هذا تماماً، بإمكانك تحقيق أرباح على المدى القصير، ولكن في النهاية سيتمكن منك هذا العمل».

قبل أن أبدأ بالمرحلة الثانوية في ثانوية هيلفيو، قال أبي يجب علينا خوض نقاش مهم، حضّرت نفسي لمحاضرة عن الشرب قبل سن البلوغ أو لنقاش بخصوص المتاعب التي تسببنا بها أنا وبيرتي بيرد خلال سنوات شربه وبعد فترة منها، ولكنه لم يكن يعني هاتين المسألتين، كان يريد التحدث معي بخصوص المدرسة، قالي لي إنه عليّ أن أبلي بلاء حسناً إذا أردت أن ألتحق بجامعة جيدة.

بلاء حسناً للغاية.

«سيستقر عملي، كان الأمر مخيفاً في البدء، ومر عليّ وقت اضطررت فيه أن أقترض من أخي، ولكنني أوشكت أن أسدد ما اقترضته كلّه وأعتقد أنني سأرسو على أرضية صلبة قريباً. يرن هاتفي كثيراً، ولكن حين يصل الأمر إلى الجامعة...» أشاح بوجهه وتابع: «لن أتمكن من مساعدتك كثيراً على الأقل في البداية. إننا محظوظون لأننا نقف على أقدامنا. وهذا خطئي أنا. أحاول بشتى السبل وبأقصى طاقتي أن أكفّر عن...».

«أعلم هذا».

«...ولكن عليك أن تساعد نفسك، عليك أن تعمل وترفع معدلك في امتحانات السات[6] حين تتقدم له».

قررت أن أتقدم لامتحان السات في كانون الأول، ولكنني لم أقل له هذا، كان أبي يتعطش للكلام.

«عليك أن تفكر بالقروض، ولكن كحل أخير - ستطاردك تلك القروض لوقت طويل، فكّر في المنح ومارس الرياضة حيث إنها تفسح طريقاً للمنح، ولكن العلامات هي المفتاح؛ العلامات، ثمّ العلامات، ثمّ العلامات. لا أطلب منك أن تتصدر اللائحة، ولكن أريد منك أن تكون من ضمن العشرة الأوائل، أتفهمني؟».

قلت له: «أجل يا أبي» فربت ظهري.

10

درست بجد، وحصلت على علامات مشرفة. لعبت كرة القدم في الخريف، وكرة القاعدة في الربيع، ومثلت الجامعة في كلتا الرياضتين بصفتي طالباً. في العام الثاني، أراد مني المدرب هاركنس أن ألعب كرة السلة أيضاً، ولكنني رفضت هذا العرض. قلت له إنني أحتاج إلى ثلاثة أشهر إضافية في السنة لفعل أشياء أخرى. ذهب المدرب مطأطئاً رأسه على حال شباب هذا الجيل المتخلف.

شاركت في حفلات راقصة وقبّلت فتيات عدة. حظيت بأصدقاء جيدين، وكان معظمهم رياضيين ولكن ليس الكل. تعرفت إلى بعض فرق الميتل، واستمعت إليها بصوت عالٍ. لم يعترض والدي يوماً على هذا، ولكنه أهداني سماعتين لاسلكيتين في عيد الميلاد. كان هناك أشياء مروعة في مستقبلي - سأخبركم بها في نهاية المطاف - ولكن لم يحدث أي شيء فظيع من الأشياء التي تخيلتها في يقظتي. لا أزال في منزلنا ولا يزال مفتاحي يفتح الباب الأمامي، وكان هذا جيداً. إذا تخيلتم يوماً أن الأمور ستؤول بكم لقضاء شتاءات قارسة في سيارة أو في ملجأ للمشردين فستفهمون قصدي.

ولم أنسَ يوماً ما ذكرته في صلاتي.

قلت: إذا تحققت أمنيتي سأكون مؤمناً مخلصاً طوال حياتي، وأقسم إنني سأكون ممن يسيرون على الصراط المستقيم. لقد كانت دعوة طفل وتفكير متأثر بالسحر ولكن جزءاً مني (أو معظمي) لم يؤمن بهذا، أو لا يؤمن بهذا الآن. اعتقدت أن صلاتي قد استجيبت كأفلام لايفتايم الدرامية التي يعرضونها بين فترتي عيد الشكر وعيد الميلاد، وهذا يعني أنه توجب عليّ أن أتحمل مسؤولية جانبي من الصفقة. شعرت أنني لو تناسيت هذا الأمر، فسيسحب الله المعجزة، وسيشرع أبي بالشرب مجدداً. عليكم أن تأخذوا بعين الاعتبار أن شباب الثانوية - على الرغم من حجم الفتيان وجمال الفتيات - لا يزالون أطفالاً في دواخلهم.

حاولت جاهداً، على الرغم من أيامي المزدحمة بالمدرسة وبالنشاطات التي أتت بعدها، وفعلت ما بوسعي كي أفي بما أقسمت عليه.

التحقت بنادي أدوبت-إي-هايوي الذي كان يعنى بتنظيف الشوارع السريعة من القمامة، لقد تولينا ميلين من الشارع الرئيسي 226 الذي كان مثل أرض يباب تعج بمتاجر الطعام السريع، والموتيلات، ومحطات الوقود. لا بدّ من أنني جمعت ما يعادل مليار علبة بيغ ماك وملياري زجاجة بيرة وعدة أزواج من السراويل الداخلية الملقاة. ارتديت مرة في الهالوين بذلة برتقالية وعملت لصالح اليونيسيف، وفي صيف عام 2012 جلست إلى طاولة تسجيل المقترعين في مركز المدينة، على الرغم من أنني كنت أصغر بسنة ونصف السنة من السن التي أحظى فيها بحقي الانتخابي. كما ساعدت في مكتب أبي في أيام الجمعة بعد التمرين في تعبئة الأوراق والإدخال إلى الحاسوب -أي الأعمال الروتينية المعتادة- وحين يحل الظلام كنا نتناول البيتزا من جيوفاني من العلبة مباشرة.

قال أبي إن كل هذه الأمور ستفيدني في ملف الجامعة، ووافقته من دون أن أخبره عن سبب قيامي بهذه الأمور. لم أرد أن أتخلف عن الوفاء بقسمي، ولكنني في بعض الأحيان كنت أسمع همسات من تأنيب الضمير:

لست جيداً بالقدر الكافي يا تشارلي، أتعتقد أن جمع القمامة عن الطريق يعادل الحياة الجميلة التي تعيشها مع أبيك الآن؟

ها نحن نصل أخيراً إلى نيسان عام 2013، أي السنة التي بلغت فيها عامي السابع عشر والتقيت أيضاً السيد بوديتش.

11

تبدو أيام ثانوية هيلفيو وكأنها جرت في عهد قديم للغاية. في الشتاء ركبت الحافلة وجلست في الخلف مع صديقي من أيام الابتدائية آندي تشين؛ كان آندي رياضياً لعب كرة السلة لصالح هوفسترا، في ذلك الوقت لم أعد على صداقة مع بيرتي، وارتحت لهذا بشكل أو بآخر. هناك شيء اسمه صديق جيد وسيئ في الوقت ذاته، وفي الواقع كنا نضر أحدنا الآخر أنا وبيرتي.

في الخريف والربيع قدت دراجتي لأننا نعيش في بلدة هضبية، وكانت الدراجة تفيد في تنمية عضلات ساقيّ وأسفل ظهري، كما كانت تؤمن لي خلوة مع نفسي لأصفي ذهني، وأُفكّر، وهذا شيء كنت أفضله للغاية. كنت أمر في طريق العودة إلى المنزل من إتش.إتش.إس بشارع بلين إلى جادة غوف ثمّ شارع ويلو إلى باين، وكان شارع باين يتقاطع مع شارع سيكامور في أعلى التل الذي يؤدي إلى الجسر اللعين. وعلى زاوية باين وسيكامور كان يقع البيت المريب بحسب ما أطلقه عليه بيرتي بيرد حين كنا في سن العاشرة أو الحادية عشرة.

في الواقع، كان ذلك البيت هو بيت بوديتش حيث كان الاسم متلاشياً عن صندوق البريد، ولكنه لا يزال مقروءاً، إذا ركّزت نظرك. ولكن بيرتي كان لديه وجهة نظر. لقد رأينا جميعاً ذلك الفيلم (بالإضافة للأفلام الاعتيادية في سن الحادية عشرة كطارد الأرواح والشيء) وكان يشبه البيت الذي عاش فيه نورمان بيتس مع أمه المحنطة، لم يشبه أياً من المنازل الأنيقة ذات

طراز الدوبلكس والمزارع على شارع سيكامور وفي باقي حينا. كان البيت المريب متداعياً وذا طراز فيكتوري، ولعل لونه كان أبيض في السابق، ولكنه تحول الآن إلى لونٍ رمادي أسميه لون قطط الحظائر. كان هناك سياج خشبي يحيط بالعقار، ولكنه كان منحنياً في بعض الأماكن ومتهاوياً في أماكن أخرى. حجبت بوابة صدئة يصل ارتفاعها إلى الخصر المنطقة المرصوفة المتداعية من الممشى. كان معظم العشب برياً وجامحاً، وبدت الشرفة على وشك أن تنفصل عن المنزل الذي ألصقت به، وكانت الستائر مسدلة بالكامل. قال آندي تشين إنه لا داعي لإسدالها لأن النوافذ كانت متسخة جداً لدرجة أنه لا يمكننا النظر منها على أيّ حال. وانبثقت من بين العشب لافتة كتب عليها: لا يسمح بتجاوز الملكية، وكان هناك لافتة أكبر منها على البوابة كتب عليها: احذروا الكلب.

كان لدى آندي قصة عن ذلك الكلب، وأنه كان كلب شيبرد ألمانياً يدعى رادار، كذلك الشاب في مسلسل ماش الكوميدي. سمعناها جميعاً (ولم نكن نعرف أن رادار ذاك كان كلبة وليس كلباً) ولمحناها في بعض الأوقات، ولكن آندي تشين هو الوحيد الذي رأى الكلب عن قرب. قال إنه أوقف دراجته في أحد الأيام لأن صندوق بريد السيد بوديتش كان مفتوحاً ومليئاً بالرسائل غير المهمة التي وقع بعضها على الرصيف وكانت تتطاير في الهواء.

قال آندي: «أمسكت بالقمامة، وجمعتها مع الأشياء الأخرى. كنت أحاول أن أسدي له معروفاً يا إلهي! ثمّ سمعت زمجرة ونباحاً يشبه يابا-يابا-رو-رو وعندما نظرت إلى الأعلى رأيت ذلك الكلب الوحشي ولا شك في أن وزنه كان مئة وعشرين رطلاً على الأقل، وكانت أسنانه تلمع ولعابه يسيل والشرر يتطاير من عينيه».

قال بيرتي: «بالطبع، الكلب الوحشي ككوجو في ذلك الفيلم، أليس هذا صحي-حاً؟».

قال آندي: «أجل! أقسم بالله، إن لم يخرج الرجل المسن لينا ديه كان سيعبر تلك البوابة القديمة للغاية والتي تحتاج إلى رعاية».

قلت له: «صيانة».

«لا يهم يا صديقي، ولكن ذلك الرجل المسن خرج إلى الشرفة وصرخ: رادار، إلى الأسفل. فانبطح الكلب على معدته في الحال، ولكنه لم يكف عن التحديق إليّ ولم يتوقف عن الزمجرة. ثم سألني الرجل: ماذا تفعل هنا يا فتى؟ هل تحاول سرقة بريدي؟ فأجبته: كلا يا سيدي، كانت الرسائل تتطاير، وكنت أحاول أن أمسك بها، إن بريدك ممتلئ للغاية يا سيدي. ردّ عليّ: سأتكفل أنا ببريدي، اغرب من هنا. وهذا ما فعلته»، أشاح آندي بوجهه وقال: «كان ذلك الكلب سينهش عنقي، أنا متأكد من ذلك».

كنت واثقاً من أن آندي كان يبالغ في الوصف كعادته، ولكنني تلك الليلة، سألت أبي عن السيد بوديتش، فأخبرني أنه لا يعرف الكثير عنه. قال إنه رجل عازب يعيش في خرابة قبل أن يقيم أبي في شارع سيكامور، أي منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً.

قال أبي: «لم يكن صديقك آندي الولد الوحيد الذي صرخ عليه. يشتهر بوديتش بمزاجه المضطرب وكلبه الشيبرد الألماني المزمجر. ويتمنى مجلس البلدية أن يموت كي يهدموا هذا المنزل، ولكنه يبدو عصياً على الموت. أتكلم معه حين أراه - وهذا أمر نادر - ويبدو لي مسالماً إلى حدّ ما. إن لدى بعض الرجال المسنين حساسية تجاه الأولاد، أنصحك أن تبتعد عن طريقه يا تشارلي».

لم أواجه مشكلة في تنفيذ هذه النصيحة إلى أن جاء ذلك اليوم في نيسان عام 2013 وسأخبركم عنه الآن.

وقفت عند ناصية شارعي باين وسيكامور، في طريقي إلى المنزل، بعد تمرين كرة القاعدة لأريح يديّ من مقبض الدراجة وأهزهما قليلاً، ما زالتا محمرتين قليلاً بسبب التمارين، فقد كان الملعب موحلاً وغير صالح للعب. جعلني المدرب هاركنس - الذي درّب كرة القاعدة بالإضافة لكرة السلة - ألتقط الرميات بينما تمرن عدد من الفتيان الذين يحاولون التقدم لتولي مهمة الرامي على الرميات المتتالية، وكانت رميات بعضهم قوية للغاية. لن أقول إن المدرب كان ينتقم مني لأنني رفضت أن ألعب كرة السلة - حيث كانت نتيجة فريق القنافذ 5-20 في الموسم السابق - ولكنني في المقابل لن أنفي الأمر تماماً.

كان منزل السيد بوديتش الفيكتوري المتداعي يقع إلى يميني، وبدا من هذه الزاوية أشبه بالبيت المريب أكثر من أي وقت آخر. كنت أضع يدي حول مقبض الدراجة الأيسر وأستعد للانطلاق مجدداً حين سمعت كلباً ينبح. أتى الصوت من خلف المنزل، ففكرت في الكلب الوحشي الذي وصفه آندي ذي الأسنان الكبيرة والعينين الحمراوين والفك المخيف ولكن نباحه هذه المرة لم يشبه يابا-يابا-رو-رو ولم يدل على كلب هجومي، بدا لي ذلك النباح حزيناً وخائفاً وحتى وحيداً، في تلك اللحظة. فكّرت وتساءلت إن كان بسبب ندمه على مهاجمة آندي، ولكنني استبعدت الأمر لأن ذلك النباح تكرر مجدداً، وتكرر لمرة ثالثة، ولكنه كان منخفضاً ومستسلماً وكأن الحيوان يفكر: ما الفائدة.

ثم نبح بشكل أخفض من تلك المرة: «النجدة».

ما لم أسمع ذلك النباح، كنت سأنطلق إلى التل لأصل إلى منزلي وأشرب كأس حليب وأتناول بسكويت بيبريدج فارم ميلانو بهدوء وسكينة. ولكن هذا كان سيضر السيد بوديتش. كان الظلام على وشك أن يحل والظلال الطويلة ترتسم على السطوح، وكان نيسان ذلك العام بارداً للغاية. كان السيد بوديتش سيتمدد هناك طوال الليل البارد.

حصلت على شرف إنقاذه - أي نجمة ذهبية أخرى لملفي الجامعي – ولكنني لم أكن أنا من أنقذه. كانت رادار هي من أنقذه بفعل نباحها المستنجد.

الفصل الثاني
السيد بوديتش - رادار- أمسية في البيت المريب

1

انعطفت بدراجتي عند الزاوية، وتوجهت إلى البوابة عند شارع سيكامور وأسندتها إلى السياج الخشبي المتداعي، ولكن البوابة -القصيرة التي تصل إلى مستوى الخصر- لم تفتح. نظرت من فوقها، ورأيت ترباساً صدئاً مثل البوابة التي كان عليها.

حاولت فتحه، ولكنه كان عصياً على الفتح. نبح الكلب مجدداً، فأنزلت حقيبتي المليئة بالكتب عن ظهري، واستخدمتها مثل درجة، تسلقت البوابة،

ولامست ركبتي لافتة احذر الكلب وكنت سأضم لها ركبتي الأخرى حين علقت فردة حذائي في الأعلى. تساءلت إن كان في مقدوري أن ألقي بها على الرصيف، وأثب فوق البوابة إذا قرر الكلب أن يهجم عليّ كما فعل مع آندي. تذكرت قولاً معناه أن الخوف يعطي لصاحبه أجنحة، وتمنيت ألا أضطر إلى أن أتحقق من صحة هذا الأمر. كان اختصاصي كرة القدم والقاعدة وتركت الوثب الطويل لأصحابه.

ركضت إلى الخلف، وكانت الأعشاب الطويلة تحف ببنطالي، لا أعتقد أنني رأيت المستودع حينها، لأنني كنت أبحث عن الكلب، الذي كان على الشرفة الخلفية. قال آندي تشين إنه يزن مئة وعشرين رطلاً، ولعل هذا صحيح حين كنا صغيرين، ولكن الكلب الذي كنت أنظر إليه وقتها لم يتجاوز وزنه ستين رطلاً أو سبعين. كان نحيلاً، ووبره خفيف، وذيله محني ومنطقة أنفه وفمه بيضاء تقريباً. رآني وتجاوز الدرجات المتهالكة، وكاد أن يسقط وهو يحاول تجاوز الرجل الممدد، اتجه نحوي، ولم يبدُ لي مهاجماً فقد كان يعرج ويركض بتباطؤ.

قلت: «رادار، إلى الأسفل»، لم أتوقع أن يطيعني، ولكنه انبطح على بطنه بين الأعشاب وبدأ بالنحيب. تجاوزته في طريقي إلى الشرفة الخلفية.

كان السيد بوديتش على جانبه الأيسر، وكان هناك انتفاخ أسفل بنطاله الكاكي فوق ركبته اليمنى. لا يفترض بالمرء أن يكون طبيباً ليعرف أن رجله كانت مكسورة، واستناداً إلى ذلك الانتفاخ لا بدّ من أن الكسر كان كبيراً، لم أستطع أن أحدد عمر السيد بوديتش ولكنه كان عجوزاً؛ كان شعره أشيب تقريباً، ولكن لا شك في أنه كان أصهب في شبابه حيث تخللت الشعر الأشيب بعض الخُصلات الحمراء؛ لقد جعلت شعره يبدو وكأنه صدئ، كانت التجاعيد على وجنتيه وحول فمه عميقة للغاية، وكانت أشبه بالصدوع، ومع أن الجو كان بارداً إلا أن العرق كان يغطي جبهته.

قال: «أحتاج إلى بعض المساعدة، وقعت عن السلم اللعين»، حاول أن يشير إليه ولكن هذا استوجب أن يتحرك قليلاً فتأوه.

سألته: «هل اتصلت بالطوارئ؟».

نظر إليّ وكأنني غبي: «الهاتف في المنزل يا فتى وأنا ممدد هنا».

لم أفهم هذا إلا لاحقاً، لم يكن لدى السيد بوديتش هاتف محمول؛ لم يرَ ضرورة في اقتناء واحد ولم يعرف ماهيته.

حاول أن يتحرك مجدداً، ولكنه كز على أسنانه، «يا إلهي، هذا مؤلم جداً».

قلت له: «لا تتحرك».

اتصلت برقم الطوارئ، وطلبت منهم أن يرسلوا سيارة إسعاف عند تقاطع باين وسيكامور لأن السيد بوديتش سقط وكسر ساقه، قلت لهم إن الكسر بدا كبيراً حيث استطعت رؤية العظمة الناتئة من الساق أسفل البنطال، كما بدت ركبته منتفخة هي الأخرى. سألتني السيدة التي ردت على الهاتف عن رقم المنزل لذا سألت السيد بوديتش.

حدق إليّ وكأنه يقول: هل ولدت غبياً؟ ثمّ قال: «رقمه 1».

قلت هذا للسيدة، فأجابت بأنها سترسل سيارة إسعاف حالاً. قالت إن عليّ أن أظل معه وأحرص على أن يبقى دافئاً.

قلت له: «إنه يتعرق».

«إذا كان الكسر بالسوء الذي وصفته، فلا بدّ من أن التعرق بسبب الصدمة».

«نعم، حسناً».

عرج رادار مجدداً، وكانت أذناه مسطحتين وكان يزمجر.

قال بوديتش: «كفي عن هذا يا فتاتي، انبطحي».

نزلت رادار -والتي تبين أنها أنثى وليست ذكراً- على معدتها عند أسفل الدرج، ورسمت على وجهها معالم الارتياح، وبدأت تلهث.

خلعت سترتي الرياضية، وغطيت بها السيد بوديتش.

«ماذا تفعل بحق الجحيم؟».

«يُفترض بي أن أبقيك دافئاً».

«أنا دافئ بالفعل».

ولكنني لاحظت أنه لم يكن كذلك لأنه بدأ يرتعش. أخفض ذقنه ليرى سترتي.

«أنت طالب في الثانوية، أليس كذلك؟».

«أجل يا سيدي».

«لا بدّ من أنك في هيلفيو بسبب اللونين الأحمر والذهبي».

«أجل».

«هل تمارس الرياضة؟».

«كرة القدم وكرة القاعدة».

«القنافذ، يا...» حاول أن يتحرك ولكنه صرخ، تحفزت رادار، ونظرت إليه بخوف: «يا له من اسم سخيف».

لم أستطع أن أخالفه الرأي: «من الأفضل لك ألا تتحرك يا سيد بوديتش».

«إن الدرجات تؤلمني، كان عليّ أن أظل على الأرض، ولكنني اعتقدت أنني أستطيع الوصول إلى الشرفة ثمّ إلى الداخل، كان عليّ أن أحاول. سيصبح الطقس بارداً في غضون وقت قصير». اعتقدت أن البرد كان قارساً بالفعل: «أنا مسرور لأنك أتيت، لا شك في أنك سمعت نباح فتاتي العجوز».

قلت له: «سمعتها أولاً ثمّ سمعتك»، نظرت إلى الشرفة، وتمكنت من رؤية الباب، ولكنني لم أعتقد أن بوسعه أن يفتحه من دون أن يستند إلى ركبته السليمة، وأشك في قدرته على فعل هذا.

تبع السيد بوديتش نظري وقال: «باب الكلبة، اعتقدت أنني أستطيع الزحف من خلاله»، تأوه قليلاً ثمّ قال: «لا أعتقد أن معك أيّ مسكنات أليس كذلك؟ أسبرين أو شيء أقوى منه ما دمت تمارس الرياضة؟».

أشحت بوجهي، ثمّ سمعت صوت صفارة الإسعاف وهي تأتي من بعيد: «ماذا عنك؟ هل لديك بعض المسكنات؟».

تردد قليلاً ثمّ أومأ برأسه: «في الداخل، تقدم إلى نهاية الرواق، ستجد حماماً قرب المطبخ، أعتقد أن هناك علبة أمبرين في خزانة الدواء، لا تلمس أي شيء آخر».

«بالطبع»، قدرت أنه كان متقدماً في السن ومتألماً، ولكنني انزعجت من ذلك التلميح.

مد يده وأمسك بسترتي: «لا تتلصص».

ابتعدت عنه وقلت: «قلت لك إنني لن أفعل شيئاً».

صعدت الدرج، عندها قال السيد بوديتش: «رادار! رافقيه!»

عرجت رادار على الدرج وانتظرتني لأفتح الباب بدلاً من استخدام باب الكلب في اللوح السفلي، تبعتني إلى آخر الرواق الذي كان نوره خافتاً كما

كان رائعاً للغاية، صفت على جانب منه مجلات قديمة، عرفت بعضاً منها مثل لايف ونيوزويك ولكن كانت هناك مجلات أخرى -كولييرز ديغ وكونفيدينشل وأول مان- لم يسبق لي أن سمعت بها، كان الجانب الآخر مليئاً بالكتب وكان معظمها قديم وتفوح منها رائحة الكتب القديمة المعتادة. لعل كُتُراً لا يفضلونها، ولكنني أحبها للغاية، كانت عتيقة وعفنة، ولكنني أحب هذا النوع من العفن.

كان المطبخ مليئاً بالمعدات القديمة؛ الموقد من نوع هوتبوينت، والمجلى بورسلان وعليه بعض الصدأ بسبب المياه العسرة، أما مسكات الصنابير فكانت مدببة وفق الطراز القديم، أما الأرضية فكانت من المشمع القديم لدرجة أنني لم أستطع تمييز النقش، وكان المطبخ في غاية الترتيب. كان هناك صحن وكوب وطقم واحد من معدات المائدة الفضية- سكين وشوكة وملعقة - في جرن المجلى. لقد أحزنني هذا، كان هناك صحن نظيف على الأرض كتب عليه رادار وأحزنني هذا أيضاً.

دخلت الحمام الذي لم يكن أكبر من الخزانة- لم يكن هناك سوى مرحاض وكان غطاؤه مفتوحاً كما كان هناك المزيد من الحلقات الصدئة حول الجرن بالإضافة لمغسلة تعلوها مرآة، فتحت المرآة، ووجدت حزمة من الأدوية القديمة التي بدت وكأنها تعود لفترة الطوفان أيام نوح، كتب على زجاجة على الرف الأوسط اسم أمبرين، وحين أمسكتها رأيت وراءها كبسولة صغيرة، اعتقدت أنها كانت بي.بي.

انتظرت رادار في المطبخ، لأنه لم يكن هناك متسع لكلينا في الحمام، تناولت الكوب من جرن المجلى، وملأته من صنبور المطبخ، ثمّ عبرت الرواق المخطوطات القديمة، ولحقت رادار بي، بدت صافرة سيارة الإسعاف قريبة وقوية، وكان السيد بوديتش يسند رأسه إلى ذراعه.

سألته: «هل أنت على ما يرام؟».

رفع رأسه لأرى وجهه المتعرق وعينيه الذابلتين: «هل أبدو على ما يرام؟».

«ليس تماماً، ولكنني أظن أنه لا يجدر بك تناول هذا الدواء لأن تاريخ انتهاء الصلاحية هو آب عام 2004».

«أعطني ثلاث حبات».

«يا إلهي سيد بوديتش، أعتقد أن عليك انتظار سيارة الإسعاف، سيعطونك...».

«أعطني الحبات وحسب! ما لا يقتلني سيزيدني قوة، لا أعتقد أنك تعرف صاحب هذا القول أليس كذلك؟ لا يعلمونكم شيئاً في هذه الأيام».

قلت له: «نيتشه في أفول الأصنام، لديّ مقرر تاريخ العالم في هذا الفصل».

«بوركت»، بحث في جيب بنطاله وتأوه إثر ذلك، ولكنه لم يتوقف إلى أن عثر على حلقة مفاتيح. «اقفل الباب يا فتى، إن مفتاح الباب هو الفضي ذو الرأس المربع. الباب الأمامي موصد بالفعل، وحالما تنتهي أعدها إليّ».

تناولت المفتاح الفضي من حلقة المفاتيح، ثمّ أعدتها له. تأوه قليلاً حين وضعها في جيبه. كانت صافرة الإسعاف قريبة الآن، فتمنيت أن يحالفهم الحظ في فتح البوابة الصدئة وألا يعانوا مثلي، وإلا سيضطرون إلى اقتلاع البوابة من مفصلاتها، كنت على وشك النهوض حين نظرت إلى الكلبة، كان رأسها على الأرض بين كفيها، لم تزح عينيها عن السيد بوديتش.

«ماذا عن رادار؟».

نظر إليّ نظرته المعهودة وقال: «تستطيع الدخول عبر باب الكلب والخروج منه حين تريد التغوط».

قلت لنفسي: يمكن لطفل أو بالغ ذي حجم صغير أن يدخل منه أيضاً ويسرق بعض الأشياء: «حسناً، ولكن من سيطعمها؟».

لست بحاجة لأقول لكم أن انطباعي الأول عن السيد بوديتش لم يكن جيداً. وجدته رجلاً متذمراً عكر المزاج، ولا عجب في أنه كان يعيش بمفرده. إن كان متزوجاً فلا شك أن زوجته كانت ستقتله أو تهجره. ولكن حين نظر إلى كلبة الشيبرد الألمانية العجوز رأيت شيئاً آخر: الحب والأسى. هل تعرفون ذلك المثل الذي مفاده: القشة التي قصمت ظهر البعير؟ أشار وجه السيد بوديتش إلى أنه قد وصل إلى تلك المرحلة من التعب، لا بدّ من أنه كان متألماً للغاية، ولكن كل ما استطاع أن يفكر فيه هو كلبته.

«اللعنة، اللعنة، اللعنة، اللعنة. لا أستطيع أن أتركها. عليّ أن آخذها معي إلى المستشفى اللعين».

وصلت سيارة الإسعاف، وأوقفت عمل الصافرة، ثمّ سمعت صوت الأبواب وهي تغلق.

قلت له: «لن يسمحوا لك، لا بدّ من أنك تعرف هذا».

زم شفتيه وقال: «حسناً، لا أريد الذهاب إلى المستشفى».

قلت لنفسي: ستذهب بالتأكيد. ثمّ فكّرت في شيء آخر.

صرخ أحد ما: «مرحباً؟ وصل فريق المسعفين، هل هناك أحد يستطيع فتح البوابة؟».

قلت له: «دعني أحتفظ بالمفتاح، سأطعمها. قل لي القدر الذي يجب أن أطعمها إياه و...».

«مرحباً؟ فليجبنا أحد وإلا سنقتحم المكان».

«...والفاصل الزمني بين الوجبات».

كان يتعرق بشدة الآن، واتسعت الهالتان السوداوان تحت عينيه لدرجة أنهما بدتا كالكدمات: «أدخلهم قبل أن يكسروا البوابة اللعينة». أطلق تنهيدة كبيرة ومتعبة ثمّ قال: «يا لهذه الفوضى اللعينة!»

2

كان الرجل والمرأة اللذان وقفا على الرصيف يرتديان معطفين عليهما خدمة إسعاف مستشفى مقاطعة أركاديا؛ كانا يمسكان بنقالة وعليها معدات طبية، لقد أزاحا حقيبتي، وكان الرجل يبذل جهداً كبيراً لفتح البوابة، ولم يحالفه الحظ أكثر مني.

قلت لهما: «إنه في الخلف، سمعته وهو يطلب النجدة».

«ممتاز، ولكنني لا أستطيع فتح هذا الشيء، أمسك الترباس يا فتى لعل الحظ يحالفنا». أمسكت بالترباس وسحبنا، فتهاوى الترباس وجرح إبهامي. في حمأة الأزمة لم ألاحظ هذا، ولكن بحلول الليل كان ظفري قد تلون بالأسود.

اتجها إلى المنزل، وكانت النقالة تشق طريقها بين الأعشاب الطويلة كما كانت المعدات تهتز وتقفز. عرجت رادار إلى الزاوية وهي تزمجر وتحاول أن تبدو قوية. كانت تحاول بأقصى طاقاتها، ولكنني لاحظت أن قواها قد خارت.

قلت لها: «رادار، انبطحي». فجلست على معدتها ممتنة، تجاوزها المسعفان في طريقهما إلى الخلف.

وجدا السيد بوديتش ممدداً على درجات الشرفة، وانشغلا بتحميل معداتهما. طمأنته المرأة ببعض التعليقات من قبيل إن الكسر لم يكن بهذا السوء، وإنهما سيعطيانه شيئاً ليرتاح.

قلت لها: «لقد أخذ دواء بالفعل» وانتشلت علبة الأمبرين من جيبي. أمسك بها الرجل ونظر إليها ثمّ قال: «يا إلهي، إنها قديمة وأيّ مفعول لها قد زال بالفعل. سيسي، ديميرول، عيار عشرين سيكون كافياً».

عادت رادار، وزمجرت قرب سيسي ثمّ توجهت إلى سيدها نائحة، ربت بوديتش رأسها، ثمّ أبعد يده، فجلست قربه على الدرج.

قلت له: «لقد أنقذت هذه الكلبة حياتك يا سيدي، ولكن لا يمكن لها مرافقتك إلى المستشفى، لذا لا يفترض بها أن تعاني من الجوع».

كنت أمسك بمفتاح الباب الخلفي الفضي، نظر إليه في الوقت الذي أعطته سيسي حقنة لم يشعر بها، تنهد مجدداً وقال: «حسناً، وهل لديّ خيار آخر؟ إن طعامها في دلو ضمن حجرة المؤن خلف الباب، يجب أن تتناول كوباً من الطعام في تمام الساعة السادسة مساء وآخر في تمام الساعة السادسة صباحاً، إذا أجبروني على البقاء هذه الليلة»، نظر إلى المسعف وقال: «هل سيبقونني في المستشفى؟».

«لا أعرف يا سيدي، هذه الأمور ليست من صلاحياتي».

كان يفك جهاز قياس ضغط الدم. رمقتني سيسي بنظرة تدل على أنه سيمكث ليلة على الأقل في المستشفى.

«كوب في تمام الساعة السادسة مساء وكوب في السادسة صباحاً، لقد فهمت الأمر».

«لا أدري ما الكمية الباقية في الدلو»، وبدأت عيناه تلمعان. «إذا احتجت إلى مزيد اذهب إلى بيت بانتري. إنها تفضل أوريجين ريجنل ريد. لا تطعمها لحماً أو نقرشات. لا شك في أن الطفل الذي يعرف نيتشه سيتذكر هذه المعلومات».

«سأتذكرها».

كان المسعف يقرأ جهاز قياس ضغط الدم ولم يعجب بما قرأه. «سنضعك على النقالة يا سيدي. أنا كريغ وهذه سيسي».

قلت له: «أنا تشارلي ريد وهذا هو السيد بوديتش، لا أدري اسمه الأول».

قال السيد بوديتش: «هاورد»، همّا برفعه ولكنه قال لهما أن ينتظرا قليلاً، أمسك بوجه رادار ونظر إلى عينيها: «كوني فتاة جيدة وسأراك قريباً».

ناحت قليلاً ولعقته، انهمرت دمعة من عينه، ربما بسبب الألم، ولكن لا أظن ذلك.

قال: «هناك مال في علبة الطحين في المطبخ» ثمّ غابت تعابير الحزن عن عينيه وزم فمه وقال: «انس هذا، لقد نسيت أن علبة الطحين خالية، إذا...».

قالت سيسي: «سيدي، علينا أن نضعك على...».

نظر إليها، وطلب منها أن تصمت قليلاً، ثمّ نظر إليّ مجدداً وقال: «إذا احتجت إلى شراء كيس آخر من الطعام ادفع ثمنه، وسأعيد لك ما دفعته، هل تفهمني؟».

«أجل»، لقد فهمت شيئاً آخر: مع أن المسكن كان يؤثر فيه، ولكن السيد بوديتش أيقن أنه لن يعود إلى المنزل في هذه الليلة أو في الليلة الآتية.

«حسناً، اعتنِ بها لأنها كل ما لديّ»، ربت رأس رادار للمرة الأخيرة، وحك لها أذنها، ثمّ أومأ برأسه للمسعفين، صرخ صرخة قوية من بين أسنانه حين رفعاه ونبحت رادار.

«يا فتى».

«أجل؟».

«لا تتلصص».

لم أطمأنه بإجابة. حمل كريغ وسيسي النقالة بحذر شديد كي لا يهزاه كثيراً. ذهبت لألقي نظرة على السلم الممدود بين العشب، ثمّ نظرت إلى السطح، اعتقدت أنه كان ينظف المزاريب أو يحاول تنظيفها.

عدت إلى الدرج، وجلست عليه. تصاعد صوت صافرة الإسعاف مجدداً أمام المنزل وكان صوتها عالياً في البداية ثمّ تلاشى حين اتجهت السيارة إلى التل ثمّ إلى الجسر اللعين. نظرت رادار باتجاه الصوت، وتنبهت أذناها. حاولت أن أربت رأسها وكررت محاولتي حين لم تعضني أو تزمجر عليّ.

قلت لها: «لم يبقَ سوانا يا فتاة».

وضعت رادار فمها على حذائي.

قلت لها: «لم يشكرني، يا له من متعجرف».

في الحقيقة لم أكن غاضباً لأنني لم أهتم للأمر، ولم أكن أحتاج للشكر لأنني كنت أسدد ديناً.

3

اتصلت بأبي، وأخبرته بما جرى بينما كنت أتجول حول المنزل، وتمنيت ألا يكون أحد قد سرق حقيبتي، اكتشفت أنها لا تزال موجودة وأن أحد المسعفين ألقى بها فوق البوابة. سألني أبي إذا كان بوسعه مساعدتي، قلت له: لا، وأنني سأمكث في مكاني، وأدرس قليلاً إلى أن يحين وقت إطعام رادار في تمام الساعة السادسة، وسأعود بعدها إلى المنزل. قال إنه سيشتري بعض الطعام الصيني، وسيراني حين أصل إلى هناك. قلت له إنني أحبه، وقال لي إنه يحبني أيضاً.

تناولت مفتاح الدراجة من حقيبتي، وفكّرت في أن أحمل دراجة شوين، وأضعها في الجهة الداخلية من المنزل، ثمّ تخليت عن الفكرة، وربطتها بالبوابة. تراجعت خطوة، وكدت أن أتعثر برادار، صرختْ وسارعتْ بالركض.

«أنا آسف يا فتاتي، آسف»، جثوت على الأرض، ومددت يدي، فتقدمت بعد ثانية أو ثانيتين وشمتها ولعقتها. إنها لا تمت لكوجو الرهيب بصلة.

عدت إلى الداخل، فلحقت بي، وعندها لاحظت البناء الخارجي، واعتقدت أنه مستودع معدات، لأنه لم يكن يتسع لسيارة. فكّرت أن أُدخل السلم إليه، ولكنني عدلت عن الفكرة لأن السماء بدت صافية، واكتشفت لاحقاً أنني كنت سأحمله أربعين ياردة تقريباً من دون جدوى، حيث كان هناك قفل كبير على الباب، وكانت المفاتيح مع السيد بوديتش.

دخلنا المنزل، وعثرت على قابس ضوء تقليدي، ثمّ عبرنا ممشى المخطوطات القديمة في طريقنا إلى المطبخ،.أنير المطبخ بواسطة مصباح زجاجي علوي، يشبه ديكورات الأفلام القديمة التي يحبها أبي، وتعرضها قناة تورنر كلاسيك موفيز. كانت طاولة المطبخ مفروشة بغطاء مرقط باهت ولكنه نظيف. رأيت أن كل شيء في المطبخ يشبه ديكورات الأفلام القديمة، وتخيّلت السيد تشيبس وهو يدخل إلى هنا واضعاً مشلحه على رقبته، ومعتبراً قلنسوته، أو باربارا ستانويك[7] تدخل وتقول لديك باويل[8] إنه وصل في الوقت المناسب للشرب. جلستُ إلى الطاولة، وانبطحت رادار تحتها، ونخرت بطريقة أنثوية. قلت لها إنها فتاة جيدة، فهزّت ذيلها.

«لا تقلقي، سيعود قريباً»، وقلت لنفسي: ربما.

وضعت كتبي على الطاولة، وأجبت على بعض مسائل الرياضيات، ثمّ وضعت سماعتي، وراجعت درس الفرنسية ليوم الغد وهو عبارة عن أغنية

بوب تدعى «غيان كون فوا» والتي تعني شيئاً يشبه «لمرة فقط». لم تكن هذه الأغنية نوعي المفضل، فأنا أُفضّل الروك الكلاسيكي، ولكن هذه الأغنية كانت من النوع الذي نحبه أكثر في كل مرة نسمعه فيها، إلى أن تحدث حال من التكرار فنكرهه حالاً. شغّلتها ثلاث مرات، ثمّ غنيت معها كما سيطلب منا في الحصة:

«جو سوي سور كو تو ييه سيل كو جي توجوغ أتوندو...».

بعد انتهاء مقطع واحد، نظرت تحت الطاولة، فرأيت رادار تنظر إلّي بتعبير يشبه الشفقة إلى حدّ غريب كما كانت أذناها مرخيتان على وجهها، ضحكت قليلاً ثمّ قلت: «يجدر بي ألا أترك واجبني المدرسي، أليس كذلك؟»

هزت ذيلها.

«لا تلوميني إنه فرض، هل تريدين أن تسمعيه مرة أخرى؟ لا؟ ولا أنا».

نظرتُ إلى العلب المتماثلة التي وضعت بجانب بعضها على المجلى قرب الفرن وكتب عليها: سكر – وطحين - وقهوة - وبسكويت. كنت جائعاً، عندما أكون في المنزل، أفتح البراد في العادة، وأتناول نصف ما فيه، ولكنني لم أكن في المنزل، وما كنت سأعود إلى هناك قبل ساعة - تحققت من ساعتي- قررت أن أفتش في علبة البسكويت، وأنا واثق من أن هذا لا يعتبر تلصصاً، كانت العلبة مليئة ببسكويت الزبدة وحلوى الخطمي المغطاة بالشوكولاتة. فكرت في أنني ما دمت أجالس الكلب، فإن السيد بوديتش لم يكن سيفتقد قطعة أو اثنتين أو حتى أربعاً. أرغمت نفسي على أن أكف عن تناول الحلوى، ولكنني وجدت صعوبة في ذلك، كان بسكويت الزبدة لذيذاً.

نظرت إلى علبة الطحين، وتذكرت كلام السيد بوديتش أنها تحتوي على بعض المال قبل أن تتغير نظرة عينيه وتتحول إلى نظرة محتدة، انس هذا، لقد نسيت أن علبة الطحين خالية. كدت أن ألقي نظرة، وكنت في

مرحلة أسمح لنفسي فيها أن ألقي نظرة، ولكن تلك الأيام قد ولت. عاودت الجلوس، وفتحت كتاب تاريخ العالم.

قرأت بعض المواضيع الصعبة كمعاهدة فيرساي والتعويضات الألمانية، وعندما نظرت إلى ساعتي مجدداً (كان هناك ساعة فوق المجلى، ولكنها معطلة) أشارت إلى السادسة إلا الربع، فأدركت أن وقت إطعام رادار قد حان.

استنتجت أن الباب قرب البراد هو باب غرفة المؤن، وكان استنتاجي صحيحاً، فقد فاحت منها رائحة زكية. سحبت السلك المتدلي لأنيرها، ونسيت لوهلة أمر إطعام رادار. احتوت الغرفة الصغيرة المؤن المعلبة والجافة من أرضها إلى سقفها، كان هناك فاصولياء مطبوخة، وسردين، وشوربة كامبل، ومعكرونة، وصلصة معكرونة وقوارير من عصير العنب والتوت، وأواني الجيلاتين والمربى، وعلب الخضار التي وصل عددها إلى العشرات وربما بلغ المئات. كان السيد بوديتش مستعداً لنهاية العالم.

ناحت رادار وكأنها تقول: لا تنسَ الكلبة. نظرت خلف الباب، ووجدت دلو طعامها البلاستيكي؛ لا بدّ من أنه يتسع لعشرة غالونات أو اثني عشر غالوناً، ولكن قاعدته لم تكن مليئة. إذا بقي السيد بوديتش في المستشفى لبضعة أيام أو لأسبوع سيتوجب عليّ شراء المزيد.

كان المكيال في العلبة، فعبأته، وسكبت الطعام في الصحن الذي دوّن عليه اسمها. انقضت رادار عليه، وهي تلوّح بذيلها، صحيح أنها مسنة، ولكنها كانت مقبلة على الطعام. اعتقدت أن هذا مؤشر جيد.

قلت لها: «هوني عليك يا فتاة» وارتديت معطفي: «كوني فتاة جيدة وسأراك في الصباح».

ولكنني لم أتأخر عليها كل هذا الوقت.

4

تناولنا وأبي الطعام الصيني بشهية، وقصصت عليه نسخة مفصلة من مغامراتي هذا المساء بدءاً من السيد بوديتش الذي وجدته ممدداً على الأرض، وانتقلت إلى ممشى المخطوطات القديمة، وانتهيت بغرفة المؤن.

قال أبي: «مكتنز الحال والمال! لقد عرفت أشخاصاً كثر من أمثاله، ولكن بعد أن ماتوا قلت إن المكان نظيف أليس كذلك؟».

أومأت برأسي وقلت: «إن المطبخ نظيف على الأقل، وهو يحتوي شياء كثيرة، وهو في غاية الترتيب. كان هناك بعض الغبار على علب الأدوية القديمة في الحمام الصغير، ولكنني لم أرَ غباراً في أي مكان آخر».

«أليس لديه سيارة؟».

«كلا، ولم أرَ مكاناً مخصصاً لركنها في مستودع المعدات».

«لا بدّ، أنه كان يطلب خدمة توصيل لجلب بقالته. لا تنسَ أن هناك أمازون دوت كوم الذي سيسيطر على العالم بحلول العام 2040 ويحقق مخاوف التيار اليميني. أتساءل من أين له بالمال؟ وكم بقي لديه؟».

هذا ما فكرت فيه بدوري. أعتقد أن هذا النوع من الفضول عادي بالنسبة إلى الأشخاص الذي أوشكوا على الإفلاس.

نهض أبي: «لقد اشتريت الطعام وحملته، وعليّ أن أنجز بعض الأعمال الورقية الآن، أما أنت فنطّف المكان».

نظّفت المكان، وتمرّنت على بعض ألحان البلوز على غيتاري، (كان بوسعي أن أعزف أي شيء ما دام المقام هو مي ماجور). كنت أتدرّب على العزف إلى أن تؤلمني أظافري، ولكنني لم أكن على سجيتي في تلك الليلة. أعدت غيتار الياماها إلى الزاوية، وقلت لأبي إنني سأعود إلى منزل السيد

بوديتش كي أتفقد رادار، فقد كنت مشغول البال عليها لأنها وحيدة في ذلك المنزل. ربما لا تكترث لهذه الأمور، ولكن ماذا لو كانت تكترث حقاً؟

«حسناً، ما دمت لن تقرر أن تعيده معك».

«تعيدها».

«حسناً، ولكنني لست مهتماً بالإصغاء إلى نحيب كلبة عند الساعة الثالثة بعض منتصف الليل مهما يكن جنسها».

«لن أعيدها معي»، لم أقل له إنني فكرت في الأمر.

«ولا تدع نورمان بيتس ينل منك».

نظرت إليه متفاجئاً.

«ماذا؟ هل اعتقدت أنني لم أعرف؟»، تابع مبتسماً: «تعوّد الناس أن يطلقوا على هذا المنزل اسم البيت المسكون قبل أن تخلق أنت وأصدقاؤك أيها البطل الصغير».

5

ابتسمت عندما سمعت هذا، لقد نسيت الدعابة في الوقت الذي وصلت فيه إلى زاوية باين وسيكامور. بدا المنزل وكأنه يتربع على التل ويبلغ النجوم. تذكرت نورمان بيتس حين قال: أمي! هناك الكثير من الدم! وتمنيت لو أنني لم أشاهد ذلك الفيلم يوماً.

أصبح ترباس البوابة أسهل على الفتح. استخدمت مصباح هاتفي المحمول كي أجوب أرجاء المنزل، مررت المصباح على جانب منه، ويا ليتني لم أفعل ذلك. كان الغبار يغطي النوافذ وكل الستائر مسدلة. بدت تلك النوافذ وكأنها عيون عمياء ومع ذلك تستطيع رؤيتي، وأنا أدخل بطريقة أو بأخرى، ولا توافق على اقتحامي المنزل، انعطفت عند الزاوية، واتجهت

صوب الشرفة الخلفية، فسمعت صوت ارتطام، أجفلت وأوقعت هاتفي المحمول، وعندها رأيت ظلاً. لم أصرخ، ولكنني شعرت بقلبي وهو يغور في صدري. تجمدت حين اتجه ذلك الظل نحوي، وقبل أن ألتف، وأُطلق ساقيّ للريح رأيت رادار وهي تنحب وتشتم ساق بنطالي، وتحاول القفز عليّ. باءت محاولاتها بالفشل بسبب آلام ظهرها ووركها، ولا بدّ أن صوت الارتطام كان ناجماً عن انغلاق باب الكلبة.

جثوت على ركبتي، وأمسكت برأسها، وربت بيد رأسها، وحككت لها بيدي الأخرى المنطقة الواقعة تحت لجامها، فلعقت وجهي، والقت بثقلها عليّ لدرجة أنها كادت توقعني.

قلت لها: «لا عليك، هل كنت خائفة بمفردك؟ لا ضير أن كنت خائفة»، متى كانت آخر مرة بقيت فيها بمفردها بما أن السيد بوديتش لا يملك سيارة ويطلب توصيل بقالته؟ لا بدّ من أن وقتاً طويلاً قد مرّ على المرة الأخيرة التي بقيت فيها بمفردها: «لا بأس، إن الوضع على ما يرام الآن، هيّا بنا».

التقطت هاتفي المحمول، ومنحت قلبي بعض الوقت ليستعيد إيقاعه الطبيعي، ثمّ دخلت عبر الباب الخلفي. ومشت رادار بالقرب مني لدرجة أن رأسها كان يرتطم بركبتي. في قديم الزمان قابل آندي تشين كلباً وحشياً في الباحة الأمامية لهذا المنزل حسب كلامه، ولكن هذا كان منذ سنوات عديدة. كانت هذه الكلبة مسنة وخائفة، وعندما سمعتني أدخل، اندفعت عبر بابها كي تُرحّب بي.

بعد أن صعدنا درجات الشرفة الخلفية، فتحت قفل الباب، وضغطت على قابس النور لإنارة ممشى المخطوطات القديمة، تحققت من باب الكلبة، ورأيت ثلاثة ترابيس، كان هناك اثنان على كل جانب وواحد في الأعلى، ذكّرت نفسي أن أديرها كي لا تخرج رادار وتتجول في الخارج. لا بدّ

من أن الباحة الخلفية كانت مسورة كالباحة الأمامية، ولكنني لم أكن واثقاً من هذا، وكنتُ مسؤولاً عن الكلبة في الوقت الحالي.

جثوت أمام رادار في المطبخ، وربت وجنتيها، نظرت إليّ بلهفة، وتنبهت أذناها فقلت: «لا أستطيع البقاء هنا، ولكنني سأترك لك المكان مناراً، وسأعود في الصباح الباكر لأطعمك، اتفقنا؟».

تأوهت قليلاً، ولعقت يدي، ثمّ انقضت على صحنها، كان فارغاً، ولكنها لعقت ما تبقى، ونظرت إليّ، فهمت ما ترمي إليه، وقلت لها: «لن أعطيك مزيداً الآن، انتظري حتّى الصباح».

جلست على الأرض، ووضعت وجهها بين كفيها، ولم تكف عن النظر إليّ.

«حسناً...».

ذهبت إلى العلبة التي كتب عليها بسكويت، قال لي السيد بوديتش ألا أطعمها لحماً أو نقرشات، وقررت أنه كان يقصد نقرشات اللحم، إن علم دلالات الألفاظ مدهش أليس كذلك؟ لم أتذكر أنني قرأت أي شيء يتعلق بخطورة تحسس الكلاب من الشوكولاتة، لذا تناولت قطعة بسكويت وكسرتها لها، وعندما قدّمتها لها، اشتمتها وأخذتها من يدي.

جلست على الطاولة التي درست عليها، وشعرت أنه يجدر بي الرحيل، كانت كلبة، وليست طفلة، لعلها لا تفضل أن تظل بمفردها، ولكنها لن تذهب إلى المجلى وتلعق الكلور.

رن هاتفي المحمول، وكان أبي هو المتصل: «هل كل شيء على ما يرام؟».

«أجل، ولكن من الجيد أنني أتيت، كنت قد تركت باب الكلبة مفتوحاً، خرجت حين سمعت خطواتي»، لم يكن علي أن أخبره عن صورة جانيت لي

التي تراءت لي وهي تصرخ، وتحاول أن تتفادى السكين في الحمام حين رأيت الظل المتحرك.

«ليس خطأك، فلا يمكن لك أن تفكر في كل شيء، متى ستعود؟».

«قريباً جداً» ثمّ نظرت إلى رادار، فبادلتني النظرة بنظرة استعطاف، «أبي، لعله يجدر بي...».

«ليست فكرة سديدة يا تشارلي فلديك مدرسة غداً، إنها كلبة بالغة، وستكون بخير في هذه الليلة».

«بالطبع، أعرف ذلك».

نهضت رادار، وكان من الصعب عليّ مشاهدة ذلك، وحين تمالكت نفسها مشت باتجاه فراغ مظلم، لا بدّ من أنه غرفة المعيشة».

«سأظل لبضع دقائق، إنها كلبة لطيفة».

«حسناً».

أنهيت المكالمة، وسمعت صوت صرير خافت، عادت رادار، ومعها دمية في فمها، اعتقدت أنها كانت دمية قرد، ولكنها كانت مهترئة فلم أستطع تمييزها، ما زال هاتفي المحمول في يدي، لذا التقطت صورة. أحضرت لي الدمية ووضعتها قرب كرسيي، وأخبرتني عيناها ما الذي تطلبه مني.

قذفتها بشكل خفيف في الغرفة، عرجت رادار وراءها والتقطتها، وعضت عليها قليلاً لتثبت لها من هي ملكة اللعبة ثمّ أعادتها، ووضعتها قرب كرسيي مجدداً. كان بوسعي تخيّلها وهي كلبة يافعة، لا بدّ من أنها كانت ثقيلة ورشيقة وهي تجري خلف القرد القديم (أو أحد خلفائه) بالطريقة التي وصفها فيها آندي تشين ذلك اليوم. كانت قد انتهت أيام ركضها الآن، ولكنها

كانت تبذل كامل طاقتها. كان بوسعي أن أتخيلها وهي تفكر: أترى مهارتي في هذه اللعبة؟ ابق معي، بوسعي أن ألعبها طوال الليل!

لكنها ما كانت تستطيع المواظبة على اللعب، وما كان بوسعي البقاء. أرادني أبي أن أعود إلى المنزل، وشككت في قدرتي على النوم إذا مكثت هنا. كان هناك كثير من أصوات الصرير والارتطام الغريبة بالإضافة إلى كثير من الغرف التي يمكن أن يختفي فيها أي شيء... ويتسلل إليّ حين تنطفئ الأنوار.

أعادت رادار القرد مجدداً، فقلت لها: «فلنتوقف عن اللعب، ارتاحي يا فتاتي».

اتجهت نحو الرواق الخلفي، وعندها خطرت لي فكرة. ذهبت إلى الغرفة المظلمة التي تناولت رادار منها اللعبة، وتحسست الجدار لأعثر على مقبس النور، وتمنيت ألا يمسك شيء مريب بيدي (كيد مومياء أم نورمان بيتس مثلاً). أصدر مقبس النور صوت طقطقة حين عثرت عليه وضغطته.

لقد كانت غرفة معيشة السيد بوديتش قديمة، ولكنها مرتبة كمطبخه. الأريكة منجدة بقماش بني داكن، بدت لي أنها غير مستخدمة، وبدا لي أنه كان يجلس على كرسي مريح هبط مقعده وكانت فوق على سجادة تقليدية مهترئة، كان بوسعي تخيّل ساقي السيد بوديتش النحيلتين وهما تجوبان أرجاء هذه الغرفة، كان هناك قميص شامبراي أزرق ملقى على ظهر الكرسي الذي يواجه تلفازاً يعود للعصر الحجري، كان هناك شيء يشبه الهوائي على سطحه، التقطت له صورة بهاتفي المحمول، لم أعرف أعرف إن كان هذا التلفاز العريق صالحاً للاستخدام. ولكن بالاستناد إلى الكتب المصفوفة قربه المتشحة بالملاحظات لا أتصور أنه كان يستخدم كثيراً، حتّى وإن كان صالحاً. كان هناك سلة في الزاوية البعيدة من الغرفة مليئة بدمى الكلاب، وكانت دليلاً على مدى حب السيد بوديتش لكلبته.

مشت رادار في الغرفة، وتناولت دمية أرنب محشوة، أحضرتها لي وبدت متفائلة.

قلت لها: «لا أستطيع، ولكن تستطيعين أن تحظي بهذه، لا بدّ من أن رائحة سيدك تفوح منها».

تناولت القميص من الكرسي، وفردته على أرضية المطبخ قرب صحنها، اشتمته ثمّ جلست عليه، قلت لها: «يا لك من فتاة جيدة، سأراك في الصباح».

اتجهت إلى الباب الخلفي، وفكرت مجدداً، وجلبت لها القرد المحشو، مضغته قليلاً لترضيني على الأرجح، تراجعت عدة خطوات والتقطت صورة أخرى ثمّ غادرت، ولم أنس أن أوصد باب الكلبة، إذا تغوطت في الداخل كنت سأنظف المكان فحسب.

في طريقي إلى المنزل فكرت في مصارف المياه المسدودة بالأوراق، والباحة غير الممهدة، وفي المنزل الذي يحتاج إلى طلاء. كانت هذه الأمور تفوق مهاراتي على إصلاحها، ولكنني كنت أستطيع تدبر أمر النوافذ التي يغطيها الغبار، بالإضافة إلى السياج المتداعي هذا، إن كان لديّ متسع من الوقت. ولكن بالنظر إلى اقتراب الموسم الجديد لكرة القاعدة لم أفعل. تبقى هناك رادار التي وقعت في حبي من النظرة الأولى، ولعلني بادلتها الحب بدوري. تحملوا الأمر إذا كنتم تعتقدون أن هذه الفكرة غريبة أو سخيفة أو كلتا الفكرتين. وكما قلت لأبي: إنها كلبة لطيفة.

تلك الليلة، عندما تمددت في سريري، ضبطت المنبه على الساعة الخامسة فجراً ثمّ راسلت مدرس اللغة الإنكليزية الأستاذ نيفيل، وقلت له إنني لن أحضر الحصة الأولى وطلبت منه أن يُبلغ الآنسة فريدلاندر إنني سأفوت الحصة الثانية على الأرجح، لأنني سأزور شخصاً في المستشفى.

الفصل الثالث
زيارة المستشفى- المستسلمون يخسرون- المستودع.

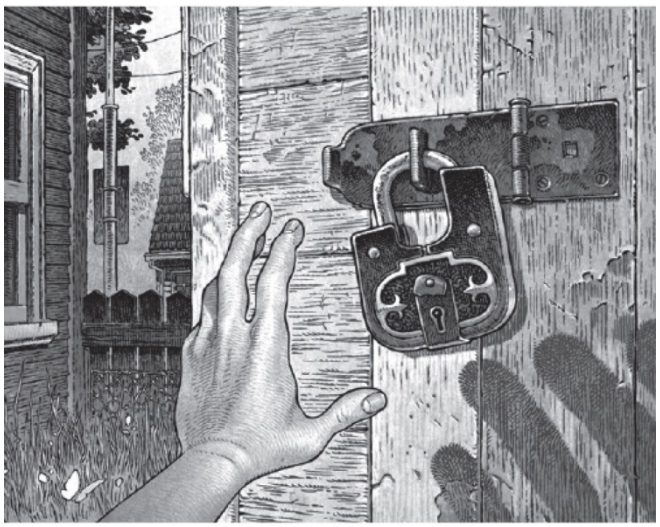

1

بدا البيت المريب أقل ريبة في ساعات الفجر الأولى، مع أن الضباب المتصاعد من العشب الطويل أعطاه طقساً قوطياً. لا شك في أن رادار كانت تنتظرني، لأنها بدأت تتحرك قرب بابها المقفل حين سمعت خطواتي على الدرجات المتداعية والرطبة، والتي يفترض بأحد أن يصلحها حتى لا تكسر ساق شخص آخر.

قلت لها: «اهدئي يا فتاة». ووضعت المفتاح بالقفل ثمّ تابعت: «ستؤذين نفسك».

عندما فتحت الباب ركضت نحوي وقفزت عليّ، ومدت كفيها الأماميين، وليذهب داء المفاصل إلى الجحيم. تبعتني إلى المطبخ، وراقبتني وهي تهز ذيلها حين وضعت لها معياراً من طعامها الذي شارف على الانتهاء. بينما كانت تأكل، راسلت أبي وسألت إن كان بوسعه أن يعرج على مكان اسمه بيت بانتري في استراحة الغداء أو بعد العمل ويشتري كيساً من طعام الكلاب: أوريغن ريجنل ريد، ثمّ بعثت رسالة أخرى أقول فيها إنني سأرد له المبلغ وإن السيد بوديتش سيعطيني ثمنه، عاينت المعلومات، وبعثت رسالة أخرى: من الأفضل أن تحضر كيساً كبيراً.

لم يمضِ وقت طويل حتّى أنهت رادار طعامها، أحضرت لي القرد، ووضعته قرب كرسيي وتجشأت.

قلت لها: «عافاك الله» وقذفت القرد. قفزت وأعادته إليّ، فقذفته مجدداً. وبينما كانت تلحق به اهتز هاتفي المحمول، لقد بعث أبي برسالة: لا مشكلة.

قذفت دمية القرد مجدداً، ولكن بدلاً من اللحاق بها عرجت في ممشى المخطوطات القديمة وخرجت. لم أكن أعرف إن كان هناك حبل للجام لذا أحضرت معي قطعة بسكويت لأعيدها إن اضطررت لذلك، كنت متأكداً أنها ستفي بالغرض لأنها كانت كلبة نهمة بالتأكيد.

لم تشكل إعادتها مشكلة، ذهبت إلى مكان ما كي تقضي حاجتها الأولى، وإلى مكان آخر لتقضي حاجتها الثانية، عادت ونظرت إلى الدرج كما ينظر متسلقو الجبال إلى منطقة مرتفعة، ثمّ صعدت نصف المسافة، جلست لبرهة وارتاحت قليلاً، لم أعرف كم ستصمد قبل أن تحتاج إلى شخص كي يعينها على هذه المهمة.

قلت لها: «عليّ الذهاب، أراك لاحقاً أيتها اللطيفة جداً».

لم نقتنِ كلباً في حياتنا، لذا لم أعرف قوة تعابير العيون خصوصاً من مسافة قريبة وشخصية. بدت عيناها وكأنهما تقولان لي: لا تذهب، كنت سأسر بالبقاء، ولكن كما تقول الأغنية: كان لديّ وعود لأفي بها. ربت رأسها عدة مرات، وقلت لها أن تتصرف بشكل جيد. تذكرت أنني قد قرأت، في مكان ما، أن الكلاب تكبر بمعدل سبع سنوات، مقارنة بسنة واحدة من عمرنا نحن. إنها قاعدة بدائية بالطبع، ولكنها طريقة تساعدنا على فهم ما يماثل هذا الوقت في عمر الكلاب؟ إذا عدت لأطعمها عند الساعة السادسة فسأكون قد عدت بعد اثنتي عشرة ساعة، هل ستعادل تلك الساعات ثماني وأربعين ساعة بوقت الكلاب؟ أو ثلاثة أيام ونصف؟ إذا كان هذا التحليل صحيحاً، فهذا يُفسر لماذا كانت متلهفة جداً لرؤيتي، ولا بدّ من أنها كانت تفتقد السيد بوديتش.

أقفلت الباب، ونزلت الدرجات، ونظرت إلى المكان الذي قضت فيه حاجتها. إن تنظيف الباحة الخلفية كان مهمة يجب أن توضع على القائمة، إلا إذا كان السيد بوديتش يتكفل بها. كان من المستحيل أن أستشف الأمر بسبب الأعشاب الكثيفة، إذا لم يكن مالك المنزل يعتني بهذه الباحة فيفترض بأحدهم أن يعتني بها.

قلت لنفسي وأنا أركب دراجتي: أستطيع أن أعتني بها، وكان هذا صحيحاً، ولكنني شخص مشغول. فبالإضافة إلى كرة القاعدة، كنت أفكر في أن أتقدم لمسرحية نهاية السنة: مسرحية الثانوية الغنائية. كنت أحلم بتأدية أغنية «بريكنغ فري» مع جينا باسكاريلي، وهي فتاة كانت في السنة الأخيرة وفائقة الجمال.

وجدت امرأة ترتدي معطف تارتان قرب دراجتي، اعتقدت أنها كانت السيدة راغلاند أو لعلها ريغان. سألتني: «هل أنت من اتصل بالإسعاف؟».

أجبتها: «أجل، يا سيدتي».

«هل وضعه سيئ؟ أقصد وضع السيد بوديتش؟»

«لا أعلم في الحقيقة، لقد كسرت رجله بالتأكيد».

«حسناً. لقد استوفيت حسناتك في ذلك اليوم، أو لعلك قد استوفيتها حتى نهاية هذا العام. السيد بوديتش لا يعتبر جاراً ممتازاً، كما أنه منطوٍ على نفسه، ولكن ليس لديّ شيء ضده، سوى أن مثله يُشكل تلوثاً بصرياً. هل أنت ابن جورج ريد؟».

«نعم».

مدت يدها وقالت: «ألثيا ريتشلاند».

صافحتها قائلاً: «سررت بلقائك».

«ماذا عن ذلك المهجن؟ إن كلب الشيبرد الألماني كلب مخيف. تعود أن يخرجه في الصباح الباكر، وأحياناً في الليل حين يدخل الأطفال إلى منازلهم». أشارت إلى السياج المتداعي وقالت: «لا بدّ من أن هذا السياج لا يحتجزه».

«هذا الكلب أنثى وأنا أعتني بها».

«تفعل خيراً، أتمنى ألا تتعرض للهجوم أو للعض».

«إنها عجوز الآن، وليست عدائية».

قالت السيدة ريتشلاند: «لعلها تتصرف معك بلطف، ولكن أبي كان يقول: 'تعتبر عضة الكلب العجوز بقوة مضاعفة'. أتى مراسل من مجلة أسبوعية وسألني عما حصل. أعتقد أنه المسؤول عن الاستدعاءات

كالشرطة والإطفاء والإسعاف وغير ذلك»، حكّ أنفها وقالت: «أعتقد أنه كان في سنك».

قلت لها: «لن أنسى هذا». ولكنني لم أكن واثقاً من ضرورته، «يجب أن أذهب يا سيدة ريتشلاند، أريد أن أزور السيد بوديتش قبل المدرسة».

ضحكت وقالت: «إذا كان في مستشفى أركاديا فلا يسمح بزيارة النزلاء قبل الساعة التاسعة. لن يسمحوا لك بالدخول في مثل هذا الوقت الباكر».

2

سمحوا لي بالدخول عندما شرحت لهم أنه يفترض بي الذهاب إلى المدرسة، وبعد ذلك إلى تمرين كرة القاعدة. في البدء، لم تقتنع السيدة التي كانت تجلس خلف الطاولة في مكتب الاستقبال، ولكن حين قلت لها إنني من استدعى الإسعاف، قالت لي إن بإمكاني الصعود إلى الغرف. «الغرفة 322، إن المصاعد على يمينك».

عندما وصلت إلى منتصف رواق الطابق الثالث، سألتني ممرضة إن أتيت لزيارة السيد بوديتش، فقلت لها إنني أتيت لزيارته وسألتها عن وضعه.

«لقد خضع لعملية، وعليه أن يخضع لعملية أخرى، ثمّ سيخضع لفترة طويلة من النقاهة كي يتماثل للشفاء. كما سيحتاج لكثير من العلاج الفيزيائي. لعل ميليسا ويلكوكس هي من ستتولى الأمر. كان الكسر وخيماً وهشم له وركه أيضاً، سيحتاج لاستبدال الورك، وإلا سيمضي بقية حياته على جهاز الووكر أو على كرسي متحرك بغض النظر عن مقدار العلاج الذي يخضع له».

قلت لها: «يا إلهي، هل يعرف هذا؟».

«لا بدّ من أن الطبيب الذي قوّم الكسر قال له ما يجب أن يعرفه الآن، هل أنت من اتصل بالإسعاف؟».

«أجل يا سيدتي».

«حسناً، لقد أنقذت حياته على الأرجح. فبسبب الصدمة وإمضاء الليلة في الخارج...»، وأشاحت بوجهها.

«إن الكلبة هي التي أنقذته، لقد سمعت نباحها».

«هل هي من اتصل برقم الطوارئ؟».

اعترفت أنني من اتصلت.

«إذا كنت تريد رؤيته فعليك أن تسرع، لقد أعطيته إبرة مسكن للتو، ولا بدّ من أنها ستؤثر عليه قريباً، ودعك من الورك المكسور، فهو نحيل للغاية، وسيكون ضحية سهلة لهشاشة العظام. يمكن أن تحظى بربع ساعة قبل أن يذهب ليرى الساحر».

3

كانت ساق السيد بوديتش مرفوعة على حمالة، بدت وكأنها تعرض في فيلم كوميدي يعود إلى ثلاثينيات القرن الماضي... لكن السيد بوديتش لم يكن يضحك، وأنا بدوري لم أضحك. كانت التجاعيد التي تخطط وجهه أعمق، وكأنها منحوتة، وازدادت الهالات تحت عينيه سواداً. بدا شعره أشيب وخفيفاً، كما فُقدت الخصلات الحمراء التي كانت تتخلله لونها. اعتقدت أنه يتشارك الغرفة مع أحد، ولكنني لم أره بسبب الستارة الخضراء التي غطت النصف الآخر من الغرفة 322. رآني السيد بوديتش، وحاول أن يعدل جلسته، ولكنه تألم وتأوه.

«مرحباً، ما كان اسمك؟ إذا كنت قد أخبرتني به فقد نسيته، وأعتقد أن بوسعك أن تسامحني بحكم ظروفي».

لم أستطع أن أتذكر إن كنت قد أخبرته باسمي لذا أخبرته به مجدداً (أو للمرة الأولى) ثمّ سألته عن حاله.

«سيئ، انظر إليّ فحسب».

«أنا آسف».

«ليس بقدر أسفي على نفسي». ثمّ حاول أن يكون لبقاً: «شكراً لك يا سيد ريدر الصغير، قالوا لي إنك أنقذت حياتي على الأرجح، لست متأكداً من قيمة حياتي الآن، ولكن كما يقال عن بوذا: لا شيء يبقى على حاله، وأحياناً ما يتغير للأفضل، ولكن بحكم خبرتي أعتقد أن هذا نادر الحدوث».

قلت له - كما قلت لأبي وللمسعفين وللسيدة ريتشلاند - إن الكلبة هي من أنقذت حياته فعلياً، حيث كنت سأتجاوز المنزل لو لم أسمع نباحها.

«كيف حالها؟».

«بخير»، وضعت كرسياً قرب سريره وأريته الصور التي التقطتها لرادار مع قردها، تفحصها مراراً وتكراراً (كان عليّ أن أعلمه كيف يتنقل بين الصور)، بدا أسعد حين رأى الصور بغض النظر عن صحته. قالت الممرضة: سيخضع لفترة نقاهة طويلة كي يتماثل للشفاء.

كانت ابتسامته قد اختفت حين أعاد لي هاتفي المحمول: «لم يخبروني بالوقت الذي سأمكثه هنا، ولكنني لست مغفلاً. أعرف أنني سأبقى لفترة طويلة، وأعتقد أنّ عليّ إنهاء حياتها. لقد حظيت بحياة رغيدة ولكن عضلاتها الآن...».

قلت له متنبهاً: «يا إلهي! لا تفعل هذا، سأهتم بها، وسيسرني ذلك».

نظر إليّ، وللمرة الأولى لم تكن تعابيره تنمّ عن إزعاج أو تأفف: «هل ستفعل هذا حقاً؟ هل أستطيع الوثوق بك لتفعل هذا؟».

«أجل، لقد نفد طعامها تقريباً، ولكنني طلبت من والدي أن يشتري كيساً من طعام أوريغن ذاك، سأكون هناك في تمام الساعة السادسة صباحاً ومساء، اعتمد عليّ».

اقترب مني، ولعله كان يريد أن يصافحني أو يربت يدي على الأقل. كنت سأسمح له بذلك، ولكنه سحب يده. «إن هذا...فضل كبير منك».

«أحببتها وأحبتني بدورها».

«حقاً؟ إن هذا جيد، ليست فتاة عاطلة»، كانت عيناه تلمعان وكان يتكلم بتثاقل. لقد بدأ المسكن الذي أعطته إياه الممرضة يعطي مفعوله: «لا تؤذي أحداً، ولكنها كانت تخيف أطفال الحي، وكنتُ أُقدّر صنيعها هذا. يا لهم من أطفال فضوليين. كانوا فضوليين وفوضويين، أما بالنسبة إلى اللصوص؟ انس الأمر. كانوا ينفدون بجلدهم إلى التل إذا سمعوا صوت رادار، ولكنها تقدمت في السن»، تنهد ثمّ سعل وآلمه هذا، «ولم تتقدم بالسن وحدها».

«سأهتم بها جيداً، ولعلني سأصطحبها إلى منزلي عند التل».

احتدت عيناه قليلاً وهو يفكر في الأمر: «لم تذهب إلى منزل أحد منذ أن تبنيتها عندما كانت جرواً، لقد مكثت في المنزل... والباحة...».

«قالت السيدة ريتشلاند إنك كنت تصطحبها في نزهات».

«أهي تلك الفضولية التي تعيش في الطرف الآخر من الشارع؟ إنها محقة على أيّ حال. كنا نمشي معاً حين كانت رادار تستطيع المشي من دون أن تتعب، أتخوف من اصطحابها إلى أي مكان بعيد الآن، ماذا لو أخذتها إلى شارع باين ولم تستطع العودة؟». نظر إلى حاله وقال: «أصبحت الآن عاجزاً عن العودة إلى المنزل، لن أستطيع العودة إلى أي مكان».

«لن أرهقها أو أُحمّلها ما لا طاقة لها بحمله».

استرخى قليلاً وقال: «سأرد لك ثمن...طعامها ولقاء وقتك أيضاً».

«لا تقلق بهذا الشأن».

«لعلها ستكون بخير ريثما أعود إلى المنزل، هذا إن عدت».

«ستعود إلى منزلك يا سيد بوديتش».

«إذا كنت...ستطعمها...فنادني بهاورد».

لم أثق في قدرتي على مناداته بهذا الاسم، ولكنني وافقته.

«هل يمكنك أن تجلب لي صورة أخرى؟».

«بالطبع، يجدر بي الذهاب يا سيد...هاورد، عليك أن ترتاح».

«ليس لديّ خيار آخر». أغمض عينيه ثمّ رفع جفنيه ببطء. «مهما يكن المسكّن الذي أعطتني إياه...ووه! إنه فعال للغاية!».

أغمض عينيه مجدداً، نهضت واتجهت إلى الباب. «يا فتى، ما كان اسمك؟».

«تشارلي».

«شكراً لك يا تشارلي، اعتقدت أنه ربما...أعطها فرصة ثانية وليس من أجلي... لقد اكتفيت بفرصة واحدة... إن الحياة عبء... إذا أتيحت لك الفرصة لتعيش طويلاً، فستدرك هذه الحقيقة، ولكن هي... رادار... ثم تقدمت في السن ووقعت عن السلم اللعين...».

«سأحضر لك مزيداً من الصور».

«افعل هذا».

هممت بالرحيل، ثمّ تكلم مجدداً، ولكن لا أظن أنه كان يتكلم إليّ «إن الرجل الشجاع هو من يساعد، ولكن الجبان يكتفي بإعطاء الهدايا»، صمت ثمّ بدأ بالشخير.

رأيت الممرضة التي سبق لي أن تحدثت إليها في منتصف الرواق وهي تخرج من غرفة ومعها بولٌ عَكر، رأتني فغطته بمنشفة، سألتني إن كانت زيارتي لطيفة.

«أجل، ولكنني لم أفهم آخر ما قاله».

ابتسمت وقالت: «إن الديميرول لديه هذا التأثير. اذهب الآن، يجب عليك أن تكون في المدرسة».

4

بحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى هيلفيو، كانت عشر دقائق قد مرت من الحصة الثانية، وكانت الأروقة خالية. ذهبت إلى المكتب لآخذ إذن تأخير من السيدة سيلفيوس، وكانت سيدة كبيرة في السن ولطيفة ولكن لديها شعراً أزرق مخيفاً. لا بدّ من أنها كانت في سن الخامسة والسبعين أي بعد سن التقاعد، ولكنها كانت حذقة ولديها حس عالٍ بالفكاهة، أعتقد أن حس الفكاهة ضروري حين تتعامل مع المراهقين.

قالت وهي توقع على الإذن: «سمعت أنك قد أنقذت حياة رجل مسن ليلة أمس».

«من قال لك هذا؟».

«عصفورة صغيرة، ويت-ويت-ويت، إن الأخبار تتناقل بسرعة يا تشارلي».

أخذت الإذن وقلت: «لم أكن أنا المنقذ بل كلبة الرجل، لقد سمعت نباحها»، كنت قد سئمت من شرح هذا الموقف للناس لأنها لم تصدقني،

وكان هذا غريباً لأنني اعتقدت أن الجميع يفضلون القصص التي يكون أبطالها كلاباً. «لقد اتصلت بالطوارئ وحسب».

«كما تريد، اذهب إلى الحصة الآن».

«هل يمكنني أن أريك شيئاً قبل أن أذهب؟».

«إذا وعدتني أن تكون سريعاً».

تناولت هاتفي المحمول وأريتها صورة تلفاز السيد بوديتش.

«هذا هوائي أليس كذلك؟».

قالت السيدة سيلفيوس: «كنا نطلق عليه اسم أذن الأرنب»، لقد ماثلت ابتسامتها ابتسامة السيد بوديتش حين نظر إلى صور رادار مع قردها: «تعوّدنا أن نلفّه بورق القصدير كي نُحسّن التغطية، ولكن انظر إلى ذلك التلفاز يا تشارلي! يا إلهي! هل يعمل؟».

«لا أدري، لم أجربه».

«إن أول تلفاز حظينا به كان يشبه هذا، كان تلفاز طاولة من نوع زينيث، وكان ثقيلاً للغاية لدرجة أن أبي آذى ظهره وهو يجره على درج الشقة التي عشنا فيها حينها. كنا نشاهد ذلك الجهاز طوال الوقت!آني أوكلي ووايلد بيل هيكوك وكابتن كنغارو وكروسادر رابيت...يا إلهي كنا نشاهده إلى أن نصاب بصداع! وحين توقف عن العمل بدأت الصورة تدور وتدور لذا اتصل أبي بفني متخصص بإصلاح أجهزة التلفاز الذي أتى ومعه حقيبة مليئة بالأنابيب».

«أنابيب؟»

«أنابيب تفريغ، كانت تتوهج باللون البرتقالي كالمصابيح التقليدية. بدّل الأنبوب التالف فعاود التلفاز العمل من جديد»، نظرت إلى الصورة مرة

أخرى، «لا بدّ من أن أنابيب هذا الجهاز قد تلفت منذ وقت طويل».

قلت لها: «لا شك في أن السيد بوديتش اشترى كثيراً من إيبي أوكريغليست. يمكنك شراء أي شيء بواسطة الإنترنت إذا كنت تملكين المبلغ الكافي»، ولكنني لم أعتقد أن السيد بوديتش كان يتعامل بالإنترنت.

أعادت لي السيدة سيلفيوس هاتفي المحمول وقالت: «هيّا يا تشارلي، إن الفيزياء بانتظارك».

5

ترصدني المدرب هاركنس كما يترصد القط الفأر أو يترصد الذباب الغائط لأن أدائي كان فاشلاً. لقد ركضت في الاتجاه الخاطئ ضمن تدريب المخاريط الثلاثة، وحين حاولت أن أذهب في الاتجاهين معاً وقعت على ظهري وضحك الجميع عليّ. وخلال تمرين اللعب المضاعف فوتت فرصتي، وتجاوزتني الكرة، وقطعت جدار النادي. وحين بادلني المدرب التمريرات لمست الكرة بشكل لا بأس به، ولكنني لم أنزل قفازي، كما أن الكرة البطيئة مرت من بين ساقيّ. ولكن الفشل في ضرب الكرة برفق كانت القشة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة إلى المدرب هاركنس، حيث إنني واظبت على إرسالها إلى الرامي بدلاً من إرسالها إلى خط القاعدة الثالث.

نهض المدرب من كرسيه، واتجه نحوي وبطنه تهتز وصافرته تتأرجح بين ثدييه: «ما هذا يا ريد بحق الجحيم! تبدو وكأنك امرأة عجوز! توقف عن العبث بالكرة! أنزل المضرب، ودع الكرة ترتطم به، كم مرة عليّ أن أقول لك هذا؟». أمسك المضرب، وأبعدني عن مكاني، وواجه الرامي المتدرب لذلك اليوم راندي مورغان: «ارمِ! وابذل مجهوداً!»

رمى راندي بكل ما أوتي من قوة، فانحنى المدرب، وتصدى لها بشكل مثالي، سارت على خط القاعدة الثالث، فتلقاها ستيف دومبروسكي، والتقطها بيده الحرة وفوت القبضة.

التفت المدرب صوبي وقال: «أرأيت؟ إنها تحصل بهذه الطريقة! لا أدري ماذا يدور في بالك، ولكن تخلص منه!»

لقد كنتُ مشغول البال برادار التي تنتظرني في منزل السيد بوديتش، لعل الانتظار لمدة اثنتي عشرة ساعة بدا لها وكأنه ثلاثة أيام ونصف اليوم، ما كانت ستعرف سبب بقائها وحدها، وما كانت ستستطيع اللعب بدمية القرد ما لم يرمه أحد لها. هل كانت تحاول ألا تتغوط في المنزل؟ هل قضت حاجتها في مكان آخر أن بابها كان مقفلاً؟ إذا فعلت هذا فلن تفهم أنها لم تكن على خطأ، كما كنت أفكّر في الباحة المهملة والسياج المتداعي.

سلّمني المدرب هاركنس المضرب وقال: «ركّزْ وجرّبْ مجدداً»، لم يحاول راندي أن يضربها بقوة، وخفف الضربة قليلاً ليخلصني من حبل المشنقة، انخفضت...وضربتها، لم يضطر راندي أن يبتعد عن ساحة اللعب ليمسكها.

قال المدرب: «هذا يكفي، أعطني خمسة»، لقد قصد أن أقوم بخمسة جولات حول النادي.

«كلا».

خفتت كل الهمسات في النادي وليس في قسمنا وحسب، بل في قسم فريق البنات للكرة الطائرة، كان الجميع يشهد هذا الحدث، وضع راندي قفازه على فمه ولعله كان يحاول أن يخفي ابتسامته.

وضع المدرب يديه على فخذيه المكتنزتين وقال: «ماذا قلت لي للتو؟».

لم ألقِ المضرب لأنني لم أكن غاضباً، ناولته إياه وحسب، فأخذه مندهشاً.

«قلت لك كلا، لقد انتهيت»، اتجهت إلى الباب الذي قاد إلى غرفة تبديل الملابس.

«عُدْ إلى هنا يا ريد!»

لم أنظر خلفي وتابعت المشي إلى الأمام.

«عد إلى هنا حالاً، وليس عندما تهدأ لأنه عندها سيكون الأوان قد فات!»

ولكنني كنت هادئاً، كنت سعيداً وكأنني رأيت حلاً لمسألة رياضيات بدد صعوبتها.

«يا إلهي يا ريد!» كان صوته ينم عن فزع، لعله فزع لأنني كنت الضارب الأفضل أو لأن هذه الثورة كانت تحدث أمام الفريق بأكمله، «عُدْ إلى هنا! إن الرابحين لا يستسلمون والمستسلمون يخسرون!»

قلت له: «حسناً، انعتني بالخاسر».

نزلت الدرج، ودخلت غرفة تبديل الملابس حيث بدّلت ملابسي. كانت تلك نهاية مسيرتي في كرة القاعدة في ثانوية هيلفيو والسؤال الذي يطرح نفسه هل ندمت على ذلك؟ والجواب كلا، هل ندمت لأنني خذلت أعضاء فريقي؟ قليلاً وكما يعيد ويكرر المدرب: ليس هناك وجود للأنا في الفريق، كان عليهم أن يتآلفوا من دوني، وكان لديّ أعمال أخرى لأهتم بها.

6

تناولت البريد من صندوق السيد بوديتش - لم يكن هناك شيء خاص بل إعلانات وأشياء غير مهمة - ودخلت إلى المنزل عبر الباب الخلفي. لم تستطع رادار أن تنقض عليّ وأعتقد أن حالتها كانت سيئة في ذلك اليوم. لذا، أمسكت بكفيها برفق، ورفعتها ثمّ وضعتهما على خصري وربّتّ رأسها، ثمّ ربّتّ قليلاً شعر فمها الأشيب لأدللها، فنزلت بعناية درج الشرفة وقضت

حاجتها، تفحصتْ الدرجات مجدداً قبل أن تصعدها، فقلت لها إنها كانت فتاة جيدة وأن المدرب هاركنس سيكون فخوراً بها.

لعبت معها بالقرد المحشو مرات عدة، والتقطت لها صوراً. كان هناك مزيد من الدمى في سلتها، ولكن بدا جلياً أنها كانت تفضل دمية القرد.

تبعتني إلى الخارج حين تناولت السلم المرمي، حملته إلى المستودع، ورأيت القفل الضخم، فسحبته من الإفريز، وبينما كنت أفعل ذلك زمجرت رادار. كانت تقرفص على بعد عشرين قدماً من القفل وهي تكشر عن أنيابها وترفع أذنيها.

«ما الخطب يا فتاة؟ إذا دخل ظربان أو مرموط إلى هنا لن أستطيع أن أفعل شيئاً...».

سمعت صوت شطب وتبعه صوت همهمة. انتصب شعر بدني حيث لم تكن تلك الأصوات نابعة من حيوان، ولم يسبق لي أن سمعت شيئاً مشابهاً. نبحت رادار وناحت ثمّ تراجعت، مع أن معدتها ما زالت تلامس الأرض. أردت أن أتراجع أنا الآخر، ولكنني ضربت الباب بقبضتي وانتظرت، فلم يحدث شيء. كنت لأقول إنني أتخيل، ما لم أر وأسمع رد فعل رادار، ولكن لم يكن بوسعي فعل شيء حيال الأمر على كل حال. كان الباب موصداً، ولم يكن هناك أيّ نوافذ.

ضربت الباب مجدداً، وكأنني استفز مصدر الصوت ليكرره، ولكن شيئاً لم يحصل، لذا عدت إلى المنزل. عانت رادار وهي تحاول الوقوف على قدميها وتبعتني، نظرت خلفي مرة أخرى، ولاحظت أنها نظرت هي الأخرى إلى الخلف.

لعبت بالقرد مع رادار قليلاً، وحين انبطحت على المشمع ورمقتني بنظرة تقول فيها: لقد اكتفيت، اتصلت بأبي وقلت له إنني انسحبت من كرة القاعدة.

قال لي: «أعرف هذا. اتصل بي المدرب هاركنس بالفعل، وقال لي إن الأمور توترت قليلاً، ولكنه سيرحب بك في الفريق مجدداً، إذا اعتذرت له ولباقي أعضاء الفريق، لأنك خذلتهم، على حدّ تعبيره».

لقد كان هذا كلاماً مزعجاً ومضحكاً في آن: «لم تكن نهائيات الولاية يا أبي، بل مجرّد تدريب في النادي وكان لئيماً معي». ولكنني تعودت لؤمه شأني شأن سائر أعضاء الفريق. يجب أن توضع صورة المدرب هاركنس قرب مفردة اللؤم في القاموس.

«يعني أنك لا تريد الاعتذار؟».

«بإمكاني أن أعتذر عن تفكيري المشتت حيث كان بالي مشغولاً بالسيد بوديتش ورادار وهذا المكان. يمكنني الإسهام بكثير من الأمور إن أتيح لي الوقت. لذا فرغت نفسي».

صمت لوهلة كي يستوعب ما قلت، ثمّ قال: «لم أستشف السبب الكامن وراء شعورك بضرورة فعل هذا، فهمت القسم المتعلق بالاعتناء بالكلبة فهي وصية، ولكنك لا تفرق بين بوديتش وآدم».

ماذا كان يتوجب عليّ أن أجيبه على هذا الكلام؟ هل كان يفترض بي القول إني أقسمت أن أسير على الصراط المستقيم؟ وحتى وإن لم يستخف بي (ولا بدّ من أنه كان سيضحك) كان سيقول لي إن هذا التفكير خاص بالأطفال والإنجيليين ومدمني التلفاز الأرضي الذين يؤمنون بقدرة الوسادة السحرية أو الحمية الغذائية على شفائهم من أمراضهم. وكان أسوأ احتمال هو أنه سيعتقد، على الأرجح، أنني أستخف بمحاولاته الجاهدة في الإقلاع عن الشرب.

وكان هناك شيء آخر: كان هذا أمراً شخصياً وخاصاً بي فحسب.

«تشارلي؟ أما زلت على الخط؟».

«نعم كل ما أستطيع قوله هو أنني أريد أن أبذل ما بوسعي حتّى يستطيع الوقوف على ساقيه مجدداً».

تنهد أبي وقال: «إنه ليس طفلاً وقع عن شجرة تفاح وكسر ذراعه، إنه عجوز ولعله لن يقف على ساقيه مجدداً، هل فكرت في هذا؟» لم أفكر ولم أرَ ضرورة لذلك. «تعرف ما يقولونه في برنامجك: عش كل يوم بيومه».

قهقه وقال: «ونقول أيضاً إن الماضي تاريخ والمستقبل مجهول».

«إنه قول رائع يا أبي، هل نحن متفقان بخصوص كرة القاعدة؟».

«أجل، ولكن الوصول إلى فريق الولاية كان سيغني سيرتك الذاتية الجامعية، أنت تعرف هذا أليس كذلك؟».

«أجل».

«ماذا عن كرة القدم؟ هل تفكر في تركها هي الأخرى؟».

«ليس في الوقت الراهن»، فعلى الأقل لا يفترض بي التعامل مع المدرب هاركنس في تمارين كرة القدم. «يمكن أن يتحسن السيد بوديتش بحلول بدء التمارين، أي في شهر آب تقريباً».

«وقد لا يتحسن».

وافقته وقلت: «قد لا يتحسن، إن المستقبل مجهول».

«إنه مجهول فعلاً، حين أفكر في تلك الليلة التي ذهبت فيها أمك إلى زيبي...».

انقطع كلامه ولم أستطع التفكير بشيء لأقوله.

«افعل شيئاً من أجلي يا تشارلي، جاء مراسل من ذا ويكلي سان وطلب رقمك. لم أعطه إياه، ولكنني أخذت رقمه، يريد أن يجري معك مقابلة بخصوص إنقاذ بوديتش، أعتقد أن عليك مقابلته».

«لم أنقذه في الواقع، إن رادار هي...».

«يمكنك أن تقول له هذا، ولكن إن سألتك الجامعة عن سبب تركك فريق كرة القاعدة فسيكون هذا المقال...».

«فهمت الأمر، أعطني رقمه».

أرسل لي الرقم، وحفظته في جهات اتصالي.

«هل ستعود إلى المنزل لتناول العشاء؟».

«حالما أُقدّم لردار عشاءها».

«حسناً، أحبك يا تشارلي».

قلت له إنني أحبه بدوري، وكان هذا صحيحاً. كان أبي رجلاً صالحاً، عانى لفترة، ولكنه تغلب على الصعاب، وهذا شيء لا يقدر عليه الجميع.

8

بعد أن أطعمت رادار، وقلت لها إنني سأعود في الصباح الباكر، توجهت إلى المستودع. لم أرد أن أفعل ذلك حيث كان هناك شيء مريب حول ذلك المبنى عديم النوافذ، في ليلة ظلماء من شهر نيسان، ولكنني أجبرت نفسي على ذلك. وقفت أمام الباب الموصد وأنصت، لم أسمع صوت شطب أو همهمة غريبة تشبه صوت رجل فضائي في فيلم خيال علمي، ولم أرد أن أضرب الباب بقبضتي، لذا أجبرت نفسي على فعل ذلك.

ضربته مرتين وبقوة.

لم أسمع شيئاً فارتحت.

ركبت دراجتي، وانطلقت إلى التل شارع سيكامور، ثمّ ألقيت بقفازي على رف خزانتي. نظرت إليه، ثمّ أغلقت باب الخزانة، كانت كرة القاعدة لعبة جيدة، لا شيء يضاهي تصدر الجولة التاسعة، وضرب كرة في الفراغ بين المدافعين، ولا شيء يضاهي العودة إلى المنزل في الباص مع الضحكات والمزحات والهتافات بعد نصر كبير في مباراة نهائية. حسناً، سأعترف؛ لقد ندمت قليلاً. فكرت في قول بوذا ذاك: «يتغير الحال». قررت أن كماً كبيراً من الحقيقة يكمن في هاتين الكلمتين الصغيرتين. كان هناك كم هائل جداً.

اتصلت بذلك المراسل، كانت ذا ويكلي سان جريدة حرة تنشر بعض الأخبار المحلية المثيرة للاهتمام، وبعض المقالات عن الرياضة بين كم هائل من الإعلانات. لطالما كان هناك رزمة كبيرة منها قرب باب زيبي مع لافتة كتب عليها: خذ واحدة، وكتب قربها شخص ظريف: خذها كلها. كان اسم الصحفي بيل هاريمان. أجبت عن أسئلته، وعزوت مجدداً معظم الفضل لرادار. سأل السيد هاريمان إن كان بوسعه أن يلتقط صورة لنا.

«يا إلهي، لا أعرف، عليّ أن أحصل على موافقة السيد بوديتش وهو في المستشفى».

«هل يمكنك أن تسأله غداً أو بعد غد؟ عليّ أن أقدم مقالي قريباً فأنا أنوي نشره في إصدار الأسبوع القادم».

«سأقوم بهذا إن استطعت حيث إنهم سيجرون له عملية أخرى، ولعلهم لن يسمحوا لي بزيارته، ولا يمكنني أن أوافق على طلبك من دون موافقته». لم أرد أن يغضب مني السيد بوديتش، فقد كان شديد البأس، سريع الغضب. بحثت عبر الإنترنت عن مصطلح يماثل حالته ووجدت مصطلح المسنثروبيا.

«فهمتك، فهمتك. أبقني على اطلاع بطريقة أو بأخرى وبأقرب وقت ممكن. ألست الفتى الذي سجل هدف الفوز على ستانفورد بريب في توركي بول في شهر تشرين الثاني الماضي؟»

«أجل، ولكنها لم تكن مباراة ضمن أفضل عشر فرق لسبورتس سينتر أو أي شيء. كنا على الياردة الثانية من طرفهم، ورميت الكرة فحسب».

ضحك وقال: «يا لك من متواضع! يعجبني هذا فيك، اتصل بي يا تشارلي».

قلت له: سأفعل ذلك. ونزلت كي أشاهد التلفاز مع أبي قبل أن أدرس، وتساءلت عن حال رادار. حسناً، لقد تأملت أن أتآلف مع روتين حياة جديد. فكّرت في قول بوذا مجدداً، فكان قولاً جديراً بالتأمل.

الفصل الرابع
زيارة السيد بوديتش- آندي تشين- السرداب- في أخبار أخرى- لقاء في المستشفى.

1

حين وصلت في صباح اليوم التالي إلى المنزل رقم 1 في شارع سيكامور، كان ترحيب رادار حماسياً، ولكن ليس باللهفة المعتادة، وهذا ما جعلني أعتقد أنها بدأت تتعود النظام الجديد. قضت حاجتها الصباحية وتناولت فطورها (اشترى لها أبي خمسة وعشرين رطلاً من طعامها الخاص) ثمّ أرادت أن تلعب بالقرد. كان لديّ متسع من الوقت، بعد أن تعبت من اللعب، لذا دخلت غرفة المعيشة لأرى إن كان التلفاز القديم يعمل. ضيعت بعض

الوقت في البحث عن جهاز التحكم عن بعد، ولكن تلفاز السيد بوديتش القديم كان من مرحلة سبقت وجود جهاز تحكم عن بعد للتلفاز، كان هناك زران كبيران تحت الشاشة، كان على الزر الأول بعض الأرقام - اعتقدت أنها تعود لأرقام القنوات - لذا ضغطت الزر الذي كان على اليسار.

لم تكن همهمة التلفاز مزعجة كهمهمة المستودع، ولكنها كانت مقلقة. تراجعت قليلاً، وتمنيت ألا ينفجر. وبعد برهة ظهر على الشاشة برنامج توداي، وكان مات لوير وسافانا غوثري يحاوران مجموعة من السياسيين. لم تكن دقة الشاشة 4 آلاف بكسل أو حتّى ألف بكسل، ولكنها كانت واضحة إلى حدّ ما، حاولت أن أحرك الهوائي الذي أطلقت عليه السيدة سيلفيوس لقب أذني الأرنب، أدرته في اتجاه فازدادت الصورة وضوحاً أدرته في اتجاه آخر واختفى برنامج توداي واستبدلت به عاصفة ثلجية، نظرت خلف الوحدة.

كان القسم الخلفي مليئاً بالثقوب لتنفذ منها الحرارة -وكان هذا منطقياً- ورأيت منها التوهج البرتقالي للأنابيب، كنت على ثقة أنها هي منبع الهمهمة.

نزعتها وتساءلت عن مدى الإزعاج الذي يحدث كلما أردت أن تغير القناة. قلت لرادار إن عليّ الذهاب إلى المدرسة، ولكنني احتجت لصورة أخرى أولاً، سلمتها القرد.

«هل تمانعين في أن تضعيه في فمك؟ ستكون صورة لطيفة».

لبت رادار طلبي بسرور.

2

وصلت إلى المستشفى قرابة الظهيرة لأنني أقلعت عن تدريبات كرة القاعدة، سألت عند طاولة الخدمة إذا كان مسموحاً للسيد بوديتش باستقبال الزوار، وقلت إن إحدى الممرضات أخبرتني أنه سيجري عملية

أخرى. تفحصت الموظفة شيئاً على جهازها، وقالت لي إنني أستطيع زيارته، وحين اتجهت إلى المصعد قالت لي أن أنتظر فكان عليّ أن أملأ استمارة ما، كانت تطلب رقم هاتفي وبياناتي لاستخدامها في حالة الطوارئ. كان المريض المدرج هو هاورد أدريان بوديتش وكتب اسمي على هذا النحو: تشارلز ريد.

سألتني الموظفة: «هذا أنت، أليس كذلك؟».

«أجل، ولكن كنيتي كتبت بشكل خاطئ»، مسحته وكتبت: ريد، «هل طلب منكم أن تتصلوا بي أنا؟ أليس لديه أحد آخر كأخ أو أخت؟ لا أعتقد أنني قد بلغت السن المناسبة لاتخاذ أي قرار مثل...». لم أرد أن أكمل وهي فهمت ما أقصد.

«لقد وقع طلب دي.إن.آر قبل أن يخضع للعملية، إن هذه الاستمارة تستخدم في حال أراد منك أن تحضر له شيئاً».

«ما هو طلب دي.إن.آر؟»

شرحت لي عن طلب عدم الإنعاش ذاك، كان شيئاً فصّلت عدم سماعه. ولم تجبني عن سؤالي عن إخوة أو أقرباء السيد بوديتش ولعلها لم تكن تعرف - ولِمَ كان عليها أن تعرف؟- ملأت الاستمارة بعنوان منزلي وبريدي الإلكتروني ورقم هاتفي المحمول. صعدت بعدها إلى الأعلى، وفكّرت إن هنالك أشياء لا تعد ولا تحصى لا أعرفها عن هاورد أدريان بوديتش.

3

كان مستيقظاً ولم تكن ساقه على النقالة، ولكن من خلال الثقل في لسانه، والنظرة الدامعة في عينيه، اكتشفت أنه كان مخدراً تماماً.

قال: «أنت مجدداً»، ولم يكن كلامه يرادف لقد سررت بمجيئك يا تشارلي تماماً.

وافقته وقلت: «أنا مجدداً».

عندها ابتسم. إن كانت معرفتي به أكثر عمقاً كنتُ لأقول له إن عليه أن يبتسم «اسحب كرسياً وقلْ لي لماذا تبدو هكذا».

كان هناك غطاء يصل إلى خصره، نزعه وكشف عن جبيرة معدنية تغطي ساقه من أخمصها إلى أعلى فخذه. وكانت هناك أسياخ تخرج من لحمه، وكانت نقاط الالتقاء مغلفة بأشياء مطاطية كانت يحيط بها دم جاف. كانت ركبته مضمدة، وبدت بحجم رغيف خبز، اختفت أكثر الأسياخ داخل الأغلفة المطاطية.

قهقه عندما رأى التعبير على وجهي: «يبدو كأنه جهاز تعذيب في محاكم التفتيش أليس كذلك؟ يدعى هذا الجهاز بجهاز التثبيت الخارجي».

«هل تتألم؟» فكرت في أن هذا السؤال كان أغبى سؤال في العام، فقد كانت الأسياخ المعدنية تخرج من عظام ساقه.

«بالطبع، ولكن يوجد هذا لحسن الحظ»، رفع يده اليسرى، كان يحمل بها أداة صغيرة بدت وكأنها جهاز التحكم الذي لم يحظَ به تلفازه التقليدي. «إنها المضخة المسكنة، قالوا لي إنها ستساعدني على تسكين الألم ولكن ليس بالقدر الذي يوصلني إلى الانتشاء حيث إنني لم أتناول أي مسكن في حياتي أقوى من الأمبرين. أعتقد أنني منتش وأحلق في السماء».

قلت له: «وأنا أعتقد ذلك»، هذه المرة لم يكتفِ بالقهقهة، بل ضحك بصوت عالٍ، وضحكت معه.

«ستؤلمني على ما أعتقد»، لمس الجهاز الذي شكل سلسلة حلقات حول ساق داكنة وتتشح بالكدمات، لدرجة أنني تألمت بمجرد النظر إليها.

«قال لي الطبيب الذي ثبت لي هذا الجهاز في الصباح الباكر إن هذه الأجهزة قد اخترعها الروس خلال معركة ستالينغراد»، لمس أحد الأسياخ المعدنية فوق الحشوة الدامية، «صنع الروس هذه الحلقات المعدنية من أسياخ الدراجات».

«متى سينزعون هذا الجهاز؟».

«في غضون ستة أسابيع إذا كنت محظوظاً وسريع الشفاء، وفي غضون ثلاثة أشهر إذا لم أكن محظوظاً. لقد أعطوني عدة مترفة وأعتقد أنهم قد استخدموا التيتانيوم أيضاً، ولكن بحلول الوقت الذي سينزع فيه جهاز التثبيت ستكون ساقي قد تصلبت، قالوا لي إن العلاج الفيزيائي سيمرنها كما قالوا لي إن هذا العلاج سيسبب بعض الإزعاجات، وما دمت على دراية بنيتشه فسيمكنك تفسير معنى هذه العبارة».

«أعتقد أنهم يقصدون أنك ستتألم بشكل لا يوصف».

كنت أتمنى أن يضحك مجدداً – أو يقهقه على الأقل - ولكنه اكتفى بالابتسام، وضغط مرتين على جهاز التحكم. «أعتقد أنك محق، إن كنت محظوظاً بما فيه الكفاية للتخلي عن لفائف الموت في العملية، كنت سأوفر على نفسي تلك الإزعاجات».

«لا تقصد هذا فعلاً».

قطّب حاجبيه اللذين كانا رماديين وكثين: «لا تؤول قصدي فهذا يهينني ويظهرك مغفلاً. أعلم ما أواجهه»، ثمّ قال وكأنه مجبر: «شكراً لزيارتك، كيف حال رادار؟».

«بخير»، أريته الصور الجديدة التي التقطتها، تأمل صورة تجلس فيها رادار وهي تضع القرد في فمها. وأخيراً، أعاد لي هاتفي المحمول.

«هل تريد أن أطبع لك نسخة لأنه ليس لديك هاتف محمول؟».

«سأسر بهذا طبعاً، شكراً على إطعامك لها وعطفك عليها، أنا متأكد أنها تثمن هذا كثيراً وأنا أيضاً».

«أنا أحبها يا سيد بوديتش...».

«هاورد».

«هاورد، لقد نسيت. أريد أن أشذب أعشابك إذا لم يكن لديك مانع، هل هناك جزازة عشب في المستودع؟».

ارتسمت ملامح الحذر على وجهه، ووضع جهاز التحكم على السرير وقال: «كلا، ليس هناك شيء في المستودع، ذو فائدة بالطبع».

لماذا كان المستودع مقفلاً؟ كان هذا سؤالاً خطيراً وعرفت أنه يجدر بي ألا أطرحه.

«سأحضر جزازتنا إذاً، نعيش في نهاية الشارع».

تنهد وكأن المصاعب لا تأتي فرادى، لا بدّ أن هذا كان شعوره الحقيقي بعد اليوم الذي مر به. «لماذا تريد أن تفعل هذا؟ هل تريد أن تتقاضى أجراً؟ هل تريد عملاً؟».

«كلا».

«لماذا إذاً؟».

«لا أود أن أتكلم عن الأمر، لا بدّ أن لديك بعض الأمور التي لا تود أن تفصح عنها أليس كذلك؟». كعلبة الطحين مثلاً أو المستودع.

لم يقهقه، ولكنه ابتسم ابتسامة صفراء: «أفهمك تماماً، أهذا متعلق بعادات الصينيين؟ كأن تكون مسؤولاً عن حياة شخص بعد أن تنقذها؟».

«كلا»، لقد فكرت في حياة أبي، «هل يمكن ألا نتطرق إلى هذا الموضوع؟ سأجز عشبك، ولعلني سأصلح السياج إن لم يكن لديك مانع ».

نظر إليّ مطولاً، ثمّ قال باستبصار أخافني قليلاً: «هل أسدي لك معروفاً إذا وافقت؟».

ابتسمت وقلت: «في الواقع، أجل».

«حسناً إذاً، ولكن الجزازة بعد أول جولة لها مع هذه الأعشاب الطويلة ستتعطل؛ هناك أدوات عدة في السرداب، إن معظمها لا يفيد، ولكن هناك منجلاً يمكن أن يقطع الأعشاب كي يسهل جزها، إذا أزلت عنه الصدأ وشحذته قليلاً، لا بدّ من أن هناك مشحذاً على المنضدة، لا تدع رادار تنزل على الدرج فهو منحدر ويمكن أن تقع».

«حسناً، ماذا عن السلم؟ ماذا عليّ أن أفعل به؟».

«ضعه تحت الشرفة السفلية، إن تركته مكانه ما كنت لأدخل المستشفى، يا لأولئك الأطباء ولأخبارهم السيئة، هل هناك شيء آخر؟».

«حسناً... هناك مراسل من ذا ويكلي سان يريد أن يكتب مقالاً عني».

تأفف السيد بوديتش وقال: «يا لتلك الأساليب المعهودة، هل ستوافق على طلبه؟»

«يريد مني أبي أن أوافق حيث قال إنه سيفيد ملفي عندما أتقدم إلى الجامعة».

«لعلها ستكون مفيدة، ولكنها... ليست بمقام ذا نيويورك كرايمز أليس كذلك؟».

«طلب مني الرجل صورة لي مع رادار، فقلت له إنني أريد موافقتك. ولكنني أعتقد أنك لن تفضل هذا، ولا مانع لديّ في ذلك».

«الكلبة البطلة، هل هذه الناحية التي يريدها أم التي تريدها أنت؟».

«أعتقد أن الفضل يعود لها».

فكّر السيد بوديتش في الأمر قليلاً وقال: «حسناً، ولكنني لا أريده أن يدخل إلى ملكيتي، قف معها على الممشى فيمكنه أن يلتقط صورته من البوابة أو خارجها»، تناول جهاز التحكم وكبس عليه مرتين، ثم قال على مضض «هناك لجام يتدلى من علاقة قرب الباب الأمامي، لم أستخدمه منذ وقت طويل، لعلها ستستمتع بنزهة إلى التل... ولكن مع اللجام. إذا صدمتها سيارة لن أسامحك أبداً».

قلت له إنني أتفهم هذا الأمر، وكنت أتفهمه حقاً؛ لم يكن لدى السيد بوديتش إخوة أو أخوات أو زوجة سابقة أو زوجة متوفاة، كانت رادار هي مؤنسته الوحيدة.

«ولا تبتعد كثيراً بها، تعودت قطع أربعة أميال في السابق، ولكن تلك الأيام قد ولت. عليك أن تذهب، أعتقد أنني سأنام حتّى يحضروا لي القمامة التي يدعونها بالعشاء».

«حسناً، سررت برؤيتك». لقد سررت حقاً، أحببته ولا أظنكم تنتظرونني لأشرح لكم السبب، ولكنني سأخبركم في جميع الأحوال، أعجبت به بسبب حبه لرادار ولأنني أحبها أنا الآخر.

نهضت، وفكرت في أن أربت يده، ولكنني لم أفعل، واتجهت إلى الباب.

قال لي: «يا إلهي! هناك شيء آخر، إنه شيء تمكنت من تذكره الآن على الأقل؛ إذا كنت هنا في يوم الاثنين - ولعلني سأكون هنا - ستصل المواد من البقالية».

«توصيل من كروغيرز؟».

رمقني بنظرة الاستغباء مجدداً وقال: «تيلير أند سونز».

كنت قد سمعت بتيلير، ولكننا ما كنا نرتاده لأنه كان يصنف على أنه «متجر فخم» أي باهظ الثمن. راودتني ذكرى مشوشة وهي أن أمي اشترت لي قالب حلوى منه بمناسبة عيد ميلادي حين كنت في الخامسة أو السادسة؛ كان عليه زخرفة من الليمون كما كانت الكريما تغطي طبقاته، اعتقدت أن ذلك القالب كان أشهى قالب حلوى في العالم.

«يأتي الرجل صباحاً في معظم الأوقات، هل تستطيع أن تتصل بهم وتطلب منهم أن يؤجلوا الطلبية إلى المساء بحيث تكون موجوداً؟ لديهم طلب باسمي ».

«حسناً».

وضع يداً على جبينه، اعتقدت أنها كانت ترجف قليلاً، ولكنني لم أكن متأكداً لأنني كنت قرب الباب. «وعليك أن تدفع لهم أيضاً، هل يمكنك فعل هذا؟».

«بالطبع»، كنت سأطلب من أبي أن يعطيني شيكاً فارغاً، وسأكتب عليه المبلغ المطلوب.

«أخبرهم أن يوقفوا الطلب الأسبوعي حتّى أطلب منهم ذلك بنفسي»، مرر يده ببطء على وجهه وكأنه يحاول أن يمهد التجاعيد؛ كانت محاولة فاشلة ولا أعتقد أنها كانت محاولة في المقام الأول. «يا إلهي! كم أكره أن أعتمد على الآخرين، لماذا صعدت على ذلك السلم؟ لا بدّ أنني كنت أتعاطى».

قلت له: «ستكون على ما يرام» ولكن في طريقي إلى المصعد، ظللت أفكّر في شيء قاله حين تكلمنا عن السلم: يا لأولئك الأطباء وأخبارهم السيئة، لعله كان يقصد عن الفترة اللعينة التي ستستغرقها ساقه

اللعينة لتتماثل للشفاء أو لعله كان يتأفف من فكرة أن يرافقه معالج فيزيائي (أو متلصص في هذه الحال) في المنزل.

ولكنني لم أتوصل إلى نتيجة حاسمة.

4

اتصلت ببيل هاريمان، وقلت له إن بوسعه أن يلتقط صورة لي ولرادار إن لم يفت الأوان بعد، وأخبرته بشروط السيد بوديتش فوافق عليها.

«يا له من رجل منطوٍ أليس كذلك؟ لم أستطع أن أعثر على شيء عنه في ملفاتنا أو في ذا بيكون».

«لا أدري، هل يناسبك صباح يوم الأحد؟».

اتفقنا على أن نلتقي في تمام الساعة العاشرة صباحاً. ركبت دراجتي واتجهت إلى المنزل، وكنت أقود بسهولة ولكنني أفكّر بصعوبة؛ فكّرت في رادار ولجامها الذي كان معلقاً قرب الباب الأمامي، وفكرت في أنني لن أبتعد عن المنزل الكبير القديم، وحين فكرت في الأمر أكثر لاحظت أن طوق رادار كان مجرداً من اسمها، أي ربما لا توجد رخصة خاصة تشير إلى أنها ليست مريضة بالكلَب أو أي شيء آخر، هل سبق لرادار أن ذهبت إلى طبيب بيطري؟ رجحت أنها لم تذهب يوماً إلى هناك.

كان السيد بوديتش يطلب توصيل مواد البقالية وأعتقد أنها طريقة الطبقة العليا للحصول على البيرة والحلوى، كما أن متجر تيلر أند سونز كان مكاناً للطبقة العليا ويتسوّق فيه كثير من الأفراد الذين يملكون رُزماً خضراء لا تعد ولا تحصى. قادني هذا لأن أتساءل كما تساءل أبي عن عمل السيد بوديتش قبل أن يتقاعد، فقد كانت الطريقة التي يتكلم بها راقية وكأنه كان أستاذاً. ولكنني لا أعتقد أن الأساتذة المتقاعدين يستطيعون تحمل تكاليف التسوّق في متجر يتفاخر باحتوائه على سرداب للنبيذ. كان يملك تلفازاً

قديماً ولا يملك حاسوباً (كنت مستعداً على أن أراهن على هذا) ولا هاتفاً محمولاً ولا سيارة، عرفت اسمه الأوسط ولم أعرف عمره.

اتصلت بتيلير أند سونز حين وصلت إلى المنزل، وحددت موعداً لاستلام مواد البقالية في تمام الساعة الثالثة عصر يوم الاثنين. فكّرت في أن آخذ فروضي المنزلية إلى منزل بوديتش حين طرق آندي تشين الباب الخلفي للمرة الأولى منذ فترة طويلة. حين كنا صغيرين ما كنت وآندي تشين وبيرتي بيرد نفترق، حتّى أننا أطلقنا على أنفسنا لقب الفرسان الثلاثة. ولكن عائلة بيرد انتقلت إلى ديربورن (ولعل هذا الانتقال أفادني كثيراً). من جهته، كان آندي عقلاً واعداً وكان يأخذ العديد من الحصص المتقدمة بما فيها الفيزياء في فرع جديد من جامعة إيلينوي. لقد كان بطلاً رياضياً بالتأكيد، وتفوّق في رياضتين لم ألعبهما؛ كانت كرة المضرب إحداها والأخرى كرة السلة التي كان يدربها المدرب هاركنس، فاستطعت أن أستشف سبب قدوم آندي.

تفحص آندي محتويات برادنا ليرى إن كان هنالك أشياء لذيذة ثمّ قال: «يقول المدرب إن عليك معاودة لعب كرة القاعدة». تناول أخيراً بقايا دجاج كانغ باو. «يقول إنك تخذل الفريق بأكمله».

قلت له: «يا إلهي! احزم حقائبك، فسنمشي في طريق الإحساس بالذنب، لا أعتقد هذا».

«قال إنه ليس عليك أن تعتذر».

«ما كنت أُفكر بالاعتذار أصلاً».

قال آندي: «إنه يفقد عقله، أتعرف بما يناديني؟ بالخطر الأصفر. وكأنه يقول لي: انطلق أيها الخطر الأصفر واحرس الوغد الكبير».

اعتراني الفضول والفزع في الوقت ذاته فسألته: «هل يمكنك تحمل هذا؟».

«يعتقد أنه يمدحني وأجد هذا مضحكاً. أضف إلى ذلك أنني سأغادر هيلفيو بعد موسمين لألعب مع هوفسترا. ها أنا قادم أيتها الشعبة1! سأذهب في جولة كاملة يا عزيزي! سأتوقف عن كوني الخطر الأصفر، هل أنقذت حياة ذلك الرجل حقاً؟ هذا ما أسمعه في المدرسة».

«لقد أنقذته كلبته، لقد اتصلت بالطوارئ وحسب».

«ألم تنتزع عنقك؟».

«كلا، إنها كلبة طيبة، كما أنها عجوز».

«لم تكن عجوزاً حين رأيتها؛ في ذلك اليوم كانت متعطشة للدماء. هل الوضع مريب داخل المنزل؟ هل يوجد حيوانات محنطة أو ساعة بعيون قطة تتبعك أينما تذهب؟ يرجح الأولاد أنه قاتل متسلسل».

«إنه ليس بقاتل متسلسل كما أن المنزل ليس مريباً». كان هذا صحيحاً حيث إن المستودع هو من كان مريباً، كما أن صوت الهمهمة كان مريباً. أما بالنسبة إلى رادار: لقد عرفت هي الأخرى أن تلك الأصوات كانت مريبة.

قال آندي: «حسناً، بلغتك الرسالة. هل لديك شيء آخر لآكله؟ كالبسكويت مثلاً؟»

«كلا»، كان البسكويت في منزل السيد بوديتش بالزبدة وبحلوى الخطمي ولا بدّ أنه اشتراها من تيلير أند سونز.

«حسناً، أراك لاحقاً يا صاح».

«أراك لاحقاً أيها الخطر الأصفر».

تبادلنا النظرات ثمّ انفجرنا ضحكاً. شعرت وكأنني عدت إلى سن الحادية عشرة.

5

يوم السبت، التقطت صوراً مع رادار. كان هناك لجام فعلاً في الردهة الأمامية، وكان معلقاً قرب معطف شتوي، وكان تحته حذاء مطري مطاطي. فكّرت في أن أفتش جيبي معطفه - لأرى ماذا يمكن أن أجد. أتفهمونني؟ - وقلت لنفسي يجب ألا أكون متلصصاً. كان هناك طوق إضافي متصل باللجام، ولكن دون اسم. أي بالنسبة للإدارة البلدية كانت كلبة السيد بوديتش تختبئ ها-ها عن الرادار. سرنا على الممشى، وانتظرت أن يأتي بيل هاريمان. وصل في الوقت المحدد تماماً وكان يقود سيارة موستانغ قديمة، وبدا وكأنه قد تخرج من الجامعة السنة الماضية.

زمجرت رادار قليلاً كعادتها حين ركن سيارته وخرج منها. قلت لها إنه صديق، فهدأت قليلاً. ولكنها أخرجت أنفها من حديد البوابة لتشتمه وتتفحصه. زمجرت مجدداً حين مد يده عبر البوابة ليصافحني.

عاين الوضع وقال: «تبدو حارسة جيدة!».

«أعتقد أنها كذلك».

توقعت أن يكون معه كاميرا كبيرة - لعل هذه الفكرة تراءت لي من فيلم عرض على قناة تورنر كلاسيك موفيز حول المراسلين الصحفيين النشطاء؛ ولكنه التقط الصورة بواسطة هاتفه. وبعد أن التقط صورتين أو ثلاث سألني إن كان بوسعها أن تجلس، «إن استطاعت أن تجلس اجثُ على ركبتك قربها، ستكون صورة جميلة لكلبة وصاحبها».

قلت له: «ليست كلبتي» ولكنني كنت أفكر أنها أصبحت صاحبها لهذه الفترة على الأقل. طلبت من رادار أن تجلس، ولكنني لم أكن واثقاً من أنها

ستستجيب لي. جلست حالاً، وكأنها كانت تنتظر هذا الطلب، فجلست بالقرب منها. لاحظت أن السيدة ريتشلاند قد خرجت من منزلها لتراقبنا ووضعت يدها لتحجب الشمس عن عينيها.

قال هاريمان: «ضع ذراعك حولها».

وحين فعلت ذلك، لعقتْ وجنتي. أضحكني هذا، وكانت هذه هي الصورة التي نشرت في العدد التالي من ذا سان، ولم تقتصر الصورة على تلك الجريدة كما تبيّن لاحقاً.

سألني هاريمان وهو يشير إلى المنزل: «كيف الوضع في المنزل من الداخل؟».

رفعت كتفي وقلت: «مثل كل منزل على ما أعتقد، كان عادياً، ولكنني لم أكن متأكداً حيث إنني لم أر سوى ممشى المخطوطات القديمة، والمطبخ، وغرفة المعيشة، والردهة الأمامية.

«ليس هناك شيء خارق للطبيعة أليس كذلك؟ لأنه يبدو مريباً».

فتحت فمي لأقول إن التلفاز يعود للأيام التي سبقت البث الكبلي والبث المباشر ولكنني تراجعت. لاحظت أن هاريمان قد تجاوز مرحلة التقاط الصور وتطرق لإجراء مقابلة، أو أنه حاول إجراء مقابلة على الأقل حيث إنه لم يكن حذقاً لأنه كان مبتدئاً.

«كلا، إنه منزل عادي، يجدر بي أن أذهب».

«هل ستهتم بالكلبة إلى أن يخرج السيد بوديتش من المستشفى؟».

كنت أنا من رفع يده هذه المرة. لم تزمجر رادار، ولكنها كانت مستعدة في حال حصل شيء لم يكن في الحسبان. «أتمنى أن تكون الصور جيدة، هيّا بنا يا رادار».

اتجهت إلى الباب، وحين نظرت إلى الخلف، وجدت أن هاريمان كان يعبر الشارع ليتكلم مع السيدة ريتشلاند، ولم يكن بوسعي فعل شيء حيال هذا الأمر. لذا، ذهبت إلى الخلف وكانت رادار ورائي، لاحظت أنها تمرنت بعد أن مشت قليلاً.

وضعت السلم تحت الشرفة الخلفية، وكان هناك مجرفة للثلج، ومقصات بستنة صدئة كالبوابة، ولعلها صعبة الاستخدام مثلها أيضاً. راقبتني رادار من حيث كانت تقف وسط الدرج، وكانت لطيفة لدرجة أنها أجبرتني أن ألتقط لها صورة أخرى. أصبحت متعلقاً بها للغاية. عرفت هذا تماماً، ولم أخجل من الاعتراف به.

في المطبخ كان هناك عدة تنظيف تحت المجلى، ورزمة مرتبة من أكياس حزم الخضراوات وعليها شعار تيلير. كما كان هناك قفازات مطاطية. وضعت جوزاً وتناولت كيساً وذهبت لأنظف الروث، لقد نظفت العديد منه.

يوم الأحد، طوقت رقبة رادار باللجام مجدداً، ومشيت معها على التل إلى أن وصلنا إلى منزلنا. في البداية، مشت ببطء بسبب وركيها المتأذيين بالتهاب المفاصل، ولأنها لم تبدُ معتادة على مغادرة المنزل، ظلت تنظر إليّ لتأخذ الأمان ولامس هذا قلبي. ولكن بعد فترة أصبحت تشق طريقها بسهولة وثقة وتوقفت لتشتم أكشاك الهاتف وتقرفص هنا وهناك كي تعرف الكلاب الأخرى أن رادار كلبة بوديتش قد مرت من هنا.

كان أبي في المنزل. في البداية، خافت رادار منه، وزمجرت ولكن حين مد أبي يده لها اقتربت منه لتشمها. حلت نصف قطعة نقانق القضية برمتها، بقينا قرابة الساعة وسألني أبي عن جلسة التصوير، وضحك حين أوضحت له كيف حاول هاريمان أن يسألني عن هيئة المنزل من الداخل وكيف جعلته يصمت.

قال أبي: «سينجح أكثر إذا التزم بالأخبار، إن ذا ويكلي سان هي المكان المناسب ليبدأ ببناء سيرته المهنية».

بحلول هذا الوقت، كانت رادار قد غفت قرب الأريكة التي تعوّد أبي أن يفقد أبي عليها وعيه بسبب الشرب، انحنى وداعب شعرها، «لا بد من أنها كانت شقية حين كانت في أوج شبابها».

فكرت في قصة آندي حول الوحش الرهيب الذي قابله قبل أربع أو خمس سنوات ووافقت أبي.

«يجب أن تتبين إن كان لديه أدوية لالتهاب مفاصل الكلاب، كما يجب أن تأخذ دواء ضد ديدان القلب».

«سأبحث في الأرجاء»، لقد أزلت لجامها، ولكنني ثبته بطوقها. رفعت رأسها فقلت: «علينا أن نعود».

«ألا تريد أن تبقيها هنا طوال اليوم؟ تبدو مرتاحة».

«كلا، يجب عليّ أن أعيدها».

إذا سألني عن السبب، فكنت سأقول له الحقيقة: لأنني لا أعتقد أن هاورد بوديتش سيرغب بهذا، لكنه لم يسألني. «حسناً، هل تريد توصيلة؟».

«لا داعي لذلك، أعتقد أنها ستكون على ما يرام إذا مشينا ببطء».

وكانت على ما يرام فعلاً. وحين صعدنا التل بدت مسرورة باستنشاق رائحة عشب مختلف عن العشب الذي تعودت عليه.

6

عصر يوم الاثنين، رُكنت فان خضراء مرتبة عليها شعار تيلير أند سونز (وكان قد كتب باللون الذهبي). سألني السائق عن السيد بوديتش، فأخبرته أنه وصل، فناولني الأكياس من فوق البوابة بشكل تلقائي، لذا اعتقدت أن

هذه كانت العادة فعلاً. كتبت المبلغ المطلوب على الشيك الفارغ الذي وقعه أبي -فزعت بسبب فكرة دفع مئة وخمسة دولارات لقاء ثلاثة أكياس من البقالية- ثمّ سلمته الشيك. كانت هناك أيضاً شرائح لحم ضأن ولحم مفروم وضعتها في الثلاجة، ما كنت سأتناول طعامه (باستثناء البسكويت) ولكنني ما كنت لأدعه يفسد.

بعد أن فرغت من ذلك، نزلت إلى السرداب، وأغلقت الباب خلفي، كي لا تحاول رادار اللحاق بي. لم يكن يشبه سراديب القتلة المتسلسلين على الإطلاق، ولكنه كان رطباً ويكسوه الغبار، وكأنه كان مهجوراً لوقت طويل، كان النور قادماً من مصباحي فلورسنت؛ كان الأول ينير ثمّ ينطفئ والآخر شبه ميت، وكانت الأرضية من الإسمنت الخشن. كان هناك أدوات كثيرة بما فيها المنجل الذي كان يشبه النوع الذي يحمله رجل الموت العجوز في أفلام الكرتون.

كان هناك في وسط الغرفة طاولة عمل عليها غطاء، رفعته لأنظر تحته، ورأيت أحجية صور مقطوعة مرتبة بشكل مثالي، وبدت أنها تتألف من مليار قطعة، ومن منظوري (لم يكن هناك صندوق لأقارنها معه) بدت صورة لسهل جبلي وكانت الخلفية عبارة عن جبال روكي. كان هناك كرسي قابل للطي قرب الطاولة، وكان عليه عدة قطع متناثرة، وكان يعلوه الغبار. واستشففت أن السيد بوديتش أقلع عن هذه الأحجية منذ وقت طويل.

لعله استسلم! أعترف أنني كنت سأستسلم حيث إن ما تبقى كانت سماء صافية عادية، ولم يكن هناك غيمة واحدة حتّى لتكسر النمطية. لعلني أعطيت هذا التفصيل أكبر من حجمه... ولكن لعلني لم أقصر بذكره. كان هناك شيء حزين حول هذا الأمر، لم أستطع أن أعبّر عن سبب حزني هذا، ولكنني أكبر الآن وأعتقد أن بوسعي فعل ذلك. كان حزني يدور حول الأحجية بالإضافة للتلفاز العتيق وممشى المخطوطات القديمة، وكان حزني يدور حول رجل عجوز طاردته وحدته، كما أن الغبار -على الكرسي القابل للطي

والكتب والمجلات- كان يدل على أن هذه الأمور كانت تتداعى هي الأخرى. إن الشيئين الوحيدين في السرداب اللذين بدا أنهما يُستخدمان بشكل مستمر هما الغسالة والنشافة.

غطيت الأحجية مجدداً، وتحققت من خزانة بين الفرن وخزان المياه، كانت تقليدية وفيها أدراج عديدة، وجدت بعض البراغي في درج وملاقط ومفكات في درج آخر، وحزمة من المطاط في الدرج الثالث وأزاميل ومشحذ في الدرج الرابع، وضعت المشحذ في جيبي، وتناولت المنجل وصعدت إلى الأعلى. أرادت رادار أن تقفز عليّ فأمرتها أن تبتعد قليلاً كي لا أصيبها بالشفرة.

خرجنا إلى الخلف، وعندها اكتشفت أن بطارية هاتفي المحمول على وشك النفاد. جلست على الدرج، وجلست رادار بالقرب مني. فتحت متصفح سافاري وكتبت كيف تشحذ الشفرات بواسطة المشحذ وتصفحت بعض مقاطع الفيديو حول هذا الأمر ثمّ بدأت العمل. لم يستغرق شحذ المنجل وقتاً طويلاً.

التقطت صورة لأريها للسيد بوديتش ثمّ قدت دراجتي إلى المنزل. وجدت أبي نائماً، فقدت دراجتي بعد الظهر لأطعم رادار. لقد اشتقت قليلاً إلى كرة القاعدة.

حسناً... لعلني اشتقت إليها كثيراً.

7

عصر يوم الثلاثاء بدأت قطع العشب الطويل؛ بدأت أولاً بالردهة الأمامية ثمّ انتقلت إلى القسم الخلفي. نظرت بعد ساعة إلى يدي الحمراوين، وأيقنت أن البثور ستظهر قريباً إذا لم أكن حذراً. وضعت اللجام على رادار ومشيت معها إلى منزلنا، وعثرت على قفاز أبي في المرأب. صعدنا التل ومشيت بسرعة رادار. قطعت الأعشاب من الجنب بينما نامت

رادار، ثمّ أطعمتها وعدت إلى المنزل. شوى أبي البرغر على شواية الباحة الخلفية فأكلت ثلاث شطائر، وشربت عصير الكرز المركز كنوع من التحلية.

أوصلني أبي إلى المستشفى، وانتظر في الأسفل، وأمضى وقته بقراءة التقارير ريثما أنهيت زيارتي للسيد بوديتش. لاحظت أن السيد بوديتش تناول شطيرة برغر هو الآخر بالإضافة إلى المعكرونة بالجبن ولكنه لم يتناول الكثير من كلا الطبقين، مع أنه لم يمضِ ساعتين من يومه بتقطيع الأعشاب بالمنجل. وعلى الرغم من أنه حاول أن يكون لطيفاً وهو يراقب صور رادار (بالإضافة إلى صورة المنجل وعشب باحته الأمامية الذي كان قد قطع لنصف طوله) بدا لي وكأنه يتألم كثيراً. ظل يكبس الجهاز الذي يمرر الدواء، حتّى أصدر هذا الجهاز صوت طنين في المرة الثالثة التي كبسه فيها، كالصوت الذي يصدر في مسابقة حين يجيب المتسابق إجابة خاطئة.

«يا لهذا الشيء اللعين! لقد وصلت إلى الحد الأقصى منذ ساعة، يجدر بك أن تذهب يا تشارلي قبل أن أغضب عليك لمجرد أنني بائس. عد يوم الجمعة أو السبت، لعلني أكون في وضع أفضل وقتها».

«هل أخبروك متى ستخرج من المستشفى؟».

«قالوا إنني قد أخرج يوم الأحد. أتت سيدة وقالت إنها تريد مساعدتي بالعمل على...»، ورفع يديه الكبيرتين اللتين كانتا متشحتين بالكدمات من الحقن ومثّل لي علامتي اقتباس «...خطة تماثل للشفاء، فطلبت منها أن تغرب عن وجهي، لم أقلها بهذه الوقاحة حيث إنني أحاول أن أكون مريضاً جيداً، ولكن الأمر صعب، ليس بسبب الألم وحسب بل...»، ورسم بيده دائرة ثمّ أعاد ذراعيه إلى السرير.

قلت له: «هناك كثير من الأشخاص وأنت لست متعوداً على هذا».

«إنك تفهمني، حمداً لله على هذه النعمة، كما أن هناك كثيراً من الضجة. وقبل أن تغادر تلك المرأة -كان اسمها يشبه ريفينهاغر - سألتني إذا

كان لديّ سرير في الطابق الأول من منزلي، لا أملك سريراً، ولكن الأريكة قابلة للفتح، ولكنني لم أستخدمها كسرير منذ وقت طويل، أعتقد... أنني لم أجرب استخدامها كسرير من قبل، لقد اشتريتها لأنه كان عليها حسم».

«سأعدها لك إن أخبرتني بمكان الأغطية».

«هل تعرف كيف تفعل ذلك؟».

بصفتي ابن أرمل كان مدمن كحول نشطاً كنت أعرف كيفية فعل ذلك تماماً، كما أعرف كيف أغسل الثياب وأشتري البقالية، كنت مستقلاً إلى حدّ ما. أجبته: «أجل».

«في خزانة البياضات في الطابق الثاني، هل سبق لك أن صعدت إلى الطابق الثاني؟»

أشحت بوجهي.

«حسناً، أعتقد أن هذه هي فرصتك، إنها قبالة غرفتي النوم، شكراً لك».

«لا عليك، وفي المرة الثانية التي تأتي فيها تلك السيدة قل لها إنني خطتك للتماثل للشفاء»، نهضت وقلت: «يجدر بي الذهاب لكي ترتاح قليلاً».

توجهت إلى الباب، ولكنه نادى لي باسمي، فأدرت وجهي.

«أنت أفضل ما حصل لي منذ فترة طويلة»، ثمّ قال وكأنه يتحدث إلى نفسه وليس إليّ: «سأثق بك، فليس لديّ خيار آخر».

أخبرت أبي بالجزء الذي قال فيه إنني أفضل ما حصل له، ولكنني أخفيت عنه جزء الثقة. ردعني حدسي عن البوح بذلك. عانقني أبي بذراع واحد بشدة وقبّل وجنتي وقال إنه فخور بي.

كان ذلك يوماً جيداً.

8

يوم الخميس، أجبرت نفسي على أن أطرق باب المستودع مجدداً، فلم أكن أُحب رؤية ذلك المبنى الصغير على الإطلاق. لم يطرق أحد أو يشطب على الباب، فحاولت أن أقنع نفسي بأنني تخيّلت صوت الهمهمة المريب ذاك، ولكن في هذه الحال ستكون رادار قد تخيّلته أيضاً، ولا أعتقد أن الكلاب ضليعة بالتخيّل. ومن الممكن طبعاً أن يكون ردّ فعلها صدى لردّ فعلي، أو لأقول الحقيقة: لعلها استشعرت خوفي ونفوري الحدسي.

يوم الجمعة جررت جزازة العشب الخاصة بنا إلى الشارع، وبدأت العمل في الباحة التي سبق أن جُزت، ولاحظت أنه يمكنني جعلها مقبولة بحلول عطلة نهاية الأسبوع. ستبدأ عطلة الربيع الأسبوع القادم، وخططت أن أمضي معظمها في المنزل رقم 1 في شارع سيكامور، كنت سأنظف النوافذ، ثمّ أتوجه للعمل على السياج المتداعي لأعيد تقويمه من جديد. اعتقدت أن رؤية هذه التصليحات سترفع من معنويات السيد بوديتش.

كنت أجز العشب بموازاة حافة المنزل التي تطل على شارع باين (كانت رادار في الداخل، وفضّلت أن تبتعد عن جزازة العشب ذات الصوت الهادر) حين اهتز هاتفي المحمول في جيبي، أطفأت الجزازة وقرأت: مستشفى أركاديا على الشاشة، تلقيت الاتصال وقلبي بين يدي؛ لا بدّ من أن أحداً كان سيقول لي إن حال السيد بوديتش قد تدهورت، أو بسيناريو أسوأ: كان سيقول لي إنه توفي.

كان الأمر يتعلق به بالتأكيد، ولكنها لم تكن أخباراً سيئة. سألتني سيدة تدعى ريفينزبورغر إن كان بوسعي أن آتي صباح يوم الثلاثاء في تمام الساعة التاسعة لنتكلم عن خطة الرعاية والحرص على تماثل السيد

بوديتش للشفاء، قلت لها إنني سآتي، ثمّ سألتني إن كان بوسعي أن أحضر أباً أو وصياً، قلت لها على الأرجح.

«رأيت صورتك في الجريدة مع كلبته الرائعة، يدين لكما السيد بوديتش بكثير من الفضل».

اعتقدت بأنها كانت تتكلم عن مقال ذا سان، لا بدّ أن يكون هذا صحيحاً. ولكنني ورادار ظهرنا في أماكن أخرى، أو عليّ القول إننا قد ظهرنا في كل مكان.

كالعادة، عاد أبي متأخراً حيث إنه لطالما تأخر أيام الجُمَع، وكانت معه نسخة من شيكاغو تريبيون مفتوحة على الصفحة الثانية حيث كانت تريب تنشر شريطاً جانبياً يدعى أخبار أخرى، كان يتضمن أخباراً مختصرة وأكثر تفاؤلاً وحيوية من أخبار الصفحة الأولى. عنون الخبر الذي تناولني أنا ورادار: «الكلبة البطلة والمراهق البطل». لم تصبني الدهشة برؤية نفسي في التريب ولكنني تفاجأت قليلاً. إن هذا عالم جيد وبغض النظر عن اللامبالاة المنتشرة، كان هناك آلاف من الناس يفعلون أموراً خيرة كل يوم (ولعل عددهم قد يصل إلى الملايين). لم تكن مساعدة فتى لرجل مسن كان قد وقع عن السلم وكسر ساقه أمراً مميزاً، ولكن الصورة روّجت لهذا العمل. كانت رادار على وشك أن تلعقني وكانت ذراعي حول عنقها كما كان رأسي مائلاً للخلف من شدة الضحك. وإن حق لي القول بدوت وسيماً، ما جعلني أتساءل عما إذا كانت فتاة أحلام يقظتي جينا باسكاريلي قد رأت هذه الصورة.

سألني أبي وهو يشير إلى التعليق: «أترى هذا؟» ثمّ تابع: «أ.ب، وكالة أنباء أسوشيتد برس، لا بدّ من أن هذه الصورة قد انتشرت في خمسمئة أو ستمئة صحيفة اليوم في معظم المناطق، ناهيك عن عرضها على مواقع الإنترنت. قال آندي وارهول إن الجميع سيحظون بفرصة شهر في أميركا

لمدة ربع ساعة وأعتقد أنك تمر بهذه الفترة ولكن لوقت أطول. هل تريد الذهاب إلى بينغوز لنحتفل؟»

بالطبع، وبينما كنت أتناول وجبة أضلاع اللحم (والنسخة المدعومة منها) سألت أبي إن كان بوسعه أن يرافقني إلى المستشفى غداً لنتحدث مع سيدة اسمها ريفينزبورغر، فقال: إن هذا من دواعي سروري.

9

التقينا في مكتب ريفينزبورغر. كانت معها امرأة يافعة اسمها ميليسا ويلكوكس - كانت طويلة ورشيقة وكانت تربط شعرها الأشقر بطريقة جميلة، كما كانت المعالجة الفيزيائية التي عُينت للاهتمام بالسيد بوديتش. لقد تولت الحديث، وكانت تتفحص كراسة صغيرة من وقت إلى آخر كي لا تنسى أي شيء. قالت إنه وبعد نقاش حثيث سمح لها السيد بوديتش بالدخول إلى منزله مرتين في الأسبوع للعمل على تحسين حركته ومساعدته للنهوض على ساقيه مجدداً بمساعدة العكازات الكندية أولاً - ذلك النوع الذي يحوي قبضة معدنية - ثمّ بمساعدة الووكر. كانت ستتحقق من إشاراته الحيوية للتأكد إن كان يحرز تقدماً، كما أرادت التحقق من شيء يدعى مدى رعاية الدبابيس، «وهذا شيء يجب أن تتولاه أنت يا تشارلي».

سألتها عن معنى هذا، فشرحت لي أن الأسياخ التي تخترق ساقه يجب أن تنظف باستمرار بواسطة المساحيق المطهرة. قالت إن هذه عملية مؤلمة، ولكن ليست بمستوى الألم الذي سينشأ نتيجة الالتهاب المتزايد والخطير للغرغرينا.

قالت ميليسا: «أردت أن آتي لمدة أربعة أيام في الأسبوع، ولكنه لم يقبل بهذا. إنه واضح جداً بخصوص الأمور التي يقبل بها والتي يرفضها».

قلت لنفسي: أنا خبير بطبعه هذا.

«سيحتاج مساعدة كبيرة في بادئ الأمر يا تشارلي وقال إنك ستتولى هذا الأمر».

قدمت السيدة ريفينزبورغر مداخلة للحديث وقالت: «بالنسبة إليه أنت خطته للتماثل للشفاء»، كانت تخاطبني ولكنها كانت تنظر إلى أبي، وكأنها تطلب منه أن يعارض هذا.

لم يعارضها.

فتحت ميليسا صفحة جديدة من كراستها، وكان لونها أرجوانياً، وعليها نمر صغير مزمجر في الأعلى: «قال إن هناك حماماً في الطابق الأول هل هذا صحيح؟».

«أجل»، لم أتكبّد عناء أن أقول لها إنه صغير، فهي ستكتشف الأمر في زيارتها الأولى للمنزل.

أومأت برأسها، وقالت: «كان هذا جانباً مهماً، لأنه لن يتمكن من الصعود على الدرج لفترة لا بأس بها».

«لكن هل سيتمكن من صعوده في النهاية؟»

«بالطبع، إذا بذل مجهوداً سيستطيع؛ إنه رجل متقدم في السن - وفي الواقع إنه يدعي أنه لا يعرف سنه تماماً - ولكنه في حال جيدة، لا يدخن، وقال لنا إنه لا يشرب، كما أن وزنه معقول».

قال أبي: «هذا أمر مهم».

«بالطبع، إن الوزن عامل مهم، وخصوصاً بالنسبة إلى كبار السن، الخطة هي أن يغادر المستشفى يوم الاثنين، يجب أن تثبت قضبان حماية على المرحاض قبل ذلك الوقت، هل باستطاعتك فعل ذلك في هذه العطلة؟ إن لم تستطع فعل ذلك، فسنخرجه في يوم الثلاثاء».

«أستطيع فعل هذا»، رأيت أنني سأشاهد كثيراً من مقاطع الفيديو الغريبة في مستقبلي القريب.

«سيحتاج إلى مبولة لليالي ونونية سرير لحالات الطوارئ، هل لديك مشكلة في ذلك؟».

قلت لها: أجل، ولم تكن لديّ مشكلة حقاً، لقد نظّفت القيء مرات عدة، لذا فإن رمي الغائط من النونية إلى المرحاض، لم يكن مشكلة بل تطور بالأحرى.

أغلقت ميليسا كراستها: «هناك آلاف الأشياء الأخرى؛ ولكنها أشياء صغيرة، ستساعدك هذه، تصفحها».

تناولت نشرة من الجيب الخلفي لبنطالها الجينز، لم يكن عنوانها: الرعاية المنزلية للمبتدئين أوفور داميز. ولكنها بدت كذلك، قلت إنني سأقرأها ووضعتها في جيبي الخلفي.

قالت ميليسا: «سأعرف الحاجيات الضرورية حين آتي لأرى المنزل بنفسي. فكّرت أن أهرول قرب المكان عند العصر، ولكنه مُصرّ ألا أدخل إلى المنزل قبل أن يعود».

أجل، كان السيد بوديتش عنيداً بالفعل، لقد اكتشفت هذا باكراً.

سألت السيدة ريفينزبورغر: «هل أنت متأكد من رغبتك في تولي هذا الأمر يا تشارلي؟». في هذه المرة ما كانت تعني شيئاً لأبي.

«أجل».

سألت ميليسا: «حتى وإن كنتِ ستمضين معه الليالي الثلاث أو الأربع الأولى؟ حاولت أن أناقش فكرة وحدة إعادة تأهيل – هناك وحدة تدعى

ريفيرفيو ولديها شواغر – ولكنه لم يرد أن يناقش الأمر على الإطلاق.، قال إنه يرغب في العودة إلى المنزل وحسب».

«يمكنني البقاء معه» مع أن فكرة النوم في الطابق الثاني ضمن غرفة نوم لم أرها من قبل كانت غريبة.

«لا مشكلة، إنها عطلة المدرسة».

نظرت السيدة ريفينزبورغر إلى أبي وقالت: «هل أنت موافق على هذا الترتيب يا سيد ريد؟».

انتظرت قليلاً، ولم أكن واثقاً مما سيقوله، ولكنه اعترف أخيراً.

«أنا قلق حيال هذا الأمر، وأعتقد أن قلقي طبيعي أو مبرر. ولكن تشارلي مسؤول، ويبدو أن السيد بوديتش قد كون رابطاً معه وليس لديه أحد آخر».

قلت: «بخصوص المنزل يا سيدة ويلكوكس...».

ابتسمت وقالت: «نادني ميليسا، فسنكون زميلين من الآن فصاعداً».

كان من السهل عليّ أن أناديها ميليسا على عكس مناداتي للسيد بوديتش بهاورد، لأنها كانت أقرب إلى عمري: «بخصوص المنزل...لا تحسبي الأمر شخصياً وكأنه خائف من أن تسرقي أغراضاً أو شيئاً ما، إنه فقط...حسناً...» لم أعرف كيف سأنهي كلامي ولكن أبي تولى الأمر.

«إنه شخص منطوٍ على ذاته وسري».

قلت لها: «هذا صحيح، وعليك أن تسمحي له أن يكون حانقاً لأنه...».

لم تنتظر ميليسا أن أشرح لها السبب وقالت: «صدقني إذا كانت ساقي مصابة، وكنت أضع لها مثبتاً خارجياً لتلملم شتات عظامي،

فسأكون حانقة بالطبع».

سأل أبي السيدة ريفينزبورغر: «ما وضع تأمينه؟ هل تستطيعين البوح بهذه المعلومة؟».

تبادلت السيدة ريفينزبورغر والسيدة ويلكوكس النظرات، ثمّ قالت السيدة ريفينزبورغر: «لا أجد نفسي مرتاحة وأنا أتحدث عن الترتيبات المالية للمرضى، ولكنني سأتحدث نقلاً عن أمين الصندوق. إنه عازم على أن يدفع بشكل شخصي».

قال أبي: «آه»، وكأن هذا قد شرح له كل شيء. لكن وجهه لم يُعبّر عن هذا. نهض وصافح السيدة ريفينزبورغر وصافحتها بدوري.

تبعتنا ميليسا إلى الرواق، وبدت أنها على وشك التزلج بسبب حذائها الأبيض الناصع.

سألتها: «جامعة لويزيانا الحكومية؟».

تفاجأت قليلاً وقالت: «كيف عرفت؟».

«من الكراسة، كرة السلة؟».

ابتسمت وقالت: «وكرة الطائرة».

اعتقدت أنها كانت ناجحة بسبب طولها.

الفصل الخامس
التسوّق-غليون أبي-اتصال من السيد بوديتش-علبة الطحين

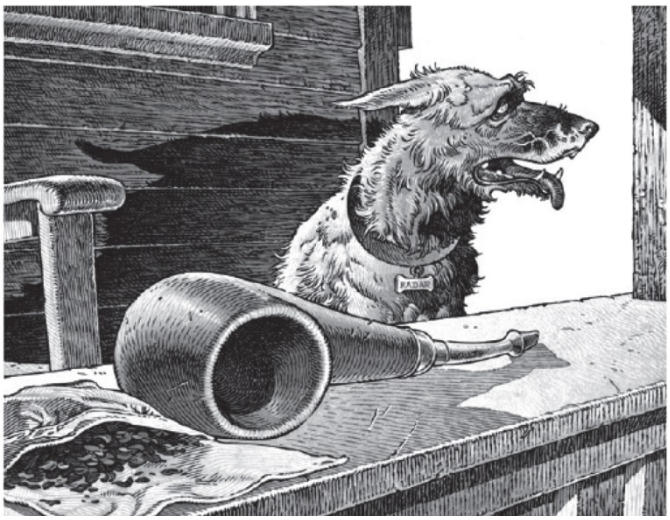

1

ذهبنا إلى متجر المعدات لنحضر عدة التركيب لقضبان المرحاض، ثمّ إلى بيت بانتري حيث كان هناك فرع لصيدلية بيطرية. اشتريت دواء ديدان القلب وكاربروفين لمداواة التهاب مفاصل رادار. كانت تلك الأدوية تباع وفقاً لوصفة حصراً، ولكن حين شرحت للسيدة الوضع، أعطتني إياها وأصرّت أن نشتري الأدوية نقداً. قالت إن السيد بوديتش قد اشترى كل حاجيات رادار من هنا، وكان يدفع مبلغاً إضافياً لقاء التوصيل. استخدم أبي بطاقته الائتمانية

لدفع ثمن قضبان الأمان، وكانت الصيدلية هي محطتنا الأخيرة، حيث اشتريت مبولة ذات عنق طويل ونونية سرير والمطهر الذي كان يجب أن أستخدمه للعناية بالمثبت الخارجي وعلبتين من منظف النوافذ. دفعت لقاء تلك الأشياء أيضاً، ولكن ليس نقداً. كان لديّ حدّ على بطاقتي الفيزا قدره 250 دولاراً، ولكنني لم أقلق عليها من أن ترد، فأنا لم أكن من الأشخاص الذين يكثرون من استعمالها.

في طريق العودة إلى المنزل، توقعت أن يفاتحني أبي عن الالتزام الذي ألزمت نفسي به... حيث كان كثيراً على فتى في السابعة عشرة. لم يفاتحني بالموضوع، واكتفى بالاستماع إلى أغاني الروك الكلاسيكي وردد كلماتها. اكتشفت لاحقاً أنه كان يُفكر في ما سيقوله.

مشيت إلى منزل السيد بوديتش ورحّبت بي رادار. وضعت أدويتها على الطاولة، ثمّ تفحصت الحمام، اعتقدت أن ضيق مساحته سيساعد في تركيب قضبان الحماية (كما سيساعده على استخدامها). وجدت حزمة من الأغطية والشراشف النظيفة على الرف فوق الغسالة ضمن السرداب، فنزلت وتناولت غطاءين. كان يوماً ربيعياً لطيفاً وخطر لي أولاً أن أصلح السياج، لكنني قررت أن النوافذ أولى بالاهتمام حتى تزول رائحة المنظفات قبل أن يصل السيد بوديتش إلى المنزل، كما أعطاني هذا عذراً لأتفحص المكان كله.

بالإضافة إلى المطبخ وخزانة المؤن وغرفة المعيشة-وكانت تلك الغرف التي يستخدمها أكثر من غيرها- كان في غرفة طعام طاولة طويلة ومغطاة، ولم يكن فيها أيّ كراس، ما أعطى الغرفة إحساساً بالهجران، وكان هناك غرفة صممت لتكون مكتباً أو مكتبة أو مزيجاً منهما. لاحظت بحزن أن السقف كان يسرّب، وقد أدى الماء إلى تعفن بعض الكتب. وكانت هناك كتب جيدة أخرى، بدت باهظة الثمن بغطائها من الجلد على خلاف المخطوطات القديمة التي كانت في الردهة الخلفية. كانت هناك مجموعة

لديكينز ولكيبلينغ ولمارك توين ولشخص اسمه ثاكيري، فقررت أن أفرد هذه الكتب، عندما يتاح لي الوقت على الأرض لأرى إن كان بوسعي إنقاذ بعض منها. لا بدّ من أنه كان هناك بعض مقاطع الفيديو التي تتناول هذا الموضوع. لقد قاد اليوتيوب حياتي في ذلك الربيع.

كان هناك ثلاث غرف نوم في الطابق الثاني، بالإضافة إلى خزانة البياضات وحمام إضافي كبير.كانت جدران غرفته مزينة برفوف كتب كثيرة، وكان هناك مصباح قراءة إلى جانب السرير الذي كان ينام عليه بالتأكيد. كانت الكتب في الغرفة ذات أغلفة ورقية - كتب ألغاز، وخيال علمي، بالإضافة إلى كُتب رعب تعود إلى أربعينيات القرن الماضي- بدت بعض الكتب رائعة للغاية، وفكّرت في أن أطلب منه استعارة بعضها إذا كانت الأمور على ما يرام. اعتقدت أن ثاكيري سيكون ثقيلاً، ولكن عنوان العروس التي ارتدت الأسود لفت نظري. كان على الغلاف عروس آسرة ترتدي اللون الأسود، ولكنها لم تكن متشحة به. كان هناك كتابان على منضدة سريره، كتب على الغلاف الورقي الأول شيء شرير يأتي من هذا الطريق وكان من تأليف برادبوري. وكُتب على غلاف الكتاب الثاني ذي التجليد الفني أصول الخيال وموقعها في مصفوفة العالم: وجهات نظر جانغ، ورُسم على الغلاف قمع تملؤه النجوم.

كان هناك تخت مزدوج في إحدى الغرف، وكان مرتباً ولكنه مغطى بالنايلون، أما الثالثة فكانت فارغة، وتفوح منها رائحة العفن. إن كنت انتعل حذاءً صلب النعل بدل الحذاء الرياضي، لكانت خطواتي ستصدر صوتاً مرعباً في تلك الغرفة.

كان هناك درج ضيق (اعتقدت أنه كان يشبه درج فيلم سايكو) يؤدي إلى الطابق الثالث، حيث وجدت كثيراً من قطع المفروشات المتداعية داخل غرفه الثلاث بما فيها الكراسي الستة التي كان يُفترض أن توضع في غرفة المطعم بالإضافة إلى سرير من الغرفة المجاورة وكان مطوياً. كانت هناك

دراجتان (إحداهما ينقصها عجلة) بالإضافة إلى صناديق من المجلات القديمة. وجدت في الغرفة الثالثة والأصغر بين الغرف صندوقاً يحتوي على أداوت نجارة، وكتب على الجانب حرفا أي.بي، تناولت المثقاب حيث شعرت أنه سيساعدني في تركيب قضبان الحماية، ولكنه كان متجمداً، ولم يكن الأمر غريباً، لأن الماء كان يتسرب من زاوية سقف هذه الغرفة حيث كان صندوق الأدوات موجوداً. فكرت في ضرورة التصرف بسرعة بخصوص هذا السقف المسرِّب قبل حلول الشتاء وإلا سيلحق التسرّب أضراراً إنشائية بالمنزل إن لم يكن قد فعل ذلك أصلاً.

بدأت بنوافذ الطابق الثالث، لأنها كانت الأوسخ في الواقع، ولاحظت أنني كنت سأبدل الماء في دلوي لمرات كثيرة وبالطبع كان التنظيف من الداخل نصف المهمة. توقفت لأتناول غدائي، وسخنت علبة فليفلة على فرن هوتبوينت القديم.

سألت رادار: «هل عليّ أن أدعك تلعقين الوعاء؟»، نظرت إليّ بعينيها البنيتين الواسعتين، «لن أفضحك إذا قررت فعل ذلك».

أنزلت الوعاء، فانقضت عليه. ثمّ عدت إلى النوافذ، لم أنتهِ قبل الظهيرة، وكانت أصابعي منتفخة كما كانت ذراعاي متعبتين من الفرك، ولكن مسحوق ويندكس مع الخل (نصيحة من اليوتيوب) أحدث فرقاً ملحوظاً، لقد شعشع النور من المنزل.

قلت: «أعجبني هذا، أتريدين أن نذهب إلى منزلي لنرى ماذا يفعل أبي؟».

نبحت لتقول لي إنها موافقة.

كان أبي ينتظرني على الشرفة الأمامية، وقد ثبت غليونه على الدرابزين قرب حزمة تبغ، وهذا يعني أننا كنا سنتناقش لا محالة، وسيكون نقاشاً مهماً.

مرت على أبي فترة كان يفضّل فيها السجائر. لم أعد أذكر في أي صف أو عمر كنت، حين أهدته أمي الغليون بمناسبة عيد ميلاده. لم يكن يشبه غليون شيرلوك هولمز، ولكنني أعتقد أنه كان باهظ الثمن. ألحّت عليه كي يترك السجائر المسببة للسرطان، وكان يعدها أنه سيقلع عنها (كان هذا شيء يشبه عادة مدمني الكحول). لقد نفعت حيلة الغليون، فقد كان يقطع أعقاب السجائر أولاً ثمّ أقلع عنها تماماً قبل وقت قصير من عبور أمي لذلك الجسر اللعين، كي تشتري لنا صندوق دجاج مقلي.

كنت أفضل رائحة تبغ ثري سيلز الذي كان يشتريه من بائع التبغ في مركز المدينة، ولكنني لم أشم تلك الرائحة كثيراً، لأنها سرعان ما كانت تتبدد. لا بدّ من أن هذه الحيلة التي كانت وراء خطة أمي الجهنمية، ولكن لم تتسن لي الفرصة لأسألها، كان الغليون يعود إلى علبته على المدفأة لغاية وفاة أمي على الأقل، ثمّ ظهر مجدداً. لم أره مع سيجارة خلال أيام شربه، ولكن الغليون كان رفيقه الدائم وهو يشاهد الأفلام القديمة، على الرغم من أنه نادراً ما أشعل الغليون أو ملأه بالتبغ. لقد مضغ المبسم والساق واضطر أن يستبدل القطعتين، أخذ الغليون معه إلى اجتماعات المدمنين المجهولين حين بدأ ارتيادها، فلم يكن التدخين مسموحاً هناك، لذا كان يمضغ المبسم، وكان أحياناً (كما قال ليندي فرانكلن) يمسك الغليون رأساً على عقب.

مع اقتراب سنته الثانية في الاجتماعات، عاد الغليون إلى مكانه المعتاد. ذات مرة سألته عنه فقال لي: «لقد مرت سنتان على إقلاعي عن الشرب، لذا أعتقد أن الوقت قد حان لأكف عن المضغ».

ولكن الغليون كان يظهر بين الحين والآخر، مثل الاجتماعات المهمة مع الزبائن المهمين في مكتب شيكاغو، وحين كان يقدم عرضاً ما. وكان يظهره دائماً في الذكرى السنوية لوفاة أمي، وها هو يظهره الآن.

كان قد ملأه بالتبغ وهذا يعني أن هذا النقاش سيكون في غاية الأهمية.

صعدت رادار إلى الشرفة كالمرأة العجوز، وتوقفت لتعاين كل درجة، وحين وصلت أخيراً حك لها أبي المنطقة خلف أذنها وقال: «من هي فتاتي الجميلة؟».

نبحت رادار، واستلقت قرب كرسي أبي الهزاز، وجلستُ على الكرسي الآخر.

«هل بدأت بإعطائها الأدوية؟».

«ليس بعد، سأمزج أدوية ديدان القلب والتهاب المفاصل مع عشائها».

«لم تأخذ عدة تثبيت قضبان الحماية».

«لأنني لن أبدأ بتثبيتها قبل الغد، سأقرأ التعليمات الليلة»، بالإضافة لنشرة الرعاية المنزلية للمبتدئين. «سأضطر لاستعارة مثقبك إن لم يكن لديك مانع، وجدت عدة شخص ما - لقد كتب عليها أي.بي ولعلها كانت تعود إلى والده أو جده - ولكن كانكل شيء فيها صدئاً لأن الماء يتسرب من السقف».

«بإمكانك استخدامها متى تشاء». تناول الغليون، وكان وعاؤه قد ملئ بالفعل، كان معه بعض عيدان الثقاب التي جلبها من المطبخ، ووضعها في جيب قميصه، وأشعل عوداً بظفر إبهامه، وكانت هذه مهارة أبهرتني وأنا صغير، ولا تزال تبهرني في الواقع. «أنت تعلم أنني سأسر بمرافقتك ومساعدتك في تركيب القضبان».

«كلا، لا عليك، إنه حمام صغير، وسيعيق أحدنا الآخر».

«ولكن ليس هذا هو السبب الأساسي أليس كذلك يا صديقي؟».

كم مضى من الوقت على مناداته لي بهذا اللقب؟ مرر العود الصغير - الذي كان قد اشتعل معظمه بالفعل - فوق وعاء الغليون، وبدأ بسحب التبغ، وهو ينتظر إجابتي. وبالطبع لم تكن لديّ أيّ إجابة. رفعت رادار رأسها، واشتمت دخان التبغ الفواح، ثمّ أعادت أنفها إلى ألواح الشرفة، بدت مرتاحة للغاية.

أطفأ العود وقال: «ألا يوجد شيء تريدني أن أراه هناك؟».

جعلني هذا أفكّر في آندي وهو يسألني ما إن كان هناك دمى محشوة وساعة بوجه قطة تتبع الناس بعينيها. ابتسمت وقلت: «كلا، إنه مجرد منزل وعلى وشك الانهيار وسقفه يُسرّب الماء، يجب أن تعالج هذه المشكلة بأسرع ما يمكن».

أومأ برأسه ونفخ الدخان: «تكلمت مع ليندي عن هذا... عن هذا الموقف».

لم أتفاجأ لأن ليندي كان راعيه، وكان على أبي أن يتكلم معه عن الأشياء التي تزعجه: «قال إنك على الأرجح تمتلك عقلية راعٍ، إن الله وحده يعلم عدد المرات التي اعتنيت فيها بي في فترة إدماني على الرغم من صغر سنك، لقد نظّفت المنزل والصحون، وحضّرت فطورك وحتى عشاءك أيضاً»، توقف قليلاً ثمّ قال: «يصعب عليّ تذكر تلك الأيام كما يصعب عليّ التكلم عنها».

«ليس هذا هو السبب».

«ما السبب إذاً؟».

لا أزال راغباً بالحفاظ على سرية ما أقسمت عليه، ولكن كان هناك شيء أستطيع قوله له. كنت سأقول له شيئاً يستطيع فهمه وكان صحيحاً لحسن الحظ: «ألا تتذكر كيف كانوا يتكلمون في اجتماعات المدمنين المجهولين عن الالتزام بالتعبير عن الامتنان؟».

أومأ برأسه وقال: «إن المدمن الممتن لا يثمل، هذا ما يقولونه».

«وأنا ممتن لأنك لا تشرب مجدداً. لعلني لا أخبرك بهذا في جميع الأوقات، ولكن هذا ما أشعر به. لم لا نقول إنني أحاول أن أرد الجميل، ونتوقف عن البحث في الموضوع؟».

أزال الغليون من فمه، ومسح الدمع الذي يترقرق في عينيه وقال: «حسناً، سنفعل ذلك، ولكنني أريد أن أقابله في نهاية المطاف، أشعر أن هذا واجبي، أتفهمني؟».

قلت له إنني أتفهم وجهة نظره: «ربما حين يبدأ بالتعافي؟».

أومأ برأسه وقال: «لا مانع لديّ، أحبك يا صغيري».

«وأنا أحبك أيضاً».

«لطالما فهمت أنك تحمّل نفسك فوق طاقتك. أنت تعلم هذا، أليس كذلك؟».

أجل، وكنت على دراية تامة بأنني لا أعرف كمية الحمل الذي وضعته على ظهري، واعتقدت أن هذا كان جيداً. فإن عرفت حجم الحمل كنت سأتخلى عنه: «هناك قول في برنامجك يدور حول فكرة عِش كل يوم بيومه».

أومأ برأسه وقال: «حسناً، ولكن عطلة الربيع ستنتهي بسرعة، عليك أن تواظب على دراستك مع أنك تحتاج إلى قضاء الوقت في ذلك المنزل،

أَصرّ على هذه الفكرة».

«حسناً».

نظر إلى الغليون: «لقد نفد التبغ كالعادة»، وضعه على درابزين الشرفة، ثمّ انحنى وحك رقبة رادار، فرفعت رأسها، ثمّ أخفضته مجدداً.

«إنها كلبة لطيفة للغاية».

«أجل».

«لقد وقعت في حبها، أليس كذلك؟».

«أجل، هذا ما أعتقده».

«لديها طوق من دون اسم وهذا يعني أن السيد بوديتش لم يدفع ضريبة الكلبة، أعتقد أنها لم تذهب يوماً إلى الطبيب البيطري»، وهذا ما أعتقده أيضاً. «لم تُلقح ضد الكَلَب وضد كثير من الأمراض». توقف ثمّ قال: «لديّ سؤال، وأريدك أن تُفكر فيه بشكل جدي للغاية: هل سنتورط بسبب هذا الأمر؟ بخصوص البقالية، وأدوية الكلاب، وقضبان الحماية».

قلت له: «لا تنسَ المبولة».

«هل سنتورط؟ أخبرني ما تعتقده».

«طلب مني أن أُسجل كل المدفوعات، وسيتولى أمرها». لم يكن هذا جواباً كافياً، عرفت هذه الحقيقة وعرفها أبي أيضاً على الأرجح، وبعد أن فكرت قليلاً: احذفوا تعبير على الأرجح.

«لا يعني هذا أننا دفعنا كل ما لدينا، لم ندفع سوى مئتي دولار ولكن المستشفى... هل تعلم كلفة قضاء أسبوع كامل في أركاديا؟ بالإضافة إلى

كلفة العمليتين بالطبع وكل الرعاية اللاحقة؟». لم أعرف تلك الكلفة، ولكن أبي عرف ذلك بصفته خبير تسوية مطالبات.

«ثمانون ألفاً على الأقل».

«لا يمكن أن نتورط بدفع كلفة ذلك، أليس كذلك؟».

«كلا، إن هذه الكلفة تقع على عاتقه، لا أعرف ما نوع التأمين الذي يملكه أو إن كان يملك تأميناً في الأساس، تحققت من ليندي، وأخبرني أنه لا يملك شيئاً في أوفرلاند، لعله فضّل ميديكير، ولكن من يعلم ماورائيات الموضوع؟» تحرك في مكانه وتابع: «لقد تحريت عنه قليلاً، أتمنى أنك لن تغضب بخصوص هذا الموضوع».

لم أغضب كما أنني لم أتفاجأ لأن التحري عن الناس كان عمل أبي.

«وهل شعرت بالفضول؟».

«بالطبع».

«وعلى ماذا عثرت؟».

«لا شيء تقريباً، ويمكن القول إن هذا مستحيل في هذا العمر والعصر».

«حسناً، لا يمتلك حاسوباً أو هاتفاً محمولاً، وهذا يعني أنه لا يمتلك حساباً في الفيسبوك وأي منصة تواصل اجتماعي أخرى». تراءت لي فكرة أن السيد بوديتش كان سيهزأ من الفيسبوك حتّى إن كان يملك حاسوباً، كان الفيسبوك أداة للتلصص.

«قلت إن هناك حرفين على علبة المعدات التي عثرت عليها، أي.بي أليس كذلك؟».

«أجل».

«هذه معلومة متطابقة حيث إن شخصاً يدعى أدريان بوديتش كان قد اشترى في العام 1920 العقار في أعلى التل الذي يمتد على مساحة فدان ونصف وعلى بقعة جيدة».

«هل هو جده؟».

«ربما، ولكن ما دام متقدماً في السن فيمكن أن يكون أباه». تناول أبي الغليون عن الدرابزين، ومضغ المبسم قليلاً، ثمّ أعاده. «كم عمره على أيّ حال؟ أتساءل إن كان لا يعرف حقاً».

«هناك احتمال ألا يعرف عمره».

«حين رأيته في الأيام الخوالي - قبل أن يتقوقع على نفسه - بدا في الخمسينات من عمره، كنت ألوّح له وكان يلوّح لي بالمقابل أحياناً».

«ألم يسبق لك أن تحدثت إليه؟».

«ربما حييته أو تحدثت إليه عن الطقس إذا كان خارجاً عن المألوف، ولكنه لم يفضل التحدث. على أيّ حال كان في العمر المناسب تقريباً للمشاركة في حرب فيتنام، ولكنني لم أجد له سجلاً عسكرياً».

«لم يخدم في الجيش إذاً».

«لم يخدم على الأرجح. كنت سأحصل على معلومات أكثر لو كنت في أوفرلاند، ولكنني توقفت عن العمل لصالح أوفرلاند، ولم أود أن أطلب المعلومات من ليندي».

«فهمت الأمر».

«توصلت إلى أنه يملك بعض المال لأن ضرائب العقار بند في السجل العام ووصلت الفاتورة على الرقم 1 على شارع سيكامور في العام 2012 إلى اثنين وعشرين ألفاً مع الفكة».

«هل يدفع هذا المبلغ كل سنة؟».

«يتغير المبلغ كل سنة، المهم أنه لا يتخلف عن الدفع، وكان موجوداً حين انتقلنا أنا وأمك إلى هنا. لعلني أخبرتك بهذا! كان يدفع مبالغ أقل في تلك الأيام لأن ضرائب العقار ارتفعت ككل شيء، ولكن لا يزال الرقم من فئة الستة أرقام، إن هذا مبلغ طائل، ماذا كان يعمل قبل أن يتقاعد؟»

«لا أدري، لقد قابلت الرجل لتوي، وكان متألماً حين قابلته، لم نحظَ بما يسمى لقاء انفتاح القلوب»، ولكن هذا اللقاء من المحتم أن يحدث، ولكنني لا أعرف متى.

«وأنا لا أعرف، لقد بحثت، ولكنني لم أجد شيئاً، واسمح لي أن أكرر كلامي لأن الأمر يستحق: كان هذا مستحيلاً في هذا العمر والعصر، لقد سمعت عن أشخاص يعيشون خارج النظام الحكومي، ولكن في براري ألاسكا وضمن جماعة تعتمد على فكرة أن العالم سينتهي أو في مونتانا كمفجر الجامعات والطائرات الذي يدعى باليونابومر».

«يونا - ماذا؟»

«إرهابي محلي، إن اسمه الحقيقي: تيد كازينسكي. لم تجد أيّ معدات لصنع القنابل في منزل السيد بوديتش، أليس كذلك؟»، قال أبي هذا بطريقة ساخرة، ورفع حاجبيه، ولكنني لم أظنه يمزح.

«إن المنجل هو أخطر شيء وجدته في المنزل، آه.. وفأس صدئة في صندوق المعدات في الطابق الثالث».

«هل وجدت أيّ صور؟ لأبيه أو لأمه مثلاً؟ أو له وهو صغير؟».

«كلا، لم أرَ سوى صورة لرادار، كانت على الطاولة قرب كرسيه المريح في غرفة المعيشة».

«هكذا إذاً»، مدّ أبي يده ليتناول الغليون، ثمّ غيّر رأيه.. «لا نعرف من أين يأتي بماله، إذا افترضنا أنه لا يزال يحتفظ ببعض منه، ولا نعرف ما كان يعمل قبل تقاعده. أعتقد أن عمله كان من المنزل لأن معه أغروفوربيا، إنها تعني...».

«أعرف ما تعني».

«أعتقد أنه كان يعاني من الأغروفوبيا منذ زمن بعيد، ولكن حالته ساءت مع تقدمه في السن، ثمّ انطوى على نفسه».

«قالت لي السيدة التي تعيش في الجهة المقابلة له من الشارع أنه تعوّد أن يصطحب رادار في نزهة ليلية»، تنبهت حين سمعت اسمها. «لقد بدا هذا غريباً بالنسبة إليّ حيث إن معظم الناس يصطحبون كلابهم في النهار ولكن...».

قال أبي: «هناك أشخاص أقل في الليل».

«أجل، لا يبدو محباً للجيرة».

قال أبي: «هناك شيء آخر، إنه غريب جداً... ولكن ألا تعتقد أنه شخص غريب؟»

تجاوزت السؤال، وتساءلت عن شيء آخر.

«لديه سيارة، ولكنني لا أعرف مكانها، ولكن لديه سيارة بالفعل، عثرت على رخصة السيارة على الإنترنت، إنها من نوع ستيودبيكر 1957. لديه نسبة على الضريبة الانتقائية لأن السيارة مسجلة على أنها أثرية،

وكضريبة العقار إنه يدفع النسبة كل سنة، ولكنها أقل بكثير وتصل إلى حوالى ستين دولاراً».

«إذا كانت لديه سيارة فلا بدّ أنك ستستطيع العثور على رخصة القيادة يا أبي، وسنعرف حينها كم يبلغ من العمر».

ابتسم وأشاح بوجهه: «محاولة جيدة، ولكن ليس هناك رخصة في إيلينوي باسم هاورد بوديتش، ولست بحاجة إلى رخصة قيادة لتشتري سيارة، لعلها لا تعمل أصلاً».

«لماذا يدفع الضريبة السنوية على سيارة لا تعمل؟»

«هناك افتراض آخر يا صغيري؛ لماذا يدفع ضريبة وهو لا يقود؟».

«ماذا عن أدريان بوديتش؟ أبوه أو جده؟ ربما كان يملك رخصة قيادة».

«لم أفكّر في هذا، سأتحقق من الأمر»، توقف قليلاً، ثمّ قال: «هل أنت واثق من هذا؟».

«أجل».

«اسأله إذاً عن بعض هذه الحيثيات لأنه، وعلى حدّ بحثي، يبدو وكأنه غير موجود».

قلت له إنني سأفعل هذا، وبدا لي أن الحديث قد انتهى هنا، فكّرت في أن أُخبره بصوت الهمهمة الذي سمعته في المستودع؛ ذلك المستودع الذي أوصد بابه بقفل كبير على الرغم من عدم وجود شيء فيه على الأرجح، ولكنني ردعت نفسي عن هذا. لقد أصبح ذلك الصوت مشوشاً في عقلي، وكان لديّ أمور كثيرة لأفكر فيها.

سكنتني تلك الأفكار وأنا أنزع الغطاء المصنوع من النايلون عن سرير غرفة الضيوف، الذي سأنام عليه في فترة من عطلة الربيع، أو لعلني سأنام عليه طوال العطلة. كان السرير معداً، ولكن رائحة رطوبة انبعثت من الشراشف، بدّلتها بشراشف نظيفة من خزانة البياضات، لم أعرف مدى نظافتها، ولكن رائحتها كانت أزكى. وكان هناك بدل نظيف للأريكة القابلة للفتح بالإضافة إلى اللحاف.

نزلت إلى الطابق السفلي، كانت رادار تنتظرني قرب الأريكة، وضعت الشراشف على كرسي السيد بوديتش المريحة، ولاحظت أنه عليّ أن أزيحها مع الطاولة الصغيرة جانباً كي أسحب الأريكة، حين أزحت الطاولة فتح الدرج جزئياً، وجدت بعض القطع المعدنية النقدية بالإضافة إلى هارمونيكا قديمة لدرجة أن غلافها المصنوع من الكروم كان قد تلاشى تقريباً... ووجدت زجاجة كاربروفين. سررت بهذا لأنني لم أود الاعتقاد بأن السيد بوديتش قد تجاهل صحة كلبته العجوز المتدهورة، وفسر لي هذا مدى حماسة موظفة بيت بانتري لأن تبيعني كمية أكبر. ولكن ما أحزنني هو اكتشاف أن الدواء لم يكن نافعاً بالقدر الكافي.

ملأت طبقها، ووضعت حبة دواء من العبوة الجديدة في طعامها -وأقنعت نفسي أن الحبوب التي اشتريتها حديثاً كانت أكثر فعالية وذات تأثير قوي - ثمّ صعدت إلى الطابق الثاني، لأجلب وسادة للأريكة، كانت رادار تنتظرني قرب الدرج.

«يا إلهي! لقد التهمتِ طعامك بسرعة!».

حرّكت رادار ذيلها، وابتعدت قليلاً مفسحة لي المجال لأمر.

ربتت الوسادة قليلاً، ثمّ وضعتها على الأريكة التي أصبحت تشبه السرير في وسط غرفة المعيشة. لعله سيحتج على هذا، وعلى الأرجح سيفعل ذاك، ولكنني اعتقدت أن الأمر سيسير على ما يرام. بدت العناية

بأسياخ مثبته الخارجي أمراً سهلاً، ولكنني تمنيت أن أجد في نشرة العناية المنزلية للمبتدئين كيفية نقله عن الكرسي المتحرك حيث اعتقدت أنه سيصل وهو جالس عليها، ثمّ ينتقل إلى السرير، وهكذا دواليك.

ماذا أيضاً، ماذا أيضاً؟

كان عليّ أن أضع أغطية السرير القديمة من غرفة نوم الضيوف في الغسالة، ولكن هذا الأمر يمكن أن يؤجل ليوم غد أو ليوم الاثنين. لقد كان الهاتف هو العنصر الناقص، كان يحتاج إلى هاتف قرب سريره، وكان هاتفه اللاسلكي أبيض ويبدو وكأنه قادم من فيلم ملاحقة لصوص يعود إلى تسعينيات القرن الماضي. كان جميع الرجال في تلك الأفلام لديهم سوالف أما الفتيات فكانت شعورهن منفوشة. تحققت من صلاحيته وسمعت رنيناً، كنت على وشك أن أرجعه إلى قاعدته حين رنّ. شهقت وتفاجأت وأسقطته من يدي، ونبحت رادار.

قلت لها: «لا عليك يا فتاة». وتناولته عن الأرض، لم يكن هناك زر لتلقي الاتصال. كنت أبحث عن الزر حين سمعت صوت السيد بوديتش وكان ضعيفاً وبعيداً: «مرحباً؟ هل أنت هناك؟ مرحباً؟».

لم يكن هناك زر استقبال إذاً ولا طريقة للتحقق من هوية المتصل، كان عليك أن تجرب حظوظك بالتعامل مع هاتف بهذا القدم.

قلت له: «مرحباً، أنا تشارلي يا سيد بوديتش».

«لِمَ تنبح رادار؟».

«لأنني شهقت، وأوقعت الهاتف، كنت أمسك به حين رنّ».

«فاجأتك أليس كذلك؟» لم ينتظرني كي أجيبه. «تمنيت أن تكون هناك لأنه موعد عشاء رادار. لقد أطعمتها أليس كذلك؟».

«أجل، لقد أنهت طعامها في ثلاث لقمات».

ضحك، ولكن صوته كان مبحوحاً: «هذه هي فتاتي. لعل نشاطها قد غادرها، ولكنها حافظت على شهيتها».

«كيف حالك؟».

«إن ساقيّ تؤلمانني للغاية على الرغم من المسكنات التي يعطونني إياها. ولكنهم أخرجوني من السرير اليوم. إن حمل ذلك المثبت يجعلني أشعر وكأنني جيكوب مارلي».

«هناك سلاسل ارتديتها في حياتي[9]».

ضحك مجدداً، واعتقدت أنه كان مخدراً للغاية: «هل قرأت الكتاب أم شاهدت الفيلم؟».

«شاهدت الفيلم في كل ليلة عيد ميلاد على تي.سي.إم، نتابع كثيراً من أفلام تلك القناة في منزلنا».

«لا أعرف ما هذا»، بالطبع لا يعرف هذا لأن قناة تورنر كلاسيك موفيز لا تظهر على تلفاز ليس مجهزاً سوى... بماذا سمتها السيدة سيلفيوس؟ أذني الأرنب.

«سررت لأنك أجبت على الهاتف، سيسمحون لي بالعودة إلى المنزل في عصر يوم الاثنين وعليّ أن أتكلم معك أولاً. هل يمكنك أن تزورني غداً؟ سيشاهد زميلي في الغرفة في تلك الأثناء مباراة كرة القاعدة في الردهة لذا سنحصل على بعض الخصوصية».

«بالطبع، لقد حضرت الأريكة لك وغرفة الضيوف العلوية لي و...».

«توقف للحظة، تشارلي...» سكت قليلاً ثم قال: «هل تعتبر الحفاظ على الأسرار مهمة كإعداد الأسرة وإطعام الكلبة؟».

فكرت في السنوات التي كان فيها أبي ثملاً؛ سنواته المهدورة، في تلك السنوات كان عليّ أن أعتني بنفسي وكنت غاضباً. كنت غاضباً على أمي لأنها ماتت هكذا، وكان هذا غباء مني، لأن هذا لم يكن خطأها. ولكن عليكم أن تتذكروا أنني كنت في السابعة من عمري حين قتلت على ذلك الجسر اللعين. كنت أحب أبي، ولكنني كنت غاضباً منه أيضاً. لطالما تورط الأطفال الغاضبون في مشاكل. وكان هنالك صديق محفز وهو بيرتي بيرد؛ كنا أنا وبيرتي على ما يرام حين رافقنا آندي تشين لأن آندي كان طفل كشافة. ولكن حين كنا بمفردنا تعودنا أن نقحم أنفسنا بأفعال غريبة ومشينة للغاية، وقمنا بأمور كان يمكن أن تسبب لنا مشاكل إذا قبض علينا، وكان يمكن أن تتدخل الشرطة في بعض الأمور. ولكن لحسن الحظ لم يقبض علينا، ولم يعرف أبي، وما كان أبي ليعرف أبداً. هل أردت أن أقول لأبي إننا لطخنا زجاج سيارة أستاذنا المفضل بروث الكلاب؟ لقد كتبتها هنا فقط حيث وعدت أن أبوح بكل شيء، ولكنني أشعر بالعار، ولم يكن هذا أشنع عمل قمنا به.

«تشارلي؟ أما زلت على الخط؟».

«أنا هنا. أجل، يمكنني الاحتفاظ بالأسرار، إلا إذا كان السر هو أنك قد قتلت شخصاً ما وجثته موجودة في المستودع».

جاء دوره ليسكت، ولكنني لم أسأله إن كان لا يزال على الخط، حيث سمعت تنفّسه الثقيل.

«لا شيء من هذا القبيل، ولكنها أسرار كبيرة، سنتحدث غداً. تبدو شخصاً صريحاً وخلوقاً، وأدعو ربي أن أكون مصيباً بهذا الشأن، سنرى. أما الآن فما هو المبلغ الذي أدين لك ولأبيك به؟».

«هل تقصد كم صرفنا؟ ليس كثيراً، كانت البقالية هي أغلى المدفوعات، أعتقد أن المبلغ يصل إلى قرابة المئتين. لقد احتفظت بالإيصالات...».

«هناك بدل وقتك أيضاً، إن كنت تنوي مساعدتي فيجب أن تتقاضى بدلاً لقاء ذلك. ما رأيك بخمسمئة دولار في الأسبوع؟».

لقد صدمت: «يا سيد بوديتش... هاورد... ليس عليك أن تدفع لي أي شيء، يسرني...».

«يستحق العامل أجره، هذا ما ذُكر في إنجيل لوقا. ستتقاضى خمسمئة دولار في الأسبوع، وإذا استغرق الأمر وقتاً طويلاً سأعطيك علاوة سنوية، هل أنت موافق؟».

مهما يكن عمله السابق، فلم يكن تنظيف الصحون أو حفر الخنادق. كان مرتاحاً بخصوص ما يطلق عليه دونالد ترامب بفن الصفقة؛ وهذا يعني أنه كان فائزاً وفقاً للاعتراضات غير المهيمنة، وكانت اعتراضاتي ضعيفة للغاية. لقد أقسم، ولكن إن أراد السيد بوديتش أن يدفع لي وأنا أنفذ ما أقسمت عليه فلا أجد أي تعارض في ذلك، وكما ذكّرني أبي في كل لحظة: كان لديّ جامعة لأفكر فيها.

«تشارلي؟ هل اتفقنا؟».

«أعتقد أننا اتفقنا»، ولكن إن تبيّن لي أنه قاتل متسلسل في نهاية المطاف فلن أتكتم على أسراره مقابل خمسمئة دولار في الأسبوع حيث كان هذا يستحق ألف دولار، (مزحة)! «شكراً لك، لم أضع في بالي أي...».

قاطعني وقال: «أعرف هذا»، يا له من مقاطع فذ! ذلك هو السيد هاورد بوديتش، «إنك شاب ساحر في نواحٍ كثيرة، يا لك من رجل صريح وخلوق كما قلت سابقاً».

تساءلت إن كان سيحافظ على رأيه هذا، إن عرف أنني وبيرد قد هربنا من المدرسة، ووجدنا هاتفاً محمولاً في هايلاند بارك، وأبلغنا عن قنبلة تستهدف مدرسة ستيفينز الابتدائية. كانت فكرته هو، ولكنني تماشيت معه.

«هناك علبة طحين في المطبخ، لعلك رأيتها»، لم أرها وحسب بل أخبرني عنها، ولكنه نسي على الأرجح حيث إن ألمه كان يطغى على كل شيء. قال إن هناك مالاً فيها ثمّ قال إنها فارغة. قال إنه قد نسي أنها فارغة.

«بالطبع».

«خُذْ منها سبعمئة دولار، خمسمئة دولار كراتب أول أسبوع لك، ومئتين لنفقاتك».

«هل أنت واثق...».

«أجل، وإذا فكرت أنه مال رشوة أو تمهيد الطريق لطلب مناف للأخلاق... فتفكيرك ليس في محله. إن هذا مال لقاء خدماتك يا تشارلي. لقاء خدماتك، وتستطيع أن تصارح أباك بهذا الشأن، ولكن ليس بالأمور التي سنناقشها في المستقبل. أعلم أن هذا حمل كبير».

قلت له: «ليس لديّ مانع إذا لم تكن هناك جريمة». ثمّ أعدت صياغة الجملة: «جريمة شنيعة».

«هل بإمكانك المجيء إلى المستشفى قرابة الساعة الثالثة؟».

«أجل».

«سأقول الآن طاب مساؤك، ربّت على رادار، وقل لها إنها تربيتة من العجوز الغبي الذي لم يكن عليه أن يصعد السلم».

أنهيت المكالمة، ربتت رأس رادار مرات عدة ومررت يدي من رأسها إلى ذيلها. لقد سررت بتقديم هذه الخدمة، ثمّ ذهبت إلى المطبخ، ورفعت غطاء علبة الطحين.

كانت مليئة بالمال، وكان هناك كثير من الأوراق النقدية في أعلى الكومة وكانت من فئة العشرة والعشرين دولاراً وبعض الأوراق من فئة الخمسة الدولارات والدولار الواحد. تناولت تلك الأوراق التي كوّنت رزمة لا بأس بها على المجلى، ووجدت أسفل العلبة رزماً مربوطة من فئة الخمسين دولاراً والمئة دولار. طبع على الأربطة: فيرست سيتيزنز بانك بحبر أرجواني. أخرجتها هي الأخرى، ولكنني عانيت في إخراجها لأنها كانت عالقة في أسفل العلبة، وجدت ست رزم من الخمسينات وفي كل رزمة عشر أوراق، كما وجدت خمس رزم مربوطة من فئة المئات وكان هنالك عشر أوراق في كل رزمة أيضاً.

دخلت رادار إلى المطبخ، وجلست قرب صحنها، وكانت تنظر إليّ بنظرة الاستعطاف المعهودة. «يا إلهي يا فتاة! هناك ثمانية آلاف في هذه العلبة من دون أن أعد المال الذي وجدته متناثراً في الأعلى».

عددت سبعمئة دولار من الأوراق المفردة ورتبتها وطويتها، ثمّ وضعتها في جيبي فأحدثت انتفاخاً بسيطاً. لقد فاق هذا المبلغ أي مبلغ حملته في حياتي بعشرة أضعاف على الأقل، تناولت الرزم المربوطة، وعاودت وضعها في العلبة ثمّ توقفت. وجدت ثلاث حبات صغيرة في قاع العلبة، وكان لونها يميل إلى الحمرة. أفرغت العلبة، ووضعت الحبات في راحة يدي. اعتقدت أنها كانت أثقل من أن تكون حبات بي.بي وإن كان اعتقادي صحيحاً فلعل هذه الحبات كانت تسهم بشكل كبير في تفسير مصدر دخل السيد بوديتش.

اعتقدت أنها كانت ذهباً.

4

لم أركب دراجتي في العادة، ما كانت تستغرقني المسافة بين المنزلين سوى عشر دقائق أو اثنتي عشرة دقيقة على الأكثر. ولكنني

مشيت بتؤدة تلك الليلة، كان عليّ أن أفكر لأتخذ قراري. وبينما كنت أمشي ربّتّ على الانتفاخ الذي كان في جيبي لأضمن وجوده.

كنت سأخبر أبي باتصال السيد بوديتش وعرض التوظيف الذي قدّمه لي، وكنت سأريه المبلغ الذي كان عبارة عن مئتي دولار لقاء ما أنفقناه وخمسمئة دولار لي. كنت سأقول له أن يضع أربعمئة دولار في حسابي الجامعي (الذي صادف أن يكون في فيرست سيتيزنز) وأعده بوضع أربعمئة دولار أخرى في نهاية كل أسبوع أعمل فيه لدى السيد بوديتش... وكان يمكن أن يدوم هذا طوال الصيف أو لغاية بدء موسم كرة القدم في شهر آب على الأقل. ولكن السؤال الذي طرح نفسه هل يُفترض بي أن أخبره بالمبلغ المالي الذي كان موجوداً في علبة الطحين بالإضافة إلى قطع الذهب؟ إن كان ذهباً في الأصل.

بحلول الوقت الذي دخلت فيه منزلنا كنت قد حسمت قراري، كنت سأحتفظ بمعلومة الثمانية آلاف دولار الموجودة في علبة الطحين لنفسي بالإضافة لقطع بي.بي التي لم تكن بي.بي في الواقع، لم أكن سأتفوه بأي شيء قبل أن نحظى أنا والسيد بوديتش بحديثنا الموعود على الأقل.

ناداني أبي من غرفة المعيشة: «مرحباً يا تشارلي، هل الكلبة على ما يرام؟».

«إنها بخير».

«يسرني هذا، أحضر لنفسك سبرايت وكرسي لأن تي.سي.إم تعرض فيلم رير ويندو».

جلبت سبرايت، ودخلت ثمّ أخفضت صوت التلفاز: «عليّ أن أطلعك على أمر ما».

«هل هناك أهم من جيمس ستيوارت وغريس كيلي؟».

«ما رأيك بهذا؟». أخرجت النقود من جيبي ووضعتها على طاولة القهوة.

توقعت أن أرى تعابير المفاجأة والحذر والقلق، ولكن ما حصلت عليه كان تعابير الاهتمام والتسلية. اعتقد أبي أن حقيقة إخفاء السيد بوديتش لماله في علبة طحين تطابق عقلية مريض الأغروفوبيا المدخر (أخبرته عن ممشى المخطوطات القديمة، ناهيكم عن التلفاز القديم، ومعدات المطبخ العريقة)، «هل كانت تحوي مزيداً من المال؟».

قلت له: «كان هناك بعض من المال» ولم تكن هذه كذبة.

أومأ أبي برأسه وقال: «هل تحققت من العلب الأخرى؟ لعل هناك بعض المئات في علبة السكر»، كان يبتسم.

«كلا».

أخذ مئتي دولار وقال: «إن هذا أكثر بقليل مما أنفقناه، ولكنه سيحتاج لأشياء أخرى على الأرجح، هل تريدني أن أودع أربعمئة دولار لك؟».

«بالطبع».

«إنه خيار صائب، ولكنني أعتقد أنه مبلغ بخس لقاء الأسبوع الأول على الأقل حيث إن المساعد الدائم يتقاضى أجراً أعلى، ولكن من ناحية أخرى أنت تتقاضى أجراً وتدرس في الوقت ذاته، وستقضي لياليك هناك في عطلة الربيع». نظر إليّ وقال بحزم: «هل نحن متفاهمان بخصوص هذه النقطة؟».

قلت له: «بالتأكيد».

«حسناً، هذا جيد، إن إخفاء بوديتش المال بهذه الطرق يقلقني قليلاً، لأننا لم نعرف مصدر دخله بعد، ولكنني سأُحسن الظن. تعجبني حقيقة أنه

يثق بك كما يعجبني أنك مستعد للتكفل بهذا الحمل، اعتقدت أنك ستخدمه بالمجان، أليس كذلك؟».

«أجل».

«أنت فتى جيد يا تشارلي، لا أعرف ماذا فعلت في حياتي لأستحقك».

وبسبب ما كنت أخفيه -ليس عن السيد بوديتش وحسب، بل المتاعب التي أثرتها أنا وبيرتي- اعترتني موجة شديدة من الشعور بالعار.

في تلك الليلة، حين كنت أتمدد في سريري، تخيلت أن السيد بوديتش يخفي منجم ذهب في مستودعه الموصد، ولعل العاملين كانوا أقزاماً بأسماء غريبة كالنعسان والغاضب. ابتسمت لهذه الفكرة. كنت واثقاً أن السر الكبير كان له علاقة بالمستودع، ولكنني كنت مخطئاً، لم أكتشف أمر المستودع إلا في وقت لاحق.

الفصل السادس
زيارة المستشفى- الخزانة- ستانتونفيل- الطمع بالمال-
عودة السيد بوديتش إلى المنزل.

1

حظيت والسيد بوديتش بمحادثة عميقة، حين كان زميله يشاهد في ردهة الطابق الثالث فريق وايت سوكس يلعب ضد ذا تايغرز وكان هناك جهاز مراقبة نبضات قلب مربوط على صدره.

قال السيد بوديتش: «يعاني من مشكلة في قلبه لا يستطيعون حلها بشكل مباشر، حمداً لله أنني لا أعاني من علل من هذا القبيل، لديّ ما يكفيني من المشاكل».

أراني كيف أصبح بوسعه دخول الحمام بالاستناد إلى العكازين بكل ما لديه من طاقة، لقد آلمه هذا بشكل واضح، وحين عاد بعد أن قضى حاجته كانت العرق يزين جبهته، ولكنني تفاءلت. لعله كان يحتاج المبولة بعنقها الطويل والمشؤوم ليقضي حاجة الليل، ولكن بدا أن بإمكاننا استبعاد النونية ما دام لم يقع في الليل ويكسر ساقه من جديد، كان بوسعي أن أرى عضلات ذراعيه النحيلتين ترتعشان في كل خطوة حذرة، جلس على السرير وتنهد حين شعر بالراحة مجدداً.

«هل يمكنك أن تساعدني بـ...» أشار إلى الخردة التي كانت تطوق ساقه.

رفعت ساقه ومثبتها الخارجي وحين أصبحت ممددة تنهد مجدداً وطلب حبتي دواء من كوب ديكسي الذي كان على المنضدة قرب السرير. ناولته الدواء، وسكبت بعض الماء من الإبريق فشربه، وكانت تفاحة آدم تتحرك في عنقه المجعد كقرد هائج.

قال: «لقد حولوني من مضخة المورفين إلى هذا، يدعى أوكسيكونتين، قال الطبيب إنني سأدمن عليه إن لم أدمن عليه بالفعل، وكان عليّ أن أقلع عنه. تبدو هذه صفقة منصفة لغاية الآن حيث إن المشي إلى الحمام يعادل المشي بماراثون لعين».

كان بوسعي أن ألحظ ذلك، وكان الحمام في منزله أبعد من الحمام الملحق هنا. لعله كان سيحتاج إلى النونية في جميع الأحوال على الأقل في البداية. دخلت إلى الحمام، وبللت خرقة وفركتها، حين انحنيت فوقه تراجع قليلاً.

«لحظة، لحظة! ماذا تحسب نفسك فاعلاً؟»

«أمسح العرق عن جبينك، كف عن التحرك».

لا نعرف متى تحدث نقاط التحول في علاقاتنا بالآخرين، ولكنني اكتشفت لاحقاً أن ما فعلته كان نقطة التحول لنا، تمنع لوهلة ثمّ استرخى (قليلاً) وسمح لي أن أمسح جبينه ووجنته، «أشعر وكأنني طفل صغير».

«تدفع لي أجراً فدعني أعمل لأستحقه».

قهقه حين سمع هذا، نظرت ممرضة من الباب، وسألته إن كان يحتاج شيئاً، قال إنه بخير. وحين غادرت، طلب مني أن أغلق الباب.

قال: «سأطلب منك الآن أن تقف مكاني إلى أن أستطيع أن أقف بنفسي، ولا تنسَ رادار أيضاً، هل أنت جاهز لفعل ذلك يا تشارلي؟».

«سأبذل قصارى جهدي».

«ستفعل هذا على الأرجح، إن هذا يكفيني وما كنت لأضعك في هذا الموقف ما لم أكن مجبراً، أتت امرأة اسمها ريفينزبورغر لتراني، هل قابلتها؟»

قلت له أجل.

«يا له من اسم غريب أليس كذلك؟ تراءت لي صورة لشطيرة بورغر مصنوعة من لحم الغراب».

ما كنت سأقول إنه كان مخدراً بفعل الأوكسي، ولكنني ما كنت سأنفي هذا الاحتمال أيضاً. لا بدّ من أن تأثير تلك الحبوب كان قوياً بسبب جسده النحيل حيث بلغ طوله حوالي ست أقدام، ولم يتجاوز وزنه مئة وخمسين رطلاً.

«حدثتني بخصوص ما سمته خيارات التسديد، سألتها عن التكاليف فأعطتني ورقة مطبوعة، إنها في الدرج هنا...». أشار إليه ثمّ تابع: «...ولكن لا تكترث لهذا الأمر حالياً، قلت لها إن التكاليف باهظة، فقالت: إن الرعاية الممتازة باهظة الثمن يا سيد بوديتش، وأنت حظيت بأفضل أنواع الرعاية، سألتني إن كنت أحتاج لاستشارة أخصائي مالي - مهما تكن هذه المهنة - وقالت أنها ستساعدني في تدبير لقاء قبل أو بعد أن أعود للمنزل، فقلت لها إنني لا أظن ذلك ضرورياً، وقلت لها إنني سأسدد المبلغ بشكل مباشر شريطة أن أحصل على تخفيض، ثمّ سبحنا في بحر التفاوض. في النهاية استقررنا على حسم بنسبة عشرين بالمئة أي ما يعادل حسم تسعة عشر ألفاً».

صفّرت فابتسم السيد بوديتش.

«حاولت أن أجعلها تحسم نسبة خمس وعشرين بالمئة، ولكنها لم تقبل أن تزيد نسبة الحسم على عشرين بالمئة. أعتقد أن هذه هي القيمة المعتادة في هذا القطاع - تعتبر المستشفيات قطاعاً في حال تساءلت عن الموضوع، أضف إليها السجون حيث إن المستشفيات والسجون لا يختلف بعضها عن بعض بطريقة إدارتها للأعمال، ولكن في السجون يقوم دافعو الضرائب بتسوية الفواتير». مرر يده فوق عينيه وتابع: «كان بوسعي أن أدفع المبلغ كاملاً، ولكنني استمتعت بالتفاوض حيث مر وقت طويل على المرة الأخيرة التي تفاوضت فيها. بإمكانك القول منذ الشراء بساحة المبيعات حيث اشتريت كتباً عديدة ومجلات قديمة. أفضل الأشياء القديمة... هل أثرثر كثيراً؟ أجل، إليك الفكرة الأساسية: أستطيع الدفع، ولكنني أحتاج إليك لتجعل هذا ممكناً».

«إذا كنت تفكر بمحتوى علبة الطحين...».

لوّح بيده وكأن ذلك المبلغ لا يعني شيئاً، كان تافهاً بالنسبة إلى فاتورة المستشفى طبعاً. «إليك ما أريد منك أن تفعله».

أخبرني وحين انتهى سألني إن كنت أفضل أن يكتب المعلومات على الورق: «لا بأس إن فعلت ذلك، إذا أتلفت الورق بعد إتمام العمل».

«لعلني سأحتاج منك أن تكتب شيفرة الخزنة فحسب، أستطيع أن أكتبها على ذراعي ثمّ أمسحها».

«هل ستقدم على ذلك؟»

«أجل»، لم أرَ أي رادع عن فعل هذا حتّى ولو لغاية أن أكتشف حقيقة ما يخبرني به.

«ممتاز، كرر لي الخطوات».

فعلت هذا، واستخدمت القلم الذي كان بجواره لأكتب سلسلة أرقام ودورات على أعلى ذراعي كي يغطيها كم سترتي.

قال: «شكراً لك، عليك أن تنتظر ليوم غد لترى السيد هاينريك، ولكن يمكنك أن تستعد من اليوم حين تطعم رادار».

قلت له حسناً، وودعته، ثمّ غادرت. لقد كنت - وكما يقول أبي – مذهولاً. خطر لي شيء وأنا في المصعد، فعدت.

«هل غيّرت رأيك بالفعل؟» كان يبتسم، ولكن القلق كان بادياً في عينيه.

«كلا، أردت أن أسألك عن شيء قلته».

«ما هو؟».

«شيء يخص الهدايا. قلت إن الرجل الشجاع هو من يساعد، ولكن الجبان يكتفي بإعطاء الهدايا».

«لا أتذكر أنني قلت هذا».

«لقد قلته بالفعل، ما معنى هذا الكلام؟».

«لا أعلم، لا بدّ من أنني قلت ذلك بتأثير من الحبوب المسكنة».

كان يكذب. لقد عشت مع شخص مدمن لسنوات، وكنت أميّز الكذب حين أسمعه.

2

قدت دراجتي إلى المنزل رقم 1 في شارع سيكامور، ولا أبالغ عندما أقول إن الفضول كان يسيطر عليّ. فتحت الباب الخلفي، واستقبلتني رادار بحماسة، استطاعت أن تقف على قائمتيها الخلفيتين لعدة ثوان. لذا، اعتقدت أن الحبوب الجديدة كانت نافعة إلى حدّ ما. أخرجتها إلى الباحة الخلفية لتقضي حاجتها، وواظبت على إعطائها إشارات عقلية كي تسرع، وتعثر على مكان مناسب.

بعد أن دخلت المنزل، صعدت إلى غرفة نوم السيد بوديتش، وفتحت خزانته، كان لديه كثير من الثياب وكان معظمها من النوع المريح كقمصان الفانيلا والبناطيل الرقيقة. وكان هناك بذلتان، الأولى سوداء والأخرى رمادية، وكانتا تشبهان البذلات التي كان يرتديها جورج رافت وإيدوارد جي. روبينسون في أفلام مثل إيتش دون آي داي، أي كانتا مزدوجتي الصدر وأكتافهما عريضة.

دفعت الثياب جانباً وكشفت عن خزنة ووتشمان متوسطة الحجم، تقليدية الطراز، يبلغ ارتفاعها ثلاث أقدام. قرفصت، وحين مددت يدي إلى أرقام الشيفرة شعرت بشيء بارد يداعب ظهري حيث إن سترتي كانت قد

ارتفعت عن بنطالي، صرخت ورأيت رادار وكان ذيلها يهتز للأمام وللخلف، كان أنفها هو الشيء البارد.

قلت لها: «لا تفعلي هذا يا فتاة»، جلست على الأرض، وابتسمت وكأنها تقول لي إنها ستفعل ما يحلو لها، أدرت وجهي إلى الخزنة، وأخطأت في إدخال الشيفرة في المرة الأولى، ولكنني نجحت في المرة الثانية وفتح الباب.

في البدء، رأيت مسدساً على رف الخزنة الوحيد، كان أكبر من المسدس الذي أعطاه أبي لأمي لتحتفظ به في الأوقات التي كان يغيب فيها عن المنزل لأيام... أو لمرة كل أسبوع حين كان يذهب في نزهة مع أفراد الشركة. كان نوع ذلك المسدس 0.32 وكان مسدساً للسيدات بالطبع، واعتقدت أنه لا زال يحتفظ به، ولكنني لم أكن متأكداً. كنت أذهب للبحث عنه في الأوقات التي ساء فيه شربه للكحول، ولكنني لم أجده، كان هذا المسدس أكبر. ولعله كان من نوع 0.45 وبدا عريقاً كمعظم أشياء السيد بوديتش. تناولته - بحذر - ووجدت القسم الذي يدير الأسطوانة. كانت الحجرات الست مليئة بالرصاصات. أعدت الأسطوانة مكانها ووضعت المسدس على الرف مجدداً. كان المسدس ضرورياً وفقاً للأمور التي أخبرني بها، وكان يجب أن يضع إنذاراً للسرقات، ولكنه لم يرد أن تدخل الشرطة إلى المنزل 1 في شارع سيكامور، بالإضافة إلى أن رادار كانت تعد إنذاراً مثالياً في وقت شبابها. كان آندي تشين إثباتاً على هذا الكلام.

وجدت في أرضية الخزنة ما أخبرني السيد بوديتش به: دلو فولاذي كبير، وكانت عليه حقيبة ظهر، تناولت حقيبة الظهر ورأيت أن الدلو كان مليئاً برمته بحبوب بي.بي التي لم تكن بي.بي بل قطعاً ذهبية.

كان للدلو أذنان فحملته منهما، لم أستطع أن أحمل كل ثقله بسبب وضعيتي، ولا بدّ من أنه كان يحوي أربعين أونصة من الذهب أو حتّى

خمسين. جلست ونظرت إلى رادار.

«يا إلهي! يا لها من ثروة!».

أجابتني بهز ذيلها.

3

بعد أن أطعمتها في تلك الليلة صعدت إلى الطابق العلوي، ونظرت إلى دلو الذهب مجدداً لأتأكد من أنني لم أتخيّل الأمر، وحين وصلت إلى المنزل سألني أبي إذا كنت مستعداً لعودة السيد بوديتش إلى المنزل، قلت له أجل، ولكن عليّ أن أتدبر أمر بعض الأشياء قبل أن يصل: «ألا تزال عند كلمتك بأنك ستعطيني المثقب والمفك الكهربائي؟».

«بالطبع، ولا يزال عرضي قائماً بمساعدتك إن استطعت، ولكن لديّ اجتماع في تمام الساعة التاسعة. إنه بخصوص حريق الشقة الذي أخبرتك عنه، تبين أنه حريق متعمد».

«سأكون على ما يرام».

«آمل هذا، هل أنت بخير؟».

«بالطبع، لماذا؟».

«لست على طبيعتك، هل أنت قلق بشأن يوم غد؟».

قلت له: «بعض الشيء»، ولم تكن هذه كذبة.

يمكنكم أن تتساءلوا إن كانت لديّ أيّ رغبة بإخبار أبي عما وجدته، والجواب هو كلا. لقد جعلني السيد بوديتش أقسم على كتمان السر، وهذا كان أحد الأسباب. لقد قال إن الذهب لم يكن مسروقاً بالمعنى المعروف وكان هذا سبباً آخر. سألته عن قصده، ولم يقل لي سوى أنه لا يوجد أحد في العالم يبحث عن هذا الذهب، كنت أريد أن أثق به إلى أن أعرف المزيد.

كان هناك شيء آخر؛ كنت في سن السابعة عشرة، وكان هذا أكثر شيء مشوق قد حصل حتى هذه اللحظة، وأردت أن أتابع التشويق.

4

صباح يوم الاثنين قدت دراجتي إلى منزل السيد بوديتش بإشراق، ووصلت أبكر من وقت إطعام رادار. نظرت إليّ بتركيز وأنا أُثبت قضبان الحماية. كان المرحاض ضيقاً بعض الشيء بالنسبة إلى الحمام الصغير، وكانت قضبان الحماية ستضيق مكان الإفراغ، ولكنني اعتقدت أن هذا كان أمراً مناسباً. لقد تراءت لي صورته وهو يزمجر، ولكن كان من الصعب أن يقع، كان يمكنه الإمساك بقضبان الحماية وهو يتبول، واعتقدت أن هذه كانت إضافة مفيدة، حاولت تحريكها، ولكنها كانت ثابتة.

«ماذا تعتقدين يا رادار؟ هل أصبحت جاهزة؟».

هزّت ذيلها.

قال لي السيد بوديتش خلال حديثنا: «يمكنك أن تزن الذهب على ميزان الحمام، لن يكون الرقم دقيقاً، ولكن ميزان المطبخ يستغرق وقتاً طويلاً - أعرف هذا من خبرتي الطويلة- استخدم الحقيبة لوزن الذهب وحمله، قرّب الرقم ليكون أكثر من الرقم الذي سيظهر، سيزنها هاينريك بنفسه على ميزان أكثر دقة، سيكون ميزاناً ر-ق-مياً كما تعلم».

لقد قالها بتجزئة كباب من السخرية والهزل.

«كيف كنت تنقل الذهب إليه حين تحتاج إلى بيعه؟». كانت ستانتونفيل على بعد سبعة أميال.

«كنت آخذ يوبر على حساب هاينريك».

لم أفهم ما قاله لوهلة، ولكنني فهمته في نهاية المطاف.

«لم تبتسم يا تشارلي؟».

«لا شيء، هل كنت تبيع في الليل؟».

أومأ برأسه وقال: «قرابة الساعة العاشرة حين يدخل معظم سكان الحي إلى منازلهم، وخصوصاً السيدة ريتشلاند التي تسكن في الجهة المقابلة من الشارع، إنها جارة فضولية للغاية».

«سبق لك أن قلت لي ذلك».

«يستحق الأمر الإعادة».

لقد حسبتها كذلك أنا الآخر.

« وافق هاينريك على أن يغلق المتجر غداً كي يمكنك القدوم في الصباح بين الساعة التاسعة والنصف والعاشرة، لم يسبق لي أن بعت هذا المقدار من الذهب، أنا واثق أن الأمور ستجري على ما يرام فهو صريح في تصرفه معي. ولكن هناك مسدساً في الخزنة فإذا أردت أن تأخذه معك - للحماية - فلا مانع لديّ».

لم أنوِ أخذه، أعلم أن المسدسات تُشعر حامليها بالقوة، ولكنني لم أكن منهم، لقد شعرت بالغرابة لمجرد لمسه. لو أخبرتموني أنني كنت سأمسكه في المستقبل القريب لنعتكم بالمجانين.

وجدت مغرفة في المطبخ، وصعدت إلى الأعلى. كنت قد مسحت الأرقام عن ذراعي بعد أن وضعتها في مذكرة محمية بكلمة سر على هاتفي، ولكنني لم أحتج لتفحصها حتّى حيث إنني تمكنت من فتحها من المرة الأولى. أزحت الحقيبة عن الدلو، وتأملت الذهب. لم أستطع أن أمنع نفسي، فمررت أصابعي بين القطع الذهبية، وجعلت القطع تتناثر من بين أصابعي. كررت هذه الحركة مرة ثانية ثمّ ثالثة؛ كان هناك شيء آسر في هذه الحركة،

حرّكت رأسي، وكأنني أحاول أن أتجاوز تأثير تنويم مغناطيسي، وبدأت بغرف الذهب.

في المرة الأولى التي زنت فيها الحقيبة أعطى المؤشر رقم ثلاثة أرطال[10]، وضعت المزيد فارتفع المؤشر إلى خمسة، توقفت الإبرة في آخر مرة عند الرقم سبعة أرطال، وقررت أن هذا كاف، إذا أشار مقياس السيد هاينريك الر-ق-مي إلى أكثر من ستة أرطال المتفق عليها كان بوسعي أن أعيد الزيادة. كان عليّ أن أؤدي بعض المهام في المنزل قبل وصول السيد بوديتش. ذكرت نفسي أن أحضر جرساً كي يرنه لي في الليل إذا احتاج إلى شيء. اقترحت نشرة الرعاية المنزلية للمبتدئين نظام اتصال داخلياً أو جهاز مراقبة الأطفال، ولكنني اعتقدت أن السيد بوديتش كان سيفضل طريقة أكثر تقليدية.

سألته كم تساوي أرطال الذهب الستة من المال وكنت واقعاً بين نارين، ويعني هذا أنني أردت أن أعرف المبلغ الذي كنت سأنقله على دراجتي لمسافة سبعة أميال -التي كانت عبارة عن مساحات قروية - إلى ستانتونفيل ولم أرد معرفته في الوقت نفسه، قال لي إن آخر مرة تحقق من سعر الذهب في تكساس كان السعر يعادل خمسة عشر ألف دولار لقاء الرطل الواحد.

«ولكن من الممكن أن يعطيك أربعة عشر ألفاً لقاء الرطل -كان هذا السعر الذي اتفقنا عليه، سيصل المبلغ إلى أربعة وثمانين ألفاً، ولكنه سيعطيك شيكاً بقيمة أربعة وسبعين ألفاً، سيغطي هذا الشيك فاتورة المستشفى وسيظل لي مبلغ من المال، كما سيتقاضى هو ربحاً لا بأس به».

لم يعبّر مصطلح لا بأس به عن قيمة الربح، لا أعلم متى تحقق السيد بوديتش من مجموعة سعر الذهب، ولكن استناداً إلى نهاية شهر نيسان في عام 2013 كان قد أخفض معاييره للغاية، لقد تحققت من سعر الذهب على

حاسوبي قبل أن أخلد للنوم في ليلة يوم الأحد وكان سعره يصل إلى 1200 دولار لقاء الأونصة أي ما يعادل عشرين ألف دولار لقاء الرطل، وكان ثمن ستة أرطال سيفوق 115 ألف دولار وفقاً لسوق الذهب في زيورخ أي أن هاينريك هذا سيربح أربعين ألفاً، ولم يكن الذهب مثل ألماس الأزمات التي يخفض المشتري من ثمنها بسبب الخطورة،. لم تكن على القطع الذهبية أيّ دمغات كما كانت مجهولة ويسهل تذويبها وتحويلها إلى سبائك صغيرة أو مجوهرات.

فكرت في أن أتصل بالسيد بوديتش في المستشفى لأخبره أنه كان يبيع بسعر بخس، ولكنني لم أفعل ذلك، ورغم الأرطال الستة التي سحبت من دلو الذهب الخاص بالكابتن كيد[11] تبقى كثير من الذهب، كان عملي (على الرغم من أن السيد بوديتش لم يقل هذا) يقتصر على إتمام الصفقة وألا أسرق، كانت هذه مسؤولية كبيرة، وكنت مصراً على أن أستحق الثقة التي منحني إياها.

حزمت الحقيبة، وتفحصت الأرضية بين الخزانة وميزان الحمام لأرى ما إن كنت قد أوقعت بعض القطع المتناثرة، ولكنني لم أجد شيئاً، ربت رأس رادار (لتمدني بالحظ) وانطلقت خارجاً وأنا أحمل 115 ألف دولار في حقيبة مهترئة.

كان سيقول صديقي بيرتي بيرد إنني كنت أحمل كثيراً من الفلوس.

5

كان مركز ستانتونفيل عبارة عن شارع مفرد فيه كثير من المتاجر وبعض الحانات ومطعم، يبدو أنه يقدم طعام الفطور طوال اليوم مع كوب من القهوة الجاهزة السيئة، كان هناك بعض المتاجر المغلقة كما علقت عليها لافتات تقول إنها للبيع أو للإيجار. قال أبي مرة إن ستانتونفيل كانت بلدة صغيرة مزدهرة للغاية، ومكاناً ممتازاً للناس الذين لم يودوا أن يذهبوا

إلى إيلغين ونيبيرفيل وجولييه، أو أن يعبروا الطريق لشيكاغو. ثم افتتح مركز ستانتونفيل التجاري في تسعينيات القرن الماضي. لم يكن مركزاً تجارياً فحسب، بل كان مركزاً تجارياً ضخماً فيه سينيبليكس باثنتي عشرة شاشة، ومدينة ملاهٍ للصغار، وجداراً للتسلق ومساحة للترامبولين تدعى فلايبرز، وغرفة هروب، وشباب يجوبون المكان وهم يتنكرون كحيوانات ناطقة. كانت قنبلة التجارة تلك شمالي ستانتونفيل، سلبت معالم الحياة من منطقة المركز والأمور التي تناساها المركز التجاري غطاها وولمارت وسامز كلاب جنوباً على مخرج الشارع الرئيسي الذي يتقاضى رسوماً.

ولمّا كنت أقود دراجتي ابتعدت عن ذلك الشارع وسلكت الطريق 74- أي، وكان عبارة عن مسربين وكان يخترق المزارع وحقول الذرة التي كانت تفوح منها روائح السماد والنباتات. كان صباحاً ربيعياً جميلاً، وكنت سأستمتع بهذه الرحلة ما لم أكن أحمل ثروة على ظهري، أذكر أنني فكّرت بجاك الذي تسلق على نبتة الفاصولياء.

وصلت إلى شارع بلدة ستانتونفيل الرئيسي قرابة الساعة التاسعة والربع وكان هذا وقتاً باكراً لذا توقفت عند المطعم، واشتريت الصودا وشربتها وأنا أجلس على مقعد حديقة في ساحة متسخة صغيرة فيها نافورة جافة مليئة بالقمامة وتمثال متشح بمخلفات الطيور لشخص لم يسبق لي أن سمعت به. فكّرت في تلك الساحة والنافورة الجافة لاحقاً في مكان مهجور أكثر من ستانتونفيل.

لا أستطيع أن أُقسم على أن كريستوفر بولي كان هنا في ذلك الصباح كما لا أستطيع أن أُقسم بعكس ذلك. كان بولي من النوع الذي يتخفى بين عناصر الوسط حتّى يصبح جاهزاً ليظهر نفسه أمامك. لعله كان في المطعم يلتهم اللحم والبيض، أو لعله كان في موقف الباص أو يتظاهر بتفحص الغيتارات ومعداتها في متجر ستانتونفيل للرهانات والقروض، أو لعله لم يكن في أي مكان، كل ما يمكنني قوله هو إنني لا أتذكر أحداً يعتمر قبعة

رياضية للوايت سوكس ومن النوع الذي يرسم عليه دائرة حمراء في المقدمة، ولكنني لم أر ذلك الوغد من دونها أبداً.

عندما أصبحت الساعة العاشرة إلا الثلث رميت بكوب الصودا الذي لم أنهِه في سلة قمامة قريبة، وتحركت ببطء إلى الشارع الرئيسي. لم يشغل قطاع الأعمال المعتبر سوى أربعة صفوف من المباني وكان هناك في نهاية الصف الرابع قرب لافتة كتب عليها: شكراً لزيارتكم ستانتونفيل الجميلة. لافتة أخرى كتب عليها مجوهرات ممتازة: نشتري ونبيع،. بدا المتجر متداعياً كباقي متاجر هذه البلدة المتهالكة، لم يكن هناك شيء معروض على واجهة المتجر المتسخة، كتب على اللافتة المعلقة على الباب من مسكة بلاستيكية: مغلق.

كان هناك جرس فرننت عليه ولم أنل جواباً، رننته مجدداً، وكنت مدركاً للغاية للحمل الذي كان على ظهري. لامست الزجاج بأنفي ووضعت يدي على جانبي وجهي كي أرى بشكل جيد، رأيت سجادة قديمة وعلب عرض فارغة، بدأت أفكر في أنني ارتكبت خطأ ما، أو أن السيد بوديتش قد ارتكب خطأ حين ظهر رجل ضئيل يعتمر قبعة تويد ويرتدي سترة لها أزرار وبنطالاً واسعاً وبدأ يعرج في الرواق المركزي. بدا كمزارع في مسلسل تحقيق بريطاني، حدق إليّ ثمّ عرج بعيداً وضغط زراً قرب عدادة المال ذات الطراز القديم. أصدر الباب صوتاً وفتحته ثمّ دخلت واستقبلتني رائحة الغبار والتدهور البطيء.

قال: «تعالَ إلى الخلف، تعالَ إلى الخلف».

بقيت مكاني وقلت له: «أنت السيد هاينريك، أليس كذلك؟».

«ومن أكون؟»

«هل يمكنني أن أرى، همم، رخصة قيادتك؟».

قطب حاجبيه ثمّ ضحك: «أرسل الرجل العجوز فتى حذراً، لقد أحسن الاختيار».

أخرج محفظة رثة من جيبه الخلفي، وفتحها كي أرى رخصة قيادته، وقبل أن يغلق محفظته مجدداً، قرأت أن اسمه الأول كان ويلهيلم.

«هل أنت راضٍ؟».

«أجل، شكراً لك».

«عد إلى الخلف، بسرعة».

تبعته إلى الغرفة الخلفية التي فتحها بواسطة لوحة مفاتيح وخبأها عني بحذر وهو يدخل الأرقام، كانت جميع الأشياء التي لم تكن معروضة على الواجهة في الداخل حيث كانت الرفوف متشحة بالساعات والمجوهرات والبروشات والخواتم والقلائد والسلاسل. توهج الياقوت والزمرد ورأيت تاجاً مليئاً بالألماس. أشرت إلى التاج وسألته: «هل هذا الألماس حقيقي؟».

«جا، جا، حقيقي، ولكنني لا أعتقد أنك أتيت إلى هنا كي تشتري، أتيت إلى هنا لتبيع، لعلك لاحظت أنني لم أطلب منك أن تظهر لي رخصة قيادتك».

«هذا جيد لأنني لا أملك واحدة».

«أعلم من أنت بالفعل، رأيت صورتك في الصحيفة».

«ذا سان؟».

«أميركا توداي، أنت بطل قومي يا سيد تشارلي ريد على الأقل هذا الأسبوع، لقد أنقذت حياة بوديتش العجوز».

لم أتكبد عناء أن أشرح له أن الكلبة هي من أنقذت حياته فقد تعبت من الأمر وأردت أن أنهي عملي وأخرج من هنا. لقد أفزعني هذا الكم من المال والمجوهرات خصوصاً عندما رأيت المفارقة بينها وبين الرفوف الفارغة على الواجهة. تمنيت إلى حدّ ما لو أحضرت معي المسدس لأنني لم أشعر مثل جاك فتى نبتة الفاصولياء بل مثل جيم هوكنز في جزيرة الكنز. كان هاينريك رجلاً قصيراً وبديناً ومسالماً، ولكن ماذا لو كان لديه مساعد مثل لونغ جونغ سيلفر يترصد لي في مكان ما؟ لم تكن هذه مجرد فكرة نسجها عقلي المرتاب، كان يمكنني أن أقنع نفسي أن السيد بوديتش كان يتعامل مع هاينريك لسنوات، ولكن السيد بوديتش بنفسه قال إنه لم يسبق له أن باع هذا المقدار من الذهب.

قال: «دعنا نرَ ما لديك»، عادة ما تُمثل هذه الشخصيات في كتاب عن قصص اليافعين الطمع وتقوم الشخصية بفرك يديها ونظرة النهم مرتسمة على وجهها، ولكنه بدا عملياً ولعله كان ضجراً بعض الشيء، لم أثق بهذا كما لم أثق به.

وضعت الحقيبة على الطاولة، كان هناك ميزان قريب وكان ر-ق-مياً بالفعل، فتحت الحقيبة، ووسعت الفتحة، فألقى نظرة ورأيت شيئاً يتغير في تعابير وجهه كما رأيت توسعاً لحظياً لعينيه.

«يا إلهي!، أهذا ما كنت تحمله على دراجتك؟».

كان هناك وعاء زجاجي مربوط بسلاسل، وضع هاينريك حفنات صغيرة من قطع الذهب في الوعاء حتّى أشار المؤشر إلى رطلين، وضعها جانباً في وعاء بلاستيكي ثمّ وزن رطلين آخرين، وحين انتهى من وزن آخر رطلين وإضافتهما إلى البقية كان هناك بحر من الذهب في إحدى طيات قعر الحقيبة، قال لي السيد بوديتش أن آخذ كمية أكثر وفعلت ما قاله لي.

قال لي وهو ينظر إلى الحقيبة: «أعتقد أنه تبقى ثلاثة أرباع رطل أليس كذلك؟ بعني إياها وسأعطيك ثلاثة آلاف دولار نقداً، ليس على بوديتش أن يعرف، اعتبره بقشيشاً».

قلت لنفسي: سيكون مستمسكاً سيستخدمه ضدي. قلت له شكراً في جميع الأحوال، وأغلقت الحقيبة. «أحضرت شيكاً أليس كذلك؟».

«أجل»، كان الشيك مطوياً في جيب معطف الرجل العجوز، كان من مصرف بي.إن.سي في شيكاغو وفرع جادة بيلمونت وكان موجهاً لهاورد بوديتش بمبلغ قدره أربعة وسبعين ألف دولار، كتب في الخانة قرب توقيع ويلهيلم هاينريك: خدمات خاصة. بدا الشيك صحيحاً، وضعته في محفظتي، ووضعت محفظتي في جيبي الأمامي الأيسر.

قال هاينريك: «إنه رجل عجوز عنيد ويرفض أن يواكب تطور الزمن، وفي مرات عديدة في الماضي وحين كنا نتعامل بمبالغ أقل بكثير كنت أعطيه مالاً نقدياً، وأعطيته شيكاً في مناسبتين. قلت له: ألم تسمع بالإيداع الإلكتروني؟ وهل تعلم ماذا أجابني؟»

أشحت بوجهي ولكن كان بوسعي أن أخمن.

«قال لي: لم أسمع به ولا أريد أن أسمع به، والآن ولأول مرة يرسل لي زويشين غيهين[12] - مبعوثاً - لأنه قد تعرض لحادث، كان بوسعي أن أقول إنه ليس لديه أحد في العالم ليثق به في تأدية هذه المهمة، ولكن ها أنت ذا! شاب على دراجة».

قلت له: «وها أنا ذاهب»، واتجهت إلى الباب الذي يؤدي إلى المتجر القاحل حالياً حيث كان سيركب علب العرض أو لن يركبها، توقعت تقريباً أن يكون الباب موصداً، ولكنه لم يكن كذلك. شعرت بتحسن حالما وقفت في ضوء النهار، ومع هذا كانت رائحة الغبار القديم مزعجة وكأنها منبعثة من تابوت.

سألني هاينريك وهو يتبعني ويُغلق باب الغرفة خلفه: «هل يعرف ما هو الحاسوب؟ أعتقد لا».

لم أخطط لأن أنخرط في حديث عن معلومات السيد بوديتش. لذا، اكتفيت بأن أقول له إنني سررت برؤيته، ولم يكن هذا صحيحاً، لقد سررت لأن دراجتي لم تسرق. فحين تركت المنزل هذا الصباح كنت منشغلاً للغاية لدرجة أنني نسيت قفل دراجتي.

أمسكني هاينريك بمرفقي، استدرت ورأيت لونغ سيلفر جون الداخلي في نهاية المطاف، لم يحتج سوى لببغاء على كتفه لتكمل الصورة. وبالنسبة إلى سيلفر شهد ببغاؤه شروراً أكثر من الشيطان نفسه. أعتقد أن ويلهيلم رأى حصته من الشرور... ولكن عليكم أن تتذكروا أنني كنت في السابعة عشرة من عمري وكنت غارقاً في أمور لم أفهمها. بالمختصر كنت أرتعش خوفاً.

سأل هاينريك بصوت منخفض ومزمجر: «كم يملك من المال؟». اعتبرت استعماله للكلمات الألمانية هنا وهناك نوعاً من اللطافة، ولكنه بدا ألمانياً للغاية في تلك اللحظة وليس ألمانياً لطيفاً. «أخبرني كم لديه وكيف يحصل عليه وسأحرص على أن أعطيك ما تستحق».

قلت له: «سأذهب الآن» وبالفعل ذهبت.

هل كان كريستوفر بولي يراقبني حين امتطيت دراجتي وقدتها بصحبة المال المتبقي في حقيبتي؟ لم يكن من الممكن أن أعرف لأنني كنت أنظر إلى وجه هاينريك المكتنز الشاحب قرب لافتة مغلق على باب متجره القديم. لعل خيالي كان له دور في ذلك - وأرجح هذا - ولكنني اعتقدت أنني استطعت رؤية الطمع في عينيه.

علاوة على إنني فهمته، تذكرت حين مررت يدي في ذلك الدلو، وجعلت القطع تمر من بين أصابعي، لم يكن طمعاً فحسب بل كان طمعاً

ذهبياً.

كما في قصص القراصنة.

6

في تمام الساعة الرابعة عصر ذلك اليوم، ركنت شاحنة كتب على جانبها مرضى أركاديا الخارجيون قرب الرصيف. كنت أنتظر عند الممشى مع رادار، وكنت أطوق رقبتها باللجام، وكانت البوابة -التي أصبحت خالية من الصدأ - مفتوحة على مصراعيها. خرج مسعف من الشاحنة، وفتح البابين الخلفيين. كانت ميليسا ويلكوكس تقف وراء السيد بوديتش الذي كان يجلس على كرسي متحرك، وكانت ساقه المثبتة ممدودة. فكت قفل الكرسي المتحرك، ودفعته إلى الأمام وكبست زراً براحة يدها. وحين بدأت المنصة والكرسي يتحركان هبط قلبي؛ تذكرت الهاتف والمبولة وجرس النداء. كان شيكه من هاينريك بأمان في محفظتي، وكان كل شيء على ما يرام، ولكن لم يكن هناك منحدر للكرسي المتحرك، لا في الأمام ولا في الخلف. شعرت أنني أحمق ولكن الجيد في الأمر هو أنني لم أشعر بالحمق لفترة طويلة؛ كانت رادار إلى جانبي وتولت تشتيتي. رأت السيد بوديتش وقفزت باتجاهه. لم تبدُ أيّ بوادر التهاب مفاصل في وركيها حينها، وتمكنت من شد لجامها في الوقت المناسب كي لا تتسبب بسحق كفيها بالمنصة النازلة، ولكنني شعرت بالصدمة وهي تنخر في عظامي.

يارك! يارك! يارك!

لم يكن هذا نباح الكلبة الذي أخاف آندي في تلك الأيام، بل نحيباً حزيناً وبشرياً لدرجة أنه آلم قلبي. قالت تلك الأصوات: لقد عدت! حمداً لله! ظننتك لن تعود.

مد السيد بوديتش ذراعيه إليها، فقفزت ووضعت كفيها على ساقه الممدودة. تأوه قليلاً ثمّ ضحك وعانق رأسها، قال برفق: «أجل يا فتاتي».

كان من الصعب عليّ أن أصدق أن بإمكانه إصدار صوت كهذا حتّى عندما سمعته بأذني ولكنه فعلها؛ لقد دندن ذلك العجوز المتذمر. كانت عيناه تغرغران بالدمع، وكانت رادار تصدر أصواتاً تنم عن الفرح، كما كان ذيلها الكبير العجوز يروح جيئة وذهاباً.

«أجل يا فتاتي، أجل. لقد اشتقت إليك أيضاً، انزلي الآن، فأنت تؤلمينني جداً».

نزلت رادار على أطرافها الأربع، ومشت قرب الكرسي المتحرك بينما كانت ميليسا تديره على الممشى وكان الكرسي يتحرك بصعوبة.

قلت: «ليس هناك منحدر، أنا آسف، أنا آسف. أستطيع بناء منحدر، وسأبحث عن كيفية تركيبه على الإنترنت فكل شيء موجود على الإنترنت». كنت أثرثر ولم أستطع أن أكبح نفسي. «أعتقد أن كل شيء آخر جاهز بطريقة أو بأخرى...».

قاطعني السيد بوديتش وقال: «نستطيع الاستعانة بشخص لوضع المنحدر، لذا كف عن الارتباك؛ ليس عليك أن تفعل كل شيء بنفسك. إن إحدى ميزات أمين السر هي قدرته على تفويض المهام وليس هناك عجلة، لا أغادر المنزل كثيراً كما تعرف، هل توليت أمر ذلك العمل؟».

«أجل، في هذا الصباح».

«ممتاز».

قالت ميليسا: «تستطيعان رفع ذلك الكرسي على الدرج بما أنكما قويان إلى هذا الحدّ، ماذا تقول يا هيربي؟».

قال المسعف: «لا مشكلة لديّ أليس كذلك يا صديقي؟»

قلت له: «بالطبع»، وأمسكت بجانب من الكرسي. صعدت رادار على الدرج، ووقفت على منتصفه حين غدرت بها ساقاها الخلفيتان، ثمّ استجمعت قواها وتابعت طريقها. نظرت إلينا من الأعلى وهزت ذيلها.

قالت ميليسا: «يجب على أحدهم أن يصلح هذا الممر إذا كان سيستخدمه. إنه أسوأ من الشارع الترابي في المنطقة التي ترعرعت فيه في تينيسي».

سألني هيربي: «هل أنت مستعد يا صديقي؟».

حملنا الكرسي المتحرك إلى الشرفة. بحثت في رزمة مفاتيح السيد بوديتش، ووجدت أخيراً مفتاح الباب الأمامي.

قال المسعف: «يا صديقي! ألم أرَ صورتك في الصحف؟».

تنهدت وقلت: «ربما، كنا نقف أنا ورادار قرب البوابة».

«كلا، كلا، في السنة الماضية، لقد سددت هدف الفوز في توركي بول قبل خمس ثوان من نهاية الشوط».

رفع يداً فوق رأسه، وكأنه يحمل كرة قدم خفية مثل حركتي في الصورة. لم أستطع أن أتبين السبب الذي جعلني أفرح بتذكره تلك الصورة بدلاً من الصورة الحديثة، ولكنني فرحت جداً.

انتظرت في غرفة المعيشة -كنت متوتراً أكثر من أي وقت مضى- بينما تفحصت ميليسا الأريكة المفرودة.

قالت: «حسناً، إنها جيدة، ولعلها منخفضة قليلاً، ولكن الجود بالموجود، سنحتاج سنادة لنعطي ساقه بعض الدعم، من أعد السرير؟».

قلت لها: «أنا»، أسعدتني تعابير المفاجأة التي اعتلت وجهها.

«هل قرأت النشرة التي أعطيتك إياها؟».

«أجل، لقد اشتريت مضادات البكتيريا للاهتمام بالأسياخ والدبابيس...».

أشاحت بوجهها وقالت: «إن المحلول الملحي البسيط هو كل ما تحتاج إليه. إنه ماء دافئ مملح، هل تشعر أنك مستعد لنقله؟».

قال السيد بوديتش: «مرحباً؟ لعلّ بوسعي أن أشارك بهذه المحادثة أليس كذلك؟ أنا هنا».

ابتسمت ميليسا وقالت: «أجل، ولكنني لا أتحدث إليك».

قلت: «إمم، لست متأكداً».

قالت ميليسا: «يا سيد بوديتش، أنا أتحدث إليك الآن، هل تمانع إذا جرب تشارلي جرك بالكرسي المتحرك؟».

نظر السيد بوديتش إلى رادار التي كانت تجلس قربه: «ما رأيك يا فتاة؟ هل يمكننا الوثوق بهذا الفتى؟».

نبحت رادار مرة.

«قالت رادار حسناً وأنا أوافقها، لا توقعني يا فتى، يكفيني مصابي».

قرّبت الكرسي من السرير، ورفعت المكبح، وسألته إن كان بوسعه أن يقف على ساقه اليمنى، رفع نفسه قليلاً، وسمح لي بفك حامي الساق الذي كان يرتديه فوق ساقه المصابة. تأوه قليلاً ولكنه وقف تماماً. ترنح قليلاً ولكن بشكل عمودي.

قلت: «أدر ظهرك إلى السرير، ولكن لا تجلس إلا عندما أقول لك»، أومأت ميليسا رأسها موافقة.

فعل السيد بوديتش هذا، وأبعدت الكرسي المتحرك عن الطريق.

«لا يمكنني أن أقف مطولاً على هذا النحو من دون العكازين»، تفصد حاجباه وجبهته بالعرق مجدداً.

قرفصت وأمسكت بالمثبت: «يمكنك أن تجلس الآن».

لم يجلس بل أرخى ثقله دفعة واحدة، وتمدد بعد أن أطلق تنهيدة راحة. وضعت ساقه على السرير، وكانت نقلتي الأولى ناجحة، لم أتعرق كالسيد بوديتش ولكنني كنت أتعرق بسبب التوتر على الأرجح، كانت هذه مهمة أصعب من تلقي الضربات من الرامي.

قالت ميليسا: «لا بأس بك، وحين تساعده على النهوض عليك أن تعانقه، اشبك يديك وسط ظهره واحمله، استخدم المنطقة تحت إبطيه لـــ...».

قلت لها: «للدعم، ذكرت هذه المعلومة في النشرة».

«أحب الشاب الذي يؤدي وظائفه. احرص دائماً على أن يكون العكازان بالقرب منه وخصوصاً عند النهوض من السرير، كيف حالك يا سيد بوديتش؟».

«كبرميل كبير من الحال السيئ، هل حان وقت دوائي؟».

«تناولت الدواء قبل أن نغادر المستشفى، يمكنك أخذ المزيد في تمام الساعة السادسة».

«أشعر وكأنني قد تناولته منذ وقت طويل، هل يمكنني تناول بعض البيركوسيت ليساعدني قليلاً؟».

«ليس معي»، ثمّ قالت لي: «ستتحسن في هذا، وسيتأقلم مع الوضع وخصوصاً بعد أن يتحسن ويزيد مجال حركته، هل يمكنك أن تخرج معي

قليلاً؟».

قال بوديتش: «ستتحدثان من وراء ظهري، مهما يكن الموضوع فلن يقوم الفتى بضرب أيّ حقن شرجية».

قال هيربي الذي أحنى ظهره ووضع يديه على ركبتيه كي يتفحص التلفاز: «واو، إن هذا أقدم تلفاز أرضي رأيته في حياتي يا صديقي، هل يعمل؟».

7

كانت شمس الأصيل رائعة، وبعثت ببعض الدفء الذي أعطى شعوراً مذهلاً بعد شتاء طويل وصيف بارد. قادتني ميليسا إلى الشاحنة، ومدت يدها، وأزالت القفل عن الكونسول المركزي، تناولت كيساً بلاستيكياً ووضعته على المقعد. «إن العكازتين في الخلف، إليك أدويته بالإضافة إلى عبوتين من جيل أرنيكا. هناك ورقة دوّنت عليها الجرعات المطلوبة، أتفهمني؟». أخرجت العبوات، وأرتني إياها واحدة تلو الأخرى. «إن هذه مضادات حيوية وهذه فيتامينات بأربعة أنواع، إن هذه وصفة للينبارزا، بإمكانك أن تشتري عبوات إعادة تعبئة من سي.في.إس في سينتري فيليج. إن هذه مليئات للأمعاء، لا يوجد تحاميل، ولكن عليك تصفح طريقة استخدامها إذا احتاج إليها. لن يفضلها».

قلت لها: «لا يفضّل شيئاً تقريباً إلا رادار».

قالت: «وأنت، إنه يحبك يا تشارلي. يقول عنك إنك أهل للثقة. أتمنى أنه لا يقول هذا لأنك أتيت في الوقت المناسب لتنقذ حياته ».

كانت العبوة الكبيرة مليئة بحبوب أوكسيكونتين عيار عشرين ميليغراماً، نظرت إليّ ميليسا بجدية وحزم: «إن هذا دواء سيئ يا تشارلي فهو يسبب الإدمان الشديد، ولكنه في الوقت ذاته فعال جداً لتخفيف الألم

الذي يعاني منه الآن صديقك، ولعله سيعاني منه لمدة تتراوح بين ثمانية أشهر وسنة ويمكن لأكثر من ذلك وفقاً لمشاكله الأخرى».

أشاحت بوجهها وقالت: «ليست لديّ صلاحية البوح بهذا، التزم بجدول الجرعات وتجاهل طلباته إذا أراد المزيد، يمكنه أن يحصل على جرعة إضافية قبل جلساتنا، وبما أنني واثقة أن هذا سيصبح أحد أهم محفزاته -ولعله سيكون الأهم- لإتمام العلاج على الرغم من تألمه الشديد، وسيتألم جداً، عليك أن تحفظها في مكان لا يستطيع الوصول إليه، هل خطر على بالك مكان؟».

«أجل»، لقد كنت أفكر بالخزنة، «سينفع هذا المكان إلى أن يستطيع الصعود على الدرج».

«لمدة ثلاثة أسابيع إذاً إن التزم بالعلاج، ويمكن أن تصل هذه المدة إلى شهر. حالما يستطيع الصعود على الدرج عليك أن تفكر بمكان آخر، تعادل هذه الحبوب بالنسبة للمدمنين وزنها ذهباً».

ضحكت فلم أستطع أن أمنع نفسي.

«ماذا؟ ما المضحك في كلامي؟».

«لا شيء، سأحفظها في مكان آمن ولن أدعه يستميلني كي أعطيه المزيد».

نظرت إليّ عن كثب: «ماذا عنك يا تشارلي؟ لأنني لا أفضل أن أعطيها لقاصر، حيث إن الأطباء الذين وصفوها يعرفون أن بالغاً هو من سيعطيها. يمكن أن أتورط في مشاكل، هل ستجرب حبة أو اثنتين لتنتشي؟»

فكرت في والدي وما فعله فيه الكحول وكيف اعتقدت لفترة أننا كنا على وشك العيش تحت جسور الشوارع وحفظ كل ممتلكاتنا في عربة متجر مسروقة.

تناولت العلبة الكبيرة من حبوب أوكسي، ووضعتها في الحقيبة قرب الأدوية الأخرى ثمّ تناولت يدها ونظرت في عينيها وقلت: «لن أفعل هذا بحق الجحيم».

8

كان هناك مزيد من التعليمات التي استوعبتها لأنني كنت متوتراً من البقاء معه وحدي؛ ماذا لو حصل شيء وتوقف هاتف سبعينيات القرن الماضي عن العمل؟

قلت لنفسي: ستتصل إذاً برقم الطوارئ بواسطة هاتفك المحمول المعاصر، كما فعلت حين رأيته على الشرفة الخلفية، ولكن ماذا لو أصابته ذبحة قلبية؟ كل ما أعرفه عن التنفس الاصطناعي تعلمته من برامج التلفاز وإذا توقف محركه فلن يكون هناك وقت كي أتحقق من اليوتيوب حول هذا الموضوع، رأيت المزيد من الوظائف في مستقبلي.

راقبت الشاحنة وهي تغادر ثمّ عدت إلى الداخل، كان السيد بوديتش يستلقي ويضع ذراعاً على عينيه، وكانت رادار تجلس بترقب قرب سريره، لم يعد هناك سوى نحن الثلاثة.

سألته: «هل أنت على ما يرام؟».

أنزل ذراعه، وأدار وجهه لينظر إليّ. كانت تعابيره كئيبة: «أنا في حفرة عميقة يا تشارلي، لا أعرف ما إن كان بوسعي أن أخرج منها».

قلت له: «ستخرج»، وتمنيت لو بدوت أكثر إقناعاً من شعوري الداخلي بخصوص الموضوع، «هل تريد طعاماً؟».

«أريد مسكناتي».

«لا أستطيع...».

رفع يده وقال: «أعلم أنك لا تستطيع ولن أهين نفسي -أو أهينك - بالتوسل إليك أبداً، وأتمنى هذا على الأقل». ربت رأس رادار مراراً وتكراراً، فجلست من دون حراك، وكان ذيلها يتحرك ببطء من جانب إلى آخر، ولم تشح بناظرها عنه أبداً، «أعطني الشيك وقلماً».

فعلت هذا، وجلبت كتاباً ذا غلاف سميك ليسند الشيك إليه، كتب: للإيداع فقط ثمّ وقع عليه: «هل تستطيع أن تأخذه إلى المصرف غداً؟».

«بالطبع، فيرست سيتيزنز أليس كذلك؟».

«هذا صحيح، حالما يدخل النظام بإمكاني كتابة شيك لتغطية كلفة إقامتي في المستشفى»، سلمني الشيك فأعدته إلى محفظتي. أغمض عينيه ثمّ فتحهما مجدداً، وحدق إلى السقف، لم تفارق يده رأس رادار أبداً، «أنا تعب للغاية، ولا يأخذ الألم إجازة على الإطلاق حتّى إنه لا يأخذ استراحة».

«أتريد طعاماً؟».

«لا أريد، ولكنهم قالوا لي إنّ عليّ أن أتناول الطعام، لعلني سأتناول بعض س و س - أي سردين وسالتينز».

لقد بدا هذا الطعم فظيعاً بالنسبة إليّ، ولكنني أحضرته مع كأس من الماء المثلج. شرب نصف الكأس بشراهة قبل أن يبدأ بالسردين (مبتور الرأس ويلمع من الزيت - يا للقرف!)، سألني إن كنت عازماً على البقاء هنا هذه الليلة.

قلت له: «الليلة وكل الأسبوع».

«هذا جيد، لم أمانع البقاء وحدي من قبل، ولكن الوضع قد تغير الآن. أتريد أن تعلم ماذا علمني الوقوع عن ذلك السلم؟ أو أعاد تعليمي بالأحرى؟».

أشحت بوجهي.

«الخوف، أنا رجل عجوز ومكسور».

قال هذا من دون شفقة على نفسه، ولكن كرجل يقول حقيقة مثبتة: «أعتقد أنّ عليك أن تذهب إلى منزلك لتطمئن والدك أن كل شيء جرى على ما يرام حتى الآن أليس كذلك؟ وتناول بعض العشاء مثلاً، ثمّ تستطيع العودة وإطعام رادار وإعطائي حبوبي اللعينة. قالوا إنني سأصبح مدمناً ولن أستغرق وقتاً طويلاً لأثبت لهم صحة ذلك».

«تبدو هذه خطة جيدة»، توقفت قليلاً ثمّ قلت: «يا سيد بوديتش... هاورد... أريد أن أحضر والدي ليقابلك، أعرف أنك لست منفتحاً حتّى قبل مصابك الأليم ولكن...».

«أفهمك تماماً، يريد أن يطمئن نفسه، وأعتبر هذا منطقياً جداً، ولكن ليس الليلة يا تشارلي ولا غداً، لعله يستطيع القدوم يوم الأربعاء حين أتحسن قليلاً».

قلت له: «حسناً، وهناك شيء آخر». كتبت رقم هاتفي المحمول على ورقة صغيرة ووضعتها على الطاولة الصغيرة قرب سريره، طاولة كانت ستملأ بالقطن والشاش والأدوية (ولكن ليس الأوكسي). «بإمكانك استخدام الجرس حين أكون في الأعلى...».

«إن طرازه فكتوري للغاية».

«ولكن في أي وقت أغيب فيه وتحتاج إليّ اتصل بي على هاتفي المحمول سواء أكنت في المدرسة أم لا. سأطلع السيدة سيلفيوس في المكتب على الوضع».

«حسناً، هيّا اذهب وطمئن والدك، ولكن لا تتأخر في العودة وإلا سأنهض وأحاول العثور على الحبوب بنفسي»، وأغمض عينيه.

قلت له: «فكرة سيئة».

قال دون أن يفتح عينيه: «إن الكون يعج بها».

9

إن أيام الاثنين هي أيام التحقق والمواكبة بالنسبة إلى أبي، فهو لا يعود إلى المنزل في معظم الأحيان قبل الساعة السادسة والنصف أو السابعة. لذا لم أتوقع أن أجده في المنزل ولم أجده بالفعل، كان ينتظرني خارج بوابة السيد بوديتش.

قال لي حين خرجت: «غادرت باكراً من العمل فكنت قلقاً عليك».

«ليس عليك أن...».

وضع ذراعه حول كتفيّ وعانقني: «قاضني إذاً. رأيتك تخرج وتتحدث مع فتاة يافعة حين كنت في وسط التل، لوحت لك ولكنك لم ترني، بدوت مركزاً جداً على كلامها».

«هل انتظرتني هنا طوال هذا الوقت؟».

«فكرت في أن أطرق الباب، ولكنني حسبت نفسي مصاص دماء في هذا الموقف، لا أستطيع الدخول إلا إذا تمت دعوتي».

قلت له: «يوم الأربعاء، تحدثت إليه عن الأمر».

«لا مانع لديّ، في المساء؟»

«قرابة الساعة السابعة فهو يتناول مسكناته في تمام الساعة السادسة».

مشينا باتجاه التل، وما زالت ذراعه تعانق كتفيّ. لم أمانع هذا، قلت له إنني لم أرد أن أترك السيد بوديتش بمفرده لوقت طويل، لذا لن أتمكن من

تناول العشاء معه، قلت له إنني سأرتب بعض أغراضي -خطر في بالي معجون الأسنان- وأعثر على شيء لآكله في خزانته (باستثناء السردين).

قال أبي: «ليس عليك فعل هذا، لقد اشتريت بعض الطعام من جيرزي مايكس، خذه معك».

«ممتاز!»

«كيف حاله؟».

«يتألم، أتمنى أن تساعده الحبوب التي يأخذها على النوم، يتناول المزيد منها في منتصف الليل».

«أوكسي؟».

«أجل».

«ضعها في مكان آمن، لا تدعه يعرف مكانها». كانت هذه نصيحة أعرفها مسبقاً، ولكن أبي لم يسألني على الأقل إن كنت سأنقاد وراء تجربتها بنفسي.

حين كنت في المنزل وضعت ثياباً تكفيني لمدة أيام في حقيبتي بالإضافة إلى نقطة الاتصال المحمولة من نوع نايتهوك. كان هاتفي المحمول لا بأس به، ولكن جهاز نايتهوك كان يؤمن اتصالاً لاسلكياً خارقاً. أضفت فرشاة الأسنان والشفرة التي بدأت استخدامها منذ سنتين. حافظ بعض الفتيان في مدرستي على لحاهم -كانت عادة رائجة- ولكنني فضّلت أن يكون وجهي نظيفاً. وضبت حقيبتي بسرعة، فبوسعي العودة غداً في حال نسيت شيئاً. كنت أفكر أيضاً بالسيد بوديتش وهو وحيد في منزله الذي يسرب ماء، وكانت كلبته العجوز هي مؤنسته الوحيدة.

حين استعددت للذهاب عانقني أبي مجدداً، ثمّ أمسك بكتفيّ. «انظر إلى نفسك وأنت تتحمل أول مسؤولية كبيرة، أنا فخور بك يا تشارلي، يا ليت بوسع أمك أن تراك، لا بدّ أنها كانت ستفخر بك هي الأخرى».

«أنا خائف بعض الشيء».

أومأ برأسه وقال: «سأكون قلقاً إن لم تكن خائفاً، تذكّر أنك تستطيع الاتصال بي إن حدث شيء ما».

«سأفعل هذا».

«أتعرف شيئاً؟ كنت أتطلع لأن تذهب إلى الجامعة، ولكن حماسي خف الآن، سيصبح هذا المنزل فارغاً من دونك».

«أبعد عنك ثلاثة أرباع ميل فقط يا أبي» ولكن كانت هناك غصة في حلقي.

«أعلم هذا، أعلم هذا، هيّا امضِ واخرجْ من هنا يا صديقي، أنجزْ ما عليك فعله»، ازدرد لعابه وغصّ هو الآخر، «ونفذْ عملك على أكمل وجه».

الفصل السابع
الليلة الأولى- أصبحتم تعرفون جاك الآن- حطاب بسيط-
العلاج- زيارة أبي-لينبارزا- السيد بوديتش يقطع وعداً.

1

سألت بوديتش إن كان بوسعي أن أجلس على كرسيه فأجاب: طبعاً. عرضت عليه أن يأكل نصف شطيرتي، وارتحت قليلاً حين رفض؛ كانت شطائر جيرزي مايكس هي الأفضل على الإطلاق.

«لعلني سأجرب شرب بعض الحساء بعد ساعة الدواء من نوع شعيرية الدجاج، سنرى».

سألته إن كان يريد أن يتابع الأخبار، فأشاح بوجهه وقال: «تابعها إذا كنت تريد ذلك، ولكنني لا آبه بهذه الأمور. تتغير الأسماء ولكن الهراء لا يتغير يوماً».

«أتعجب من حقيقة أن هذا التلفاز يعمل، ألا تنفجر الأنابيب؟».

«بالطبع، كما تتلف بطاريات المصباح أو بطارية التسعة فولت في الراديو النقال». لم أعرف ما هو الراديو النقال ولكنني لم أبحْ بهذا، «فتضع بطاريات جديدة حينها».

«من أين تحصل على الأنابيب؟».

«اشتريها من شركة اسمها ريتروفيت في نيو جرسي. ولكن سعرها يزداد كل سنة بسبب نقص المخزون».

«يمكنك تحمل تكاليفها على ما أعتقد».

تنهد وقال: «تقصد الذهب، ينتابك الفضول بالطبع كما سينتاب أي أحد في مكانك. هل أخبرت أحداً؟ هل أخبرت أباك؟ أو معلماً تثق به في مدرستك؟».

«أستطيع كتمان السر، سبق لي أن قلت لك ذلك».

«حسناً، لا داعي للتذمر. كان عليّ أن أسألك وسنتحدث في هذا الأمر ولكن ليس الليلة، لا أشعر أن بوسعي التحدث في أي شيء اليوم».

«لا داعي للعجلة، ولكن بخصوص أنابيب التلفاز... كيف تشتريها إذا لم يكن لديك إنترنت؟».

تأفف وقال: «هل تعتقد أن صندوق البريد للزينة فقط؟ أو شيئاً لأعلق عليه البهشية المقدسة في عيد الميلاد مثلاً؟».

كان يتحدث عن البريد الحلزوني. لقد تبيّن لي أن هناك بعض الأشخاص الذين يستخدمونه لقضاء احتياجاتهم. فكرت في أن أسأله لم لا يشتري تلفازاً جديداً، ولكنني أعتقد أنني أعرف إجابة هذا السؤال مسبقاً؛ كان يحب الأشياء القديمة.

عندما اقترب عقربا ساعة غرفة المعيشة من الساعة السادسة لاحظت أنني كنت أريد إعطاءه الحبوب بقدر ما كان يود تناولها. أخيراً، حان الوقت فصعدت إلى أعلى وجلبت حبتين، كان على وشك أن ينتشل الحبتين من يدي، كانت الغرفة باردة، ولكن جبهته كانت تتفصد عرقاً.

قلت له: «سأعطي رادار طعامها».

«ثم أخرجها إلى الشرفة الخلفية، إنها سريعة في قضاء حاجتها، ولكن ابقَ في الخارج قليلاً، أعطني المبولة يا تشارلي، لا أريدك أن تراني وأنا أستخدم هذا الشيء اللعين يا تشارلي. وبالنظر إلى عمري فإنني أستغرق بعض الوقت في قضاء حاجتي».

2

بحلول الوقت الذي عدت فيه وأفرغت المبولة كان الدواء قد أخذ مفعوله، طلب حساء الدجاج - كان يطلق عليه بنسلين اليهود- شرب السائل وتناول الشعيرية بالملعقة، وحين عدت بعد تنظيف الكوب كان قد خلد للنوم. لم أتفاجأ بهذا، لقد كان يومه صعباً للغاية، صعدت إلى غرفتي، وتناولت نسخته من كتاب العروس التي ارتدت الأسود، واستغرقت إلى أن استيقظ في تمام الساعة الثامنة.

سألني: «لم لا تشغل التلفاز وترى إن كان بوسعك العثور على ذلك البرنامج الغنائي، نحب أنا ورادار مشاهدته من وقت لآخر».

شغلت التلفاز، وقلبت بين القنوات المتوفرة ووجدت ذا فويس وكانت المعالم بالكاد واضحة ضمن زوبعة من التشويش، عدّلت أذني الأرنب إلى أن أصبحت الشاشة صافية بطريقة أو بأخرى وشاهدنا مجموعة متسابقين يؤدون. كان معظمهم ماهرين للغاية، التفت إلى السيد بوديتش كي أخبره أنني أحببت الرجل الذي غنى على ألحان الريف أو الكونتري ولكنني وجدته مستغرقاً في النوم.

3

تركت الجرس بالقرب منه على الطاولة الصغيرة وصعدت إلى الأعلى، التفتّ مرة واحدة، فوجدت رادار تجلس عند أسفل الدرج، وحين رأتني وأنا أنظر إلى الأسفل استدارت وعادت إلى السيد بوديتش حيث أمضت هذه الليلة وكل لياليها. نام على الأريكة المفتوحة حتّى بعد أن استطاع الصعود على الدرج لأنه أصبح صعباً عليه.

كانت غرفتي لا بأس بها على الرغم من أن المصباح الوحيد قد رسم ظلالاً مريبة على السقف، وصدرت أصوات صرير من نظام المنزل الإنشائي كما توقعت تماماً. أعتقد أن أصوات الصرير تلك كانت تقدم سيمفونية معتادة حين تهب الرياح. وصلت جهاز نايتهوك، وخضت عباب الإنترنت. فكرت كيف حملت كل ذلك الذهب على ظهري، وتذكرت أمي وهي تقصّ لي حكاية قديمة من كتاب ذهبي صغير. قلت لنفسي إنني كنت أمضي وقتاً فحسب، ولكنني أصبحت أتساءل الآن. أعتقد أننا نعرف أحياناً مآلنا حتّى حينما نعتقد أننا لا نعرف.

وجدت سبعة إصدارات على الأقل من حكاية جاك ونبتة الفاصولياء.

قرأتها على جوالي في ضوء المصباح الوحيد، ذكّرت نفسي أن أحضر حاسوبي المحمول في الغد، ولكن الجوال كان سيفي بالغرض لهذه الليلة. كنت أعرف الحكاية بالطبع كغولديلوكس وذات الرداء الأحمر، حيث إنها كانت جزءاً من نهر الثقافة الذي يحمل الأطفال عبر التيار. أعتقد أنني رأيت برامج الكرتون المتعلقة بالحكاية في وقت ما بعد أن قرأتها لي أمي، ولكنني لا أستطيع التذكر بالضبط. كانت القصة الأصلية وفقاً لويكيبيديا دامية أكثر من النسخة التي أتذكرها مثل أن جاك كان يعيش مع أمه فقط، لأن العملاق كان قد قتل أباه في إحدى ثورات العملاق العديدة.

لا بدّ أنكم تعرفون هذه القصة أيضاً: كان جاك وأمه مفلسين، ولم يكن لديهما سوى بقرة. طلبت منه أمه أن يبيعها في السوق مقابل خمس عملات ذهبية على الأقل (لم تكن هناك قطع أو حبيبات ذهبية في هذه القصة)، وفي طريقه إلى البلدة قابل جاك بائعاً متجولاً يتحدث بسرعة، وأقنعه أن يبدل بقرته بخمس حبوب ذهبية، غضبت أمه للغاية، وألقت بالحبات من النافذة، ونمت طوال اليوم وظهرت نبتة سحرية تلامس الغيوم، كانت هناك قلعة كبيرة في الأعلى (لم تشرح أيّ نسخة عن آلية طفو القلعة على الغيوم) وكان يعيش فيها العملاق مع زوجته.

سرق جاك بعض الأشياء الذهبية - عملات وإوزة تبيض ذهباً وقيثارة ذهبية تنبه العملاق- ولكنها لا تعتبر سرقة بالمعنى الحقيقي لأن العملاق كان قد سرق هذه الأشياء بدوره. اكتشفت أن أنشودة العملاق المشهورة -في فاي فو فوم! أشم رائحة دم رجل إنكليزي- كانت مستقاة من الملك لير حين تقول شخصية اسمها إدغار: ذهب تشايلد رولاند إلى البرج الداكن ولا تزال عبارته في فاي فو فوم! أشم رائحة دم رجل إنكليزي، وكان هناك شيء لم أتذكره من برنامج الكرتون أو الكتاب الذهبي الصغير: كانت غرفة نوم العملاق مليئة بعظام الأطفال. سبب لي اسم العملاق رعشة عميقة وغريزية.

غوغماغوغ[13].

4

أطفأت المصباح الوحيد عند الساعة الحادية عشرة، ونمت إلى أن رنّ هاتفي المحمول عند الساعة الثانية عشرة إلا الربع. لم أتكبد عناء إعادة حبات الأوكسي إلى الخزنة، كانت على المكتب حيث وضعت ملابسي القليلة. أنزلت حبتين إلى الأسفل، فزمجرت رادار عليّ في الظلام وتنبهت.

قال السيد بوديتش: «بلا صوت يا فتاة» فصمتت، أنرت المصباح، فوجدته يتمدد على ظهره ويحدق إلى السقف، «ها أنت ذا في الوقت المحدد تماماً، هذا جيد. لم أرد أن أستخدم هذا الجرس في الحقيقة».

«هل نمت؟».

«قليلاً لعلني سأستغرق في النوم بعد الدواء إلى أن يحل الفجر».

أعطيته الحبتين، واستند على مرفقه ليبتلع الدواء ثمّ سلمني الكوب وتمدد مجدداً. «لقد تحسنت بالفعل، أعتقد أن هذا هو التأثير النفسي».

«هل أستطيع أن أحضر لك شيئاً آخر؟».

«لا، عدْ إلى سريرك، يحتاج الشباب في طور النمو إلى كثير من النوم والراحة».

«أعتقد أنني وصلت إلى حدّ نموي»، هذا ما تمنيته على الأقل. كان طولي ست أقدام وأربعة إنشات، وكان وزني مئتين وعشرين، إذا نموت أكثر فسأصبح «غوغماغوغ». قلتها من دون أن أُفكر.

توقعت أن يضحك، ولكنه لم يبتسم: «أكنت تذاكر الحكايات الخيالية؟»

رفعت كتفيّ وقلت: «ذكّرني حملي للذهب إلى ستانتونفيل بالحبوب السحرية ونبتة الفاصولياء».

«أصبحت تعرف جاك الآن».

«أعتقد هذا».

«إن غوغ وماغوغ أو يأجوج ومأجوج في الإنجيل هما الدولتان المتحاربتان في العالم، هل كنت تعلم هذا؟».

«لا».

«سفر الرؤيا، ضعهما سوياً وستحظى بوحش حقيقي يجب الابتعاد عنه. أطفئ النور يا تشارلي، يجب أن ننام. ستحظى أنت بقسط من الراحة ولعلني سأنام قليلاً، سأفضل استراحة صغيرة من الألم».

ربّتُّ رأس رادار، ثمّ أطفأت النور. اتجهت إلى الدرج ثمّ التفت وقلت: «سيد بوديتش؟».

قال: «هاورد، عليك أن تتدرب على هذا، أنت لست حاجباً لعيناً».

حسبت نفسي هكذا ولكنني لم أرد أن أتجادل حول هذه النقطة في الليل: «حسناً، هاورد، ماذا كنت تعمل قبل أن تتقاعد؟».

قهقه، وكان صوته أجش ولكنه مريح في الوقت ذاته. «كنت عامل تنظيف وحطاباً بدوام جزئي، كنت حطاباً بسيطاً بصياغة أخرى. يذكر الحطابون في كثير من حكايات الخيال. اخلد إلى النوم يا تشارلي».

ذهبت إلى سريري ونمت حتّى الساعة السادسة موعد الدواء -ليس المسكنات فحسب بل الجرعة الكاملة، وجدته مستيقظاً مرة أخرى ويحدق إلى السقف. سألته إن حظي ببعض النوم، فأجاب: أجل، ولكنني لم أستطع تصديقه تماماً.

تناولنا البيض على الفطور وخفقته أنا بجلالة قدري. جلس السيد بوديتش على حافة الأريكة لتناول الطعام، ووضع ساقه المثبتة على وسادة تأتي مع كرسيه المريح. طلب مني الخروج مجدداً ريثما يستخدم المبولة، وحين عدت كان قد نهض فعلاً، واستند على عكازيه وينظر من النافذة الأمامية.

قلت له: «كان عليك أن تنتظرني كي أساعدك».

أصدر صوتاً يشبه تشا وقال: «لقد قومت السياج الخشبي».

«ساعدتني رادار».

«لا جرم أنها فعلت هذا، يبدو أفضل مما كان. ساعدني لأستلقي على السرير يا تشارلي. عليك أن تمسك بساقي مثلما فعلت سابقاً».

مددته على السرير، واصطحبت رادار في نزهة على شارع باين. بدت الأدوية الجديدة فعالة لأنها مشت مسافة لا بأس بها، وتركت أثرها عند أكشاك الهاتف وصنبور إطفاء حرائق أو اثنين على طول الطريق. أخذت شيك السيد بوديتش لاحقاً إلى المصرف، وفي المنزل -حين مر وقت طويل على مغادرة أبي- أخذت المزيد من الثياب وحاسوبي المحمول، كان الغداء عبارة عن مزيد من السردين والسالتين للسيد بوديتش والنقانق لي. كنت سأكتفي بالعشاء المجمد (كنت أفضل ستوفيرز)، ولكن السيد بوديتش لم يمتلك ميكروويف. أخرجت بعض اللحم من تيلير وسونز ليذوب، وكان بوسعي أن أشاهد مقاطع تعليم الطبخ على اليوتيوب في المستقبل، إن لم نكن سنعيش على الحساء والسردين. أعطيت السيد بوديتش حبوب الظهر، واتصلت بميليسا ويلكوكس لبعض المراجعة كما طلبت مني. كان عليّ أن أخبرها عدد المرات التي نهض فيها السيد بوديتش، وماذا كان يأكل، وإذا كانت أمعاؤه قد تحركت واضطر للتغوط. أجبت: «لا» على آخر سؤال ولم تتفاجأ. قالت إن أوكسيكونتين يسبب الإمساك، وبعد الغداء أخذت ظرفاً إلى

صندوق البريد ورفعت العلم، تضمن شيكه الشخصي المرسل إلى مستشفى أركاديا، كان بوسعي أن آخذه بنفسي، ولكن السيد بوديتش أراد أن يتحقق من شيك هاينريك أولاً.

أقول لكم هذه الأمور ليس لأنها مهمة فعلاً، ولكن لأنها شكّلت نظام حياة استمر طوال فصل الربيع ومعظم فصل الصيف. وبطريقة ما كانت تلك الأشهر جيدة. شعرت أنني مفيد وهناك شخص يحتاج إليّ. أحببت نفسي أكثر من أي وقت مضى، ولكن النهاية كانت وخيمة.

6

مساء يوم الأربعاء من أسبوع عطلة الربيع، وصلت ميليسا للقيام بأول جلسة ع.ف، كانت تطلق عليها جلسة علاج فيزيائي، أما هو فكان يطلق عليها جلسة عذاب وفناء. كان يحظى بجرعة زائدة من الأوكسي ويرتاح إليها، بالإضافة إلى كثير من تمديد ساقه المتألمة وحملها، ما لم يكن يرتاح إليه. كنت أجلس في المطبخ معظم فترة الجلسة، وأستمع للكلمات النابية: وضيعة، يا للعنة، منحطة وتوقفي. قال توقفي كثيراً وكان يلحق بها عبارة لعنك الله. لكن ميليسا لم يرمش لها جفن.

عندما انتهت الجلسة التي استمرت عشرين دقيقة، ولا بدّ من أنها بدت أطول من وجهة نظره نادتني. كنت قد أحضرت كرسيين إضافيين من الطابق الثالث (ليس من الكراسي ذات الظهر القائم التي كانت تتماشى مع طاولة الطعام حيث بدت لي ضرباً من التعذيب)، وكان السيد بوديتش يجلس على أحد الكرسيين. كانت ميليسا قد أحضرت طراحة إسفنجية وكان كاحل ساقه المتألمة يستند إليها. ولأن الطراحة كانت أخفض من الوسادة كانت ركبته -التي لا تزال مضمدة- مثنية.

قالت ميليسا بلهفة: «انظر إلى هذا! لقد ثنيتها بزاوية قدرها خمس درجات! لست مسرورة وحسب بل مذهولة!»

زمجر السيد بوديتش وقال: «إنها تؤلمني للغاية، أود أن أعود إلى سريري».

ضحكت كثيراً، وكأن هذه كانت أطرف نكتة تسمعها في حياتها. «خمس دقائق إضافية ثمّ ستقف على عكازيك، سيساعدك تشارلي».

تحمّل خمس دقائق ثمّ ترنح وهو يقف وأعاد عكازيه، التف باتجاه السرير، ولكنه أفلت أحد العكازين، فسقط أرضاً، ونبحت رادار. أمسكت به في الوقت المناسب، وساعدته على إكمال اللفة. وخلال اللحظات القليلة التي كنت قريباً منه، وأسنده والتف عليه بذراعي، بينما تلتف ذراعه عليّ، كان بوسعي أن أشعر بقلبه وهو ينبض بشدة وبقوة، لقد خطرت لي كلمة بعنف.

مددته على السرير، ولكن خلال العملية انثنت ساقه المتألمة أكثر من خمس درجات، فصرخ من شدة الألم. تنبهت رادار حالاً، فنبحت وأرجعت أذنيها إلى الخلف.

قال السيد بوديتش وهو يلهث: «أنا بخير يا فتاة، اجلسي».

تمددت على بطنها، ولم تفارقه عيناها. أعطته ميليسا كوب ماء وقالت: «وكمكافأة مميزة لإنجازك العظيم يمكن أن تتناول دواءك اليوم عند الساعة الخامسة مساء. سأعود يوم الجمعة، أعلم أن هذا مؤلم يا هاورد حيث لا تريد هذه الأربطة أن تتمدد، ولكنها ستتمدد إذا التزمت».

قال: «يا إلهي!» ثمّ أضاف على مضض: «حسناً».

«أوصلني يا تشارلي».

فعلت ما طلبته، وحملت حقيبة معداتها، كانت قد ركنت سيارتها الصغيرة من نوع هوندا سيفيك خارج البوابة، وحين رفعت غطاء الصندوق ووضعت الحقيبة فيه رأيت السيدة ريتشلاند تقف في الجهة المقابلة من

الشارع، وكانت تحجب أشعة الشمس مرة أخرى لترى النشاطات بدقة، رأتني وأنا أراقبها فحركت أصابعها.

سألتها: «هل سيتحسن فعلاً؟».

«أجل، هل رأيت انثناءة ركبته؟ كانت حركة غير اعتيادية، شهدتها من قبل، ولكن في العادة مع مرضى يافعين». فكرت قليلاً ثمّ أومأت برأسها. «سيتحسن ولفترة محدودة على الأقل».

«ماذا يعني هذا؟».

فتحت الباب الأمامي وسألتني: «إنه عجوز متذمر أليس كذلك؟».

قلت وأنا على دراية تامة بأنها لم تجبني عن سؤالي: «في الحقيقة إنه لا يملك مهارات تواصل».

ضحكت مجدداً وبدت مبتهجة. أحببت مظهرها الجميل تحت ضوء شمس الربيع: «تستطيع قول هذا مجدداً يا صديقي ويجب أن يؤرّخ. سأعود يوم الجمعة وسيكون يوماً مختلفاً ولكن الروتين واحد».

«ما هو دواء لينبارزا؟ أعرف بقية الأدوية التي يأخذها، ولكنني لا أعرف هذا الدواء، ما وظيفته؟».

اختفت ابتسامتها وقالت: «لا أستطيع البوح بهذا يا تشارلي حرصاً على سرية المريض»، جلست وراء المقود وقالت: «ولكن بإمكانك البحث عنه على الإنترنت، كل شيء موجود على الإنترنت».

ثم غادرت.

7

في تمام الساعة السابعة من تلك الليلة، فتح أبي البوابة الأمامية -ولم أتكبد عناء إقفالها- ومشى باتجاهي حيث كنت أجلس على درج الشرفة،

فبعد جلسة العلاج الفيزيائي للسيد بوديتش سألته إن كان يريد أن أؤجل زيارة أبي. كنت أريده أن يقول أجل إلى حدّ ما، ولكنه أشاح بوجهه بعد أن فكّر لبرهة: «دعنا نقمْ بالأمر ونطمئن باله، لا بدّ من أنه يريد التأكد من أنني لست متحرشاً بالأطفال».

لم أجب على هذا على الرغم من أن حالة السيد بوديتش تلك لم تكن لتسمح له بالتحرش بشبل كشافة، ناهيك عن شخص ضخم طوله ست أقدام وأربعة إنشات وتفوق في رياضتين.

«مرحباً يا تشارلي».

«مرحباً يا أبي»، وعانقته.

كان يحمل صندوقاً فيه ست علب صودا: «أتعتقد أنه سيستفيد منها؟ لقد كسرت ساقي حين كنت في الثانية عشرة من عمري، ولم أستطع الاكتفاء منها».

«ادخل واسأله بنفسك».

كان السيد بوديتش يجلس على أحد الكرسيين اللذين سبق لي أن أنزلتهما. طلب مني أن أحضر له قميصاً ومشطاً لشعره، باستثناء بنطال البيجاما الذي كان منتفخاً عند منطقة الركبة. اعتقدت أنه بدا على ما يرام وفي تمام الصحة. كنت متوتراً، وأملت ألا يكون متعجرفاً مع أبي، ولكن ما كان يجدر بي أن أقلق، كان تأثير أدويته فعالاً، ولكن لم يكن هذا هو السبب الوحيد حيث إن هذا الرجل كانت لديه مهارات تواصل بالفعل، كانت متزعزعة ولكن موجودة، أعتقد أن بعض الأمور تشبه ركوب الدراجة.

قال: «سيد ريد، لقد رأيتك في الأيام الخوالي، ولكن يسرني أن أقابلك بشكل رسمي»، مدّ إحدى يديه المتعرقتين وقال: «اعذرني إن لم أقف».

صافحه أبي وقال: «لا عليك. نادني بجورج من فضلك».

«سأفعل هذا، ونادني أنت بهاورد مع أنني عانيت الأمرين في إقناع ابنك بمناداتي بهذا الاسم. وددت أن أقول لك كم كان جيداً معي، إنه فتى الكشافة دون الهراء الذي يأتي مع ذلك، ولا تؤاخذني على كلامي هذا».

قال أبي: «بالطبع لا، أنا فخور به، كيف حالك؟».

«في تحسن... على الأقل هذا ما تقوله لي الملكة المعذبة».

«المعالجة الفيزيائية؟».

«حسبما يقولون عنها».

قال أبي وهو ينحني ليداعب رادار: «وها هي الفتاة الجيدة، سبق لنا أن تقابلنا».

«سمعت هذا، إن لم تخني عيناي، أعتقد أن معك كوكاكولا».

«لم تخنك، هل ترغب ببعض الثلج؟ أخشى أن تكون دافئة قليلاً».

«سأرحب بالثلج على الصودا، مرّ عليّ وقت كنت أفضل فيه بعض الرام عليها».

توترت قليلاً، ولكن أبي اكتفى بالضحك: «أفهمك تماماً».

«تشارلي؟ هل تستطيع أن تحضر ثلاث كؤوس طويلة من الرف العلوي وتضع فيها ثلجاً؟».

«بالطبع».

«لعله يجدر بك أن تغسلها أولاً، لم تُستخدم منذ وقت طويل».

أخذت وقتي، وسمعت المحادثة، وأنا أغسل الكؤوس، وأزلت مكعبات الثلج من علبة السيد بوديتش القديمة. عزّى السيد بوديتش أبي بوفاة

زوجته، وقال إنه تحدث معها عدة مرات على شارع سيكامور («حين اعتدت أن أخرج أكثر») وبدت أنها فتاة لطيفة.

قال السيد بوديتش: «كان يجب أن يعبّد ذلك الجسر اللعين فوراً. كان من الممكن أن يحول دون موتها، تفاجأت لأنك لم تقاض البلدية».

قلت لنفسي: كان منغمساً في شربه للكحول ليفكر بمثل تلك الأمور. كنت قد تناسيت حقدي، ولكن ليس بشكل كامل. يترك الخوف والفقدان بصمة أبدية.

8

كان الظلام قد حل حين مشيت مع أبي باتجاه البوابة. كان السيد بوديتش على السرير، وكان قد انتقل إلى سريره بقليل من المساعدة تحت أنظار أبي.

حين وصلنا إلى الرصيف قال أبي: «ليس كما توقعته أبداً، توقعت أن يكون متذمراً وفظاً».

«يمكن أن يكون على هذا النحو ولكن معك كان... لا أعرف كيف سأصف هذا».

قال أبي: «بذل جهداً، أراد أن يروق لي لأنك تروق له، أرى الطريقة التي ينظر إليك فيها يا بُني، أنت تعني له أشياء كثيرة فلا تُخيب أمله».

«سأفعل هذا ما لم يقع مجدداً».

عانقني أبي، وقبّل وجنتي ونزل التلّ. راقبت كيف يظهر تحت هالة كل ضوء قريب من الشارع ثمّ يختفي مجدداً، في بعض الأوقات، كنت أحقد عليه بسبب سنواته الضائعة لأنها ضاعت مني أنا الآخر، لكنني بشكل عام سررت لأنه عاد مجدداً.

سألني السيد بوديتش حين دخلت إلى المنزل: «جرى الأمر على ما يرام أليس كذلك؟».

«أجل».

«ماذا علينا أن نفعل هذا المساء يا تشارلي؟».

«خطرت لي فكرة بخصوص هذا الموضوع، انتظرني دقيقة».

كنت قد حمّلت حلقتين من ذا فويس على حاسوبي المحمول، وضعته على الطاولة قرب سريره حيث نستطيع مشاهدته سوياً.

قال بلهفة: «يا رب السماوات! انظر إلى هذه الصورة!»

«أعلم هذا، ليست سيئة أليس كذلك؟ وليس هناك إعلانات».

شاهدنا الحلقة الأولى، وكنت مستعداً لمشاهدة الثانية، ولكنه خلد إلى النوم بعد مرور خمس دقائق منها، حملت حاسوبي إلى الأعلى وقرأت عن لينبارزا.

9

في يوم الجمعة، حملت حقيبة ميليسا مجدداً إلى سيارتها هوندا سيفيك، أغلقت الصندوق وقلت لها: «لقد بحثت عن لينبارزا».

«عرفت أنك ستفعل هذا».

«إنه يعالج أربع حالات، أعلم أنه لا يأخذه من أجل سرطان الثدي أو المبيض لذا ما حالته؟ البروستات أو الحالة الأخرى؟ دعوت الله ألا تكون حالة البنكرياس». أصيب به جدي من طرف أبي، ومات بعد أقل من ستة أشهر من التشخيص.

«سرية المريض يا تشارلي، لا يمكنني أن أقول». ولكن وجهها كان يُعبّر عن شيء آخر.

«هيّا يا ميليسا، أنت لست طبيبة كما أخبرك أحد بهذا».

«لأن عليّ أن أتعامل معه، ولفعل هذا كان عليّ أن أعرف الصورة الكاملة».

«أستطيع كتم الأسرار، وتعرفين هذا بالفعل أليس كذلك؟» كنت أقصد المسكنات القوية التي كنت أعطيها رغم أنني لم أبلغ السن المناسب لفعل هذا.

تنهدت وقالت: «إن الحالة هي سرطان البروستات، إن أبرامز - أخصائي العظام الذي كان مسؤولاً عنه - شخصه وفقاً للصور الشعاعية، إنه في مرحلة متقدمة، ولكنه لم ينتشر بعد، يُبطء لينبارزا نمو الأورام، وأحياناً يعالجها».

«أليس عليه أن يخضع لمزيد من العلاج؟ كالعلاج الكيميائي أو العلاج الشعاعي؟».

خرجت السيدة ريتشلاند مجدداً. لوّحت لنا، ولوّحنا لها بالمقابل.

ترددت ميليسا، ولا بدّ أنها قررت بعد ذلك أن لا فائدة من التكتم بعد البوح بهذا القدر: «قابل الدكتور باتيرسون الذي كان رئيس قسم الأورام في أركاديا، قدّم له الحلول ورفضها السيد بوديتش برمتها باستثناء لينبارزا».

«لماذا؟».

«عليك أن تسأله بنفسك يا تشارلي، ولكن إن فعلت هذا لا تخبره عن هذه المحادثة، لن أخسر عملي على الأرجح ولكن الاحتمال وارد، اسمعني، هناك أطباء -كثر- سيقولون إنه اختار الحل الأصح، يكون سرطان البروستات

بطيئاً عند الرجال المتقدمين بالسن وسيحظى بسنوات على الأرجح إذا واظب على اللينبارزا».

10

تلك الليلة، شاهدنا حلقة أخرى من ذا فويس، وحين انتهت عانى السيد بوديتش في الوقوف على عكازيه: «ستكون هذه ليلة حافلة يا تشارلي، أعتقد أنني سأتغوط».

قلت له: «إن الألعاب النارية جاهزة».

«احتفظ بها لعرضك الفكاهي»، حين حاولت أن ألحق به إلى المطبخ نظر إليّ وقال بغضب: «عدْ وتابع آلتك بحق الرب، إذا وقعت تستطيع انتشالي».

عدت وسمعت صوت إغلاق باب الحمام الصغير، انتظرت، مرت خمس دقائق ثمّ عشر، رميت لرادار قردها إلى أن خارت قواها، وجلستْ على سجادتها. أخيراً، توجهت إلى مدخل المطبخ، وسألته إن كان على ما يرام.

قال لي: «أنا بخير، ولكن سيفيدني إصبع ديناميت، اللعنة على الأوكسيكونتين».

سمعت صوت شطاف الحمام، وحين خرج كان متعرقاً، ولكنه كان يبتسم: «أخيراً، تحقق المراد، شكراً للرب».

ساعدته في التمدد على سريره، وقررت أن أستغل مزاجه الجيد، عرضت علبة اللينبارزا عليه وقلت: «لقد قرأت عن هذا الدواء ويمكنك أن تخضع لمزيد من العلاج».

«أحقاً هذا يا دكتور ريد؟». كان هناك شبه ابتسامة على فمه وهذا ما شجعني لأكمل حديثي.

«يملك الأطباء أسلحة عديدة لمحاربة السرطان، لا أفهم لم لا تستخدم واحداً منها؟».

«إن الأمر بغاية البساطة، تعرف أنني أتألم، كما تعلم أنني لا أستطيع النوم من دون تلك الحبوب التي تُسبب الإمساك. سمعتني وأنا أصرخ على ميليسا التي أعتبرها سيدة لطيفة للغاية، لقد نجحت لحد الآن في تجنب نعتها بالمنحرفة أو الوضيعة ولكن يمكن أن تنبثق مني تلك الكلمات النابية في أيّ لحظة، لم سأرغب بإضافة الغثيان والتقيؤ والتشنجات إلى الألم الذي أعاني منه بالفعل؟»

كنت على وشك الرد، ولكنه استند إلى مرفقه وأصمتني.

«هناك شيء آخر أيها الشاب وهو شيء لا يمكن لشخص بعمرك فهمه، لقد اكتفيت إلى حدّ ما؟ ليس إلى حدّ كبير بل تقريباً، إن الحياة تشيخ، يمكن ألا تصدق هذا، أعرف أنني لم أصدق هذا حين...» توقف قليلاً وقال: «... حين كنت شاباً ولكن الأمر صحيح»، تمدد وبحث عن رادار، وربت رأسها عندما عثر عليها، «ولكنني لم أرد أن أتركها وحيدة حسناً؟ نحن الاثنان صديقان، ولكن ليس عليّ أن أقلق عليها بعد الآن، إذا عاشت أكثر مني فستعتني بها أليس كذلك؟».

«بالطبع».

«وبالنسبة إلى العلاج...» واتسعت ابتسامته، «وصلت اليوم إلى عشر درجات من الثني، وبدأت استخدام الحزام المطاطي ذاك لتمديد كاحلي، سأعمل بجد لأنني لا أريد الموت مقعداً على السرير وخصوصاً ليس على هذه الأريكة الممدودة اللعينة».

لم نتناقش عن مصدر الذهب -كانت هذه مسألة عالقة بيننا- ولكنني لاحظت يوم الأحد أن هناك شيئاً علينا مناقشته، كان بوسعي أن أعطيه جرعة الصبح والمساء ولكن ماذا كان سيفعل بشأن جرعة الظهر حين أعود إلى المدرسة؟

«أعتقد أن ميليسا ستعطيك الدواء أيام الاثنين والأربعاء والجمعة ضمن جلسات العلاج الفيزيائي، ولكن لن يتسنى لها وقت لأخذ مفعولها قبل أن تبدأ التدريب، وماذا عن أيام الثلاثاء والخميس؟».

«سأطلب من السيدة ريتشلاند أن تعطيني إياه، تستطيع أن تتفحص المكان وهي هنا ولعلها ستلتقط بعض الصور لتضعها على الفيسبوك أو التويتر».

«هذا مضحك للغاية».

قال: «إن الأمر لا يتعلق بحبوب الظهر وحسب بل حبوب منتصف الليل أيضاً».

«سأكون هنا لـ...».

«كلا يا تشارلي، حان الوقت لتعود إلى المنزل، أنا متأكد أن أباك مشتاق إليك».

«لا أبعد عنه كثيراً!»

«أجل، ولكن غرفة نومك خالية، إنه يتناول العشاء وحيداً، والرجال حين يتركون وحدهم، تراودهم الأفكار السيئة»، أعرف هذا الشعور صدقني. ستترك حبوب الظهر معي في الصباح حين تكشف عليّ وتطعم رادار وستترك حبوب منتصف الليل حين تغادر إلى منزلك مساء».

«لا يفترض بي أن أفعل هذا!»

أومأ برأسه وقال: «وفي حال غششتك، وسيكون هذا إغراء عالياً لأنني مدمن بشكل أو بآخر على الحبوب، ولكنني سأعطيك كلمتي». استند إلى مرفقيه وركّز نظره عليّ وقال: «حين أغش سأقول لك وسأستسلم من الحبوب تماماً وأستخدم التيلينول، هذا وعد وسأحافظ عليه، هل يمكنك أن تقبل هذا الأمر؟»

فكرت بالأمر وقلت له أجل، مدّ يده وتصافحنا، عرضت عليه تلك الليلة كيف أتعامل مع الأفلام والمسلسلات على حاسوبي المحمول، وضعت حبتي أوكسي من عيار عشرين ميليغراماً في صحن صغير على الطاولة قرب سريره. وضعت حقيبتي على ظهري ورفعت هاتفي المحمول.

«اتصل بي إن احتجت إليّ سواء في الليل أو في النهار».

وافقني وقال: «ليلاً أو نهاراً».

تبعتني رادار إلى الباب، فانحنيت وربت عليها وعانقتها، لعقت وجنتي، ثمّ عدت إلى المنزل.

12

لم يغش مطلقاً وإن لمرة واحدة.

الفصل الثامن
عفا عنها الدهر- إبهار الذهب- كلبة عجوز- أخبار الصحيفة- اعتقال.

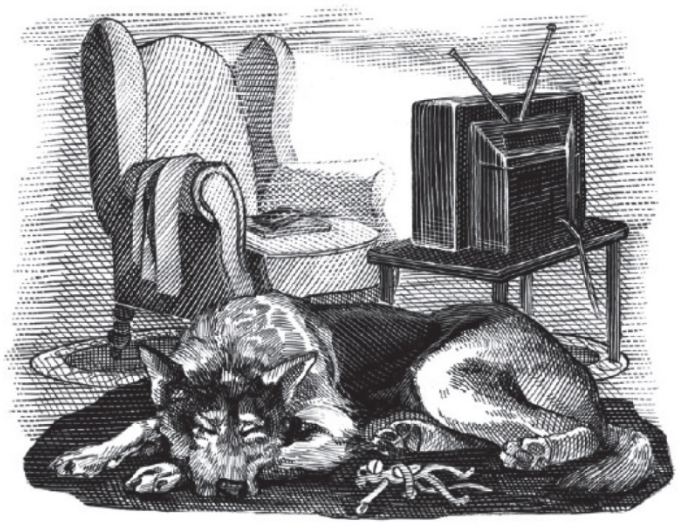

1

في البدء، كنت أحمم السيد بوديتش بالإسفنجة ثلاث مرات في الأسبوع، لأنه لم يكن هناك دش في حمام الطابق السفلي، سمح لي بهذا، ولكنه أصر على أن يغسل أعضاءه التناسلية بنفسه (ولم أعارضه). غسلت صدره النحيل وظهره الأنحل كما غسلت مؤخرته النحيلة مرة بعد حادثة مؤسفة جرت حين شق طريقه ببطء إلى الحمام. كان السبب وراء الشتم

والكلمات النابية تلك المرة عبارة عن مزيج من الإحراج (الإحراج الحقود) والغضب.

قلت له حين ارتدى سرواله مجدداً: «لا تقلق بهذا الشأن فأنا أنظف روث رادار في الشرفة الخلفية كل الوقت».

رمقني بنظرة الاستغباء المعهودة: «إن الأمر مختلف، فرادار كلبة وستتغوط على المرج أمام برج إيفل إذا سمحت لها».

أثار هذا الأمر اهتمامي قليلاً: «هل هناك مرج أمام برج إيفل؟».

هنا تأفف السيد بوديتش كعادته وقال: «لا أعرف، كنت أوضح الفكرة وحسب، هل بإمكاني أن أشرب زجاجة صودا؟».

«بالطبع»، منذ أن جلب أبي ذلك الصندوق أبقيت زجاجات الصودا في المنزل من أجل السيد بوديتش.

حين أحضرتها، وجدت أن السيد بوديتش قد نهض من السرير وجلس على كرسيه المريح القديم وإلى جانبه رادار. «دعني أسألك شيئاً يا تشارلي، إن كل الأشياء التي تفعلها من أجلي...».

«أحصل على راتب وفير كل أسبوع، وأقدّر هذا فعلاً وأشعر في بعض الأحيان أنني لا أفعل شيئاً يذكر لأستحقه».

«كنت ستقوم بهذه الأمور مجاناً. قلت لي هذا حين كنت في المستشفى، وأصدق أنك عنيت هذا الأمر. لذا هل تحضر نفسك للرهبنة أو هل أنت تكفر عن شيء ما؟».

كان هذا استنتاجاً لماحاً، فكّرت في دعائي -وقسمي- وفكرت أيضاً بالإنذار الخاطئ عن القنبلة الموجهة لمدرسة ستيفينز الابتدائية. اعتقد بيرتي أن هذا أكثر شيء مضحك في العالم. ولكن كل ما فكرت فيه في تلك الليلة

في خضم شخير أبي الثمل هو أننا قد أخفنا أناساً كثراً ومعظمهم كانوا أطفالاً صغاراً.

في غضون ذلك، كان السيد بوديتش يراقبني عن كثب. قال: «التكفير إذاً، أتساءل عما ستكفر».

قلت له: «قدمتَ لي فرصة عمل جيدة وأنا ممتن لك، إنك تروق لي عندما تكون متذمراً، ولكنني سأعترف لك إن الأمر يكون صعباً في تلك الأوقات، وكل الأمور الأخرى قد عفا عليها الدهر كالمياه تحت الجسر».

فكر في ما قلته. ثمّ قال شيئاً لم أنسه يوماً. ربما لأن أمي ماتت على جسر حين كنت أرتاد مدرسة ستيفينز الابتدائية بنفسي وربما لأنه بدا شيئاً مهماً بالنسبة لي ولا زال كذلك.

«إن الوقت هو الماء يا تشارلي والحياة ليست سوى الجسر الذي يقوم فوقها».

2

مر الوقت، واستمر السيد بوديتش بالشتم والصراخ بين الحين والآخر أثناء جلسات العلاج، وهذا ما أحزن رادار للغاية، لدرجة أنه كان على ميليسا أن تخرجها قبل بدء الجلسة. كان الثني مؤلماً للغاية، ولكن بحلول شهر أيار استطاع السيد بوديتش أن يثني ركبته بمقدار ثماني عشرة درجة. أما بحلول شهر حزيران فقد وصل إلى خمسين درجة، بدأت ميليسا في تعليمه كيف يستخدم عكازه كي يصعد إلى الطابق العلوي (والناحية الأهم: كيف ينزل بطريقة يتفادى فيها سقوطاً مدمراً) لذا نقلت حبوب الأوكسي إلى الطابق الثالث، ووضعتها في بيت عصفور قديم يعلوه غراب منحوت أصابني بالقشعريرة. وجد السيد بوديتش نفسه أكثر تحكماً بعكازيه، وبدأ يستحم بنفسه بالإسفنجة (سمى هذا الحمام بحمام العاهرة)، ولم أضطر لتنظيف مؤخرته لأنه لم يتعرض لأية حادثة في طريقه إلى الحمام.

شاهدنا أفلاماً قديمة على حاسوبي المحمول وشاهدنا كل شيء من ويست سايد ستوري إلى ذا مانشوريان كانديديت (وأحببناه كثيراً). ذكر السيد بوديتش أنه يريد شراء تلفاز جديد، وشعرت أنها إشارة إلى رغبته بالانخراط في الحياة مجدداً، ولكنه غيّر رأيه حين قلت له إن هذا يعني إرساء نظام كبلات جديد أو قمر صناعي (لذا لم يحدث الانخراط على أكمل وجه)، كنت آتي في تمام الساعة السادسة صباحاً كل يوم، وبما أنني أقلعت عن تدريبات ومباريات كرة القاعدة (كان المدرب هاركنس يقطب حاجبيه بوجهي كلما التقينا في الرواق). كنت أعود إلى المنزل رقم 1 في شارع سيكامور في تمام الثالثة عصراً أغلب الأحيان، حيث أؤدي بعض المهام المنزلية، وكان معظمها يقتصر على التنظيف، ولم أمانع هذا. كانت الأرضيات العلوية قذرة للغاية وخصوصاً في الطابق الثالث، وحين اقترحت تنظيف المصارف حدق السيد بوديتش إليّ وكأنني جننت، وطلب مني أن أستخدم شخصاً ما ليفعل ذلك، فأتت وكالة سينتري لتنظيف المنازل وحين نظفت المصارف وسر السيد بوديتش (راقب العملية من الشرفة الخلفية وهو يستند إلى عكازيه وكان بنطاله منتفخاً عند المثبت) قال لي أن أطلب منهم تصليح السقف، وحين رأى السيد بوديتش قيمة هذا طلب مني أن أتفاوض معهم (قال لي: «العب بطاقة الرجل العجوز»)، تفاوضت معهم، وتوصلت إلى حسم بنسبة عشرين بالمئة. أرسى رجال تصليح المنازل منحدراً قرب درج الشرفة الأمامية (لم يستخدمه السيد بوديتش أو رادار يوماً) واقترحوا أن يصلحوا حجارة الممشى التي تقود من البوابة إلى الشرفة. رفضت ذلك العرض وأصلحتها بنفسي، كما بدّلت درجات الشرفتين الأمامية والخلفية المتشققة والملتوية (بمساعدة العديد من مقاطع فيديو افعلها بنفسك على اليوتيوب).

كان ربيع وصيف تلك السنة يعجان بالتنظيف والإصلاح في شارع سيكامور أعلى التل. وقد تسنى للسيدة ريتشلاند الكثير من المشاهدة، واستغلت جميع الفرص. في أوائل تموز، عاد السيد بوديتش إلى المستشفى

كي يزيلوا له المثبت الخارجي بعد أسابيع من أكثر تقديرات ميليسا تفاؤلاً. وحين قالت له كم كانت فخورة به، وعانقته، عجز الرجل العجوز عن الكلام للمرة الأولى، كان أبي يأتي كل عشية يوم أحد -بدعوة من السيد بوديتش دون تحفيز مني- وكنا نلعب لعبة جين بورق الشدة وكان السيد بوديتش هو من يفوز في معظم الأوقات.

خلال أيام الأسبوع، تعودت أن أعد له شيئاً ليأكله، وأعبر التل، لأتناول العشاء مع أبي، ثمّ أعود إلى منزل السيد بوديتش لتنظيف الصحون، واصطحاب رادار في نزهة ومشاهدة الأفلام معه. كنا نتناول الفشار أحياناً، وحالما انتزع المثبت الخارجي، لم يعد عليّ مراقبة الأسياخ والدبابيس، ولكن كان عليّ الحفاظ على نظافة الفتحات التي دخلت منها تلك الدبابيس وبدأت تلتحم، كنت أمرّن كاحله بأربطة مطاطية حمراء وكبيرة، وأحرص على أن يتدرب على الثني.

كانت تلك الأسابيع جيدة أو معظمها كان جيداً على الأقل. لم يكن كل شيء على ما يرام، فقد أصبحت مسافات مشي رادار أقصر قبل أن تبدأ بالعرج وهي في طريق عودتها إلى المنزل، وأصبحت تعاني أكثر فأكثر في اجتياز درج الشرفة. ذات مرة، رآني السيد بوديتش أحملها، وطلب مني ألا أفعل ذلك مجدداً. قال لي: «ليس قبل أن تستطيع أن تفعل ذلك بمفردها»، في بعض الأحيان، كنت أرى قطرات دم على فتحة المرحاض بعد أن يتبول السيد بوديتش كما زادت مدة تبوله.

ذات مرة سمعته من خلف الباب المغلق يقول: «هيّا أيها العضو عديم الفائدة، اقذف بعض الماء».

بغض النظر عن دور اللينبارزا، لكنه لم يكن يؤدي عمله بشكل جيد. حاولت أن أتحدث إليه عن الموضوع، وسألته لم كان يعمل بجد كي يقف على ساقيه، إن كان سيعطي للمرض الذي يعاني منه، أيّاً يكن، سلطة

كاملة، فطلب إليّ ألا أتدخل في ما لا يعنيني. وفي النهاية لم ينل منه السرطان. لقد مات إثر ذبحة قلبية.

وذلك بسبب المستودع اللعين.

3

ذات مرة -أعتقد في شهر حزيران- فتحت موضوع الذهب مجدداً، ولكن بشكل غير مباشر. سألت السيد بوديتش إن لم يكن يقلق بشأن الألماني الأعرج بعد التوصيلة الكبيرة التي قمت بها كي يدفع السيد بوديتش فاتورته.

«لا خطر سيأتي منه، إنه يقوم بأعمال كثيرة في غرفته الخلفية تلك، وعلى حدّ علمي لم يجذب انتباه وكالات إنفاذ القانون من قبل، أو دائرة الإيرادات الداخلية وهي الأكثر اهتماماً بالأمر».

«ألا تخاف من أن يتحدث مع شخص ما؟ أقصد أنه ربما يتعامل مع أشخاص لديهم ألماس غير شرعي للبيع، كاللصوص وغيرهم من الخارجين عن القانون، ولعله يتكتم على هذا الأمر. ولكنني أعتقد أن ستة أرطال من الحبيبات الذهبية المتينة تعتبر في مستوى آخر تماماً».

استهزأ وقال: «وهل سيخاطر بالربح الجيد الذي يناله نتيجة تعامله معي؟ سيكون هذا ضرباً من الغباء، وصفة الغبي لا تنطبق على ويلي هاينريك».

كنا في المطبخ نشرب الصودا في كأسين طويلتين (مع قليل من النعناع الذي كان ينمو على طول شارع باين من جهة المنزل)، تربص بي السيد بوديتش وقال: «لا أعتقد أنك تود التحدث بشأن هاينريك على الإطلاق حيث إن الموضوع الذي يشغل بالك هو الذهب وما مصدره».

لم أجبه، ولكنه لم يكن مخطئاً.

«قل لي شيئاً يا تشارلي -هل صعدت إلى هناك مؤخراً؟». نظر إلى السقف وقال: «لتنظر إليه وتتفحصه إذا جاز التعبير؟ لقد فعلت هذا أليس كذلك؟».

احمرت وجنتاي وقلت: «في الواقع...».

«لا تقلق، لن أؤنبك، إنني لا أرى الموجود في الأعلى سوى دلو من المعدن ولعله عبارة عن عزقات ومسامير لا أكثر ولا أقل. إنني عجوز، ولكن هذا لا ينفي أنني أفهم الإبهار، قل لي هل مررت يديك بين القطع؟».

كنت سأكذب، ولكنني لم أجد فائدة من ذلك، كان سيكتشفني في كلتا الحالتين، قلت: «أجل».

لا زال يتربص بي، وكانت عينه اليسرى مغمضة تقريباً، وحاجبه الأيمن الكثيف مرفوعاً، ولكنه كان يبتسم أيضاً. «هل وضعت يديك ضمن الدلو ومررت يديك بين القطع الذهبية؟».

«أجل». ازدادت وجنتاي احمراراً، وكدت أحترق. لم أفعل هذا لمرة واحدة وحسب بل عاودت الكرة عدة مرات منذ تلك المرة.

«إن إبهار الذهب بعيد أشد البعد عن قيمته النقدية، تعرف هذا أليس كذلك؟».

«أجل».

«دعنا نقلْ -من باب النقاش ليس أكثر- إن السيد هاينريك باح بأشياء كثيرة للشخص الخطأ بعد أن احتسى كثيراً من الشراب في الحانة الصغيرة المقرفة في نهاية شارع متجره. سأراهن بهذا المنزل والأرض التي بني عليها على أن ويلي لا يشرب بشكل مفرط ولعله لا يشرب على الإطلاق. ولكن دعنا نكمل الفرضية، وافترض أن هذا الشخص الذي تحدث إليه انتظرك بمفرده أو مع أعوانه وأنت تغادر في ليلة ما ثمّ اقتحموا منزلي

وطالبوا بالذهب. إن مسدسي في الأعلى وكلبتي التي اعتادت أن تكون مخيفة...» ربت رأس رادار التي كانت تنام قربه «... حتّى إنها أصبحت أكبر مني، ماذا سأفعل في مثل هذه الحالة؟».

«أعتقد أنه... عليك أن تعطيهم إياه؟».

«بالضبط، لن أتمنى لهم الخير، ولكنني سأعطيهم الذهب».

لذا سألته: «ما مصدره يا هاورد؟».

«ربما سأخبرك عن هذا مع الوقت، لم أقرر بعد لأن الذهب ليس مبهراً وحسب بل هو خطير. كما أن المكان الذي أتى منه خطير أيضاً. أعتقد أنني رأيت قطعة لحم ضأن في الثلاجة، وهل هناك كولسلو؟ يعد تيلير أفضل كولسلو في العالم، عليك تناول بعض منه».

وبتعبير آخر: انتهى النقاش.

4

ذات مساء من أواخر شهر تموز لم تستطع رادار الصعود على درج الشرفة الخلفية حين عدنا من نزهتنا على شارع باين، حاولت مرتين، ثمّ جلست أسفل الدرج تلهث وتنظر إليّ.

قال السيد بوديتش: «هيّا، احملها».

كان قد خرج وهو يستند إلى أحد عكازيه، وكان الآخر قد تقاعد تقريباً. نظرت إليه لأتأكد من قراره، فأومأ برأسه.

«حان الوقت».

حين حملتها نبحت وكشرت عن أنيابها، أنزلت الذراع التي كانت تعانق فخذيها، وحاولت أن أبتعد عن المنطقة المتأذية وحملتها. كان الأمر سهلاً حيث أصبحت رادار نحيلة كما أصبح شعر فمها أبيض بالكامل، وأصبحت

عيناها دامعتين، وضعتها برفق في المطبخ. في البداية، لم تقوَ قائمتاها الخلفيتان على حملها، استجمعت قواها -كان بوسعي أن ألحظ هذا- وعرجت إلى السجادة قرب باب خزانة المونة ببطء، ثمّ تمددت وأصدرت صوت ووف.

«عليها أن تذهب إلى طبيب بيطري».

أشاح السيد بوديتش بوجهه وقال: «ستصاب بالذعر، لن أعرضها لهذا عن قصد».

«ولكن...».

تحدث برفق وهذا ما أشعرني بالذعر، لأنه لم يكن على سجيته: «لا يمكن لأي طبيب بيطري مساعدتها، لقد انتهت رادار تقريباً. لا تحتاج الآن سوى للراحة وعليّ أن أفكر».

«بالله عليك بماذا تُفكّر؟!»

«بالأفضل لها، عليك أن تعود إلى المنزل الآن، تناول العشاء ولا تعد الليلة، سأراك في الصباح».

«ماذا عن عشائك؟».

«سأتناول بعض السردين والكعك، اذهب الآن». ثمّ قالها مجدداً: «عليّ أن أفكر».

عدت إلى المنزل، ولكنني لم آكل كثيراً. لم أكن جائعاً.

5

بعد هذا، توقفت رادار عن إنهاء طبق الفطور والعشاء. ومع أني حملتها على الدرج الخلفي -لا يزال بوسعها أن تنزل بنفسها- بدأت تتغوط من وقت إلى آخر داخل المنزل، عرفت أن السيد بوديتش كان محقاً

بخصوص أن الطبيب البيطري لا يمكنه مساعدتها... ولكن في النهاية حين أصبح جلياً مقدار الألم الذي تعاني منه، أصبحت تنام كثيراً، وكانت أحياناً تصرخ وتزمجر على فخذيها، وكأنها تحاول التخلص مما كان يعضها ويؤلمها. كنت مسؤولاً حينها عن حالتين مرضيتين إحداهما تشهد تحسناً في حالتها والأخرى تشهد تدهوراً.

في الخامس من آب، وكان يوم اثنين، تلقيت بريداً إلكترونياً من المدرب مونتغومري يُبين فيه جدول تدريب كرة القدم. وقبل أن أرد عليه، أخبرت أبي أنني لن ألعب في سنتي الأخيرة. ومع أن أبي كان خائباً بشكل واضح (كنت خائباً أنا الآخر) قال إنه يتفهمني. كان في منزل السيد بوديتش في الليلة السابقة، وكان قد لعب بورق الشدة كما أنه رأى حالة رادار.

قلت له: «هناك كثير من العمل الذي ينتظرني هناك، أريد أن أعمل شيئاً بخصوص الفوضى في الطابق الثالث، وحين أطمئن بخصوص السماح لهاورد بالنزول إلى القبو هناك أحجية تحتاج للإنهاء. أعتقد أنه قد نسي الأمر، أجل وعليّ أن أعلمه كيف يستخدم حاسوبي ليتصفح الإنترنت ويشاهد الأفلام بالإضافة إلى...».

«توقف يا صديقي، إن الأمر يتعلق بالكلبة أليس كذلك؟».

تذكرت حين حملتها على الدرج وتعابير الذل التي اعترتها حين تغوطت في المنزل، ولم أستطع الإجابة.

قال أبي: «كان لديّ كلبة من نوع كوكر حين كنت طفلاً، كان اسمها بيني. من الصعب مراقبة كلبة جيدة وهي تشيخ، وحين تصل الكلاب إلى نهاية عمرها...» أشاح بوجهه، «يدمى قلبك حين تنظر إليها».

كان هذا شعوري، كان هذا شعوري بالضبط.

لم يكن أبي هو الذي غضب مني بخصوص فكرة إقلاعي عن كرة القدم في سنتي الأخيرة، بل السيد بوديتش. لم يغضب بل استشاط غضباً.

كان يصرخ تقريباً حين قال: «هل أنت مجنون؟». كما احمرت وجنتاه النحيلتان. «أعني هل فقدت عقلك تماماً؟ ستصبح نجماً في ذلك الفريق، بإمكانك أن تلعب في الجامعة وأُرجح أن تحصل على منحة».

«لم ترني ألعب من قبل».

«قرأت صفحات الرياضة في سان على الرغم من مستواها المتدني، لقد فزت بمباراة توركي بول في العام المنصرم».

«سجلنا أربعة أهداف في تلك المباراة، ولم أسجل سوى الهدف الأخير».

أخفض صوته وقال: «كنت سآتي وأشاهد مبارياتك».

ذهلت لدرجة أنني توقفت عن الكلام، كان هذا عرضاً مذهلاً من شخص سلم نفسه للعزلة طواعية.

أخيراً قلت: «لا يزال بوسعك أن تأتي، سأذهب معك، وستشتري هوت دوغ، أما أنا فسأشتري الصودا».

«كلا، كلا، أنا صاحب عملك بحق الجحيم. أنا أدفع لك راتبك وأمنعك عن هذا، لن تخسر آخر موسم كرة قدم في مدرستك الثانوية بسببي».

كنت صعب الطباع، لم يسبق لي أن أظهرت طبعي هذا له، ولكنني فعلت هذا في ذلك اليوم. أعتقد أن باستطاعتكم القول إنني انفجرت.

«ليس بسببك، لا يدور كل شيء حولك، ماذا عنها؟» أشرت إلى رادار التي رفعت رأسها وناحت بصعوبة. «هل ستحملها على درج الشرفة كي تقضي حاجتها؟ بالكاد تستطيع المشي بنفسك».

اعتلت وجهه ملامح الصدمة: «س... يمكنها أن تقضي حاجتها في المنزل... سأضع ورقاً...».

«ستكره هذا وأنت على علم بذلك. لعلها مجرد كلبة، ولكن لديها كرامتها، وإذا كان هذا صيفها الأخير وخريفها الأخير...» كان بوسعي أن أشعر بدموعي وهي على وشك الانهمار ولعلكم ستستغربون هذا إذا لم تحظوا بكلب تحبونه، «... لا أريد أن أكون في التدريب وأضرب مهاجماً معرقلاً لعيناً حين تموت! سأذهب إلى المدرسة حيث يجب عليّ فعل ذلك، ولكنني أريد أن أبقى هنا معظم الوقت، وإن لم تكتفِ بهذا الكلام فاطردني».

كان صامتاً وقد طوى يديه، وحين نظر إليّ مجدداً، كان قد زم شفتيه للغاية لدرجة أنهما لم تعودا ظاهرتين. لوهلة اعتقدت أنه سيفعل ما طلبته، ولكنه قال: «هل تعتقد أن الطبيب البيطري يمكن أن يأتي إلى المنزل ويتجاهل مثلاً حقيقة أن كلبتي ليست مرخصة ومسجلة إذا دفعت له كفاية؟».

تنفست الصعداء وقلت: «دعنا نكتشف الأمر».

6

لم أعثر على طبيب بيطري بل على مساعد طبيب بيطري. كانت أماً عزباء لديها ثلاثة أولاد، كان آندي تشين يعرفها وعرّفني إليها. أتت وفحصت رادار، وأعطت السيد بوديتش بعض الحبوب، وقالت له إنها في طور التجربة، ولكنها أفضل وأقوى من الكربروفين.

قالت لنا: «أريد أن أكون واضحة بهذا الخصوص، ستحسن لها نوعية حياتها، ولكنها ستقصر عمرها على الأرجح»، توقفت وقالت: «ستقصره بالتأكيد، لا تأتيا إليّ حين تموت وتقولا لي إنني لم أخبركما بهذه المعلومة».

سألتها: «إلى متى ستساعدها؟».

«يمكن ألا تساعدها إطلاقاً. قلت لك إنها في طور التجريب، إنها معي لأنها تركت بعد أن أنهى الدكتور بيتري تجربته السريرية، ودعوني أضف أنه تقاضى أجراً عالياً عليها، ولكن هذا لا يعني أنني حظيت بشيء منه. إذا أعطت مفعولاً ستحظى رادار بشهر ممتاز أو شهرين، ولكنها لن تصمد لثلاثة أشهر على الأرجح، لن تشعر وكأنها جروة مجدداً، ولكنها ستتحسن...» رفعت كتفيها وقرفصت وربتت رأس رادار التي هزت ذيلها، «ولكنها سترحل يوماً ما، إذا بقيت على قيد الحياة بحلول عيد الهالوين فسأتفاجأ للغاية».

لم أعرف ماذا أقول، ولكن السيد بوديتش عرف تماماً وكانت رادار كلبته: «هذا جيد بما فيه الكفاية»، ثمّ أضاف شيئاً لم أفهمه، ولكنني بت أفهمه الآن: «وربما طويل بما فيه الكفاية».

وحين رحلت المرأة (بعد أن تقاضت مئتي دولار) انحنى السيد بوديتش وربّت رأس كلبته، وحين نظر إليّ مجدداً كانت ابتسامة صغيرة وملتوية قد اعتلت وجهه: «لن يعتقلنا أي أحد بتهمة التعامل مع دواء للكلاب غير مرخص أليس كذلك؟».

قلت له: «أشك في الأمر». كانت ستحدث مشاكل أكثر من المشاكل المتعلقة بالذهب إذا تم اكتشاف الأمر. «سررت لأنك أخذت قراراً، ما كنت أستطيع أن أتخذ قراراً».

«خيار هوبسون[14]»، لا يزال يداعب رادار ويمرر يده من رأسها إلى عنقها ثمّ إلى ذيلها «وفي النهاية أعتقد أن الشهرين أو الثلاثة الممتازة أفضل من ستة أشهر سيئة، إذا نفع الأمر بالطبع».

لقد نفع الأمر فعلاً، وعاودت رادار إنهاء صحنها تماماً، وكان بوسعها أن تصعد على درج الشرفة (بمساعدتي أحياناً)، والأفضل من ذلك كله هو أنها استطاعت لعب لعبة طاردي -القرد-واجعليه -يصدر-أصوات صرير في الليل

عدة مرات. لم أتوقع أن تصمد أكثر من السيد بوديتش. ولكنها صمدت أكثر منه بالفعل.

7

استمرت رادار بـــ... لن أقول بالتحسن، ولكنها أصبحت تشبه الكلبة التي قابلتها حين وقع السيد بوديتش عن السلم (لا تزال تعاني في الصباح من النهوض عن سجادتها لتناول الطعام). تحسن السيد بوديتش بالفعل، وأقلع عن الأوكسي، كما بدّل العكاز المفرد الذي كان يستخدمه منذ شهر آب مستخدماً عصا وجدها في زاوية ضمن القبو، وعاود العمل على أحجيته في القبو، كنت أذهب إلى مدرستي، وأمضي وقتاً مع أبي، كما أمضيت وقتاً أكثر في المنزل رقم 1 في شارع سيكامور. بدأ فريق القنافذ الموسم بنتيجة صفر لثلاثة وتوقف زملائي السابقون عن التحدث إليّ. كان هذا شيئاً مزعجاً، ولكن بالي كان مشغولاً للغاية، فلم أسمح لهذا أن يثبط عزيمتي. في مرات كثيرة ولا سيما أثناء قيلولة السيد بوديتش على الأريكة المفتوحة التي لا يزال يستخدمها كي يكون قريباً من رادار- كنت أفتح الخزنة وأمرر يدي في دلو الذهب. كنت أستشعر وزنه الذي كنت أتفاجأ به كل مرة، كما كنت أدع القطع تمر من بين أصابعي، وكأنها جداول صغيرة. في تلك الأوقات، كنت أفكر في السيد بوديتش وهو يتحدث عن إبهار الذهب. وتستطيعون القول إنني كنت أمارس التأمل من خلاله. لم تعد ميليسا ويلكوكس تأتي سوى مرتين في الأسبوع، وكانت تثني على تحسن السيد بوديتش. قالت له إن أخصائي الأورام الدكتور باتيرسون يريد رؤيته ولكنه رفض، وقال إنه على ما يرام. لقد جاريته، ليس لأنني كنت أصدقه، بل لأنني رغبت في أن أصدقه. ما أصبحت أعرفه الآن هو أن الدخول في حالة الإنكار لا يقتصر على المرضى فحسب.

كان وقتاً هادئاً، ثمّ حدث كل شيء دفعة واحدة، ولم يكن أي من الأحداث جيداً.

كانت لديّ حصة فراغ قبل الغداء وكنت أقضيها عادة في المكتبة لأؤدي بعض الفروض المدرسية، أو أقرأ بعض كتب السيد بوديتش القديمة. وفي أحد الأيام من أواخر شهر أيلول كنت منغمساً بكتاب ذا نيم أوف ذا غيم إز ديث لدان جي. مارلو، وكان كتاباً دامياً للغاية. وعندما أصبحت الساعة الثانية عشرة إلا ربع، قررت أن أترك الذروة لأقرأها بانغماس ذلك المساء، وتناولت صحيفة بشكل عشوائي. كان هناك حواسيب في المكتبة، ولكن جميع الصحف كانت تحتاج إلى اشتراك. بالإضافة إلى أنني كنت أفضل قراءة الأخبار على صحيفة فعلية حيث كنت أشعر وكأنني في الزمن الجميل.

كان من الممكن أن أتناول صحيفة نيويورك تايمز أو شيكاغو تريبيون وأفوت الخبر تماماً، ولكن الصحيفة التي كانت تعلو الحزمة كانت ديلي هيرالد في إلجن فأخذتها. كان العنوانان العريضان على الصفحة الأولى هما: رغبة أوباما في التدخل العسكري في سوريا، وإطلاق نار جماعي في العاصمة الذي أسفر عن ثلاثة عشر قتيلاً. طالعت تلك الصفحة، وتحققت من الساعة -عشر دقائق ويبدأ الغداء- وتصفحت باقي الصفحات في طريقي لصفحة الرسومات الكرتونية. لم أصل إلى تلك الصفحة حيث استوقفتني قصة على الصفحة الثانية من قسم أخبار المنطقة.

وتجمد الدم في عروقي.

تاجر مجوهرات ستانتونفيل ضحية لجريمة قتل

عُثر على ساكن قديم ورجل أعمال في ستانتونفيل مقتولاً في متجر مجوهرات ممتازة في وقت متأخر من مساء الأمس. تلقت الشرطة اتصالاً يفيد أن باب المتجر كان مفتوحاً على الرغم من أن لافتة مغلق كانت تتدلى منه. وجد الشرطي جيمس كوتزيوينكل، ويلهيلم هاينريك في الغرفة الخلفية وكان بابها مفتوحاً أيضاً. وحين سئل رئيس الشرطة ويليام ياردلي إن كان

الحافز هو السرقة أجاب: «على الرغم من أن التحقيق بالجريمة لا يزال جارياً يبدو هذا الخيار بديهياً»، وحين سئل إن كان أحد قد سمع صراخاً أو إطلاق نار لم يعلق أي من الرئيس ياردلي والمحقق يسرئيل بوتشر، التابع لشرطة ولاية إيلينوي سوى أن معظم المتاجر في النهاية الغربية لشارع ستانتونفيل الرئيسي كانت خالية منذ إقامة المركز التجاري خارج البلدة. كان متجر مجوهرات ممتازة استثناء ملحوظاً، وعد ياردلي وبوتشر بنتيجة سريعة للقضية».

رنّ جرس الغداء، ولكنني لم أتحرك من مكاني، واتصلت بالسيد بوديتش، أجابني كالعادة: «إذا كنت مسوقاً على الهاتف فأزلني عن لائحتك».

«هذا أنا يا هاورد؛ لقد قتل السيد هاينريك».

كان هناك صمت طويل ثم: «كيف عرفت؟».

تلفت حولي، لم تكن المكتبة مقصداً لتناول الغداء، وكانت فارغة باستثنائي، لذا قرأت له المقال، لم أستغرق وقتاً طويلاً في هذا.

قال السيد بوديتش حين انتهيت: «يا إلهي، أين من المفترض أن أبدل الذهب الآن؟ لقد كان مقصدي في السنوات الخمس وعشرين الأخيرة»، ولم يظهر أي تعاطف أو دهشة.

«سأقوم ببعض الأبحاث على الإنترنت...».

«بحذر! وبسرية!»

«بالطبع، سأكون سرياً للغاية، ولكنني أعتقد أنك تفوت المغزى هنا؛ لقد أبرمت صفقة كبيرة وهائلة معه، ولقد مات الآن، إن حصل أحد ما على اسمك منه... لو تم تعذيبه أو وعده بأنه لن يقتل...».

«إنك منغمس في كثير من كتبي القديمة يا تشارلي، لقد بعت عني أرطال الذهب تلك في نيسان المنصرم».

قلت له: «لا أعتقد أن هذه المدة تعتبر من العصور الغابرة».

لم يكترث وقال: «لا أفضل إلقاء اللوم على الضحية، ولكنه أبى أن يغادر ذلك المتجر في تلك البلدة الصغيرة المتعفنة. قلت له في آخر مرة أبرمت صفقة معه، أي قبل أربعة أشهر من سقوطي على السلم: ويلي، إن لم تغلق هذا المكان وتنتقل إلى المركز التجاري فستتعرض للسرقة، لقد تعرض للسرقة أخيراً وقتل خلال إحدى صفقاته، هذا هو التفسير البسيط».

«مع هذا، أفضّل أن تضع سلاحك في الطابق السفلي».

«إذا كان هذا الأمر سيطمئنك فسأفعل هذا، هل ستأتي بعد المدرسة؟».

«كلا، فكّرت في أن أذهب إلى ستانتونفيل وأستمتع ببعض الثلج».

قال السيد بوديتش: «إن حس الفكاهة لدى جيل الشباب فظ وغير مضحك في أغلب الأحيان»، ثمّ أنهى المكالمة.

بحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى طابور الغداء كان طوله قد تجاوز الميل، ولا بدّ أن الخليط الذي حضّره المقصف قد برد. لم أكترث لهذا، فقد كنت أفكر في الذهب، قال السيد بوديتش إنه كان يعتبر الذهب في عمره كدلو من المعدن، لعله يعتبره كذلك، ولكنني اعتقد أنه إما كان كاذباً وإما مراوغاً.

وإلا كيف كان معه ذلك الكم الكبير من الذهب؟

في يوم الأربعاء دفعت اشتراك صحيفة إلجن كي أقرأها على هاتفي المحمول. صدر خبر آخر على الصفحة الأولى من أخبار المنطقة: تم اعتقال رجل من ستانتونفيل بتهمة سرقة وقتل في متجر مجوهرات، تم الكشف عن هوية المعتقل وكان بينجمن دوايز، عمره 44 عاماً وليس له عنوان ثابت- اعتقدت أن تلك العبارة كانت تعني أنه كان مشرداً- اتصل مالك متجر ستانتونفيل للرهانات والقروض بالشرطة حين حاول دوايز مقايضة خاتم من الألماس ذي قيمة معتبرة، وفي مركز الشرطة اكتشف أنه كان يملك سواراً مرصعاً بالزمرد. اعتبرت الشرطة أن هذه الممتلكات مثيرة للشبهات بالنسبة إلى رجل ليس لديه عنوان ثابت.

قال السيد بوديتش حين أريته المقال: «أترى؟ ارتكب رجل غبي جريمة غبية، واعتقل حين حاول تحويل غنائمه إلى مال نقدي بطريقة غبية. لن تشكل هذه القصة لغزاً جيداً، أليس كذلك؟ حتّى وإن على طريقة تلك المخطوطات القديمة».

«لا أعتقد هذا».

«يبدو أنك لا تزال منزعجاً»، كنا في المطبخ نراقب رادار وهي تتناول طعامها. «يمكن لزجاجة صودا أن تصلح هذا». نهض واتجه إلى البراد من دون عرجة واضحة.

شربت الصودا، ولكنها لم تصلح شيئاً، «كانت غرفته الخلفية مليئة بالمجوهرات، كان هناك تاج من الألماس من النوع الذي تضعه الأميرة على رأسها في حقل ما».

رفع السيد بوديتش كتفيه. كانت القضية مغلقة بالنسبة إليه أي صفقة منتهية. «تبدو مذعوراً يا تشارلي، إن المشكلة الحقيقية هي أنني لا أعرف ماذا سأفعل ببعض الذهب الذي أملكه، ركّز على هذا ولكن...».

«يجب عليّ أن أكون متعقلاً ومتكتماً أعرف هذا».

«الرأي قبل شجاعة الشجعان» أومأ برأسه وكأنه حكيم.

«ما علاقة هذا بأي شيء؟».

ابتسم السيد بوديتش وقال: «لا شيء يذكر، أردت أن أقول هذه العبارة فحسب».

10

فتحت تلك الليلة منصة تويتر وبحثت عن بينجمن دواير، وما حصلت عليه هو بعض التغريدات عن مؤلف إيرلندي. لذا غيرت بحثي وكتبت المشتبه به دواير، لم يعطني هذا سوى ست نتائج. كانت النتيجة الأولى من رئيس شرطة ستانتونفيل ويليام ياردلي وكان يهنئ نفسه في الحقيقة على الاعتقال السريع، أما النتيجة الثانية فهي لامرأة لقبت نفسها بانكيت 44 وكباقي المغردين على التويتر كانت رقيقة ورؤوفة: ترعرعت في ستانتونفيل وكان الوضع مزرياً، لو قتل ذلك الرجل دواير جميع سكانها لأسدى للعالم معروفاً.

ولكن القصة التي لفتت انتباهي كانت من شخص اسمه بال.غاي19، كتب: بنجي دواير كمشتبه به في جريمة قتل؟ شيء مضحك، لقد عاش في شيتزفيل البغيضة لمدة ألف عام، كان يجب أن يوشم على جبهته لقب مغفل القرية.

فكرت في أن أعرض هذا المقال على السيد بوديتش في اليوم التالي لأتبين إن كان بال.غاي19 على حق بخصوص أن بنجي دواير هو المغفل المثالي، وكالعادة لم تتسنَّ لي الفرصة أبداً.

الفصل التاسع
ذلك الشيء في المستودع- مكان خطر- الطوارئ-المحفظة- محادثة جيدة.

1

ما كان عليّ الاستيقاظ في تمام الساعة السادسة لأطعم رادار، حيث إن السيد بوديتش أصبح قادراً على فعل هذا بنفسه. ولكنني تعودت على الاستيقاظ باكراً، كما تعودت قيادة درّاجتي على التل قرابة الساعة السابعة إلا ربع كي أخرجها لتقضي حاجتها. وبعد هذا، ولأن اليوم كان يوم سبت، خطر لي أن أتنزه على شارع باين حيث كنت أتمتع بتصفحّ الرسائل المعلّقة

على أكشاك الهاتف (وترك بعض الرسائل بنفسها). لم أستطع التنزه في ذلك اليوم.

حين دخلت وجدت السيد بوديتش يجلس إلى طاولة المطبخ، يأكل الشوفان، ويقرأ كتاباً بحجم القرميدة لجيمس ميكينير. سكبت لنفسي كأساً من عصير البرتقال، وسألته عن ليلته.

قال من دون أن يشيح بنظره عن الكتاب: «لقد صمدت هذه الليلة»، لم يكن هاورد بوديتش شخصاً نهارياً كما لم يكن يفضل العصر أو حتّى الظهر، «اغسل تلك الكأس حين تنتهي».

«أفعل هذا دائماً».

نخر وقلب صفحة في كتابه السميك الذي كان يدعى تكساس. شربت ما تبقى من عصيري، وناديت رادار التي دخلت المطبخ ولم ألحظ لها عرجاً.

قلت: «نزهة؟ أتود رادار أن تتمشى؟».

قال السيد بوديتش: «يا إلهي! توقف عن مداعبتها وكأنك تتحدث إلى طفلة. يبلغ عمرها وفقاً للزمن الإنساني ثمانية وتسعين عاماً».

كانت رادار عند الباب، فتحته ونزلت على درج الشرفة الخلفية، فشرعت ألحق بها، ثمّ تذكرت أنني كنت سأحتاج للجامها إذا كنا سنمشي على شارع باين، كما أنني لم أغسل كأسي، غسلت كأسي، وكنت أتجه إلى حيث اللجام حين بدأت رادار تنبح بقوة وسرعة وبصوت عالٍ للغاية. كان هذا أبعد ما يكون عن نباح أرى سنجاباً الخاص بها.

أغلق السيد بوديتش كتابه: «ما خطبها بحق الجحيم؟ عليك أن تذهب وتتحقق».

كانت لديّ فكرة واضحة عما كان يجري، لأنه سبق لي أن سمعت هذا الصوت. كان هذا نباحاً ينم عن إنذار بوجود دخيل، كانت تجثو مرة أخرى على عشب الشرفة الخلفية الذي كان أقصر الآن وخالياً من الروث تقريباً، وكانت تواجه المستودع، رافعة أذنيها مكشرة عن أنيابها، وكانت الرغوة تتجمع حول فمها بعد كل نباح، ركضت إليها، وأمسكت بطوقها، وحاولت أن أسحبها. لم ترد أن تغادر، ولم ترد في الوقت نفسه أن تقترب من المستودع الموصد. ورغم النباح المتصاعد كان بوسعي أن أسمع صوت الخدش والشطب المريب، هذه المرة، كان الصوت أعلى، ولاحظت أن الباب كان يتحرك قليلاً، كان الأمر يشبه دقة قلب مرئية، كان هناك شيء يحاول الخروج.

صرخ السيد بوديتش من الشرفة: «رادار، عودي إلى هنا الآن».

لم تعره انتباهاً، وواظبت على النباح. ضرب شيء ما داخل المستودع الباب بقوة لدرجة أنني سمعت الارتطام، وصدر صوت نحيب يشبه مواء القطة، ولكن بنغمة أعلى، وكأنني أسمع صوت صرير الطبشور على سبورة سوداء، فاقشعر بدني.

وقفت أمام رادار كي أحجب المستودع عنها، ومشيت إلى الخلف وأرغمتها على التراجع خطوة أو خطوتين، كانت عيناها تستشيطان غضباً، وظهرت عليهما حلقتان بيضاوان ولوهلة اعتقدت أنها كانت ستعضني.

لم تعضني، وتكرر صوت الارتطام والخدش، ثمّ صوت الصرير والنحيب ذاك. لقد اكتفت رادار بهذا القدر، التفتت وعادت إلى الشرفة، ولم تبدِ أي علامة عن العرج. صعدت الدرج، واحتمت عند قدمي السيد بوديتش، ولكنها واظبت على النباح: «تشارلي، ابتعد من هناك».

«هناك شيء في الداخل، ويحاول الخروج، يبدو كبيراً».

«عد إلى هنا يا فتى، عليك أن تعود إلى هنا».

حدث ارتطام آخر وشطب أكثر، كنت أضع يدي على فمي لأمنع صراخي، لم أتذكر أنني وضعتها في المقام الأول.

«تشارلي!»

ركضت مثل رادار لأنني حين لم أستطع رؤية المستودع كان من السهل أن أتخيل الباب وهو يُخلع من مفصلاته، ويكشف عن كابوس سيحاول اللحاق بي بسرعة وتربص، وهو يصدر تلك الأصوات غير البشرية.

كان السيد بوديتش يرتدي سرواله القصير من نوع برمودا وينتعل حذاء الإصبع الذي كان يطلق عليه مشاية. كانت الجروح الملتئمة الناجمة عن أسياخ المثبت حمراء للغاية بالنسبة إلى جلده الشاحب.

«ادخل! ادخل!»

«ولكن ماذا...».

«لا داعيَ للقلق، إن الباب متين، ولكن عليّ أن أتدبر هذا الأمر».

صعدت الدرج ووصلت في الوقت المناسب لأسمع ما قاله بعدها مع أنه أخفض صوته وكأنه يتحدث لنفسه، «لقد حرك ابن الوضيعة الألواح والطوب، لا شك في أنه كبير».

«سبق لي أن سمعت صوتاً شبيهاً بهذا عندما كنت في المستشفى، ولكنه لم يكن بهذا الارتفاع».

دفعني إلى المطبخ، ولحق بي، وكاد أن يتعثر برادار التي كانت تحتمي عند قدميه، ولكنه أمسك بقبضة الباب في اللحظة الأخيرة.

«ابقَ هنا، سأتدبر الأمر».

أغلق باب الشرفة الخلفية، ثمّ عرج وترنح وأصدر حذاءه صوت طقطقة في طريقه إلى غرفة المعيشة، تبعته رادار واهتز ذيلها، سمعته يتمتم، ثمّ سمعت شتيمة متألمة تبعتها تنهيدة تنم عن بذل جهد. وحين عاد كان يحمل المسدس الذي طلبت منه أن ينزله إلى الطابق السفلي، ولكنه لم يكن يحمل المسدس وحسب، كان في قراب مسدس ملحق بحزام جلدي يتشح بعدة قطع كونشو فضية، بدا المنظر وكأنه ينبثق من غانفايت أت ذا أو.كي. كورال، حزمه حول خصره بشكل يسمح لقراب المسدس أن يكون قريباً من فخذه اليمنى، كانت أربطة جلد الغنم -السفلية- تتدلى وتلامس بنطاله القصير، وكان يفترض بالمنظر أن يبدو سخيفاً -كان من المفروض أن يبدو هو سخيفاً- ولكن لم يكونا كذلك.

«ابق هنا».

«يا سيد بوديتش، ماذا... لا تستطيع...».

«ابق هنا، بالله عليك!»، أمسك بذراعي بقوة كبيرة لدرجة أنها آلمتني، كان يلهث ويتنفس بسرعة شديدة، «ابق مع الكلبة، أنا أعرف ما أقول».

خرج وأغلق الباب خلفه، ونزل الدرج بشكل جانبي، نطحت رادار ساقي برفق وأنّت، ربت رأسها من دون أن أنتبه، وأنا أنظر من النافذة، وحين قطع السيد بوديتش نصف المسافة إلى المستودع تناول السيد بوديتش حلقة مفاتيحه من جيبه الأيسر، واختار مفتاحاً وفتح الباب ووجه المسدس إلى زاوية سفلية تقريباً، توقعت أن ينقض عليه شيء أو شخص ما ولكن لم يحدث هذا. لقد رأيت حركة بالفعل لشيء أسود ونحيل ثمّ اختفى. دخل السيد بوديتش إلى المستودع وأغلق الباب خلفه، لم يحدث أي شيء لفترة طويلة، ولكنها لم تتعد خمس ثوان، ثمّ سمعت صوت طلقتين ناريتين. لا بدّ من أن جدران المستودع كانت سميكة للغاية لأن الصوتين اللذين صدرا

كان من المفروض أن يكونا عاليين جداً في تلك المساحة المحصورة، ولكنهما كانا خافتين للغاية كصوت رأس مطرقة ملفوف باللباد.

لم يحدث شيء لفترة أطول من خمس ثوان وربما وصلت إلى خمس دقائق، لقد بقيت متماسكاً بسبب صوت السيد بوديتش الحاد ووجهه الحازم حين أمرني أن أبقى هنا بحق الله، ولكن ضقت ذرعاً في نهاية المطاف، كنت واثقاً أن شيئاً قد حدث له، فتحت باب المطبخ وحين خرجت إلى الشرفة الخلفية فُتح باب المستودع وخرج السيد بوديتش. اجتازتني رادار بسرعة البرق، ولم تظهر أيّ علامات لمرضها حينها، وعبرت الباحة لتصل إليه وهو يقفل الباب ويضع القفل في مكانه، كان تصرفاً حسناً لأنه استطاع أن يتمسك به حين قفزت عليه رادار.

«إلى الأسفل يا رادار! انبطحي!»

انبطحت على معدتها، وهزت ذيلها بشكل جنوني، فعاد السيد بوديتش إلى الشرفة بوتيرة أبطأ من الوتيرة التي انطلق فيها إلى المستودع، وكان يعرج بشكل ملحوظ على ساقه المصابة. كانت قد فتحت إحدى الندبات وكان الدم ينزف منها بقطرات حمراء داكنة، ذكرتني بحجر الياقوت الذي رأيته في غرفة السيد هاينريك الخلفية. كان قد خسر فردة حذائه.

قال: «أريد بعض المساعدة يا تشارلي، أشعر وكأن ساقي تحترق».

وضعت ذراعه حول عنقي، وأمسكت بخصره النحيل، وكدت أن أحمله على الدرج المؤدي إلى المنزل.

«إلى السرير، يجب أن أتمدد، لا أستطيع أن ألتقط أنفاسي».

أدخلته إلى غرفة المعيشة -فقد فردة حذائه الأخرى على الطريق لأنه كان يجر قدمه- وساعدته في الجلوس على الأريكة.

«ما كان هذا يا هاورد بحق الله؟ علام أطلقت النا...».

قال: «في الخزانة على الرف العلوي وخلف أواني زيت ويسن، هناك زجاجة ويسكي، أحضرها لي»، قرّب إصبع السبابة من الإبهام قليلاً، وكانت أصابعه ترتعش. في السابق كنت أعتبره شاحباً، ولكن الآن وحين تلاشت تلك البقعتان الحمراوان عن وجنتيه بدا كرجل ميت بعيني رجل حي.

ذهبت إلى الخزانة، ووجدت زجاجة جيمسونز في المكان الذي دلني عليه، وعلى الرغم من طولي كان عليّ أن أقف على رؤوس أصابعي كي أصل إليها. غطى الغبار الزجاجة التي كانت شبه ممتلئة، وعلى الرغم من حالة الصدمة التي كنت فيها -حيث كنت خائفاً ومذعوراً تقريباً- أعادت لي الرائحة التي انبثقت من الزجاجة الذكريات المرة عن أبي وهو يستلقي على الأريكة غائباً عن الوعي أو يستند إلى المرحاض ويتقيأ ما في أمعائه. لا تشبه رائحة الويسكي رائحة الجين... ولكنها تشبهها في الوقت ذاته، أعتبر أن رائحة الكحول واحدة بالنسبة إليّ فهي رائحة الحزن والخسارة.

سكبت كمية قليلة في كأس عصير، شربها السيد بوديتش دفعة واحدة وسعل، ولكن شيئاً من اللون عاد إلى وجنتيه. فك الحزام وقال: «أزل هذا الشيء اللعين عني».

سحبت القراب، فتحرر الحزام، وتمتم السيد بوديتش «اللعنة»، فلا بدّ من أن المشبك قد خدش أسفل ظهره.

«ماذا عليّ أن أفعل به؟».

«ضعه تحت السرير».

«من أين جلبت الحزام؟» كنت واثقاً من أنه لم يسبق لي رؤيته.

«من مكان ما. أنجز الأمر، ولكن قبل أن تفعل ذلك أعد تعبئة الذخيرة».

كانت هناك حلقات للرصاصات بين قطع الكونشو، أدرت أسطوانة المسدس الكبير،وملأت الحجرتين الخاليتين وأعدت المسدس إلى قرابه، ووضعته تحت السرير. شعرت وكأنني في حلم يقظة.

«ما كان هذا؟ ماذا كان موجوداً هناك؟».

قال: «سأخبرك، ولكن ليس اليوم، لا داعيَ للقلق، خذ هذه»، أعطاني حلقة مفاتيحه، «ضعها على ذلك الرف، أعطني حبتي أوكسي، وسأخلد للنوم».

أحضرت له الدواء، ولكنني لم أحبذ فكرة أن يأخذ حبوباً للضغط العالي بعد تناول الويسكي التي كانت تسبب ضغطاً عالياً، ولكنه لم يشرب إلا القليل.

قال: «لا تدخل إلى هناك، ربما تدخل في وقت لاحق، ولكن لا تفكر بالأمر الآن».

«هل هذا هو مصدر الذهب؟».

«إن الأمر معقد كما يقولون في مسلسلات المساء الدرامية، لا أستطيع أن أتحدث عن الأمر الآن يا تشارلي، ولا يمكن أن تتحدث عنه أمام أحد، أياً يكن، ليس بإمكانك أن تتخيل العواقب، عدني بذلك».

«أعدك».

«حسناً، اذهب الآن، ودع الرجل العجوز ينلْ قسطاً من الراحة».

2

كانت رادار تفرح حين تتمشّى معي على التلّ، ولكنها أبت أن تفارق السيد بوديتش في ذلك السبت. نزلتُ التلّ وحيداً، وأعددت لنفسي شطيرة لحم مفروم على خبز ووندر بريد؛ كان هذا طعام الشجعان. ترك أبي

ملاحظة كتب فيها أنه سيحضر اجتماعاً في تمام الساعة التاسعة لجمعية مدمني الكحول المجهولين، وسيذهب بعدها للعب البولينغ مع ليندي وصديقين آخرين مقلعين عن الكحول. سررتُ بهذا، كنت سأحافظ على وعدي للسيد بوديتش مهما تكن الظروف، فلقد قال لي: لا تستطيع تخيل العواقب، ولكنني كنت واثقاً أن أبي سيقرأ تعابير وجهي في كل الأحوال. ازدادت حساسيته ودقة ملاحظته بعد أن أقلع عن الكحول، يعتبر هذا شيئاً جيداً في العادة، ولكن ليس اليوم.

عندما عدت إلى المنزل رقم 1 وجدت السيد بوديتش نائماً. لقد بدا أفضل حالاً نوعاً ما، ولكنه كان يتنفس بصعوبة كما كان حاله في اليوم الذي عثرت عليه على درج الشرفة الخلفية وساقه مكسورة. قلقت عليه.

بحلول المساء، اختفى الصوت الحاد. جهّزت الفشار، وأكلناه ونحن نشاهد هاد على حاسوبي المحمول.كان السيد بوديتش هو من اختاره، فلم يسبق لي أن سمعتُ به، ولكنه كان جيداً مع أنه أنه لم يكن ملوّناً. طلب مني السيد بوديتش أن أوقف العرض لبرهة عندما كانت الكاميرا تركّز على وجه بول نيومان: «هل هو أكثر الرجال وسامة يا تشارلي؟ ما رأيك؟».

اعتقدت أنه كان محقاً.

بقيت ليلة السبت عنده، بدا السيد بوديتش أفضل بكثير يوم الأحد، لذا رافقت أبي لاصطياد السمك على سد إلجن الجنوبي. لم نصطد شيئاً، ولكنني استمتعت بقضاء الوقت معه تحت شمس أيلول الساطعة.

قال في طريق العودة: «أنت صامت على غير العادة، ما الذي يشغل بالك؟».

قلت له: «لا شيء سوى الكلبة العجوز»، كان معظم هذا الكلام كذباً، ولكن فيه شيئاً من الصحة.

قال أبي: «أحضرها معك هذا المساء». حاولت ذلك، ولكن رادار أبت أن تفارق السيد بوديتش.

قال السيد بوديتش: «اذهب ونم في سريرك اليوم، سأكون على ما يرام أنا والفتاة العجوز».

«يبدو صوتك مبحوحاً، آمل ألا تمرض».

«لن أمرض، لقد أمضيت يومي اللعين بالكلام».

«مع مَنْ؟».

«مع نفسي، هيّا يا تشارلي».

«حسناً، ولكن اتصل بي إن احتجت شيئاً».

«أجل، أجل».

«عدني، وعدتك ليلة البارحة واليوم دورك».

«أعدك، انصرف الآن».

3

يوم الأحد، لم تستطع رادار صعود درج الشرفة بعد أن قضت حاجتها الصباحية، ولم تأكل إلا قليلاً من طعامها، كما أنها لم تلمس صحنها تلك الليلة.

قال السيد بوديتش: «لعلها تحتاج إلى بعض الراحة» ولكنه لم يبدُ واثقاً من كلامه، «ضاعف لها جرعة الدواء».

سألته: «هل أنت واثق؟».

ابتسم بكآبة وقال: «لا شيء يمكن أن يضرها في هذه المرحلة؟».

تلك الليلة، نمت فعلاً في سريري الخاص، وبدت رادار أفضل حالاً يوم الاثنين، ولكن نتائج جهد يوم السبت ظهرت جلية على صحة السيد بوديتش، فقد عاد لاستخدام عكازيه للدخول والخروج من الحمام. أردت أن أتغيب عن المدرسة لأبقى معه، ولكنه رفض، فقد بدا بحال أفضل في تلك الليلة أيضاً، فصدقته.

يا لغبائي.

4

صباح يوم الثلاثاء، في تمام الساعة العاشرة كنت في حصة الكيمياء المتقدمة. كنا موزعين إلى مجموعات من أربعة أفراد ونرتدي مراييل وقفازات مطاطية لنحدد درجة غليان الأسيتون. كانت الغرفة هادئة باستثناء صوت الهمسات، لذا كان صوت رنين هاتفي المحمول مدوياً حين وردني اتصال. نظر إليّ السيد أكيرلي مستنكراً وقال: «كم مرة قلت لكم يا طلاب أن تضبطوا هواتفكم المحمولة على الوضع الصامت...».

تناولته من جيبي، ورأيت اسم بوديتش. نزعت قفازيّ، وأجبت على الاتصال، متجاهلاً كلام السيد أكيرلي، بدا السيد بوديتش لاهثاً ولكنه هادئ: «أعتقد أنني أتعرض لذبحة قلبية يا تشارلي. في الواقع أنا متأكد من هذا».

«هل اتصلت...».

«لقد اتصلت بك لذا اصمت واسمعني، هناك محام اسمه ليون برادوك في إلجن، وهناك محفظة تحت السرير، كل شيء ستحتاج إليه موجود تحت السرير، هل تفهمني؟ تحت السرير، اعتنِ برادار وحين تعرف كل شيء قرر...» شهق وقال: «اللعنة! هذا مؤلم للغاية! وكأنك تدمغني بالحديد الحامي! حين تعرف كل شيء قرر ماذا تريد أن تفعل بها».

أنهى الاتصال بعد أن قال جملته هذه.

بينما كنت أتصل بالطوارئ، فتح باب غرفة الكيمياء وخرج السيد أكيرلي، وسألني عما أفعله بحق الجحيم. لوّحت له بيدي بينما كانت موظفة الطوارئ تسألني عن ماهية الحال. شرحت لها الحال وأعطيتها العنوان وهو يقف إلى جانبي مذهولاً. نزعت مريولي وألقيت به أرضاً، ثمّ ركضت باتجاه الباب.

5

كانت هذه أسرع مرة أقود فيها الدراجة في حياتي حيث وقفت على الدواستين، وعبرت الشوارع من دون أن أنظر. سمعت صوت بوق وصرير دواليب وصراخ أحدهم يقول: «انظر أمامك أيها المغفل اللعين!».

على الرغم من سرعتي إلا أن سيارة الإسعاف سبقتني. حين التففت عند زاوية شارعي باين وسيكامور، وأسندت قدماً على الأرض، وسحبتها على الرصيف كي لا أطير عن الدراجة، رأيت سيارة الإسعاف وهي تغادر، وكانت أنوارها تتلألأ، وصوت إنذارها يدوّي في وضح النهار.

توجهت إلى الخلف، وقبل أن أفتح باب المطبخ، اندفعت رادار من باب الكلب، وانقضت عليّ. جثوت على ركبتي لأمنعها من القفز وإيلام قائمتيها الخلفيتين الضعيفتين، ناحت وأنّت ولعقت وجهي. لا تحاولوا أن تقولوا لي إنها لم تشعر أن شيئاً سيئاً قد حصل.

دخلنا فوجدت قهوة مسكوبة على طاولة المطبخ والكرسي الذي تعود أن يجلس عليه مقلوباً (إنه لأمر مضحك كيف نختار مواقعنا ونلتزم بها). لا يزال الفرن متقداً ولا تزال ركوة القهوة العريقة ساخنة جداً، وتنبعث منها رائحة حريق. بإمكانكم القول إنها تشبه رائحة تجربة كيميائية. أطفأت عين الموقد، وأمسكت بقفاز لأنقل الركوة إلى عين باردة. لم تبرح رادار جانبي خلال كل هذا الوقت وكانت تسند كتفها على ساقي، وتفرك رأسها على ركبتي.

كانت هناك روزنامة ملقاة على الأرض قرب مدخل غرفة المعيشة، وكان من السهل تخيّل ما جرى، كان السيد بوديتش يشرب القهوة على طاولة المطبخ، وأبقى الركوة على الموقد كي يصب كوباً آخر، ولكن الذبحة أصابته، فألقى بالقهوة. كان هاتفه في غرفة المعيشة، نهض ودخل إلى هناك، وعندما ترنح أوقع كرسيّه، ثمّ استند إلى الجدار، فأوقع الروزنامة على الأرض.

كان الهاتف اللاسلكي على السرير كما كان هناك غطاء بابافيرين، اعتقدت أنه شيء حقنوه فيه قبل أن ينقلوه. جلست على الأريكة، وربت رأس رادار، وحككت خلف أذنيها فلطالما هدّأت هذه الحركة من روعها.

«سيكون على ما يرام يا فتاة، انتظري وسترين أنه سيكون بخير».

نظرت تحت السرير حيث كنت سأرى كل ما أحتاج إليه وفقاً للسيد بوديتش. كان هناك المسدس الملحق بالحزام المرصع بالفضة، كما وجدت حلقة مفاتيحه ومحفظة لم يسبق لي أن رأيتها بالإضافة لمسجلة أشرطة كاسيت تقليدية رأيتها من قبل على أحد صناديق الحليب البلاستيكية في الطابق الثالث. نظرت من خلال نافذة المسجلة، ووجدت أن هناك كاسيت راديو شيك في الداخل. كان السيد بوديتش يستمع إلى شيء ما، أو يسجل شيئاً ما. أراهن بكل مالي على أنه كان يسجل شيئاً ما.

وضعت حلقة المفاتيح في جيبي والمحفظة في الجيب الآخر. كان بودي أن أضع المحفظة في حقيبتي، لكنني تركتها في المدرسة. أخذت باقي الأشياء إلى الأعلى، ووضعتها في الخزنة. وقبل أن أغلق الباب، وأدخل رمز القفل، جثوت ومررت يدي بين قطع الذهب، وبينما راقبتها وهي تتسلل بين أصابعي، تساءلت ماذا سيحل بها إذا مات السيد بوديتش.

كانت رادار تئن وتنبح أسفل الدرج. نزلت وجلست على الأريكة واتصلت بأبي، وأخبرته بما حصل فسألني عن حاله.

«لا أعرف، لم أره، سأذهب إلى المستشفى الآن».

رنّ هاتفي المحمول، وأنا في منتصف الجسر اللعين، ركنت دراجتي في مرأب زيب مارت، وأجبت على الاتصال، كانت ميليسا ويلكوكس هي المتصلة وكانت تبكي.

«لقد مات في طريقه إلى المستشفى يا تشارلي، لقد حاولوا إنعاشه بشتى الطرق، ولكن الاحتشاء كان قوياً للغاية، أنا آسفة، أنا آسفة جداً».

قلت لها إنني آسف أيضاً. نظرت إلى نافذة زيب مارت، لم تتغير اللافتة: صحن ساخن من أفضل دجاج مقلي على وجه الأرض. ترقرقت عيناي بالدمع، وتشوشت الكلمات أمامي. رأتني السيدة زيبي وخرجت. «هل كل شيء على ما يرام يا تشولي؟»

قلت لها: «في الواقع لا».

لم يكن هناك جدوى من الذهاب إلى المستشفى الآن، عدت أدراجي عبر الجسر، واتجهت إلى شارع سيكامور. كنت محبطاً جداً لدرجة أنني لم أستطع القيادة وخصوصاً على ذلك الانحدار. ركنت دراجتي أمام منزلنا الذي كان فارغاً، وسيبقى فارغاً إلى أن يعود أبي. في غضون ذلك أدركت أن هناك كلبة تحتاج إليّ، اعتقدت أنها أصبحت كلبتي فعلاً.

6

حين عدت إلى منزل السيد بوديتش أمضيت بعض الوقت في تربيت رأس رادار. بكيت وأنا أفعل ذلك بسبب الصدمة، ولأن الحقيقة بدأت ترسي أعمدتها: حلّ فراغ في قلبي كان صديقي يملؤه، ربما هدّأها التربيت كما هدّأني أنا الآخر لأنني بدأت بالتفكير. عاودت الاتصال بميليسا، وسألتها إن كانوا سيشرّحون الجثة، فقالت لي إنهم لن يقوموا بذلك لأنه لم يمت من دون رقابة وكان السبب واضحاً.

«سيكتب المحقق شهادة وفاة، ولكنه سيحتاج إلى ورقة إثبات هوية، هل محفظته معك؟».

كانت معي محفظة في الواقع، ولكنها لم تكن تلك المحفظة البنية اللون التي كان يحملها في جيبه، بل المحفظة السوداء التي وجدتها تحت السرير، ولكنني لم أقل هذا لميليسا، اكتفيت بالقول لها إنها معي، فقالت إنه لا داعي للعجلة فنحن نعرفه.

بدأت أشكك في صحة هذه الحقيقة.

بحثت على غوغل عن رقم ليون برادوك، واتصلت به. كانت المحادثة مقتضبة، حيث أخبرني برادوك أن كل معاملات السيد بوديتش منجزة لأنه توقع أنه لن يعيش طويلاً.

«قال إنه لم يرد شراء ثمار صلبة وينتظرها كي تنضج، اعتقدت أن هذا تفكير مثير للاهتمام».

قلت لنفسي: السرطان هو السبب الذي دفعه لتسوية معاملاته وليس الذبحة القلبية.

سألته: «هل أتى إلى مكتبك؟».

«أجل في مطلع هذا الشهر».

بمعنى آخر: كنت في المدرسة ولم يخبرني شيئاً بخصوص هذا الموضوع.

«أراهن أنه أخذ يوبر».

«ماذا تفضّلت؟».

«لا شيء، إن ميليسا - معالجته الفيزيائية- قالت إن شخصاً، ما وأعتقد أنه المحقق في أسباب الوفيات، سيحتاج إلى هوية من أجل شهادة الوفاة».

«أجل، أجل إنه إجراء روتيني، إذا أخذتها إلى مكتب استقبال المستشفى سيصورون نسخة عنها، تستطيع أخذ رخصة القيادة إذا كانت لديه واحدة، حتّى وإن كانت منتهية الصلاحية، أو تستطيع أخذ أي شيء عليه صورة. لا داعيَ للعجلة، فسيبعثون الجثة إلى دار الجنائز من دونها، لا أعتقد أنك تملك فكرة عن أي دار جنائز...».

قلت له: «كروسلاند»، في تلك الدار دفنت أمي، «تقع هنا في سينتري».

«ممتاز، ممتاز، سأتولى أمر النفقات. لقد وضع بعض المال في حساب ضمان في حال حدوث مثل هذه النهاية الأليمة، أخبرني من فضلك عن الإجراءات ولعل والديك سيتكفلان بالأمر، سأحتاج لرؤيتك بعدها يا سيد ريد».

«أنا؟ لماذا؟».

«سأخبرك حين أراك، أعتقد أنها ستكون محادثة جيدة».

7

وضّبت طعام رادار وطبقها وأدويتها، فما كنت، بأي شكل من الأشكال، لأتركها في المنزل تنتظر سيدها ليعود من المكان الذي رحل إليه. حزمت اللجام على الطوق ونزلنا التلّ، نزلتْ ببطء ولكن بثبات، وصعدتْ درج الشرفة من دون معاناة. أصبحت تعرف المكان جيداً، واتجهت فوراً إلى وعاء المياه، ثمّ تمددت على السجادة، وخلدت إلى النوم.

بعد الظهر، عاد أبي إلى المنزل، ولا أدري ماذا قرأ على وجهي، ولكنه نظر إليّ نظرة واحدة، ثمّ عانقني بشدة. عاودت البكاء بلوعة، وانهمرت

دموعي بغزارة هذه المرة. أمسك برقبتي، وهزني وكأنني فتى صغير، وهذا ما جعلني أبكي أكثر.

حين كففت عن البكاء سألني إن كنت جائعاً، فأجبته أجل، خفق ست بيضات، وأضاف إليها بعض البصل والفليفلة. أكلنا وأخبرته بما حصل، ولكنني أخفيت عنه أحداثاً كثيرة: المسدس والأصوات في المستودع ودلو الذهب في الخزنة، ولم أرِه حلقة المفاتيح أيضاً. فكّرت في أن أعترف له بكل شيء قريباً، لأنّه قد يلومني على تكتمي هذا، ولكنني كنت سأبقي التفاصيل المجنونة لنفسي إلى أن أستمع إلى ذلك الشريط.

أريته المحفظة، وكان هناك في قسم المال فواتير من فئة الخمسة دولارات من نوع لم يسبق لي أن رأيته. قال أبي إنها شهادات فضية[15]، لم تكن نادرة للغاية فقط، ولكنها كانت عريقة كعراقة تلفاز السيد بوديتش وفرنه، كما كان هناك ثلاث وثائق ثبوتية: بطاقة ضمان اجتماعي مكتوبة باسم هاورد أي. بوديتش، وبطاقة تعريف تفصح أن هاورد أي. بوديتش كان عضواً في اتحاد الحطابين الأميركيين، ورخصة قيادة.

نظرت إلى صورة بطاقة اتحاد الحطابين الأميركيين بإعجاب؛ بدا السيد بوديتش بعمر الخامسة والثلاثين تقريباً وليس أكثر من أربعين. كان الشعر الأحمر يعلو رأسه، وكان مصففاً بطريقة أنيقة، وكانت خصلاته متموجة. وكان يضحك بطريقة لم يسبق لي أن رأيتها. لقد رأيت ابتسامات طفيفة وابتسامة عريضة أو الاثنتين، ولكنني لم أرَ ضحكة لا تخفي الهموم كهذه، كان يرتدي قميصاً مخططاً وكان يظهر بهيئة الحطابين من دون شك.

قال لي قبل فترة: أنا حطاب بسيط، يذكر الحطابون كثيراً في الحكايات الخيالية.

سألني أبي: «هذا أمر جيد للغاية».

رفعت رأسي عن البطاقة التي كنت أحملها.

«ماذا؟».

«هذه».

مرر لي رخصة القيادة التي كانت عليها صورة السيد بوديتش وهو في الستينات من عمره. لقد حافظ شعره على بعض خصلاته الحمراء، ولكنها كانت قد بدأت بالتلاشي وتقاوم الخصل البيضاء، ولكن من دون فائدة. كانت الرخصة صالحة للعام 1996 وفقاً لما كان مطبوعاً تحت اسمه. تحقق أبي من الإنترنت، فوجد أن السيد بوديتش كان يملك سيارة (في مكان ما)، ولكنه لم يحمل رخصة قيادة صالحة في إيلينوي... بخلاف ما أشارت إليه هذه الرخصة، أعتقد أن السيد هاينريك كان يعرف شخصاً يستطيع تزوير رخص القيادة.

سألته: «لماذا؟ لماذا فعل هذا؟».

«ربما لأسباب عديدة، ولكنني أعتقد أنه كان يعرف أن وثيقة الوفاة لا يمكن أن تُستصدر من دون أوراق ثبوتية»، أشاح أبي بوجهه، ليس استنكاراً بل إعجاباً، «تشارلي هذه الوثيقة هي ضمانته لاستخراج وثيقة وفاة».

«ماذا علينا أن نفعل بها؟».

«سنستخدم هذه الوثيقة. من المؤكد أنه كانت لديه أسرار، ولكنني لا أعتقد أنه سرق بنوكاً في أركنساس، أو أطلق النار على حانة في ناشفيل. عاملك وكلبته بطريقة جيدة جداً، وهذا يكفيني. أعتقد أنه يجب أن يدفن مع أسراره الصغيرة، إلا إذا كان محاميه على علم بها، هل لديك رأي آخر؟».

«لا». ما كنت أفكّر فيه هو أنه كان يملك أسراراً، ولكنها لم تكن صغيرة، إلا إذا كنتم تعتبرون الثروة الذهبية أمراً صغيراً. وكان هناك شيء في المستودع أو كان موجوداً قبل أن يطلق النار عليه.

خططنا ليجري دفن هاورد أدريان بوديتش بعد يومين أي الخميس الواقع في السادس والعشرين من أيلول عام 2013. تمت مراسم العزاء في دار الجنائز كروسلاند ودُفن في مقبرة سينتريز ريست حيث دفنت أمي. ألقت الموقرة أليس باركر خطبة غير متعصبة لطائفة معينة بناء على طلب أبي. لقد حضرت في جنازة أمي أيضاً، وأوجزت بالكلام، ولكن مع هذا كان لديّ متسعاً من الوقت لأُفكر. فكرت قليلاً في الذهب، ولكن المستودع استولى على جلّ أفكاري. لقد أطلق النار على شيء هناك، وقد قتلته الحماسة بالمقابل، لقد استغرق هذا وقتاً، ولكنني متأكد أنه كان السبب الرئيسي.

حضر مراسم الدفن جورج ريد وتشارلز ريد وميليسا ويلكوكس والسيدة ألثيا ريتشلاند والمحامي ليون برادوك ورادار التي نامت خلال الجنازة وتكلمت لمرة واحدة فقط عند القبر. لقد نبحت أثناء إنزال النعش إلى مكان الدفن. أنا واثق أن هذا يبدو عاطفياً ولا يصدق، وليس لديّ ما يثبت ذلك سوى كلمتي.

عانقتني ميليسا، وقبّلت وجنتي، وطلبت مني أن أتصل بها إذا أردت أحداً أتحدث إليه، فقلت لها إنني سأفعل ذلك.

عدت إلى المرأب مع أبي والمحامي، ومشت رادار ببطء بالقرب مني. ركن برادوك سيارته اللينكولن قرب سيارتنا المتواضعة من نوع شيفي كابريس. كان هناك مقعد قريب مظلل بشجرة بلوط تميل أوراقها إلى اللون الذهبي. سألني السيد برادوك: «لعل بوسعنا أن نجلس هناك للحظات؟ عليّ أن أُخبرك بشيء مهم للغاية».

قلت له: «انتظر، وتابع السير». ركّزت عينيّ على السيدة ريتشلاند التي أخذت وضعية المراقبة كعادتها على شارع سيكامور، وحين رأت أننا كنا نتجه إلى سيارتينا -أو نبدو كذلك- استقلت سيارتها وغادرت.

قلت له: «الآن نستطيع الجلوس».

قال برادوك: «أفهم أن هذه السيدة متلصصة، هل كانت تعرفه؟».

«لا، ولكن السيد بوديتش قال إنها متلصصة وكان محقاً».

جلسنا على المقعد، ووضع السيد برادوك حقيبته على حضنه ثمّ فتحها: «قلت لك إننا سنحظى بمحادثة جيدة وأعتقد أنك ستوافقني الرأي حين تسمع ما سأخبرك به». تناول ملفاً كما تناول كدسة أوراق يجمعها مشبك ذهبي، وكُتب أعلى الورقة الأولى: الوصية والشهادة الأخيرة.

بدأ أبي بالضحك وسأل: «يا إلهي، هل ترك شيئاً لتشارلي؟».

قال برادوك: «ليس تماماً، لقد ترك كل شيء لتشارلي».

تفوهت بأول شيء خطر في بالي، ولم يكن مهذباً للغاية: «أنت تمزح؟».

ابتسم برادوك، وأشاح بوجهه وقال: «إن هذا في قاموس المحاماة نولوم كاكاس ستاتوم؛ أي موقف لا يمكن المزاح فيه. لقد ترك لك المنزل والأرض التي شُيّد عليها، يا لها من أرض، يبلغ ثمنها ستمئة ألف على الأقل، وربما أكثر من ستمئة ألف وفقاً لأسعار عقارات سينتريز ريست. كما ترك لك كل شيء ضمن المنزل بالإضافة إلى سيارة موجودة في مخزن في بلدة كاربينترفيل مع الكلبة بالطبع»، انحنى وربت رأس رادار، رفعت رأسها قليلاً، ثمّ أعادته إلى كتفها.

سأل أبي: «هل هذا صحيح فعلاً؟».

أجابه برادوك: «المحامون لا يكذبون» ثمّ فكّر في ما قاله وشرح: «على الأقل في مثل هذه الأمور».

«أليس لديه أقارب قد يطعنون بهذه الوصية؟».

«سنكتشف هذا حين تصدق الوصية، ولكنه قال إن لا أقارب له».

سألته: «هل... هل لا يزال يسمح لي بأن أدخل إلى هناك؟ أقصد أن لديّ أشياء كثيرة هناك. إن معظمها ثياب ولكن... إممم...» لم أستطع أن أتذكر ماذا تركت في المنزل رقم 1، كل ما أستطيع التفكير فيه هو ما فعله السيد بوديتش في ذلك اليوم من أوائل الشهر حين كنت في المدرسة. لعله غيّر مسار حياتي بينما كنت أخضع لامتحان تاريخ أو أتدرب في النادي الرياضي. لم أفكّر في الذهب فقط حينها أو في المستودع أو في المسدس أو في شريط التسجيل، كنت أحاول أن أتقبّل فكرة أنني أصبحت (أو أنني سأصبح قريباً) مالك الأرض أعلى تل شارع سيكامور، ولماذا؟ لأنني سمعت في أحد مساءات نيسان الباردة نباح رادار في الشرفة الخلفية للمنزل الذي كان الأولاد يطلقون عليه البيت المسكون.

كان المحامي يتحدث إليّ في تلك في الأثناء، وطلبت منه أن يعيد كلامه.

«بالطبع، بإمكانك الدخول فأنت تمتلكه الآن بكل ما فيه، بالأحرى ستصبح مالكه حين تُصدّق الوصية على الأقل».

أعاد الوصية إلى الملف، وأعاد الملف بدوره إلى الحقيبة، وأغلقها ثمّ نهض. تناول من جيبه بطاقته، وقدّمها إلى والدي، ولعله تذكر أن أبي ليس الوريث الشرعي لأرض قيمة (قيمة للغاية) فأعطاني بطاقة أخرى.

«اتصلا بي إذا خطرت لكما أيّ أسئلة، وسأتواصل معكما بالطبع. سأطلب الاستعجال بتصديق الوصية، ولكنني أظن أن الأمر سيستغرق ستة أشهر، تهانينا أيها الشاب».

صافحناه، وراقبناه وهو يستقل سيارته، لا يلجأ أبي للشتائم كثيراً (على عكس السيد بوديتش الذي كان يلحق كلمة اللعنة بعبارة مرر لي الملح).

ولكن بينما كنا نجلس على المقعد والصدمة تعتلي وجهينا على غير عادته قال: «سحقاً!»

فعقبت: «هذا صحيح».

9

حين وصلنا إلى المنزل، تناول والدي زجاجتي صودا من الثلاجة، تبادلنا نخباً وقال: «كيف تشعر يا تشارلي؟».

«لا أعلم، لا أستطيع استيعاب الأمر».

«أتعتقد أنه يملك شيئاً في البنك أم استنزفت المستشفى كل ما لديه؟».

«لا أعلم»، لم يكن يملك كثيراً في سينتريز أي ما يعادل بضعة آلاف، ولكن كان هناك دلو من الذهب في الطابق العلوي وربما هناك مزيد في المستودع بالإضافة إلى ذلك الشيء المجهول الذي كان موجوداً فيه.

قال أبي: «لا يهم هذا، إن ذلك العقار ذهبي».

«ذهبي، هذا صحيح».

«ستكون نفقات دراستك الجامعية مؤمنة»، تنهد مطولاً، وزم شفتيه كي يصدر صوت هووو: «أشعر وكأن حملاً كبيراً قد أزيل عن كاهلي».

قلت له: «هذا إن بعنا العقار».

نظر إليّ باستغراب وقال: «هل تقول لي إنك تريد الاحتفاظ به؟ وتتشبه بنورمان بيتس[16] وتعيش في البيت المسكون؟».

«لم يعد يشبه البيت المسكون يا أبي».

«أعلم هذا، أعلم هذا. لقد رتبته جيداً».

«كان لديّ كثير من الأعمال يفترض بي القيام بها قبل حلول الشتاء».

لا يزال ينظر إليّ باستغراب؛ أحنى رأسه وقطّب حاجبيه قليلاً: «إن الأرض هي الثمينة يا بطل وليس المنزل».

أردت أن أجادله - فقد أرعبتني فكرة التخلص من المنزل رقم 1 على شارع سيكامور، ليس بسبب الأسرار الكامنة فيه بل لأنه يملك أشياء كثيرة من ذات السيد بوديتش- ولكنني تمنعت عن ذلك، فلم يكن هناك مغزى من الجدال كما لم يكن هناك مال لطلاء المنزل بأكمله على أيّ حال إلى أن تُصدق الوصية، ولم يكن هناك وسيلة لتحويل الذهب إلى مال. أنهيت شرابي وقلت: «أريد أن أذهب إلى هناك لأحضر ثيابي، هل تستطيع رادار البقاء معك هنا؟».

«بالطبع، أعتقد أنها ستمكث هنا من الآن فصاعداً، أليس كذلك؟ على الأقل إلى حين...» لم ينهِ كلامه، واكتفى برفع كتفيه.

قلت له: «بالطبع، إلى ذلك الحين».

10

أول ما لاحظته هو أن البوابة كانت مفتوحة، تذكرت أنني أغلقتها، ولكنني لم أكن واثقاً. جلت حول المنزل، وصعدت درج الشرفة الخلفية، ووقفت على الدرجة الثانية، رأيت باب المطبخ مفتوحاً وكنت واثقاً من أنني أوصدته، حيث كان هناك أشياء مكان القفل الذي كان مخلوعاً إلى حدّ ما من مقبض الباب. لم أفكر في احتمال أن أجد المقتحم، كائناً من كان، في المنزل وللمرة الثانية اليوم. بدوت مصعوقاً لدرجة أنني لم أستطع التفكير، إن الشيء الوحيد الذي تذكرته هو أنني سررت لأنني تركت رادار في منزلنا، فقد كانت مسنة وضعيفة للغاية.

الفصل العاشر
دمار- السيدة ريتشلاند- لصوص النعوات- قصة الشريط-
داخل المستودع- متابعة قصة الشريط.

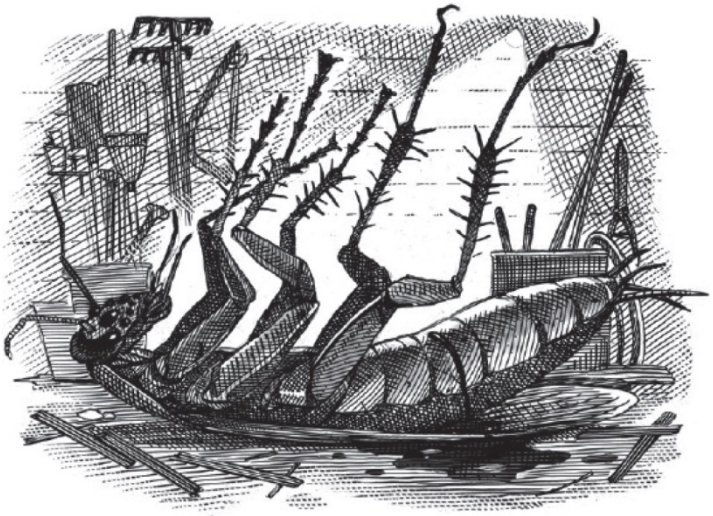

1

كانت كل خزائن المطبخ مفتوحة، والأوعية والعلب متناثرة على الأرض. يا له من فطور! كان الموقد مُزاحاً عن الجدار كما كان باب الفرن مفتوحاً، كما كانت محتويات العلب - السكر والطحين والقهوة والبسكويت- مرمية على المجلى، ولكن العلبة التي وضع فيها المال كانت خالية، أول

فكرة مفهومة خطرت في بالي كانت: لم يحصل عليه ذلك اللعين؛ كنت قد وضعت المال (وحبات الذهب الصغيرة) في الخزنة منذ أشهر. في غرفة المعيشة كان السرير المفروش -الذي عاد أريكة الآن لأن السيد بوديتش لم يعد يحتاج إليه- مقلوباً وكانت الوسائد ممزقة، كما كان تنجيد كرسي السيد بوديتش المريح ممزقاً هو الآخر، وكانت حشوة الفرش متناثرة في كل مكان.

لم يكن الطابق العلوي أفضل حالاً، لم أحتج إلى فتح الدرج كي أحضر ثيابي لأنها كانت متناثرة في كل أرجاء الغرفة التي كنت أقطنها، ولم تكن فرشتي ووسادتي أفضل حالاً من سائر الفرش والوسائد. كان الحال مشابهاً في غرفة النوم الأساسية: ورق الجدران ممزق وملقى على الأرض، وباب الخزانة مفتوح، والثياب مكومة على الأرض (كانت جيوب البناطيل متدلية إلى الخارج) والخزنة مكشوفة، وتظهر آثار خدش قرب القفل، والكثير منها على أزرار الشيفرة، ولكن الخزنة قاومت محاولات اللص لاقتحامها. ولأتأكد تماماً أدخلت الشيفرة وفتحتها، وتأكدت من أن كل شيء فيها، أغلقتها وأدرت القفل. نزلت إلى الطابق السفلي، جلست على الأريكة التي اعتاد السيد بوديتش أن ينام عليها، واتصلت بالطوارئ لثالث مرة في تلك السنة، ثمّ اتصلت بأبي.

2

لاحظت أن عليّ القيام بشيء قبل أن يأتي أبي وقبل أن تصل الشرطة بالتأكيد، إذا كنت عازماً على الكذب في المطاف الأول، فيجب على الكذبة أن تكون قابلة للتصديق. تدبرت ذلك الأمر، وخرجت لأنتظر، صعد أبي التلّ، وركن سيارته عند الرصيف، لم يحضر رادار، وسررت لهذا لأن حال المنزل كان سيحزنها أكثر من حزنها على التغييرات الحديثة في حياتها.

جاب أبي الطابق السفلي وعاين الخراب، وبقيت في المطبخ لأجمع الأوعية والعلب وأضعها جانباً، وحين عاد ساعدني على إعادة الموقد إلى

مكانه، «يا إلهي يا تشارلي! ما الذي حصل برأيك؟».

أجبته بأنني لا أعرف، ولكنني اعتقدت أنني كنت أعرف ما حصل ولكن لم أعرف الفاعل: «هل تستطيع أن تنتظر هنا إلى أن تصل الشرطة يا أبي؟ سأذهب إلى الطرف المقابل من الشارع، إن السيدة ريتشلاند في منزلها حيث رأيت سيارتها، أريد أن أتحدث إليها».

«المتلصصة؟».

«هي بعينها».

«ألا يجدر بك أن تترك هذا الأمر للشرطة؟».

«إذا رأت أي شيء فسأقول لهم أن يسألوها».

«لا أعتقد أنها رأت شيئاً حيث كانت معنا في الجنازة».

«مع ذلك أريد التحدث إليها، لعلها رأت شيئاً من قبل».

«كأفراد يعاينون المكان قبل الاقتحام؟».

«ربما».

لم يكن عليّ أن أطرق الباب حيث كانت في مكانها المعتاد في نهاية المرأب: «مرحباً يا تشارلي، هل كل شيء على ما يرام؟ كان أبوك في عجلة من أمره. أين الكلبة؟».

«في منزلي يا سيدة ريتشلاند. لقد اقتحم أحدهم منزل السيد بوديتش حين كنا في الجنازة، ودمر المكان تقريباً».

«يا إلهي! أحقاً هذا؟» وضعت يدها على صدرها.

«هل سبق لكِ أن رأيتِ أحداً في اليومين الأخيرين؟ هل رأيت أحداً غريباً عن الحي؟».

فكّرت قليلاً، ثمّ قالت: «يا إلهي! لا أعتقد، شاهدت شبان التوصيل الاعتياديين من قِبل مثل فيدرال إكسبرس ويو.بي.أس والرجل الذي يشذب مرج آل هوتونز... أعتقد أن هذا الأمر مكلف للغاية... ما حجم الضرر؟ هل سُرق أي شيء؟».

«لا أعرف حقاً، ستود الشرطة أن...».

«تتحدث إليّ؟ بالطبع! سأسر بذلك! ولكن ربما حدث الأمر عندما كنا في الجنازة...».

«أجل، أعرف ذلك، شكراً في جميع الأحوال». واستدرت لأغادر.

قالت: «كان هناك رجل غريب وصغير يبيع اشتراكات للمجلات، ولكن هذا كان قبل وفاة السيد بوديتش».

نظرت إليها مجدداً، وسألتها: «حقاً؟».

«أجل، لا بد من أنك كنت في المدرسة. كان يحمل حقيبة تشبه حقيبة سعاة البريد في الأيام الخوالي، وكان عليها ملصق خدمة اشتراكات أميركا. أعتقد أن هذا هو الشعار، كما كانت هناك عينات ضمنها -مثل تايم ونيوزويك وفوغ ومجلات أخرى. قلت له لا أريد أيّ مجلات، لأنني أقرأ كل شيء على الإنترنت. إنها وسيلة أكثر سهولة، أليس كذلك؟ كما أنها صديقة للبيئة، وتقلل الصفحات التي يتم التخلص منها في مكبات القمامة».

لم أكن مهتماً بالفوائد البيئية للقراءة على الإنترنت: «هل توجّه إلى منازل أخرى في الشارع؟» واعتقدت أنها الشخص الوحيد الذي بإمكانه الإجابة عن هذا السؤال.

«لقد توّجه إلى بعض منها، أعتقد أنه دخل إلى منزل السيد بوديتش، ولكن ذلك الرجل العجوز لم يخرج إلى الباب، لعله كان مريضاً للغاية أو... لا أعتقد أنه كان يفضل الزوار كثيراً أليس كذلك؟ سررت جداً لأنك صادقته.

من المحزن أنه توفي. يقولون إن الحيوانات تذهب إلى الطرف المقابل من جسر قوس قزح حين تموت. أحب هذه الفرضية، ألا تحبها أنت؟».

«أجل، إنها فكرة لطيفة». كنت أكرهها للغاية.

«أعتقد أن كلبه سيعبر قوس قزح قريباً، لقد أصبح ذلك المسكين نحيلاً وأشيب، هل ستحتفظ به؟».

«رادار؟ بالطبع»، لم أتكبد عناء أن أقول لها إن رادار كانت أنثى: «هل باستطاعتك وصف ذلك البائع؟».

«أوه، رجل غريب وصغير يمشي ويتكلم بطريقة غريبة. كان يمشي بعرجة صغيرة وكأنه طفل، وحين قلت له إنني لا أريد أيّ مجلات أجابني: رايتو وكأنه قد غيّر لكنته ليبدو من إنكلترا، ولكنه بدا أمريكياً مثلي ومثلك، هل تعتقد أنه الشخص الذي اقتحم المنزل؟ لم يبدُ خطيراً على الإطلاق، كان رجلاً غريباً وصغيراً ذا لكنة غريبة ومضحكة، قال ها-ها أكثر من مرة».

«ها-ها؟»

«أجل، لم يضحك فعلاً، بل قال ها-ها، هناك حسم سبعين بالمئة عن السعر الأصلي يا سيدتي، ها-ها، وكان رجلاً صغيراً بطولي تقريباً، هل تعتقد أنه الفاعل؟».

أجبتها: «لا أُرجح ذلك».

«تذكرت أنه كان يعتمر قبعة وايت سوكس وبنطالاً قصيراً، وكان هناك دائرة صغيرة على المقدمة».

3

كنت مستعداً لأبدأ بحملة تنظيف عالمية، ولكن أبي قال إن علينا انتظار الشرطة: «لا بد أنهم سيودون توثيق الموقع».

لقد وصلوا بعد عشر دقائق تقريباً في سيارة دورية وسيارة سيدان من دون لوحات تسجيل. كان شعر سائق السيدان أشيب وكان بديناً، عرّف عن نفسه وقال إنه المحقق غليسون، أما الشرطيان اللذان لم يرتديا الزي الرسمي فكانا ويتمارك وكوبر. حمل ويتمارك كاميرا رقمية أما كوبر فحمل حقيبة صغيرة تشبه علبة الغداء واعتقدت أنها كانت تحوي معدات جمع الأدلة.

عاين المحقق غليسون الضرر ولم يبدُ مهتماً، وكان يُبعد معطفه بين الحين والآخر كي يرفع بنطاله، اعتقدت أنه لم تكن تفصله سنوات كثيرة عن سن يحصل فيه على ساعة ذهبية أو شارة في حفل تقاعده، ولكنه في تلك الأثناء كان على رأس عمله.

أشار لويتمارك أن يصوّر مقطع فيديو لغرفة المعيشة، وأرسل كوبر إلى الطابق العلوي. طرح بعض الأسئلة (ووجهها إلى أبي مع أنني كنت من بلّغ عن الاقتحام) وسجّل أجوبتنا على كراسة صغيرة، أغلق الكراسة، ووضعها في الجيب الداخلي لمعطفه ورفع بنطاله: «إنهم لصوص النعوات، لقد شهدت هذه الحوادث مئات المرات».

سألته: «ما ماهيتهم؟». نظرت إلى أبي، ولاحظت أنه كان يعرف بالفعل، لعله كان يعرف من اللحظة التي دخل فيها إلى المنزل وجال فيه.

«متى أعلن عن موته في الصحف؟».

قلت له: «البارحة، بعثت معالجته الفيزيائية الخبر بعد وفاته بوقت قليل، وساعدتها في إملاء المعلومات».

أومأ غليسون برأسه وقال: «أجل، أجل، لقد شهدت هذه الحادثة مئات المرات، يقرأ هؤلاء الوحوش الصحيفة ويعرفون وقت الجنازة. ينتظرون حتى يفرغ المنزل تماماً، فيقتحمون المكان، ويأخذون أي شيء يعتقدون أنه

قيّم. عليك أن تتفحص الأرجاء، وتعد لائحة بالمفقودات، وتحضرها إلى المركز».

سأله أبي: «ماذا عن البصمات؟».

رفع غليسون كتفيه وقال: «لا بد أنهم كانوا يضعون قفازات، في هذه الأيام، يتابع الجميع برامج الشرطة ولا سيما الجناة، وفي مثل هذه القضايا لا نقوم عادة...».

«أيها المحقق!» كان هذا صوت كوبر من الطابق العلوي، «هناك خزنة في غرفة النوم الرئيسة».

قال غليسون: «لقد اختلف الموضوع الآن».

صعدنا إلى الطابق العلوي، وتقدم غليسون الطريق، صعد ببطء وأسند نفسه إلى الدرابزين، وحين وصل أخيراً كان يلهث وكان وجهه محمراً. رفع بنطاله، ودخل غرفة السيد بوديتش، وانحنى لينظر إلى الخزنة: «أها، لقد حاول أحدهم وفشل».

أتى ويتمارك -الذي كان المصور المقيم للقسم- وبدأ بتصوير مقاطع الفيديو.

سأل كوبر: «هل نمسح البصمات أيها المحقق؟». كان يفتح حقيبته بالفعل.

«لعل الحظ سيحالفنا هنا» هكذا قال لنا المحقق (أستخدم الكلمة بتردد)، «لعل الرجل نزع قفازه كي يستطيع إدخال الرمز حين اكتشف أنه لن يستطيع فتحها بالقوة».

وضع كوبر بودرة سوداء على مقدمة الخزنة، بقي القليل منها على المقدمة ووقع بعضها على الأرضية، لقد أضاف فوضى أخرى لأنظفها. نظر

كوبر إلى ما صنعته يداه، ثمّ تنحى جانباً كي يلقي غليسون نظرة.

قال: «لقد مسحت تماماً» ثمّ قوّم ظهره ورفع بنطاله، بالطبع كانت ممسوحة تماماً -لقد فعلت هذا بنفسي قبل أن أتصل بالطوارئ، ربما ترك السارق بصماته، ولكن كان يجب مسحها لأن بصماتي كانت على الخزنة أيضاً.

«لا أعتقد أنك تعرف الشيفرة أليس كذلك؟». كان هذا السؤال موجهاً إلى أبي أيضاً.

«لم يسبق لي أن دخلت الغرفة قبل اليوم. اسأل تشارلي، فقد كان راعي الرجل العجوز».

راعي، كانت الكلمة دقيقة إلى حدّ ما، ولكنني لم أتعود عليها بعد، ربما لأنها كلمة تنطبق على البالغين فقط.

قلت له: «ليست لديّ فكرة».

«هاه»، انحنى غليسون ليعاين الخزنة مجدداً، ولكن بشكل سريع، وكأنها لم تعد تهمه. «على الوارث الشرعي لهذه الخزنة أن يجلب حداداً إلى هنا، وإن لم ينفع الحداد عليه أن يستعين بشخص يجيد استخدام النيتروغليسرين[17]، هناك بعض منهم في سجن ستيتفيل»، ضحك وتابع: «ولكن لا أعتقد أن فيها الكثير، ربما بعض الجرائد القديمة وبعض أزرار البذلات، هل تتذكر المشاجرة الكبيرة حول خزنة آل كابوني؟ لا بد من أن جيرالدو ريفيرا ظهر بمظهر الأبله بسببها. حسناً، تعال إلى المركز لنعد تقريراً كاملاً يا سيد ريد».

عاود التحدث إلى أبي. أحياناً أفهم تماماً سبب غضب النساء.

أمضيت الليلة في غرفة الضيوف الصغيرة في الطابق الأرضي، كانت غرفة مكتب أمي بالإضافة إلى أنها كانت غرفة الحكايات عندما كانت على قيد الحياة. وظلت على هذه الهيئة طوال سنوات إدمان أبي على الكحول، وكأنها متحف صغير، وحين أقلع عن الكحول حوّلها أبي إلى غرفة نوم (بمساعدتي). كان ليندي يمكث فيها أحياناً كما مكث فيها مرات عدة بعض أصدقاء أبي المقلعين عن الكحول الذين كان عليه أن يعمل معهم لأن هذا هو نظام المنظمة. استخدمتها يوم جنازة السيد بوديتش ويوم الاقتحام كي لا أجبر رادار على صعود الدرج، فرشت لها غطاء، وخلدتْ للنوم حالاً، بعد أن انكمشت على نفسها. لقد بقيتُ مستيقظاً لفترة أطول لأن السرير كان قصيراً على شاب طوله ست أقدام وأربعة إنشات بالإضافة إلى أن بالي كان مشغولاً للغاية.

قبل أن أطفئ الأنوار بحثت عن خدمة اشتراكات أميركا، كانت هناك شركة شبيهة، ولكن اسمها كان يبدأ بخدمات أي بصيغة الجمع، كان الفرق حرفاً واحداً بالطبع، ولعل السيدة ريتشلاند ارتكبت خطأ فيه. ولكن الشركة التي عثرت عليها كانت تعمل على الإنترنت، ومن دون مندوبين يطرقون الأبواب. فكّرت في احتمال أن يكون هذا الرجل لص نعوات يعاين الحي... ولكنه احتمال ضعيف لأنه جال الحي قبل أن يتوفى السيد بوديتش.

اعتقدت أن بائع المجلات كان قاتل السيد هاينريك، وبالمناسبة كيف قُتل هاينريك؟ لم تذكر الصحيفة هذا. هل يُحتمل أن يكون الرجل الصغير الذي يقول رايتو وها-ها قد عذّبه قبل أن يقتله؟ كي يحصل على اسم الرجل الذي معه دلو الذهب؟

تقلبت يميناً ويساراً، كانت قدماي خارج السرير ووضعت الغطاء فوقهما.

أو لعل التعذيب لم يكن ضرورياً؟ لعل السيد رايتو قال لهاينريك إنه لن يُقتل إذا باح بالاسم.

قلبت من الجانب الأيسر إلى الجانب الأيمن، ورتبت الغطاء مجدداً. رفعت رادار رأسها، ونبحت قليلاً، ثمّ عاودت النوم.

وهناك سؤال آخر: هل تكلم المحقق غليسون مع السيدة ريتشلاند؟ وإذا تكلم معها هل كان سيستشف أن السيد بوديتش قد استهدف قبل أن يموت؟ أم سيعتقد أن الرجل الصغير كان يستطلع في الحي أهدافاً محتملة؟ ربما كان سيعتقد أن الرجل الصغير كان بائعاً عادياً ودوداً، وهذا في حال تكبد عناء السؤال في المقام الأول.

إليكم السؤال الأهم: إذا كان السيد رايتو ها-ها يلحق الذهب فهل كان سيعود؟

تقلبت يميناً ويساراً ويساراً ويميناً وعدّلت الغطاء.

في مرحلة ما فضّلت الاستماع إلى شريط السيد بوديتش في أقرب وقت ممكن، وبعدها خلدت إلى النوم أخيراً. حلمت أن الرجل الصغير ذا العرجة كان يخنقني وحين استيقظت في صباح اليوم التالي كان الغطاء والبطانية ملتصقين برقبتي.

5

يوم الجمعة، ذهبت إلى المدرسة كي لا تنسى السيدة سيلفيوس كيف أبدو. ولكنني قلت لأبي إنني سأذهب يوم السبت إلى المنزل رقم 1 كي أبدأ بتنظيف المكان، فعرض عليّ أن يساعدني.

«لا عليك، ابقَ هنا مع رادار واسترح قليلاً، تمتع بيوم عطلتك».

«هل أنت واثق؟ لا بد من أن لديك ذكريات كثيرة في ذلك المكان».

«أنا واثق».

«حسناً، ولكن اتصل بي حين تكتئب أو تُذعر».

«وهو كذلك».

«من المؤسف أنه لم يخبرك بشيفرة تلك الخزنة، سيتوجب علينا فعلاً أن نستعين بأحد ليشقها كي نرى ما في داخلها، سأسأل في العمل في الأسبوع المقبل، لا بد من أن أحدهم لديه اتصالات مع شخص يتعامل بالنيترو ليس في السجن».

«حقاً؟».

«يملك محققو التأمينات اتصالات مع كل أنواع الأشخاص المشبوهين يا تشارلي، لعل غليسون محق، ولن نجد سوى إيصالات ضرائب قديمة -إذا افترضنا أن السيد بوديتش قد أكمل دفع أي منها مع أنني أشك في ذلك- وبعض أزرار البذلات ولكن لعل هناك بعض الأشياء التي تشرح لنا من كان تماماً».

قلت: «حسناً» وفكّرت في المسدس وشريط المسجلة. «فكّر في هذا الأمر ملياً ولا تعط رادار كثيراً من النقرشات».

«أحضر أدويتها».

قلت له: «أحضرتها بالفعل، إنها على المجلى في المطبخ».

«ممتاز يا عزيزي، اتصل بي إن احتجت شيئاً، سآتي راكضاً».

كان أبي رجلاً خيّراً وخصوصاً بعد أن أقلع عن الكحول. سبق لي أن قلت ذلك، ولكن الأمر يستحق الإعادة.

كان هناك شريط كتب عليه تحقيق للشرطة ممدود على السور، كان التحقيق (إن كان يستحق هذا الاسم في المطاف الأول) قد انتهى حين رحل غليسون ومرافقاه. ولكن، إلى أن نصلح قفل الباب الخلفي، اعتقدت أن عليّ إبقاء الشريط.

جلت حول المنزل، ولكن قبل أن أدخل، اتجهت إلى المستودع، ووقفت أمام الباب، لم أسمع أيّ أصوات -لا شطب ولا ارتطام ولا عويل، قلت لنفسي: لن تكون هناك أصوات لأن مصدر تلك الجلبة قد قُتل، كائناً من كان. طلقتان ناريتان وبوم-بوم، واختفت الأصوات. تناولت حلقة مفاتيحه، وفكّرت في تجريبها إلى أن لاءم أحدها القفل، ثمّ أعدت المفاتيح إلى جيبي، كنت سأستمع إلى الشريط أولاً وإن تبيّن أنه عبارة عن السيد بوديتش وهو يقول «مزرعة في خطر» أو «دراجة صنعت لراكبين» وهو منتشٍ بفعل الأوكسيكونتين، فسأكون قد وقعت في الفخ، ولكنني لم أصدق هذا. قال لي: كل ما ستحتاج إليه موجود تحت السرير أيضاً، وكان الشريط تحت السرير.

فتحت الخزنة وأخرجته. كان في مسجلة سوداء قديمة، لم تكن بِقِدم التلفاز، ولكنها أبعد ما يمكن عن أن تكون جديدة حيث إن التكنولوجيا قد تجاوزتها بمراحل. نزلت إلى المطبخ، ووضعت المسجلة على الطاولة، وكبست على زر التشغيل. لم يظهر شيء سوى صوت الكاسيت وهو يدور، بدأت أفكّر أن هذا رهان خاسر -أو شيء يشبه خزانة آل كابوني التي ذكرها غليسون- ثمّ لاحظت أن السيد بوديتش لم يلفه وحسب، وهذا وارد جداً لأنه كان يسجل أثناء إصابته بالذبحة القلبية. شعرت أن هذه الفكرة غريبة، فقد قال: هذا مؤلم للغاية! وكأنك تدمغني بالحديد الحامي!

كبست على زر إعادة لف الشريط من أوله، لف الشريط بالجهة المعاكسة لوقت طويل، وحين كبست زر التوقف كبست زر التشغيل مجدداً.

مرت لحظات من الصمت ثمّ طقة ثقيلة تلاها صوت تنفس حاد كنت أعرفه تمام المعرفة، بدأ السيد بوديتش بالكلام.

قلت إنني واثق من قدرتي على سرد هذه القصة، كما أنني واثق من أنه لن يصدقها أحد، وهنا ستبدأ شكوككم.

7

هل أجرى أبوك تحقيقاً عني يا تشارلي؟ لا بد من أنه فعل ذلك حيث إنني كنت سأفعل الشيء ذاته إن كنت مكانه، ولا بد من أنه يملك مصادر تفيده في ذلك بحكم عمله. إن فعل هذا، فلا بد أنه قد وجد شخصاً اسمه أدريان بوديتش -لعله اعتقد أنه والدي وعلى الأرجح اعتقد أنه جدي- اشترى الأرض التي شُيد عليها المنزل في العام 1920، لم يكن هذا الشخص أيا منهما. لقد كنت أنا، ولدت باسم أدريان هاورد بوديتش في العام 1894 وهذا يعني أنني أبلغ من العمر مئة وعشرين سنة. لقد انتهى بناء هذا المنزل في العام 1922 أو 1923، لا أستطيع التذكر بالضبط، وبالطبع المستودع أيضاً فلا يجدر بنا أن ننسى المستودع، لقد بني قبل المنزل وأنا من بناه بيدي.

إن هاورد بوديتش الذي تعرفه هو شخص يحب الانطواء على نفسه وعلى كلبته... يجب أن لا ننسى رادار، ولكن أدريان بوديتش والدي المزعوم كان متجولاً، كان المنزل رقم 1 على شارع سيكامور في سينتريز ريست منزله الرئيسي ولكنه كان يغيب عنه بقدر ما كان يسكن فيه. لاحظت التغييرات في البلدة كل مرة أعود فيها وكأنها سلسلة من الصور، وجدت هذا مبهراً، ولكنه يثبط العزيمة في الوقت نفسه، بدا الأمر وكأن أميركا تتجه في المسار الخطأ ولا تزال على هذا النحو، ولكن هذا ليس موضوعنا.

في العام 1969 عدت للمرة الأخيرةبصفتي أدريان بوديتش، وفي العام 1972 أي بعمر الثامنة والسبعين عينت راعياً اسمه جون مكيم -كان رجلاً ممتازاً ومسؤولاً وستجده في سجلات البلدة إذا بحثت عنه -وتوجهت

إلى آخر رحلة لي كنت قد خططت لها وكانت إلى مصر، ولكنني لم أرحل إلى هناك يا تشارلي. بعد مرور ثلاث سنوات أي في العام 1975 عدت بصفتي ابني، هاورد بوديتش الذي يبلغ من العمر أربعين عاماً، وكما زَعم كان هاورد يعيش خلف البحار مع والدته التي هجرت والده. لطالما أحببت ذلك التفصيل، إن الهجر وصف أدق من الطلاق والموت، بالإضافة إلى أنه عالم رائع ومزهو بالألوان، بعد أن مات أدريان بوديتش في مصر كما زعم. قررت العيش في منزل العائلة والبقاء هنا، لم يكن هناك شك في الملكية حيث إنني وضعت نفسي الوارث الشرعي. هذا كلام كبير أليس كذلك؟

قبل أن أُتابع أريد منك أن توقف الشريط، وتتجه إلى المستودع، بإمكانك أن تفتحه لأنك تملك مفاتيحي، أو هذا ما أتمناه على الأقل. لا يوجد هناك شيء يستطيع إيذاءك حيث إن الألواح عادت إلى مكانها الأساسي وفوقها قطع الطوب، كم كانت ثقيلة! ولكن خذ مسدسي معك إن كنت تريد والمصباح الموجود في خزائن المطبخ.. هناك مصباحان في المستودع، ولكنك ستحتاج إلى ذلك المصباح في جميع الأحوال وستعرف السبب. عاين ما عليك أن تعاينه، سيكون الشيء الذي سمعته أول مرة قد اختفى على الأرجح وبالكامل، ولكن بقايا الشيء الذي أرديته لا تزال هناك، أو معظمها على أي حال. وحين تقوم باستطلاع كامل، كما تعوّد أن يقول البريطانيون، عُد واستمع إلى البقية، افعل هذا الآن، ثق بي يا تشارلي فأنا أعتمد عليك.

8

ضغطت على زر الإيقاف، ولم آتِ بحركة لبرهة. لا شك في أنه كان مجنوناً مع أنه لم يبدُ كذلك. لقد كان ذهنه صاحياً حتى الرمق الأخير، حين اتصل بي وقال إنه أصيب بذبحة قلبية، لا شك في أن شيئاً كان في المستودع -أو كان موجوداً- ولا يمكن إنكار هذا، لقد سمعته أنا ورادار، وذهب السيد بوديتش وقتله، ولكن مئة وعشرون عاماً؟ لم يسبق لأحد أن عاش إلى هذه السن، ولعل النسبة كانت واحد إلى عشرة ملايين شخص، ولم يعد

أحد في عمر الأربعين ويتقمص شخصية ابنه، لم تحدث مثل هذه الأمور سوى في الحكايات الخيالية.

قلت: «حكايات خيالية» كنت متوتراً للغاية -ومذعوراً للغاية- لدرجة أنني خفت حين سمعت صوتي.

ثق بي يا تشارلي فأنا أعتمد عليك.

وقفت وشعرت أنني كنت في الخارج بنفسي، لا أعلم كيف أستطيع أن أصف هذا الأمر بشكل أدق، صعدت إلى الطابق العلوي، وفتحت الخزنة، وتناولت مسدس السيد بوديتش عيار 0.45، ما زال في القراب وما زال القراب ملحقاً بحزام الكونشو. فوضعته عليّ، وحزمت الأربطة فوق ركبتي. شعرت بالغرابة حين فعلت هذا وكأنني طفل صغير يلعب لعبة رعاة البقر، أما شخصيتي الخارجية فسرت عندما شعرت بهذا الثقل، وعرفت أن المسدس كان مذخراً.

كان المصباح جيداً، وكان طويلاً ودائرياً ويتسع لست بطاريات من نوع دي، شغلته لمرة واحدة كي أتحقق من فعاليته، ثمّ خرجت وقطعت المرج الخلفي لأصل إلى المستودع، قلت لنفسي: عليّ أن أشذّب هذا المرج مجدداً في أقرب وقت. كان قلبي ينبض بقوة وبسرعة، ولم يكن يوماً دافئاً في الحقيقة، ولكنني كنت أتصبب عرقاً، وأحسست بالعرق وهو يبلل وجنتي ورقبتي.

تناولت حلقة المفاتيح من جيبي وأوقعتها، انحنيت لأمسك بها، وضربت رأسي بباب المستودع. أمسكت بالحلقة، وبحثت بين المفاتيح؛ كان لأحدها رأس مستدير، وحفرت عليه كلمة ستيودبيكر؛ كنت أعرف مفتاحي البابين الخلفي والأمامي للمنزل، وكان هناك مفتاح صغير آخر، ولعله كان يفتح صندوق أمانات أو مفتاح صندوق إيداعات في البنك، وكان هناك مفتاح ييل

لقفل ييل الكبير الفضي الموجود على باب المستودع، وضعته في قاعدة القفل، ثمّ ركلت الباب بقدمي.

صرخت: «من هنا؟!»... ولكن بصوت منخفض لأن آخر شيء كنت أوده هو أن تسمعني السيدة ريتشلاند «إن كان هناك أحد هنا فليتراجع، فأنا مُسلّح!»

لم يكن هناك، ولكنني لم أبرح مكاني، وكنت أمسك بالمصباح والخوف يعتريني. من ماذا؟ من المجهول لأنه أكثر شيء مخيف في العالم.

تخيّلت السيد بوديتش وهو يقول: الوقت من ذهب يا تشارلي فتوقفْ عن إضاعته.

أجبرت نفسي على إدارة المفتاح، فتحت ذراع القفل، ونزعته، وفتحت مقبض الباب، وعلّقت القفل عليه. داعبت نسمة شعري، وفتحت الباب، فسمعت صرير المفصلات، كان المستودع مظلماً، بدا وكأن ضوء المحيط الخارجي يتسلل إلى هنا ويموت. قال في التسجيل أن هناك مصباحين على الرغم من عدم وجود خط كهرباء ممدود إلى المستودع. سلّطت المصباح الذي أحمله إلى يمين الباب ورأيت قاطع كهرباء، رفعته إلى الأعلى، فأنير مصباحان يعملان على البطارية، كل واحد منهما في جهة وكأنهما مصباحا طوارئ حين تنطفئ الكهرباء في مسرح المدرسة أو السينما. لقد أصدرا صوت همهمة ضعيفاً.

كانت الأرضية من الخشب وفي الزاوية اليسرى البعيدة كان هناك ثلاثة ألواح وضع على كل منها قطعة طوب لتثبتها في مكانها. أدرت المصباح إلى اليمين ورأيت شيئاً فظيعاً وغير متوقع لدرجة أنني لم أستوعبه في البداية، أردت أن أستدير وأُطلق ساقيّ للريح، ولكنني لم أستطع الحراك؛ فكّر جزء مني (على قدر ما استطعت التفكير في تلك اللحظة) أن هذه مزحة سوداوية فيها مخلوق من أفلام الرعب، مصنوع من اللاتكس والأسلاك.

استطعت رؤية بصيص ضوء ينبعث من رصاصة أصابت الجدار بعد أن اخترقت الشيء الذي كنت أنظر إليه.

كان يشبه الحشرات، ولكنه بحجم قط بالغ. كان ميتاً كما كانت قوائمه الكثيرة منتصبة، وكانت مطوية في المنتصف كالركب وكان شعر خشن يغطيها. كما كانت هناك عين سوداء تحدق ولا ترى. لقد أصابته إحدى رصاصات السيد بوديتش في معدته وكانت أحشاؤه المجهولة تتناثر حول معدته المفتوحة كالحلوى الغريبة، وكان هناك بخار ينبعث من أحشائه. وحين هبت نسمة أخرى عليّ (وما زلت متجمداً عند عتبة الباب وكانت يدي تتشبث بالمصباح) انبعث مزيد من البخار من رأس ذلك الشيء ومن المناطق التي لم يغطِها الدرع الممدد على ظهره. وقعت العين المحدقة وخلفت وراءها حجرة خالية، بدت وكأنها تحدق إليّ. صرخت قليلاً حيث اعتقدت أنه عاد إلى الحياة مجدداً، ولكن... كلا. كان ميتاً وكان يتحلل، وكان الهواء الدافئ يُسرّع هذه العملية.

أجبرت نفسي على الدخول، وأمسكت المصباح بيدي اليسرى، ووجهته إلى رأس الحشرة الميتة، وكان المسدس بيدي اليمنى، ولم أتذكر أنني حملته من قبل.

حين تقوم باستطلاع كامل كما اعتاد أن يقول البريطانيون.

أعتقد أنه كان يقصد حينها أن ألقي نظرة، لم أحبذ فكرة أن أبتعد عن الباب، ولكنني أرغمت نفسي على فعل ذلك، فعلتْ هذا شخصيتي الخارجية لأنه كان عليها أن تقوم باستطلاع كامل، أما شخصيتي الداخلية فكانت ترتعش من الذعر والذهول وعدم التصديق. اتجهت إلى الألواح التي تعلوها قطع الطوب، وفي طريقي إلى هناك ارتطمت قدمي بشيء، وحين وجهت نور المصباح الذي أحمله عليه صرخت، كانت قائمة حشرة أو بقايا رجل حيث تعرفت إليها بسبب الشعر الذي كان يعلوها، لم أصطدم فيها بقوة، فقد

كنت انتعل حذاء رياضياً، ولكنها انقسمت إلى قسمين، اعتقدت أنها كانت تنتمي للمخلوق الذي سمعت صوته في المرة الأولى، لقد مات هنا وهذا ما تبقى منه.

تخيّلت أبي وهو يقول: يا عزيزي تشارلي، إليك ساق! ويمد لي ساق دجاج مقلي. إنه الأفضل على وجه الأرض!

كنت على وشك التقيؤ، ووضعت راحة يدي على فمي كي تمر هذه اللحظة. إن فاحت رائحة نتنة من الحشرة الميتة بقوة كنت واثقاً من أنني لن أستطيع أن أكبح نفسي، ولكن تبيّن أن رائحتها خفيفة، ربما لأن التحلل تجاوز هذه المرحلة.

كانت الألواح وقطع الطوب تغطي ثقباً في الأرض يمتد على مساحة خمس أقدام، اعتقدت لوهلة أنه بئر بقي من السنين التي تسبق تمديد المياه الحكومية، ولكن حين وجهت نور المصباح بين لوحين، رأيت درجات حجرية قصيرة تلتف حول عمود مركزي، كان هناك أصوات زحف، وتذبذب، وصوت ثرثرة عميق في الظلام، بالإضافة إلى حركات خاطفة جمّدتني في مكاني، كان هناك مزيد من الحشرات... التي لم تكن ميتة، كانت تنحسر وتتراجع عن نور مصباحي، وعرفت ما كانت فجأة: صراصير، كان حجمها هائلاً، ولكنها كانت تتصرف كالصراصير حين توجه إليها الأنوار: الركض للنفاذ بحياتها.

لقد غطى السيد بوديتش الفتحة التي كانت تؤدي إلى مكان لا يعلم موقعه (أو ماهيته) إلا الله، ولكن إما لم ينجز المهمة على أكمل وجه -ولم تكن هذه عادته- وإما تمكنت الحشرات من ضرب أو تحريك أحد الألواح خلال فترة طويلة من الزمن أي منذ العام 1920 مثلاً؟ كان أبي سيضحك من هذا، لأنه لم يسبق له أن رأى صرصاراً بحجم قط من نوع توم.

جثوت على ركبتي، ووجهت نور المصباح بين الألواح، إذا كان هناك مزيد من الصراصير الكبيرة فقد اختفت، لم أرَ سوى تلك الدرجات التي تلتف بشكل لولبي إلى الأسفل. عندها خطرت لي فكرة، وحسبتها غريبة لبرهة، ولكنني لم أعدها غريبة على الإطلاق بعدها. كنت أنظر إلى نسخة السيد بوديتش من حكاية جاك ونبتة الفاصولياء. كان اتجاهها إلى الأسفل بدلاً من الأعلى، ولكن كان هناك ذهب في الطرف الآخر.

كنتُ واثقاً من هذا.

9

تراجعت ببطء، وأطفأت المصباحين اللذين يعملان على البطارية، ووجهت نور المصباح الذي أحمله للمرة الأخيرة إلى الشيء المستند إلى الجدار. كان البخار يتصاعد منه بكثافة الآن، كما انبعثت منه رائحة تشبه الحامض والنعناع. كان الدفء يحلله فعلاً.

أغلقت الباب، وأعدت القفل، وعدت إلى المنزل، أعدت المصباح إلى خزانة المطبخ والمسدس إلى الخزنة، ونظرت إلى دلو الذهب. فلم تتملكني رغبة اليوم كي أمرر يدي فيه. ماذا لو اجتزت كل الطريق المؤدي إلى الأسفل، وشعرت بجزء من رجل حشرة مشعرة؟

توجهت بصعوبة إلى الدرج قبل أن أفقد السيطرة على ساقي، وكان عليّ أن أتمسك بالدرابزين كي لا أسقط وأتدحرج. جلست على قمة الدرج، وكنت أرتعش من رأسي حتى أخمص قدمي. بعد دقيقة أو اثنتين استطعت أن أتمالك نفسي، وأنزل الدرج. تمسكت بالدرابزين بطريقة ذكرتني بالسيد بوديتش، وجلست بتثاقل إلى طاولة المطبخ، ونظرت إلى المسجلة. أراد جزء مني أن يخرج الشريط وينزع اللفائف ويلقيه في القمامة، ولكنني لم أفعل ذلك، ألم يكن بوسعي أن أفعل ذلك.

ثق بي يا تشارلي فأنا أعتمد عليك.

ضغطت زر التشغيل، وشعرت لوهلة بأن السيد بوديتش كان معي في الغرفة وهو يراقب مدى ذعري -وذهولي- ويريد مواساتي وإنقاذي من تذكر كيف وقعت عين تلك الحشرة، وخلّفت وراءها حجرة تحدق إليّ بغضب. نفعت هذه الطريقة قليلاً.

10

إنها صراصير فحسب، وليست خطرة، حيث يمكن أن تذعر من نور المصباح، إلا إذا خرجت راكضاً حين رأيت الصرصار الذي أطلقت النار عليه -ولكن هذا ليس من شيم الشاب الذي تعرفت إليه- فلا بد من أنك نظرت بين الألواح، ورأيت البئر والدرجات اللولبية المتجهة إلى الأسفل. تصعد بعض الصراصير إلى الأعلى حين يصبح الجو دافئاً. لا أعلم السبب، ولكن هواءنا يعتبر مميتاً بالنسبة إليها. في آخر سنتين تقريباً، لم أعد مبالياً بالمحافظة على الحاجز فوق البئر، لم أعد مبالياً بكثير من الأمور... لذا صعد بعض منها إلى الأعلى. لقد مرت سنوات طويلة منذ حدوث مثل هذا الشيء. لقد مات الصرصار الذي سمعته في الربيع من تلقاء نفسه، ولم يبقَ منه الآن سوى ساق وأحد قرني الاستشعار، أما الآخر... فأنت تعرف ما حل به. ولكن الصراصير ليست خطيرة ولا تعض.

أطلق عليها اسم بئر العالمين، وهذا اسم استخلصته من قصة رعب من كتيبات الإثارة كتبت من قبل رجل اسمه هينري كاتنر. أنا لم أعثر على البئر إطلاقاً بل سقطت فيها، سأخبرك ما أستطيع إخبارك به يا تشارلي.

ولدت في رود آيلند بصفتي أدريان بوديتش، ومع أنني كنت جيداً في مادة الرياضيات وكنت أحب القراءة... كما تعلم... إلا أنني لم أبالِ بالمدرسة أو بزوج أمي الذي كان يضربني حين تسوء الأمور في حياته، وكانت تسوء دائماً حيث كان يفرط في احتساء الكحول، ولم يستطع أن يحتفظ بعمله لأكثر من أشهر متواصلة. هربت عندما كنت في السابعة عشرة، واتجهت شمالاً إلى ولاية مين. كنت شاباً ضخم الجثة، وانضممت إلى مجموعة

حطابين، وتوجهت إلى مقاطعة أرووستوك، لا بد من أن العام كان 1911 أي العام الذي وصل فيه أموندسن إلى القطب الجنوبي. هل تتذكر حين قلت لك إنني حطاب بسيط؟ كنت صادقاً في ما قلت.

لقد واظبت على هذا العمل ست سنوات، وفي العام 1917 أتى جندي إلى مخيمنا، وأخبرنا أن الرجال ذوي البنية القوية عليهم أن يتقدموا للخدمة في آيلند فولز. استقل بعض الشبان شاحنة، وكنت من بينهم، ولكن لم تكن لديّ نية لأضحي بنفسي لآلة الحرب في إحدى المناطق الفرنسية؛ اعتقدت أن آلة الحرب كان لديها ما يكفي من الدماء، ولم تكن بحاجة إلى دمي. لذا، ودّعت الشبان حين اصطفوا كي يُسجّلوا أسماءهم واستقللت مقطورة متجهة غرباً. انتهى بي المطاف في جينزفيل التي لا تبعد كثيراً عن مكاننا الآن، والتحقت بمجموعة حطابين. وحين انتهى ذلك العمل، ذهبت بصفتي حطاباً إلى مقاطعة سينتري التي تسمى الآن مقاطعة أركاديا أي مقاطعتنا.

لم يكن هناك سوق عمل، وفكّرت في الانتقال إلى وايومنغ أو مونتانا. كانت حياتي ستختلف للغاية إن انتقلت يا تشارلي. كنت سأعيش مدة زمنية طبيعية، وما كنا سنلتقي. ولكن في بافينغتون -حيث تقع المحمية الحرجية الآن- رأيت لافتة كتب عليها مطلوب حارس للأرض وتحت ذلك كتب شيء بدا وكأنه مصمم لي: لا بد أن تكون ضليعاً بالأمور المتعلقة بالخرائط والغابات.

دخلت مكتب المقاطعة، وبعد أن قرأت بعض الخرائط -خطوط العرض والطول والمخططات الطبغرافية- حصلت على العمل. يا بني، أنا أشعر وكأنني رجل وقع في مغطس وحل وخرج ومعه وردة بين أسنانه، أمضيت وقتي اللعين في التسكع بين أشجار الغابة، وفي إعداد الخرائط، وتسجيل طرق الغابة القديمة وكانت كثيرة. في بعض الأحيان، إذا وافقت إحدى العائلات على استضافتي كنت أمضي الليلة معها، وفي ليالٍ أخرى- وكانت

كثيرة - كنت أخيّم تحت النجوم، وفي بعض الأوقات، مرت أيام لم أرَ فيها شخصاً.

لم يتحمل أشخاص كثر هذا الأمر، ولكنني كنت الشخص المناسب.

ذات يوم، في خريف العام 1919 حين كنت على تل سيكامور الذي كان يعرف سابقاً باسم غابة سينتري، كانت بلدة سينتريز ريست هنا، ولكنها كانت عبارة عن قرية، وكان شارع سيكامور ينتهي عند نهر الرامبل الصغير. ولم يبنَ الجسر -أول جسر- إلا بعد خمس عشرة سنة على الأقل، ولم يظهر الحي الذي ترعرعت فيه إلا بعد الحرب العالمية الثانية، حين عاد جنود الجيش الأميركي إلى البلاد.

كنت أمشي في الغابة، أي مكان مرجي الخلفي الآن، وأشق طريقي بين جذوع الأشجار والشجيرات لأبحث عن طريق ترابي كان من المفترض أن يكون في مكان ما هنا، وجل ما يشغل تفكيري البحث عن مكان في القرية يمكن لشاب أن يحتسي فيه الكحول. في لحظة، كنت أمشي تحت ضوء الشمس، وفي اللحظة الأخرى كنت أنزل إلى الأسفل، إلى بئر العالمين.

إذا سلّطت نور المصباح بين الألواح فستستنتج أنني نجوت بأعجوبة، لم يكن هناك درابزين، وحمتني الدرجات من سقوط عنيف عبر مئة وسبع وخمسين قدماً تقريباً. إن الجدران عبارة عن حجارة منحوتة، هل لاحظت ذلك؟ وقديمة جداً، والله وحده يعلم إلى أي فترة تعود. لقد سقطت بعض القطع منها إلى القاع. وحين حاولت أن أتجه إلى الدرج، مددت يدي، وأمسكت بشق بين تلك الدرجات. لم يكن أعرض من ثلاثة إنشات، ولكنه اتسع لأصابعي. سحبت نفسي إلى الجدار، ونظرت إلى ضوء النهار والسماء الزرقاء الساطعة. نبض قلبي بشدة، وشعرت أنه ينبض مئتي نبضة في الدقيقة. تساءلت عن المكان اللعين الذي وقعت فيه؛ لم تكن بئراً عادية

بالطبع حيث كان هناك درج حجري يؤدي إلى الأسفل وحجر منحوت يكسو الجدران.

عندما التقطت أنفاسي... لا شيء يشبه أن تسقط وتوشك أن تلاقي حتفك في ثقب أسود يخطف أنفاسك... وحين تمالكت نفسي تناولت مصباحي عن حزامي وسلّطت نوره إلى الأسفل، لم أرَ شيئاً، ولكنني سمعت أصوات خشخشة، فأدركت أن هناك شيئاً حياً في الأسفل. لم أشعر بالقلق وقتها لأنه كان بحوزتي مسدس، فالغابة لم تكن آمنة طوال الوقت. لم تكن الحيوانات هي الخطر الفعلي... مع أنه كان هناك دببة كثيرة في تلك الأوقات... كما كان هناك رجال وخصوصاً بائعي كحول. لم أعتقد أن هناك بصيص نور في تلك الحفرة، ولم أعرف مصدر ذلك الصوت، ولكنني كنت شاباً فضولياً، وقررت أن أكتشف الأمر.

وضبت عدتي التي التوت حين سقطت على الدرج، ونزلت إلى الأسفل، نزلت ونزلت واستدرت واستدرت، يبلغ عمق بئر العالمين مئة وخمساً وسبعين قدماً، وهناك مئة وخمس وثمانون درجة مختلفة الارتفاعات، وفي النهاية هناك نفق حجري... ومن الأصح أن أقول عنه دهليز. إنه مرتفع ويسمح لك بالمرور دون أن تحني رأسك يا تشارلي وتمشي براحة إلى حدّ ما.

كانت الأرضية ترابية عند نهاية الدرج، ولكن حين مشيت قليلاً... والآن أعرف أن المسافة تعادل ثلاثة أرباع ميل تقريباً... قبل أن تتحول الأرضية من ترابية إلى حجرية، أصبح صوت الخشخشة أعلى فأعلى، وكان يشبه حفيف الأشجار، وسرعان ما أصبح فوقي. لذا، وجّهت نور مصباحي إلى الأعلى، ورأيت أن السقف كان مغطى بأكبر خفافيش ممكن أن تراها في حياتك، كانت المسافة بين أجنحتها تعادل المسافة بين أجنحة العقاب. ازداد صوتها عندما حط نور المصباح عليها، فأخفضته بسرعة لأنني لم أرد أن أثيرها. أصابتني فكرة أن تغمرني بأجنحتها بالرعاش كما كانت أمي تقول، لم

تزعجني الأفاعي والحشرات كثيراً، ولكنني لطالما خشيت الخفافيش، إن لكل شخص رهابه الخاص، أليس كذلك؟

تقدمت أكثر ولمسافة ميل على الأقل، وبدأ نور مصباحي يخفت. لم تكن هناك بطاريات دوراسيل في تلك الأيام يا فتى! أحياناً كانت هناك مستعمرة من الخفافيش فوقي وأحياناً لا. قررت العودة قبل أن أعلق في الظلام، ثمّ رأيت حينها بصيصاً من ضوء النهار فوقي، فأوقفت عمل مصباحي، وتأكدت أنه ضوء النهار.

مشيت باتجاهه، وانتابني الفضول لأعرف ما الذي يفضي إليه هذا الطريق. خمّنت أنني سأصل إلى الضفة الشمالية من نهر الرامبل الصغير لأنه بدا لي أنني أتجه جنوباً، ولكنني لم أكن متأكدا.، اتجهت إلى الضوء، وحين اقتربت منه حصل لي شيء، لا أستطيع وصفه تماماً، ولكن كان عليّ أن أحاول. إن كنت تريد المشي على خطاي إن جاز التعبير، إن فالأمر يشبه الدوار، ولكنه كان أكثر من ذلك. بدوت وكأنني أتحول إلى شبح يا تشارلي، وكأنني أنظر إلى جسدي وأستطيع النظر من خلاله. بدوت شفافاً وعديم الوزن، وأتذكر أنني فكّرت في أننا كنا جميعاً، على سطح الأرض على هذا النحو؛ أي مجرد أشباح نحاول الإيمان بفكرة أن لدينا وزناً وكتلة في هذا العالم.

لقد دام هذا الأمر قرابة خمس ثوان. واصلت المشي مع أنني بدوت وكأنني غير موجود هناك، ثمّ تلاشى ذلك الإحساس، فذهبت إلى الفتحة في آخر الدهليز... مشيت مقدار ثمن ميل آخر تقريباً... وخرجت، ليس إلى ضفة نهر الرامبل بل إلى جانب التل. كان تحتي حقل من الأزهار الحمراء المذهلة،و كانت الأزهار من نبات الخشخاش بحسب ما أعتقد، ولكن كانت تفوح من الحقل رائحة القرفة. قلت لنفسي: 'لقد فرش لي أحدهم البساط الأحمر!' أودى ممر بين تلك الأزهار إلى طريق تمكنت أن أرى منه منزلاً

صغيراً... كان كوخاً بالأحرى... وكان هناك دخان يتصاعد من المدخنة، وفي الأفق البعيد لذلك الطريق رأيت أبراج مدينة كبيرة.

لم يكن الممر واضحاً، وكأن أحداً لم يمشِ عليه منذ وقت طويل للغاية، بينما كنت أسير نحو المنحدر، قفز أرنب بضعف حجم الأرانب في عالمنا إلى الممر، واختفى بين العشب والأزهار، أنا...

غاب صوت السيد بوديتش، ولكنني استطعت سماع صوت تنفسه. لقد بدا خشناً وأكثر حدة من العادة، وكأنه يعاني في الاستنشاق، ثمّ تابع:

إن مدة هذا الشريط تسعون دقيقة يا تشارلي. عثرت على صندوق كامل منها بين الكومة في الطابق الثالث من الأيام الخوالي قبل أن تهمل أشرطة الكاسيت والطوابع التي تبلغ قيمة الواحد منها ثلاثة سنتات. بإمكاني أن أُسجل على أربعة منها أو خمسة أو حتى كل الصندوق. لقد خضت مغامرات عديدة في العالم الآخر، وكنت سأخبرك عنها إن تسنى لي وقت، ولكنني لا أظن أن الوقت سيتسنى لي، ولم أكن على ما يرام منذ الجهد الذي بذلته في المستودع. إن جانب رقبتي الأيسر يؤلمني، وامتد الألم من ذراعي إلى مرفقي، ويتلاشى هذا الألم أحياناً على عكس الثقل في صدري. أعرف ما الذي تشير إليه هذه الأعراض، هناك عاصفة تتراكم في داخلي، وأعتقد أنها ستهب قريباً. أشعر بالندم على أمور كثيرة، ذات مرة قلت لك: الرجل الشجاع يساعد بخلاف الجبان الذي يكتفي بتقديم الهدايا. هل تتذكر هذا؟ كنت أشتري الهدايا عندما أعرف أنني لم أكن شجاعاً بما يكفي لتقديم المساعدة حين يحدث التغيير الفظيع. لطالما قلت لنفسي إنني متقدم في السن، لذا أخذت الذهب، وهربت، كما نزل جاك عن نبتة الفاصولياء. ولكن الفرق الجوهري أنه كان طفلاً، أما أنا فكان يفترض بي أن أحكم على الأمور بشكل أفضل.

إذا ذهبت إلى ذلك العالم الآخر حيث يبزغ قمران في الليل، ولا توجد مجموعات نجمية كالتي اكتشفها فلكيو الأرض، فعليك أن تعرف بعض الأمور. لذا، أصغِ إليّ بحذر.

إن هواء عالمنا مميت لمخلوقات ذلك العالم ما عدا الخفافيش بحسب ما أعتقد. ذات مرة جلبت معي أرنباً لأُجرّب فمات بسرعة، ولكن هواءهم ليس مميتاً بالنسبة إلينا بل هو مُنشّط في الواقع.

كانت المدينة يوماً مكاناً مزدهراً، ولكن المخاطر تحيق بها الآن وخصوصاً في الليل، إذا أردت زيارتها فاذهب صباحاً، وكن في غاية الهدوء ورباطة الجأش ما إن تعبر بوابتها. أُرجح أن تبدو لك مهجورة، ولكنها ليست كذلك، إن ما يحكم هناك خطير وفظيع وما يسكن في طياتها أفظع. لقد علّمت الطريق إلى ساحة وراء القصر، كما كنت أحدد أشجار الغابة بأحرف اسمي الأصلي أي.بي، إذا تبعتها... وإذا كنت هادئاً... ستكون على ما يرام، وبخلاف ذلك، ستتيه في تلك المدينة الفظيعة إلى أن تموت. أنا أتكلم بصفتي شخصاً يعرف، ولولا شعلتي وإشاراتي كنت سأظل هناك وأموت أو أُجن. ما كان يوماً مشرقاً وجميلاً أصبح رمادياً وملعوناً وميتاً.

غاب صوت السيد بوديتش مجدداً، كان يلهث بشدة، وحين عاد صوته كان أجش ولا يشبه صوته تقريباً. خطرت لي فكرة... وكنت متيقناً منها... كان يسجل عندما كنت في المدرسة، إما في طريقي إلى حصة الكيمياء وإما عندما كنت هناك وأنا أحدد درجة غليان الأسيتون.

رافقتني رادار إلى هناك، وكانت صغيرة للغاية، كانت جروراً. لقد نزلت درج البئر من دون خوف، وأنت تعرف أنها تنبطح على بطنها عندما تؤمر بالنزول إلى الأسفل، وهي تلتزم الصمت حين يقال لها اهدئي أو اصمتي. في ذلك اليوم قلت لها اصمتي، ومررنا تحت مستعمرة الخفافيش من دون أن نزعجها، لقد قطعت ما أسميه الحد من دون أيّ مشاكل تذكر. لقد سرت

حين رأت حقل الأزهار، وغاصت فيه، ثمّ تأرجحت بين الأزهار، وأحبت العجوز التي عاشت في الكوخ. إن معظم سكان عالمنا سيشمئزون من مظهرها الحالي، ولكنني أعتقد أن الكلاب تحس بالجوهر وتتجاهل المظهر الخارجي. هل يبدو كلامي شاعرياً؟ ربما ولكن هذه هي الحقيقة...

توقف، لا يجب أن أثرثر. ليس هناك وقت.

تستطيع أن تصطحب رادار معك بعد أن تقوم باستطلاع كامل بمفردك وتستطيع أن تصطحبها منذ المرة الأولى فالوقت بالنسبة إليها يوشك على النفاد، وبفضل دوائها الجديد، يمكن أن تنزل تلك الدرجات مجدداً. إذا تمكنت من النزول، فأنا متأكد من أن هواء ذلك المكان سينعشها، ويمد بحياتها.

في فترة ما، أقيمت مباريات في المدينة، وتجمع آلاف الذين أتوا لمشاهدتها في الساحة التي أخبرتك عنها، منتظرين دورهم لدخول الملعب الذي هو جزء من القصر... أو بالأحرى ملحق به. وبالقرب من تلك الساحة ساعة شمسية هائلة يصل قطرها إلى مئة قدم، إنها تدور كدوامة الخيل في تلك الرواية، رواية برادبوري، أنا متأكد أنه... لا تكترث لهذا، ولكن اكترث لما سأقوله: إن الساعة الشمسية هي سر طول عمري، ودفعت ثمن ذلك. لا تصعد عليها، ولكن إن وضعت رادار عليها...

بالله عليك! أعتقد أن الأمر يحصل بالفعل! يا إلهي!

جلست، وأحكمت قبضتي على الطاولة، وراقبت الشريط وهو يدور، ومن خلال نافذة حجرة الشريط رأيت أنه كان يقترب من المنطقة التي أعدت تشغيله منها، تشارلي، أكره أن أفكر في إرسالك إلى مصدر كثير من المصائب الأرضية، ولن ألزمك بشيء، ولكن الساعة الشمسية هناك والذهب هناك أيضاً، ستقودك الإشارات إلى هناك، تذكر: أي. بي.

سأمنحك هذا المنزل وهذه الأرض، إنهما ليسا هدية بل عبء. ويزداد العبء كل سنة مع ارتفاع الضرائب. يتملكني ذعر دائم من رجل الضرائب...

ذعر من الرعب القانوني الذي يعرف باسم حق الامتلاك، وأنا... وأنت... ونحن...

أصبح الآن يلهث بشدة، وازدرد لعابه مراراً وتكراراً، كان بوسعي أن أشعر بأظافري وهي تُغرز في راحتي، وعندما تحدث مجدداً كانت المعاناة واضحة على صوته.

اسمع يا تشارلي! هل بمقدورك أن تتخيل ماذا يمكن أن يحدث إذا اكتشف الناس وجود عالم جديد؟ عالم يمكن اختراقه ببساطة عن طريق نزول مئة وخمس وثمانين درجة حجرية، وعبور دهليز طوله أقل من ميل؟ إذا اكتشفت هذا العالم الجديد ستستنزف موارده بشكل كامل تقريباً، هل سيهابون قاتل الرحلة أو إيقاظ الإله الفظيع لذلك العالم من رقاده الطويل؟ هل سيكون بوسعهم استيعاب العواقب... ولكن أنت... إن كنت تملك الوسيلة... أنت...

كان هناك صوت خشخشة وطقطقة وشهقات، عندما عاود التكلم كان صوته مسموعاً، ولكنه بدا واهناً، كان قد أنزل المسجلة ذات مكبر الصوت الداخلي.

أنا أتعرض لذبحة قلبية يا تشارلي.. أنت تعرف... لقد اتصلت بك... هناك محام، ليون برادوك في إلجن، وهناك محفظة، تحت السرير، كل شيء ستحتاج إليه موجود تحت السرير أيضاً...

سمعت صوت طقة أخيرة تبعها صمت مطبق؛ إما أوقف التسجيل عمداً أو كبس على زر الإيقاف بيده المتهاوية. لقد سررت لهذا، لم أرد أن أستمع إليه في الوقت الذي تغادر روحه جسده.

أغمضت عيني، وجلست هناك لـ... لا أعرف كم مضى من وقت، ربما دقيقة وربما ثلاث، أتذكر أنني أنزلت يدي في الظلام، وأملت أن ألمس رادار، وأواسي نفسي قليلاً بتربيت رأسها كالعادة، ولكن رادار لم تكن هناك،

كانت رادار في منزلي الطبيعي حيث لا يوجد باحة غير طبيعية تحتوي بئراً تؤدي فتحتها إلى عالم غريب.

ماذا كان عليّ أن أفعل؟

أخرجت الشريط من المسجلة ووضعته في جيبي، كان خطيراً، ولا أظن أن هناك شيئاً أكثر خطورة منه على الأرض... ولكنه لن يكون خطيراً إلا إذا صدّق الناس أنه كان أكثر من مجرد هلوسات رجل يتعرض لذبحة قلبية، وهم بالطبع لن يصدّقوا، إلا إذا...

وقفت ولم أكن واثقاً من أنني أستطيع الاعتماد على ساقيّ، واتجهت إلى الباب الخلفي. نظرت إلى المستودع الذي بناه السيد بوديتش -عندما كان أصغر بكثير- فوق بئر العالمين، نظرت إليه طويلاً، إذا دخل أحد إلى هناك...

يا إلهي.

ذهبت إلى المنزل.

الفصل الحادي عشر
تلك الليلة- دوّامة المدرسة- أبي يغادر- بئر العالمين- الآخر-
المرأة العجوز- مفاجأة غير سارة.

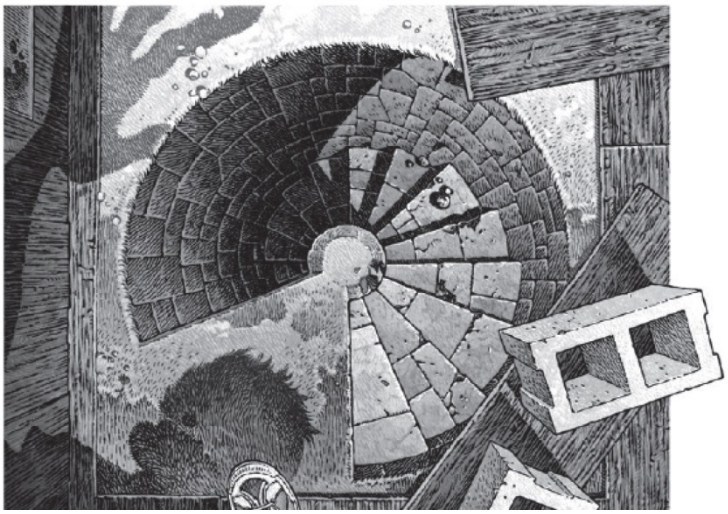

1

«هل أنت على ما يرام يا تشارلي؟».

أبعدت عينيّ عن الكتاب الذي كنت منغمساً في قراءته، ظننت أن لا شيء يستطيع أن يصرف انتباهي عن الشريط الذي استمعت إليه في مطبخ السيد بوديتش، والذي أخفيته في الرف العلوي تحت حزمة ثياب قديمة،

ولكن هذا الكتاب الذي أخذته من غرفة نوم السيد بوديتش فعل ذلك. كما استطاع أن يخلق عالمه الخاص. كانت رادار نائمة بالقرب مني، وكانت تشخر بين الفينة والأخرى.

«هاه؟».

«سألتك إن كنت على ما يرام. لم تلمس عشاءك تقريباً، ولم تبدُ على سجيتك طوال المساء. هل تُفكّر في السيد بوديتش؟».

«نعم». إنها الحقيقة، كنت أُفكّر فيه، ولكن لأسباب غير التي ظنها أبي.

«هل اشتقت إليه؟».

«نعم، كثيراً»، أنزلت يدي، وربت رقبة رادار. لقد أصبحت الآن كلبتي، وأصبحت مسؤولاً عنها.

«لا بأس بهذا فهو أمر طبيعي، هل ستكون على ما يرام في الأسبوع القادم؟».

«بالطبع، لماذا؟».

تنهد بصبر، وأعتقد أن هذه كانت من شيم الآباء فقط: «لقد سبق لي أن أخبرتك عن المؤتمر، وكان ذهنك مشغولاً بأمور أخرى بحسب ما أعتقد. سأغادر صباح الثلاثاء لقضاء أربعة أيام مذهلة في الغابة الشمالية. في الواقع إنها نزهة لأوفرلاند، ولكن ليندي دبّر لي دعوة لألتحق بهم، هناك محاضرات عدة عن الديون وعن تدقيق عمليات الاختلاس، وهذه مسألة ضخمة وخصوصاً لشركة تحاول النهوض على قدميها».

«كشركتك؟».

«كشركتي، بالإضافة إلى تنمية مهارات التواصل»، وتذمر.

«هل سيكون هناك شرب؟».

«أجل والكثير منه، ولكنني لن أشرب، هل ستكون على ما يرام بمفردك؟».

«بالطبع». افترضت أنني لم أضع في المدينة التي وصفها السيد بوديتش بأنها مدينة خطيرة يحكمها إله نائم. كما افترضت أنه سبق لي الذهاب إليها. «سأكون على ما يرام، سأتصل بك إن طرأ شيء».

«أنت تبتسم، هل هناك شيء مضحك؟».

«لا شيء، كل ما في الأمر أنني لم أعد في سن العاشرة يا أبي»، إن ما جعلني أبتسم في الواقع هو تساؤلي عن وجود خدمة اتصال في بئر العالمين. اعتقدت أن خدمة فيرايزون لم تصل إلى تلك المنطقة بعد.

«هل أنت متأكد من أنك لا تريد مني شيئاً؟».

قلت لنفسي: أخبره.

«لا، كل شيء على ما يرام. ما هي تمارين مهارات التواصل؟».

«سأريك، انهض»، نهض وقال: «قف خلفي الآن».

وضعت كتابي على الكرسي، ووقفت خلفه.

قال أبي: «من المفترض أن نثق بالفريق، ولكن ليس لديّ فريق في المقام الأول حيث قررت الاعتماد على نفسي. ولكنني أستمتع بالرياضة الجيدة، سنتسلق الأشجار مع...».

«أشجار؟ تتسلقون أشجاراً؟»

«في كثير من نزهات ومؤتمرات أوفرلاند كنت أقوم بهذا أحياناً وأنا ثمل، مع مستطلع. نقوم بهذا جميعنا باستثناء ويلي ديغان الذي احتل منصب

القيادة».

«يا إلهي».

«ونقوم بهذا»، هوى إلى الخلف من دون إنذار، وكانت يداه تمسكان بخصره، كنت قد أقلعت عن الرياضة، ولكن لم يكن هناك خطب بمنعكساتي. أمسكت به بسهولة، وحين نظرت إليه من الأعلى، رأيت أن عينيه كانتا مغمضتين، وكان يبتسم. رفعته قليلاً، فوقف على قدميه. كانت رادار تنظر إلينا، نبحت قليلاً، ثمّ أنزلت رأسها مجدداً.

«سيتوجب عليّ أن أثق بمن يكون خلفي -لا بد أنه سيكون نورم ريتشاردز- ولكنني أثق بك أكثر يا تشارلي، إننا متوافقان».

«هذا رائع يا أبي، ولكن لا تسقط عن أيّ شجرة. إن الاعتناء بشخص واحد وقع عن مرتفع يكفيني، هل أستطيع الآن معاودة القراءة؟».

«بالطبع»، تناوله عن الكرسي ونظر إلى الغلاف. «هل هذا أحد كتب السيد بوديتش؟».

«أجل».

«لقد قرأته عندما كنت في عمرك بل أصغر. يُقام كرنفال جنوني في بلدة صغيرة هنا في إيلينوي حسب ما أتذكر».

«كوغر وداركس باندیمونیوم شادو شو».

«كل ما أتذكره هو وجود بصارة عمياء، كانت مريبة».

«أجل، إن ساحرة الغبار مريبة حقاً».

«اقرأ، وسأتابع التلفاز، وأعطل دماغي قليلاً، لا تدع الكوابيس تراودك».

قلت لنفسي: إذا استطعت النوم.

2

ربما كانت رادار تستطيع صعود الدرج بفضل أدويتها الجديدة، ولكن مع ذلك دخلتُ غرفة الضيوف الصغيرة، فلحقت بي، بعد أن تعودت منزلنا، وأصبحت تشعر بالراحة فيه. نزعت بنطالي القصير، ووضعت الوسادة الإضافية تحت رأسي، وتابعت القراءة. قال السيد بوديتش في التسجيل إن هناك ساعة شمسية هائلة في ساحة وراء قصر، وكانت تدور كدوامة خيول في رواية برادبوري وهي سر طول عمره. لقد أتاحت له الساعة الذهبية العودة إلى سينتريز ريست بسن يقارب سن ابنه، في رواية شيء شرير كانت الدوامة تزيد سنك حين تتقدم إلى الأمام وتقصره في الوضع المعاكس. وقال السيد بوديتش شيئاً آخر أو بدأ به: أنا متأكد أنه... لا تكترث بهذا.

هل كان ينوي أن يقول إن راي برادبوري استقى فكرته عن دوامة الخيل من الساعة الشمسية في العالم الآخر؟ كانت فكرة التقدم أو التراجع في السن على دوامة خيل في غاية الغرابة، ولكن فكرة أن كاتباً أميركياً قديراً قد زار العالم الآخر فاقتها غرابة، أليس كذلك؟ لقد أمضى برادبوري طفولته في وكغن فعلاً وهي مدينة تبعد سبعين ميلاً عن سينتريز ريست. أقنعتني زيارة مختصرة لبحثي عن برادبوري في ويكيبيديا أنها كانت محض صدفة، إلا إذا كان قد زار العالم الآخر عندما كان طفلاً صغيراً، إن كان هناك عالم آخر في المقام الأول. وعلى أيّ حال لقد عاش في لوس أنجلوس حين كان في عمري.

أنا متأكد أنه... لا تكترث بهذا.

أشرت إلى المكان الذي وصلت إليه، ثمّ وضعت الكتاب على الأرض، كنت متأكداً أن ويل وجيم سيتجاوزان هذه المغامرات على قيد الحياة،

ولكنني اعتقدت أنهما لن يكونا بريئين بعدها، يجب أن لا يتعرض الأطفال لأشياء فظيعة، لقد عرفت هذا من التجربة.

نهضت ولبست بنطالي: «هيّا يا رادار، عليك أن تخرجي وتسقي العشب».

خرجت ولم تعترض أو تعرج، لطالما كانت خمولة في الصباح، ولكنها كانت تتحسن بعد تمرينات بسيطة، على الأقل في تلك الفترة. ما كان هذا ليدوم لو كانت مساعدة الطبيب على حق؛ قالت إنها ستتفاجأ إذا عاشت رادار إلى الهالوين، وما كان يفصلنا عنه سوى خمسة أسابيع وربما أقل.

شمت رادار المرج، ونظرت إلى النجوم، رأيت نطاق الجبار وبنات نعش الكبرى كالعادة. وبالنسبة إلى السيد بوديتش كان هناك قمران في العالم الآخر. لا توجد مجموعات نجمية كالتي اكتشفها فلكيو الأرض.

لا يمكن هذا، أبداً.

ولكن البئر كانت هنا، بالإضافة إلى الدرج وتلك الحشرة الفظيعة، لقد رأيت تلك الأشياء.

أخفضت رادار قائمتيها بطريقتها الناعمة، ثمّ أتت إلي وهي تبحث عن جائزة. لقد قرأت وقتاً مطولاً بعد أن خلد أبي إلى النوم، وحان الوقت لأخلد بدوري إلى النوم. أما كلبة السيد بوديتش -كلبتي- فأرخت ثقلها على الأرض، وتنهدت، ثمّ أطلقت غازاً أصدر صوتاً خافتاً. أطفأت نور المصباح، وحدقت إلى الظلام الدامس.

أخبر أباك بكل شيء، خذه إلى المستودع، ستكون الحشرة التي أطلق السيد بوديتش النار عليها هناك -أو ما تبقى منها- وحتى وإن تحللت فستكون البئر موجودة. هذا حمل ثقيل، لذا تشاركه مع أحد.

هل سيحتفظ أبي بالسر؟ أنا أحبه كثيراً ومع هذا أشك في أنه ما كان سيحفظ السر، هناك كثير من الشعارات والأقوال المأثورة في جمعية مدمني الكحول المجهولين وأحدها يقول: ستظل مريضاً ما دامت تحتفظ بأسرارك، هل سيخبر ليندي؟ أو صديقاً موثوقاً في العمل؟ أو أخاه، أي عمي بوب؟

ثم تذكّرت شيئاً من المدرسة في الصف السادس أو السابع من حصة التاريخ الأميركي للآنسة غرينفيلد؛ كان قولاً لبنجامين فرانكلن: لا يمكن لثلاثة أن يحتفظوا بسر إلا إذا مات اثنان منهم.

هل بإمكانك أن تتخيل ماذا يمكن أن يحدث إذا اكتشف الناس وجود عالم جديد؟

لقد كان هذا سؤال السيد بوديتش، وأعتقد أنني أعرف الجواب. سيحتلونه، أو سيفرضون عليه الانتداب كما تعوّد أن يقول أستاذ التاريخ المحب للسلام. سيصبح المنزل رقم 1 على شارع سيكامور قاعدة سرية للحكومة، وبحسب علمي سيتم إخلاء الحي، وستبدأ عملية استنزاف الموارد. وإذا كان السيد بوديتش محقاً ستكون العواقب وخيمة.

أخيراً، نمت، ولكنني حلمت أنني كنت مستيقظاً، وأن هناك شيئاً يتحرك أسفل السرير. من سياق الحلم عرفت ما هو هذا الشيء، لقد كان صرصاراً عملاقاً وكان يعض. استيقظت في ساعة مبكرة من الصباح، وأنا مقتنع أن الحلم كان حقيقة، ولكن إن كان حقيقياً كانت رادار ستنبح، ولكنها كانت مستغرقة في نوم عميق، وتبحر في حلم مجهول خاص بها.

3

يوم الأحد، ذهبت إلى منزل السيد بوديتش لأفعل ما عزمت أن أفعله في اليوم السابق: البدء في تنظيف المنزل. هناك أشياء لم أستطع التعامل معها كالوسائد الممزقة، وقررت تأجيل أمر ورق الجدران إلى يوم آخر.

كثيرة هي الأمور التي عليّ فعلها، ولكن كان يجب أن أتدبر الأمر في مناوبتين منفصلتين لأنه في المرة الأولى رافقتني فيها رادار وكانت هذه غلطة.

جالت رادار من غرفة إلى أخرى في الطابق السفلي بحثاً عن السيد بوديتش، لم تبدُ منزعجة من انتهاك الممتلكات، ولكنها نبحت بشراسة على الأريكة، وتوقفت بين الفينة والأخرى لتنظر إليّ وكأنها تسألني: هل أنت غبي، ألم تلحظ ما حصل؟ لقد اختفى سرير سيدها.

جعلتها تلحق بي إلى المطبخ، وقلت لها أن تنبطح، ولكنها لم تفعل ذلك، وظلت تراقب غرفة المعيشة. عرضت عليها أصبع دجاج مقلي، وكانت تفضله للغاية، ولكنها أوقعته على الأرضية. قررت إعادتها إلى المنزل، وتركها مع أبي، ولكنها ركضت برشاقة عندما رأت اللجام، وعبرت غرفة المعيشة، وصعدت الدرج. عثرت عليها في غرفة نوم السيد بوديتش وهي تنكمش على نفسها أمام الخزنة على مهد من الثياب المكدسة التي نزعت من علاقاتها. بدت بخير هناك. لذا، عدت إلى الطابق السفلي، وعملت على ترتيبه بكل ما أوتيت من طاقة.

قرابة الساعة الحادية عشرة، سمعت صوت أظافرها على الدرج، شعرت بالضيق حين رأيتها. لم تكن تعرج، ولكنها تحركت مطأطأة الرأس والذيل، نظرت إليّ بتعابير تفوق الكلمات وضوحاً: أين هو؟

قلت لها: «هيّا يا فتاة، دعيني أخرجك من هنا».

لم تعترض هذه المرة حين أمسكت اللجام.

4

في المساء، فعلت ما بوسعي في الطابق العلوي. لم يسبب الرجل الصغير الذي يعتمر قبعة وايت سوكس والبنطال القصير (على فرض أنه هو

الفاعل، ولكنني كنت متأكداً من هذا) أي ضرر في الطابق الثالث بحسب علمي على الأقل. اعتقدت أنه أولى الطابق الثاني اهتماماً أكبر... وركّز على الخزنة أيضاً بعد أن عثر عليها، لأن مراسم الجنازة لم تستغرق وقتاً طويلاً.

جمعت ثيابي وكدستها عند الدرج، وعزمت على أن آخذها معي إلى المنزل، ثمّ بدأت العمل في غرفة نوم السيد بوديتش. سوّيت السرير (الذي كان رأساً على عقب) وأعدت تعليق ثيابه (كما أعدت إدخال جيوب المعاطف) وجمعت حشوات الوسائد. لقد كنت غاضباً من السيد رايتو ها-ها لما بدا لي من انتهاك لحرمة الميتظظن ولكنني لم أنسَ المتاعب التي أثرتها مع بيرتي بيرد: روث الكلاب على النوافذ، ومفرقعات نارية في صناديق البريد، وقلب صناديق القمامة الممتلئة. لم يُقبض علينا، ولكنني كنت أعرف أننا الفاعلان. عندما نظرت إلى الفوضى التي خلفها السيد ها-ها وقرفت منها لاحظت أنني قبضت على نفسي بنفسي. كنت في ذلك الوقت بسوء هذا الرجل الصغير الذي يتكلم ويمشي بطريقة غريبة، حتى أنني كنت أسوأ منه في بعض النواحي. فالرجل الصغير كان لديه دافع على الأقل: كان يبحث عن الذهب، أما بيرد وأنا فكنا مجرد طفلين يعبثان ويخفقان.

بالطبع، لم أقتل أنا وبيرد أحداً على الإطلاق، وإن كنت محقاً فقد ارتكب السيد ها-ها هذه الجريمة.

لقد كانت إحدى حافظات الكتب في غرفة النوم مقلوبة، عدّلتها وشرعت في إعادة الكتب إلى الرفوف. وفي قاعدة الكدسة كان هناك مجلد يبدو تثقيفياً رأيته على طاولة قرب سريره من قبل، إلى جانب رواية برادبوري التي كنت أقرأها حينها. تناولته عن الأرض وعاينت الغلاف: قمع تملؤه النجوم، أصول الخيال وموقعها في مصفوفة العالم. يا له من كتاب! وفوق هذا كان وفق وجهات نظر جانغ. بحثت في الفهرس لأرى إن كان هناك شيء عن قصة جاك ونبتة الفاصولياء وتبينت أنها موجودة. حاولت أن أقرأها، ولكنني اكتفيت بتصفحها: احتوت الكتابة على كل شيء اعتبرته كتابة

أكاديمية «متحذلقة» وكانت مليئة بكلمات معقدة دون داع وتراكيب ركيكة. ربما أستطيع أن أعتبر هذا خمولاً ثقافياً من طرفي وربما لا.

كل ما استطعت استخلاصه هو أن كاتب ذلك الفصل بالتحديد كان يقول إن هناك نسختين من قصة نبتة الفاصولياء: القصة الدامية الأصلية، والنسخة المنمقة التي يقرأها الأطفال في الكتب الذهبية الصغيرة التي توافق عليها الأمهات وبرامج الكرتون الموافقة لها. تشعبت (هاكم إحدى الكلمات المعقدة) القصة الدامية إلى فرعين أسطوريين، أحدهما كان مظلماً والآخر منيراً. لقد عُني الفرع المظلم بأمور النهب والقتل (عندما قطع جاك نبتة الفاصولياء ووقع العملاق). أما القصة المنيرة أو المسالمة فعنيت بما أسماها الكاتب أبستمولوجيا معتقدات فتغنشتاين الدينية. وإن كنتم تعرفون ما يعني هذا، وهو في أكثر شكل واضح له، فأنتم أشخاص أفضل مني.

وضعت الكتاب على الرف، وغادرت الغرفة، ثمّ عدت مجدداً لأعاين الغلاف. كان الداخل مليئاً بنثر غير ممتع وجمل مركبة معقدة لم تسمح للعين بأن تأخذ قسطاً من الراحة. ولكن الغلاف كان شاعرياً ومتكاملاً بطريقة تشبه قصيدة ويليام كارلوس ويليامز عن العربة الحمراء: قمع مليء بالنجوم.

5

يوم الاثنين، ذهبت لأرى صديقتي القديمة السيدة سيلفيوس في المكتب، وسألتها إن كان بوسعي أن آخذ يوم خدمة المجتمع الخاص بي الذي كان يعطى مرة في الفصل يوم الثلاثاء. انحنت على المكتب، وتحدثت بصوت منخفض ويعد بالكتمان: «هل أشم رائحة شاب يريد أن يتخلّف عن المدرسة؟ أسألك فقط لأن الطلاب عليهم أن يخبرونا قبل أسبوع قبل أن يأخذوا هذا اليوم. ليس هذا إجراء احترازياً يا تشارلي بل هو اقتراح قوي».

نظرت إليها وقلت بصدق: «كلا، الأمر جاد»، كانت هذه طريقة مفيدة أثناء التفوه بالأكاذيب تعلمتها من بيرتي بيرد. «سأمر على التجار في مركز المدينة لأعلمهم عن أدوبت-إي».

«أدوبت-إي؟» بدت السيدة سيلفيوس مهتمة غصباً عنها.

«إنه في العادة أدوبت-إي-هايوي وهو نادٍ التحقت به، ولكنني أريد توسيع الأمر، كأن أجعل أصحاب المتاجر مهتمين في أدوبت-إي-بارك -لقد حصلنا على اهتمام ستة أشخاص أتعرفين هذا؟ - وأدوبت-إي-أندرباس- حيث معظم الطرق التحتية تعمها الفوضى، ويا له من عار!- ربما سننشئ أدوبت-إي-فيكنت-لوت للاعتناء بمرائب السيارات إذا استطعت إقناع...».

«فهمت الفكرة»، تناولت استمارة وكتبت عليها، «مرر هذه الاستمارة على معلميك، واجعلهم يوقعونها، ثمّ أعدها إليّ» وحين هممت بالمغادرة قالت: «تشارلي؟ أشم رائحة التغيب عن المدرسة فأنت مشهور بها».

في الواقع، لم أكن أكذب بشأن مشروعي لخدمة المجتمع، ولكنني كنت أخفي الحقيقة التي تخص حاجتي ليوم غياب عن المدرسة لممارسته، في الحصة الخامسة توجهت إلى المكتبة، وأحضرت كتيب غرفة تجارة الولايات المتحدة الأميركية للشباب ودوّنت أسماء جميع التجار في مركز المدينة، وبعثت رسالة موحدة، ولم أُغيّر سوى جمل التحية وأسماء مشاريع أدوبت-إي المتنوعة التي فكّرت بها. لقد استغرقني الأمر نصف ساعة وهذا ما منحني عشرين دقيقة قبل أن يرنّ جرس تبديل الحصص. عدت إلى المكتبة، وسألت السيدة نورمان إذا كان لديها حكايات خيالية من ألمانيا للأخوين غريم. لم يكن الكتاب الأصلي في المكتبة، لذا أعطتني نسخة كندل عليها لصاقة ملكية ثانوية هيلفيو دايمو، كما أعطتني شيفرة الاستخدام لمرة واحدة لتنزيل الكتاب.

لم أقرأ أيّ حكايات خيالية، واكتفيت بتصفح المحتويات والمقدمة، لقد انبهرت (ولكن لم أتفاجأ تماماً) حين اكتشفت أن معظم القصص التي عرفتها في طفولتي كانت لها نسخ مظلمة. إن نسخة غولديلوكس والدببة الثلاثة كانت حكاية شفوية تم تناقلها منذ القرن السادس عشر، ولم يكن فيها فتاة صغيرة اسمها غولديلوكس، كانت الشخصية الرئيسية هي عجوز شريرة اقتحمت منزل الدببة، وحطمت كل أشيائهم، ثمّ قفزت من النافذة، وهربت إلى الغابة وهي تصدر صوت قوقأة.

أما قصة رومبلستيلتسكين، فكانت أسوأ بكثير، في النسخة التي أتذكرها بشكل مبهم هرب رومبلستيلتسكين متأففاً حين حزرت الفتاة التي كان عليها تحويل القش إلى قصب اسمه. وفي نسخة عام 1857 التي كتبها الأخوان غريم غرز قدماً في الأرض، وأمسك بالأخرى وشق نفسه إلى نصفين. اعتقدت أن هذه كانت قصة رعب كفيلة بأن تطيح بسلسلة أفلام سو.

كانت الحصة السادسة عبارة عن حلقة دراسية لفصل واحد بعنوان أميركا اليوم، لم تكن لديّ فكرة عما يتحدث السيد ماسينسيك حيث كنت أفكر بالحكايات الخيالية، كيف كانت دوامة الخيل في رواية شيء شرير تشبه الساعة الشمسية في أرض العالم الآخر مثلاً. لقد قال السيد بوديتش: إنها سر طول عمري، لقد سرق جاك ذهباً من العملاق كما سرق السيد بوديتش ذهباً من... ممن؟ أو مماذا؟ وحش قصص رعب مبتذلة اسمه غوغماغوغ.

عندما بدأ عقلي يجتاز هذا الطريق، أصبحت أرى تشابهات في كل مكان؛ لقد ماتت أمي على جسر يمتد فوق نهر الرامبل الصغير، وماذا عن الرجل الصغير غريب الصوت؟ ألم تصف القصة رومبلستيلتسكين على هذا النحو؟ وهناك أنا، كم قصة كان بطلها شاب (كجاك) يمضي في رحلة إلى أرض خيالية؟ ودعونا نأخذ ساحر أوز حيث حمل إعصار فتاة صغيرة من

كنساس إلى عالم من السحرة والأقزام، لم أكن دوروثي كما لم تكن رادار توتو ولكن...

«يا تشارلي، هل خلدت إلى النوم أم هل نمت مغناطيسياً على صوتي الشاعري؟ هل اعتبرته تهويدة؟».

لقد تعالت الضحكات من الصف على الرغم من أن معظمهم لم يفهموا كلامه.

«كلا، أنا هنا ومركّز تماماً».

«ربما ستعطينا رأيك القيم في ما يخص الجريمة العنصرية بحق فيلاندو كاستايل وألتون ستيرلنغ؟».

قلت له: «شيء سيئ ولعين»، كنت منخرطاً في عالمي الخاص، ولقد سقطت تلك الكلمات سهواً مني.

أكرمني السيد ماسينسيك بابتسامته الصفراء المشهورة ثمّ قال: «شيء سيئ ولعين فعلاً. عد من فضلك إلى حال الشرود يا سيد ريد».

تابع محاضرته، وحاولت أن أركّز، ولكن بعدها فكرت في شيء قالته السيدة سيلفيوس ولم يكن في فاي فو فوم! أشم رائحة دم رجل إنكليزي، ولكن أشم رائحة التغيب عن المدرسة فأنت مضرج بها.

كانت هذه صدفة بالطبع -قال أبي إن اشتريت سيارة زرقاء، فسترى سيارات زرق في كل مكان- ولكن بعد ما رأيته في المستودع لم أستطع أن أمنع نفسي عن التساؤل، وهناك شيء آخر، في قصة خيالية سيقوم الكاتب باختراع طريقة ما يسمح فيها لبطل يافع أو بطلة يافعة باكتشاف عالم أصبحت أشير إليه باسم الآخر. يمكن للكاتب مثلاً أن يخترع مؤتمراً كان على أحد الأبوين أو كلاهما حضوره وهذا ما يفسح المجال أمام البطل اليافع بزيارة عالم آخر دون أن يستحضر أسئلة لا يستطيع الإجابة عنها.

قلت لنفسي صدفة حين رنّ الجرس، واندفع الطلاب إلى الباب، متلازمة السيارة الزرقاء.

ولكن الصرصار العملاق لم يكن سيارة زرقاء كما لم تكن تلك الدرجات المؤدية للظلام سيارة زرقاء أيضاً.

أقنعت السيد ماسينسيك بأن يوقع على الاستمارة، وابتسم لي ابتسامته الصفراء المعهودة وقال: «شيء سيئ ولعين، أليس كذلك؟».

«آسف، آسف».

«لم تكن على خطأ في الواقع».

هربت واتجهت إلى خزانتي.

«تشارلي؟».

كانت أرنيتا فريمان، بدت بارعة الجمال في بنطالها الضيق وسترتها الصيفية، أثبتت أرنيتا بعينيها الزرقاوين وشعرها الأشقر أن الجمال الأميركي ليس متواضعاً. في السنة السابقة -حين كنت منغمساً في الرياضة وما زلت أشتهر بسبب بطولاتي مع توركي بول - أمضيت وأرنيتا جلسات دراسية عدة في غرفتها الواقعة في القبو، لقد أنجزنا بعض الدراسة، ولكننا تبادلنا القبل معظم الوقت.

«أهلاً يا أرني، كيف حالك؟».

«هل تريد أن تزورني الليلة؟ يمكننا أن ندرس لامتحان هاملت» حدقت تلك العينان الزرقاوان إلى عيني البنيتين.

«أودّ ذلك، ولكن أبي سيغادر غداً ولباقي الأسبوع لأداء شيء يتعلق بالعمل، ولذلك أفضّل أن أبقى في المنزل».

«يا للأسف»، عانقت كتابين وقربتهما إلى صدرها.

«يمكنني أن آتي يوم الأربعاء إن لم تكوني مشغولة».

أشرق وجهها وقالت: «سيكون هذا رائعاً»، أخذت يدي، ووضعتها على خصرها، «سأسألك عن بولونيوس وربما ستتحقق من فورتينبراس».

قبّلتني على وجنتي، ثمّ غادرت ومشت إلى الخلف بطريقة ساحرة، وللمرة الأولى، بعد زيارة المكتبة لم أفكر بما يوازي الحكايات الخيالية في الواقع، لم يركز دماغي سوى على أرنيتا فريمان.

6

صباح يوم الثلاثاء، غادر أبي باكراً، وحمل حقيبة السفر، وارتدى ثيابه التي تدل أنه ذاهب إلى الغابة: بنطالاً قصيراً وسترة واسعة وقبعة بيرز، كان يضع معطفاً واقياً من المطر فوق كتفه، قال: «ذكرت النشرة الجوية أنها ستمطر، وهذا سيحول دون تسلق الأشجار ولست آسفاً على هذا».

«صودا في ساعة الشرب أليس كذلك؟».

ابتسم وقال: «ربما سأضع فوقها شريحة ليمون، لا تقلق يا صغيري سيكون ليندي هناك وسأظل معه، اعتنِ بكلبتك فقد عادت تعرج».

«أعرف».

عانقني بسرعة بإحدى ذراعيه، وقبّل خدّي، وحين ابتعد عن المرأب أشرت له بيدي أن يتوقف، وركضت إلى نافذة سائق السيارة، أنزلها وقال: «هل نسيت شيئاً؟».

«كلا، أنا من نسيت شيئاً»، اقتربت وعانقت رقبته وقبّلت وجنته.

ابتسم لي متفاجئاً وقال: «لماذا فعلت هذا؟».

«لأنني أحبك».

«وأنا أيضاً يا تشارلي»، ربت وجنتي، وقاد السيارة إلى الشارع، ثمّ انطلق على الجسر اللعين، راقبته وهو يغادر إلى أن اختفى عن ناظري.

أعتقد أنني شعرت بشيء في أعماقي.

7

أخرجت رادار إلى الخلف، لم تكن باحتنا واسعة مقارنة بباحة السيد بوديتش التي تفوق مساحتها فداناً، ولكنها كانت كافية لأن تتمطط رادار فيها، ولكنها لم تتمرن كثيراً. كنت أعرف أن وقتها قد اقترب، إذا كان هناك شيء يمكنني أن أفعله لها فكان عليّ أن أسرع، سكبت لها قليلاً من اللحم الذي تناولناه ليلة البارحة، ودسست فيه حبة إضافية، انقضت على الطعام، ثمّ تمددت على سجادة غرفة المعيشة، وكان هذا مكاناً علمته باسمها، حككت لها وراء أذنيها، كانت تغمض عينيها وتبتسم عندما أفعل ذلك.

قلت لها: «عليّ أن أتحقق من شيء، كوني فتاة مطيعة، وسأعود بأبكر وقت ممكن اتفقنا؟ حاولي ألا تقضي حاجتك في المنزل، ولكن إن اضطررت افعليها في مكان يسهل تنظيفه».

هزت ذيلها على السجادة مرات عدة، اكتفيت بهذا، قدت دراجتي إلى المنزل رقم 1، وكنت أراقب الأرجاء لأرى إن كان هناك رجل صغير وغريب يمشي ويتحدث بطريقة غريبة. لم أرَ أحداً ولا حتّى السيدة ريتشلاند.

صعدت إلى الأعلى، وفتحت الخزنة، وربطت حزام السلاح على خصري، لم أشعر بأنني حامل سلاح متمرس على الرغم من الكونشو المترف والأحزمة. لم أشعر سوى بأنني فتى خائف. إذا انزلقت على الدرج اللولبي، ووقعت كم سيمضى من الوقت قبل أن يعثر عليّ أحد؟ ربما لن يعثر عليّ أحد إطلاقاً، وإذا عثروا عليّ، ما الذي سيعثرون عليه أيضاً؟ قال

السيد بوديتش على الشريط إنه لم يترك لي هدية بل ترك عبئاً. لم أستوعب هذا تماماً، ولكن عندما تناولت المصباح من خزانة المطبخ، ووضعت الأنبوب الطويل في الجيب الخلفي لبنطالي استوعبته تماماً، خرجت إلى المستودع، وتمنيت أن أنزل الدرج، وألا أعثر على دهليز يقودني إلى عالم آخر بل إلى كومة طوب ونبع مياه جوفية مغطى بالزبد.

لا صراصير كبيرة، لا يهمني إن كانت مؤذية أم لا، ولكنني لا أريد رؤيتها.

دخلت إلى المستودع، وأنرته ورأيت أن الصرصار الذي أطلق عليه السيد بوديتش النار قد تحلل إلى مسحوق رمادي غامق، حين وجهت عليه نور مصباحي، سقطت إحدى الصفائح التي كانت على ما بقي من ظهره ففزعت.

أشعلت مصباحي البطارية، واتجهت إلى الألواح وقطع الطوب التي كانت تغطي البئر، ووجهت النور إلى إحدى الفتحات التي كان عرضها ستة إنشات، لم أرَ سوى الدرجات التي كانت تؤدي إلى الظلام، لم يتحرك أي شيء، ولم تكن هناك أصوات خشخشة، لم يشعرني ذلك بالطمأنينة، وتذكرت سطراً كرر في عشرات أفلام الرعب الرخيصة وربما من مئات الأفلام: لا يعجبني الوضع، إنه هادئ للغاية.

قلت لنفسي: كن منطقياً فالهدوء مُطمئن، ولكن الفكرة لم تكن مؤثرة للغاية حين نظرت إلى تلك الحفرة.

لقد أيقنت أنني إذا ترددت لوقت أطول، فسأتراجع عن الأمر، وهذا سيُصعب عليّ العودة مجدداً، لذا ثبتت المصباح في حقيبة الظهر مجدداً، ورفعت قطع الطوب، أزحت الألواح جانباً، وجلست على حافة البئر، ووضعت قدمي على الدرجة الثالثة، انتظرت حتى يهدأ قلبي (قليلاً)، ثمّ وقفت على تلك الدرجة، وحاولت أن أقنع نفسي أن الدرجة كانت تتسع لقدمي، لم يكن

هذا صحيحاً تماماً، مسحت جبيني الذي تفصد عرقاً، وقلت لنفسي إن كل شيء سيكون على ما يرام، لم أصدق هذا التفصيل على وجه الخصوص.

ولكنني شرعت بالنزول.

8

قال السيد بوديتش: هناك مئة وخمس وثمانون درجة مختلفة الارتفاعات عددتها في طريقي إلى الأسفل. تحركت ببطء شديد، وكنت أسند ظهري إلى الجدار الحجري المقابل لعمود الدرج اللولبي. كانت الحجارة خشنة ورطبة، فلم أبعد نور المصباح عن قدمي. درجات مختلفة الارتفاعات، لم أرد أن أتعثر حيث إن التعثر كان سيكتب نهاية حياتي.

عند الدرجة تسعين أي قبل منتصف الطريق، سمعت خشخشة ورائي. ترددت في أن أوجّه نور مصباحي إلى مصدر الصوت، وكنت على وشك أن أعدل عن الفكرة، إذا أزعجت مستعمرة من الخفافيش، وأخذت ترفرف فوقي، فعلى الأرجح سأقع.

كان هذا تفكيراً مقنعاً، ولكن الخوف كان أقوى، ابتعدت عن الجدار قليلاً، ووجهت نور مصباحي صوب أعلى الدرج، فرأيت شيئاً أسود منحنياً على بعد أربع وعشرين درجة، وحين أصابه النور رأيت أنه أحد الصراصير الكبيرة قبل أن يهرب مسرعاً ليختبئ في الظلام.

تنفست بعمق، وقلت لنفسي إنني على ما يرام، ولكنني لم أُصدق ما قلته. تابعت، واستغرق مني الأمر تسع أو عشر دقائق لأصل إلى القاع لأنني كنت أتحرك ببطء شديد. شعرت أنني استغرقت وقتاً أطول، وبين الفينة والأخرى، كنت أنظر إلى الأعلى. في الحقيقة، لم أكن مرتاحاً لفكرة انحسار الدائرة المنارة بنوريْ المصباح شيئاً فشيئاً، كنت في عمق الأرض، وكنت أغوص أكثر فأكثر.

وصلت إلى أسفل المئة وخمس وثمانين درجة، كانت الأرض ترابية كما قال السيد بوديتش، وكانت هناك بعض الحجارة التي سقطت من الجدار. لا بد من أنها سقطت بفعل تغيرات الطقس. لقد أمسك السيد بوديتش بشق أحد الفراغات التي سقطت منها الحجارة، وأنقذ ذلك الشق حياته، كانت تلك الكومة من الحجارة مغطاة بمسحوق أسود اعتقدت أنه فضلات الصراصير.

كان الدهليز أمامي؛ تخطيت الحجارة، ودخلت الدهليز، كان السيد بوديتش على حق؛ لقد كان مرتفعاً لدرجة أنني لم أشعر بحاجة لأن أحني رأسي. سمعت مزيداً من أصوات الخشخشة فوقي، واعتقدت أنها الخفافيش التي حذّرني منها السيد بوديتش. لا أحب الخفافيش -إنها تنقل الجراثيم وتسبب المرض أحياناً- ولكنها لم ترعبني كما أرعبت السيد بوديتش. عندما تقدمت باتجاه صوتها شعرت بالفضول أكثر من كل شيء، لقد أصابتني تلك الدرجات اللولبية مختلفة الارتفاعات بالدوار، ولكنني الآن أصبحت على أرض صلبة، وهذا تطور مهم. بالطبع كانت هناك آلاف الأطنان من الصخور والحجارة والتربة فوقي، ولكن هذا الدهليز صمد لوقت طويل، ولم أظن أنه سيختار تلك اللحظة لينهار ويدفنني، ولم يعنِ هذا أنه كان عليّ أن أرتعب من فكرة أن أُدفن حياً لأنني سأُقتل فوراً إذا انهار السقف.

قلت لنفسي: تفاءل.

أنا بطبعي لست شخصاً متفائلاً، ولكن شعور الخوف استبدل -أو غُطي- بشعور الخوف. إن كان السيد بوديتش صادقاً فهناك عالم آخر ينتظرني على مسافة قريبة، وبعد أن قطعت شوطاً كبيراً أردت رؤيته، وكان الذهب أقل اهتماماتي.

تحولت الأرضية الترابية إلى أرض حجرية، ثمّ إلى أرضية حصوية وفي الواقع كانت تشبه الأفلام القديمة عن لندن في القرن التاسع عشر التي كانت تعرض على قناة تورنر كلاسيك موفيز، أصبح صوت الخشخشة فوقي

تماماً، فأطفأت المصباح، لقد أخافني الظلام الدامس، ولكنني لم أحبذ أن أحاط بغيمة من الخفافيش، أنا لا أعرف إن كانت تلك الخفافيش ماصة للدماء أم لا، لم يسبق أن شوهدت كثيراً في إيلينوي... ولكنني لم أعد في إيلينوي أليس كذلك؟

قال السيد بوديتش: تقدمت أكثر ولمسافة ميل على الأقل، لذا عددت الخطوات إلى أن نسيت الرقم الذي وصلت إليه، لم يتملكني خوف من نفاد بطاريات مصباحي إذا احتجت إليه مجدداً لأنني بدّلتها، انتظرت لأرى ضوء النهار، وأنا أسمع رفرفة الأجنحة فوقي، هل كانت الخفافيش بحجم العقاب حقاً؟ لم أرد أن أعرف.

أخيراً، رأيت نوراً وكان بصيصاً مضيئاً كما قال السيد بوديتش، تقدمت أكثر فتحول النور إلى هالة كبيرة ومشرقة أبهرت عيني، وعندما أغمضتهما رأيت غباشة، لقد نسيت الدوار الذي تحدث عنه السيد بوديتش، ولكنني عندما أصبت به عرفت تماماً ما الذي تحدث عنه.

ذات مرة، عندما كنت في العاشرة، تنفست وبيرتي بيرد بشكل مفرط، ثمّ تعانقنا بشدة لنرى إن كنا سنغيب عن الوعي كما قال بيرتي، لم نغب عن الوعي، ولكنني شعرت بالدوار، ووقعت بطريقة غريبة، وكأنني في وضع الحركة البطيئة، ما شعرت به الآن يشبه ما سبق لي أن شعرت به عندما كنت في العاشرة. أضف إلى ذلك أنني شعرت وكأنني بالون من الهيليوم أطير فوق جسدي، وإذا قطع الحبل الذي يربطني به، فسأطوف بعيداً.

ثمّ اختفى الشعور كما قال السيد بوديتش تماماً، قال إنه كان هناك حدّ ولقد وصلت إليه حينها، لقد تركت سينتريز ريست وإيلينوي وأمريكا خلفي، كنت في العالم الآخر.

وصلت إلى المدخل، ورأيت أن السقف فوقي كان من الطين والتراب وعليه بعض السيقان والجذور والأوراق المتدلية. لقد انحنيت لأمر أسفل السيقان المتدلية، ووقفت عند طرف هضبة منحدرة. كانت السماء رمادية، ولكن الحقل كان ذا لون أحمر قانٍ، لقد زيّنته الأزهار، وجعلته يشبه سجادة مذهلة تغطي الحقل من كل حدب وصوب، لقد كان هناك ممر يقود إلى طريق، كما كان في الجانب البعيد من الطريق المزيد من الأزهار التي امتدت لمسافة ميل تقريباً باتجاه غابة وهذا ما ذكّرني بالغابة التي نمت في ضواحي بلدتي. كان الممر متلاشياً على عكس الطريق، كان ترابياً، ولكنه عريض، كان صلة وصل. هناك كوخ صغير عند نقطة التقاء الممر بالطريق، وهناك دخان يتصاعد من المدخنة الحجرية، وهناك حبال غسيل نشرت عليها أشياء لم تكن ثياباً، لم أستطع أن أُميّز ما هي.

نظرت إلى الأفق، ورأيت معالم مدينة كبيرة، انعكس ضوء النهار على أبراجها العالية التي بدت وكأنها مصنوعة من الزجاج، من الزجاج الأخضر. لقد قرأت ساحر أوز، وشاهدت الفيلم، وكنت قادراً على تمييز مدينة الزمرد حين أراها.

9

كان طول الممر المؤدي إلى الطريق والكوخ ميلاً تقريباً. وقفت مرتين: مرة لأنظر إلى الفتحة في طرف التلّ - بدت وكأنها بوابة كهف صغير مع تلك النباتات المتدلية فوق المدخل- ومرة أخرى لأتحقق من هاتفي- كنت أنتظر أن أرى إشارة تقول إنه لا يوجد تغطية، ولكنني لم أحصل على هذه الإشارة- لم أستطع تفعيل هاتفي المحمول من نوع آيفون. كان عبارة عن مستطيل أسود لا يفيد في شيء سوى أن يكون سنادة أوراق.

لم أتذكر أنني انبهرت أو تفاجأت بمنظر تلك القمم الزجاجية، ولم أشكك في الإثباتات المنطقية وإثباتات حواسي، كان بوسعي أن أرى السماء الرمادية فوقي وكأنها سقف منخفض ينذر بمطر وشيك، وكان بوسعي أن

أسمع أصواتاً غريبة قرب بنطالي وأنا أعبر الممر الضيق. وحين نزلت التلّ اختفت قمم المدينة عن ناظري ولم أرَ سوى أعلى ثلاث قمم. حاولت أن أقدّر كم تبعد عني، ولكنني لم أستطع ذلك، هل كانت تبعد ثلاثين ميلاً؟ أم أربعين؟

فاقت رائحة نبات الخشخاش كل هذا وكانت تشبه الكاكاو والفانيلا والكرز. كانت أجمل رائحة شممتها في حياتي بعد رائحة أمي حين كنت أضع وجهي في شعرها. لقد تمنيت ألا يهطل المطر، لم أتمنَّ هذا حتى لا أتبلل، بل لأنني عرفت أن المطر سيزيد من هذه الرائحة وستقتلني روعتها، (إنني أبالغ في الوصف، ولكن ليس بالقدر الذي تتخيلونه). لم أرَ أيّ أرانب كبيرة أو صغيرة، ولكنني سمعت صوت قفزاتها بين العشب والأزهار، ورأيت مرة ولثوانٍ معدودة أذنين طويلتين. لقد سمعت أصوات جنادب وتساءلت إن كانت عملاقة كالصراصير والخفافيش.

عندما اقتربت من الكوخ -ذي الجدران الخشبية والسقف المصنوع من القش- توقفت لأن ما رأيته أذهلني. كانت هناك أحذية معلقة على الحبال خلف الكوخ، كانت مصنوعة من الخشب والقماش كما كان هناك صنادل وشباشب. وكان أحد الحبال منخفضاً بسبب ثقل فردة حذاء جلدي عليها أزرار فضية، هل كان هذا حذاء ذا الفراسخ السبعة كما في الحكايات الخيالية القديمة؟ لقد بدا لي يشبهه تماماً. اقتربت قليلاً، ومددت يدي لألمسه، كان بنعومة الزبدة وبرقة الحرير، قلت لنفسي: صُنع للطريق، صُنع للقط ذي الجزمة، أين الفردة الأخرى؟

فتح باب الكوخ الخلفي، وكأنني استدعيت هذا بأفكاري، وخرجت منه امرأة تحمل الفردة الأخرى بيدها، وكانت الأزرار تلمع تحت الضوء الخافت المتسرب من ذلك اليوم الغائم. عرفت أنها كانت امرأة لأنها كانت ترتدي ثوباً ورديا وتنتعل حذاء أحمر ولأن صدرها كان كبيراً، ولكن بشرتها كانت رمادية ووجهها مشوها. بدت ملامحها وكأنها رسمت بالفحم ثم قام رسام

عكر المزاج بتلطيخ وجهها وتشويش معالمها وكأنها لم تكن موجودة. كانت عيناها تشبهان عيني القطة وكانت فتحتا أنفها طوليتين، أما فمها فكان عبارة عن هلال من دون شفتين. كلمتني ولكنني لم أفهم ما قالت؛ أعتقد أن حبالها الصوتية كانت مشوشة كوجهها، ولكنني رأيت ابتسامة على الهلال الذي حل محل شفتيها. شعرت بأنه لا يفترض بي الخوف منها.

«هيز، هاز! آزي؟ إيرن؟» ولمست فردة الحذاء المعلقة على الحبل.

قلت لها: «أجل، جميل جداً، هل تفهمينني؟».

أومأت برأسها، ورسمت دائرة بواسطة السبابة والإبهام وهذا يعني حسناً حتّى في هذا العالم، (إلا عندما يقوم بها بعض المتعصبين الحمقى لتمثيل شعار هيمنة البيض). تفوهت بمزيد من هيز وهاز، ثمّ أشارت إلى حذائي الرياضي.

«ماذا؟».

نزعت فردة الحذاء التي كانت معلقة بوساطة ملقطين خشبيين عن الحبل، وكانا من النوع التقليدي الذي لم يحتوِ على نوابض. أشارت إلى حذائي الرياضي بيد وهي تمسك فردة الحذاء بيدها الأخرى، ثمّ أشارت إليها مجدداً.

لعلها كانت تسألني إن كنت أريد المقايضة.

«إنه عرض مغرٍّ، ولكنني لا أعتقد أنه يناسب قدمي».

رفعت كتفيها، وعلقت الحذاء مجدداً، تحرك حذاء آخر جيئة وذهاباً بفعل نسمة خفيفة، لقد شوشني النظر إلى ذلك الوجه الذي تكاد ملامحه تكون ممحية، حاولت بإصرار أن أتبين معالمها كما كانت من قبل، وكدت أنجح.

اقتربت مني، وشمت سترتي بأنفها ذي الفتحتين الطوليتين، ثمّ رفعت يديها إلى كتفيها ونبشت في الهواء.

«لا أفهم».

قفزت على قدميها، وأصدرت صوتاً، وعندما قارنت تينك الحركتين بالطريقة التي شمتني فيها توضحت لي الأمور.

«هل تقصدين رادار؟».

أومأت برأسها بقوة لدرجة أن شعرها البني تطاير حولها، أصدرت صوت واز-واز-واز اعتقدت أنه كان أقرب شيء لنباح كلب أي ووف-ووف-ووف.

«إنها في منزلي».

أومأت برأسها، ووضعت يداً على صدرها فوق قلبها.

سألتها: «إن كنت تقصدين أنك تحبينها فأنا أحبها أيضاً، متى رأيتها آخر مرة؟».

نظرت بائعة الأحذية إلى السماء، وكأنها تحسب الوقت، ثمّ رفعت كتفيها وقالت: «بعي».

«إن كنت تقصدين منذ زمن بعيد فهذا صحيح على الأرجح، لأنها عجوز الآن، لم تعد تقفز كثيراً في هذه الأيام، ولكن السيد بوديتش... هل تعرفينه؟ إن كنت تعرفين ريدز فلا بد من أنك تعرفين السيد بوديتش».

أومأت بالحماسة السابقة نفسها، وابتسمت بما تبقى من فمها، لم يكن لديها سوى القليل من الأسنان، ولكنها كانت بيضاء ناصعة ومتناقضة مع بشرتها الرمادية، «أريان».

«أدريان؟ أدريان بوديتش؟».

أومأت بشدة ولا بد أنها قد آلمت رقبتها.

«ولكنك لا تعرفين كم مر من الوقت على قدومه إلى هنا، أليس كذلك؟».

نظرت إلى السماء، ثمّ أشاحت بوجهها.

«هل كانت رادار صغيرة حينها؟».

«إيه-إيه».

«هل كانت جرواً؟».

أومأت برأسها مجدداً.

أمسكت بذراعي وأبعدتني عن الزاوية، (كان عليّ أن أحني رأسي تحت حبل آخر من الأحذية المعلقة كي لا أموت مشنوقاً). كانت هناك بقعة من التراب وكانت محروثة وكأنها كانت تعدها لزراعة شيء ما، كما كانت هناك عربة صغيرة من الطراز القديم ذات مقبضين خشبيين طويلين، كان فيها كيسان من القش كما ظهر منهما أشياء خضراء اللون. انحنت، وأشارت لي أن أفعل مثلها.

كان كلّ منا يواجه الآخر في تلك الوضعية، حركت إصبعها ببطء شديد وبتردد وهي تكتب على التراب، توقفت مرة أو مرتين لتتذكر الحرف التالي على ما أعتقد ثمّ تابعت.

حظ بحيا جميل

ثم كتبت بعد برهة:

؟

حاولت أن أفهمها، ثمّ أشحت بوجهي، جثت المرأة على أطرافها الأربعة، وقلّدت صوت النباح بطريقتها ففهمت حينها.

قلت لها: «أجل، لقد حظيت بحياة جميلة، ولكنها أصبحت عجوزاً الآن كما سبق لي وأن أخبرتك... ليست على ما يرام».

عندها توضحت لي الأمور، واستوعبت هولها، ليس بشأن رادار أو السيد بوديتش وحسب بل بشأن كل شيء. كانت الهدية عبئاً كان عليّ حمله، بالإضافة إلى الصراصير المتحللة والعثور على المنزل رقم 1 على شارع سيكامور وهو في حال خراب الرجل الذي قتل السيد هايرنيك على الأرجح، كما فكّرت في الوضع الذي كنت فيه حينها وأنا أجثو على التراب مع امرأة شبه عديمة الملامح كانت تجمع الأحذية وتعلقها على حبال متقاطعة. ولكن ريدز كانت فوق كل هذا، فكرت كيف كانت تعاني أحياناً في النهوض صباحاً أو بعد قيلولة وحين كانت تنظر إليّ عندما لا تنهي طعامها كله وكأنها تقولي لي: أعرف أنه عليّ أن أرغب بتناوله كله، ولكنني لا أريد ذلك، فشرعت بالبكاء.

وضعت امرأة الأحذية ذراعها حول كتفي وعانقتني.

قالت: «اهد'أ»، ثمّ قالتها بعد عناء ولكن بوضوح تام.

«اهدأ».

عانقتها بدوري، كانت رائحتها زكية، لاحظت أنها كانت تشبه رائحة نبات الخشخاش، لقد شهقتُ وأنا أبكي فعانقتني وربتت ظهري، وعندما ابتعدت عنها لم تكن تبكي -لعلها لم تكن تستطيع البكاء- ولكن الهلال الذي حلّ محل شفتيها كان ينحني إلى الأسفل وليس إلى الأعلى، مسحت وجهي بكم سترتي، وسألتها إن كان السيد بوديتش قد علمها الكتابة أم أنها كانت تعرف أن تكتب بالفعل.

وضعت إبهامها قرب أول إصبعين من يدها وكانا ملتصقين إلى حدّ ما.

«لقد علمك القليل؟».

أومأت برأسها، ثمّ كتبت على التراب مجدداً.

سديك

«كان صديقي أيضاً ولكنه مات».

أمالت رأسها جانبياً فنزل شعرها إلى كتف ثوبها.

«لقد مات».

غطت عينيها اللتين كانتا تشبهان عيني القطة، وكان هذا أصدق تعبير عن الأسى رأيته في حياتي، ثمّ عانقتني مجدداً، أفلتتني وأشارت إلى الحذاء على أقرب حبل وأشاحت بوجهها.

وافقتها الرأي وقلت: «كلا، لن يحتاج أحذية بعد الآن».

أشارت إلى فمها، ومضغت، كانت هذه حركة مريعة للغاية، ثمّ أشارت إلى الكوخ.

«إذا كنت تسألينني هل أريد تناول الطعام فشكراً، ولكنني لا أستطيع، عليّ أن أعود إلى المنزل، ولكن ربما سأعود لأتناول الطعام مرة أخرى وفي أقرب وقت، سأحضر معي رادار إن استطعت. قال السيد بوديتش قبل أن يموت أن هناك طريقة لأعيد لها الشباب مجدداً، أعلم أن هذا غير منطقي، ولكنه قال إن الأمر قد نفع معه، أخبرني عن ساعة شمسية عملاقة، هناك»، وأشرت باتجاه المدينة.

اتسعت عيناها قليلاً، وفُتح فمها فتحول الهلال إلى ما يشبه دائرة، وضعت يديها على وجنتيها الرماديتين وكانت تشبه تلك اللوحة المشهورة التي تصور امرأة تصرخ. انحنت على التراب مجدداً، ومسحت ما كتبته، لقد

كتبت بشكل أسرع هذه المرة. لا بد أنها كانت كلمة تكثر من استخدامها لأنها كتبتها بشكل صحيح.

خطر

«أعلم هذا، سأكون حذراً».

وضعت إصبعها المتهالك على فمها الممحو لتقول لي أن ألتزم الهدوء.

«أجل، عليّ أن أكون هادئاً هناك، لقد أخبرني بهذا أيضاً، ما اسمك يا سيدتي؟ هل بإمكانك أن تخبريني باسمك؟»

أشاحت بوجهها بسرعة، ثمّ أشارت إلى فمها.

«يصعب عليك أن تتكلمي بوضوح».

أومأت برأسها، وكتبت على التراب.

ديري، نظرت إلى ما كتبته، ثمّ أشاحت بوجهها ومسحت الاسم، ثمّ حاولت مجدداً.

دورا.

سألتها إن كان ديري لقباً، أو حاولت أن أسألها، ولكنني لم أستطع أن أتفوه بكلمة لقب. لم يعنِ هذا أنني نسيتها، ولكنني لم أستطع أن أنطق بها. استسلمت وسألتها: «هل كان يناديك السيد بوديتش ديري تحبباً يا دورا؟».

أومأت برأسها، ثمّ نهضتْ ومسحت يديها، ونهضتُ بدوري.

«لقد سررت بلقائك جداً يا دورا»، لم أكن أعرفها بشكل جيد لأناديها ديري، ولكنني تفهمت لما كان السيد بوديتش يُلقبها بذلك الاسم، كانت طيبة القلب.

أومأت برأسها، وربتت صدري، ثمّ على صدرها، أعتقد أنها فعلت ذلك لتريني أننا أصبحنا صديقين أو «سديكين»، ارتفع هلال فمها مرة أخرى، وقفزت على حذائها الأحمر كما كانت تقفز رادار بحسب ما أعتقد قبل أن تؤلمها مفاصلها.

«أجل، سأحضرها معي إن استطعت وإذا كانت قادرة، كما سآخذها إلى الساعة الشمسية إن استطعت»، على الرغم من أنني لم أمتلك أيّ فكرة عن كيفية فعل ذلك.

أشارت إليّ، ثمّ أشارت برفق إلى الهواء وكانت راحتاها إلى الأسفل. لست متأكداً ولكنني أعتقد أنها كانت تقول لي أن آخذ حذري.

«سأفعل هذا، شكراً للطفك يا دورا».

اتجهت إلى الممر، ولكنها أمسكت بسترتي وسحبتني إلى الباب الخلفي لكوخها الحميم.

«لا أستطيع حقاً...».

أومأت برأسها لتقول إنها تفهمت أنني لن أستطيع تناول وجبة معها، ولكنها ظلت تشدني، عندما وصلنا إلى الباب الخلفي أشارت إلى الأعلى، كان هناك شيء محفور على عتبة الباب العلوية، وكان أعلى من متناول يد دورا. كان الحرفان الأولان من اسمه محفورين عليها: أي. بي. وكانا حرفيه الأصليين.

خطرت لي فكرة حينها، وانبثقت من عدم قدرتي على لفظ كلمة لقب، أشرت إلى الحرفين وقلت: «هذا...» شيء خلبي وكان هذا أغبى تعبير يمكنني التفكير به، ولكنه كان اختباراً جيداً.

لم أستطع أن أتفوه بتلك الكلمات، لم تخرج من فمي.

نظرت دورا إليّ.

قلت لها: «رائع، هذا رائع».

10

صعدت التلّ، وانحنيت أسفل السيقان المتدلية، وانطلقت على الممر، راودني شعور الدوار أو الاستغراب من العالم الآخر واختفى بالتناوب، كانت الخفافيش ترفرف فوقي، ولكنني كنت مشغولاً بما حدث لدرجة أنني لم أعرها كثيراً من اهتمامي وشغلت المصباح بغبائي لأرى كم تبقى لي من مسافة. لم تطر جميعها، ولكن بعضها طار بعيداً ورأيتها ببصيص النور، كانت كبيرة فعلاً بل عملاقة، مشيت في الظلام، ومددت يدي كي أبعدها عني في حال اقتربت مني، ولكنها لم تقترب، وإن كانت هناك صراصير كبيرة فلم أسمعها.

لم أستطع أن أقول كلمة لقب ولا شيء خلبي، هل كنت سأستطيع التفوه بكلمة متحذلق أو لعبة ناكل ساندويش أو ماذا تخترع يا صاح؟ لم أعتقد أنني سأستطيع فعل ذلك، لم أكن واثقاً مئة في المئة أنني كنت أعرف معنى عدم القدرة ولكنني كنت متأكداً إلى حدّ كبير. اعتقدت أن دورا فهمتني لأنها كانت تفهم اللغة الإنكليزية... ولكن ماذا لو فهمتني لأنني كنت أتحدث لغتها؟ وهي لغة لا توجد فيها كلمة لقب أو شيء خلبي؟

وحين انتهت الأرض الحصوية، وبدأت الأرضية الترابية شعرت أن بوسعي إنارة المصباح، ولكنني أبقيته موجهاً إلى الأسفل. كانت هناك مسافة ربع ميل بين الأرض الحصوية وبداية الدرجات، لقد قال لي السيد بوديتش هذا وادعى حتّى أنه حسبها، لم أنسَ أن أعد خطواتي هذه المرة وكنت قد وصلت للخطوة خمسمئة وخمسين حين رأيت الدرجات. استطعت رؤية مصباحي البطارية اللذين وضعهما بنفسه أعلى البئر.

صعدت بثقة بعكس ما شعرت به وأنا أنزل، ولكنني أبقيت كتفي اليمنى ملاصقة للجدار. خرجت دون أي حادثة وانحنيت لأعيد اللوح الثاني إلى مكانه حين شعرت بفوهة دائرية وصلبة تلامس رأسي. تجمدت في مكاني.

«هذا صحيح، ابق مطيعاً والتزم الهدوء ولن نختلف، سأقول لك متى تتحرك»، كان من السهل عليّ أن أتخيل ذلك الصوت الغنائي الخافت وهو يقول: ماذا ستعطيني إذا حولت قشك ذهباً؟

«لا أريد أن أطلق النار عليك يا صغيري، ولن أقوم بذلك إن حصلت على ما أتيت لآخذه» ثمّ أضاف: «ها-ها».. ولم تكن ضحكة بل كالكلمات الواردة في الكتب.

الفصل الثاني عشر
كريستوفر بولي- ذهب سائب- لست مطواعاً- التحضيرات.

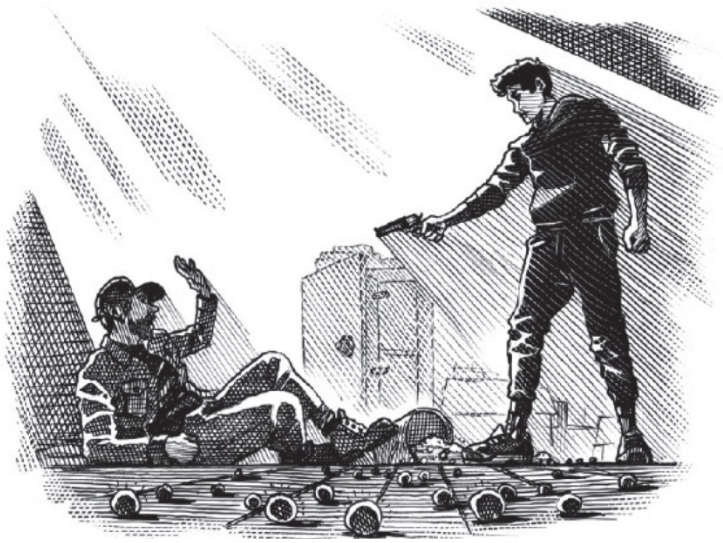

1

لا أتذكر ما شعرت به في تلك اللحظة، ولكنني أتذكر ما فكّرت فيه: إن رومبلستيلتسكين يوجّه مسدساً إلى مؤخرة رأسي.

«ماذا يوجد في الأسفل؟».

«ماذا؟».

«لقد سمعتني، لقد أمضيت وقتاً طويلاً في تلك الحفرة لدرجة اعتقدتُ أنك مت، لذا أجبني ماذا يوجد في الأسفل؟».

راودتني فكرة أخرى حينها: لا يجب أن يعرف، لا يجب أن يعرف أحد بهذا.

«آلة ضخ»، إنها الفكرة الأولى التي خطرت في بالي.

«آلة ضخ؟ آلة ضخ؟ أهذا صحيح ها-ها؟»

«أجل، وإلا سيفيض كل شيء في الباحة الخلفية عندما يهطل المطر كما أن المضخة تصل إلى الشارع»، كان دماغي في وضع التفكير الأقصى. «إنها قديمة، تحققت منها لأرى إن كان يجدر بي الاتصال بشخص من المدينة كي ينزل ويتفحصها، وكما تعلم إن مديرية الميا...».

«هذا هراء ها-ها، ماذا هناك حقاً؟ هل هناك ذهب في الأسفل؟».

«كلا، فقط آلات».

«لا تتحاذق أيها الفتى، فلن يفيدك هذا شيئاً على الإطلاق، لقد نزلت إلى هناك مع مسدس كبير ها-ها لتتحقق من مضخة مياه؟».

قلت له: «جرذان» وكان فمي جافاً جداً، «اعتقدتُ أن هناك جرذاناً».

«هذا هراء كما أن قصتك ليس لها أساس من الصحة، ماذا هناك إذاً؟ المزيد من آلات الضخ؟ لا تتحرك، انظر إلى يمينك فقط».

نظرت ورأيت الجثة المتحللة للصرصار الكبير الذي أطلق السيد بوديتش النار عليه، لم يتبقَّ منه الكثير.

لقد خذلني اختراعي الواهي حينها، وقلت له لا أعرف، ولم يكترث الرجل الذي شبهته برومبلستيلتسكين. كان يركّز على الجوائز.

«لا عليك، دعنا نتحقق الآن من خزنة الرجل العجوز، ولعلنا سنتحقق من آلة الضخ في وقت لاحق، هيّا إلى المنزل يا صغيري، وإذا أحدثت أيّ جلبة على الطريق، فسأطلق النار عليك، ولكن عليك أولاً أن تفك حزام المسدس يا صاح ها-ها، أنزله».

شرعت أنحني كي أفك عقد الحزام، فضربني بالمسدس بقوة على رأسي.

«هل قلت لك أن تنحني؟ كلا، قلت لك أن تفك الحزام».

فككت الحزام، وضرب القراب بركبتي، وانقلب فسقط المسدس على أرضية المستودع.

«احزمه مجدداً، يا له من حزام جميل ها-ها».

(سوف أتوقف الآن عن ذكر جملة ها-ها اللعينة لأنه لم يكف عن التفوه بها، وكانت نوعاً من أدوات الترقيم اللفظية، دعوني أضفْ أنها كانت تشبه كلام رومبلستيلتسكين لدرجة بعيدة، أي أنها كانت مريبة للغاية).

«استدر الآن».

استدرت واستدار معي، كنا نشبه شكلين في صندوق موسيقي.

«ببطء يا صاحِ، ببطء».

خرجت من المستودع وخرج معي، كان الطقس غائماً في العالم الآخر، ولكنه مشمس هنا. استطعت رؤية ظلينا؛ كان ظله يظهر أن ذراعه كانت ممدودة، وظل يده يمسك ظل مسدس، ازدادت قدرة دماغي على التفكير، ولكن ليس بالشكل المطلوب، لقد وقعت في الفخ تماماً.

صعدنا درجات الشرفة الخلفية، فتحت الباب ودخلنا المطبخ. تذكرت أنني فكرت في كل المرات التي كنت فيها هنا، ولم أشك أبداً أنني كنت

سأدخل إلى هنا لآخر مرة قريباً، وهذا لأنه كان سيقتلني.

ولكنه لا يستطيع قتلي، ولا أستطيع السماح له بقتلي، فكّرت كيف سيعرف الناس ببئر العالمين، وأيقنت أنه ليس بإمكاني أن أسمح له بقتلي، فكّرت كيف ستهيمن شرطة المدينة أو قوات التدخل السريع لشرطة الولاية أو الجنود على مرج امرأة- الأحذية الصغير، وكيف سيقتلعون حبالها ويرمون أحذيتها على التراب ويخيفونها، وأيقنت أنني لا أستطيع السماح بهذا، تراءى لي كيف سيقتحم أولئك الرجال المدينة المهجورة، ويوقظون من كان نائماً هناك، وأيقنت أنني لا أستطيع السماح بحدوث هذا، ولكنني لم أستطع إيقافه، والمقلب انطلى عليّ.

ها-ها.

2

صعدنا إلى الطابق الثاني، وكنت أنا في المقدمة ومشى خلفي رومبلستيلتسكين اللعين. فكّرت في أن أنقض من الخلف، وأدفع به على الدرج، ولكنني لم أُحاول. كان من الممكن أن ينجح ذلك، ولكن احتمال أن ينتهي بي المطاف مقتولاً إن لم أنجح كان كبيراً. كانت رادار ستنقض عليه إن كانت هنا بغض النظر عن عمرها، وكانت ستقتل هي الأخرى.

«إلى غرفة النوم التي فيها الخزنة يا صديقي».

دخلت غرفة نوم السيد بوديتش: «لقد قتلت السيد هاينريك أليس كذلك؟».

«ماذا؟ هذا أغبى شيء سمعته في حياتي، لقد ألقوا القبض على قاتله».

لم أتابع الموضوع، فأنا أعرف أنه الفاعل، وكنت متأكداً من أنه يعرف أنني أعرف ذلك. كما كنت أعرف أموراً أخرى أيضاً. وأول شيء كنت أعرفه

هو أنه سيقتلني إن ادعيت أنني لا أعرف شيفرة الخزنة، وأصررت على هذا، أما الشيء الثاني فكان تعديلاً للشيء الأول.

«افتح الخزانة يا صاح».

فتحت الخزانة، وارتطم القراب الفارغ بفخذي، كم أنا سيئ في حمل السلاح!

«افتح الخزنة الآن».

«إذا فعلت هذا فستقتلني».

عَمّ الصمت لوهلة وهو يستوعب تلك الحقيقة القاطعة ثمّ قال: «كلا، لن أقتلك بل سأكتفي بتقييدك ها-ها».

كانت تلك العبارة في مكانها الصحيح، لأنني تساءلت كيف سيفعل ذلك، قالت السيدة ريتشلاند إنه رجل صغير وبطولها وهذا يعني أن طوله خمس أقدام وأربعة إنشات تقريباً، كنت أطول منه بقدم كاملة كما كان جسمي رياضياً في تلك الأيام بفضل أعمال التصليح في المنزل وقيادة الدراجة، ولذا استخلصت أن تقييدي من دون مرافق له ليقوم بكبحي كان مستحيلاً.

«أحقاً ستفعل هذا؟» وجعلت صوتي يبدو مهزوزاً. وصدقوني لم أعانِ في هذا.

«أجل! افتح الخزنة الآن!»

«هل تعدني؟».

«رايتو يا صاحبي بالتأكيد، افتحها الآن، وإلا سأطلق النار على ركبتك كي لا ترقص التانغو مجدداً ها-ها».

«حسناً، ولكن بشرط أن تعدني ألا تقتلني».

«اعتراض! كما يقولون في المحكمة حيث إنك سألتني مسبقاً وأجبتك، افتح الخزنة!»

بالإضافة إلى كل الأشياء التي كان عليّ أن أعيش من أجلها لم أفضل أن يكون ذلك الصوت المريب آخر شيء أسمعه في حياتي، لم أستطع أن أقبل بذلك، «حسناً».

جثوت أمام الخزنة وقلت لنفسي: سيقتلني ولا يمكنني أن أسمح له بفعل ذلك.

من أجل رادار.

ومن أجل امرأة- الأحذية.

ومن أجل السيد بوديتش الذي أعطاني عبئاً عليّ تحمله، لأنه لم يكن هناك مرشح آخر لفعل ذلك ببساطة.

هدأت حينها.

قلت له: «هناك كثير من الذهب، لا أعرف ما مصدره، ولكنه شيء خلبي، لقد دفع فواتيره منه لمدة سنوات».

«كف عن الكلام وافتح الخزنة!»، ثمّ قال وكأنه لم يستطع أن يكبح نفسه: «كم يوجد؟».

«لا أعرف يا رجل! ربما ما يعادل مليون دولار، إنه في دلو ثقيل لدرجة أنني لا أستطيع رفعه».

لم تكن لديّ أدنى فكرة عن الطريقة التي سأقلب فيها الطاولة على ذلك اللعين، كانت لديّ فرصة إن كنا وجهاً إلى وجه، ولكن فرصي نضبت

بسبب فوهة المسدس التي كانت تبعد أقل من إنش عن مؤخرة رأسي، ولكن حين وصلت لمستوى احترافي في الرياضتين اللتين كنت ألعبهما تعلمت أن أفصل دماغي في المباراة وأسلم الراية لجسدي، كان عليّ أن أفعل هذا الآن، فلم يكن لديّ خيار آخر، وأحياناً في مباريات كرة القدم حين نكون متأخرين وخصوصاً في مباريات الذهاب حيث يكون هناك حضور حافل يستخف بنا، كنت أرُكّز على الظهير الرباعي للفريق الآخر، وأقول لنفسي كم هو لعين وأنه عليّ أن أنهيه تماماً، لم تنجح هذه الخطة كثيراً إلا إذا كان هذا الشخص متعجرفاً ويتهكم على الناس بعد مباراة كبيرة، ولكنها نفعت مع هذا الشخص، لقد كان لديه صوت متعجرف ولم أجد صعوبة في كرهه.

«كف عن التباطؤ أيها الجذع الطويل، يا صاحب الجذع الطويل، افتح الخزنة، وإلا لن تمشي بشكل مستقيم مجدداً».

كانت العبارة الأنسب هي: وإلا لن تمشي مجدداً.

أدرت دولاب الشيفرة باتجاه... ثمّ بالاتجاه الآخر... ثمّ بالاتجاه الأول مجدداً، لقد أدخلت ثلاثة أرقام وبقي واحد. خاطرت ونظرت خلفي، فرأيت وجهاً متذمراً -وجه نمس تقريباً- تحت قبعة وايت سوكس عليها تاج عال ودائرة حمراء في اسم سوكس: «هل يمكنني أن أحظى ببعض منه؟».

ضحك بخبث، يا له من وغد: «افتحها! كف عن النظر إليّ وافتحها!»

أدرت الدولاب لأدخل الرقم الأخير، وسحبت المقبض، لم أستطع أن أراه وهو يراقبني، ولكنني شممت رائحته: عرق متخمر من النوع الذي يتراكم على جلد شخص بعد أن يمضي فترة طويلة من دون استحمام.

فتحت الخزنة لم أتردد لحظة، حيث إن المترددين يخسرون. أمسكت الدلو من فتحته، وقلبته بين ركبتي المتباعدتين، فتناثرت قطع الذهب على الأرض في كل حدب وصوب، وفي اللحظة نفسها دخلت إلى الخزانة، أطلق النار ولم يكن الصوت عالياً؛ كان أشبه ما يكون بمفرقعات نارية متوسطة

الحجم. شعرت بالرصاصة وهي تمر قرب كتفي وأذني واهتزت معاطف السيد بوديتش التقليدية حين مرت الرصاصة بينها.

كان السيد بوديتش يملك كثيراً من الأحذية ولا بد من أن دورا كانت ستغار منه. أمسكت فردة حذاء ثقيل ورميته بها، فتجنب تلك الرمية. رميت الفردة الأخرى، فاصطدمت بصدره. تراجع حيث كانت قطع الذهب تقفز في كل مكان فانزلق، سقط أرضاً بقوة، وفتح ساقيه لتخفيف وقع السقوط، ولكنه تشبث بمسدسه. كان أصغر بكثير من مسدس السيد بوديتش من عيار 0.45، وهذا ما فسّر لي صوته المنخفض.

لم أحاول أن أقف على قدمي بل جلست القرفصاء، ثمّ مددت فخذي وساقي، طرت فوق الذهب المتدحرج كسوبرمان وحططت فوقه. كنت كبيراً وكان صغيراً، فلم يستطع التنفس وشهق، كانت عيناه منتفختين أما شفتاه فكانتا حمراوين ولامعتين بسبب لعابه.

همس لي لأنه لم يستطع التنفس: «ابتعد... عني... في الحال!»

وكأنني كنت سألبي طلبه.، حاولت الإمساك بيده التي يقبض بها على المسدس، ولكنني أخفقت، فحاولت مجدداً قبل أن يقربها من وجهي، أطلق المسدس النار مجدداً. لم أعرف ما الذي أصابته الرصاصة، ولم أكترث لأنها لم تصبني. كان معصمه يتفصد عرقاً، فعانيت في إحكام قبضتي. لذا طبقت كامل قوتي وحنيته، سمعت صوت طقة، صرخ بصوت عالٍ، وبعدها سقط المسدس من يده وارتطم بالأرض، تناولته ووجهته نحوه.

صرخ مجدداً، ووضع يده السليمة على وجهه، وكأنها ستوقف الرصاصة. تخبطت يده الأخرى حول معصمه المكسور الذي بدأ بالتورم: «لا! لا تفعلها! لا تطلق النار عليّ! أرجوك!»

لم يقل حينها ها-ها اللعينة أبداً.

3

لا بد من أن رأياً جيداً تكوّن لديكم عن الفتى تشارلي حتى هذه النقطة على ما أعتقد -وكأنه بطل في كتب مغامرات اليافعين تلك، أنا الطفل الذي لم يبرح جانب أبيه حين كان ثملاً، وكان يمسح قيئه، ويصلي من أجل تعافيه (على ركبتيه!)، ونال ما صلى من أجله فعلاً. أنا الفتى الذي أنقذ رجلاً عجوزاً حين سقط عن السلم، وهو يحاول تنظيف مصارف المياه. كما أنني الفتى الذي ذهب لزيارته في المستشفى، واعتنى به حين عاد إلى المنزل. والفتى الذي وقع في حب كلبته الوفية التي بادلته الحب. لقد حملت مسدس 0.45 وتشجعت على قطع دهليز مظلم (ناهيكم عن البرية الهائلة) وخرجت إلى عالم آخر، وصادقت امرأة عجوزاً مشوهة الوجه كانت تجمع الأحذية. أنا الفتى الذي تفوق على قاتل السيد هاينريك عن طريق إلقاء دلو قطع الذهب على الأرض كي يفقد توازنه ويسقط، يا إلهي! كما أنني كنت ألعب رياضتين باحتراف! بالإضافة إلى أنني قوي وطويل ولم يظهر عليّ حب الشباب! إنني مثالي أليس كذلك؟

لكنني كنت كذلك الطفل الذي وضع مفرقعات نارية في صناديق البريد، وفجّر ما كان على الأرجح بريداً مهماً لبعض الأشخاص، كما كنت الفتى الذي لطّخ نافذة سيارة السيد داودي بروث الكلب، وعصر لاصق إيلميرز في فتحة محرك سيارة السيدة كيندريك الفورد القديمة حين وجدناها أنا وبيرتي مفتوحة. لقد رافقني بيرتي بيرد في جميع تلك الحوادث وكان الإخبار عن إنذار القنبلة من أفعال بيرد، ولكنني لم أوقفه. هناك أمور أخرى لن أقولها لكم لأنني أشعر بالعار حيالها، كل ما سأقوله هو أننا أخفنا بعض الأطفال الصغار كثيراً لدرجة أنهم بكوا وبللوا أنفسهم.

لست مطواعاً أليس كذلك؟

كنت غاضباً من هذا الرجل الصغير الذي كان يرتدي بنطالاً قصيراً متسخاً وسترة نايك، كما كان شعره المتسخ يغطي حاجبيه اللذين كانا على

وجهه الذي يشبه وجه النمس. كنت غاضباً (بالطبع) لأنه كان سيقتلني حين يحصل على الذهب -سبق له أن فعل ذلك فما الذي يردعه؟ كنت غاضباً لأنه إن قتلني فسيدخل رجال الشرطة -الذين سيترأسهم على الأرجح المحقق غليسون ومساعداه المقدامان الشرطيان ويتمارك وكوبر- إلى المستودع من أجل التحقيق، ويعثرون على شيء سيجعل من جريمة قتل تشارلز ماكغي ريد شيئاً لا يذكر أمامه، كنت أكثر فتى غاضب في العالم -ربما لن تصدقوني، ولكنني أقول الحقيقة- لأن تدخل الرجل الصغير صعّب كل شيء. هل كان عليّ أن أُبلغ عنه الشرطة؟ كان هذا سيقود لاكتشاف الذهب، وسيقود إلى عدد لا نهائي من الأسئلة، وحتى لو جمعته عن الأرض وأعدته إلى الخزنة فكان السيد ها-ها سيخبرهم إما لاستعطاف محامي المنطقة أو ستخرج منه المعلومة عفوياً.

كان الحل لمشكلتي بديهياً، إن مات فلن يستطيع إخبار أحد، وعلى فرض أن سمع السيدة ريتشلاند لم يكن حاداً كبصرها (كما أن تينك الطلقتين لم تكونا عاليتين بالفعل)، فلم يكن هناك داع لقدوم الشرطة، كما كان لديّ مكان لإخفاء الجثة.

أليس كذلك؟

4

مع أن يده لا تزال أمام وجهه، استطعت أن أرى عينيه من الفراغات بين أصابعه، كانتا زرقاوين معشقتين بالأحمر، وكان على وشك البكاء. لقد عرف ما يدور في ذهني حيث استطاع أن يستشف هذا من تعابير وجهي.

«كلا، أرجوك، أفلتني أو اتصل بالشرطة إن كان عليك هذا، فقط لا تق-تق-تقتلني».

«ولكنك كنت ستقتلني؟».

«ما كنت لأقتلك، أقسم بالله وبقبر أمي أنني ما كنت سأقتلك. أقسم إنني ما كنت سأقتلك».

«ما اسمك؟».

«ديريك! ديريك شيبرد».

ضربته على وجنته بمسدسه، كان بوسعي أن أقول لكم إنني لم أرد فعل ذلك أو أنني لم أدرك أنني سأفعل ذلك إلى أن فعلت، ولكن تلك الكلمات محض أكاذيب، كنت على دراية تامة بما سأفعل وشعرت بتحسن، سال الدم من أنفه، كما سال دم إضافي من جانب فمه.

«هل تعتقد أنني لم أتابع مسلسل غريز أناتومي أيها الوغد؟ ما اسمك؟».

«جاستن تاونز».

ضربته مجدداً، حاول أن يفلت مني، ولكن محاولاته باءت بالفشل. في الواقع، لم أكن سريعاً جداً، ولكن لم يكن هناك خطب في انعكاساتي، أنا واثق أن تلك الضربة كسرت أنفه ولم تكتفِ بإدمائه، صرخ... ولكن صراخه لم يكن أعلى من همس.

«لا بد من أنك تعتقد أنني لا أعرف جاستن تاونز إيرل أيضاً، في الواقع لديّ ألبوم موسيقي له، سأمنحك آخر فرصة أيها اللعين، وبعدها سأطلق النار على رأسك».

قال: «بولي»، بدأ أنفه يتورم -كانت وجنته قد تورمت بالكامل- وتكلم وكأنه مصاب بالزكام.

«كريس بولي».

«ألق لي بمحفظتك».

«ليست معي...».

راقبني وأنا أتراجع لأكبح يده السليمة مجدداً، كان لديّ مخططات كثيرة بخصوص تلك اليد، ولا بد من أنها ستخفض من تقييمي لديكم أكثر فأكثر على الأرجح. ولكن عليكم أن تتذكروا أنني كنت في ثورة غضب، كما كنت أفكر برومبلستيلتسكين مجدداً. لعلني لم أستطع أن أرغم هذا اللعين على أن يغرز قدمه في الأرض، ويشق نفسه إلى قسمين، ولكن كان بوسعي أن أجعله يهرب كرجل كعكة الزنجبيل ها-ها.

«حسناً، حسناً!».

نهض ومدّ يده إلى جيب بنطاله الخلفي، الذي لم يكن متسخاً فحسب، بل كان قذراً. كان كم معطفه ممزقاً، كما كان طرفه مهترئاً، بغض النظر عن المكان الذي مكث فيه هذا الرجل. ولكنني واثق أنه لم يكن يعيش في هيلتون. كانت المحفظة مهترئة وبالية، فتحتها لبرهة، واستطعت أن أرى ورقة عشرة دولارات ورخصة قيادة باسم كريستوفر بولي، كان عليها صورة له وهو يافع وكان عابس الوجه. أغلقتها ووضعتها في جيبي الخلفي قرب محفظتي.

«يبدو أن رخصة قيادتك منتهية الصلاحية منذ العام 2005، عليك أن تجددها في حال بقيت على قيد الحياة».

«لا أستطيع...». ثمّ أغلق فمه.

«لا تستطيع تجديدها؟ هل عليها مخالفة بسبب القيادة تحت تأثير المخدرات؟ أو بسبب السجن؟ هل كنت في السجن؟ هل كان هذا هو السبب الذي جعلك تستغرق وقتاً طويلاً قبل أن تسرق وتقتل السيد هاينريك؟ لأنك كنت في سجن الولاية؟»

«لم أكن هناك».

«حسناً، أين كنت؟».

صمت قليلاً، ولم أكترث. وكما تعوّد السيد بوديتش أن يقول: لم يكن هذا التفصيل وثيق الصلة بالموضوع.

«كيف عرفت بشأن الذهب؟».

«رأيت بعضاً منه في متجر الألماني قبل أن أُنفذ عقوبة في سجن المقاطعة». كان بوسعي أن أسأله كيف اكتشف مصدر الذهب وكيف أوقع بالمتسول دوايرز، ولكنني كنت واثقاً إلى حدّ كبير من معرفتي بالأمرين. أضاف: «دعني أذهب ولن أزعجك مجدداً».

«لا، لن تفعل ذلك لأنك ستكون في السجن وليس في سجن المقاطعة فحسب. سأتصل بالشرطة لأبلغ عنك يا بولي، سيحكم عليك بالسجن بتهمة القتل. لذا دعني أسمعك تقول ها-ها».

«سأبوح بكل شيء، سأبوح بأمر الذهب، ولن تحصل على أي شيء منه».

لقد كان مخطئاً حيث كنت سأحصل عليه لأنه ملكي حسب الوصية، ولكنه لم يعرف ذلك.

قلت له: «هذا صحيح، شكراً لأنك أوضحت لي هذه المسألة. سيتوجب عليّ أن ألقي بك إلى جانب آلة الضخ إذاً، إنني محظوظ لأنك رجل صغير، ولن أؤذي ظهري إذا فعلت ذلك».

رفعت المسدس. كان بوسعي أن أقول لكم أنني رفعته لإخافته فحسب، ولكنني لم أكن متأكداً من ذلك، كما كنت أكرهه لأنه عبث بمنزل السيد بوديتش ودنسه، وأعتقد أنني قلت لكم إن قتله سيسهّل كل شيء.

لم يصرخ -لا أعتقد أنه كان يتنفس بشكل جيد- ولكنه تأوه، وتبللت المنطقة الوسطى من سرواله. أخفضت المسدس... قليلاً.

«لنفترض أنني قلت لك إنك تستطيع العيش يا سيد بولي، وليس هذا فقط بل ستنفد بجلدك كما يُقال، هل سيفيدك هذا؟».

«أجل، دعني أذهب، ولن أزعجك مجدداً».

قلت لنفسي: قال تلك الكلمات كبرومبلستيلتسكين حقيقي.

«كيف وصلت إلى هنا؟ هل مشيت؟ أم ركبت الباص إلى جادة ديربورن؟». واستناداً إلى الدولارات العشرة في محفظته لم أعتقد أنه استقل أوبر، من الممكن أنه قد أخلى غرفة السيد هاينريك -حيث إن الأشياء التي وضعت بحوزة دواير كانت إثباتاً على هذا- ولكن إن فعل ذلك فهو لم يُبدل أياً من غنائمه إلى مال نقدي. لعله لم يعرف الآلية، وربما كان ماكراً، ولكن هذا لم يعنِ أنه كان ذكياً أو لم تكن هناك علاقة بين الأمرين.

«لقد أتيت عن طريق الغابة». أشار بيده السليمة إلى الحزام الأخضر وراء عقار السيد بوديتش. وكان هذا كل ما تبقى من غابة سينتري التي كانت تغطي هذا الجانب من البلدة منذ قرن.

لقد أعدت تقييم بنطاله القذر ومعطفه الممزق. لم تقل السيدة ريتشلاند إن بنطاله كان متسخاً، وكانت ستقول هذا -إذ كان بصرها حاداً- لو لم يمض أيام على تلك الحادثة. اعتقدت أنه لم يأتِ من الغابة بل كان يعيش فيها، وفي مكان لا يبعد كثيراً عن السور الذي يطوق باحة السيد بوديتش، كان هناك مكب قمامة يتخذه ملجأ ومأوى لأغراضه لا بد أن أيّ غنيمة من متجر السيد هاينريك كانت مدفونة بالقرب منه على طريقة القراصنة المذكورين في القصص. ولكن قراصنة القصص كانوا يخبئون العملات الذهبية والدولارات الإسبانية في صدورهم، أما بولي فكان من النوع الذي يخفي غنائمه في كيس عليه لصاقة خدمة اشتراكات أميركا.

إن كنت محقاً فمخيمه لا يبعد كثيراً من هنا كي يتمكن من التربص بتشارلز ريد المشهور. لقد عرف من أنا من هاينريك، ومن الممكن أنه رآني في رحلتي إلى ستانتونفيل، وبعد أن أسفر بحث بولي في منزل السيد بوديتش عن خزنة غير مفتوحة فقط، اكتفى بانتظاري لاعتقاده أنني كنت سآتي من أجل الذهب لأن هذا التصرف من شيمه.

«انهض، سننزل إلى الأسفل، احترس من قطع الذهب، إلا إذا أردت أن تسقط مرة أخرى».

«هل بإمكاني أن أحظى ببعض القطع؟ القليل منها فقط فأنا مفلس يا رجل».

«لتفعل ماذا؟ لتستخدم واحدة منها كي تدفع ثمن عشاء في ماكدونالدز؟».

«أعرف رجلاً في شيكاغو، لن يعطيني قيمتها تماماً، ولكن...».

«يمكنك أن تحظى بثلاث منها».

«ما رأيك في خمس قطع؟». حاول أن يبتسم، وكأنه لم ينوِ قتلي حالما أفتح الخزنة.

«أربع قطع».

انحنى والتقطها بسرعة بيده السليمة، ومدّ يده كي يخبئها في جيب بنطاله الخلفي.

«لقد التقطت خمس قطع أسقط واحدة».

زمجر -مثل برومبلستيلتسكين - وأسقط واحدة فتدحرجت. «يا لك من فتى لئيم».

«وهذه أقوال القديس كريستوفر من الغابة التي تجعل العار يدب في عروقي».

«اللعنة عليك».

رفعت مسدسه الذي ظننت أنه كان أوتوماتيكياً من عيار 0.22: «يجب ألا تقول: اللعنة عليك، لشخص معه سلاح ناري، ليس قراراً حكيماً منك ها-ها، والآن انزل إلى الأسفل».

غادر الغرفة وهو يثبت معصمه المكسور على صدره، ويشد على قطع الذهب بيده السليمة، لحقت به، ومشينا عبر غرفة المعيشة إلى المطبخ، وتوقف عند الباب.

«هيّا، امضِ في طريقك لتصل إلى الباحة الخلفية».

استدار لينظر إليّ بعينين واسعتين وفم مرتعش: «هل ستقتلني وترميني في الحفرة؟».

قلت: «ما كنتُ سأعطيك ذهباً إذا كنت سأفعل هذا».

«ستستعيدها»، شرع بالبكاء مجدداً. «ستستعيدها وتلقي بي إلى الحف-الحف-الحفرة».

أشحت بوجهي وقلت: «هناك سور ولديك معصم مكسور، لن تستطيع تسلقه من دون مساعدة».

«سأتدبر أمري! لا أريد مساعدتك».

قلت له: «امشِ».

مشى وهو يبكي، وكان متأكداً أنني سأطلق النار على مؤخرة رأسه، وأعيد وأكرر: لأن هذا التصرف كان من شيمه. لم يتوقف عن النحيب، إلا

عندما عبرنا باب المستودع المفتوح، ولاحظ أنه لا يزال على قيد الحياة. وصلنا إلى السور الذي بلغ ارتفاعه قرابة خمس أقدام؛ كان ارتفاعه مناسباً لمنع رادار من تسلقه حين كانت صغيرة.

«لا أريد أن أراك مجدداً».

«لن تراني».

«أبداً».

«أعدك أنك لن تراني مجدداً».

«صافحني إذاً» ومددت يدي له.

صافحني، وكما قلت: لقد كان ماكراً، ولكنه لم يكن ذكياً. لويت يده، وسمعت صوت طقطقة عظامه. صرخ وجثا على ركبتيه وهو يسند يديه إلى صدره. دسست مسدسه عيار 0.22 في مؤخرة بنطالي كرجل شرير في فيلم، ثمّ انحنيت وأمسكت به وحملته. كان الأمر سهلاً؛ لم يكن وزنه يتجاوز مئة وأربعين رطلاً على الأرجح، وكنت متحفزاً للغاية لدرجة أنني شعرت بالأدرينالين يسري في كل خلايا جسمي، وألقيت به فوق السور. حط على ظهره بين كومة من الأوراق اليابسة والأغصان المكسورة ولهث من الألم، حاول أن يحرك يديه، ولكن من دون جدوى، استندت إلى السور كربة منزل ريفية تتلهف لسماع الثرثرة التي تدور في القرية.

«هيّا يا بولي، اذهب ولا تعد مجدداً».

«لقد كسرت يدي! لقد كسرت معصمي اللعينين...».

صرخت عليه قائلاً: «أنت محظوظ لأنني لم أقتلك، وإذا رأيتك مجدداً سأقتلك. اذهب الآن ما دامت الفرصة متاحة».

نظر للمرة الأخيرة بعينيه الزرقاوين ووجهه المنتفخ الملطخ بالدموع والمخاط ثمّ استدار وركض باتجاه ما تبقى من غابة سينتري وهو يعانق يديه إلى صدره، راقبته وهو يذهب دون أن أشعر بذرة ندم على ما فعلته.

لست مطواعاً أليس كذلك؟

هل كان سيعود؟ ما كان ليعود بمعصميه المكسورين. هل كان سيخبر أحداً آخر كصديق أو شريك في الجريمة؟ لم أعتقد أن بولي كان يملك أصدقاء أو شركاء. هل كان سيذهب إلى الشرطة؟ كانت الفكرة مضحكة استناداً لما كنت أعرفه عن هاينريك، ورغم كل هذا لم أستطع أن أجبر نفسي على قتله بدم بارد.

عدت إلى الداخل مجدداً، وجمعت قطع الذهب. كانت في كل مكان، واستغرق مني هذا وقتاً أطول من مواجهتي مع بولي. وضعتها في الخزنة قرب حزام الكونشو الفارغ والقراب ثمّ غادرت، وحرصت على أن أغطي بسترتي المسدس الذي دسسته في بنطالي. لكنني كنت مسروراً لأن السيدة ريتشلاند لم تكن في مرأب السيارات، وهي تضع يدها فوق عينيها الحادتين.

5

نزلت التلّ ببطء لأن ساقي كانتا ترتعشان، ويا إلهي! حتّى عقلي كان مشوشاً، لاحظت أيضاً أنني كنت جائعاً وأنا أصعد درج شرفتي الأمامية، لقد كنت بالأحرى أتضور جوعاً.

كانت رادار تنتظرني لترحب بي، ولكنها لم ترحّب بي بطريقتها الحماسية كما توقعت، بل اكتفت بتحريك ذيلها بسعادة وببعض القفزات كما داعبت فخذي برأسها قبل أن تعود إلى سجادتها. لاحظت أنني توقعت منها الحماسة لاعتقادي بأنني غبت لوقت طويل. في الواقع، لم أغب سوى أقل من ثلاث ساعات، لقد جرت أحداث كثيرة في تلك الساعات تُغير مجرى

الحياة. فكرت في سكروج في رواية ترنيمة عيد الميلاد وهو يقول لقد فعلت الأرواح كل شيء في ليلة واحدة.

كانت هناك بعض قطع اللحم في الثلاجة، فحضّرت شطيرتين سميكتين، وأكثرت من صلصة الطماطم، كنت بحاجة لأشحن طاقاتي لأن اليوم كان في بداياته، وكان عليّ أن أقوم بكثير من التحضيرات ليوم غد. ما كنت سأعود إلى المدرسة وربما كان أبي - على الأرجح- سيعود إلى منزل فارغ. كنت سأجرب الساعة الشمسية التي أخبرني عنها السيد بوديتش، لم أعد أشك بوجودها، كما أنني لم أعد أشك في قدرتها على إعادة الزمن لكلبة الشيبرد الألمانية العجوز التي كانت تنام في هذه الأثناء على سجادتها في غرفة المعيشة، ولم أكن واثقاً من قدرتها على نزول تلك الدرجات اللولبية، كما لم أعرف كيف كنت سأدعها تمشي أربعين (أو خمسين أو ستين) ميلاً إلى المدينة. ولكنني كنت واثقاً من شيء واحد: ما كنت أستطيع الانتظار أكثر.

6

وأنا أتناول الطعام، فكّرت ملياً. إن كنت سأغيب مع رادار كان عليّ أن أخطط لوجهة مزيفة أخرى تصرف النظر عن منزل السيد بوديتش. خطرت لي فكرة في طريقي إلى المرأب، واعتقدت أنها كانت مناسبة، وكان عليها أن تكون كذلك.

أخذت عربة أبي ذات المقبضين مع شيء إضافي، كان هناك على أحد الرفوف هيدروكسيد الكالسيوم المعروف بالكلس المطفأ، لماذا كان أبي يحتفظ بهذا؟ لقد حزرتم: من أجل الصراصير. كان هناك بعض منه في قبونا وفي المرأب. وضعت الحقيبة في العربة، ثمّ دخلت إلى المنزل وعرضت على رادار لجامها.

«إذا أخذتك إلى أعلى التلّ هل ستكونين مطيعة؟».

أكدت لي بعينيها أنها ستكون كذلك. لذا، وضعت اللجام واتجهنا إلى المنزل رقم 1 على شارع سيكامور وأنا أدفع العربة وهي تمشي إلى جانبها. لقد عادت السيدة ريتشلاند إلى موقعها المعتاد، وتوقعت منها أن تسألني عن كل تلك الجلبة التي حدثت مسبقاً. ولكنها لم تسأل، واكتفت بسؤالي إن كنت أخطط لأقوم بمزيد من الأمور حول المنزل، وأجبتها بنعم.

«إنك تبلي بلاء حسناً بفعلك هذا، أعتقد أن وكالته العقارية ستعرضه للبيع أليس كذلك؟ لعل الوكالة ستعطيك أجرك، ولكنني لست واثقة من هذا فالمحامون بخلاء. آمل ألا يهدم المالكون الجدد المنزل فهو الآن أجمل من أي وقت مضى. هل تعرف من ورثه؟».

قلت لها: لا.

«حسناً، إذا عرفت السعر المطلوب أعلمني حيث إننا نخطط للبيع».

إن ضمير نون الجماعة دلّ على أن هناك سيد ريتشلاند، من كان سيخطر له هذا؟

قلت لها إنني سأحرص على إعلامها (بنبرة توضح أنني لن أفعل ذلك) ودفعت العربة خلف المنزل بينما كان طرف لجام رادار حول معصمي. كانت الفتاة العجوز تتحرك بشكل جيد، ولكنها لم تمشِ لمسافة طويلة. هل كانت ستستطيع المشي لأميال باتجاه المدينة المهجورة؟ لا، لن تستطيع.

هذه المرة، كانت رادار أهدأ، ولكن حالما فككت لجامها انطلقت إلى الأريكة المفتوحة في غرفة المعيشة وشممتها من كل الجهات، ثمّ استلقت بالقرب منها، أحضرت لها وعاء للمياه، ثمّ خرجت إلى المستودع مع كيس من الكلس المطفأ، نثرته فوق بقايا الصرصار، وراقبت بذهول كيف تسرعت عملية التحلل.كان هناك صوت هسهسة وغليان، انبثق بخار من البقايا التي كانت سرعان ما ستتحول إلى مادة كلسية.

تناولت المسدس، وعدت إلى المنزل، ووضعته في الخزنة، رأيت بعض القطع التي كانت قد تدحرجت واستقرت في إحدى الزوايا، فالتقطتها ووضعتها في الدلو مع باقي الذهب، وحين نزلت رأيت رادار قد خلدت لنوم عميق في غضون وقت قصير.

قلت لنفسي: هذا جيد، خذي قسطك من النوم الآن لأن يوم غد سيكون حافلاً بالنسبة إليك يا فتاة.

كان هذا اليوم حافلاً بالنسبة إليّ وكان هذا جيداً، ولكنه لم يشغلني عن التفكير بالعالم الآخر -أزهار الخشخاش التي تحيط بالممر وامرأة الأحذية التي لم يكن لديها وجه تقريباً والأبراج الزجاجية في المدينة- ولكن الانشغال حفظني غالباً من أن أحظى بردّ فعل متأخر على نجاتي بأعجوبة من كريستوفر بولي، لقد كنت سأحظى بنهاية وشيكة، للغاية.

لم يكترث الوغد الصغير بالمخطوطات والكتب القديمة في الردهة بين المطبخ والباب الخلفي أثناء بحثه عن الذهب. لم أتعب نفسي بالكتب، ولكنني أمضيت ساعة في جر المجلات القديمة -التي كانت ملفوفة بحبال القش- بواسطة العربة ذات المقبضين إلى المستودع، وضعت بعضها فوق بقايا الصرصار والبعض الآخر قرب بئر العالمين، فعندما سأنزل في المرة القادمة -أو سننزل- كنت سأضع بعض رزم المجلات على الألواح كي أحاول تغطية الفتحة بالكامل.

حين انتهيت عدت إلى المنزل، وأيقظت رادار، أعطيتها مكافأة من خزانة المؤن واصطحبتها إلى المنزل. ذكّرت نفسي أن أجلب لها قردها في اليوم التالي، فلا بد أنها كانت سترغب باللعب حال وصولنا إلى وجهتنا، إلا إذا وقعت على تلك الدرجات وجرتني معها، وهذا إذا نزلت على الدرج في المقام الأول.

عندما عدت وضعت مسدس بولي عيار 0.22 ومحفظته وبعض الأشياء الأخرى في حقيبتي- لم يكن حملاً ثقيلاً ولكنني كنت سأضع المزيد في اليوم التالي من خزنة مؤن السيد بوديتش- ثمّ جلست لأكتب إلى أبي، أردت أن أزيح الحمل عن كاهلي، وكنت على دراية تامة بأنني لا أستطيع فعل ذلك، كانت هذه رسالة صعبة.

أبي العزيز

ستعود إلى منزل فارغ لأنني ذهبت إلى شيكاغو مع رادار. وجدت شخصاً على الإنترنت حقق نجاحات عظيمة في تجديد صحة الكلاب المسنة ودورة حياتها. لقد عرفت بشأن هذا الرجل منذ وقت، ولكنني لم أرد إخبارك لأنني أعرف رأيك بخصوص الأطباء الدجالين. ربما يكون واحداً منهم، ولكن بوسعي أن أصرف 750 دولاراً بسهولة بفضل إرثي. لن أطلب منك ألا تقلق، لأنني أعرف أنك ستقلق لا محالة، مع أنه لا يوجد شيء يدعوك للقلق، ولكن ما سأطلبه منك هو ألا تعالج قلقك بمشروب. إذا عدت ورأيتك تشرب حتّى الثمالة مجدداً سينفطر قلبي. لا تحاول الاتصال بي لأنني سأطفئ هاتفي المحمول، (لم يكن وضع هاتفي المحمول مهماً في المكان الذي كنت ذاهباً إليه). سأعود بالتأكيد وإذا نجح هذا فسأعود مع كلبة بصحة جيدة وجديدة!

ثق بي يا أبي، فأنا مدرك لما أفعله.

مع حبي،

تشارلي.

تمنيت أن أكون مدركاً لما أفعله.

وضعت الرسالة في المغلف، وكتبت أبي على مقدمته، وتركته على طاولة المطبخ، ثمّ فتحت حاسوبي المحمول، وأرسلت بريداً إلكترونياً

للسيدة سيلفيوس على بريد المدرسة. لقد وضّحت لها كما وضّحت لأبي، خطر لي أن السيدة سيلفيوس ستقول إنها تشتم رائحة التغيب عن المدرسة إذا رأتني وأنا أكتب الرسالة، فضبطت البريد ليصل إلى مكتبها مساء يوم الخميس. كنت أستطيع الإفلات بيومي غياب غير مبررين، ولكن ليس ثلاثة. كان هدفي هو أن أعطي أبي مزيداً من الوقت ليمضيه في المؤتمر، وأملت ألا تتصل به السيدة سيلفيوس حين تستلم البريد، ولكنني كنت متأكداً من أنها ستفعل ذلك، ولكن وقتها ربما سيكون في طريق العودة، أما الهدف الأساسي فهو إخبار أكبر قدر من الناس أنني ذاهب إلى شيكاغو.

لهذه الغاية، اتصلت بمركز الشرطة، وسألت إن كان المحقق غليسون موجوداً، كان هناك وسألته إن كان لديهم أيّ أخبار جديدة بخصوص عملية السطو على المنزل رقم 1 في شارع سيكامور: «أردت أن أسألك اليوم لأنني ذاهب إلى شيكاغو غداً، لقد وجدت شخصاً هناك يفعل المعجزات مع الكلاب المسنة».

قال لي غليسون إنه لم يكن هناك أيّ مستجدات، وكان هذا ما توقعته. لقد تدبرت أمر الفاعل بنفسي... أو هكذا كان أملي. تمنى لي غليسون الحظ الجيد مع الكلبة العجوز، وكانت هذه أمنية حفظتها بقلبي.

7

مساء وضعت ثلاث حبات في طعام رادار، كنت سأعطيها ثلاث حبات أخرى في اليوم التالي. لم يبقَ المزيد في الزجاجة ولكن لعل هذا كان أفضل. لم أكن واثقاً ما مفعولها، ولكنني اعتقدت أنها كانت تُحسن صحتها بينما تُسرع موتها. كانت تقصر حياتها في الوقت نفسه الذي كانت تشحذ طاقاتها فيه. قلت لنفسي إن عليّ إنزالها على الدرج وبعد ذلك... حسناً، لم أعرف ماذا كنت سأفعل.

عاد هاتفي المحمول للعمل (ولكن كان عليّ أن أعيد ضبطه بطريقة صعبة كي يظهر الوقت الصحيح) رنّ قرابة الساعة السابعة، كان أبي هو المتصل. فشغلت التلفاز، ورفعت الصوت قليلاً قبل أن أجيبه.

«مرحباً يا تشارلي، هل كل شيء على ما يرام؟».

«أجل، هل تسلقت أيّ أشجار؟».

ضحك وقال: «لا، إنها تمطر هنا، كما دبت الروح الحماسية بين أعضاء الفريق، لقد جن رجال التأمين، ماذا تتابع؟».

«سبورتس سينتر».

«هل الكلبة بخير؟».

«ريدز؟» نظرتْ من على سجادتها، «إنها بخير».

«لا تزال تأكل؟».

«لقد أنهت طبقها تماماً ولعقته».

«يسرني سماع هذا».

تحدثنا قليلاً، ولم يبدُ قلقاً، لذا أعتقد أنني كنت جيداً في التظاهر، لقد سررت بهذا، ولكنني شعرت بالعار في الوقت ذاته.

«سأتصل بك مساء غد إذا أردت».

«لا، ربما سأخرج لتناول الشطائر ولعب الغولف المصغر مع مجموعة رفاق».

«وماذا عن الفتيات؟».

«حسناً... من الممكن أن تحضر بعض الفتيات، سأتصل بك إن حدث شيء كأن ينشب حريق في المنزل».

«اتفقنا، نم بعمق يا صغيري».

«وأنت أيضاً». من مكاني استطعت أن أرى الرسالة على طاولة المطبخ، لم أحبذ أن أكذب على أبي، ولكنني لم أجد خياراً آخر، كان وضعاً خارجاً عن الطبيعة.

أوقفت عمل التلفاز، واستعددت للنوم في تمام الساعة الثامنة للمرة الأولى منذ وقت طويل، ولكنني كنت أخطط أن أستيقظ باكراً، تعوّدت أمي أن تقول: كلما نهضت أبكر أنجزت أكثر، لم أستطع أحياناً أن أستذكر شكلها من دون أن أنظر إلى صورتها، ولكنني كنت أتذكر جميع أقوالها القصيرة، إن العقل سلاح غريب.

أقفلت المنزل، ليس لأنني كنت خائفاً من بولي، لا بد أنه كان يعرف منزلي، ولكن معصميه كانا مكسورين وكنت أحتفظ بمسدسه، كما لم يكن معه أي مال أو هوية. اعتقدت أنه كان يعرج إلى المكان الذي سيحاول فيه بديل تلك القطع إلى مال نقدي، هذا إن استطاع بيعها في المقام الأول. اعتقدت أنه لن يحظى بأكثر من عشرين بالمئة من ثمنها وكان هذا يناسبني، أو كان شيئاً خلبياً، كلما انتابني شعور الشفقة عليه أو الذنب على ما فعلته فكرت كيف ضغط فوهة مسدسه على مؤخرة رأسي، وأمرني بألا أستدير، فلن يكون هذا تصرفاً ذكياً، لقد سررت لأنني لم أقتله وهاكم هذه الحقيقة.

تفحصت نفسي جيداً في المرآة بينما كنت أنظف أسناني، اعتقدت أنني كنت أبدو كما أنا، واعتبرت هذا إنجازاً بعد كل ما حصل معي. غسلت فمي وعندما استدرت رأيت رادار تجلس عند باب الحمام، انحنيت وداعبت الفرو الذي كان على جانبي وجهها: «هل تريدين أن تذهبي في مغامرة غداً يا فتاة؟».

هزت ذيلها، ثمّ توجهت إلى غرفة الضيوف، واستلقت عند نهاية سريري. لقد أعدت التحقق من منبهي كي أحرص على أنه مضبوط على الساعة الخامسة صباحاً، ثمّ أطفأت النور، واعتقدت أنني سأستغرق وقتاً طويلاً لأخلد إلى النوم بعد دوامة اليوم، ولكن سرعان ما غلبني النعاس.

سألت نفسي إن كنت سأخاطر بحياتي فعلاً وأتعرض لمشاكل مع أبي وفي المدرسة من أجل كلبة عاشت -وفقاً لسنوات الكلاب- حياة طويلة وحافلة. بدا لي أن الجواب هو نعم، ولكن لم يكن هذا كل شيء. لقد لفتني الإعجاز واللغز اللذان يطوقان هذا الأمر، وجدت عالماً آخر. أردت أن أرى المدينة وأبراجها الزجاجية وأكتشف ما إن كانت أوز ولكن مع وحش فظيع -غوغماغوغ- في جوهرها بدلاً من دجال يعرض صوته وراء ستارة، أردت أن أرى الساعة الشمسية لأتأكد إن كانت فعلاً كما وصفها السيد بوديتش، وعليكم أن تتذكروا أنني كنت في السابعة عشرة من عمري أي في ذروة حب الاكتشاف والقرارات المغفلة.

ولكنني أردت أن أفعل ذلك من أجل الكلبة بنسبة كبيرة. لقد كنت أحبها كثيراً ولم أرد أن أودعها.

استدرت على جانبي وخلدت إلى النوم.

الفصل الثالث عشر:
الاتصال بآندي- رادار تقرر-الحساء- غوغر.

1

بدَت رادار مندهشة من استيقاظنا في الظلام، لكنّها بدت مستعدّة لتناول وجبة الفطور (التي دسست فيها ثلاث حبات) وصعود التلّ إلى المنزل الرقم 1. كان منزل ريتشلاند مظلماً. صعدتُ إلى الأعلى، ووضعتُ مسدس عيار 0.45 على خصري. وشعرت بأنّني سام صاحب المسدسين، مع وجود مسدس بولي عيار 0.22 في حقيبتي. وجدتُ بعض علب صلصة السباغيتي الفارغة في المخزن. ملأتُ اثنتين منها بطعام الكلاب الجاف أوريجن، وأحكمت إغلاقهما، ولففتهما في منشفة، ووضعتُهما في حقيبتي أسفل

القميص وزوج الملابس الداخلية (لا تذهب في رحلة من دون ملابس داخلية نظيفة، كان هذا أحد أقوال أمي القصيرة). وأضفتُ عشرات علب السردين (الملك أوسكار)، وبعض البسكويت، والقليل من شطائر الجوز (القليل فقط لأنني كنت ألتهمها)، وحفنة من أصابع مرتديلا الديك الرومي من بيركي جيركي، وعلبتي الكولا المتبقيتين في الثلاجة. وضعتُ محفظتي في حقيبتي أيضاً، كي أتمكّن من وضع مصباحي في جيبي الخلفي، كما كان من قبل.

بإمكانكم الحكم على هذه الإمدادات بأنّها ضئيلة للغاية لما قد يكون رحلة مئة ميل، وبالطبع أنتم على حق، لكن حقيبتي كانت كبيرة جداً. وإلى جانب ذلك، عرضَت عليّ امرأة الأحذية أن تقدّم لي وجبة، وربما قد تضيف لي بعض المستلزمات، وإلا فسيتعينّ عليّ البحث عن الطعام. ملأتني هذه الفكرة بالقلق والإثارة.

لكنّ أكثر ما أقلقني هو قفل باب المستودع. لا أعتقد أن أحداً سيهتم، إذا أُقفل المستودع. وفي حال لم يكن مقفلاً، قد يقوم شخص ما بتفقده. لذا، يُعتبر إخفاء الألواح التي تغطي البئر بأكوام من المجلات القديمة تمويهاً ضعيفاً للغاية. خلدت إلى النوم، وأنا أفكر بهذه المشكلة التي لم أجد لها حلاً (وكأنها لغز لأغاثا كريستي)، لكنني استيقظتُ وفي ذهني إجابة بدت لي جيدة. لن يكون المستودع مُقفلاً من الخارج فحسب، بل سيكون هناك شخص آخر يقول إنّني أخذت رادار إلى شيكاغو لتحصل على علاج معجزة.

آندي تشين هو الحل.

انتظرتُ حتّى الساعة السابعة لأتصل به، معتقداً أنّه بحلول ذلك الوقت سيكون مستيقظاً ويستعدّ للمدرسة، ولكن بعد أربع رنّات كنت شبه متأكد من توجيه مكالمتي إلى البريد الصوتي. كنت أفكّر في الرسالة التي سأتركها، وأتنفس بصبر نافد، عندما سمعت صوته: «ماذا تريد يا ريد؟ خرجت للتو من الحمام اللعين، والماء يقطر منّي على الأرض».

قلت بصوت مرتفع: «أوه، هل الخطر الأصفر عارٍ الآن؟».

أجابني: «مضحك جدّاً، أيّها العنصري اللعين. ماذا تريد؟».

قلت: «شيء مهمّ».

سألني بصوتٍ جاد: «ما الأمر؟».

أجبته: «انظر، أنا في هايبول خارج المدينة. تعرف هايبول، أليس كذلك؟».

بالطبع يعرفها، فهي محطة توقف للشاحنات تضمّ أفضل تشكيلة من ألعاب الفيديو في سينتري. كنا نحشر أنفسنا في سيارة مرخصة - أو نركب الحافلة، إذا لم يكن هناك رخصة في متناول اليد – ونلعب هناك حتّى تنفد أموالنا، أو إلى أن نُطرد.

سألني: «ماذا تفعل هناك؟ إنّه يوم دراسي».

أجبته: «معي الكلبة التي كانت تخيفك بشدة عندما كنا أطفالاً. إنّها ليست على ما يرام، وهناك شخص ما في شيكاغو من المفترض أن يكون قادراً على مساعدة الكلاب المسنة. شيء أشبه بتجديد شبابها».

قال آندي بشكل قاطع: «من المؤكد أن الشخص محتال، لا تكن غبيّاً يا تشارلز. عندما تتقدم الكلاب في السن، لا نستطيع فعل شيء لنعيد شبابها...».

قلت له: «هلّا صمتت قليلاً، وسمعتني؟ سيمنحني هذا الرجل أنا وريدز رحلة في شاحنته مقابل ثلاثين دولاراً...».

قال: «ثلاثون..».

قلت: «يجب أن أذهب الآن، وإلا سيغادر من دوننا. أريدك أن تقفل المنزل».

قال: «لقد نسيت أن تقفل...».

قلت: «لا، لا، نسيت أن أقفل منزل السيد بوديتش».

سألني: «كيف ذهبت إلى هايبول؟».

أجبته: «سأفوّت رحلتي إن لم تصمت، أقفل المنزل، حسناً؟ اترك المفاتيح على طاولة المطبخ. أقفل المستودع أيضاً، القفل معلق على الباب».

قال: «سأضطر إلى ركوب دراجتي إلى المدرسة بدلاً من ركوب الحافلة. كم ستدفع لي؟».

أجبته: «آندي، أرجوك».

قال: «أنا أمزح يا ريد، لن أطلب منك حتّى أن تلعق.... ولكن إذا سألني أحد عنك...».

قلت: «لن يسألك أحد، وإن حصل ذلك أخبره الحقيقة، بأنني ذهبت إلى شيكاغو. لا أريدك أن تتورط في المشاكل. أقفل المنزل من أجلي، ولا تنسَ إقفال المستودع. سآخذ المفاتيح منك عندما نعود».

قال: «نعم، يمكنني فعل ذلك. هل ستبقى لليلة أو...».

قلت: «ربما، وربّما لليلتين، سأنهي المكالمة الآن، شكراً آندي، أنا مدين لك».

أنهيتُ المكالمة، وحملت حقيبة ظهري على كتفي، وأمسكت باللجام، ووضعت حلقة مفاتيح السيد بوديتش على الطاولة، وربطت رادار. توقّفتُ

عند أسفل الدرج، نظرت إلى المستودع خلف العشب. هل أنوي حقاً أن أجعلها تنزل كل تلك الدرجات اللولبية الضيقة (ذات الارتفاعات المختلفة) وهي مقيّدة، إنّها فكرة سيئة لكلينا.

لم يفت الأوان لإلغائها، يمكنني الاتصال بآندي وإخباره بأنني غيّرت رأيي في اللحظة الأخيرة، أو أنّ سائق الشاحنة قد غادر من دوني. كنت أستطيع إعادة رادار إلى المنزل، وتمزيق الرسالة التي وضعتها على طاولة المطبخ، وحذف رسالة البريد الإلكتروني التي كانت تنتظر في صندوق البريد لتُرسل إلى السيدة سيلفيوس. كان آندي محقّاً: عندما تكبر الكلاب، لا نستطيع فعل شيء حيال ذلك، نهاية القصة. هذا لا يعني أنني لا أستطيع استكشاف المكان الآخر؛ عليّ فقط أن أنتظر، حتّى تموت.

فككتُ لجامها، وبدأت أتوجه نحو المستودع. في منتصف الطريق، نظرت إلى الخلف. رأيتها لا تزال جالسة حيث تركتها. فكرتُ في مناداتها، لكنّني لم أفعل. تابعت سيري. نظرت إلى الخلف مرّة أخرى عند باب المستودع، وجدتها لا تزال جالسة أسفل الدرجات الخلفية. شعرت بخيبة أمل فظيعة، لأنّ كل استعداداتي - خاصّةً فكرتي بشأن القفل - قد ذهبت سدىً، لكن كان من المستحيل أن أتركها جالسة هناك.

كنت على وشك أن أعود، عندما وقفت رادار وتحركت بتردد عبر الباحة الخلفية إلى حيث أقف عند المدخل المفتوح. وبدأت تشمّ. لم أشعل لها مصباحي البطارية فهي لم تكن بحاجة إليهما بوجود أنفها. نظرَت إلى كومة المجلات التي كنت قد وضعتها فوق ما تبقى من الصرصار الكبير، واستطعت أن أرى أنفها يهتز بسرعة. ثمّ نظرَت إلى الألواح التي تغطي البئر، وحدث شيء مذهل. هرولت إلى البئر، وبدأت تخدش الألواح، وتنبح بشيء من الإثارة.

قلت لنفسي، إنّها تتذكر. ولا بدّ أنّها ذكريات جيدة، لأنّها أرادت العودة مرّة أخرى.

علّقتُ القفل على المزلاج، وأغلقتُ الباب جزئيّاً، ما يتيح دخول بعض الضوء حتّى أتمكن من رؤية طريقي إلى البئر، وقلتُ لها: «عليكِ أن تكوني هادئة الآن يا رادار».

توقفَت رادار عن النحيب، لكنّها لم تتوقف عن خدش الألواح. جعلني حنينها إلى المستودع، أشعر بتحسن حيال ما ينتظرني في نهاية الدهليز. ولماذا أشعر بالضيق حيال ذلك حقّاً؟ كانت نباتات الخشخاش جميلة ورائحتها جميلة، ولم تلحق بي امرأة الأحذية أي ضرر؛ لقد رحّبت بي، وطمأنتني عندما انهرت، وأردت أن أراها مرّة أخرى.

كما أنّها أرادَت رؤية رادار مرّة أخرى أيضاً... وأظنّ أنّ رادار تريد رؤيتها.

قلت لها: «انزلي».

نظرَت رادار إليّ، لكنّها بقيت واقفة. حدّقت إلى الظلام بين الألواح، عادَت إليّ، ثمّ ذهبَت إلى الألواح. تجدُ الكلاب طرقاً لإيصال أفكارها، وبدا هذا واضحاً تماماً بالنسبة إليّ، فهي تقول لي: أسرع يا تشارلي.

قلتُ لها: «رادار، انزلي».

استلقَت رادار كاشفة عن بطنها على مضض، لكنّها نهضت في اللحظة التي حرّكتُ فيها الألواح من الوضع المتوازي إلى شكل V، نزلت الدرجات كجرو صغير. رأيت بقعاً بيضاء على مؤخرة رأسها وقاعدة عمودها الفقري، بالقرب من ذيلها، ثمّ غابت عن ناظري.

وأنا الذي كنت قلقاً بشأن نزولها الدرج!! كان ذلك مضحكاً، أليس كذلك؟ كما كان السيّد نيفيل، مدّرس اللغة الإنجليزية الخاص بي، مولعاً

بقول: السخرية، جيدة لصحّتك.

2

كنتُ على وشك مناداتها كي تعود، لكنّني أدركت أنّها كانت فكرة مروّعة. ربّما لن تولي أيّ اهتمام لكلامي، ولكن إذا أصغَت لي، وحاوَلت الالتفاف على تلك الدرجات الصغيرة، فمن شبه المؤكد أنّها ستسقط، وتموت. كلّ ما استطعتُ فعله هو أن أتمنى ألا تسقط في الظلام وتموت، وألا تبدأ بالنباح. لأنّ هذا حتماً سيولّد هجوم الصراصير الضخمة، وسيتسبب في طيران الخفافيش الكبيرة.

أياً يكن الأمر، لم يكن هناك شيء أستطيع القيام به حيال ذهابها. كلّ ما يمكنني فعله هو الالتزام بالخطة. نزلتُ الدرجات ولم يبقَ مني خارجها سوى رأسي وصدري، وأحاطت بي الألواح من كلّ الجهات. بدأتُ بوضع أكوام المجلات عليها، وألصقتُ نفسي بالجدار. كنت أتخيّل طوال الوقت، سماع صراخ رادار من شدّة الألم، أو -في حال لم تمت من السقوط- أن أسمعَ صرخاتها وهي ملقاة على التراب، وعلى وشك الموت بسبب أفكاري السيئة.

تصببت عرقاً وأنا أسحب الألواح من حولي. رفعتُ ذراعي إلى الأعلى، وأمسكت بمجموعة مجلات أخرى، وضعتها على رأسي ووازنتها مثل امرأة قبلية تحمل الغسيل إلى أقرب نهر، ثمّ نزلت ببطء. استقرت الحزمة الأخيرة على الفتحة التي تسببت بها. انحرفت قليلاً، لكنّها ستفي بالغرض. في حال ألقى آندي نظرة خاطفة قبل أن يقفل المستودع، فسيكون كلّ شيء طبيعيّاً. وهنا راودني السؤال عن كيفية خروجي من المستودع مرّة أخرى، لكنّي سأقلق بشأن هذا في يوم آخر.

نزلت الدرجات، وقد أسندت كتفي إلى الجدار، موجّهاً ضوء المصباح على قدميّ، وقد أبطأت الحقيبة من حركتي. عددتُ الدرجات مرّة أخرى،

وعندما وصلتُ إلى المئة، سلّطت الضوء على ما تبقى من العمود. انعكس الضوء على عيني رادار اللامعتين فشعرت بشيء من القلق. كانت على الأرض بخير، وكانت تنتظرني بدلاً من الجري في الممر. شعرت بارتياح هائل عند رؤيتها. وصلت إلى القاع بأسرع ما يمكن، ولم أكن سريعاً حقّاً، لأنني لم أرغب في أن أرقد هناك بساق مكسورة، أو اثنتين. جثوت على ركبتي وعانقت رادار، كانت مستعدة تماماً للعناق في ظل الظروف العادية، لكنّ في ذلك الوقت ابتعدت عنّي على الفور، واستدارت نحو الدهليز.

قلت لها: «حسناً، لكن لا توقظي الأحياء هنا».

سارت أمامي، لم تركض بل مشت بسرعة، من دون أن تعرج، على الأقل حتّى الآن. تساءلت مرّة أخرى عن نوعية الحبوب المعجزة، وكم كانت تأخذ منها مقابل ما تقدّمه لها. كما كان يقول والدي: لا يوجد شيء بلا مقابل.

خاطرت بإزعاج الخفافيش، عندما اقتربنا من المكان الذي اعتقدت أنّه الحدّ، ورفعت المصباح من الأرض حتّى أتمكن من مشاهدة ردّ فعلها على ضوئه. لم أرَ شيئاً على الإطلاق، وتساءلتُ إن كان هذا التأثير قد تلاشى بعد تعرّضي له للمرة الأولى عندما اجتاحني الشعور بالدوار، حدث كلّ شيء بسرعة، وبعد ذلك بوقت قصير رأيتُ شرارة الضوء، حيث انفتح الدهليز على منحدر التل.

أمسكت برادار. ومشيت عبر الجذوع المتدلية ونظرت إلى الخشخاش.

رأيت السجادة الحمراء.

أصبحنا في العالم الآخر.

وقفت رادار ثابتة تماماً للحظة، مدت رأسها إلى الأمام، وكانت أذناها مقلوبتين، وحرّكت أنفها. ثمّ بدأت الهرولة في الممر، فهي ما كانت تستطيع التحرك بأسرع من ذلك، أو هذا ما ظننته. خرجت دورا من كوخها الصغير وفي يدها فردتي حذاء، عندما كنتُ في منتصف الطريق أسفل التلّ. سبقتني رادار بعشر أقدام تقريباً. رأتنا دورا قادمين – ولاحظت من كان يقترب منها على أربع قوائم بدلاً من قدمين، فأسقطت فردتي الحذاء. جثت دورا على ركبتيها، وبسطت ذراعيها، فانطلقت رادار نحوها، وهي تنبح بفرح. في النهاية، حاولَت التخفيف من سرعتها قليلاً، لكن ليس بما يكفي لمنع اصطدامها بدورا، التي سقطت على ظهرها فارتفعت تنورتها كاشفةً عن جوربها الأخضر الزاهي. بدأت رادار بلعق وجهها وهي تنبح، وتهزّ ذيلها بحماسة شديدة.

وركضت أنا بدوري، واهتزّت حقيبة ظهري. انحنيت تحت صف من الأحذية المتدلية، وأمسكت بلجام رادار، وقلت لها: «كفى يا رادار، ابتعدي عنها».

لكن لم يحدث ذلك على الفور، لأنّ دورا كانت تحتضن رادار وتطوق رقبتها بذراعيها، واضعةً رأسها على صدرها... كانت تنتعل الحذاء الأحمر نفسه (مع الجورب الأخضر وكأنّها تتحضّر للكرسمس). حرّكت قدميها إلى الأعلى والأسفل، وهي ترقص بسعادة، ثمّ جلَست. وعندها رأيت وجنتيها الرماديتين تتلونان بلون شاحب، وسائلاً صمغياً ينسكب من عينيها الضيقتين.

ثمّ صرَخت: «راي»، وعانقَت رادار مجدداً. عادت رادار للعق رقبة دورا، وهي تُحرك ذيلها بحماسة. قالت دورا: «راي، راي، راي!».

قلت: «أعتقد أن كلا منكما تعرف الأخرى».

لم أضطر لاستخدام إمدادات الطعام التي جلبتها معي؛ فقد أَطعمنا جيداً. لم يسبق لي أن تناولت حساء ألذ من الذي تناولته؛ كان مليئاً باللحم والبطاطا وكان المرق مالحاً. خطر ببالي - ربّما لتأثري ببعض أفلام الرعب - أنّنا ربما نأكل لحماً بشريّاً، لكنني بعد ذلك طردت الفكرة من ذهني، واعتبرتها سخيفة. إنّها امرأة جيدة. لست بحاجة لرؤية تعبير مرح أو عينين لطيفتين لأعرف ذلك؛ كانت الطيبة تشعّ منها. وإذا لم أكن أثق بإحساسي، فماذا بشأن الطريقة التي استقبلت بها رادار، أضف إلى ذلك أنها عانقتني عندما ساعدتها على الوقوف على قدميها، ولكن ليس كعناق رادار.

قبّلتُ وجنتها التي بدت لي طبيعية تماماً، فربتت دورا ظهري وجذبتني إلى الداخل. كان الكوخ عبارة عن غرفة واحدة كبيرة ودافئة. لم يكن هناك نارٌ في المدفأة، لكن كان هناك وعاء حساء يغلي فوق لوح معدني - ما أعتقد أنّه يسمّى موقد- (مع أنني قد أكون مخطئاً في ذلك). كان هناك طاولة خشبية في وسط الغرفة تتوسطها مزهرية فيها أزهار الخشخاش. وضعت دورا وعاءين أبيضين يبدوان وكأنهما مصنوعان يدويّاً، وملعقتين من الخشب. ثمّ أشارت لي أن أجلس.

اقتربت رادار أكثر ما يمكنها من الموقد. جلبت دورا وعاء آخر من إحدى الخزائن، وملأته بالماء. ووضعته أمام رادار، التي كانت تتمايل بصبر نافد، ولكنها لم ترفع قائمتيها الخلفيتين عن الأرض، وهذا ليس جيداً، فقد كنت حريصاً على تدريبها. لكنّها عندما رأت منزل صديقتها القديمة، لم يعد هناك شيء يردعها. لو كانت مُلجمة (اللجام في حقيبتي)، كانت ستجذب لجامها من يدي.

وضعت دورا إبريق الشاي، وقدّمت الحساء، ثمّ عادت إلى الموقد، وجلبت الأكواب من إحدى الخزائن - والتي كانت مُحفّرة إلى حدّ ما مثل الأوعية – ووضعت بضع ملاعق من الشاي المُخزّن في الإبريق. تمنّيت أن يكون شاياً عاديّاً، وليس شيئاً من شأنه أن يخدّرني. ظللت أفكّر أن هذا

العالم كان بطريقة ما تحت عالمي. يصعب عليّ التخلص من هذه الفكرة لأنّني نزلتُ للوصول إلى هنا. مع ذلك كانت هناك سماء في الأعلى. شعرت وكأنّني تشارلي في بلاد العجائب، وأنني إذا نظرت من النافذة الأمامية المستديرة للمنزل سأشاهد صانع القبعات المجنون هناك (ربّما مع قطة شيشاير المبتسمة على كتفه)، ولن أتفاجأ، أو بالأحرى، لن أتفاجأ أكثر.

لم تؤثّر غرابة الموقف على مدى جوعي. كنت متوتراً جدّاً عند تناول الفطور، ومع ذلك، انتظرت حتّى أحضرَت الأكواب وجلسَت. كان ذلك تصرّفاً مهذباً عادياً بالطبع، لكنني اعتقدت أيضاً أنّها قد ترغب في تلاوة صلاة ما؛ نسخة خاصّة بها من مباركة الطعام الذي نحن على وشك تناوله. لم تفعل ذلك، أمسكَت ملعقتها فقط، ثمّ أشارَت إليّ لأبدأ بتناول الطعام. كما سبق لي أن قلت، كان لذيذاً. أخرجتُ قطعة من اللحم، وأريتها إياها رافعاً حاجبي.

ابتسمَت على طريقتها. وضعَت اصبعيها فوق رأسها، وقفزت قليلاً في مكانها.

خمّنت قائلاً: «أرنب؟».

أومأت برأسها، وأصدرَت صوت صرير وغرغرة. فهمتُ أنّها كانت تضحك، أو تحاول ذلك، وقد أحزنني ذلك، تماماً كشعوري عندما أرى شخصاً أعمى، أو شخصاً على كرسيّ متحرك لن يمشي مرّة أخرى. معظم هؤلاء الناس لا يريدون شفقتنا، فهم يتعاملون مع إعاقاتهم، ويساعدون الآخرين، ويعيشون حياة جيدة. إنهّم شجعان. أفهمّ كل ذلك، ولكنني لا زلت أرى - ربّما لأنّ كلّ شيء في عالمي الشخصي يسير بشكل مثالي - أنّ هناك شيئاً غير منصف في الاضطرار إلى التعامل مع مثل هذه الأشياء. تذكّرت جورجينا ووماك، الفتاة التي كانت معي في المدرسة الابتدائية. كان لديها وحمة ضخمة على شكل فراولة على وجنتها. كانت جورجينا كائناً صغيراً مُبهجاً، حادّة الذكاء، وكان معظم الأطفال يعاملونها معاملة حسنة. اعتاد بيرتي بيرد

أن يبادلَ طعام صندوق الغداء معها. اعتقدتُ أنّها ستشق طريقها في الحياة، لكنّني شعرتُ بالأسف تجاهها لأنها ستضطر إلى النظر إلى تلك العلامة على وجهها في المرآة كلّ يوم. لم يكن ذنبها، ولم يكن ذنب دورا أنّ ضحكتها، التي كان ينبغي أن تكون جميلة وحرّة، بدت وكأنّها زمجرة سيئة.

قفزَتْ قفزة أخيرة للتأكيد، ثمّ أومأت بإصبعها، وكأنّها تقول: كُل، كُل.

أخيراً، نهضت رادار بصعوبة، مستخدمة قائمتيها الخلفيتين واتجهت نحو دورا. صفعت المرأة جبهتها الرمادية بيدها الرمادية. ثمّ وجدت وعاءً آخر، ووضعت فيه بعض اللحم والحساء لرادار. نظرَت إليّ، ورفعت حاجبيها الرفيعين.

أومأتُ، وابتسمتُ قائلاً: «الجميع يأكلون في بيت الأحذية». ابتسمت دورا على طريقتها، ووضعت الوعاء أمام رادار، التي شرعت تهز ذيلها.

تفحّصت القسم الآخر من الغرفة وأنا أتناول الطعام. هناك سرير مرتّب بشكل أنيق، بحجم مناسب للمرأة الصغيرة، لكنّ معظم ما تبقّى من هذا القسم هو عبارة عن ورشة عمل، أو ربّما وحدة إصلاح للأحذية المتهالكة. معظم تلك الأحذية مهترئة أو مفكوكة النعال كالفك المكسور. كان هناك زوج من الأحذية الجلدية بنعل متشقق، وكأنه وُرِّث لشخص قدماه أكبر من قدمي المالك الأصلي. خُيطت شقوق الحذاء الحريري ذي اللون الأرجواني الملكي بخيط أزرق داكن، ربّما كان ذلك أقرب لون تملكه دورا. كانت بعض الأحذية متسخة وكان بعضها - على طاولة العمل - مجّهز للتنظيف والتلميع، وكانت العدّة موضوعة في أوانٍ معدنية صغيرة. تساءلتُ من أين أتت كلّ هذه الأحذية، لكن أكثر ما أثار فضولي هو الشيء الذي تصدّر ورشة العمل في وسط الكوخ.

في هذه الأثناء، كنت قد أنهيتُ وعائي، وكذلك رادار. أخذت دورا الوعاءين، ورفعت حاجبيها متسائلة.

فأجبتها: «نعم، من فضلك. ولكن لا تكثري من الحساء لرادار، وإلا لن تنام طوال الليل».

وضعت دورا يديها المشبوكتين بالقرب من رأسها، وأغمضت عينيها، ثمّ أشارت إلى رادار، وقالت: «نيس».

سألتها: «الرُكب؟».

هزّت دورا رأسها، وقامت بتمثيل الإيماءة نفسها مرّة أخرى، وقالت: «نيس!»

سألتها: «هل هي بحاجة إلى النوم؟».

أومأت برأسها، وأشارت إلى المكان الذي كانت فيه رادار قبل ذلك الحين، بالقرب من الموقد.

سألتها: «هل سبق لها أن نامت هنا؟ عندما أحضرها السيد بوديتش؟».

أومأت دورا مرّة أخرى، وجثت على إحدى ركبتيها لتداعب رأس رادار. نظرت إليها رادار نظرة مليئة بالعشق، وقد أكون مخطئاً في ذلك.

أنهيت طبق الحساء الثاني وكذلك فعلت رادار. قلت: شكراً، وكذلك قالت رادار بعينيها. في الوقت الذي أخذت فيه دورا الأطباق، نهضت لألقي نظرة على الشيء الذي لفت انتباهي؛ كان ماكينة خياطة من الطراز القديم، من النوع الذي يعمل بدفع الدواسة، وقد حُفرت على سطحها الأسود كلمة (سنغر) بلون ذهبي باهت.

سألتها: «هل جلبها لكِ السيد بوديتش؟».

ربّتت صدرها، وأمأت برأسها وأخفضته. رأيت الدموع في عينيها عندما رفعت رأسها.

قلت لها: «لقد كان جيداً معكِ».

أومأت برأسها موافقةً.

قلت: «وأنت كنتِ جيّدة معه، ومع رادار».

بذَلت جهداً، واستطاعت قول كلمة واحدة مفهومة: «نعم».

قلت لها: «لديك الكثير من الأحذية هنا، من أين حصلتِ عليها؟ وماذا تفعلين بها؟».

لم يبدُ أنّها تعرف كيف تجيب عن أسئلتي، ولم تسعفها الإيماءات. أشرقت ملامحها، وكأن فكرة قد خطرت لها، وذهبت إلى ورشة العمل. كان هناك خزانة لا بدّ أنها تحتوي على ملابسها، إضافة إلى عدد كبير من الخزائن الصغيرة. افترضتُ أنّها تخزن فيها معدات إصلاح الأحذية. انحنَت صوب إحدى الخزائن الصغيرة، وأخرَجت منها لوحاً صغيراً، يشبه الألواح القديمة التي كان الأطفال يستخدمونها قديماً في المدارس المكونة من غرفة واحدة ومقاعد مزودة بمحبرة. فتّشَت أكثر، وأخرَجت قطعة من الطبشور. دفعَت ببعض الأحذية التي تعمل عليها على طاولة العمل جانباً، وكتبت ببطء، ثمّ رفعت اللوح إلى الأعلى لأتمكن من قراءة ما كتبته: عليك أن ترى غوغر.

قلت: «لم أفهم».

تنهّدَت، ومسحَت ما كتبته، وأخذَتني إلى المقعد. نظرتُ من فوق كتفها، وهي ترسم صندوقاً صغيراً وخطين متوازيين أمامه. أشارَت إلى الصندوق، ولوّحت بذراعها قاصدةً الكوخ، ثمّ أشارت إلى الصندوق مرّة أخرى.

قلت: «هل تقصدين هذا البيت؟».

أومأت برأسها، مشيرةً إلى الخطوط المتوازية، ثمّ أشارَت إلى النافذة المستديرة الوحيدة إلى يسار الباب الأمامي.

قلت لها: «الطريق».

قالت: «نعم». رفعت إصبعها أمامي، وكأنّها تقول: انتبه أيّها الشاب، ومدّدت الخطوط المتوازية قليلاً. ثمّ رسمت صندوقاً آخر، وكتبَت فوقه مرّة أخرى (عليك أن ترى غوغر).

قلت: «غوغر».

قالت: «نعم». ربّتَت فمها، ثمّ جمعَت أصابعها معاً بسرعة أمام فمها. فهمتُ إيماءتها على الفور، وقلت: «التكلم!».

قالت: «نعم».

أشارَت إلى كلمة غوغر. ثمّ أمسكَتني من كتفي. كانت يداها قويتين من عملها بالأحذية، وأطراف أصابعها الرمادية متصلّبة. ثمّ قادتني إلى الباب الأمامي. عندما وصلت إلى هناك، أشارت إليّ، وأومأت بإصبعيها بإشارة تدلّ على المشي، ثمّ أشارت إلى اليمين.

سألتها: «هل تريدينني أن أذهب وأرى غوغر؟».

أومأَت برأسها موافقةً.

قلت لها: «رادار تحتاج إلى الراحة، فهي ليست على ما يرام».

أشارت دورا إلى رادار، وأعادت تمثيل إيماءة النوم.

فكرتُ في أن أسألها إلى أيّ مدى كان يُفترض بي أن أسير، لكنني شككتُ في قدرتها على الإجابة عن هذا النوع من الأسئلة. يجب أن أصيغ سؤالي بأسلوب جواب نعم أو لا.

سألتها: «هل هو بعيد؟».

هزّت رأسها.

سألتها: «هل تستطيع غوغر التحدث؟».

بدا أنّ كلامي يروق لها، أومأت برأسها.

سألتها: «غوغر؟ هل تقصدين فتاة جيدة؟».

ابتسمَت على طريقتها، استهجنت، وهزّت رأسها.

قلت لها: «اعذريني، لكنني لم أفهم تماماً. هل سأعود قبل أن يحلّ الظلام؟».

أومأت برأسها بقوّة.

سألتها: «وأنت ستعتنين برادار؟».

أجابت: «نعم».

فكّرت في الأمر، وقرّرت الذهاب فعلاً. إذا كان بإمكان غوغر التحدث، فعندها سأتمكن من الحصول على بعض الإجابات، عن دورا وعن المدينة. قد تعرف غوغر أيضاً شيئاً عن الساعة الشمسية التي كان من المفترض أن تُجدد شباب رادار. قرّرتُ أن أمشي لمدّة ساعة تقريباً، وإذا لم أجد منزل غوغر، فسأستدير وأعود أدراجي.

فتحتُ الباب (له مزلاج حديدي قديم الطراز بدلاً من المقبض). أمسكَت دورا بمرفقي ورفعت إصبعها: انتظر. أسرعَت إلى ورشة إصلاح الأحذية، فتحَت درجاً في طاولة العمل، وأخرجَت شيئاً منه، وعادَت إليّ بسرعة. كانت تحملُ ثلاث قطع صغيرة من الجلد، أصغر من كفّ اليد. بدت وكأنها نعال أحذية مصبوغة باللون الأخضر. أشارت إليّ كي أضعها في جيبي.

سألتها: «ما الغرض منها؟».

عبست، ثمّ ابتسمت، وقلبت يديها إلى أعلى. يبدو أن هذا كان معقداً للغاية. لمست أحزمة حقيبتي، ونظرت إليّ متسائلة، وضعت حقيبتي بجانب الباب، جلستُ القرفصاء، فتحتها، أخذت منها محفظتي ووضعتها في جيبي الخلفي - وكأنّ شخصاً ما كان سيطالبني بإظهار هويّتي؛ هذا تفكير سخيف حقّاً. نظرتُ إلى رادار، وتساءلتُ ردّ فعلها عندما سأتركها مع دورا. رفعَت رأسها عندما وقفتُ وفتحتُ الباب، ثمّ أنزلتهُ مرّة أخرى، بدت راضية تماماً عن بقائها في مكانها والنوم. لمّ لا؟ فهي مع صديقتها، وبطنها مليء بالطعام.

مشيتُ قليلاً إلى الطريق الترابي الواسع - الطريق العام - المحاط بالخشخاش. كانت هناك أزهار من نوعٍ آخرٍ أيضاً، لكنّها بدت ميتة أو على وشك الموت. نظرت إلى الخلف، فرأيت حذاءً خشبيّاً كبيراً لامعاً فوق الباب، يشبه الحذاء الذي تنتعله دورا. ظننتُ أنه ربّما يمثّل لافتة، ووجدتها تقف تحته، تبتسمُ وتشير إلى اليمين، وكأنها تذكّرني بالطريق الذي يجب عليّ أن أسلكه في حال نسيت. كان تصرّفها يشبه تصرّف الأمّهات لدرجة أنّني اضطررت إلى الابتسام، وقلت لها: «اسمي تشارلي ريد يا سيدتي. وإذا لم أقل ذلك من قبل، فأنا أشكرك على تقديم الطعام لنا. سُعدتُ جدّاً بالتعرّف إليك».

أومأت برأسها، وأشارت إليّ، ثمّ ربّتت صدرها.

سألتها: «هل لي أن أسألك شيئاً آخر؟».

أومأت برأسها.

قلت لها: «هل أتحدّث لغتك؟».

ضحكَت، وهزّت كتفيها. إمّا أنّها لم تفهم، أو لم تعرف، أو تعتقد أنّ الأمر غير مهم.

قلت: «حسناً، على ما أعتقد».

قالت: «حسناً». ثمّ دخلت، وأغلقت الباب.

رأيتُ لافتة في أول الممر، تشبه قائمة المطاعم التي تُوضع على الرصيف. كان الجانب الأيمن الذي من المفترض أن أذهب إليه، فارغاً. كُتب على الجانب المقابل لليسار، أربعة أسطر بلغة إنجليزية مفهومة تماماً:

أعطني حذاءك المتهالك.

ستجد حذاءً جديداً بديلاً على طريقك.

إذا وثقت بي،

ستكون محظوظاً في رحلتك.

أنهيتُ قراءة الأسطر، لكنني بقيت أتمعّن فيها لفترة طويلة. أعطتني اللافتة فكرة عن مصدر الأحذية التي كانت دورا تُصلحها، لكن لم يكن هذا هو السبب الوحيد الذي جعلني أمعن النظر. سبق لي أن رأيت هذه الأسطر، في قوائم التسوّق، وعلى كثير من مغلفات صندوق البريد في شارع سايكامور 1. كتب السيد بوديتش تلك اللافتة، والله وحده يعلم منذ متى.

5

كان المشي سهلاً من دون حقيبتي، وهذا أمر جيّد. لكنّ التفاتي دوماً لتفقّد رادار وعدم رؤيتها بجواري لم يكن جيداً، لكنني كنت متأكداً من أنّها بأمان مع دورا. لم أتمكن من معرفة الوقت بشكل دقيق للغاية، لأنّ هاتفي كان خارج الخدمة، ولم تتح لي الغيوم الحكم على الوقت بشكل تقريبي اعتماداً على الشمس. رأيت الشمس، لكنّها كانت كنقطة عديمة النفع خلف

الغيوم. قرّرت أن أستخدم الطريقة القديمة لتحديد الوقت اعتماداً على المسافة: كنت سأذهب لثلاث أو أربع جولات، وإذا لم أرَ علامة على وجود غوغر، فسأستدير وأعود.

بينما كنت أسير، فكّرتُ في اللافتة التي كُتبت عليها الأسطر الأربعة. عادةً ما يُكتب على لافتة قائمة المطعم من الجانبين، كي يتمكن الناس من رؤيتها أثناء قدومهم أو ذهابهم. لكن تلك الأسطر كانت مكتوبة على جانب واحد فقط، وهذا ما يوحي لي أنّ حركة المرور على هذا الطريق هي في اتجاه واحد فقط: نحو المنزل الذي كان من المفترض أن أجده. لم أستطع فهم سبب ذلك، لكن ربّما تستطيع غوغر إخباري، إذا كان هذا المخلوق موجوداً من الأساس.

كنت قد وصلت إلى نهاية الجولة الثالثة، عندما رأيت جسراً خشبيّاً محدّباً (يوجد تحته جدول جاف)، وبدأت أسمع أصوات أبواق. لم تكن أصوات سيارات بل طيور. عندما وصلت إلى أعلى نقطة في الجسر رأيت منزلاً إلى يميني، وغابة تمتد على مدّ النظر، على الجهة اليسرى من الطريق. كان المنزل أكبر بكثير من كوخ الأحذية، تقريباً مثل منزل مزرعة، وكان هناك مبنيان ملحقان، أحدهما كبير والآخر صغير. لا بدّ أن أكبرهما حظيرة. كانت مزرعة، يوجد خلفها حديقة كبيرة مزروعة بصفوف مرتّبة من مختلف المزروعات. لم أعرف ما هي تلك المزروعات، فأنا لست بستانياً، لكنني أعرف الذرة عندما أراها. كان المبنيان قديمين ورماديين كلون بشرة امرأة الأحذية، لكنّها بدت متينة بما فيه الكفاية.

كانت الأصوات قادمة من الإوزات، على الأقل اثنتي عشرة إوزة، أحاطت بامرأة ترتدي ثوباً أزرق ومئزراً أبيض. رفعت المئزر بإحدى يديها، ونثرَت حفنة من الطعام بيدها الأخرى. تبعتها الإوزات، التي كانت ترفرف وتأكل بنهم، وكان هناك حصان أبيض نحيف ومسنّ، يأكل بجوارها. خطرَت على بالي عبارة (التهاب مفاصل الأحصنة)، ولكن بما أنّني لم أعرف بالضبط

ما تعنيه، فلم يكن لديّ فكرة إذا كانت وصفاً صحيحاً. كانت هناك فراشة على رأسها، فراشة بحجم طبيعي، وهذا أراحني نوعاً ما. طارَت عندما اقتربت منها.

لابدّ أنّ الفتاة رأتني بطرف عينها، لأنّها نظرت إلى الأعلى وبقيت ساكنة، واضعةً إحدى يديها في جيب مئزرها، في الوقت الذي تدافعت فيه الإوزات، وقفزت حول قدميها، لتحصل على مزيد من الطعام.

بقيتُ ساكناً، لأنّني فهمت عندها ما كانت دورا تحاول قوله: فتاة الإوز. لكن لم يكن هذا وحده ما تسبّب بسكوني، كان شعرها أشقر داكناً جميلاً تتخلّله خصلات بلون أفتح، وكانت عيناها واسعتين زرقاوين، وهو أبعد ما يكون عن عيني دورا الحولاء، وكانت وجنتاها ورديتي اللون. إنها شابة، ليست جميلة فحسب، بل فاتنة. لكن كان هناك شيء واحد فقط أفسدَ مظهرها. لم يكن هناك شيء بين أنفها وذقنها سوى خط أبيض معقود، مثل ندبة لجرح خطير تلتئم منذ فترة طويلة. وهناك تشوّه أحمر صغير الحجم في الطرف الأيمن من الندبة، يشبه الوردة الصغيرة التي لم تتفتح بعد.

لم تكن فتاة الإوز تمتلك فماً.

6

اتّجهت نحوها، فخطَت خطوة نحو أحد المباني الملحقة. ربّما كان ملجأً. خرج منه رجلان رماديّا البشرة أحدهما يحمل مذراة. توقفت، وتذكرت أنّني لست غريباً فقط بل مسلّح أيضاً. رفعت يديّ الفارغتين، وقلتُ: «حسناً، لم آتِ بقصد الأذى. أرسلتني دورا».

وقفَت فتاة الإوز ساكنة تماماً، وفكّرتْ للحظات، ثمّ أخرجَت يدها من مئزرها، ونثرت المزيد من الذرة والحبوب، وأشارَت بيدها الأخرى أولاً إلى عامليّ المزرعة كي يعودا إلى الداخل، ثمّ أشارت إليّ للمضي قدماً. مشيت، ولكن ببطء، وما زلت رافعاً يديّ. اقتربت منّي ثلاث إوزات ترفرف،

وعندما رأت أنّ يديّ فارغتين، هرعت إلى الفتاة. نظر الحصان حوله وعاد لتناول غدائه، وربّما عشائه، لأنّ الشمس كانت تتحرك الآن باتجاه الغابة على الجانب الآخر من الطريق.

استمرّت فتاة الإوز في إطعام الإوزات، وبدت غير مبالية بعد أن تفاجأت مؤقّتاً. وقفتُ عند طرف فناء منزلها، لم أعرف ماذا أقول. وعند ذلك خطر لي أنّ صديقة رادار الجديدة قد خدعتني. كنت قد سألتها عما إذا كان بإمكان غوغر التحدث، فأومأت دورا برأسها، لكنّها كانت تبتسم أيضاً. وكأنّها نكتة كبيرة، أرسلَت الطفل للحصول على إجابات من امرأة شابة ليس لديها فم.

قلت: «أنا غريب هنا»، وكان ذلك غبيّاً. أنا متأكدٌ من أنّها تعرفُ ذلك من تلقاء نفسها. كانت جميلة جدّاً. بطريقة ما، والندبة التي كان يجب أن تكون فماً والتشوّه الذي بجانبها زاداها جمالاً. أنا متأكدٌ من أنّ هذا يبدو غريباً، وربّما منحرفاً، لكنّه صحيح.

قلت: «أنا... آآخ». نقرت إحدى الإوزات كاحلي. بدا أنّ هذا يروق لفتاة الإوز. مدّت يدها إلى مئزرها، وأخرجَت ما بقي من طعام، وأعطتني إيّاه. فتحتُ يدي، ورششت كومة صغيرة ممّا بدا وكأنّه قمح ممزوج بالذرة. استخدمَت يدها الأخرى لتثبيت يديّ، وشعرت عندما لمستني بأصابعها أنني أُصبت بصدمة كهربائية خفيفة، لقد أُغرمت بها. أعتقد أنّ أيّ شابّ في مكاني كان سيغرم بها.

قلت: «أنا هنا لأنّ كلبتي كبيرة في السن، وأخبرني صديقي أنّه يوجد في هذه المدينة طريقة لجعلها تستعيد شبابها مرّة أخرى، فقرّرت المحاولة. لديّ قرابة ألف سؤال، لكنّني أرى أنك... لست، كما تعلمين... قادرة تماماً على...».

توقفت هناك، ولم أرغب في إحراجها أكثر، ورششت حفنة من العلف للإوز. شعرت باحمرار وجنتيّ وكأنهما تحترقان.

يبدو أنّ هذا راقَ لها أيضاً. أزالت مئزرها، ونفضته. تجمعت الإوزات حولها للحصول على ما تبقّى من العلف، ثمّ اتجهت نحو الحظيرة ترفرف وتثرثر. رفعت فتاة الإوز ذراعيها فوق رأسها، وشدّت قماش فستانها على ثدييها الرائعين. (نعم، لقد لاحظت ذلك – يمكنكم مقاضاتي)، وصفّقت مرتين.

رفع الحصان الأبيض العجوز رأسه واتجه نحوها. رأيت شريطة فوق رأسه وهذا ما أوحى لي بأنه فرس. وهذا ما تأكدت منه بعد برهة، لأنّه عندما تحدّثت الفرس، كان صوتها أنثويّاً. قالت الفرس: «سأجيب عن بعض أسئلتك، لأنّ دورا أرسلتك، ولأنّ سيّدتي تعرف الحزام الذي ترتديه».

لم تبدِ الفرس أيّ اهتمام بمسدسي 0.45 أو قرابه؛ بل كانت تنظر إلى الطريق والأشجار على الجانب الآخر. لكنّ فتاة الإوز كانت تنظر إلى حزامي. ثمّ نظرت إليّ مرّة أخرى بعينيها الزرقاوين اللامعتين.

سألتني: «هل أتيت من أدريان؟».

جاء الصوت من الفرس الأبيض، لكن بإمكاني رؤية حركة العضلات حول حلق الفتاة، وما كان في السابق فمها.

صرختُ: «هل تتكلمين من بطنك؟!».

ابتسمت بعينيها، وأمسكت يدي. وشعرت مجدداً بتلك الصدمة الكهربائية.

قالت: «تعالَ».

قادتني فتاة الإوز حول بيت المزرعة.

الفصل الرابع عشر:
ليا وفلادا- ساعِدها- لقاء على الطريق- ولفيس- قمران.

1

تحدثنا لساعة، وكنتُ المتحدث معظم الوقت، لكن هذه المحادثة كانت كفيلة بأن تؤكّد لي أنها ليست فتاة مزارِعة عادية. قد يبدو هذا فظّاً، كما لو أنني لا أعتقد أن الفتيات المزارعات يمكنهنّ أن يكنّ ذكيات، أو حتّى جميلات. لا أقصد أيّاً من هذه الأشياء. أنا متأكدٌ من أن هناك فتيات مزارعات في مكان ما في عالمنا الدائري العظيم، قادرات على ممارسة التكلم

البطني. لكن كان هناك شيء آخر يميّزها. تمتلك نوعاً معيّناً من الثقة، كما لو أنها تعودت على وجود أشخاص - وليس مجرد عمّال مزارع - يفعلون ما تريده. لم تُظهر أيّ خوف على الإطلاق بعد ترددها الأوّلي، الذي تسبب به ظهوري المفاجئ.

ربّما لا أحتاج أن أخبركم أن الأمر لم يستغرق سوى تلك الساعة حتّى أقع في حبّها أيضاً، لأنكم ربّما توقّعتم ذلك بالفعل. كما تسير أحداث مثل هذه القصص، أليس كذلك؟ لكن بالنسبة إليّ لم تكن قصة، لقد كانت حياتي. قصّة حظ تشارلي ريد: وقع في حب فتاة لم تكن أكبر سنّاً منه فحسب، بل لن يستطع تقبيل فمها أبداً. كنت سأكون سعيداً بتقبيل الندبة حيث كانت. وهناك شيء آخر كنت متأكد منه، أنه بوجود فمها أو عدم وجوده، لم تكن هذه الفتاة مخصّصة لأمثالي. كانت أكثر من مجرد فتاة تطعم الإوز، أكثر بكثير.

إلى جانب ذلك، ما مقدار الرومانسية التي سنحظى بها، عندما تتحدث الفتاة الجميلة مع روميو العاشق عن طريق الفرس؟

لكن هذا ما فعلناه.

2

كان هناك كشك بالقرب من الحديقة. جلسنا بداخله حول مائدة صغيرة مستديرة. خمّنت من منظر الذرة أنه فصل الصيف في هذا العالم بدلاً من أوائل تشرين الأول في عالمي. أكلت الفرس العشب في مكان قريب، وأحضرت فتاة رمادية ذات وجه مشوّه للغاية طبقاً ووضعته أمامنا. كان عليه منديلان قماشيّان، وكأس، وأبريقان، أحدهما كبير والآخر صغير. احتوى الأبريق الكبير على سائل يشبه عصير الليمون، والصغير على شيء أصفر قد يكون مهروس القرع. طلبت منّي فتاة الإوز أن أسكب من الإبريق الكبير وأشرب. فعلتُ ذلك مُحرجاً، لأن لديّ فم لأشرب منه.

قلت: «جيد»، وكان طعمه جيّداً – مزيج مثاليّ من الحلو والحامض.

ظلّت الفتاة الرمادية تقف بالقرب من كتف فتاة الإوز، وأشارَت إلى الشيء الأصفر في الإبريق الصغير.

أومأت فتاة الإوز برأسها، وحرّكت أنفها وكأنها تتنهّد، فانشدّت الندبة التي كان من المفترض أن تكون فماً، إلى الأسفل قليلاً. أخذت الفتاة الرمادية أنبوباً زجاجيّاً من جيب فستان رمادي كلون بشرتها. انحنَت، ودفعت الأنبوب إلى الإبريق الصغير، لكن فتاة الإوز أخذته ووضعته على الطاولة بدلاً من ذلك، ثمّ نظرَت إلى الفتاة، وأومَأت برأسها، وأطبقت إحدى يديها على الأخرى أمام وجهها كنوع من التحيّة. أومأت الفتاة الخادمة برأسها، وغادرت.

صفّقت فتاة الإوز للفرس عندما ذهبت الفتاة الرمادية. جاءت الفرس، ومدّت رأسها فوق الحاجز الفاصل بيننا، وهي تمضغ ما تبقّى في فمها.

قالت الفرس: «اسمي فلادا»، لكن فمها لم يتحرك بالطريقة التي تتحرك بها الدّمى التي تتحدث من بطنها؛ فقط واصَلت المضغ، لم يكن لديّ أيّ فكرة عن سبب استمرار الفتاة في تمثيلية الصوت هذه: «السيّدة اسمها ليا».

عرفت ذلك فيما بعد بفضل دورا، لكن ما سمعته حينها كان ليا، كما في فيلم (حرب النجوم). وجدتُ الأمر معقولاً بما فيه الكفاية بعد كلّ ما حدث. لقد التقيت بالفعل بنسخة من رامبيلستيلتسكين، وامرأة عجوز لا تعيش في حذاء ولكنّها تعيش تحت لافتة حذاء؛ وأنا كنت أمثّل شخصيّة جاك وشجرة الفاصولياء. أوليس فيلم حرب النجوم مجرّد حكاية خيالية أخرى، لكنّه ذو تأثيرات خاصّة ممتازة؟

قلت: «سررتُ بلقائكما». من بين كلّ الأشياء الغريبة التي حدثت لي في ذلك اليوم (والأشياء الغريبة التي كانت تنتظرني)، كان ذلك أغربها، أو

ربّما أكثرها سريالية. لم أعرف إلى من يفترض بي أن أنظر، وانتهى بي الأمر بالنظر إليهما بالتناوب وكأنني أشاهد مباراة كرة مضرب.

سألتني: «هل أرسلك أدريان؟».

أجبتها: «نعم، لكنني أعرفه باسم هوارد. كان أدريان.. سابقاً. متى قابلته آخر مرّة؟».

اقترب حاجبا ليا أحدهما من الآخر. حتّى عبوسها كان جميلاً (سأحاول الامتناع عن قول مثل هذه الملاحظات من الآن فصاعداً، لكن هذا سيكون صعباً).

قالت فلادا: «كنت أصغر سناً بكثير، وكذلك الأمر بالنسبة إلى أدريان. وكان لديه كلبة، أو بالأحرى جرو، تتحرك وترقص في كلّ مكان، وامتلَكَت اسماً غريباً».

«رادار».

«نعم».

أومأت ليا برأسها، واستمرت الفرس في المضغ، وبدَت غير مهتمّة بما نقوله.

سألتني: «هل توفّي أدريان؟ أقول ذلك لأنك أتيت إلى هنا مرتدياً حزامه وسلاحه».

أجبتها: «نعم».

«لقد قرّر استخدام الساعة الشمسية؟ إذا كان الأمر كذلك، فقد كان حكيماً».

«نعم. لقد قرّر ذلك». شربت قليلاً من عصير الليمون، ثمّ وضعت الكوب وانحنيت إلى الأمام، وتابعت كلامي: «أنا هنا من أجل رادار. إنها عجوز الآن، وأريد أن آخذها إلى الساعة الشمسية، وأرى إن كنت أستطيع...» وهنا خطر ببالي فيلم الخيال العلمي (لوغانس رن)، ثمّ تابعت: «أن أُعيد لها شبابها. لديّ بعض الأسئلة...».

قالت فلادا: «أخبرني قصّتك، قد أجيب عن أسئلتك بعد سماعك، إذا بدا لي هذا صائباً».

دعوني أتوقف هنا، وأقول إنني حصلت على بعض المعلومات من ليا بواسطة فلادا، لكنّها عرفت الكثير عنّي. كان لديها أسلوب معيّن، وكأنها تعوّدت أن تكون مُطاعة... لكن أسلوبها لم يكن وضيعاً أو مُتسلطاً. هناك أشخاص - ذوو تربية جيدة - يدركون أن عليهم الالتزام باللطف والتهذيب، ويكون هذا الالتزام مضاعفاً لديهم عندما لا يضطرون لأن يكونوا كذلك. سواءً أكان ذلك ممتعاً أم لا، لكنّهم عادةً ما يحصلون على مبتغاهم.

أردت العودة إلى منزل دورا قبل حلول الظلام (لم يكن لديّ فكرة عمّا قد يخرج من تلك الغابات بعد حلول الليل). شرحت لها كيف قابلت السيد بوديتش، وكيف اعتنيت به، وكيف أصبحنا صديقين. أخبرتُها عن الذهب، وأوضحتُ لها أن لديّ ما يكفيني في الوقت الحالي، لكنني قد أحتاج إلى مزيد مع مرور الوقت، من أجل حماية البئر التي تؤدي إلى هذا العالم السري من الأشخاص الموجودين في بلدي، والذين قد يسيئون استخدامه. لم أكلّف نفسي عناء إضافة أنه يتوجّب عليّ إيجاد طريقة لتحويل الذهب إلى نقود الآن بعد أن مات السيد هاينريك.

قلت: «لأنه في وقت لاحق، بعد سنوات من الآن، ستظل هناك ضرائب يتوجّب عليّ أن أدفعها، وستكون مرتفعة للغاية. هل تعرفين شيئاً عن هذه الضرائب؟».

قالت فلادا: «أوه، نعم».

قلت: «لكن ما يثير قلقي حقّاً في الوقت الحالي هو رادار. الساعة الشمسية في المدينة، أليس كذلك؟».

أجابتني: «نعم، عليك أن تكون هادئاً جداً في حال ذهبت إلى هناك، وأن تتتبّع علامات أدريان، وألّا تذهب إلى هناك في الليل. أنت واحد من شعبٍ كامل».

قلت: «شعب كامل؟».

مدّت يدها فوق الطاولة لتلمس جبهتي، وجنتي، أنفي، وفمي. لمستني أصابعها لمسات خفيفة عابرة، لكنّها تسبّبت بمزيد من الصدمات الكهربائية في جسمي.

قالت فلادا: «كامل. ليس رمادياً، ولا مشوّهاً».

سألتها: «ماذا حدث؟ هل كان غ».

ضربَت فمي بكفّها، لم تكن لمستها خفيفة هذه المرّة، ما تسبب باصطدام شفتي بأسناني. هزّت رأسها، وقالت: «لا تقل اسمه كي لا تُسرّع في استيقاظه».

قلت: «أنتِ متعبة، لا بدّ أن الكلام يتعبك».

أومأت برأسها موافقةً.

قلت لها: «سأذهب، ربّما يمكننا التحدث أكثر غداً».

نهضتُ، لكنّها أشارت لي أن أبقى. لقد أمرَت بذلك من دون شك، رفعَت إصبعها في إيماءة كانت لتفسّرها رادار على أنها تعني: اجلس.

وضعَت الأنبوب الزجاجي في الإبريق الصغير، ثمّ رفعَت سبابة يدها اليمنى مشيرة إلى التشوه الأحمر بالقرب من فمها - العيب الوحيد في وجهها الجميل. رأيت أن أظافرها كلّها مقصوصة باستثناء ظفر هذا الإصبع، غرست الظفر في التشوّه بجانب فمها، حتّى اختفى الظفر. انفتح اللحم كاشفاً عن تدفّق الدم إلى الفك. أدخَلَت الأنبوب في الحفرة الصغيرة التي صنعتها، وُجوّفت خديها، وبدأت تسحب من الأنبوب حتّى التهمت نصف ما كان يوجد في الإبريق الصغير. كنت سألتهم الكمية نفسها بسحبة واحدة، لكن الأمر بدا مختلف بالنسبة إليها، فقد انثنى حلقها عدة مرات وليس مرة واحدة. لا بدّ أن طعمها سيئ، لأنها كانت تختنق. سحبّت الأنبوب من ما بدا أشبه بشق في القصبة الهوائية. اختفت الحفرة على الفور، لكن التشوّه بدا فظيعاً أكثر من أيّ وقت مضى.

سألت: «هل كان ذلك كافياً حقّاً؟ بالكاد شربتِ». بدوت مرعوباً، ولم أستطع تمالك نفسي.

أومأت برأسها بإرهاق، وقالت: «هذه العملية مؤلمة، والطعم غير مستساغ خاصة بعد تناولي الأشياء القليلة نفسها لسنوات عديدة. أعتقد أحياناً أنني أفضّل أن أتضوّر جوعاً». أمالت رأسها إلى اليسار، في الاتجاه الذي أتيت منه، وباتجاه المدينة.

قلت: «أنا آسف، هل يمكنني القيام بأي شيء...».

أومأت برأسها وكأنها فهمت ما كنت أرمي إليه (بالطبع سيرغب الناس في القيام بأشياء من أجلها، سيقاتلون ليكونوا أول من يساعدها) وحيتني بيدها مرّة أخرى. ثمّ التقطَت أحد المناديل ومسحَت به الدم. لقد سمعتُ عن اللعنات من قبل - القصص مليئة بها - ولكن هذه المرة الأولى التي أرى فيها واحدة.

قالت فلادا: «اتبع علاماته، لا تضيع، وإلا سينال جنود الليل منك ومن رادار». لا بدّ أن نطق اسم رادار كان صعباً عليها، لأنها قالت راير، وهذا ما جعلني أفكّر في استقبال دورا لها. ثمّ تابَعت كلامها: «الساعة الشمسية في ساحة الملعب، في باحة القصر الخلفية. يمكنك تحقيق هدفك هناك إذا تحلّيت بالسرعة والهدوء. أمّا الذهب الذي تتحدث عنه فهو في الداخل. سيكون الحصول عليه أكثر خطورة بكثير».

سألتها: «هل سبقَ لكِ أن عشتِ في ذلك القصر يا ليا؟».

أجابت فلادا: «منذ زمن بعيد».

سألتُها: «هل أنت... هل أنت أميرة؟». أجبرت نفسي على قول ذلك، على الرغم من أن الإجابة كانت واضحة بالنسبة إليّ.

هزّت رأسها.

قالت فلادا: «نعم». أشارت ليا إلى نفسها - من خلال فلادا – ثمّ تابعت كلامها: «أصغر أميرة بينهم جميعاً، كان لديها أربع شقيقات يكبرنها سنّاً، وشقيقان - أميران، إذا أردت تسميتهما بذلك. ماتت أخواتها – دروسيلا، إيلينا، جولين، وفلادا، التي أحمل اسمها. مات روبرت وإلدن، الذي كان دائماً يُحسن معاملتها. مات والدها ووالدتها. لم يبقَ من عائلتها سوى القليل».

بقيت صامتاً، أحاول أن أفهم حجم هذه المأساة. فقدت والدتي، وكان ذلك سيئاً بالنسبة إليّ.

قالت: «يجب أن ترى عمّ سيّدتي. إنه يعيش في منزل من الطوب بالقرب من طريق الواجهة البحرية. سيخبرك أكثر عن قصّتها. سيدتي متعبة جدّاً الآن، وتتمنّى لك يوماً جيّداً، ورحلة آمنة. عليكَ أن تقضي الليلة مع دورا».

نهضتُ، ووجدت أن الشمس أوشكت أن تغيب خلف الأشجار.

قالت: «سيدتي تتمنى لك حظّاً سعيداً. وتقول إنه إذا استطعت إعادة شباب كلبة أدريان كما تأمَل، فعليك إحضارها إلى هنا حتّى تتمكن سيّدتي من مشاهدتها ترقص وتتحرك كما فعلَت في السابق».

قلت: «سأفعل ذلك. هل أستطيع طرح سؤال آخر؟».

أومأت ليا برأسها بضجر ورفعت يدها - قل، لكن بإيجاز.

أخرجتُ القطع الجلدية الصغيرة من جيبي وأريتها لليا - شعرت بالغباء- ثمّ أريتها لفلادا، التي لم تُظهر أيّ اهتمام على الإطلاق. وقلت: «أعطتني دورا هذه، لكنني لا أعرف ماذا أفعل بها».

ابتسمَت عينا ليا، وداعبَت أنف فلادا.

قالت: «من الممكن أن تصادف مسافرين في طريق عودتك إلى منزل دورا. إذا رأيتهم حفاة، فهذا يعني أنهم قدّموا أحذيتهم البالية لها لتصلحها، عندما ترى أقدامهم العارية قدّم لهم تلك القطع الجلدية. يوجد متجر صغير على هذا الطريق، يملكه أخ دورا الصغير. عندما يرى معهم تلك القطع الجلدية، فهو سيتكفّل بمنحهم أحذية جديدة».

قلت: «دورا تصلح الأحذية المتهالكة».

أومأت ليا برأسها.

قلت: «ثمّ يذهب الناس حفاة إلى متجر أخيها».

أومأت ليا برأسها مرّة أخرى.

قلت: «وعندما يتمّ تجديد الأحذية المتهالكة - كما أتمنى أن يتمّ تجديد حياة رادار – تأخذها دورا لأخيها؟».

هزّت ليا رأسها.

سألتها: «هل يبيعها أخوها؟».

هزت ليا رأسها نافية.

قلت: «لم لا؟ عادةً ما تحقّق هذه المتاجر ربحاً».

قالت فلادا: «هناك أشياء في الحياة أهمّ من الربح. سيدتي متعبة جدّاً، ويجب أن تستريح الآن».

أخذَت ليا يدي وعصرتها، ليس عليّ أن أحدّثكم عن شعوري في تلك اللحظة.

أفلتت يدي، وصفّقت مرّة واحدة. ابتعدت فلادا، وخرج أحد عمال المزارع ذوي البشرة الرمادية من الحظيرة، وربّت برفق على جانب الفرس، فسارت إلى الحظيرة عن طيب خاطر، وسار الرجل ذو البشرة الرمادية بجانبها.

نظرتُ حولي، فرأيتُ المرأة التي أحضرت الهريس وعصير الليمون هناك. أومأت إليّ، وأشارت إلى الطريق وراء المنزل.

قلت: «وداعاً، وشكراً».

حيتني ليا بيديها، ثمّ أخفضت رأسها، ووضعت يديها على مئزرها. سارت معي الخادمة (أو ربّما المُساعدة الشخصيّة للأميرة ليا) إلى الطريق، وأسفل ثوبها الرمادي الطويل يمسح الأرض.

سألتها: «هل يمكنك التحدث؟».

أجابتني: «قليلاً، لكن الحديث يؤلمني».

وصلنا إلى الطريق العام. أشرتُ إلى طريق الذي أتيت منه، وسألتها: «هل تعرفين كم يبعد بيت عمّها المبني من الطوب عن هنا؟».

رفعَت إصبعاً رمادياً مشوّهاً.

قلت: «يوم؟».

أومأَت برأسها؛ إنه الأسلوب الأكثر شيوعاً للتواصل هنا، بالنسبة إلى أولئك غير القادرين على التحدث من بطونهم. بدأتُ أتعلّم بسرعة.

سيستغرقني الوصول إلى العمّ يوماً. إذا كانت المسافة عشرين ميلاً، فقد أستغرق يوماً آخر للوصول إلى المدينة، وربّما يومين، وربما ثلاثة. وبأخذ طريق العودة إلى الدهليز المؤدي إلى البئر بعين الاعتبار، فغالباً ما ستستمرّ رحلتي ستّة أيام في المجموع، وذلك على افتراض أن كلّ شيء سار على ما يرام. كان والدي سيبلغ عن اختفائي بحلول ذلك الوقت.

سيكون خائفاً وقد يبدأ بالشرب. هل سأخاطر برصانة والدي من أجل حياة الكلبة... وحتّى إن كانت الساعة الشمسية السحرية موجودة، فمن يعلم إن كانت ستنجح مع كلبة الشيبرد المسنّة؟ أدركت - ستقولون إنه كان ينبغي عليّ التفكير بذلك مُسبقاً - إن ما كنت أفكّر في فعله لم يكن مجرّد جنون، بل أنانية. إذا عدتُ الآن، سأضطّر بالطبع إلى كسر باب المستودع، إذا كان آندي قد أقفله بالفعل، لكنني اعتقد أنني قويّ بما يكفي للقيام بذلك. لقد كنت أحد اللاعبين القلائل في فريق هيلفيو الذين ضربوا دمية المواجهة، وأعادوها إلى الخلف مسافة قدم أو قدمين، بل وضربتها مرّة أخرى. وهناك شيء آخر: بدأتُ أشتاق إلى دياري، صحيحٌ أنني ذهبتُ لبضع ساعات فقط، ولكن مع انتهاء اليوم في هذه الأرض الحزينة، حيث كان اللون الحقيقي الوحيد هو لون حقول الخشخاش الكبيرة... نعم، كنت أشعر بالحنين إلى دياري.

قرّرتُ أن آخذ رادار، وأعود. عليّ أن أعيد التفكير في خياراتي، وأن أضع خطة أفضل، بحيث أتمكّن من الغياب لمدّة أسبوع أو حتّى أسبوعين من دون أن يقلق أحد. لم يكن لديّ أدنى فكرة عن تلك الخطة، وأظنّ أنني

أدركت في أعماقي (في تلك الخزانة الصغيرة المظلمة حيث نحاول إخفاء الأسرار عن أنفسنا) أنني سأستمرُّ في تأجيل هذه الخطّة إلى أن تموت رادار، ولكن هذا ما كان عليّ فعله.

أمسكت الخادمة مرفقي. كان خوفها واضحاً على ملامح وجهها، لكن قبضتها كانت قوية على الرغم من ذلك. جذبتني نحوها، ووقفَت على رؤوس أصابعها، وهمست لي مُتألّمة: «ساعدها».

3

عدتُ ببطءٍ إلى بيت دورا، وبالكاد كنت أبصر ضوء النهار. فكّرت في ليا، وتذكّرتُ كيف فتحت ذلك التشوه بجانب ما يفترض به أن يكون فمها، وكم كان ذلك مؤلماً، لكنّها تفعل ذلك لأن ذلك الطعام المهروس كان كلّ ما يمكنها تناوله للبقاء على قيد الحياة.

تساءلتُ، تُرى متى كانت المرة الأخيرة التي تناوَلت فيها حبّة ذرة، أو كرفس، أو وعاءً من حساء أرنب دورا اللذيذ؟ هل كانت بلا فم عندما كانت رادار جرواً، وتتحرّك حول فلادا الأصغر سنّاً آنذاك؟ هل كان جمالها الحاضر على الرغم من سوء التغذية الشديد نوعاً من نكتة قاسية؟ هل كانت ملعونة بأن تكون صحتها جيدة على الرغم من الجوع الدائم؟

ساعدها.

هل كان هناك طريقة لفعل ذلك؟ سيكون هناك طريقة إن كنّا نعيش في حكاية خيالية. تذكرتُ والدتي وهي تقرأ لي قصة ريبانزل عندما كنت في الخامسة من العمر تقريباً. كانت الذكرى حاضرة في ذاكرتي، بسبب نهاية الحكاية، حين تغلّب الحبّ على القسوة الفظيعة. عاقبَت ساحرة شريرة الأمير الذي أنقذ ريبانزل وأفقدته بصره. تذكّرتُ بوضوح صورة الرجل المسكين الذي يتجول في الغابة المظلمة ماداً ذراعيه ليستشعر العراقيل في طريقه، وأخيراً اجتمع مع ريبانزل، وتسبّبت دموعها باستعادته لبصره.

هل هناك طريقة أستطيع من خلالها أن أعيد لليا فمها؟ ربّما ليس بالبكاء عليه، هذا صحيح، لكن ربّما أجد شيئاً يمكنني فعله في هذا العالم، حيث يمكن لإرجاع الساعة الشمسية الكبيرة للخلف أن يُلغي مرور بعض السنوات.

بالإضافة إلى ذلك، أروني فتى مراهقاً سليماً لا يريد أن يكون بطل الحكاية، الشخص الذي يساعد الفتاة الجميلة، أما عن احتمال أن يبدأ والدي في الشرب مرّة أخرى، قال لي ليندي ذات مرة: «لا يمكنك أن تنسب فضل رصانته إلى نفسك، لأنه فعل ذلك بنفسه. وفي حال قرّر العودة إلى الشرب مرّة أخرى، فلا يمكنك أن تلوم نفسك، لأنه سيفعل ذلك أيضاً بنفسه».

كنت أنظر إلى حذائي وأنا أُفكّر عندما سمعت صرير العجلات. نظرت إلى الأعلى فرأيت عربة صغيرة متداعية تقترب منّي، يجرها حصان كبير في السن بحيث جعل فلادا تبدو وكأنها مثالٌ للصحّة والشباب. كانت تحوي على عدد من الحزم، ودجاجة تجلس على قمّة أكبرها. وهناك شابّ وشابّة يسيران بجانب العربة. كانا رماديّ اللون، ولكنهما لم يكونا رماديين كعمّال مزرعة ليا وخادمتها. إذا كان لون الأردواز علامة على المرض، فلا يزال هذان الشخصان في المراحل الأولى... بالطبع، لم تكن ليا رمادية على الإطلاق، لم يكن بها خطب سوى أن فمها مفقود. وهذا لغزٌ آخر.

سحبَ الشاب لجام الحصان، فأوقفه. نظر إليّ الشابان بمزيجٍ من الخوف والأمل. استطعت قراءة تعابير وجهيهما بسهولة، فقد كانت معظم ملامحهما موجودة. بدأَت عينا المرأة بالظهور، لكنّهما كانتا بعيدتين كلّ البعد عن الشقّين التي ترى دورا العالم من خلالهما. أما الشاب فكان سيبدو وسيماً ما لم يكن أنفه ذائباً.

سألني: «هل سبق لنا أن التقينا؟ إذا لم نلتقِ من قبل، فخذ ما تريد. أنت مُسلّح أما أنا فأعزل، إضافة إلى أنني متعب للغاية، ولن يتحمّل قلبي

المعلول قتالك».

قلت: «أنا لست لصّاً، أنا مجرّد مسافر، مثلك».

كانت الشابة تنتعل حذاءً قصيراً برباط، يعلوه الغبار، ولكنّه بحال جيّدة. بينما كانت قدما الشاب عاريتين وقذرتين.

سألني: «هل أنت الشخص الذي قالت لنا السيدة صاحبة الكلب أننا قد نلتقي به؟».

أجبت: «أظنّ ذلك، نعم».

سألني: «هل تمتلك تلك القطع الجلدية؟ هذا ما أخبرتنا به السيدة، ولهذا أعطيتها الحذاء الذي كنت أنتعله. كان لوالدي، لكنّه أصبح متهالكاً».

سألَتني الشابة: «أنت لن تؤذينا، أليس كذلك؟»، بدا صوتها أشبه بصوت امرأة عجوز. لم يصل إلى درجة الزمجرة مثل صوت دورا، لكنّه على وشك أن يصل.

فكّرت في نفسي، هؤلاء الناس ملعونون، كلّهم. ملعونون بلعنة بطيئة، والتي قد تكون أسوأ أنواع اللعنات.

قلت: «لن أؤذيكما». وأخذتُ إحدى قطع الأحذية الجلدية الصغيرة من جيبي، وأعطيتها للشاب. فوضعها في جيبه.

سألت الشابة: «هل سيُعطى حذاءً؟».

أعطيتها إجابة تليق فتى كان والده يعمل في مجال التأمين، قائلاً: «هذا ما فهمته عن الصفقة».

قال زوجها: «يجب أن نتابع رحلتنا، شكراً لك». كان صوته أفضل قليلاً، لكن لم يكن أحد ليمنحه وظيفة مذيع تلفزيوني أو قارئ كتب مسموعة، لو

كان في دياري.

سمعتُ صوت عواء من الغابة على الجانب الآخر من الطريق. ظلّ الصوت يتصاعد حتّى تحوّل إلى صرخة تقريباً. كان صوتاً فظيعاً، خافت الشابة والتصقت بزوجها.

قال مرّة أخرى: «يجب أن نذهب، ولفيس».

سألتهما: «أين ستبقيان؟».

أجاب: «رسمَت لنا السيدة صاحبة الكلب لوحة لما نعتقد أنه منزل وحظيرة. هل رأيته؟».

قلت: «نعم، وأنا متأكد من أنهم سيستقبلونكما. لكن عليكما أن تسرعا، وأنا سأسرع أيضاً. لا أظنّ أن تواجدنا على الطريق بعد حلول الظلام سيكون... خياراً حكيماً».

بالطبع لن يكون خياراً حكيماً، لا يملك هذان منزلاً من القش أو مخبأً من الأغصان ولا من الطوب ليحتميا به في حال جاءت الذئاب. إنهما غريبان في هذه الأرض، أما أنا فقد كان لديّ صديق على الأقل. قلت لهما: «هيّا الآن. أعتقد أنك ستحصل على حذاء جديد غداً. قيل لي إن هناك متجر. سيعطيك مالكه حذاءً إذا أريته... أنت تعرف... القطعة الجلدية التي أعطيتك إيّاها. أتسمح لي أن أطرح عليك سؤالاً».

انتظرا سؤالي.

قلت: «ما هذه الأرض؟ ماذا تسمّونها؟».

نظرا إليّ كما لو أنني فقدت صوابي، ثمّ أجابني الرجل: «تيس إمبيس».

قلت: «شكراً لك».

ذهبا في طريقهما، وذهبت في طريقي، أسرعتُ وكنت أقرب للهرولة من المشي. لم أسمع مزيداً من العواء، لكن كآبة الشفق كانت واضحة. رأيت نافذة كوخ دورا المرحّبة متوهّجة. لقد وضعت مصباحاً عند أسفل الدرجات.

رأيت ظلّاً يتّجه نحوي في الظلام، وضعت يدي على سلاح السيد بوديتش. تجمّد الظل، وظهرَت رادار. جثوت على ركبتيّ حتّى لا تُجهد قائمتيها المتعبتين بمحاولة القفز. وهذا ما كانت تستعد للقيام به بوضوح. أمسكتُ بها حول رقبتها، فوضعتُ رأسها على صدري. قلت: «مرحباً يا فتاة - كيف حالك؟».

اهتزّ ذيلها بشدّة لدرجة أن مؤخرتها كانت تتأرجح ذهاباً وإيّاباً كرقّاص، وهل كنت سأدعها تموت إذا كان بإمكاني فعل شيء حيال ذلك؟ يا لي من أحمق.

ساعِدها، كما قالت خادمة ليا. هناك على الطريق المظلم، قرّرت أن أساعدهما - الكلبة العجوز وأميرة الإوز.

إذا استطعت.

ذهبَت رادار إلى جانب حقل الخشخاش من الطريق، وجلست القرفصاء.

قلت لها: «فكرة جيّدة»، فككت بنطالي، وأبقيت يدي على مسدسي، بينما قضيتُ حاجتي.

4

أعدّت لي دورا سريراً بالقرب من المدفأة، حتّى إنها وضعت لي وسادة غطاؤها مُطبّع بالفراشات الملوّنة. شكرتها، فانحنت أمامي. ذُهلتُ

عندما رأيت أنها استبدلت حذائها الأحمر (كالحذاء الذي كانت تنتعله دوروثي غيل في أوز) بحذاء كونفرس أصفر.

سألتها: «هل جلب لكِ السيد بوديتش هذا الحذاء؟».

أومأت برأسها، ونظرَت إلى حذائها مبتسمة.

سألتها: «هل تحتفظين به للضيوف المهمّين؟». بدا الأمر كذلك بالنسبة إليّ، لأنه كان نظيفاً تماماً، كما لو أنها أخرجته للتّو من علبته.

أومأت برأسها، أشارت إليّ، ثمّ إلى الحذاء الرياضي: انتعلته من أجلكَ.

قلت: «شكراً لكِ يا دورا».

شعرت أن حاجبيها يذوبان في جبهتها، لكنّها رفعت ما تبقّى منهما، وأشارت إلى الاتجاه الذي أتيت منه. وسألت: «زي؟».

أجبتها: «لم أفهم».

جلبت السبورة الصغيرة من ورشتها، مسحَت المربعات التي تمثّل المنزل والحظيرة - والتي لا بدّ أنها رسمتهما للشاب والشابة- ثمّ كتبت بخطّ كبير: ليا؟

قلت: «نعم، تقصدين فتاة الإوز. لقد رأيتها. شكراً لك على السماح لنا بالبقاء ليلاً. سنذهب غداً».

ربّتت صدرها فوق قلبها، وأشارت إلى رادار، ثمّ أشارت إليّ، ورفعت يديها، وكأنها تقول: منزلي هو منزلك.

5

تناولنا مزيداً من الحساء، لكن هذه المرّة بقطع من الخبز المحمص، وكان لذيذاً. أكلنا على ضوء الشموع، وحصلت رادار على نصيبها. أخرجتُ

زجاجة الحبوب من حقيبتي، ووضعتُ حبّتان في حساء رادار قبل أن أدعها تتناوله، ثمّ تذكّرت المسافة التي كان علينا قطعها، فأضفت حبّة ثالثة. لم أستطع أن أتغلب على فكرة أنني عندما كنت أعطيها هذه الحبوب، كانت تسلبُ منها شيئاً آخر.

نظرَت دورا إلى الحبوب، ثمّ نظرَت إليّ محتارة.

قلت: «يفترض بهذه الحبوب أن تساعدها. ما زال أمامنا طريق طويل، وهي ليست قويّة كما كانت في السابق. إنها تظن نفسها قويّة، لكنّها في الواقع ليست كذلك».

سمعتُ عواءً طويلاً لذئبٍ من الجانب البعيد من الطريق، ثمّ انضمّ إليه ذئبٌ آخر، إلى أن أصبحوا ثلاثة. كانت أصواتها صاخبة بشكل لا يُصدّق، وتحوّلت إلى صراخ في النهاية، وهذا ما جعلني أصرّ أسناني. رفعت رادار رأسها، لكنّها لم تنبح، أصدرَت هديراً خافتاً من أعماق صدرها.

قلت: «ولفيس».

هزّت دورا رأسها، وعقدَت ذراعيها فوق صدرها، ثمّ أمسكَت بكتفيها، وبدأت ترتجف بشكل لا يصدّق.

ازداد عدد الذئاب، لا أعتقد أنني سأشعر براحة قبل البدء برحلتي، إذا استمرّت في العواء طوال الليل. لا أعرف إن قرأت دورا أفكاري، أم ماذا. لكنّها نهضَت، وطلبَت منّي أن أدنو من النافذة المستديرة، ثمّ أشارَت إلى السماء. وعلى عكسي، لم يكن عليها الانحناء للنظر عبر النافذة لأنها قصيرة القامة. ما رأيته شكّل لي صدمة، ولكنه بدا في هذا العالم أمراً طبيعياً.

انشقّت الغيوم في صدع طويل في عرض السماء، كاشفةً عن قمرين يتسابقان في الفراغ، أحدهما أكبر من الآخر. كان الكبير عملاقاً، لدرجة أنني استطعت رؤية حفر، وديان سطحه القديم دون الحاجة إلى تلسكوب. بدا

وكأنه سيسقط فوقنا. انغلق الصدع، فتوقفت الذئاب عن العواء على الفور. كما لو أن صوت عوائها كان يُبثّ عبر مضخم عملاق، وسحب شخص ما القابس فجأة.

سألتها: «هل يحدث هذا كلّ ليلة؟».

هزّت رأسها، وبسطَت يديها، ثمّ أشارت إلى الغيوم. كانت بارعة في إيصال أفكارها باستخدام إيماءاتها وكلماتها القليلة التي يمكن أن تكتبها، لكنني لم أفهم معنى تلك الإشارة.

6

كان الباب الوحيد في الكوخ الذي لم يؤدّ إلى الخلف أو الأمام صغيراً بحجم دورا. نظّفت دورا مائدة عشاءنا الصغير (أبعدتني عندما حاولت مساعدتها)، ثمّ عبرت هذا الباب وخرجَت منه بعد خمس دقائق، مرتديةً ثوب نوم يصل إلى قدميها العاريتين، واضعةً منديلاً على ما تبقّى من شعرها، وممسكةً بحذائها الرياضي في يدها، والذي وضعته بعناية على رفّ فوق سريرها. هناك شيء آخر على الرّف بالقرب من الحذاء. طلبتُ منها أن تدعني ألقي نظرة عليه، فأعطتهُ لي بتردّد. كانت صورة صغيرة مؤطّرة للسيد بوديتش، وهو يحمل جرواً من الواضح أنه رادار. احتضنت دورا الصورة وربّتت عليها، ثمّ أعادتها إلى الرّف.

أشارَت إلى الباب الصغير، ثمّ إليّ. أخذتُ فرشاة أسناني ودخلت. لم أعرف عن المراحيض الخارجية إلا في الكتب وبعض الأفلام القديمة، لكنني اعتقدت أن هذا أفضل وأنظف مرحاض خارجي أراه على الإطلاق. كان هناك حوض مليء بالمياه النظيفة، ومرحاض بغطاء خشبي، ومزهرية جدارية مليئة بأزهار الخشخاش تنبعث منها رائحة الكرز الحلوة ولم تكن هناك رائحة لفضلات بشرية على الإطلاق.

غسلتُ يديّ ووجهي، وجفّفتهما بمنشفة صغيرة مطرّزة بمزيد من الفراشات. غسلتُ أسناني بالفرشاة. وصلت إلى مكان نومي بغضون خمس دقائق وربّما أقل، لكنني وجدت دورا نائمة بالفعل في سريرها الصغير، وكانت رادار تنام إلى جانبها.

استلقيتُ على سريري المكوّن من عدّة بطّانيات لأنام عليها وبطانيات أخرى مطويّة لكي أتغطّى بها. وهو ما لم أكن بحاجة إليه في ذلك الوقت، لأن جمر الموقد لا يزال يولّد حرارة كافية. مشاهدة الجمر وهو يحترق تارة وينطفئ تارة كان له تأثير منّوم. هدأَت الذئاب بعد غياب ضوء القمر، وبقي صوت الرياح وهي تهبّ حول السقف، كان صوتها يرتفع أحياناً ويتحوّل إلى صرخة منخفضة، وكان من المستحيل ألّا أفكر في المسافة التي تبعدني عن عالمي. أوه، يمكنني العودة إليه مرّة أخرى، احتاج فقط إلى نزهة قصيرة على التلّ، وقطع مسافة ميل عبر الدهليز، إضافة إلى مئة وخمسة وثمانين درجة إلى قمة البئر، لكن هذا لم يكن حساباً دقيقاً. أنا الآن في الأرض الأخرى، في أرض إمبيس، التي تضمّ قمرين في سمائها. فكرت في غلاف ذاك الكتاب الذي يظهر قمعاً ممتلئاً بالنجوم. لم تكن نجوماً، بل قصصاً. عدد غير منتهٍ من القصص التي تصبّ في القمع، وتخرج في عالمنا كما هي.

ثمّ فكرت في السيدة ويلكوكسن، معلمتي في الصف الثالث، والتي كانت تسألنا دوماً في نهاية كلّ يوم: «ما الذي تعلمناه اليوم أيّها الفتيان والفتيات؟».

ماذا تعلمتُ؟ إن هذا مكان للسحر يعمل تحت تأثير اللعنة، إن الناس الذين يعيشون هنا يعانون من نوع من الداء أو المرض التدريجي. أظنّ أنني فهمت الآن السبب وراء لافتة دورا - التي طبعها السيد بوديتش – والتي كُتبت عليها قصيدة الأحذية على جانبٍ واحدٍ منها فقط، وهو الجانب المواجه للمدينة المهجورة. حيث كان جميع الناس يأتون من هذا الاتجاه. لا أعرف عددهم، لكن الجانب الفارغ من اللافتة يشير إلى عودة القليل منهم. باعتبار

أن الشمس المحجوبة بالغيوم تغرب في الغرب، فإن الشاب والشابة اللذين قابلتهما (بالإضافة إلى جميع الأشخاص الآخرين الذين يقومون بتبادل الأحذية مع دورا وشقيقها) أتوا من الشمال. هل النزوح هو من الشمال؟

هل كانت لعنة متجدّدة، أم أنها نوع من الإشعاع النابع من المدينة نفسها؟ لم يكن لديّ معلومات كافية للتأكد من ذلك، لكنّ الفكرة لم تشعرني بالسرور. هل سيتحول لون بشرتي إلى الرمادي؟ هل سيصبح صوتي بالتدريج مثل صوت دورا، وخادمة ليا؟ لم يكن هناك خطب في جلد السيد بوديتش أو صوته، ولكن ربّما كان هذه البقعة من إمبيس على ما يرام، عندما زارها.

فكّرت أنه بمجرد أن أشعر بأي تغيير يمكنني الاستدارة والهروب فوراً.

ساعِدها.

هذا ما قالته لي الخادمة الرمادية. ظننت أنني أعرف طريقة لمساعدة رادار، لكن كيف لي أن أساعد أميرة بلا فم؟ لا بدّ أن يجد الأمير طريقة للقيام بذلك. من المحتمل أن يكون شيئاً غير متوقّع، مثل دموع ريبانزل التي تحوّلت إلى سحر أعاد له بصره، ولكنّها مستساغة للقراء الذين أرادوا نهاية سعيدة حتّى وإن اضطر الراوي إلى اختلاق فكرة غير متوقّعة. على أيّ حال، أنا لستُ أميراً بل مجرد فتى في المدرسة الثانوية وجد طريقه إلى واقع آخر، وليس لديّه أيّ أفكار.

كان للجمر سحره الخاص، يحترق عندما تهبّ الرياح على المدخنة، ويهمد عندما تخبو الرياح. شعرت بثقل جفني كلّما نظرت إليه. نمت، وفي وقت ما من الليل، أتَت رادار واستلقت بجانبي. اندلعت النار صباحاً في الموقد، ولكن رادار كانت ترقد بجانبي دافئة.

الفصل الخامس عشر:
مغادرة منزل دورا- اللاجئون- بيتركين- وودي.

1

كان الفطور، عبارة عن بيض مخفوق – بيض إوز، نظراً للحجم- وقطع من الخبز المحمّص على النار. لم يكن هناك زبدة، لكن كان هناك مربى فراولة شهيّ. جمعتُ حقيبتي بعد الانتهاء من الوجبة، ووضعت طوق رادار. لم أردها أن تطارد أيّ أرانب عملاقة في الغابة، وتلتقي بنسخة هذا العالم من داير وولف في مسلسل صراع العروش. قلت لدورا بثقة تفوق ما أشعر به حقاً: «سأعود». كنت على وشك أن أضيف، أن رادار ستستعيد شبابها مجدداً، لكنني اعتقدت أن ذلك قد يُلغي الصفقة. أضف إلى ذلك أنني ما

زلت أجدُ فكرة التجديد السحري سهلة نظرياً، ولكنها صعبة عملياً، حتّى في إمبيس.

قلت: «أظنّ أنه يمكنني البقاء في منزل عمّ ليا الليلة - بافتراض أنه ليس لديه حساسية تجاه الكلاب، أو شيء من هذا القبيل - لكنني أُفضّل أن أكون هناك قبل حلول الظلام». كان من الصعب عليّ، عدم التفكير في الذئاب.

أومأت برأسها، ثمّ أمسكت بمرفقي وقادتني إلى الخارج عبر الباب الخلفي. تجوّلنا حول الكوخ كانت هناك عربة صغيرة سبق لي أن رأيتها. تمّ استبدال الأكياس التي تبرز من قممها نباتات خضراء بحزمة ملفوفة بالخيش. أشارَت دورا إلى الحزم، ثمّ إلى فمي. وضعَت يدها أمام فمها، وفتحت أصابعها الذائبة جزئيّاً وأغلقتها بإيماءة تدلّ على المضغ. لم يتطلّب الأمر عالم صواريخ لفهم ما تريد قوله.

قلت: «يا إلهي، كلا! لا يمكنني تناول طعامك ولا يمكنني أخذ عربتك! أليست هذه عربتك التي توصلين بها الأحذية التي قمت بإصلاحها إلى متجر أخيك؟».

أشارت إلى رادار، وخطَت بضع خطوات وهي تعرج، أولاً نحو العربة ثمّ نحوي. أشارت بعدها إلى الجنوب (إذا كنت صحيحاً بتقدير اتجاهاتي) وحرّكت أصابعها كأنها تسير في الهواء. فهمت الجزء الأول، كان سهلاً، قصدَت أن العربة لرادار، بمجرّد أن بدأت تعرج. اعتقدت أنها كانت تخبرني أيضاً أن شخصاً ما - ربّما شقيقها - سيأتي من أجل الأحذية.

أشارت دورا إلى العربة، ثمّ ضربتني بقبضتها الرمادية بخفّة على صدري ثلاث مرات، وكأنها تقول: يجب عليك أخذها.

تفهّمت وجهة نظرها؛ عليّ أن أعتني بكلبتي المسنّة طوال الطريق الطويل الذي سنجتازه. لكنني في الوقت نفسه، كرهت أن آخذ منها أكثر

مما أخذت بالفعل، سألتها: «هل أنتِ متأكدة؟».

أومأت برأسها. ثمّ مدّت ذراعيها طلباً للعناق، وسعدتُ بمعانقتها. جثَت على ركبتيها، وعانقت رادار. وقفت مرّة أخرى، وأشارت أوّلاً إلى الطريق، ثمّ إلى الخطوط المتقاطعة، وبعدها إلى نفسها.

أشارَت لي: امضِ في طريقك، لديّ عمل لأقوم به.

أومأتُ لها على طريقتي، رافعاً إبهاميّ إلى الأعلى، ثمّ توجهت صوب العربة، وألقيت فيها حزم الطعام التي صنعتها دورا لنا... والتي ستكون ألذّ بكثير من سردين السيد بوديتش، هذا ما كنت واثقاً منه. أمسكتُ بالمقبضين الطويلين، فرحتُ لأن وزن العربة كان خفيفاً للغاية، بدت لي وكأنها مصنوعة من نسخة هذا العالم من خشب البلزا، وكانت عجلاتها مشحمّة جيداً ولم تصدر صريراً، على عكس عجلات عربة الشابّين. أظنّ أن سحبها لن يكون أصعب من سحب عربتي الصغيرة التي كنت أملكها في سنّ السابعة.

أخذت العربة، وسرت على الطريق جنباً إلى جنب مع رادار. وصلت إلى ما ظننته طريق المدينة (لم يكن هناك يافطة صفراء تحمل اسم المدينة)، والتفتّ إلى الخلف، فرأيت دورا تقف بجانب بيتها شابكة يديها فوق صدرها. رأتني أنظر إليها، فرفعت يديها إلى فمها ثمّ فتحتهما نحوي.

تركتُ مقبضيّ العربة وكرّرت حركاتها، ثمّ انطلقت في طريقي. إليكم شيئاً تعلمته في إمبيس: يتألّق الأشخاص الطيبون في الأوقات المظلمة.

فكّرت في نفسي، ساعِدها أيضاً، ساعد دورا أيضاً.

2

صعدنا تلاً ونزلنا وادياً، كما يذكر في معظم الحكايات الخيالية القديمة. سمعتُ أصوات الصراصير، وزقزقة العصافير. رأيتُ بعض الرجال والنساء الرماديّين يعملون في حقول تمتدّ خلف نباتات الخشخاش. وعندما رأوني

بدورهم توقفوا عمّا يفعلونه إلى أن مررت. لوّحت لهم، لم يردّ لي أحد التحيّة، سوى امرأة تعتمر قبعّة كبيرة من القش. كانت هناك حقول أخرى منسيّة، نبتت فيها الحشائش بين الخضروات، جنباً إلى جنب مع الخشخاش، والتي اعتقدت أنها ستملأها في النهاية.

كانت الغابة جهة اليمين، رأيتُ عدداً قليلاً من بيوت المزارع، وكان معظمها مهجور. قفزت أرانب كبيرة بحجم الكلاب الصغيرة أمامنا على الطريق مرّتين. نظرت رادار إليها باهتمام، لكنّها لم تُظهر أيّ ميل لمطاردتها، لذا قمت بفكّ طوقها، ورميتُه في العربة، وقلتُ لها: «لا تخيّبي ظنّي يا فتاة».

مشينا لساعة تقريباً، ثمّ توقّفت لفكّ حزمة الطعام التي عبّأتها لنا دورا. وجدت كعكات دبس السكر من بين الأطعمة الجيدة الأخرى، أعطيت واحدة لرادار -لأنها خالية من الشوكولاتة- ففرحت بها. وجدتُ أيضاً ثلاث زجاجات طويلة ملفوفة بمناشف نظيفة. اثنتان منها مملوءتان بالماء، والثالثة مملوءة بالشاي على ما يبدو. شربت قليلاً من الماء وأعطيت بعصاً منه لرادار في فنجان فخاريّ كانت صديقتي قد حزمته لنا أيضاً. شربَته رادار بلهفة. انتهيت من إعادة حزم الطعام، وعندها رأيت ثلاثة أشخاص يسيرون على الطريق باتجاهي. كان الرجلان قد بدآ للتو في التّحول إلى اللون الرمادي، لكن المرأة التي تسير بينهما كانت مظلمة مثل سحابة رعد صيفية. إحدى عينيها مسحوبة في شقّ امتدّ إلى جبهتها، وبدت فظيعة المظهر. رأيت بريقاً أزرق وحيداً في إحدى قزحيّتها مثل قطعة من الياقوت، بينما دُفن الآخر في كتلة من اللحم الرمادي. كانت ترتدي ثوباً قذراً يخفي ما قد يكون آخر مراحل حملها، وتحمل حزمة ملفوفة بغطاءٍ قذر. انتعل أحد الرجلين حذاء ذا مشابك على الجانبين - ذكّرني بالحذاء الذي رأيته معلقاً في الباحة الخلفية لمنزل دورا عند زيارتي الأولى- بينما انتعل الرجل الآخر صندلاً، وكانت المرأة حافية القدمين.

رأوا رادار جالسة على الطريق، فتوقفوا.

قلت: «لا تقلقوا، لن تعضّكم».

اقتربوا ببطء، ثمّ توقفوا مجدداً. لكن هذه المرّة نظروا إلى مسدّسي، رفعت يديّ في الهواء، فعاودوا المشي، ثمّ تراجعوا إلى الجانب الأيسر من الطريق، ونظروا تارة إليّ وتارة إلى رادار.

قلت: «لن نتسبّب لكم بأيّ أذى».

كان الرجلان نحيفين ومتعبين، وبدت المرأة مُنهكة.

قلت: «أرجوكم، انتظروا دقيقة». لم أكن متأكداً من أنهم يفهمون كلامي، لذا رفعت يدي كشرطيّ يقوم بإيماءة توقف.

توقفوا في مكانهم. بدا الثلاثة بائسين للغاية. بدأ فم كل رجل من الرجلين بالظهور، استطعتُ أن أرى ذلك عندما اقتربا منّي. وسرعان ما سيصبح كهلال بالكاد يتحرك، مثل فم دورا. وقف الرجلان بجانب المرأة، أدخلتُ يدي في جيبي، فقامَت بضمّ حزمتها إلى صدرها. أخرجتُ إحدى القطع الجلدية، وقدّمتُها لها، قائلاً: «خذي هذه، من فضلك».

مدّت يدها بتردّد، ثمّ انتزعتها من يدي، وكأنها كانت تتوقع منّي أن أمسكها. عندما فعَلت ذلك سقطَ الغطاء عن حزمتها، كاشفاً عن طفلٍ ميّتٍ، عمره عام أو عام ونصف تقريباً. كان رمادياً كلون غطاء تابوت أمّي. ستحظى هذه المرأة المسكينة قريباً بطفلٍ آخر، وربّما سيموت هذا الطفل أيضاً. وقد تموت هي قبله، أو ربّما أثناء ولادتها.

سألتهم: «هل تفهمون كلامي؟».

قال الرجل ذو الحذاء: «نعم، بماذا سنكون مدينين لك أيّها الغريب، إن لم تكن حياتنا؟ ليس لدينا أيّ شيء آخر لنقدّمه». كان صوته مُزعجاً، ولكنّه

طبيعي نوعاً ما.

بالطبع لم يكن لديهم سوى حياتهم. إذا كان شخص ما قد فعل هذا بهم - أو تسبّب في حدوثه - فعليه أن يذهب إلى الجحيم، إلى أعمق حفرة فيه.

قلت: «لا أستطيع إعطائكم عربتي أو طعامي، فعليّ أن أجتاز مسافة طويلة، وأصبحت كلبتي مسنّة. لكن إذا مشيتم ثلاث... «حاولت أن أقول أميال، لكن الكلمة غابت عن بالي. تابعت: «إذا مشيتم حتّى منتصف النهار تقريباً، سترون لافتة الحذاء الأحمر. ستؤمّن لكم السيدة التي تسكن في ذلك المكان الراحة، وقد تعطيكم الطعام والشراب».

لم يكن ذلك وعداً بالضبط (كان والدي مولعاً بالإشارة إلى ما يُطلق عليه «كلمات ابن عرس» التي تُستخدم في الإعلانات التلفازية للترويج للعقاقير المذهلة) وكنت أعرف أنه ليس بمقدور دورا أن تُطعم وتسقي كلّ اللاجئين الذين يمرّون بكوخها. لكنني اعتقدت أنها عندما ترى حالة المرأة، والحزمة المروّعة التي تحملها، فقد تقدّم لهم المساعدة. في هذه الأثناء، كان الرجل الذي ينتعل الصنادل يتفحص القطعة الجلدية الصغيرة، ثمّ سألني عن الغرض منها. أجبته: «بعد منزل المرأة التي أخبرتك عنها هناك متجر يُمكّنك من استبدال القطعة الجلدية التي أعطيتكم إيّاها بحذاء جديد».

قال الرجل ذو حذاء الذي يمتلك مشابك: «هل هناك مكان لأدفن فيه ولدي؟».

قلت: «لا أعلم. أنا غريبٌ هنا. اسأل السيدة التي تسكن في المنزل ذي لافتة الحذاء الأحمر، أو في مزرعة فتاة الإوز الأبعد. أنا آسف لخسارتكِ يا سيّدتي».

قالت وهي تنظر إلى طفلها الميّت: «لقد كان فتى جيّداً، وُلد بصحة جيدة، لونه ورديّ مثل الفجر، ولكن بعد ذلك أصابه اللون الرمادي. سِر في طريقك يا سيّدي، وسنسير في طريقنا».

قلت لها: «أرجوكِ، انتظري دقيقة». فتحت حقيبتي، وبحثت، ووجدت علبتي سردين (الملك أوسكار). وأخرجتهما من حقيبتي. ابتعدوا عنّي خائفين. قلت لهم: «لا تخافوا، إنه طعام. سردين، سمكة صغيرة. افتحوهما من الأعلى هكذا، أترون؟».

تبادل الرجلان النظرات، ثمّ هزّا رأسيهما. لم يظهرا أي اهتمام بعلبتي السردين، وبدا أن المرأة قد انفصلت تماماً عن المحادثة.

قال الرجل الذي ينتعل الصندل: «سنتجه صعوداً، أمّا أنت أيّها الشاب فتسير في الاتجاه الخطأ».

قلت: «لكن يجب أن أذهب في هذا الاتجاه».

نظر إلى عيني مباشرة وقال: «أنت تذهب إلى الموت».

مضوا في طريقهم، ومشت المرأة حاملةً عبئها الفظيع على صدرها. لماذا لم يأخذه أحد الرجلين منها؟ كنتُ مجرد فتى، لكنني أظنّ أنني عرفت الإجابة. كان لها، وجسده لها، ما دامت تستطيع حمله.

3

شعرتُ بالغباء لأنني لم أعرض عليهم الكعكات الباقية، وظللت أشعر بأنني أناني لاحتفاظي بالعربة لنفسي، إلى أن سقطَت رادار.

شردتُ لدرجة أنني لم ألحظ متى حدث ذلك، وقد تفاجئون (أو لا) عندما تعلمون أن ليس لهذه الأفكار علاقة بكلمات وداع الرجل الذي ينتعل الصندل. لم تفاجئني فكرة تعرّضي للقتل وأنا ذاهب باتجاه المدينة؛ فقد أوضح لي ذلك كلّ من السيد بوديتش، ودورا، وليا على طريقته الخاصة. ولكن يسهُل عليك الاقتناع بأنك ستكون الاستثناء عندما تكون صغيراً، وبأنك ستكون الشخص الذي ينتصر، ويصنع الأمجاد. فمن الذي انتزع سلاح

كريستوفر بولي؟ كنت في سنّ يجعلني أصدّق أنه يمكن لردود الأفعال السريعة والرعاية المنطقيّة أن تتغلب على العقبات.

فكّرتُ في اللغة التي نتحدث بها هنا. لم يكن ما سمعته لغة إنكليزية أمريكيّة عاميّة تماماً، لكنّها لم تكن قديمة أيضاً، ولم تكن كاللغة الإنكليزية المستخدمة في جميع أفلام آيماكس الخيالية، حيث يبدو كلّ الهوبيت، الجان، والسحرة كأعضاء برلمان. كانت أشبه باللغة الإنكليزية الذي تتوقع أن تقرأها في حكاية خيالية حديثة نوعاً ما.

قلتُ لهم إنني لا أستطيع إعطاءهم عربتي لأنه عليّ أن أجتاز مسافة طويلة وكلبتي مسنّة. لو كنت أتحدث إلى شخص ما في سينتري، كنت سأقول ذلك بطريقة بمختلفة. قلت لهم «لافتة الحذاء الأحمر» بدلاً من القول إنه منزل صغير يوجد أمامه لافتة حذاء. فكّرتُ مرّة أخرى في القمع المليء بالنجوم، وظننت أنني أمثّل إحدى النجمات الآن، وأنني أصبحت جزءاً من القصة.

شعرتُ بالخوف والصدمة عندما التفتّ إلى رادار ولم أرها إلى جانبي. أنزلتُ مقبضيّ العربة، وضعتها على الطريق، ونظرت إلى الخلف. رأيتها هناك، على بعد عشرين ياردة منّي، تعرجُ بأقصى سرعتها، ولسانها يتدّلى من جانب فمها.

قلت: «يا إلهي، أنا آسف يا فتاتي».

حملتُها ووضعتها في العربة، كنت حريصاً على وضع يديّ تحت بطنها، وعدم لمس قائمتيها الخلفيّتين المتعبتين. أعطيتُها شراباً آخر بكوبها، أملتُه لها حتّى تتمكن من شرب بقدر ما تريد، ثمّ داعبتُها خلف أذنيها، قائلاً: «لماذا لم تقولي شيئاً؟».

حسناً، لسنا بهذا النوع من القصص الخيالية.

4

مشينا عبر التلال والوديان، ورأينا المزيد من اللاجئين. بعد ذلك، توقّف رجلان بالقرب منّا، ووقفا على رؤوس أصابعهما ليريا ما بداخل العربة. زمجرت رادار عليهما، لكنني أشكّ في أنها أخافتهما. كانا ينتعلان حذاءين، لذا لم أعطيهما أيّ قطع جلدية. ما كنت لأقترح عليهما التوقف عند دورا حتّى وإن كانا حافيي القدمين على ما أظن، أو أعطيهما أياً من طعامي أيضاً. يمكنهما البحث في الحقول الموجودة بالجوار إذا كانا جائعين حقّاً.

قال أحدهما: «إذا أردت الذهاب إلى الواجهة البحرية فاستدر يا فتى. يأتي الرماديون إلى هناك أيضاً».

قلت: «شكراً على...» لم أعرف ماذا أقول، فقلت: «شكراً لأنكما أخبرتماني». أمسكتُ مقبضيّ العربة، وراقبتهما للتأكد من أنهما ابتعدا.

عند الظهيرة، وصلنا إلى مكان يشبه المستنقع الموحل. انحنيت، وسحبت العربة بسرعة لنتجاوز هذا المكان، لا أريد أن نتعثر. لم تكن العربة أثقل بكثير بوجود رادار، وهذا ما أقلقني وأحزنني في الوقت نفسه.

بمجرّد أن استقررنا على أرض جافّة مرّة أخرى، توقفت تحت ظلّ شجرة تشبه شجرة البلوط في متنزه كافانو. وجدتُ لحم أرنب مقليّ في إحدى الحزم الصغيرة التي حزمتها لنا دورا. أكلَت رادار قطعتين، ثمّ وضعَت الثالثة بين قائمتيها الأماميتين ونظرت إليّ معتذرة. حتّى في الظل، استطعتُ أن أرى عينيها محمرتين ودامعتين مرّة أخرى. فكّرت أنها استوعبت كلّ ما يحصل – العالم الرمادي - لكنني أبعدتُ الفكرة عن ذهني. كانت فقط تتقدّم بالعمر، بكلّ بساطة. يصعب عليّ تقدير كم من الوقت قد بقي لها، لكنني لا أعتقد أنه كثير.

ازداد عدد الأرانب العملاقة التي تتجول على الطريق بينما كنّا نأكل، وكذلك الصراصير التي تبلغ من الحجم ضعف حجمها الطبيعي في عالمنا،

كانت تقفز برشاقة على قوائمها الخلفية، أدهشتني طريقة قفزها. انقضّ صقر – ذو حجم طبيعي –وحاول الإمساك بواحد منها، لكن الصراصير راوغته، واختفت بين الأعشاب التي تحيط بالغابة. شاهدت رادار الكائنات البريّة باهتمام، ولكن من دون الوقوف على قوائمها، ناهيك عن المطاردة.

شربتُ بعض الشاي الذي كان حلواً ولذيذاً. اضطررت إلى إيقاف نفسي عن الشرب بعد بضع رشفات. قلت: «هيّا يا فتاة. علينا الوصول إلى منزل العمّ. لا تعجبني فكرة التخييم بالقرب من هذه الغابة».

حملتُها، ثمّ توّقفتُ، لأنني رأيت شجرة بلوط كُتب عليها بالون الأحمر الباهت: أي. بي. فكرة أن السيد بوديتش كان هنا من قبل، أشعرتني بالتحسن، وبأنه لم يرحل تماماً.

5

كان اليوم دافئاً بما يكفي لجعلي أتعرّق. لم نرَ أيّ لاجئين خلال الظهر، إلى أن وصلنا إلى مكان يشبه التلّ، حينها سمعت صوت هرولة خلفي. أتت رادار إلى مقدّمة العربة. جلست رافعة أذنيها. توقفتُ، وسمعت صوتاً يشبه ضحكة خافتة. تقدّمتُ إلى الأمام قليلاً، وسمعت: «هل تحبّين ذلك يا حبيبتي؟ هل تشعرين بالدغدغة؟».

كان صوتاً عالياً، لكنّه بدا مألوفاً. أدركت السبب بعد لحظة، ذكّرني صوته بصوت كريستوفر بولي. أعلم أنه لا يمكن أن يكون هو، لكنّه كان يشبهه بالتأكيد.

تقدمت قليلاً إلى الأمام، وتوقفت بمجرد أن رأيت منحدراً على الجانب الآخر من المُرتفع. رأيت بعض الأشياء الغريبة في هذا العالم الآخر، لكن لم يكن هناك شيء أغرب من منظر فتى يجلس بين الغبار مثبّتاً بيديه صرصاراً من قوائمه الخلفية. كان أكبر صرصار رأيته إلى الآن، لونه أحمر وليس أسود. وحمل الفتى بيده الأخرى ما يشبه الخنجر قصير النصل.

بدا مستغرقاً جدّاً في ما كان يفعله، لدرجة أنه لم يرنا. جرَح الصرصار في بطنه، فقطرت منه نقطة دم. لم أكن أعرف أن الصراصير تنزف. رأيت قطرات دمٍ أخرى على التراب، ففهمتُ أن هذا الفتى كان يفعل هذا الأمر الشائن منذ فترة.

قال الفتى: «هكذا يا عزيزي؟» حاول الصرصار الهرب، ولكنّه لم ينجح في ذلك لأنه مثّبت القوائم. سحبه الفتى بسهولة إلى الخلف، وقال: «ماذا عن القليل من...».

نبحت رادار. نظر الفتى حوله، ولم يُفلت قبضته عن الصرصار، لم يكن فتى بل قزماً متقدماً في السن. تدلّى شعره الأبيض على وجنتيه. كان وجهه مُجعّداً، وهلال فمه عميقاً لدرجة أنه بدا كدمية تتكلّم من بطنها، والتي كان يمكن أن تستخدمها ليا (ما لم تتظاهر بأن فرسها يمكنها التحدث). لم يكن وجهه يذوب، لكن بشرته كانت بلون الطين. وما زال يذكرني ببولي، ربّما لأنه صغير الحجم، ولكن في الغالب بسبب المكر في وجهه. بالنظر إلى نظرته الخبيثة تلك المرافقة لما كان يفعله، يمكنني بسهولة تخيّله يقتل صائغ مجوهرات أعرج.

سألني: «من أنت؟». لم يكن خائفاً منّي، فقد كنت بعيداً عنه، ولم يستطع أن يرى سلاحي بعد لأنني كنت أقف في الظل.

سألته: «ماذا تفعل؟».

أجابني: «أمسكت بصديقي هذا. كان سريعاً، لكن بيتركين العجوز كان أسرع منه. أريد أن أعرف إن كان يشعر بالألم. وحده الله يعلم كم بذلت من جهد في سبيل ذلك».

وخز الصرصار مرّة أخرى، فنزف مجدداً. سحبت العربة إلى أسفل التل، فنبحت رادار مرّة آخر.

قال لي: «اكبح كلبتك يا فتى. لو كنت مكانك، لفعلت ذلك. سأقطع حلقها إذا اقتربت منّي».

وضعتُ مقبضيّ العربة على الأرض، وأخرجتُ مسدس السيد بوديتش من قرابه للمرة الأولى. وقلت: «لن تمسّها أو تمسّني. توقّف عن فعل ذلك، دع الصرصار».

نظر القزم - بيتركين - إلى المسدس بحيرة لا برعب، وقال: «لماذا تريد منّي أن أفعل ذلك الآن؟ لا أملك سوى القليل من الأشياء المسليّة في عالم يكاد يخلو من التسلية».

قلت: «أنت تعذبّه». بدت على بيتركين علامات الدهشة، وقال: «تعذيب؟ هل قلتَ تعذيب؟ أوه أيّها الأحمق، إنه حشرة عديم النفع. الحشرات لا تتعذب! لماذا يهمك أمره؟».

بدا منظره قبيحاً وقاسياً وهو يمسك بقائمتي الصرصار الذي يحاول القفز باستخدام ما يمثّل وسيلته الوحيدة للهروب، واستمر القزم بوخزه مراراً وتكراراً.

قلت: «لن أكرّر كلامي مرّتين».

ضحكَ، قائلاً: «هل ستطلق النار عليّ من أجل حشرة؟ لا أعتقد أن...». شعرت بأنه يشبه بولي قليلاً بتعليقاته الساخرة.

صوّبتُ أعلى يساره، وضغطت على الزناد. كان دويّ الطلقة أعلى بكثير مما كان عليه داخل منزل السيد بوديتش. نبحت رادار، فذُعر القزم تاركاً الصرصار، الذي قفز ملتوياً في العشب. تسبّب له هذا الرجل القصير اللعين بالعرج. كم هو عدد الصراصير الحمراء التي رأيتها؟ كان هذا هو الوحيد. ربّما كان كائناً نادراً مثل الغزلان البيضاء.

نهض القزم، ونفض الغبار عن بنطاله الأخضر، ودفع بشعره الأبيض المتكتّل إلى الوراء مثل عازف البيانو يستعدّ لعزف مقطوعة مهمّة. بدا مفعماً بالحيوية، بغضّ النظر عن لون جلده الرمادي. بدا مفعماً بالحيوية مثل الصرصار، إن جاز التعبير. مع أنه لم يغنِ أبداً في برنامج (نجم أمريكا الأول)، إلا أنه كان يتمتع بصوتٍ أجمل بكثير من معظم الأشخاص الذين التقيت بهم في الساعات الأربع وعشرين الماضية، وكان لديه حضور. بدا طبيعيّاً تماماً، بخلاف كونه قزماً (ذات مرّة قال لي والدي: «لا تطلق عليهم لقب الأقزام، فهم يكرهون ذلك») ولديه بشرة قذرة يلزمها جرعة من أبريميلاست.

قال وهو ينظر إليّ باشمئزاز، وبقليل من الخوف (أو ربّما هذا ما تمنّيته): «أرى أنك فتى سريع الانفعال. لماذا لا يذهب كلّ منّا في طريقه؟».

قلت: «حسناً، لكنني أريد أن أسألك شيئاً قبل أن نفترق. كيف لوجهك أن يكون طبيعيّاً إلى حدّ ما، ويبدو أن العديد من الأشخاص الآخرين يزدادون قبحاً طوال الوقت؟».

لم أقصد أنه كان وسيماً، وأنا متأكدّ من كون سؤالي وقحاً نوعاً ما، ولكن إذا لم أكن وقحاً مع رجل ضبطه وهو يعذب صرصاراً عملاقاً، فمع من يمكنني أن تكون وقحاً؟

قال بتذمّر: «ربّما لأن الآلهة، إذا كنت تؤمن بها، قد أدت دورها بالفعل معي. كيف يمكن لشخص كبير الحجم مثلك أن يعرف شعور أن تكون صغير الحجم مثلي؟».

قلت له: «لا أشعرُ بأيّ تعاطف تجاهك».

سألني عابساً: «ماذا؟».

قلت: «لا تهتم. مجرّد دعابة صغيرة».

قال: «سأذهب الآن، إذا لم يكن لديك مانع».

قلت: «حسناً، لكن أنا وكلبتي سنشعر بتحسّن إذا ألقيت هذا الخنجر من يدك قبل أن تغادر».

قال القزم: «أنت تتحدث بهذه الطريقة فقط لأنك واحد من هؤلاء، أنت أفضل منّي. سترى ما سيفعلونه بك إذا قبضوا عليك».

سألته: «من تقصد؟».

أجابني: «جنود الليل».

سألته: «من هؤلاء، وماذا يفعلون لمن هم مثلي؟».

أجابني بسخرية: «لا عليك. أتمنى فقط أن تكون قادراً على القتال، لكنني أشكّ في ذلك. تبدو قوياً من الخارج، لكنني أعتقد أنك هشّ من الداخل. هكذا يتصرف الناس عندما لا يضطرون إلى الكفاح. لم تفوّت كثيراً من الوجبات، أليس كذلك يا سيدي الصغير؟».

قلت: «ألاحظ أنك ما زلت تمسك بالخنجر يا سيد بيتركين. ضعه جانباً أو قد أجعلك تتخلص منه».

دس القزم الخنجر في حزام خصره، وكنت آمل أن يجرح نفسه وهو يفعل ذلك. كانت هذه فكرة لئيمة، ثمّ خطرت ببالي فكرة أكثر لؤماً: ماذا لو أمسكت باليد التي كانت تُمسك قائمتي الصرصار الأحمر معاً وقطعتها، كما فعلت مع بولي؟ كنوع من الدروس العملية. أستطيع أن أكذب وأخبركم بأنها لم تكن فكرة جديّة، لكنّها في الواقع كانت كذلك. كان من السهل جدّاً تخيّله وهو يستخدم خنجره على رادار: غرزة، غرزة، غرزة. ما كان يستطيع فعل هذا بها عندما كانت في شبابها.

لم أنفّذ أيّ من أفكاري تلك، وتركته يمضي في طريقه. نظرَ إلى الخلف مرة واحدة قبل أن يمشي، ولم يقصد بتلك النظرة: أسعدني اللقاء بك أيها الفتى الغريب، بل كانت تعني: لا تدعني أعثر عليك نائماً.

من المحال أن يحدث ذلك، مضى في طريقه إلى المكان الذي يتجه إليه باقي اللاجئين. فكّرت بعد رحيله، بأنه كان عليّ حقّاً إجباره على رمي الخنجر بعيداً.

6

حلّ العصر، لم أعد أرى حقولاً محروثة، ولا مزارع، ولا لاجئين، على الرغم من أنني رأيت عربات ذات مقبضين مليئة بالممتلكات في الفناء الأمامي لإحدى المزارع المهجورة، ورأيت أيضاً دخاناً خفيفاً يتصاعد من المدخنة. ظننت أنهم ربّما قرروا الاختفاء قبل أن تبدأ الذئاب في العواء. سيكون من الحكمة أن أفعل الشيء نفسه، إذا لم أصل إلى منزل عمّ ليا قريباً. كان لديّ مسدس السيد بوديتش ومسدس بولي عيار 0.22، لكن الذئاب تميل إلى التنقّل في مجموعات، إضافة إلى أنها أن تكون كبيرة مثل الموظ، على حدّ علمي. وقد بدأت أشعر بالتعب في ذراعي، وكتفي، وظهري. كانت العربة خفيفة، وعلى الأقل لم يكن هناك المزيد من بقع الوحل، لكنني كنت قد عبرت مسافةً طويلةً منذ أن غادرت كوخ دورا.

رأيتُ الأحرف الأولى من اسم السيّد بوديتش- أي. بي- ثلاث مرّات أخرى، مرّتين على الأشجار المجاورة للطريق، ومرّة أخيرة على صخرة ضخمة. بحلول ذلك الوقت، كانت الشمس قد اختفت خلف الأشجار، وخيّم الظلام على الأرض. مرّ وقت لم أرَ فيه أي منازل، وبدأت أشعر بالقلق من أننا قد نضطر للبقاء على الطريق عندما يصبح الظلام دامساً. لم أرد ذلك حقاً.

أعطتنا الآنسة ديبينز عشرين قصيدة لنختار منها واحدة، ونحفظ منها ستة عشر بيتاً على الأقل بصفتنا طلاباً في السنة الثانية. اخترت قصيدة (البحّار العجوز)، وتمنيت الآن لو أنني اخترت شيئاً آخر، لأن الأبيات كانت مناسبة جدّاً: كذلك الذي يسير على طريق مهجور في خوف ورهبة، وبعد أن استدار لمرّة واحدة، بعدها مضى دون التفات...

أنهيتها بصوتٍ عالٍ: «لأنه يعرف، أن هناك شيئاً شريراً خفيّاً يدنو منه من الخلف». أنزلتُ مقبضي العربة، ونظرت إلى اسم السيد بوديتش المحفور على الصخرة. لا بدّ أنه أرهق نفسه بالفعل في كتابته؛ كانت الحروف بارتفاع ثلاث أقدام. قلت: «ستنبحين لتنبّهيني إذا رأيت شيئاً شريراً مخيفاً خلفنا يا رادار، أليس كذلك؟».

كانت نائمة في العربة. فكّرت في شرب بعض الماء – كنت أشعر بعطش شديد- لكنني قرّرت أنه يمكنني التحمّل قليلاً. رغبت في المضي قدماً لأطول مسافة ممكنة ما دام هناك شعاع من ضوء النهار. أمسكت بالمقبضين ومشيت، معتقداً أن رؤية أيّ كوخ وإن كان خشبياً ستكون علامة جيّدة في هذه المرحلة.

كان الطريق متعرجاً، ثمّ استوى تماماً لينتهي مباشرة بالشفق. رأيت منزلاً نوافذه مضاءة، على بعد ميل تقريباً. اقتربت، ورأيت فانوساً معلّقاً على عمود في الخارج. يمكنني القول إن الطريق تشعّب قبل ستين أو سبعين ياردة من المنزل، والذي كان مبنياً من الطوب... تماماً كالمنزل في قصّة الخنزير الصغير المجتهد.

رأيتُ ممرّاً مرصوفاً بالحجر يؤدي إلى الباب الأمامي، لكن قبل أن أتجه إليه، توقفت لأتفحص الفانوس، الذي ينبعث منه ضوء أبيض قويّ، ممّا يصعّب رؤيته عن قرب. سبق لي أن رأيت واحداً مثله، في قبو السيد بوديتش، لم أكن مضطراً لتفقّد قاعدته لمعرفة أنه من صنع كولمان، المتوفرة في أيّ متجر أجهزة أمريكي. خمنت أن الفانوس، حاله حال ماكينة خياطة دورا، هديّة من السيد بوديتش. ألم يقل إن الجبان يقدّم الهدايا.

كان هناك مطرقة ذهبيّة وسط الباب. أنزلتُ العربة، وسمعت رادار تهرول وتشقّ طريقها مقتربة منّي. كنت على وشك طرق الباب عندما فُتح. استقبلني رجل يناهزني طولاً، لكنّه أنحف منّي بكثير، ويمكنني وصفه

بالهزيل. بدا كذلك بسبب نيران المدفأة خلفه، لم أتمكّن من تحديد ملامحه، لاحظتُ قطاً على كتفه، وشعره الأبيض الخفيف على رأسه الأصلع. عندما تحدّث إليّ، تخيّلت مرّةً أخرى أنني دخلت كتاب القصص القصيرة، وأصبحت أحد شخصيّاته.

قال لي: «مرحباً أيّها الأمير الشاب. كنت أنتظرك. أهلاً وسهلاً بك في منزلي».

7

أدركتُ عندها أنني تركتُ لجام رادار في العربة، فقلت: «اممم، ربّما عليّ أن أجلب لجام كلبتي أولاً يا سيّدي. لا أعرف كيف ستتعامل مع القطط».

قال الرجل العجوز: «ستكون بخير، لكن في حال كان لديك طعام، أقترح عليك إدخاله، إذا لم ترد أن تفقده صباحاً».

ذهبتُ وأحضرتُ حقيبتي وحزمة الطعام التي أعدّتها لنا دورا، بالإضافة إلى لجام رادار من باب الاحتياط.

انحنى الرجل قليلاً، وقال لرادار: «ادخلي يا رادار، لكن كوني جيّدة. أنا أعوّل عليكِ».

تبعتني رادار إلى غرفة جلوس أنيقة يُغطي بساط أرضيتها الخشبيّة، وفيها كرسيّان مريحان بالقرب من المدفأة، وكتاب مفتوح على ذراع أحدهما، وبضعة كتب أخرى على الرفّ القريب. كان الجانب الآخر من الغرفة عبارة عن مطبخ صغير. على الطاولة كان هناك خبز، وجبن، ودجاج بارد، ووعاء مليء بهلام التوت البرّي، وإبريق من الفخار. أصدرت معدتي صوت قرقرة عالياً.

فضحك الرجل، وقال: «سمعتُ ذلك. هناك قول مأثور يقول يجب الاهتمام بالشباب».

كان هناك كرسيّان، ووعاء على الأرض بجانب أحدهما، والذي كانت رادار قد بدأت بالشرب منه.

سألته: «كنت تعلم أنني قادم، أليس كذلك؟ كيف عرفت؟».

قال لي: «هل تعرف الاسم الذي نفضل عدم التحدث عنه؟».

أومأتُ برأسي. غالباً ما يوجد في مثل هذه قصص التي بدا لي أنني دخلتها، اسم لا يتوجّب علينا نطقه، كي لا يوقظ الشر.

قال: «لم يأخذ كلّ شيء منّا. كما رأيت، استطاعت ابنة أخي أن تتحدّث إليك، أليس كذلك؟».

قلت: «عبر فرسها».

قال: «نعم، فلادا. ليا تتحدث معي أيضاً أيّها الأمير الشاب، على الرغم من ندرة ذلك. لكنّها عندما تفعل، فليس بالضرورة أن يكون تواصلها واضحاً، يحزنها ضياع أفكارها أكثر من ضياع صوتها. لدينا أشياء كثيرة نناقشها، لكن دعنا نأكل أولاً، تفضّل».

ظننت أنه يقصد التخاطر عندما ذكر التواصل. لا بدّ أن يكون الأمر كذلك، لأنها بالتأكيد لم تتواصل معه، أو ترسل له رسالة نصية.

سألته: «لماذا تدعوني بالأمير الشاب؟».

هزّ كتفيه، فتحرك القطّ على كتفه، وقال: «كنوع من الألقاب النمطيّة التقليدية. ربّما سيأتي أميرٌ حقيقيّ في يومٍ من الأيام، لكن لا أظنّ أنه أنت، بالحكم على صوتك. أنت صغيرٌ جداً».

ابتسمَ واستدار نحو المطبخ. فأضاءت النار وجهه بالكامل للمرّة الأولى، سبق لي أن عرفت أنه أعمى، بسبب الطريقة التي يمدّ بها يده أمامه وهو يمشي، وكأنه يتفحّص الهواء بحثاً عن العقبات.

8

جلسَ، فقفزَ القطّ بني الشعر على الأرض. اقتربَ من رادار، واستعددت لإمساك طوقها إذا هاجمته. لكنّها لم تفعل شيئاً، أخفضت رأسها فقط، وشمت أنف القطّ. ثمّ استلقت على الأرض.

سارَ القطّ أمامها كأنه ضابط يتفقد جنديّاً في موكب (فوجدها قذرة)، ثمّ تبخترَ في غرفة المعيشة، قفز إلى الكرسي الذي وضع الكتاب على ذراعه، وجلس متقوقعاً على نفسه.

قلت: «اسمي تشارلي ريد، تشارلي. هل أخبرتكَ ليا بذلك؟».

قال: «كلا، لا يعمل التخاطر بهذه الطريقة. إنه أشبه بالحدس. تسرّني مقابلتك أيّها الأمير تشارلي». الآن بعد أن أنار الضوء وجهه، استطعت أن أرى ملامحه بوضوح، اختفت عيناه تماماً مثل فم ليا، وتركتا مكانهما ندبتين. قال: «اسمي ستيفن وودلي. كان لقبي سابقاً - وليّ العهد- لكن تلك الأيام قد ولّت. نادني وودي، إذا أردت، فنحن نعيش بالقرب من الغابة، أليس كذلك؟ أنا وكاتريونا».

سألته: «قطّتك؟».

أجابني: «نعم. وأعتقد أن اسم كلبتك هو... رايمار؟ أو شيء من هذا القبيل. لا أذكر بالضبط».

قلت: «رادار، إنها كلبة السيد بوديتش. لكنّه مات».

قال: «أووه، يؤسفني سماع ذلك». وبدا حزيناً، لكنّه لم يتفاجأ.

سألته: «ما مدى معرفتك به يا سيّدي؟».

أجابني: «أرجوك نادني بوودي. قضينا بعض الوقت معاً. كما سأفعل معك يا تشارلي، أو هذا ما آمله. ولكن يجب أن نأكل أولاً، لأنك اجتزت طريقاً طويلاً اليوم، على ما أعتقد».

قلت: «هل يمكنني أن أطرح سؤالاً واحداً أولاً؟».

ابتسم ابتسامة عريضة، مما تسبّب بتجعّد وجهه، وقال: «إذا كنت تريد أن تعرف كم عمري، فأنا لا أتذكّر حقّاً. أظنّ أحياناً أنني كنت عجوزاً عندما بدأ العالم».

قلت: «لا، ليس هذا ما أردت أن أسأل عنه. رأيت الكتاب وتساءلت... إذا كنت، كما تعلم...».

قال: «كيف أقرأ إذا كنت أعمى؟ ألقِ نظرة على الكتاب. هل ترغب في تناول الفخذ أو الصدر؟».

قلت: «الصدر، من فضلك».

بدأ يضع الطعام في طبقي، لا بدّ أنه اعتاد على القيام بذلك، فلم يكن هناك أيّ تردّد في حركاته. نهضتُ، وذهبت إلى كرسيه. نظر كاتريونا إليّ بعينيه الخضراوين الحكيمتين. كان الكتاب قديماً، يُظهر غلافه خفافيش تطير في اتجاه القمر الكامل، كتاب (الملاك الأسود) لكاتبته، كورنيل وولريتش. ربّما كان أحد الكتب المكدسة في غرفة نوم السيد بوديتش، لكنني عندما التقطته ونظرت إلى الصفحة التي توقّف عندها وودي، لم أرَ أيّ كلمات، فقط مجموعة من النقاط الصغيرة. تركت الكتاب، وعدت إلى الطاولة.

قلت: «أنت تقرأ بطريقة البرايل». فكّرت في نفسي، لا بدّ أن لغة الكتب تغيّرت أيضاً، تمّت ترجمتها. كم هذا غريب؟

أجابني: «نعم. أحضر لي أدريان كتاب تعليميّ يظهر بعض الأحرف، وبعدها تمكّنت من تعليم نفسي. كان يحضر لي كتباً أخرى مكتوبة بطريقة البرايل من وقتٍ إلى آخر. كان منحازاً للحكايات الخيالية، مثل التي كنت أقرأها وأنا أنتظر وصولك. رجال خطيرون وفتيات يعشن في المصائب ويعيشون في عالم مختلف تماماً عن هذا العالم».

هزّ رأسه وضحك، وكأن قراءة الحكايات الخيالية كان نشاطاً تافهاً، بل وربّما جنونيّاً. تورّدت وجنتاه من الجلوس بالقرب من النار، ولم أرَ فيهما أثراً للون الرمادي. وكأنه كان سليماً، لكنّه في الحقيقة لم يكن كذلك، وكذلك الأمر بالنسبة إلى ابنة أخيه. لم يكن لديه عينان ليرى بهما، ولم يكن لديها فم لتتحدّث منه، فقط ندبة تفتحها بأظافرها لتتناول القليل من الطعام. تماماً كإحدى الفتيات الضعيفات في تلك الحكايات الخيالية.

قال لي: «تفضّل، اجلس».

اقتربت من الطاولة. عوى ذئبٌ في الخارج، وهذا يعني أن القمر أو بالأحرى القمرين قد ظهرا. لكننا كنّا بأمان في هذا المنزل المبني من الطوب. إذا نزل ذئبٌ ما من المدخنة، فستحرق النار فراءه.

قلت: «يبدو هذا العالم خياليّاً بالنسبة إليّ».

قال: «ابقَ هنا لفترة كافية وسيبدو لك عالمك الأساسي خياليّاً. الآن تناول الطعام يا تشارلي».

9

كان الطعام لذيذاً جداً. طلبتُ مرتين أن يسكب لي مجدداً. ثمّ شعرت بقليل من الذنب حيال ذلك، لكنّه كان يوماً طويلاً وقد جررت تلك العربة لثمانية عشر أو عشرين ميلاً. أكل وودي باعتدال، القليل من أفخاذ الدجاج وهلام التوت البري، ممّا زاد شعوري بالحرج. تذكرتُ يوم أوصلتني والدتي

لأنام في منزل آندي تشين، وأخبرت والدته بأنني آكل بشراهة، وأنني قد آكل كلّ ما في منزلهم من طعام إذا سمحَت لي بذلك. سألتُ وودي من أين حصل على مؤونه.

أجابني: «الواجهة البحرية. هناك بعض الذين ما زالوا يتذكرون مثلنا.. أو مثلما كنّا... ويقدّرون ذلك. جاء اللون الرمادي إلى هناك الآن. الناس يغادرون، ربّما قابلت بعضاً منهم على الطريق».

قلت: «نعم»، وأخبرته عن بيتركين.

قال: «صرصار أحمر، أليس كذلك؟ هناك أساطير... لكن لا تهتم. سعيد لأنك أوقفته. ربّما أنت أمير بعد كلّ شيء. هل شعرك أشقر، وعيناك زرقاوان؟».

أجبت: «لا، كلاهما بنّي».

قال: «لست أميراً، ولست الأمير بالتأكيد».

قلت: «من هو الأمير؟».

قال: «مجرّد أسطورة أخرى. هذا عالم من القصص والأساطير، كما هو عالمك. بالنسبة إلى الطعام... اعتدت الحصول على كمّية كبيرة من الطعام من الواجهة البحرية، أكثر من حاجتي، وغالباً ما يكون سمكاً بدلاً من اللحوم. كما قد تتوقع من الاسم. مرّ وقت طويل على غزو اللون الرمادي لهذا الجزء من العالم – لا أعلم منذ متى حقّاً، تصبح الأيام متشابهة عندما يبقى المرء دائماً في الظلام». قال ذلك من دون أيّ شعور بالشفقة على الذات، وكأنه يذكر الحقائق فقط. ثمّ تابع كلامه: «أعتقد أن الواجهة البحرية سلِمت من غزو اللون الرمادي لبعض الوقت، لأنها تقع في شبه جزيرة ضيّقة، حيث تهب الرياح دائماً، لكن لا أحد يعلم على وجه اليقين. كنت قد

التقيت بالعشرات من الأشخاص على طريق الملوك في العام الماضي يا تشارلي. لكن العدد ينحسر الآن».

قلت: «طريق الملوك؟ هذا ما تسميه؟».

قال: «نعم، ولكن بمجرد أن تجتاز مفترق الطرق، يصبح طريق المملكة. إذا اخترت الذهاب يساراً عند مفترق الطرق، فستصبح على طريق الواجهة البحرية».

سألته: «إلى أين هم ذاهبون؟ أعني، بعد منزل دورا، ومزرعة ليا، ومتجر شقيق دورا».

قال باندهاش: «هل ما زال يحتفظ بذلك المتجر؟ أنا متفاجأ حقّاً. أتساءل ما الذي يبيعه؟».

قلت: «لا أعلم. أنا أعرف فقط أنه يبدّل أحذيتهم القديمة بأحذية جديدة».

ضحك وودي، وقال بسرور: «دورا وجيمس! الحيل القديمة! الإجابة عن سؤالك هي أنني لا أعرف، وأنا متأكد من أنهم لا يعرفون. فقط بعيداً، بعيداً، بعيداً».

صمتت الذئاب لفترة، ثمّ عاودت العواء. بدا الأمر وكأنه هناك العشرات منها، كنت سعيداً جدّاً لأنني في منزل وودي. بدأت رادار بالأنين، ربّتتُ رأسها. قلت: «لا بدّ أن القمرين قد ظهرا».

قال: «هناك قمر واحد فقط في مملكتك الخيالية، وفقاً لأدريان. يقول أحد شخصيات كتاب السيد كورنيل وولريتش: «لقد خُدعنا». أتريد قطعة كعك يا تشارلي؟ أخشى أنك قد تجدها فاسدة قليلاً».

قلت: «سيكون الكعك رائعاً، هل تريدني أن أجلبها؟».

قال: «لا عليك. أعرف طريقي جيّداً بعد كلّ هذه السنوات هنا، إنه مكان مريح للمنفى، ألا تعتقد ذلك. الكعك على رف في الخزانة. اجلس وارتاح، سأعود مع قطعتين».

أثناء جلبه الكعك، سكبتُ لنفسي مزيداً من عصير الليمون من الإبريق. يبدو أن عصير الليمون هو المشروب المفضل في إمبيس. أحضر لكل منا قطعة من كعك الشوكولاتة. أشعرني مذاق الكعك أن ما كنا نحصل عليها في المدرسة الثانوية بسيط للغاية. لم أعتقد أن الكعك فاسد على الإطلاق، كل ما في الأمر أن أطرافه كانت قاسية قليلاً.

صمتت الذئاب فجأة، وهذا ما جعلني أفكر مرّة أخرى أن شخصاً ما سحب قابس مضخم الصوت. قلت: «أعتقد أن الغيوم قد عادت من جديد، ستذهب الذئاب بعيداً، أليس كذلك؟».

هزّ رأسه ببطء، وقال: «ليس منذ قدومه. إنها تمطر هنا أيّها الأمير تشارلي لكنّها تكاد لا تشرق أبداً».

قلت: «يا الله».

أجاب وودي مبتسماً: «أميرٌ آخر، للسلام، وفقاً للكتاب المقدس بطريقة البرايل الذي جلبه لي أدريان. هل شبعت؟ هذا يعني...».

قلت: «أعرف ما تعنيه، لقد شبعت حقّاً».

وقف، وقال: «إذاً تعالَ واجلس بجانب النار. علينا أن نتحدّث».

تبعته إلى كرسيّي صالونه الصغير، وتبعتني رادار. بحث وودي عن كاتريونا، وجده وحمله. استلقى على يديه، وكأنه مشلح من الفرو، إلى أن وضعه على الأرض. نظر نظرة متعجرفة إلى كلبتي، ثمّ أدار لها ذيله وابتعد. استلقت رادار بين الكرسيين. أطعمتُها بعضاً من الدجاج، لكنّها أكلت قليلاً فقط. نظرَت رادار إلى النار وكأنها تفكّ أسرارها. فكرتُ بسؤال وودي عمّا

سيفعله بشأن المؤون الآن بعد أن بدأ إخلاء بلدة الواجهة البحرية، لكنني قرّرتُ عدم القيام بذلك. خشيتُ أن يخبرني أنه لا يعلم.

قلت: «أريد أن أشكرك على الوجبة».

لوّح بيديه.

قلت: «ربّما تتساءل عمّا أفعله هنا».

قال: «لا على الإطلاق». مدّ يده إلى الأسفل، وربّتَ ظهر رادار. ثمّ وجّه الندبتين التي تمثّل عينيه إليّ. وتابع: «كلبتك تحتضر، وليس هناك وقت لتضيعه إذا كنت تنوي تحقيق ما جئت من أجله».

10

كنتُ مسترخياً، معدتي مليئة بالطعام، وأشعر بالأمان في منزل من الطوب مع صمت الذئاب والمدفأة. كنت أشعر بالرضا، لكنني جلست منتصباً، عندما قال إن رادار تُحتضر. قلت: «ليس بالضرورة. لقد تقدّمت في العمر، وتعاني من التهاب المفاصل، لكنّها ليست كذلك...».

تذكّرتُ مساعدة الطبيب البيطري التي قالت إنها ستكون متفاجئة إذا بقيت رادار حيّة حتّى الهالوين، وصمتُّ.

قال: «أنا أعمى، لكن حواسي الأخرى تعمل بشكل جيد». كان صوته لطيفاً، وهذا ما جعل كلامه مخيفاً أكثر. في الواقع، أصبحت أذنيّ أكثر حدّة أكثر من أيّ وقت مضى. اعتدتُ أن يكون لديّ خيول وكلاب في القصر، عندما كنت طفلاً وشاباً دائماً ما كنت في الخارج معها، وأحببتها جدّاً. أعرف كيف تبدو عندما تقترب من نهاية عمرها. استمع! أغمض عينيك، واستمع!».

فعلت ما قاله لي، سمعت صوت فرقعة من حين إلى آخر من المدفأة، سمعتُ الساعة تدقّ في مكان ما، وصوت نسيم الهواء في الخارج.

ثمّ سمعت صوت تنفّس رادار: الأزيز في كلّ مرّة تستنشق فيها الهواء، والحشرجة مع كلّ زفير.

قال: «أتيت من أجل الساعة الشمسية».

قلت: «نعم، هناك ذهب، قطع ذهب صغيرة، شيء يشبه الخرطوش. لستُ بحاجة إلى ذلك الآن، لكن السيد بوديتش قال لي لاحقاً...».

قال: «لا تهتمّ بالذهب الآن. مجرّد الذهاب إلى الساعة الشمسية... واستخدامها... أمر خطير بما يكفي لأمير شابّ مثلك. لم تكن هانا في زمن بوديتش. قد تجد طريقك وتتخطّاها إذا كنت حريصاً... ومحظوظاً. لا يمكنك إلغاء دور الحظ في مثل هذه الأعمال. بالنسبة إلى الذهب... الأمر أكثر خطورة. من الجيد أنك لست بحاجة إليه الآن».

هانا، تجاهلت الاسم حاليّاً. لأن هناك شيئاً آخر أثار فضولي على الفور.

سألته: «لماذا أنت على ما يرام؟ أعني، عدا عن كونك أعمى». تمنّيت لو استطعت استعادة ما قلته بمجرد خروج الكلمات من فمي، فاعتذرت قائلاً: «آسف، لم يكن هذا لبقاً».

ابتسم، وقال: «لا داعي للاعتذار. بالنظر إلى الاختيار بين أن أكون أعمى أو أن أصبح رمادياً، فسأختار العمى في كلّ مرة. لقد اعتدت على كوني كذلك. وبفضل أدريان، لديّ حكايات خيالية لأقرأها. الرمادي يعني الموت البطيء، يجعل التنفس أصعب وأصعب، ويحوّل الوجه لقطعة لحم عديمة الفائدة. فينغلق الجسد». رفع إحدى يديه وقبضها، وتابع: «هكذا».

سألته: «هل سيحدث ذلك لدورا؟».

أومأ برأسه، لكنه لم يكن مضطرّاً للإجابة فأنا مجرّد فتى يسأل.

سألته: «كم من الوقت لديها؟».

أجابني: «من المستحيل معرفة ذلك. إنها عملية بطيئة، وليست متماثلة عند الجميع، لكنها قاسية، وهذا هو الرعب بحدّ ذاته».

سألته: «ماذا لو غادرَت؟ ذهبَت إلى حيث يذهب الآخرون؟».

قال: «لا أعتقد أن هذا مهمّ. لا شيء يمكن أن يوقف اللون الرمادي بمجرّد أن يظهر. مثل مرض الهزال. هل هذا ما تسبب في موت أدريان؟».

افترضت أنه كان يتحدث عن السرطان، وأجبته: «كلا، أصيب بنوبة قلبية».

قال: «آه، قليل من الألم، ثمّ رحل. أفضل من الرمادي. قال أدريان إن العديد من قصص عالمك تبدأ بـ كان يا مكان».

قلت: «نعم، ورأيت هنا الكثير من الأشياء المشابهة لتلك القصص».

قال: «وكذلك أشياء تشبه عالمك، أنا متأكد من ذلك، كلّها قصص أيّها أمير تشارلي».

عوت الذئاب. أغلق وودي كتابه، ووضعه على طاولة صغيرة بجانب كرسيه. تساءلت كيف سيجده مرّة أخرى. عاد كاتريونا، وقفز إلى حجره، وبدأ يخرخر.

قال: «كان يا مكان، في مدينة ليليمار في أرض إمبيس، كانت هناك عائلة ملكية تعود إلى آلاف السنوات. حكَم غالبيّتهم – ليس جميعهم - بحكمة. ولكن عندما حان الوقت العصيب، قُتل كلّ أفراد العائلة تقريباً، لقد ذُبحوا».

قلت: «أخبرتني ليا عن ذلك. عن طريق فلادا، كما تعلم. قالت إن أباها وأمّها ماتا. كانا الملك والملكة، أليس كذلك؟ لأنها قالت إنها أصغر الأميرات».

ابتسم، قائلاً: «نعم بالفعل، أصغرهنّ جميعاً. هل قالت لك إن شقيقاتها قتلن؟».

قلت: «نعم».

قال: «وماذا عن شقيقيها؟».

قلت: «لقد قُتلا أيضاً».

تنهّدَ، داعبَ قطّه، ونظرَ إلى النار. أنا متأكّد من أنه يشعر بحرارته، لكنني تساءلت إن كان يمكنه رؤية شيء ما منه - كأن تنظر إلى الشمس وعيناك مغمضتان وترى الاحمرار. فتحَ وودي فمه كأنه يريد أن يقول شيئاً ما، ثمّ أغلقه مرّة أخرى وهزّ رأسه قليلاً. شعرت أن الذئاب قريبة جدّاً... ثمّ توقفت عن العواء بطريقة مخيفة.

قال: «كانت عملية تطهير. هل تعرف معنى ذلك؟».

أجبت «نعم».

قال: «نجا القليل منّا. هربنا من المدينة، لكن هانا لم تغادرها لأنها منبوذة في أرضها، في أقصى الشمال. نجا ثمانية منّا وتمكّنوا من عبور البوابة الرئيسية. تاسعنا كان ابن أخي الويسيوس... لكنّه لم ينجح»، هزّ وودي رأسه مرّة أخرى، وتابع: «نجا ثمانية منّا من الموت في المدينة، وحمتنا دمائنا من اللون الرمادي، لكنّا أُصبنا بلعنة أخرى. هل يمكنك أن تخمّن ما هي؟».

قلت: «فقد كلّ واحد منكم إحدى حواسّه؟».

قال: «نعم، يمكن لليا أن تأكل، ولكن هذا يؤلمها، كما رأيت على الأرجح». أومأتُ برأسي، رغم أنه لم يستطع رؤيتي، «بالكاد تستطيع تذوّق ما تأكله، وكما رأيت، لا يمكنها التحدث إلا من خلال فلادا. أنها مقتنعة بأنه

ينخدع بذلك، إذا استمع لها. لا أعلم، قد تكون مُحقّة، ربّما هو يسمع حقّاً وهذا يسلّيه».

تفاجأت عندما قال: «هو... ».

انحنى وودي نحوي، وهمس في أذني. توقّعته أن يقول (غوغماغوغ)، لكنّه قال (قاتل الرحلة).

11

قال: «يمكن أن يرسل قتلة ليتخلّصوا منّا، لكنّه لا يفعل ذلك، يتركنا نعيش. العيش بالنسبة إلى أولئك الذين بقوا، هو عقاب كافٍ. كما قلت لك، لم ينجح الويسيوس في الهروب من المدينة. قُتلت إلين، ورنر، وجريتا. أعتقدّ أن يولاند لا تزال على قيد الحياة، لكنّها أُصيبت بالجنون. إنها عمياء، مثلي، تعيش في الغالب مُعتمدةً على لطف الغرباء. أُطعمها عندما تأتي وأثرثر معها. هكذا هم بنات وأبناء العم، كما تعلم – رابطة الدم. هل ما زلت تسمعني؟».

قلت: «نعم».

قال: «أصبح بيرتون ناسكاً يعيش في أعماق الغابة، يصلّي باستمرار من أجل تحرير إمبيس بيدين لا يمكنه أن يشعر بهما عندما يضغط عليهما معاً. لا يشعر بالجروح إلا عندما يرى الدم. يأكل، لكنّه لا يعرف ما إذا كانت معدته ممتلئة أو فارغة».

قلت: «يا إلهي». كنت أعتقد أن العمى هو الخيار الأسوأ، لكنّه لم يكن كذلك.

قال: «تترك الذئاب بيرتون وشأنه، ربما سبق لها أن تركته. لقد مرّ عامان أو أكثر منذ مجيئه إلى هنا، قد يكون ميتاً أيضاً. غادرت مع مجموعتي الصغيرة باستخدام عربة، لم أكن أعمى حينها كما تراني الآن، كنت أضرب

السوط على ستّة خيول خائفة. كانت معي ابنة عمي كلوديا، ابن أخي الويسيوس، وابنة أخي ليا. قدنا بسرعة الريح يا تشارلي، كانت عجلات العربة الحديدية تصطدم بالأحجار المرصوفة، مُصدرةً شرارات. طارت العربة في الهواء لمسافة عشر أقدام أو أكثر من أعلى جسر رامبا. لدرجة أنني ظننت أنها قد تنقلب أو تنكسر، لكنّها كانت متينة وجيّدة الصنع. كان بإمكاننا سماع زمجرة هانا خلفنا، أقرب من أيّ وقت مضى. لا يزال بإمكاني سماع تلك الزمجرة حتّى يومنا هذا. جلدتُ الخيول فركضت وكأن الجحيم يلاحقها... نظرَ الويسيوس إلى الوراء قبل أن نصل إلى الباب بقليل، فسحقت هانا رأسه من بين كتفيه. لم أرَ ذلك، كان كلّ انتباهي مثبّتاً نحو الأمام، وكذلك ليا لله الحمد، كانت ملفوفة في بطانية. لكن كلوديا رأت ذلك.. ثمّ دمّرت هانا الجزء الخلفي من العربة. أستطيع أن أذكر رائحة أنفاسها إلى الآن. رائحة الأسماك واللحوم الفاسدة، ورائحة عرقها. عبرنا البوابة في الوقت المناسب. صرخَت عندما عرفت أننا هربنا منها. لقد كان صوتها مشحوناً بالكراهية والإحباط. نعم، ما زلت أذكر كلّ ذلك».

توقف ومسح فمه بيده التي كانت ترتجف. لم أشاهد من قبل اضطراب ما بعد الصدمة خارج أفلام (خزانة الألم)، لكنني أراه الآن أمام عينيّ. لا أعرف متى حدث كلّ هذا، لكن الرعب لا يزال حيّاً. لم أحبّذ فكرة كوني المسؤول عن جعله يتذكر ذلك الوقت ويتحدث عنه، لكنني كنت بحاجة إلى معرفة ما حدث.

قال: «هل تستطيع أن تذهب إلى حُجرة المؤن الخاصة بي يا تشارلي؟ ستجد هناك زجاجة من نبيذ التوت الأسود في الخزانة الباردة. أريد كأساً صغيرة، اسكب واحداً لنفسك، إذا كنتَ ترغب في ذلك».

وجدتُ الزجاجة، وسكبت له كأساً. كانت رائحة التوت الأسود المخمّر كفيلة بقتل أيّ رغبة لي بالشرب، حيث كان من الممكن أن أسكب كأساً من

دون الحذر الصحي من شرب الكحول، لكنّي سكبت لنفسي المزيد من عصير الليمون بدلاً من ذلك.

شربَ من كأسه مرّتين، حتّى أفرغَ ما في الكأس تقريباً، ثمّ تنهّد وقال: «هذا أفضل، هذه الذكريات حزينة ومؤلمة. تأخّر الوقت، ولا بدّ أنك متعب. لذا، حان الوقت للتحدث عمّا يجب عليك فعله لإنقاذ كلبتك. إذا كنت لا تزال تنوي المضيّ قدماً في خطّتك».

قلت: «نعم، بالطبع».

سألني: «هل ستخاطرُ بحياتك وصحّتك العقليّة من أجل كلبتك؟».

أجبته: «هي كلّ ما تبقى من السيد بوديتش.» تردّدتُ قليلاً، ثمّ قلت: «وأنا أحبّها».

قال: «رائع، أنا أفهم حبّك لها. إليك ما يجب عليك فعله. استمع جيداً. عليك أن تمشي يوماً لتصل إلى منزل ابنة عمّي كلوديا، إذا تحركت بسرعة. عندما تصل إلى هناك... ».

استمعت بعناية. كأن حياتي تعتمد على كلامه.

12

كان مرحاض وودي عبارة عن مبنى خارجي متّصل بغرفة نومه بممرّ خشبي قصير. كنت أسير في ذلك الممر، حاملاً الفانوس (قديم الطراز، ليس كولمان)، وعندها سمعت صوت ضربة قوية، شيء ما اصطدم بالحائط. غسلتُ أسناني بالفرشاة واستخدمت المرحاض. تمنّيت أن تتمكّن رادار من التحمّل حتّى الصباح، فلن أستطيع إخراجها في هذا الوقت أبداً.

لم أضطرّ للنوم بجوار النار هنا، كانت هناك غرفة نوم ثانية، بسرير صغير مزيّن بغطاء مكشكش مطرز بالفراشات وكأنه من صُنع دورا،

وجدران مطليّة باللون الوردي. أخبرني وودي أن كلّاً من ليا وكلوديا قد استخدمتا هذه الغرفة من قبل، وليس منذ زمن بعيد.

قال: «ها هما». مدّ يده بعناية وحمل صورة صغيرة بيضوية الشكل ذات إطار مذهّب من أحد الرفوف. رأيتُ فيها فتاة مراهقة وامرأة شابة. كلتاهما جميلتان. وقفتا أمام نافورة، وقد وضعت كل منهما ذراعها على كتف الأخرى. ارتدتا فستانين جميلين ووضعتا قطعاً من الدانتيل على شعريهما. كان لليا فم تبتسم به، وفعلاً بدتا من عائلة ملكيّة.

أشرتُ إلى الفتاة، وسألته: «هل هذه ليا؟ قبل...؟».

أجابني: «نعم». ثمّ أعاد الصورة إلى مكانها برفق. قال: «كانتا جميلتين، قبل أن يحدث ذلك الفعل الانتقامي الحاقد بعد فرارنا من المدينة. أليس كذلك؟».

قلت: «نعم». بقيت أتأمّل الفتاة الصغيرة المبتسمة، وفكّرت في نفسي أن لعنة ليا كانت أفظع بمرتين من عمى وودي.

سألته: «انتقام من؟».

هزّ رأسه، وقال: «لا أريد التحدث عن ذلك. أتمنى فقط أن أرى تلك الصورة مرّة أخرى. لكن الأمنيات مثل الجمال تعدّ أشياء تافهة. نم جيداً يا تشارلي، يجب أن تذهب غداً مبكراً إذا كنت تريد الوصول إلى مطعم كلوديا قبل غروب الشمس، والتي بدورها قد تخبرك بالمزيد. لا تخرج أبداً إذا استيقظت في الليل - أو إذا أيقظتك كلبتك، مهما يكن السبب.

قلت: «نعم، أفهم ذلك تماماً».

قال: «حسناً. سُعدتُ بمعرفتك أيّها الأمير الشاب. كما يقولون، أيّ صديق لأدريان، هو صديقي».

غادر وهو يمشي بثقة، ويده ممدودة أمامه. لا بدّ أنه اعتاد على ذلك بعد كلّ هذه السنوات التي عاشها في الظلمة. تساءلتُ كم من الوقت مضى على ظهور غوغماغوغ، والتطهير الذي أهلكَ عائلته؟ ما هو أو من هو قاتل الرحلة؟ متى كانت ليا فتاة بفم مبتسم، وتستطيع الأكل وكأنه شيء من المسلّمات؟

كان ستيفن وودلي أو وودي... مثل راعي البقر في فيلم حكاية لعبة. ربّما كان ذلك مجرد صدفة، لكنني لا أعتقد أن الذئاب وبيت الطوب كانا كذلك، ثمّ كان هناك ذلك الشيء الذي قاله عن جسر رامبا.

موت والدتي فوق الجسر، وشبيه رامبيلستيلتسكين الذي كاد أن يقتله. هل من المفترض أن أصدّق أن كلّ ذلك مجرّد صدفة؟

نامت رادار بجانب سريري، والآن بعد أن لفت وودي انتباهي إلى خشخشة وأزيز تنفسها، لم أستطع عدم التفكير في ذلك. اعتقدتُ أن تنفّسها وعواء الذئاب المتقطع سيجعلانني أبقى مستيقظاً. لكنني غفوت بسرعة، كنت قد مشيت طويلاً طوال النهار، وسحبت عربة ورائي. لم أحلم بأيّ شيء، ولم أستيقظ إلى أن أوقظني وودي وهو يهزّ كتفي في الصباح الباكر، ويقول: «استيقظ يا تشارلي. لقد أعددتُ الفطور، ويجب أن تذهب في طريقك بمجرّد أن تأكل».

13

كان هناك وعاء مليء بالبيض المخفوق، ووعاء آخر مليء بالنقانق المدخّنة. أكل وودي قليلاً، وأكلت رادار قليلاً أيضاً، وأنهيت أنا كلّ ما تبقّى.

قال: «وضعت أشياءك في عربة دورا، وأضفت شيئاً عليك إظهاره لابنة عمي عندما تصل إلى منزلها. كي تعلم أنك من طرفي».

قلت: «أعتقد أنها لا تتعامل بالحدس، أليس كذلك؟».

ابتسم، قائلاً: «بلى، في الواقع، وقد بذلتُ قصارى جهدي في هذا الصدد، لكن ليس من الحكمة الاعتماد على الحدس في مثل هذه الأمور. إضافة إلى أنه شيء ستحتاج إليه لاحقاً إذا نجحت مهمتك، وتمكنت من العودة إلى عالم الحكايات الخيالية الخاص بك».

سألته: «ما هو؟».

أجاب: «انظر في حقيبتك وسترى». ابتسم ومدّ يده نحوي، وأمسكني من كتفي، وقال: «قد لا تكون الأمير تشارلي، لكنّك فتى شجاع».

دندنت: «يوماً ما سيأتي أميري».

ابتسم إلى أن أصبح وجهه مليئاً بالتجاعيد، وقال: «كان أدريان يغنّي الأغنية نفسها، وقال لي إنها من إحدى الرسوم المتحرّكة».

قلت: «بياض الثلج والأقزام السبعة».

أومأ وودي برأسه، وقال: «قال أيضاً إن القصة الحقيقية كانت أكثر قتامة».

فكّرت في نفسي، أليس هذا حال جميع القصص.

قلت: «شكراً لك على كلّ شيء. اعتنِ بنفسك، وبكاتريونا».

قال: «نحن نعتني ببعضنا. هل تتذكر كلّ ما قلته لك؟».

قلت: «نعم، أعتقد ذلك».

سألني: «ما الأكثر أهميّة؟».

أجبت: «أن أتبع علامات السيد بوديتش، وأن أبقى هادئاً وأخرج من المدينة قبل حلول الظلام لتجنّب جنود الليل».

قال: «هل تصدق ما قلته لك عنهم يا تشارلي؟ يجب عليك ذلك، وإلا قد تميل إلى البقاء لفترة طويلة، إذا لم تصل إلى الساعة الشمسية».

قلت: «لقد قلت لي إن هانا عملاقة، وأن جنود الليل هم الموتى الأحياء».

قال: «نعم، ولكن هل تصدق ذلك؟».

فكّرت في الصراصير الكبيرة والأرانب العملاقة، والصرصار الأحمر الذي بحجم كاتريونا تقريباً، وفي وجه دورا الذي اختفى تاركاً ندبة على فمها. وقلت: «نعم، أنا أصدّق كلّ ما قلته لي».

قال: «جيّد، لا تنسَ أن تُظهر الشيء الذي وضعته في حقيبتك لكلوديا».

رفعتُ رادار، ووضعتها في العربة. فتحت حقيبتي، فرأيت مطرقة ذهبيّة تتلألأ أعلى حقيبتي تحت ضوء يوم غائم آخر. نظرتُ إلى باب المنزل المبني من الطوب، ولاحظتُ أن المطرقة قد اختفت. حملتُها بيدي وتفاجأتُ بثقلها.

قلت: «يا إلهي، وودي! هل هذه من الذهب الخالص؟».

قال: «نعم، في حال شعرت بأيّ إغراء للدخول إلى الخزانة وتأجيل الوصول إلى الساعة الشمسية، تذكر أن لديك هذا لتضيفه إلى كلّ ما استخلصه أدريان من القصر في زيارته الأخيرة.. رافقتك السلامة أيّها الأمير تشارلي. آمل ألا تحتاج إلى استخدام سلاح أدريان، لكن لا تتردّد إذا كان عليك ذلك».

الفصل السادس عشر:
طريق المملكة- كلوديا- التعليمات- الملوك.

1

اقتربت ورادار من مفترق الطرق، ووجدنا لافتة تشير إلى أن طريق المملكة على اليمين. كانت اللافتة التي تشير إلى طريق الواجهة البحرية مفكوكة وموجّهة إلى الأسفل بشكل مستقيم، وكأن الواجهة البحرية كانت تحت الأرض. رأيت رجلاً وصبيّاً قادمين من جهة الواجهة البحرية، نبحَت رادار عليهما بشكل ضعيف. كان الرجل يمشي على عكاز، وقدمه اليسرى ملفوفة بضمادة قذرة وبالكاد تلامس الأرض كلّ بضع خطوات. تساءلتُ إلى أيّ مدى سيكون قادراً على الاستمرار بالمشي على ساق واحدة مُعافاة. لم يكن

الصبي قادراً على المساعدة كثيراً، فقد كان صغيراً يحمل كيس بضائع ينقله من يد إلى أخرى وأحياناً يَجرّه على الطريق. وقفَ عند مفترق الطرق، وشاهدني وأنا أتّجه يميناً، متجاوزاً اللافتة.

صاح الصبي: «لا تسلك هذا الطريق يا سيّدي! إنه طريق المدينة المسكونة! كان الولد رمادي اللون، لكن ليس بقدر الرجل الذي معه. ربّما كانا أباً وابنه، لكن رؤية الشبه بينهما كانت مستحيلة، لأن وجه الرجل بدأ بالاختفاء تقريباً.

ضربَ الرجل الصبي على كتفه، وكاد أن يُسقطه أرضاً ما لم يثبت نفسه.

قال الرجل: «اتركه، اتركه يفعل ما يريد». كان كلامه مفهوماً لكن صوته مكتوماً، كما لو أن حباله الصوتية ملفوفة بمناديل. اعتقدت أنه سرعان ما سيتحوّل صوته إلى صوت دورا.

صاح لي بصوتٍ عالٍ: «مرحباً أيّها الرجل الكامل! مَن عاشرت أمّك حتّى أتى وجهك جميلاً هكذا؟»، بدا جلياً أن الصراخ آلمه، أصبحت ملامحه أكثر فظاعة بسبب تعابير الألم.

لم يكن لديّ أيّ فكرة عمّا يتحدث عنه، لذلك لم أقل شيئاً. نبحَت رادار بشكل ضعيف مرّة أخرى.

سألني الصبي: «هل هذا كلب؟ أم ذئب مروّض؟».

ضربَه الرجل مرّة أخرى على كتفه. ثمّ سخر منّي، وقام بإيماءة فهمتها تماماً. هناك أشياء لا تتغير، على ما يبدو، بغضّ النظر عن العالم الذي تعيش فيه. شعرت برغبة بأن أردّ له تلك الإيماءة على الطريقة الأمريكية، ولكنني لم أفعل، لأن السخرية من الأشخاص ذوي الإعاقة هو سلوك فظّ للغاية، حتّى وإن كان الشخص المعاق أحمق يضرب ابنه ويستهزئ بوالدتك.

صرخ بصوت مكتوم: «امضِ في طريقك أيّها الرجل الكامل، قد يكون هذا يومك الأخير!».

فكّرت في نفسي، من الجيد دائماً مقابلة أشخاص لطيفين على الطريق. لكن بسرعة لم أعد أرى أحداً.

2

كان طريق المملكة كلّه ملكي، ممّا منحني متسعاً من الوقت للتفكير... والتساؤل.

مثلاً، الأشخاص الكاملون - ماذا كانوا؟ من هم؟ هناك أنا بالطبع، لكنني ظننت أنه لو كان هناك كتاب يسجّل عدد الأشخاص الكاملين، فسيكون اسمي أعلى القائمة، لأنني لم أكن من إمبيس (على الأقلّ هذا الجزء من العالم يسمى كذلك؛ أخبرني وودي أن هانا العملاقة جاءت من مكان يُدعى كراتشي). ارتحت عندما أكّد لي وودي أنني لن أبدأ بالتحوّل إلى اللون الرمادي ولن أفقد وجهي، لأن الأشخاص الكاملون - كما قال- محصّنين ضدّ اللون الرمادي.

سألتُه عن قاتل الرحلة صباح هذا اليوم ونحن نتناول الفطور، لكنّه رفضَ مناقشة الأمر قائلاً إن لديّ طريقاً طويلاً لأقطعه ويجب أن أذهب، وعندما ألححت عليه، كرّر أن ابنة عمه كلوديا قد تخبرني أكثر عنه، وأنه عليّ أن أكون راضياً عن ذلك. مع ذلك، ما الذي كان يرمي إليه الرجل صاحب العكاز عندما قال: مَن عاشرت أمّك حتّى أتى وجهك جميلاً هكذا؟

تساءلت أيضاً عن كون السماء رمادية باستمرار، على الأقل في النهار. تنفصل الغيوم أحياناً في الليل للسماح لضوء القمر بالسطوع. والذي بدوره ينشّط الذئاب، ليس قمراً واحداً بل اثنين، أحدهما يطارد الآخر، وهذا جعلني أكثر حيرة. قرأتُ ما يكفي من الخيال العلمي لأفهم فكرة العوالم المتوازية والأرض المتعدّدة، لكنني تخيّلت أنه عندما أتجاوز ذلك الممر تحت

الأرض حيث بدا أن ذهني وجسدي ينفصلان، سأصل إلى مستوى وجودي مختلف كلّيّاً. بدت فكرة وجودي على كوكب في مجرة بعيدة، منطقيّة إلى حدّ ما بسبب وجود القمرين، لكن لا يوجد فضائيين هنا، مجرّد ناس.

فكرت في ذلك الكتاب الموجود على طاولة السيد بوديتش، الكتاب الذي تملأ النجوم غلافه. ماذا إن وجدت طريقي إلى مصفوفة هذا العالم؟ (تمنيت من الله أن أجدها وأضعها في حقيبتي مع الطعام وحبوب رادار ومسدس بولي). ذكّرتني هذه الفكرة بفيلم (القصّة التي لا تنتهي)، الذي شاهدته مع أمي وأبي عندما كنت صغيراً جدّاً. لنفترض أن إمبيس كانت كفانتازيا في ذلك الفيلم، عالم تمّ إنشاؤه اعتماداً على الخيال الجماعي؟ ما هي نظريّة يونغي؟ كيف لي أن أعرف ذلك، بينما لا أعرف حتّى إذا كان اسم الرجل يُنطق جونغ أم يونغ؟

تساءلت عن هذه الأشياء، لكن ما كان يشغل تفكيري حقّاً هو أبي. هل لاحظ غيابي الآن؟ ربّما لا يزال يجهل الحقيقة (والجهل نعمة، كما يقولون)، وربّما كان لديه حدس مثل وودي - سمعت أن الآباء قد يشعرون بذلك. سيحاول الاتصال بي، ثمّ سيرسل لي رسالة نصيّة إن لم أُجب. قد يَفترضُ فقط أنني مشغولٌ في قرف المدرسة، لكن هذا لن يدوم طويلاً، لأنه كان يعلم تماماً أنني كنت سأعاود الاتصال به في أقرب وقت ممكن. أزعجتني فكرة قلقه عليّ، لكن ما باليد حيلة. لقد اتخذتُ قراري. وفي الحقيقة -لأكون صريحاً- كنت سعيداً لوجودي هنا. لا أستطيع القول إنني كنت مستمتعاً تماماً، لكن نعم، كنت سعيداً. لدّي رغبة في الحصول على إجابات لألف سؤال في ذهني. أردتُ رؤية ما سيحدث مع كلّ خطوة، وما نعتَه الصبي بالمدينة المسكونة. كنت خائفاً بالطبع - من هانا، وجنود الليل، وشيء ما أو شخص ما يسمّى قاتل الرحلة، والأهمّ من ذلك كلّه كنت خائفاً من غوغماغوغ - لكنني كنت مبتهجاً في الوقت نفسه. إذا كان بإمكاني منح رادار فرصة ثانية، فهذا كلّ ما أرغب فيه.

وقفت لأرتاح وأتناول الغداء، كانت الغابة مُغلقة من الجانبين. لم أرَ أيّ شكل من أشكال الحياة البريّة، فقط الكثير من الظلال. سألت رادار: «هل تريدين شيئاً يا رادار؟».

كنت آمل أن تأكل، لأنني لم أعطِها أيّ حبوب في ذلك الصباح. فتحتُ حقيبتي، وأخرجت علبة سردين، فتحتها، وأملتُ العلبة نحو أنفها كي تشمّ الرائحة الشهية. رفعَت أنفها لكنّها لم تنهض. رأيت المزيد من تلك الأشياء الصمغية تتسرب من عينيها.

قلت: «هيّا يا فتاة، أنت تحبّين السردين».

تمكّنَت من النزول ثلاث أو أربع درجات أسفل منحدر العربة، ثمّ خذلتها قائمتاها. انزلقت بشكل جانبيّ، وصرخَت مُتألّمة. رفعت رأسها، ونظرت إليّ لاهثة. كان جانب وجهها مليئاً بالغبار. حاولَتْ النهوض، ولكنّها لم تستطع.

توقفت عن التساؤل عن الأشخاص الكاملين، والرماديون، وحتّى أبي. نسيت كلّ ذلك، حملتُها، نفضت الغبار عنها، ووضعتها على حافة العشب الضيقة بين الطريق والأشجار الضخمة. داعبتُ رأسها، ثمّ عاينت قائمتيها الخلفيتين. لا أظنّ أن هناك كسراً، لكنّها صرخت وكشفت عن أسنانها - ليس لتعض، ولكن لأنها تتألم – لمست أسنانها، وشعرت أنها بخير، لكنني كنت شبه متأكد من أن الأشعة السينية ستظهر تورّماً شديداً والتهاب مفاصل.

شربَت بعض الماء، وأكلت السردين... أعتقد أنها فعلت ذلك لتُسعدني. فقدتُ شهيتي، لكنني أجبرتُ نفسي على تناول بعضاً من الأرنب المقلي الذي أعطتني إيّاه دورا، بالإضافة إلى كعكتين. كان عليّ أن آكل كي أُكمل طريقي. حملتُ رادار بحذر، وأعدتُها إلى العربة، استطعتُ سماع صوت تنفسها والشعور بكلّ ضلع من أضلعها. قال وودي إنها تحتضر، وكان مُحقاً، لكنني لم أقطع كلّ هذا الطريق لأرى كلبتي ميتةً في عربة دورا. أمسكت

بالمقبضين ومضيتُ قدماً، لم أركض - كنت أعلم أن ذلك سيُرهقني - لكنني مشيت بسرعة.

قلت: «انتظري للغد فقط يا رادار، قد تكون الأمور أفضل غداً، لذا انتظري من أجلي يا فتاة».

سمعتُ صوت اهتزاز ذيلها في العربة.

3

ملأت الغيوم السماء، وكاد الظلام أن يحلّ، وأنا أسحب العربة على طول طريق المملكة، لم تكن تُمطر، وهذا جيّد. لم أكن أمانع التبلل، ولكن هذا سيجعل حال رادار أسوأ، وليس لديّ الكثير لأغطيها به. أضف على ذلك، قد يكون سحب العربة أمراً صعباً أو مستحيلاً بسبب الوحل.

توقّفتُ قليلاً لالتقاط أنفاسي، بعد أربع أو خمس ساعات من انزلاق رادار، وأخذتُ أتأمل في الطبيعة أمامي. امتدَّت الأرض أمامي، وللمرة الأولى تمكنتُ من رؤية أبراج المدينة بوضوح. كانت الأبراج مثل الحجر الأملس في هذا الضوء الخافت، ورأيتُ جداراً رماديّاً طويلاً يمتد على جانبي الطريق. ما زلت على بعد أميال منه، ومن المستحيل معرفة مدى ارتفاعه.

كان الطريق بين منزل وودي والمكان الذي توقفت فيه للراحة مُتعرّجاً، لكنّه أصبح مستقيماً باتجاه بوابة المدينة. بدأَت الغابة بالاختفاء عن ناظري على بعد أميال قليلة. رأيتُ عربات مهجورة وما يبدو محاريث يدويّة في حقول مهجورة. رأيت شيئاً آخر أيضاً: سيارة، أو نوع من وسائل النقل، قادمة باتجاهي. نظري جيّد، لكنّها لا تزال تبعد عنّي بضع أميال لذا لم أستطع تحديد ما كانت عليه. وضعتُ يدي على سلاح السيد بوديتش، ليس للتأكّد من أنه لا يزال موجوداً، ولكن من أجل راحتي النفسية.

سألتها: «رادار؟ هل أنتِ بخير؟».

نظرتُ إليها، فوجدُتها تنظر إليّ من مقدّمة العربة، وهذا جيّد. أمسكتُ بالمقبضين وعاودت التحرك مجدداً. تمنّيت لو كنت أملك قفازات عمل أو زوجاً من القفازات العادية. لحسن الحظ كانت الأرض منحدرةً لبعض الوقت.

اختفَت الأبراج خلف سور المدينة العالي على بعد ميل أو ميلين، ثمّ توقفت مرّة أخرى. استطعتُ الآن أن أرى الشخص المُتّجه نحوي، يبدو أنه يركب درّاجة ثلاثية العجلات كبيرة الحجم. اقتربت الدراجة منّي، رأيت أن من يقودها امرأة ترتدي ثوباً أسود. كان من المستحيل عدم التفكير مرّة أخرى في ساحرة أوز. خاصّةً في البداية، عندما ركبت ألميرا غولش دراجتها لإحضار كلب دوروثي وقتله لأنه عضّها. على الرّغم من أن هذه كانت أكبر بكثير من حجم دراجة ألميرا غولش.

قلت: «لا تقلقي يا رادار، لن تأخذكِ إلى أيّ مكان».

اقتربَت منّي، فتوقفتُ ولوّحتُ لها بيدي. كنت على استعداد لأن أكون ودوداً، لكنني كنت مستعداً أيضاً للدفاع عن نفسي وعن كلبتي إذا شعرتُ أنها تمثل شخصيّة الساحرة الشريرة.

أوقّفت المرأة درّاجتها، وهذا ما أثار الغبار. سقط ثوبها على جسدها. كانت ترتدي بنطالاً أسود تحت فستانها وتنتعل حذاء طويلاً أسود. ليس عليّ أن أعطيها أيّ من القطع الجلديّة الخاصّة بدورا، لأن وجهها كان ورديّاً وبلا أيّ أثر للون الرمادي. خمّنت أنها قد تكون في الأربعينات أو الخمسينات من عمرها. لكن الوقت غريب في إمبيس، وكذلك الشيخوخة.

سألتها: «أنتِ كلوديا، أليس كذلك؟ انتظري، لديّ شيء لأريك إيّاه». فتحتُ حقيبتي، وأخرجتُ مقبض الباب الذهبي. بالكاد نظرَت إليه، واكتفت بالإيماء برأسها. كانت ترتدي قفازات جلديّة، مما جعلني أحسدها بشدّة.

قالت: «**أنا كلوديا! لا أحتاج لرؤية المقبض، فقد حلمت بأنك قادم**!». نقرَت على جبهتها وضحكت قائلة: «**لا يمكنك الوثوق بالأحلام دائماً، لكنني**

رأيت هذا الصباح علامة تدلّ إمّا على المطر أو الصُّحبة!».

لم يكن صوتها عالياً فحسب، بل كان بلا نغمة تماماً، مثل صوت كمبيوتر شرير في فيلم خيال علمي قديم. ثمّ قالت: «أنا صمّاء!». لم يكن عليها قول ذلك حقّاً، خمّنت ذلك من تلقاء نفسي.

كان شعرها مرفوعاً ومربوطاً فوق رأسها، واستطعت أن أرى أنها لا تملك أذنين. كما هو الحال مع فم ليا، وعيني وودي، كان هناك ندبة فقط.

4

نزلَت عن دراجتها، ومضَت إلى العربة لتنظر إلى رادار. ثمّ نقرت على مؤخرة قراب سلاحي، قائلة: «**هذا سلاح السيد بوديتش، أتذكره! أتذكره جيّداً!**».

رفعَت رادار رأسها عندما ربّتت كلوديا، ثمّ داعبتها خلف أذنيها بالطريقة التي تحبّها رادار حقّاً. انحنت كلوديا واقتربَت من رادار، ولم يبدُ أنها خائفة منها. لعقت رادار خدها.

قالت كلوديا: «**أنها مريضة للغاية!».**

أومأتُ برأسي، لا جدوى من إنكار ذلك.

قالت: «**لن ندعها تموت، حسناً! هل ستأكل؟».**

حرّكت يديّ، كنت أقصدُ قليلاً. سألتها: «هل يمكنكِ قراءة شفتيّ؟» وأشرتُ إليهما، ثمّ إلى شفتيها.

صرخَت: «**ليس كثيراً، لا أحد يمارس هذه الطريقة هنا! سوف نعطيها لحم البقر! يجب أن تأكله! وضعها في العربة تصرّف ذكيّ منك! هل تريد وضعها في سلّتي؟ سنذهب بشكل أسرع هكذا!**».

لم أستطع أن أخبرها أنّي خائف من إيذاء قائمتي رادار المتألمتين، لذ هززتُ رأسي فقط.

قالت: «حسناً، لكن امشِ بذكاء، لن تستغرق وقتاً طويلاً، هناك ذئاب ملعونة، كما تعلم».

دفعَت دراجتها الثلاثية الكبيرة، ثمّ ركبتها، وتحرّكَت ببطء، كان الطريق واسعاً بما يكفي ليسمح لي بالمشي إلى جانبها، لذا لم أعانِ أنا ورادار من غبار درّاجتها.

صرخَت بصوتها الخالي من النغمات: «**أربعة أميال! انتبه لنفسك أيّها الشاب، كنت لأعطيك قفازي لكن يديك كبيرتين، سأعطيك مرهماً مناسباً عندما نصل، إنه من صنعي، وهو جيّد للغاية، تبدو يديك متورمتين**».

5

كان الظلام قدّ حلّ عندما اقتربنا من منزل كلوديا، وقد غلبني التعب. إن جرّ عربة دورا لمدّة يومين جعلني أشعر أن ممارسة كرة القدم تبدو وكأنها استراحة. رأيتُ شيئاً ما أمامنا، على بعد ميل أو ميلين تقريباً، قد تكون بداية ضواحي ما، على الرغم من أن هذه الكلمة بالكاد تكون مناسبة؛ رأيت أكواخاً ككوخ دورا، ولكن سطوحها محطمة. بُنيت بشكل متباعد، وكانت لها ساحات أو حدائق صغيرة. احتوت الأكواخ على مداخن، ولكن الدخان لم يتصاعد من أي مدخنة. رأيت مركبة ما - لم أستطع معرفة نوعها – مركونة في منتصف الطريق الرئيسي. في البداية اعتقدت أنها عربة طويلة لنقل البضائع. ولكن عندما اقتربت منها، وجدتُ أنها مجرّد حافلة. أشرتُ إليها، فقالت كلوديا: «التروللي، أنها هناك منذ فترةٍ طويلة، هيّا أيّها الشاب، استجمع قواك، لقد أوشكنا على الوصول». لم أسمع هذه الجملة من قبل؛ سأحتفظ بها من أجل آندي تشين، على افتراض أنني سأراه مرَّة أخرى.

سمعنا صوت أجراس بينما كنّا نبتعد عن المدينة، ثلاث رنّاتٍ متباعدة ومهيبة: دونغ دونغ دونغ.

حرّكت رادار رأسها باتجاه الصوت.

قالت: «ثلاث أجراس؟».

أومأتُ برأسي.

قالت: «قديماً، كان صوت الجرس يعني أن وقت ترك العمل والعودة إلى المنزل لتناول العشاء قد حان. الآن، ليس هناك عمل ولا يوجد أحد ليقوم به أساساً، ولكن الأجراس ما زالت ترن! لا يمكنني سماعها، ولكنني أستطيع الشعور بها، خاصّة في العواصف».

يقع منزل كلوديا على قطعة أرضٍ مليئة بالأعشاب أمام بركة قذرة مُغطّاة بالأعشاب. كان المنزل مستديراً ومُشيّداً من الألواح والصفيح. لم يبدُ لي متيناً، وهذا ما جعلني أعاود التفكير في الخنازير والذئاب مرّة أخرى. كان منزل وودي مبنيّاً من الطوب، بينما منزل كلوديا من العصي. لو كان هناك قريب آخر من عائلة ملكيّة يعيش في منزل من القش، لخمّنت أنه قد تمّ التهامه منذ فترة طويلة.

وصلنا إلى منزلها، فرأيت عدداً من الذئاب الميتة، ثلاثة أو أربعة بالقرب من بعضها. لم أستطع الرؤية بوضوح، لكن الذئاب في المقدمة كانت متحللة جدّاً، أقفاصها الصدرية ظاهرة عبر ما تبقّى من فرائها. اختفت عيونها، ربّما اقتلعتها الغربان الجائعة، شعرت بأن التجاويف تحدّق إلى وجهي بينما كنّا نسير في الطريق المؤدّي إلى الباب. ثمّ شعرت بالارتياح لرؤية أنها لم تكن ذئاب عملاقة، مثل الحشرات التي سبق لي وأن رأيتها... لكنّها كبيرة جدّاً، أو بالأحرى كانت كذلك عندما كانت على قيد الحياة. جعَلها الموت تبدو وكأنها خضعت لحمية غذائية صارمة، كما هو الحال مع جميع الكائنات الحية.

قالت كلوديا وهي تترجّل من دراجتها: «أقتلها عليها عندما أستطيع، وهذا ما يبعد البقية عن منزلي معظم الوقت، عندما أشعر أن رائحتها قد خفّت، أقتل المزيد منها».

فكّرت في نفسي، إنها فعلاً تستخدم لغة سوقيّة بالنسبة لعائلة ملكيّة.

أنزلتُ مقبضي العربة، وربتّ كتفها، وسحبتُ مسدس السيد بوديتش من القراب. رفعتُ حاجبي مُتسائلاً. لم أكن متأكداً من أنها ستفهمني، لكنّها فعلت. أظهرَت ابتسامتها عدّة أسنان مفقودة.

قالت: «لا، لا، لا أملك مثل هذا المسدّس، لديّ قوسٌ ونشاب، صنعتهما بنفسي، وهناك شيء آخر أفضل، أحضره لي أدريان عندما كانت رادار لا تزال جرواً!».

صعدَت الدرجات إلى الباب، وفتَحته بكتفها المفتولة العضلات. أخرجتُ رادار من العربة وتفقّدتُ قائمتيها. كانت قادرة على الوقوف والمشي، لكنّها توقفت عند الدرج الحجريّ ونظرت إليّ طلباً للمساعدة، فحملتها. كان المنزل يتألف من غرفة واحدة كبيرة مستديرة، وما خمّنت أنه غرفة أصغر مُحاطة بستارة زرقاء مخملية مزيّنة بخيوط من اللون القرمزي والذهبي. كان هناك موقد ومطبخ صغير وطاولة عمل مليئة بالأدوات المُبعثرة، كان عليها أيضاً سهام قيد الإنجاز، وسلة مصنوعة من الخيزران تحتوي على مجموعة من السهام الجاهزة. لمعت مقدمات السهام عندما أنارت كلوديا بعض المصابيح الزيتية بعود ثقاب. أخذتُ أحد السهام لإلقاء نظرة فاحصة، كانت مقدمته ذهبيّة وحادة. لمستُها بسبّابتي، فسال الدمّ على الفور.

قالت: «أنت، هناك، هل تريد أن تتسبّب لنفسك بمأساة؟».

أمسكَتني من قميصي، وسحبتني إلى مغسلة مصنوعة من القصدير. عُلّقت فوقها مضخة يدوية. فتحت كلوديا المضخّة بقوّة، وأمسكَت إصبعي النازف ووضعته تحت الماء شديد البرودة.

قلت: «إنه فقط...» ثمّ استسلمتُ للأمر وتركتُها تفعل ما تريد. أخيراً، انتهت وذُهلت عندما قبّلت جرحي الصغير.

قالت: «اجلس، ارتاح، سنأكل قريباً، علينا الاعتناء بكلبتك، ثمّ سأهتمّ بقفازاتك».

وضعت غلاية على الموقد، وعندما أصبح الماء دافئاً ولكن قبل أن يغلي، جلبَت وعاءً من أسفل المغسلة وأفرَغَت الماء فيه. ثمّ أضافت أشياء ذات رائحة كريهة من فخارة موجودة على أحد الرفوف. كانت تلك الرفوف مليئة بالأشياء والشاش - بعضها في علب، وبعضها في عبوات زجاجية. وهناك قوس ونشاب معلّق على الحائط إلى يمين الستارة المخملية، بدا الأمر وكأنها محترفة. ذكّرني المكان بمنزل ريفيّ بشكلٍ عام، ولم تبدُ لي كلوديا شخصاً ينحدر من عائلة ملكيّة بل بدت مثل امرأة تسكن منطقة حدودية لقد كانت قويّة، وقاسية، ومستعدة.

نقعَت قطعة قماش في السائل النّتِن، وعصرَتها، ثمّ جلست مقابل رادار، الأمر الذي بدا مريباً. بدأت تضغطُ قطعة القماش بلطفٍ على الأجزاء العلوية من قائمتي رادار. أصدرَت أصواتاً غريبة عندما كانت تفعل ذلك، اعتقدتُ أنها كانت تغني. ارتفع صوتها تارة وانخفض تارة أخرى، مثل نظام مكبّرات الصوت في مدرستي الثانوية تقريباً.

اعتقدتُ أن رادار قد تحاول الهرب منها، أو حتّى عضّها، لكنّها لم تفعل. وضعَت رأسها على الأرضيّة القاسية، وتنهّدت برضا.

وضعَت كلوديا يديها تحت جسد رادار، وقالت: «استديري يا جميلتي، أريد أن أرى القائمة الأخرى».

لم تتدحرج رادار فقط، بل انهارت نوعاً ما. أعادت كلوديا نقع القماش، وشرعت تضغط على القائمة الأخرى. عندما انتهت، ألقَت القماش في

حوض القصدير وجلبت قطعتي قماش جديدتين. نقعتهما وعصرتهما، ثمّ اتجهت نحوي.

قالت: «أمسك أيّها أمير شاب، هذا ما ناداك به وودي في حلمي».

لن ينفعني أخبارها بأنني مجرّد فتى يُدعى تشارلي، لذا لم أقل شيئاً، وأمسكتُ بالقماش. لفّت يديّ بقطع القماش المبللة الدافئة، كانت الرائحة كريهة، لكنني شعرت بالراحة على الفور. لم أستطع أن أعبّر عن ذلك بكلمات، لكنّها رأت تعابير الارتياح على وجهي.

قالت: «يا إلهي، مفعوله سحريّ، أليس كذلك، علّمتني جدّتي كيفيّة صنعه منذ وقت طويل، منذ أن كانت تلك الترولّي لا تزال تعمل، ومنذ أن كان هناك أشخاص يسمعون الأجراس، يحتوي على لحاء شجر الصفصاف، لكن هذه مجرد بداية يا عزيزي، انتظر هنا بينما أجلب لنا بعض الأرانب، لا بدّ أن تكون جائعاً».

6

تناولنا شريحة لحم مع فاصوليا خضراء، وشيئاً يشبه حلوى التفاح والخوخ. حصلتُ على نصيبي من الطعام المجاني – الأرانب البنيّة - منذ قدومي إلى إمبيس بالطبع. ظلّت كلوديا تعيد ملأ طبقي، وقدّمت لرادار قطعة من اللحم البقري مع القليل من الدهون التي تطفو على سطحها. أنهت رادار طبقها بالكامل، ولعقته لتنظفه، ونظرت إلى كلوديا للحصول على المزيد.

صرخَت: «ناه، ناه، ناه» وانحنت لتداعب خلف أذني رادار، ثمّ تابعت: «لقد الهمتَها على الفور أيّتها الكلبة الملعونة العجوز، وماذا سينفعك هذا؟ لكنّه لن يؤذيك!».

كان هناك رغيف من الخبز الأسمر على الطاولة. التقطت قطعة منه بأصابعها القوية الصلبة (كان بإمكانها جرّ تلك العربة طوال اليوم من دون أن تتأثّر يداها)، ثمّ أخذت سهماً من السلة. غزّت السهم في رغيف الخبز، فتحت باب موقدها، ووضعت الرغيف فيه، ثمّ أخرجَته بلون بنّي داكن وملتهب. وضعته على الطاولة وكأنه شمعة عيد ميلاد، دهنتهُ بالزبدة الموضوعة في فخّارة على الطاولة. وقفت رادار على قدميها، والتقطَت الخبز من طرف السهم بأسنانها، وأخذتهُ إلى الزاوية. خف عرجها قليلاً. فكّرت إن أُتيح للسيد بوديتش أن يحظى بالقليل من مرهم كلوديا ربما ما كان سيحتاج إلى مسكنات الألم.

دخلَت كلوديا خلف الستارة المخملية، وخرجَت حاملة كدسة من الورق وقلم رصاص، وسلمتني إياها. نظرتُ إلى ما تبقّى من الكلمات المحفورة على قلم الرصاص (تحيّات لحرّاس المدخنة)، وشعرت بشيء من عدم الواقعية. لم يتبقَ سوى عدد قليل من الأوراق في الكدسة. نظرتُ إلى الخلف، وقرأتُ ما كُتب على مُلصق السعر الذي كان على وشك التلاشي: ستابل، دولاراً وتسعة وتسعين سنتاً.

قالت: «اكتب عندما تشعر أنك مُضطرّ لذلك، يمكنك الإيماء أو هزّ رأسك إذا كان ذلك يفي بالغرض. لا تُهدر الورقة اللعينة، فقد اشتراه لي أدريان في رحلته الأخيرة وهذا كل ما تبقّى. هل تفهم؟».

أومأتُ برأسي.

سألتني: «لقد أتيتَ لإنقاذ كلبتك، أليس كذلك؟».

أومأتُ برأسي.

ثمّ سألتني: «هل يمكنك أن تجد طريقك إلى الساعة الشمسية أيّها الشاب؟».

أمسكتُ الورقة بحيث تراها، وكتبتُ: كتب السيد بوديتش الأحرف الأولى من اسمه كعلامات لتدلّني على الطريق. وهذا برأيي أفضل من فتات الخبز، على افتراض أن المطر لم يمحِها.

أومَأت برأسِها وفكّرت. تحت ضوء المصابيح، بدا الشبه واضحاً للغاية بينها وبين ابن عمها وودي، على الرغم من أنه كان أكبر سنّاً منها بكثير. كان تتمتّع بجمالٍ حادٍّ خاص على الرغم من سنوات العمل واستهداف الذئاب. اعتقد أن هذا هو الجمال الملكيّ في المنفى، ينطبق القول نفسه على جمال وودي وليا.

أخيراً، نظرت إليّ وقالت: «طريقكَ محفوفٌ بالمخاطر».

أومأتُ برأسي.

سألتني: «هل قال لك وودي كيف يجب أن تذهب، وما يتوجّب عليك فعله؟».

هززتُ كتفي وكتبتُ، أخبَرني أن أبقى هادئاً.

تأفّفَت، وقالت: «لا يمكنني الاستمرار بمناداتك بالأمير الشاب، على الرغم من أن لديك مظهر الأمراء، ما اسمك؟».

كتبتُ اسمي بأحرف كبيرة، تشارلي ريد.

قالت: «تشارلي؟».

أومأَت برأسها. أخذَت قطعة خشب من الصندوق المجاور للموقد، فتَحت الموقد، ورمتها بداخله، ثمّ أغلقَته. جلسَت وشبكَت يديها، وانحنت، كانت نظراتها خطيرة.

قالت: «ستكون متأخراً جداً عن مهمّتك غداً يا تشارلي، لذا عليك قضاء الليل في مستودع بعيد قليلاً عن البوابة الرئيسيّة، فيها عربة حمراء

من دون عجلات في الأمام. اكتب ذلك».

كتبتُ: مستودع، عربة حمراء من دون عجلات.

قالت: «جّيد إلى الآن! ستجدُها مفتوحة، وهناك قفل داخلي. اقفله إذا لم ترد أن يرافقك ذئب أو ثلاثة. اكتب».

كتبتُ: باب بقفل.

قالت: «ابق مكانك حتّى تسمع جرس الصباح. رنة واحدة. ستجدُ بوابة المدينة مغلقة، ولكن اسم ليا سيفتحها. فقط اسمها. ليا غالين. اكتب ذلك».

كتبتُ: ليا جالين. نظرَت إلى الورقة لترى ما كتبتُه، عبَست، ثمّ أخذت قلم الرصاص، شَطَبت (جالين) واستبدلتها بـ (غالين)، وقالت: «ألَم يعلّموك كيفيّة التهجئة في أرضك تلك أيها الفتى؟».

هززت كتفي. فكّرت في نفسي، جالين أو غالين، كلاهما يبدو الشيء نفسه بالنسبة إليّ. وإذا كانت المدينة مهجورة، فمن سيسمعني ويسمح لي بالدخول على أيّ حال؟

قالت: «اعبر البوابة اللعينة بعد الجرس الصباحي، فسيكون لديك طريق طويلٌ لعينٌ أمامك».

فركَت جبهتها، ونظرَت إليّ بقلق، وقالت: «إذا رأيت علامات أدريان، فكلّ شيء سيكون على ما يرام، وإذا لم ترها، غادر قبل أن تضيع، فالشوارع مثل المتاهة، ولا أريدك أن تتجول في تلك الشوارع الملعونة طوال الليل».

كتبتُ، ستموتُ إذا لم أتمكن من إعادة شبابها.

قرأَتها، وأعادَت الورقة لي.

قالت: «هل تُحبّها بما يكفي لتموت معها؟».

هززتُ رأسي. فاجأتني كلوديا بضحكة مختلفة النغمة. اعتقدت أن هذا ما تبقّى من صوتها قبل أن تُلعن في حياة صامتة.

قالت: «ليست إجابة نبيلة، ولكن الإجابات النبيلة تُسبّب المشاكل لأصحابها. هل ترغب ببعض البيرة؟».

أومأتُ برأسي. نهضَت، بحثَت في مخزنها البارد، وعادَت ومعها زجاجة بيضاء. فَتحتها وتركتها قليلاً، ثمّ ارتشفت رشفة طويلة كما خمّنت، تجشّأت بصوتٍ عالٍ. عاودت الجلوس، أمسكت الزجاجة ووضعَتها في حجرها.

قالت: «إذا كانت العلامات موجودة يا تشارلي - علامات أدريان - اتبعها بهدوء، دائماً بهدوء، لا تهتمّ بالأصوات التي قد تسمعها، أصوات الموتى... وأسوأ من الموتى».

أسوأ من الموتى؟ لم يعجبني ذلك. وبالحديث عن الصوت، ماذا عن صوت العجلات الخشبية التي قد تصدره عربة دورا عند جرّها على الشوارع المرصوفة؟ قد تسير رادار لجزء من الطريق، ويمكنني أن أحملها لما تبقّى منه.

قالت: «قد ترى أشياء غريبة.. تغيراً في أشكال بعض الأشياء.. لكن لا تهتمّ. في النهاية، ستصل إلى مربع فيه نافورة جافّة».

اعتقدتُ أنها تقصد تلك النافورة في صورة كلوديا وليا التي أراني إيّاها وودي.

قالت: «سترى منزلاً أصفراً ضخماً بنوافذ بنيّة، يخترقه ممرّ في مركزه. هذا هو بيت هانا. تعيش هانا في نصف المنزل. والنصف الآخر يمثّل المطبخ حيث تتناول وجباتها. اكتب ما قلته».

فعلتُ ما طلبته منّي، ثمّ أخذَت الورقة. رسمت ممرّاً وقمّة مقوّسة، وفوقها رسمت فراشة بأجنحة ممدودة. كان رسمها جيّداً جدّاً بالنسبة لرسمة سريعة.

قالت: «عليك أن تختبئ يا تشارلي. أنت وكلبتك. هل ستبقى هادئة؟».

أومأتُ برأسي.

قالت: «عليكما أن تبقيا هادئان مهما يحدث، مفهوم؟».

لم أستطع ضمان ذلك، لكنّي أومأت برأسي مرة أخرى.

قالت: «انتظر أن يرن الجرس مرّتين. اكتب ذلك».

كتبتُ، جرسين.

قالت: «قد ترى هانا في الخارج قبل رن الجرسين. وقد لا تراها. لكنّك ستراها بالتأكيد عندما تذهب إلى المطبخ لتناول وجبتها في منتصف اليوم. عندها يتوجّب عليك العبور بأقصى سرعتك. اكتب».

لم أعتقد أنني بحاجة إلى ذلك. لن أرغبَ في قضاء الكثير من الوقت بجوار هانا المخيفة كما سمعت، ولكن كان قلق كلوديا عليّ واضحاً للغاية، لذا كتبته.

قالت: «لن تكون الساعة الشمسية بعيدة كثيراً.ستلاحظ ذلك بسبب الممرات الواسعة. ضع رادار عند الساعة الشمسية واجعلها تدور بالاتجاه المعاكس. استخدم يديك. انتبه، إذا أدرتها إلى الأمام، فسوف تقتل رادار. وابتعد عنها أيضاً! اكتب!».

كتبتُ ذلك فقط لإرضائها. قرأتُ سابقاً رواية (شيء ما شرير يأتي من هذا الطريق)، وأدركتُ خطورة تحريك الساعة الشمسية بطريقة خاطئة. الشيء الوحيد الذي لم تكن رادار بحاجة إليه هو التقدم في السن.

قالت: «عُد كما ذهبت. لكن احذر من هانا. استمع لصوتها في الممر».

رفعت يديّ، وأومأتُ برأسي: لم أفهم.

ابتسمت كلوديا بتجهّم، وقالت: «تلك الحقيرة دائماً ما تأخذ قيلولة بعد أن تأكل. كما أنها تشخر. سوف تسمع شخيرها يا تشارلي. صوت شخيرها مثل صوت الرعد».

رفعتُ إبهاميّ إلى الأعلى.

قالت: «عُد بسرعة. المكان بعيد، وليس لديك الكثير من الوقت. ليس ضروريا أن تعبر البوابة عندما ترن الأجراس الثلاثة، ولكن يجب أن تخرج من ليليمار بعد ذلك بقليل. قبل أن يحلّ الظلام».

كتبتُ، جنود الليل؟ وأريتها. شربت كلوديا المزيد من البيرة. بدت متجّهمة، وقالت:» نعم، الآن اشطب هذا».

فعلتُ ذلك، وأريتُها.

قالت: «حسناً. سيكون من الأفضل أن نقلّل ما نقوله أو نكتبه عن هؤلاء الأوغاد. اقضِ اللّيل في حيث تقف العربة الحمراء! غادِر عندما تسمع جرس الصباح. عُد إلى هنا. اكتب ذلك».

فعلتُ ذلك.

قالت: «انتهينا. يجب أن تخلد إلى النوم الآن، لا بدّ أنك متعب ولديك الكثير لتقوم به غداً».

أومأتُ برأسي وكتبتُ (شكراً لك).

قالت: «ناه، ناه، ناه!» أمسكَت يدي، ثمّ رفعَتها وقبّلَتها. قالت: «لقد أحببتُ أدريان. ليس كما تحب المرأة رجلاً، لكن كحبّ الأخت لأخيها. آمل

فقط ألا أكون قد أرسلتك إلى الموت... أو ما هو أسوأ من ذلك».

ابتسمتُ، ورفعت إبهامي إلى الأعلى، في محاولة للتعبير عن أنني سأكون بخير، لكنني لم أكن مقتنعاً بذلك بالطبع.

7

بدأت الذئاب تعوي، قبل أن أتمكّن من طرح المزيد من الأسئلة؛ كان لديّ الكثير من الأسئلة. رأيت ضوء القمرين، ثمّ سمعتُ ضربة قويّة على جانب الكوخ لدرجة أن كلّ شيء اهتز. وقفَت رادار ونبحت. سمعنا بعدها ضربة ثانية، وثالثة، ثمّ ضربتين معاً. سقطت زجاجة من إحدى رفوف كلوديا، وفاحت رائحة مخلل.

وضعت يدي على مسدس السيد بوديتش، معتقدٌ أنهم سوف يضربون حتّى يتسبّبون بانهيار كوخها.

قالت: «ناه، ناه، ناه. اتبعني يا تشارلي، لترى ما جلبه لي أدريان». بدَت مُستمتعة نوعاً ما.

دفعَت الستارة المخملية إلى الوراء وسمحَت لي بالعبور. كانت الغرفة الكبيرة نظيفة، على عكس غرفة نومها. لم أكن لأنعتها بالكسولة بسبب منظر غرفة نومها، لكن في الواقع.. كانت الغرفة قذرة. رأيت لحافين غير مرتّبين، وبناطيل وقمصان وملابس الداخلية منثورة على الأرض. ركلَت الملابس من طريقها وهي تقودني إلى الجانب البعيد من الغرفة. لم أكن مهتمّاً بما نوَت إظهاره لي، بقدر ما كنت قلقاً من هجوم الذئب الذي يحدث في الخارج. لقد كان هجوماً بحق. خشيت من انهيار الكوخ الخشبي المتهالك. وفكّرت في نفسي، ماذا لو يتوقّف الهجوم حتّى لو غطّت السحب القمرين!

فتحَت باباً، وكشفت عن غرفة بحجم خزانة تحتوي مرحاضاً، يشبه المراحيض في عالمي. قالت: «مرحاض. في حال احتجت إليه في الليل. لا تقلق بشأن إيقاظي، فأنا أنام بعمق، ولا أسمع شيئاً.

كنت أعرف ذلك بالتأكيد، نظراً لأنها كانت صماء، لكنني لا أعتقد أنني سأحتاج إلى الحمام في حال هاجمتني الذئاب، على الأقل ليس الليلة، أو مُطلقاً. شعرتُ أن العشرات منها تحاول الدخول، بينما كانت كلوديا تعطيني جولة في كوخها الجميل.

قالت كلوديا: «الآن انظر إلى هذا»، حرّكت بيدها لوحة بجانب المرحاض، تحوي بداخلها بطارية سيارة من ماركة (آي سي ديلكو). تم ربط المشابك بالأطراف، وتوصيل الأسلاك بنوع من محولات الطاقة. وهناك سلك آخر يخرج من المحول ومتّصل بما يشبه مفتاح الإضاءة العادي. ابتسمَت كلوديا ابتسامة عريضة، وقالت: «أحضره أدريان، والذئاب اللعينة تكرهه».

فكّرت في نفسي، الجبناء يجلبون الهدايا.

أدارَت المفتاح، فصدرَت أصوات تشبه بوق سيارة، لكنّها مُكبرة خمسين أو مئة مرّة. وضعت يديّ على أذنيّ، خائفاً من أنني إذا لم أفعل ذلك فقد ينتهي بي الأمر أصمّ مثل كلوديا. أدارَت المفتاح بالاتجاه المعاكس، بعد عشر أو خمس عشرة ثانية طويلة جدّاً. أبعدتُ يديّ بحذر عن أذني. كانت رادار تنبح كالمجنونة في الغرفة الكبيرة، لكن الذئاب توقفت عن العواء.

قالت: «ستة مكبّرات. ستهرب تلك الذئاب اللعينة بأقصى سرعتها. هل أعجبك ذلك يا تشارلي؟ هل كان الصوت عالياً بالنسبة إليك؟».

أومأتُ برأسي، وربّتتُ على أذني. لا شيء يمكن أن يصمد أمام هذا الحاجز الصوتي لفترة طويلة.

قالت كلوديا: «أتمنى فقط أن أسمع ذلك. لكنني أشعر به. ها».

كنت ما أزال أحمل الورقة وقلم الرصاص. كتبت عليها: ماذا يحدث عندما ينتهي شحن البطارية؟ وأريتها إياها.

فكّرَت قليلاً، ثمّ ابتسمت وربّتَت وجنتي قائلة: «أعطيتُك غرفة وورق، أنت ستجلب لي بطاريّة ثانية. اتفقنا أيّها الأمير شاب؟!».

8

نمت بجوار الموقد، كما حدث في كوخ دورا. أعطتني كلوديا كومة من المناشف لأنام عليها، وخرجت بمجرد أن وضعت رأسي عليها. أيقظتني في الصباح الباكر - شعرت أنني غفوت لثانيتين فقط - كانت ترتدي معطفاً طويلاً عليه فراشات، ممّا ذكّرني بدورا من جديد.

قلت: «دعيني أنام».

كانت صماء، لكنهّا عِلمت تماماً ما قلته. لذا قالت: «ناه، ناه، ناه. استيقظ يا تشارلي. المكان بعيد. حان وقت رحلتك. علاوة على ذلك، هناك شيء أريد أن أريك إيّاه.

حاولتُ الاستلقاء، لكنها أجبرتني على الجلوس. قالت: «كلبتك تنتظر. استيقظنا منذ ساعة أو أكثر. أعطيتُها جرعة أخرى من دوائي المُهدّئ وهي سعيدة. انظر إليها.

كانت رادار تقف إلى جانبها وتهزّ ذيلها. عندما رأتني أنظر إليها، اقتربَت من رقبتي، ولعقَت وجنتي. نهضتُ، كانت قدماي تؤلمانني، وكذلك الأمر بالنسبة إلى ذراعي وكتفي. حرّكت كتفيّ وهززتهما قليلاً، كما كنّا نفعل في تمرينات الإحماء لمباريات كرة القدم قبل بداية الموسم.

قالت: «انهض، وافعل ما عليك فعله. سأعدّ لك شيئاً دافئاً».

ذهبتُ إلى الحمام الصغير، حيث تركَت لي وعاء من الماء الدافئ مع صابونة صفراء. تبوّلتُ، ثمّ غسلتُ وجهي ويدي. كان هناك مرآة صغيرة على

الحائط، تقريباً بحجم مرآة الرؤية الخلفية في السيارة. كانت مخدوشة وقديمة، لكن عندما انحنيت، استطعتُ رؤية نفسي. استدرتُ، ثمّ نظرت مرة أخرى عن كثب. شعرت أن شعري البني الداكن قد أصبح أفتح قليلاً. يحصل هذا عادةً في الصيف، بعد قضاء النهار في الشمس، لكن لا يوجد شمس هنا، فقط سحب. ما عدا الليل، عندما تبتعد السحب لتسمح لضوء القمرين بالسطوع.

خرجتُ من الحمام، فقدّمت لي كلوديا قطعة كبيرة من الخبز تحوي على بيض مخفوق، فالتهمتها فوراً.

سلّمَتني حقيبتي، وقالت: «وضعتُ فيها الماء والشاي البارد. الورق وقلم الرصاص أيضاً. في حال احتجت إليهما. اترك عربتك هنا».

هززتُ رأسي، وأمسكت مقبضي العربة.

قالت: «ناه، ناه، ناه! اترك هذه. وخذ دراجتي ذات العجلات الثلاث».

قلت: «كلا، لا أستطيع أخذ دراجتك».

ابتعدَت عني، وقالت: «تعال يا تشارلي. سيحلّ الفجر قريباً. لا تفوّت هذا».

تبعتُها إلى الباب، على أمل ألا أرى مجموعة من الذئاب الشرسة أمام الباب. لم أرَ أيّ ذئاب. تباعَدت الغيوم في اتجاه ما أسماه الصبي المدينة المسكونة، واستطعتُ أن أرى مجموعة من النجوم المتناثرة في السماء. كانت دراجة كلوديا الكبيرة مركونة بالقرب من طريق المملكة. فرشَت كلوديا السلّة الكبيرة الخلفيّة بقماش أبيض ناعم يشبه الصوف. أدركت أن هذا هو المكان الذي يُفترض أن تجلس فيه رادار. وعندها اقتنعتُ أن عربتها ذات الثلاث عجلات ستكون أسهل وأسرع من عربة دورا. ولكن كان هناك شيء آخر أفضل.

انحنت كلوديا، وأمسكَت المصباح ووجّهته على العجلة الأمامية الضخمة، قائلة: «أحضر أدريان هذه الإطارات أيضاً. إطارات مطاطيّة. سمعت عنها ولكنني لم أرها من قبل. هناك الكثير من الأشياء الساحرة في عالمك يا تشارلي».

أقنعني ذلك، لا داعي للقلق بشأن صوت العجلات الخشبيّة على الحصى. أشرتُ إلى الدراجة ثلاثية العجلات، ثمّ إلى نفسي. ربّتُت على صدري فوق قلبي، وقلت: «سأعيدها يا كلوديا، أعدكِ بذلك».

قالت: «لا أشك في أنك ستعيدها إليّ أيّها الأمير الصغير تشارلي». ربّتتَ على ظهري، ثمّ أعطتني ضربة على مؤخرتي ممّا ذكرني بالمدرب هاركنيس. ثمّ قالت: «انظر الآن إلى السماء الساطعة».

فعلتُ ذلك. اصطبَغت سماء مدينة ليليمار بلون خوخي جميل. قد يكون هذا لون بزوغ الفجر في بعض المناطق الاستوائية، لكنني شخصياً لم يسبق لي أن رأيت مثله. جلسَت رادار بيننا، مرفوعة الرأس، تشمّ الهواء. كنت سأعتقدُ أنها بخير تماماً لولا ضَعفها، والمادة اللزجة التي تخرج من عينيها.

سألتها: «ما الذي نبحث عنه؟».

لم تجبني كلوديا، لأنها لم ترني أتكلم. كانت تنظر إلى المدينة، حيث الأبراج الزجاجيّة الطويلة في ضوء النهار. لم يعجبني مظهر تلك الأبراج الزجاجية، حتّى من مسافة بعيدة. بدَت مثل وجوه تنظر إلينا تقريباً. أخبرتُ نفسي، هذا مجرّد توهّم، لا يختلف عن رؤية فتحة شجرة قديمة على أنها فم، أو سحابة على أنها تنين. لكن هذا لم ينجح، تسلّلَت الفكرة - السخيفة - إلى ذهني، بأن المدينة نفسها كانت غوغماغوغ: واعية، مُراقبة، وشريرة. أخافتني فكرة الاقتراب من تلك المدينة؛ وكذلك فكرة استخدام اسم ليا للمرور عبر بوابتها المرعبة.

قلتُ لنفسي، فعلَ السيد بوديتش ذلك وعاد. أنتَ تستطيع فعل ذلك أيضاً.

ثمّ سمعنا الجرس يرن: دونغ.

وقفت رادار على قائمتيها، وخطَت خطوة نحو الصوت.

قالت كلوديا: «الجرس الأول يا تشارلي؟».

رفعتُ إصبعاً واحداً، وأومأتُ برأسي.

رأيتُ شيئاً أكثر إثارة من الصرصار الكبير الحجم أو الصرصار الأحمر الكبير: بدأَت السماء فوق الأكواخ المتكدّسة خارج المدينة تُلقي بظلالها، وكأن الظل كان يرتفع إلى الأعلى.

أمسكتُ بذراع كلوديا للحظة، خائفاً من أنني قد أرى كسوفاً غريباً ليس للشمس أو القمر بل للأرض نفسها. ثمّ تلاشى صوت الجرس، تكسرّ الظلام وانتشر ضوء النهار. رأيتُ عدّة ألوان تكسو السماء: أسود وذهبي، أبيض وبرتقالي، والأرجواني الملكي.

بعدها، ظهرَت الفراشات الملكية، كلّ واحدة منها بحجم العصفور، لكنّها كانت رقيقة وشفّافة، لدرجة أن ضوء الصباح أشرق من خلالها وحولها.

صرَخت كلوديا ورفعَت يديها إلى السماء، قائلة: «تحيا إمبيس. تحيا عائلة غالين. لعلّهم يحكمون مرّة أخرى وإلى الأبد».

قالت ذلك بأعلى صوتها. كنتُ مذهولاً، لم يسبق لي أن رأيت شيئاً غريباً في حياتي وسرياليّاً وجميلاً إلى هذا الحدّ. طارَت أسراب الفراشات فوقنا، لا أحد يعرف إلى أين، شعرتُ برياح أجنحتها، وعندها قبلتُ أخيراً - وبشكل كامل - حقيقة هذا العالم الآخر، حقيقة إمبيس. لقد جئت من عالم خيالي.

هذا حقيقي.

الفصل السابع عشر
فراق كلاوديا- ذكرى جيني- ليلة في المستودع- البوابة- مدينة الأشباح.

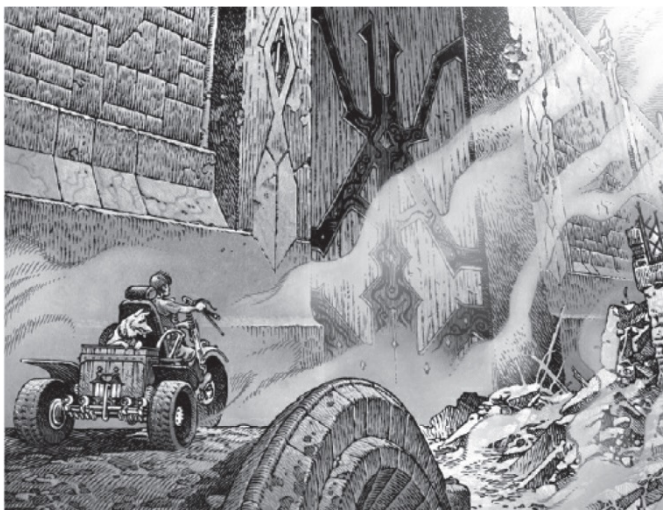

1

أصابت رادار نوبة سعال، واستمرت لفترة طويلة وهذا ما أقلقني. وعندما توقفت، أمسكت كلاوديا طرف ثوبها، ومسحت به الدموع عن عيني كلبتي والمفرزات عن أنفها، ثمّ رمقتني بنظرات صارمة.

«إياك وإضاعة الوقت إذا أردت إنقاذها يا تشارلي».

أومأت، فاحتضنتني كلاوديا قبل أن تضع يديها على كتفي وتقول: «توخَ الحذر. سأشعر بالأسف إن عدت من دون رادار، ناهيك عن غيابك تماماً. هل أخذت ما طلبت منك أنه تكتبه معك؟».

رفعت إبهاميّ، ثمّ ربتت حقيبة ظهري.

«تجنب استعمال سلاحك في المدينة أو حتّى التفكير في ذلك ».

أومأت ووضعت إصبعاً على شفتي.

رفعت يدها إليّ وداعبت شعري بقوة، ثمّ ابتسمت وقالت: «رافقتك السلامة أيها الأمير الشاب تشارلي».

جلست على مقعد الدراجة ثلاثية العجلات، وبدا ركوبها مثل اعتلاء برج شاهق مقارنةً مع دراجتي، كما تطلّب تحريك الدواسات جهداً كبيراً في البداية، وجهداً أقلّ بعد الانطلاق. عندما تحرّكت الدراجة، التفتت إلى كلاوديا ملوّحاً، فلوّحت لي بدورها، وأرسلت لي قبلةً عبر الهواء.

أخذت استراحةً قصيرةً عند الوصول إلى الترولي، ولاحظت أن إحدى عجلاتها منفصلة عنها ومائلة قليلاً، كما رأيت علامات مخالب قديمةً على جانبها الخشبي القريب، إضافةً إلى بعض بقع الدم الجافة، فقلت في نفسي: «إنها الذئاب».

ولذلك تجنبت إلقاء نظرة داخلها.

2

ساعدني الطريق المستوي في الحفاظ على سرعة من شأنها إيصالي قبل فترة طويلة من حلول الظلام إلى المستودع الذي أخبرتني عنه كلاوديا. التصقت الغيوم المنخفضة ببعضها، تاركةً الأرض القاحلة تحتها من دون ظلال، فتذكّرت حينها كيف قصدت الفراشات الكبيرة نهاراً وجهتها المجهولة، وتساءلت إن كنت سأراها مجدداً تحلّق عائدةً إلى منازلها خارج المدينة، وهنا

فكّرت في احتمال مغادرة الذئاب المنازل والأبنية خارج أسوار المدينة بعد أن يخيّم الليل على المكان، بحيث يمكنني المبيت في أحدها، ولكن تجنبت المخاطرة بحياتي، أو حياة رادار.

وصلتُ المجموعة الأولى من المنازل والأكواخ قبل الظهيرة، وبعدها بقليل إلى الممر الفرعي الأول لطريق المملكة. لقد غطى الطين الصلب بدايته، ورصفتِ الحجارة الصغيرة بقيته، ما جعله وعراً بسبب الفراغات والحفر بينها، وقد وجب أن أتفادى الأخيرة جميعها. ورغم سهولة قيادة الدراجة ثلاثية العجلات على طريق مستقيم، إلا أنّ المناورة بها صعبة قليلاً، وظهر ذلك في ارتفاع إحدى عجلتيها الخلفيتين عن الأرض بعد كل انحراف، وأمكنني الحفاظ على توازنها عبر إمالة جسدي في جهة المنعطف، كما اعتدت أن أفعل عند قيادة دراجتي، ولكنني كنت متيقناً أن منعطفاً حاداً سيرميني وإياها أرضاً مهما أملت جسدي، ولا بأس لو سقطت أرضاً، ولكن رادار عجزت عن تحمل ذلك.

خلت المنازل من ساكنيها، وشعرت أن نوافذها تُحدق إلينا، كما احتلت الغربان الكبيرة – ولكنها ليست عملاقة – حدائقها البور، ونبشت التراب بمناقيرها بحثاً عن أيّ بذور أو مقتنيات لامعة منسية. صحيح أن بعض الأزهار قد شقت طريقها إلى الحياة، ولكن بدت شاحبةً وغريبةً نوعاً ما، كما تسلقت تعريشات تشبه الكرمة جوانب الأكواخ المنهارة. مررت بجوار مبنىً غريب مائل، برزت حجارته الكلسية البيضاء من بين بقايا كسوته الجصية المتآكلة، وحرّك الهواء بابيه المفتوحين قليلاً ما منح مدخله هيئة فم عديم الأسنان، وتربّع أعلاه كوب جعة أبهت الزمان ألوانه حتّى بدا الشراب فيه قريباً من البول، وكتب فوقه بلون كستنائي باهت كلمة «احذر»، وإلى الجوار انتصب ما كان متجراً ذات يوم. التفتت أمامي كي أرى بعض شظايا الزجاج على الطريق، فابتعدت عنها مسافةً كافيةً حرصاً على سلامة عجلات الدراجة المطاطية.

تقدّمنا أكثر، فاصطفت الأبنية إلى جانبي الطريق ملاصقةً بعضها تقريباً تاركةً ممرات ضيقةً جداً بينها، وشيئاً فشيئاً فاحت رائحة كريهة ونتنة جداً أثارت غثياني وأجبرتني على إمساك أنفاسي، وتوقعتها منبعثة عن جثث متحللة، وربما عن شيء دُنس بطريقة شيطانية. انزعجت رادار كثيراً، فنبحت بصوت خافت، وتحرّكت في مكانها ما جعل الدراجة الثلاثية تتأرجح قليلاً، وقد خططت مسبقاً من أجل التوقف هنا وتناول بعض الطعام، ولكن الأجواء القذرة جعلتني أُغير رأيي.

قلت في نفسي: «أشياء خفية... الجنون دنسها... كانت العشبة البرية المتوحشة نفسها»، وفتح هذا السطر كتاب ذكرياتي على فصل جيني سكوستر، وتحديداً كيف جلسنا معاً قرب جذع الشجرة وسط ظل أغصانها المرقط بضوء الشمس، وتذكرت معطفها الرث المميز، والكتاب ورقيّ الغلاف بين يديها، والذي حمل اسم ذا بيست أوف أتش بي لوفكرافت – أفضل أعمال هاورد فيلبس لوفكرافت، وقد قرأت جيني إحدى قصائده بعنوان «فونجي فروم يوغوث»، وأذكر تماماً بدايتها: كان المكان مظلماً ومغبراً، وفي هيئة متاهة من الأزقة القديمة قرب أرصفة الميناء، ثمّ فجأةً، أدركت سبب خوفي الشديد من هذا المكان، إذ رغم وجود أميال بيننا وبين ليليمار، أو المدينة المسكونة كما أطلق عليها ذلك الطفل، إلا أن الأمور بدت معقدةً قبل الوصول إليها حتّى بطريقة ما كنت لأفهمها لولا جيني وصديقها لوفكرافت، فقد عرفتني إليه في الصف السادس، أي خلال عمر صغير وحساس جداً تجاه هذا النوع من الرعب.

اعتدت وجيني القراءة معاً خلال فترة والدي الانتقالية بين إدمان الكحول والإقلاع عنه، وقد كانت صديقتي العزيزة وليست الحميمة، إذ شتان بين الاثنتين.

ذات مرة قال بيرتي: «لن أفهم أبداً لماذا تقضي الوقت معها»، واعتقدت أن الغيرة اتقدت في نفسه، ولكنه عبّر عن فضوله بصراحة،

وسألني إن أردت تقبيلها.

أخبرته إن لا شيء يجمعنا سوى الصداقة، ولست منجذباً إليها بتلك الطريقة، فرسم ابتسامةً متكلفةً وقال: «وهل توجد طريقة أخرى؟». كنت أستطيع شرح الأمر، ولكن الشرح كان سيربكه أكثر.

كان بيرد محقاً في عدم امتلاك جيني «جسداً تود اكتشافه» مثل بقية الفتيات في سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة واللواتي تبدأ انحناءات أجسادهن الأولى في البروز، على عكس جسد جيني المسطح تماماً، ووجهها النحيل، وشعرها البني البسيط الأشعث دوماً، ومشيتها الشبيهة بمشية طائر اللقلق، وهذا ما جعلها محط سخرية الفتيات الأخريات. لم يبدُ أنها أرادت الانضمام إلى المشجعات أو الظفر بلقب ملكة الحفل، أو الانفراد وسط دائرة الأضواء في مسرحية مدرسية، أو أي شيء يحتاج موافقة الفتيات الاجتماعيات ذوات مساحيق التجميل وظل العيون، وربما كتمت رغبتها في ذلك، ولكنني أشك في أنها عانت وإن قليلاً من ضغط البيئة المحيطة. صحيح أنها لم ترتدِ مثل القوطيين[18] بل ارتدت سترات رياضيةً تحت معطفها البالي، وأحضرت طعامها في علبة حملت صورة هان سولو[19] ولكنها تصرفت مثلهم تماماً، وكانت شغوفةً بفرقة موسيقية تعزف موسيقى صاخبةً وتدعى ذا ديد كينديز، واعتادت الاقتباس من فيلم تاكسي درايفر، كما أحبت قصص لوفكرافت وقصائده. لقد ارتبطنا نحن الثلاثة - أنا وجيني ولوفكرافت – في الفترات الأخيرة من حقبتي المظلمة وما فيها من تصرفات غبية برفقة بيرتي بيرد.

دار نقاش في أحد دروس اللغة الإنكليزية خلال الصف السادس حول أعمال روبرت لورانس شتين، والذي قرأت أحد كتبه بعنوان - كان يو كيب أ سيكريت؟ وأعلنت أمام الجميع أنني وجدته غبياً جداً، وأتطلع كي أقرأ شيئاً مخيفاً ومرعباً حقاً.

سألتني جيني بعد انتهاء الدرس: «مرحباً يا ريد، أود أن أطرح عليك سؤالاً، هل تربكك مصادفة كلمات صعبة عند قراءتك كتاباً؟».

نفيت ذلك، وقلت إنني سأبحث عنها عبر الإنترنت إن عجزت عن فهم معناها من سياق القصة، وبدت مرتاحةً لسماع ذلك.

قالت: «اقرأ هذه، وأخبرني إن أخافتك، لأنها أرعبتني كثيراً»، وأعطتني كتاباً ورقيّ الغلاف، مهترئ، ومدعم بطبقة من الشريط اللاصق.

كان عنوان الكتاب ذا كول اوف كثولو، وقد أخافتني قصصه كثيراً وخاصةً المسماة «ذا راتس إن ذا وولز»، واحتوى كلمات معقدةً مثل شاذة، وشنيعة (وتصف هاتان الكلمتان تماماً تلك الرائحةً قرب الحانة)، ولكن أحببنا قصص الرعب كثيراً، ولعل ذلك بسبب تطرفنا في هذا المجال بين أقراننا، ورغبتنا وسعادتنا في خوض غمار نثر لوفكرافت المعقد. قضينا أكثر من عام نلقي أشعاره ونقرأ قصصه على بعضنا حتّى انفصال والدي جيني وانتقالها إلى ديس موين[20] برفقة والدتها. كما شاهدنا بضعة أفلام مقتبسة من أعماله، ولكن تبيّن أن جميعها سيئة جداً، إذ عجزت عن محاكاة سعة خيال لوفكرافت وتجسيد الرعب القابع بين صفحات كتبه.

فكّرت خلال طريقي إلى أسوار ليليمار أن حلقة المنازل الصامتة حولها تشبه كثيراً إحدى قصص لوفكرافت الخيالية بعنوان أركهام ودونويتش، وقد ساعدتني إضافةً إلى أعمال كتاب آخرين (مثل كلارك أشتون سميث، وهينري كونتر، وأوغست ديرليث)، على فهم الرعب الكامن على الطرقات الفارغة وداخل البيوت المهجورة، لقد كانت مخيفةً حقاً.

عبرنا جسراً حجرياً فوق جدول جاف. استبدلت القمامة بمياهه، وقد أكل الزمان عليها وشرب حتّى عجزت عن معرفة ماهيتها، وغاصت جرذان كبيرة فيها، كما لطخت جدران الجدول الحجرية المائلة قذارة بنية داكنة،

وكان لوفكرافت ليطلق عليها دون شك اسم الدناسة، ويصف رائحتها النتنة بالـ سامة.

لقد استحضر هذا المكان ذلك الوصف في نفسي.

وصلت إلى ضفة الجدول المقابلة، حيث اكتظت الأبنية أكثر فأكثر، وشعرت أنها تقترب من دراجتي شيئاً فشيئاً وتغطي كل شيء باستثناء خط رفيع متعرج من السماء البيضاء فوقي. كما أحسست أنها تراقبني برفقة النوافذ السوداء عديمة الزجاج، وضاقت الممرات بينها كي تستحيل شقوقاً يحتاج المرء أن يمشي جانبياً حتّى يعبرها، ومن يدري ماذا ينتظره فيها؟ تيقنت من حدوث شيء وحشي هناك، ومخيف ومريع أيضاً، ورغم أن مصدر اللون الرمادي كان قابعاً في المدينة، إلا أنه تأثيره الشديد بلغ تلك الضواحي المهجورة.

زاد الطين بلةً شعوري بأن أحدهم يتبعني، فالتفتت خلفي بضع مرات محاولاً رصد شخص أو شيء (مثل شيطان مخيف) خلفنا، ولكنني لم أرَ شيئاً سوى الغربان وبعض الجرذان أحياناً، ربما كانت في طريقها إلى أوكارها أو مستعمراتها في ظلال تلك القناة الموحلة.

انتاب رادار الشعور نفسه، وزمجرت بضع مرات، حتّى أنها جلست واضعةً قائمتيها الأماميتين على طرف سلة الخيزران تراقب الطريق خلفنا.

قلت في نفسي: «لا شيء سوى الخلاء في تلك الشوارع الضيقة والمنازل المنهارة المجهورة، ولكنني متوتر فحسب، وكذلك رادار».

وصلنا جسراً يعبر فوق جدول، ولاحظت شيئاً على أحد دعائمه أدخل البهجة إلى نفسي – حرفا اسم السيد بوديتش الأولى أي بي، من دون أن تغطيها الطحالب الخضراء المصفرة. كما أمكنني رؤية جدار المدينة من الجسر بوضوح بعد أن غاب عن ناظري فترة ساعة أو اثنتين بسبب الأبنية المكتظة؛ كان رمادياً أملس وبلغ طوله أربعين قدماً على الأقل، واحتلت

منتصفه بوابة عملاقة مدعمة بقضبان ثخينة متقاطعة بدت مصنوعةً من زجاج أخضر قاتم. وقد استطعت رصد ما سبق لأن معظم الأبنية بيني وبين الجدار استحالت ركاماً، وكأن قنبلةً انفجرت بينها، أو أصابها زلزال عنيف مثلاً، ولكن بضع مداخن متفحمة انتصبت وسط ذلك الحطام مثل أصابع تشير إلى السماء، كما بقيت بعض الأبنية على حالها، وقد شابه أحدها كنيسةً. كذلك رأيت مبنى آخر طويلاً، جدرانه خشبية وسقفه من ألواح القصدير، رُكنت أمامه عربة حمراء خسرت عجلاتها وغلفتها أعشاب شاحبة.

سمعت قبل أقل من ساعتين جرساً يرن مرتين معلناً حلول الظهيرة (أو وقت تناول هانا طعامها حسب ما أعتقد). لقد وصلت أبكر مما توقعت كلاوديا، وامتلكت معظم ساعات النهار في صالحي، ولكنني أردت الحصول على قسط من الراحة إن أمكن كي أصفي ذهني قليلاً، من دون أن أقترب من البوابة في ذلك اليوم.

أخبرت رادار: «أعتقد أن هذا المكان مناسب، ولعله ليس فندق هولیداي إن، ولكن سيفي بالغرض».

تابعت طريقي على الدراجة متجاوزاً العربة المهجورة صعوداً إلى المستودع، حيث صادفت باباً كبيراً دواراً، وكان لونه أحمر جميلاً، ولكن استحال باهتاً كئيباً، وإلى جواره باب صغير بحجم رجل عادي، وقد حفر عليه الحرفين أي بي، ما بعث الراحة في نفسي كما حدث عند رؤيتهما على دعامة الجسر، وما أسعدني أكثر في ذلك الوقت هو غياب ذلك الإحساس المخيف، أو ما قد يسميه لوفكرافت الشر القديم، وقد أرجعت الأمر إلى استبدال المساحة الخالية بالأبنية، وقدرتي على رؤية السماء مجدداً، من دون أن يكفيني هذا التفسير، ولكن وجدت الجزء الناقص من الإجابة بعد فترة قصيرة من سماع صوت رنين الجرس ثلاث مرات مساء.

واجهت صعوبةً في تحريك الباب الصغير حتّى دفعته بكتفي، فانفتح بقوة، وأوشكت أن أسقط أرضاً. هنا نبحت رادار من السلة. بدا المستودع مظلماً وفاحت منه رائحة عفونة، ولكن ليست في سوء سابقتها قرب الحانة. كما رقدت في الظلام عربتان إضافيتان بلونين أحمر وأزرق، لا شك في مضي سنوات على وجودهما في الداخل، حيث ساعد ذلك في حفظ طلائهما على طبيعته تقريباً، وقد برز عمود من سقف كل منهما، فاستنتجت أن كلتاهما استمدتا الطاقة الكهربائية يوماً ما عن طريق أسلاك مرت فوقهما، وإن كان ذلك صحيحاً، فقد أزيلت الأسلاك قبل فترة طويلة جداً، إذ لم أرَ أياً منها خلال رحلتي. كذلك لاحظت كلمة (سيفرونت) على مقدمة إحدى العربتين في خط قديم، و(ليليمار) على الأخرى، ثمّ التفتت حولي فرأيت أكواماً من الإطارات المعدنية التي انطلقت من مركزها إلى محيطها قضبان خشبية ثخينة، كما ملأت أدوات صدئة بعض الصناديق، واصطفت مجموعة فوانيس على شكل قذائف على طاولة مقابل الحائط البعيد من المستودع.

نبحت رادار مجدداً، فذهبت إليها، وأخرجتها من السلة. ترنحت رادار قليلاً، وعرجت ناحية الباب، ثمّ شمّت المدخل، ودخلت من دون تردّد.

حاولت فتح الباب الجرار الخاص بالعربات، ولكنني عجزت، لذلك ركنت دراجة كلاوديا الثلاثية خارجاً لأنها كبيرة ولا تمر عبر الباب الصغيرالذي تركته مفتوحاً من أجل الإضاءة. تفقدت المصابيح فوجدت أن خزّاناتها قد فرغت من الزيت قبل وقت طويل، وأن ليلةً مظلمةً تنتظر الأمير تشارلي ورفيقة دربه المخلصة رادار.

بدت القضبان الخشبية في العجلات الإضافية جافة وسهلة الكسر. لقد أحضرت معي ولاعةً استخدمها والدي كي يشعل غليونه، ولكن وجدت البيئة داخل المستودع غير ملائمة من أجل إشعال نار قد تصل ألسنتها إلى

العربتين القديمتين وتحرقهما، فنبقى من دون ملجأ سوى ذلك المبنى المتداع الذي يشبه الكنيسة.

أخرجت من الحقيبة بعض علب السردين إضافةً إلى قطع لحم وضبتها دورا من أجلي. تناولت الطعام وشربت عبوة مياه غازية، في حين رفضت رادار اللحم. تذوقت السردين، ثمّ رمته على الأرضية الخشبية المتسخة. كنت أعرف أنها أحبت كعك دورا المحلى، فأعطيتها القليل منه، ولكنها شمته، ثمّ أشاحت ببصرها عنه، وكذلك الأمر مع لحم بيركي جيركي المقدد.

مسحت على جانبي وجهها وقلت: «ماذا عساي أفعل من أجلك يا صغيرتي؟».

وقلت في نفسي: «سأعالجها إن أمكنني ذلك».

اتجهت إلى الباب كي ألقي نظرةً أخيرةً على الجدار حول القلعة قبل أن يخطر في بالي شيء ما، فعدت أدراجي، وبحثت في حقيبتي جيداً كي أجد بعض حلوى جوز البقان في كيس صغير تحت هاتفي المحمول عديم الفائدة، فأعطيت رادار واحدةً، فشمتها بحذر، ثمّ وضعتها في فمها وتناولتها إضافةً إلى ثلاث أخريات قبل أن تدير وجهها مجدداً.

تبقى أفضل من لا شيء.

4

راقبت الضوء عبر الباب المفتوح، ثمّ خرجت فجأةً كي ألقي نظرةً في أرجاء ذلك المكان المقفر الذي عزفت الجرذان والغربان حتّى عن زيارته. ألقيت قرد رادار إليها، فأمسكته بين أسنانها وعصرته قليلاً من دون أن تحضره إليّ، ثمّ وضعته بين قائمتيها الأماميتين، وغطت في نوم عميق ملامسةً إياه بأنفها. لقد ساعدها مرهم كلاوديا، ولكن تأثيره أخذ يتلاشى، كما أنها لم تتناول حبوب الدواء الثلاث التي أعطتني إياها مساعدة الطبيب

البيطري، وفكّرت في أن رادار استهلكت ما بقي من طاقتها في نزول السلم اللولبي والركض من أجل لقاء دورا، وإن تأخرت في إيصالها إلى الساعة الشمسية، ستنام ولن تستيقظ مجدداً.

حاولت إعادة تشغيل هاتفي المحمول من أجل لعب بعض الألعاب الإلكترونية وتمضية الوقت، ولكن من دون فائدة، فالهاتف لم يعدُ عن كونه مجرد مستطيل زجاجي أسود، وكأن سحر عالمي غير فعال في ذلك العالم السحري، فأعدته إلى حقيبتي. راقبت الباب المفتوح وكيف انسحب الضوء الأبيض من المستودع شيئاً فشيئاً، ثمّ سمعت جرس المساء يرن ثلاث مرات، وأوشكت أن أغلق الباب حينها، ولكنني تراجعت خشية البقاء في الظلام من دون مصدر إضاءة سوى ولاعة والدي. أبقيت عيني على الكنيسة (أو ما يشبهها) مقابل المستودع، وقررت إغلاق الباب حين أعجز عن رؤيتها، لأن غياب الطيور والجرذان لا يعني غياب الذئاب أو الحيوانات المفترسة الأخرى، كما أخبرتني كلاوديا أن أقفل المزلاج من الداخل، وذلك ما أردت فعله.

استحالت الكنيسة شكلاً مبهم المعالم وسط الظلام، وبينما نهضت كي أغلق الباب، رفعت رادار رأسها وأذنيها ونبحت بصوت ضعيف، واعتقدت بدايةً أنها فعلت ذلك إشارةً إلى استيقاظها، ونسيت أنها امتلكت حاسة سمع أقوى من حاسة السمع لدي سواء كانت عجوزاً أم شابة، وسمعت بعد بضع ثوان ما استرعى انتباهها؛ كان صوت رفرفة يشبه ما تصدره قصاصة ورق عالقة في مروحة، واقترب سريعاً وازدادت شدته حتّى أصبح كالرياح العاتية، فأدركت مباشرةً مصدره، توجهت إلى الباب ووضعت إحدى يديّ على الدراجة الثلاثية، وانضمت رادار إليّ، وراقبنا السماء معاً.

اقتربت آلاف الفراشات على الأقل من الجنوب حسب ما أعتقد، وتحركت في شكل سحابة تحت الغيوم، وزادت السماء المظلمة ظلمةً، وحطت على المبنى الشبيه بالكنيسة، وحط بعضها على المداخن القليلة

البارزة، أو أكوام الحطام، وكذلك فوق سقف المستودع حيث لجأت برفقة رادار، وبدا صوتها هناك أقرب إلى تنهيدة عميقة منه إلى رفرفة.

أعتقد الآن أنني فهمت سبب إيجادي ذلك المكان آمناً أكثر منه مقفراً؛ لقد اتخذته الفراشات الكبيرة موطناً في عالم كان جميلاً ذات يوم، قبل اغتيال أفراد الأسرة الحاكمة أو نفيهم.

اعتقدت في عالمي، وليس وحدي، أن لقب الأسرة الملكية مجرد واجهة إعلانية من أجل صحف شعبية مثل ناشيونال إينكوايرر، وإنسايدر فيو، فقد شكّل الملوك والملكات، والأمراء والأميرات مجرد عائلة بسيطة أخرى ويشبهون الناس العاديين، ولكن حالفهم الحظ كثيراً حتّى أصبحوا يصنعون حظهم بأنفسهم.

ولكن الأمور اختلفت في إمبيس.

يا لها من بلاد غريبة حقاً.

اختتمت الفراشات الكبيرة مراسم عودتها تاركةً الظلام خلفها، وشيئاً فشيئاً تلاشى حفيف أجنحتها، ثمّ أقفلت الباب لأن كلاوديا طلبت مني ذلك فقط، ولكنني شعرت بالأمان، وأنني محمي من المخاطر.

قلت بصوت خافت: «تحيا إمبيس، وتحيا أسرة غالين، ربما يستعيدون يوماً السلطة ويحكمون هذا العالم إلى الأبد».

ولمَ لا؟ إن أي شيء أفضل من ذلك الخراب.

أغلقت الباب والمزلاج بإحكام.

5

يبقى النوم سبيل المرء الأخير وسط الظلام، لذلك وضعت حقيبتي بين العربتين إلى جوار رادار، واستلقيت واضعاً رأسي عليها. فكّرت لوهلة في

احتمال أن أستغرق في النوم طويلاً دون وجود منبه، وبالتالي التوقيع على مذكرة وفاتي شخصياً، ثمّ غفوت مباشرةً، ولكن أيقظني سعال رادار المتواصل، فأعطيتها بعض المياه، ما خفف وطأته قليلاً.

كانت حاجتي إلى التبول ساعة المنبه الوحيدة في جعبتي، وفكّرت في أن أقضي حاجتي في إحدى زوايا المستودع، ولكن بدا تصرفاً غير لائق في حق ملجأ آمن، فسحبت مزلاج الباب، وفتحته ما يكفي كي أتفقد المكان في الخارج، حيث عمَّ السكون والظلام من دون أيّ نجمة أو بصيص من ضوء القمر بين الغيوم المنخفضة، وبدا شكل الكنيسة على الطرف المقابل ضبابياً قليلاً، ففركت عينيّ كي تتضح صورتها أكثر، ولكن بقيت على حالها، واكتشفت أن ذلك بسبب الفراشات الكبيرة النائمة هناك، وقد اعتقدت أن عمرها لا يتجاوز أسابيع أو أشهراً في عالمي، أما في إمبيس، فمن يدري؟

أحسست بطرف عيني أن شيئاً تحرك، فالتفتت ولم أرَ شيئاً، وبالتالي إما تخيلت ما حدث، وإما اختفى الجسم المتحرك أياًّ كان. تبولت (وراقبت المكان حولي في أثناء ذلك)، ثمّ دخلت المستودع، وأغلقت الباب والمزلاج، واتجهت ناحية رادار من دون الحاجة إلى استعمال ولاعة والدي، بل تبعت أنفاس كلبتي المرتفعة والخشنة، وخلدت إلى النوم مجدداً لساعة أو ساعتين، راودني خلالها حلم بأنني مستلقٍ على سريري في المنزل، فجلست وحاولت التثاؤب من دون أن أستطيع فتح فمي؛ لأنه اختفى.

أيقظني ذلك المشهد مباشرةً، إضافةً إلى سعال رادار، ولاحظت أن إحدى عينيها مغمضة بسبب المفرزات في حين بقيت الأخرى مفتوحةً، ما منح كلبتي منظراً حزيناً حقاً، فمسحت عينيها، واسترقت النظر عبر الباب مجدداً، فرأيت الفراشات الكبيرة في مكانها، ولكن برز ضوء باهت في السماء، وبالتالي حان وقت تناول شيء ما، ثمّ مواصلة طريقنا.

قرّبت علبة سردين مفتوحةً إلى أنف رادار، ولكنها أشاحت بوجهها عنها مباشرةً، وكأن رائحتها زادت شدة مرضها، ثمّ تناولت واحدةً من قطعتي حلوى جوز البقان الباقيتين، وحاولت مضغ الأخرى، ولكن بصقتها، ونظرت إليّ.

أمسكت وجهها بين يدي وحركته من جهة إلى أخرى بطريقة أحبتها وقلت: «تماسكي قليلاً يا عزيزتي، اتفقنا؟»، وأوشكتُ على البكاء.

حملتها إلى الخارج، ووضعتها برفق على الأرض، فمشت يساراً بحذر وكأنها عجوز، حتّى وصلت إلى حيث قضيت حاجتي، وفعلت مثلي، ثمّ انحنيت كي أحملها، ولكنها التفت حولي واتجهت إلى العجلة الخلفية اليمنى في دراجة كلاوديا والأقرب إلى الطريق، وشمتها، ثمّ تبولت مجدداً، وأصدرت أنيناً وهي تتبول.

اتجهت إلى ذلك الدولاب الخلفي وانحنيت وتفحصت المكان من دون رؤية شيء، ولكن تيقنت أن ما لمحته يتحرك مسبقاً، قد اقترب أكثر بعد دخولي إلى المستودع، وتبول على دراجتي أيضاً، وكأنه يقول: «هذه حدود منطقتي». بعد ذلك، أخذت حقيبتي وهممت بالرحيل، ولكن تذكرت شيئاً أردت إحضاره، فدخلت المستودع مجدداً تحت أنظار رادار، وبحثت في أنحائه حتّى عثرت على مجموعة بطانيات عفنة في إحدى الزوايا – ربما استخدمها المسافرون لاتقاء البرد خلال انتظار عرباتهم، ولولا قضيت حاجتي في الخارج، لتبولت عليها عن طريق الخطأ بسبب الظلام، فأخذت إحداها ونفضتها كي تتساقط بعض حشرات العث النافقة منها مثل ندف ثلج كبيرة، ثمّ طويتها ووضعتها في الدراجة الثلاثية.

«هيّا بنا ننطلق إلى وجهتنا يا ريدس، ما قولك؟».

حملتها إلى السلة، ووضعت البطانية المطوية إلى جوارها، وتذكرت توجيهات كلاوديا بالانتظار حتّى سماع صوت الجرس الأول قبل مواصلة

طريقي، ولكن شعرت بالأمان وسط الفراشات الكبيرة المنتشرة في الأرجاء، ولذلك صعدت الدراجة، واتجهت ببطء ناحية البوابة في الجدار. مضت نصف ساعة تقريباً قبل أن أسمع صوت جرس الصباح الذي كان قوياً جداً بسبب قربي من المدينة، فاستيقظت الفراشات وحلقت في موجة عظيمة من اللونين الأسود والذهبي، واتجهت جنوباً، حيث أردت الذهاب بنفسي وملاقاة دورا، ودخول النفق، والعودة إلى عالم ملؤه الحواسيب وطيور آلية تحلق في السماء، ولكن القصيدة قالت: توجد أميال كي أقطعها، ووعود كي أنفذها.

قلت في نفسي: «لقد اختفى جنود الليل على الأقل، وعادوا إلى السراديب والقبور كي يناموا بهدوء»، ولم يكن لدي وسيلة كي أتحقق من الأمر، ولكن تيقنت منه في نفسي.

6

وصلنا إلى البوابة خلال أقل من ساعة، فترجلت عن الدراجة الثلاثية، ولاحظت أن الغيوم سوداء هناك أكثر من أي مكان آخر، وبالتالي سيهطل المطر قريباً جداً، كما تبينت خطأي في تقدير ارتفاع الجدار الرمادي، فقد تجاوز طوله سبعين قدماً على الأقل، وكانت البوابة عملاقةً حقاً وبطول ملعب كرة القدم، ومصنوعة من الذهب الحقيقي، وليس مجرد طلاء، وقد تقاطعت قضبانها في زوايا وأشكال غير متناسقة، ولكنني كنت متأكداً أنها وضعت عمداً على ذلك النحو الغريب، ما أعادني إلى أعمال لوفكرافت مجدداً والعالم غير الإقليدي المجنون[21] الذي جعلت وحوشه السيطرة على عالمنا نصب أعينها.

وما لفت انتباهي أيضاً هو المادة التي صُنعتْ منها تلك القضبان، إذ بدت مثل زجاج معدني، إضافةً إلى بخار أسود يتحرك داخلها، وهذا ما أثار غثياني، فأشحت بنظري عنه، وعندما التفتت مجدداً، لم أجد له أثراً، ولكن استطعت رؤيته من طرف عيني، ما أصابني بالدوار.

نظرت إلى قدمي كي أتجنب تقيؤ ما تناولته على الفطور، فرأيت شيئاً مكتوباً على إحدى الحصوات الكبيرة بلون ربما كان أزرق يوماً ما، ولكن استحال رمادياً: إنهما حرفا اسم السيد بوديتش أي بي، وقد بعثا الراحة في نفسي، فنظرت مجدداً إلى أعلى، كي أرى البوابة فحسب، ويا لها من بوابة ضخمة حملت مجموعةً من الدعائم الخضراء المتشابكة، وقد كانت مثل التأثيرات البصرية الخاصة التي تضاف إلكترونياً إلى فيلم ملحمي، مع وجود فرق واحد فقط، لم يكن هناك تأثيرات بصرية، وقد ضربت أحد تلك القضبان كي أتأكد من ذلك.

تساءلت ما قد يحدث لو استعملت اسم كلاوديا أو ستيفن وودي كي أفتح البوابة، لأن كلاهما من الأسرة الملكية، أليس كذلك؟ ولكن حسب فهمي المتواضع للعلاقات الأسرية، فإن الأميرة ليا وحدها وريثة عرش إمبيس، أو عرش غالين، لم يكن الاسم مهماً بقدر فعاليته في فتح البوابة، وإلا سأعلق في الخارج، وتموت رادار.

بحث تشارلي الغبي عن جهاز اتصال داخلي، والذي يضعه ساكنو المنزل عادةً قرب المدخل، من دون أن يعثر عليه طبعاً، وليس أمامه سوى تلك القضبان الغريبة المتشابكة، والمادة السوداء المحمية داخلها.

تمتمت: «ليا غالين».

لم يحدث شيء.

قلت في نفسي: «ربما أحتاج أن أرفع صوتي»، ولكن بدا الصياح أمراً خاطئاً وخطيراً جداً وسط الصمت خارج سور المدينة، ولكنني أقنعت نفسي أنني في أمان هناك، وقررت المجازفة والصراخ من أجل رادار.

عجزت في النهاية عن الصراخ عالياً، ولكن سعلت ورفعت صوتي قائلاً: «افتحي باسم ليا غالين!».

جاءت الإجابة في هيئة صرير مخيف، فأجفلت وتراجعت إلى الخلف حتّى أوشكت أن أسقط على مقدمة الدراجة الثلاثية. يُقال في مثل هذه الحالات إن قلب المرء يكاد يخرج من فمه، وهذا ما حدث معي، فقد أوشك قلبي أن يتركني وحيداً ميتاً على الأرض، وأدركت بعد برهة أن الصرير ناجم عن آلة عملاقة تعمل للمرة الأولى بعد سنوات وعقود من الركود، ولعل السيد بوديتش آخر من فتح تلك البوابة مستخدماً نسخة هذا العالم من تعويذة افتح يا سمسم. اهتزت البوابة، ورأيت الخيوط السوداء تسير مضطربةً وسط القضبان الخضراء، وبدت حينها تماماً مثل الرواسب في عبوة مياه بعد رجها، وتحول الصرير إلى ضجيج صاخب تحركت معه البوابة يساراً وفق مسار ضخم خفي. شعرت بالدوار مجدداً خلال مراقبتها، وكان أسوأ من ذي قبل، فأشحت بناظري، وترنحت مسافة أربع خطوات حتّى وصلت إلى مقعد درّاجة كلاوديا الثلاثية. وضعت رأسي عليه، وشعرت نبضات قلبي تضرب صدري ورقبتي وصولاً إلى جانبي وجهي أيضاً، وتوقعت أن نظرةً واحدةً إلى تلك الزوايا المتغيرة باستمرار مع انفتاح البوابة ستفقدني وعيي، أو سأرى شيئاً سيئاً جداً يجبرني أن أعود أدراجي مباشرةً وأترك كلبتي المريضة خلفي، فأغمضت عيني ووضعت يدي على فرائها وقلت في نفسي: «تماسكي، تماسكي قليلاً بعد».

7

أخيراً، توقف الضجيج وخيّم الصمت فجأةً. فتحت عيني ووجدت رادار تنظر إلي، ثمّ التفتت إلى يدي كي أجد أنني انتزعت بعض فرائها دون أن تشتكي أبداً، ولعل ذلك بسبب آلامها الأخرى، ولكن أرجح التزامها الصمت لأنها أدركت مدى حاجتي إليها في تلك اللحظة.

قلت: «هيّا بنا نكتشف ما ينتظرنا».

كشفت البوابة عن ساحة شاسعة مرصوفة بالبلاط، وانتصبت في محيطها بقايا تماثيل حجرية ضخمة على شكل فراشات، وقد تربع كل منها

على قاعدة ارتفاعها عشرين قدماً تقريباً، كما حطمت أجنحتها ورميت في أكوام متناثرة على أرضية الساحة، وقد شكلت ما يشبه ممراً بينها، فتساءلت إن مثلت كل من تلك الفراشات العملاقة ملكاً أو ملكةً في شجرة عائلة غالين.

عاد الصرير مجدداً، وأدركت أن البوابة على وشك الإغلاق، ولعل اسم ليا سيفتحها مجدداً، وربما لا، ولكن أردت المواصلة ولم تكن لديّ أدنى نية في تجربة ذلك حينها، فصعدت الدراجة الثلاثية ودخلت المدينة.

أصدرت العجلات المطاطية صوتاً خلال تحركها على البلاط الذي كانت ألوانه زاهيةً ذات يوم، ولكن أصبحت باهتةً، وفكّرت في أن كل شيء يستحيل رمادياً أو أخضر عاتماً، وكذلك الأمر بالنسبة إلى تماثيل الفراشات الكبيرة المنتصبة حولنا، ولاحظت أن أجسادها بقيت في مكانها، في حين حطمت رؤوسها وأجنحتها، فتذكرت المقاطع المصورة عن داعش، وكيف دمروا التماثيل، والأعمال الفنية، والمعابد بذريعة أنها ضرب من ضروب الكفر.

وصلنا إلى قوس مزدوج على شكل جناحي فراشة، وقد كتبت كلمة ما فوقه، وقد تلاشت معظم ملامحها باستثناء حرفي (لي)، فخطر لي أنها ليليمار، ولكن لعلها كانت غالين.

التفتت إلى رادار كي أطمئن عليها قبل عبور القوس، وفكّرت في ضرورة بقائنا هادئين، لأن جميع من التقيتهم أكدوا على هذه النقطة بطريقة أو أخرى، وعلمت أن ذلك ليس مشكلةً نسبةً إلى ريدس، لأنها غطت في نوم عميق، وهذا جيد من جهة، ومقلق من جهة أُخرى.

كان الطريق رطباً، وفاحت منه رائحة العفن. عبرت القوس حتّى وصلت إلى بركة دائرية مبلطة بحجارة كستها الطحالب، وربما كانت مياهها زرقاء جميلةً في أحد الأيام، وجلس الناس على المقاعد الصخرية حولها

وتناولوا الطعام خلال مراقبة طيور البط أو البجع الإمبيسي تسبح فيها، ولعل الأمهات حملن أطفالهن كي يبللوا أقدامهم في المياه قليلاً، ولكن المكان حينها خلا من أيّ طيور أو زائرين، وفي حال جاء أحدهم، سيتجنب الاقتراب من البركة وينظر إليها وكأنها مسمومة، وربما كانت كذلك فعلاً؛ حيث بدت المياه مثل كتلة خضراء لزجةً وربما صلبةً، وفاحت منها رائحة نتنة جداً، ما رسم أمامي صورة قبر مفتوح يعج بالجثث المتعفنة، والتف حولها طريق متعرج يتسع من أجل الدراجة الثلاثية، ولاحظت شيئاً منقوشاً على إحدى حجارة البلاط إلى اليمين؛ حرفا اسم السيد بوديتش، فسلكت ذلك الاتجاه، ثمّ استوقفني صوت سمعته من الخلف، لعلها همسات أو خطوات أقدام، فالتفتت وتفقدت المكان.

قالت كلاوديا: «تجاهل ما تسمعه من أصوات خلال طريقك»، ولذلك أقنعت نفسي أن الصمت يخيّم على المكان، ولا شيء يتحرك في ظلال القوس خلفي.

قدت الدراجة على الطريق المحاذي لحافة البركة القذرة، وصادفت في نهايته قوس جناحي فراشة آخر، وبينما اقتربت منه، سقطت قطرة مطر على عنقي، ثمّ واحدة أخرى، وازداد عددها شيئاً فشيئاً وانهمرت على مياه البركة ما جعلها منقطةً، فحفرت فيها ثقوباً آنيةً تلاشت مباشرةً، ثمّ لاحظت أن شيئاً أسود برز إلى السطح لثانية أو اثنتين، ثمّ غاص مجدداً، وقد عجزت عن تبين ماهيته، ولكن تيقنت أنني رأيت فيه ما يشبه الأسنان.

اشتد هطول المطر، وكاد يتحول وابلاً غزيراً، فأسرعت حتّى وصلت إلى بداية القوس الثانية، وأخرجت البطانية وغطيت كلبتي النائمة بها مع أنها كانت قديمة وعفنة، ولكن أسعدني إحضارها كثيراً.

وجدت أمامي متسعاً من الوقت، ولذلك أردت البقاء في ظل القوس فترةً قصيرةً حتّى تمسك السماء قليلاً من دون المخاطرة في أخذ رادار تحت المطر مع أنني غطيتها، أو تمنيت لو أمكنني ذلك، لأن التوقع كم ستطول تلك (الفترة القصيرة) مستحيل تقريباً، ناهيك عن قياسها، فقد اعتدت استخدام هاتفي من أجل مراقبة الساعة، وعضضت أصابعي ندماً لأنني تركت ساعة السيد بوديتش. في الوقت الذي تأملت فيه، انهمر المطر بغزارة وسط ما يشبه شارعاً تجارياً اصطفت على جانبيه متاجر ذات واجهات خضراء. تذكرت مدى إدماني على هاتفي المحمول، ومقولةً رددها والدي دوماً عن استعمال الأجهزة الإلكترونية: «امنح أي شخص عكازاً فترةً من الزمن، وسيعجز عن المشي من دونه».

اصطفت المتاجر على الطرف المقابل من جدول جاف، وأعتقد أن الناس الأثرياء اعتادوا ارتيادها، حيث بدت مثل النسخة القديمة من روديو درايف[22] من المناطق الراقية أيضاً، واستطعت من مكاني قراءة عبارة مطلية بالذهب (ولكن ليس ذهباً حقيقياً هذه المرة): متجر أحذية صاحب الجلالة، وقد انكسر زجاج واجهة عرضه قبل زمن طويل، وكذلك الأمر في المتاجر المجاورة، وجرفت سيول الأمطار بعض الشظايا معها، وتموضع في منتصف الشارع شيء يشبه أفعى طويلةً جداً، وتوقعت أنه سلك تشغيل العربات.

لاحظت شيئاً محفوراً على الرصيف قرب ملجئنا من المطر، فجلست القرفصاء كي ألقي نظرةً عليه، وقد شوهت معظم الكتابة كما حدث مع وجوه الفراشات وأجنحتها، وعندما مسحت بدايتها ونهايتها، استطعت قراءة الحروف غين ولام. قد تعني أي شيء، ولكن فكّرت في احتمال أنني على طريق رئيسي يمثل امتداد طريق المملكة من خارج أسوار المدينة، ولعل اسمه هنا طريق غالين، واتجه ناحية المباني الشاهقة في مركز المدينة مباشرةً، حيث انتصبت أيضاً ثلاثة أبراج خضراء أطول من أي بناء آخر، وقد

اخترقت قممها الزجاجية الغيوم، وتوقعت أنها جزء من القصر الملكي من دون أن أتيقن من ذلك.

توقف المطر قليلاً عندما عزمت على مواصلة طريقي بالرغم من أنني قد أتبلل، فتفقدت أمر رادار وغطيتها جيداً، لم يبرز شيئاً من تحت البطانية سوى أنفها وقائمتيها الخلفيتين، ثمّ صعدت الدراجة ودوّست ببطء عبر الجدول الجاف، وتساءلت حينها إن كنت أعبر جسر رومبا الذي أخبرني وودي عنه.

9

تأملت المتاجر الفاخرة، ولاحظت شيئاً مريباً حيالها. لم تكن مهجورة فحسب، بل نهبت قبل فترة طويلة، ولعل ساكني ليليمار أقدموا على ذلك بعد انتشار الداء الرمادي. أحسست بوجود أمر أكثر تعقيداً... وسوءاً، وكان تأثيره سارياً حينها؛ بدت المباني متينة سواء خربت أم لا، ولكنها التوت بطريقة ما، وكأن قوةً عظيمةً غيّرت شكلها تماماً. عندما دققت النظر إليها مباشرةً – متجر أحذية صاحب الجلالة، والأطباق الشهية، والكنوز العجيبة، وخياطو منزل (طمست بقية هذه العبارة، وكأن تتمتها شيء مدنس)، ومتجر العجلات – وجدتها طبيعيةً، وذلك في حال انطبق وصف «طبيعي» على أي شيء في ذلك العالم الغريب. عندما نظرت مجدداً إلى الأمام، شعرت أن الزوايا المستقيمة قد انحنت في مجال رؤيتي المحيطية، وتحركت النوافذ عديمة الزجاج وكأنها عيون تحدق إليّ وتتفحصني، كما استحالت الأحرف رموزاً قديمةً، فأخبرت نفسي أن ذلك مجرد نتاج عن خيالي الخصب، ولكن عجزت عن إثبات ذلك، وتيقنت من شيء واحد فقط؛ لقد أردت الخروج من هناك قبل حلول الظلام.

وصلت إلى أحد التقاطعات، ورأيت تمثالاً مائلاً ناحية الطريق، يحدّق إليّ رأساً على عقب بفم مفتوح عديم الشفتين داخله نابا أفعى ولسان رمادي مشقوق. التففت حوله في شكل قوس، وعندما تركته ورائي فرحاً

بتجاوز نظراته المخيفة المقلوبة، سمعت صوت صدمة مكتومة. التفتت فوجدته قد انهار على الأرض، ولعل إحدى العجلتين الخلفيتين قد ارتطمت به أو لمسته فقط، فأخلت التوازن الذي حافظ عليه سنوات طويلةً، وربما لا.

عاد يحدق إليّ مجدداً.

10

اقتربت من القصر (حسب ما أعتقد)، وبدت الأبنية على جانبي طريقي مثل المنازل الريفية الصغيرة، والتي كانت مترفةً يوماً ما لا شك في ذلك، ولكن استحالت ركاماً في ذلك الوقت، وانهارت شرفاتها، واحتل نبات القراص المسافات بينها، وبالتالي سيتمزق جلدك إرباً عند محاولتك المرور عبرها، واخترقت الأعشاب الرمادية المائلة إلى اللون البني الكريهة أرضية الممرات المرصوفة بالحجارة، وسقطت عليها حوامل المصابيح بعد تخريبها أو تلفها.

اشتد هطول المطر مجدداً مع وصولنا إلى منازل فاخرة أكثر، مبنية من الرخام والزجاج وذات سلالم عريضة (كانت سليمةً)، وأروقة معمدة مهيبة (معظمها محطم). ورغم المطر الغزير، إلا أنّ حلقي كان جافاً، ولذلك تحدّثت بصوت منخفض إلى رادار، وأخبرتها أن تتماسك قليلاً، لأننا اقتربنا. لم يخطر على بالي قط فتح فمي أمام السماء إثر جهلي ماهية تلك المياه وما قد تجره على جسدي، إذ كنت وسط مكان رهيب تغلغل المرض في أرجائه، ولذلك امتنعت عن تجربة شرب أي شيء هناك.

نبهتني كلاوديا ألا أضلّ طريقي، لذا سلكت درباً مستقيماً حتّى هذه اللحظة، وتمسكت ببصيص أمل أشرق وسط كآبة ذلك المكان؛ سيقودني طريق غالين مباشرةً إلى منزل هانا الأصفر والساعة الشمسية في حال تربعا إلى جوار مجتمع الأبنية الملكية المصفوفة حول الأبراج الثلاث، وبعد برهة استطعت رؤية نوافذها العملاقة، ولاحظت أن زجاجها ليس ملوناً كما

في الكنيسة، بل أخضر داكناً متلألئاً مثل نظيره في قضبان البوابة الخارجية، وفي البركة القذرة.

أوشكت خلال التحديق إليها أن أغفل عن حرفي اسم السيد بوديتش المكتوبين على عمود صخري توجد حلقة في قمته، ولعلها من أجل ربط لجام الحصان. لقد اصطفت أعمدة مثله جنباً إلى جنب مثل صف أسنان خشنة أمام مبنى رمادي عملاق امتلك عشرة أبواب على الأقل في قمة سلالمه المنحدرة بشدة، وكان عديم النوافذ. احتل العمود الذي دوّن عليه حرفا أي. بي نهاية الصف وبداية ممر فرعي ضيق إلى اليسار، وقد رسم الخط المعترض في حرف (أي) على شكل سهم يشير إلى نهاية تلك الطريق، حيث انتصبت مبانٍ حجرية عادية بارتفاع ثمانية أو عشرة طوابق. تخيلت كيف احتشد الموظفون الحكوميون ضمنها يوماً من أجل تسيير أعمال المملكة، ودخلوا وخرجوا سريعاً، وارتدى كل منهم معطفاً صوفياً أسود طويلاً، وسترةً ذات ياقة طويلة، مثل الرجال في رسوم إحدى روايات ديكنز (تصورتهم جميعاً رجالاً)، ولكني عجزت عن تحديد أيها السجن الملكي، فقد بدت جميعها كذلك بالنسبة إليّ. توقفت وحدقت إلى حرف (أي) وكيف رسم خطه المعترض في شكل سهم أشار إلى اتجاه بعيد عن القصر، ولذلك سألت نفسي ما يلي: هل أواصل التقدم، أم أتبع السهم؟ وقاطع سلسلة أفكاري سعال رادار من تحت البطانية التي بللتها مياه المطر، وستغرقها قريباً، وأوشكت تجاهل السهم ومواصلة طريقي، وفكّرت في أنني أستطيع عودة أدراجي متى أردت، ولكن تذكرت شيئين قالتهما كلاوديا: الأول أنني سأصل إلى وجهتي بخير عند اتباع تعليمات السيد بوديتش، والآخر أن رحلةً طويلةً جداً في انتظاري، ولكن التعليمات ستختصرها كثيراً.

في النهاية، قررت التزام نصائح كلاوديا والسيد بوديتش، وأدرت مقود الدراجة في اتجاه السهم، وتابعت طريقي.

لقد أصابت كلاوديا عندما قالت إن الشوارع متشابكة كالمتاهة، وقد خضت غمارها سعياً وراء علامات السيد بوديتش، ولعلك تستطيع حفظ طريقك في نيويورك، وتذكره قليلاً في شيكاغو، ولكن ليس في ليليمار، لم أجد مثيلاً لها (وإن في ذلك الوقت على الأقل) سوى مدينة لندن خلال فترة شارلوك هولمز وجاك السفاح. لقد انتصبت على جوانب بعض الشوارع أشجار عارية لا يمكن الاحتماء تحتها، وكانت بعض الطرق ضيقةً جداً على دراجتي ثلاثية العجلات، ولكن امتدت شرفة مبنىً مؤلف من طابقين فوق أحدها وكانت قريبة جداً من الأرض، فلجأنا إليها لنتقي من وابل المطر. لاحظت خلال طريقي أن قلةً من أسلاك العربات تدلت رخوةً إلى الأرض، وامتد معظمها في الشوارع، ورأيت عبر إحدى نوافذ العرض دمية خياطة اقتلع رأسها وحلت محله قبعة مهرج، كما علقت أجراس على رقبتها، وغرست سكين بين ثدييها، ورغم الجهد المبذول في تصميم تلك الدعابة، إلا أنها لم تضحكني.

مضت ساعة تقريباً دون أدرك كم مرةً الفتت يميناً ويساراً، ودخلت نفقاً رطباً عكرت عجلات الدراجة هدوء مياهه الراكدة مصدرةً صوتاً بدا صداه مثل ضحكات هامسة.

لقد تلاشت علامات السيد بوديتش المكشوفة أمام تغيرات الطقس حتّى أن بعضها طُمس تقريباً، وقررت أنني إذا وصلت إلى طريق مسدود من دون رؤية أي منها، سأعود أدراجي متتبعاً العلامات مجدداً حتّى الأبراج الثلاثة البارزة من القصر (حسب ما أعتقد)، ولكن الشك راودني حيال قدرتي على فعل ذلك، وخاصةً في ظل وجود الأبنية المتلاصقة على طول الطريق، ما جعل الضياع وسط تلك المتاهة محتملاً جداً حتّى سماع الجرس الذي يرن مرتين... وربما جرس المساء الذي يرن ثلاث مرات، ويأتي حينها دور القلق حيال جنود الليل، وقد كنت متأكداً أن المنيّة ستوافي رادار بسبب المطر وسعالها بحلول ذلك الوقت.

تعثرت الدراجة في حفرتين اخترقتا الأرض عميقاً، وشعرت أنهما مصدر الأصوات الهامسة التي حذّرتني منها كلاوديا، كما فاحت منهما رائحة كريهة، وكان الصوت والرائحة أشد في الحفرة الثانية، وقد حاولت من دون فائدة استبعاد فكرة أن الرعب جر ساكني المدينة إلى ملاجئ واسعة تحت الأرض، ولبثوا فيها حتّى مماتهم، وأن تلك الأصوات صادرة عن أشباحهم.

أردت العودة إلى المنزل في عالمي المتوازن، حيث يمكن سماع الأصوات عبر سماعات الأذن فقط.

وصلت إلى زاوية انتصب فيها عمود إنارة حمل إما حرفي اسم السيد بوديتش، وإما مجرد لطخة من الدماء القديمة، ولذلك ترجلت عن الدراجة ثلاثية العجلات كي أتفقدها من دون أن أجرؤ على تنظيفها وإن قليلاً خشية محوها كلياً، فانحنيت واقتربت حتّى أوشك أنفي على ملامستها، وتأكدت (تقريباً) أن الخط المعترض في حرف (أي) أشار يميناً. عندما صعدت الدراجة مجدداً، أخرجت رادار رأسها من تحت البطانية، وأنّت بوهن، وقد التصق جفنا إحدى عينيها بسبب المفرزات، وكانت الأخرى نصف مفتوحة، واستعملتها كي تنظر خلفنا، فتبعت نظراتها وسمعت خطوات أقدام؛ كنت متأكداً من ذلك حينها، كما لمحت جزءاً من قطعة ملابس، ولعلها عباءة على الأرجح، خلال انعطاف مرتديها على بعد بضعة شوارع خلفنا.

صرخت: «هل من أحد هنا؟»، ثمّ وضعت يدي على فمي، وتذكرت كيف أخبرني الجميع أن ألتزم الصمت والهدوء، ولكن تابعت كلامي في صوت منخفض أكثر أقرب إلى الهمس: «أظهر نفسك، يمكننا أن نكون أصدقاء».

عمّ الهدوء المكان، ولكنني توقعت ظهور أحدهم، ولذلك وضعت يدي على مسدس السيد بوديتش.

قلت: «أملك مسدساً، ولن أتردد في استعماله، هل تسمعني؟ أنصحك أن تظهر نفسك أيها الغريب»، وقد كانت مجرد خدعةً طبعاً، إذ حذرتني كلاوديا بشدة من ذلك، وشعرت أنني أتحول إلى شخصية خيالية من كتاب أو فيلم، وتوقعت سماع نفسي أقول: «أدعى إنيغو مونتويا، وأنت قاتل والدي، فاستعد كي تلقى حتفك».

مجدداً عانت رادار من نوبة سعال، وبدأت ترتجف، فصعدت الدراجة مجدداً، وتابعت طريقي في اتجاه السهم الأخير، والذي قادني إلى طريق متعرج مرصوف بالحصى، واصطفت براميل على طرفيه لسبب مجهول، ومعظمها مقلوب رأساً على عقب.

11

واصلت تعقب علامات السيد بوديتش، وقد كان بعضها واضحاً جداً في طلاء أحمر، وبعضها مطموس تماماً، فقادتني يميناً ويساراً وسط رائحة العفن الكريهة المنتشرة في كل مكان، من دون أيّ جثث أو هياكل عظمية، وراودني إحساس أن أشكال المباني تتغير باستمرار.

قدت الدراجة عبر برك المياه الضحلة، وكذلك وسط الشوارع المغمورة كلياً حيث غاصت عجلاتها حتّى منتصفها تقريباً، ثمّ أمسكت السماء قليلاً، واستحال وابل المطر رذاذاً حتّى توقف، وما زلت أجهل مقدار المسافة الفاصلة بيني وبين منزل هانا الأصفر، فلا هاتف كي أتفقد الوقت، ولا شمس في السماء ترشدني، وبقي توجهي الزماني مضطرباً وسط ترقبي سماع صوت رنين جرس منتصف النهار.

قلت في نفسي: «لقد ضللت طريقي تماماً ولا أملك سبيلاً إلى تحديد موقعي، وسأعجز عن الوصول في الوقت المناسب حتماً، وأنا بحاجة إلى معجزة كي أخرج من هذا المكان قبل حلول الليل».

عبرت ساحةً صغيرةً توسطها تمثال امرأة مقطوعة الرأس، واستطعت من هناك رؤية الأبراج الثلاثة مجدداً، ولكن أصبح منظرها جانبياً، وهنا فكّرت في شيء سخيف – ولكن حقيقي – صرخ به مدرب كرة السلة وكرة القاعدة السيد هاركنس عند القفز قرب خطوط الملعب الجانبية خلال مراقبة أفراد الفريق، في حين احمرّ وجهه وتصبب العرق تحت إبطيه مبللاً قميصه الأبيض الذي اعتاد ارتداءه في أيام المباريات: «طبّق خطة الباب الخلفي، الباب الخلفي! اللعنة!».

الباب الخلفي هي إحدى الاستراتيجيات المتبعة في مباريات كرة السلة، وفيها يوهم المهاجم خصمه أنه سيتلقى الكرة من الأمام، ثمّ يلتف من وراء ظهره.

لقد لعب السيد بوديتش بهذه الطريقة، وقادني بعلاماته إلى خلف ذلك المبنى المركزي العملاق لا إلى مقدمته حيث يؤدي طريق غالين بالتأكيد، فانعطفت إلى يسار الساحة متوقعاً رؤية حرفي اسمه في بداية أحد الطرق المتجهة بعيداً عن القصر. لقد أصبت في ذلك، ورأيتها مرسومةً على جانب مبنى زجاجي محطم ربما كان دفيئةً يوماً ما، عندها أصبح القصر إلى يميني، وأبعدتني العلامات عنه أكثر فأكثر، حتّى تبينت سقفاً حجرياً منحنياً خلف امتداد المباني الرئيسية.

قدت الدراجة بسرعة أكبر، وقادتني العلامة التالية إلى اليمين عبر ما كان يوماً جادةً واسعةً وفاخرةً جداً، ولكن وصلت إليها في وقت تصدعت أرصفتها، وتحولت بعض حجارتها إلى فتات، وقطعتها جزيرة وسطية عشبية إلى نصفين، وبرزت بين الأعشاب ورود بتلاتها صفراء وذات مركز أخضر، فتباطأت ما يكفي كي أتأمل المتدلية على الشارع من جذعها الطويل، وعندما حاولت لمس إحداها، أطبقت بتلاتها سريعاً وقريباً جداً من أصابعي، وخرج سائل أبيض لزج من بينها، وعندما أحسست بحرارتها، سحبت يدي سريعاً.

قطعت ربع ميل إضافياً تقريباً قبل أن تبرز ثلاث قمم في الأفق؛ واحدة على كل من جانبي الجادة، والثالثة في نهايتها مباشرةً، وكان لونها أصفر مثل تلك الورود الجائعة، فتابعت طريقي وصولاً إلى ساحة أخرى تربعت في منتصفها نافورة عظيمة خضراء ولكن جافة، وقد رصعت قعرها قطع الجرانيت عشوائية الأشكال، وتذكرت عبارة كلاوديا المميزة: «اكتب ذلك أيها الأمير تشارلي»، فأخرجت الملاحظات من حقيبتي، وتأكدت من توافر العناصر المذكورة فيها: نافورة جافة، ومنزل أصفر كبير يمتد على جانبي الطريق، والاختفاء عن الأنظار؛ جميعها محققة، فأقحمت الورقة في جيب حقيبتي الجانبي بدلاً من جيب ملابسي كي لا يبللها المطر، وكان تصرفاً طبيعياً حينها، ولكن أدركت أهميته العظيمة في وقت لاحق، وكذلك الأمر مع هاتفي المحمول.

قدت الدراجة ببطء عبر الساحة، وأسرعت ناحية النافورة التي بلغ ارتفاع قاعدتها ثماني أقدام على الأقل، وعرضها في مقاس جذع شجرة، ما جعلها مخبأً مثالياً، فترجلت عن الدراجة وحدقت من جانب القاعدة إلى منزل هانا... أو منازلها القابعة على بعد خمسين قدماً من النافورة فقط، وقد ربط بينها بهو أصفر مر فوق الطريق المركزي، مثل المعابر المعلقة في مينيابوليس.

ورأيت هانا في الخارج.

الفصل الثامن عشر
هانا- طرق دولاب الهواء- سر البركة المرعب- الوصول
إلى الساعة الشمسية- لقاء غير مرحب به.

1

لا شك في أن هانا خرجت بعد توقف المطر كي تسترخي قليلاً في الطقس الصحو، وجلست تحت مظلة مخططة بالأحمر والأزرق على عرش ذهبي عملاق مسروق بالتأكيد، وقد صنع من الذهب الخالص حتماً، ورصعت خلفيته بجواهر حقيقية لا مزيفة، وتخيّلت المنظر المضحك لملك إمبيس، أو

ملكتها، ومدى صغر حجمهما عند الجلوس عليه، في حين امتلكت هانا جسداً ممتلئاً جداً إلى درجة أن ترهلات جسدها قد تدلت عن جانبي ذراعيه الذهبيين وقماشه الأرجواني.

كانت هانا قبيحةً بشكل مروع، وقد عجزت عن تحديد مدى ضخامتها تماماً من مخبئي خلف النافورة الجافة، أنا أبلغ من الطول ست أقدام ونيف، وقدرت أنها أطول بخمس أقدام إضافية على الأقل من دون أن تقف حتّى، وبالتالي سيتجاوز طولها عشرين قدماً عندما تنهض.

بعبارة أخرى: كانت عملاقةً حقيقيةً.

ارتدت هانا ثوباً يشبه خيمة السيرك، أرجواني اللون مثل قماش العرش، وقد وصلت حاشيته حتّى ربلتي ساقيها الثخينتين، وكان كل من أصابعها في حجم ذراعي، وقد اكتظت الخواتم فيها، ولمعت تحت ضوء النهار الخافت وكانت لتشرق تماماً لو وصلت أشعة الشمس إليها، كما تدلى شعرها البني الداكن في خصلات كثيفة إلى كتفيها والفراغ بين ثدييها.

تدرك من فستانها أنها أنثى، ولكن ليس من دونه، كما غطت مجموعة كبيرة من الكتل والدمامل وجهها، وتربع صدع أحمر في مركز جبهتها، وقد انخمصت إحدى عينيها وانتفخت الأخرى، والتصقت شفتها العليا إلى أنفها المشقوق كاشفةً عن أسنان أقرب إلى الأنياب، والأسوأ من ذلك كله أن عظاماً - بشريةً بالتأكيد - تراكمت حول عرشها.

عانت رادار من نوبة سعال جديدة، فالتفتت إليها، وقربت وجهي منها وحدّقت إلى عينيها وهمست: «اهدأي يا صغيرتي أرجوك»، فسعلت مرةً واحدةً والتزمت الصمت، ولكنها ارتعشت من البرد. وعندما أدرت وجهي، عادت نوبة السعال مجدداً، وكانت هانا لتكتشف أمرنا لولا اختارت تلك اللحظة تحديداً كي تغني:

«أحبني يا عزيزي جو،

أحبني دوماً يا عزيزي جو،

مارس الحب معي طوال الليل،

أحبني برونغ دي دونغ،

برونغ دي دونغ، برونغ دي دونغ،

أحبني برونغ دي دونغ!».

خطرت لي فكرة أشك في أنها وردت في مؤلفات الأخوين غريم.

واصلت هانا ترديد ما بدا أنها أغنية تشبه تلك المسماة «ون هاندرد بوتلز أوف بير» والمؤلفة من أبيات لا تنتهي، وقد ناسبني ذلك كثيراً نظراً إلى سعال رادار، فمسحت على صدرها وبطنها محاولاً مساعدتها في حين وصلت هانا إلى سطر يقول: «يا عزيزي جوي، يا بطلي الشجاع»، (توقعت أن تتبعه عبارة: «مارس الحب معي بإبداع»)، في تلك الأثناء، رنّ جرس الظهيرة مرتين، ودوى صوت يصم الآذان، وذلك بسبب اقترابي كثيراً من القصر.

خمد الصوت شيئاً فشيئاً، وانتظرتُ أن تنهض هانا وتذهب إلى مطبخها، ولكنها بقيت في مكانها. ضغطت إحدى دمامل ذقنها العريضة بين إصبعيها، فخرج منها القيح الأصفر بغزارة، مسحته براحة يدها، وفحصته، ثمّ رمته إلى الشارع، واستقرت على عرشها، وهنا انتظرت أن تسعل رادار مجدداً، ولكنها لم تفعل ذلك، إلا أنها مسألة وقت فحسب.

قلت في نفسي: «تابعي الغناء أيتها الوضيعة القبيحة. هيّا تابعي قبل أن تسعل كلبتي مجدداً وينتهي أمرنا وسط أكوام العظام التي منعك كسلك عن جمعها أيتها...».

لكنها نهضت بدل الغناء، وبدا الأمر مثل مشاهدة جبل يتحرك، وقد استخدمتُ معادلةً بسيطةً تعلمتها من دروس الرياضيات من أجل حساب ارتفاعها واقفةً، ولكنني أخطأت في تقدير طول ساقيها، وقد بلغ ارتفاع المعبر بين نصفي منزلها عن الأرض عشرين قدماً تقريباً، فانحنت هانا كي تمر تحته.

عندما نهضت، أخرجت جزء ثوبها العالق في شق مؤخرتها، وأطلقت ريحاً مدويةً استمرت فترةً لا بأس بها، وذكرتني بمقطع المترددة (الترومبون) في معزوفة والدي المفضلة ميد نايت إن موسكو، فوضعت يدي على فمي كي أكتم ضحكةً قويةً، واتجهت إلى رادار مباشرةً، ودفنت رأسي في الجانب الرطب من فرائها، وشهقت قليلاً من الضحك، وأغمضت عيني في انتظار أن تسعل رادار، أو تقبض إحدى يدي هانا على عنقي وتقتلع رأسي من مكانه مباشرةً.

لكن أيّاً من ذلك لم يحدث، فاسترقت النظر من وراء النافورة كي أجد هانا تشق طريقها ناحية نصف منزلها الأيمن - أذهلتني ضخامة حجمها مجدداً، فقد استطاعت النظر عبر نوافذ الطوابق العلوية دون عناء - ثمّ فتحت بابه الكبير وانحنت كي تدخل، وفاحت راحة لحم بقر مشوي، ولكن انتابني حدس سيئ بأنه لحم كائن مختلف تماماً.

صرخت بصوت مرتفع جداً: «أنا جائعة أيها الطاهي المخصي! أين طعامي؟».

أخبرتني كلاوديا أن تلك اللحظة هي الأنسب من أجل التحرك.

صعدت الدراجة ثلاثية العجلات، وقدتها ناحية الممر، وانحنيت فوق المقود مثل راكب دراجة يقطع المسافة الأخيرة قبل خط النهاية في سباق تور دو فرانس. وقبل أن أصل إلى الممر، استرقت النظر يساراً ناحية العرش، ورأيت العظام الصغيرة المتناثرة حوله، وقد كانت عظام أطفال

على الأرجح، وحمل بعضها غضاريف، وبعضها الآخر شعوراً، وأدركت حينها مدى سوء تلك النظرة، وأتمنى حتّى اليوم لو أنني أستطيع محوها من ذاكرتي، ولكن نعجز أحياناً - أو غالباً - أن نمنع أنفسنا عن فعل شيء ما، أليس كذلك؟

2

امتد الممر على مسافة ثماني أقدام باردة ورطبة، واصطفت على جانبيه حجارة غطتها الطحالب، وسطع ضوء قوي في نهايته، وتوهمت أنني سأصل إلى ساحة تتربع الشمس في سمائها.

ولكن تبخر جهدي وحماسي فور الخروج من الممر منحنياً فوق المقود، لأنني رأيت كيف افترست الغيوم تلك الرقعة الزرقاء الصغيرة اليتيمة وحل محلها اللون الرمادي وحيد الدرجة. وقد صدمني شيء آخر، فأنزلت قدمي عن الدواستين لا إرادياً فتابعت الدراجة الثلاثية الحركة من تلقاء نفسها حتّى توقفت تماماً؛ وجدت نفسي على مشارف ساحة عظيمة مفتوحة، وقد تفرعت عنها ثمانية طرق في ثمانية اتجاهات مختلفة، ولاحظت أن بلاط كل منها ملون بأحد الألوان الآتية: الأخضر، والأزرق، والأرجواني، والنيلي، والأحمر، والوردي، والأصفر، والبرتقالي، ولكن غدت جميعها باهتةً في ذلك الوقت، وتوقعت أنها ستستحيل رماديةً مثل كل شيء في ليليمار، وبقية مدن إمبيس. وعلى أيّ حال، فقد بدا مشهد تلك الطرق المنحنية مثل دولاب هواء ضخم، وملوّن أيضاً في السابق، واصطف على جانبي كل منها أعمدة حملت أعلاماً مثلثة الشكل، والتي ربما رفرفت قبل بضع سنوات - لا أدري عددها تحديداً - مع نسيم الهواء المنعش المجرد من رائحة العفن الكريهة، في حين رقدت أمامي حينها ساكنةً وتقطرت منها مياه المطر.

تربع وسط ساحة دولاب الهواء العملاقة تمثال فراشة آخر، وقد تحطم وجهها وجناحاها، وتناثرت أشلاؤهما حول قاعدتها، وانطلق خلفها طريق متسع أكثر يقود إلى خلفية القصر بأبراجه الثلاثة الخضراء الداكنة، وتخيّلت

كيف اجتمعت تلك الطرق الثمانية في مكان واحد موحدةً الإمبيسيين القادمين من أماكن مختلفةً يضحكون ويتدافعون مرحاً، ويتوقعون الاستمتاع بوقتهم كثيراً، ويحمل بعضهم غداءه في سلة أو وعاء، ويتوقف بعضهم الآخر كي يشتري الطعام من البائعين الجوالين، إضافةً إلى التذكارات والأعلام من أجل الأطفال؛ لقد رأيت ما سبق وكأنني بينهم، إذ خضت هذه التجربة الغامرة بنفسي عندما قصدت الملاعب من أجل مشاهدة وايت سوكس، إضافةً إلى شيكاغو بيرز في ذلك الأحد التاريخي الوحيد.

برز فوق ذاك القسم الخلفي من القصر مترامي الأطراف جدار أحمر منحنٍ، وانتصبت إلى جواره أعمدة حملت كل منها جهازاً يشبه طبقاً طويلاً، وتوقعت أن الألعاب أقيمت هناك وشاهدها يوماً حشود عظيمة هتفت بأعلى صوتها، ولكن ليس خلال الوقت الذي قضيته في ليليمار، حيث كانت الطرق المنحنية والمدخل الرئيسي مقفرين تماماً مثل حال المدينة المسكونة.

بنيت خلال دروس التاريخ في الصف الخامس قلعةً من مكعبات اللعب برفقة أصدقائي، وكان النشاط أقرب إلى تسلية منه إلى التعليم، ولكن ظهرت فائدته الأخيرة عندما تأملت القصر وتعرفت إلى معظم أجزائه المعمارية: أكتاف التدعيم، وأبراج الرماة، والأسوار ذات الفتحات، والحواجز، وما بدت أنها بوابة خلفية، ولكن وجب أن يحوي ذلك القصر شيئاً معيباً مثل أي شيء في ليليمار، مثل السلالم المنتشرة في كل مكان (دون فائدة حسب ما أعتقد) والملتفة حول بوارز تشبه فطر الغاريقون [23]ذات نوافذ صغيرة عديمة الزجاج، ولعلها كانت مراكز حراسة، أو أي شيء آخر، وقد تقاطعت بعض السلالم بطريقة ذكرتني برسومات إيشر[24] التي تخدعك بصرياً باستمرار، إذ بدت مقلوبةً رأساً على عقب للوهلة الأولى، وعندما أغمضت عيني وفتحتهما، وجدتها صحيحةً.

وأسوأ من ذلك، بدا القصر غير المتناظر متحركاً، مثل قلعة هاول، ولكن عجزت عن رؤية ذلك بشكل مباشر نظراً إلى صعوبة جمع أجزائه كلها

في حقلي البصري... أو حتّى تخيّله، وتنوعت ألوان السلالم مثل طرق دولاب الهواء، ما أضفى بهجةً على المكان، ولكن طغى عليها إحساس مجهول يخبرك إنه ليس قصراً أبداً بل مخلوقاً يفكر بغرابة، وأعلم أنني وقعت تحت سيطرة مخيلتي (لم أدرك ذلك حينها)، ولكن أسعدني كيف أوصلتني علامات السيد بوديتش ناحية الملعب حيث عجزت نوافذ الكنيسة عن مراقبتي، ولم أكن متأكداً من قدرتي على احتمالها نظراتها المريضة في ذلك الوقت.

عبرت المدخل ببطء، واصطدمت عجلات الدراجة ببعض الحجارة البارزة من الطريق، وقد انعدمت النوافذ من ناحية القصر الخلفية، واحتلته مجموعة من الأبواب الحمراء الكبيرة - ثمانية أو تسعة - إضافةً إلى مجموعة من العربات القديمة، وقد انقلب عدد منها رأساً على عقب، واستحال بعضها الآخر أشلاءً، ولا شيء أسهل من تصور هانا تحطمها كهواية بدافع الغضب مثلاً، أو الرياضة، وتوقعت أن الأسرة المالكة لم يسبق أن رأت منطقة التخزين تلك، بل ارتادها عامة الناس.

لاحظت حرفي اسم السيد بوديتش على إحدى الصخور قريباً من منطقة التحميل والتفريغ، وقد كرهت الاقتراب من القصر إلى ذلك الحد، حتّى في المنطقة عديمة النوافذ، لأنني رأيته يتحرك وينبض بالحياة، وقد أشار الخط المستعرض في حرف (أي) الأخير إلى اليسار، فخرجت عن الطريق الرئيسي ملتزماً التعليمات، وسعلت رادار بقوة مرةً أخرى، وتذكرت كيف لمست فراءها قبل قليل ووجدته رطباً وبارداً ومتلبداً، وتساءلت في نفسي: هل تصيب ذات الرئة الكلاب؟ وقد وجدته سؤالاً غبياً، لأنها قد تصيب أي كائن له رئتين.

قادتني حروف إضافية ناحية سلسلة من ست أو ثماني أكتاف تدعيم أمكنني المرور تحتها، ولكنني تجنبت ذلك. كانت خضراء داكنةً مثل نوافذ الأبراج، ولعلها صنعت من أحد أنواع الزجاج فقط، وتساءلت عن مصدر

قدرته الكبيرة على حمل وزن تلك الدعامة الخلفية، وقد احتوى مجدداً تلك الخيوط السوداء التي تلوت ببطء داخله حول بعضها، وجعلتني أُفكّر في بعض أفلام الرعب مثل آلين، وبيرانها، وتمنيت أن أمحوها من ذاكرتي تماماً، وبدت الأكتاف مثل صف من الأضواء الخضراء الغريبة وداخلها نار سوداء.

بدأت أفكّر في أنني وسط جولة تعريفية عن القصر، وهذا يعني الدخول في نطاق رؤية أبراج القصر الثلاثية، ثمّ وصلت إلى فجوة بين جناحين متباعدين عديمي النوافذ رسما رقم (V)، حيث انتصبت مقاعد حول بركة صغيرة ظللتها أشجار النخيل، والتي غطت أوراقها ما أخفته تلك الفجوة، حيث انبثق أعلاها بمئة قدم تقريباً عمود على قمته رمز شمس له وجه وعينين تحركتا يميناً ويساراً مثل ساعة كيت كات، وقد رسم السيد بوديتش إلى يمين البركة حرفي اسمه، ولكن دون سهم في الخط المستعرض من حرف (أي)، بل انطلق من قمته، وكأنه يقول: «تابع طريقك إلى الأمام مباشرةً ولا تهدر الوقت».

«تماسكي يا رادار، أوشكنا على الوصول».

قدت الدراجة في اتجاه السهم ناحية يمين البركة الجميلة الصغيرة، وبالتالي لا حاجة كي ألقي نظرةً إلى البركة المخفية وراء أشجار النخيل، وخاصةً بعد الاقتراب كثيراً من هدفي، ولكنني فعلت ذلك، وبئس ما رأيته هناك، ولكن أسعدني حدوث ذلك لأنه قلب الموازين في وقت لاحق بعد فترة طويلة. ننظر أحياناً لأننا نحتاج أن نتذكر شيئاً ما، ونستمد القوة من أكثر الأمور رعباً، ولكن جل ما استطعت التفكير فيه خلال تلك اللحظة: «يا له من منظر مروع، إنها إريل».

وسط البركة الطينية القاتمة بسبب العفن، والتي ربما كانت زرقاء صافيةً يوماً ما، برزت بقايا حورية بحر، ولكن ليست إريل أميرة ديزني وابنة الملك تريتون والملكة أثينا، لأنها لم تمتلك ذيلاً أخضر لماعاً، أو عينين

زرقاوين، أو شعراً متموجاً أحمر، ولا حتّى صدريةً أرجوانيةً صغيرةً لطيفةً، وتصورت أن شعرها كان أشقر سابقاً، ولكنه تساقط وطفا على سطح البركة، ولعل لون ذيلها كان أخضر أيضاً، ولكن استحال رمادياً جامداً مثل جلدها، وقد اختفت شفتاها وكشفتا عن حلقة أسنان صغيرة، وتركت عيناها حفرتين فارغتين مكانهما.

لكنني واثق أن الماضي شهد جمالها، وحيويتها، وسعادتها وسحرها البريء عندما سبحت في موطنها وسط تلك البركة، حيث وقف الناس وتأملوها، وأسعدوها كما أسعدتهم، ولكنها رقدت ميتةً مع رمح اخترق نقطة تحول ذيلها إلى جسد بشري، وبرزت منها تلافيف أمعائها الرمادية، وقد احتفظت بلمحة طفيفة من جمالها، ولكن طفت مثل أيّ سمكة ميتة في حوض مائي كما تلاشت ألوانها الزاهية، وجل ما بقي منها جثة رمادية هامدة حفظتها المياه الباردة، في حين بقيت كائنات قبيحة حقاً مثل هانا على قيد الحياة، تغني وتطلق الريح وتتناول طعامها المقرف.

قلت في نفسي: «لقد حلت اللعنة على هذه البلاد المشؤومة»، وليست تلك من أقوال تشارلي ريد، ولكنها فكرة صحيحة.

لقد كرهت هانا أكثر، ليس لأنها قتلت حورية البحر (توقعت أنها مزقتها)، بل لأنها ما زالت على قيد الحياة.

سعلت رادار مجدداً وبقوة حتّى استطعت سماعها من سلة الخيزران خلفي، فتجاهلت مشهد حورية البحر المؤسف، وتابعت طريقي حول البركة ناحية العمود الذي حمل رمز الشمس.

3

تربعت الساعة الشمسية في ملتقى الجناحين، وانتصبت قبلها لافتة حملت عبارةً مطموسةً ولكن مقروءةً قليلاً كُتب عليها: ممنوع الاقتراب، وامتدت الساعة على شكل قرص بلغ قطره عشرين قدماً، وبالتالي ستين

قدماً في المحيط (إن أصبت في حسابه)، ثمّ لمحت حرفي اسم السيد بوديتش، وأردت إلقاء نظرة أقرب إليهما، حيث أرشدتني العلامات السابقة إلى هنا، ولعلها تخبرني الاتجاه الصحيح لتدوير الساعة الشمسية، ولكن استحالت قيادة الدراجة الثلاثية عبرها نظراً إلى وجود أوتاد سوداء وبيضاء انتصبت على محيطها بارتفاع ثلاث أقدام تقريباً.

سعلت رادار كثيراً، ولهثت وارتعشت من البرد، وقد أغلقت المفرزات إحدى عينيها، وحدقت بالأخرى إليّ، وتلبد فراؤها والتصق على جسدها مظهراً مدى نحولها. لم أرد رؤية ذلك المشهد، حيث بدت رادار مثل هيكل عظمي، فترجلت عن الدراجة وحملتها، فارتعشت بشدة بين يدي.

«سينتهي العذاب قريباً يا صغيرتي».

تمنيت أن أكون محقاً، لأن تلك فرصة رادار الأخيرة... وقد نجح الأمر مع السيد بوديتش، أليس كذلك؟ ورغم رؤية العملاقة وحورية البحر، إلا أنني عجزت عن الإيمان في إمكانية تحقق تلك المعجزة.

تجاوزت الأوتاد، ومشيت عبر الساعة الشمسية المقسمة إلى أربعة عشر مثلثاً حجرياً، وقلت في نفسي: «أعتقد الآن أنني سأعرف مدى طول الأيام في إمبيس»، ونقش في مركز كل مثلث رسم بسيط بالٍ، ولكن أمكن التعرف إليه: القمران، والشمس، وسمكة، وعصفور، وخنزير، وفأس، وفراشة، ونحلة، وحزمة قمح، وبضع حبات من التوت، وقطرة ماء، وشجرة، ورجل عار، وامرأة حامل عارية؛ إنها رموز الحياة، وبينما مررت إلى جوار العمود المرتفع في المركز، استطعت سماع طقطقة العيون في وجه الساعة الشمسية.

تجاوزت الأوتاد القصيرة على الجانب البعيد حاملاً رادار، وقد تدلى لسانها عن جانب فمها خلال سعالها الذي لم يتوقف، وأدركت أن منيّتها اقتربت بالتأكيد.

وقفت أمام الساعة الشمسية وحرفي اسم السيد بوديتش، وأنعمت النظر كي أجد الخط المستعرض في حرف (أي) على شكل سهم صغير يشير إلى اليمين، وهذا يعني وجوب تدوير الساعة عكس اتجاه عقارب الساعة إن استطعت ذلك، وبدا الأمر منطقياً، وإلا فقد قطعت مسافةً طويلةً من أجل قتل كلبتي وزيادة عمرها أكثر.

لقد سمعت الهمسات، ولكنني تجاهلتها، وركزت اهتمامي على رادار فقط، ولا شيء غيرها، وأدركت ضرورة فعل ذلك، فانحنيت ووضعتها برفق في القسم ذو نقش رزمة القمح، وحاولت رفع رأسها قليلاً ولكنها لم تستطع، فأمالته على الأرضية الحجرية بين قائمتيها وحدقت إليّ بعينها السليمة، وقد خارت قواها حتّى عن السعال، واكتفت باللهاث.

صليت كي ينجح الأمر.

ركعت وأمسكت واحدةً من الأوتاد في محيط الساعة الشمسية، وسحبته بإحدى يديّ ثمّ بكلتيهما ولكنه لم يتحرك، وسمعت شهقات الموت تخرج من رادار، وقد خفق جانباها مثل المنفاخ، فسحبت بقوة أكبر من دون فائدة، وهنا تذكرت تمرينات كرة القدم، وكيف كنت اللاعب الوحيد القادر على تحريك دمى التدريب، وطرحها أرضاً، فقلت في نفسي: «اسحب بقوة أيها الأحمق. وأنقذ حياتها».

بذلت كل ما في وسعي موظفاً ساقيّ وظهري وذراعيّ وكتفيّ، وأحسست بالدماء تشق طريقها عبر عنقي إلى ذراعي، ورغم التعليمات الصارمة لالتزام الصمت في ليليمار، إلا أنني عجزت عن كتم صرختي خلال شدها، وتساءلت كيف استطاع السيد بوديتش فعل ذلك.

في الوقت الذي بدأ فيه الإحباط يتسلل إليّ، أحسست بأولى حركات الساعة إلى اليمين، ما بعث قوةً جديدةً في نفسي كي أسحب الوتد، فبرزت إثر ذلك عضلات ذراعيّ وظهري وعنقي جميعها، وأخذت الساعة الشمسية

تتحرك، وأصبحت كلبتي إلى يميني، ثمّ وقفت خلف الوتد ودفعته إلى الأمام، وفكرت في كلاوديا عندما قالت: «ابذل قصارى جهدك»، وهذا ما فعلته تماماً، وأوشكت أن أنجح.

دارت العجلة بسهولة أكبر شيئاً فشيئاً بعد تشغيل الساعة، وتحرك العمود الأول حتّى أصبح خلفي، فأمسكت التالي، وألقيت ثقلي كاملاً من أجل تحريكه وسحبته بأقصى طاقتي، وتوالت الأخرى وراء بعضها مثل الأرجوحة الدوارة في متنزه كافاناو، وتذكرت كيف اعتدت تدويرها برفقة بيرتي بيرد حتّى يصيح الأطفال فرحاً وخوفاً وسط صراخ أمهاتهم وكيف علينا أن نتوقف قبل أن يسقط أحدهم أرضاً.

قطعت رادار ثلث دورة، ثمّ نصفها... ولاحظت أن الساعة تحركت بسهولة أكبر حينها، ولعل عائقاً بين مسنناتها قد تحطم، ولكن واصلت شد تلك الأوتاد ودفعها مستخدماً كلتا يديّ وكأنني أتسلق حبلاً، واعتقدت أنني أرى تغيراً في شكل رادار، وقد اعتبرت ذلك مجرد وهم أتمنى حدوثه حتّى وصلت رادار إليّ نافيةً شكوكي في ذلك؛ إذ رفعت رأسها وحدقت إليّ بعينين مفتوحتين، كما اختفى ذلك اللهاث المخيف وبقي السعال فقط.

توقفت عن دفع الأوتاد مع زيادة سرعة الساعة، وراقبت كيف حاولت رادار رفع قائمتيها الأماميتين خلال الدورة الثانية، وقد انتصبت أذناها بدل التدلي برخاوة على جانبي رأسها، فجلست القرفصاء وتنفست بصعوبة، والتصقت سترتي المبتلة بصدري وجانبيّ، وبينما حاولت حساب عدد الدورات الكافية، أدركت أنني أجهل عمر رادار، فتساءلت إن كان أربعة عشر أم خمسة عشر عاماً، وفي حال تكافئ كل دورة عاماً من الزمن، فتكفيها أربع دورات، ومع اثنتين إضافيتين، ستغدو في ريعان شبابها مجدداً.

لاحظت بعد الدورة الثانية أنها جالسة تماماً، ورأيت بعد الثالثة شيئاً عجزت عن تصديقه للوهلة الأولى: لقد اكتسبت رادار بعض الوزن واستعادت

حيويتها، وأوشكت أن تعود الكلبة التي أرعبت آندي تشين.

رغم التوقف عن دفع الأوتاد القصيرة، إلا أن سرعة دوران الساعة ازدادت شيئاً فشيئاً، ما أثار القلق في نفسي، ورسمه على وجه رادار بعد الجولة الرابعة، في حين أخافها بعد الخامسة، كما أحدثت تياراً هوائياً أبعد خصلات شعري المتعرقة عن جبهتي، فأدركت ضرورة إخراج كلبتي من الساعة، لأن بقاءها يعني تحولها إلى جرو أمام ناظري، ثمّ تلاشيها تماماً، وسمعت صوت حركة عيني الشمس المتسارعة أكثر فأكثر، وتوقعت أنني لو نظرت إليهما، سأجدهما ضبابيتان تماماً من سرعتهما.

تدور أحياناً أفكار مذهلة في رأس المرء خلال الأوقات الحرجة، ومنها فيلم بوني إكسبرس شاهدته برفقة والدي على قناة (تي سي أم) خلال فترة إدمانه على الكحول، وأذكر منه كيف امتطى تشارلتون هيستون حصانه مسرعاً ناحية عمود حمل حقيبة رسائل، وخطفها من دون أن يبطء حصانه أبداً، وقد قررت اعتماد تلك الخطة في سحب رادار، ولكن دون الصراخ في تلك المرة، لذلك جلست القرفصاء، وفتحت ذراعيّ، فأدركت كلبتي مباشرةً أنني أطلب منها القفز إليّ.

نهضت رادار على قوائمها الأربع، وقد تموج فراؤها تحت ما يشبه يداً خفيةً تمسح عليه، وفي حال فشلت تلك الخطة (رغم أن تشارلتون هيستون خطف حقيبة الرسائل دوماً، ولكنه مجرد فيلم)، قررت أن أصعد الساعة، وأحمل رادار، ثمّ أترجل عنها مجدداً، وقد يكلفني ذلك إحدى سنواتي السبعة عشر، ولكن الظروف اليائسة تتطلب إجراءات تناسبها.

لقد عجزت رادار عن المشي عندما وضعتها في الساعة الشمسية، ولكنها أصبحت كلبةً مختلفةً تماماً بعد خمس دورات ونصف تقريباً، إذ قفزت وحطت على قوائمها، واندفعت إلى ذراعيّ الممدودتين، فشعرت وكأن

كيس حجارة ارتطم بي فسقطت إلى الخلف، وثبتت رادار قائمتيها الأماميتين على كتفي ولعقت وجهي وحركت ذيلها بجنون.

همست: «توقفي!»، ولكن قالت ابتسامتي غير ذلك.

جلست في النهاية وتفحصتها؛ لقد زاد وزنها حوالى عشرة كيلوغرامات، واختفى سعالها ولهاثها، وتلاشت المفرزات الجافة من دون أن تترك أثراً، كما استعادت فراء ظهرها الأسود، وعاد ذيلها كثيف الفراء بعد أن كان مثل قطعة ملابس ممزقة، ولوحت به إلى الأمام والخلف، ولكن ما أثبت فعالية الساعة الشمسية حقاً هما عيناها، فقد أشرقتا بعد فترة طويلة من الضبابية والضياع.

همست، وقد أوشكت على البكاء: «يا إلهي! انظري إلى نفسك!».

4

عانقتها، ثمّ نهضت من دون التفكير في البحث عن القطع الذهبية، فقد واجهت ما يكفي من المخاطر في هذا اليوم.

أدركت من نظرة واحدة استحالة أن تتسع سلة الدراجة الثلاثية من أجل رادار الجديدة، وقد تركت لجامها في منزل كلاوديا ضمن عربة دورا، ولكن أخبرني شيء ما في نفسي أنني لن أحتاج إليه مجدداً.

انحنيت وأمسكت رأسها بكلتا يدي، وحدقت إلى عينيها البنيتين الداكنتين، وقلت: «اهدئي يا ريدس».

ركبت الدراجة ثلاثية العجلات، وعدت أدراجي، وهرولت رادار إلى جواري، وكنت حريصاً على تجنب النظر ناحية البركة. وعندما وصلنا إلى الممر الصخري، هطل المطر مجدداً، فتابعت طريقي حتّى منتصفه، ثمّ توقفت وترجلت عن الدراجة، وأخبرت رادار أن تلزم مكانها. تحركت ببطء وظهري يلاصق جدار الممر المغطى بالطحالب، وقد راقبتني رادار من دون

أن تتحرك - يا لها من كلبة مطيعة، وتوقفت عند رؤية ذراع العرش الذهبي البشع مفرط الزينة، وتقدمت خطوةً واحدةً، ورفعت رأسي كي أتفقده؛ كان فارغاً وسط تساقط قطرات المطر على المظلة المخططة.

أين كانت هانا؟ وفي أي جزء من المنزل؟ وماذا تفعل؟

لعلها تتناول غداءها المؤلف من أشياء فاحت منها رائحة اللحم، وربما قصدت جناح المعيشة كي تأخذ قيلولةً؛ عجزت عن التأكد من أي شيء، وخطر لي أن غيابنا استغرق فترةً قصيرةً كي تنتهي من طعامها، ولم تخطر لي أي فكرة أخرى، فقد مررت بأحداث قاسية حقاً؛ حورية البحر أولاً، ثمّ الساعة الشمسية.

استطعت من مكاني رؤية النافورة الجافة أمامي مباشرةً على بعد خمسين ياردةً، وكانت لتمنحنا تغطيةً ممتازةً إن استطعنا الوصول إليها من دون أن يرانا أحد. وعندما فكرت في احتمال كشف أمرنا خلال ذهابنا إليها، بدت بعيدةً جداً، فحاولت الإنصات محاولاً سماع خوار هانا المرتفع والأعلى من صوت كلاوديا، ولكن من دون فائدة. كانت بضعة أسطر من أغنيتها تكفي من أجل تحديد موقعها، ولكن إليك شيئاً تعلمته عن عمالقة مدينة ليليمار المسكونة: لن تغني العمالقة أبداً عندما تريدها أن تفعل ذلك.

في النهاية، قررت الذهاب ناحية النافورة، فعدت أدراجي إلى رادار. عندما هممت بركوب الدراجة، صدر صوت ضربة قوية من نهاية الممر اليسرى، فأجفلت رادار، والتفتت إلى ذلك الاتجاه، وزمجرت بصوت ضعيف، فأمسكتها قبل أن تطلق العنان لنباحها، وقلتُ: «اهدأي يا رادار، الزمي الصمت».

سمعت هانا تتمتم شيئاً مبهماً، ثمّ صدر صوت ريح متقطعة، ولكن لم تضحكني حينها، لأن هانا شقت طريقها ناحية مدخل الممر، وقد أمكنني

ورادار الاختفاء وسط الظلام، ولكن الدراجة ثلاثية العجلات كانت كبيرة جداً كي تغفلها رغم عينيها الحسيرتين.

سحبت مسدس السيد بوديتش ووضعته إلى جانبي كي أطلق النار إن اتجهت صوبنا، وأدركت تماماً أين سأصوب؛ إلى الصدع الأحمر وسط جبهتها، ولكن لم يسبق أن تمرنت على استخدام ذلك السلاح (أو أي سلاح آخر)، ولكن امتلكت نظراً ثاقباً، ربما قد أخطئ في واحدة وليس في الرصاصات الخمس جميعها.

تابعت هانا طريقها من دون أن تنظر إليّ أو إلى النافورة، وتمتمت كما فعل والدي قبل إلقاء كلمة خلال العشاء السنوي في أوفرلاند، عندما نال جائزة الموظف الإقليمي لذلك العام، ولاحظت شيئاً في يدها اليسرى، ولكن خصرها حجب الرؤية قبل أن ترفعه إلى فمها، واختفى عن ناظري قبل أن تقضمه، وقد أسعدني ذلك، وتيقنت في نفسي أنها تناولت قدماً ذات قضمة هلالية ناحية الكاحل.

لقد أقلقني احتمال جلوسها على العرش كي تنتهي من تحلية ما بعد الغداء، ولكن بدا أن الأمطار جعلت الفكرة مستبعدةً رغم وجود المظلة، أو أن هانا أرادت الحصول على قيلولة. وفي كلتا الحالتين، سمعت صوت باب آخر، ولكن إلى يميني في تلك المرة، ثمّ خيّم الصمت على المكان، فأعدت المسدس إلى قرابه، وجلست قرب كلبتي، واستطعت ملاحظة صحتها الجيدة رغم الظلام، وهذا بعث البهجة في نفسي، ولعل البهجة كلمة عادية بالنسبة إليكم، ولكنني أجدها وصفاً عظيماً جداً، وقد عجزت أن أرفع يدي عن فرو رادار والتعجب من مقدار كثافته.

5

لقد تعبت من الانتظار، وأردت مغادرة ليليمار أسرع ما يمكن برفقة كلبتي بعد استعادة شبابها، وأخذها إلى المستودع، ومراقبتها تتناول قدر ما

تشاء من الطعام، وتوقعت أنها سترغب في الكثير، وسأعطيها دلواً من أوريجين إن أرادت، وبعض قطع بيركي جيركي أيضاً، ثمّ سنشاهد الفراشات الكبيرة خلال عودتها إلى مكان مبيتها.

هذا ما تمنيته، ولكن أجبرت نفسي على انتظار استقرار هانا، وقد عددت عشرةً عشرةً حتّى خمسمئة، ثمّ خمسةً خمسةً، ثمّ اثنين اثنين، من دون أن أدرك متى ستأتي اللحظة التي ستستغرق فيها تلك الوضيعة في نومها تماماً، ولكن عجزت عن الانتظار، لأن الإفلات من منطقتها ضروري جداً، ناهيك عن مغادرة المدينة قبل حلول الظلام، ليس بسبب وجود جنود الليل، بل لأن علامات السيد بوديتش ستختفي تقريباً دون ضوء، ما يضعني في ورطة كبيرة لو فشلت في تتبعها.

قلت: «هيّا بنا يا رادار، ولكن الزمي الصمت أرجوك».

أمسكت مقود الدراجة ثلاثية العجلات، وأردت جرها خلفي تحسباً من أجل دفعها ناحية هانا إن ظهرت فجأةً وهاجمتنا، وبالتالي قد تنشغل في تحطيمها وتمنحني بعض الوقت كي أسحب مسدسي وأطلق النار، كما لدي رادار أيضاً بعد استعادتها لقدرتها الهجومية، وبالتالي يمكنها إلهاء هانا قليلاً، وربما تصيبها ببعض الجروح، وكان ذلك سيسعدني، ولكن تراءى أمامي مشهد آخر تضرب هانا فيه رادار بيدها العملاقة فتقتلع رأسها من مكانه، ولن يكون ذلك المشهد مفرحاً أبداً.

توقفت في بداية الممر، ثمّ بدأت طريقي ناحية النافورة، وهرولت رادار إلى جانبي، وتذكرت في أثناء ذلك بعض المباريات (وخاصةً ضد خصمنا اللدود، فريق سينت جون) التي بدت مستمرةً إلى الأبد، ولكن ليس مثل الخمسين ياردةً تلك بيني وبين النافورة، فقد كانت الأطول في حياتي، كما توقعت سماع النسخة الإمبيسية من أغنية في في فو فام، والإحساس باهتزاز الأرض تحتنا عندما تركض هانا ناحيتنا.

سمعت صوتاً ربما صدر عن عصفور، أو بقرة، أو صقر، ولا شيء سواه، ثمّ وصلنا إلى النافورة، واستندت إليها كي أمسح مزيج العرق والمياه عن وجهي تحت أنظار رادار، دون أن ترتعش الأخيرة أو تسعل، بل كشرت عن أنيابها وسط مغامرتها الأولى خلال حياتها الجديدة.

ألقيت نظرةً أخرى على هانا، ثمّ صعدت الدراجة، واتجهت ناحية الجادة ذات الجزيرة الوسطية العشبية والمتاجر التي اعتاد أفراد الطبقات الاجتماعية الراقية ارتيادها وتناول الطعام فيها، وتجاذب أطراف الحديث عن آخر مستجدات البلاط الملكي خلال احتسائهم بعض الشاي، وربما احتضنت الحدائق الخلفية في منازلها حفلات الشواء الإمبيسية والحفلات الراقصة، ولكنها استحالت الآن مأوىً للأعشاب الضارة، والنباتات الشائكة، والورود الخطيرة.

قدت الدراجة بسرعة لا بأس بها، ولكن رادار استطاعت اللحاق بي بسهولة ولسانها متدلٍ خارج فمها، وقد انهمر المطر بغزارة أكبر ولم أنتبه إلى ذلك لأن جل ما أردته أن أعود أدراجي وأخرج من المدينة، وعندها يمكنني القلق حيال تجفيف نفسي، ولو أصابني المرض ستعد كلاوديا حساء الدجاج من أجلي حتّى تصيبني التخمة قبل متابعة طريقي إلى وودي... ثمّ دورا... ومن هناك إلى المنزل، حيث سيوبخني والدي بعنف، ولكن عندما يرى رادار سـ...

ماذا سيفعل؟

قررت التفكير في أولوياتي حينها، وهي مغادرة تلك المدينة المسكونة، والتي اتضح أنها ليست مهجورةً أبداً، وسيخترق شيء ما هدوءها بعد فترة من الزمن.

توقعت أن يكون الأمر سهلاً؛ أي تتبع علامات السيد بوديتش ولكن عكس جهة السهم في كل منها حتّى بلوغ البوابة الرئيسية، وعندما وصلت إلى مدخل الجادة، بحثت عن الحرفين هناك، وكنت متأكداً من وجودهما على إحدى حجارة الرصيف أمام المبنى مترامي الأطراف بقبته الصفراء المتسخة، ولكنني لم أعثر على شيء. تساءلت في نفسي إن كانت الأمطار قد أزالتهما، ولكن بدا احتمالاً مستبعداً فقد تحملا الأمطار طيلة سنوات ناهيك عن وضوحهما نوعاً ما عندما رأيتهما مسبقاً.

بحثت في أنحاء الجادة عن حرفي أي بي، وسلكت ثلاثة طرق فرعية من دون فائدة، ولذلك أدرت المقود وعدت ناحية المبنى شبيه المصرف.

التفتت ناحية الطريق المعوج حيث سقط أصيص خزفي يحوي شجيرةً يابسةً، وأشرت إلى هناك قائلاً: «أعلم أنها في ذلك المكان، ولكن لعل المطر قد أزالها في نهاية المطاف، هيّا نتابع طريقنا يا رادار».

قدت الدراجة ببطء وبحثت بدقة عن علامة السيد بوديتش التالية وسط هالة من القلق والارتباك، لأن مجموع تلك الثنائيات يشبه سلسلة الأحداث المتتالية التي قادت إلى وفاة والدتي على ذلك الجسر وصولاً إلى مستودع السيد بوديتش، وفي حال خسرت إحدى حلقاتها، فيحتمل جداً أن أضل طريقي، وكما قالت كلاوديا: «ستبقى تائهاً وسط ذلك المكان المسكون ليلاً».

وصلنا عبر ذلك الشارع الضيق إلى صف من المتاجر القديمة المجهولة، وكنت متأكداً أننا مررنا مسبقاً بها، ولكنني لم أرَ أيّ علامة، وقد توقعت أنني رأيت ما كان صيدليةً ربما قبل انهياره، إضافةً إلى مبنىً حدقت نوافذه إلّي من دون أن أستطيع تبين ماهيته تماماً، وحاولت رصد القصر في الأرجاء على أمل أن أتخذ منه بوصلةً لطريقنا، ولكن عجزت عن ذلك في ظل غزارة الأمطار.

أشرت إلى الزاوية وقلت: «هل تشمين أيّ رائحة هناك يا رادار؟».

ذهبت رادار في اتجاه يدي، وشمت الرصيف الحجري، ثمّ التفتت إليّ منتظرة مزيداً من التعليمات، ولكن لم يكن في جعبتي أي منها، وبالتأكيد ليس ذنب رادار، لأنها جلست في سلة الدراجة ثلاثية العجلات طوال الطريق، وحتى إن قطعنا طريقنا سيراً على الأقدام، كان المطر سيغسل أيّ رائحة عن الأرض.

تابعت في ذلك الطريق لأنني تذكرت أنه سبق لي أن رأيت الصيدلية، كما وجب علينا السير في اتجاه ما، وكانت الخطة المثالية في رصد القصر ومحاولة عبور طريق غالين حتّى البوابة، صحيح أن استعمال المدخل الرئيسي خطير، ولذلك اتخذ السيد بوديتش عند كتابة علاماته منحىً يتجاوزه قدر الإمكان، إلا أنه سيقودنا إلى الخارج مباشرةً.

بدا وكأن الشوارع تعمدت إبعادنا عن القصر حتّى بعد أن شحت الأمطار، رغم أنني استطعت رؤية الأبراج الثلاثة مجدداً إلى يساري، كما سلكت طرقاً كثيرةً باتجاهه، ولكنها انعطفت جميعها يميناً في نهايتها، كما تعالت الأصوات الهامسة، وحاولت تجاهلها واعتبارها صفير رياح دون فائدة، لأن لا رياح هناك، كما لمحت من طرف عيني أحد المباني المؤلف من طابقين وقد ازداد طابقاً، وعندما التفتت إليه، وجدته أنه مؤلف من طابقين فقط، وشعرت أن بناءً مربع الشكل يتقدم نحونا، وأن تمثالاً يشبه الغريفين[25] قد أدار رأسه كي يراقبنا.

بدت رادار مستمتعةً في جسدها الجديد من دون الاكتراث حيال تلك التغيرات، في حين أربكتني الأخيرة كثيراً، وعجزت تماماً عن اعتبار ليليمار مجرد مدينة عادية مجردة من الحياة، بل كانت تعي ما تفعل ومصممةً على احتجازنا ضمنها.

انتهت الشوارع أمامنا إلى جدول منحدر الضفة مليء بالحطام والمياه الراكدة؛ لقد وصلنا إلى نهاية أخرى مسدودة، ولذلك انعطفت تلقائياً، وسلكت زقاقاً ضيقاً جداً حتّى احتكت عجلات الدراجة الخلفية بجدرانه وتناثرت منها القشور الصدئة، ومشت رادار أمامي، ولكنها توقفت فجأةً، وبدأت تنبح بقوة وصوت مرتفع بفضل رئتيها القويتين.

«ما الأمر؟».

نبحت مجدداً، ثمّ جلست وأمالت أذنيها وحدقت عبر قطرات المطر إلى نهاية الزقاق وبداية الشارع المقابل، فصدر من هناك صوت قوي تعرفت إليه مباشرةً.

«كيف حالك يا حامي الحشرات، هل ما زلت ولداً مزعجاً، أم أصبحت ولداً خائفاً؟ من يريد البكاء بين أحضان والدته لأنه عاجز عن إيجاد طريقه؟.. لقد محوت علاماتك مستخدماً بعض الصابون، دعنا نكتشف إن أمكنك مغادرة ليلي قبل استيقاظ جنود الليل! ولا مشكلة لدي، لأنني أعرف هذه الشوارع عن ظهر قلب!»، وتبع ذلك ضحكة شريرة.

لقد كان بيتركين، وبدا وكأنه كريستوفر بولي شخصياً، ولكنني كسرت يديّ الأخير، ما منحه سبباً كي ينتقم مني، ولكن ماذا فعلت لبيتركين سوى منعه عن تعذيب صرصار الليل الأحمر العملاق؟

لم أجد مبرراً سوى أنني أحرجته حينها، ولكنني أعلم شيئاً يجهله ذلك القزم، وهو أن الكلبة المريضة التي رآها على طريق المملكة لم تعد مريضة، فالتفتت رادار إليّ، وعندها أشرت إلى نهاية الزقاق وقلت: «أمسكيه».

استجابت رادار مباشرةً، وانطلقت كالسهم تجري ناحية ذلك الصوت المشؤوم وقطرات المياه تتناثر من قوائمها إلى جانبي الزقاق، فأجفل

بيتركين وسط نباحها، النباح نفسه الذي أرعب آندي شين يوماً ما، ثمّ سمعت صرخة ألم.

صاح بيتركين: «ستندم أنت وكلبتك اللعينة».

قلت في نفسي: «سأمسك بك يا عزيزي»، وقدت الدراجة إلى نهاية الزقاق الضيق، ولكن احتكاك العجلتين الخلفيتين بالجدران أعاقني عن بلوغ السرعة المطلوبة.

صرخت: «أمسكيه يا رادار»، وفي حال استطاعت فعل ذلك، يمكنني إقناعه أن يخرجنا من هنا، كما أقنعت بولي.

لكن بينما اقتربت من نهاية الزقاق، عادت رادار أدراجها وقد بدت الخيبة على محياها - تستطيع الكلاب رسم مشاعرها على وجهها، ويدرك ذلك مالكو الكلاب جميعهم - لأن بيتركين أفلت منها، ولكن ليس سالماً، لأنها حملت بين فكيها قطعةً لا بأس بها من ملابس خضراء فاتحة تعود إلى سروال بيتركين بالتأكيد، وقد لطختها قطرتا دم، وأسعدني ذلك حقاً.

وصلت إلى نهاية الزقاق، ونظرت إلى اليمين، ورأيته متشبثاً إلى إفريز في الطابق الثاني من مبنى حجري يبعد بضعة أمتار عنا، وبدا مثل ذبابة بشرية، واستطعت رصد الأنبوب المعدني الذي رجحت أنه تسلقه كي يصبح آمناً من فك رادار (ولكن ليس سريعاً كفايةً)، ثمّ رفع نفسه إلى حافة صخرية، وجلس هناك، وقد بدت هشةً، وتمنيت أن تسقط تحته، ولكن ساعده حجمه الصغير على النجاة.

صرخ بيتركين وهو يهز قبضته ناحيتي: «ستدفع ثمن ما أفسدته كلبتك اللعينة، وسيقتلها جنود الليل، ولكن آمل أن يتركونك كي تقتلع ريد مولي أحشاءك من بطنك في الفير ون. وسأستمتع بمشاهدتك حينها».

سحبت مسدس السيد بوديتش، ولكن قبل أن أطلق النار عليه أطلق واحدةً من صرخاته الكريهة، وتدحرج عبر نافذة محتضناً ركبتيه الصغيرتين إلى صدره بين ذراعيه، واختفى عن الأنظار.

التفتت إلى رادار وقلت: «لقد كانت مغامرةً مشوقةً أليس كذلك؟ ما رأيك في الخروج من هذا المكان؟».

نبحت رادار مرةً واحدةً.

«اتركي قطعة القماش هذه قبل أن تسممك».

أطاعت رادار الأمر، وتابعنا طريقنا، والتفتت ناحية النافذة عندما مررنا إلى جوارها ولم ألمح بيتركين، وتمنيت لو يظهر أمامي مثل الأهداف في ملعب الرماية، ولكن لم يحدث ذلك، ولعل الجبناء أمثاله لا يمنحونك فرصةً ثانيةً... وقد يقف القدر في صفك أحياناً، فتحصل على واحدة ثالثة.

أمكنني أن أتمنى ذلك فحسب.

الفصل التاسع عشر
مشكلة الكلاب- القاعدة- المقبرة- البوابة الخارجية.

1

تكمن مشكلة الكلاب (على فرض أنك تتجنب ضربها أو تعنيفها طبعاً) في ثقتها بك، لأنك مصدر الغذاء والمأوى والحب، إضافةً إلى قدرتك على سحب لعبة القرد من تحت الأريكة مستخدماً إحدى قائمتيك الرشيقتين ذات الأصابع الخمسة، وتلقي هذه الثقة بدورها مسؤوليةً على كاهلك، ولا بأس في ذلك معظم الأوقات، ولكن ليس الآن.

اتضح أن رادار تعيش أفضل أوقات حياتها، ولم لا؟ فقد تخلصت من كونها كلبة شيبرد عجوزاً ونصف عمياء، وعالةً في عربة دورا، وبعدها في

سلة دراجة كلاوديا ثلاثية العجلات، كما قفزت إلى جوار مصدر الغذاء والمأوى والحب، واستعادت شبابها وقوتها، ومزقت جزءاً من بنطال قذر قديم ارتداه ذلك القزم، وكانت هادئةً جسدياً وذهنياً؛ أي اجتمعت ملذات حياتها في مكان واحد.

أما أنا، فقد خبرت نوعاً من الرعب ستعرفه تماماً عند ضياعك في مدينة كبيرة، أضف إلى ذلك غياب أي أشخاص ودودين تستطيع سؤالهم عن الاتجاهات، ناهيك عن تجنيد المدينة أنقاضها كاملةً ضدي؛ فقد تشابكت الشوارع مع بعضها، وأخذتنا الطرقات الجديدة إلى نهايات مسدودة، حيث سقطت تماثيل من أبنية مجهولة أقسم إنها لم تكن هناك قبل أن ألتفت خلفي بحثاً عن بيتركين الذي يتعقبنا، ورغم أن المطر استحال رذاذاً بسيطاً، إلا أنني عجزت عن رؤية القصر، بسبب الأبنية التي بدت تنمو ويزداد حجمها في كل مرة أشيح بنظري عنها، وكأنها تحاول إعاقتي.

وحدث شيء أسوأ أيضاً؛ بدا أن القصر يغير مكانه في كل مرة أنظر فيها إليه، واعتقدت أنه مجرد وهم بسبب الخوف، أو أردت إقناع نفسي بذلك من دون فائدة، وقد أوشكت فترة العصر أن تنتهي، وتذكرت مع كل منعطف أسلكه أن الظلام يقترب شيئاً فشيئاً، واتضحت حالتي تماماً: لقد ضللت طريقي كلياً بفضل بيتركين، وتوقعت أن أصل قريباً إلى منزل الحلوى، وستدعونا ساحرة شريرة كي ندخل إليه، كما حدث مع هانسل وغريتل.

واصلت رادار الهرولة إلى جوار الدراجة الثلاثية، والتفتت إليّ مع ابتسامة معناها: ألسنا نستمتع بوقتنا؟

تابعنا طريقنا.

استطعت بين الفينة والأخرى رؤية الأفق أمامنا بشكل أفضل، فوقفت على مقعد الدراجة ثلاثية العجلات محاولاً رصد جدار المدينة، وهو ثاني أكبر

شيء في المكان بعد أبراج القصر الثلاثية، وقد انتصبت الأخيرة إلى جهة اليمين، ما كان أمراً مستحيلاً تماماً، لأن تجاوز القصر من الأمام يعني عبور طريق غالين، وهذا ما لم يحدث. انتابتني رغبة في الصراخ، والانكماش على نفسي والتدحرج على الأرض واضعاً رأسي بين يدي، وأردت إيجاد رجل شرطة كي أتحدث إليه، لأن والدتي أخبرتني أن ذلك ما يفعله الأطفال عندما يضلون طريقهم.

كشرت رادار عن أنيابها طيلة الوقت وكأنها تقول: «ألسنا نخوض مغامرتنا الأروع على الإطلاق؟».

«نحن في مأزق يا صغيرتي».

تابعنا طريقنا ولم نرَ أيّ بقعة زرقاء في السماء، أو شمس ترشدنا، واقتصر الأمر على أبنية تعترض طريقنا، بعضها منهار، وبعضها فارغ تماماً، ولكن بدت جميعها جائعةً بطريقةً ما، كما خيّم صمت تخللته تلك الهمسات الخافتة المبهمة فقط، وإن كانت متواصلةً لاستطعت الاعتياد عليها، ولكن جاءت متناوبةً، وكأنني أمر كل حين إلى جوار مجموعة من الموتى الخفيين.

أعجز عن وصف هول تلك الفترة المريعة بدقة، وشعرت أنها ستستمر إلى الأبد، وذلك قبل أن ترتسم ملامح الليل، ولست متأكداً إن بكيت حينها أم لا، وإن حدث فعلاً، فقد بكيت أسفاً على نفسي وعلى رادار أيضاً، لأنني من أحضرها إلى هناك، صحيح أننا حققنا غايتنا، ولكن سيضيع كل شيء هباءً إن لقينا حتفنا، وكل ذلك بسبب القزم اللعين، وتمنيت لو اقتلعت رادار حنجرته من مكانها بدل مؤخرة بنطاله.

وزاد الأمر سوءاً الثقة المتلألئة في عيني رادار، فقلت في نفسي: «لقد وثقتِ في أحمق يا عزيزتي، وها هو الحظ السيئ يصبح حليفاً لك».

وصلنا إلى حديقة مغطاة بالأعشاب، حدتها أبنية رمادية من ثلاث جهات، وبرزت من الأخيرة شرفات فارغة، وبدت مثل مزيج بين الشقق الفارهة على جانبي غولد كوست في شيكاغو وزنزانات السجن، وانتصب في مركز الحديقة جزء من تمثال عملاق فوق قاعدة مرتفعة، وبدا أنه يُجسد رجلاً وامرأة يلهوان مع فراشة عملاقة، ولكنه تحطم عن آخره تقريباً، شأنه شأن الأعمال الفنية الأخرى في أحضان ليليمار (ناهيك عن حورية البحر المسكينة)، فقد انسحق رأس الفراشة وأحد جناحيها، وبقي الآخر سليماً، واستنتجت أنه يعود إلى فراشة كبيرة حتماً نظراً إلى الطريقة التي نحت فيها (وقد زالت ألوانه كلها، هذا إن وجدت أصلاً)، وربما جسّد الرجل والمرأة الملك والملكة في الأيام الخوالي، ولا أستطيع الجزم بذلك لأنهما خسرا جسديهما أعلى الركبتين بالكامل.

في الوقت الذي جلست فيه أتأمل التمثال المشوه، رن جرس الليل ثلاث مرات في أنحاء مدينة الأشباح، وقد أخبرتني كلاوديا: «لا تحتاج أن تكون خارج البوابة عند سماع رنين الجرس ثلاث مرات، ولكن يجب أن تخرج في أقرب وقت ممكن بعد سماعها، وقبل حلول الظلام!».

سيحل الظلام قريباً.

تابعت قيادة الدراجة رغم إدراكي أنني عالق في شراك فخ بيتركين، أو ليلي كما أسماه ذلك القزم اللعين، وحاولت استيعاب مقدار الرعب الذي ينتظرني عند مواجهة جنود الليل، ثمّ خطرت لي فكرة أوقفتني فجأةً، وكانت متطرفةً بعض الشيء، ولكن منطقيةً في الوقت نفسه.

أدرت المقود وعدت إلى الحديقة، وأخذت أنزل من الدراجة محاولاً تقدير ارتفاع القاعدة التي انتصب التمثال عليها، ولكنني غيّرت رأيي، وقدت الدراجة إلى مكان يحوي عشباً طويلاً وخالٍ من الورود الصفراء المتوحشة، وتمنيت ألا تعلق العجلات في شيء قد يعيق طريقي، لأن الأرض أصبحت

رخوةً بسبب الأمطار، وبقيت رادار تقفز حولي دون مشي أو ركض، وكان مشهداً رائعاً رغم سوء حالنا.

ركنت الدراجة وسط إطار المياه الراكدة حول التمثال، وعلقت حقيبتي على المقود، ثمّ وقفت على المقعد برؤوس أصابع قدمي حتّى أمكنني التمسك بحافة القاعدة الخشنة، وقد حالفني الحظ لامتلاكي لياقتي المعتادة، فرفعت ذقني إلى أعلى، ثمّ وضعت أحد ساعديّ على السطح المغطى بالنواتئ الصخرية المبعثرة، واعتقدت لوهلة أنني سأنزلق وأسقط على الدراجة الثلاثية وأكسر بعضاً من عظامي، ولكن استطعت رفع نفسي بدفعة أخيرة وقبضت على قدم المرأة الحجرية، ودفعت ثمن ذلك بعض الخدوش المؤلمة على بطني، ولكن لم يكن هناك ضرر حقيقي جسيم.

حدقت رادار إليّ ونبحت، فطلبت منها أن تصمت، فالتزمت الأمر ولكن لوّحت بذيلها فرحاً وكأنها تقول: «أليس ارتفاع هذا التمثال رائعاً».

نهضت وأمسكت بما بقي من جناح الفراشة، واعتقدت أنها احتفظت ببعض السحر الجيد فيها، فقد شعرت وكأنها امتصت خوفي قليلاً، ثمّ درت حولها ببطء، ورأيت أبراج القصر الثلاثة تحت السماء المظلمة، وكانت في مكانها الصحيح وفق ما بقي من وعيي المكاني، ولكن عجزت عن رؤية جدار المدينة كما توقعت، فقد منعتني كثرة الأبنية عن ذلك رغم ارتفاع القاعدة الشاهق.

قلت: «انتظريني يا رادار، سأعود سريعاً»، وتمنيت أن أكون محقاً في ذلك، ثمّ التقطت حجراً مدبباً وحملته في يدي.

مر الوقت، وعددت حتّى خمسمئة عشرةً عشرة، ثمّ خمسةً خمسة، ثمّ ضعت بين الأرقام، وازداد قلقي مع اقتراب الظلام، وشعرت به مثل السم في عروقي، وعندما بدأت الخيبة تُسيطر عليّ حيال تسلقي القاعدة من دون فائدة، نهضت غيمة مظلمة من الاتجاه الذي قررت تسميته

بالجنوب؛ لقد عادت الفراشات من أجل قضاء ليلتها، فمددت ذراعي مثل بندقية وأشرت ناحيتها، واختفت عن ناظري عندما ركعت إلى الأرض، ولكن حافظت على وضعية يدي، واستعملت الحجارة المدببة كي أحفر إشارةً على حافة القاعدة، ثمّ وجهت ذراعي الممدودة ناحية فجوة بين مبنيين في الجانب البعيد من الحديقة، واتخذتها نقطة بداية كي أنطلق منها، في حال بقيت ولم تختفِ.

وقفت وظهري إلى الهاوية، وأنزلت ساقي عن الحافة، وقد اقتضت خطتي التشبث حتّى أتدلى كلياً عن جانب القاعدة، ولكن يديّ عجزتا عن احتمال الوزن فانزلقتا وسقطت أرضاً، فنبحت رادار مرةً واحدةً كي تحذرني، وقد امتلكت المهارة الكافية كي أثني ركبتي وأتدحرج عند الوصول إلى الأرض، ساعدتني رطوبة الأرض بفضل الأمطار، وقد كان أمراً جيداً، على عكس الطين الذي سقطت فيه فغطاني من وجهي وحتى رؤوس أصابعي. نهضت (وقد أوشكت أن أسقط على كلبتي)، ومسحت وجهي، وبحثت عن علامتي السابقة، وأشرت بذراعي في اتجاهها، وأسعدتني كثيراً رؤية الفجوة بين المبنيين - الخشبيين وليس الحجريين، ولاحظت وجود مياه راكدة في بعض الأماكن، وهذا يعني أن الدراجة الثلاثية ستعلق لا محالة، ولذلك حملت حقيبتي على ظهري، واعتذرت إلى كلاوديا في نفسي عن ترك دراجتها ورائي.

التفتت إلى رادار وقلت: «هيّا بنا يا صغيرتي»، وبدأت أركض.

3

مررنا عبر برك المياه الراكدة، وكان بعضها ضحلاً، ووصلت مياه بعضها الآخر حتّى ركبتي، واستطعت الشعور بالطين يحاول نزع الجوارب من قدمي، أما رادار فركضت إلى جانبي بسهولة، ولسانها خارج فمها، وعيناها تلمعان، وتبلل فراؤها والتصق إلى عضلاتها الجديدة كلياً، وبدت غير مهتمة بذلك، لأنها ظنت أننا نخوض مغامرة.

بدا البناءان مثل مستودعين، وتوقفت عند بلوغهما كي ألتقط أنفاسي وأعقد رباط إحدى فردتي حذائي، ثمّ نظرت إلى القاعدة وعجزت عن رؤية علامتي، لأننا ابتعدنا مسافة مئة ياردة على الأقل، ولكن علمت موقعه، ثمّ أشرت بكلتا ذراعي؛ واحدة إلى الأمام والأخرى إلى الخلف، وركضت برفقة رادار بين المبنيين، وتبين أنهما مستودعان فعلاً، لأنني استطعت شم الرائحة العفنة المنبعثة عن الأسماك المُخزّنة فيها منذ فترة طويلة جداً. اهتزت حقيبتي على ظهري خلال الجري ووصلنا إلى طريق ضيق تحده المزيد من المستودعات، وبدا لي أنها نُهبت منذ فترة طويلة، ولاحظت أن المسافة بين تلك الواقعة أمامي مباشرةً ضيقة جداً ولا أستطيع المرور من بينها، لذلك انعطفت يميناً، ووجدت زقاقاً ركضت عبره حتّى وصلت حديقة منزل ملأتها الأعشاب، واستدرت يساراً أملاً في العودة إلى طريقي المستقيم السابق، وتابعت الجري، محاولاً إقناع نفسي أن الغسق ما زال بعيداً، ولكن الحقيقة كانت خلاف ذلك.

اضطررت أن ألتف حول المباني مراراً وتكراراً كي أتابع طريقي وأستعيد مساري الأساسي إلى حيث رأيت الفراشات، صحيح أن نجاحي في ذلك غير مؤكد، ولكنني لم أمتلك خطة سواها، وتوجب عليّ المحاولة.

دخلنا ممراً ضيقاً جداً بين منزلين حجريين فاضطررت إلى المشي جانبياً خلاله (ولم تعانِ رادار من مشكلة) حتّى خرجنا من الطرف المقابل، فنظرت إلى اليمين، ولاحظت شيئاً بين بناء كان متحفاً ضخماً على الأرجح وبين دفيئة ذات جدار زجاجي؛ إنه سور المدينة، وقد انتصب عالياً وراء الأبنية في نهاية الشارع، وقد حلقت الغيوم في مستوىً منخفض حتّى اختفت حافته العلوية بينها.

«هيّا بنا يا رادار!».

لقد منعتني السماء وغيومها من التأكد إن حل الظلام فعلاً أم لا، وقد أفزعني الاحتمال الأول تماماً، فأسرعنا عبر الشارع الذي وصلنا إليه، ولعله ليس الشارع الصحيح، ولكنه قريب من طريق غالين بالتأكيد، ولكن تربعت أمامنا بضع مبان وبعدها مقبرة احتوت شواهد قبور مائلةً، ولوحات تذكارية، وبضع أبنية توقعت أنها سراديب، وكان ذلك المكان الأخير الذي أردت دخوله بعد حلول الظلام، ولكن إن كنت محقاً - صليت من أجل ذلك - فقد وجب أن أمر عبر المقبرة.

دخلت مسرعاً عبر باب حديدي ثنائي الدرفة مفتوح قليلاً، أما رادار فترددت للمرة الأولى، ووضعت قائمتيها الأماميتين على بلاطة إسمنتية مفتتة، وبقيت الخلفيتان في الشارع، أما أنا فتوقفت لأستجمع قواي، ثمّ قلت: «أنا خائف مثلك يا صغيرتي، ولكن يجب أن ندخل، هيّا بنا».

وافقت رادار، وانطلقنا بين شواهد القبور المائلة، والضباب المنبعث من الأعشاب الكثيفة والأشواك، حتّى لمحت سياجاً من الحديد المطاوع على بعد أربعين ياردةً تقريباً، وبدا مرتفعاً جداً كي أستطيع تسلقه حتّى وإن كنت وحيداً من دون كلبتي، ولكن لاحظت وجود بوابة قريبةً.

ركضت ناحيتها، ولكن تعثرت فوق ضريح وتدحرجت أرضاً، وعندما حاولت النهوض، تجمدت في مكاني عاجزاً عن تصديق هول ما رأته عيناي وسط نباح رادار بجنون؛ لقد انبثقت من تحت الأرض يد جافة ذات عظم مصفر بارز عبر الجلد المتمزق، وانفتحت وانغلقت باستمرار قابضةً في كل مرة على بعض التراب الرطب. اعتدت الضحك عند رؤية مشاهد كهذه في أفلام الرعب، وتناول المزيد من الفوشار، ولكنني لم أفعل ذلك الآن، إذ صرخت... وسمعتني اليد، واستدارت ناحيتي مثل رادار لعين يقبض مراراً وتكراراً على الهواء وسط الظلام.

نهضت على قدمي وركضت، ورادار إلى جواري تنبح وتزمجر وتلتفت خلفها حتّى وصلنا إلى بوابة المقبرة، وتبين أنها مقفلة، فتراجعت، وأنزلت كتفي قليلاً، ثمّ دفعتها كما دفعت المهاجمين في مباريات كرة القدم، ولكنها لم تنفتح بل اهتزت فقط، وتعالى نباح رادار شيئاً فشيئاً، وبدت وكأنها تحاول الصراخ.

التفتت ورائي كي أجد الروح دبت في عشرات من الأيدي، وربما وصل عددها إلى مئات، وقد تصورتها ورواداً مرعبةً ذات أصابع بدل البتلات، ورافقها شيء آخر أسوأ منها؛ صرير مفصلات صدئة صادر من سراديب أوشكت أن تفتح أبوابها أمام موتاها، وقارنت حينها بين عاقبة تدنيس حرمة مكان ما، والأمور التي واجهتها، وشتان بينهما.

دفعت البوابة مجدداً، فانكسر القفل، وانفتحت البوابة بقوة واندفعت عبرها وأوشكت على السقوط أرضاً فلوّحت بذراعي كي أحفظ توازني قدر الإمكان، ولكنني سقطت أرضاً على ركبتي بعد أن تعثرت بشيء ما، ربما كان حجر رصيف.

التفتت حولي فوجدت نفسي في طريق غالين.

نهضت بعد أن تمزق بنطالي وآلمتني ركبتاي، ونظرت خلفي فلم أرَ أحداً يلاحقني، ولكن منظر تلك الأيدي الملوحة كان سيئاً بما يكفي، وفكّرت في القوة اللازمة من أجل اختراق غطاء التابوت والحفر في التراب حتّى بلوغ سطح الأرض، ولكن وفقاً لمعلوماتي حينها، فقد امتنع الإمبيسيون عن استخدام التوابيت، بل ربما وضعوا موتاهم في قطع قماشية فحسب، وقاطع أفكاري حينها وهج أزرق وسط الضباب وكأن تياراً كهربائياً مرّ عبره.

صرخت: «اركضي يا رادار. هيّا».

ركضنا باتجاه البوابة كي نبقى أحياء.

4

لقد أضعنا طريقنا كثيراً منذ أن خسرنا سلسلة علامات السيد بوديتش، ولكن بقي نصف ميل أو أقل حتّى نهاية رحلتنا في البحث عن الخلاص، لأن البوابة الخارجية تربعت أمامنا وسط الظلام، وقد كنت ألهث، وشعرت أن ساقيّ ثقيلتان، ويعود جزء من ذلك إلى بنطالي المبلل والملطخ بالطين جراء سقوطي عن القاعدة، ولكن معظمه إرهاق محض. مارست الرياضة دوماً خلال سنواتي الدراسية، ولكنني تجنبت كرة السلة، ليس لأنني أردت تجاهل السيد هاركنس، بل لأن وزني وحجمي يحولان دون أن أركض كثيراً، وهذا ما جعلني أركض أولاً في مباريات كرة القاعدة، لأن مركز الدفاع يتطلب سرعةً أقل، وقد احتجت أن أقلل سرعتي خلال الجري ناحية البوابة كي أتجنب التعرض إلى شد عضلي والسقوط أرضاً من دون التقدم خطوةً واحدةً.

التفتت رادار خلفها، ونبحت مذعورة، فألقيت نظرةً خاطفةً، ورأيت قطيعاً من الأضواء الزرقاء الساطعة يقترب منا، اعتقدت أنه خرج من القصر، وتيقنت أنهم جنود الليل، وتجنبت إضاعة الوقت كي أقنع نفسي بعكس ذلك، فأسرعت مجدداً.

تكاثفت أنفاسي، وازدادت قوتها شيئاً فشيئاً، وخفق قلبي بشدة، وخاصةً بعد رؤية بقع ضوئية ساطعة أمامي واقتراب تلك القادمة من خلفي، وقد حصلت على أقدام، وتحولت إلى رجال مغلفين بهالات زرقاء قوية جداً، وعجزت عن رؤية وجوههم، ولم أرغب في ذلك حتى.

تعثرت بقدمي الغبية، ثمّ استعدت توازني، وتابعت الجري تحت خيمة الظلام الحالك الذي برزت فيه البوابة وسط الجدار بلون من درجات الرمادي، وقد اقتربت منها شيئاً فشيئاً، وشعرت أنني أملك فرصةً في النجاح إن تابعت الجري بالوتيرة نفسها.

شعرت بتشنج بسيط في خاصرتي، ولكن عمقه ازداد أكثر، ثمّ وصل إلى صدري وإبطي، كما تدلى وتعرج شعر رأسي الرطب الملطخ بالطين أمام جبهتي، وارتطمت حقيبتي الثقيلة بظهري مع كل خطوة، ولذلك خلعتها ورميتها وسط أجمة من نبات العليق إلى جوار مبنىً ذي أبراج، وانتصبت حوله أعمدة مخططة بالأحمر والأسود وفوقها تماثيل حجرية لفراشات عملاقة، وكانت الأخيرة سليمةً تماماً، ولعل ذلك بسبب صعوبة الوصول إليها من دون سلالم.

تعثرت مجدداً، ولكن هذه المرة بسبب مجموعة من أسلاك العربات المتدلية التي علقت قدمي بها، فتخلصت منها، وتابعت الركض في الوقت الذي اقترب فيه جنود الليل مني، وفكّرت في استعمال مسدس السيد بوديتش، ولكن إن كان فعالاً في مواجهة تلك الأشباح، لا أظنه سيكفي للتخلص منها كلها.

في تلك الأثناء، حدث شيء مدهش؛ استطعت التنفس بعمق أكبر، وزال التشنج من خاصرتي، وصحيح أنها المرة الأولى التي أكتسب فيها طاقةً جديدةً بعد ممارسة الجري مطولاً، ولكن سبق لهذا أن حدث عدة مرات خلال قيادة الدراجة مسافات طويلة، وقد علمت أنها مؤقتة فقط، ولكنها جل ما احتجته، فقد اقتربت من البوابة كثيراً، وخاطرت مرةً أخيرةً، وألقيت نظرةً خاطفةً خلفي كي أجد أن جنود الليل البراقين قد توقفوا، فالتفتت إلى الأمام، وأسرعت أكثر حتّى حنيت رأسي إلى الخلف، وقبضت يديّ بشدة وحركتهما إلى الأمام والخلف بسرعة كبيرة، وتنفست أعمق من أي وقت آخر، إلى درجة أنني تقدمت على رادار خلال الثلاثين ياردة الأخيرة، فنظرت إليّ وقد زالت ابتسامتها العريضة التي تعكس سعادتها واستمتاعها بوقتها، بل تدلت أذناها على جانبي رأسها، وارتسمت حلقتان بيضاوان حول عينيها البنيتين؛ لقد بدت خائفةً جداً.

في النهاية، وصلنا إلى البوابة.

أخذت نفساً عميقاً أخيراً وصرخت: «افتحي باسم ليا غالين».

أصدرت آليات البوابة صريرها الصاخب مجدداً، ثمّ تحول إلى ضجة خفيفة، وارتجت البوابة وبدأت تنزلق على مسارها الخفي ببطء شديد جداً، ما أرعبني كثيراً، وتساءلت في نفسي عن إمكانية مغادرة جنود الليل المدينة واللحاق بنا إن استطعنا عبور البوابة؟ ونفيت ذلك لاعتقادي أن هالاتهم الزرقاء تضعف خارج السور، وبالتالي سيموتون... أو يذوبون، كما حدث مع ساحرة الغرب الشريرة.

انفتحت البوابة بضعة سنتمترات فقط.

استطعت رؤية شريط فضي ضئيل من العالم الخارجي، حيث انتشرت الذئاب، ولكن من دون أي رجال بهالات زرقاء لامعة، أو أيادٍ متعفنةً تنبعث من أرض المقبرة.

التفتت خلفي كي أراهم بوضوح للمرة الأولى: كانوا عشرين رجلاً أو أكثر، وامتلكوا شفاهاً بلون كستنائي يشبه لون الدماء الجافة، إضافةً إلى وجوه رقيقة شاحبة، وارتدوا بناطيل وقمصاناً واسعةً بدت على نحو غريب مثل ملابس الجيش، وقد تدفق الضوء الأزرق من عيونهم وانصب إلى الأسفل وغطاهم عن آخرهم، وقد امتلكوا ملامح رجال عاديين، ولكن بشرتهم رقيقة جداً بحيث يمكن رؤية جماجمهم عبرها.

لقد ركضوا ناحيتنا وتركوا وراءهم بقعاً من الضوء الأزرق، والتي تلاشت شيئاً فشيئاً، واعتقدت أنني أستطيع الهروب قبل وصولهم.

انفتحت البوابة أكثر، ولكن ببطء شديد.

سمعت صوت صافرة إطفاء قديمة الطراز، وعندها فتحت كتيبة الهياكل العظمية الزرقاء طريقاً عبرها، وقف بعضهم يميناً، والقسم الآخر يساراً، وانطلقت مسرعةً على طريق غالين عربة كهربائية مثل سيارة غولف

عملاقة أو حافلة قصيرة مفتوحة، وجلس في مقدمتها رجل طويل ونحيل (وصفته بالرجل عمداً) يحرك ما يشبه عصا التوجيه إلى الأمام والخلف، وقد تدلى شعره الرمادي على جانبي وجهه المخيف نصف الشفاف، وازدحم الآخرون خلفه في هالاتهم الزرقاء التي سالت إلى الرصيف الرطب مثل دماء غريبة، وقد قاد عربته باتجاهي مباشرةً وأراد سحقي في مواجهة البوابة، وباتت فرصي في النجاح معدومةً تماماً... على العكس من رادار.

«اذهبي إلى كلاوديا يا رادار».

ولكنها وقفت في مكانها ولم تتحرك، وحدقت إليّ مذعورةً.

«اذهبي يا رادار بحق الجحيم».

تخليت عن حقيبتي لأن وزنها بعد أن ابتلت خفّض من سرعتي، ولكن اختلف الأمر نسبةً إلى سلاح السيد بوديتش، فقد كان عدد رصاصاته غير كاف من أجل القضاء على جنود الليل، ولم أرغب في حصولهم عليه أبداً، لذلك خلعت الحزام، وألقيته في الظلام خارج البوابة، وبالتالي إن أرادوا الحصول عليه، يجب أن يتجاوزوا سور المدينة، ثمّ ضربت رادار بقوة على مؤخرتها كي تنطلق، عندما اقتربت الهالات الزرقاء مني. أعلم ماهية شعور الاستسلام أمام الموت، لأنني فعلت ذلك حينها.

«اذهبي إلى كلاوديا. أو دورا. اذهبي فحسب».

رمقتني رادار بنظرة بائسة أخيرة - لن أنساها أبداً - وخرجت عبر شق البوابة.

دفعني شيء ما بقوة كبيرة كافية من أجل تثبيتي - وليس سحقي - على البوابة المتحركة، فالتفتت كي أرى جندي الليل ذو الشعر الرمادي يضغط عصا التوجيه بقوة إلى الأمام، ورأيت يديه الممدودتين وعظام أصابعه البارزة عبر شحم جلده المتوهج، إضافةً إلى الابتسامة الأبدية المرتسمة

على أسنان جمجمته، ولاحظت بعض تيارات الطاقة المرعبة تنبثق عبر عينيه.

انفتحت البوابة مسافةً كافيةً من أجلي، وحاولت الإفلات من أصابع ذلك الشيء التي أمسكت بي، والتدحرج ناحية الفتحة، ورأيت رادار لبرهة واقفةً على طريق المملكة وسط الظلام تحدّق إليّ وتنتظر خروجي، فاندفعت ناحيتها، ومددت يدي إليها، ولكن قبضت تلك الأصابع الشنيعة على رقبتي.

همس جندي الليل الميت الحي: «لا أيها الصغير الكامل، لقد دخلت ليلي من دون دعوة، وستبقى أسيرها».

اقتربت مني جمجمته الضاحكة القابعة وسط جلد شاحب رقيق، لقد كان هيكلاً عظمياً حياً، واقترب بقية الجنود منا، وصرخ أحدهم كلمةً، وأعتقد أنها كانت «إيليمار» - مزيج بين إمبيس وليليمار، ولكن أعلم الآن ما هي تماماً، وبدأت البوابة تنغلق، وأطبقت اليد بقوة على حلقي حتّى كدت أختنق.

قلت في نفسي: «اهربي يا رادار إلى بر الأمان»، ثمّ فقدت وعيي.

الفصل العشرون
الزنزانة الأبدية – هامي- وقت تناول الطعام- لورد هاي- الاستجواب.

1

قاومت رادار ضرورة الذهاب إلى سيدتها الجديدة والقفز فوق البوابة، وأخذت تخرمش بقائمتيها الأماميتين بحثاً عن مدخل، لقد عصت أمر الرحيل والهروب، رغم إدراكها قدرتها على الجري طوال الليل، ولكنها لم تفعل ذلك، إذ ستصل بر الأمان إن أمكنها الدخول.

صفعة – صفعة.

قفزت مراراً وتكراراً من أن ترتفع كثيراً. ما زال ضوء القمر سرير السماء، وغاب معه عويل الذئاب التي ستهاجمها فور ظهوره، وأحست أن هذا الحدث يقترب، فعزمت على القتال إلى النهاية حتّى لو تفوقت عليها عدداً.

صفعة – صفعة.

«استيقظ أيها الصغير».

شق ضوء القمر طريقه إلى الأرض عبر إحدى الغيوم الصغيرة التي أخذت تتلاشى وراء شقيقتها الكبرى كالمعتاد، وانطلق عواء الذئب الأول، ولكن توجد أمام رادار العربة الحمراء، والملجأ الذي قضت فيه ليلةً برفقة تشارلي عندما كانت مريضةً، واعتقدت أن تشارلي ترك بابه مفتوحاً، ولكنها لم تكن متأكدةً، إذ مضى وقت طويل على ذلك! حيث يمكنها الانسلال إلى هناك والبقاء في أمان إن استطاعت الوقوف على قائمتيها الخلفيتين وإغلاقه، وإلا ستسند ظهرها إليه وتقاتل حتّى الرمق الأخير.

صفعة – صفعة.

«هل تريد أن تفوتك وجبة أخرى؟ هذا لا يجوز!».

كان الباب مفتوحاً قليلاً، فاندفعت رادار عبره، ثم...

صفعة!

2

أيقظتني تلك الصفعة من الحلم أخيراً، وفتحت عينيّ أمام ضوء طفيف مجهول المصدر وشخص راكع فوقي، والذي امتلك شعراً متدلياً حتّى كتفيه ووجهاً شاحباً جداً، واعتقدت لوهلة أنه جندي الليل الذي كان يقود الحافلة الكهربائية الصغيرة، فجلست سريعاً، واندفعت صاعقة ألم في رأسي تلتها موجة دوار. رفعت قبضتي، فاتسعت عينا ذلك الشخص وتراجع، وتبين أنه

رجل، وليس شيئاً شاحباً وسط هالة ضوء أزرق يشع من عينيه، بل كانتا غائرتين وسط الكدمات، ولكنهما بشريتان، إضافةً إلى شعره البني الداكن المائل إلى السواد تقريباً، إذ لم يكن رمادياً.

صرخ أحدهم: «دعه يمت يا هامي! إنه الفرد الحادي والثلاثون، ولن ينتظروا أن يبلغ عددنا أربعةً وستين أبداً! لقد ولت تلك الأيام! لقد بقي واحد فقط كي تبدأ المعركة!».

التفت هامي – إن كان هذا اسمه – إلى مصدر الصوت مبتسماً وكاشفاً عن أسنانه البيضاء في وجهه المتسخ، وبدا وكأنه ابن عرس منعزل، وقال: «أنا أحاول تحصين روحي يا آي! يجب أن تقدم الخير إلى الآخرين كما تعلم! وتفكر في الحياة الأبدية إذ اقتربت النهاية كثيراً».

قال ذلك المدعو آي: «اللعنة عليك وعلى حياتك الأبدية! يوجد هذا العالم، وتليه الألعاب النارية، وهذا كل شيء».

كنت على أرضية باردة ورطبة، ونظرت فوق كتف هامي النحيل، كي أرى المياه تنز من جدار فيه نافذة أغلقتها القضبان، ولا شيء خلف الأخيرة سوى الظلام، وأدركت أنني في زنزانة، ثمّ خطرت في ذهني عبارة الزنزانة الأبدية، دون أن أعلم أين قرأتها أو سمعتها أو أدرك معناها حتى، وجل ما عرفته أن رأسي يؤلمني كثيراً، وأن الرجل الذي أيقظتني صفعاته كريه رائحة الفم، وكأن بعض الحيوانات الصغيرة ماتت في فمه، وتبين أنني بللت سروالي أيضاً.

انحنى هامي قريباً مني، وحاولت الابتعاد عنه، ولكن وجدت قضباناً أخرى خلفي، ثمّ تمتم فمه الخشن أمام أذني، والذي بدا صوته مروعاً وحزيناً بعض الشيء: «تبدو قوياً أيها الصغير، فهل ستحميني كما فعلت معك؟».

أردت أن أسأل عن مكان وجودي، ولكن بدا صوتي متقطعاً، ولعقت شفتي الجافتين المتورمتين وقلت: «أشعر بالعطش».

«أستطيع مساعدتك في ذلك».

أسرع إلى دلو في زاوية ما فتأكدت أنني في زنزانة... وكان هامي شريكي فيها، لقد ارتدى بنطالاً ممزقاً حتّى ساقيه مثل المنبوذين في القصص المصورة في المجلات، وبالكاد يمكن اعتبار أنه يلبس قميصاً، إذ لمعت ذراعاه العاريتان النحيلتان جداً في الضوء الضعيف، ولكنهما لم تكونا رماديتين، ويصعب التأكد من ذلك في ظروف الإضاءة السيئة هناك.

قال شخص آخر ليس هامي أو ذاك المدعو آي: «يا لك من غبي، لماذا تفسد الأمر؟ هل أسقطتك الممرضة على رأسك بعد ولادتك؟ لقد كان الصغير منهكاً تماماً وبالكاد يتنفس. أمكنك الجلوس على صدره وإنهاء حياته! فنعود ثلاثين فرداً في لمح البصر».

تجاهله هامي، وأخذ كوباً قصديرياً عن الرف الواقع فوق ما ظننت أنه فراشه، وملأه مياهاً من الدلو، وحمله واضعاً إصبعاً – وكان متسخاً بقدر أصابعه الأخرى – أسفله وأحضره لي، وقال: «ضع إصبعك على الثقب هنا».

تجرعته سريعاً، وتجنبت فعل ذلك إذ لن تسنح فرصة كي تتسرب المياه منه، ودون الاكتراث إلى الحصى الموجودة فيه أيضاً، إذ شعرت وكأنني في الجنة.

قال صوت آخر: «مارس الجنس الفموي معه يا هاميس، وسيستعيد وعيه مباشرةً».

«أين أنا؟».

انحنى هامي ناحيتي مجدداً كي يتجنب رفع صوته، وقد كرهت رائحة أنفاسه التي زادت شدة ألم رأسي، ولكنني تحملتها كي أحصل على الإجابة، وخاصةً بعد أن بدأت أتعافى قليلاً وأستفيق أكثر من حلم شوقي إلى رادار. لقد فاجأني بقائي على قيد الحياة.

همس: «أنت في مالين.. ديب مالين... عشرة... تحت القصر»، دون أن أفهم بعض كلماته.

صرخ آي: «بل عشرون! وستبقى في الظلام طيلة حياتك أيها الفتى الجديد! ونحن كذلك، وبالتالي اعتد على الأمر».

تناولت الكوب من هامي ومشيت عبر الزنزانة، وشعرت وكأن رادار في أسوأ حالاتها حينها، ثمّ ملأته ووضعت إصبعي على الثقب الصغير في القاع، وشربت مجدداً، لقد احتوت ما تأكدت أنها زنزانة ذلك الفتى الذي شاهد يوماً قناة تورنر كلاسيك موفيز، وطلب أشياءه من موقع أمازون الإلكتروني. توزعت الزنزانات على طرفي ممر مظلم، وعلقت مصابيح الغاز بينها كي تنشر ضوءها الأصفر الضارب إلى الزرقة، كما تساقطت قطرات المياه من حجارة السقف المتصدعة واجتمعت في برك صغيرة ضمن الممر الرئيسي. كان في الزنزانة المقابلة رجل ضخم يرتدي ما تبين أنه بقايا سروال داخلي طويل، ورآني أنظر إليه، فقفز ناحية القضبان وهزها مُقلداً صوت القرد، وقد امتلك صدراً عارياً عريضاً ومشعراً، ورأساً كبيراً وجبهةً منخفضةً، وصوتاً قوياً يحسب حسابه، لقد كان قبيحاً جداً... ولكن من دون أي من التشوهات المخيفة رأيتها خلال طريقي إلى هذه الغرفة الساحرة.

قال أحدهم: «أهلاً بالفتى الجديد. مرحباً بك في الجحيم، سأنتظر حتّى يحل (فير ون)... إن حدث ذلك... سأواجهك في الجولة الأولى، وأقتلع كبدك من مكانه وأعتمره قبعة، ثمّ أنتقل إلى خصمي أياً كان في الجولة التالية، فاستمتع بإقامتك إلى حينها»، لقد كان آي... الذي أدركت لاحقاً أن اسمه اختصار آيوتا.

رأيت سجيناً آخر في نهاية الممر قرب بوابة خشبية مدعمة بالحديد، وقد كانت أنثى، وصرخت: «وجب أن تبقى في سيتادل أيها الصغير... وأنا

كذلك، إذ أن التضور جوعاً أفضل من هذه الحال»، وأخفضت صوتها عندما قالت العبارة الثانية.

سار هامي إلى زاوية الزنزانة مقابل دلو المياه، وأنزل سرواله وجلس القرفصاء فوق حفرة في الأرض وقال: «إن أمعائي تؤلمني، لعل ذلك بسبب فطور الحقل».

سأل آي: «ماذا، ألم تقض عاماً وأكثر من دون تناول أي منها؟ أعلم أنك تتألم، ولكن فطور الحقل بريئة من ذلك».

أغمضتُ عينيّ.

3

لا أدري كم مر من الوقت، ولكنني استعدت وعيي شيئاً فشيئاً، وتسللت إلى أنفي رائحة القذارة والرطوبة والغازات عبر الثقوب التي تسلل عبرها ضوء خافت إلى هذا المكان، وسمعت صوت تساقط قطرات المياه، وخطوات السجناء وحديثهم مع بعضهم أحياناً، وربما مع أنفسهم.

جلس شريكي في الزنزانة قرب دلو المياه، وحدق بحزن عميق إلى يديه.

«هامي؟».

التفت إليّ.

«من هم الكاملون؟».

ضحك هامي عالياً، ثمّ اكفهر وجهه وقبض معدته وقال: «نحن هم الكاملون، هل أنت غبي؟ أم سقطت من السماء إلى هنا مباشرةً؟».

«تظاهر أنني كذلك».

«اجلس إلى جواري».

ترددت في ذلك.

قال حينها: «اطمئن، إذ لن أتحرش بك إن هذا ما يدور في ذهنك، ولكن قد يزعجك شخص أو اثنين هنا لا أكثر، كما مضى على آخر انتصاب حظيت به ستة أشهر تقريباً، إذ تُسبب آلام البطن ذلك».

جلست إلى جواره، فربّت ركبتي.

تنهد وقال: «هذا أفضل، حيث أكره أن يسمع الجميع ما أقوله، ولكنني لا أهتم، فنحن جميعاً أسماك في الدلو ذاته، ولكن أحب إبقاء أسراري لنفسي – هكذا تعلمت. ليس القلق دواء هذه الآلام، وأستطيع إخبارك ما يلي، هل ترى كيف تزداد الأعداد هنا؟ هذا بغيض! خمسة وعشرون... ستة وعشرون... والآن واحد وثلاثون، ولن يبلغوا الرقم أربعة وستين أبداً، إن آي محق في كلامه. لقد كنا – نحن الكاملين – أكياساً مملوءة بالسكر، ولكن فرغنا الآن إلا من البلورات الأخيرة القليلة».

هل قال كلمة بلورات؟ أم شيئاً آخر؟ بدأ رأسي يؤلمني مجدداً، وكذلك ساقاي من المشي والدوس والركض، ناهيك عن التعب الذي أصابني وكأن طاقتي استنزفت بطريقة ما.

أطلق هامي تنهيدةً أخرى والتي تحولت إلى نوبة سعال، وأمسك بطنه حتّى انتهائها، وقال: «يواصل قاتل الرحلة و... خاصته استهلاكنا، ولن يكتفي حتّى ينال منا جميعاً، ولكن... أربعة وستون؟ لا، ستكون هذه الفير ون الأخيرة، وسأكون ضمن المشاركين الأوائل، وربما الأول، لست قوياً كما ترى، إذ أصابتني الآلام ولا يناسبني الطعام، أما أنت... يعتقد آي أنك كبير وسريع ربما عندما تكون في كامل قوتك»، وبدا أنه يتذكر وجودي هناك – شريك زنزانته الجديد، وقد قال كلمةً بعد قاتل الرحلة مثل روغامونكاس، ولكن عجزت عن تفسيرها.

فكرت في إخباره أنني لست سريعاً تحديداً، ولكن قررت تجنب ذلك، وتركه يظن ما يريد.

«آيوتا ليس خائفاً منك أو من أي أحد – سوى ريد مولي ووالدتها الوضيعة – ولكنه يرفض بذل جهد إضافي أيضاً. أخبرني، ما هو اسمك؟».

«تشارلي».

أخفض صوته أكثر وقال: «وأنت تجهل أين نحن حقاً؟».

خطرت في بالي اسم الزنزانة الأبدية، وقلت: «حسناً، إنه سجن... أعتقد أننا في زنزانة تحت القصر، وهذا كل شيء».

عزمت على إخفاء نية قدومي إلى هنا، أو هوية الذين التقيتهم خلال رحلتي، إذ كنت أستعيد وعيي شيئاً فشيئاً رغم التعب، وبدأت أفكر بشكل صحيح؛ لعل هامي يحاول استجرار المعلومات مني كي يقايضها مقابل المنافع، والتي أشك في وجودها في ديب مالين، إذ يبدو هذا المكان مثل نهاية مسدودة إن صح القول، ولعل هروب كلبة شيبرد من سينتري في إيلينوي خارج دائرة اهتمامهم... ولكن مع ذلك، لا أود المخاطرة.

«أنت لست من سيتادل، أليس كذلك؟».

هززت رأسي نافياً.

«ألا تعلم مكانها؟».

«لا».

«ماذا عن غرين إيزليس؟ أو ديسك؟ أو أحد التايفوس ربما؟».

«أجهل أي مكان منها».

«من أين أنت يا تشارلي؟».

التزمت الصمت.

همس هامي بعنف: «حافظ على صمتك، هذا جيد، إياك أن تخبر أحداً منهم، وسأكتم سرك أيضاً إن حميتني، ومن الحكمة فعل ذلك. قد ترفض تصديقي، ولكن أدرك تماماً ما أقوله، توجد عواقب أسوأ من ديب مالين أيها الصغير، مثل لورد هاي، ولكن قاتل الرحلة هو الأسوأ».

«من يكون قاتل الرحلة؟ ولورد هاي؟».

«نطلق على لورد هاي اسم كيلين، وهو رئيس جنود الليل، وقد أحضرك شخصياً إلى هنا، وبقيت حينها في الزاوية».

تصاعد صوت جرس خافت من وراء الباب المدعم بالحديد القابع في طرف غرفة الزنزانات.

قفز آيوتا إلى القضبان، وأخذ يهزّها مجدداً ويصرخ: «بيرسي! لقد تأخّرت يا صديقي القديم! ادخل ودعنا نرَ ما بقي من وجهك!».

سمعت صوت أربعة أقفال تنفتح، وتلاها الباب. في البداية دخلت منه عربة خشبية، تشبه تلك الموجودة في المركز التجاري، ودفعها رجل رمادي بدا أن وجهه قد أذيب سوى إحدى عينيه، وبالكاد برز أنفه وسط قطعة لحم، وخيط فمه باستثناء مكان في حجم قطرة الماء على جانبه الأيسر، كما أذيبت أصابعه حتّى بدت يداه كالزعانف، وارتدى ملابس فضفاضة، وعلّق حول رقبته جرس يتدلى من حلقة جلدية.

وقف في مدخل الممر، وتفحص الجرس، ثمّ هزّه، والتفت مباشرةً بعينه الوحيدة إلى الأمام والوراء وقال: «هاف! هاف! هاف أيها الأوغاد!». بدت دورا مقارنةً به مثل لورانس أوليفير عندما أدى دور شيكسبير.

سحبني هامي من كتفي إلى الخلف، وكذلك تراجع آي، وبقية السجناء أيضاً، واستمر بيرسي في رنّ الجرس حتّى تأكّد من ابتعاد الجميع عن

القضبان كي يستحيل الإمساك به، رغم أنني أجهل سبب إقدام أحدهم على ذلك؛ إذ بدا مثل الإداريين في أفلام السجون، وهؤلاء لا يحملون مفاتيح.

كانت زنزانتي وهامي الأقرب إليه. مد بيرسي يده إلى العربة، وأخرج قطعتي لحم كبيرتين، وألقاهما عبر القضبان إلينا، فأمسكت خاصتي في الهواء، ولكن قطعة هامي أفلتت منه وسقطت أرضاً.

بدأ السجناء يصرخون على بيرسي، وتساءل أحدهم – والذي علمت لاحقاً أن اسمه فيرمي – إن كانوا قد خاطوا شرج بيرسي أيضاً، وفي حال صح ذلك فهل يتغوط من فمه؟ شعرت أنهم مثل الأسود في حديقة الحيوانات خلال وقت تناول الطعام، بل كانوا ضباعاً، ويمكن استثناء آيوتا منهم.

دفع بيرسي العربة ببطء إلى نهاية الممر بين الزنزانات، وحذاؤه الصيفي يخوض في برك المياه (لقد خيطت أصابع قدميه معاً أيضاً)، ورمى قطع اللحم يميناً ويساراً من دون أن يخطئ رغم امتلاكه عيناً واحدةً، إذ دخلت جميعها بين القضبان ولم تسقط أي منها في الممر وسط المياه الراكدة.

قربت قطعة اللحم من أنفي كي أشمها، واعتقدت أنني قابع في عالم الخيال، حيث توقعت رائحةً عفنةً ومقرفةً، أو وجود يرقات الحشرات فيها، ولكنها شريحة لحم بقر من متجر (سنتري هي في) ربما، رغم أنها من دون التغليف البلاستيكي الصحي، ولاحظت أنها مطهوة قليلاً (فكرت في والدي الذي اعتاد عند ذهابنا إلى المطعم طلب شريحة لحم مطهوة قليلاً في الفرن فقط)، ولكن رائحتها تكفي كي يسيل لعابي وتتضور معدتي جوعاً، إذ تناولت وجبتي الحقيقية الأخيرة في منزل كلاوديا الخشبي.

رأيت آي في الزنزانة المقابلة جالساً على سريره وعاقداً ساقيه ويقضم قطعة اللحم خاصته التي سالت عصارتها الحمراء على لحيته

المتلبدة. لاحظ أنني أنظر إليه، فابتسم وقال: «تناول قطعتك أيها الصغير واستغل سلامة أسنانك، إذ سأحطمهم مباشرةً».

تناولت لقمةً من قطعتي، والتي كانت قاسيةً، وشهيةً، وزادتني كل قضمة جوعاً من أجل الأخرى.

وصل بيرسي إلى الزنزانتين الأخيرتين، ورمى قطعتي لحم إليهما، وعاد أدراجه وهو يرن جرسه بإحدى زعانفه، ويجر العربة بالأخرى، ويصرخ: «هاف! هاف!»، وتوقعت أنه يقصد إلى الخلف، إلى الخلف، ولكن بدا أن الجميع غير مهتمين في إطلاق صيحات الاستهجان الآن، ناهيك عن محاولة إمساكه، إذ تصاعدت من خلف القضبان أصوات القضم والمضغ.

التهمت قطعتي كلها سوى حلقة من الشحم والغضاريف، ثمّ أجهزت عليها أيضاً، بينما تناول هامي بضع لقمات من قطعته ثمّ استلقى على سريره ووضعها على إحدى ركبتيه النحيلتين، وحدق إليها محتاراً، وكأنه يتساءل عن سبب رفضه إياها، ثمّ رآني أنظر إليه، فأمسكها وقال: «هل تريدها؟ يوجد كره متبادل بيني وبين الطعام، رغم أنني اعتدت التهام أفضل أصنافه خلال الأيام التي قضيتها في المنشرة. أنا متأكّد أنّ تلك الفطور هي سبب حالي هذه، تناول النوع الخاطئ منها وستقتلك آلام أمعائك، وهذا ما أصابني».

حسناً، لقد أردت قطعة اللحم، إذ ما زلت جائعاً، ولكن عجزت عن سؤاله مجدداً إن كان متأكّداً، وقد أخبرني أنه كذلك، فأخذتها سريعاً خشية أن يبدّل رأيه.

توقف بيرسي خارج زنزانتنا، وصوب إحدى يديه الذائبتين إليّ وتمتم بضع كلمات غير مفهومة.

أجبته واللحم النيء تقريباً يملأ فمي: «لا أفهم ما تقوله».

ولكن بيرسي عاود المشي مجدداً حتّى خرج من الباب، ورنّ جرسه مرةً أخيرةً، وأغلق الأقفال الأربعة كلها.

قال هامي: «قال إن كيلين يريد رؤيتك، لقد توقعت ذلك، فأنت كامل، ولكنك مختلف عنا، رغم أن لهجتك ليست كذلك...».

توقف عن الكلام، واتسعت عيناه وكأن فكرةً لمعت في ذهنه، ثمّ تابع: «أخبره أنك من أولوم! إذ تقع بعيداً شمال سيتادل. وسينجح ذلك.».

«ما هي أولوم؟».

«المتدينون. إنهم مختلفون عن الجميع. أخبرهم إنك تفاديت السم!».

«أنا أجهل كل ما تقوله».

صاح أحدهم: «توقف عن التفوه بأشياء يجب كتمانها يا هامي. يا لك من محتال».

صرخ هامي: «اصمت يا ستوكس. إن هذا الصغير سيحميني».

نهض آي في الطرف المقابل، وأمسك القضبان بأصابعه التي لمع الشحم عليها وابتسم قائلاً: «ربما لست معتوهاً يا هامي، ولكن لا أحد سيحميك، أو أي فرد منا».

4

أدركت وجود سرير واحد في الزنزانة وهو لهامي، ثمّ فكّرت في سلبه إياه – فهو يعجز عن الدفاع عن نفسه أمامي – ولكنني تساءلت لبرهة: «ما الذي أفكّر فيه؟... أو ما الذي أتحوّل إليه؟»، فقد سبق لي أن تناولت طعامه، ولكنه قدّمه لي على الأقل، كما أنني أستطيع الاستغراق في النوم على الأرضية الصخرية الرطبة. لقد جئت إلى هنا منذ فترة قصيرة نوعاً ما،

وأجهل كم بقيت فاقداً للوعي. شعرت بإرهاق شديد، فشربت كوب مياه من الدلو، ثمّ استلقيت حيث اعتقدت أنه جانبي من الزنزانة.

جلس في الزنزانة المجاورة رجلان يدعيان فيرمي وستوكس، وكانا شابين قويين، رغم أنهما أصغر حجماً من آيوتا.

فيرمي: «هل سيأخذ الفتى قيلولةً؟».

ستوكس: «هل نال التعب منك؟».

يا لي من محظوظ، إذ حصلت على أبوت وكوستيلو[26] ديب مالين وفي الزنزانة المجاورة تماماً.

قال هامي: «تجاهلهما يا تشارلي، واخلد إلى النوم، إذ يخسرها الجميع بعد وقوعهم في قبضة حراس الليل، فهم يمتصونها منك، إنها... لا أدري...».

سألت: «هل تقصد قوة الحياة؟»، وشعرت أن أجفاني ثقيلة وتلتصق ببعضها.

«أجل هذا صحيح. وهذا ما يفعلونه. لقد أحضرك كيلين شخصياً إلى هنا، وهذا يعني أنك قوي، وإلا سحقك أولئك الأوغاد كالبيضة، وصدقني، لقد سبق لي أن رأيت شيئاً كهذا».

حاولت سؤاله عن الفترة التي قضاها هنا، ولكنني عجزت سوى عن التمتمة لأن النعاس غلبني، وفكّرت في الدرجات الحلزونية التي قادتني إلى هنا، وشعرت أنني أجري عبرها إلى الأسفل مجدداً وراء رادار، وقلت في نفسي: «احذري من الصراصير، والخفافيش أيضاً».

ركع هامي فوقي كما فعل عندما استيقظت للمرة الأولى في هذا المكان الشنيع، وقال: «تذكّر، لقد جئت من أولوم شمال سيتادل، وقد وعدتني أن تحميني، إياك أن تنسى ذلك أيضاً».

لم أتذكّر أنني وعدته بشيء، ولكنني استغرقت في النوم قبل أن أخبره ذلك.

5

استيقظت بين يدي هامي الذي أخذ يهزني – كان ذلك أفضل من الصفعات – وقد زالت آثار دوار السكر، وهذا ما كان الأمر عليه، وما عانى منه والدي في كل صباح بعد إفراطه في الشرب، بل أشدّ منه، كما آلمتني كتفي اليسرى؛ إذ ربما لويتها وأنا أسقط عن قاعدة التمثال، ولكن خفّت حدة آلامي الأخرى كلها.

«ماذا... كما مضى على...».

«قف مباشرةً. لقد جاؤوا. واحذر العصي المرنة».

وقفت، ووجدت الباب في نهاية الممر مفتوحاً ورأيت ضوءاً أزرق، تلاه ثلاثة حراس ليل طوال وشاحبين وسط هالاتهم، وأخذت هياكلهم العظمية تبرز تارةً وتختفي تارةً أخرى مثل الظلال المتقطعة التي تعكسها الغيوم المتسارعة، وقد حملوا عصياً طويلةً تشبه هوائيات السيارات القديمة.

صاح أحدهم: «انهضوا. لقد حان وقت اللعب».

تقدمه الحارسان الآخران وأذرعهما ممدودة مثل المبشرين الذين يرحبون بالمنتسبين الجدد لديانة ما، ومشيا حتّى وصلا نهاية الممر، فانفتحت أبواب الزنزانات مصدرةً صوتاً قوياً، وتناثرت منها ملايين الرقائق المعدنية الصدئة، وأشار الحارس الثالث إليّ وقال: «أنت لا».

خرج ثلاثون سجيناً إلى الممر، وابتسم هامي إليّ يائساً قبل أن ينسل متجنباً هالة حارس الليل الساكنة، بينما كشّر آي عن أسنانه، ورفع يديه، وصنع دوائر بواسطة إبهاميه وسبابتيه، ثمّ وجه إصبعيه الوسطى إليّ، وقد وجدت ذلك مختلفاً عن الإهانة الأمريكية التقليدية، ولكنني أدركت أنهما

تملكان المعنى ذاته. تبع السجناء الحارسين إلى نهاية الممر، وتبينت وجود امرأتين بينهما ورجلين أسودين، وكان أحدهما أكبر من آيوتا عريض المنكبين والمؤخرة، وأشارت المعطيات إلى أنه لاعب كرة قدم محترف، ولكنه مشى ببطء مطأطئاً رأسه، كما ترنح قليلاً قبل عبور الباب في نهاية ممر الزنزانات، لقد كان اسمه دومي، وكانت المرأتان تدعيان جايا وإيريس.

مدّ جندي الليل الثالث إصبعه الشاحب إليّ وعكفه، وقد كان وجهه صارماً، ولكن جمجمته الوامضة عكست ابتسامته الداخلية، وأشار بعصاه كي أسير أمامه إلى الباب، وقال قبل أن أخرج منه: «انتظر... اللعنة».

توقفت، ووجدت أن أحد مصابيح الغاز إلى يميننا قد سقط عن الجدار، وتدلى منحرفاً عن حامله المعدني تحت ثقب يشبه فماً مفتوحاً، ولكن لا تزال ناره مشتعلة ويلوث سخامها الحجارة المجاورة، ولذلك اتجه حارس الليل إليه كي يعيده إلى مكانه، فلامستني هالته الزرقاء، وشعرت حينها أن عضلاتي قد خارت قواها مباشرةً، وأدركت سبب حذر هامي منها، إذ يشبه التعرض إليها الصعق الكهربائي، فابتعدت قليلاً.

أمسك حارس الليل المصباح الذي بدا أنه مصنوع من النحاس الأصفر، وقال: «اللعنة عليك. اثبت في مكانك»، من دون أن يتألم أبداً، رغم يقيني أن حرارته مرتفعة جداً. أخيراً وضعه في الفتحة، ولكنه سقط مجدداً.

«اللعنة».

شعرت وكأنني في حلم؛ إذ احتجزت في زنزانة، ويقودني إلى المجهول مخلوق من الأحياء الأموات يشبه ألعاب الهياكل العظمية التي امتلكتها في طفولتي... ولكنه ينفّذ الآن ما يصنف ضمن الأعمال المنزلية.

أمسك المصباح مجدداً، وغطى النار بيده الأخرى حتّى انطفأت، ثمّ أفلته كي يعيده إلى الجدار، وقال: «تحرّك. تابع سيرك أيها اللعين».

جلد كتفي المصابة فآلمتني كثيراً، وقد كان الضرب مهيناً وأغضبني في الوقت نفسه، ولكنه أفضل من الضعف الشديد الذي انتابني حين مستني هالته.

مشيت.

6

تبعني عبر ممر حجري طويل قريباً مني، ولكن هالته لم تلمسني، ومررنا بجوار باب هولندي[27] ترك نصفه العلوي مفتوحاً وفاحت منه رائحة طعام شهي يطهونه هناك، كما تجاوزنا رجل يحمل دلوين، وامرأة تحمل صينيةً خشبيةً من أجل الطهو على البخار، وقد ارتديا ملابس بيضاء، وكانت بشرتهما رمادية ووجهاهما نحيلين.

لسعتني العصا المرنة مجدداً، ولكن في الكتف الأخرى هذه المرة، وسمعت الجندي يقول: «تابع طريقك».

«لا تحتاج أن تضربني يا سيدي، فأنا لست حصاناً».

قال، وقد بدا صوته غريباً وكأن الحشرات تملأ حنجرته: «بل أنت حصاني، واشكرني لأنني لا أطلب منك أن تجري».

رأيت خلال طريقنا غرفةً مليئة بالأدوات وتمنيت لو أنني أجهل أسماءها: المخلعة[28]، والعذراء الحديدية[29]، ومقلاع الثدي، كما لاحظت وجود بقع داكنة على الأرضية الخشبية، ووقف جرذ بحجم جرو صغير على قائمتيه الخلفيتين إلى جوار المخلعة وكأنه يسخر مني.

صليت في نفسي: «يا ربي... يا إلهي القدير».

قال الحارس: «هل يسعدك أنك من الكاملين؟ سنرى ذلك بعد انطلاق فير ون».

سألته: «ماذا يعني ذلك؟».

تلقيت الإجابة على هيئة جلدة أصابت هذه المرة الجزء الخلفي من عنقي، فوضعت يدي هناك، ووجدت أن الدماء لطختها.

«اتجه إلى اليسار أيها الصغير. ولا تتردد فالباب مفتوح».

فتحت الباب وصعدت سلماً ضيقاً وطويلاً وكأنه يمتد إلى ما لا نهاية، وعددت أربعمئة درجة قبل أن أتوه بين الأرقام، كما تسلل الألم إلى ساقي مجدداً، ناهيك عن نظيره الحارق في الجزء الخلفي من رقبتي المجروحة إثر جلدة العصا.

«أنت تتباطأ أيها الصغير، وأنصحك بالإسراع إذا أردت تفادي النار الباردة».

حتماً كنت أريد تفادي النار الباردة إن كان يقصد بها هالته، ولذلك تابعت طريقي حتّى شعرت أن فخذيّ على وشك أن يتشنجا ويخذلاني، ولكن في تلك اللحظة وصلنا إلى باب في القمة، فحاولت جاهداً التقاط أنفاسي في ظل هدوء ذلك الشيء خلفي، فهو ميت في نهاية المطاف.

كان هذا الممر أوسع من سابقه، وغطت جدرانه أقمشة مخملية حمراء، وبنفسجية، وزرقاء، كما توضعت قناديل زجاجية فاخرة على فتحات الغاز، فقلت في نفسي: «إنه جناح السكن»، مررنا بجوار تجاويف جدارية صغيرة وتساءلت في نفسي إن احتوت تماثيل فراشات يوماً، وقد كان معظمها فارغاً سوى قلة ضمت أشكالاً رخامية تمثل رجالاً ونساءً عراةً، كما تربع في إحداها شيء شنيع جداً غطت بعض المجسات رأسه، فتذكرت جيني سكوستر التي عرفتني إلى الوحش الأليف كثولو الذي يفضله الكاتب الأمريكي هاوارد فيليبس لوفكرافت، ويعرف باسم «الذي ينتظر في الأسفل».

لقد قطعنا نصف ميل تقريباً في هذا الممر المجهز عن آخره، وعبرنا قبل بلوغ نهايته بضع مرايا متقابلة ذات إطار ذهبي، والتي خلقت انعكاسات لا نهائيةً عني، ورأيت فيها شعري القذر الذي خلفته الساعات الجنونية الأخيرة خلال محاولة الهروب من ليليمار، إضافةً إلى الدماء على رقبتي، ولم أرَ أحداً سواي، فلم يكن لحارس الليل الذي يرافقني أي انعكاس، ولكن رأيت مكانه هالةً زرقاء خافتةً فقط... وقد طفت العصا المرنة وحدها، ولذلك التفت كي أتأكّد من وجوده، فانهالت العصا عليّ مجدداً وأصابت البقعة ذاتها في مؤخر عنقي، والتي آلمتني مباشرةً.

«تابع سيرك أيها اللعين».

تابعت السير حتّى نهاية الممر حيث وجدت باباً متيناً بدا أنه مصنوع من خشب الماهوجاني الصلب ومُلبّس بالذهب. لمس جندي الليل يدي بعصاه الكريهة، ثمّ نقرها على الباب، ففهمت قصده وطرقته، فجلد كتفي ممزقاً سترتي، وقال:

«أقوى».

ضربت الباب بجانب قبضتي، وسالت الدماء من أعلى ذراعي ومؤخر عنقي وامتزجت مع قطرات العرق اللاذعة. قلت في نفسي: «لا أعرف إذا كان من الممكن قتلك أيها الأزرق البائس الحقير، ولكن سأقتلك إن كان ذلك ممكناً».

انفتح الباب كاشفاً النقاب عن كيلين، المعروف باسم اللورد هاي، الذي اختار ارتداء معطف مخملي فاخر أحمر اللون من بين أي شيء آخر.

7

قادني دماغي مجدداً إلى عالم الخيال، وبدا ذلك الشيء الذي أمسكني قبل ثوانٍ من هروبي الناجح وكأنه من قصص الرعب المصورة القديمة؛

حيث تألف من مزيج بين مصاصي الدماء، والأحياء الأموات، والهياكل العظمية، وتدلت حينها خصلات شعره الرمادي السميكة حتّى وجنتيه الشاحبتين، ولكنه سرّحه الآن بأناقة إلى الخلف كاشفاً عن وجه رجل مسن يبدو في أوج صحته، وبرزت شفتاه الممتلئتان، وارتسمت خطوط ابتسامة لطيفة حول عينيه البارزتين تحت حاجبيه الكثيفين الأشعثين الرماديين. لقد ذكّرني بشخص ما من دون أن أعرف هويته تماماً.

ابتسم وقال: «تفضّل وادخل أيها الضيف الجديد... تستطيع الذهاب يا أرون».

تردّد حارس الليل – أرون – الذي أحضرني، ولكن كيلين أشار إليه بهدوء، فانحنى قليلاً، وتراجع مغلقاً الباب.

تفقدت المكان حولي، ووجدت أننا في ردهة تكسوها الألواح الخشبية، وتؤدي إلى غرفة معيشة تشبه أحد أندية النبلاء المذكورة في قصص شارلوك هولمز؛ حيث الجدران مكسوة بأناقة، والكراسي ذات ظهر مرتفع، إضافةً إلى أريكة طويلة يغطيها قماش مخملي أزرق داكن، وذلك وسط الإضاءة اللطيفة المنتشرة من ستة مصابيح اعتقدت أن مصدر طاقتها مختلف عن تلك الغازية التي سبق لي أن رأيتها، حيث بدا أن هذا الجزء من القصر لديه إمدادات من الطاقة الكهربائية.

«تفضّل أيها الضيف».

أدار ظهره إليّ من دون أن يبدو قلقاً من مهاجمتي إياه، وقادني إلى غرفة المعيشة التي تمثل نقيض الزنزانة الرطبة وعندها انتابتني موجة الخيال للمرة الثالثة. لعله مطمئن لأنه يمتلك عينين في مؤخر رأسه تحدقان من وراء شعره الرمادي المُسرّح والذي يغطي عنقه، لن يفاجئني ذلك، ولا أي شيء آخر بعد الآن.

انتصب اثنان من كراسي نادي النبلاء مقابل طاولة صغيرة رُسم على سطحها حصان ووحيد قرن يقفز، ووضعت على مؤخرته صينية صغيرة عليها إبريق شاي، ووعاء سكر في حجم قارورة صغيرة (وتمنيت ألا يكون مسحوق الزرنيخ الأبيض)، إضافةً إلى ملاعق صغيرة وفنجانين نقشت ورود على حافتيهما.

«تفضّل واجلس، هل تود احتساء الشاي؟».

«أجل من فضلك».

«هل تريد إضافة السكر؟ أخشى أن لا كريما لديّ، فهي تسبب لي عسر الهضم، وكذلك الطعام أيضاً».

صبّ الشاي في فنجاني أولاً، ثمّ فنجانه. أفرغت نصف قارورة السكر الصغيرة في فنجاني مقاوماً رغبتي في إفراغها كلها، إذ تملكتني رغبة قوية بتذوّق طعمه الحلو، ثمّ رفعت الفنجان إلى فمي، وتردّدت قبل أن أرتشف أيّ رشفة.

قال كيلين مبتسماً: «هل تعتقد أنه سم؟ اطمئن، إذ أردت تسميمك سأفعل ذلك ضمن مالين في الأسفل، حيث توجد وسائل لا تحصى من أجل قتلك».

لقد فكّرت في السمّ، هذا صحيح، ولكنه ليس سبب تردّدي في احتساء الشاي، حيث أدركت أن الورود على حافته هي نباتات الخشخاش في الحقيقة، فتذكرت دورا، وتمنيت من أعماق قلبي أن تجد رادار طريق العودة إلى تلك المرأة اللطيفة، وأدركت أن احتمالات حدوث ذلك ضعيفة، ولكن تعلم ما يقولونه عن الأمل: «يملك أجنحةً تحمله إلى أي أحد حتّى أولئك المسجونين».

رفعت فنجاني إلى كيلين وقلت: «أياماً طويلةً وليال سعيدةً»، وشربت، وقد كان مذاقه حلواً ولذيذاً.

«يا له من نخب مميّز، هذه المرة الأولى التي أسمعه فيها».

«لقد تعلمته من والدي». اعتقدت أن الأكاذيب ستملأ إجاباتي في هذه الغرفة الأنيقة، ولكنني لم أكن كاذباً هذه المرة، إذ ربما قرأها والدي في أحد الكتب أو غيرها، ولكن تجنبت ذكر ذلك، إذ ربما وجب أن أمثل دور شخص يعجز عن القراءة.

«أنا أناديك بالضيف، أخبرني ما هو اسمك؟».

«تشارلي».

توقعت أنه سيسألني عن اسم عائلتي، ولكنه لم يفعل، وقال: «تشارلي؟ تشارلي. إنها المرة الأولى التي أسمع فيها هذا الاسم». شعرت أنه يستسيغه، وانتظرني أن أشرح معنى اسمي الغريب، الذي كان أشهر من نار على علم في عالمي، وعندما التزمت الصمت، سألني عن موطني، إذ وجد لهجتي غريبةً عند مسامعه.

قلت: «أولوم».

«آه! لقد جئت من مكان بعيد جداً. أليس كذلك؟».

«أجل، إن كان هذا ما تراه».

اكفهر وجه كيلين، ولاحظت شيئين؛ أولهما أنه شاحب تماماً، وقد وضع مساحيق تجميل على شفتيه ووجنتيه، كما عرفت هوية الشخص الذي يذكرني به: إنه الممثل دونالد ساذرلاند، حيث شاهدته يتقدّم سناً بشكل سحري في أفلام قناة تيرنر كلاسيك موفيز، انطلاقاً من فيلم ماش وحتى ذا هانغر غيم. والشيء الآخر هو وجود الهالة الزرقاء رغم ضعفها على شكل

دوامة شفافة في فتحتي أنفه، ومثلث خفي تقريباً في القوس السفلي من عينيه.

«أخبرني يا تشارلي، هل من الأدب التلصص إلى الناس في أولوم؟ هل هي علامة احترام؟».

قلت: «أنا آسف، ولكن أجد هذا المكان غريباً تماماً، وأنت كذلك»، ثمّ أنهيت فنجان الشاي الذي بقي بعض السكر في قعره، فمنعت نفسي عن جمعه عبر أحد أصابعي المتسخة وتناوله.

«أجل أتفهم ذلك... هل تريد مزيداً من الشاي؟ تستطيع إعداد فنجانك بنفسك، ووضع مقدار السكر الذي تحب، إذ أدرك رغبتك في ذلك، كما أنني لست من هواته أيضاً. إنها صفقة رائعة، ويتعلم الناس إبرام مثلها من أجل أوقات شدتهم».

أجهل كم مضى على إعداد إبريق الشاي قبل وصولي، ولكن ما زال الشاي ساخناً ويتصاعد قليل من البخار منه، ولعله مزيد من السحر، ولكنني لم أكترث، إذ مللت منه، وجل ما أريده أن أجد كلبتي وأعود إلى دياري، ولكن... ما زالت هناك حورية البحر، لقد كان ذلك خاطئاً وكريهاً إلى حدّ إبادة الجمال تماماً.

«لماذا غادرت أولوم يا تشارلي؟».

تبينت وجود مكيدة في ذلك السؤال، ولكنني أدركت إمكانية تفاديها بفضل هامي، وأجبت: «كي أتجنب الموت».

«ماذا؟».

«لقد تفاديت السمّ».

«أقر أن هذا تصرف حكيم جداً، ولكن من الغباء قدومك إلى هنا، أليس كذلك؟».

قلت: «لقد أوشكت على الخروج»، وفكرت في أحد أقوال والدي الأخرى: «يختلف الاقتراب من الهدف تماماً عن الوصول إليه». بدت أسئلة كيلين كالألغام، ووجب أن أتجاوزها جميعها وإلا قُضي عليّ.

«كم عدد الأفراد الآخرين الذين «تفادوا السمّ» كما تقول؟ وهل جميعهم من الكاملين؟».

هززت كتفي، فعبس كيلين، ووضع فنجانه بقوة على الطاولة (وهو بالكاد شرب منه) وقال: «إياك واستنفاد صبري يا تشارلي، فمن الخطأ القيام بذلك».

«أجهل عددهم». إنها الإجابة الأكثر أماناً، إذ جل ما أعرفه عن الكاملين أن لونهم ليس رمادياً، ولم يخسروا أصواتهم، أو يحتمل أنهم توفوا عند ذوبان أحشائهم الداخلية وانسداد سبلهم التنفسية، إذ أجهل صحة هذه الأفكار حتّى.

«يتوق سيدي قاتل الرحلة من أجل جمع الأفراد الاثنين والثلاثين، إنه حكيم جداً، ولكنه طفولي بعض الشيء، إذ يجهل امتلاكي واحداً وثلاثين فرداً يا تشارلي، وبالتالي أستطيع التخلص منك متى أريد، ولذلك أجب بدقة وصدق عن أسئلتي».

أومأت، وتمنيت أنني بدوت مهذباً، وقد كنت كذلك في الحقيقة، وأردت منح هذا الوحش إجابات دقيقةً جداً... ولكن ليست صادقةً.

قلت: «لقد كان الأمر مربكاً جداً في النهاية»، وفكّرت في التسميم الجماعي الذي حدث في جونزتاون، وصليت أن يشبه ما حدث في أولوم.

أدرك أن هذا التصرف شنيع، ولكنني أعلم تماماً أن حياتي على المحك وسط هذه الغرفة الجميلة المضاءة جيداً.

«أستطيع تصور ذلك. لقد حاولوا الصلاة كي يتخلصوا من اللون الرمادي، وعندما فشلوا... ما الذي يضحكك؟ هل تجد الأمر مسلياً؟».

عجزت عن إخباره حول وجود مسيحيين متعصبين في عالمي – الذي أراهن أنه أبعد كثيراً من أولوم – يؤمنون أنهم يستطيعون الصلاة كي يتخلصوا من المثليين، ولكنني قلت: «إنني أضحك من غباء هذا التصرف».

لقد ابتسم أيضاً، إذ رأيت النار الزرقاء تتوارى خلف أسنانه، وقلت في نفسي: تملك أسناناً كبيرةً يا كيلين، وقال: «إنها إجابة قوية، هل أنت كذلك؟ سنرى».

التزمت الصمت.

«أي غادرت قبل أن يصبوا عصير البلادونا[30] في فمك».

لقد لفظ كلمة عصير بطريقة مختلفة، ولكنني أدركت مباشرة ما يرمي إليه.

«أجل».

«أنت وكلبتك».

قلت: «كانوا سيقتلونها أيضاً»، وانتظرته أن يقول: أنت لست من أولوم، إذ لا كلاب هناك، بل تختلق إجاباتك خلال حديثنا.

ولكنه أومأ وقال: «أجل، كانوا سيفعلون ذلك. أخبروني أنهم قتلوا الأحصنة، والأبقار، والخراف»، ثمّ تأمّل فنجان شايه مباشرةً، ورفع رأسه إلى الأعلى، فأضاءت عيناه بلون أزرق رائع، وذرفت دموعاً كهربائيةً اختفت عند خديه المتجعدين، ورأيت العظم يومض لوهلة تحت جلده.

«أخبرني لماذا جئت إلى هنا؟ لماذا اخترت ليلي؟ أجبني بصدق، وإلا سأدير رأسك اللعين حول رقبتك اللعينة، وستموت محدقاً إلى الباب الذي أوصلك حظك السيئ إلى عتبته».

تمنيت أن تساعدني الحقيقة كي أحافظ على موقع رأسي لبعض الوقت، وقلت: «لقد كانت عجوزاً، وسمعت قصصاً حول حجر دائري يمكنه إعادة الشباب إليها»، وحركت إصبعي في الهواء على شكل دائرة.

«وهل نجح الأمر؟».

إنه يعرف أن الأمر نجح، إذ ربما غفل عنها تجري وسط دورية جنود الليل لأنه كان في عربته الكهربائية الصغيرة، ولكنهم رأوها.

«أجل، لقد نجح».

«لقد حالفك الحظ، فالساعة الشمسية خطيرة، لقد اعتقدت أن ذبح إيلسا في بركتها سيقضي على قوتها، ولكن السحر القديم عنيد حقاً».

إيلسا، حسناً هذا اسم إريال في هذا العالم.

«أستطيع إرسال بعض الجنود كي يحطموها بمطارقهم، ولكن لا يزال الأمر ينتظر موافقة قاتل الرحلة، وأعتقد أن بيريتا تمنعه عن ذلك لأنها تحب تلك الساعة الشمسية. هل تعلم ما يفعله السحر يا تشارلي؟».

اعتقدت أنه يفعل أي شيء – مثل أن يمنح الرحالة اليائسين مثلي القدرة على زيارة العوالم الأخرى – ولكن هززت رأسي نافياً.

«إنه يمنح الناس الأمل، وهذا ما أعتبره شيئاً خطيراً، ما قولك؟».

فكّرت في قول إن الأمل يملك أجنحةً، ولكنني قررت الامتناع عن ذلك، وأجبت: «لا أعرف يا سيدي».

ابتسم، ورأيت للحظة عظم فكه يومض تحت شفتيه، وقال: «ولكنني أعرف ذلك حق المعرفة، لم يدفع سكان محافظتك غير المحظوظين إلى تسميم أنفسهم وحيواناتهم سوى الأمل بحياة أبدية سعيدة بعد أن فشلت صلواتهم في التصدي للون الرمادي؟ أنت تملك أحلاماً دنيويةً، ولذلك نجوت، ووصلت إلى هنا، حيث تموت آمال الأشخاص مثلك، وستصدق ذلك عاجلاً أم آجلاً. أخبرني كيف تجاوزت هانا؟».

«لقد انتظرت حتّى سنحت الفرصة أمامي واستغللتها».

انحنى إلى الأمام حتّى استطعت شم رائحة عفن قديم، وقال: «أنت لست شجاعاً فقط بل قوي. يا إلهي، ولكنك قصدت ليليمار من أجل شيء آخر غير كلبتك، أليس كذلك؟ أخبرني الحقيقة، وإلا قطعت رقبتك»، ورفع يده وذلك الظفر الطويل مجدداً.

قلت مباشرةً: «الذهب».

لوّح كيلين يده غير مصدق وقال: «تستطيع إيجاد الذهب حيث نظرت في ليلي، ناهيك عن أن عرش هانا مصنوع منه».

«ولكنني أعجز عن حمل العرش وحدي يا سيدي، أليس كذلك؟».

أضحكته إجابتي، وبدا صوته مروعاً وكأن عظاماً جافةً تحتك مع بعضها، وتوقف فجأةً كما بدأ.

«لقد سمعت... قصصاً ولكن لعلها مجرد شائعات... عن وجود قطع من الذهب...».

«هل تقصد الخزينة، طبعاً، ولكن ألم يسبق لك أن رأيتها؟».

«لا».

«ولم تحضر الألعاب أو تراقبها عبر النوافذ؟».

«لا»، لقد كنت وسط محادثة خطيرة، لأنني أملك فكرةً سطحيةً جداً عن معنى كلماته التي ربما تكون فخاً.

«ماذا عن البئر المظلمة؟ هل توجد قصص عنها في أولوم؟».

«أجل... هذا صحيح». لقد تصببت عرقاً، وأدركت حتمية الوقوع في أحد فخاخه إن استمر هذا الاستجواب لفترة أطول.

«ولكنك عدت من أجل الساعة الشمسية، لماذا فعلت ذلك يا تشارلي؟».

استقمت في جلستي، وحاولت أن تنم كلماتي وتعابير وجهي عن الشجاعة، وقلت: «لقد أردت الخروج قبل أن يحل الظلام، وكدت أنجح».

ابتسم مجدداً، وظهرت جمجمته تحت جلده الوهمي، وتساءلت إن سبق أن كان – والآخرون – بشراً؟ أعتقد ذلك. ربت كيلين شفتيه بظفره الطويل البشع، وتفحصتني عيناه، ثمّ قال: «تحمل كلمة كدت ألماً شديداً بين حروفها، أليس كذلك؟ لا أهتم لأمرك يا تشارلي، ولا أصدقك أيضاً، وأود إرسالك إلى بيلتس، ولكن قاتل الرحلة لن يقبل، إذ يريد إيجاد الكاملين الاثنين والثلاثين، ولم يعد ينقصنا سوى شخص واحد غيرك في ظل وجودك في مالين، ولذلك عد إلى هناك».

رفع صوته عالياً جداً إلى درجة أنني أردت تغطية أذني، ومرت لحظة تحوّل فيها رأسه إلى مجرد جمجمةً وسط نار زرقاء أعلى معطفه المخملي الأحمر المصطنع، وقال: «أرون».

انفتح الباب، ودخل أرون وقال: «نعم يا سيدي».

«خذ تشارلي إلى الزنزانة مجدداً، ولكن أره بيلتس أولاً، أريده أن يعلم أن مالين ليست أسوأ الأقدار في القصر الذي حكمه يوماً الملك جان، عسى أن يتلاشى اسمه قريباً، وأنت يا تشارلي...».

«نعم؟».

قال، وقد ابتسم وجهه الوهمي وجمجمته الحقيقية معاً: «أتمنى أنك استمتعت خلال هذه الزيارة وتناول الشاي والسكر، لأنها المرة الأخيرة التي ستنال فيها هذه المعاملة. تعتقد أنك ذكي وقوي، ولكنني أستطيع قراءة أفكارك، وستضعف مع الوقت... خذه من هنا».

رفع أرون عصاه المرنة، ولكن وقف جانباً كي أمر من دون أن تمسني هالته التي تشل جسدي، وفور وصولي إلى الباب، وقبل لحظات من نجاتي من هذه الغرفة المرعبة، قال كيلين: «يا إلهي أوشكت أن أنسى، تعالَ يا تشارلي».

لقد شاهدت رفقة والدي حلقات مسلسل كولومبو بعد ظهر أيام الأحد، وهذا ما جعلني أدرك الفخ الكامن في عبارة: «يوجد سؤال واحد بعد»، ولكن تملكني الرعب تماماً.

استدرت ووقفت إلى جوار الكرسي الذي جلست عليه قبل قليل، بينما فتح كيلين درجاً صغيراً في طاولة الشاي، وأخرج منه شيئاً تبيّن أنه محفظة... ولكنها لم تكن محفظتي، إذ امتلكت واحدةً جلديةً من لورد بوكستون، والتي أهداني إياها والدي في عيد ميلادي الرابع عشر، بينما كانت هذه سوداء لينة وبالية.

«ما هذه؟ ينتابني الفضول حيالها؟».

«لا أدري».

ولكنني تعرفت إليها بعد زوال صدمتي الأولية، وتذكرت أن دورا أعطتني قطع الحذاء الجلدي المميزة، ثمّ أشارت أن أترك حقيبتي كي أتجنب حملها إلى ليا، ففتحتها ووضعت محفظتي في جيبي الخلفي تلقائياً من دون التفكير في الأمر أو النظر حتى، إذ التفتت حينها إلى رادار

وتساءلت إن كانت ستبقى سليمةً برفقة دورا، وحملت محفظة كريستوفر بولي طوال الوقت.

«لقد وجدتها، فأخذتها معتقداً أنها تملك قيمةً ما، ووضعتها في جيبي ونسيت أمرها».

فتح محفظة الجيب، وأخرج منها ورقة عشرة دولارات، وهي الأموال التي حملها بولي فقط، وقال: «لعل هذه ورقة مالية، ولكن لم يسبق أن رأيت واحدةً منها».

بدا أن ألكسندر هاملتون ينتمي إلى شعب إمبيس، أو طبقتها الحاكمة، ولكن الورقة خلت من أيّ كلمات، بل مجرد كتابات غامضة معقدة آلمت عيني تقريباً، وارتسم بدل الرقم 10 في زواياها الرمزان التاليان: . «هل تعلم ما معنى هذين؟».

هززت رأسي نافياً، وقد عجزت عن ترجمة الكلمات والأرقام المكتوبة إلى الإنكليزية أو الإمبيسية، لأنها تنتمي إلى حقل لغوي مجهول.

أخرج كيلين رخصة قيادة بولي منتهية الصلاحية أيضاً والتي كان من الممكن قراءة اسمه عنها بوضوح؛ بينما كان باقي محتواها مجموعةً من الحروف القديمة التي شكلت رسالةً مألوفةً.

«من هو بولي، وما هذه الصورة؟ لم يسبق أن رأيت مثلها».

«لا أدري»، وقد علمت شيئاً واحداً: وهو أن الحظ حالفني كثيراً بعد ترك حقيبة ظهري كي أركض أسرع، إذ احتوت على محفظتي وهاتفي – الذي كان سيجذب اهتمام كيلين حتماً – إضافةً إلى التوجيهات المختصرة التي أملتها عليّ كلاوديا، وأشك أن كلمات تلك الورقة مجرد خربشات قديمة، وكذلك ما كتب على ورقة العشرة دولارات هذه، أو رخصة قيادة بولي، بل لعلها كتابات إمبيسية.

«أنت تكذب يا تشارلي».

قلت، وبدا صوتي أجش: «إنها الحقيقة، لقد وجدتها في حفرة إلى جوار الطريق».

أشار إلى قطعتي الجلد وقال: «وهذين؟ هل وجدتهما في حفرة إلى جوار الطريق أيضاً؟».

قلت: «أجل، مع هذه»، وأشرت إلى المحفظة، وانتظرت أن يخرج مسدس السيد بوديتش ويسألني: «وماذا عن هذا؟ لقد وجدناه وسط العشب الطويل خارج البوابة الرئيسية». أيقنت أن هذا ما سيحدث.

ولكن بدل أن يضع المسدس أمامي مثل الساحر الذي يخرج الأرنب من القبعة، أمسك المحفظة ورماها عبر الغرفة وصرخ على أرون: «أخرج هذا القذر من هنا. لقد لوث بساطي، وكرسيي، وحتى الفنجان الذي استخدمه. أخرج هذا الكاذب القذر من مسكني».

لقد أسعدني خروجي من هناك.

الفصل الحادي والعشرون
بيلتس- المرهم- ليس هناك أي بقعة رمادية- أيام الزنزانة.

1

قادني أرون عبر ثلاثة أدراج إلى الأسفل بدل أن يعيدني إلى زنزانتي، ومشى خلفي يدفعني بعصاه بين الفينة والأخرى، وكان ذلك كريهاً ومهيناً، إذ بدا وأنه يقود بقرةً إلى الحظيرة. ومن حسن حظي أنه لم يقدني إلى المذبح على الأقل، لأنني الفرد الحادي والثلاثين في نهاية المطاف، وبالتالي أملك قيمةً معتبرةً. لمعت فكرة في ذهني حينها ولم أعرف سببها؛ وهي أن العدد

واحد وثلاثين أولي، أي يقبل القسمة على واحد والعدد نفسه فقط، على عكس العدد اثنين وثلاثين الذي يمكن تجزئته إلى عوامل أصغر منه.

مررنا بجوار أبواب كثيرة معظمها مُغلق، وأخرى مفتوحة بالكامل أو جزئياً، وقد عمَّ السكون خلفها. انتابني خلال رحلتنا شعور الهجر والخراب، وقد رأيت جنود الليل، ولم أتوقع أن ساكني القصر قليلون إلى هذا الحدّ. أجهل حتّى الآن وجهتنا. في النهاية، تناهى إلى مسامعي صوت صخب آليات وضربات مكتومة منتظمة تشبه نبضات القلب، وتيقنت حينها أننا في مكان أعمق من ديب مالين، إذ تباعدت مصابيح الغاز عن بعضها أكثر، ناهيك عن ارتعاش ضوء معظمها. ارتفع صوت الضربات، وارتفع أكثر منه صخب الآليات عند وصولنا إلى الدرج الثالث، واقتصر الضوء بمعظمه على هالة أرون الزرقاء. رفعت قبضتي كي أطرق الباب القابع في نهاية الدرج وبقوة أيضاً – حيث أردت تجنب جلدة أخرى على الجزء الخلفي من عنقي بواسطة العصا الكريهة.

قال أرون بصوته الغريب الذي يشوبه أزيز الحشرات: «لا، لا، افتحه فقط هذه المرة».

فتحت المزلاج الحديدي، ودفعت الباب فقابلني مقدار هائل من الصوت والحرارة، وحثني أرون على الدخول، فتصبب العرق من وجهي وذراعيّ مباشرةً، وأدركت أنني أقف على شرفة ذات سياج معدني يصل إلى مستوى خصري، وأمامي ما يشبه صالة رياضة في الجحيم؛ إذ احتوت الساحة الدائرية في الأسفل اثني عشر رجلاً وامرأةً رماديين على الأقل يمارسون المشي السريع على أجهزة المشي الرياضية، وقد لُفّ حبل مشنقة حول عنق كل واحد منهم، وراقبهم ثلاثة من جنود الليل المتكئين إلى الجدران الصخرية حاملين عصيهم المرنة، بينما اعتلى واحد آخر ما يشبه المنصة وضرب أسطوانة خشبية وكأنها طبل كبير، وقد رسمت عليها فراشات كبيرة دامية، ولكن لعل هذه الصورة غير صحيحة، إذ أشك في أن

الفراشات تنزف. انتصبت الآلة الصاخبة في الطرف المقابل تماماً وراء أجهزة المشي، وتألفت من المكابس وأحزمة المراوح، واهتزت في مكانها، وتدلى من السقف ضوء كهربائي واحد يشبه ما يستعمله الميكانيكيون من أجل فحص محركات السيارات التي يصلحونها.

تذكرت بعد رؤية هذا المشهد القوارب الحربية من فيلم بين هور، أحد أفلامي المفضلة التي شاهدتها على قناة تورنر كلاسيك موفيز؛ إذ كان الرجال والنساء هنا عبيداً مثل الرجال الذين جذفوا في القوارب. تعثرت إحدى النساء خلال وجودي هناك، فتشبثت بأطراف أصابعها إلى الحبل الذي خنقها قبل أن تستعيد توازنها، وراقبها اثنان من حراس الليل، ثمّ تبادلا النظرات وقهقها.

سألني أرون من الخلف: «هل ترغب أن تكون هنا أيها الصغير؟».

عجزت عن تحديد أي الأمور أكثر رعباً؛ السجناء الذين كان مشيهم السريع أقرب إلى الجري، أم الطريقة التي ضحك فيها الهيكلان العظميان من المرأة التي تعثرت وأوشكت أن تختنق، فأجبته: «لا، لا أريد ذلك».

تساءلت عن مقدار الطاقة التي تولدها هذه الآلة القديمة التي تديرها أجهزة المشي، لم أعتقد أنه كبير، فهي لا تزود بالكهرباء سوى مساكن لورد هاي، فقد انتشرت مصابيح الغاز البالية في سائر الأماكن.

«كم يجب أن...».

«تستمر المناوبة اثنتي عشرة ساعةً إلا إن اختنق أحدهم، ولذلك نضع بعضهم على مقاعد الاحتياط... حسناً، لقد ألقيت نظرةً أيها الصغير، وحان وقت الرحيل»، قال كلمةً مختلفةً عن ساعة، ولكن فهمت قصده كما حدث سابقاً، حيث كنت أسمع الإمبيسية وأتحدث بها، وأجيدها شيئاً فشيئاً رغم أنني لم أتقن بعد الألفاظ العامية ولكن سأصل إلى هذه المرحلة في النهاية.

صدقني، لقد أسعدني الخروج من هذا المكان، ولكن قبل أن أستدير، رأيت المرأة التي سقطت قبل قليل وهي تحدق إليّ، وقد تدلى شعرها في خصلات سميكة بللها العرق، ودفنت وجهها وسط البقع والنتوءات الرمادية دون بعض ملامحها التي كانت كافيةً كي ألاحظ يأسها.

هل أغضبني هذا المشهد كما حدث حين رأيت حورية البحر؟ لا أدري، إذ كنت غاضباً من كل شيء، لقد انحرفت الأمور عن مسارها، وأدى ذلك إلى احتجاز أشخاص في الزنزانات، وإجبار آخرين مرضى أن يركضوا على أجهزة المشي وحبال المشنقة حول رقابهم من أجل تشغيل المصابيح الكهربائية في مسكن لورد هاي وربما بعض المحظوظين الآخرين الذين ينتمي إليهم الرجل أو المخلوق المسؤول عن كل هذا: قاتل الرحلة.

قال أرون: «يجب أن تسعد لأنك من الكاملين، وإن لفترة قصيرة، إذ قد تندم على ذلك بعدها».

وجلدني مجدداً على مؤخر عنقي كي يؤكد وجهة نظره، فانفتح الجرح مجدداً.

2

وضع أحدهم بطانيةً قذرةً (كان حجمها عادياً بحسب ما أعتقد) في الزنزانة التي أتشاركها مع هامي، ولعله حارسنا/سجاننا بيرسي. عندما نفضتها تساقطت منها بعض حشرات القمل، ثمّ جلست عليها، بينما استلقى هامي على ظهره محدقاً إلى السقف، ولاحظت وجود خدش على جبهته، ودماء جافة أسفل أنفه، كما غطت الجروح ركبتيه، وجرت الدماء من أحدها إلى أسفل ساقه اليسرى.

سألته: «ماذا أصابك؟».

قال بصوت ضعيف: «إنه وقت اللعب».

قال فيرمي من الزنزانة المجاورة الذي أصيبت عينه: «ليس نداً من أجل هذه الأمور».

تابع ستوكس: «ولا مرةً واحدةً»، وامتلك الأخير كدمةً على صدغه من دون أي إصابة أخرى.

صاح آي من الطرف المقابل: «اصمتا، ساعداه، ودعاه وشأنه حتى ذلك الحين».

سكت فيرمي وستوكس، وجلس آي وظهره إلى جدار زنزانته عابساً ونظر إلى الأرض بين ركبتيه وتبيّن أنه تلقى ضربةً فوق إحدى عينيه، كما تصاعد الأنين وصرخات الألم المكتومة من الزنزانات الأخرى، بينما بكت إحدى المرأتين في هدوء.

انفتح الباب، ودخل بيرسي حاملاً دلواً يتأرجح من أحد مرفقيه، ثمّ وقف ونظر إلى مصباح الغاز الذي سقط عن الحائط، فوضع الدلو على الأرض، وثبت المصباح، ولكنه لم يقع هذه المرة، وأخرج عود ثقاب خشبياً من جيب ثوبه، ومرره على إحدى الحجارة في الجدار كي يشعله، وقرّبه من فتحة المصباح النحاسي حتّى أضاء مجدداً، وتوقعت أن يقول فيرمي شيئاً، ولكن بدا أن تعليقاته الطريفة قد نفدت منه.

تمتم فيرمي بضع كلمات غير مفهومة عبر الفوهة التي تسمح بمرور قطرة مياه والتي كانت فماً يوماً.

قال آي: «سآخذ قليلاً منه... وأعط الفتى الجديد أيضاً، إذ يحتاجها شريكه عديم الفائدة»، فأخرج فيرمي من الدلو قرصاً صغيراً وناوله إياه، وقد بدا ذلك مثل خمس سنتات خشبية كما في المثل الشعبي الذي يقول: «تجنب أخذ أيّ سنتات خشبية».

سألت: «هل هذا مرهم؟».

قال آيوتا: «وماذا تعتقد أنه بحق الجحيم؟»، وبدأ يدهنه على رقبته العريضة.

التفت إليّ بيرسي ولاحظت أنه تمتم شيئاً.

أعتقد أنه طلب مني أن أمد يدي، فأخرجتها من بين القضبان، وأعطاني أحد الأقراص الخشبية الذي احتوى مادة كريهة الرائحة.

قلت: «شكراً لك يا بيرسي».

نظر إليّ وبدا أنه مذهول، إذ لعلها المرة الأولى التي يشكره أحد فيها ضمن ديب مالين على الأقل.

جلست قرب هامي، وسألته عن مكان الألم.

أجابني: «كل جسدي يؤلمني»، وحاول الابتسام.

«ما هو المكان الذي يؤلمه أكثر من غيره؟».

تنقل بيرسي في هذه الأثناء بين الزنزانات في الممر والدلو يتأرجح من مرفقه ويقول ما أظن أنه: «مرهم، هل تريد مرهماً؟».

«ركبتاي، وكتفاي، ويتركز الألم في أمعائي طبعاً، ولكن لا مرهم يستطيع مداواتها».

لهث عندما فركت المرهم على جروح ركبتيه، ولكنه تنهد مرتاحاً عندما دلكت باطنهما وكتفيه؛ إذ تلقيت شخصياً (وأجريت) عمليات تدليك بعد المباريات في موسم كرة القدم، وأعلم تماماً أين أضغط.

قال: «هذا جيد، شكراً لك».

لقد كان متسخاً قليلاً مقارنة بي، وتذكّرت مباشرةً كيف صرخ كيلين مذعوراً: «أخرج هذا القذر من هنا»، وهذا ما كنت عليه تماماً، ويعود ذلك

إلى نشاطي الدائم خلال إقامتي المؤقتة في إمبيس، انطلاقاً من الاستلقاء وسط طين المقبرة وحتى رحلتي الأخيرة إلى بيلتس التي تشبه الحمام البخاري.

«أظن أن هذا المكان يخلو من الحمامات، أليس كذلك؟».

«أجل، لقد احتوت غرف الفرق سابقاً صنابير مياه تعود إلى زمان إقامة مباريات حقيقية، أما الآن فلا يوجد شيء سوى الدلاء التي تحتوي مياهاً باردةً، ولكن... آخ».

«أنا آسف، ولكن الكدمات تُغطي الجهة الخلفية من عنقك».

«تستطيع أخذ حمام وضيعة – هكذا نسميه – بعد وقت اللعب التالي، ولكن يجب أن تتعايش مع الأمر الآن».

«يبدو من مظهركم أنكم خضتم معركةً قاسيةً، فالجراح تغطيكم جميعاً بمن فيكم آي».

قال ستوكس: «ستكتشف ذلك بنفسك».

أضاف فيرمي: «ولكنك ستكره الأمر».

سعل أحدهم في نهاية الممر، فصرخت إحدى المرأتين: «غطِ فمك يا دومي، لا يريد أحد أن يصاب بالعدوى».

واستمر السعال.

3

في وقت لاحق، عاد بيرسي يدفع عربة تضم قطع الدجاج المطهو جزئياً، وألقاها في الزنزانات. تناولت قطعتي ونصف قطعة هامي، ورأيت آي على الطرف المقابل يرمي العظام في حفرة المرحاض ويصرخ: «اصمتوا جميعاً. أريد أن أنام».

ولكن بالرغم مما قاله، دارت بعد تناول الطعام أحاديث بين الزنزانات، ثمّ خفتت الهمسات حتّى خيّم السكون تماماً، ولذلك اعتقدت أن قطع الدجاج هي العشاء، وأن الوقت ليلاً، ولكن لم تكن لديّ طريقة للتأكد من ذلك؛ إذ خيّم الظلام الدامس فقط وراء نافذتنا ذات القضبان. تناولنا قطع الدجاج تارةً وشرائح اللحم تارةً أخرى، وأحياناً فيليه السمك كثيرة العظام، ولكن لم يكن هناك تحلية، أو بعبارة أخرى، أشياء يعجز بيرسي عن رميها بين القضبان، وقد كان اللحم جيداً مقابل ما تناولت اليرقات منه والذي توقعت الحصول عليه في الزنزانة. لقد أرادوا إبقاءنا في صحة جيدة، وكنا كذلك باستثناء دومي الذي عانى من مشكلة في جهازه التنفسي، وهامي الذي عجز عن تناول الطعام كثيراً لأنه يؤلم أمعاءه.

واظبت مصابيح الغاز القليلة جداً على نثر ضوئها ليل نهار، ولكن الغسق كان يخيّم على ديب مالين معظم الوقت، وهذا ما حيرني وأشعرني بالكآبة، وبالتالي إذا فرضت أنني أعلم موعد قدومي إلى هنا (ولكن لست كذلك)، فأنا خسرت الآن القدرة على تحديد الوقت خلال أيام إقامتي الثلاث الأولى على الأكثر.

ما زال الألم حيث لسعتني عصا أرون المرنة، فوضعت بقايا المرهم على رقبتي ووجهي، وهذا ساعدني قليلاً، وتساقطت كتل الأوساخ مني. غفوت في لحظة، وراودني حلم عن رادار، كانت قويةً وشابة وتقفز إلى جواري بين فوج فراشات برتقالية وسوداء، ثمّ استيقظت فجأةً وسط صمت الزنزانات، الذي قاطعته أصوات الشخير وإطلاق الغازات المعتادة، إضافةً إلى سعال دومي. نهضت وشربت الماء من الدلو، وانتبهت أن أضع إصبعي حيث الثقب في قعر الكوب القصديري، وعندما التفت كي أعود إلى بطانيتي، وجدت هامي يحدق إليّ، وقد بدت الدوائر المنتفخة تحت عينيه مثل الكدمات.

«لست مضطراً أن تحميني، لا أريد ذلك، سأواجه مصيري أياً كان، فهم يقذفونني كالكرة وما زلنا في وقت اللعب. ماذا سيحدث عندما يقام فير ون؟».

«لا أدري». فكرت في سؤاله ما هو فير ون، ولكن أعلم أنه مسابقة ما في رياضة دامية، مثل المبارزة ضمن القفص، سبق لي أن لاحظت إمكانية تقسيم العدد اثنين وثلاثين إلى ثنائيات، وليس وقت اللعب سوى تمرين وفترة تحضيرية قبل الحدث الرئيسي، ولكن ينتابني الفضول أكثر حول شيء آخر.

«لقد التقيت رجلاً وفتىً خلال طريقي إلى ليليمار، وكانا رماديين كما تعلم».

قال هامي: «لقد أصبح معظم الناس على هذه الحال منذ عودة قاتل الرحلة من البئر المظلمة»، وابتسم بمرارة.

هناك أمور كثيرة تخفيها هذه الكلمات، وأردت أن أسمعها، ولكن التزمت قصة الرجل الرمادي الذي كان يمشي على عكازه، وقلت: «لقد جاءا من سيفرونت...».

همس هامي من دون أن يبدو مهتماً: «وأين هما الآن؟».

«التزم الرجل الصمت، ولكن ناداني بدايةً بالرجل الكامل...».

«ألست كذلك؟ أعلم أن القذارة تغطيك تماماً، ولكن لا أثراً رمادياً عليك».

ثم قال: «مَن عاشرت أمّك حتّى أتى وجهك جميلاً هكذا؟. هل تعلم معنى ذلك؟».

اتسعت عينا هامي، وجلس محدقاً إليّ، وقال: «أخبرني بحق الفراشات البرتقالية التي حلقت يوماً، من أين أتيت؟».

نخر آي من الطرف المقابل وبدّل وضعية نومه.

«هل تعلم معناها أم لا؟».

تنهد وقال: «لقد حكم أفراد أسرة غالين إمبيس منذ الأزل، أنت تعلم ذلك، أليس كذلك؟».

أشرت بيدي إليه كي يكمل كلامه.

«حكموها آلاف وآلاف السنوات».

لقد حدثت الترجمة التلقائية مجدداً، وكأنني أملك لغتين في دماغي منسجمتين معاً وكأنهما واحدة.

قال هامي: «ويمكن القول إنهم ما زالوا كذلك، حيث يتصرف قاتل الرحلة وفق طبيعته فحسب... إن فرضنا أنه ما زال كذلك ولم يتحول إلى إحدى مخلوقات البئر المظلمة... ولكن... ما الذي كنت أقوله؟».

«أفراد أسرة غالين».

«لقد توفوا جميعاً وانتهت سلالتهم... رغم أن قلةً منهم على قيد الحياة الآن...».

لقد علمت ذلك لأنني التقيت ثلاثاً منهم، ولكن أردت كتمان ذلك عن هامي.

«عاش جدي في ظل سلطة أسرة غالين، لقد كان رجالهم ونساؤهم شقراً، مثل الفراشات الكبيرة التي قضى قاتل الرحلة عليها تماماً».

حسناً، لم يقضِ عليها كلها، ولكن أردت إخفاء هذا الأمر أيضاً.

«كما تملكتهم الشهوانية كثيراً، أنت تعلم معنى هذه الكلمة، أليس كذلك؟»، وابتسم كاشفاً عن أسنانه البيضاء الصحية التي استغربت وجودها وسط وجهه الشاحب.

«أجل».

«لقد عاشر رجال العائلة نساءً كثر، ليس ضمن حدود ليليمار أو سيتادل فقط، بل في سيفرونت... وديسك... وأولوم، وصولاً إلى غرين إيزليس الأبعد منها حتى... كما خاضت النساء مغامرات سريةً صغيرةً أيضاً... إذ قيل رجال شهوانيون، ونساء شهوانيات، واغتصاب ثمين، حيث سعد بعض العامة في معاشرة بعض ممن تسري في عروقهم دماء ملكية، وأنت تعلم نتيجة هذا النوع من اللهو، أليس كذلك؟».

قلت: «أطفال».

«أجل، هذا صحيح يا تشارلي. تحمينا تلك الدماء من اللون الرمادي، ولعل أميراً أو أحد رجال الحاشية أو حتّى الملك نفسه قد عاشر جدتي الكبرى، أو حتّى والدتي.. إذ أنني هنا دون بقعة رمادية واحدة، وكذلك آي عظيم الجسد، ودومي، وتوم الأسود... وستوكس وفيرمي... وجايا وإيريس... ودوبل... وبولت... ودوك وفريد... والبقية جميعاً وأنت منهم، ولكنك تجهل كل هذه الأمور، وهذا ما يجعلني أتساءل..».

همست: «ما الذي يدور في ذهنك؟».

قال: «لا شيء، ولكن فكّر مرتين قبل تنظيف نفسك»، واستلقى واضعاً إحدى ذراعيه النحيلتين فوق عينيه التي بدا أن الكدمات تحيط بهما.

صرخ من نهاية الممر وبصوت أجش شخص يدعونه غالي: «هناك شخص يحاول النوم هنا».

أغمض هامي عينيه.

4

استلقيت ولم أنم وقارنت بين العنصرية وفكرة أن ما يدعونهم الأشخاص الكاملين محصنون ضد اللون الرمادي، حيث يشبه الأمر عقلية المتعصبين الأغبياء الذين يقولون إن البيض أذكى فطرياً من السود. لقد آمنت – كما قلت مسبقاً – أن ذوي الدماء الملكية المزعومة بشر عاديون مثل تلك المخلوقات المسكينة التي تتعرق على بيلتس من أجل الحفاظ على مصابيح لورد هاي مضاءةً.

لكن توجد أمور وراثية كي نضعها في عين الاعتبار، أليس كذلك؟ إذ ربما يجهلها شعب إمبيس، ولكنني أدرك العواقب المترتبة على التزاوج السيئ الذي مارسته العائلات الملكية، مثل ظهور داء الناعور[31]، لقد تعلمت هذه الأشياء من صف التثقيف الجنسي في الصف الثامن، وبالتالي ألا توجد شيفرة وراثية تؤمن الحصانة ضد هذا التشوه الرمادي؟

أعتقد أن الحاكم في العالم الطبيعي سيلجأ إلى حماية هؤلاء الناس، على عكس نظيره هنا الذي يريد قتلهم – فلم يكن اسم قاتل الرحلة يمنحك إحساس السلامة والأمان، ولعل الناس الرماديين يعيشون فترةً قصيرةً فقط، حيث ما أصابهم مرتبط بداء أو لعنةً، وبالتالي من سيبقى في النهاية سوى جنود الليل؟ هل يملك قاتل الرحلة كادراً من الأتباع المحميين؟ إن كان ذلك صحيحاً، من سيحكمون بعد إبادة الكاملين ووفاة الرماديين؟ ما هي الحلقة الأخيرة من خطتهم؟ وهل توجد واحدة أساساً؟

يوجد شيء آخر: لقد ذكر هامي إن سلالة غالين حكمت إمبيس منذ الأزل ولكن سلالتهم انتهت، ثمّ بدا أنه يناقض نفسه عندما قال إن بعضاً منهم لا يزال على قيد الحياة. هل يقصد أن قاتل الرحلة من هذه السلالة؟ مثل رواية غيم أوف ثرونز؟ توجد قطعة ناقصة من القصة، حيث أخبرتني ليا (عبر فرسها طبعاً) إن المنيّة قد وافت أخواتها الأربع وشقيقيها، وكذلك والديها اللذين يحتمل أنهما الملك والملكة، وبالتالي من بقي؟ بضعة أوغاد

مثل جون سنو في رواية صراع العروش؟ أم أحد الناسكين المجانين الذي يقطن في مكان ما من الغابة؟

نهضت واتجهت إلى قضبان الزنزانة، ورأيت جايا تقف مثلي في زنزانتها، وقد ربطت ضمادة حول جبهتها، وتسللت منها قطرة دم فوق عينها اليسرى. همست: «هل أنت بخير؟».

«أجل، ولكن يجب أن نلزم الصمت يا تشارلي، إنه وقت النوم».

«أعلم، ولكن... متى انتشر الداء الرمادي؟ وكم مضى على تقلد قاتل الرحلة الحكم؟».

فكّرت في السؤال، وأخيراً قالت: «لا أدري، إذ كنت فتاةً صغيرةً في سيتادل عندما بدأ كل هذا».

كانت إجابةً عديمة الفائدة، إذ تعني كلمة صغيرة سن السادسة، أو الثانية عشرة، أو الثامنة عشرة حتّى، ولكن اعتقدتُ أن بداية الداء الرمادي وسيطرة قاتل الرحلة على البلاد حدثتا قبل اثني عشر أو أربعة عشر عاماً، وذلك اعتماداً على شيء قاله السيد بوديتش: «يُقدم الجبناء الهدايا»، وكأنه شهد ما حدث، وأعطى معارفه بعض الأشياء، وحصل على قدر كبير من قطع الذهب، ولاذ بالفرار، وكذلك أخبرتني دورا أمراً، وهو أنها التقت السيد بوديتش آخر مرة عندما كانت رادار جرواً، وبالتالي كانت اللعنة موجودة على الأرجح، وما يضحك في الأمر أنني أجهل إن كانت سنوات إمبيس مثل السنوات التي أعرفها.

قالت جايا: «اخلد إلى النوم يا تشارلي، إنه خيارنا الوحيد الآن»، ثمّ بدأت تلتفت كي تعود إلى الداخل.

«انتظري يا جايا.. أخبريني، هل تعرفين هوية قاتل الرحلة قبل أن يتحول إلى ما هو عليه الآن؟»، سمعت آيوتا يشخر حينها، ثمّ رأيته يبدل

وضعية نومه.

قالت: «كان إلدن، إلدن غالين».

عدت واستلقيت على بطانيتي، وفكرت في اسم إلدن، إذ سمعته مسبقاً حين أخبرتني الفرس فالادا نيابةً عن سيدتها أن الأخيرة تملك أربع أخوات وشقيقين، وأنها رأت جسد أخاها روبرت المسكين بعد أن سحق، بينما توفي الآخر، دون أن تذكر كيف حدث ذلك، أو ترى جثته، وقد أحسن إليها دوماً. هكذا قالت فالادا، أي ليا نفسها.

كان إلدن شقيقها الآخر.

5

مرت ثلاثة أيام، واستنتجت ذلك لأن بيرسي جاء تسع مرات يدفع عربة اللحم غير الناضج تماماً، ولكن ربما مضت فترة أطول، يستحيل التأكد من ذلك وسط ضوء الغسق الذي تنثره المصابيح الغازية في ديب مالين. حاولت خلال ذلك الوقت جمع القطع الناقصة من تاريخ سقوط إمبيس، أو نهوض قاتل الرحلة، أو ولادة اللعنة، وبدا أمراً غبياً وسط بعض المعلومات التي أعرفها، ولكنه ساعدني على أن أمضي الوقت وإن قليلاً، وهذا ما كان في جعبتي:

تقول إحدى المعلومات: تحدّث السيد بوديتش عن مكان حيث يبزغ قمران في الليل ولا توجد مجموعات نجمية كالتي اكتشفها فلكيو الأرض، وقد لمحت بضع نجوم مسبقاً فقط، باستثناء تلك البقعة الزرقاء العابرة التي ظهرت خلال اقترابي من الساعة الشمسية، إذ غطت الغيوم سماء إمبيس معظم الأوقات، ولو حالياً على الأقل.

تقول معلومة أخرى: غاب ذكر هانا عن حديث السيد بوديتش تماماً، وأعتقد أنه كان سيخبرني عنها، ولكن سمعت عن العملاقة للمرة الأولى عند

زيارتي «غوغر».

تركز اهتمامي على القصاصة الثالثة التي احتوت توقعات كثيرةً، حيث تحدّث السيد بوديتش عن الأشياء المحتمل حدوثها إذا اكتشف الناس من عالمنا الطريق إلى إمبيس حيث الثروات التي لم تمسها الأيدي، وليس الذهب سوى أحدها، وقال قبل إدراكه أن ذبحة قلبيةً تصيبه: «هل سيخافون (يقصد أولئك الناهبين من عالمنا) إيقاظ الإله الفظيع لذلك العالم من رقاده الطويل؟».

يؤكد الشريط سوء الأحوال في إمبيس خلال زيارة السيد بوديتش الأخيرة، رغم غياب هانا حينها عن موقعها الحالي، ولكن كانت مدينة ليليمار مهجورةً وتعج بالمخاطر، وخاصةً ليلاً. هل يقصد أنه أدرك ذلك من تجربته الشخصية، مثل حملته الأخيرة كي يجلب ذهباً أكثر، أو لعله سمع الخبر من مصادر موثوقة؟ ربما من وودي؟ أعتقد أنه جاء مرةً أخيرةً من أجل الذهب عند غياب هانا عن هنا.

لقد بنيت برج فرضيات على هذا الأساس الهش: كانت زيارة السيد بوديتش الأخيرة إلى هذا المكان في ظل حكم ملك غالين (المدعو جان ربما) والملكة (مجهولة الاسم) واللذان نحيا عن العرش، وقتل خمسة من أبنائهم السبعة على الأقل، إذ فرت ليا برفقة كلاوديا و وودي، وادعت ليا أن شقيقها إلدن ميت أيضاً، وقد وضحت تماماً أنها أحبته أكثر من أي شخص آخر (لقد قالت الفرس ذلك، هذا مضحك). ألا تُفضل ليا أن يكون شقيقها ميت بدل أن يكون قاتل الرحلة؟ وهل سترغب أيّ أخت في تصديق أن شقيقها المحبوب تحول إلى وحش؟

أليس ممكناً أن إلدن فرّ من عملية التطهير – إن كان هذا فحواها – وأيقظ الإله الفظيع في ذلك المكان من رقاده؟ اعتقدت أن هذا التفسير هو

الأكثر واقعيةً بين فرضياتي نظراً إلى شيء قاله هامي: «منذ أن عاد قاتل الرحلة من البئر المظلمة».

لعله مجرد أسطورة فارغة، ولكن ماذا لو كان حقيقةً؟ وأن شقيق ليا ذهب إلى أعماق البئر المظلمة (التي عبرت واحداً منها كي أصل إلى هنا) إما هروباً من التطهير أو عمداً؟ وماذا إن نزل إلى هناك بصفته إلدن وعاد متقمصاً شخصية قاتل الرحلة؟ ولعل إله البئر المظلمة يتحكم بإلدن، أو يملكه. إنها فكرة مروّعة، ولكنها منطقية بعض الشيء، وذلك اعتماداً على كيفية سحقه البطيء والمؤلم للجميع سواء كانوا رماديين أم كاملين.

قليلة هي الأمور غير القابلة للتفسير مقابل تلك التي احتلت مكانها الصحيح في الأحجية، وكما سبق لي أن قلت، مرّ الوقت سريعاً بفضلها.

ولكن فشلت في الإجابة عن سؤال واحد فقط: ما الذي يمكن فعله حيال ذلك؟

6

تعرفت قليلاً إلى رفاقي في السجن، ولكن من دون الوصول إلى ما يمكن تسميته علاقات جادة، نظراً إلى احتجازنا في زنزاناتنا دوماً، وقد كان فيرمي وستوكس الثنائي المضحك، وقد اندهشا من خفة دمهما (أو ما يفعلانه) أكثر من أي شخص آخر، بمن فيهم أنا. كان جسد دومي ضخماً، وعانى من سعال قاتل، والذي يصبح أكثر سوءاً عندما يستلقي، أما الرجل الأسود الآخر المدعو توم فكان جسده أصغر من دومي، ولكن صوته عذب ونغمته موسيقية، ولم يستطع أحد سوى إيريك إقناعه بالغناء، وروت إحدى أغنياته قصةً أعرفها عن فتاة صغيرة تذهب كي تزور جدتها فتجد ذئباً يرتدي ملابس نومها. أذكر أنه كان لقصة ذات الرداء الأحمر نهايةً سعيدةً، على عكس نسخة توم التي اختتمها بيت شعر حزين: لقد هربت، ولكن الذئب أمسكها، وضاع جهدها سدى.

بدا أن النهايات السعيدة قليلة في ديب مالين.

في اليوم الثالث، بدأت أفهم معنى جنون الاحتجاز، إذ لعل زملائي في السجن أفراد كاملون، ولكن ليسوا مرشحين كي ينضموا إلى منسا[32]، وقد تبينت أن جايا ذكية جداً، إضافةً إلى شخص يدعى جاكاه الذي يمتلك مخزوناً لا ينضب من الأحجيات، وأي كلام خلاف ذلك مجرد ثرثرة عابرة.

مارست تمارين الضغط كي أحافظ على تدفق الدماء في عروقي، إضافةً إلى القرفصاء والجري في المكان.

ذات مرة قال آي: «انظروا إلى الأمير الصغير كيف يستعرض قدراته». كان آيوتا شخصاً مخبولاً، ولكن حاولت أن أحب جانباً فيه؛ فهو يشبه بطريقة ما صديقي القديم بريتي بيرد، فهو صريح تماماً حيال جنونه، ولطالما أحببت الأشخاص الذين يجيدون التعليقات المهينة، وصحيح أن آيوتا ليس أفضلهم، ولكن لا بأس به، وقد استمتعت بإثارة غضبه.

رفعت راحتي يدي إلى صدري، ثمّ ضربت ركبتي بهما وقلت: «انظر إلى هذه الحركة يا آي، حاول تجربتها».

«هل تريدني أن أشد عضلاتي فتتشنج أو تتمزق؟ سيعجبك هذا الأمر، أليس كذلك؟ وبالتالي تستطيع الإفلات مني عند إقامة فير ون».

قلت: «لن يقام هذه المرة، وسنبقى واحداً وثلاثين شخصاً على حالنا، إذ نفد الأفراد الكاملون من جعبة قاتل الرحلة، هيّا دعنا نرَك تفعل هذه الحركة»، رفعت يديّ إلى ذقني تقريباً، وواظبت على ضرب ركبتي إليهما، وساندني جسدي أمام الألم حينها، وإن قليلاً.

قال بيرند: «تابع ما تفعله وستمزق مؤخرتك إلى نصفين»، كان أكبرنا سناً، وأصلع تقريباً باستثناء بعض الشعرات الرمادية.

لقد أضحكني ذلك وأرغمني على التوقف، وكذلك هامي الذي كان مستلقياً على سريره.

قال آي: «يجب أن نحصل على الفرد الثاني والثلاثين، وإلا سيقحمون ريد مولي في الأمر، إذ أوشكت أن تعود من كراتشي، ويعجز قاتل الرحلة أن ينتظر أكثر كي يستمتع».

قال فيرمي: «ليس هي!».

صاح ستوكس: «إياك أن تقول ذلك!»، وقد اعتلت ملامح ذعر متطابقة وجهيهما.

قال آي: «لقد قلته، إنها كاملة، أليس كذلك؟ رغم أن والدتها الجامحة الضخمة قبيحة جداً»، وقفز إلى قضبان زنزانته مجدداً وأخذ يهزها، إذ كان ذلك نمط التمرين الذي يحبه.

لمعت في ذهني فكرة مريعة، وقلت: «مهلاً، هل تقول إن والدتها...».

قال هامي: «أجل، إنها هانا، حارسة الخزينة والساعة الشمسية، ويعني وصولك إلى الأخيرة أن هانا تتقاعس في أداء واجبها، وسيزعج ذلك قاتل الرحلة».

لقد تشتت انتباهي تماماً، حيث أدهشني امتلاك هانا ابنةً، ولعل ذلك بسبب عجزي عن تخيل الشخص الذي عاشرها.

«وهل ريد مولي... كما تعلم، عملاقة أيضاً؟».

قال أميت من نهاية الممر: «إنها كبيرة ولكن أصغر من والدتها، وتزور أقرباءها في كراتشي، أو أرض العمالقة، وستعود وتسحقك مثل عود خشبي رفيع، ولكنني سريع وهي بطيئة، لذلك سأفلت منها. إليك أحجيةً يجهلها جاكاه: أنا طويلة في شبابي وقصيرة عندما أتقدم في السن، من أكون؟».

قال جاكاه: «إنها الشمعة، يعرف الجميع ذلك أيها الغبي».

قلت من دون تفكير: «جاءت شمعة كي تقودك إلى سريرك، وفأس كي تقطع رأسك» – كلمات من أغنية تدعى أورانجز أند ليمونز، ويقال إن الشطر الأول يشير إلى مصير المساجين الوشيك، والشطر الثاني إلى مرحلة الإعدام.

عمّ الصمت، ثمّ سأل آي: «أين سمعت هذه الكلمات بحق الآلهة؟».

«لا أدري، أعتقد أن والدتي غنتها من أجلي في طفولتي».

«يعني ذلك أن والدتك غريبة الأطوار، إياك وذكرها مجدداً، إنها سيئة».

تعالى صوت سعال دومي من آخر الممر البارد الرطب في ديب مالين.

7

بعد يومين أو ثلاثة –أعتقد أن الوقت يتوقف داخل الزنزانة – دخل بيرسي كي يرمي الفطور إلينا، والذي كان فطوراً حقاً؛ إذ تضمن سلاسل النقانق التي احتوت كل منها تسع قطع أو عشر قطع، فألقاها بين القضبان، فالتقطت خاصتي في الهواء، بينما ترك هامي سلسلته تسقط على الأرض القذرة قبل أن يأخذها ويمسح الأوساخ عنها بهدوء، ثمّ يحدق إليها قليلاً، ويرميها على الأرض مجدداً، تشبه تصرفاته ما فعلته رادار عندما كانت عجوزاً تُحتضر. عاد إلى سريره، وضم ركبتيه إلى صدره، ونظر إلى الحائط، بينما جلس آي القرفصاء قرب قضبان زنزانته والتهم سلسلته من منتصفها إلى طرفيها ذهاباً وإياباً وكأنه يتناول كوز ذرة، ولمعت العصارة حول فمه وعلى لحيته.

قلت: «هيّا يا هامي، جرّب واحدةً على الأقل».

قال ستوكس: «ارمها إلينا إن لم يردها».

تابع فيرمي: «سنجهز عليها سريعاً جداً».

استدار هامي وجلس، ثمّ سحب سلسلة النقانق إلى حضنه، ونظر إليّ وسأل: «هل يجب عليّ فعل ذلك؟».

قال آي الذي بقي لديه قطعتين فقط على طرفي السلسلة: «أجل يا عديم الفائدة، أنت تعلم معنى حصولنا على هذا الطعام».

أصبحت النقانق باردةً، وكان اللحم في وسط القطع نيئاً، ذكّرني ذلك بقصة قرأتها على الإنترنت عن شاب دخل المستشفى لأنه يشكو من آلام بطنية، وأظهرت صورة الأشعة السينية وجود دودة شريطية ضخمة في أمعائه، والتي أصابته نتيجة تناول اللحم غير المطبوخ جيداً، فحاولت نسيان ذلك (رغم استحالة الأمر) وبدأت الأكل وقد راودتني فكرة جيدة عن معنى تقديم النقانق على الفطور؛ أي أن وقت اللعب المميت هو التالي.

عاد بيرسي أدراجه عبر الممر، فشكرته مجدداً، فتوقف وأشار بإحدى يديه الذائبتين كي أقترب. ذهبت إلى القضبان، فهمس لي بكلمات غير مفهومة بصوته الأجش الصادر من فمه الدائري.

هززت رأسي وقلت: «أنا لا أفهـ..».

كرر العبارة نفسها، ثمّ تابع طريقه يجر عربته الفارغة وراءه، وأغلق الباب ومعه الأقفال الأربعة. التفتت إلى هامي الذي تناول إحدى قطع النقانق، ولكنه تقيأها مباشرةً وبصقها في يده، ثمّ نهض ورماها في حفرة المرحاض.

قلت: «لا أعرف ما قاله بيرسي».

أحضر هامي كوبنا ومسحه بما بقي من سترته مثل رجل يلمّع تفاحةً، ثمّ جلس على سريره وقال: «تعال إلى هنا... واجلس من دون حراك»، وربت البطانية، ففعلت مثله.

التفت حوله؛ تراجع فيرمي وستوكس إلى الجزء البعيد من زنزانتهما الصغيرة المزرية، بينما انشغل آيوتا في تناول قطعة النقانق الأخيرة ببطء كي تدوم لأطول فترة ممكنة، وكذلك تعالت أصوات المضغ والطقطقة والتجشؤ من الزنزانات الأخرى. قرر هامي أننا غير مراقبين، فباعد بين أصابعه – إثر امتلاكه يدين لا زعانف لها لأنه شخص كامل – ومررها في شعري، فتراجعت قليلاً.

«اهدأ يا تشارلي، اثبت في مكانك».

فرك فروة رأسي وشد شعري كي تتساقط كتل من الأوساخ على الأرض، لم يبدُ لي الأمر محرجاً (ستخسر الجانب الجميل من شخصيتك إن قضيت بضعة أيام تقضي حاجتك في حفرة داخل هذه الزنزانة)، ومع ذلك، فقد أدهشني مقدار الأوساخ التي غطتني، إذ شعرت أنني مثل بيغ بين صديق تشارلي براون[33].

حمل هامي الكوب القصديري كي أستطيع رؤية انعكاس وجهي، كما يفعل الحلاق الذي يضع أمامك المرآة ليريك قصة شعرك الجديدة، باستثناء أن الكوب كان منبعجاً ومنحنياً، وبالتالي بدا الأمر وكأنني أنظر إلى المرآة في منزل المرح، حيث كان أحد نصفي وجهي أكبر من الآخر.

«هل ترى؟».

«ماذا يجب أن أرى؟».

أمال الكوب قليلاً كي ألاحظ أن مقدم شعري حيث أزال هامي الأوساخ قد استحال لونه أشقر بدلاً من البني رغم أنني في هذا المكان من دون خيط من أشعة الشمس، فأخذت الكوب وقرّبته إلى وجهي، لقد صعب عليّ التأكد من ذلك، ولكن تبين أن لون عيني قد تغير أيضاً من البني الداكن إلى الفاتح.

أمسك هامي مؤخر عنقي وشدني قريباً من فمه وهمس: «لقد قال بيرسي لا تغسل شعرك».

ابتعدت عنه، فحدق إليّ وقد اتسعت عيناه البنيتان؛ مثل لون عيني السابق. وشدني إليه مجدداً.

«هل أنت الأمير الحقيقي؟ الذي جاء كي ينقذنا؟».

8

سمعت صوت أقفال الباب تنفتح قبل أن أجيب، ولكن لم يكن بيرسي هو من أتى، بل أربعةً من جنود الليل يحملون عصيهم المرنة، وتقدم اثنان منهما فاتحين أذرعهم كي تنفتح بوابات الزنزانات على الجانبين بدورها مصدرةً صوتاً قوياً، وصاح أحدهما بصوته الغريب: «هيّا إلى اللعب أيها الصغار. حان وقت اللعب».

غادرنا الزنزانات، واتجهنا جميعاً إلى اليسار – بينما سلكت الاتجاه الأيمن حين أخذني آرون والذي غاب عن هذه المجموعة المخيفة – واصطففنا في خط مزدوج، وبقيت وحدي دون شريك إلى جواري، حيث مشى حارسا الليل الآخرين خلفي. في البداية، اعتقدت أنني أتخيل صوت فرقعة خفيفة مثل التي يصدرها تيار كهربائي ضعيف، وذلك اعتماداً على المرات السابقة التي لمستني فيها هالة هذه المخلوقات المخيفة والتي تبقيهم أحياء، ولكنها لم تكن كذلك، بل كان حراس الليل أحياءً أموات كهربائيين، وفكرت حينها أن هذا الاسم – الأحياء الأموات الكهربائيون – مناسب تماماً من أجل فرقة موسيقية تعزف موسيقى الميتال الصاخبة.

مشى هامي إلى جوار آيوتا الذي دفع بكتفه شريك زنزانتي النحيل باستمرار فجعله يتعثر، وأردت أن أصرخ كف عن ذلك، ولكنني قلت: «هلّا توقفت؟».

التفت آي وابتسم إليّ قائلاً: «ومن أعطاك السلطة عليّ؟».

قلت: «لماذا تضايق أحد أصدقائك في هذا المكان القذر؟».

بدا أنني شخص مختلف تماماً عن تشارلي ريد الذي كان سيقول: توقف عن العبث أيها الأحمق بدل ما نطقت به للتو، ولكن ما زلت أنا. استبدل آيوتا ابتسامته بنظرة تأمل وحيرة، وأدى تحيةً بريطانيةً؛ وضع ظهر إحدى يديه الكبيرتين إلى جبهته المنخفضة، وقال: «حاضر يا سيدي، ولكن سنرى كم ستأمرني حين تملأ الأوساخ فمك».

ثم التفت إلى الأمام مجدداً.

الفصل الثاني والعشرون
ساحة اللعب- أميت- الاغتسال- صابونة المبولة- مصابيح الغاز.

1

صعدنا السلالم بالطبع، إذ يغدو ذلك جزءاً من حياتك عندما تسجن في ديب مالين، ولكن هامي شعر بصعوبة في التنفس بعد عشر دقائق، فأمسك آي ذراعه، وجذبه نحوه قائلاً: «أسرع هيّا أسرع يا عديم الفائدة، وإلا سيوبخك والدك».

بلغنا أعلى الدرج حيث كانت المساحة واسعة والأبواب مزدوجة، وتقدم أحد الجنديين اللذين قادا هذا الموكب المتهالك، ورفع يده برفق أمام الباب الذي انفتح مباشرةً، كاشفاً عن مكان مختلف، وأكثر نظافةً؛ ظهر خلفه ممر أبيض الأرضية عُلّقت على جدرانه مصابيح غاز لامعة براقة، وامتد صعوداً. مشينا في الضوء الساطع غير المعتاد (الذي دفعنا إلى إغماض أعيننا)، وبدأت أشم رائحة شيء أعرفه من خبرتي في غرف تبديل الملابس: إنه الكلور التي يحتويه صابون المباول والمواد المستخدمة في حمامات تعقيم القدمين.

هل أدركت حينها تماماً معنى وقت اللعب؟ بالطبع، وهل فهمت ماهية الـفير ون؟ أجل. اقتصرت نشاطاتنا في الزنزانات على تناول الطعام، والنوم، وتبادل الأحاديث، وقد انتبهت إلى أسئلتي كي أحافظ على كذبة انتمائي إلى مجتمع ديني من أولوم، واستمعت إلى الآخرين أكثر من التحدث إليهم. لا أزال وسط دهشتي من هذا الممر الصاعد، والذي كأنه في منشأةً رياضيةً متطورةً ومجهزةً تماماً في إحدى الجامعات التي تولي الرياضة اهتماماً كبيراً. لقد دُمرت ليليمار تماماً، وكذلك إمبيس كلها، ولكن بدا هذا الممر رائعاً، وفكّرت في أنه ربما يؤدي إلى مكان مثله وربما أروع، وأصبت في ذلك.

بدأنا نعبر الأبواب التي عُلّق مصباح غازي أعلى كل واحد منها، وكتب على الأبواب الثلاث الأولى كلمة الفِرق، وعلى الرابع كلمة المعدات، بينما كُتبت كلمة موظفين على الباب الخامس، وما إن عبرته (وما زلت وحيداً في نهاية الصف) حتّى لمحت أن كلمة موظفين تحولت إلى شبكة من الرموز القديمة التي تشبه ما كتب على رخصة قيادة بولي حين أراني إياها كيلين. التفت إلى الخلف بما يكفي لأتأكّد أنّ الكلمة عادت إلى شكلها الطبيعي، فأصابتني جلدة من العصا المرنة على كتفي، لم تكن قويةً جداً، ولكن تكفي كي أستعيد انتباهي مجدداً.

«تابع سيرك أيها الصغير».

في نهاية الممر وصلنا إلى فيض من النور الساطع، وتبعت الآخرين إلى ساحة اللعب... وأيّ ساحة كانت، إذ حدقت حولي مثل المزارع الأولومي الذي تقمصت شخصيته. لقد صدمتني أشياء كثيرة منذ عبرت النفق الواصل بين عالمي وبين إمبيس، ولكن هذه المرة الأولى التي تراودني فيها عبارة: «لا بد أنني أحلم».

شغّلت مصابيح غازية ضخمة على الحوامل الواسعة التي رأيتها من الخارج، حيث انتصبت حول الملعب الذي ستجد فرق النخبة من رياضة كرة القاعدة سعادتها فيه، وانطلقت شعلات زرقاء وبيضاء إلى السماء، ثمّ انعكست عن الغيوم الموجودة في كل مكان.

السماء؛ نحن في الخارج.

ليس ذلك فحسب، بل كان الوقت ليلاً، رغم أنها بداية اليوم بالنسبة إلينا، وسيبدو هذا الأمر منطقياً طالما أن الهياكل العظمية التي تعتقلنا عاجزة عن الخروج نهاراً، وما أثار حيرتي هو كيف قُلِب نظام النوم واليقظة المعتاد خاصتي رأساً على عقب.

عبرنا طريقاً ترابياً إلى أرض يكسوها العشب الأخضر الرطب. لقد سبق لي أن دخلت كثيراً من ملاعب كرة القدم والقاعدة، ويشبه بعضها هذا الملعب إلى حدّ كبير، ولكن لم يكن أيّ منها مدوراً تماماً؛ ما هي اللعبة التي يمارسونها هنا؟ عجزت عن معرفة ذلك، ولكنني متأكّد أنها شعبية جداً؛ حيث شغل آلاف المشجعين الإمبيسيين طرق الدخول بين الدواليب الهوائية، وصفوف المقاعد التي تلتف حول الملعب صعوداً حتّى حافته الدائرية.

انتصبت ثلاثة أبراج خضراء أمامي مباشرةً ولامست الغيوم، وأخرى حجريةً إلى يميني ويساري، ووصلت بينها شرفات اعتلاها جنود الليل يراقبوننا وسط هالاتهم الزرقاء الملتهبة. لقد استطعت رؤية حافة الملعب

العلوية فقط خلال مسيري إلى الساعة الشمسية لأنها في قاع الجزء الخلفي من القصر.

تقع غرفة العرش والمساكن الملكية في مكان ما، ربما في قاعدة تلك الأبراج الثلاث الخضراء الزجاجية، إذ توجد دوماً أماكن من أجل الشخصيات المرموقة كما في المتاجر على طريق غالين الواسع، واعتقدت أن هذا المكان يعني شيئاً في نفوس عامة الشعب، إذ رأيتهم كيف يصعدون طرق الدواليب الهوائية ذات الألوان المشرقة في أيام المباريات، ويأتون من كل حدب وصوب سواء من سيفرونت وديسك، وربما أولوم وغرين إيزليس، حاملين سلال الطعام وينشدون أغاني فرقهم أو يهتفون بأسمائها....

انهالت عصا مرنة على ذراعي بقوة أكبر هذه المرة، فالتفتت ورأيت جمجمةً تبتسم وسط تجهم وجه وهمي نصف شفاف، ثمّ قال حارس الليل: «كفاك تحديقاً مثل الأحمق، لأنه وقت الجري أيها الصغير. آن الأوان أن تُسرع».

قادنا آيوتا إلى مضمار دائري حول الملعب الأخضر الرائع، وتبعناه في مجموعات مؤلفة من شخصين أو ثلاثة، وجاء هامي أخيراً، كما هو متوقع. برزت شرفة فوق ما اعتقدت أنه واجهة الملعب، وتبيّن أنها جناح يشبه غرفة معيشة في الهواء الطلق، لم ينقصه سوى ثريا فاخرة كي يكتمل، حيث وضِعتْ كراسٍ مبطنة تشبه تلك الموجودة في مقدمة ملعب غرانتيد ريت إلى جانبي ما بدا أنه مقعد الشرف، والذي لم يكن بحجم عرش هانا حيث تجلس لتحرس مدخل القصر الخلفي (عندما تنتهي من طعامها ونومها)، ولكنه واسع جداً وله ذراعين مائلتين إلى الخارج، وكأن الشخص الذي سيجلس عليه يملك جسداً عريضاً انطلاقاً من وركه إلى الأعلى بسبب تعاطيه الستيروئيدات. كان المقعد فارغاً الآن، بينما شغل بعض الناس الكراسي المبطنة على طرفيه، وشاهدونا نجري ونتجاوزهم. لقد ارتدوا ملابس جيدةً؛ أي أنها أفضل من الأسمال التي تغطي معظمنا. رأيت امرأةً

شاحبة الوجه بينهم. في البداية، ظننتها تضع مساحيق تجميل من نوع ما، وقد جلست في ثوبها الطويل ووشاحها كثير الطيات، كما رصعت الجواهر اللامعة أصابعها ومشابك شعرها. احتسى رواد هذا الجناح جميعهم مشروباً لعله جعة في كؤوس طويلة، ورآني أحد الرجال أحدّق، فرفع كأسه إليه، وكأنه نخب، وقد اعتلت وجوههم جميعاً تعابير سأدعوها مزيجاً من الملل الذي تشوبه حماسة خفيفة. كرهتهم مباشرةً، لأن السجين الذي يتلقى جلدات العصي المرنة وحده يستطيع كره مجموعة من الناس الكسولين الذين يقضون الوقت مرتاحين في ملابسهم الفاخرة.

فكّرت في نفسي: هذا المكان ليس لأمثال هؤلاء الحمقى، أعلم ذلك تماماً، وأجهل كيف خطر لي هذا الأمر.

جلدني حارس الليل مجدداً، ولكن هذه المرة على الجهة الخلفية من بنطالي الذي تزداد قذارته شيئاً فشيئاً، فشعرتُ أن الجلدة حارقة مثل ألسنة اللهب، وقال: «ألا تدري أن التحديق إلى أسيادك غير لائق؟».

لقد كرهت هذه الأصوات الطنانة التي تشبه أزيز الحشرات أيضاً، فهي تماثل الاستماع إلى مجموعة كاملة من دارث فيدر[34]. أسرعت وتجاوزت ستوكس الذي رفع إصبعه الوسطى لي على الطريقة الإمبيسية، ففعلت مثله.

عبرت بين زملائي في ديب مالين، وصدمني توم مازحاً، على عكس أميت الضخم مقوس الساقين قليلاً، والذي دفعني بقوة أكبر وقال: «انتبه إلى أين تذهب أيها الأولومي، إذ لا إله كي يحميك هنا، لقد تركت كل شيء خلفك».

تركته هو خلفي، وقد أسعدني فعل ذلك، لأن الحياة قذرة كفايةً، ولا تحتاج زميلاً غاضباً من السجن كي يزيدها سوءاً.

لاحظت وجود أشياء وسط الملعب، وقد عرفتها من التمرينات الرياضية المتنوعة التي يمارسها الجميع حتّى أفراد فرق كرة القدم والهوكي الصغار، إذ ضمت صفين من قطع خشبية تشبه تلك الموجودة في السكك الحديدية، إضافةً إلى أكياس قماشية كبيرة ذات نتوءات دائرية قد تكون كرات، وأعمدة يغلفها الخيش، ورسم بفظاظة وجه عابس أعلى كل واحدة منها، وتيقنت تماماً أنها دمى التدريب الإمبيسية. كما تدلت حبال من قضيب على شكل حرف (T) حاملةً حلقات في نهايتها، ووضع لوح واسع على مسند خشبي مرتفع حاملاً حزمة قش على أحد طرفيه، كما احتوت سلة خيزران ما بدا أنه مقابض فؤوس، ولكنني تجاهلتها. لقد أجبرنا المدرب هارنيس على ممارسة تمارين اعتبرها البعض ساديةً، ولكننا لم نضرب بعضنا أبداً بالعصي.

وصلت إلى حيث يجلس الجمهور مقابل جناح الشخصيات المهمة، وتحدثت هنا إلى آيوتا، الذي كان يجري ورأسه إلى الخلف، وصدره منتفخ، ويحرك ذراعيه على جانبيه، وجل ما ينقصه بضع أوزان من أجل اليدين، وربما بذلة تدريب كي يشبه مراهقي حيي الذين يريدون تحسين أجسادهم.

سألته: «هل تريد أن نتسابق؟».

«ماذا؟ هل أقامت تلك الوضيعة بيترا وبقيتهم رهاناً على الفائز؟». رفع إبهامه نحو الأفراد ذوي الملابس الجميلة الذين يسترخون ويحتسون شرابهم المنعش، وقد انضم آخرون إليهم، في ما بدا أنه حفلة شراب أقامها الإله شخصياً. سار جنديا ليل إلى جوار المجموعة.

«ألا تكفينا الأمور التي تقلقنا؟».

«أتفق معك».

«من أين أنت حقاً يا تشارلي؟ فأنت لست من أولوم».

أعفتني رؤية هامي من الإجابة، إذ خرج عن المسار متثاقلاً ناحية معدات التمرين المتنوعة، وقد طأطأ رأسه وانتفخ صدره النحيل، وأخذ واحداً من الأكواب الفخارية التي تشبه الفناجين الصغيرة، وشربه، وأعاده إلى مكانه على طاولة وسط بعض المقاعد الطويلة القابعة بين سلة القش ذات عصي القتال (أجهل ما قد تكون سوى ذلك) ودمى التدريب بوجوهها العابسة، ثمّ جلس مطوقاً فخذيه بذراعيه خافضاً رأسه، وقد حرس الطاولة – أو راقبها – أحد جنود الليل الذي نظر إلى هامي من دون أن يحرك ساكناً.

قال آي لاهثاً: «إياك أن تجرّب ذلك، وإلا سيضربونك حتّى تنزف».

«وكيف أفلت هامي بفعلته؟».

«لأنهم يدركون عجزه عن فعل أي شيء، إنه السيد عديم الفائدة، أليس كذلك؟ ولكنه فرد كامل، وسنعود ثلاثين من دونه».

«أنا لا أفهم ما يجري... أقصد دعنا نفرض انطلاق فير ون، ما الذي يتوقعونه منه... أنت تعلم، أن يقاتل؟».

قال آي: «لا يتوقعون منه شيئاً»، ولاحظت نبرةً غريبةً في صوته، ولعلها نابعة عن العطف، ربما يقاسمه شعوره، ليس لأنه أحب هامي، بل لأنه كره الحال التي نعيشها.

«ألا تتعب أبداً أيها الصغير؟ إذ سأجلس بعد جولة أخرى إلى جوار عديم الفائدة وستنهال عصيهم عليّ قدر ما يشاؤون».

فكرت في إخباره أنني مارست رياضات كثيرةً، ولكنه سيسألني عنها، وأجهل تماماً ما يلعبونه في هذا القرص الأخضر الكبير، لذلك: «واظبت الحفاظ على لياقتي قبل القدوم إلى هنا على الأقل، وتستطيع مناداتي تشارلي، إذ هم من يدعوننا بالصغار».

رفع آي إبهامه إلى هامي، الذي بدا كئيباً عندما جلس على المقعد، ثمّ قال: «سأدعوك تشارلي إذن... انظر إلى ذلك الغبي المسكين، إنه مجرد جسد حي، وليس إلا قرباناً من أجلهم، فهم يحبون معرفة نتيجة إحدى المباريات سريعاً».

ولكنه قال شيئاً مختلفاً عن الغبي والقربان، بل إنها ترجمة دماغي عن المصطلح الذي استعمله، وفكرت أن مواجهة هامي تشبه المباراة بين الرقم واحد والسادس عشر في بيغ دانس أو بطولة الفئة الأولى في الرابطة الوطنية لرياضة الجامعات.

اقتربنا من جناح الشخصيات المهمة مجدداً، وحان دوري كي أوجه إبهامي إلى ذوي الملابس الأنيقة الذين يشاهدوننا حين ينتهون من تبادل الأحاديث، إذ تستطيع إدراك أن موضوع نقاشهم أياً كان يهمهم أكثر من الأشخاص المتسخين ممزقي الملابس الذين يركضون في الأسفل، فنحن مجرد عذر كي يجتمعوا معاً مثل جمهور تدريبات كرة القدم في عالمي. أُرهق الآخرون خلفنا، وانضم اثنان – دوبل وشخص يدعى يانو – إلى هامي على المقاعد.

«كم يبلغ عددهم هناك؟».

قال آيوتا وقد بدأ يلهث: «ماذا؟ هل تقصد رعايا إلدن؟ لعلهم عشرون أو ثلاثون، وربما أكثر، ولكن تتباهى الوضيعة أمامهم لأن قاتل الرحلة يفضلها عنهم»، وأكد على كلمة رعايا وكأنه يضعها بين علامتي اقتباس.

«هل تقصد بيترا؟».

«أجل».

«وهل تلك هي؟».

خرج صديقي آرون الذي أكرهه من أحد الممرات تحت جناح الشخصيات المهمة ملوحاً بعصاه المرنة مثل قائد الأوركسترا الذي يوشك أن يشير إلى علامة المعزوفة الأولى، وصاح: «اتجهوا إلى الوسط جميعاً».

هرول آيوتا ناحية المعدات وسط الملعب، وتبعته إلى هناك. كان الجميع يلهثون وينفخون، وانحنت جايا وإيريس ووضعت كل منهما يديها على ركبتيها محاولةً التقاط أنفاسها، ثمّ انضمتا إلى مائدة الأكواب الصغيرة مع الآخرين، وقد شربت سريعاً من أحدها الذي احتوى مياهاً في معظمه باستثناء شيء مُرّ يزيد حماستك، إذ زاد نشاطي أكثر.

في الملعب الآن خمسة من حراس الليل بمن فيهم آرون، وقد وقفوا في نصف دائرة أمامنا، وحرس اثنان آخران الشخصيات المهمة، واعتلى اثني عشر حارساً الشرفات بين الأبراج، وقد عددتهم بسهولة نظراً إلى هالاتهم الزرقاء الساطعة، وهذا يعني أن عددهم الإجمالي تسعة عشر، ووجدت أنه يعادل تقريباً عدد أولئك الذين طاردوني عندما هربت مع رادار ناحية البوابة الخارجية، ويصبحون عشرين حارساً عند إضافة كيلين الذي تجنب الحضور أو أنّه يراقب من إحدى الشرفات. هل أولئك هم جميعاً؟ إذ يفوقهم السجناء عدداً في هذه الحال، وعدلت عن سؤال آي، إذ شعرت أن آرون يراقبني.

قال ستوكس: «أحسنت الجري يا تشارلي».

قال فيرمي: «إنه أفضل من ممارسة الجنس».

قال ستوكس: «باستثناء ممارسته معك».

مددت يدي كي آخذ كوباً آخر، ولكن أحد الحراس وجّه عصاه ناحيتي وقال: «لا، لا، يحق لك شرب كوب واحد فقط يا صغير».

عدا أنه قال شيئاً مختلفاً عن يحق لك تناول كوب واحد فقط.

2

حان وقت اللعب، والذي كان أقل وحشيةً بكثير من ممارسة كرة القدم، باستثناء نهايته.

في البداية، استعملنا الكرات وبلغ عددها ستة عشر كرةً موزعةً على ثلاثة أكياس، وبدت مثل كرات الشاطئ، ولكن غطتها مادة فضية زادت وزنها، وجل ما عرفته أنها فضة، ومن خلالها استطعت رؤية الانعكاس المشوه عن وجهي وشعري المتسخين، وقررت أنني سأتجنب غسل الأخير مهما بلغت قذارته، رغم استبعادي فكرة أنني: «الأمير الحقيقي الذي جاء كي ينقذنا»، حيث أعجز عن إنقاذ نفسي، ولا أريد أن أتميز عن أحد، إذ رأيت غرفة التعذيب في القصر وأود تجنبها تماماً.

وقفنا في صفين ضم كل منهما خمسة عشر فرداً، أي من دون هامي الذي أمره أحد الحراس بعصاه أن يرمي الكرات الست عشرة إلى الأعلى والأسفل، فنفذ هامي ذلك بضعف، إذ ما زالت قواه خائرةً بسبب الممر الصاعد ودورته الجزئية في المضمار، وابتسم عندما رآني أنظر إليه رغم الكآبة التي تحتل عينيه، إضافةً إلى مظهره الذي يوحي أنه أول الخاسرين.

رمى بقيتنا الكرات الثقيلة – تزن بضعة كيلوغرامات تقريباً – إلى الأمام والخلف، وقد كان مجرد إحماء من أجل الذراعين والقسم العلوي من الجسد، ولكن بدا أنه غير مألوف لدى معظم السجناء خلال حياتهم قبل احتجازهم، إذ أخطأوا كثيراً خلال أدائه، وتساءلت إن كانوا من عمال الياقات البيضاء في المكان الذي يدعونه سيتادل قبل سحق حكومة الفراشات الكبيرة (يوجد تلاعب لفظي غير مقصود هنا). امتلك بعضهم لياقةً جيدةً وحركات ملائمة – مثل آي، وإيريس، وتوم وآميت، واثنين آخرين، بينما افتقر البقية إليها تماماً، وكان المدرب هارنيس ليطلق عليهم لقب «الكسالى»، الذي تجسد في فيرمي وستوكس، وكذلك جايا ودوبل. ساعد دومي جسده

الضخم، ولكنه عانى من السعال، ويبقى هامي الذي أسماه آيوتا عديم الفائدة.

شاركت آيوتا التمرين؛ قذف بضع كرات ضعيفة إليّ مستخدماً رسغه، وطُلب منا أن نتراجع خطوةً بعد كل بضع رميات، ثمّ أمرونا بعد عشر دقائق أن نعاود الجري في المضمار، وقد بذل هامي قصارى جهده، ولكن تباطأ بعد فترة قصيرة وتابع مشياً، فهرولت هذه المرة بكسل، واستطاع أميت اللحاق بي بسهولة، رغم أن تقوس ساقيه دفعه إلى التأرجح خلال الجري مثل قارب وسط أمواج خفيفة، وفور أن تجاوزنا جناح الشخصيات المهمة، مال إليّ ودفعني مجدداً، ولكنها لم تكن دفعة ودية بل نظيرتها القوية المقصودة قديمة الطراز، وقد فاجأتني فسقطت أرضاً، وتعثرت جايا فوقي، ثمّ أمسكت ركبتيها وصرخت، وتابع الآخرون طريقهم.

أخيراً، لفتنا كامل انتباه المغرورين الجالسين في الجناح، حيث نظروا إليّ وإلى جايا وضحكوا كما كنت لأفعل برفقة آندي وبيرتي عند متابعة مشهد كوميدي معتاد في أحد الأفلام.

ساعدت جايا على النهوض، ولاحظت أن الدماء تسيل من مرفقيها، وسألتها إن كانت بخير، فأجابتني بنعم، ثمّ تابعنا الجري قبل أن يقترب أحد الحراس حاملاً عصاه المرنة قائلاً: «إياك ولمس أحدهم أيها الصغير. أبداً، أبداً»، فرفعت يدي قليلاً كي أظهر أنني فهمت، ولكنني أردت في الحقيقة تجنب أن تصيب عصاه وجهي.

تراجع جندي الليل خطوةً، ووصلت إلى أميت، فسألته: «لماذا فعلت ذلك؟».

«شعرت أنني أريد دفعك».

أجابني شيئاً ربما سمعته من الأفراد ذوي الشخصية المسيطرة والذين مارست معهم الرياضة خلال سنواتي الماضية وخاصة في الثانوية، وهم

كثيرون، وقد انتهى بهم الأمر يتسكعون قرب سياج ملاعب التدريب في عشرينيات وثلاثينيات عمرهم، ويكسبون الوزن ويتحدثون عن ماضيهم العريق.

يعني ذلك أن أميت يحتاج من يلقنه درساً، وإلا سيستمر الصدم والدفع والتعثر دوماً.

أنهينا دورةً واحدةً، ثمّ أرسلونا كي نمارس تمارين شد الجسم إلى أعلى بواسطة الحلقات، وقد استطاع نصف رفاقي فعلها خمس مرات، واكتفى ستة أو سبعة منهم بمرة أو مرتين، ولكنني فعلتها اثنتي عشرة مرةً، ثمّ قررت بغباء أن أتباهى، فأخبرت آي وهامي: «شاهدا هذه الحركة».

رفعت نفسي عالياً مجدداً، وساقي أعلى رأسي، وأنجزت دورةً كاملةً مثاليةً، ولكن بالكاد هبطت على قدمي بعد أن تلقيت جلدةً قويةً أسفل ظهري، وقد أحسست بالألم أولاً، ثمّ بالحرارة التي ازدادت تدريجياً.

صرخ أرون: «تجنب أداء هذه الخدع، وإلا ستكسر معصمك أو ساقك، وسأجلدك حينها!»، وقد زاد غضبه شدة هالته وأوشك وجهه الوهمي أن يختفي تماماً – والذي كان رقيقاً من البداية. إليك هذه الحقيقة: قد تعتقد أنك اعتدت أجواء السجن في قبضة الأحياء الأموات، ولكن يستحيل أن يحدث ذلك.

حدقت إليه وأنا أجلس على الأرض عاضاً شفتي، ومستنداً إلى يدي اليسرى. تراجع أرون، ليس خوفاً، ولكن كي يحصل على مساحة كافية من أجل التلويح بعصاه، وقال: «هل ترغب في المزيد من هذه؟ اقترب. سألقنك درساً إن أردت ذلك».

هززت رأسي نافياً، فتدلت خصلات من شعري المتسخ أمام حاجبي، ووقفت ببطء شديد؛ كنت أكبر حجماً من أرون، فوزني يفوق وزنه بحوالى

الخمسين كيلوغراماً – حيث أنه مجرد كتلة من العظام – ولكن تحميه هالته، وبالتالي هل أريد أن تصعقني الكهرباء؟ لا.

قلت: «أنا آسف»، واعتقدت لوهلة أن اعتذاري قد فاجأه كما حدث مع بيرسي عندما شكرته، فأشار إليّ أن أنضم مجدداً إلى الآخرين.

صرخ علينا: «اركضوا. اركضوا أيها القرود».

قال كلمةً مختلفةً عن القرود، ولكن استبدلها ذهني مجدداً. أنجزنا دورةً أخرى حول المضمار (من دون أن يحاول هامي فعل ذلك)، وشربنا المزيد من مياه الطاقة، ثمّ أمرونا أن نتجه إلى دمى التمرين.

تراجع أرون ووقف مكانه جندي ليل آخر وقال: «سيحصل أول من يقتل أعداءه كلهم على كعكة. توجد كعكة من أجل القاتل الأول. فليتقدم كل واحد منكم ويختار عموداً».

كنا واحداً وثلاثين فرداً أمام اثنتي عشرة دميةً. أمسك آي معصمي وقال بصوته الخشن: «تعلم كيفية فعل ذلك أولاً».

لقد فاجأني هذا التلميح المفيد والذي أحتاج إليه حقاً. تقدم اثنا عشر من زملائي المساجين سريعاً طمعاً بجائزة الكعكة ولمسوا واحداً من الأعمدة التي لفها الخيش، وكان من بينهم إيريس، وفيرمي، وستوكس، ودوبل، وأميت.

«والآن تراجعوا».

عاد جميعهم إلى حيث الطاولة.

«والآن اقتلوا أعداءكم».

ركضوا ناحية الدمى، وقد ارتد نصفهم قليلاً بسبب الاصطدام – كان ارتداداً ضعيفاً، ولكنني لاحظته. صدم ثلاث أشخاص أعمدتهم بقوة كبيرة

وكذلك إيريس، ولكن بالنظر إلى أنها نحيلة اهتز رأس عمودها سخيف الوجه، والأمر نفسه نسبةً إلى ذلك القبيح المدعو مورف الذي لم يجفل، ولكن جاءت ضربة أميت قاضيةً تماماً، إذ حلق الرأس عن قمة عموده وحط على بعد عشر أقدام تقريباً.

صاح أرون: «كعكة من أجله. سيحصل على كعكة».

تعالى الهتاف من جناح الشخصيات المهمة بقيادة المرأة ذات الوجه الأبيض.

رفع أميت قبضتيه، وانحنى من أجلهم، وأعتقد أنه يجهل السخرية الكامنة في هذه الصيحات، إذ إنه ليس السكين الأكثر حدةً أو المصباح الأكثر إضاءةً بيننا كما يقال –أي ليس الأقوى أو الأذكى.

جاء دور الدفعة التالية، ولكن آي أمسك معصمي مجدداً فلزمت مكاني. وفشل الجميع في إزاحة الرأس هذه المرة، وبقيت رفقة آي، وهامي، وجايا آخر المشاركين.

«تراجعوا».

فعلنا ذلك.

«والآن اقتلوا أعداءكم».

ركضت إلى عمودي، وأخفضت كتفي اليمنى – أي جانبي الأقوى – من دون التفكير في الأمر، إذ تيقنت من قدرتي على ضرب العمود بقوة تكفي من أجل اقتلاع الرأس من مكانه من دون أن أستعمل الواقي، ولكن ارتد كما حصل مع الآخرين، وبالكاد اهتز رأس عمودي، على عكس نظيره لدى آيوتا الذي حلق وهبط في مكان رأس دمية أميت تقريباً، ولكن من دون أن يهتف أحد من الشخصيات المهمة؛ حيث انشغلوا في أحاديثهم مجدداً.

عاد أرون إلى الممر أسفل جناح الشخصيات المهمة، حيث التقى كيلين، الذي لم يكن يرتدي معطفه الفاخر اليوم، بل ارتدى اليوم بنطالاً ضيقاً وقميصاً أبيض مفتوح الياقة، واتجها صوبنا، ثمّ انتابتني البصيرة ذاتها التي راودتني عندما رأيت أدوات التدريب وطاولة المشروبات. لعل كيلين هو المدرب وآرون مساعده، وبالتالي لسنا في فترة تدريب السجناء، بل هو أمر مهم، أي سيقام الفير ون، واعتقدت حينها أن كيلين وأرون مسؤولان عن سير الأمور وفق الخطة.

صرخ أرون حينها: «حان وقت العصي الآن».

أثار ذلك اهتمام الأشخاص في الجناح، إضافةً إلى جنود الليل على الشرفات.

ذهبنا إلى سلة الخيزران التي تحوي عصي الشجار، وكانت تشبه سيوف التدريب، ولكن من دون مقبض وكان طرفاها مدببين، وبلغ طولها متراً تقريباً، وقد صنعت من خشب أبيض ناعم وقاس، ولعله الدردار كما في مضارب لاعبي دوري كرة القاعدة للمحترفين.

أشار كيلين إلى إيريس التي تقدمت وأخذت عصا، ثمّ إلى هامي؛ وهذا ما أزعجني نوعاً ما، فتناول واحدةً وأمسكها من طرفيها المدببين، بينما أمسكتها إيريس بيد واحدة، يمثلان الدفاع والهجوم على الترتيب، ولكن لم تبدُ الحماسة على وجهيهما، واحتل الخوف ملامح هامي، وله الحق في ذلك.

صاح أرون: «اقتل عدوك»، وبدا صوته طناناً أكثر هذه المرة.

لوّحت إيريس عصاها، فتفاداها هامي، ثمّ جاءته من الجانب، وتفاداها مجدداً، ولكن بضعف هذه المرة؛ ولاحظت أنها لا تستعمل كامل طاقتها، وإلا لطرحته أرضاً مباشرةً.

صاح كيلين: «اجهزي عليه أيتها الوضيعة عديمة الفائدة، وإلا سأقضي عليك بنفسي».

سددت إيريس ضربتها التي لم يتكبد هامي عناء تجنبها، فسقط بقوة لاهثاً على العشب، فتزايد هتاف الجماهير في الجناح، انحنت إيريس إليهم، وتمنيت أنهم بعيدون كفايةً كي يغفلوا عن نظرة القرف التي اعتلت وجهها.

جلد أرون مؤخرة هامي وساقيه وقال: «انهض. هيّا انهض يا كومة الروث».

بذل هامي قصارى جهده ليقف على قدميه، وانهمرت الدموع على خديه وسال المخاط من منخريه. رفع أرون عصاه المرنة لكي يجلده مجدداً، ولكن هز كيلين رأسه مرةً واحدةً مانعاً إياه، إذ وجب أن يبقى هامي سليماً حتّى بدء المسابقة على الأقل.

بقيت إيريس كي تواجه خصماً آخر، وحدث التفادي والدفع كثيراً دون ضربات قوية، ثمّ تراجعا مفسحين المجال للثنائي التالي، سارت الأمور على النحو السابق، ولكن من دون صرخات اقض عليه أو اقتل عدوك، ومع ذلك نال ستوكس وفيرمي نصيبهما من أحد جنود الليل بسبب كسلهما، وأعتقد من كيفية تعاملهما مع الأمر أنها لم تكن المرة الأولى.

تواجه آي وتوم، ثمّ بيرند وبولت، وفي النهاية أنا وأميت، وأعتقد أن أرون اختار أن تسير الأمور على هذا النحو بعد أن رأى أميت يدفعني على مضمار الجري، أو ربما شهد كيلين ذلك من مكانه قبل ظهوره في الملعب.

صاح أرون: «أمسكا العصي. هيّا أنتما الاثنان. دعونا نرَ كيف ستنتهي هذه المواجهة»، لقد كرهت ذلك الصوت الطنان كثيراً.

أمسك أميت عصاه من نهايتها مبتسماً، وهذا يعني أنه سيهاجمني، بينما أمسكت خاصتي من الطرفين أفقياً كي أتفادى ضرباته في البداية على

الأقل. سبق لأميت أن خاض مبارزات وتوقع أن مواجهة الولد الجديد سهلة وخاصةً أنه سيدافع، ولعله محق في ذلك، وربما لا، سنرى.

صاح كيلين هذه المرة: «اقتل عدوك».

لم يتردد أميت في مهاجمتي، وتأرجح إلى جانبيه بسبب ساقيه المقوستين، آملاً أن يحاصرني بين طاولة المشروبات وسلة عصي الشجار التي استبدلها الزوج الذي خاض المعركة السابقة، ثمّ رفع عصاه، وسدد ضربةً قويةً لا تصد ولا ترد؛ لقد أراد أن يصيبني بارتجاج في المخ أو أسوأ من ذلك، ولم يبدُ أنه يكترث للعقوبة التي قد يتلقاها إثر تراجع عدد السجناء إلى ثلاثين مجدداً، وبالتالي تأخير فير ون حتّى إيجاد فردين كاملين إضافيين، وربما يحاول فعل ذلك من أجل زملائه، ولكنني أشك في الأمر؛ لقد قرر أميت لسبب أجهله أنه يكرهني.

انحنيت قليلاً، ورفعت العصا فأصابها بدل رأسي، ثمّ نهضت دافعاً إياه والعصا إلى الخلف، وعندها سمعت هتافاً خافتاً من جناح الشخصيات المهمة، تابعت حتّى خرجت من بين السلة والطاولة إلى منطقة مفتوحة حيث أستطيع الاستفادة من سرعتي رغم أنها ليست مفتاح الفوز، ولكن أعتقد أن ساقي أميت المقوستين تمنعانه عن إمساكي.

سدد ضربةً إلى جانبي الأيسر أولاً، ثمّ إلى يميني، فتفاديتهما بسهولة عندما تحررت من الحصار، وتملكني غضب شديد جداً كما حدث عندما كسرت إحدى يدي كريستوفر بولي، ثمّ ضربته وكسرت الأخرى، وكذلك حين غضبت من والدي عندما أسرف في شرب الكحول بعد وفاة والدتي، لقد تركته وحده من دون الشكوى من إدمانه، ولكن عبرت عن غضبي بطرق كثيرة أخبرتك بعضها، وأخجل أن أفصح عن بعضها الآخر.

تابعنا السير والانحناء والمراوغة على العشب، وقد راقبتنا عيون السجناء بصمت، وكذلك كيلين، وأرون، وجنود الليل الآخرين عن الشرفات،

وهدأت صيحات جماهير جناح الشخصيات المهمة. تثاقلت أنفاس أميت، وتباطأت ضرباته، وتلاشت ابتسامته أيضاً، وصب ذلك في صالحي.

صرخت: «تعال أيها الأحمق عديم الفائدة، دعنا نرَ ما لديك».

هجم رافعاً عصاه أعلى رأسه، فغطيت نهاية العصا المدببة بيدي وضربته أعلى ملتقى فخذيه بقليل، ولكنه أصاب كتفي فخدرها تماماً، ومع ذلك التزمت مكاني، ورميت العصا، ودفعته وانتشلت عصاه أيضاً، وضربته بها على فخذه، ثمّ سحبتها وضربته على وركه، وقد وضعت وركي في وضعية ضرب كرة مستقيمة منخفضة ناحية منطقة العمق اليمنى.

صرخ أميت متألماً: «توقف. توقف».

ولكنني ضربته مجدداً على ذراعه ولم أكترث إلى صيحاته، فالتفت وأطلق ساقيه للريح، ولكن خذلته أنفاسه المتقطعة وساقاه المقوستان. نظرت إلى كيلين الذي هز كتفيه مستهجناً، وأشار بيده إلى عدوي السابق، وكأنه يقول: «افعل ما تريد»، وهذا ما فعلته على أيّ حال، فتبعت أميت، ويمكنني إخبارك أنني فكرت في الطريقة التي دفعني بها، وكيف ضحك الناس في الجناح حين سقطت أرضاً، وكيف تعثرت جايا فوقي، وكذلك أردت إيصال رسالة فحواها أن يتجنب أي شخص العبث مع الولد الجديد، ولكن لم يكن أي مما سبق صحيحاً، إذ رأيت الود من الجميع، باستثناء آي في البداية، وذلك قبل أن يعرفني جيداً.

لقد أردت أن أوسعه ضرباً فقط.

سددت ضربتين قويتين على مؤخرته، وأسقطته الثانية على ركبتيه وهو يصرخ: «توقف. توقف. توقف».

رفعت العصا فوق رأسي، وقبل أن أضربه، أمسك لورد هاي مرفقي، شعرت وكأنني لامست سلكاً كهربائياً مكشوفاً، فشعرت باضمحلال طاقتي،

وكدت سأفقد وعي إذا استمر الأمر لوقت أطول كما حدث عند البوابة الخارجية، ولكنه أفلتني.

«هذا يكفي».

انفتحت قبضتاي، وسقطت العصا منهما، ثمّ هويت على إحدى ركبتيّ وسط تصفيق الجماهير وهتافهم، ورأيت أمام عيناي المشوشتين رجلاً طويلاً توجد ندبة على إحدى وجنتيه يهمس إلى المرأة ذات الوجه الأبيض، ويداعب أحد ثدييها.

«انهض يا تشارلي».

فعلت ذلك بصعوبة، ثمّ أومأ كيلين إلى أرون.

قال أرون: «لقد انتهى وقت اللعب، فليتناول كل منكم كوب شراب آخر».

أجهل حال الآخرين، ولكنني كنت بحاجة إلى الشراب حقاً.

3

اقتادنا الحراس إلى إحدى غرف الفرق المطابقة للمعايير التي اعتدت عليها؛ غرفة كبيرة وفاخرة، وذات مصابيح كهربائية في السقف، ولكنها لم تكن موصولة بالمولّد المتهالك، ولذلك استبدلت بمصابيح غاز إضافية، وكانت الأرضية والجدران بيضاء نظيفةً تماماً إلى أن لوثتها أوساخنا... إضافةً إلى بقع الدماء التي خلّفتها مبارزات العصي. ربما واظب الرماديون على تنظيف هذا المكان، رغم غيابهم كلياً في بعض الأحيان. ضمت الغرفة جدول مياه جارية من أجل التبول، وفعل معظم الرجال ذلك، إضافةً إلى حفرتين في المركز، واعتقدت أنهما من أجل النساء، ولكن جايا وإيريس تجنبتا استعمالهما، رغم خلعهما ملابسهما العلوية مثل الجميع، ومن دون أي حيطة

أو حذر، ولاحظت انتشار الكدمات على أضلاع جايا، إذ تلقت عدة ضربات بواسطة العصي.

شغلت إحدى جوانب الغرفة خزائن خشبية، والتي يضع أعضاء الفريق أشياءهم فيها (وبالطبع لم نكن نمتلك أي أشياء)، واحتل الجانب المقابل رف طويل حمل دلاءً من أجل الاستحمام، واحتوى كل منها خرقةً، ولكن من دون صابون.

خلعت قميصي وأجفلت من الآلام التي تسببت بمعظمها ضربات العصي المرنة، وكان الأسوأ بينها في أسفل ظهري، والذي عجزت عن رؤيته، ولكنني تلمست مكانه وشعرت أن الدماء جافة ودبقة.

معظمنا اتجهوا إلى الدلاء، وبدأوا غسل القسم العلوي من أجسادهم، وقد خلع البعض سراويلهم التحتية كي يغسلوا تلك المنطقة أيضاً، ولكن فكرت شخصياً في تجاوز هذا الجزء خلال الاغتسال، وقد لفت انتباهي أن الإمبيسيين يشبهون الفرنسيين قليلاً (على الأقل بحسب ما تفيد به إحدى الأغاني)، إذ يتجنبون ارتداء ملابس داخلية.

عرج أميت إليّ، بقينا من دون الحراس الذين قد يحولون دون أخذه بثأره، ولم يكن لدي مانع في ذلك، فانحنيت قليلاً بصدري العاري الذي غطته الأوساخ بسبب الأيام التي قضيتها هنا (ولعلها كانت أسابيع في ذلك الوقت)، ورفعت قبضتي، ثمّ حدث شيء مدهش؛ اصطف آي، وفيرمي، وستوكس، وهامي أمامي مقابل أميت مباشرةً.

هز الرجل مقوس الساقين رأسه، ووضع معصمه على جبهته وكأنه يعاني الصداع، وقال: «لا، لا. لم أصدق الأمر في البداية، ولكن ربما أصدقه الآن، أنت حقاً...».

تقدم آيوتا ووضع يده على فم أميت مباشرةً قبل أن يكمل كلامه، وأشار بيده الأخرى إلى نافذة لعلها إحدى مخارج الحرارة في الملعب –

ومدينته – خلال فترة تشغيله السابقة. نظر أميت إلى هناك وأومأ، ثمّ نزل أمامي متألماً على إحدى ركبتيه، ثمّ أعاد وضع يده على جبهته.

«أنا أعتذر يا تشارلي».

فتحت فمي كي أقول: «لا مشكلة»، ولكنني قلت: «انهض يا أميت، اعتذارك مقبول».

كان جميع السجناء ينظرون إليّ الآن، وقد وضع بعضهم (باستثناء آيوتا حتّى ذلك الحين) أيديهم على جبهاتهم، وأشك في أن الصداع أصابهم جميعاً، لذلك ظننتهم يؤدون تحية. لقد صدقوا جميعاً شيئاً سخيفاً تماماً، ومع ذلك....

قال غالي: «اغتسل يا تشارلي»، ومد يده إلى أحد الدلاء، كما رأيت إيريس تمشي مشية البطة إلى جوار الرف من دون أن أفهم سبب ذلك وهي تقول: «هيّا يا تشارلي، نظّف نفسك»، ولكنني ترددت في الاستجابة لها.

قال آي: «وشعرك أيضاً... لا بأس، إذ يريدون رؤية الأمر، وأنا كذلك... وأعتذر عن قولي إنني سأحشو الأوساخ في فمك».

أخبرته أن لا بأس بذلك، من دون ذكر أنني سمعت مثله كثيراً خلال حياتي، ليس في المباريات الرياضية فقط، فهو قول شائع بين الشبان.

اتجهت إلى أحد الدلاء، وحملت الخرقة الطافية منه، وغسلت وجهي، ورقبتي، وبطني، وأدركت تماماً وبشكل غير محتمل وجود جمهور يشاهدني، وعندما انتهيت من كل شيء أستطيع الوصول إليه، طلبت مني جايا أن أستدير، ومسحت بهدوء حول الشق الذي سببه أرون عندما نفّذت تلك الدورة على الحلقات، ولكنني أجفلت عندما لمسته.

ولكنها قالت بصوتها اللطيف: «اهدأ يا تشارلي، يجب أن أنظف الجرح من الأوساخ وإلا سيتقيح».

بعد انتهائها أشارت إلى أحد الدلاء غير المستخدمة بعد، ثمّ سرّحت شعري لبرهة ثم تراجعت وكأنها لمست شيئاً ساخناً.

التفتتُ إلى آيوتا كي أتأكد من ذلك، فأومأ لي، ولذلك ومن دون أي تردد أخذت الدلو، وأفرغته على رأسي، وكانت المياه باردةً وجعلتني ألهث، ولكنها أنعشتني، ثمّ مررت أصابعي عبر شعري فتساقطت أكوام من الأوساخ والكتل الترابية، ناهيك عن المياه الملوثة حول قدميّ، وتابعت تسريح شعري بيدي إلى الخلف قدر الإمكان، وفكرت: «إنه يزداد طولاً، وربما أصبحت أشبه الهيبيين الآن». يعود مصطلح الهيبي إلى أواخر الستينيات، وهو يطلق على الأفراد الذين يخالفون تقاليد المجتمع كاللباس وغيره.

حدق السجناء الثلاثون إليّ، وقد فغر بعضهم فاه من الدهشة، واتسعت عيونهم جميعاً، وهنا وضع آي معصمه على جبهته، وركع على إحدى ركبتيه، وفعل الآخرون مثله، ولا تكفي كلمة «مذهول» لتصف حالي حينها.

قلت: «انهضوا، فأنا لستُ من تظنونه».

ولم يكن أحد سواي متشكك في ذلك.

نهض الجميع، ثمّ اقترب آي مني، والتقط خصلة شعر متدليةً على أذني، وانتزعها – لقد آلمني ذلك – ووضعها في راحة يده؛ لقد لمعت الخصلة رغم أنها مبللة في ضوء مصابيح الغاز مثل قطع السيد بوديتش الذهبية.

سألته: «وماذا عن لون عيني، ما هو لونهما؟».

دقق آي النظر، واقترب مني ولامس أنفي، وقال: «ما زال بنياً فاتحاً، ولكن ربما سيتغير، ولذلك حاول أن تنظر إلى الأسفل قدر الإمكان».

قال ستوكس: «يحب الأوغاد هذا الأمر على أيّ حال».

أضاف ستوكس: «بل يعشقونه».

قالت إيريس: «سيدخلون إلى هنا في أي وقت، ولذلك دعني... أنا أعتذر أيها الأمير تشارلي، ولكن يجب أن...».

صاح توم: «إياك أن تدعيه بهذا الاسم، هل تريدين أن يقتلوه؟ ناده تشارلي فقط».

جمعت إيريس بعض الطين الأسود من تحت الرف؛ مزيج من الشحم والتراب.

قالت إيريس: «أنا أعتذر، ولكن يجب أن أفعل ذلك... انحن يا تشارلي فأنت طويل جداً».

قلت في نفسي: «أنا كذلك طبعاً؛ شاب قوقازي طويل، وذو شعر أشقر جديد، وربما سأحصل على عينين زرقاوين قريباً، مثل أمير أنيق من أحد برامج الرسوم المتحركة في ديزني»، ولكنني وقتها لم أجد نفسي أنيقاً، فقد بدا الأمر سخيفاً للغاية، إذ متى ألقى أمير من ديزني الأوساخ على زجاج السيارات الأمامي، أو وضع الألعاب النارية داخل صناديق البريد؟

انحنيت، فمررت أصابعها برفق عبر شعري، ملوثةً إياه مجدداً، وجاعلةً لونه أغمق، وسأعترف أن ملامستها لفروة رأسي قد أثارني قليلاً، وبدا لي من تورّد وجنتيها أنها أُثيرت مثلي.

طرق أحد جنود الليل الباب، وصرخ: «لقد انتهى وقت اللعب. هيّا اخرجوا سريعاً، ولا تجعلوني أكرر كلامي أيها الصغار».

تراجعت إيريس ونظرت إليّ، ثمّ إلى آي، وجايا، وهامي.

همست جايا: «أعتقد أنه يبدو جيداً»، وتمنيت أن أكون كذلك، فلم تكن لدي النية في زيارة مسكن لورد هاي أو غرفة التعذيب مجدداً، حيث

سيجبروننني أن أفصح عن كل شيء... وهذا ما سأفعله في النهاية؛ إذ سأخبرهم عن موطني في البداية، والشخص الذي ساعدني في القدوم إلى هنا وأين يسكن، ثمّ هوية من، أو ما، يعتقد رفاقي السجناء أنني عليه.

مخلصهم اللعين.

4

عدنا إلى ديب مالين، وانغلقت الأبواب مجدداً أمام أذرع جنود الليل المفتوحة، وقد كانت حيلةً جميلةً، وتساءلت ما أمكنهم فعله أيضاً، إلى جانب صعقنا بالكهرباء عندما يريدون.

حدق هامي إليّ بعينيه المتسعتين من طرف الزنزانة الأكثر بعداً عني، وأخبرته أن يكف عن ذلك، فقد أربكتني نظراته». قال: «أنا أعتذر أيها الأمـ... تشارلي».

قلت: «يجب أن تبذل جهداً أكبر، عدني أنك ستحاول».

«أعدك».

«ويجب أن تحاول إخفاء ما تعتقد أنك تعرفه قدر الإمكان».

«لقد أخفيت شكوكي عن الجميع».

نظرت خلف هامي كي أجد فيرمي وستوكس يحدقان إليّ من زنزانتهما، وأدركت كيف انتشر الخبر، إذ تجبرك روعة بعض القصص على تناقلها (ولعلك تعرف ذلك مسبقاً).

كنت وسط إحصاء آلامي وأوجاعي عندما انفتحت أقفال الباب الأربعة، ودخل بيرسي حاملاً قطعة كعك كبيرة على طبق معدني واتجه إلى نهاية الممر حيث زنزانة أميت وغالي، وأدركت من مظهرها أنها كعكة شوكولاته، وعندها شعرت بالجوع الشديد.

مدّ أميت يده بين القضبان وقبض جزءاً كبيراً منها وأقحمه في فمه، ثمّ قال بشيء من الحسرة: «أعط البقية إلى تشارلي، لقد هزمني شر هزيمة في مبارزة العصي وكأنني ابن زوجه الأصهب[35]».

تشبه العبارة التي سمعتها، وليس التي قالها، ما اعتادت والدتي قوله بعد الانتهاء من لعب الورق مع صديقتها هيدا، فتصف نفسها أنها ابنة زوجها الصهباء، أو بغلتها المستأجرة، أو طبل صوتي كبير[36] إضافةً إلى عبارات أخرى تعجز عن نسيانها.

عاد بيرسي أدراجه، حاملاً قطعة الكعك الناقصة والتي لاحقتها نظرات الشهوة، وقد كانت كبيرةً إلى درجة دفعت بيرسي إلى إمالة الطبق كي يدخل بين القضبان، فوضعت يدي فوقها كي أحول دون سقوطها على الأرض، ثمّ لعقت بعض الكريما العالقة على راحتي، وقد كانت لذيذةً جداً، وما زلت أستطيع تذوقها.

تناولت لقمةً واحدةً (وقطعت وعداً أن أعطي هامي منها، وربما قليلاً إلى الثنائي المضحك في الزنزانة المجاورة)، ثمّ ترددت، وأدركت أن بيرسي ما زال في مكانه أمام الزنزانة، وحين وجدني أنظر إليه، وضع معصمه على وجهه البائس المذاب أمام جبهته الفضية.

وانحنى إلى ركبته.

5

خلدت إلى النوم، وراودني حلم عن رادار.

رأيتها تهرول على طريق المملكة إلى المستودع حيث قضينا ليلةً قبل دخولنا المدينة، وتقف بين الفينة والأخرى تئن وتبحث عني، ثمّ التفتت كي تعود إليّ، ولكن تراجعت وتابعت طريقها. قلت في نفسي: «كلبة مطيعة، اذهبي إلى بر الأمان ما استطعت».

برز القمران بين الغيوم، وتعالى عويل الذئاب فور رؤيته. توقفت رادار عن الهرولة، وأطلقت ساقيها للريح وسط اقتراب صوت الذئاب أكثر فأكثر، وقد استطعت في الحلم رؤية الظلال ذات العيون الحمراء تطوق جانبي طريق المملكة. قلت في نفسي: «يتحول الحلم هنا إلى كابوس»، وأخبرت نفسي أن أستيقظ، إذ لا أرغب في رؤية مجموعة ذئاب – بل مجموعتان، واحدة من كل جانب – تندفع من الشوارع والأزقة المتهدمة كي تهاجم صديقتي.

تلاشى الحلم شيئاً فشيئاً، واستطعت سماع أنين هامي، وثرثرة فيرمي وستوكس من الزنزانة المجاورة، ولكن قاطع شيء مذهل رحلة عودتي إلى الواقع؛ اقتربت سحابة أكثر سواداً من الليل ناحية رادار، لقد كانت الفراشات الكبيرة –التي وجب أن تكون نائمةً حينها، ولكن هكذا تسير الأحلام – ومرت إلى جوار القمرين وتحولت السحابة إلى قطعة قماش مباشرةً، فهبطت إلى مسافة بضع أقدام عن كلبتي، وغطتها خلال رحلتها، وقد حطت بعض الفراشات على رأس رادار، وظهرها، وساقيها اللتان استعادتا قوتهما، وخفقت أجنحتها ببطء، حتّى توقف عويل الذئاب، واستيقظت من نومي.

جلس هامي فوق حفرة المرحاض في الزاوية، وقد أنزل بقايا سرواله إلى قدميه، وقبض على بطنه.

صاح آي من الطرف المقابل: «ألا تستطيع الصمت؟ يحاول أحدهم النوم هنا».

صرخت: «اصمت أنت»، وذهبت إلى هامي وسألته عن شدة الألم.

قال: «إنه ليس شديداً»، ولكن تعابير وجهه المتعرق أعلمتني بشيء مختلف، قبل أن يستريح قليلاً عند إطلاق ريح قوية جداً.

كانت الرائحة فظيعةً، ولكنني أمسكت ذراعه قبل أن يسقط أرضاً خلال رفع بقايا سرواله.

سأل فيرمي: «يا إلهي، من الذي توفي؟».

أضاف ستوكس: «أعتقد أن مؤخرة هامي قد انفتحت أخيراً».

قلت: «توقفا عن ذلك، إذ لا شيء يضحك حيال المرض».

صمتا مباشرةً، ورفع ستوكس يده كي يضعها على جبهته.

قلت: «لا، لا، (ستعتاد أسلوب الكلام المشترك سريعاً عند سجنك) إياك أن تفعل ذلك أبداً».

ساعدت هامي في العودة إلى سريره، ونظرت إلى وجهه الهزيل الشاحب، وتأكدت من سخافة فكرة مواجهته أي أحد في الحدث المدعو فير ون، حتّى دومي الذي سيقتله سعاله، إنها فكرة مريعة، إذ يشبه الأمر أن تطلب من ببغاء صغير أن يقاتل كلب روتوايلر.

«أخبرتك أن الطعام لا يلائمني. لقد كنت قوياً، واستطعت العمل اثنتي عشرة ساعةً يومياً في منشرة بروكي، وفي بعض الأحيان كنت أعمل لأربع عشرة ساعة من دون أن أطلب فترة استراحة إضافية، ولكن... أجهل ما حدث، هل الفطور هو السبب؟ أشك في ذلك، ربما تناولت حشرةً سامةً على الأرجح، والآن أعجز عن تناول الطعام تماماً، رغم أنه كان جيداً في السابق. هل تعلم ماذا أتمنى؟».

هززت رأسي نافياً.

«آمل أن يقام فير ون وأن أُشارك فيه، فأموت في الخارج وليس لأن بطني تؤلمني خلال محاولة التغوط في هذه الزنزانة اللعينة العفنة».

«هل أصابك المرض هنا؟».

اعتقدت ذلك – إذ كانت الفطور السامة لتقتله سريعاً وربما كان سيتحسن في نهاية المطاف، إضافةً إلى البيئة الملوثة في ديب مالين، ولكن هامي هز رأسه قائلاً: «أظن خلال الطريق من سيتادل بعد انتشار الداء الرمادي، الذي أفكر أحياناً أنه أفضل من هذه الحال».

«كم مضى على ذلك؟».

مسحت ذراعه قطرات العرق عن وجهه، وهز رأسه مجدداً، ثمّ فرك بطنه المترهل وقال: «لا أدري، ربما سنوات، وأعتقد أحياناً أنني أستطيع سماع طنين الحشرة هنا في بطني، وهي تجهز عليّ ببطء شديد شيئاً فشيئاً... لقد كنت وجاكاه الفردين السادس والسابع هنا، ثمّ ازداد عددنا... ولم يمت أحد منا، وها نحن أصبحنا واحداً وثلاثين الآن. جاء بولت قبلي ولعله مكث هنا فترةً أطول من الجميع... الذين بقوا أحياء... وأخبرنا أن قاتل الرحلة أراد أربعةً وستين فرداً حينها، وبالتالي منافسات أكثر، بحيث تلوث الدماء عشباً أكثر. أعتقد أن كيلين وراء إقناع قاتل الرحلة أنه سيعجز عن جمع ذلك العدد من الأفراد الكاملين، ولذلك اكتفى باثنين وثلاثين منا. يقول آي إن قاتل الرحلة سيقحم ريد مولي بدل ادخارها حتّى النهاية إن فشل في إيجاد الفرد الكامل الأخير».

أعلم هذا الأمر، وقد ارتعدت خوفاً من ريد مولي مع أنه لم يسبق لي أن رأيتها لأنني التقيت والدتها مسبقاً، ولكن يوجد شيء أجهله، فاقتربت من هامي، وقلت: «إلدن هو قاتل الرحلة».

«هذا ما يقولونه».

«هل لديه اسم آخر؟ هل هو غوغماغوغ؟».

اكتشفت حينها الفرق الشاسع والهوة الكبيرة بين الحكايات الخيالية السحرية مثل الساعات الشمسية التي تغير الوقت، وبين الأمور الخارقة، إذ سمعت شيئاً ما.

تبدلت إضاءة مصابيح الغاز الباهتة المعتادة فجأةً إلى أسهم زرقاء مضيئة حوّلت ديب مالين إلى مصباح ساطع، وتعالت صرخات الخوف والمفاجأة من بعض الزنزانات. رأيت آيوتا واقفاً أمام قضبان زنزانته واضعاً إحدى يديه أمام عينيه، ولم يستمر الأمر سوى لثانية أو ثانيتين، قبل أن تنتفض حجارة الأرض تحتي وتعود إلى مكانها، كما تساقط الغبار من السقف، وتأوهت الجدران، وكأن سجننا صرخ على وقع ذلك الاسم.

لا.

ليس «وكأنها»...

بل صرخت حقيقةً.

ثم انتهى الأمر.

أحاطت ذراعا هامي النحيلتان بعنقي بقوة تكفي كي أختنق، وهمس في أذني: «إياك وذكر ذلك الاسم مجدداً. هل تريد إيقاظ الشيء النائم في البئر المظلمة؟».

الفصل الثالث والعشرون
الوقت ظل في العقل- تاريخ غامض-كلا - ملاحظة- التوزيعات.

1

تلقيت خلال عامي الأول في هيلفيو دروساً في المستوى الأول من اللغة اللاتينية، إذ بدا لي تعلّم لغة منسية فكرةً رائعةً، كما أخبرني والدي أن والدتي تعلمتها في المدرسة ذاتها، ومن المعلمة يونغ نفسها، التي درّست اللغة الفرنسية أيضاً، وقد وجدتها والدتي رائعةً، وأدركت صحة ذلك حين التقيتها رغم تقدمها في السن، وضم صفها ثمانية طلاب حينها، ثمّ تقاعدت

في العام التالي، ولذلك لم أتلقَ دروساً في المستوى الثاني إذ أزيل من برنامج ثانوية هيلفيو اللغوي.

سألت المعلمة يونغ خلال الدرس الأول عن أيّ جمل لاتينية نعرفها، فرفعت كارلا جوهانسون يدها وقالت: «كارب ديم – carpe diem»، والتي تعني اغتنم نهارك، ثمّ عم الصمت ولم يقل أحد شيئاً، ولذلك رفعت يدي وأخبرتها عبارةً اعتاد عمي بوب قولها عندما يحتاج الذهاب إلى مكان ما: «تيمبوس فوجيت – fugit tempus»، وتعني يمر الوقت سريعاً. أومأت المعلمة يونغ، وأعطتنا أمثلةً إضافية بعد نفاد الإجابات من الجميع، مثل: « أد هوك – hoc ad (تعني من أجل شيء معين)»، و«دوفاكتو – facto de (تعني في الحقيقة)»، و«بونا فيد – fide bona (تعني بصحتك)». نادتني المعلمة بعد نهاية الدرس، وقالت إنها تتذكر والدتي جيداً، ومتأسفة لأنني خسرتها باكراً جداً، فشكرتها من دون أن أذرف دمعةً واحدةً، فقد مرّت ست سنوات على وفاتها، ولكن أحسست غصةً في حلقي.

قالت: «إن عبارة تيمبوس فوجيت جيدة، ولكن ليس الوقت سريعاً دوماً، وسيؤكد ذلك أولئك الذين احتاجوا انتظار شيء ما، ولذا أفضل عبارة تيمبوس إت أومبرا إن مينتي، وتعني تقريباً أن الوقت ظل في عقولنا».

راودني هذا الحديث مراراً في ديب مالين، لأننا مدفونون، والسبيل الوحيد إلى تمييز النهار – أي أن الوقت نهاراً في مكان ما غير زنزانتنا الأبدية – هو قلة عدد المرات التي يأتي فيها جنود الليل، وخفوت هالاتهم، وزيادة وضوح وجوههم البشرية العابسة الشاحبة والمتعبة في معظمها، وتساءلت إن عقد هؤلاء خلال حياتهم البشرية صفقةً ما مع الشيطان ويندمون عليها الآن أو تأخر الوقت كثيراً على الانسحاب، ولكن ربما ليس أرون، وقطعاً ليس لورد هاي، بل لعل بقيتهم كذلك، أو أنني أرى ما أريد رؤيته فحسب.

أعتقد أنني تتبعت الوقت تماماً خلال أسبوع الاحتجاز الأول، ولكنني عجزت عن ذلك بعدها، وأظن أنهم أخذونا إلى الملعب كل خمسة أو ستة أيام، حيث مارسنا تمارين بسيطة من دون قتال دامٍ، باستثناء يانو الذي خلعت كتفه بعد تسديده ضربة عصا قوية جداً إلى إيريس (أعتذر عن ذكر أسماء جديدة ولكن يجب أن تتذكر وجود ثلاثين سجيناً معي) والتي انحنت وتفادتها، وقد توقعت حدوث ذلك، إذ يفتقر يانو ومعظم رفاقي هناك إلى ما قد تسميه بنية دوين جونسون الجسدية ناهيك عن وقت الاحتجاز الطويل والذي لم يساعده في امتلاك بنية جسدية قوية، بينما مارست الرياضة حتّى في زنزانتي، وكذلك بعض السجناء الآخرين.

أعاد سجين آخر يدعى فريد كتف يانو إلى مكانها بعد عودتنا إلى غرفة تبديل الملابس، وذلك بعد أن طلب منه البقاء ساكناً، ثمّ شد مرفقه، ورفعه فحصلت طقة عندما عاد المفصل إلى وضعه الطبيعي.

أخبرته على الطريق إلى ديب مالين: «أحسنت صنعاً».

هزّ فريد كتفيه مستهجناً وقال: «لقد كنت طبيباً في سيتادل قبل سنوات كثيرة».

لكنه استخدم كلمةً أخرى غير سنوات، وأعلم أنني قلت ذلك سابقاً، وأنت تعلم ذلك أيضاً، ولكن يجب أن أشرح، أو أحاول على الأقل تفسير سبب عجزي عن فهم التناقضات؛ حيث سمعت كلمة سنوات دوماً، ولكن تبين بعد استخدامها في أسئلتي عن إمبيس أن معناها يختلف نسبةً إلى الأشخاص. لقد رسمت صورةً عن التاريخ الإمبيسي مع مرور الأسابيع (استخدمت هذه الكلمة عمداً)، ولكن من دون وضع خط زمني متناسق.

حضر والدي لقاءات جمعية مدمني الكحول المجهولين، حيث طُلب من المبتدئين إزالة قطع القطن من آذانهم ووضعها في فمهم؛ أي أن يتعلموا كيفية الإصغاء وبالتالي أن يصغوا كي يتعلموا. لقد طرحت الأسئلة أحياناً،

ولكن حافظت على صمتي معظم الأوقات، إذ تحدّث الجميع (لأنه الشيء الوحيد المتاح أمامهم) واختلفوا حيال وقت حدوث هذا وذاك (أو حقيقة وقوع الأمر حتّى)، كما رووا القصص التي سمعوها عن آبائهم وأجدادهم، وقد كانت صورةً مشوشةً كي يبدأ المرء منها، ولكن تبقى أفضل من لا شيء.

يحكى أنه في قديم الزمان، امتلكت الفراشات الكبيرة سلطةً فعليةً وجيشاً حقيقياً، وحتى أسطولاً بحرياً على حدّ معرفتي، إذ شابهت إنكلترا تقريباً خلال فترات حكم جيمس، وتشارلز، وهنري وزوجاتهن. تقلد ملوك إمبيس القدماء – وأحد الأمور التي أجهلها هو وجود ملكات بينهم – بناءً على قرار الآلهة العظمى الحاسم الذي لا يقبل الجدل، واعتبر الملوك أنفسهم آلهةً، وسمعت أنهم كذلك فعلاً. هل يصعب تصديق أن الملوك (وربما أفراد عائلاتهم) قادرون على الطيران وقصف الأعداء وقتلهم عبر نظراتهم الغاضبة، أو شفاء المرضى عبر لمسهم، وذلك في بلاد تضم حوريات البحر والعمالقة؟

جاء زمان اعتلت فيه أسرة غالين عرش الحكم، وقدر زملائي في السجن حدوث ذلك قبل سنوات طويلة، أحسنت التخمين، ثمّ تزعزعت سلطتهم مع مرور الوقت، أي بعد خمسة أو ستة أجيال حسب اعتقادي، وخسرت حكومة إمبيس سطوتها قبيل الداء الرمادي، وحافظت الأسرة الحاكمة على اعتبارها من دون أن تكون الآمرة الناهية في البلاد، حيث تحدث الطبيب فريد عن سيتادل وكأنها إحدى المدن الكبيرة المهمة؛ حيث أدارها مجلس من سبعة مستشارين منتخبين، ولكنني تصورتها بلدةً غنيةً ازدهرت بفضل التجارة بين سيفرونت وليليمار، ولعل الأمر نفسه بالنسبة إلى البلدات والمقاطعات الأخرى مثل ديسك وأولوم (قبل توغل السذاجة الدينية فيها على الأقل)، حيث امتلك كل منها ما يميزها، واهتم مواطنوها بأعمالهم.

أدركت أن معظم السجناء الذين أصبح معظمهم أصدقائي – وقد شق عليهم التعامل مع إيمانهم بأنني أمير سحري أو احتمال ذلك – يعرفون القليل فقط عن ليليمار والقصر، ليس لأن ذلك سر كبير، بل لأنهم منحوا اهتمامهم إلى حيواتهم الخاصة وبلداتهم. لقد دفعوا الضرائب إلى الملك (وقد اعتقد دوبل أن اسمه الملك جام – تعني المربى في الإنكليزية، مثل شيء تضعه على الخبز)، نظراً إلى واقعية المبالغ المطلوبة، ومواظبة الجيش على حماية الطرق والجسور والذي كان وقتها جيشاً صغيراً وأطلق عليه اسم حراس الملك، كما دفعوها إلى أشخاص أطلق عليهم توم اسم خيالة الشرطة، وأسماهم أميت القوات الشعبية (هذه هي الكلمات التي سمعتها). التزم شعب إمبيس دفع الضرائب إلى جان لأنه الملك – مفاجأة! – إضافةً إلى ميلهم ناحية تنفيذ العادات والتقاليد، ولكن لعل الأمر أزعجهم قليلاً، وهذه حال الجميع حيال دفع الأموال، ثمّ نسوا كل شيء عن الأمر حتّى مجيء اليوم الإمبيسي الذي يكافئ الخامس عشر من نيسان مجدداً.

هل تتساءل عن السحر؟ والساعة الشمسية؟ وجنود الليل؟ والأبنية التي يبدو أنها تغير شكلها أحياناً؟ لقد اعتادوا عليها، وإن وجدت ذلك غريباً، تخيّل أن شخصاً سافر عبر الزمن من عام 1910 إلى عام 2010 كي يجد عالماً يجوب الناس سماءه ضمن طيور معدنية عملاقة، ويركبون سيارات تتحرك بسرعة تسعين ميلاً في الساعة، ويتجولون حاملين حواسيب قويةً في جيوبهم، كما يشبه الأمر شخصاً شاهد بضعة أفلام صامتة بالأبيض والأسود، ويجلس الآن في الصف الأمامي من سينما آي ماكس كي يشاهد فيلم أفاتار ثلاثي الأبعاد.

ستعتاد على الأشياء المذهلة، هذا كل ما في الأمر؛ أي ستتقبل أن يجمع عالمك حوريات البحر وآي ماكس، أو العمالقة والهواتف المحمولة، وستجده أمراً رائعاً، أليس كذلك؟ ولكنه يبدو سيئاً من ناحية أخرى. هل يخيفك غوغماغوغ؟ ماذا لو علمت أن عالمنا يضم مخزوناً من الأسلحة

النووية الذي يكفي كي يبيد وجودنا؟ وأجهل ما قد أسميه إن لم يكن سحراً أسود.

2

توالى الملوك على حكم إمبيس، وقد علمت وجود جثث أفراد أسرة غالين في أحد المباني الرمادية الضخمة التي مررت برفقة رادار بجوارها عندما تبعنا الحرفين الأولين من اسم السيد بوديتش إلى الساعة الشمسية حيث غسل الملك جان حسب الطقوس المتعارف عليها، وزعم بولت أنهم استعملوا كأساً ذهبياً مقدساً.

أصر جاكاه أن الملكة كلارا هي زوجة الملك جان، وربما اسمها كارا، ولكن آخرين أصروا أن الاسم هو كورا، وأنها قريبته من الدرجة الثالثة أو ما شابه، وقد جهل الجميع عدد أولادهم؛ إذ قال بعضهم أربعة، وآخرون ثمانية، وأقسم أميت أنهما أنجبا عشرة أطفال، إذ قال: «لا بد أنهما مارسا الجنس مثل الأرانب الملكية»، ولكن أخبرتني فرس أميرة محددة شيئاً أثبت أنهم مخطئون – إذ كانوا سبعة أبناء، خمس فتيات وصبيان، وهنا أثارت القصة اهتمامي، أو أصبحت ذات صلة رغم أنها بقيت غامضةً إلى حدّ الجنون.

أصاب المرض الملك جان، وانتظر ابنه المفضل الأكبر روبرت أن يخلفه، وكان جاهزاً كي يشرب من الكأس المقدسة (والتي تخيّلتُ أن رسوم الفراشات قد نقشت على حافتها)، بينما تلاشى الأخ الأصغر إلدن من ذاكرة الجميع... باستثناء ليا، التي أحبته كثيراً.

ذات ليلة قال دومي: «أجمعت الروايات على أنه أحمق أعرج، حيث ابتليت قدماه بالحنف[37]».

قال أوكا: «وسمعت أن الثآليل تغطيه أيضاً».

أضاف فيرمي: «ويملك حدبةً في ظهره».

قال ستوكس: «قيل إن هناك كتلة في عنقه».

استمتعت خلال هذا الحديث، وتعلمت منه أيضاً، إذ ذكر الأمير إلدن – القبيح، والأعرج، والمنسي تقريباً – وقاتل الرحلة وكأنهما شخصان مختلفان، أو مثل اليسروع الذي يتحول إلى فراشة، وأعتقد أن جزءاً من حراس الملك على الأقل قد تحولوا إلى جنود الليل.

اشتعلت الغيرة في قلب إلدن من شقيقه قبل أن تستحيل كراهيةً، وقد اتفق الجميع على هذه النقطة، ولما لا؟ إذ تمثل العداوة بين الإخوة محور حكاية خيالية تقليدية في عالمي، وأعلم أن القصص الجيدة ليست حقيقيةً دوماً وإن في جزء منها على الأقل، ولكنها معقولة بما يكفي، حيث تجسّد طبيعة النفس البشرية، إذ قرر إلدن السيطرة على عرش أبيه عبر القوة أو الخداع وأن ينتقم من عائلته، حتّى وإن سبب ذلك معاناة شعب إمبيس كله.

أعلم تماماً كيف حصل إلدن على اسمه الجديد، ولكن هل حل الداء الرمادي قبل تحوله إلى قاتل الرحلة أم بعده؟ قال معظم رفاقي أنه قبله، ولكنني أعتقد العكس، وأن قاتل الرحلة خلقه بطريقة ما.

قال الطبيب فريد: «لقد انتشرت الفراشات في أنحاء إمبيس جميعها، وغطت السماء تماماً».

جرى هذا الحوار على طريقنا إلى الزنزانة بعد أن أعاد الطبيب كتف يانو التي أصيبت خلال التمرين، إذ مشينا معاً وتحدث الطبيب بصوت منخفض أقرب إلى الهمس، وأصبح الكلام أسهل خلال نزولنا السلالم كما تباطأت خطواتنا لأن التمرين أنهكنا، وقد جعلني حديثه أُفكّر كيف ملأ الحمام المهاجر سماء وسط غرب الولايات المتحدة قبل أن يصطاده الناس حتّى انقرض، ولكن من اصطاد الفراشات الكبيرة؟

سألته: «هل كانت لذيذةً؟»، إذ شكّل الحمام المهاجر طعاماً رخيص الثمن، وهذا سبب انقراضه.

تنهد وقال: «إن الفراشات الكبيرة سامة يا تشارلي، إذ قد تؤلمك معدتك عند تناول واحدة، ولكن إذا تناولت عدداً كبيراً منها فقد تموت. لقد انتشرت في كل مكان كما أذكر، وخاصةً في ليليمار وضواحيها».

هل قال ضواحي أم أحياء صغيرةً؟ إنهما تمتلكان المعنى نفسه.

«لقد زرع الناس نبات الصقلاب[38] في حدائقهم كي تتناولها اليرقات، والورود كي تمتص الفراشات رحيقها، حيث اعتبرت الأخيرة رمز الحظ في المملكة».

فكرت في التماثيل المحطمة التي رأيتها وقد نقشت على أنقاضها أجنحة مفتوحة.

«تفيد القصة أن إلدن بقي حياً بعد مقتل أفراد أسرته جميعاً، فارتدى معطفاً أحمر ووشاح فرو أبيض، ووضع تاج أسرة غالين على رأسه، ومشى في الشوارع تحت ظل الفراشات الكبيرة التي احتلت السماء، ولكن انهمرت الآلاف منها ميتةً بعد كل مرة يرفع إلدن يده فيها. بقي بعض السكان في المدينة وبايعوا إلدن وأقسموا له بالولاء، بينما غادرها الآخرون وشقوا طريقهم بين ملايين الفراشات الميتة التي بلغ ارتفاعها عشر أقدام، وقد تلاشت ألوانها الساطعة كي يحل الرمادي محلها».

قلت عندما أوشكنا الوصول إلى الزنزانات: «هذا رهيب، وهل تُصدّق ذلك؟».

فرك عينيه، ثمّ نظر إليّ مجدداً وقال: «أعلم أنها قتلت في سيتادل، وقد رأيتها تتساقط من السماء بنفسي، وسيخبرك الآخرون الأمر نفسه...

سأدفع أي شيء مقابل رؤية فراشة واحدة على الأقل خلال التمرين في ساحة اللعب، واحدةً فقط، ولكن أعتقد أنها انقرضت تماماً».

«هذا غير صحيح، إذ رأيت أعداداً كبيرةً منها».

أمسك ذراعي، وقد فاجأتني قوة قبضته نسبةً إلى حجمه؛ إذ اعتقدت أنه احتمالات صموده في فير ون تعادل نظيرتها لدى هامي، وقال:» هل ما تقوله حقيقي؟ هل تقسم على ذلك؟».

«أجل».

«أقسم باسم والدتك الآن».

التفت أحد الحراس إلينا عابساً، وأشار مهدداً بعصاه المرنة قبل أن يستدير إلى الأمام مجدداً.

همست: «أقسم باسم والدتي».

مازالت الفراشات الكبيرة حيةً، وكذلك أفراد أسرة غالين، ولكنهم تحت لعنة القوة التي يمتلكها إلدن الآن أياً كانت – وهي ذاتها التي دمرت الضواحي القريبة وأحالتها ركاماً – ولكن ما يهم أنهم أحياء، وقد تجنبت إخبار فريد ذلك حفاظاً على حياتنا.

فكّرت في القصة التي رواها وودي حول مطاردة هانا أفراد عائلته الباقين حتّى بوابات المدينة، وكيف سحقت رأس ابن أخيه ألويسيوس. «متى جاءت هانا؟ وما سبب قدومها من أرض العمالقة شمالاً؟».

هزّ رأسه وقال: «لا أدري».

اعتقدت أن السيد بوديتش جاء في رحلته الأخيرة من أجل الذهب خلال زيارة هانا أقاربها في كراتشي، ولكن لا سبيل للتأكد من ذلك لأنه مات، وكما قلت سابقاً؛ إن التاريخ الإمبيسي غامض.

بقيت تلك الليلة يقظاً لفترة طويلة، ولكنني لم أَفكّر في إمبيس، أو الفراشات، أو قاتل الرحلة؛ بل في والدي الذي افتقدته وقلقت عليه، إذ لعله يعتقد أنني ميت مثل والدتي.

3

مرّ الوقت سريعاً خلال جمع المعلومات الصغيرة دون أن أتيقن سبب إقدامي على ذلك. في أحد الأيام عدنا من تمرين مرهق أكثر من المعتاد، كي نجد رجلاً ملتحياً أكبر حجماً مني، ومن دومي، وآيوتا، قابعاً في زنزانة الأخير، ومرتدياً بنطالاً قصيراً متسخاً، وسترةً مخططةً ملوثةً مثله وقد تمزق كماها كي يكشفا عن عضلات ذراعه المفتولة. جلس الرجل أرضاً في الزاوية وركبتاه في مستوى أذنيه وبعيداً قدر الإمكان عن الهالة الزرقاء حول لورد هاي.

رفع كيلين متكاسلاً إحدى يديه، ولكنها كانت كافيةً كي يقف جنديا الليل اللذان يقوداننا على أهبة الاستعداد، فتوقفنا جميعاً، في ذلك اليوم كانت جايا تسير إلى جانبي، ولمست يدي بيدها التي كانت باردةً جداً.

تقدم كيلين إلى زنزانة آي، ثمّ التفت إلينا قائلاً: «أود أن أعرفكم يا أصدقائي الأعزاء إلى زميلكم الجديد، إن اسمه كلا. لقد وجدناه على شاطئ بحيرة ريملا بعد أن تسربت المياه إلى قاربه الصغير، حيث أوشك أن يغرق، أليس كذلك يا كلا؟».

التزم كلا الصمت، وحدّق إلى كيلين فقط.

«أجبني!».

«أجل، لقد أوشكت على الغرق».

«حاول الإجابة مجدداً، ونادني لورد هاي».

«أجل أيها اللورد هاي، لقد أوشكت على الغرق».

«التفت كيلين إلينا مرةً أخرى وقال: «ولكن أنقذناه يا أصدقائي الأعزاء، وأنا متأكّد أنكم لاحظتم غياب أي بقعة رمادية عنه، ولكن بعض الأوساخ تغطيه»، ثمّ ضحك ضحكةً مكتومةً سيئة الصوت، وهنا شدت جايا قبضتها على يدي.

«أدرك أن تقديم السجناء الجدد ليس شائعاً في ديب مالين كما تعلمون، ولكن أعتقد أن صديقنا الجديد كلا يستحق واحداً، لأنه ضيفنا الثاني والثلاثين، أليس ذلك رائعاً؟».

التزم الجميع الصمت.

أومأ كيلين إلى أحد جنديي الليل اللذان يقودان موكبنا عاثر الحظ، ثمّ إلى بيرند الواقف في المقدمة إلى جوار أميت، فضربه الجندي بالعصا المرنة على عنقه، كي يصرخ الأخير متألما ويسقط إلى ركبتيه واضعاً يده حيث تسيل الدماء، ثمّ انحنى كيلين إليه.

«أخبرني ما اسمك؟ سأتجنب الاعتذار عن نسيانه إذ أنكم كثيرون».

أجاب مختنقاً: «أدعى بيرند، وأنا من سيتـ...».

قال كيلين: «لا يوجد مكان يدعى سيتادل بعد اليوم، يكفي أن تقول بيرند. إذن أخبرني يا بيرند من اللامكان، أليس رائعاً حصول الملك إلدن الملقب بـ قاتل الرحلة على المتنافس الثاني والثلاثين؟ وأجبني بصوت قوي ومرتفع».

قال بيرند: «أجل»، وقد سالت قطرات الدماء بين أصابع يده القابضة على رقبته.

قال لورد هاي وكأنه يُعلّم طفلاً صغيراً كيفية القراءة: «أجل ماذا؟ ر.. را..؟ أخبرني بصوت قوي ومرتفع فوراً!».

أجاب بيرند: «رائع»، ونظر إلى أرض الممر الصخرية الرطبة.

قال كيلين: «أيتها المرأة. إيريس. أليس كذلك؟».

أجابت إيريس: «أجل يا لورد هاي»، إذ يستحيل أن تصوب كلامه.

«أليس رائعاً انضمام كلا إلينا؟».

«أجل يا لورد هاي».

«ما مدى روعة ذلك؟».

«إنه أمر في غاية الروعة يا لورد هاي».

«هل تفوح هذه الرائحة النتنة من فرجك أم مؤخرتك يا إيريس؟».

تجمد وجه إيريس تماماً، ولكن اشتعل الغضب في عينيها، فتصرفت بحكمة والتفتت إلى الأرض قائلةً: «ربما كلاهما يا لورد هاي».

«أجل، أعتقد ذلك أيضاً. حان دورك يا آيوتا، اقترب مني».

تقدم آيوتا إلى الأمام، وأوشك أن يلامس الهالة الزرقاء التي تحمي كيلين.

«هل أنت سعيد لأنك حصلت على شريك في زنزانتك؟».

«أجل يا لورد هاي».

«أليس أمراً ر... را..؟»، وفتح كيلين يده البيضاء كي يكمل آيوتا الكلمة، وقد لاحظت أنه سعيد، بل مبتهج جداً، ولم لا؛ إذ أكمل مهمة جمع الأفراد الكاملين على أكمل وجه، وأدركت الآن كم أكرهه إضافةً إلى قاتل الرحلة الذي لم ألتقِ به بعد.

«إنه أمر رائع».

مدّ كيلين يده ببطء صوب آيوتا الذي حاول أن يثبت في مكانه، ولكنه أجفل إلى الخلف عندما أصبحت اليد على مسافة سنتمترات قليلة عن وجهه، وقد سمعت طقطقةً في الهواء، ورأيت شعر آيوتا منتصباً أمام القوة التي أبقت كيلين حياً أياً كانت.

«رائع ماذا يا آيوتا؟».

«إنه أمر رائع يا لورد هاي».

انتهى كيلين من العبث معنا، ثمّ سار بخطوات واسعة بيننا، وقد حاولنا الابتعاد عن طريقه، ولكن بعض السجناء عجزوا عن ذلك ووقعوا ضحية هالته، فركع كل واحد منهم على ركبتيه إما صامتاً أو يئن من الألم. دفعت جايا بعيداً عنه كي يدخل مرفقي الهالة الزرقاء حوله ويمتد ألم حارق حتّى كتفي وتتشنج عضلاته كلها، وقد مضت دقيقتان طويلتان قبل أن تعود إلى طبيعتها مجدداً.

فكرت في نفسي: «يجب أن يعتقوا العبيد الرماديين ويستعملوا طاقتهم من أجل تشغيل ذلك المولد القديم».

وقف كيلين عندما وصل إلى الباب، والتفت إلينا، وضرب قدمه إلى الأرض مثل رقيب تدريب عسكري بروسي، ثمّ قال: «أنصتوا إليّ يا أصدقائي الأعزاء، باستثناء قلة من المنفيين غير المهمين، وبعض الأفراد الكاملين الهاربين الذين ربما فروا خلال بدايات حكم قاتل الرحلة، أنتم القطرات الباقية من الدماء الملكية، والبذور الأخيرة الضعيفة من نسل الخبيثين الأوغاد المغتصبين، لذلك أوكلت إليكم مهمة إسعاد قاتل الرحلة، وستنفذونها قريباً، إذ انتهى وقت اللعب، وستطأ أقدامكم ملعب إلدن، الذي عرف باسم ملعب الفراشات الكبيرة سابقاً، إلى الجولة الأولى من فير ون».

أشرت بذراعي التي استعادت عافيتها إلى كلا وقلت: «ولكن ماذا عنه يا لورد هاي، ألن تتسنى له فرصة التمرن؟».

نظر كيلين إليّ وقد ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجهه، واستطعت رؤية تجويفي عينيه الفارغين في جمجمته، وقال: «ستكون أنت تمرينه أيها الصغير، لقد نجا كلا من بحيرة ريملا، ولذلك سيتجاوزك بسهولة، انظر إلى حجمه! لا، لا... ستفشل يا صديقي المتغطرس في التأهل إلى الجولة الثانية، وسيسعدني حينها أن أتخلص منك بنفسي».

رحل بعد هذه الكلمات المطمئنة.

4

تلك الليلة، تناولنا شرائح اللحم على العشاء، وفي كل ليلة بعد «وقت اللعب» تقريباً. دفع بيرسي عربته عبر الممر وهو يلقي الشرائح غير المطبوخة جيداً إلى زنزاناتنا الست عشرة والتي احتجز الآن سجينان في كل منها، ورفع بيرسي مجدداً يده المشوهة إلى جبهته عندما ألقى قطعة اللحم إليّ، ستدرك أنه يؤدي التحية مباشرةً رغم تنفيذها بسرعة وخفية. التقط كلا شريحته قبل أن تسقط على الأرض، وجلس في الزاوية حاملاً إياها، والتهمها في لقمات كبيرة شرهة، فقلت في نفسي: «يا لهذه الأسنان الكبيرة التي تملكها يا كلا».

تناول هامي بضع لقمات من قطعته، ثمّ حاول أن يعطيني إياها، ولكنني قلت: «تستطيع أن تأكل أكثر من ذلك».

أجابني: «ولماذا سأتناولها؟ كي أعاني من الآلام، ثمّ أموت على أيّ حال؟».

تذكرت قول والدي الذي تعلمه من جمعية الكحوليين المجهولين: «يوم واحد كل مرة»، لم يبدُ أن السجين يدرك مرور الأيام في مالين، ولكن هامي

تناول بضع لقمات أخرى من أجلي، إذ كنت الأمير الأسطوري المنتظر، ورغم امتلاكي قدرةً سحريةً غامضةً على تغيير لون شعري وعيني، فقد عجزت عن التحكم فيهما أو استعمالهما.

طرح آي سؤالاً على كلا عن حادثة الغرق، ولكن الأخير التزم الصمت، وقد أراد فيرمي وستوكس معرفة موطنه ووجهته؛ في حال احتوى العالم جنةً آمنةً في مكان ما، كما سأله غالي عن الفترة التي قضاها هارباً، من دون أن ينبس ببنت شفة، بل تناول شريحته، ومسح العصارة عن أصابعه بقميصه المخطط.

وقف دوبل خلف قضبان زنزانته المشتركة مع بيرند والتي تبعد قليلاً عن زنزانتي، وقال: «هل يجب أن يحضر لورد هاي كي ينطلق لسانك؟»، وقد حمل بقية قطعته في يده، وأنا أعلم أنه يدخرها كي يتناولها بعد الاستيقاظ ليلاً – إن عادات السجن بسيطة ولكنها مؤسفة.

أجاب كلا من زاويته دون أن ينهض أو يلتفت إلينا: «لماذا الحديث إلى أشخاص سيموتون قريباً؟ أفهم أمر المسابقة جيداً، ولكنني سأفوز بها، وأخطف الجائزة في حال وجودها».

عمّ صمت تام بعد سماع هذه الكلمات.

أخيراً، قال فيرمي: «إنه لا يفهم».

تابع ستوكس: «أو لعله تلقى معلومات خاطئةً، أو ما زال بعض الماء يسد أذنيه فلا يسمع جيداً».

شرب آيوتا كوب ماء من دلوهما، ثمّ قفز إلى قضبان زنزانته التي كانت انفراديةً حتّى ذلك اليوم، وأخذ يمطط عضلاته ويهز القضبان كعادته، ثمّ أفلتها والتفت مواجهاً العملاق الأخرق الجالس أرضاً في الزاوية.

قال: «دعني أخبرك شيئاً يا كلا، أو أوضحه كما يقال؛ لقد أقيمت بطولات مثل فير ون خلال حكم أسرة غالين على أرض ملعب الفراشات الكبيرة، وجاء آلاف الناس كي يشاهدوها من كل مكان، وحتى العمالقة من كراتشي، وتفيد الأخبار أن حراس الملك قد شاركوا فيها، وأتيح المجال أمام أفراد عامة الشعب أيضاً والذين يريدون اختبار قوتهم، وقد جرت مبارزات دموية وحُمل المتسابقون فاقدين وعيهم أحياناً إلى خارج الملعب، ولكن ينطبق هذا الوصف على النسخة القديمة من المسابقة، وحتى قبل وصول أسرة غالين إلى الحكم، أي حين كانت ليليمار مجرد قرية صغيرة مثل ديسك».

ما زلت أجهل بعض ما قاله آيوتا حتّى بعد قضاء أيام وأسابيع طويلة هنا، ولذلك أنصت بانتباه، وكذلك بقية السجناء؛ إذ يندر أن نناقش أمر فير ون في زنزانتنا الأبدية لأنه موضوع مُحرّم، مثل كراسي التعذيب الكهربائية في الأيام القديمة والحقن القاتلة في أيامنا هذه.

«سيتنافس ستة عشر فرداً منا ضد النصف الآخر حتّى الموت من دون استراحة أو انسحاب، وأي شخص يرفض القتال سيجد نفسه – أو نفسها – على المخلعة، أو في العذراء الحديدية، أو حزام التعذيب – تربط الضحية إلى حبل وترمى من مكان شاهق وتسحب فجأةً قبل وصولها إلى الأرض، هل تفهم ما أقوله؟».

جلس كلا في زاويته وكأنه يفكر، ثمّ قال أخيراً: «أستطيع أن أُقاتل».

أومأ آي: «أعلم أنك كذلك عندما لا تكون أمام لورد هاي أو غارقاً في البحيرة. سيتبارز الفائزون الستة عشر مجدداً، كي يبقى ثمانية، ثمّ أربعة، ويصبح الأربعة اثنين».

أومأ كلا وقال: «سأكون أحدهما، وسأحصل على جائزتي عندما يموت خصمي أمام قدمي».

اقترب هامي، ووقف إلى جانبي وقال: «ستحقق ذلك حتماً... يقال إن الفائز حصل قديماً على كيس مليء بالذهب، وأعفي مدى الحياة من ضرائب الملك، ولكن تلك الأيام ولت، وستكون جائزتك اليوم قتال ريد مولي؛ إنها عملاقة، وهي كبيرة جداً على الجلوس في الجناح الخاص الذي يشغله متملقو قاتل الرحلة. لقد رأيتها بضع مرات واقفةً تحته، وأدرك أنك كبير ويبلغ طولك سبع أقدام تقريباً، ولكن الساقطة الحمراء أكبر».

قال داش: «لقد أطلقوا عليّ اسم داش لسبب معين، حيث أنني سريع، وهي بطيئة، ولذلك تعجز عن إمساكي».

التزم الجميع الصمت؛ إذ سيقضى على داش قبل أن يواجه أحد ريد مولي.

فكر كلا في الأمر مجدداً، ثمّ نهض أخيراً، وأصدرت ركبتاه طقطقةً مثل الأخشاب التي تشتعل في النار، ثمّ اقترب من دلو المياه، وقال: «سأهزمها أيضاً، وأضربها حتّى أجعل دماغها يخرج من فمها».

قلت: «سنفرض أنك فعلت ذلك».

التفت كلا إليّ.

«ما زالت النهاية بعيدةً، إذ يجب بعد قتل الابنة – رغم ضآلة احتمال ذلك – أن تواجه أمها، ويستحيل أن تحصل على فرصة أمامها، لقد سبق لي أن رأيتها، وهي تشبه غودزيلا!».

لم أقل ذلك طبعاً، ولكن أياً كان فقد تعالت همسات الخلاف من الزنزانات الأخرى.

قال كلا: «لقد جردوكم من شجاعتكم حتّى أصبحتم خائفين من ظلالكم»، ولعله نسي أن ذلك ما أصابه عندما أمره كيلين أن يناديه لورد

هاي، ولكن يختلف الأخير وجنود الليل عنا طبعاً، إذ يملكون تلك الهالات، وتساءلت عن كيفية شلل عضلاتي عندما لمسني كيلين.

حمل كلا دلو مياه الشرب، ولكن قبض آيوتا على ذراعه الضخمة.

«لا، لا. استعمل الكوب أيها الغبي، فبيرسي لن يُحضر عربة مياه الشرب مجدداً قبل...».

لم يسبق أن رأيت رجلاً ضخماً مثل كلا وسريعاً في الوقت نفسه ولا حتّى في مقاطع أبرز لقطات شاكيل أونيل التي تعرضها قناة (إي أس بي إن) عن الفترة التي لعب فيها كرة السلة من أجل فريق جامعة لويزيانا (ولكن امتلك ارتقاءات رائعةً رغم أن طوله سبع أقدام ووزنه مئة وخمسون كيلوغراماً تقريباً.

كان الدلو في يد كلا ومائلاً ناحية فمه، ولكن صدر بعد لحظة صوت قعقعته على أرضية الغرفة الحجرية، وقد انسكبت المياه منه، بينما جلس آي على الأرض مستنداً إلى إحدى يديه وواضعاً الأخرى على عنقه. اتجه كلا إلى الدلو والتقطه.

قال يانو: «ستنال عقاباً قاسياً إن قتلته، إذ سيلغى فير ون»، وقد بدا مرتاحاً.

قال هامي حزيناً: «بل سيقام لا محالة، إذ سيرفض قاتل الرحلة الانتظار، وسيقحم ريد مولي مكان آي».

ولكن آي ما زال حياً، واستطاع الوقوف في النهاية، ثمّ مشى مترنحاً إلى سريره واستلقى عليه، وذلك من دون أن أرى الضربة التي وجهها كلا إلى عنقه فطرحته أرضاً. لقد كان آي أكبرنا حجماً قبل مجيء كلا، وأكثرنا قوةً، والشخص الذي تتوقع صموده حتّى نهاية البطولة الدموية المسماة فير

ون، ولكنه عجز عن رفع صوته عن مستوى الهمس بعد أن لكمه كلا إلى عنقه.

من يجب أن يواجه شخصاً يستطيع فعل ما سبق خلال الجولة الأولى في البطولة؟

وفقاً إلى كيلين، إنه أنا.

5

راودتني الأحلام عن رادار عادةً، ولكن بعد ليلة عراك آي وكلا، رأيت الأميرة ليا، وقد ارتدت في الحلم ثوباً أحمر مرتفع الخصر وصدرية مشدودة على جسدها، وبرز تحت حاشية ثوبها حذاء أحمر يلائمه ورصع الألماس مشبكه، كما ربطت شعرها إلى الخلف بواسطة طوق من اللآلئ، وأحاطت عنقها قلادة ذهبية تحمل فراشةً تربعت بين نهديها، وكنت جالساً إلى جوارها مرتدياً بذلةً سوداء مخمليةً وقميصاً أسود حريرياً، وليس الملابس البالية التي جئت فيها إلى إمبيس رفقة كلبتي المريضة، كما انتعلت حذاءً جلدياً حافته العلوية مطوية، يشبه ما قد ينتعله فرسان دوما[39] وأنا متأكد أنه من مجموعة دورا، وكانت فلادا ترعى بهدوء في الأرجاء بينما مشطتها بالفرشاة وصيفة ليا الرمادية.

أمسكت وليا أيدي بعضنا وراقبنا انعكاس أنفسنا في حوض مياه ساكنة؛ امتلكت شعراً ذهبياً طويلاً، وقد اختفى العد – حب الشباب – من وجهي، وبدوت وسيماً وكذلك ليا، وذلك بعد أن استعادت فمها، إذ ارتسمت ابتسامة صغيرة على شفتيها الحمراوين اللتين حملتا غمازتين إلى جانبيهما من دون أي قرحة أو ما شابه، سأقبلهما لو استمر هذا الحلم الذي أدركت أنه يشبه المشهد الأخير من أحد أفلام ديزني المتحركة، إذ ستسقط بتلة في الحوض خلال أيّ لحظة كي تشوش انعكاس صورة الأمير والأميرة في

المياه بينما تتلاقى شفاههما بعد لم شملهما، وسيعلو صوت الموسيقى. هكذا يجب أن تكون النهاية، ويمنع أن يخربها أي ظلام.

ولكنني وجدت شيئاً غير منطقي، وهو أن الأميرة ليا حملت في حضنها مجفف شعر أرجواني، والذي أعرفه جيداً رغم أنني كنت في السابعة حين توفيت والدتي، ولكن والدي أرسل أدواتها جميعها إلى متجر غودويل، إذ قال إن قلبه يتحطم في كل مرة ينظر فيها إلى ما أسماه «أغراض المرأة»، ولم أُمانع تخليه عن معظمها، ولكنني طلبت منه أن أحتفظ بكيس الطيب خاصتها ومرآتها اليدوية، ووافق على ذلك. ما زلت أحتفظ بهما في المنزل داخل خزانتي.

لقد أطلقت والدتي على مجفف شعرها اسم سلاح الإشعاع الأرجواني المميت.

فتحت فمي كي أسأل ليا عن سبب امتلاكها مجفف شعر والدتي، ولكن وصيفتها قالت قبل أن أتفوه بأي شيء: «ساعدها».

أجبت: «ولكن أجهل كيفية فعل ذلك».

ارتسمت ابتسامة على فم ليا الجديد والساحر، وداعبت وجنتي قائلةً: «أنت أسرع مما تتصور أيها الأمير تشارلي».

أردت إخبارها أنني لست سريعا أبداً، وهذا ما جعلني ألعب على الخط في مباريات كرة القدم وعلى القاعدة الأولى في كرة القاعدة، وأعترف أنني أظهرت سرعةً كبيرة في مباراة تركي باول ضد فريق ستانفورد[40] ولكنه استثناء أحدثته فورة الأدرينالين في جسدي، وقبل أن أستطيع الكلام مجدداً، ضربني شيء على وجهي فاستيقظت مباشرةً.

لقد كانت قطعة لحم أخرى، ولكنها صغيرة وبالكاد أكبر من كسرة خبز، وقد ألقاها بيرسي خلال سيره في الممر وهو يقول: «آيا، آيا»، والذي

افترضت أنها نتاج جهوده المبذولة كي ينطق كلمة بقايا.

استغرق هامي في النوم وسط شخيره، إذ أرهقه «وقت اللعب» ومعاناته اليومية في التغوط بعد العشاء. تناولت لقمةً صغيرةً من قطعتي، وجلست مستنداً إلى الحائط، ثمّ أخذت قضمةً أخرى، فأحسست أنني أمضغ شيئاً ما بين أسناني الأمامية، أخرجته من فمي وتبيّن أنها قطعة ورق تشبه تلك الموجودة في كعكة الحظ، ويبدو أن أحداً دسها في شريحة اللحم خاصتي، وقد كتب كلماته بخط صغير متصل أنيق مثل الأشخاص المثقفين، وقال فيها:

سأساعدك قدر استطاعتي يا سمو الأمير، إذ يوجد مخرج من هنا عبر غرفة الإداريين، ولكن الأمر خطير، دمر هذه الرسالة إن كنت تقدر حياتي.

في خدمتك، بيرسيفال.

قلت في نفسي: «إن اسمه بيرسيفال وليس بيرسي، إنه شخص حقيقي وليس رمادياً ويملك اسماً أيضاً».

ابتلعت الورقة.

6

كان فطور اليوم التالي مؤلفاً من النقانق، وعرفنا جميعاً معنى ذلك، فالتفت هامي إليّ وابتسم رغم الكآبة في عينيه وقال: «سأتخلص من الآلام البطنية على الأقل، والمعاناة من أجل التغوط. هل تريد حصتي من النقانق؟».

لم أرغب في قطعه الأربعة، ولكنني تناولتها على أيّ حال آملاً أن تمنحني طاقةً إضافيةً، ولكنها استقرت في معدتي كالحجارة. لاحقتني عينا كلا من زنزانته في الطرف المقابل، وسحقتني نظراته، وهنا رفع آيوتا كتفيه

وكأنه يقول: «ماذا ستفعل؟»، فرفعت كتفي أيضاً وتساءلت: «ما الذي أستطيع فعله حقاً؟».

يمكننا الانتظار، إذ نعجز عن إيقاف الوقت، ولكنه أصبح بطيئاً على أيّ حال، وسمعت فيرمي يقول لستوكس الذي جلس جواره في الزنزانة: «لا بأس طالما لن نواجه بعضنا يا صديقي القديم».

فكّرت في أرجحية حدوث هذا الأمر لأنه قاس، ولكن تبين أن هذا التوقع خاطئ على الأقل بدليل ما سأذكره تالياً.

إذ توقعت عدم انطلاق فير ون في ذلك اليوم، وذلك قبل أن يدخل أربعة من جنود الليل بقيادة آرون الذي شاهد «وقت اللعب» دوماً من أرضية الملعب، ولوح بعصاه مثل قائد الأوركسترا، وقد كانت المرة الأولى التي يأتي فيها إلى ديب مالين بعد أن أخذني كي أقابل لورد هاي، وأُلقي نظرةً على غرفة التعذيب طبعاً.

انفتحت البوابات الصدئة، وقال آرون: «اخرجوا. هيّا اخرجوا أيها الصغار. إنه يوم جيد بالنسبة إلى نصفكم، وسيئ بالنسبة إلى نصفكم الآخر».

خرجنا جميعاً من الزنزانات باستثناء شخص نحيل أصلع يدعى هاتشا الذي قال: «أنا مريض، أريد البقاء هنا».

اقترب أحد جنود الليل منه، ولكن آرون أشار إليه أن يتوقف، ووقف شخصياً في مدخل الزنزانة التي يجلس فيها هاتشا برفقة شخص أكبر حجماً منه بكثير ويدعى كويلي من ديسك، والذي تراجع بعيداً عن هالة آرون ولكنها لمسته قليلاً، فأطلق صرخةً واهنة وقبض على ذراعه.

«أنت هاتشا من المكان الذي كان يُسمى سيتادل، هل هذا صحيح؟».

أومأ هاتشا في بؤس.

«وتقول إنك مريض، هل تعتقد أن النقانق هي السبب؟».

قال هاتشا دون أن يرفع ناظريه عن يديه المرتجفتين: «ربما».

«ولكن أجد أنك تناولت حصتك كاملةً».

التزم هاتشا الصمت.

«أنصت إليّ أيها الصغير، يجب أن تختار بين فير ون أو العذراء الحديدية، وسأشرف على زيارتك إياها شخصياً، كما سيطول لقاؤكما، وسأغلق الباب ببطء، وستحس الأشواك تلامس جفنيك... بلطف مبدئياً... قبل أن تخترقها، ثمّ تطعن معدتك! التي لعلها ليست طريةً مثل عينيك، ولكنها ملائمة، وبذلك ستتدفق النقانق التي تناولتها إلى الخارج إثر صراخك. والآن، هل سيعالج هذا الدواء آلامك؟».

تأوه هاتشا وخرج من الزنزانة مترنحاً.

صاح آرون: «هذا ممتاز. ها نحن جميعاً هنا. وسننطلق إلى البطولة. أسرعوا يا صغار. هيّا أسرعوا، أسرعوا. إذ ينتظرنا مرح كثير».

أسرعنا.

فكرت في الحلم الذي راودني عندما صعدنا الأدراج المعتادة – وكانت المرة الأولى التي ندرك فيها أن نصفنا سيعود فقط – وفي العبارة التي قالتها ليا: «أنت أسرع ما تتصور أيها الأمير تشارلي».

من دون أن أصدق أنني كذلك حقاً.

7

قادونا إلى غرفة الفرق التي استعملناها خلال التمارين بدل الذهاب إلى الملعب مباشرةً، وقد انتظرنا لورد هاي هناك متألقاً وهو يرتدي زياً رسمياً كاملاً، والذي بدا لونه أسود عبر الهالة الزرقاء، فقد كان كيلين

مشحوناً تماماً من أجل هذه المناسبة، وتساءلت من أين تأتي الطاقة التي تغذي هالته، ولكن هذه الأسئلة ليست أولويةً في ذلك الوقت.

حمل رف دلاء المياه ستة عشر واحداً فقط، لأن هذا العدد من الأفراد فقط يحتاج الاغتسال بعد انتهاء فعاليات اليوم، وانتصب أمام الرف لوح يحمل ملصقاً كبيراً كتب أعلاه الجولة الأولى من فير ون، وتلاها توزيعنا على المباريات، وأذكرها تماماً؛ أعتقد أن المرء يستطيع تذكر أي شيء أو نسيان كل شيء في المواقف السيئة، وأعتذر لأنني سأذكر أسماء أكثر، ولكن يجب علي ذلك لأن رفاقي في السجن يستحقون تذكرهم، وإن بإيجاز.

قال كيلين: «إليكم ترتيب المبارزات، وأتوقع منكم تقديم عرض جيد من أجل سمو الملك إلدن، هل فهمتم؟».

التزم الجميع الصمت.

«قد تجد أنك ستواجه شخصاً اعتبرته صديقاً لك، ولكن تنتهي صلاحية الصداقة اليوم، إذ تستمر المبارزات كلها حتّى الموت، حتّى الموت، وسيجر الرفق بخصمك وإضعافه دون قتله موتاً أكثر إيلاماً إليكما معاً، هل تفهمون؟».

أجاب كلا فقط: «أجل»، والتفت إليّ ومرر إبهامه أمام عنقه، وابتسم.

«سيحين دور المشاركين في المجموعة الأولى، ولذلك استعدوا».

غادر كيلين وبقية جنود الليل، ثمّ اتجهنا كي نقرأ الملصق وسط الصمت الذي خيّم على المكان.

الجولة الأولى من فير ون

المجموعة الأولى

فيرمي ضد مورف

جايا ضد هامي

أميت ضد والي

المجموعة الثانية

يانو ضد فريد

جاكاه ضد آيوتا

ميسيل ضد سام

المجموعة الثالثة

توم ضد بولت

دومي ضد كاميت

بيندو ضد داش

الظهيرة

المجموعة الرابعة

دوبل ضد إيفاه

ستوكس ضد هاتشا

باغ ضد كويلي

المجموعة الخامسة

بيرند ضد غولي

هيلت ضد أوكا

إيريس ضد فيز

المجموعة السادسة

كلا ضد تشارلي

لقد شاهدت توزيعات مماثلةً ليس فقط على التلفاز خلال قرعة الأحد في الرابطة الوطنية لرياضة الجامعات، بل شخصياً عند إعلان توزيع الفرق المتنافسة في بطولة أركاديا بيب روث لكرة القاعدة، إذ تعلق الملصقات كل ربيع في ملاعب الفرق المشاركة. كان ذلك غريباً، والأكثر غرابةً كلمة الظهيرة في الوسط، أي سيشاهد قاتل الرحلة وحاشيته مقتل تسعة سجناء قبل أخذ استراحة من أجل تناول الغداء.

سأل أميت: «وماذا سيحدث إذا رفضنا جميعاً المشاركة؟ أنا أسأل فحسب، فكروا في الأمر»، وقد تحدث في نبرة متأملة تستغرب سماعها من شخص يبدو أنه كسب لقمة عيشه عبر تركيب حدوات الأحصنة، وطرحها أرضاً إن لم تتعاون معه.

ضحك أوكا، الذي كان رجلاً كبيراً أحول وحسير البصر، وقال: «هل تقصد أن نُضرب؟ كما فعل الطحانون في زمان والدي؟ ونحرم قاتل الرحلة من يوم متعته؟ أعتقد أنني أفضل العيش حتّى الغد على قضاء اليوم أصرخ من العذاب، شكراً جزيلاً لك».

توقعت أن أوكا قد يعيش حتّى الغد، نظراً إلى خصمه هيلت الصغير النحيل الأعرج، وربما سيهزم في الجولة الثانية، ولكن يعني فوزه اليوم إطالة فترة حياته حتّى يغتسل بعد ذلك ويتناول العشاء الليلة، وقد رأيت هذه المعادلة البسيطة ذاتها في وجوه الحاضرين جميعاً، باستثناء هامي، الذي ألقى نظرةً واحدةً على اللوح، ثمّ ذهب وجلس على المقعد مطأطئاً رأسه، وقد كرهت رؤيته على هذه الحال، ولكن كرهت أكثر أولئك الذين وضعونا في هذا الموقف المريع.

نظرت إلى اللوح مجدداً؛ لقد توقعت أن يتبارز فيرمي ضد ستوكس، وجايا وإيريس معاً في قتال فتيات، إذ ما الذي سيكون ممتعاً أكثر من ذلك؟ ولكن تبين أن القائمين على التوزيع يجهلون كيفية تنفيذه تماماً، ولعلهم أجروا قرعةً وسحبوا الأسماء من القبعة من أجل تحديد كل زوج من المتنافسين، باستثناء الأخير بينهم، الذي يعد خاتمة عرض اليوم.

كلا ضد تشارلي.

الفصل الرابع والعشرون
الجولة الأولى- المجموعة الأخيرة- مولاي الأمير- «ماذا تعتقد؟»

1

جلست جايا على المقعد بجوار هامي، وأمسكت يده التي استلقت دون حراك بين يديها، وقالت: «لا أريد فعل ذلك».

قال هامي: «أنا أعلم، لا بأس».

«لعلك تستطيع هزيمتي، إذ لست قويةً مثل إيريس».

«ربما».

انفتح الباب ودخل اثنان من جنود الليل، وبدت عليهما أقصى درجات الحماسة التي يستطيع الأموات الأحياء إظهارها، إذ توهجت هالاتهما وكأن قلوبهما الميتة تنبض مرةً أخرى.

«المجموعة الأولى. هيّا أسرعوا، أسرعوا. لا تجعلوا جلالة الملك ينتظر أكثر، لقد جلس في مكانه».

وقف الجميع ساكنين، واعتقدت لوهلة أن الإضراب الذي تحدث عنه أميت سيحدث... ولكن تذكرت العواقب المترتبة على المضربين، فالتفت إلى اللوح مجدداً آملاً في حدوث معجزة تغير قائمة الأسماء: فيرمي ضد مورف، وأميت ضد رجل قصير نحيل يدعى والي، إضافةً إلى هامي ضد جايا، التي أمسكت يده في طريقهما إلى الخارج، وتنحت بعيداً عن هالة جندي الليل القريب منها.

كنت في زمن حكم أسرة غالين ستسمع هتافات المشجعين وتوقعاتهم من المدرجات المكتظة فور خروج المتنافسين، ولكنني أنصت جيداً كي يتناهى إلى مسامعي بعض التصفيق الضعيف، ولعله مجرد خيال، لأن مدرجات ملعب إلدن (ملعب الفراشات الكبيرة سابقاً) فارغة تقريباً، وقد صدق الولد الذي التقيته خلال رحلتي في قوله أن ليليمار مدينة أشباح، ومكان يعيش فيه الموتى والأحياء الموتى، وبعض المتملقين.

لا فراشات هنا.

فكرت في أن الهروب ممكن لولا وجود جنود الليل، ولكن تذكرت أن أضع في عين الاعتبار عملاقتين ضخمتين... و قاتل الرحلة شخصياً، الذي أجهل شكله الآن وماهية التحول الذي طرأ عليه، ولكنني متأكد من شيء واحد؛ وهو أن إلدن الحالي مختلف عن شقيق ليا الصغير أحنف القدمين الذي يملك حدبةً على ظهره أو كتلةً في عنقه.

انتظرنا ونحن نجهل الوقت الذي مضى، واتجه معظمنا وأنا منهم كي يقضي حاجته في مجرى التبول، إذ لا شيء يدفعك إلى ذلك أكثر من الخوف من الموت. أخيراً، انفتح الباب ودخل أميت منه، وتبين أنه تلقى جرحاً صغيراً على ظهر يده كثيرة الشعر من دون أي إصابة أخرى.

أسرع ميسيل إليه فور تراجع جندي الليل الذي رافقه، وقال: «كيف تجري الأمور هناك؟ وهل... والي حقاً».

ولكن أميت دفعه قبل أن يكمل، فطرحه أرضاً وقال: «لقد عدت أنا وليس هو، وهذا كل ما سأقوله، وما تحتاج أن تسمعه، دعني وشأني».

سار أميت إلى طرف المقعد، وجلس هناك مطأطئاً رأسه وواضعاً إياه بين يديه؛ رأيت هذه الوضعية مرات كثيرةً في ملاعب كرة القاعدة، وخاصةً عندما يهدر الرامي كرةً حاسمةً فيخرجه المدرب من الملعب، أي كانت وضعية الخاسرين الذين سنمثلهم جميعاً إلا إذا حدث شيء ما.

همست خادمة ليا الرمادية: «ساعدها»، ولكن هل يجب أن أنقذ الجميع الآن لأنني أملك شعراً ذهبياً تحت القذارة التي أخفيته بها مراراً وتكراراً؟ لقد كان أمراً سخيفاً، في ظل نظرات كلا الساحقة التي تلاحقني، إذ بدا أنه ينوي تناول العشاء الليلة.

أنا عاجز عن حماية نفسي حتّى في مباراة اليوم المميتة الختامية.

وصل مورف تالياً، وقد تورمت إحدى عينيه وانطبق جفناها، وأغرقت الدماء قميصه ناحية كتفه اليسرى، وأدرك ستوكس بعد رؤية هذا المنظر أن شريكه الفكاهي قد فارق الحياة، فأطلق صرخةً مكتومةً وغطى عينيه.

انتظرنا أكثر، وشخصت أعيننا صوب الباب، الذي دخلته أخيراً، وقد بدت شاحبةً مثل زجاج النافذة، ولكن من دون أي إصابة، باستثناء جدول الدموع الذي شق طريقه على وجنتيها.

أخبرت الجميع وليس أنا فقط: «كنت مجبرةً على ذلك، وإلا لقينا مصرعنا معاً».

2

استدعي المشاركون في المجموعة الثانية؛ يانو ضد الطبيب فريد، وآيوتا ضد جاكاه، وميسيل ضد سام، فخرجوا جميعاً، وجلست حينها إلى جوار جايا التي تجنبت النظر إليّ، ولكن تحدثت وكأن كتمان كلماتها سيفجر شيئاً داخلها.

«لقد عجز عن القتال، أنت تعلم كيف حاله، أو كيف كانت، ولكن أعتقد أنه ضحى بنفسه من أجلي، إذ صرخوا من أجل الدماء، ستسمع ذلك عندما يحين دورك، لقد طالبوه أن يقضي على منافسته الوضيعة، وصرخوا من أجل أن ألتف حوله وأطعن عنقه...».

سألتها: «هل أعطوكما سكاكين؟».

«لا، بل رماحاً ذات مقابض قصيرة، إضافةً إلى قفازات تحمل أشواكاً في موضع مفاصل الأصابع، وقد وضعوها مكان المشروبات على الطاولة حيث اعتدنا أن نتدرّب. يريدون رؤية المنافسة عن قرب كي يشاهدوا أكبر كمية ممكنة من الطعنات والضربات قبل أن يسقط أحدنا ميتاً، ولكنني أخذت واحدةً من القضبان، تلك التي...»، وحركت ذراعيها وكأنها تضرب شيئاً بعصا.

«عصي القتال».

«أجل، واستمر النزال حتّى قتل فيرمي بعد نحر رقبته، وقد أوشك هامي أن ينزلق بسبب الدماء، بينما استلقى والي ميتاً على المضمار».

قال أميت من دون أن يرفع ناظريه: «أجل، لقد حاول ذلك الغبي السخيف أن يهرب».

«بقيت وهامي آخر المتبارزين، حتّى قال آرون أن أمامنا خمس دقائق إضافية وإلا سيقضي علينا معاً، إذ أدرك أننا نماطل فحسب، وهنا اندفع هامي ناحيتي حاملاً رمحه الصغير إلى أحد جانبيه، وكان ذلك تصرفاً غبياً، فضربت معدته بمقبض العصا، كي يصرخ متألماً ويرمي الرمح على العشب».

قلت في نفسي: «إنها معدة هامي وألمها الذي لا ينتهي».

«لقد عجزت عن احتمال الصوت، ناهيك عن التصفيق والضحك الصادر عن الجماهير، وقولهم أشياء مثل: «إنها ضربة رائعة!»، أو: «لقد أهانته الفتاة بهذه الضربة»، وكل ذلك وسط صراخ هامي، فالتقطت الرمح... لم يسبق لي أن قتلت أحداً... ولكن عجزت عن مشاهدته يصرخ... لذلك...».

قلت: «تستطيعين التوقف هنا».

نظرت إليّ وقد اغرورقت عيناها بالدموع وتبللت وجنتاها تماماً، وقالت: «يجب أن تفعل شيئاً يا تشارلي إن كنت الأمير المنتظر حقاً، عليك أن تتصرف».

أردت إخبارها أن مهمة الأمير تشارلي الأولى هي النجاة أمام كلا، ولكن يكفيها الحزن والسوء اللذان أثقلا كاهلها، لذلك اكتفيت باحتضانها.

«هل قاتل الرحلة هناك؟».

ارتجفت ثمّ أومأت.

«وكيف يبدو؟»؛ إذ فكرت في مقعد الشرف الذي يمتلك ذراعين مائلتين نحو الخارج والذي يوحي أن صاحبه أياً كان سمين أو ضخم جداً على أقل تقدير.

«بدا مروعاً حقاً، وكأن به خطب ما، إذ امتلك وجهاً أخضر عريضاً جداً مقارنةً مع الوجه البشري، وبرزت منه عينان كبيرتان تشبهان بيضتين مسلوقتين جزئياً، إضافةً إلى شفتين ممتلئتين وحمراوين وكأنه انتهى من تناول الفراولة للتو، وانسدل شعره الأبيض الطويل من تحت التاج إلى خديه، وهذا جل ما رأيته من شكله، أما ملابسه؛ فقد ارتدى رداءً فضفاضاً أرجوانياً يمتد من ذقنه إلى الأسفل، ولاحظت أنه يتحرك، وكأنه يغطي حيواناً أليفاً تحته. إنه مروع، ووحشي، وقد ضحك وصفق الآخرون عندما قتـ... عندما توفي هامي، لقد ضحك فحسب، وسال اللعاب إلى جانبي فمه حينها، إذ رأيته تحت إضاءة مصابيح الغاز، كما جلست امرأة طويلة وجميلة إلى جواره، وامتلكت شامةً صغيرةً قرب فمها...».

قلت: «إنها بيترا، لقد أمسك أحدهم ثديها، وقبّلها في عنقها بعد أن هزمت أميت».

ارتجفت جايا مجدداً وقالت: «لقد... لقد... لقد قبلته حيث سال لعابه، ولعقته عن وجهه الأخضر».

دخل آيوتا رفقة أحد حراس الليل، وأومأ إليّ عندما رآني؛ لقد رحل جاكاه.

3

ذهبت إلى آيوتا بعد انغلاق الباب، ولاحظت أنه سليم من الإصابات.

قال: «إن الساقطة ريد مولي هناك، إذ تشاهد المبارزات من المضمار أسفل جناح الشخصيات المهمة، وليس شعرها أحمر بل برتقالياً مثل الجزر، وقد انتصب في رأسها مثل أشواك القنفذ، ويبلغ طولها خمس عشرة قدماً، وارتدت تنورةً جلديةً، وامتلكت ثديين يشبهان صخرتين مدورتين، وكل منهما في وزن طفل في الخامسة من عمره، كما حملت سكيناً في غمد معلق إلى وركها ويعادل في طوله الرماح الصغيرة التي أعطونا إياها من أجل

القتال. أعتقد أنها تشاهد كي تعرف الحركات التي ينفذها الفائزون، من أجل الحدث القادم كما تعلم».

تذكرت حينها المدرب هاركنس وتمارين أيام الثلاثاء قبل مباريات ليالي الجمعة، إذ اعتدنا التوقف عن التمرين قبل عشرين دقيقةً من انتهائه، والجلوس في إحدى غرف تبديل الملابس التي تشبه هذه، ولكنها أقل ترفاً منها، ثمّ يأتي المدرب ويشغل التلفاز كي نشاهد خصومنا القادمين وحركاتهم ومهاراتهم، وخاصةً لاعبي مركز الظهير الربعي، إذ أعاد عرض لقطاتهم الفردية عشرين وثلاثين مرةً والتي شملت خطواتهم المخادعة ومراوغاتهم وأخطائهم كلها، وقد أخبرت العمّ بوب مرةً عن ذلك، فضحك وأومأ قائلاً: «إن المدرب محق يا تشارلي، إذ يموت جسد عدوك بعد قطع رأسه مباشرةً».

قال آي: «لقد كرهت الطريقة التي راقبتني بها، إذ تمنيت أن تعتبرني خصماً سهلاً، وبالتالي ربما أستطيع عند مواجهتها إيجاد طريقة كي أطعنها أو أسحق رأسها، ولكنها ستدرس حركاتي أربع مرات من دون أن أحصل على فرصة واحدة كي أشاهدها تقاتل».

تجنبت التعليق على فرضيته الكامنة التي تقول إنني سأقتل إلى ذلك الحين سواء كنت الأمير المنتظر أم لا، ولكنني قلت: «أعتقد أنها ستواجه كلا».

ضحك آي متناسياً أنه قتل للتو أحد رفاقه القدامى في مالين، وقال: «سنتواجه أنا وكلا في النهاية، لا شك في ذلك – لقد بدأت أحبك يا تشارلي، ولكن أعتقد أنك عاجز عن لمس كلا حتّى، ولكنني أعرف نقطة ضعفه».

«ما هي؟».

«لقد تغلب عليّ مرةً، ولكمني بقوة هائلة على حلقي إلى درجة أن معجزةً منحتني القدرة على الكلام مجدداً، ولكنني تعلمت من ذلك»، لم تكن

تلك الإجابة التي كنت بحاجة إليها.

دخل ميسيل، وبالتالي قضي على سام، وقد فاجأني دخول الطبيب فريد بعد بضع دقائق، رغم كونه خائر القوى، إذ رافقه بيرسي الذي وضع إحدى يديه الأقرب إلى الزعانف تحت ذراعه كي يساعده، حيث نزف الطبيب بشدة من وجهه المهشم بطريقة بشعة، ولكنه على قيد الحياة، وليس يانو.

كنت جالساً مع دوبل وإيريس حينها، وقلت: «سيعجز عن القتال مجدداً، إلا إن أقيمت الجولة التالية بعد ستة أشهر من الآن، وربما سيبقى عاجزاً حينها أيضاً».

قالت إيريس: «ليست ستة أشهر، ولا أيام حتّى، ولكنه سيقاتل أو يموت».

يختلف الأمر تماماً عن مباريات كرة القدم في الثانوية.

4

نجا بولت وبيندو من المجموعة الثالثة، وكذلك كاميت الذي أصابته جروح كثيرة، وقد أخبرنا بعد وصوله عن اعتقاده أن أمره انتهى خلال النزال، قبل أن تنتاب دومي نوبة سعال قوية جعلته ينحني، فاستغل كاميت الفرصة كي يندفع نحوه ويغرس رمحه القصير في مؤخر عنقه.

استلقى الطبيب على الأرض إما نائماً – واستبعدت ذلك نظراً إلى إصاباته – أو فاقداً للوعي، وانتظر الجميع انتهاء مبارزات الجولة الثالثة بينما واصلت نظرات آي الساحقة ملاحقتي، وقد أفلت منها مرةً واحدةً عندما ذهبت إلى الدلاء كي أشرب بعض المياه، واستأنف مراقبتي عندما عدت.

لقد قال آيوتا: «أنا أعلم نقطة ضعفه، لقد تغلب عليّ مرةً ولكنني تعلمت منها».

ما الذي تعلمه؟

راجعت مشهد العراك (قد تدعوه هكذا) الذي وقع في زنزانة آي: سدد كلا ضربةً سريعةً جداً إلى عنق آي، ثمّ تدحرج الدلو على الأرض، والتفت كلا كي يرى مكانه، وكلمات الراحل يانو: «ستدفع ثمناً كبيراً إن قتلته»، ثمّ وقوف آي على قدميه، وتوجهه صوب سريره بينما انحنى كلا كي يلتقط الدلو، إذ لعله فكر في استخدامه من أجل سحق رأس آي إن حاول لمسه مجدداً.

وأغفلت أي شيء آخر قد حدث هناك.

دخل بيرسي برفقة آرون دافعاً عربةً بعد انتهاء الجولة الثالثة، وفاحت منها رائحة الدجاج المشوي الذي سأجده مغرياً في ظروف أخرى، بخلاف أن يكون الوجبة الأخيرة التي سأتناولها في حياتي.

صاح آرون: «تناولوا الطعام بشهية يا صغار. اعترفوا أننا نطعمكم جيداً».

اندفع معظم الذين خاضوا المبارزات اليوم وخطفوا من العربة قطع اللحم بحماسة، بينما امتنع من لم يحن دورهم بعد... باستثناء واحد منهم... إذ أخذ كلا نصف دجاجة من عربة بيرسي وبدأ يلتهمها من دون أن يرفع ناظريه عني.

الضربة.

سقوط آيوتا على أرضية الزنزانة الحجرية.

الدلو المتدحرج.

توجّه آي إلى سريره واضعاً يده على حلقه.

بحث كلا عن الدلو والتقطه.

ما الذي رآه آيوتا ولكنني غفلت عنه؟

وصلت العربة إليّ، وكان آرون يراقب بيرسي وبالتالي لم يُحيني اليوم، وصدر في هذه الأثناء أنين الطبيب فريد، الذي تدحرج على جانبه، وتقيأ على الأرض»، فالتفت آرون وأشار إلى كاميت وبيندو الجالسين إلى جوار بعضهما على مقعد قريب: «أنتما. نظّفا هذه الفوضى».

استغللت هذا الإلهاء الوجيز كي أرفع يدي جاعلاً إبهامي وسبابتي في وضعية إمساك القلم وحركتهما وكأنني أكتب شيئاً، فرفع بيرسي كتفيه بطريقة شبه خفية، لعله فهم إشارتي أو ربما أرادني أن أتوقف قبل أن يراني آرون، الذي استدار كي يجدني آخذ فخذ دجاج من المائدة المتحركة، وفكرت حينها أن فهم بيرسي من عدمه غير مهم ما دمت سأُقتل بين يدي كلا خلال المباراة الأخيرة لهذا اليوم.

قال ذلك الرجل النبيل العملاق: «استمتع أيها الصغير، إنها وجبتك الأخيرة».

قلت في نفسي: «إنه يحاول التلاعب بي ذهنياً».

بالطبع، سبق لي أن عرفت ذلك، ولكن التفكير في ذلك حرفياً صب تركيزي عليه وجعله واقعياً، إذ تملك الكلمات هذا التأثير، كما أنها فتحت شيئاً في داخلي، لعله حفرة، أو بئر، يشبه هذا الشعور مثيله الذي انتابني خلال نزهاتي السيئة مع بيرتي بيرد، ومواجهتي مع كل من كريستوفر بولي، والقزم بيتركين. لست ذلك الأمير الأشقر – إن كنت كذلك حقاً – الوسيم السخيف الذي يحتضن في نهاية الفيلم الفتاة الجميلة السخيفة أيضاً، لا يمكننا القول إن هناك شيئاً جميلاً حيال الشعر الأشقر الذي تغطيه الأوساخ، أو معركتي مع كلا، التي قد تكون قصيرةً، ولكن بالتأكيد لن تكون جميلة.

قلت في نفسي: «إن وجب عليّ أن أكون أميراً، فسأختار الشرير منهم، وليذهب أمراء ديزني إلى الجحيم».

قلت: «توقف عن النظر إليّ يا قبيح الوجه».

ابتسم كلا وارتسمت علامات الدهشة والاستغراب على وجهه حتّى قبل أن أرمي قطعة الدجاج عليه، وذلك بسبب عبارة قبيح الوجه التي حصلت عليها من البئر، ونطقتها بالإنكليزية ولذلك لم يفهم معناها، كما أنني أخطأته – فقد ارتطمت قطعة الدجاج بأحد الدلاء، وسقطت على الأرض – ولكنه أجفل من الصوت المفاجئ والتفت ناحيته، وهنا ضحكت إيريس، فاستدار إليها، ووقف على قدميه، وتحولت ابتسامته إلى زمجرة غاضبة.

صرخ آرون: «لا، لا، لا! وفّر جهودك من أجل النزال أيها الصغير، وإلا سأصعقك حتّى تعجز عن الخروج كي يفوز تشارلي غيابياً، هذا لن يروق لقاتل الرحلة، ولكنه سيجعلك تكرهه أكثر!».

جلس كلا في مكانه غاضباً وساخطاً، وقد بدا أنه خارج عن طوره حينها، وعبس في وجهي، ولكن حان دوري كي أبتسم، ومنحني ذلك شعوراً شريراً وجيداً جداً، فأشرت إليه وقلت:

«سأوسعك ضرباً يا عزيزي».

كانت كلمات جريئةً قد أندم عليها، ولكنني شعرت بالطمأنينة ما إن تفوهت بها.

5

استُدعي مشاركو المجموعة الرابعة بعد الظهيرة، وانتظرنا مجدداً كي يدخلوا واحداً تلو الآخر: جاء دوبل أولاً، ثمّ ستوكس، وكويلي أخيراً، وقد نزف ستوكس بشدة من جرح عميق جداً في وجنته إلى درجة أنني رأيت لمعان سنه عبره، ولكنه دخل من دون مساعدة أحد، وأعطته جايا منشفةً كي يوقف النزف الغزير، فأخذها وجلس على مقعد قرب الدلاء، واستحالت المنشفة البيضاء حمراء مباشرةً. جلس فريد في الزاوية المجاورة، فسأله

ستوكس عن إمكانية فعل شيء من أجل الجرح، ولكن الطبيب هزّ رأسه نافياً من دون أن يرفع ناظريه. يجب أن يخوض هؤلاء الجرحى نزالاً جديداً بعد وقت قصير، وأدركت أن هذه الفكرة مجنونة وتتجاوز كونها سادية، ولكنها حقيقة. لقد قتل مورف أحد فردي الثنائي الفكاهي، وفي حال واجه ستوكس في الجولة التالية، سيقضي عليه بسهولة من دون النظر إلى الطعنة التي تلقاها في كتفه.

واصل كلا النظر إليّ، ولكنه توقف عن الابتسام، ففكرت في أنه من الضروري تغيير فكرته حول أنني هدف سهل، ويعني ذلك عدم الاعتماد على كونه مستهتراً.

قلت في نفسي: «سيتحرك بسرعة، كما حدث مع آي»، وقد أخبرتني ليا في الحلم: «أنت أسرع مما تتصور أيها الأمير تشارلي»... ولكن المشكلة الوحيدة أنني لست كذلك، عدا عن قدرتي على توظيف الكراهية في زيادة سرعتي.

استُدعي مشاركو المجموعة الخامسة: بيرند ضد غولي، وهيلت الصغير ضد أوكا الكبير، وأخيراً إيريس ضد رجل قصير ولكن قوي البنية يدعى فيز، وقد عانقتها جايا قبل أن تخرج.

قال أحد جنود الليل بصوته الكريه الذي يشبه صوت الجراد: «لا، لا، دعاكما من ذلك. هيّا أسرعي، أسرعي».

كانت إيريس آخر من غادر وأول من عاد إلينا ولم يصبها مكروه سوى نزف من إحدى أُذنيها، وهنا اندفعت جايا إليها من دون وجود أحد كي يمنع معانقتهما، إذ تركنا جنود الليل وحدنا. بعد ذلك عاد أوكا، ومضى وقت طويل قبل أن يدخل رجل رمادي – ليس بيرسي – حاملاً غولي ثمّ مدده على الأرض، إذ كان الأخير فاقداً للوعي، وبالكاد يتنفس، وتبين أنه تلقى ضربةً قويةً جداً أعلى صدغه.

قال بولت: «أريد مواجهته في الجولة التالية».

تذمّر أميت قائلاً: «أود أن أواجهك أنت في الجولة التالية، اصمت».

مرّ وقت أطول ولم يستفق غولي، ولكنه تحرك قليلاً، ثمّ انتابتني الحاجة إلى التبول، ولكن عجزت عن الذهاب كي أقضيها، فجلست مكاني واضعاً يديّ بين ركبتي كما اعتدت أن أفعل خلال مباريات كرة القاعدة وكرة القدم قبل ترديد النشيد الوطني، ولم أنظر إلى كلا، ولكنني شعرت أنه يحدق إليّ وكأن نظراته تحمل وزناً وتلقيه عليّ.

انفتح الباب، ودخل اثنان من جنود الليل، وعبر آرون ولورد هاي بينهما، وقال آرون: «حان موعدة المبارزة الأخيرة لليوم، وستجمع كلا ضد تشارلي، هيّا أيها الصغيران، أسرعا».

نهض كلا مباشرةً وتجاوزني، ثمّ التفت إليّ وابتسم مرةً أخيرةً، وتبعته تحت أنظار آيوتا، الذي أدى تحيةً غريبةً، إذ رفع يده ليس إلى جبته، بل إلى جانب وجهه.

أنا أعلم نقطة ضعفه.

مررت إلى جوار لورد هاي الذي قال: «سيسعدني التخلص منك يا تشارلي، وكنت سأفعل ذلك قبلاً لولا حاجتنا إلى اثنين وثلاثين فرداً منكم».

تقدمنا اثنان من جنود الليل، وسار كلا أمامي مطأطئاً رأسه قليلاً ويداه تتأرجحان على جانبيه، وقد ضم راحتيه إلى قبضتين ضعيفتين مبدئياً، بينما مشى لورد هاي خلفنا إلى جوار ملازمه آرون، وخفق قلبي بقوة وببطء في صدري.

لقد هزمني مرةً، ولكنني تعلمت منها.

تابعنا طريقنا إلى نهاية الممر ناحية صفوف المصابيح الغازية المبهرة والمنتصبة على حواف الملعب، كما تجاوزنا غرف الفِرق، ثمّ غرفة المعدات.

الضربة، وسقوط آيوتا على أرضية الزنزانة الحجرية، والدلو المتدحرج، وذهاب آي إلى سريره واضعاً يده على حلقه، وبحث كلا عن الدلو والتقاطه.

مررنا إلى جوار غرفة الموظفين حيث المخرج المزعوم حسب رسالة بيرسي على الأقل.

رميت قطعة الدجاج فارتطمت بأحد الدلاء، واستدار كلا إلى مصدر الصوت.

بدأت أفهم الأمر حينها، وأسرعت قليلاً عندما خرجنا من الممر إلى المضمار الترابي حول الملعب. لم أكن في مستوى كلا، ولكنني أوشكت أن أقترب منه، لقد تجنب النظر إليّ، وصب انتباهه على الوسط حيث الأسلحة موضوعة في خط، وقد أزيلت الحبال والحلقات، وتربع على طاولة المشروبات سابقاً قفازان جلديان يحملان أشواكاً مكان مفاصل الأصابع، وضمت إحدى سلتي الخيزران عصي القتال، والأخرى رماحاً قصيرةً.

تجنب آيوتا الإجابة عن سؤالي عندما طرحته، ولكن ربما فعل ذلك خلال مغادرتي؛ أي لعل تلك التحية الغريبة ليست تحيةً إطلاقاً، بل رسالةً ما.

تعالت أصوات التصفيق خلال سيرنا وراء جنود الليل ناحية جناح الشخصيات المهمة، ولكن بالكاد سمعته في البداية أو لاحظت المشاهدين الجالسين في الجناح، أو حتّى إلدن قاتل الرحلة، بل ركّزت على كلا الذي التفت إلى الدلو المتدحرج على أرضية زنزانته المشتركة مع آيوتا، وقطعة الدجاج التي رميتها عليه في غرفة الفريق، والذي بدا وكأنه أغفل وقوفي إلى جواره، ولكن لماذا؟

قال آيوتا: «أنا أعلم نقطة ضعفه»، وأعتقد أنني كذلك الآن، إذ فهمت رسالة آيوتا: لقد مثل وضعية الغمامة التي يضعونها على عين الحصان.

يعاني كلا من سوء في الرؤية المحيطية وربما هي غائبة تماماً.

6

لقد قادونا – مثل القطيع – إلى جزء من المضمار أمام جناح المشاهدة الملكي. وقفت بجوار كلا الذي أدار وجهه كله كي ينظر إليّ ولم يكتفِ بتحريك عينيه فقط، وهنا جلده كيلين مباشرةً بعصاه المرنة على مؤخر عنقه فسالت الدماء منها في خط رفيع.

«انتبه إلى الملك الحقيقي أيها الغبي الكبير، وليس إلى هذا الأمير المزعوم».

إذن يعرف كيلين ما يعتقده السجناء الآخرون، وهل فاجأني ذلك؟ ليس كثيراً، إذ تعجز الأوساخ عن تغطية التغير المفاجئ في لون شعري طويلاً، ناهيك عن استحالة لون عيني من البني الفاتح إلى الرمادي الضارب إلى الزرقة، وبالتالي لولا إصرار إلدن على جمع المشاركين جميعاً، لقتلت قبل أسابيع عديدة.

صاح آرون بصوته الطنان الكريه: «اركعا. اركعا يا صاحبا الدماء القديمة أمام صاحب الدماء الجديدة. اركعا أمام جلالة الملك».

صرخت بيترا: «اركعا يا صاحبا الدماء القديمة. هيّا اركعا»، وقد كانت طويلةً ذات شعر أسود، وبشرة بيضاء مثل جبنة القريش، وامتلكت شامةً إلى جوار فمها، وارتدت ثوباً حريرياً أخضر.

ردّ الآخرون – والذين لا يزيد عددهم عن ستين أو سبعين فرداً على الأكثر – العبارة نفسها: « اركعا يا صاحبا الدماء القديمة. هيّا اركعا».

هل حدث هذا الأمر مع المشاركين الآخرين؟ لا أعتقد ذلك، بل إنه يخص كلانا فقط، لأننا طرفا المباراة الأخيرة المنتظرة لهذا اليوم. امتثلنا إلى الأوامر وركعنا كي نتجنب التعرض إلى جلدة من العصي المرنة أو أسوأ من ذلك، مثل أن تصعقنا هالات آسرينا.

بدا إلدن مثل رجل على حافة الموت، وخطرت في بالي فكرتان، الأولى هو أن العمّ بوب سيقول عنه: «يضع قدماً في قبره، والأخرى على قشرة موز»، والثانية أنه ليس رجلاً على الإطلاق، وإن كان كذلك مرة، إذ تحول لون بشرته إلى الأخضر مثل لون الكمثرى غير الناضجة، وقد برزت في وجهه المجعد المترهل عينان زرقاوان رطبتان وكبيرتان في حجم راحتي يدي، وامتلك شفتين حمراوين أقرب إلى شفاه النساء، وكانتا رخوتين إلى درجة أنهما تدلتا، وتربع تاج مائل بشكل بشع على شعره الأبيض الخفيف، وارتدى معطفاً أرجوانياً تتخلله خيوط ذهبية يشبه قطفاناً هائلاً يغطيه كاملاً بدءاً من عنقه الضخمة، وأجل، لقد كان يتحرك كما قالت جايا: «يبدو أنه يغطي حيواناً أليفاً تحته»، باستثناء تموج أماكن كثيرة منه في الوقت نفسه.

وقفت ريد مولي على المضمار إلى يساري، مرتديةً تنورتها الجلدية التي تشبه ما يرتديه الإسكتلنديون، وكان فخذاها عضليان وكبيران جداً، وتدل سكينها الطويل في الغمد إلى وركها الأيمن، وانتصب شعرها البرتقالي على شكل أشواك قصيرة كما يسرحه أفراد فرق البانك روك، وغطت حمالتا تنورتها العريضتان جزءاً من ثدييها العاريين. رأتني أنظر إليها، فضمت شفتيها وكأنها تقبلني.

تحدث قاتل الرحلة بصوته الخشن المختلف تماماً عن أزيز جنود الليل، إذ بدا وكأن هناك سائلاً دبقاً في حنجرته، وكان الآخرون ليخبروني إن شهدوا حدثاً كهذا، إذ يعجز المرء عن نسيان هذا الصوت المرعب.

«من هو ملك العالم الرمادي، أو إمبيس سابقاً؟».

ردد الجالسون في الجناح إضافةً إلى الحاضرين الآخرين سريعاً: «إلدن».

التفت قاتل الرحلة إلينا بعينيه الكبيرتين اللتين تشبهان البيض، فتلقيت وكلا جلدةً من العصا المرنة على مؤخر رقبتينا، وقال كيلين: «أجيبا».

قلنا: «إلدن».

«من قضى على الفراشات الكبيرة في الأرض والسماء؟».

صرخت بيترا مع الآخرين بصوت أقوى: «إلدن!»، وداعبت بيدها أحد خدي إلدن الخضراوين المترهلين، واستمر الرداء الأرجواني يتموج في مواضع كثيرة منه.

قلت وكلا: «إلدن»، كي نتجنب أن نتلقى جلدةً أخرى.

«فلتبدأ المبارزة».

وبدا أن التصفيق وبعض الهتاف كافٍ من أجل الرد على هذه العبارة.

وقف كيلين بيننا وعلى مسافة بعيدة كي يحول دون أن تلمسنا هالته، وقال: «استديرا ناحية الملعب».

فعلنا ذلك، واستطعت رؤية كلا بطرف عيني اليمنى، بينما أدار رأسه كاملاً، وألقى نظرةً خاطفةً عليّ، ثمّ نظرنا إلى الأمام حيث تبعد أسلحة المبارزة سبعين ياردةً عنا تقريباً، والسخرية في الأمر وجود مسافات متساوية بين أحدها والآخر، مثل الجوائز التي تربحها بعد الفوز في برامج ألعاب القتال التي تعرض على التلفاز.

استنتجت مباشرةً أن أحدهم (لعله قاتل الرحلة شخصياً، ولكن أشك في لورد هاي أكثر) جعل الكفة تميل لصالح كلا، وربما قلب الموازين تماماً؛ إذ وضعت سلة الخيزران التي تضم رماح الطعن، والتي تمثل السلاح

المثالي، إلى اليمين، أي قريباً من كلا، وتوضعت على مسافة عشرين ياردةً إلى اليسار منها طاولة القفازات الجلدية ذات الأشواك، وعلى مسافة عشرين ياردةً أخرى وأمامي تقريباً سلة عصي القتال، التي تفيدك من أجل تسديد ضربات قوية وليس قتل أحدهم. لم يخبرنا أحد بالخطوة التالية؛ ولم نكن بحاجة إلى ذلك، إذ وجب أن نركض إلى الأسلحة، وعليّ تجاوز كلا إذا أردت الحصول على الرمح بدل القفاز أو عصا الباندو، ثمّ أعبر أمامه.

لقد أخبرتني ليا: «أنت أسرع مما تتصور»، ولكن حدث ذلك في الحلم لا الحياة الواقعية.

لقد كنت خائفاً جداً، وأفكّر في الوقت نفسه حيال البئر المظلمة التي اكتشفتها في طفولتي؛ أي عندما أراد والدي تكريم ذكرى والدتي عبر التحطيم والإحراق وتركنا مشردين، لقد كرهت أفعاله تلك ثمّ كرهت هذه الكراهية التي انعكست في تصرفات سيئة، ولكن توجد أشياء أخرى كي أكرهها الآن من دون سبب يمنعني عن ذلك، ولذلك أجل، لقد كنت خائفاً، ولكن اشتعلت الحماسة في جزء مني أيضاً.

لقد أراد هذا الجزء ما يحدث الآن.

صاح قاتل الرحلة بصوته ذي الخراخر غير البشري، وهذا سبب آخر كي أكرهه: «الآن».

7

بدأنا الجري. لقد تحرك كلا بسرعةً هائلة عندما هاجم آي، ولكنها كانت اندفاعة سريعةً ضمن مساحة مغلقة، بينما تفصل سبعين ياردةً بيننا وبين الأسلحة، ناهيك عن وزنه الذي يفوق مئةً وخمسين كيلوغراماً، وبالتالي أستطيع اللحاق به في منتصف المسافة إلى عتاد القتال أمامنا إن بلغت أقصى سرعتي. لقد أصابت ليا في الحلم – فأنا أسرع مما أتصور، ولكن ما

زلت أحتاج العبور أمامه، وعندها سأغدو في مجال رؤيته الضعيف، ولكن تكمن الخطورة في كون ظهري مكشوفاً أمامه.

انحرفت إلى اليسار بدلاً من ذلك، وأفسحت الطريق أمامه إلى الرماح، وبالكاد لمحت قفازات الأشواك التي لعلها قاتلة، ولكن يتطلب استعمالها أن أضع نفسي في مرمى ضربات كلا، وقد رأيت سرعته أمام خصم قريب، لذلك اتجهت إلى عصي القتال التي اعتدت عليها بعد التمرين مرات كثيرةً خلال «وقت اللعب».

أخذت واحدةً من السلة، وعندما التففت رأيت كلا وقد حمل رمحاً وصوبه إلى الأسفل قرب وركه الأيمن، ثمّ رفعه آملاً أن يقسمني إلى نصفين بدءاً من منشعب فخذي إلى بطني وينهي الأمر سريعاً، فتراجعت خطوةً وضربته على ذراعيه كي يفلت الرمح من يده، فصرخ متألماً وغاضباً ولكنه تماسك. صفق الجمهور، وسمعت امرأةً تصرخ قائلةً: «اقطع قضيبه وأحضره إليّ»، واعتقدت أنها بيترا.

هجم كلا عليّ مجدداً، ولكنه رفع الرمح أعلى كتفه هذه المرة، وقد افتقر إلى المهارة، مثل مايك تايسون في مقاطع الملاكمة المصورة القديمة التي شاهدتها برفقة آندي تشين ووالدي، إذ اتبع أسلوباً هجومياً مباشراً واعتاد القضاء على خصمه عبر هجوم أمامي وحشي، وقد نجح كلا في ذلك سابقاً ضد آيوتا، وكان ليفلح حينها ضد خصم أصغر منه، إذ امتلك أفضلية الوزن وإمكانية بلوغ هدفه.

لقد قالت ليا إنني أسرع مما أتصور، وأعلم تماماً أنني أسرع من كلا، فتنحيت جانباً مثل مصارع الثيران الذي يتفادى ثوراً مندفعاً وضربته بالعصا على ذراعه فوق مرفقه، فسقط الرمح من يده إلى العشب، وهنا صرخ الجمهور من المفاجأة، وكذلك بيترا معبرةً عن استيائها.

انحنى كلا كي يخطف سلاحه، فضربته مستخدماً كلتا يديّ وبكل قوتي على رأسه كي تنكسر العصا إلى نصفين، ويسيل فيض الدماء من فروة رأسه على وجنتيه ورقبته، وكانت الضربة لتقضي على أي رجل آخر بما في ذلك آي وأميت، ولكن كلا هزّ رأسه فحسب، ثمّ التقط رمحه، ووقف أمامي ولم يبتسم هذه المرة؛ بل زمجر وقدحت عيناه غضباً.

«تعال إليّ يا ابن الوضيعة».

«اصمت ودعني أرى ما يمكنك فعله، فأنت غبي بقدر ما أنت قبيح».

حملت ما بقي من عصاتي، أصبحت النهاية الموجهة ناحية كلا تحمل بعض الشظايا الخشبية القاسية، وبالتالي لن تنثني إن اندفع إليها بل ستدخل أحشاءه، وهذا ما عرفه كلا، فحاولت خداعه، واتجهت يميناً عندما تراجع، فاضطر أن يدير رأسه بالكامل كي يستطيع رؤيتي، واندفع إلى الأمام فطعنته في ذراعه كي أقتلع سديلةً[41] جلديةً منها، فتناثرت الدماء على العشب.

صاحت بيترا: «اقضِ عليه. هيّا أجهز عليه أيها العملاق الضخم القبيح»، لقد ميّزت صوتها وكرته، وكرهتها شخصياً، وكذلك جميع الحاضرين.

هاجمني كلا، ولكن تحركت يساراً هذه المرة، وتراجعت إلى خلف الطاولة التي تحمل قفازات القتال، تحرك كلا بسرعة وكان تنفسه جافاً وخشناً. ارتميت جانباً وبالكاد أخطأ رأس رمحه رقبتي، فضرب كلا الطاولة، وقلبها ووقف عليها كي يقتلع إحدى قوائمها، ويمسكه رفقة رمحه، ولكنني تجاهلت ذلك، واتجهت إلى المنطقة العمياء من مجاله البصري، وقفزت على ظهره، وعصرت منتصف جسده وسط فخذيّ فانتفض جسده، ووضعت ما بقي من عصاي مقابل حلقه عندما سقط على قدميه، وحاول أن يمسك بي بيديه الكبيرتين اللتين سحقت ضرباتهما كتفي.

تبع ذلك جولة جنونية على كتفيه، إذ ما زال فخذاي حول خصره الثخين، وأحاول إدخال ما بقي من عصا القتال في حلقه إلى درجة أنني استطعت الاحساس بكل محاولاته من أجل البلع، وبدأ يصدر صوت خرخرة، حتّى بقي أمامه إما فقدان الوعي أو الموت، فرمى نفسه على ظهره كي يسحقني تحته.

لقد توقعت ذلك، ولكن هذا لا ينفي أن وزنه الذي يتجاوز مئةً وخمسين كيلوغراماً يكفي كي يقضي عليّ، وأخذ يتدحرج إلى جانبيه محاولاً الإفلات مني، بينما تشبثت إليه رغم أنني بدأت أرى نقاطاً سوداء أمامي وتخافتت هتافات المشجعين كي تبدو مجرد أصداء بعيدة إلا واحداً سمعته بوضوح؛ كان صوت رفيقة قاتل الرحلة الذي أحسست وكأنه إبرة تطعنني في رأسي، إذ قالت بيترا: «انهض. أفلت من قبضته أيها الحيوان الكبير. انهض».

كان باستطاعة ذلك الحيوان الضخم أن يسحقني تحته، وكنت سأهلك حتماً إن استطاع الإفلات من قبضتي، وقد أوشكت أن أفقد الوعي، ولكنني سخّرت قوتي وعضلاتي التي درّبتها جيداً خلال ممارسة تمارين الضغط في زنزانتي، والشد إلى أعلى على الحلقات، فسحبت... وسحبت... حتّى خفّت مقاومته، ثمّ استجمعت بقايا طاقتي ودفعته عني وتملصت من تحت جسده الضخم، وزحفت على العشب وشعري يتدلى أمام عيني. تنفست بعمق ولم أكتفِ أو أستطيع ايصال ما يكفي من الهواء إلى رئتيّ المسحوقتين، كما عجزت عن الوقوف في البداية، ولذلك تابعت الزحف وسط اللهاث والسعال وثقتي أن ذلك الكريه كلا ينهض ورائي، وأنني سأشعر بالرمح يخترق المسافة بين كتفي.

استطعت الوقوف في محاولتي الثانية، وترنحت في دائرة كالسكير حتّى لمحت خصمي الذي كان يزحف أيضاً... أو يحاول ذلك، وقد غطت الدماء معظم وجهه من الضربة التي تلقاها على رأسه، بينما استحال ما بقي منه أرجوانياً بسبب الاختناق.

صرخت بيترا: «اقضِ عليه. هيّا اقضِ عليه»، وقد برزت نقاط حمراء من تحت مسحوق التجميل الأبيض على وجهها، وبدا أنها غيرت الطرف الذي تشجعه، ولكنني لم أكن أريد دعمها.

صاح الآخرون أيضاً: «اقضِ عليه. اقضِ عليه. اقضِ عليه».

انقلب كلا على ظهره ونظر إليّ، وكأنه يطلب الرحمة التي ليس في صلاحيتي منحها.

«اقضِ عليه. اقضِ عليه. اقضِ عليه».

التقطت رمحه...

رفع كلا إحدى يديه ووضع رسغه على جبهته وقال: «مولاي الأمير».

... ثمّ طعنته.

أود إخبارك أنني استعدت نفسي الطيبة في النهاية إلى درجة أن الندم تملكني، ولكن هذا غير صحيح، إذ أعتقد أننا جميعاً نملك بئراً مظلمةً في داخلنا، والتي لن تجف أبداً، وتستطيع الشرب منها على مسؤوليتك الخاصة، لأنها مياهها سامة.

8

أرغموني على الانحناء أمام إلدن، ووضيعته، وأفراد حاشيته المهمين الآخرين.

قال إلدن في برود: «أحسنت القتال، أحسنت القتال... أيها الحمالون، أريد الحمالين خاصتي. إذ تعبت ويجب أن أستريح حتّى العشاء»، وقد سال اللعاب حقاً من جانبي فمه الرخو، إضافةً إلى سائل يشبه القيح – ليس دموعاً – من زوايا عينيه الكبيرتين.

أسرع أربعة رجال رماديين – مشوهين ولكن مفتولي العضلات – عبر أحد الممرات الوعرة حاملين محملاً مذهباً له ستائر مخملية أرجوانية اللون.

عجزت عن رؤيته يصعد إلى المحمل لأن أحداً أمسكني من شعري ورفعني حتّى أصبحت قدماي فوق الأرض. لقد كنت طويلاً، ولكن ليس مثل ريد مولي، إذ ذكرني الالتفات إلى أعلى والنظر إليها بالتحديق إلى التمثال الذي تسلقته كي أرى الفراشات الكبيرة وهي تعود إلى منزلها. بدا وجه ريد مولي مثل عجينة مدورة مسطحة، حيث يشبه طبق فطيرة كبيراً يغطيه الطحين، وامتلكت عينين سوداوين.

قالت في صوت جهير صاخب غير مريح أبداً، ولكنه أفضل من أزيز جنود الليل وخرخرة إلدن: «لقد قاتلت عدواً اليوم، ولكن صديقاً في المرة القادمة، وإن نجوت، سأقطع قضيبك... وأعطيه إلى بيترا كي تضيفه إلى مجموعتها»، لقد أخفضت صوتها عندما قالت العبارة الأخيرة.

كنت متأكداً أن بطل أفلام الإثارة يملك رداً قوياً في لحظات كهذه، ولكن عجزت عن التفكير في أي شيء لعين عندما نظرت إلى ذلك الوجه العريض والعينين السوداوين.

9

قادني لورد هاي شخصياً إلى غرفة الفريق، والتفت مرةً أخيرةً خلفي قبل دخول الرواق في الوقت المناسب كي أرى المحمل يتأرجح على أكتاف الحاملين صعوداً في الممر، وقد انسدلت ستائره، واعتقدت أن بيترا ذات الشامة في الداخل برفقة قاتل الرحلة.

قال كيلين مرتاحاً وقد أدى واجبه في إدارة فعاليات اليوم وأزال ضغوطات هذه المهمة عن كاهله: «لقد فاجأتني يا تشارلي، لقد اعتقدت أن كلا سيسحق رأسك في لمح البصر. ستواجه أحد أصدقائك في المرة

القادمة، ولكن ليس آيوتا، بل سأتركه إلى وقت لاحق، ربما سأضع جايا ضدك، هل ستستمتع خلال قتلها كما فعلت مع كلا؟».

التزمت الصمت، وتابعت السير أمامه في الرواق المنحدر بعيداً قدر الإمكان عن هالته عالية الجهد الكهربائي، وقد تركني أدخل الغرفة وحدي، واكتفى بإغلاق الباب خلفي. خاض كل منا – نحن الاثنين والثلاثين فرداً – نزالاً في الملعب، ويوجد خمسة عشر مشاركاً الآن – بل أربعة عشر، إذ ما زال غولي فاقداً وعيه – وفاجأت الجميع أنني من دخلت عليهم حياً وليس كلا، رغم الضرب المبرح الذي تلقيته.

لبرهة حدق الجميع إليّ، ثمّ ركع ثلاثة عشر منهم على ركبهم واضعين أيديهم على جباههم، باستثناء الطبيب فريد الذي عجز عن ذلك، ولكنه ألقى التحية عليّ من حيث يجلس مستنداً إلى الحائط.

قالت جايا: «مولاي الأمير».

ردد الآخرون: «مولاي الأمير».

لقد أسعدني كثيراً حينها افتقار إمبيس إلى تغطية تلفازية محلية.

10

اغتسلنا من التراب والدماء، ولكن فشلنا في التخلص من الرعب الذي شهدناه في ذلك اليوم. أزالت إيريس بنطال الطبيب فريد، ونظّفت جروح فخذيه قدر استطاعتها، وتوقفت بضع مرات عن عملها كي تنظر إليّ، وهذا ما فعله الآخرون، وقد أخافني الأمر فطلبت إليهم في النهاية أن يتوقفوا عن ذلك، كي يجعلوا عدم النظر إلي محور عملهم، والذي كان في مثل سوء تحديقهم، وربما أسوأ.

دخل أربعة جنود بعد عشر أو خمس عشرة دقيقةً، وأشار قائدهم إلينا بعصاه كي نتحرك، ووجب علينا أن نحمل غولي نظراً إلى غياب الرماديين،

فاتجهت كي أرفع نصفه العلوي، ولكن أميت دفعني بكتفه بلطف كي أبتعد وقال: «لا، لا، يمكنك مساعدة الطبيب إن أردت ذلك، وسأتعاون مع الرجل الضخم على حمل غولي»، وفرضت أنه قصد آيوتا، لأن الرجل الضخم الثالث مجرد جثة هامدة الآن.

لكنهم منعوني أيضاً من حمل الطبيب، فأنا الأمير المنتظر، أو هذا ما اعتقدوه، ولكن دون النظر إلى لون الشعر والعينين، فقد كنت مجرد ولد في السابعة عشرة من عمره صادف امتلاكه لياقةً جيدةً، وحالفه الحظ في الحصول على خصم يعاني من عمى محيطي، ونجا من أسوأ هجمات الأخير ونزاعه من أجل البقاء على قيد الحياة، وإضافةً إلى ذلك، هل أردت أن أكون الأمير في هذه الحكاية الخيالية المظلمة؟ لا، بل كان هدفي أخذ كلبتي والعودة إلى المنزل الذي لم يسبق أن بدا بعيداً إلى هذا الحدّ.

ببطء، عدنا أدراجنا إلى زنزاناتنا في ديب مالين: مورف مصاب في كتفه، وجايا وإيريس، وأميت، وآيوتا، والطبيب فريد، وبولت، وبيندو، وميسيل، وكاميت، ودوبل، وستوكس يعاني من جرح بليغ، وكويلي، وأوكا، وغولي فاقد الوعي... وأنا، كنا ستة عشر، ولكن الطبيب فريد وغولي عاجزان عن القتال في الجولة القادمة، وأعلم أن فوزهما ليس متوقعاً، إذ سيضعونهما ضد خصمين سيقضيان عليهما في لمح البصر من أجل متعة إلدن، وبيترا، وحفنة رعايا قاتل الرحلة، وبالتالي سيتأهل هذان الخصمان تلقائياً إلى الجولة التالية، كما أستبعد وصول مورف وستوكس أيضاً إلى ما ندعوه في مارش مادنس[42].

انفتح الباب في نهاية ممر الزنزانات ودخله آي وأميت يحملان غولي، تلاهما فريد وكويلي الذي حمل الطبيب كي يتجنب محاولة المشي على ساقه المصابة، لم يكن فريد قادراً على السير، إذ كان شبه فاقد للوعي، وارتطمت ذقنه إلى صدره بضع مرات، وقال فور دخوله مالين شيئاً مروعاً ويائساً سأذكره ما حييت: «أريد والدتي».

سقط مصباح الغاز القريب من الباب عن محمله مجدداً، وتدلى على أنبوبه المعدني ثمّ انطفأ، فأمسكه أحد الحراس وأقحمه في مكانه وحدق إليه قليلاً وكأنه يتحداه أن يسقط مجدداً، ولكنه بقي ثابتاً.

أعلن حارس آخر: «ستنالون عشاءً مميزاً الليلة أيها الصغار. سيكون وليمةً عامرةً تليها تحلية».

دخلنا الزنزانات، واستمتعت – وأجهل إن كان هذا الوصف مناسباً – وآي، وستوكس ضمن زنزاناتنا التي أصبحت انفراديةً، بينما حمل كويلي الطبيب فريد إلى زنزانته ومدده برفق على سريره، وعاد إلى زنزانته المشتركة مع كاميت، وانتظرنا خروج جنود الليل فاتحين أذرعهم كي يقفلوا بوابات الزنزانات، ولكنهم غادروا ولم يفعلوا ذلك، واكتفوا بإغلاق الباب المؤدي إلى العالم الخارجي وأقفاله الأربعة، إذ يبدو أن الاختلاط مسموح اليوم إلى جانب الوليمة الكبيرة، وإن لفترة قصيرة.

جلست إيريس في زنزانة غولي وفحصت جروح رأسه التي كانت مروعةً (دون الحاجة إلى ذكر تفاصيل أكثر)، إضافة إلى عدم انتظام أنفاسه، فالتفتت إليّ بعينيها المتعبتين وقالت: «سيموت قبل انجلاء الليل يا تشارلي... ولكن هذه حالنا جميعاً، فالوقت ليل دائماً هنا»، وضحكت بمرارة.

ربتّت كتفها، وعدت إلى زنزانة آيوتا الذي اختار البقاء فيها، وجلس مستنداً إلى الحائط واضعاً معصميه على ركبتيه مرخياً يديه أمامهما، فجلست إلى جواره.

سألني: «ماذا تريد بحق الجحيم؟ سأكون وحيداً بحلول ذلك الوقت أيضاً إن أسعدك ذلك يا سمو الأمير اللعين».

همست إليه: «تصور وجود مهرب من هذا المكان، هل ستحاول الفرار معي؟».

رفع رأسه ببطء، والتفت إلي، ثمّ ابتسم وقال: «أرشدني إليه فقط يا عزيزي».

«ولكن ماذا عن الآخرين القادرين على الهرب أيضاً؟».

اتسعت ابتسامة آيوتا وأجاب: «هل جعلتك دماؤك الملكية غبياً أيها الأمير الصغير؟ ماذا تعتقد؟».

الفصل الخامس والعشرون
الوليمة- جاءني زائر- يأتي الإلهام فجأةً«من يريد العيش إلى الأبد؟».

1

لقد تجاوزت حصة الناجين تلك الليلة مجرد قطع اللحم غير الناضجة تماماً؛ بل كانت وليمةً حقيقيةً، إذ دخل بيرسي برفقة رجل وامرأة رماديين يرتدي كل منهما سترةً بيضاء متسخةً، ودفعوا أمامهم ثلاث عربات وليس واحدةً فقط، وقد رافقهم جنود الليل من الأمام والخلف حاملين عصيهم المرنة؛ احتوت العربة الأولى قدراً كبيرةً ذكرتني بمطبخ الساحرة الشريرة

في قصة هانسل وغريتل، وقد كدست أوعية صغيرة إلى جوارها، بينما ضمت الثانية إناءً خزفياً طويلاً وأكواباً صغيرةً، والثالثة ست فطائر ذات قشرة ذهبية مائلة إلى البني، وبدا مزيج الروائح مبهجاً جداً. لقد كنا قتلةً حينها، ومجرمين سَلبوا حياة رفاقهم، ولكننا جائعون أيضاً، وربما كنا سنهجم على العربات لولا وجود بضع هياكل عظميةً تحرسها، لذلك التزمنا حدود بوابات زنزاناتنا المفتوحة وراقبناهم، وواظب دوبل على مسح فمه بذراعه.

حصلنا على ملاعق خشبية وأوعية، والتي صب بيرسي اليخنة في كل منها، وقد كانت كثيفةً ودسمة (أعتقد أنها احتوت قشدةً حقيقيةً)، وتألفت من قطع دجاج كبيرة، وبازلاء، وجزر، وذرة. في السابق كنت أتساءل عن مصدر الطعام، لكنني الآن لم أفكّر في شيء سوى في رغبتي بتناوله.

قال بيرسي بصوته الخشن الضعيف: «ضعوها في الزنزانة، إذ يوجد المزيد».

احتوى الإناء الخزفي سلطة فواكه طازجة مكونة من الدراق، والكرز، والفراولة. لقد غلبني مشهد الفاكهة الحقيقية ورائحتها، فعجزت عن الانتظار، فأملت الكوب الخزفي إلى فمي وتناولته كاملاً، ومسحت العصارة عن ذقني ولعقت أصابعي، وشعرت أن جسدي استقبل هذا الطعام الجديد بحرارة بعد حمية اقتصرت على اللحم والجزر. تقاسمنا الفطائر، وتناولنا حصة غولي التي انتهت أيام تناوله الطعام، وحملناها بين أيدينا نظراً إلى عدم توزيع أطباق من أجلها، أنهى آيوتا قطعته قبل حصول الآخرين على حصصهم، وقال والفتات يتطاير من بين شفتيه: «إنها فطيرة تفاح، وهي لذيذة جداً».

قال أحد جنود الليل: «املؤوا بطونكم أيها الصغار». ثمّ قهقه.

قلت في سرّي: «لأنكم ستموتون غداً»، وتمنيت أن تقام الجولة الثانية في يوم آخر على أن لا يكون غداً، أو بعد غد، إذ ما زلت أجهل كيفية الهروب

من هنا مع أن بيرسي دلني على مكان الهرب عبر غرفة الموظفين، ولكن أعلم أنني أريد الفرار قبل الجولة الثانية من فير ون والتي يرجح أن أواجه فيها جايا، وسيكون ذلك ظالماً بشدة.

غادر الحراس والطباخون وبقيت بوابات الزنزانات مفتوحةً، وبدأت تناول يخنة الدجاج التي كانت لذيذةً جداً، أو كما اعتاد صديقي بيرد أن يقول: «لقد أحبتها معدتي»، وذلك خلال جلوسنا على دراجتينا خارج زيب مارت وتناول كعك تونكي أو سليم جيم. التفتت إلى الزنزانة المجاورة فرأيت ستوكس يلتهم الطعام واضعاً يده إلى الجرح في خده كي يمنع مرق الدجاج من التسرب عبره، وهذا أحد الأشياء التي شهدتها في ديب مالين وسيبقى محفوراً في ذاكرتي إلى الأبد.

وضعت حصتي من الفطيرة في طبقي بعد أن أنهيته (ولا أشعر بالخجل من الاعتراف بأنني لعقت البقايا عن آخرها، مثل جاك سبارت وزوجته[43])، وقد احتوت قطعتي على عجين أكثر من التفاح، شعرت بعد تناول بعضها بشيء صلب بين أسناني، فأخرجته ووجدت أنه عقب قلم رصاص، وقد لف حوله قطعة ورق صغيرة.

في تلك الأثناء كان الآخرون ينظرون إلى طعامهم غير المعتاد، فدسست الورقة وعقب قلم الرصاص تحت سرير هامي، ولا أظنه يمانع ذلك.

سمحت البوابات المفتوحة لنا بالجلوس معاً والتحدث بعد الوليمة، فجاء آيوتا إلى زنزانتي، وتبعه أميت، وجلس كل منهما إلى جانب، لم أكن خائفاً منهما، إذ شعرت أن مكانتي حصنتني ضد التنمر.

سألني آيوتا: «كيف تنوي تجاوز جنود الليل يا تشارلي؟»، وقد استخدم كلمةً أخرى غير تنوي، ولكن ذلك ما سمعته.

اعترفت قائلاً: «لا أعرف، أو لا أعرف الآن... كم تُقدّر عددهم إضافةً إلى كيلين؟».

تذمر أميت.

قال آيوتا، والذي مضى وقت طويل على وجوده في ديب مالين: «أعتقد أنهم عشرون أو خمسة وعشرون على الأكثر، إذ انضمت قلة فقط من حراس الملك إلى إلدن بعد عودته في هوية قاتل الرحلة، ولقي الباقون حتفهم».

قال أميت: «إنهم ميتون مسبقاً»، وقصد جنود الليل، وقد أصاب في ذلك.

قال آيوتا: «أجل، كما يصبحون أضعف نهاراً؛ أي خلال النهار في العالم العلوي، وتخفت قوة الهالات التي تحيط بهم، لا بد أنك لاحظت ذلك يا تشارلي».

لقد لاحظت ذلك فعلاً، ولكن سنحصل من مجرد محاولة لمس أحدهم على صدمة كهربائية تشل عضلاتنا، وهذا ما يعرفه آيوتا والآخرون، وبالتالي يملك الأعداء الأفضلية، قبل الجولة الأولى كنا نفوقهم عدداً، ولكننا لم نعد كذلك الآن، كما سنغدو ثمانيةً بعد انتهاء الجولة الثانية، وأقل من ذلك إذا تعرض أحدنا إلى إصابات خطيرة مثل فريد وغولي.

قال أميت: «أنت لا تملك أي فكرة عن طريقة للهرب؟»، وانتظر آملاً أن أناقض كلامه.

لقد عجزت عن ذلك، ولكنني علمت شيئاً يجهلانه، ولذلك قلت: «استمعا إليّ، انشرا الخبر حيال وجود مهرب من هنا؛ في حال كان بيرسي محقاً، وأننا سنلجأ إليه في حال استطعنا تجاوز جنود الليل».

سألني آيوتا: «أي مهرب؟».

«دعك من ذلك الآن».

«سنفرض وجود واحد، كيف سنتجاوز جنود الليل وهالاتهم الزرقاء؟». لقد عدنا مجدداً إلى هذا السؤال.

«أنا أعمل على هذا الأمر».

لوّح أميت بيده قريباً جداً من أنفي، وكاد أن يصيبني: «أنت لا تملك شيئاً مفيداً في جعبتك».

حاولت تجنب استعمال ورقتي الرابحة، ولكن نفدت الخيارات مني، فمررت أصابعي عبر شعري ورفعته كاشفاً جذوره الشقراء وقلت: «هل أنا الأمير المنتظر أم لا؟».

التزم كلاهما الصمت حيال ذلك، ورفع آيوتا راحة يده إلى جبهته أيضاً، ولعل لطفه قد جاء من امتلاء معدته عن آخرها.

2

عاد بيرسي والطباخان بعد فترة قصيرة ورافقهم اثنان من جنود الليل وكانت هالتاهما ضعيفتين بشكل ملحوظ؛ بدا لونهما أزرق فاتحاً بدل النيلي الداكن، وهذا يعني أن الشمس أشرقت في مكان ما فوقنا، رغم أنها خلف كومة الغيوم المعتادة على الأرجح، وفي حال منحوني خيار الحصول على طبق إضافي من يخنة الدجاج أو رؤية ضوء النهار، فسأختار الثاني.

فكّرت في نفسي: «يسهل قول ذلك عندما تكون المعدة ممتلئة».

وضعنا أوعيتنا وأكوابنا اللامعة في العربة، وتذكرت حينها رادار التي اعتادت لعق طبقها عن آخره في أيام شبابها، ثمّ انغلقت بوابات زنزاناتنا وسط النهار في الأعلى، وظلام الليل الذي خيّم علينا.

تجشأ سجناء مالين، وأطلقوا الريح أكثر من المعتاد، قبل أن يناموا ويطلقوا العنان لشخيرهم، فقد كانوا منهكين من القتال والقتل، وما زاد من إنهاكهم ترقبهم لمصيرهم في الغد فهل سيُقتلون أم سينجون. فكّرت في إضافة سرير هامي إلى بطانيتي كي يصبح النوم على الأرضية الحجرية مريحاً أكثر، ولكن عجزت عن فعل ذلك، فاستلقيت ونظرت إلى نافذة زنزانتي ذات القضبان والتي تفصلني عن الظلام الدائم القابع خلفها، وكنت متعباً جداً، ولكن في كل مرة أُغمض فيها عينيّ أرى إما مشهد اللحظات الأخيرة من حياة كلا، أو ستوكس الذي وضع يده على خده كي يمنع اليخنة من التسرب عبره.

في النهاية، غفوت وراودني حلم عن الأميرة ليا قرب البركة حاملةً مجفف شعر والدتي الغريب؛ مسدس الإشعاع الأرجواني المميت، ولعل هذا الحلم ضرب من ضروب السحر الإمبيسي أو آخر عادياً يمارسه لاوعيي خلال محاولته إخباري شيئاً ما، إذ أعلم وجود مغزىً من هذه الرؤيا، ولكن شيئاً ما أيقظني قبل أن أكتشف ماهية الأمر، وقد كان صوت خشخشة وشيء يخرمش في الصخر.

جلست والتفتت حولي، كي أجد مصباح الغاز المطفأ يتحرك في مكانه باتجاه عقارب الساعة، ثمّ عكسها.

«ماذا...».

حاول آيوتا الاستفسار عن مصدر الضجيج، ولكنني وضعت إصبعي على شفتي مشيراً إليه أن يصمت.

فعلت ذلك غريزياً، إذ غط الجميع في النوم، وصدر أنين من بعضهم بسبب ما اعتقدت أنها كوابيس على الأرجح، وبالتأكيد لا أجهزة تنصت هنا، ليس في إمبيس.

راقبنا مصباح الغاز يدور ذهاباً وإياباً، حتّى سقط وتدلى معلقاً إلى إطاره المعدني الذي لاحظت وجود شيء في داخله، واعتقدت في البداية أنه جرذ عجوز ضخم، ولكن بدا أن لظله زوايا حادة جداً ولا يمكن أن تكون لجرذ، ثمّ خرج ذلك الشيء ونزل سريعاً على الجدار وصولاً إلى الأرضية الصخرية الموحلة.

همس آيوتا: «ما هذا بحق الجحيم؟!».

حدقت مذهولاً إلى صرصار الليل الكبير الذي في حجم قط وهو يقفز باتجاهي على قائمتيه الخلفيتين القويتين، وبدا أنه يعرج قليلاً مقارنةً مع السابق، وقد ذكّرني قرنا استشعاره البارزان من رأسه بلاقط الإشارة على تلفاز السيد بوديتش القديم. وصل إلى زنزانتي وحدقت عيناه السوداوان إليّ، واللتان توضعت قشرة واقية بينهما، وفم ارتسمت عليه ابتسامة شيطانية ثابتة، وقد حمل شيئاً تحت بطنه يشبه قصاصةً ورقيةً.

ركعتُ على إحدى ركبتيّ وقلت: «لقد تذكرتك، كيف حال قائمتك؟ تبدو أفضل الآن».

وثب صرصار الليل إلى الزنزانة، ولعله أمر سهل نسبةً إلى أقرانه في عالمي، ولكن حجمه كبير في إمبيس إلى درجة أنه اضطر أن يضغط نفسه بين القضبان حتّى يدخل، ثمّ نظر إليّ، وشعرت أنه تذكرني. مددت يدي ببطء، ومسحت على رأسه الكيتيني[44] وبدا أنه انتظر لمستي كي يستلقي إلى جانبه، عندها تأكدت من وجود ورقة مطوية معلّقة إلى قشرة بطنه بواسطة غراء من نوع ما، فسحبتها بلطف كي أحول دون تمزيقها. وقف صرصار الليل مجدداً على قوائمه الست- اعتقدت أن أربعةً منها من أجل المشي، بينما الخلفيتان الكبيرتان من أجل القفز – ووثب إلى سرير هامي، وواظب التحديق إليّ من هناك.

لقد بدأت الاعتياد على المزيد من السحر.

فتحت الورقة، كي أجد كلمات مكتوبةً في خط صغير جداً، فاضطررت أن أقربها كثيراً من وجهي كي أقرأها، ولكن أدركت وجود شيء إضافي يهمني أكثر حينها؛ إذ ألصقت خصلة شعر إلى الورقة بواسطة ذلك الغراء نفسه، فرفعتها إلى أنفي فشممت رائحةً ميزتها مباشرةً رغم أنها ضعيفة.

رادار.

كتب في الملاحظة: هل أنت على قيد الحياة؟ هل نستطيع مساعدتك؟ أرجوك أرسل رداً إن استطعت. كلبتك في أمان. ك.

همس آي: «ما الأمر؟ ماذا أحضر إليك؟».

لقد حصلت على قصاصة ورقية وعقب قلم رصاص من بيرسي، وبالتالي أستطيع الإجابة، ولكن ماذا سأكتب؟».

«تشارلي! ما الذي...».

همست له: «اصمت. أريد أن أُفكّر».

كُتب في الملاحظة: «نستطيع مساعدتك؟».

ولكن السؤال الذي تبادر إلى ذهني كان بشأن الضمير المستخدم في الملاحظة التي أرسلتها كلاوديا بالتأكيد، إذ وجدت رادار طريقها إلى منزل كلاوديا الخشبي بطريقة ما، ربما وظفت قدرتها على الشم وإيجاد الاتجاهات غريزياً، وهذا أمر رائع، ولكن كلاوديا تسكن وحدها، أي كانت لتكتب أنا وليس نحن، وبالتالي هل انضم وودي إليها؟ أو ربما ليا حتّى وهي تمتطي فرسها المخلصة فلادا؟ ولكنهم ما زالوا قلةً سواء امتلكوا دماءً ملكيةً أم لا، إلا إن حصلوا على دعم الآخرين، مثل الرماديين... هل هذا الاحتمال مستحيل؟ ربما، ولكن إذا آمنوا حقاً في أنني الأمير المنتظر، فربما...

فكّر يا تشارلي، هيّا فكّر.

فكّرت في ملعب إلدن، أو الفراشات الكبيرة سابقاً، والذي أنارته الأضواء الغازية العملاقة المنتشرة حول حافته الدائرية وإن خلال فير ون على الأقل، من دون أي مصدر كهربائي، والذي لن يكون بالتأكيد المولد المتداع الذي يُشغلّه العبيد.

جالت آلاف الأسئلة في رأسي من دون أن أملك سوى تلك القصاصة الورقية الصغيرة، وبالتالي وجدت نفسي في موقف لا أحسد عليه، خاصةً في ظل عجزي عن إيجاد إجابة لأي منها، ولكن فكرة خطرت في ذهني، وبدت أفضل من لا شيء رغم انعدام إمكانية تطبيقها تماماً، إلا إذا توصلت إلى طريقة أتخلص فيها من جنود الليل.

هذا إن أمكنني التوصل إليها... وإن أمكن صرصار الليل الأحمر الذي ساعدته مرةً... أن يوصل رسالتي إلى كلاوديا...

طويت قصاصتي الورقية الوحيدة الثمينة، ومزقتها بحذر إلى نصفين، ثمّ كتبت بخط صغير جداً: ما زلت حياً. انتظروا حتّى الليلة التي تضاء فيها مصابيح ملعب الفراشات. تعالوا إن كنتم كُثر، وتجنبوا ذلك في حال كنتم قِلة. وقد أردت بدايةً توقيع حرف (ت) في نهاية الرسالة، ولكن كتبت بخط أصغر (وقد أحرجني ذلك): الأمير تشارلي.

همست إلى صرصار الليل: «تعالَ إليّ».

ولكنه جلس من دون حراك على سرير هامي، وقد برز مفصلا قائمتيه الكبيرتين إلى أعلى مثل مرفقين مثنيين، فطقطقت أصابعي، وعندها وثب وحط أمامي، وقد بدا رشيقاً أكثر منه في لقائنا الأخير، ثمّ دفعته بلطف بكلتا يدي كي يستلقي طوعاً إلى جانبه. ما زالت المادة اللاصقة لزجةً جداً، فوضعت الملاحظة عليها، وقلت له: «هيّا، أعدها».

نهض الصرصار من دون أن يغادر، وقد حدق آيوتا إليه واتسعت عيناه كثيراً حتّى أصبحتا في خطر السقوط من محجريهما.

همست مشيراً إلى الفتحة فوق مصباح الغاز المتدلي: «اذهب، هيّا اذهب وخذ الرسالة إلى كلاوديا»، وشعرت أنني فقدت عقلي عندما فكّرت في أنني أملي التعليمات على صرصار.

واصلت عيناه السوداوان المهيبتان النظر إليّ لبعض الوقت، ثمّ التفت وانكمش بين القضبان، وقفز بعدها إلى الجدار، وتحسس الصخرة بقائمتيه وكأنه يختبرها، وغادر المكان ببراعة.

قال ستوكس من الزنزانة المجاورة: «ما كان ذلك بحق الجحيم؟».

التزمت الصمت، إذ لعل لونه أحمر وحجمه ضخم، ولكن ستوكس سيكون أعمى إذا لم يعرف أنه جدجد.

كانت الفتحة في الجدار أضيق من المسافة بين قضبان الزنزانة، ولكن صرصار الليل الأحمر استطاع المرور عبرها من دون أن تهتز الملاحظة المعلقة أسفل بطنه، وذلك ممتاز نظراً إلى هوية الأشخاص الذين سيقرؤونها إن سقطت على أرضية الممر، وبالطبع أعجز أن أجزم بقاءها معه خلال رحلته في المتاهة التي قادته إلى هنا، ولكن سأفرض حدوث ذلك، يستحيل أن أتأكد من وصولها إلى كلاوديا، أو أن وجهته إلى هناك أساساً، ولكن أيّ خيارات أخرى أمتلكها، أو نمتلكها؟

«استمعا إليّ يا ستوكس وآي، أخبرا الآخرين أننا يجب أن ننتظر ميعاد الجولة الثانية، وسنخرج من هذا المكان اللعين قبل بدايتها».

لمعت عينا ستوكس وقال: «كيف؟».

«ما زلت أعمل على هذا الأمر، والآن دعاني وشأني».

أردت أن أُفكّر، وأن أمسح على خصلة الشعر الصغيرة التي أرسلتها كلاوديا إليّ، وتمنيت أن أستطيع مداعبة الكلبة التي تعود إليها هذه الأشعار،

ولكن أزالت معرفة أن رادار سليمة عبئاً ثقيلاً جداً عن كاهلي من دون أن أدري أنني أحمله.

قال آي: «ولكن ما زلت أجهل سبب قدوم الحشرة الحمراء إليك، هل لأنك الأمير؟».

هززت رأسي نافياً وقلت: «هل تعرف قصة الفأرة التي انتزعت الشوكة من قدم الأسد؟».

«لا».

«سأقصها عليك بعد أن نخرج من هنا».

3

قضينا اليوم التالي من دون وليمة أو وقت لعب، ولكننا تناولنا الفطور، واستطعت إعطاء بيرسي – الذي جاء وحده هذه المرة – الملاحظة التي كتبتها على نصف القصاصة الآخر، وتألفت من خمس كلمات فقط: «كيف السبيل خارج غرفة الموظفين؟»، وقد أخذها مني من دون أن يقرأها، ودسها في مكان ما ضمن قميصه الفضفاض الذي يشبه السترة، وتابع دفع عربته حتّى نهاية الممر.

انتشر الخبر: يملك الأمير تشارلي خطةً من أجل الهروب.

تمنيت أن يغفل جنود الليل عن الطاقة الجديدة التي تولّدت في نفوس محاربيهم الأسرى إن جاءوا في جولة مراقبة إلى هنا، مع أن حصول ذلك قليل الاحتمال في الليل، وقد لاحظت أن معظمهم غبي جداً، باستثناء آرون، ولورد هاي.

لقد حدث ما حدث على أيّ حال، وتصورت دوماً أن صرصار الليل العجيب قد أوصل الملاحظة إلى كلاوديا، وأن ورثة أسرة غالين الباقين سيظهرون على أبواب مدينة الأشباح مع بداية الجولة الثانية برفقة مجموعة

من الرماديين، وبالتالي لدينا فرصة للحصول على حريتنا إن استطعنا الخروج من هنا والانضمام إليهم، إضافةً إلى إمكانية القضاء على المخلوق الذي سخّر قوته من أجل لعن أرض إمبيس التي كانت ساحرةً يوماً.

كل ما أريده هو الحرية وعدم الموت في هذه الزنزانة الكئيبة، أو على ملعب القتل في سبيل متعة إلدن وأتباعه المعتوهين، ولا أستطيع تحمل مقتل أحد آخر من أصدقائي في السجن، إذ بقينا خمسة عشر فرداً بعد وفاة غولي ليلة الوليمة؛ حيث توفي خلال تناولنا الطعام على حدّ علمي، وأخذه رجلان رماديان في اليوم التالي بعد الفطور تحت إشراف جندي ليل يدعى ليميل، أو لاميل، وربما لامويل، لم يكن اسمه مهماً، إذ أردت قتله على أيّ حال.

أردت قتلهم جميعاً.

قال أميت بعد أن أخذ الرجلان هامي: «يجب أن تجد سبيل التخلص من جنود الليل سريعاً أيها الأمير الصغير، إذ أجهل أمر قاتل الرحلة، ولكنني أعلم توق بيترا الشديد كي ترى المزيد من القتل، إذ يثيرها الأمر بطريقة ما».

سمعت كلمةً مختلفةً عن يثيرها، ولكنه أصاب في ذلك.

تناولنا الليلة على العشاء بعد الوليمة قطع لحم غير ناضجة تماماً، وقد شعرت بالغثيان فور النظر إلى حصتي، وأوشكت أن أرميها في حفرة المرحاض، ولكن حسناً فعلت عندما عدلت عن ذلك، فقد دس بيرسي ملاحظةً جديدةً فيها، والتي كتبها بخطه الأنيق نفسه:

حرك الخزانة الطويلة. يوجد باب. ربما يكون له أقفال. دمّر هذه الملاحظة.

خادمك المطيع.

بيرسيفال.

لقد احتجت تفاصيل أكثر، ولكن ذلك جل ما امتلكته حينها، وسيفيدنا إن وصلنا إلى غرفة الموظفين فقط. أمكننا التعامل مع العصي المرنة، ولكن تلزمنا وسيلة كي نتخلص من الهالات الزرقاء الصاعقة التي تحمي آسرينا، ولكن سنفرض أننا نجحنا في ذلك.

هل نستطيع قتل شيء ميت بالفعل؟

4

لقد خشيت أن يحضر بيرسي النقانق على الفطور في اليوم التالي، إذ يعني ذلك قدوم ميعاد الجولة الثانية، وأنا ما زلت أجهل كيفية هزيمة ذوي الهالات الزرقاء، ولكنه أحضر فطائر كبيرةً يغطيها ما يشبه مربى التوت. أخذت قطعتي، وتناولتها، ثمّ استعملت الكوب مثقوب القعر كي أغسل المربى عن يدي، وذلك تحت أنظار آيوتا من وراء القضبان وهو يلعق أصابعه في انتظار مغادرة بيرسي المكان.

قال آيوتا بعد خروج بيرسي: «سيمنحوننا يوماً إضافياً كي تتعافى جراحنا قليلاً، وبالتالي ستكون الجولة الثانية غداً أو بعد غد، أو بعد ثلاثة أيام على الأكثر».

لقد أصاب آيوتا في ذلك، وقد اعتمد الجميع عليّ، وكان أمراً سخيفاً أن يضعوا ثقتهم في فتى من المدرسة الثانوية، ولكنهم احتاجوا مبشراً، واختاروني كي أُؤدي هذا الدور.

ترددت على مسامعي كلمات المدرب هاركنس: «هيّا مارس عشرين تمرين ضغط يا عديم الفائدة».

أطعت أمره لأنني عجزت عن التفكير في حلّ، وشعرت أنني عديم الفائدة؛ وضعت راحتي يدي على الأرض وباعدت بينهما، ونزلت ببطء حتّى

لامست ذقني الأرض، ثمّ رفعت جسدي ببطء أيضاً.

قال ستوكس وهو يمشي قرب القضبان ويراقبني: «ما هدفك من ذلك؟».

«أن أُهدّئ نفسي».

يصبح التمرين مريحاً دوماً بعد تغلبك على اليبوسة الأولية (وهي احتجاج الجسم المتوقع عندما تطلب منه أداء عمل متعب). فكّرت خلال ممارسة تمارين الضغط في الحلم الذي امتلكت فيه ليا مجفف شعر والدتي الأرجواني، وقد بدا أن فكرة وجود حل مشكلتي – مشكلتنا – هناك وكأنها سحرية، ولكنني في مكان سحري، وبالتالي أين الغرابة في الأمر؟

إليك ملاحظة جانبية، والتي ليست كذلك على الإطلاق – انتظر سماع المزيد فحسب- قرأت رواية دراكولا في الصيف الذي سبق بداية الصف السابع في المدرسة بناءً على طلب جيني سكوستر، وذلك قبل فترة قصيرة من انتقال عائلتها إلى آيوا، إذ أردت قراءة فرانكشتين – وقد أحضرتها من المكتبة أيضاً – ولكن جيني أخبرتني أنها مملة وتسرد أفكاراً فلسفيةً سخيفةً في أسلوب روائي سيئ، وأن رواية دراكولا أفضل منها مئات المرات، وأروع قصة كتبت عن مصاصي الدماء.

أجهل مدى صحة أقوالها – إذ تصعب الثقة في النقد الأدبي الصادر عن فتاة في الثانية عشر، حتّى وإن كانت خبيرةً في مجال الرعب – ولكن تبيّن أن رواية دراكولا جيدة حقاً. تلاشت بعد فترة أفكار مص الدماء، وطعن الأشواك في القلوب، وحشو الثوم في أفواه الموتى، كي أتذكر شيئاً قاله فان هيلسينغ عن أحد أشكال الضحك الذي أسماه (سيدة الضحكات)، ووصفها بأنها تظهر فجأةً دون طلبها، أي أن تضحك فجأةً من شيء طريف صادفته، وعند كل مرة تتذكره فيها. أعتقد أن الإلهام الحقيقي يقوم على

المبدأ نفسه، أي يخلو الأمر من رابط تضغط عليه قائلاً: «بالطبع، لقد فكرت في الأمر وقادني إلى هنا». يأتي الإلهام فجأةً.

أنهيت عشرين تمرين ضغط، ثمّ ثلاثين، وأوشكت أن أتوقف قبل أن تلمع فجأةً ملامح فكرة ما في ذهني، حتّى تتضح تماماً، فنهضت واتجهت إلى القضبان.

«أعلم ما يجب أن نفعله، إنها الطريقة الوحيدة ولكنني أجهل إن كانت فعّالة».

قال آيوتا: «أخبرني»، فأخبرته عن مجفف شعر والدتي، والذي كان يجهل ماهيته؛ إذ جاء من مكان تترك فيه النساء شعورهن الطويلة كي تجف تحت أشعة الشمس، ولكنه فهم بقية القصة، وكذلك ستوكس الذي استمع إليّ من الزنزانة المجاورة.

قلت: «انشرا الخبر بين الآخرين».

وضع ستوكس راحة يده على جبهته وانحنى أمامي، وقد أخافني أمر الانحناء، ولكن سأقبله إن كان سبيلاً إلى وحدتهم معاً إلى حين استعادتي شخصيتي العادية، رغم أنني أشك في حدوث ذلك حتّى وإن نجوت؛ إذ تدوم بعض التغييرات إلى الأبد.

5

حصلنا صباح اليوم التالي على النقانق.

اعتاد بيرسي توزيع الطعام صامتاً، ولكنه قال شيئاً قصيراً يومها: «ألو، ألو»، وقد فهمت أنه يقصد: «كلوا، كلوا».

حصل الجميع على ثلاث قطع نقانق وأنا على أربع، ليس لأنني أمير ديب مالين فحسب، بل احتوت كل منها عود ثقاب خشبي له رأس كبريتي

لين، فدسست اثنين في كل فرد من زوج الجوارب القذرة خاصتي آملاً أن تخميني صحيح حيال استعمالها.

6

مرت فترة انتظار قاسية أخرى، وانفتح الباب أخيراً كي يدخل ليميل – أو أياً كان اسمه – برفقة اثنين آخرين بقيادة آرون الذي فتح يديه أمام البوابات وصاح: «اخرجوا أيها الصغار. إنه يوم جيد من أجل ثمانية منكم، وسيئ من أجل الباقين. أسرعوا. أسرعوا».

خرجنا من زنزاناتنا من دون سماع احتجاج هاتشا حول مرضه؛ إذ أجهز ستوكس عليه سابقاً، ودفع ثمن ذلك تشوه وجهه إلى الأبد. التفت آيوتا إليّ، ارتسمت ابتسامة خافتة على وجهه، وبدا أنه غمزني نوعاً ما، وقد منحني ذلك بعض الشجاعة، وحصلت عليها أيضاً من معرفة أن إلدن قاتل الرحلة، وبيترا، وطاقم المتملقين سيخدعون خلال الفير ون، سواء أمكننا الهروب أم لا.

خرجت وتجاوزت آرون، ولكنه أوقفني موجهاً رأس عصاه المرنة إلى بقايا قميصي البالية، وارتسمت ابتسامة على وجهه البشري نصف الشفاف الذي يغطي جمجمته وقال: «هل تظن أنك مميز؟ لا يستحسن بك ذلك، وهل يوافقك الآخرون الرأي أيضاً؟ حسناً، سيعرفون الحقيقة قريباً».

قلت: «أنت خائن، لقد خنت كل ما أقسمت عليه».

تلاشت الابتسامة من بقايا إنسانيته وظهرت نظيرتها الأبدية على جمجمته، ثمّ رفع عصاه المرنة، وهذا يعني أنه سيضربني بها على وجهي نزولاً من مقدم شعري وحتّى ذقني، فوقفت مستعداً، وأدرت وجهي قليلاً كي أتلقاها، إذ تحدّث حينها شيء ما في داخلي، وقد كان صادقاً.

أنزل آرون عصاه وقال: «لا، لا، لن أجلدك، بل سأترك الأمر إلى خصمك. أسرع الآن قبل أن أُبدّل رأيي وأعانقك حتّى تتغوط في بنطالك».

لكنني أعرف وإياه أنه لن يفعل ذلك، إذ وضعتْ توزيعات الجولة الثانية، وبالتالي يعجز عن فعل أي شيء قد يفسدها مثل صعقي كهربائياً حتّى أفقد الوعي أو أموت.

تبعت الآخرين بعد أن تلقيت جلدةً اخترقت سروالي إلى فخذي، وأحسست بلسعة العصا التي تلاها ألم حارق وسيلان الدماء، وتجنبت الصراخ تماماً كي أحول دون إرضاء ابن الوضيعة الميت.

7

أخذونا إلى غرفة الفريق نفسها والتي يفصلها بابان عن غرفة الموظفين حيث يُفترض بنا أن نجد مهرباً من هنا. وضع ملصق التوزيعات على اللوح في منتصف الغرفة كما في السابق، ولكن دوّنت عليه مباريات أقل هذه المرة.

الجولة الثانية من فير ون

المجموعة الأولى

أوكا ضد غولي (متوفى)

تشارلي ضد جايا

مورف ضد فريد

المجموعة الثانية

بيندو ضد بولت

كاميت ضد ستوكس

إيريس ضد كويلي

دوبل ضد ميسيل

المجموعة الثالثة

أميت ضد آيوتا

يبدو أنهم تركوا العمالقة من أجل المباراة الأخيرة هذه المرة، وقد كان خياراً جيداً، ولكن لن تقام تلك المباراة أيا كان ما سيحدث في الدقائق القليلة التالية.

انتظرنا اللورد هاي كما في الجولة الأولى مرتدياً بذلته الفاخرة، والتي وجدتها تشبه ما قد يرتديه أحد طغاة البلاد الفقيرة في أمريكا الوسطى خلال مناسبة رسمية.

قال: «ها نحن ذا مجدداً... يبدو أن بعضكم مصاب قليلاً، ولكن أعلم أنكم جاهزون ومتشوقون من أجل القتال، أليس كذلك؟».

قلت: «أجل يا لورد هاي».

ردد الآخرون: «أجل يا لورد هاي».

ألقى كيلين نظرةً على جرح فخذي النازف وقال: «أرى أنك تلقيت إصابةً صغيرةً مسبقاً أيها الأمير تشارلي».

التزمت الصمت.

نقل لورد هاي نظراته بين الآخرين وقال: «ألستم تدعونه الأمير تشارلي؟».

قال أميت: «لا يا لورد هاي، إنه مجرد ابن حرام يحب أن يتباهى».

أحب كيلين هذه الإجابة، ولاحظت ذلك من الابتسامة الخفيفة التي ارتسمت على شفتيه البشريتين، اللتين غطتا الابتسامة الأبدية على جمجمته، ثمّ التفت إليّ وقال: «يقال إن الأمير يستطيع الطيران وتغيير شكّله، فهل تستطيع الطيران؟».

قلت: «لا يا لورد هاي».

«ماذا عن تغيير شكلك؟».

«لا».

رفع عصاه المرنة التي كانت أطول وأثخن من تلك التي يملكها جنوده وقال: «لا، ماذا؟».

«لا يا لورد هاي».

قال كيلين: «هذا أفضل. سأمنحكم بعض الوقت كي تستعدوا أيها الصغار، واغتسلوا من أجل أسيادكم من فضلكم، إذ يرغبون في رؤية وجوهكم، لذلك رطبوا شعوركم وسرحوها إلى الخلف، وألقوا نظرةً على توزيع المباريات وأنتم تفعلون ذلك. أتوقع منكم تقديم عرض جيد من أجل جلالة الملك كما فعلتم في الجولة الأولى، هل هذا مفهوم؟».

قلنا: «أجل يا لورد هاي»، مثل مجموعة طلاب مطيعين في الصف الأول الابتدائي.

حدق لورد هاي بعينيه العميقتين إلينا مجدداً وكأنه شك في وجود شيء ما، ولعله كذلك حقاً، ثمّ غادر وتبعه الآخرون.

قال أوكا مبتهجاً: «انظروا، لقد وضعوني ضد رجل ميت. حسناً، أعتقد أنني سأفوز في هذه المباراة».

قلت: «سنفوز جميعاً اليوم أو لن يفوز أحد منا». نظرت إلى الرف حيث وضعوا ستة عشر دلو مياه من أجل الاغتسال، لقد جلبوا واحداً من أجل غولي أيضاً.

قال آي: «هذا صحيح».

«جايا وإيريس، أريدكما أن تحملا هذين الدلوين، وتقفا إلى جانبي الباب، ويجب أن تملآهما تماماً في حال لم يكون ممتلئين، وعلى الآخرين أن يأخذوا دلاءهم وينحنوا على أيديهم وركبهم».

سأل بيندو: «ولماذا نفعل ذلك؟».

«لأنني أجهل ما قد يحدث».

ولكن قلت في نفسي: «ربما لأن والدتي أخبرتني أن أتجنب استخدام مجفف الشعر خلال الاستحمام».

قلت بصوت مرتفع: «سننفذ أمر التنظيف، ولكن ليس تنظيف أنفسنا. ستنجح خطتنا».

بدت الخطة محكمةً من دون أن أدري فعاليتها تماماً، ولكن ما أعرفه أن نتائجها فوريةً.

8

همست إيريس: «أسمع خطوات أقدامهم، إنهم قادمون».

قلت: «انتظري حتّى يدخلوا الغرفة، إذ ستكون أنظارهم موجهةً إلى الأمام ولن يرونكما».

أو تمنيت ذلك.

رفعت المرأتان الدلوين إلى صدريهما، بينما جثا الآخرون جميعاً على أيديهم وركبهم ووضعوا دلاء الاغتسال قريباً منهم، وقد انحنى أميت وآيوتا فوقي من كل جانب كي يحمياننني. انفتح الباب، ودخل منه جنديا الليل اللذان رافقا مشاركي المجموعة الأولى في الجولة السابقة قبل بضعة أيام، وقد توقعت ذلك رغم أنني أردت قدوم كيلين أو آرون، ولكن أعتقد أنهما على أرض الملعب من أجل تنظيم مراسم اليوم.

وقف جنديا الليل ونظرا إلى صف السجناء الجاثمين على الأرض، فقال أحدهما: «ما الذي..».

صرخت: «الآن!».

أفرغت جايا وإيريس دلوي المياه عليهما.

قلت إنني أجهل ما قد يحدث، من دون أن أتخيل ما حدث حقاً: لقد انفجرا، ولمعت ومضات ساطعة أعمت بصيرتي لفترة قصيرة، ثمّ سمعت شيئاً – بل أشياء – تصدر أزيزاً فوق رأسي، وشعرت وكأن نحلةً لسعتني في ذراعي، وتلا ذلك صرخة حادة مثل صيحات الحرب من جايا أو إيريس، إذ كان رأسي منخفضاً ولذلك عجزت عن معرفة صاحبتها، وسمعت أخيراً صرخات خائفةً ومتألمةً حولي.

صرخت: «انهضوا!».

بقيت جاهلاً ما حدث حينها، وجل ما أدركته هو وجوب الخروج من هناك. أصدر انفجار جنديي الليل صوتاً عادياً يشبه سقوط أثاث ثقيل على بساط، ونجم الضجيج عن صوت صراخ المرأة المرتفع جداً، وانطلقت بعض الشظايا في الأرجاء، فبعد أن وقفت على قدمي رأيت دماءً تسيل على جانب أنف آيوتا بسبب شيء بارز من جبهته أعلى عينه اليسرى، والذي كان قطعة عظم، وانغرست واحدة أخرى في ذراعي، فانتشلتها ورميتها أرضاً.

لقد أصيب الجميع من دون أن يبدو أي منهم عاجزاً أو ما شابه باستثناء فريد، وهذا ما كان عليه حاله قبلاً، وقد ساعده مورف، الذي وجب أن ينافسه في مباراتهما ضمن المجموعة الأولى.

أخرج آيوتا قطعة العظم من جبهته والتفت حوله في دهشة؛ إذ تناثرت الشظايا العظمية حولنا وبدت مثل بقايا آنية فخارية مكسورة، وقد بقي من جنديي الليل ملابسهما التي تمزقت وكأنها تعرضت إلى إطلاق نار قريب من بندقية صيد محشوة بالخردق.

التفت يد أحدهم حول عنقي، وقد كان أميت، الذي شدني وعانقني بقوة وقال: «كنا سنتحول إلى أشلاء ما لم تخبرنا أن نجثوا على الأرض، كيف عرفت أن هذا سيحدث؟». وقبّل وجنتي.

في الحقيقة، أردت أن نتخذ وضعية الاستعداد من أجل الهجوم، مثل الصف الأمامي في كرة القدم، فقلت له: «كنت أجهل ذلك... هيّا لنخرج جميعاً من هنا، وخذوا دلاءكم معكم، سأترك المقدمة من أجلكما يا آي وأميت، سنذهب إلى غرفة الموظفين التي تقع بعد بابين صعوداً عن هنا، وفي حال صادفنا بعض جنود الليل أفرغا دلويكما عليها، وانبطحا أرضاً، وليفعل الجميع ذلك، ولكن حاولوا تجنب سكب دلائكم، فقد أصبحنا نعرف ما سيحدث».

خرجنا من الغرفة حاملين دلاء المياه (ركلت إيريس إحدى البذلتين الممزقتين جانباً، ثمّ بصقت عليها)، وألقيت نظرةً خلفي كي أجد غرفة الفريق حيث وجب أن ننتظر دورنا من أجل القتال قد تحولت إلى ساحة تغطي العظام أرضيتها.

هذا جيد.

سار أميت وآيوتا أمامنا، وحملت إيريس دلو الراحل غولي بدلاً من دلوها، وسارت جايا في الخلف لأن دلوها فارغ، وتابعنا طريقنا حتّى وصلنا إلى باب غرفة الموظفين، وصادفنا حينها جنديي ليل آخرين يدخلان الممر من أرضية الملعب المضاءة.

صاح أحدهما: «أوي! (متأكد أنه قال أوي)، ماذا تفعلون هنا؟ يجب أن يخرج مشاركو المجموعة الأولى الآن».

وقفنا جميعاً وكذلك آيوتا وأميت الذي بدا مرتبكاً بشكل جميل وقال: «ولكن ألا يجب أن نكون جميعاً هناك هذه المرة؟ كي نحيي جلالة الملك؟».

اقترب الجنديان، وقال الآخر: «بل المجموعة الأولى فقط أيها الحمقى. وعلى الباقين أن يعودوا إلى...».

تبادل أميت وآيوتا النظرات، فأومأ آي، وتقدم الاثنان خطوةً إلى الأمام واحداً تلو الآخر بشكل متناغم وكأنهما تدربا على ذلك، وأفرغا دلويهما، ثمّ ارتميا أرضاً، وكنا قد سبقناهما واستلقينا على بطوننا تماماً ولم نجثوا على أيدينا وركبنا فقط كما في المرة السابقة، إذ حالفنا الحظ كثيراً حينها، ولا أظنه أنه سيحالفنا كل مرة.

انفجر الجنديان وانطلقت الومضات وأصوات السقوط المكتوم، ولكن سمعت هذه المرة شيئاً إضافياً يشبه الطقطقة الكهربائية الصادرة عن محول كهربائي صغير قبل أن يتلفه حمل طاقة زائد، وشممت بعض الأوزون[45]، كما تطايرت أشلاء العظام فوقنا، وارتدت عن الجدران والأرضية.

نهض أميت والتفت إليّ، وقد اصطفت أسنانه كلها في ابتسامة شريرة – بل شيطانية، وقال: «هيّا بنا نتوجه إلى المعلب يا تشارلي، فهناك دزينة من الدلاء الإضافية. دعنا نفجّر أكبر عدد ممكن منهم».

«لا أبداً، إذ قد نقضي على بعضهم، ولكن سيسفك الآخرون دماءنا، كما أننا نهرب الآن ولا نريد القتال».

توقدت الحماسة في نفس أميت، واعتقدتُ أنه لن يصغي إليّ، ولكن آي أمسك عنقه وهزه قائلاً: «من هو الأمير أيها الأحمق؟ أنت أم هو؟».

«هو».

«هذا صحيح. حسناً، افعل ما يقوله».

قلت: «هيّا بنا، بيندو وبولت، هل دلواكما ممتلئان؟».

قال بولت: «دلوي نصف ممتلئ، يؤسفني أنني سكبت بعضه مولا...».

«تقدم إلى بداية الممر، وكذلك دوبل وكاميت، إن جاء المزيد...».

قال كاميت: «سنمنحهم حماماً لطيفاً».

قدت الآخرين ومشيت مترنحاً بسبب دلوي الذي سكبت بعض المياه منه – إذ تبللت ساقا بنطالي – ولكن ما زال يحوي ثلاثة أرباعه. كان باب غرفة الموظفين مقفلاً، فقلت: «أميت، آي، افعلا ما يمكنكما فعله».

ضربا الباب معاً فانفتح بقوة، وقد خيمّ الظلام في الداخل، وكانت رؤيتي مشوشةً بسبب الانطباع الذي تركه وميض الانفجار السابق، فصرخت: «هل يستطيع أحدكم رؤية شيء ما؟ يجب أن نبحث عن خزانة طويلة، من يمكنه...».

قاطعتني حينها صرخة من الخلف، وتلاها وميض ساطع منحني القدرة على رؤية الخزانة المنتصبة أمام الحائط البعيد عنا، وحولها بضع كراس خشبية، ثمّ سمعت عويلاً وألماً، ثمّ صدر وميض آخر بعده.

دخل بيندو، ودوبل، وكاميت الذي نزف بشدة من وجهه وذراعه، وبرز من جرحيه شظايا عظمية تشبه ريشاً أبيض مصفراً. قال بيندو لاهثاً: «لقد فجّرنا اثنين إضافيين، ولكن وصل ثانيهما إلى بولت قبل أن أنال منه، إذ عانقه... ثمّ بدأ بولت يرتجف...».

لقد خسرنا واحداً منا مقابل ستة من جنود الليل إن كان بيندو محقاً، وهذه نتيجة جيدة، ولكن ما زال هناك الكثير منهم.

«ساعدني يا آي في تحريك الخزانة».

اندفع آي إلى الخزانة التي تشبه نظيرتها الويلزية لدى جدتي، وذلك قبل أن أقترب منها، وأسند كتفه عليها ودفعها بقوة كبيرة، كي تنزاح مسافة أربع أقدام وتتمايل ثمّ تسقط على الأرض كاشفةً عن باب خلفها، كما ورد في ملاحظة بيرسي.

تعالت صرخات يشوبها الأزيز من مكان ما، والتي أرعبتنا رغم بعدها عنا، حيث كنت أجهل اكتشاف لورد هاي نية سجنائه في الهروب، ولكن أجزم أنه جنود الليل يعلمون وجود أمر مريب.

رفع ستوكس مزلاج الباب وشده كي ينفتح، وقد فاجأني ذلك، ولكن منحني الأمل أيضاً، إذ ذكر بيرسي في الملاحظة: «ربما يكون للباب أقفال»، وليس: «إن الباب مقفل»، وتمنيت أنني أصبت في فهم قصده.

قلت: «ادخلوا جميعاً».

اندفع الجميع عبر الباب، بمن فيهم مورف الذي ما زال يساعد فريد. استعدت قدرتي على الرؤية قليلاً، ولاحظت وجود فانوس يشبه قذيفة مدفع على أحد الكراسي الخشبية، دعوت كثيراً في تلك الأثناء من أجل بيرسي – بيرسيفال، إذ سيلقى مصيراً سيئاً إذا فشلنا في الهرب واكتشفوا أنه ساعدنا، وربما سيعاقب إن نجونا أيضاً.

عاد آيوتا وقال: «إن الظلام دامس جداً هناك يا تشارلي... أوه. يا ليتنا نستطيع إشعال هذا الفانوس»، إذ تنبه إلى وجوده.

وضعت دلو المياه أرضاً كي أخرج عيدان الثقاب من جوربي، وذلك وسط نظرات آي الذاهلة، حيث قال: «أنت الأمير حقاً».

أعطيته عيدان الثقاب وقلت: «ربما، ولكنني أجهل كيفية استخدام هذا الشيء، ولذلك حاول إشعاله».

بدأ آي إشعال الفانوس الذي ملأ خزانه الزجاجي الكيروسين أو ما شابه، وهنا سمعت صوت خطوات أقدام تتجه إلينا من الملعب.

«أوي، أوي. ما الذي يجري هنا؟ لماذا هذا الباب مفتوح؟»، أنا أعرف صاحب هذا الصوت، سواء مع أزيز الحشرات الذي رافقه أو من دونه.

نظر آيوتا إليّ ورفع كلتا يديه حاملاً الفانوس المضيء في واحدة، وكانت الأخرى حرة لأنه لا يمتلك دلواً.

قلت: «ادخل وأغلق الباب، أعتقد أن إقفاله من الداخل ممكن».

«لا أريد أن أتركك...».

«اذهب!».

رحل آيوتا.

ظهر آرون عند مدخل الغرفة وسط هالته الساطعة جداً التي يصعب النظر إليها، وكنت أمامه حاملاً دلو مياه في إحدى يدي، إن دهشته مما رآها حالت دون تقدمه أكثر.

قلت في نفسي: «وجب أن تتقدم أكثر»، وخطوت إلى الأمام، وأفرغت الدلو عليه.

رأيت المياه معلقةً في الهواء كما في مشاهد الحركة البطيئة: بدت وكأنها بلورة غير منتظمة. واصلت جمجمة آرون الابتسام، ولكن اختفت بقايا وجهه البشري وسط هول المفاجأة، فألقى عصاه المرنة اللعينة أرضاً، ورفع إحدى ذراعيه وكأنه يحاول صد ما هو قادم، هنا تذكرت فجأةً ساحرة الغرب الشريرة[46] تصرخ مذعورةً: «أنا أذوب. أنا أذوب». استلقيت أرضاً قبل وقوع الانفجار العظيم ودعوت بصدق أنني أرسلته إلى حياته الأبدية في الجحيم.

تطايرت العظام فوقي... ولكن بعضها أصابني، وتجاوز الأمر إحساس لسعة نحلة في ذراعي، بل شعرت أن الألم يتدفق عبر فروة رأسي وحتّى كتفي اليسرى، ثمّ نهضت مترنحاً، واتجهت إلى الباب، واستطعت سماع أصوات الجنود الآخرين تقترب، وتمنيت وجود مياه أكثر، فلاحظت وجود مغسلة في الجهة البعيدة من الغرفة، ولكن الوقت ضيق.

رفعت مزلاج الباب وسحبته، فانفتح مع أنني توقعته مقفلاً، فدخلت وأغلقته، وحملت الفانوس من مقبضه الخشبي وأنزلته كي يسقط ضوءه على مزلاجين بدا أنهما قويان، وصليت من أجل ذلك، وما إن أغلقت ثانيهما حتّى شعرت أن المزلاج في الطرف المقابل قد انفتح، وأخذ الباب يهتز في مكانه، فتراجعت مباشرةً رغم أن الأخير مصنوع من الخشب لا المعدن، ولكنني أردت تجنب التعرض إلى صدمة كهربائية.

«افتح الباب. افتح باسم إلدن قاتل الرحلة».

قال أحدهم من ورائي: «قبّل مؤخرتي باسم إلدن قاتل الرحلة».

التفتت كي أرى رفاقي الثلاثة عشر في ظل ضوء الفانوس الضعيف، ووقفنا جميعاً ضمن ممر واسع أرضيته مرصوفة ببلاط أبيض، كما هي الحال في نفق قطار الأنفاق، وعلقت على جدرانه مصابيح غاز في مستوى رؤوسنا وعلى طول الطريق بعيداً في الظلام. وقف رفاقي السجناء – أو السجناء

السابقين- يحدقون إليّ بأعينهم الجاحظة، واعترى الخوف وجوههم جميعاً، باستثناء أميت وآيوتا، إذ انتظروا الأمير تشارلي كي يقودهم.

استمر الطرق على الباب، وانسل ضوء أزرق ساطع عبر شقوقه، ومن أسفله وجانبيه.

كانت قيادتهم سهلةً نظراً إلى وجود طريق واحد كي نسير فيه، فمشيت عبرهم، وشعرت على نحو سخيف أنني تمثال الحرية حاملاً شعلته، ثمّ خطر شيء في ذهني حينها؛ كان عبارةً من فيلم حرب شاهدته على قناة (تي سي إم)، وقلتها قبل أن أدرك ذلك، وأعتقد أنني كنت وسط حال من الهلع أو الإلهام.

«هيّا أيها الحقيرون. هل تريدون العيش إلى الأبد؟».

ضحك أميت وصفعني على ظهري بقوة إلى حدّ أنني أوشكت أن أسقط الفانوس أرضاً، فنغرق وسط ما اعتادت روايات الرعب القديمة أن تسميه: «الظلام الحي».

بدأت أمشي وتبعني الآخرون، وتخافتت أصوات الطرق على الباب حتّى تلاشت وراءنا تماماً، وقد أصبح أمام جنود كيلين مهمة صعبة جداً وهي تحطيم الباب، إذ يجب شده لا دفعه كي ينفتح، إضافةً إلى أنهم لا شيء من دون هالاتهم... كما اكتشفنا في ذلك الوقت.

فليحفظ الرب بيرسيفال الذي كتب ملاحظةً صائبةً، إذ كانت تلميحاً كما توقعت في البداية، حيث يشبه سياق عبارة: «يملك الباب أقفالاً» نظيره في كلمة: «وراءك»، والتي تعني تحذيرك من شيء خلفك.

صاح آيوتا: «من يريد أن يعيش إلى الأبد؟»، وارتد صداه ضعيفاً عن البلاط.

صرخت جايا: «أنا!»... ولعلك لن تصدق ذلك، ولكن ضحكنا جميعاً.

الفصل السادس والعشرون
النفق والمحطة- الصرير- مركز العربات- ريد مولي- حفلة الاستقبال- حزن أم.

1

أعتقد أن طول النفق لم يتجاوز ميلاً ونصف الميل انطلاقاً من غرفة الموظفين وحتى نهايته، ولكنني شعرت أنه طويل جداً وسط ضوء فانوسنا الوحيد الذي ينير طريقنا، وبدا أنه صاعد دوماً، وقد تخللته مجموعات أدراج تألف الدرج الأول من ست درجات، والثاني من ثمان درجات، والثالثة من أربع درجات، ثمّ انعطف بزاوية قائمة إلى اليمين كاشفاً عن درجات أخرى،

ولكن فاقت سابقتها عدداً، وهنا عجز مورف عن مساعدة فريد أكثر، فحمله أميت.

وصلنا إلى القمة، فتوقفت قليلاً كي ألتقط أنفاسي، وتبعني أميت الذي بدا تنفسه مرتاحاً تماماً، اللعنة عليه.

قال أميت: «يقول فريد إنه يعرف إلى أين يؤدي هذا الطريق... أخبره يا فريد».

التفت فريد إليّ، وبدا وجهه مرعباً وسط ضوء الفانوس الباهت، إذ غطته الكتل والكدمات والجروح، والتي قد يتعافى منها، ولكن الإنتان أصاب جرح ساقه، حيث استطعت شم رائحتها.

قال فريد: «سبق لي أن جئت عدة مرات إلى غرفة الموظفين برفقة الحكام والحراس من أجل معالجة الجروح والكسور وإصابات الرأس، إذ كانت الأمور مختلفةً عن فير ون الذي يهدف إلى القتل من أجل القتل، ومع ذلك كان [قال كلمةً عجزت عن ترجمتها] عنيفاً جداً».

احتشد باقي أفراد فرقتنا السعيدة تحتنا على الدرجات رغم ضرورة المشي باستمرار، ولكن احتجنا (بل احتجت) أن نتوقف قليلاً كي نعلم ما ينتظرنا، ولذلك أشرت بيدي إلى الطبيب كي يسرع في كلامه.

«لقد استخدمنا النفق خلال مغادرتنا ملعب الفراشات وليس الدخول إليه، وخاصةً عند خسارة إمبيس بسبب قرارات تحكيمية تغضب الجماهير».

قلت: «اقتلوا الحكم».

«ماذا؟».

«لا شيء، إذن إلى أين يؤدي هذا الطريق؟».

ارتسمت ابتسامة واهنة على وجه فريد وقال: «إلى مركز الحافلات طبعاً، إذ عليك فهم أن من الحكمة مغادرة المدينة فور الإمكان عند خسارة إمبيس إحدى المباريات».

«كم يبعد مركز الحافلات عن البوابة الرئيسية؟».

منحني فريد الإجابة التي أردتها وخشيت عدم سماعها: «إنه قريب جداً».

قلت: «هيّا بنا»، وقد أوشكت أن أضيف: أسرعوا، أسرعوا، ولكن امتنعت عن ذلك، إذ كانت تلك لغة آسرينا، وكرهت كلامهم المهين. لقد قتلنا سبعةً منهم، وهذا ما حدث من دون النظر إلى أي شيء حدث في نهاية النفق.

التفتت إلى الخلف وقلت: «هل يملك أحدكم دلواً ممتلئاً؟».

امتلكنا ستة دلاءً، ولكن أياً منها لم يكن ممتلئاً عن آخره، فطلبت منهم السير خلفي مباشرةً كي نستعمل ما لدينا عند الحاجة، وسنفكر بما علينا فعله بعدها.

2

وصلنا إلى درج آخر. عندما وصلنا إلى آخره سيطر التعب على أميت، فتولى آيوتا مهمة حمل فريد الذي قال: «دعوني، فأنا لا أعدو عن كوني وزناً ميتاً».

قال آي بصوته الخشن: «وفّر أنفاسك كي تبرد عصيدتك»، كما في قصة غوديلوك والدببة الثلاثة، ولعلها كانت حساءً حينها.

شيئاً فشيئاً ازداد انحدار الممر، وأصبح مثل ذلك المؤدي إلى الملعب، ودعوت أن نصل قريباً إلى نهايته، إذ أوشك وقود الفانوس أن ينتهي وبدأ ضوءه يضعف، ولكن بعد برهة سمعت صوت صرير وحك من الجدار

المرصوف إلى اليمين، وكان قريباً جداً، فتذكرت حينها انطلاقتي الفاشلة ناحية البوابة الخارجية، والتعثر فوق حجارة المقابر، وانتصاب شعر جسدي من الخوف.

سأل كويلي: «ما هذا الصوت؟ يبدو مثل...».

توقف عن الكلام، فقد عرفنا جميعاً أنه يشبه صوت خرمشة أصابع تقترب من ممرنا.

قلت: «لا أدري ما هو»، وكانت تلك كذبةً على الأرجح.

قالت إيريس: «لقد سمعت أن الموتى يضطربون عندما يسيطر القلق على إلدن، ولعلها مجرد قصة من أجل إخافة الأطفال، وإن كانت حقيقة، أعتقد... أعتقد أنهم عاجزون عن الدخول إلى هنا».

لقد شككت في ذلك، إذ رأيت الأيادي تنبثق من التراب، والأموات يشقون طريقهم إلى عالم الأحياء، كما سمعت صوت احتكاك المفصلات الصدئة، وكأن شيئاً يخرج من الأقبية والقبور، وربما بضعة أشياء.

قال ميسيل: «إنها مجرد جرذان، أو فئران حقل، أو حيوانات ابن مقرض، ولا يتجاوز الأمر قصصاً اختلقت من أجل إخافة الأطفال كما قالت إيريس»، وحاول أن يبدو جازماً.

لقد استبعدت فكرة إمكانية اختراق أصحاب تلك الأصوات الحائط الذي يفصلنا عنهم، ولكن أسعدني الابتعاد عنهم وترك الصرير وراءنا، وإن كانت تلك المقبرة، وأصبت في تخميني، فنحن قريبون حقاً من البوابة.

وصلنا إلى درج طويل آخر، وهنا بدأ المصباح يرتعش.

أخذ فريد يئن ويقول: «اتركوني، اتركوني، لقد انتهى أمري».

قال آي لاهثاً: «اصمت وإلا سأقضي عليك بنفسي»، وصعد الدرج حاملاً فريد بين ذراعيه، ومشيت خلفه وتبعني الباقون حتّى وصلنا إلى الأعلى، ووجدنا غرفةً صغيرةً مع مقاعد على جانبيها، وكان بابها مقفلاً من الخارج هذه المرة، وبالتالي وجب أن يكون فتحه سهلاً، إذ أكل الصدأ مقبضه إلى درجة أن أميت اقتلعه من مكانه عند محاولة تحريكه.

جرح المقبض يد أميت فرماه أرضاً وصاح متفحصاً يده المدماة: «اللعنة. ساعدني يا آي لنحطمه معاً».

سلّم آي الطبيب فريد إلى كاميت وكويلي، ثمّ وقف إلى جوار أميت كتفاً إلى كتف، وفي تلك اللحظة، لفظ ضوء الفانوس أنفاسه الأخيرة، ورأيت ظلالنا على البلاط الأبيض قبل أن تندمج مع الظلام الحالك، وهنا تنهدت جايا.

صاح أميت: «سأعد حتّى ثلاثة، ثمّ سننطلق معاً وندفع الباب كما لم يسبق لنا أن دفعنا شيئاً في حياتنا. واحد... اثنان... ثلاثة!».

عندما اهتز الباب تسلل بعض الضوء لبرهة، ثمّ خيّم الظلام مجدداً.

«هل تستطيع أن تدفع بقوة أكبر من هذه أيها...»، الجبان؟ السافل؟ لقد سمعت الكلمتين متداخلتين. «عند ثلاثة واحد... اثنان... ثلاثة».

فكّرت أن أقفال الباب متينة جداً لأنها تحملت تلك الضربات القوية، ولكن في النهاية استسلمت مفصلاته وانحلت كي ينفتح الباب بقوة إلى الأمام ويتعثر الرجلان الضخمان عبره فيسقط آيوتا على ركبتيه قبل أن يساعده أميت ليقف مجدداً، وتبعهما الباقون.

صاح أوكا: «الشكر للرب»، وتردد صدى صوته في أرجاء المساحة الواسعة، قبل أن تحيط بنا غيمة من الأجنحة الجلدية.

صرخت جايا وإيريس في انسجام تام، وليس وحدهما: بل صاح الجميع خائفين، وأنا منهم، وقد رميت الفانوس كي أحمي رأسي، وسمعت صوت انكساره على الأرضية الصخرية.

قال فريد لاهثاً: «إنها مجرد خفافيش تسكن...»، وقاطعت كلامه نوبة سعال، فأشار إلى الظلام الدامس.

سمعه أميت وأذاع الخبر: «إنها مجرد خفافيش غير مؤذية. اثبتوا في أماكنكم وأبعدوها عنكم».

لوّحنا بأذرعنا في الهواء، وتمنيتُ أن لا تكون خفافيش ماصة للدماء، إذ كان حجمها كبيراً جداً وتشبه تلك الموجودة في النفق بين إيلينوي وإمبيس، حيث استطعت أن ألمحها خلال طيرانها في ضوء القمر الخافت الذي شتته الغيوم ودخل من إحدى النوافذ الصغيرة العالية، كما رأيت الآخرين وهم يلوحون أذرعهم بجنون. كان كاميت وكويلي يحملان الطبيب فريد، وبالتالي عجزا عن إبعاد الخفافيش عنهما، ولكن فريد بذل قصارى جهده في ذلك.

ابتعدت مجموعة الخفافيش، وعادت إلى سقف القاعة الهائلة التي وجدنا أنفسنا فيها، وتبيّن أننا في مرأب مركز الحافلات، حيث اصطفت عشرون حافلة على الأقل في صف أنيق، وكتبت وجهة كل منها على مقدمتها المسطحة: سيفرونت، وديسك، وأولوم، وتايفو الشمالية، وتايفو الجنوبية، وغرين إيزليس، كما حملت أعمدةً على سطحها من أجل توصيل الطاقة إليها عبر الأسلاك العلوية المترهلة (والمرمية في الشوارع الآن). ورأيت على الجهة الخلفية للعربات بضع كلمات بلون ذهبي، والتي خرجت من قاموس إمبيس الحالي: الصداقة، والوئام، واللطف، والحب.

سأل ستوكس: «كيف سنخرج من هنا؟».

قالت إيريس: «ألم تتعلم القراءة قبلاً؟».

قال ستوكس: «مثل أي ولد ريفي»، وبدا متأففاً، وما كنت لأتصرف بعكسه، إن توجب عليّ وضع يدي على فكي كي أمنع تسرب الطعام منه إلى الخارج.

قالت إيريس: «اقرأ ما كتب هناك إذن»، وأشارت إلى قوس عالٍ في الجزء البعيد من المرأب.

كتب عليه: المخرج.

عبر تحت القوس ثلاثة عشر ناجياً محتملاً وراء أميرهم الجاهل، ووصلنا إلى قاعة كبيرة بحجم المرأب تقريباً تحوي ما بدا أنه صف من مراكز قطع التذاكر محطمة النوافذ، وقبالتها عدد من الأقواس الصغيرة التي كتب على كل منها اسم إحدى الوجهات، لقد حطّم المخربون تمثال فراشة كبيراً إلى أشلاء، ولطخوا بالطلاء لوحةً جداريةً رسمت فيها فراشات كبيرة، ولكنهم عجزوا عن طمسها كلها؛ إذ بقيت العلوية منها سليمةً في شتى أنحاء القاعة، واحتلت كل فراشة كبيرة قطعة بلاط أصفر، وقد ارتحت لأن أتباع إلدن فشلوا في محوها تماماً، وإن صدق حدسي، هناك شيء أستطيع استعماله قريباً.

قلت: «هيّا بنا»، وأشرت إلى مجموعة أبواب، وركضت نحوها.

4

اندفعنا إلى العالم الخارجي، ولا يزال بعض منا يحملون دلاءهم، واجتمعنا معاً أعلى الدرجات المؤدية إلى طريق غالين، وزمجر كاميت وكويلي خلال حملهما فريد. سمعت هدير عربة لورد هاي، ورأيت حوالى اثني عشر فرداً من جنود الليل يركضون أمامها، وينتشرون في أنحاء الشارع. فكّرت في أن عربة كيلين الصغيرة هي وسيلة النقل الوحيدة الباقية في ليليمار، ولكن أخطأت في ذلك، إذ توجد واحدة تقود الجنود أيضاً، ولكنها لا تعمل بالطاقة الكهربائية؛ برز مقود ضخم من مقدمة تلك العربة

الواسعة، التي قذفت بعض الحصى صوبها عند اقترابها بسبب احتكاك عجلاتها الحديدية بالأرض.

جلست ريد مولي في المقدمة على مقعد عال تدوس قدر استطاعتها كي تشغل العربة إلى جانب الطاقة التي تغذيها أياً تكن. تناوبت حركة ركبتيها إلى الأعلى والأسفل، وقد انحنت فوق المقود مثل راكب دراجة نارية طائش، وبالتالي قد نستطيع الوصول إلى البوابة قبل الباقين، ولكنها تتحرك بسرعة.

رأيت أعمدةً مخططةً بالأبيض والأحمر، وأسلاك الحافلات الساقطة والمتشابكة، فقد أوشكت أن أتعثر بها، كما انتبهت إلى شجيرات العليق التي رميت حقيبتي فيها كي أستطيع الجري أسرع، ولكنني فشلت في المرة السابقة، وأظنني سأفشل هذه المرة أيضاً، أنا وكلّ من معي، إلا إن كانت الحقيبة في مكانها.

قال آيوتا بخشونة وجعل يديه قبضتين: «سأقتل تلك الوضيعة».

قال أميت: «سأساعدك وإلا تباً لي».

قلت: «لا، انتظر يا آي»، وفكّرت في ألويسيوس ابن أخ وودي الذي اقتلعت والدة ريد مولي رأسه من بين كتفيه.

«ولكنني أستطيع...».

أمسكته من كتفه، والتفتت مخاطباً الجميع: «لم ترنا بعد، إنها تنظر إلى الأمام مباشرةً، ولديّ خطة، ثقوا بي... ابقوا هنا جميعاً».

انحنيت ونزلت الدرجات، وقد أصبح ضجيج العربة قريباً كفايةً كي أرى ملامح ريد مولي... التي كانت تنظر إلى الأمام وقد أغمضت عينيها جزئياً – لعلها حسيرة البصر – في انتظار رؤيتنا نركض ناحية البوابة.

ربما أستطيع مفاجأتها، ولكن اندفع شيء صغير يرتدي بنطالاً أخضر ممزقاً من الخلف، ولوّح بذراعيه قائلاً: «إنه هنا». صرخ بيتركين مشيراً إليّ مباشرةً، ولكن كيف كشفنا؟ هل كان ينتظرنا، ما زلت أجهل ذلك، ولا أكترث، ولكن اعتاد ذلك القزم الحقير الظهور خلال أسوأ اللحظات الممكنة.

أشار قائلاً: «إنه هناك تماماً. ألا ترينه أيتها الوضيعة نصف العمياء، إنه هناك...»، وقفز في مكانه من فرط الحماسة.

حافظت ريد مولي على سرعتها، وانحنت إلى الأمام ببساطة وضربته، فحلّق بيتركين عالياً، واستطعت استراق نظرة إلى وجهه الذي اعتلته ملامح الصدمة قبل أن ينقسم إلى قسمين حرفياً إثر ضربتها القوية، إذ لا بد أنه ارتفع مسافة عشرين قدماً في الهواء على الأقل خلال تناثر أحشائه في الأرجاء، وعندها لم أستطع إلا التفكير في رومبيلستيلتسكين.

ارتسمت ابتسامة على وجه ريد مولي كاشفةً عن أسنان فكيها البعيدة عن بعضها.

وجدت حقيبتي بين شجيرات العليق، وشكرت الرب أنهم لم يعثروا عليها، خدشت الأشواك ذراعيّ العاريتين عندما سحبتها، ولكن من دون أن أشعر بالألم، ثمّ أرخيت أحد حزاميها بسهولة، ولكن بقي الآخر عالقاً، فمزقته وأخرجت علب السردين المعلب، ومرطبان جيف[47]، وآخر احتوى صلصة المعكرونة يوماً، ولكنني ملأته بطعام الكلاب، وقميصاً، وفرشاة أسنان، وزوجاً من السراويل الداخلية.

أمسكني آيوتا من كتفي، وتبعته فرقة محاربي المياه خاصتي إلى أسفل الدرجات عكس أوامري، ولكن رب ضارة نافعة.

«اهربوا يا آي. وتولى مهمة حمل فريد، وعلى حاملي دلاء المياه السير في الخلف. وعندما تصلون إلى البوابة قولوا العبارة التالية عالياً: «افتحوا باسم ليا غالين»، هل تستطيعون تذكّر ذلك؟».

«أجل».

صرخت ريد مولي من أعماقها بصوتها الذكوري القوي: «ستموتون الآن».

«هيّا انطلقوا».

لوّح آي بإحدى ذراعيه الثخينتين إلى الآخرين وقال: «أسرعوا لتنقذوا حياتكم»، وأطاع الجميع أمره باستثناء أميت، الذي بدا أنه كلف نفسه أمر حراستي.

لم يكن هناك متسع من الوقت للشجار معه. وجدت مسدس بولي عيار 0.22، فأخرجته أيضاً إضافةً إلى بضع علب سردين أخرى. توقفت ريد مولي على بعد ثلاثين قدماً، وترجلت عن مقعدها المرتفع وقد لطخت دماء بيتركين ذراعها حتّى المرفق. وقف أميت أمامي، ووجدت ذلك مشكلةً إلا إذا أردت ضربه على رأسه، فنحيته جانباً.

«ابتعد من هنا يا أميت».

ولكنه لم ينصت إليّ، واندفع يصرخ بقوة صوب ريد مولي، لقد فاجأها لبرهة هذا الهجوم المفاجئ، واستغل أميت الأفضلية قدر الإمكان، وأمسك واحدةً من حمالتيها وشد نفسه بإحدى يديه إلى الأعلى، ثمّ فتح فمه وغرس أسنانه في ذراعها أعلى مرفقها، فصرخت متألمةً.

صحيح أن أميت رجل ضخم، ولكن ريد مولي لم تجده إلا أكبر بقليل من بيتركين الذي ارتمى ميتاً بعد أن انشطر إلى شطرين، فأمسكته من شعره اللزج، وأبعدت رأسه عنها، ثمّ سددت لكمةً اخترقت وجهه، فبرزت عيناه في اتجاهين متعاكسين وكأنهما رفضتا النظر إلى الفجوة الحمراء التي تشكلت مكان أنفه وفمه، ثمّ رفعته وما زالت تستخدم يداً واحدةً فقط، وهزته إلى الأمام والخلف وكأنه دمية متحركة، ثمّ رمته باتجاه المقبرة والدم

يتطاير من المكان الذي عضها فيه. كان أميت شجاعاً ومفتول العضلات، ولكنها تخلصت منه وكأنه طفل صغير.

ثم التفت إليّ.

كنت جالساً على رصيف طريق غالين المرصوف بالحصى، مباعداً ساقيّ، وحاملاً مسدس بولي الآلي في كلتا يدي، وتذكرت ماهية شعور توجيه أحدهم سلاحاً إلى مؤخر رأسك، وفكرت مجدداً في رومبيلستيلتسكين، وكم ذكر بولي قصة ذلك القزم على مسامعي: «ماذا ستعطيني إذا حولت القش خاصتك إلى ذهب؟». كان بولي سيقتلني مباشرةً بعد الحصول على ذهب السيد بوديتش ويرميني في البئر السحرية المخفية في مخزنه.

أتذكر فقط صلاتي كي ينجح ذلك المسدس الصغير في إيقاف العملاقة، كما أوقف حجر ديفيد الصغير غولايث، وربما يستطيع ذلك إن كان محشواً تماماً، ولكن سبق لي أن ضغطت مرتين على زناده في عالم أقل سحراً.

اقتربت ريد مولي مني مبتسمةً، والدماء تسيل بغزارة من ذراعها، ولكن بدت غير مهتمة، وتمنيت أن يصيبها إنتان إثر عضة أميت فيقتلها إذا عجزتُ عن ذلك.

قالت بصوتها الذكوري الخشن: «أنت لست أميراً، بل مجرد حشرة، ولا شيء سواها، وسأدوسك و...».

أطلقت النار، فأصدر المسدس صوتاً أعلى قليلاً من صوت بندقية ديزي الهوائية التي امتلكتها عندما كان عمري ست سنوات، وأحدثتْ رصاصاته ثقباً أسود صغيراً فوق عين ريد مولي اليمنى، فتراجعت إلى الخلف، وهنا أطلقت النار مجدداً كي يظهر ثقب آخر في عنقها، والذي تطايرت الدماء منه على شكل سهم صلب أحمر اللون إثر الضغط الناجم

عن صراخها من الألم، ثمّ ضغطت الزناد مجدداً، فبرزت فتحة صغيرة على رأس أنفها مثل النقطة التي تضعها في آخر الجملة، ولكن تلك الرصاصات عجزت عن إيقافها.

صرختْ: «أنت...»، واندفعت ناحيتي.

حافظت على مكاني ولم أحاول تفاديها، إذ سيكلفني ذلك وضعية التصويب، أضف إلى ذلك أن أوان الهرب قد فات، وكانت ستمسكني بعد خطوتين واسعتين إن لعبنا لعبة هل تسمحين لي يا أمي[48] وقبل أن تقبض على رأسي كما فعلت مع أميت، أطلقت خمس رصاصات سريعاً، ودخلت جميعها في فمها المفتوح خلال صراخها، واقتلعت الرصاصتان – وربما الثلاث – الأوائل معظم أسنانها. لقد فشلت أكثر أسلحتنا تطوراً في صد اعتداء المريخيين في حرب العوالم، ولكن الجراثيم الأرضية قتلتهم، وكذلك أشك في تأثير أيّ رصاصة مفردة من مسدسي الصغير على ريد مولي، ولا حتّى الثمانية الباقية كلهم.

أعتقد أن أسنانها المكسورة سقطت في حلقها... فاختنقت بها.

5

كان وزنها البالغ مئتين وخمسين كيلوغراماً على الأقل ليثبتني في مكاني حتّى وصول كيلين وجنود الليل إليّ، أو ليقتلني مباشرةً، ولكنها لم تسقط عليّ، بل ركعت على ركبتيها أولاً وهي تلهث مختنقةً ووضعت يديها على عنقها النازف، وبرزت عيناها إلى الخارج، فاندفعت في تلك اللحظات إلى الخلف كي أسقط على مؤخرتي، ثمّ ارتميت إلى جانبي وتدحرجت. أوشك جنود الليل على الوصول، وقد عجزت سابقاً عن تجاوزهم كي أصل إلى البوابة، كما فرغ المسدس من الرصاصات تماماً.

بذلت ريد مولي محاولةً أخيرةً لتصل إليّ، ولوّحت ذراعها المجروحة كي تلطخ دماؤها وجنتيّ وجبهتي، ثمّ سقطت على وجهها، فنهضت مباشرةً

عندما رأيت الفرصة سانحة من أجل الهرب، ولكن ما الفائدة؟ ولذلك فضّلت مواجهتهم والموت بعد بذل قصارى جهدي أمامهم.

فكّرت في والدي حينها، الذي ما زال ينتظر عودتي إلى المنزل، وربما نشر صورتي مع رادار في جميع البلدات الواقعة بين سنتري وشيكاغو بمساعدة ليندي فرانكلين والعمّ بوب – هل رأيتم هذا الفتى أو هذه الكلبة؟ ولعل الممر إلى إمبيس مكشوف الآن، وقد يكون هذا الأمر أهم من والدي المفجوع، ولكنني فكرت فيه خلال اقتراب جنود الليل مني، إذ أقلع عن شرب الكحول، ومن أجل ماذا؟ لقد توفيت زوجته، ورحل ابنه من دون أن يترك أثراً.

لكن سيحصل الآخرون على حريتهم إن قادهم آيوتا عبر البوابة، واعتقدت أن جنود الليل عاجزين عن الذهاب إلى هناك.

صرخت: «تعالوا إلي يا أولاد الوضيعة».

ألقيت المسدس عديم الفائدة جانباً، وفتحت ذراعي أمام جنود الليل، وأوقف كيلين عربته الصغيرة وراءهم كي يراقبني أموت، ولكن تبيّن أنه ينظر إلى شيء آخر في السماء، كما توقف جنود الليل على بعد سبعين أو ثمانين ياردةً أيضاً وقد شخصت أعينهم إلى الأعلى، وارتسمت ملامح الدهشة نفسها على وجوههم البشرية الرقيقة التي غطت جماجمهم.

كان الضوء كافياً من أجل الرؤية رغم اختفاء القمرين المتلاحقين، واقتربت غيمة أدنى من نظيراتها متجاوزةً الجدار الخارجي، واقتربت ناحية طريق غالين، والمتاجر الفاخرة والأقواس، حتّى القصر حيث لمعت الأبراج الزجاجية الخضراء الثلاث وسط أضواء الملعب.

لقد كانت سحابة من الفراشات الكبيرة التي اجتمعت مع بعضها في هيئة مشكال[49]، وطارت فوقي من دون توقف حتّى وصلت إلى هدفها، أي جنود الليل، فتباطأت وحلّقت في دوائر، ثمّ هجمت عليهم دفعةً واحدةً. رفع

الجنود أذرعهم، كما شاع أن قاتل الرحلة قد فعل بعد انقلابه، ولكنهم افتقروا إلى القوة التي امتلكها، وعجزوا عن قتل الفراشات، باستثناء تلك التي لمست هالاتهم الكهربائية الزرقاء أولاً، ونجم عن ذلك التماس ومضات ساطعة، مثل الألعاب النارية في أيدي مجموعة من الأطفال الخفيين خلال يوم الرابع من تموز. احترقت مئات الفراشات، ولكن تلتها الآلاف التي إما خففت الهالات المميتة أو قضت عليها تماماً، وتكاثفت السحابة مجدداً خلال التهامها جنود الليل.

انعطف لورد هاي بعربته الصغيرة على شكل حرف (U) وعاد أدراجه مسرعاً إلى القصر، وقد حاولت بعض الفراشات أن تلحق به من دون فائدة، فقد كان أسرع منها، كما أن سقف العربة حماه، بينما قضي على جنود الليل الذين طاردونا جميعهم تحت رفرفة أجنحة الفراشات الرقيقة، وقد رأيت يداً عظميةً واحدةً ترتفع... ثمّ تخبو مجدداً وسط الكتلة الحمراء البرتقالية التي غطتها.

ركضت ناحية البوابة الخارجية التي كانت مفتوحةً، التي سبق لرفاقي السجناء جميعاً أن عبروها، ولكن دخل منها شيء آخر يجري بأقصى سرعته؛ كان صغيراً وأسود، وينبح كثيراً. اعتقدت أن جل ما أردته هو الخروج من مدينة ليليمار المسكونة، ولكن أدركت الآن أنني أرغب في شيء آخر، وفكرت في دورا عندما رأت كلبتي، وكيف نادتها بأعلى صوتها المريض، والذي بدا صوتي مثله حينها، ولكن بسبب البكاء لا بسبب إحدى لعنات التخريب. ركعت على ركبتي، وفتحت ذراعي.

«رادار. رادار. رايدس».

اصطدمت رادار بي وطرحتني أرضاً، وأخذت تئن وتلعق وجهي من الأسفل وقد عانقتها بكل طاقتي، وبكيت وعجزت أن أوقف سيل دموعي،

وأعتقد أن هذا الأمر ليس من شيم الأمراء، ولكن كما يدور في ذهنك الآن، لقد كنت في حكاية خيالية من نوع آخر.

6

تناهى صوت خشن أعرفه إلى مسامعي وأنهى لقاءنا السعيد: «تشارلي، أيها الأمير تشارلي، أخرج من هناك كي نستطيع إغلاق البوابة، تعال إلينا أيها الأمير تشارلي».

نهضت على قدمي وقلت في نفسي: «حسناً، وتمالك نفسك، أيها الأمير تشارلي».

قفزت رادار حولي ونبحت عندما ركضت ناحية البوابة، فرأيت كلاوديا جالسةً في الخارج، ولم تكن بمفردها، بل جاء وودي معها، وكذلك ليا التي امتطت فلادا، ووقف خلفهم بقية الهاربين من ديب مالين، واحتشد وراءهم أيضاً مجموعة أشخاص عجزت عن التعرف إليهم.

تجنبت كلاوديا دخول ليليمار، ولكنها سحبتني إليها فور خروجي من البوابة وعانقتني بقوة حتّى أوشكت أن تكسر عمودي الفقري.

سأل وودي: «أين هو؟ لقد سمعت الكلب، ولكن أين...».

قلت، وقد حان دوري من أجل العناق: «هنا، أنا هنا».

وضع وودي راحة يده على جبهته عندما أفلته، وركع على إحدى ركبتيه قائلاً: «لقد كنت أنت منذ البداية يا مولاي الأمير، وجئت إلينا كما ورد في القصص القديمة».

قلت: «انهض، أرجوك انهض يا وودي»، وسالت الدموع من عيني (إضافةً إلى المخاط من أنفي ولكنني مسحته سريعاً بظاهر يدي)، وغطتني الدماء تماماً، لقد كنت أقرب إلى مشرد منه إلى أمير.

نهض وودي، ثمّ التفتت إلى رفاقي وهم يراقبون باحترام؛ عانقت إيريس وجايا بعضهما، واستلقى فريد بين ذراعي آي، وقد أدرك بعضهم، وربما كلهم، هوية هؤلاء الأفراد الثلاثة الذين ليسوا كاملين فحسب، بل أصحاب الدماء الحقيقية؛ إنهم أفراد العائلة الحاكمة المنفيون عن إمبيس، وأتصور أن يولاند والناسك بورتون آخر فرعين من شجرة أسرة غالين.

وقف ستون أو سبعون شخصاً رمادياً خلف الناجين من الأسر، وحملوا مشاعل وفوانيس تشبه الذي تركه بيرسي من أجلي، ورأيت بينهم فتاةً أعرفها، وقد سبقتني رادار إليها، فتبعتها من دون الانتباه إلى أن الأشخاص المشوهين بفعل لعنة إلدن – أو الكائن الذي يُسيّره – قد ركعوا ووضعوا راحات أيديهم على جباههم، وحاولت دورا فعل ذلك ولكنني منعتها، واحتضنتها، وقبّلت وجنتيها الرماديين وزاوية فمها الهلالي.

أخذتها إلى حيث وودي، وكلاوديا، وليا.

صاحت كلاوديا: «أغلقي باسم ليا غالين».

أخذت البوابة تنغلق ببطء، وشعرت أنها تصدر صوتاً مثل شخص يتأوه متألماً، ولكنني في تلك اللحظة رأيت امرأةً ضخمةً جداً تقفز في خطوات واسعة ناحية الشارع المركزي، ورفرفت غيوم الفراشات فوقها وحولها وقد حط بعضها على كتفيها العريضين ورأسها الكبير رغم أنها ليست من جنود الليل، فتجاهلتها ببساطة، وما أن وصلت البوابة إلى منتصف مسارهم الخفي نحو الإغلاق، أطلقت المرأة صرخة حزن صاخبةً جداً إلى درجة أننا غطينا آذاننا جميعاً، باستثناء كلاوديا.

صاحت هانا: «مولي. أوه يا عزيزتي مولي. كيف أمكنك الموت هكذا؟».

انحنت فوق ابنتها الميتة، ثمّ وقفت، ونظرت إليّ من بين كل الأفراد المجتمعين الذين ينتظرون إغلاق البوابة.

رفعت قبضتيها الأقرب إلى صخرتين وهزتهما قائلةً: «عد إلى هنا أيها الجبان كي أقتلك جزاء ما اقترفته في حق ابنتي».

انغلقت البوابة، وحجبت عنا مشهد والدة ريد مولي المفجوعة.

7

التفتت إلى ليا، التي خالفت أناقتها المعتادة حينها؛ إذ لا فستاناً أزرق أو مئزراً أبيض، بل ارتدت بنطالاً أسود دسته تحت حذاء جلدي عالي الساق، إضافةً إلى سترة زرقاء محشوة رُسمت عليها فراشة كبيرة، وصليب غالين الملكي إلى اليسار حيث قلبها، وربطت حزاماً عريضاً حول خصرها وتدلى من جانبه خنجر صغير، وسيف قصير ذو مقبض ذهبي على الجانب الآخر.

قلت، وقد تملكني الخجل فجأةً: «مرحباً يا ليا، لقد أسعدتني رؤيتك كثيراً».

أشاحت بنظرها وكأنها لم تسمعني – لعلها صماء مثل كلاوديا، وقد تجمدت ملامح وجهها عديم الفم أيضاً.

الفصل السابع والعشرون
اجتماع- السناب- ليس أحد أمراء ديزني- الأمير والأميرة- الميثاق.

1

أذكر شيئين بوضوح تام عن اجتماعنا؛ الأول أن الجميع امتنع عن لفظ اسم غوغماغوغ، والثاني أن ليا تجنبت النظر إليّ تماماً.

2

في وقت لاحق من تلك الليلة، اتجهنا إلى المستودع الذي لجأت إليه برفقة رادار قبل دخولنا ليليمار. كنا ستة أشخاص وحيوانين، جلست برفقة

وودي وكلاوديا على الأرض، وجلست رادار إلى جانبي وقد ثبتت رأسها بقوة على ساقيّ وكأنها تريد أن تتأكد أنني لن أتركها مجدداً، بينما جلست ليا وحدها على الدرجات في مقدمة عربة سيفرونت، أما فرانا المرأة الرمادية التي همست لي: «ساعدها» قبل أن أغادر مزرعة غوغر، فوقفت في الزاوية البعيدة ومسحت على رأس فلادا المنهمكة في تناول الحبوب من كيس حمله آيوتا من أجلها، وجلس في الخارج الناجون الباقون من ديب مالين، بالإضافة إلى الرماديين الذين يزداد عددهم شيئاً فشيئاً، وخلت الأجواء من عواء الذئاب؛ إذ بدا أن التجمعات خارج نطاق اهتمامها.

وضعت سلاح السيد بوديتش من عيار 0.45 على خصري مجدداً؛ لعل كلاوديا صماء، ولكن نظرها ثاقب، حيث لمحت بريق الحجارة الزرقاء في حزام الكونشو المرمي وسط الأعشاب الكثيفة خارج الجدار قرب البوابة، ولكن السلاح يحتاج إلى تنظيف وتزييت قبل أن يصبح استعماله ممكناً، لقد توجب عليّ القيام بذلك في وقت لاحق، وفكّرت في احتمال وجود ما احتاج إليه على إحدى طاولات العمل المبعثرة خلف المستودع الذي أعتقد أنه كان ورشة تصليح خلال الأيام القديمة الجميلة.

قال وودي: «لقد جُرحت الأفعى، ولكنها على قيد الحياة، ولذلك يجب أن نقطع رأسها قبل أن تجدد سمها، وعليك أن تقودنا يا تشارلي».

أخرج دفتراً صغيراً وريشة كتابة من جيب معطفه وكتب عليها سريعاً خلال كلامه مثل أي شخص بصير، وعرضها على كلاوديا التي أومأت بقوة، وقالت: «يجب أن تقودنا يا تشارلي. أنت الأمير المنتظر. وريث أدريان من العالم السحري».

نظرت ليا إلى كلاوديا لبرهة، ثمّ نظرت عاودت النظر إلى الأرض، وقد غطت خصلات من الشعر وجهها، وداعبت أصابعها مقبض خنجرها.

كنت متعباً وخائفاً، ومتأكداً من أنني لم أعد أحداً بشيء، ولكن هناك أمور أكثر أهميةً الآن، فقلت: «سنفرض أنك محق، وأن استعادة قاتل الرحلة قوته يهددنا وإمبيس أجمعين».

قال بهدوء: «نحن لا نفترض، بل هذا ما سيحدث فعلاً».

«مع ذلك، أرفض قيادة حشد من الناس غير المسلحين إلى المدينة إن كان هذا ما تفكّر فيه، إذ لعل نصف جنود الليل قد قتلوا، وعددهم الكلي قليل...».

وافقني وودي قائلاً: «هذا صحيح، إذ فضل معظمهم الموت الحقيقي على خدمة الوحش وهم نصف أحياء».

لاحظت أن ليا أجفلت وكأنها تلقت صفعة من وودي، وأنا الذي بالكاد أبعدت عينيّ عنها.

«لقد قتلنا سبعةً منهم، وأجهزت الفراشات على بعضهم، ما يترك الأفراد الباقين».

قال آي بصوته الخشن من الزاوية: «ليسوا أكثر من اثني عشر واحداً وربما أقل من ذلك، إذ أحصيت عشرة جنود منهم لقوا حتفهم بين الفراشات، ولم يكن كيلين يمتلك أكثر من عشرين منهم بالمجمل».

«هل أنت متأكد؟».

هزّ كتفيه مستهجناً وقال: «لقد احتجزت في ذلك المكان فترةً طويلةً جداً، ولم يكن لديّ شيء أقوم به سوى العد، وحين أفرغ من جنود الليل، كنت أعد القطرات المتساقطة من السقف، أو الطوب في سقف زنزانتي، لقد تألفت أرضية زنزانتي من ثلاث وأربعين قطعة طوب».

قلت: «ما زال اثني عشر جندياً عدداً كبيراً مقابل قدرتهم على صعقك كهربائياً وإفقادك الوعي بمجرد لمسك، إضافةً إلى قتلك عند معانقتك، ناهيك عن قائدهم كيلين».

كتب وودي اسم كيلين سريعاً على الورقة، وأدارها ناحية كلاوديا بسبب عجزه عن الرؤية، فحركتها إلى حيث تستطيع قراءتها.

صرخت كلاوديا: «أجل كيلين. وإياكم نسيان هانا».

سنضع هانا في الحسبان طبعاً، إذ كيف ننسى سعيها من أجل القصاص.

تنهد وودي وفرك وجهه ثمّ قال: «لقد قاد كيلين حراس الملك خلال فترة حكم أخي، إنه ذكي وشجاع، ووجدته مخلصاً حينها، ولم أتصور يوماً أنه سينقلب على جان أو أن يفعل ما فعله».

أشاحت ليا بوجهها عن وودي كما فعلت حين ألقيت التحية عليها، ولكنه غفل عن ذلك.

قلت: «إليك فكرتي: يجب أن نوقف قاتل الرحلة قبل اقترافه شيئاً أسوأ من الأمور الفظيعة التي اقترفها حتّى الآن، إذ أحال شعب المملكة رمادياً عن بكرة أبيه، باستثناء بعض الأفراد الكاملين والذين يحاول إبادتهم، ولكن أجهل كيف نتعامل مع الأمر، ومتى». بدا كلامي ضعيفاً في النهاية، وأوشكت أن أقول عبارة غير الشرعيين بدل الكاملين، والتي وصف بها والدي أحد زملائي في المدرسة الابتدائية والمدعو سكوتر ماكلين، إذ امتلك أذنين بارزتين قبيحتين.

أنهى آيوتا إطعام فلادا، ودس الكيس الفارغ في إحدى السلال المربوطة إلى خاصرتيها، وقال: «لا مشكلة في تحديد الوقت؛ يجب أن

نتحرك نهاراً، لأن الفتيان الزرق يكونون ضعفاء حينها، وسيتبخرون مباشرةً تحت ضوء الشمس، أو هذا ما سمعته على الأقل»، والتفت إلى وودي.

قال وودي: «لقد سمعت ذلك أيضاً، ولكنني لا أستطيع التعويل على هذا الأمر كلياً»، وأخذ يكتب خلال كلامه شيئاً على الورقة ثمّ رفعه إلى كلاوديا، فشلت في رؤية ما كتبه، ولكن كلاوديا هزت رأسها وابتسمت.

«لا، لا، فهو يعجز عن فعل أمور أكثر قبل الذهاب إليها، وتقول الأسطورة إن عليه انتظار قبلة القمرين، وأنا أعتقد أن ذلك حقيقي».

التفتت ليا إلى أعلى، وبدت منسجمةً معنا للمرة الأولى، ثمّ نظرت إلى فلادا، فبدأت الفرس الكلام وسط ذهول آيوتا على أقل تقدير.

«لقد رأتهما سيدتي هذه الليلة عندما تباعدت الغيوم قليلاً، وقد أوشك بيلا أن يلامس أرابيلا».

مدّ وودي يده وربت ذراع كلاوديا كي يلفت انتباهها، وأشار إلى ليا، ثمّ إلى السماء، وحرك إصبعيه أمام وجه كلاوديا وكأن أحدهما يلاحق الآخر وأوشك أن يلمسه، فاتسعت عيناها واختفت ابتسامتها، والتفتت إلى ليا وقالت: «هل رأيت ذلك؟».

أومأت ليا.

التفتت كلاوديا إليّ وقد ارتسم على وجهها تعبير لم يسبق لي أن رأيته؛ لقد كانت خائفةً، وقالت: «الموعد غداً. عليك أن توقفه يا تشارلي. أنت الوحيد الذي تستطيع ذلك، يجب أن يُقتل قبل أن تُقبل أرابيلا أختها. للحيلولة دون فتحه البئر المظلمة مجدداً».

نهضت ليا بسرعة، وأخذت لجام فلادا وقادتها إلى الباب، وهنا رفعت رادار رأسها وأنّت، ثمّ تبعتها فرانا ولمست كتفها، ولكن الأخيرة انتفضت وأبعدتها.

وقفت كي أتبعها، ولكن كلاوديا قالت: «دعها، دعها وحدها، لقد فُطِر قلبها ويحتاج إلى وقت كي يشفى»، أعلم أنها قصدت شيئاً حسناً، ولكن نبرة صوتها المرتفعة جرّدت الكلمات من العاطفة، فأجفلت ليا منها.

توجهت إليها وقلت: «ليا، من فضلك أن تعو...».

دفعتني بقوة كبيرة أسقطتني أرضاً.

ثم غادرت متبعة صوتها المتجسد في هيئة فرس.

3

لقد تركنا الباب مفتوحاً نظراً إلى غياب الذئاب عن الأرجاء، ولذلك خرجت ليا من دون أن تضطر إلى فتحه. شيئاً فشيئاً ازداد عدد الرماديين، وركع كل منهم على إحدى ركبتيه ووضع يداً على جبهته فور رؤية ليا أمام فرسها، وكنت متأكداً أنهم سينفذون أوامرها – هي أو الاثنان الباقيان من السلالة الملكية – إن أمرتهم أن يعاودوا الاستيلاء على المدينة أو يحاولوا ذلك.

لقد حدث ما حدث بسبب قدومي إلى هنا، وتلاشى أي جهد بذلته من أجل إنكار ذلك أمام حقيقة بسيطة واحدة: لقد اعتقدوا جميعاً أنني الأمير المنتظر، بمن فيهم وودي وكلاوديا، ولا أدري إن كانت ليا توافقهم، ولكن نصبني ذلك مسؤولاً عن حشد الثائرين المحتملين، ومن بينهم دورا.

أردت أن أتبع ليا، ولكن كلاوديا أمسكت بذراعي وقالت: «لا، ابقَ هنا. وستهتم فرانا بها».

قال وودي: «اطمئن يا تشارلي، واسترح إن استطعت، لا بد أنك مرهق».

شرحت له أن السجناء قد ينامون عند شروق الشمس بسبب بقائهم مستيقظين تماماً خلال حديثنا، كما أنه لا ضرر من النشاط إثر فورة

الأدرينالين والفرحة الكبيرة بعد الخروج من السجن والابتعاد عن ملعب القتل.

أنصت وودي إليّ وأومأ، ثمّ كتب الملاحظة التالية إلى كلاوديا: اعتاد تشارلي ورفاقه الاستيقاظ ليلاً والنوم نهاراً. أدهشتني أناقة خطه وانتظامه رغم عجزه عن الرؤية. أومأت كلاوديا عندما فهمت الأمر.

«لقد أحبته وهذا ما يغضبها، أليس كذلك؟ إذ أخبرتني عندما التقيتها – عبر فلادا – إن إلدن أحسن إليها دوماً».

كتب وودي ما يلي على ورقة من دفتره ورفعها إلى كلاوديا: يريد أن يعرف عن (إ) و(ل)، ورسم إشارة استفهام تحتها.

صرخت كلاوديا: «أخبره ما تريد، فأمامنا ليلة طويلة، وهي الوقت المثالي من أجل رواية القصص، كما أنه يستحق معرفة ذلك».

قال وودي: «حسناً، كما تعلم يا تشارلي، لقد رغبت ليا في تصديق أن إلدن ميت لأنها ترفض، بل تعجز، عن تقبّل فكرة تحوله إلى قاتل الرحلة، إذ كانا مقربين جداً في طفولتهما، ويعود ذلك إلى كونهما آخر العنقود، وتعرضا إما إلى الإهمال أو المضايقة دوماً، حيث عانت ليا من كراهية أخواتها الكبار، درو وإيلي وجوي وفالا، لأنها الصغرى المدللة لدى والديهم، ولأن مظهرهن كان عادياً، وهي...».

صاحت كلاوديا، وقد قررت في النهاية أنها تستطيع قراءة الشفاه: «ما الذي يخبرك إياه؟ هل يتحدث بلباقة كما اعتاد أن يفعل خلال عمله في ظل حكم جان؟ لا،لا، أخبره الحقيقة يا ستيفين وودلي. كانت ليا جميلةً مثل صباح يوم صيفي، وكانت الأخريات قبيحات مثل والدهن، بينما كانت ليا صورة طبق الأصل عن والدتها.

لقد سمعت عبارة قبيحات ولكنها قالت شيئاً آخر، ولا أرى ضرورة أن إخبارك إنني استمعت حينها إلى حكاية خيالية أخرى، وجل ما كان ينقصها حذاء زجاجي.

قال وودي: «لقد كانت الفتيات يتكلمن بالسوء عن إلدن، فوصفنه بالقصير السمين، وصاحب القدم الميتة، والسيد الأحول، وصاحب الوجه الرمادي...».

«صاحب الوجه الرمادي؟ حقاً؟».

ارتسمت ابتسامة خفية على وجه وودي وقال: «لقد بدأت ترى جزءاً من انتقامه أليس كذلك؟ لقد ملأ الرماديون إمبيس منذ تولي إلدن قاتل الرحلة الحكم، وأخذ يقضي على الأشخاص المنيعين ضد لعنته، وسيقتل كل فراشة كبيرة إن استطاع ذلك، فهو لا يريد أن تنبت الأزهار في حديقته بل الأعشاب فقط».

انحنى وودي إلى الأمام، واحتضن ركبتيه بيد وحمل دفتره بالأخرى.

«اكتفت الفتيات بالكلام، أمّا شقيقه روبرت فقد أوسعه ضرباً في كل مرة انفردا فيها من دون رقابة أحد باستثناء حاشيته الملكية من المتملقين، وقد كان وسيماً ولا يقارن بإلدن. لقد حظي روبرت بمحبة والديه واهتمامهما وما كانا يرفضان له طلباً، وبالمقابل أهملا إلدن. لقد كان الشقيق الأكبر ولي عهد جان وسيتولى العرش بعد وفاته أو تنحيه، وبالتالي لم يكن هناك من سبب ليغار من شقيقه أو يكره، ولكنه كرهه واشمأز منه... شخصياً، أعتقد أن هناك سبباً يجعلنا نحب أحدهم، وأعتقد أن الكراهية قد تحصل من دون سبب. لذا، يمكننا وصفها بأنها شر منفلت من عقاله ويجول حولنا...»، وعبس وودي.

التزمت الصمت، وفكّرت في شبيهي رومبيلستيلتسكين خاصتي: كريستوفر بولي وبيتركين؛ لماذا تكبد القزم عناء إزالة أثر الحروف الأولى

التي كان من شأنها إخراجي من المدينة قبل وقت طويل من حلول الظلام؟ ولماذا خاطر بحياته –وخسرها– كي يكشف موقعي لريد مولي؟ هل لأنني تجاوزته في مسألة صرصار الليل الأحمر؟ أم لأنني طويل وهو قصير؟ في البداية، عجزت عن تصديق ذلك، ولكن الحقيقة أنه أقدم على هذه الأمور بسبب قدرته على فعلها ورغبته في افتعال المتاعب فقط.

دخلت فرانا، وهمست شيئاً في أذن وودي الذي أومأ وقال: «أخبرتني فرانا عن وجود كنيسة سليمة في الجوار، وأن ليا ذهبت كي تنام هناك برفقة دورا وبضعة أشخاص آخرين».

تذكرت أنه سبق لي رؤية كنيسة، وقلت: «خيراً فعلت، لا بد أنها متعبة»، ثمّ التفتت إلى كلاوديا، وأشرت إلى فرانا الواقفة عند الباب، ثمّ أطبقت راحتي يدي على بعضهما، وأسندت رأسي إليهما.

«هل هي متعبة؟ نحن متعبون فقد اجتزنا مسافةً طويلةً جداً، واستغرق بعض أولئك الناس أياماً حتّى وصلوا إلى هنا».

قلت لوودي: «تابع من فضلك، لقد أخبرتني عن كره الفتيات لليا، وعن كره روبرت لإلدن...».

قال وودي: «لقد كره الجميع إلدن باستثناء ليا، وساد في القصر فكرة أنه سيموت قبل بلوغه عامه العشرين».

تذكرت ذلك الشيء اللزج الذي سال من فمه عندما كان يجلس في جناح الشخصيات المهمة، وتبدّل لون بشرته من الرمادي إلى الأخضر، فتساءلت عندها عن عمره، وعن ماهية الشيء الذي تموج تحت قفطانه الأرجواني المقرف... ولم أكن متأكداً من رغبتي في معرفة الجواب.

«لقد عانى إلدن وليا من كره أشقائهما، وأعتقد أنهم كرهوهما بسبب حبهما الصادق لبعضهما... وربما بسبب ذكائهما، فقد اكتشفا معاً تفاصيل

القصر كاملةً انطلاقاً من قمم الأبراج المحظورة عنهما وحتى الأعماق، لقد خالفا الأوامر على أيّ حال».

«هل تقصد ديب مالين؟».

«ربما، وربما أعمق من ذلك، إذ توجد طرقات قديمة كثيرة تحت المدينة، ويعود تاريخ بناء بعضها لسنوات طويلة، ولا أعرف إن رافقته ليا عند ذهابه إلى البئر العميقة، فهي ترفض الحديث عن السنوات التي تلي طفولتهما، ولكنهما كانا يذهبان إلى أي مكان برفقة بعضهما، باستثناء مكتبة القصر، فقد كرهت ليا القراءة مع أنها ذكية، بينما كان إلدن قارئاً نهماً».

قال آيوتا: «وأراهن أن شقيقه سخر منه حيال ذلك أيضاً».

التفت وودي إليه وقال: «هذا صحيح يا صديق تشارلي، ليس روبرت فقط، بل شقيقاته أيضاً».

سألت كلاوديا: «ما الذي تخبره به الآن؟». كتب وودي ملخصاً قصيراً على دفتره، وأداره إلى كلاوديا التي قرأته ثمّ قالت: «أخبره عن إيلسا».

استقمت في جلستي وقلت: «هل تقصدين حورية البحر؟».

قال وودي: «أجل، إنها حورية بحر القصر، هل سبق لك أن رأيتها؟».

أومأت، وأردت كتمان أنني رأيت ما بقي منها فقط.

تابع وودي: «لقد سكنت في تجويف خفي صغير يشبه الكهف تقريباً، وأنا أتمنى أنها لا تزال سليمة هناك، ولكنني أشك في ذلك، فربما ماتت إثر الهجر، أو الجوع، وربما الحزن».

لقد ماتت حقاً، ولكن ليس بسبب تلك الأمور.

«اعتاد إلدن وليا إطعامها، وغنت من أجلهما أغنيات غريبةً ولكن جميلةً، ورددتها ليا أحياناً... وذلك عندما كانت تمتلك فماً كي تغني من خلاله».

مسحت على رأس رادار، التي نظرت إليّ وقد تمكن النعاس منها. لقد خضنا رحلةً قاسيةً معاً، ولكن تحسنت الأمور بالنسبة إليها؛ إذ حصلت على حياة جديدة رفقة أشخاص أحبوها، وقد جعلتني فكرة هروبها أفكر في نفسي عندما تلقيت خبر أنها على قيد الحياة.

سألت كلاوديا: «ما زلت أجهل كيف وصل صرصار الليل الأحمر إليكِ، هل جاء مع رادار؟ أخبريني عنه، إنه في هذا الحجم، ولماذا..»، ورفعت يدي أمامها وباعدت بينهما قبل أن تقاطع كلامي قائلةً: «هل نسيت أنني صماء يا تشارلي؟»، ونظرت إليّ ساخطة.

في الحقيقة، لقد غفلت عن ذلك، يمكنني القول إن شعرها انسدل في تلك الليلة على جانبي رأسها وغطى أذنيها، ولكن هذا غير صحيح، إذ نسيت أنها صماء فحسب، ولذلك أخبرت وودي كيف أنقذت صرصار الليل الأحمر من بيتركين، وكيف رأيته لاحقاً يخرج من ثقب في جدار الزنزانة حاملاً ملاحظةً ألصقت إلى بطنه، وفي داخلها بعض من شعر رادار، وكيف ألصقت ملاحظتي وأرسلتها معه اعتماداً على قول مأثور ذكره والدي: «توقع أي شيء، ولكن إياك أن تفقد الأمل».

قال وودي: «إنها نصيحة جيدة»، ثمّ بدأ يكتب على دفتره بسرعة وانتظام مدهش في الوقت نفسه. استعد الرماديون في الخارج من أجل النوم، وقد أحضر بعضهم بطانيات شاركوها مع الآخرين، ورأيت وراءهم فلادا تتناول العشب وقد ربط لجامها إلى عمود خارج الكنيسة.

أعطى وودي الدفتر إلى كلاوديا التي ابتسمت فور قراءة المكتوب، وبدت جميلةً حينها، وتحدثت في نبرة منخفضة أكثر بكثير من صوتها المرتفع

المعتاد، وكأنها تتكلم إلى نفسها.

قالت: «يصعب تدمير السحر، إذ صمد رغم الجهد الذي بذله إلدن بالنيابة عن الكائن الذي يخدمه – ولعله لم يصدق أنه مجرد أداة لديه، ولكنه كذلك بالتأكيد – وقد شهدت ذلك بنفسك، أليس هذا صحيحاً؟».

أومأت ومسحت على شعر رادار، التي كانت تُحتضر ولكنها عادت شابةً قويةً بعد دوراتها الستة على الساعة الشمسية.

«هذا صحيح، لقد صمد السحر. يدعو إلدن نفسه قاتل الرحلة الآن، ولكن رأيت بنفسك أن آلاف الفراشات الكبيرة، بل الملايين ما زالت على قيد الحياة، وربما توفيت إيلسا، ولكن نجا السناب بفضلك يا تشارلي».

اعتدل آيوتا في جلسته، وضرب على رأسه براحة يده الكبيرة وقال: «السناب؟ يا إلهي، كيف لم أتعرف إليه عندما رأيته؟».

«عندما جاء إليّ... أوه يا تشارلي... عندما جاء...».

شعرت أنها بدأت تبكي.

«أود أن أسمع مجدداً يا تشارلي. أتمنى لو أستطيع الإنصات إليها مرةً أخرى. صحيح أن صوتها ليس بشرياً، ولكنه رائع..».

نهضت رادار وهرولت صوب كلاوديا، التي وضعت رأسها قريباً من رادار، ومسحت على جانبيها من عنقها إلى ذيلها كي تطمئن، ثمّ اقترب وودي ووضع ذراعه حولها، وقد فكرت في فعل الشيء نفسه ولكنني تجنبت ذلك، إذ تملكني الخجل تماماً سواء كنت الأمير أم لا.

رفعت كلاوديا رأسها ومسحت دموعها عن وجنتيها بمعصمها، وتابعت الكلام في نبرة صوتها المعتادة.

«هل أخبرك ستيفن أن الحورية إيلسا غنت من أجل إلدن وليا؟».

قلت: «أجل»، ثمّ تذكرت أنها صماء فأومأت.

«لقد غنت من أجل أي شخص يريد الإصغاء إليها، ولكن وجب أن يصفي ذهنه من الأفكار الأخرى أولاً كي يستطيع سماعها، وقد عجز روبرت وشقيقات ليا عن الوصول إلى تلك المرحلة من السكون، ولكن إلدن وليا نجحا في ذلك، وسمعا أغانٍ جميلةً، أليس كذلك يا وودي؟».

قال: «أجل، لقد كانا كذلك»، ولكن تبينت من ملامح وجهه أنه لم يملك وقتاً كافياً كي يستمع إلى أغاني إيلسا أيضاً.

نقرت جبهتي، ثمّ انحنيت ونقرت جبهة كلاوديا، ورفعت يدي في علامة تساؤل.

«أجل يا تشارلي، ليست ذلك النوع من الأغاني الذي تسمعه عبر الآذان، إذ تعجز الحوريات عن الكلام».

رسمت بيدي إشارة القفز وقلت: «ولكن ماذا عن الصرصار؟ الـ... ماذا دعوته؟ سناب؟».

ما رأيك إن أرحتك من صوت كلاوديا الصاخب قليلاً؟ ليس صرصار الليل الأحمر مجرد سناب، بل الـسناب، وقد أطلقت عليه كلاوديا اسم ملك العالم الأصغر، واعتقدت أنها قصدت الحشرات (إذ قال بيتركين: «إنه مجرد حشرة لعينة)، ولكن أدركت أن سلطة السناب تشمل معظم المخلوقات التي رأيتها، مثل حورية البحر إيلسا، كما استطاع الكلام إلى البشر، فتحدث مع كلاوديا بعد مرافقة رادار إلى منزلها، وأخبرتني بدورها أن السناب قطع معظم الطريق يمتطي ظهر رادار، وقد شق عليّ تصور المشهد، ولكن فهمت السبب؛ إذ كان يتعافى من إصابة ساقه الخلفية في نهاية الأمر.

أخبرها السناب أن سيد الكلبة قتل في ليليمار أو احتجز في إحدى زنزاناتها، وسألها إمكانية فعله أي شيء من أجل المساعدة غير إيصال

الكلبة سالمةً إليها، لأن ذلك الشاب أنقذ حياته ويجب أن يرد دينه، فقالت كلاوديا إنهم سيحتجزونني في ديب مالين إن كنت حياً، وعلم الصرصار سبيل الدخول إلى هناك.

قال آيوتا متعجباً: «لقد رأيت السناب من دون أن أتعرف إليه، سيسخرون مني بسبب ذلك».

قلت: «ولكنه لم يتحدث إليّ».

ابتسم وودي وسألني: «وهل أصغيت إليه؟».

بالطبع لا؛ إذ تطايرت الأفكار في ذهني حينها... مثل حال أشخاص كثر مروا جوار إيلسا من دون سماع أغنياتها، بسبب انشغالهم جداً عن الإنصات إليها، وينطبق هذا الكلام على أغنيات (وقصص كثيرة) حتّى في عالمي، أي أنها تخاطب العقول التي تصغي فقط.

فكّرت في أن حلماً حول مجفف شعر والدتي أنقذ حياتي، وكذلك صرصار ليل ملكي أحسنت إليه مرةً، هل تتذكر عندما قلت في البداية إن أحداً لن يصدق قصتي؟

4

سيطر التعب على وودي وكلاوديا، وأوشكت رادار أن تنام، ولكنني أردت معرفة شيء واحد إضافي: «ماذا قصدت ليا عندما ذكرت قبلة القمرين؟».

قال وودي: «لعل صديقك يستطيع إخبارك عن الأمر».

تحمس آيوتا جداً ليخبرني، إذ سمع قصة الأخوات السماويات خلال طفولته، وكما تعلم يا عزيزي القارئ؛ تترك قصص الطفولة الانطباعات الأعمق في أنفسنا ويدوم أثرها فترةً أطول من غيره.

حدق آيوتا إلى ندبات وودي وقال: «لقد رأى جميع الأشخاص البصيرين كيف يلاحق القمران بعضهما، وعلى الأقل قبل أن تغدو الغيوم كثيفةً وساكنةً إلى هذه الدرجة، إذ يتناوبان على المقدمة دوماً، وتفصل بينهما مسافة طويلة معظم الأوقات، ولكنها بدأت تقصر شيئاً فشيئاً».

لقد رأيت ذلك بنفسي عندما تباعدت الغيوم بضع مرات.

«سيتجاوز أحدهما الآخر في إحدى الليالي، وعندها سيقبلان بعضهما».

قال وودي: «لقد روى الحكماء قديماً أن القمرين سيصطدمان يوماً ما، ويتفتتا، وأشاروا إلى أن ذلك قد يحصل من دون أن يتلامسا، بل بتأثير جاذبية كل منهما في الآخر، كما يحصل في حياة البشر أحياناً».

بدا آيوتا غير مهتم بتلك الفرضيات الفلسفية، وقال: «قيل أيضاً إن في ليلة قبلة الأختين السماويتين تنطلق الشرور جميعها كي تعيث خراباً في العالم... لقد منعنا خلال طفولتنا من الخروج في ليالي قبلة الأختين؛ إذ انتشر عواء الذئاب، وعويل الرياح، وليس ذلك فقط... بل صاح العالم كله وكأنه يتألم يا تشارلي»، ورمقني بنظرة حزينة جداً.

«ويستطيع إلدن فتح البئر العميقة عند حدوث ذلك؟ هل هذا ما تقوله الأسطورة؟».

التزم وودي وآيوتا الصمت، ولكنني عرفت الإجابة من القلق الذي ارتسم على ملامحهما؛ إنها ليست أسطورةً على الإطلاق.

«هل يعيش مخلوق ما في البئر العميقة؟ وهل هو ذاته الذي حوّل إلدن إلى قاتل الرحلة؟».

قال وودي: «أجل، وأنت تعرف اسمه وبالتالي تدرك أن مجرد لفظه يعد مخاطرةً».

كنت أعرف ذلك.

تحدثت كلاوديا بصوتها المرتفع الخشن الذي أفزع رادار، ففتحت عينيها ورفعت رأسها، ثمّ أنزلته مجدداً: «استمع إليّ يا تشارلي. سندخل المدينة غداً ونستولي عليها خلال فترة ضعف جنود الليل. ويجب عليك أن تعثر على إلدن وتقتله قبل أن يفتح البئر. وستقودنا ليا، فهي وريثة العرش الشرعية بعد إلدن، وهذه مهمتها... صحيح أنه عبء عليها... ولكن...».

لقد امتنعت عن إكمال كلامها، ولا بأس في تجنبها نطق اسم غوغماغوغ، الكائن المختبئ في البئر العميقة. لقد آمنت ليا أن شقيقها المحبوب الذي استمعت برفقته إلى أغنيات الحورية ليس قاتل الرحلة، ووجدت السبيل الأسهل في تصديق موته رغم كل الأمور التي سمعتها والمعاناة التي قاستها، واعتبار الوحش حاكم أطلال ليليمار وساكنيها الباقين مجرد محتال سرق اسم شقيقها، وبالتالي إذا اكتشفت أنه إلدن فعلاً، وصادفته في مكان ما وسط متاهة الأنفاق وسراديب الموتى السفلية، فقد تتردد في تنفيذ مهمتها.

وتقتل كما حدث مع أقاربها الآخرين.

قالت كلاوديا: «أنت الأمير المنتظر، وتملك الحواس التي سرقت منها جميعها، إضافةً إلى شعر أدريان القادم من العالم السحري، وبالتالي يجب عليك أن تقتل إلدن قبل أن يفتح بوابة الجحيم تلك».

كسر وودي صمته وتحدث بهدوء، وصدمتني كلماته واحدةً تلو الأخرى، كما أنصت آيوتا وقد جحظت عيناه وفغر فاه من الدهشة.

انحنى إلى الأمام وقرّب وجهه عديم العينين من وجهي وقال: «إليك أسوأ الاحتمالات: من يدخل البئر العميقة قد لا يخرج منها مجدداً، وسيضع إلدن وجود عالمنا على المحك عند فتحها؛ أي ربما يتجاوز الأمر جعله رمادياً

إلى تدميره تماماً، ومن يدري ماذا سيحدث بعد ذلك، قد يشمل الدمار إمبيس... بيلا... أرابيلا... هناك عوالم أخرى غير هذا العالم يا تشارلي».

هذا صحيح، ألست أنا من أحدها؟

أعتقد أن البرود انتابني في تلك اللحظة، إنه البرود نفسه الذي سيطر عليّ في أسوأ جولاتي مع بيرتي بيرد، وحين كسرت يدي بولي، وعندما رميت فخذ الدجاج ناحية كلا وقلت له: «سأوسعك ضرباً يا عزيزي»، ونفّذت كلامي من دون أن يرف لي جفن، وهذا يؤكد لي أنني لست أحد أمراء ديزني، ولعل هذا أمر جيد، فلا يحتاج شعب إمبيس إلى أمير من هذا النوع.

5

خلد وودي وكلاوديا إلى النوم، وكذلك مرافقيهما من الرماديين بعد أن عانوا من تعب الرحلة، فقد كان ينتظرهم في الغد يوم شاق، بل في الأيام القادمة، أما أنا فشعرت أنني في أعلى درجات يقظتي، ليس بسبب انقلاب ساعات نومي واستيقاظي، بل لأنني كنت أفكّر في آلاف الأسئلة وأنتظر إجابتها، وأكثرها رعباً هو ما الذي قد يفعله غوغماغوغ عندما يخرج من البئر؟ وطاردتني فكرة إمكانية اقتحامه، كما سبق للصرصار العملاق أن فعل.

قلت في نفسي: «لقد بدأ الأمر من حشرة»، وأوشكت أن أضحك.

خرجت من المستودع، وسمعت أصوات شخير النائمين وتنهداتهم، إضافةً إلى إطلاق الريح المعتاد؛ فذكّرني بالليالي التي قضيتها في ديب مالين. استندت إلى حائط المستودع، ونظرت إلى السماء آملاً أن أرصد مسافةً بين الغيوم كي أرى منها نجمةً أو اثنتين، وربما بيلا وأربيلا، ولكنني لم أرَ إلا الظلام، الذي سيغدو رمادياً خلال النهار. تابعت فلادا تناول العشب خارج الكنيسة على الطرف الآخر من طريق المملكة، وألقت النيران الخافتة الضوء على أشخاص إضافيين نائمين هناك؛ وقدّرت أن إجمالي عدد

الناس قد بلغ المئة الآن على الأقل، صحيح أن عددهم ليس كبيراً لوصفهم بالجيش، ولكنهم سيغدون كذلك.

تحركت الظلال إلى جانبي، فنظرت ورأيت رادار وآي اللذين جلسا أرضاً بجوار بعضهما، وحركت رادار أنفها بلطف وكأنها تستنشق عبير الليل.

سألته: «هل تعجز عن النوم؟».

«لا، لا، بل إنها ساعة جسدي المضطربة».

قلت في نفسي: «انضم إلى النادي».

«كم مرةً يظهر القمران في السماء؟».

فكّر آيوتا ثمّ أجاب: «ثلاث مرات كل ليلة على الأقل، وربما يظهران عشر مرات في بعض الأحيان».

وجدت ذلك غير منطقي، إذ جئت من عالم يسير وفق نظام زمني ثابت؛ أي يمكن تحديد مواعيد ظهور القمر وغيابه بدقة لفترات تصل إلى عشرة أعوام، أو خمسين عاماً، أو مئة عام، ولكن ليس في هذا العالم الذي يضم حورية بحر وصرصار ليل أحمر يدعى السناب، ناهيك عن قدرتهما على بث الأغاني والأفكار إلى عقول من يستمع إليهما.

«أتمنى أن تتاح لي فرصة رؤيتهما كي أُقدّر مدى قربهما من بعضهما».

«في الحقيقة لن تستطيع ذلك، ولكنك قد تستطيع تبين وهجهما عبر الغيوم خلال مرورهما، فهو يزداد مع اقترابهما من بعضهما، ولكن لماذا تكلف نفسك هذا العناء يا صديقي؟ هل تعتقد أن الأميرة تكذب حيال رؤيتهما؟».

هززت رأسي نافياً، إذ لا مجال للشك بعد رؤيتي للذعر الذي اعتلى وجه ليا.

فجأةً، سأل آيوتا: «هل صحيح أنك جئت من عالم سحري آخر؟ أنا أُصدق ذلك، لأنها المرة الأولى التي أرى فيها سلاحاً يشبه ما تضعه على خصرك... أو أحداً مثلك، وأشكر الرب أنني واجهت خصماً غيرك في الجولة الأولى من فير ون، وإلا ما كنت واقفاً هنا الآن».

«كنتَ لتقضي عليّ يا آيوتا».

«لا، لا، ربما لم أعتقد في البداية أنك الأمير، ولكن تبيّن أنك هو؛ أنت تحمل شيئاً صلباً وقوياً في داخلك مثل الطلاء القديم».

قلت في نفسي: «وبئري المظلمة الخاصة أيضاً، والتي يجب أن أحذر منها».

مسح آيوتا على رأس رادار بيده الكبيرة التي غطتها الندبات، وقال: «هل تستطيع إيجاده؟ أثق في قدرتنا على تدبير أمر جنود الليل الباقين نظراً إلى ضعفهم نهاراً – وسيهرب رعايا إلدن المتملقين مثل الأرانب فيعكسون حقيقتهم، وسنقتلهم كما نقتلها – ولكن يبقى قاتل الرحلة، هل تستطيع العثور عليه إن ذهب إلى الأعماق؟ هل تملك، لا أدري... بعض...».

قلت في نفسي: «حدساً عنكبوتياً[50]»، ولكن خرجت عبارة أخرى من فمي، وهي: «بعض حدس الأمراء؟».

ضحك آيوتا، ولكنه قال أجل، بمعنى أن هذا ما يقصده.

أجبته بالنفي.

«ماذا عن بيرسي الذي ساعدنا؟ هل يعرف طريقاً إلى البئر المظلمة؟».

فكّرت في الأمر، ثمّ هززت رأسي نافياً، وتمنيت أن لا يكون بيرسي قد قُتل، ولكنني شككت في ذلك، لأن كيلين سيعرف أن أحداً ساعدنا على

الهرب، صحيح أنه سينسب إليّ فكرة استخدام دلاء المياه المميتة، ولكنه سيعرف أن أحداً سرّب لنا المعلومة بخصوص الباب الموجود خلف الخزانة، وإن كان بيرسي قد نجا من التعذيب ولم يمت، فأنا أشك في أنه يعرف الطريق إلى البئر المظلمة.

جلسنا في الظلام الدامس بعيداً عن وهج ما تبقى من النار، ولذلك أخرجت عود ثقاب آخر من أحد جوربيّ، ومررته على جانب المبنى، ثمّ قرّبته إلى وجهي أمام عيني بعد أن أرجعت شعري إلى الخلف وقلت: «ماذا ترى؟ هل ما زال لونهما بنياً فاتحاً؟».

انحنى آيوتا واقترب مني ثمّ قال: «لا، بل أزرق فاتحاً يا مولاي الأمير».

لقد توقعت ذلك، ثمّ أطفأت عود الثقاب وقلت: «نادني تشارلي... أما نسبةً إلى العالم الذي جئت منه... أعتقد أن العوالم كلها سحرية، ولكننا اعتدنا عليها فحسب».

«ماذا الآن؟».

«أنا سأنتظر، لك حرية الانتظار معي أو الدخول كي تنام قليلاً».

«سأبقى معك».

قال صوت من خلفنا: «ونحن أيضاً»، وعندما استدرت رأيت جايا وإيريس التي قالت: «ما الذي تنتظرانه يا مولاي الأمير؟».

قال آي: «ناده تشارلي لأنه يحب اسمه أكثر، مثل الأمراء المتواضعين في القصص».

«سنرى ما أنتظره، وربما لا، دعونا نبقَ هادئين الآن».

جلسنا هادئين وسط صوت صراصير الليل – ليسوا حمراً على الأرجح – المنبعث من بين الأعشاب وأنقاض الضواحي المنهارة عند أطراف

المدينة، وتسلل الهواء المنعش إلى رئاتنا، ومنحنا إحساساً جيداً، مرّ بعض الوقت قبل أن تنتهي فلادا من تناول الأعشاب، واكتفت بالوقوف وإخفاض رأسها، فظننتها تأخذ غفوةً، أما رادار فاستسلمت للنوم سريعاً. بعد فترة، أشارت جايا إلى السماء، حيث مر ضوءان ساطعان سريعاً جداً خلف الغيوم الكثيفة، ومع أن الغيوم حجبتهما إلا أننا لاحظنا أن القمرين قريبان جداً من بعضهما لكنهما لم يتلامسا، أو يقبلا بعضهما، ثمّ عبرا السماء خلف أبراج القصر الثلاثة واختفيا، كانت مصابيح الغاز حول الملعب منطفئة، وكان الظلام مخيماً على المدينة، في الوقت الذي سيّر فيه جنود الليل الباقون دوريات خلف الأسوار.

مرت ساعة، ثمّ ساعتان، وصحيح أن ساعتي الداخلية مضطربة مثل آيوتا، ولكن لا بد أن شعاع ضوء النهار الأول قد أوشك على الظهور عندما حدث ما توقعت حدوثه؛ وما تمناه الجزء المظلم من طبيعتي. خرجت الأميرة ليا من الكنيسة مرتديةً بنطالها ومنتعلة حذاءها وحاملةً سيفها القصير، لا شك أنها هي. بسرعة وقف آي وفتح فمه كي يتحدث، ولكنني وضعت يدي على صدره ورفعت إصبعي إلى شفتي، وراقبناها تفك لجام فلادا وتقودها صوب بوابة المدينة، وأبقتها خارج الطريق المرصوفة كي لا تصدر حوافرها أصواتاً توقظ ذوي النوم الخفيف، وبدت حين امتطت فلادا وكأنها شكل مظلم وسط الظلام.

وقفت وقلت: «لستم مضطرين لمرافقتي، ولكن لن أمنع أحداً من مرافقتي بعد كل ما مررنا به معاً».

قال آي: «أنا إلى جانبك».

قالت إيريس: «وأنا أيضاً».

واكتفت جايا بالإيماء.

قلت: «ستبقين يا رادار مع كلاوديا».

أنزلت رادار أذنيها، وتوقفت عن هز ذيلها، ورمقتني بنظرات التوسل.

قلت: «لا، إن حصتك رحلة واحدة فقط إلى ليلي».

قال آي: «ستسبقنا الأميرة يا تشارلي، كما أن البوابة الرئيسة مغلقة، وإن أردنا اللحاق بها...».

«لا يزال الوقت في صالحنا، لذا دعونا نمشي ببطء، فأنا أعرف أن لدى ليا رغبة جامحة في التأكد أن قاتل الرحلة ليس شقيقها، وستسعى لإنقاذ إلدن إن استطاعت إلى ذلك سبيلاً، إلا أنها ذكية وستنتظر حلول النهار كي تدخل المدينة، ولكن سنصل إليها قبل حدوث ذلك ونقنعها بالانضمام إلينا».

سألتني إيريس: «ولكن كيف ستفعل ذلك؟».

قلت: «لن أعدم وسيلة... لعل إلدن ينتظر قبلة القمرين قرب البئر المظلمة الآن، وعلينا الوصول إلى هناك وإيقافه في الوقت المناسب».

التزم الجميع الصمت.

قالت إيريس بصوت منخفض: «لن أعدم وسيلة».

سأل آيوتا: «ماذا سيحدث إن لم تكن ليا تعرف الطريق إلى البئر؟».

قلت: «عندها سيقضى علينا».

قالت جايا: «انظر يا مولاي الأمير، أقصد يا تشارلي». كانت تشير إلى ورائنا.

لقد تبعتنا، ورأتني أنظر إليها، فأسرعت كي توافينا، ركعت أمامها، وأمسكت رأسها بين يدي وقلت: «أنت كلبة مشاكسة. هلّا عدت أدراجك؟».

ولكنها اكتفت بالتحديق إليّ.

تنهدت ونهضت قائلاً: «حسناً، تعالي معنا».

مشت رادار قرب قدمي، وهكذا تابعنا نحن الأربعة، بل الخمسة مع رادار، طريقنا إلى مدينة الأشباح.

6

لاحت البوابة أمامنا عندما قفز شيء ناحيتنا من بين حطام أحد الأبنية على جانب الطريق الأيسر، فسحبت مسدس السيد بوديتش، ولكن ذلك الشيء وثب وثبةً كبيرةً (ومنحنيةً قليلاً) وحط على ظهر رادار قبل أن أستطيع رفع سلاحي حتى، ناهيك عن تصويبه. لقد كان السناب، والذي أدهشنا حضوره، باستثناء رادار التي سبق لها أن حملته، وبدت مستعدة لحمله مجدداً، فاستقر الصرصار على رقبتها وكأنه يراقب المحيط.

لقد أزعجني عدم رؤية ليا وفلادا أمام البوابة، عندما وقفت أفكّر في خطوتنا التالية، قفز السناب عن ظهر رادار واتجه إلى البوابة، ثمّ انعطف يميناً، فلحقت به رادار، ودفعته بأنفها (وبدا موافقاً على ذلك)، ثمّ التفتت إلينا كي ترى إن كنا سنتبعها.

وجدنا طريقاً مُعبّداً بين الحطام حيث نمت نباتات اللبلاب قرب الجانب الخارجي من الجدار، ولعله استخدم سابقاً من أجل الصيانة، فقادنا السناب عبره قافزاً بين الحشائش ومتجاوزاً بخفة قطع الطوب المتناثرة. رأيت بعد أقل من مئة خطوة شيئاً أبيض وسط الظلام، والذي أطلق صهيلاً؛ لقد كانت فلادا، وجلست الأميرة ليا إلى جوارها عاقدةً ساقيها منتظرة الفجر. رأت صرصار الليل أولاً، ثمّ رأت الآخرين، فوقفت مباشرةً أمامنا واضعةً يدها على مقبض سيفها ومباعدةً بين قدميها، وكأنها مستعدة من أجل الهجوم.

تحدثت فلادا، ولكنها لم تستخدم ضمير الغائب: «قادكم السيد سناب إليّ إذن، وها قد عثرتم عليّ، عودوا أدراجكم».

«من يرعى الإوزات في غيابك يا سيدتي؟».

ليست العبارة أو الأسلوب اللذين توقعتهما من تشارلي ريد القادم من سينتري في إيلينوي.

اتسعت عينا ليا، ثمّ تجعدت زواياهما قليلاً، ويصعب التأكد من حقيقة ملامحها من دون فمها، ولكنني أظن أن السؤال أذهلها وفاجأها، قالت فلادا: «يعتني بها جيداً خادما سيدتي المدعوان ويت وديكون».

قلت في نفسي: «كما في ديك ويتينتون[51]».

قالت جايا: «هل تستطيع هذه الفرس...».

لكن ليا لوّحت لها كي تصمت، فتراجعت جايا إلى الخلف ونظرت إلى الأرض، ثمّ قالت فلادا: «لقد حصلت على إجابة عن سؤالك السخيف، والآن دعنا وشأننا، هناك عمل مهم عليّ أن أُنجزه».

نظرت إلى وجه ليا المضطرب والجميل باستثناء الندبة مكان فمها، والقرحة القبيحة إلى جوارها.

سألتها: «هل تناولت الطعام؟ إذ يجب أن تكوني قويةً من أجل القادم يا سيدتي».

قالت فلادا: «لقد تناولت ما يكفي، والآن اذهب وهذا أمر»، لاحظت أن ليا تبذل جهداً كبيراً كي تخرج ذلك الصوت.

أمسكت يديها الصغيرتين مقارنةً بيديّ، وكانتا باردتين، وأرادت سحبهما، ولكنني شددت عليهما، ورغم محاولتها تقمص شخصية الأميرة المتكبرة التي تمسك زمام الأمور كي تبدو في هيئة جيدة، إلا أنني أحسست بخوفها الشديد.

«لا يا ليا، أنا من يجب أن يأمرك، فكما تعلمين أنا الأمير المُنتظر».

قالت فلادا: «لست أمير هذا العالم»، وهنا سمعت النقرات والغمغمة في حنجرة ليا، وتبينت أن كلامها المؤدب نابع عن الضرورة وليس الرغبة، وإن لم تكن مجبرة – وبقوة كبيرة – على الكلام عبر هذه الفرس، لمزقتني إلى نصفين، حيث غاب الذهول من عينيها وحل محله الغضب، إذ تعودت هذه المرأة التي أطعمت الإوز من مئزرها أن يطيعها الآخرون من دون أن يطرحوا أسئلة.

وافقتها قائلاً: «لا، لست أمير هذا العالم، أو ذاك الذي جئت منه، ولكنني قضيت أياماً طويلةً في السجن، وأجبرت على القتل، ورأيت رفاقي يُقتلون، هل تفهمينني يا مولاتي الأميرة؟ هل تدركين الحق الذي أملكه كي آمرك؟».

التزمت فلادا الصمت، وسالت دمعة من عين ليا اليسرى وشقت طريقها ببطء على وجنتها الناعمة.

«هلّا مشيت معي قليلاً من فضلك؟».

هزت ليا رأسها بقوة إلى درجة أن شعرها تطاير حول وجهها، وحاولت مجدداً سحب يديها ولكنها أحكمت إمساكهما.

«لا تزال تفصلنا ساعة على الأقل على ظهور أشعة الضوء الأولى، ويعتمد عالمك كله على الأشياء التي نقولها إلى بعضنا، كما أن عالمي على المحك أيضاً، ولذلك رافقيني من فضلك».

أفلتت يديها، وأخرجت أحد عيدان الثقاب الباقية في جوربي، وأبعدت بعض نباتات اللبلاب جانباً عن الجدار، ومررت عود الثقاب على إحدى صخوره الخشنة، وقرّبته من وجهي كما فعلت مع آيوتا، فوقفت ليا على رؤوس أصابعها كي تستطيع النظر إليّ، واقتربت مسافةً تكفي كي أقبّل هلالها المقلوب.

قالت فلادا: «إنهما زرقاوان».

تمتمت إيريس: «تستطيع هذه الفرس الكلام».

همس آيوتا أيضاً: «لا، لا، إنها الأميرة». لقد أذهلهما ذلك، وأنا أيضاً، ولم لا؟ إذ ملأ السحر ذلك المكان وجعلني جزءاً منه أيضاً، وقد أخافني الأمر في الوقت نفسه بعد أن تجردت من شخصيتي وأصبحت رفيع الشأن.

«تعالي يا سيدتي، علينا أن نتحدث، تعالي من فضلك».

وافقت ليا.

7

مشينا على الطريق قليلاً بعيداً عن الآخرين تحت السماء المظلمة ووسط نبات اللبلاب الذي غطى الجدار إلى يسارنا وحطام الأحياء المنهارة إلى يميننا.

قلت: «يجب أن نوقفه، قبل أن يتسبب بكارثة فظيعة».

مشت رادار إلى جوارنا وتشبث السناب بعنقها، والذي تحدث بلسان ليا هذه المرة، وكان صوتها أوضح كثيراً مما يكون عليه عند الحديث عبر فلادا: «إن قاتل الرحلة ليس شقيقي، فإلدن الذي أعرفه لطيف محب، وأنا متأكدة أن أفعالاًشنيعةً كهذه خارج قاموسه تماماً».

قلت في نفسي: «يتغير الناس دوماً، كما حدث مع والدي، ومعي عندما كنت برفقة بيرتي، وأذكر سؤال نفسي عن سبب اقتراف شخص جيد مثلي تلك الأفعال القذرة».

قال السناب: «إن كان حياً، فهو مسجون في مكان ما، ولكنني لا أعتقد ذلك، بل هو ميت مثل سائر أفراد عائلتي».

قلت: «وأنا أوافقك الرأي»، وهذا صحيح تماماً، إذ مات إلدن الذي عرفته واكتشفت معه الممرات السرية في القصر، واستمعت برفقته إلى أغنيات الحورية، لم يبقَ منه الآن سوى دمية غوغماغوغ.

توقفنا، وتحركت حنجرتها عندما تحدث السناب؛ لقد أتعبها أسلوب الكلام هذا كثيراً رغم أن نيابة السناب عنها مناسبة تماماً، ولكنها كانت مضطرة للتعبير عما كبتته في نفسها ردحاً من الزمن.

«سأحرره إن كان سجيناً، وأنتقم له إن كان ميتاً، وأبطل اللعنة الملقاة على هذه الأرض الحزينة، إنها مهمتي وليست مهمتك يا ابن أدريان بوديتش».

لست ابنه بل وريثه فقط، ولكن بدا الوقت غير ملائم كي أخبرها ذلك.

«أثق أن قاتل الرحلة ذهب إلى البئر المظلمة يا مولاتي الأميرة، وسينتظر هناك قبلة القمرين كي ينفتح الطريق أمامه، هل تستطيعين إيجادها؟».

بدت مترددة عندما أومأت.

«هل ستقودينا إلى هناك؟ فنحن لا نستطيع الوصول إلى هناك من دونك، هل ستفعلين ذلك إذا وعدتك أن أترك مصير قاتل الرحلة بين يديك عند مواجهته؟».

التزمت ليا الصمت طويلاً؛ لقد شكت في صدق وعدي، ولها الحق في ذلك، وما أدراها أنني سأحترم رغبتها في ترك إلدن حياً إن تعرفت إليه وعجزت عن قتله رغم وضعه الحالي؟ فكرت في وجه دورا المشوه وقلبها النزيه، وفي شجاعة بيرسي التي أعتقد أنه دفع ثمنها غالياً حينها، وتذكرت اللاجئين الرماديين الذين رأيتهم يشقون طريقهم من سيفرونت إلى ملجأ

آمن شككت في وجوده. ولكن هؤلاء الناس المصابين والملعونين في كفة، وقلب الأميرة الرقيق في كفة أخرى، وما من طريقة لإقامة التوازن بينهما.

«هل ستعد ليا غالين شيئاً كهذا؟».

أعتقد أن السناب تحدث بنفسه حينها وليست ليا مستخدماً ضمير الغائب، ولكنني أظنها أرادت معرفة الأمر نفسه.

«أجل».

قالت: «هل تقسم بروح والدتك التي قد تذهب إلى الجحيم إن أخلفت وعدك؟».

قلت من دون تردد: «أجل»، ووجب أن أنفذ ذلك الوعد، فقد اعتقدت أن ليا ستقتل إلدن بنفسها عندما ترى ما تحوّل إليه، وإلا سأعطي مسدس السيد بوديتش إلى آيوتا، وأعلم أنها ستكون المرة الأولى التي يستخدم فيها سلاحاً كهذا، ولكن تشبه المسدسات آلات التصوير الرخيصة؛ جل ما عليك فعله أن تصوب وتضغط.

«وهل سيتبع أصدقاؤك ليا، ويطيعونها؟».

لعل الآخرين سيطيعون أوامر ملكة إمبيس المستقبلية إن طلبت منهم العودة، ولكنها أدركت أنني سأتبعها على أيّ حال، وهي التي سبق لها أن قالت عبر فلادا إنني لست أمير هذا العالم، وبالتالي لست مجبراً على طاعتها.

شيئاً فشيئاً، أضاءت السماء فوقنا، فنظرنا إلى الأعلى، وهذا ما فعلته رادار والسناب، ورأينا جرمين سماويين يتوهجان خلف الغيوم؛ اقترب القمران كثيراً من بعضهما حتّى بدا شكلهما مثل رقم ثمانية مستلق إلى أحد جانبيه، أو رمز اللا نهاية، وعبرا في غضون ثوانٍ خلف أبراج القصر وخيّم الظلام مجدداً.

قال السناب: «أوافق على شروطك، ولكن يكفينا كلاماً من فضلك، إنه مؤلم».

قلت: «أعلم، وأعتذر عن ذلك».

ناحت رادار ولعقت يد ليا، التي انحنت إليها وداعبتها بعد أن أبرمنا الصفقة.

الفصل الثامن والعشرون
إلى داخل المدينة- صوت الحداد- هانا- إنها من غنت مرةً-الذهب- المطبخ- غرفة الاستقبال- يجب أن نصعد كي ننزل.

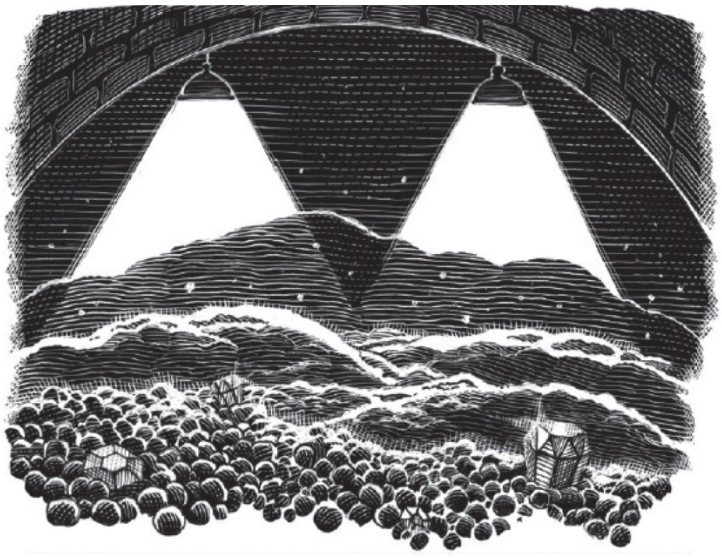

1

سارت ليا أمامنا إلى حيث انتظرنا الباقون، وجلست مجدداً ولم يقل السناب أو فلادا شيئاً. نظر آيوتا إليّ، فأومأت؛ لقد أبرمنا صفقةً. جلسنا معها وانتظرنا انبلاج ضوء الفجر، ثمّ انهمر مطر خفيف ولكن مستمر، فأخرجت ليا عباءةً من الحقيبة الوحيدة المرفقة بسرج فلادا، ووضعتها على كتفيها

وأشارت إلى رادار، فنظرت كلبتي إليّ تنتظر موافقتي، ثمّ اقتربت من ليا، وبدوره انضم السناب إليهما، واحتمى ثلاثتهم من المطر الذي بللنا – نحن السجناء – وثيابنا الممزقة التي هربنا فيها من السجن، ثمّ ارتجفت جايا من البرد فعانقتها إيريس، وأخبرتهما أنهما يستطيعان العودة، ولكنهما رفضتا ذلك، بينما بدا أن آيوتا منسجم مع الوضع، فجلس حانياً رأسه وشابكاً يديه مع بعضهما.

مر الوقت، وفي اللحظة التي رفعت فيها رأسي أدركت أنني أستطيع رؤية ليا، فأشرت بيدي كي أسألها شيئاً، ولكنها اكتفت بهز رأسها، ومضى وقت أكثر حتّى أشرقت شمس ذلك اليوم المطير، فنهضت ليا على قدميها، وربطت لجام فلادا إلى قضيب حديدي بارز من بقايا جدار حجري في الحطام، واعتلى السناب ظهر رادار مجدداً، ومشت ليا ببطء على الطريق ولم تلتفت إلى الخلف كي تتأكد إن كنا نتبعها أم لا، وبحثت بين عرائش اللبلاب الكثيفة بين الفينة والأخرى، ثمّ توقفت بعد خمس دقائق تقريباً، وبدأت تقطعها في مكان محدد، وعندما تقدمت كي أساعدها، هزت رأسها؛ لقد أبرمنا اتفاقاً، ولكن بدت مستاءةً بوضوح حياله.

أبعدت المزيد من اللبلاب كي تكشف عن باب صغير مخبأ خلفه من دون مزلاج أو مقبض، فأشارت إليّ ثمّ إلى الباب، وعجزت عن تفسير ما أرادته مني، ثمّ فهمت قصدها.

قلت: «افتح باسم ليا غالين»، فانفتح الباب.

2

دخلنا المبنى الذي يشبه الحظيرة من الداخل، وملأته أدوات الصيانة القديمة، مثل المجارف، والمعاول، والعربات اليدوية، وغطتها جميعها طبقة غبار كثيفة كما غطت الأرضية التي لم يكن عليها آثار أقدام سوى آثار أقدامنا، ولاحظت وجود واحدة أخرى من تلك العربات التي تشبه الحافلات

الكهربائية، فنظرت داخلها كي أجد بطاريةً متآكلة جداً تحولت إلى كتلة خضراء اللون، وتساءلت عن مصدر هذه العربات الصغيرة – وجدت اثنتان منها، وأمكن تشغيل إحداهما؛ هل أحضر السيد بوديتش الأدوات من عالمنا واحدةً تلو الأخرى وجمعها هنا؟ لم أجد إجابةً عن هذا السؤال، وجل ما عرفته أن النظام السائد حينها أهمل انتظام ليليمار وترتيبها، وصب اهتمامه على الرياضات الدموية.

قادتنا ليا إلى الخارج عبر باب في الطرف البعيد من الحظيرة، فوجدنا أنفسنا وسط ما يشبه ساحة الخردة المملوءة بالعربات المفكوكة، وأكوام من أعمدة الطاقة، وحزم هائلة متشابكة من أسلاك العربات، فمررنا بين تلك الأدوات عديمة الفائدة وصعدنا مجموعةً من الدرجات الخشبية، ودخلنا غرفة عرفتها والهاربون الآخرون مباشرةً: مركز الحافلات.

مشينا عبر المحطة الرئيسية وعندما رن جرس الصباح مرة واحدة تردد صداه في الأرجاء، فتوقفت ليا حتّى خمد الصوت تماماً، ثمّ تابعت طريقها ولم تنظر خلفها، وتردد صدى خطواتنا في القاعة، فرفرفت مجموعة الخفافيش العملاقة أجنحتها ولكن التزمت مكانها في السقف.

قالت إيريس بصوت منخفض: «لقد غادرنا هذا المكان في المرة الماضية، وها نحن نعود إليه الآن. أملك حساباً كي أصفيه مع تلك الوضيعة».

التزمت الصمت لأنني وقتها كنت أُفكر في شيء آخر.

خرجنا إلى المطر مجدداً، فنزلت رادار درجات مركز العربات الخشبية وتجاوزت أحد الأعمدة الحمراء والبيضاء وتمثال الفراشة الحجري فوقه، وبدأت تشم شيئاً وسط نبات العليق، فلاحظت أحد حزامي حقيبتي المرمية هناك، ثمّ سمعت صوتاً فاجأني تماماً ولكن تعرفت إليه مباشرةً؛ هرولت رادار إليّ حاملةً دمية القرد المطاطية خاصتها ذات الصوت، وألقتها قرب قدمي، والتفتت إليّ وهي تهز ذيلها.

قلت: «كلبة لطيفة»، وأعطيت الدمية إلى آي؛ إذ امتلك جيوباً في ملابسه. كان الطريق الواسع المؤدي إلى القصر مهجوراً ولكنه لم يكن فارغاً؛ إذ أزالوا جثة ريد مولي، ولكن ملأته عظام من لاحقنا من جنود الليل وتناثرت على مسافة أربعين ياردةً، وغطت معظمها أكوام الفراشات الكبيرة الميتة.

وقفت ليا في نهاية الدرجات، وانتصبت في مكانها وكأنها تصغي إلى شيء ما، فانضممنا إليها، واستطعت سماعه أيضاً: كان مثل أنين مرتفع يشبه صوت الرياح عندما تعصف إلى جوار حواف الأسطح في ليالي الشتاء، وقد تعالى وخمد مراراً وتكراراً ثمّ تحول إلى صيحة قبل أن يعود أنيناً مجدداً.

همست جايا: «يا إلهي، ما هذا؟».

قلت: «إنه صوت الحداد».

سأل آيوتا: «أين ذهب السناب».

هززت رأسي وقلت: «لعله يكره المطر».

سارت ليا على طريق غالين ناحية القصر، ولكن وضعت يدي على كتفها وأوقفتها قائلاً: «يجب أن نذهب من الخلف فنصل إلى ساحة اللعب، ولكن أجهل الطريق إلى هناك لأن قزماً لعيناً يدعى بيتركين مسح علامات السيد بوديتش، ولكن أراهن أنك تعرفين كيفية الوصول إلى هناك».

وضعت ليا يديها على خصرها النحيل، وحدقت إليّ ساخطةً، ثمّ أشارت إلى صوت نحيب هانا على ابنتها، ورفعت يديها عالياً فوق رأسها كي أفهم قصدها في حال كنت غبياً.

قال آيوتا: «إن الأميرة محقة يا تشارلي، لماذا نسلك ذلك الطريق ما دمنا نستطيع تفادي مواجهة الوضيعة الكبيرة عبر الدخول من الباب الأمامي».

فكرت في هذه النقطة، ولكن ارتأيت وجود أمور أخرى أهم منها، فقلت: «لأنها تتناول لحم البشر، وأنا متأكد أنه سبب طردها من أرض العمالقة، أو أياً كان اسمها هنا، هل تفهمين ذلك؟ إنها تتناول لحم البشر، كما أنها تخدمه».

حدقت ليا إلى عيني، وأومأت ببطء شديد، وأشارت إلى المسدس الذي أحمله.

قلت: «أجل، ويوجد سبب آخر يا مولاتي، يوجد شيء أريدك أن تريه».

3

قطعنا مسافةً قصيرةً من طريق غالين، ثمّ انعطفت ليا يساراً إلى طريق فرعي لا يتجاوز كونه زقاقاً، ثمّ قادتنا عبر متاهة من الشوارع من دون أن تتردد خلال سيرها أبداً، وتمنيت أنها تدرك ما تفعل؛ إذ مضت سنوات كثيرة على قدومها إلى هنا، ولكننا نستطيع أن نتبع صيحات هانا المفجوعة على أيّ حال.

مشت جايا وإيريس إلى جواري، وبدت الأولى متجهمةً، بينما اعترى الخوف الشديد الأخرى، وقالت: «إن الأبنية تتحرك، أعلم أن هذا جنون، ولكنني أراها تتغير من طرف عيني في كل مرةً أشيح ناظري عنها».

قال آي: «وأعتقد أنني أسمع أصواتاً أيضاً، يبدو هذا المكان... لا أدري... وكأن الأشباح تسكنه».

قلت: «لأنه كذلك، وسنطردها من هنا، أو نموت ونحن نحاول».

سألت إيريس وسط عويل هانا الذي أخذ يعلو شيئاً فشيئاً: «ماذا قلت؟».

قلت: «لا تهتمي، شيء واحد في كل مرة».

قادتنا ليا عبر زقاق ضيق جداً إلى درجة شعرت وكأننا ننسل من شق صغير، واستطعت رؤية بعض حجارة جدران الأبنية القريبة من بعضها وهي تتحرك في مكانها إلى الأمام والخلف وكأنها تتنفس.

خرجنا إلى شارع تعرفت إليه مباشرةً؛ إنه الجادة التي تتوسطها الجيرة الوسطية المزروعة بالأعشاب، واحتل جانبيها ما كان سابقاً متاجر متنوعةً تلبي حاجات أفراد العائلة الملكية ومتملقيهم، ولمحت آيوتا يمد يده كي يلمس (أو يقطف) واحدةً من الأزهار الصفراء العملاقة، ولكنني أمسكت معصمه وقلت: «أنصحك أن تتجنب ذلك يا آي، لأنها قد تعضك».

التفت آي إلي وسألني: «حقاً؟».

«أجل».

استطعت أخيراً رؤية قمم منزل هانا الهائل المطل على الشارع، فاتجهت ليا حينها إلى اليمين وبدأت تمشي خفيةً بمحاذاة واجهات المتاجر المحطمة، ونظرت عبر قطرات المطر إلى الساحة المهجورة ونافورتها الجافة، وقد أصبح نحيب هانا عالياً جداً وغير محتمل في كل مرة تصرخ بعد تنهدها، أخيراً نظرت ليا إلى الخلف، وأشارت إليّ كي أتقدم، وربتت الهواء بإحدى يديها، وكأنها تقول: «تعال ولكن بهدوء».

انحنيت إلى رادار، وهمست لها أن تلتزم الصمت، ثمّ انضممت إلى الأميرة.

تربعت هانا على عرشها المرصع بالجواهر دون أغانيها عن المحبوب جوي في ذلك الصباح، وكانت تضع جثة ابنتها في حضنها، والتي تدلى رأسها على أحد جانبي العرش، وساقاها على الجانب الآخر، ومسحت على شعر ريد مولي البرتقالي المنتصب، ورفعت وجهها المترهل إلى السماء تحت قطرات المطر وصرخت مجدداً، ثمّ وضعت إحدى ذراعيها الثخينتين تحت عنقها، ورفعت رأسها، وقبّلت جبهتها وبقايا فمها الملطخ بالدماء.

أشارت ليا إلى هانا، ثمّ إليّ وبسطت يدها، وكأنها تقول: «وماذا الآن؟».

قلت في نفسي: «راقبي ما سيحدث»، وبدأت أمشي عبر الساحة ناحية عرش هانا، واضعاً إحدى يدي على مسدس السيد بوديتش، ولم ألحظ أن ردار بالقرب مني حتّى بدأت تنبح بقوة من أعماقها، وتزمجر خلال كل شهيق تأخذه، ما لفت أنظار هانا إلينا ورأتنا قادمين.

قلت: «حافظي على هدوئك يا رادار، وامشي إلى جانبي».

وضعت هانا جثة ابنتها جانباً كي تسقط إحدى يديها في كومة من العظام الصغيرة، ثمّ نهضت وصرخت عالياً وسط موجة من الغضب: «أنت... أنت».

قلت: «هذا أنا، هذا صحيح، ولكنني الأمير المنتظر، ولذلك اركعي أمامي وتقبلي قدرك».

توقعت أنها ستتجاهل كلامي تماماً، وأصبت في ذلك؛ إذ اندفعت ناحيتي في خطوات واسعة، والتي تكفي خمسة منها كي تمسكني، فانتظرت حتّى الثالثة لأنني أردت أن أصيب الهدف مباشرةً، وذلك دون أي خوف، حيث سيطر الظلام عليّ، وكان قاسياً ولكن واضحاً، وأعتقد أن هذه مفارقة، ولكنني أؤيدها. استطعت رؤية ذلك الصدع أحمر الحافة الذي احتل منتصف جبهتها، وتريثت حتّى اقتربت إلى حدّ أنها حجبت عني السماء كلها وهي تصرخ شيئاً عجزت عن فهمه، فأطلقت رصاصتين، وكان المسدس من عيارة 0.45 مقارنة بالمسدس عيار 0.22 أقرب إلى البندقية فقد تشكلت وهدة مكان بثور جبهتها كما يحدث عندما يدوس أحدهم بحذائه الثقيل على قشرة ثلجية، وتطايرت خصلات شعرها البنية إلى الخلف، وتناثرت الدماء، وانفتح فمها كاشفاً عن أسنان ملوثة لن تمزق لحم الأطفال أو تمضغه بعد الآن.

ارتفع ذراعا هانا ناحية السماء الرمادية، وهطل المطر على أصابعها وسط رائحة البارود القوية واللاذعة، ثمّ ترنحت في نصف دائرة، وكأنها تريد إلقاء نظرة أخيرة على محبوبتها الراحلة قبل أن تسقط أرضاً، فاهتزت الأرض تحت قدمي إثر ذلك الاصطدام.

هكذا سقطت العملاقة هانا حارسة الساعة الشمسية، والبركة، ومدخل ملعب الفراشات خلف قصر ليليمار.

4

وقف آيوتا أمام الجناح الأيمن من منزل هانا حيث المطبخ، وإلى جواره رجل رمادي خسر كل ملامح وجهه تقريباً؛ بدا وكأن اللحم خرج من جمجمته وتدلى إلى الأسفل مغلفاً إحدى عينيه وأنفه كله، وقد ارتدى سترةً بيضاء ملطخةً بالدماء وبنطالاً أبيض، وفرضت أنه طباخ هانا – أو كان كذلك، وقد أطلقت عليه اسم الوغد المخصي، ولكن حسابي ليس معه، بل مع من يقطن القصر.

ولاحظت أن حساب ليا مع هانا لما ينته بعد، إذ استلت سيفها ومشت ناحية جثة العملاقة حيث سالت الدماء حول رأسها بين الصخور.

تقدمت إيريس وأمسكت ذراع ليا، فالتفتت إليها وقد قالت ملامح وجهها بوضوح: «كيف تجرئين على لمسي؟».

«لا يا سيدة غالين، لا أقصد أن أقلل من احترامك، ولكن أطلب منك الانتظار قليلاً من أجلي، أرجوك».

بدا أن ليا تفهمت الأمر، وتراجعت قليلاً.

اتجهت إيريس إلى العملاقة، وباعدت قدميها كي تقف فوق إحدى ساقي هانا الضخمتين المفلطحتين، ثمّ رفعت تنورتها القذرة، وتبولت على

فخذ هانا الأبيض الهامد، ثمّ عادت أدراجها وقد انهمرت الدموع على خديها، ونظرت إلينا.

«لقد سافرت جنوباً من قرية وايفا التي لم يسبق لأحد أن سمع بها... ولن يحدث ذلك مستقبلاً لأن هذه السافلة الشريرة دمرتها وقتلت العشرات من ساكنيها، ومن بينهم والدتي وجدي، والآن تستطيعين فعل ما تريدينه يا سيدتي»، وانحنت احتراماً أمام ليا.

ذهبت كي أقف إلى جانب آيوتا والطباخ المرتعش، ووضع كلاهما راحة يده على جبهته عندما رؤيتي، وقال آي: «سأذكر ما حييت كيف قتلت عملاقتين وليس واحدةً فقط، وكيف تبولت إيريس على هانا، وقد فوجئت أن كلبتك لا تريد فعل الأمر نفسه».

وقفت ليا بجانب العملاقة، ورفعت سيفها عالياً، وضربتها به ثلاث مرات فقط كي تفصل رأسها عن جسدها؛ صحيح أن الأميرة وريثة العرش، ولكنها مارست أعمال المزارعين في المنفى، وهذا ما عزز قوتها.

انحنت ليا ومسحت نصل سيفها بقطعة قماش من تنورة العملاقة الأرجوانية، وأعادته إلى غمده، ثمّ اتجهت إلى آيوتا فانحنى وحياها، وعندما نهض، أشارت إلى جثة العملاقة التي بلغ طولها عشرين قدماً، ثمّ إلى النافورة.

قال آيوتا: «سمعاً وطاعةً يا سيدتي».

اتجه إلى الجثة، واحتاج استعمال كلتا يديه رغم قوته وحجمه الكبير كي يرفع رأسها، وأرجحه إلى الأمام والخلف وهو يحمله إلى النافورة وقد نظرنا إليه جميعاً باستثناء إيريس؛ التي أجهشت بالبكاء بين ذراعي جايا.

صرخ آيوتا وتمزق قميصه من الجانبين عندما رفع الرأس وألقاه في النافورة، ونظرت عينا هانا المفتوحتان إلى قطرات المطر المتساقطة، مثل

التمثال الذي رأيته على طريقي إلى هذا المكان.

5

تقدمت المجموعة على أحد طرق دواليب الهواء، ومشينا حتّى لاح جانب القصر الخلفي أمامنا، وقد لاحظت أنه حي مجدداً، لعل النعاس تملكني ولكن بقيت قادراً على الرؤية، وأقسم إن بعض أبراجه قد غيّرت أماكنها، وكذلك الأمر نسبةً إلى السلالم المتقاطعة وأسوار الشرفات التي بدت حجريةً لوهلة، وزجاجيةً خضراء ذات أشكال سوداء ملتوية لوهلة أخرى، وفكرت في قصيدة القصر المسكون بقلم إدغار ألان بو والتي قال فيها:

يمر جمهور بشع مسرعاً على الدوام.

يريد أن يضحك ولكنه لا يعرف الابتسام.

وجدت حرفيّ اسم السيد بوديتش الأولى في مكانها، وكان النظر إليهما مثل لقاء صديق في المكان الخطأ، ثمّ وصلنا إلى أبواب التحميل الحمراء والعربات المحطمة المزدحمة أمامها، وتلتها الدعامات الخضراء الداكنة العالية، وقد التففت حولها وتبعني الجميع من دون أي اعتراض منهم رغم استغراق رحلتنا وقتاً أطول قليلاً.

قال آيوتا: «هل تسمع كيف يزداد عدد الأصوات؟».

قلت: «أجل».

«من أين تأتي؟ هل هم العفاريت أم الأموات؟».

«أعتقد أنها عاجزة عن إيذائنا، ولكن أشعر بوجود طاقة سيئة هنا».

نظرت إلى ليا التي حرّكت يدها اليمنى في شكل دائرة، وأدركت أنها تقول: «أسرعوا»، وفهمت قصدها؛ علينا أن نستغل ضوء النهار قدر الإمكان،

ولكن أردت أن أريها شيئاً مهماً، لأن رؤية ذلك المشهد يمثل بداية فهم الحقيقة التي أنكرتها طويلاً، والسبيل إلى تقبّلها.

6

انتهى الطريق المتعرج قرب البركة الواقعة وسط حلقة أشجار النخيل ذات الأوراق المنحنية بسبب قطرات المطر، واستطعت رؤية القطب العلوي في مركز الساعة الشمسية، ولكن الشمس تنحت عنه واحتلت الطرف المقابل بسبب رحلة رادار فيها، وتربع عليه قمرا إمبيس اللذان امتلكا وجهين وعيوناً تحركت بدورها... كي تنظر إلى بعضها، وكأنها تقدر المسافة الفاصلة بينهما، ورأيت علامة السيد بوديتش الأخيرة، وهي حرفا اسمه (أي بي)، ورسم سهم من قمة الحرف (أي) مشيراً إلى الساعة الشمسية مباشرةً.

والبركة.

نظرت إلى مجموعتي الصغيرة وقلت: «هلّا تفضلت معي يا سمو الأميرة؟ وابقوا جميعاً هنا حتّى أناديكم، وأنت كذلك يا رادار».

وافق الجميع من دون أسئلة أو احتجاج.

مشت ليا إلى جواري، واتجهنا إلى البركة، وأشرت إليها كي تنظر فيها، وترى ما بقي من الحورية الراقدة في قاع المياه الملوثة بالعفن، وقد برز عود الرمح من بطن إيلسا ومعه جزء من أمعائها الملتفة.

أصدرت ليا تأوهاً كان سيستحيل صرخةً قويةً إن استطاعت إخراجه، ووضعت يديها على عينيها قبل أن تنهار على أحد المقاعد حيث جلس الإمبيسيون ربما بعد رحلاتهم من بلداتهم وقراهم كي يتأملوا تلك الحورية الجميلة وهي تسبح في المياه، أو يستمعوا إلى أغنية تغنيها. انحنت ليا على فخذيها وسط أنين مكتوم وجدت فيه ألماً وفاجعةً أكبر منها في شهقات

الحزن الحقيقية، فوضعت يدي على ظهرها، وخشيت فجأةً أن عجزها عن الصراخ حزناً قد يقتلها، كما قد تعلق لقمة طعام في حلق شخص سيئ الحظ فيختنق ويموت.

أخيراً، رفعت ليا رأسها ونظرت إلى بقايا إيلسا الرمادية الباهتة مجدداً، ثمّ نظرت إلى السماء، وسالت الدموع وقطرات المطر معاً على وجنتيها الناعمين وصولاً إلى ندبة فمها، والقرحة الحمراء التي احتاجت تمسيدها رغم الألم كي تنفتح في كل مرة أرادت تناول الطعام، ثمّ رفعت قبضتيها إلى السماء الرمادية وهزتهما.

أمسكت يديها بلطف، وشعرت أنهما مثل صخرتين قبل أن ترخيهما، وتقبض على يدي، وانتظرت إلى أن نظرت إليّ.

«لقد قتلها قاتل الرحلة، أو ربما أمر أحدهم أن يقتلها؛ إذ كانت جميلةً، وتكره القوة التي تسيطر عليه الجمال كله – انطلاقاً من الفراشات، والأشخاص الطيبين مثل دورا التي كانت فرداً كاملاً يوماً، وصولاً إلى الأرض التي يجب أن تحكميها. إنه يحب العنف والألم والقتل، والرمادي أيضاً، وبالتالي هل ستقتلينه إن وجدناه، وعجزت أنا عن ذلك؟».

نظرت إليّ بريبة وقد اغرورقت عيناها بالدموع، ولكنها أومأت في النهاية.

«وإن كان إلدن؟».

هزت رأسها بعنف كما سبق لها أن فعلت، وأفلتت يدي، ثمّ خرج من البحيرة حيث استلقت الحورية الميتة صوتها الكئيب مرتعشاً: «لقد أحب إيلسا ولن يقتلها أبداً».

قلت في نفسي: «ليست تلك الإجابة نفياً قاطعاً».

مر الوقت، وبقيت ساعات معدودة على انتهاء النهار، وكنت أجهل مدى ضرورة حدوث قبلة القمرين فوق إمبيس كي تنفتح البئر المظلمة، وجل ما عرفته أنها ستؤدي إلى النتائج السيئة ذاتها حتّى وإن حدثت والقمران في القطب الآخر من العالم، وقد تربعا هناك على العمود المركزي المرتفع في الساعة الشمسية، وتحركت عيونهما ذهاباً وإياباً وكأنها تؤكد تلك الفكرة.

التفتت وناديت الآخرين.

7

مشينا حول الساعة الشمسية، في حين سارت رادار عبرها، وتوقفت قرب العمود المركزي بما يكفي كي تتبول إلى جواره، فتذكرت إيريس وجثة العملاقة.

اجتمعت طرق دواليب الهواء في واحد واسع مركزي انتهى إلى سبعة أبواب حاولت فتح الأوسط بينها، ولكنني وجدته مقفلاً، وأخبرته أن ينفتح باسم ليا غالين، وتمثل هذه العبارة النسخة الإمبيسية من «افتح يا سمسم»، فانفتح كما توقعت، ولكن حدث شيء آخر لم يكن في الحسبان؛ بدا أن البناء اهتز على وقع اسم الأميرة، وربما رأيت ذلك ولكن أحسسته بوضوح أكبر في قدمي كما حدث عندما سقط وزن هانا الميتة حديثاً على الأرض، والذي بلغ ألفاً وخمسمئة كيلوغراماً تقريباً.

فجأةً، صمتت مجموعة الأصوات الهامسة والتي تسمعها في رأسك أكثر منها عبر أذنيك، وبدا كأن القصر تطهر كلياً منها – وقد استعملت كلمة الطرد مع آيوتا سابقاً، ولست غبياً كي أعتقد ذلك، ولكن اتضح أن شخصاً آخر امتلك القوة إلى جانب قاتل الرحلة، وقلت في نفسي: «ستكون أقوى إن استطاعت التحدث بنفسها»، ولكنها عجزت عن ذلك حينها.

كشف الباب عن رواق واسع خلفه، واحتلت لوحة جدارية محيطه كما في مركز الحافلات، ولكن لطخت بالطلاء الأسود هذه المرة، وطمس كل شيء باستثناء بعض الفراشات الكبيرة القريبة من السقف، وتذكرت عناصر داعش مجدداً وكيف دمروا المعالم الثقافية التي بنتها الحضارات القديمة قبلهم.

كان هناك مجموعة أكشاك حمراء في منتصف الرواق، وقد وجدت شبهاً قليلاً بينها وبين أخرى مررت بجوارها كثيراً برفقة والدي خلال رحلاتنا إلى ملعب غرانتيد ريت من أجل مشاهدة فريق وايت سوكس. تمتم آيوتا وأشار إلى مكان ما: «أعلم أين نحن يا تشارلي، انتظر لحظةً».

ذهب واعتلى أحد المنحدرات، وألقى نظرةً، ثمّ عاد مسرعاً.

«إن المقاعد فارغة، وكذلك الملعب، لقد رحلوا، وأزالوا الجثث أيضاً».

رمقته ليا بنظرة مستاءة وكأنها تسأله: «ما الذي توقعته غير ذلك؟»، ثمّ قادتنا يساراً، فسلكنا ممراً دائرياً إلى جوار عدد من الغرف الصغيرة المحطمة، ورجحت أنها كانت غرف استجواب، هرولت رادار قريباً مني، واعتقدت أنها ستشعر وجود أمر مريب قبل أي منا، ولكنها بدت هادئةً في ذلك الوقت. تجاوزنا الغرفة الصغيرة الأخيرة قبل أن أقف في مكاني محدقاً، وكذلك رفاقي السجناء من دون أن تبدي ليا اهتماماً في الأمر الذي أدهشنا، وتابعت طريقها قبل أن تدرك أننا لا نتبعها، وأشارت إلينا بيدها بحركة دائرية مجدداً كي نسرع، ولكننت تجمدنا في أماكننا لبرهة.

استبدل لوح زجاج منحن بالجدار الجانبي الصخري هناك، وقد بلغ طوله ثلاثين قدماً تقريباً، وغطاه الغبار – مثل أي شيء آخر في القصر، ولكننا استطعنا رؤية ما خلفه تحت ضوء مصابيح الغاز المزودة بغطاء كي تبدو مثل الأضواء الكاشفة، وتكشف عن سرداب تكدس فيه ركام من القطع الذهبية تشبه ما رأيته في خزنة السيد بوديتش، وقدرت أنها تساوي مليارات

الدولارات الأمريكية، وتناثرت بينها ما وجب أن تكون أحجاراً كريمةً: الأوبال، واللآلئ، والزمرد، والألماس، والياقوت الأحمر والأزرق، كان السيد هينريك صائغ المجوهرات الأعرج سيصاب بذبحة قلبية إن رأى هذا المشهد.

همست: «يا إلهي».

بدا كل من آيوتا، وجايا، وإيريس مهتمين ولكن لم يبدُ الذهول عليهم.

قال آيوتا: «لقد سمعت عن هذا المكان، إنها خزينة إمبيس، أليس كذلك يا سيدتي؟».

أومأت ليا بصبر نافد، وأشارت إلينا أن نتبعها، وكانت محقةً، فعلينا أن نتحرك، ولكنني بقيت في مكاني قليلاً، محاولاً استيعاب وجود تلك الثروة الطائلة المخبأة، وتذكرت كم ذهبت كي أشاهد فريق وايت سوكس باستثناء يوم أحد مميز تابعت فيه مباراة فريق بيرز في ملعب سولدير، وقد امتلك ملعبا الفريقين خزائن زجاجيةً تعرض جوائزهم على طريقة ملعب الفراشات، وربما اعتاد العامة التوقف قبل مشاهدة المباريات كي يتأملوا ثروات المملكة التي حماها حراس الملك دون أدنى شك خلال فترة حكم أسرة غالين، وأخذت هانا مكانهم مؤخراً، وأجهل إن حصل السيد بوديتش على إذن الدخول إليها أم لا، ولكن لا يتجاوز ما جمعه في الحالتين أكثر من ملء جيبه إن صح القول.

أشارت ليا بإلحاح أكثر، ورفعت يديها من الأمام إلى كتفيها، فتبعناها، وألقيت نظرةً أخيرةً خلفي، وفكرت في أن أكوام القطع الذهبية ستغطيني حتّى عنقي إن قفزت بينها، ثمّ تذكرت كيف توفي الملك ميداس جوعاً لأن لمسته حولت كل شيء إلى ذهب، وحتى طعامه.

تسللت رائحة خفيفة إلى أنفي عندما بلغنا نهاية الممر حاملةً معها ذكريات ديب مالين السيئة؛ إنها رائحة النقانق. وصلنا إلى باب مزدوج مفتوح إلى اليسار، كاشفاً عن مطبخ ضخم خلفه، حيث اصطفت مجموعة من الأفران إلى جوار بعضها عند الجدار، إضافةً إلى ثلاثة مواقد، وأسياخ من أجل تحريك قطع اللحم، وبضع مغاسل كبيرةً كفايةً كي يستحم أحدهم فيها. هنا طُبخ طعام الحشود التي جاءت من أجل حضور المباريات، وكانت أبواب الأفران مفتوحةً حينها، والمواقد مطفأةً، ولا شيء يدور على الأسياخ، ولكن فاحت رائحة النقانق الخفية في الأرجاء، وقلت في نفسي: «سأمتنع عن تناول النقانق ما حييت، وكذلك شرائح اللحم».

انكمش أربعة رجال رماديين مقابل الحائط البعيد وسط بناطيلهم وستراتهم البيضاء الفضفاضة الشبيهة بملابس بيرسي، ولم أجده بينهم، ورفع أحد أولئك الرجال ذوي الحظ السيئ مئزره وغطى بقايا وجهه عند رؤيتنا، بينما اكتفى الآخرون بالتحديق إلينا، وقد تراوحت تعابير ما بقي من ملامحهم بين الحيرة والخوف، فدخلت المطبخ متجاهلاً محاولة ليا سحبي إلى نهاية الممر، وركع أفراد طاقم المطبخ على ركابهم واحداً تلو الآخر أمامي ورفعوا راحات أيديهم إلى جباههم.

قلت، وقد أخافتني سرعة تلبيتهم الأوامر: «لا، لا، انهضوا، لا نريد أذيتكم، ولكن أي بيرسي؟ أو بيرسيفال؟ أعلم أنه واحداً منكم».

تبادلوا النظرات، ثمّ التفتوا إليّ، ثمّ إلى كلبتي، وإلى آيوتا الضخم الواقف إلى جانبي... وألقوا نظرات خاطفةً خجولةً إلى الأميرة العائدة إلى القلعة أو منزلها القديم، ثمّ أنزل الرجل الذي غطى وجهه المئزر في النهاية، وتقدم إلينا وهو يرتجف، وسأعفيك من لهجته الغريبة، إذ كان كلامه واضحاً.

«لقد جاء جنود الليل من أجله واحتضنوه، فصعقته هالاتهم، وأغمي عليه، ثمّ حملوه بعيداً، أنا أجزم أنه مات لأن لمساتهم قاتلة».

أعلم ذلك، ولكن ليس دوماً، وإلا لقتلت قبل أسابيع طويلةً: «إلى أين أخذوه؟».

هزوا رؤوسهم جميعاً، ولكن خطرت لي فكرة جيدة؛ سيبقى بيرسي – بيرسيفال – على قيد الحياة ما دام لورد هاي يريد استجوابه.

في تلك الأثناء، رأت ليا شيئاً ما وأسرعت عبر الغرفة إلى طاولة تجهيز الطعام الكبيرة في المنتصف، حيث وُضعت حزمة من الأوراق المربوطة بواسطة خيط إلى جوار ريشة كتابة لوثها الشحم وغطى الحبر الداكن رأسها، فأخذتهما معاً، وأشارت إلينا كي نتحرك، وكانت محقةً طبعاً، ولكن وجب عليها أن تحتمل زيارةً جانبيةً قصيرةً إلى المسكن الذي زرته سابقاً؛ فأنا مدين لبيرسيفال، وكلنا كذلك، كما أنني مدين إلى كيلين، أو لورد هاي، أيضاً.

أريد أن أنتقم منه، ونعلم جميعاً أن الانتقام قاس.

9

انتهى الممر قريباً من المطبخ عند باب طويل غطته شبكة من الألواح الحديدية الكبيرة، عُلقت عليه لافتة بارتفاع ثلاث أقدام، فدققت النظر إليها، واستطعت قراءة كلمتي: «الدخول ممنوع»، وعندما أصبحت في نطاق رؤيتي المحيطية التي افتقر كلا إليها، تحولت الكلمات إلى رموز قديمة متداخلة تيقنت من قدرة رفاقي على قراءتها بوضوح.

أشارت ليا إليّ، فاقتربت ونطقت الكلمات السحرية، فيتحرك كل مزلاج إلى الطرف الآخر، وأصدر الباب صريراً، وانفتح جزئياً.

قالت إيريس: «كان يفترض بك أن تُجرب هذا الأمر في ديب مالين كي تقينا من معاناة كبيرة».

أمكنني القول إن الفكرة غابت عن ذهني، وهذا ما حدث، ولكنها ليست الحقيقة كاملةً، فأجبتها: «لم أكن الأمير بعد، بل...».

سألتني جايا: «بل ماذا؟».

قلت في نفسي: «بل كنت في طور التغيير، وأدت ديب مالين دور شرنقتي».

أنقذتني ليا من ذلك السؤال، وأشارت إليّ بإحدى يديها، وشدت بقايا سترتي بيدها الأخرى، وكانت محقةً؛ إذ وجب أن نوقف نهاية العالم.

كشف الباب عن رواق واسع تدلت على جدرانه منسوجات صورت كل شيء انطلاقاً من حفلات الزفاف الملكية والحفلات الراقصة وملابس الناس التنكرية فيها، إلى مشاهد الصيد والمناظر الطبيعية من الجبال إلى البحيرات، وعرضت واحدة مميزة صورة سفينة شراعية علقت بين مخالب كائن قشري عملاق بارزة من تحت سطح المياه، ثمّ مشينا نصف ميل تقريباً قبل الوصول إلى أبواب مزدوجة بلغ ارتفاعها عشر أقدام، وعُلق على أحدها راية حملت صورة رجل عجوز يرتدي رداء أحمر غطاه من رقبته وحتى قدميه، واعتلى رأسه تاج قاتل الرحلة نفسه، وحمل الباب الآخر صورة امرأة أكثر شباباً، وضعت تاجاً أيضاً فوق شعرها الأشقر المجعد.

قالت جايا في صوت ورع وناعم: «إنهما الملك جان والملكة كوفا، لقد امتلكت والدتي وسادةً رُسم وجهاهما عليها أيضاً، ومنعتنا عن لمسها أبداً، ناهيك عن وضع رؤوسنا عليها».

انفتح البابان إلى الداخل بعد أن دفعتهما ليا من دون أن أقول اسمها أمامهما، ودخلنا كي نجد أنفسنا على شرفة واسعة، وبدا أن القاعة الواقعة تحتها فسيحة أيضاً دون أن نتأكد من ذلك بسبب ظلمتها الحالكة، ولكن اتجهت ليا إلى اليسار وانسلت وسط الظلام حتّى اختفت تماماً، ثمّ سمعت صوت صرير خافت تلته رائحة الغاز وانطلق حفيف ضعيف من الظلام فوقنا

وحولنا، قبل أن تضيء مصابيح الغاز واحداً تلو الآخر، ثمّ كل اثنين معاً، وبعدها كل ثلاثة، حتّى تجاوز عددها المئة تقريباً على الجدران حول القاعة الكبيرة، وصولاً إلى مجموعة حملتها ثريا عملاقة؛ أعلم أنك تقرأ كلمات (كبير، وعظيم، وهائل) كثيراً، ولكن حاول الاعتياد عليها، إذ كانت تلك حال كل شيء... على الأقل حتّى وقوعنا في كابوس رهاب الاحتجاز الذي سأقصه عليك قريباً.

أدارت ليا عجلة صمام صغيرةً، فازدادت شدة إضاءة المصابيح الغازية، وتبين أن الشرفة معرض في الحقيقة، واصطف مقابل جدرانها كراس ذات مسند ظهر مرتفع، وتربعت تحت أقدامنا غرفة دائرية ذات بلاط أحمر لامع، واحتلت منصة مركزها حاملةً عرشين أحدهما أكبر قليلاً من الآخر، وتناثرت حولها كراس (كانت محشوةً أكثر من تلك على الشرفة)، إضافةً إلى أرائك صغيرةً تشبه المقاعد المزدوجة.

فاحت رائحة كريهة وكثيفة جداً إلى درجة أنها قد تتجسد أمامك وتلمسها، ولاحظت وجود أكوام من الطعام المتعفن المرمي في الأرجاء، وملأت اليرقات بعضها، وهذا ليس كل شيء، إذ تناثرت أكوام من الغائط على البلاط، إضافةً إلى كتلتين كبيرتين على العرشين، كما لطخت الدماء الجدران، وجفت كي يتحول لونها إلى الأحمر الداكن، واستلقت جثتان مقطوعتا الرأس دون حراك تحت الثريا، وتدلت اثنتان إضافيتان عن طرفيها، وكأنهما تحاولان الحفاظ على توازنها، وقد تجعد الوجهان – وتحنطا تقريباً – مع مرور الوقت، وتمطط عنق كل منهما طويلاً جداً لكن دون الانفصال عن الرأس، وبدا المشهد أمامنا مثل النظر إلى النتائج الكارثية التي خلفتها حلفة قتل شنيعة.

سأل آيوتا في همسة خشنة: «يا إلهي، ماذا حدث هنا؟».

ربتت الأميرة ذراعي، وقد خيّم الحزن والإرهاق على وجهها عديم الفم، وكانت تحمل إحدى الأوراق التي أحضرتها من المطبخ، وقد كتبت وصفة معقدة على أحد جانبيها في خط متصل سيئ، وحمل الوجه الآخر ما كتبته ليا في خطها الجميل: كانت هذه قاعة استقبال والدي ووالدتي، ثمّ أشارت إلى إحدى الجثتين المعلقتين على الثريا، وكتبت: أعتقد أنه مستشار والدي، ويدعى لودوم.

وضعت ذراعي حول كتفيها، فأمالت رأسها قليلاً إليها، ثمّ ابتعدت.

سألتها: «ألم يكتفِ القاتل بقتلهم، لماذا دنس هذا المكان؟».

أومأت ليا وقد بدت ضجرة، ثمّ أشارت إلى سلسلة أدراج خلفي، وقادتنا عبرها نزولاً حتّى وصلنا إلى مجموعة أخرى من الأبواب المزدوجة بطول ثلاثين قدماً على الأقل، أي كان باستطاعة هانا دخولها من دون أن تنحني.

أشارت ليا إلى آيوتا، ووضعت راحتي يديها على البابين وانحنت إلى الأمام كي تدفعهما عبر مسارهما الخفي، ففعل آيوتا ذلك، والتفتت ليا حينها إلى عرشي والديها حيث استمعا يوماً إلى مطالب رعاياهما، وركعت على إحدى ركبتيها واضعةً راحة يدها على جبهتها، وتساقطت دموعها على البلاط الأحمر القذر.

صمتاً، صمتاً.

10

تتفوق الغرفة خلف قاعة الاستقبال كثيراً على نظيرتها في كنيسة نوتردام؛ لقد بدت خطواتنا نحن الخمسة وكأنها صادرة عن كتيبة جنود بسبب الصدى، كما عادت تلك الأصوات الهامسة المتداخلة الخبيثة إلى مسمعنا.

ارتفعت الأبراج الثلاثة فوقنا مثل أنفاق عمودية وقد ملأتها الأضواء الخضراء الخافتة المنغرسة في أنقى أنواع خشب الأبنوس، ورصعت مئات آلاف قطع البلاط الصغير الأرضية تحتنا كي ترسم صورة فراشة ضخمة، ورغم ما أصابها من تخريب، إلا أنها حافظت على شكلها، واحتلت منصة ذهبية المكان تحت البرج المركزي، وانتصب في وسطها سلك فضي ضخم شق طريقه عبر الظلام، وتوضعت قاعدة إلى جواره برزت عجلة ضخمة من جانبها، فأشارت ليا إلى آيوتا، ثمّ إلى العجلة، ومثلت حركة التدوير بواسطة يديها.

تقدم آي، وبصق في يديه، وبدأ التدوير؛ آي رجل قوي، واستمر في العمل فترةً جيدةً من دون تلكؤ، ثمّ أخذت مكانه حين تراجع أخيراً، وقد كان عملاً شاقاً رغم حركة العجلة الثابتة، إذ شعرت بعد عشر دقائق وكأنني أدور ذلك الشيء اللعين وسط الغراء، ثمّ ربتت إيريس ظهري وأرادت تولي زمام الأمور، وأنجزت دورةً واحدةً قبل أن تستسلم وتوكل المهمة إلى جايا، صحيح أن الأخيرة بذلت جهداً رمزياً، ولكن ضير من رغبتها في المساهمة.

سألتُ ليا: «ما الذي نفعله ولماذا في حال اتجه قاتل الرحلة إلى الأسفل؟»، كان واضحاً أن المنصة الذهبية مصعد ينقلنا إلى قمة البرج المركزي، ولكنه بقي ساكناً في مكانه.

سمعت همسةً غامضةً فحواها: «يجب علينا ذلك»، وأعتقد أنها ليا، التي وضعت يديها على حنجرتها وهزت رأسها، وكأنها تقول إن أسلوب كلامها صعب التطبيق الآن، ثمّ وضعت ورقة وصفة أخرى على ظهر جايا وكتبت عليها باستخدام ريشة الكتابة التي كان حبرها باهتاً جداً، ولكنني استطعت قراءة الجملة كاملةً حين أنهتها.

يجب أن نصعد كي ننزل، ثق بي.

وهل لديّ خيار غير الوثوق بها؟

الفصل التاسع والعشرون
المصعد- السلم اللولبي- جيف- لورد هاي.
«ستؤدي ملكة إمبيس واجبها»

1

أصبحت العجلة أقسى خلال دور آيوتا الأخير إلى درجة صرخ فيها في كل ربع دورة، واستطاع تحريكها ست مرات، ولم يتمكن من تحريكها أكثر من بضع بوصات في المرة الأخيرة، ثمّ صدر فجأةً من مكان ما فوقنا رنين ناعم تردد صداه في الأرجاء قبل أن يتلاشى تماماً، فأشارت ليا إلى آي كي يتراجع، ثمّ أشارت إلى المنصة، وبعدها أشارت إلينا، ورفعت ذراعيها في الهواء وعانقت الخلاء.

سألتها: «هل تقصدين أن نقترب من بعضنا؟».

أومأت ولجأت إلى أسلوب كلامها المرهق مجدداً، ثمّ قبضت على عنقها وسالت دموع الألم على وجنتيها، وقد أردت تجنب تخيّل وجود شريط من الأسلاك الشائكة حول عنقها، ولكنني عجزت عن ذلك.

«الكلبة. الوسط. الآن».

بدأنا صعود المنصة باستثناء رادار، إذ تراجعت وانكمشت على نفسها قلقةً، وبدأت المنصة ترتفع فور أن وقفنا جميعاً عليها.

صرختُ: «هيّا اقفزي يا رادار».

اعتقدت لبرهة أنها ستتخلف عنا، ولكنها ثنت قائمتيها الخلفيتين وقفزت، فأمسكها آيوتا من طوق عنقها الذي خسرنا لجامه قبل فترة، وأفسحنا مكاناً لأجلها في الوسط، حيث جلست ونظرت إليّ وأنّت؛ لقد أدركت ما تشعر به، إذ بالكاد اتسعت لنا المنصة.

ارتفعنا عن الأرض شيئاً فشيئاً، كنا نستطيع القفز من ارتفاع ست أقدام من دون أن نتأذى، ومن ارتفاع اثنتي عشرة قدماً من دون أن نموت، ولكننا استبعدنا فكرة القفز عند وصولنا إلى ارتفاع ثماني عشرة قدماً.

وقف آي على أحد جانبي المنصة ورؤوس أصابع قدميه خارج حافتها، وأنا على الطرف المقابل وربع قدمي الخلفي على الأقل خارجها، بينما اجتمعت إيريس وجايا وليا في الوسط، وجلست رادار بين قدمي ليا. وصلنا إلى ارتفاع سبعين قدماً عن سطح الأرض، فشعرت أن الهواء مُحمّل بالغبار، وكنت واثقاً أنني إذا عطست سأتعثر وأسقط، وهذا المصير وصمة عار في حق الأمير المنتظر.

همست الأصوات وتداخلت مع بعضها، ولكن استطعت سماع جملة واحدة بوضوح: «إن وضع والدك الذهني يتدهور».

بدأت جايا تتأرجح، فأغمضت عينيها قائلةً: «لطالما كرهت المرتفعات، بما فيها شرفة الحظيرة العلوية، أعجز عن الاستمرار، أنزلوني».

ترنحت في مكانها، ورفعت ذراعيها ودفعت إيريس كي تصطدم بآيوتا، فأوشك أن يسقط عن الحافة، وهنا نبحت رادار، إن ذعرت وتحركت بيننا، فستسقط ليا، وأهوي خلفها.

صرخ آيوتا بخشونة: «أوقفي تلك المرأة يا إيريس قبل أن تتسبب بموتنا جميعاً».

انحنت ليا إلى الأسفل قليلاً فوق رادار كي تمد إيريس ذراعيها وتحتضن جايا قائلةً: «أغمضي عينيك يا عزيزتي وتظاهري أنك تحلمين».

أغمضت جايا عينيها، ووضعت يديها بالقرب من عنق إيريس.

ازدادت برودة الهواء على ذلك الارتفاع، وبدأت أرتجف مع أنني كنت أتعرق بشدة، ثمّ شعرت أن نسمةً خفيفةً همست إلي: «أريدك أن تمرض، امرض وانزلق، انزلق واسقط».

تحولت الأرضية الحجرية إلى مجرد مربع صغير وسط الظلام، وصفرت الرياح، وسمعت صوت صرير عبر جوانب البرج الحجرية تارةً، والزجاجية تارةً أخرى.

همست الأصوات: «ستمرض وتنزلق، وستسقط بعدها بالتأكيد».

مضى بنا المصعد صعوداً إلى الأعلى، وقد أثار ذلك جنوني لأن قاتل الرحلة في مكان ما تحتنا، ولكن فات الأوان على تغيير خطتنا الآن، ولم يكن بوسعي سوى الدعاء أن تكون ليا مدركة لما تفعله.

مررنا بجوار مجموعة من الدعامات الحجرية المصقولة التي تغطيها طبقة سميكة من الغبار، حتّى أحاطنا الزجاج الأخضر، ورأيت أشكالاً سوداء

تسبح ضمنه، ثمّ أخذت الجدران تضيق علينا.

فجأةً، توقفت المنصة.

وضاق البرج فوقنا، واستطعت تبين شيء هناك في الأعلى وسط الظلام الدامس، لعله رصيف المنصة التالي، ولكنه يبعد أربعين قدماً على الأقل عن المكان الذي نحتشد فيه حول كلبة توشك أن تتحرك في أيّ لحظة، ولا يفصلنا عن الأرض سوى مسافة شاسعة فارغة.

سألت إيريس: «ماذا يحدث؟ ولماذا توقفنا؟»، وقد تخلل الرعب صوتها الخافت، هنا حرّكت جايا ذراعيها ودفعت آيوتا مجدداً، فلوح بذراعيه كي يحافظ على توازنه.

صرخ بصوته الخشن: «يفضل أن تسألي كيف السبيل إلى النزول عن هذه المنصة اللعينة. هذا ما أعده بالمأزق الشنيع!».

تابعت ليا السلك الفضي بعينيها القلقتين إلى أعلى.

قال آي ضاحكاً: «لم نعبر سوى نصف المسافة، وها نحن نقف الآن على ارتفاع أربعمئة قدم محتشدين مثل الأغنام».

فكرت أن أصرخ عبارة: «ارتفعي باسم ليا غالين»، مع أنني أعرف سخافة ذلك، إلا أنني أردت تجربته قبل أن تتحرك المنصة مجدداً، وجاء دوري حينها كي ألوح بذراعي وأحافظ على توازني، وربما كنت سأسقط ما لم تطوق ليا عنقي بذراعيها بقوة منعتني عن التنفس لثوانٍ، ولكنني لم أجد الشكوى من ذلك مناسبة وقتها.

نهضت رادار وتأرجحنا جميعاً في انسجام تام، وبدا أن المنصة تضيق علينا حقاً، إذ اقتربت جدران البرج المنحنية كثيراً إلى حدّ كنا نستطيع لمسها، نظرت إلى الرصيف في الأعلى ودعوت أن نصل إليه قبل توقف المصعد مجدداً، أو هبوطه إلى الهاوية.

ولكن حدث العكس؛ توقفت المنصة قرب الرصيف، وصدر رنين آخر أعلى من سابقه، فركضت رادار دافعةً ليا ناحية إيريس وجايا، وتمايلن جميعاً وسط الظلام، فاصطدمت ليا وجايا، ودفع آيوتا إيريس، وسقطنا جميعاً على الأرض فوق بعضنا، مثل المهرجين عندما يخرجون من السيارة الصغيرة في السيرك، فضحكت وكذلك فعل آيوتا، ثمّ ضحكت إيريس وجايا وسط دموع الأخيرة، وعانقنا بعضنا.

نظرت ليا إلى ظهر رادار، ومدت يدها إليّ، فصافحتها وشددت عليها، وبادلتني ذلك أيضاً.

قال آيوتا: «أود أن أعرف ما هذا المكان اللعين ولماذا جئنا إليه؟».

أشرت إلى ليا ورفعت كتفي مستهجناً وقلت في نفسي: «إنها خطتها».

2

كان الرصيف صغيراً ومن دون سياج على حوافه، ولكننا استطعنا الوقوف في صف بشكل آمن أكثر مما كنا عليه على المنصة الذهبية المربعة التي هبطت إلى الأسفل تاركةً إيانا في الأعلى.

أشارت ليا إلى يمينها، فتقدمنا آيوتا في ذلك الاتجاه وهو ينظر إلى الهاوية المظلمة حيث نزلت المنصة، في حين نظرت جايا بثبات على الجانب البعيد من البرج، وتبعناه جميعاً ممسكين أيدي بعضنا مثل مجموعة من الدمى الورقية، وربما كان تصرفاً غبياً لأنه إذا فقد أحدنا توازنه سنسقط جميعاً عن الحافة، ولكننا تابعنا سيرنا.

في نهاية المطاف، وصلنا إلى قوس منخفض، فأفلت آيوتا يد إيريس وتجاوزها حانياً ظهره، وتبعته رادار، ثمّ جايا وليا، ودخلت خامساً بعد إلقاء نظرة أخيرة على المنصة الهابطة قبل أن تختفي في الأسفل.

وجدنا أنفسنا في قمة البرج الأيمن، وأوشكنا أن نصل إلى نظيرته في البرج المركزي، ولكن وقفنا أمام ممر ضيق ملتو وراء القوس وفي نهايته فوهة أخرى، فشقت ليا طريقها إلى مقدمة موكبنا الصغير، وأمسكها كل منا من خصرها خلال مرورها أمامه، واستطعت سماع صوت أنفاسها القوية عندما اقتربت مني، وتساءلت عن مقدار الجهد الذي تبذله خلال كلامها أو عندما تناولت وجبتها الأخيرة، وكنت واثقاً أنها تابعت طريقها ولم تتناول شيئاً منذ ذلك الحين... وتلك حالنا جميعاً.

عاودنا السير بخطوات حذرة متعاقبة إلى قمة البرج الثاني، فهمست لجايا: «هل أسعدتك مرافقتنا؟».

أجابتني هامسةً: «اصمت يا مولاي الأمير».

أفضى الممر الضيق إلى قوس آخر على الجانب البعيد من البرج، وقد أغلقه باب خشبي بلغ ارتفاعه خمس أقدام تقريباً، واستطعنا تجاوزه دون استخدام الكلمات السحرية؛ إذ فتحت ليا قفلاً علوياً، واستعملت يديها كي تحرك مزلاجين، وعرفت عندها أنه سبق لها أن أتت إلى هنا برفقة إلدن طبعاً، وتخيلت كيف اكتشف الولدان المستضعفان المنسيان في طفولتهما الأسرار القديمة المخبأة في القصر الذي يحتوى أكثر من سبعين أو مئة قوس، إضافةً إلى مواجهتهما الموت على تلك المنصة، ناهيك عن الأماكن الخطيرة الأخرى التي نجهلها (كيف أمكنهما تدوير العجلة وتشغيل المصعد؟)، إن بقاءهما على قيد الحياة خلال رحلاتهما أعجوبة، وكنا لنعيش مستقبلاً أفضل لو أن إلدن قُتل وقتها.

ما إن فُتح الباب حتّى سمعنا صوت صفير الرياح الخافت في الخارج، فتذكرت نحيب هانا على جثمان ابنتها الراحلة، ورأيت أمامي رصيفاً آخر لا يتسع إلا لشخص واحد (أو طفلين صغيرين فضوليين يقفان بالقرب من بعضهما).

دخلت ليا أولاً، وتبعتها كي أجد نفسي على قمة برميل ضيق يمتد حتّى الأرض، وانتصب إلى يسارنا جدار صخري، وتحركت إلى يميننا تلك الخطوط السوداء عالياً ببطء وسط الزجاج الأخضر المنحني، الذي كان عاتماً وثخيناً، ومع ذلك يتيح لضوء النهار أن يخترقه وينير طريقنا إلى الأسفل، وهو سلم حلزوني دون سياج على حافته، حاولت حينها لمس الزجاج فحدث شيء مذهل؛ تكاثفت الخطوط السوداء معاً، واندفعت إلى المكان الذي وضعت يدي عليه، فسحبتها سريعاً كي تتابع الخطوط حركتها البطيئة.

قلت في نفسي: «تستطيع تلك الأشياء رؤيتنا والاحساس بنا، كما أنها تبدو جائعة».

أخبرت الآخرين: «تجنبوا لمس الزجاج، أعتقد أن تلك الخطوط عاجزة عن اختراقه، ولكن لا جدوى من استفزازها على أيّ حال».

سألت جايا: «ماذا تعني كلمة استفزاز؟».

«انسي أمرها، كل ما أقوله هو أن تتجنبوا لمس الجدار الزجاجي».

تقدمتني ليا عشر درجات إلى الأسفل، وأشارت لنا بيديها مجدداً أن نسرع، مثل الحكم عند إعلانه عن ضربة تسجيل نقطة في مباراة كرة القاعدة.

بدأنا طريقنا إلى الأسفل.

3

تقدمت المجموعة برفقة ليا، وتلانا رادار وآيوتا ثمّ جايا، وأخيراً إيريس، وقد فضلت السلالم أكثر من منصة المصعد لأنها لم تكن مخيفة بقدر المنصة، ولكن التفافها ودورانها حافظا على خطورتها، ناهيك عن جعلنا في حال دوار (باستثناء رادار على ما أعتقد) ازدادت كلما نظرنا إلى مركز السلم في الأسفل.

نزلنا مئة درجة تقريباً حتّى وصلنا إلى باب صغير آخر تجاوزته ليا، ولكن انتابني الفضول فحدقت عبره إلى أرجاء الغرفة الطويلة العفنة والمغبرة والمليئة ببعض الأشكال المظلمة المغطى بعضها بالملاءات، فأدهشتني فكرة أنني أنظر إلى علية هائلة، ثمّ أدركت ضرورة وجودها في كل قصر، ولكن لا يتكبد المؤلفون عناء ذكرها في القصص.

ازدادت سماكة الجدار الزجاجي وأصبحت الإضاءة أضعف كلما نزلنا أكثر، ووصلنا إلى باب آخر، حجب خلفه ممراً أضاءته مجموعة من مصابيح الغاز ذات النيران الضعيفة، وقد انطفأ بعضها، وافترشت الأرض سجادة مجعدة ومغبرة.

«تمهلي يا ليا».

نظرت ليا إليّ ورفعت راحتي يديها إلى الأعلى.

«هل توجد أبواب أخرى في طريقنا إلى الأسفل؟ وهل يؤدي بعضها إلى أقسام مختلفة من القصر، مثل غرف المعيشة؟».

أومأت ليا، وحركت يديها بشكل دائري مجدداً، أي وجب علينا أن نمضي قدماً.

« هل تعرفين مكان شقة تحوي مصابيح كهربائيةً بدل الغازية؟»، وأعتقد أنني استعملت كلمة غرفة بدل شقة، ولكن ليست هذا ما أثار حيرتها، بل كهربائيةً، فهي تعرف معنى كلمة الكهرباء بالمقدار نفسه الذي تعرف فيه جايا معنى كلمة استفزاز.

قلت: «أقصد أضواءً سحريةً».

فهمت قصدي حينها، ورفعت ثلاثة أصابع، ثمّ أربعاً.

سألت جايا: «لماذا توقفنا؟ أريد الوصول إلى الأسفل بعيداً عن هذه السلالم».

قال آيوتا: «انتظري قليلاً، أعلم ما يريده تشارلي، أو لديّ فكرة على الأقل».

فكّرت في سؤال ليا إن كان السيد بوديتش قد ركّب أضواءً سحريةً ومولداً من أجل تشغيلها، ولكن علمت ذلك مسبقاً من جملة قالها: «يعطي الجبناء الهدايا»، ولعله فعل ذلك قبل فترة طويلة نظراً إلى طراز المولد القديم، وربما حين كان اسمه أدريان بدلاً من هاورد.

اعتقدت أن جناح الملك والملكة الخاص أحد الأماكن القليلة التي حصلت على الطاقة الكهربائية من المولد الذي يشغله العبيد، ولكنه ليس وجهتنا.

أشارت ليا إلى الأسفل أكثر من مرة مؤكدةً أنها تفكر في أمرين فقط: إيجاد قاتل الرحلة قبل أن يفتح البئر المظلمة، والتأكد من أن الطاغية ليس شقيقها، ولكنني مهتم في شيء آخر أيضاً، فأنا جرّبت جحيم ديب مالين، وكذلك آيوتا والمرأتان اللتان اختارتا القدوم معنا.

«ليس الآن يا ليا. أنصتي إليّ، هل تتذكرين وجود جناح يضم غرفةً تنيرها تلك المصابيح السحرية، وتملك أريكةً زرقاء مخمليةً طويلة؟ إضافةً إلى طاولة عليها بلاطة رُسم عليها حصان وحيد القرن وكأنه يرقص، هل تتذكرين شيئاً كهذا؟».

اتسعت عينا ليا، وأومأت.

«هل توصلنا هذه السلالم إلى باب ذلك الجناح؟».

وضعت ليا إحدى يديها على السيف والأخرى على الخنجر ورمقتني بنظرة ساخطة، ثمّ أشارت بقوة إلى الأسفل.

لقد اعتدت اللغة المحكية من وقتي في مالين، وقلت: «لا، لا يا سيدتي، أخبريني وإلا سنفترق من هنا، أخبريني».

أومأت ليا على مضض.

قلت: «ما زال النهار طويلاً، وهناك أمور أخرى علينا الاهتمام بها، ولذلك خذينا إلى هناك»، وربما استعملت كلمةً أخرى غير طويل.

سألت جايا من الخلف: «أيّ أمور؟».

«أعتقد أننا سنجد لورد هاي هناك».

قالت إيريس: «يجب أن نذهب مباشرةً، إذ عليه الإجابة عن أسئلة كثيرة».

فكرت: «أنت محقة».

4

تجاوزنا ثلاثة أبواب خلال نزولنا المستمر، وساورني شك في أن ليا تريد تجاوز جناح كيلين الفاخر المزود بالكهرباء، ولكنها توقفت أمام باب آخر وفتحته فأجفلت وتراجعت مباشرةً، فأمسكتها بإحدى يدي وسحبت بالأخرى مسدس السيد بوديتش قبل أن أنظر عبر الباب، وأسرعت رادار ووقفت أمامي تهز ذيلها، ثمّ نظرت إلى ليا غوجدتها تضع راحة يدها على جبهتها، ليس من أجل التحية، بل في إيماءة يائسة من امرأة تشعر أن مصائبها مستمرة إلى الأبد.

كان السناب في الممر خلف النقطة التي كان الباب المتأرجح عندها، واقتربت رادار تهز ذيلها وشمته بين قرنيه، ثمّ جثمت على الأرض، فقفز على ظهرها.

حدق آيوتا مذهولاً من خلفي وقال: «تعلم جميع الطرق أيها السيد سناب أليس كذلك؟ كيف وجدتنا؟».

خطرت لي فكرة حيال ذلك، إذ أمكن كلاوديا والسناب التواصل عبر التخاطر، وبالتالي ربما تعقبنا السناب عبر تقنية تشبه نظام تحديد المواقع العالمي التخاطري، أعلم أنه تفسير غير منطقي، ولكن غير منطقي بالقدر نفسه عند الحديث عن حورية بحر تملك القدرة نفسها، أو ساعة شمسية تعيد للمرء شبابه.

أما كيف وصل السناب إلى هذا المكان، فأعتقد أن ليا ليست وحدها من عرفت طرق القصر السرية، إضافةً إلى قدرة صرصار الليل أن يجوب أماكن يعجز البشر عنها، وقد رأيت ذلك شخصياً في ديب مالين.

سألت إيريس: «لماذا جاء؟ هل يريد إرشادنا؟».

لقد فات الأوان على ذلك لأنني تعرفت إلى المكان الذي نقف فيه مع أن آرون قادني إليه من طريق مختلف، ولكنني أمام الممر الواسع نفسه الذي تنيره مصابيح الغاز الموجودة ضمن الزجاجات الفاخرة، والبساطات الجدارية المزخرفة، والتماثيل الرخامية ذاتها، رغم سقوط أحدها أرضاً وانقسامه إلى نصفين؛ إنه التمثال الذي يشبه كثولو... ربما لا يكون تحطمه خسارة كبيرة.

وضعت يدي على ركبتي واقتربت من السناب حتّى أوشك وجهانا أن يتلامسا، وحدق إليّ من دون خوف من حيث يقف على عنق رادار، ثمّ قلت: «لماذا جئت إلى هنا؟ هل كنت تنتظرنا؟ ما قصتك؟».

قالت كلاوديا شيئاً عن ضرورة تصفية الذهن، وقد حاولت فعل ذلك، وأعتقد أنني أنجزت عملاً جيداً نظراً إلى الظروف وضغط الوقت اللذين أثقلا كاهلنا، وفي حال أرسل السناب بضع رسائل عبر التخاطر، فقد كانت غير متوافقة مع طول موجتي.

ولكن استقبلها شخص آخر.

قالت جايا: «يتمنى السناب أن تبقى في صحة جيدة أيها الأمير تشارلي، وتنجح في مسعاك».

اعتقدت أنها اختلقت ذلك بطريقة ما، أو قالته لأنها تتمنى حدوثه، ولكنني بدّلت رأيي بعد أن أخبرتنا شيئاً آخر.

أنصت آيوتا، وابتسم كاشفاً عن فراغات كبيرة بين أسنانه وقال: «حقاً؟ هذا لا يصدق! (لقد استخدم عبارةً أخرى، ولكن هذا ما سمعته)، دعني أتولَ هذا الأمر يا تشارلي، ما رأيك؟ اعتبره معروفاً من أجل شخص قضى وقتاً أكثر منك في ديب مالين».

سمحت له بذلك، وإن عاد بي الزمن لمنعته واستعملت مسدسي، وكان السناب سيخبر جايا حيال أي شيء يعرفه، ولعل هذه الأفكار تخفف عني أحياناً ولكنها غير كافية أبداً؛ يبقى الجهل عاجزاً عن تغيير أيّ غلطة اقترفت في تاريخ العوالم كلها.

5

لاحظت وجود فتحة كبيرة في الألواح الخشبية خلف قاعدة التمثال ذي المجسات المخيفة، وذكرتني بمصباح الغاز في ديب مالين، ثمّ سمعنا صوت صفير الهواء من المساحات الفارغة خلف الجدار، وفاحت رائحة سيئة.

قال آيوتا: «لقد خرج السيد الصغير من هنا، إنه يستحق الثناء حقاً»، ثمّ تقدم موكبنا وتبعته ليا على مقربة منه، وقد حاولت أن أمشي إلى جوارها، ولكنها تابعت طريقها من دون أن تلتفت إليّ، ومشت رادار والسناب على ظهرها، وبقيت جايا وإيريس في الخلف. مررنا بجوار المرايا ذات الأطر الذهبية التي سبق لي أن رأيتها، ثمّ وصلنا أخيراً إلى باب مصنوع من خشب الماهوجاني الذي يؤدي إلى جناح لورد هاي، وتوقعت أن هذا

الجناح كان في الماضي للودوم مستشار الملك جان، لأنه من الأجنحة القليلة التي تصلها الكهرباء، ولكنني لم أكن واثقاً من ذلك.

سحبتْ ليا خنجرها، وأخرجتُ مسدسي، ولكن بقينا خلف آيوتا الذي التفت إلى جايا وحرّك شفتيه من دون صوت قائلاً: «خلف الباب؟».

أومأت جايا، فطرقه آيوتا بقوة بيده الكبيرة القذرة وقال: «هل هناك أحد؟ هل نستطيع الدخول؟».

أدار المقبض (الذهبي طبعاً) ولم ينتظر الإجابة، ووضع كتفه على الباب ودفعه، فخرج صوت تأوه من الداخل، فشد آيوتا الباب إليه ودفعه بقوة مجدداً، فسمعنا التأوه مرةً أخرى، ولذلك أعاد آيوتا الكرة خمس مرات، ونبحت رادار، وعندما سحب الباب إليه مجدداً، سقط رجل فجأةً من خلفه إلى البساط الأحمر السميك الممدود على أرضية الممر، وقد سالت الدماء من جبهته وأنفه وفمه، وكان يحمل سكيناً طويلاً في يده، ثمّ التفت كي يرانا، وتعرفت إليه مباشرةً؛ إنه الرجل ذو الندبة الذي همس إلى بيترا في جناح الشخصيات المهمة، وقد رفع سكينه ولوح بها، مسبباً جرحاً سطحياً في مقدمة ساق آيوتا المشعرة.

قال آيوتا: «لا، لا، توقف عن هذا أيها الصغير»، وداس على رسغه وضغط حتّى انفتحت يد الرجل ذو الندبة وألقى السكين على الأرض، فالتقطتها ووضعتها في حزام الكونشو في الجهة المقابلة لقراب المسدس.

ركعت ليا على ركبتيها إلى جواره، وقد تعرف إليها وابتسم، وسالت الدماء من شفتيه المتشققتين، وقال: «أدعى جيف أيتها الأميرة ليا. لقد وضعت ضمادةً على ذراعك عندما جرحتها في طفولتك، هل تتذكرين ذلك؟».

أومأت ليا.

«كما أخرجت فرسك الصغيرة من حفرة الوحل، وقد ساعدني رجلان آخران حينها، ولكنني كنت قوياً ودفعت أكثر منهما من أجلك يا عزيزتي، هل تذكرين ذلك أيضاً؟».

أومأت ليا مجدداً.

«أقسم إنني لم أنوَ المشاركة في هذا الأمر يا سيدتي، هل تتركينني أرحل من أجل ذكرى الأيام الخوالي في طفولتك وحين كانت ليليمار أرضاً جميلةً؟».

أومأت ليا وأرادت تركه يرحل فعلاً، فأقحمت خنجرها سريعاً في إحدى عينيه المحدقتين إلى أعلى.

6

افتقر الجناح إلى الكهرباء، ولكن ربما أطفأ جيف ذو الندبة – وربما لفظ اسمه جيوف –مصابيح الغاز كي يستطيع تنفيذ لعبته القذرة، وأعتقد أن دخول خمسة أشخاص قد صدمه، ناهيك عن اكتشافنا مخبأه، إضافةً إلى رؤيته السناب يمتطي ظهر كلبتي مثل رعاة البقر.

وجدت إيريس مقبضاً نحاسياً يتحكم بالغاز وأضاءت المصابيح إلى أقصى حدّ، عثرنا على كيلين في الغرفة المجاورة المظلمة مستلقياً على سرير ذو قبة في المعطف الأحمر نفسه الذي ارتداه عندما استجوبني، وقد شبك يديه على صدره، وسرّح شعره إلى الخلف، وغلفته هالته الزرقاء الخافتة، وبدت مثل مسحوق تجميل على أجفانه المغلفة، فاقتربنا منه دون أن يحرك ساكناً، وقد كانت المرة الأولى التي أرى فيها شخصاً يجسد الأموات إلى هذا الحدّ، وقد اقترب من أن يصبح ميتاً حقاً، وفكرت في إمكانية وجود مياه في المرحاض الواقع إلى يسار الغرفة، ولكنه امتلك صنبوراً بالتأكيد، ورأيت أن صديقي القديم لورد هاي يستحق حماماً جيداً.

قالت جايا: «أين السناب؟».

وقالت إيريس في الوقت نفسه: «ما هذا الصوت؟».

سمعت مزيجاً من الصرير والاصطكاك، قاطعه حفيف حاد وسريع، وبدأ الصوت يقترب، فنبحت رادار، فالتفتت ناحية غرفة المعيشة لأرى ما يجري، ولاحظت أن آيوتا شاحب جداً، ولكن ركزت انتباهي على مدخل غرفة النوم حيث دخل السناب بعد وثبتين رشيقتين، ثمّ قفز جانباً، كي يتبعه ساكنو جدران القصر وأماكنه المظلمة؛ إذ تدفق فوج هائل من الجرذان الرمادية وسط صراخ جايا وإيريس، وقد عجزت ليا عن ذلك ولكنها تراجعت ناحية الحائط وقد اتسعت عيناها ووضعت يديها على ندبة فمها.

تيقنت أن السناب استدعاهم بصفته سيد المخلوقات الصغيرة، مع أن معظم الجرذان تفوقه حجماً.

تراجعت عن السرير، وأمسكت بآيوتا الذي تعثر، ولاحظت أن تنفسه سريع، ولكنني انشغلت في مراقبة الجرذان ولم أُدرك أن مكروهاً أصابه، إذ تسلقت الجرذان أغطية السرير المتدلية وصولاً إلى جسد لورد هاي الذي أضاءت عيناه بقوة جعلت النظر إليهما صعباً، واستحالت هالته الزرقاء الشاحبة قاتمةً ونقيةً، فأحرقت موجة الجرذان الأولى عندما دخلتها، وفاحت رائحة اللحم المشوي والفراء المحروق الكريهة، ولكن الهجوم استمر وشقت مجموعات جديدة طريقها بين جثث أقرانها، وقد جاهد كيلين كي يبعدها عنه، ورفع ذراعه وسط كومة الجرذان الهائجة وأخذ يضربها، وقد تشبث أحدها بيده العظمية ولف ذيله حول رسغها وتأرجح معها ذهاباً وإياباً مثل رقاص الساعة، واستطعت رؤية ضوء أزرق يلمع بين الفينة والأخرى وسط الجرذان، ثمّ صرخ كيلين، ولاحظت أن جرذاً بحجم القط قد تمزقت شفته العليا كاشفةً عن أسنانه المتلاصقة. واصلت الجرذان التدفق عبر باب

غرفة النوم واحتلال السرير حتّى دفن لورد هاي وسط كومة من الفراء الحية والذيول والأسنان التي تعض.

سمعت صوتاً مكتوماً بجواري، وعندما نظرت رأيت آيوتا وقد انهار أرضاً في زاوية الغرفة مقابل مكان تجمع النسوة الثلاث ونباح رادار التي شدتها ليا من طوقها بكلتا يديها، ولاحظت خروج رغوة بيضاء من زاويتي فم آيوتا ومقدم ساقه، فنظر إليّ وحاول الابتسام.

«السكين مسـ...».

تفقدت سكين جيف فوجدته على حاله، ما أثار استغرابي، ولكن فهمت بعد برهة الكلمة التي عجز آي عن إنهائها.

لمع ضوء وسط انفجار مكتوم، وتطايرت الجرذان في الأنحاء، وقد اشتعلت النيران في بعضها وتصاعد الدخان من بعضها الآخر، واصطدم أحدها بصدري وانزلق حتّى أسفل ثيابي الممزقة ملوثاً إياها بأحشائه، ثمّ سمعت صراخ جايا وإيريس مجدداً، وتخللها صوت صرصار الليل المميز الصادر عن رفرفة أجنحة السناب، وقد أطاعته الجرذان مباشرةً وغادرت من حيث جاءت تاركةً خلفها مئات الجثث، وغطت أحشاء الضحايا ودماؤها سرير كيلين الذي تحول شخصياً إلى هيكل عظمي مفكك تعلوه جمجمته الضاحكة، والمستلقية بشكل منحرف على وسادة حريرية.

حاولت حمل آيوتا، ولكن فاق وزنه قدرتي كثيراً، فصرخت: «ساعديني يا إيريس، لقد أصيب آي، إنه في وضع سيئ».

شقت إيريس طريقها عبر موجة الجرذان المتلاشية، وقفزت صارخة عندما مشت فوق قدميها... وقد تجنبت جميعها عض أي منا، ثمّ تبعتها ليا مباشرةً، وترددت جايا قبل أن تلحق بهما.

رفعت آيوتا من تحت ذراعيه، وأخذت ليا وإيريس ساقيه، وحملناه محاولين تجنب إسقاطه على الجرذان الأخيرة المغادرة، ولاحظت أن أحدها خسر قائمتيه الخلفيتين ولكن واظب على جر نفسه خلف رفاقه.

قال آيوتا بصعوبة وقد أوشك على الاختناق وخرجت الرغوة البيضاء من فمه: «أنا آسف، لقد أردت المتابعة حتّى النهاية...».

«اصمت واحتفظ بأنفاسك».

مددناه على الأريكة الزرقاء الطويلة، وبدأ يسعل ويبصق رغوة متخثرة من فمه إلى وجه ليا التي انحنت كي تسرّح شعره الأسود إلى الخلف بعيداً عن جبهته المتعرقة، كما أحضرت جايا منديلاً أو شيئاً يشبهه من سطع الطاولة المرسوم عليها الحصان ووحيد القرن، ومسحت وجه ليا دون أن تلاحظ ذلك، بل ركّزت أنظارها على آيوتا، ورأيت اللطف والشفقة والرحمة في عينيها.

حاول آيوتا الابتسام أمامها ثمّ التفت إليّ وقال: «لقد كان نصل السكين مسموماً، إنها خدعة... قديمة».

أومأت وفكرت في استهتاري عندما أقحمت السكين في حزام الكونشو، ربما كنت لأصيب نفسي، وأرقد رفقة آي حينها وأبصق الرغوة من فمي.

نظر إلى ليا مجدداً، ورفع ذراعه ببطء شديد وكأنها تزن خمسين كيلوغراماً، ووضع معصم راحته على جبهته وقال: «نفذي واجبك يا ملكتي عندما يحين الوقت المناسب»، وأنزل يده.

لقد رحل آيوتا الذي رأيته في لقائنا الأول يمسك قضبان زنزانته كالقرد، ورغم حجمه الكبير والمعاناة التي خاضها، إلا أن جرحاً صغيراً في الجهة الأمامية من ساقه أرسله إلى عالم الأموات.

أغلقت ليا عينيه المفتوحتين، وضغطت ندبة فمها إلى إحدى وجنتيه الخشنتين، وكان ذلك أقرب محاكاة للقبلة، ثمّ نهضت وأشارت إلى الباب، فتبعناها متجاوزين جثث الجرذان التي ماتت وهي تغادر الغرفة، ثمّ توقفت ليا قبل الوصول إلى الممر، والتفتت خلفها، ووضعت يديها على حلقها.

تحدث آيوتا مرةً أخيرةً مثل فلادا والسناب.

«أقسم إن ملكة إمبيس ستؤدي واجبها».

الفصل الثلاثون
خطوة واحدة إضافية- الزنزانة- العزم- نجوم غريبة- البئر المظلمة- غوغماغوغ- العضة.

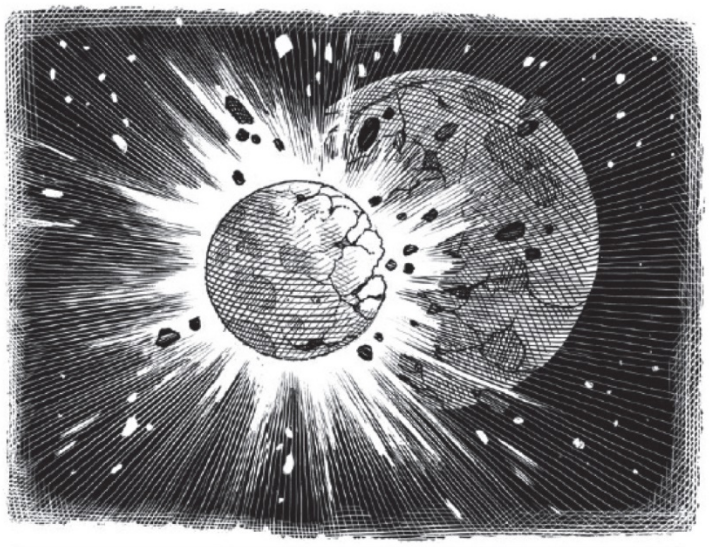

1

تبعنا آثار الجرذان الجريحة والميتة حتّى الفتحة في الألواح الخشبية؛ وقد ساعدت إيريس واحداً بثلاث قوائم كي يدخل، ثمّ ابتسمت ومسحت يديها على ملابسها (رغم عدم فائدة ذلك نظراً إلى أنها متسخة ومغطاة بالدماء)، ثمّ وصلنا إلى باب أفضى إلى سلالم حلزونيةً خلفه، واعتقدت أنها

استخدمتْ كمخرج طوارئ من أجل أفراد الأسرة الملكية في حال نشب حريق أو ما شابه، ثمّ ربتّت كتف ليا.

قلت: «علينا القيام بخطوة إضافية قبل ملاحقة قاتل الرحلة؛ أريد الذهاب إلى غرفة التعذيب في ديب مالين، هل تستطيعين أخذنا إلى هناك؟».

وافقت ليا مباشرةً، وبدت مرهقة وهي تومئ، فلاحظت بقاء بعض الرغوة المختلطة بالدم على خدها، فمددت يدي ومسحتها، وسمحت لي بذلك ولم تتراجع هذه المرة.

«شكراً لكِ، لقد ساعدنا شخص على الهروب وأعتقد أنه...».

استدارت ليا قبل أن أكمل كلامي، وفكّرتُ في أن وودي وكلاوديا ورفاقهما قد دخلوا المدينة بعد أن ازداد عددهم ليصبحوا وكأنهم جيش حقيقي، ولعلهم يُجهزون الآن على ما بقي من جنود الليل خلال نومهم في الثكنات إن وجدت، وهذا ما بعث السرور في نفسي، ولكن مر الوقت سريعاً تحت الأرض ولم يكن هناك ساعة شمسية تعود بالزمن إلى الخلف.

نزلنا السلالم الحلزونية طويلاً، ولم ننبس ببنت شفة بعد أن أثقلت وفاة آيوتا كواهلنا جميعاً بمن فينا رادار، التي مشت خلفي واصطدم أنفها بربلة ساقي نظراً إلى ضيق المساحة، وقد أنزلت ذيلها وأذنيها. ازداد الهواء برودة، ونزت المياه من الطحالب التي نمت على الجدران الصخرية، والتي يعود تاريخ تشيدها لمئات بل آلاف السنوات.

عندها تسللت رائحة خفيفة إلى أنفي، ثمّ ضحكت إيريس وقالت: «يا إلهي، لقد عادت الأحداث بنا إلى حيث بدأنا»، مع أن الأمر لم يكن مبهجاً على الإطلاق.

تجاوزنا عدة أبواب إضافية في طريقنا إلى الأسفل، والتي تراوحت أحجامها بين الكبير والصغير مثل الذي توقفت عنده ليا وأشارت إليه، فنزلنا درجات إضافية أفضت إلى غرفة، وعندما دفعت الباب انفتح، واضطررت أن أنحني كثيراً كي أمر عبره فوجدت نفسي في مطبخ آخر أصغر من السابق وأقرب إلى خزانة مقارنةً به، إذ امتلك موقداً واحداً من دون فرن، ومشواةً طويلةً لعلها تعمل على الغاز الذي نفد الآن، وضِعتْ عليها مجموعة من النقانق المحترقة والمسودة.

أصدرت جايا صوتاً بين السعال والتقيؤ، وأعتقد أنها فكّرت في الوجبات التي تناولناها في زنزاناتنا، وخاصةً قبل وقت اللعب والجولة الأولى من الفير ون، وقد قرأت مرةً عن اضطراب ما بعد الصدمة، ولكن القراءة عن أمر تختلف تماماً عن تجربته.

هناك على الرف المجاور للمشواة كوب قصديري يشبه ما استعملناه في السجن، ولكن قعره لم يكن مثقوباً، وقد ملأته عيدان الثقاب مثل التي أعطاني إياها بيرسي، فأخذت الكوب وأقحمته في قراب المسدس في حزام الكونشو لأنني لم أمتلك جيوباً، ووضعت سلاحي في مكان آخر.

قادتنا ليا إلى الباب، واختلست النظر عبره، ثمّ أشارت إلينا أن نتبعها واستعجالنا مجدداً، وتساءلت كم ساعةً مرت على ما نقوم به، إذ كان الوقت نهاراً بالطبع، ولكن هل يهم إن قبّل بيلا وأرابيلا بعضهما على الجانب الآخر من العالم؟ اعتقدت أن قاتل الرحلة سبق له أن وصل إلى البئر المظلمة وينتظرها أن تنفتح كي يعقد صفقةً جديدةً مع المخلوق القاطن فيها، والذي إما يجهل النتائج السيئة المترتبة على ذلك، وإما لا يكترث حيالها، وقد رجحت الاحتمال الأخير أكثر. مع ذلك يريد قاتل الرحلة استدعاءه من عالمه في البئر إلى هذا العالم... وربما عالمي هو التالي على القائمة، لذلك فكّرت في إخبار ليا أن تنسى أمر أخذنا إلى غرفة التعذيب نظراً إلى احتمال عدم

وجود بيرسي – بيرسيفال – هناك، وربما موته، كما أن إيقاف قاتل الرحلة أهم منه.

لمست إيريس كتفي وقالت: «هل أنت متأكد من رغبتك في هذا الأمر أيها الأمير تشارلي؟ هل من الحكمة فعل ذلك؟».

لا، لم يكن تصرفاً حكيماً، ولكننا ما كنا لنقف في هذا المكان لولا بيرسيفال الذي وصلت إصابته بالداء الرمادي إلى مرحلة متقدمة جعلته بالكاد قادراً على الكلام.

قلت بخشونة واختصار: «سنذهب».

وضعت إيريس راحة يدها على جبهتها والتزمت الصمت.

2

تعرفت إلى الممر حيث انتظرتنا ليا وهي تمشي جيئةً وذهاباً وتمسك مقبض سيفها ثمّ تفلته، فهو يؤدي إلى طريق بجوار المطبخ الإضافي في الجهة اليمنى من الزنزانات، بينما تقع غرفة التعذيب في مكان قريب إلى اليسار.

ركضتُ تاركاً الآخرين خلفي باستثناء رادار التي هرولت إلى جواري وتدلى لسانها من جانب فمها، وبدا أطول من المعتاد، حتّى وصلت باب الغرفة وانتظرت طويلاً وتأكدت أنني سمعت شيئاً يشبه الدعاء واقتصر على كلمة أرجوك، ولا شيء سواها، ثمّ دخلت.

في البداية، ظننت المكان فارغاً... إن كان بيرسي محتجزاً في العذراء الحديدية كنت سأرى الدماء تسيل منها، ولكن لاحظت بدلاً من ذلك كومة قماش تتحرك في الزاوية المقابلة، وبرز فيها وجه حاول الابتسام عبر بقايا فمه عند رؤيتي.

صرخت وركضت إليه: «بيرسي. بيرسيفال».

حاول أن يلقي التحية عليّ.

«لا، لا، بل أنا من تجب عليه تحيتك، هل تستطيع الوقوف؟».

ساعدت بيرسي في الوقوف على قدميه، واعتقدت أنه لف إحدى يديه في جزء من سترته القذرة، ولكن عندما أنعمت النظر وجدت قطعة القماش حول معصمه وقد عقدت بشدة منعاً للنزف، ولاحظت وجود قشرة داكنة واسعة على الصخور حيث سبق له أن جلس؛ لقد قطع الأوغاد يده.

وصل الآخرون، وانتظرت إيريس وجايا عند المدخل أما ليا فدخلت، وعندما رآها بيرسيفال رفع بقايا يده إلى جبهته وبدأ يصيح عبارةً غير مفهومة ولكنها أقرب ما تكون إلى: «مولاتي الأميرة».

حاول أن يركع أمامها، وكاد أن يسقط ما لم أُمسك به، ولكن ليا اندفعت إليه وطوقت عنقه بذراعيها واحتضنته رغم قذارته وشكله المشوه والدماء التي تغطيه، وقد أحببتُ ما أقدمتْ عليه.

سألته: «هل يمكنك المشي ببطء والاستراحة بين الفينة والأخرى؟ لأننا مستعجلون جداً».

أومأ بيرسي.

«هل تعرف سبيل الخروج؟».

أومأ مجدداً.

قلت: «حان وقت افتراقك عنا يا جايا، سيرشدك بيرسيفال إلى الخارج، فرافقيه وامنحيه قسطاً من الراحة عندما يحتاج إليه».

«ولكنني أريد...».

«لا أهمية لمَ ترغبين به الآن، كل ما أريده منك أن تخرجيه من هذه... هذه الهاوية، وسيصل الآخرون كي يدعموننا قريباً- لم أكن واثقاً من ذلك بل هذا ما كنت أتمناه- فأوصليه إلى وودي وكلاوديا كي ينال العناية الطبية اللازمة»، وقد استعملت عبارةً غير العناية الطبية، ولكن جايا أومأت.

احتضنت بيرسيفال مثل ليا وقلت: «شكراً لك يا صديقي، يجب أن يبنوا تمثالاً من أجلك إذا نجحنا في هذه المهمة»، وتابعت في نفسي: «ولعل الفراشات تحط على ذراعيك المفتوحتين»، وتوجهت إلى الباب حيث تنتظرني ليا.

وضعت جايا إحدى ذراعيها حول رقبته وقالت: «سنمشي كل خطوة معاً، أرشدني فحسب يا بيرسي».

سمعت صوت بيرسيفال فالتفتت إليه، ووجدته يجاهد كي يقول شيئاً، ثمّ أشار إلى الباب، وتمتم مجدداً، وأشار ناحية ليا، ثمّ إلى الأعلى.

نظرت إلى ليا وسألتها: «هل فهمت ما قاله؟».

أومأت ليا، وقد استحال وجهها شاحباً جداً، حتّى بدت قرحة التغذية خاصتها وكأنها شامة سوداء.

سألت إيريس: «ماذا عنك؟».

أجابت: «سمعت عبارات قاتل الرحلة، وأربعة آخرين إضافةً إلى الوضيعة، وربما قال الساحرة، وأعتقد أنه يقصد بيترا في الحالتين، تلك السافلة ذات الشامة على وجهها والتي جلست إلى جوار قاتل الرحلة في جناح الشخصيات المهمة، كما قال إن الأميرة تعرف الطريق، وأضاف شيئاً عن بيلا وأرابيلا».

قالت جايا: «ستحدث القبلة قريباً»، فأومأ بيرسيفال.

«اعتني به يا جايا، وأخرجيه من هنا».

«سأفعل ذلك إن كان يعرف الطريق، وانتبهوا إلى أنفسكم كي أراكم جميعاً مجدداً»، ثمّ داعبت رادار سريعاً مودعةً إياها.

3

قادتنا ليا بعيداً عن السلالم الحلزونية إلى ممر مختلف، واتجهت إلى أحد الأبواب وفتحته، ولكن هزت رأسها، وتابعت طريقها.

همست إيريس: «هل تعرف الأميرة الطريق حقاً؟».

«أعتقد ذلك».

«بل تأمل ذلك».

«لقد غابت عن هذا المكان فترةً طويلةً».

تجاوزنا باباً آخر وانتقلنا إلى التالي، فحدقت ليا عبره ثمّ أشارت إليه، وناحية كوب عيدان الثقاب الذي أخذته من المطبخ، فحاولت خدش أحد أعواد الثقاب على الجزء الخلفي من بنطالي، فقد رأيت تلك الخدعة المميزة في أحد أفلام رعاة البقر على قناة (تي سي أم)، ولكنني فشلتُ في تنفيذها، فاستعملت الحائط الصخري إلى جوار الباب ورفعت عود الثقاب أمام غرفة غطت ألواح خشبية جدارها بدل الحجارة، واحتشدت بشتى أنواع الملابس من البذلات الرسمية إلى ملابس الطباخين والعمال، والسترات الصوفية، ولاحظت وجود كومة من الثياب قديمة الطراز مرمية تحت صف من الأوتاد الخشبية، ورأيت في الزاوية صندوقاً يحوي على قفازات بيضاء استحالت صفراء بمرور الوقت.

دخلت ليا الغرفة، وتبعتها رادار والتي لم تكف عن النظر إليّ فأشعلت عود ثقاب آخر ومشيت خلفهما. وقفت الأميرة على رؤوس أصابعها،

وأمسكت وتدين خشبيين وشدتهما فلم يحدث شيء، فتراجعت وأشارت إليّ.

أعطيت إيريس كوب عيدان الثقاب وقبضت على الوتدين وسحبتهما، إلا أنني أحسست بدفعة خفيفة مع أن كل شيء بقي على حاله، فسحبت بقوة أكبر كي يخرج الجدار من مكانه وسط صرير مفصلاته الخفية، ويفسح المجال أمام نسمة هواء ثقيلة، فأضاءت إيريس عود ثقاب آخر أمام شبكات العنكبوت الممزقة والمتدلية في هيئة خرق رمادية، وشكّل ذلك دليلاً قاطعاً على أن أحداً سبق له أن مرّ من هنا، وأضف إليه كومة الثياب الساقطة عن الأوتاد، فأشعلت عود ثقاب وانحنيت كأنني المحقق شارلوك هولمز كي أرى مجموعةً من آثار الأقدام المتداخلة وسط الغبار، وربما أمكنني استنتاج عدد الأفراد الذين عبروا هذا الباب الخفي، والمسافة التي قطعوها، ولكنني لست شارلوك في الواقع، إلا أنني قدّرت أنهم حملوا شيئاً ثقيلاً نظراً إلى عدم وضوح الآثار، إذ تصورتهم يجرون أقدامهم وهم يمشون، وفكرت في محمل قاتل الرحلة الفاخر.

نزلنا بضع درجات، وانعطفنا يساراً كي نجد آثار أقدام أخرى على الأرضية المغبرة تحت الضوء الخافت المخضر الصادر عن شيء آخر غير مصابيح الغاز، فلم يعجبني الأمر، ولم تعجبني الهمسات التي حملها الهواء إليّ.

قالت: «يحتضر والدك وسط قذارته».

لهثت إيريس وقالت: «لقد عادت الأصوات».

قلت: «تجنبي الاستماع إليها».

«لماذا لا تطلب مني كتم أنفاسي أيضاً أيها الأمير تشارلي؟».

أومأت ليا إلينا، فبدأنا نزول السلالم، وهنا أنّت رادار وبدت قلقة، ولعلها سمعت الأصوات أيضاً.

4

ازدادت شدة الأضواء الخضراء الراشحة من الجدران كلما نزلنا أكثر، وكذلك قوة الأصوات، وهمست أشياء مزعجةً معظمها عن مغامراتي الشنيعة رفقة بيرتي بيرد، وقد بكت إيريس خلفي بهدوء، وتمتمت مرةً: «ألن تتوقفي أبداً؟ لم أقصد ذلك، أرجوك أن تتوقفي».

أوشكت أن أتمنى مواجهة هانا أو ريد مولي مجدداً بدل الأصوات، فهما تملكان جسداً مادياً تستطيع ضربه على الأقل.

في تلك الأثناء، حافظت ايا على هدوئها ولم توحِ لنا بأنها تسمع شيئاً، ونزلت السلالم منتصبةً وثابتة الخطوات، وتأرجح شعرها الأسود المربوط إلى الخلف على ظهرها، وقد كرهت عنادها ورفضها الاعتراف بأن قاتل الرحلة شقيقها، ألم نسمع رفاقه يصيحون باسمه في فير ون؟ ولكنني أحببت شجاعتها.

لقد أحببتها.

قادتنا الدرجات إلى قوس تغطيه الطحالب وشباك العناكب الممزقة وكنا أدنى من ديب مالين بخمسمئة قدم تقريباً وربما أكثر، حيث استبدل أزيز مبهم بالأصوات وصدر إما عن صخور الجدار الرطبة وإما عن الضوء الأخضر الذي توهج أكثر هناك، وتبين لي أن مصدر هذا الأزيز كائن حي، وشعرت أننا نقترب من طاقة عظيمة، وعندها زالت كل شكوكي السابقة حول وجود الشر كقوة حقيقية، أو شيء منفصل عن نظيره القاطن في قلوب البشر الفانين وعقولهم، فقد وقفنا على شفا منبعه، وكنا ندنو منه مع كل خطوة نخطوها.

لمست كتف ليا فأجفلت، ولكن الطمأنينة عادت إليها عندما رأتني، ولاحظت اتساع عينيها وشدة سوادهما، وتبينت من وجهها مقدار الرعب المستتر وراء حزمها الظاهر، فربما هي خائفة أكثر منا لأنها عرفت أشياء أكثر.

همست: «هل سبق لكِ أن جئتِ إلى هنا برفقة إلدن في طفولتكما؟».

أومأت بالإيجاب، وقبضت الهواء بيدها.

«وأمسكتما يدي بعضكما؟».

أومأت مجدداً.

استطعت تخيلهما يمسكان يديّ بعضهما ويركضان في كل مكان... ولكن ذلك خطأ؛ لعل ليا استطاعت الركض ولكن إلدن لم يستطع لأن قدميه مشوهتان، وبالتالي سارت إلى جواره متجاهلةً رغبتها في الإسراع واكتشاف ما أمامهما، أو المكان السري الجديد، أو المفاجأة التي انتظرتهما، وذلك لأنها أحبته.

«هل استخدم عكازاً؟».

رفعت ليا إصبعيها السبابة والوسطى في شكل حرف (V)، أي عكازان.

اكتشفا معاً كل الأماكن باستثناء واحد، إذ قال وودي: «لقد كرهت ليا الكتب، في حين كان إلدن قارئاً نهماً».

«سبق لإلدن أن عرف بأمر الباب السري في مخزن الملابس أليس كذلك؟ لقد قرأ عنه في المكتبة، ولعله يعرف وجود أماكن أخرى أيضاً».

أجل.

تخيلت الكتب القديمة وربما المحظورة منها مثل كتاب نيكرونوميكون[52] الخيالي الذي أحب لوفكرافت ذكره، مفتوحةً على الطاولة كي تشبع شغف إلدن صاحب القدمين المشوهتين والظهر الأحدب والوجه المليء بالكتل في منفاه بعيداً عن ذاكرة الآخرين – باستثناء شقيقته الصغرى – إلا في سياق مقالب السخرية منه (وقد خبرت هذا النوع من المزاح مع بيرتي بيرد خلال فترتي المظلمة)، وهل كان ليمنعهم شيء عن نسيانه عند وراثة شقيقه الأكبر الوسيم روبرت العرش؟ وربما كانت المنّية ستوافيه قبل أن يتقلد شقيقه الحكم، إذ عاش أمثال إلدن المريض الأعرج عاشق الكتب فترةً قصيرةً، وتوفوا بعد أن يعانوا من المرض والسعال والحمى.

قرأ إلدن الكتب القديمة المهملة الموضوعة على الرفوف العالية أو في الخزائن المقفلة بعد أن تطفل وفتحها، ولعله بحث فيها بدايةً عن قوة يستخدمها ضد تنمر شقيقه وكلام شقيقاته الجارح، ولم تراوده أفكار الانتقام إلا في وقت لاحق.

«لقد اقترحت زيارة أماكن أخرى من القصر، ولكن ليس هذا المكان، أليس كذلك يا ليا؟».

أومأت بالإيجاب.

«وصحيح أنك استمتعت خلال اكتشاف الغرف السرية ومنصة المصعد، ولكن علمت مدى سوء ما تخفيه وكرهت هذا القسم من القصر، أليس كذلك؟».

تجمدت ملامح ليا ولم توحِ بالإيجاب أو النفي، في حين أغرقت الدموع عينيها الداكنتين القلقتين.

«بينما جذب هذا المكان إلدن كثيراً، أليس كلامي صحيحاً؟».

حرّكت ليا يديها مستعجلة إيانا مجدداً، ونظرت إليّ وتابعت المشي منتصبةً.

لقد استعادة حزمها مجدداً.

5

سبقتنا رادار قليلاً، ووصلت إلى شيء ملقى على أرضية الممر وأخذت تشمه، وتبيّن أنه قطعة قماش حريري خضراء، فالتقطتها وفحصتها، ثمّ وضعتها في قراب المسدس إلى جوار كوب عيدان الثقاب ونسيت أمرها.

كان الطريق عريضاً ومرتفع السقف ويشبه نفقاً أكثر منه ممراً، وافترق في نهايته إلى ثلاث سبل أضاءها ذلك الضوء الأخضر النابض، ونحتت صخرة أعلى كل منها في هيئة مخلوق سبق لي أن رأيت تمثاله مكسوراً إلى نصفين على أرضية جناح السكن: كان شبيه الحبار بمجسات ممتدة أمام وجهه المرعب، وقد اعتبر هذا الكائن لعنةً بالقدر نفسه الذي اعتبرت فيه الفراشات الكبيرة نعمة.

قلت في نفسي: «إنها قصة خيالية أخرى، ولكنها لا تستهدف الأطفال بل البالغين، فهي تخلو من ذئب شرير كبير أو عملاق أو القزم رومبيلستيلتسكين، وها أنا أقف الآن أمام صورة كثولو التي تعلو الأقواس، هل هذا ما يبدو عليه إله الآلهة غوغماغوغ؟ وهل تراوده الأحلام الشريرة عن بقايا مدينة رلييه؟[53] وهل هو نفسه من يريد إلدن منه معروفاً آخر؟».

في البدء، وقفت ليا واتجهت ناحية الممر الأيسر، ولكنها ما لبثت أن اتجهت ناحية الأوسط، وترددت مجدداً لأنها نظرت إلى الأمام، في الوقت الذي نظرت فيه إلى الأسفل كي أرى آثار الأقدام على الغبار تتجه يميناً، أي حيث ذهب قاتل الرحلة برفقة حاشيته، ولكنني انتظرت كي أختبر ذاكرتها، وقد نجحتْ في ذلك، ودخلت الممر الأيمن، فتبعناها بدورنا، وازداد الرائحة الكريهة حولنا سوءاً، في حين حافظ الطنين على شدته، ولكن تعددت

مصادره، كما برزت من شقوق الجدران فطور مترهلة مشوهة بيضاء مثل أصابع يد رجل ميت، في البداية اعتقدت أنني تخيّلتها، ولكن تبيّن أنها حقيقة.

قالت إيريس في صوت ضعيف وبائس: «هذا رهيب، لقد ظننت أن مالين سيئة... وكذلك ملعب القتال، ولكنهما لا شيء مقارنةً بهذا المكان».

التزمتُ الصمت لأنها كانت محقة في ما توصلت إليه.

تابعنا انحدارنا إلى الأسفل، وازدادت الرائحة سوءاً، وازدادت شدة الطنين حتّى تجاوز الجدران واستطعت سماعه داخل رأسي وهذا ما شوش تفكيري إذا لم أرد أن أقول إنه منعني من التفكير، ولم أعلم أين موقعنا نسبةً إلى العالم الخارجي، ولكننا بالتأكيد تجاوزنا حدود القصر، كما تلاشت شباك العناكب وآثار الأقدام أمامنا تدريجياً نظراً إلى غياب الغبار عن أرضية هذا المكان البائس.

مع تقدمنا تغير شكل الجدران، فاستبدلت حجيرات زجاجية ضخمة ببعض الصخور، وكانت خضراء داكنةً واحتوت بداخلها خطوطاً سوداء متحركةً اندفع أحد طرفيها عديمة الرأس نحونا واستحالت مقدمته فماً، فصرخت إيريس بوهن، وهرولت رادار إليّ ولامست ساقي في كل خطوة.

أخيراً، دخلنا غرفة من الزجاج الأخضر الداكن ذات سقف مقبب، وانتشرت الفروع السوداء المتعرشة في كل مكان داخل جدرانها، وتحركت باستمرار راسمةً أشكالاً تتغير عندما تنظر إليها... بالإضافة إلى وجوه أشخاص أيضاً...

قلت لإيريس: «إياك والنظر إلى تلك الأشياء، أعتقد أنها تمتلك القدرة على التنويم المغناطيسي»، وتصوّرت أن ليا عرفت ذلك مسبقاً لأنها تذكرت الطريق إلى هنا.

وقفت ليا تحت مركز القبة المخيفة، ونظرت حولها محتارةً بين عشرات الممرات والتي يغمرها الضوء الأخضر النابض.

همست إيريس بصوت مرتعش: «آسفة يا تشارلي، ولكنني عاجزة تجاهلها».

قلت: «لست مضطرةً إلى مواجهتها... عودي أو ابقي هنا وانتظرينا»، بدا صوتي خافتاً وغريباً، ولعل ذلك بسبب الطنين، ولكنني وجدته أقرب إلى صوتي في شخصية تشارلي ريد شريك بيرتي بيرد في ألاعيبه القذرة، باستثناء الجملة الثانية النابعة عن الجانب اللطيف منه.

دارت ليا حول نفسها ببطء، وحدقت إلى كل ممر بدوره، ثمّ التفتت إليّ ورفعت يديها وهزتهما.

لا أعرف.

«هنا انتهت رحلتك برفقة إلدن الذي تابع بمفرده أليس كذلك؟».

أجل.

«ولكنه عاد في النهاية».

أجل.

تصورت كيف انتظرت تلك الفتاة الصغيرة وحيدةً بثبات وحزم في هذه الغرفة الخضراء الغريبة ذات الرسوم العجيبة التي تتحرك الخطوط السوداء في جدرانها، ولا يجب أن ننسى الأصوات الماكرة.

«هل سبق لك أن رافقته إلى هنا؟».

أجل، ثمّ أشارت إلى الأعلى فلم أفهم قصدها.

«وهل جاء في وقت لاحق من دونك؟».

ظلت ساكنة فترةً طويلةً... ثمّ أومأت: أجل.

«وفي إحدى المرات ذهب ولم يعد».

أجل.

«ولكنك تجنبتِ اللحاق به، أو وصلتِ إلى هنا وخفتِ التقدم أكثر، أليس كذلك؟».

غطت ليا وجهها، وكانت حركتها هذه الإجابة التي أنتظرها.

فجأةً، صرخت إيريس: «سأعود يا تشارلي، أنا آسفة، ولكنني... لا أستطيع».

هربت إيريس ناحية المدخل وتبعتها رادار، وتركت لها حرية مرافقتها، في تلك الأثناء، اجتاح الصوت عظامي وأخبرني حدسي أن العالم الخارجي أضحى مجرد حلم بالنسبة إليّ وإلى الأميرة ليا.

عادت رادار، فركعتُ واحتضنتها محاولاً استمداد الطمأنينة منها قدر الإمكان.

«وافترضتِ أنه مات».

أومأت ليا، ثمّ قبضتْ على عنقها وقالت الكلمات التالية: «إنه ميت فعلاً».

لقد تحولتُ شيئاً فشيئاً إلى شخص أكثر حكمة من فتى المدرسة الثانوية الذي ظهر في حقل الخشخاش، وأدرك الأمير تشارلي الذي أنا عليه الآن ضرورة تصديق ليا ذلك، وإلا سيغدو حمل عدم محاولتها إنقاذ إلدن ثقيلاً جداً على كاهليها.

ولكن لعلها فهمت الأمر حينها.

6

احتشدت الأشياء السوداء تحتنا، ولم يكن لدينا شك في أنها جائعة، وتحركت ضمن الأرضية الزجاجية الخضراء المصقولة والعميقة جداً، والنظيفة تماماً من الغبار وآثار الأقدام، إذا كان قاتل الرحلة قد ترك شيئاً خلفه فقد مسحه فرد من حاشيته ليمنع أحداً من اقتفاء أثره واللحاق بهم، ومع عجز ليا عن تذكّر الاتجاه الصحيح، استحالت معرفة أي ممر سلكوا من بين الممرات الاثني عشر.

وربما هناك طريقة أخرى.

تذكرت المرأة ذات الشامة إلى جوار فمها وهي تصرخ: «اركعوا يا أصحاب الدماء القديمة!»، وكان اسمها بيترا، وارتدت ثوباً حريرياً أخضر.

أخرجت قطعة القماش الحريرية من القراب ووضعتها أمام رادار، فشمتها ولم تبدِ اهتماماً بها فقد شتتها الأصوات والأشكال السوداء المتحركة ضمن الزجاج، ولكن لم يكن في يدي، أو يدينا، حيلة سواها.

سألتها: «من أين ذهبوا؟»، وأشرت إلى الممرات، ولكن رادار وقفت ساكنةً واكتفت بالتحديق إليّ، وأدركت أن سوء هذا المكان قد زاد من نسبة غبائي؛ فرادار تفهم أوامر محددة، وليست عبارة من أين ذهبوا واحدةً منها، فأعدت الكرة ووضعت قطعة القماش أمام أنفها وقلت: «اعثري عليهم يا رادار».

في الوقت الذي قرّبت فيه رادار أنفها من الأرضية، اندفعت إحدى تلك الأشكال السوداء إليها، فقفزت إلى الخلف، ولكنها استأنفت عملها مجدداً، لقد مشت كلبتي الشجاعة، ثمّ تراجعت، والتفتت ناحية الممر الأيمن المجاور، ثمّ نظرت إليّ ونبحت.

لم تتردد ليا بالاندفاع إلى داخل الممر، فتبعتها، وقد تجاوزتني بمسافة كبيرة حينها، وكانت في منزلة عداءة سريعة وأنا الأخرق المجبر أن يلعب في القاعدة الأولى فقط، ووجدت أرضية الممر الزجاجية الخضراء منحدرةً، وإذا ازدادت ميلانها قليلاً ستفقدنا توازننا.

«انتظري يا ليا».

ولكنها تجاهلتني، فأسرعت قدر الإمكان محاولاً تجنب الانزلاق على الأرضية المنحدرة، وقد تفوقت رادار عليّ بفضل قوائمها الأربع وقرب جسدها من الأرض، وبدأ الطنين يتلاشى وكأن أحدهم أطفأ مضخّم صوت عملاقاً، ما منحنا بعض الراحة، كما تخافت الوهج الأخضر الصادر عن الجدار وحل محله في نهاية الممر ضوء أضعف منه، ولكن أكثر سطوعاً.

لقد خضت تجارب خياليةً في ذلك العالم، ولكن عجزت عن تصديق ما رأيته هناك، واعترض عقلي على الحقيقة المتجسدة أمام عيني؛ إذ دخلنا غرفةً أكبر كثيراً من سابقتها حيث الممرات الاثني عشر، واحتلت سقفها سماء الليل المرصعة بالنجوم الصفراء المتوهجة التي كانت مصدر الضوء.

اعتقدت أنني أحلم، ولكنها حقيقة؛ ألم أصل إلى إمبيس عبر نزول السلالم؟ لقد وجدت نفسي حينها على مشارف الوصول إلى عالم ثالث.

التفت سلالم أكثر حول عمود عملاق انبثق من صخرة صلبة، وركضت ليا عبرها بأقصى سرعتها، وعندما نظرت إلى الأسفل رأيت محمل قاتل الرحلة على عمق خمسمئة قدم أو أكثر وقد انسدلت ستائره الأرجوانية المطرزة بالذهب، وتأرجح حاملوه إلى جوار الحائط المنحني وراقبوا تلك النجوم، ورغم الحاجة إلى قوة وشجاعة كبيرتين من أجل حمل قاتل الرحلة طوال الطريق، ولكنهم بدوا من حيث أقف مع رادار صغار الحجم وخائفين.

انتصبت رافعة ضخمة وسط الأرضية الحجرية وبلغ طولها مئة ياردة على الأقل، وشابهت رافعات مواقع البناء في عالمي، ولكنها كانت خشبية ما

أضفى عليها طابع المشنقة، وشكّلت صاريتها وذراعها المؤلفتين من قطع عديدة مثلثاً مثالياً، وقد ربط خطاف التحميل إلى باب ذي مفصلات، وليس إلى غطاء البئر الذي تخيلته عندما تصورت البئر المظلمة، وقد لمع تحته ضوء أخضر مشؤوم.

وقف مخلوق إلى جوار البئر مرتدياً قفطانه الأحمر، ووضع بشكل مائل تاج غالين فوق شعره الأبيض المتدلي، إنه قاتل الرحلة.

صرخت: «انتظري يا ليا».

تجاهلتني ولعلها أصبحت صماء مثل كلاوديا، وركضت عبر السلالم اللولبية الأخيرة وسط الضوء الخافت الصادر عن نجوم العالم الجديد المخيفة، فتبعتها حاملاً مسدس السيد بوديتش.

7

نظر حاملو المحمل إلى ليا عندما وقفت وباعدت ساقيها في وضعية المبارزة واستلت سيفها من غمده، في حين نبحت رادار بجنون إما بسبب خوفها من وجودنا في هذا المكان المرعب الذي اعتقدت أننا سنعلق فيه إلى الأبد، وإما لأنها اعتبرت الرجال يهددون ليا، وربما للسببين، عندما نظر قاتل الرحلة إلى الأعلى سقط التاج عن رأسه، وعندها خرج شيء- ليس ذراعاً- من تحت ردائه الأرجواني والتقطه، وقد عجزت عن معرفة ماهيته حينها (ولم أرغب في ذلك) وتجاهلته لأنني أردت الوصول إلى ليا، وأدركت فوات الأوان على إنقاذها من حاملي قاتل الرحلة، إذ اقتربت منهم كثيراً، ناهيك عن بعدهم عن مدى نيران مسدسي، ووجود ليا في مرماه.

حملت ليا السيف من مقبضه أمام معدتها، ثمّ سمعت أحد الحاملين في المقدمة يصرخ بعبارة ما، وفهمت منها كلمتي «لا، لا» ولم أفهم غيرهما، ولوّح بذراعيه خلال صعوده السلالم إلينا، وتبعه الثلاثة الآخرون، لم تجد ليا داعياً كي تضربه، لأنه اندفع مذعوراً وبلا هوادة نحو السيف، فانغرس الأخير

فيه وخرج من الطرف الآخر وتناثرت الدماء في الأرجاء، فتأرجح الرجل ناحية الهاوية، ولم تتمكن ليا من انتزاع السيف منه، فوجد نفسها بين خيارين بسيطين وواضحين؛ إما أن تترك السيف وتحافظ على حياتها، وإما أن تتشبث به وتسقط معه، فاختارت الأول فهوى الرجل المطعون مسافة مئة قدم أو أكثر عن نقطة معركتهما القصيرة وارتطم بالقرب من المحمل الذي حمله مقابل وعود بالذهب، أو النساء، أو عقار في الريف، وربما الأمور الثلاثة معاً، ولكنه لم ينل إلا الموت.

تقدم الثلاثة الآخرون، ورغم ركضي أسرع منهم متجاهلاً احتمال تعثري والسقوط ميتاً، إلا أنني بقيت متأخراً ووصلوا قبلي إلى ليا، فسحبت خنجرها كي تدافع عن نفسها وأسندت ظهرها إلى الحائط مستعدةً من أجل القتال حتّى الموت، ولم يكن لديها خيار آخر.

ولكن حدث شيء خالف التوقعات، وتبيّن أن الرجل المطعون لم يشأ الوقوف في وجه ليا، وقد صرخ: «لا، لا» قبل أن يقتل، واتضح أنه كان يسعى وراء الهروب والخروج من هذا المكان، وكذلك رفاقه، فركضوا متجاوزين ليا ولم ينظروا إليها حتى.

صاح إلدن: «يأمركم ملككم بالعودة إلى هنا أيها الجبناء».

لكنهم واصلوا صعود السلالم كل درجتين معاً ولم يكترثوا به، فأمسكت طوق رادار وسحبتها ناحيتي، فتجاوزنا اثنان بسلام، أما الثالث فقد تعثر بها، وبدا أن صبرها قد نفد، فاندفعت وغرست أسنانها عميقاً في فخذه، فلوح بذراعيه محاولاً الحفاظ على توازنه قبل أن يسقط في الهاوية وتتخافت صرخته شيئاً فشيئاً قبل أن تختفي فجأةً عند اصطدامه بالقاع.

استأنفت طريقي نزولاً كي أجد ليا جامدةً في مكانها تحدق إلى ذلك الكائن البشع وسط ردائه الأرجواني المتموج، وتحاول تبين ملامحه تحت الضوء الخافت الصادر عن النجوم المتوهجة في الفضاء المرعب المخيم

فوقنا، وكدت أصل إليها عندما ازدادت شدة الإضاءة، ولكنها لم تكن نابعة من النجوم هذه المرة، كما عاد الصوت مجدداً واختلف عن سابقه، إذ بدا وكأن مخلوقاً فضائياً عملاقاً ومجهولاً أخرجه من أعماقه بعد أن شم رائحة وجبة شهية.

نظرت ورادار وليا إلى الأعلى، واتسعت أعيننا أمام المشهد المرعب الذي احتل السماء المرصعة بالنجوم، وتمثلت الصدمة الكبرى في جماله أيضاً.

أخبرتني ساعتي الداخلية أن الوقت نهار في مكان ما فوقنا، وبالتالي كان بيلا وأرابيلا على الجانب الآخر من العالم بعيداً عن إمبيس، ولكن أدركت أن ساعتي معطلة تماماً، إذ رأيت قمرين مثلهما تماماً أمام عيني، وأطلقا نوراً ساطعاً سحرياً حل محل ظلمة الفضاء الشاسع وأضاء الحفرة الكريهة حولنا.

اقترب القمر الكبير من الصغير ولم يبدُ أنه يريد تجاوزه، بل أوشكا على الاصطدام بعد مرور سنوات لا تعد ولا تحصى على ملاحقتهما بعضهما، كحال القمرين الحقيقيين الموجودين في مكان ما حول الكوكب.

تلامس القمران من دون أي صوت، ولكن رافق اصطدامهما ضوء ساطع جداً، وتطايرت أجزاؤهما في الاتجاهات كلها كي تحتل القطع الحجرية المتوهجة كل السماء المظلمة، وهنا تعالى ذلك الصوت العميق مجدداً إلى درجة تصم الآذان، ومعه ذراع الرافعة وضاق المثلث بينها وبين دعامتها في صمت، ولكنني لم أستطع سماعها حينها.

غمر وهج القمرين الساطع الأرض وطمس معالم النجوم في الفضاء، وبدأت بوابة البئر المظلمة تنفتح بواسطة خطاف الرافعة في الوقت الذي كان فيه البشع الذي يرتدي القفطان الأرجواني يتأمل المشهد فوقه، وعندما

نظرت ليا إلى الأسفل، التقت عيناها الواسعتان الزرقاوان بعينيه الغائرتين عميقاً وسط رأسه الأخضر.

تعرفت ليا إليه بالرغم من التغييرات التي حصلت له والسنوات التي فصلتها عن آخر لقاء جمعهما، فحاولتُ سحبها إلى الخلف، ولكنها انتفضت بشدة كادت أن تودي بحياتها عن الحافة، وارتسم الرعب والحيرة على وجهها بوضوح، في حين صدمني وأذهلني مشهد تصادم القمرين، وبدأت أشلاء الحطام تتباعد وتلاشى الضوء شيئاً فشيئاً.

ظهر هلال أسود على حافة بوابة البئر المظلمة، وسرعان ما استحال ابتسامةً، وارتفع صوت صرخة الرضا الأجش عالياً في أثناء سير قاتل الرحلة مترنحاً صوب البئر، وارتفع رداؤه الأرجواني في اتجاهات مختلفة حاجباً رأسه المترهل لوهلة قبل أن يسقط عن أحد جانبيه على الأرضية الحجرية كاشفاً عن كائن نصفه رجل، مثل الحورية التي نصفها امرأة، حيث اختفت أرجله وحلت محلها كتلة مجسات سوداء تتحرك بسرعة وتتأرجح يميناً ويساراً، كما برزت أخرى إضافية من كيس معلق إلى بطنه، وانتصبت ناحية البوابة المفتوحة، وتحولت ذراعاه إلى ما يشبه ثعبانين تمايلا حول وجهه مثل أعشاب بحرية تواجه تياراً قوياً، ورغم مقايضة قدميه المشوهتين وظهره المنحني الأحدب مقابل شيء أسوأ بكثير، إلا أن ذلك المخلوق لم يكن كثولو، ولعله شبيهه في ذلك العالم، كما أدت دورا دور العجوز القاطنة في منزل على هيئة حذاء، وتقمصت ليا شخصية فتاة الإوز، وفي النهاية هل كفاه الانتقام وتدمير المملكة شيئاً فشيئاً من أجل تحقيق عدالته؟

وصلت ليا أسفل السلالم في الوقت الذي ظل فيه حطام بيلا وأرابيلا ينتشر في الفضاء فوقنا.

صرخت: «أتوسل إليك أن تتوقفي يا ليا».

أخيراً، توقفت ليا إلى جوار المحمل وستائره المتدلية، ليس استجابةً ليّ لأنني أُرجح أنها لم تسمعني، ولكن صبت انتباهها على شقيقها مترهل الجسد وهو ينحني فوق بوابة البئر متلهفاً، وقد تدلت مكونات وجهه كالعجين وسقط التاج عن رأسه مجدداً، وانبثقت مجسات سوداء إضافية من عنقه، وظهره وشق مؤخرته، ورأيت بعينيّ كيف دبت الحياة في كابوس الحكايات الخيالية، وتحول إلدن إلى سيد الآلهة القديمة؛ كثولو.

ولكن ما زال الوحش الحقيقي في الأسفل وقد اقترب ميعاد خروجه.

غوغماغوغ.

8

أذكر ما حدث بوضوح مفجع، إذ شهدت كل شيء من مكاني برفقة رادار على بعد عشر أقدام تقريباً فوق المحمل الفارغ، وما زال كابوس ذلك اليوم يراودني حتّى الآن.

نبحت رادار، ولكنني عجزت عن سماعها وسط الطنين الصادر عن البئر المظلمة، ثمّ رفعت ليا خنجرها وغرسته وسط القرحة بجوار فمها المختفي، ووضعت كلتا يديها فيها وشدتها يميناً ويساراً ناحية الندبة.

تناثر رذاذ الدماء من فمها المفتوح حديثاً وصرخت ليا: «إلدن!» بصوت ربما جعله أسلوب كلامها السابق أجش، وكانت كلمتها الحقيقية الأولى منذ فترة طويلة قويةً كفايةً كي يسمعها شقيقها البائس رغم طنين البئر، فالتفت ورآها فعلاً للمرة الأولى.

«توقف يا إلدن. لنتحدث أولاً».

تردد إلدن وسط غابة المجسات المتموجة أمامه والمتزايدة باسمرار، ولاحظت في عينيه الضبابيتين شيئاً ما؛ هل هو الحب، أو الندم، أو الألم؟ وربما هو الخزي لأنه ألقى لعنةً على الشخص الوحيد الذي يحبه وعاملها كما

عامل الذين يكرهونه، أو الرغبة في الحفاظ على بقايا ما خسره بعد فترة حكم قصيرة جداً (ولكن ألا نواجه جميعنا الشعور نفسه عند اقتراب نهايتنا؟).

عجزت عن إدراك ماهيته، ونزلت الدرجات الأخيرة متجاوزاً المحمل ولم أكن أنوي شيئاً أو أفكر في شيء سوى رغبتي في إبعادها من هناك قبل ظهور المخلوق القابع في البئر، وفكرت في الصرصار العملاق الذي هرب إلى مخزن السيد بوديتش، وكيف أراده الأخير ميتاً، فتذكرت أنني أحمل سلاحاً في يدي.

مشت ليا ناحية كتلة المجسات المتموجة ولم تعرف خطورتها، وقد داعب أحدها خدها في أثناء تأمل إلدن إياها. هل كان يبكي؟

قال إلدن بصوت أجش: «تراجعي ما دمت تستطيعين ذلك، لأنني عاجز عن...».

التفت إحدى المجسات حول عنق ليا الملطخة بالدماء، وأدركت ما عجز إلدن عن فعله؛ إنه عاجز عن إيقاف جزء منه واقع تحت سيطرة المخلوق السفلي، أليس في مئات كتب مكتبة القصر التي قرأها قصة نشأت المخلوقات جميعها حيث ذكر أن التعامل مع الشيطان يفرض عليك الاستغناء عن شيء ما؟

قبضتُ على مجس ربما كان جزءاً من ذراع إلدن قبل عقده الصفقة، وحررت عنق ليا منه، وشعرت أنه قوي ومغطىً بمادة لزجة، ثمّ أفلتته عندما توقفت ليا عن الاختناق، وعندها التف مجس آخر حول رسغي، وأمسك مجس ثانٍ بفخذي، وجذبني المجسان صوب إلدن والبئر المفتوحة.

رفعت سلاح السيد بوديتش كي أطلق النار، وقبل أن أستطيع ذلك، التف مجس حول سبطانته وانتزعه من يدي ورماه على الأرضية الصخرية الصلبة ناحية المحمل الفارغ، في تلك الأثناء كانت نظرات رادار تنتقل بين إلدن والبئر وبدت غاضبة جداً ونبحت بقوة حتّى تطاير اللعاب من فمها

وسارعت كي تعضه، ولكن إحدى مجسات إلدن جلدتها مباشرةً – التي كانت جزءاً من ساقه اليسرى – وطرحتها أرضاً في حين واصلت المجستان سحبي إلى الأمام، ولعل الوحش بكى على حال شقيقته، ولكنه ابتسم محتفلاً بنصره المروع الحقيقي أو الخيالي، ثمّ برز مجسان صغيران إضافيان عبر تلك الابتسامة كي تتحسس الأجواء، وما زالت الرافعة تفتح بوابة البئر، وكان هناك شيء يدفعها من الأسفل.

قلت في نفسي: «يوجد عالم آخر مظلم في الأسفل، وأنا لا أرغب في رؤيته».

صرخ ذلك المخلوق الرخو أخضر الوجه في ليا: «لقد كنتِ جزءاً من كل هذا، ولو وافقت على مرافقتي لأصبحت ملكتي».

في الوقت الذي التفت مجسات إضافية حول ساقي ليا وخصرها وعنقها وسحبتها إلى الأمام، بدأ شيء زيتي أسود رصعته أشواك بيضاء يخرج من البئر، وصفع الأرض مبللاً إياها بشيء ما، وتبين أنه جناح.

صاحت ليا: «أنا الملكة الحقيقية، وأنت لست شقيقي فشقيقي لطيف، وأنت مجرد مجرم محتال».

سحبت خنجرها والدماء تتقطر منه، وغرسته في عين شقيقها، فتراجع إلى الخلف وأفلتتها المجسات، في حين رفرف الجناح مرةً واحدةً وأرسل موجةً هوائيةً كريهة الرائحة إليّ، ثمّ التف حول إلدن، وطعنته أشواكه، وشده إلى فوهة البئر، فأطلق قاتل الرحلة صرخةً أخيرةً قبل أن تخترق الأشواك صدره، وينزل إلى الأسفل.

لكن لم يبدُ أن استرجاع الوحش لدميته كافٍ، فنهض ذلك المخلوق الغريب من البئر، وتفحصتنا عيناه الذهبيان الضخمتان والبارزتان من شيء لا يمكن وصفه بالوجه أبداً، كما سمعت صوت خرمشة وطحن تلاه ظهور جناح آخر مغطىً بالأشواك، وحمل معه عاصفةً أخرى من الهواء كريه الرائحة.

صرخت ليا: «تراجع بأمر من ملكة إمبيس»، وتناثرت قطرات الدماء الصغيرة من فمها المتحرر المتمزق على ذلك الشيء البارز.

تابع الشيء طريقه إلى الخارج مرفرفاً بجناحيه الشائكين كي يسيل سائل كريه الرائحة منهما، وبالكاد استطعت تبين شكله المحدب الملتوي وجانبيه النابضين مثل المنفاخ خلال خروجه وسط ضوء القمرين الذي تخافت قليلاً، وامتص جسده الغريب رأس إلدن ووجهه المذعور، واختفى مثل شخص سحبته الرمال المتحركة.

استحال نباح رادار صراخاً.

اعتقدت أنه تنين من نوع ما، ولكن يختلف عن أقرانه في كتب الحكايات الخيالية من عالمي، أو عالم ليا؛ حيث كشفت البئر المظلمة عن عالم فاق تخيلات البشر أجمعين، وفشلت أوامر ليا في إيقاف ما حدث.

خرج ذلك الكائن.

لقد خرج حقاً.

لقد سبق للقمرين أن قبّلا بعضهما، وسيتحرر الكائن قريباً.

9

تجنبت ليا إصدار أي أمر بعد أن أدركت عدم فعاليته، بل اكتفت بالنظر ومراقبة انبثاق ذلك المخلوق من البئر، وسيطر في المكان نباح رادار، التي لم تبارح مكانها بشكل عجيب وبطولي أيضاً.

رأيت الموت ينتظرني، وأدركت أنه رحمة أمام أي مصير آخر، مثل قضاء بقية حياتي وسط هذا الطنين المريع رفقة رادار وليا بعد أن يسحبنا ذلك الشيء إلى جسده الغريب.

سبق لي أن قرأت أن المرء يرى شريط حياته في لحظات مثل هذه اللحظة، وقد شهدت شخصياً مرور صور من أحد الكتب سريعاً أمام عيني، واحتوت حكايات خياليةً صادفتها في إمبيس، انطلاقاً من سيدة الحذاء، وفتاة الإوز، ومنازل المنفيين الثلاثة الصغار، وحتى الشقيقات الشريرات وتركهن شقيقتهن الصغرى (أو شقيقهن الصغير المشوه) دون أخذها إلى الحفلة الراقصة.

ازداد حجم الوحش شيئاً فشيئاً وخفق بجناحيه في حين اختفى إلدن وسط أحشائه الغامضة.

يحكى أن شاباً شريراً يدعى كريستوفر بولي حاول سرقة ذهب السيد بوديتش.

ويحكى أن قزماً شريراً يدعى بيتركين حمل خنجراً كي يعذب السناب.

ويحكى أن شاحنة سباك صدمت والدتي على جسر شارع سيكامور ودفعتها ناحية سياجه كي تلاقي حتفها ويبقى معظم جسدها عليه، في حين هوى رأسها وكتفاها إلى نهر ليتل رامبل.

قد تجد كل شيء متفرعاً عن قصة أساسية واحدة؛ رومبيلستيلتسكين، ولكن كيف تخلصت ابنة الملكة من ذلك القزم المزعج؟

صرخت: «أعرف اسمك»، وبدا صوتي مختلفاً عن صوت الفتى الذي وطأت قدمه للمرة الأولى أرض إمبيس، وكذلك كثير من الأفكار والتأملات الواردة في هذه القصة ليست وليدة تشارلي ريد الذي يبلغ من العمر سبعة عشر؛ ورغم أنني أمير افتقر السلطة سواء هناك أو في عالمه، ولكنني تحولت إلى شخص مختلف، وقد أطلقت بدايةً لقب «الغريب» على عالم إمبيس، ثمّ تبيّن أنني ذلك الغريب المرسل إليها، وبدت الفكرة الأخيرة حقيقةً حتميةً في تلك اللحظة تحديداً، وكذلك عودتي قبل هنيهة في الزمن سنوات ورؤيتي كيف تعرضت والدتي إلى حادث خلال عبورها الجسر وهي

تتناول أجنحة الدجاج، وربما أشك فيها عند استعادة شخصيتي الحقيقية، ولكن ليس حينها.

«أعلم اسمك يا غوغماغوغ. وأنا أأمرك أن تعود إلى عرينك».

صرخ الوحش فاهتزت الأرضية تحتنا وتصدعت، وكذلك اخترق شق كبير ملعب الفراشات فوقنا وخرج الموتى من قبورهم، ثمّ حرّك ذلك المخلوق جناحيه الهائلين فتناثرت منها قطرات لاذعة كريهة الرائحة وكأنها حمض حارق، وقد أحببت صراخه؛ لأنني أمير شرير، وكانت تلك صرخة ألم.

«يا غوغماغوغ. أنت تدعى غوغماغوغ».

صرخ بشدة عندما ذكرت اسمه، واقتحم صوته رأسي مثل الطنين حتّى أوشك أن يفجر جمجمتي، ورفرف بجانحيه بجنون وحدقت عيناه العظيمتان إليّ.

فتحت ذراعي وقلت: «عد إلى عرينك يا غوغماغوغ. قد يحين موعد عودتك مجدداً يا غوغماغوغ. ربما خلال العشرة آلاف سنة القادمة يا غوغماغوغ. ولكن الموعد ليس اليوم يا غوغماغوغ. وإن التهمتني يا غوغماغوغ. فسأصرخ باسمك من داخل جسدك حتّى أموت».

أخذ الوحش يتراجع وطوى جناحيه فوق عينيه القبيحتين في الوقت الذي كان يُحدق فيه إليّ، ونزل من حيث جاء مصدراً صوتاً مقرفاً جداً شبيهاً بصوت انسكاب الماء، وتساءلت كيف السبيل إلى تشغيل الرافعة العملاقة وإغلاق بوابة البئر، ولكن ليا كانت تعرف، فتكلمت بصوتها الأجش الحزين... وبدا لي أن شفتيها برزتا حول فوهة فمها المشوه، ولكن التزمت الصمت حيال ذلك نظراً إلى كثرة الأمور التي أجبرت على تصديقها.

«أغلقي باسم ليا غالين».

تحركت ذراع الرافعة إلى الأسفل ببطء يفوق قدرتي على تحمله، وتنفست الصعداء عندما ارتخى الحبل وأفلت الخطاف عن الغطاء.

ارتمت ليا بين ذراعي وعانقتني بقوة، وأحسست دفء دماء فمها المفتوح حديثاً على عنقي، وفجأة انقض عليّ شيء من الخلف؛ كانت رادار، وقد وقفت على قائمتيها الخلفيتين، وثبتت الأماميتين أسفل ظهري، وهزت ذيلها بجنون.

سألتني ليا بصوتها الحزين: «كيف عرفت كيفية إيقافه؟».

أجبتها: «استنتجت ذلك من قصة أخبرتني إياها والدتي... يجب أن نغادر الآن يا ليا وإلا سنتلمس طريقنا وسط الظلام، وعليك التزام الصمت، أعلم كم يؤلمك التحدث»، وقد أخبرتها الحقيقة نوعاً ما حيال طريقة إيقاف غوغماغوغ؛ حيث استخلصت القصة حينها من ذكرى وفاة والدتي.

قالت: «هذا صحيح ولكن الألم رائع... دعنا نتفقد المحمل، لا بد من أنهم أحضروا فانوساً واحداً على الأقل، هل بقي لديك أي عيدان ثقاب؟».

تبين أن لديّ بعضاً منها، ويا لها من أعجوبة، ثمّ أمسكت يدها ومشينا صوب المحمل الفارغ وسارت رادار بيننا، وبالكاد لاحظت أن ليا انحنت مرةً واحدةً خلال طريقنا، ولكن انصبذ تركيزي على إيجاد شيء يضيء طريقنا قبل أن يتلاشى النور الصادر عن حطام القمرين إلى الأبد.

فتحت إحدى ستائر المحمل كي أجد امرأةً منكمشةً في الجانب المقابل، وكانت فرداً نسيته من حاشية إلدن، حيث قال بيرسيفال: «قاتل الرحلة، وأربعة آخرون، والوضيعة»، وربما وصفها بـالساحرة.

وضعت بيترا سلاسل لآلئ بشكل متصالب على شعرها، وقد خرجت بضع خصلاته من بينها، كما انحلت مساحيق تجميلها وبرزت تشققات قليلة

فيها، والتفتت إليّ بعينيها وسط وجهها المقرف الخائف وقالت: «لقد أفسدت كل شيء أيها القذر الكريه».

أضحكتني كلمة القذر، وقلت: «لا، لا يا عزيزتي، تستطيع العصي والحجارة إيذائي ولكن الكلمات لا تستطيع».

تدلى شيء أسعدني من خطاف نحاسي أخضر في مقدمة المحمل؛ إنه أحد الفوانيس الشبيهة بالقذائف.

«لقد اختارني زوجه، هل تسمعني؟ وسمحت له أن يلمسني بتلك الأفاعي الكريهة التي كانت ذراعاه يوماً، وقد لعقت لعابه، لم يكن يفصله عن الموت سوى أيام قليلة، أي أحمق سيلاحظ ذلك، وكنتُ عندها سأستولي على عرش إمبيس».

في الحقيقة، لم أجد أن كلامها يستحق الردّ.

أخذت الفانوس، ولاحظت أن شفتيها كشفتا عن أسنان بعيدة عن بعضها، مثل هانا، ولعل ذلك النمط لاقى رواجاً في بلاط قاتل الرحلة الكريه، فاندفعت إليّ فجأة وعضتني فجأة بشدة في ذراعي عضةً آلمتني، وسالت الدماء من تحت شفتيها المثبتين بإحكام على جلدي وبرزت عيناها من وجهها، وكانت محاولة التحرر منها لتكلفني جزءاً من جسدي ومع ذلك لم أستطع التحرر من أسنانها.

صرخت ليا بخشونة: «خذي هذه أيتها الكريهة النتنة».

دوى صوت رصاصة مسدس السيد بوديتش وصم آذاننا، وأدركت أن ليا انحنت سابقاً والتقطته كي تفتح فوهةً في مسحوق التجميل الكثيف المتكتل فوق عين بيترا اليمنى، فتراجع رأس الأخيرة إلى الوراء، ولاحظت قبل ارتطامها بأرضية المحمل شيئاً أمكنني الاستغناء عنه؛ لقد تدلت قطعة لحم من ساعدي في حجم مقبض الباب بين أسنانها المصقولة.

تصرفت ليا بسرعة، وانتزعت إحدى ستائر المحمل الجانبية المتدلية، ومزقت قطعةً طويلاً من أسفلها وربطتها حول الجرح بعد أن استحال أسود تماماً، ثمّ مددت يدي الأخرى وسط الظلام كي أمسك الفانوس (وجدت احتمال عودة بيترا إلى الحياة مجدداً كي تعض ذراعي السليمة أمراً سخيفاً، ولكنه ممكن جداً)، وأوشكت أن أوقعه لأنني ارتجفت من الخوف، وسواء كنت الأمير أم لا، فقد شعرت أن بيترا وضعت الوقود على ذراعي بعد عضها وأشعلت ناراً فيها.

قلت: «أشعلي أعواد الثقاب إنها في قراب المسدس».

أحسست يديها تلمسان خصري حتّى سمعت صوت خدش عود ثقاب على جانب المحمل، فأزلت زجاجة الفانوس وأدارت ليا مقبضاً جانبياً كي ترفع الفتيل وتشعله، ثمّ أخذت الفانوس مني، وهذا ما أسعدني لأنه أوشك أن يفلت من يدي.

بدأت صعود السلالم الحلزونية (اعتقدت أنني لن أسعد أبداً عند رؤيتها مرةً أخرى)، ولكن ليا سحبتني إلى الخلف وشدتني إليها، وشعرت بحركة فمها الممزق أمام أذني عندما همست:

«بيترا هي عمتي الكبرى».

قلت في نفسي: «إنها يافعة جداً كي تكون الكبرى في أي شيء»، ثمّ تذكرت كيف ذهب السيد بوديتش في رحلة وعاد بصفته ابنه.

قلت: «دعينا نخرج من هنا ولا نعود مجدداً».

10

صعدنا السلالم ببطء، واحتجت إلى الراحة بعد كل خمسين درجةً تقريباً، واهتزت ذراعي مع نبضات قلبي وتكرر في مخيلتي مشهد سقوط

بيترا ميتةً وفي فمها قطعة لحم مني، ورأيت كيف أشبعت الدماء ضمادة ليا الإسعافية.

أجبرني الإرهاق على الجلوس عندما وصلت إلى قمة السلالم، وأخذ رأسي يهتز مثل ذراعي، وتذكرت شيئاً قرأته في مكان ما عن الإصابة بإنتان خطير وربما قاتل، وهو أن لا شيء أسوأ من عضة حيوان مسعور سوى نظيرتها من فم إنسان بصحة جيدة، وما أدراني حيال نظافة فم بيترا بعد سنوات من مصاحبة إلدن؟ (رفض دماغي فكرة حدوث جماع فعلي)، وتصورت أن سمها يصعد عبر ذراعي وصولاً إلى كتفي ثمّ قلبي، ولم تكن أي من هذه الأفكار ترياقاً لألمي.

اقتربت رادار مني وداعبت متلهفةً جانب وجهي بأنفها، ومنحتني ليا بعض الوقت كي أجلس معها، ولكنها أشارت إلى خزان الفانوس وكانت رسالتها واضحةً: لقد أوشك الوقود أن ينفد، كما تلاشى وهج الجدران بعد موت إلدن وعودة غوغماغوغ، لذا علينا أن نتحرك مباشرةً إذا لم نرد تلمس طريقنا وسط الظلام.

ارتعشت شعلة الفانوس وانطفأت عندما قطعنا نصف المسافة تقريباً على الممر المنحدر المؤدي إلى الغرفة الكبيرة ذات الاثني عشر ممراً، فتنهدت ليا، وأمسكت يدي، وتابعنا طريقنا ببطء وسط الظلام المزعج، ورغم أن غياب الأصوات الهامسة والطنين عزاني، إلا أن ذراعي آلمتني بشدة، واكتشفت أن الدماء ما زالت تقطر، وأحسست دفئها في راحة يدي وبين أصابعي، وعندما شمتها رادار ناحت، وفكرت في آيوتا وكيف قُتل نتيجة جرح من سكين مسموم، وحاولت استبعاد هذه الفكرة من رأسي وكذلك مشهد قطعة اللحم المتدلية من أسنان بيترا المدببة، ولكنني عجزت عن ذلك.

توقفت ليا وأشارت أمامنا، وأدركت أنني أستطيع رؤية يدها عندما ظهر الضوء مجدداً في الممر، لم يكن ذلك الضوء الأخضر البغيض الصادر عن الجدران نصف الحجرية ونصف الزجاجية، بل وهجاً أصفر يتناوب بين التوهج والخبو، وانطلقت رادار ناحيته فور أن ازدادت شدته، ونبحت بقوة.

صرخت: «مهلاً. توقفي يا رادار»، وزاد ذلك من شدة الصداع الذي أعاني منه.

ولكنها مضت في طريقها ولم تصغِ إليّ، وأدركت أن نباحها ليس غاضباً وخائفاً مثل نظيره عند مواجهة العالم المظلم خلفنا (ولكنه ما زال قريباً وسيبقى كذلك)، بل نباحاً يُعبر عن الحماسة، كما لاحظت شيئاً خرج من الوهج المتزايد، أو قفز منه.

انحنت رادار ولامس بطنها الأرض وهزت ذيلها كي يثب السناب على ظهرها، ويليه فوج من اليراعات.

قلت: «يا إلهي، إنه سيد المخلوقات الصغيرة».

اجتمعت آلاف اليراعات على الأقل في هيئة سحابة براقة حول كلبتي وصرصار الليل الأحمر الكبير الراقد فوق ظهرها، وبدا كلاهما جميلاً وسط ذلك الضوء الخافت المتلألئ، ثمّ وقفت رادار استجابةً إلى أمر أصدره السناب بحسب ما أعتقد مستخدماً لغةً لا تسمعها الآذان البشرية، وصعدت الممر المنحدر، وكذلك اليراعات المحلقة فوقهما.

شدت ليا على يدي، وتبعناها.

11

انتظرتنا إيريس في الغرفة العملاقة ذات الاثني عشر ممراً، وقد ترك السناب معها كتيبةً من اليراعات كي تقيها الظلام الدامس، وعندما رأتنا

ركضت صوبي واحتضنتني حتّى تأوهت ألماً، فتراجعت ونظرت إلى الضمادة الإسعافية المشبعة بالدماء والقطرات المتساقطة منها.

«يا إلهي، ما الذي أصابك؟.. يا مولاي».

قلت وقد فكرت في استحالة الحديث عن كل شيء: «حصلت أمور كثيرة، أخبريني لماذا عدت إلى هنا؟».

«لقد أرشدني السناب وأحضر الضوء كما ترى، انس أمري، إنكما تحتاجان إلى العناية الطبية، ولكن فريد مريض جداً».

قلت في نفسي: «سنقصد كلاوديا إذن، لأنها تدرك تماماً إمكانية فعل شيء».

ثم أجبتها: «نحتاج أن نخرج من هنا أولاً، فقد كرهت التجوال تحت الأرض».

نظرت إلى صرصار الليل الأحمر الكبير على ظهر رادار، الذي نظر إليّ بدوره وقد منحته عيناه السوداوان رهبةً فريدةً، وقلت: «أرشدنا من فضلك أيها السيد سناب».

فأجاب طلبي.

12

اجتمع بضعة أشخاص أمام المخرج في غرفة الملابس وحلّقت الفراشات فوق رؤوسهم في سحابة مضيئة، ورأيت جايا وبيرسيفال بينهم إضافةً إلى آخرين من ديب مالين ولكن أعجز عن تذكر هويتهم الآن، وما أذكره جيداً كيف شعرت بالدوار شيئاً فشيئاً، وتجسد الصداع على هيئة كرة بيضاء نابضة تتدلى على مسافة بضع سنتمترات فوق عيني، كما لاحظت شيئين إضافيين بوضوح؛ نزول السناب عن ظهر رادار، وتعافي بيرسيفال قليلاً من دون أن أدري كيف حدث ذلك أبداً نظراً إلى الألم الشديد في

رأسي وذراعي، وقد ركع وفد الاستقبال أمامنا عند رؤية الأميرة، ورفعوا أيديهم إلى جباههم.

قالت الأميرة بصوت أجش: «انهضوا»، وبدا صوتها ضعيفاً جداً، وأرجعت ذلك إلى كثرة الكلام وتوقعت أن يتحسن مع مرور الوقت وقد عجزت حتّى عن تصور تخرب حبالها الصوتية إلى الأبد.

نهض الجميع، ومشيت مستنداً إلى ليا وإيريس من الجانبين، وخرجنا من المستودع المزدحم، واستطعت صعود معظم السلم الأول قبل أن تخذلني ساقاي، فحملني بعض الأشخاص وأعجز عن تذكر إن كانوا أصدقائي من ديب مالين، أو الرماديون، وربما من المجموعتين، ولكنهم أخذوني إلى قاعة الاستقبال حيث رأيت ما يفوق ثلاثين فرداً رمادياً على الأقل بين رجال ونساء منهمكين في إزالة أوساخ خونة الملك جان عن بلاطه، وبدا أن دورا بينهم وقد عقدت رباطاً أحمر على شعرها وانتعلت حذاء قماشياً في قدميها، وعندما رأتني وضعت يديها اللتين أوشكتا أن تستعيدا عافيتهما على فمها، وأرسلت لي قبلةً عبر الهواء.

قلت في نفسي: «إن دورا ليست هنا، وما هذه إلا أوهام أيها الأمير تشارلي لأنها عاجزة عن ترميم أصابعها، ولا تحدث أمور كهذه سوى في...».

أين؟ في قصص كهذه طبعاً.

رفعت رأسي فرأيتها مجدداً قبل أن يدخلوني إلى غرفة أخرى في الجوار تشبه غرفة الانتظار، ولمحت رباط رأسها الأحمر الزاهي وحذاءها الأصفر الفاقع دون التأكد من كونها دورا لأنها كانت تولييني ظهرها راكعة على ركبتيها تمسح القذارة.

مررنا عبر غرف أكثر وعبرنا رواقاً طويلاً وحينها بدأت أفقد وعيي شيئاً فشيئاً، وأسعدني الانتقال إلى مكان يستأصل الألم من رأسي ويريح ذراعي

من كونها حطبة عيد الميلاد الملتهبة، ولكنني قاومت أكثر لأنني أردت الموت في الخارج واستنشاق الهواء النقي مع أنفاسي الأخيرة.

أعمى ضوء ساطع بصيرتي وزاد شدة صداعي، ولكنه منحني إحساساً رائعاً لأنه ليس الوهج البغيض الصادر عن العالم السفلي القابع تحت ليليمار، ولا حتّى اللطيف المنبعث من اليراعات، بل أكثر من ذلك.

إنه ضوء الشمس.

حملوني إلى الخارج نصف جالس ونصف مستلقٍ، واستطعت رؤية السماء الزرقاء من بين الغيوم المتباعدة أعلى ساحة القصر العظيمة، وليس في مجرد بقعة أو اثنتين، بل رأيت أقواساً من اللون الأزرق وأميالاً مترامية على مد البصر، وأي شمس أنارت المكان! إذ الفتت إلى الأرض كي أرى ظلي، فشعرت وكأنني بيتر بان أمير الفتيان الضائعين.

تعالت صيحات صاخبة من رماديي إمبيس الواقفين وسط ساحة القصر، وركعوا جميعاً في مشهد مهيب جداً عند رؤية ليا.

نظرت ليا إليّ وشعرت أنها تقول: «أحتاج بعض العون هنا».

قلت: «أنزلوني من فضلكم».

أطاعني الحاملون واكتشفت أنني أستطيع الوقوف رغم الألم، وراودني شيء شعرت به عندما صرخت اسم غوغماغوغ بصوت ليس صوتي، ثمّ رفعت ذراعي اليمنى السليمة واليسرى المصابة وألقيت نظرةً على ضمادتها الجديدة، لعل جايا بدّلتها في لحظة ما، ولاحظت أن قطرات الدماء المتساقطة دون هوادة جعلتها حمراء قرمزيةً مثل أزهار الخشخاش المنتشرة على التلّ خلف منزل دورا الصغير الأنيق.

ظل الرماديون راكعين بصمت، ورغم الطاقة المتدفقة في عروقي حينها، إلا أنني تذكرت هوية سيدتهم التي ركعوا من أجلها، وانتمائي إلى

«العالم الغريب»، ولكن هناك عمل أخير يفترض بي القيام به هنا.

«اسمعوني يا أفراد شعب إمبيس. لقد مات قاتل الرحلة».

هتفوا استحساناً وشكراً.

«وقد أغلقنا بوابة البئر المظلمة على المخلوق القاطن فيها».

هتف الإمبيسيون مجدداً.

عندها تجردت من شعور أنني «الغريب» ومن طاقته، ومن القوة التي منحني إياها، وتصورت أنني سأعود إلى شخصية تشارلي ريد القديمة البسيطة مجدداً... وذلك إن بقيت حياً ولم أموت بسبب عضة بيترا.

«حيوا ملكتكم ليا يا أفراد شعب إمبيس. حيوا ليا غالي. حيوا ملكتكم».

كان والدي ليضحك من هيئتي حينها، وقد عجزت عن تبين ردّ فعل الجماهير أمامي، لأنني فقدت توازني في تلك اللحظة وسقطت أرضاً فاقداً وعيي.

الفصل الحادي والثلاثون
الزائرون- الملكة ترتدي ثوبها الأبيض- الشفقة- وودي وكلاوديا- مغادرة إمبيس.

1

قضيت وقتاً طويلاً في غرفة جميلة تموجت ستائرها مع نسيم الهواء المنعش الداخل من النوافذ المفتوحة، وتساءلت إن مضت ثلاثة أسابيع أم أربعة على وجودي هناك، ثمّ تجاهلت الفكرة لأن الأسابيع ليست في تقويم إمبيس، وإن كانت موجودة ربما اختلفت عن نظيرتها في عالمي على أقل تقدير، إذ اعتمدوا هناك شروق الشمس وغروبها، وقد اصطفت بقايا حطام بيلا وأرابيلا في شكل قلادة زينت عنق السماء ليلاً، ولكنها اختفت عن ناظريّ في وقت لاحق، وجل ما بقي منها ضوء متناوب مر عبر الستائر الناعمة جداً، وحاولت ممرضاتي (وكانت دورا، أو سيدة الأحذية، الفضلى بينهن) إغلاق النوافذ خلف الستائر أحياناً خشية أن تسوء حالي بسبب «ضباب الليل»، ولكنني منعتهن من ذلك رغبةً مني في استنشاق ذلك الهواء العذب، وقد أطعنّ أوامر الأمير لأنها في منزلة القانون، ولم يكن لديهن أدنى فكرة حيال استعادتي شخصية تشارلي ريد القديم البسيط، ولم أكن أعرف إن كن سيصدقن ذلك على أيّ حال.

جاء أشخاص كثير كي يطمئنوا على حالي في غرفة الستائر المتموجة، وبعضهم من الموتى أيضاً.

في أحد الأيام، دخل آيوتا؛ وأتذكر تلك الزيارة تماماً، ثمّ ركع على إحدى ركبتيه ووضع راحة يده على جبهته، ثمّ جلس على كرسي صغير سبق للممرضات الرماديات أن جلسن عليه من أجل إزالة الضمادات القديمة (وقد آلمني ذلك)، وتنظيف الجرح (وآلمتني تلك العملية أيضاً)، ووضع ضمادات جديدة، وقد فاحت رائحة قذارة بيترا المقززة في ذراعي بشدة، ولكن الألم خف شيئاً فشيئاً.

أعتقد أنني فضّلت تناول قرصين من دواء مسكن.

قال آي: «تبدو حالك مزرية يا صديقي».

«شكراً لك، هذا من لطفك».

قال آي: «هل تذكر الرجل المختبئ خلف الباب وسكينه؟ لقد غطاه سم الدبور، وهذا ما قتلني».

تذكرته، يلفظ اسمه (جيف) في الأمريكية و(جيوف) في البريطانية.

«فكّرت في أن بيترا أرادته زوجها بعد وفاة إلدن وتقلدها حكم العالم».

«ربما طلب من أحد الرماديين إقحام سيفه في عش دبابير فترةً طويلةً كي يغطيه سمها، ولعلها لسعت صديقنا المسكين حتّى قتلته».

أرجح حدوث ذلك حقيقةً، لأن الدبابير في إمبيس كبيرة وفي حجم الأسماك.

تابع آيوتا: «وهل أراد هذا التافه منصب الملك؟ لا أعتقد ذلك... لم تكن الدبابير خطيرةً سابقاً، ولكن...»، وهز كتفيه مستهجناً.

«ساءت الأمور عندما تقلد قاتل الرحلة الحكم».

بدا آيوتا هادئاً على غير العادة خلال جلوسه على ذلك الكرسي الصغير وقد وصلت ركبتاه إلى مستوى أذنيه، وقال: «تغيرت إلى الأسوأ، هذا صحيح، وقد احتجنا شخصاً كي ينقذنا، ولكننا حصلنا عليك، وأعتقد أنك أفضل من لا شيء».

قال آيوتا: «لعل سم بيترا أقل وطأةً من ذاك على سيف جيف، ولكن يبدو من هيئتك أنه سيئ كفايةً».

إنه سيئ طبعاً، وخاصةً بعد أن لعقت لعاب إلدن، ناهيك عن الفضلات المتراكمة في فمها قبل أن تعضني، وقد جعلتني تلك الأفكار أجفل قرفاً.

قال آي وهو ينهض: «قاوم أكثر أيها الأمير تشارلي».

غفلت عن لحظة دخوله، ولكن رأيته يخرج ويختفي خلف الستائر المتموجة.

دخلت إحدى الممرضات الرماديات والقلق بادٍ على محياها؛ رغم بقاء التشوهات الشديدة، إلا أنهن استعدن قدرة التعبير عن مشاعرهن في إيحاءات وجوههن، أي توقف تطور المرض؛ أو اللعنة، وحدث بعض الشفاء وإن كان بطيئاً، ولاحظت تصبغاً خفيفاً في معظم وجوه الرماديين، كما تلاشت الأغشية بين أصابعهم كي تعود أيديهم إلى طبيعتها، ولكن أشك في شفائهم تماماً، صحيح أن كلاوديا استعادت حاسة السمع قليلاً، ولكن تصورت أن وودي لن يبصر مجدداً.

قالت الممرضة إنها سمعتني أتكلم فاعتقدت أنني أهلوس مجدداً.

قلت: «كنت أتحدث إلى نفسي»، وربما ذلك صحيح، لأن رادار تعجز عن فعل شيء سوى رفع رأسها.

زارني كِلا أيضاً، من دون أن يزعج نفسه ويلقي التحية أو يجلس، بل وقف إلى جوار السرير وقال: «لقد غششت، ولو لعبت بنزاهة لقتلتك أميراً

كنت أم لا».

سألته: «وماذا توقعت؟ تفوقني وزناً بخمسين كيلوغراماً على الأقل، ناهيك عن سرعتك، ضع نفسك في مكاني ثمّ أخبرني أنك كنت ستلعب بنزاهة».

ضحك كِلا وقال: «أعترف أنك نلت مني هناك، ولكن أعتقد أن أيام تحطيمك العصي على رأس أحدهم قد انتهت، هل ستتحسن حالتك؟».

«لا أدري حقاً».

ضحك كِلا قليلاً ثمّ خرج من الستائر المتموجة قائلاً: «يا لك من فتى صلب حقاً، لن أقول أكثر من ذلك»، واختفى، ولكنه لم يأتِ حقيقة، وتذكرت أن عبارة يا لك من فتى صلب حقاً قد وردت في مشهد من فيلم قديم شاهدته برفقة والدي على قناة (تي سي أم) خلال فترة إدمانه، وأعجز عن تذكر اسم الفيلم، ولكن أذكر أن بول نيومان أدى دور دور شخص هندي فيه، حاول تخيل هذا المزيج الخيالي بين الممثل والشخصية إن وجدت قصتي صعبة التصديق.

في تلك الليلة سمعت- وربما في ليلة أخرى- صوت رادار تزمجر، والتفتت كي أرى كيلين، اللورد هاي شخصياً، جالساً في الجوار مرتدياً معطفه الأحمر الفاخر.

قال: «قد تسمع من الآخرين أن مكان العضة يتحسن وأخباراً جيدةً عن صحتك، ولكنها تسوء يا تشارلي لأن الإنتان يتغلغل عميقاً في جسدك ويواصل ذلك حتّى ترتفع حرارتك كثيراً وتتسارع ضربات قلبك وينفجر، وأنا بانتظارك برفقة كتيبتي من جنود الليل».

قلت: «اخرج أيها الخائن، لا أريد مشاركتك هواء الغرفة»، وكان رداً سخيفاً، لأن كيلين عاجز عن التنفس، وكان ميتاً حتّى قبل أن تقتله الفئران.

خرج كيلين، ولكن واصلت رادار الزمجرة، فتبعت نظراتها كي أرى بيترا تقف في الظلال، وتبتسم كاشفةً عن أسنانها القذرة.

اعتادت دورا النوم في غرفة الانتظار، فدخلت مسرعةً على ساقيها المقوستين عندما سمعت صراخي دون أن تشعل مصباح الغاز لأنها حملت واحداً من المصابيح شبيهة القذائف، وسألتني عن حالتي وخاصةً ضربات قلبي، إذ أوكلت إلى الممرضات مهمة رصد أي تغير في النظم، فأخبرتها إنني بخير، ولكنها أخذت نبضي وفحصت ضماد ذراعي.

«هل زارتك الأشباح؟».

أشرت إلى الزاوية.

مشت دورا بهدوء في خفيها القماشيين اللامعين إلى هناك، ورفعت المصباح أمام الزاوية الفارغة، وقد علمت أنها كذلك مسبقاً لأن رادار استغرقت في النوم مجدداً، ثمّ عادت إليّ وانحنت وقبّلت خدي بقدر ما سمح لها فمها المنحني، وقالت: «لا بأس، كل شيء بخير يا تشارلي، والآن اخلد إلى النوم كي تتعافى».

2

جاءني زوار أحياء أيضاً، مثل كاميت وكويلي، ثمّ دخل ستوكس متبجحاً وكأنه يملك المكان، وقد خيط خده المشقوق عبر عشرات القطب السوداء المتداخلة، ما جعلني أفكر في فيلم فرانكنشتاين الذي شاهدته على قناة (تي سي أم) برفقة والدي.

قال ستوكس وهو يحك القطب: «لقد منحني ذلك الوغد ندبةً كبيرةً، ولن أعود وسيماً مجدداً».

«لطالما كنت قبيحاً يا ستوكس».

زارتني كلاوديا بضع مرات، وفي أحد الأيام، عندماتأكدت نوعاً ما أنني سأنجو، رافقها الطبيب فريد، وقد دفعته إحدى الممرضات على كرسي متحرك ملكي أو ما شابه؛ إذ بدت الأسلاك المنبثقة من مركز العجلة وحتى محيطها مصنوعةً من الذهب الخالص، وكان عدوي اللدود كريستوفر بولي ليقتل نفسه من الحسد.

بتر الأطباء ساق فريد المشوهة بعد أن أصابها الإنتان، ولاحظت ألمه الشديد من هيئته وكذلك تجاوز هو مرحلة الخطر، وقد أسعدتني رؤيته. أزالت كلاوديا ضمادة ذراعي وعقمت الجرح ثمّ انحنا كلاهما فوقه حتّى أوشك رأساهما أن يتلامسا.

صاح فريد: «إنه يتعافى، ألا تعتقدين ذلك؟».

صرخت كلاوديا: «أجل! لقد أصبحت الذراع ورديةً. واختفت الرائحة سوى من البقايا العالقة في الضمادة»، ورغم استعادتها حاسة السمع وإن قليلاً، إلا أنها ستحافظ على نبرة صوتها الجافة المرتفعة طوال حياتها.

قلت: «ولكن لعل الإنتان موجود، وتغلغل عميقاً في جسدي».

تبادل فريد وكلاوديا نظرات الدهشة، وقد تألم الطبيب كثيراً كي يضحك، ولكن كلاوديا ضحكت عنهما معاً، وقالت: «من أعطاك هذه الفكرة الغبية؟».

«أليس هذا صحيحاً؟».

قال الطبيب فريد: «قد يختبئ المرض أيها الأمير تشارلي، ولكن ليس الإنتان، بل يتظاهر مباشرةً على هيئة قيح ورائحة كريهة... كم استأصلتم من ذراعه يا كلاوديا؟».

«لقد اقتطعنا قسماً بين مرفقه ومعصمه بسبب المثلث الكبير الذي قضمته بي، وسيترك ذلك فجوةً في هذه المنطقة إلى الأبد، أي ربما انتهت

أيام ممارستك الرياضة يا تشارلي».

قال فريد: «ولكن تستطيع استخدام كلتا يديك من أجل حك أنفك»، وقد أضحكني ذلك، وبعث الابتسام راحةً في نفسي ولا سيما بعد أن راودتني موجة كوابيس بعد العودة من البئر المظلمة، وقد افتقرت إلى اللحظات السعيدة حقاً.

أخبرت الطبيب: «يجب أن تستريح وتتناول بعض الأوراق التي تمضغونها من أجل تسكين الألم، إذ تبدو في حال أسوأ مني».

قال فريد: «لا تقلق فأنا أتحسن، نحن ندين لك بحياتنا يا تشارلي».

ولكن هذه ليست الحقيقة كاملةً، لأن السناب أدى دوراً كبيراً على سبيل المثال، حيث ظهر في الأوقات المناسبة دوماً (امتلك أسلوباً فريداً في فعل ذلك)، وكذلك بيرسيفال، ولكن قصته مختلفة تماماً، وقد تجنب زيارتي حتّى طلبت حضوره، فدخل بخجل غرفة الستائر المتموجة مرتدياً ملابس الطهاة البيضاء وحاملاً قلنسوةً ضمها بقوة إلى صدره، وافترضت أنها قبعة الطهاة في إمبيس.

انحنى كثيراً أمامي وارتجفت يده عندما حياني، وقد خاف النظر إليّ حتّى طلبت منه الجلوس وقدمت له كوباً من الشاي المثلج، وشكرته على تضحياته وأخبرته كم أنا سعيد برؤيته، فأطلق ذلك لسانه قليلاً في البداية قبل أن يقص عليّ أخبار ليليمار كاملةً والتي لم أسمعها سوى منه، ربما لأنه شهد الأحداث من منظور العاملين.

غادر معظم من جاء كي يساعد في إسقاط حكم قاتل الرحلة إلى بلدته أو مزرعته، ولكن حل محلهم مئات غيرهم من أجل تأدية واجبهم تجاه الملكة ليا قبل العودة إلى أوطانهم في مناطق مثل سيفرونت وديسك، ووجدت الأمر قريباً من شيء قرأت عنه في المدرسة حول أسلوب وكالة إدارة مشروعات العمل، وقد انهمك السكان في تنظيف الشوارع وإزالة

الأوساخ والحطام، وغسلوا النوافذ ورمموا الحدائق، كما أصلح سمكري خبير النوافير واحدةً تلو الأخرى، ودفن الأموات مجدداً بعد أن رقدوا في سلام مرةً أخرى، كما أعيد افتتاح بعض المتاجر، وقريباً سيعاد افتتاح متاجر أخرى، ولاحظت أن حديث بيرسيفال ما زال مشوهاً ومتداخلاً ويصعب فهمه أحياناً، ولكن سأعفيك منه.

«يتغير لون زجاج الأبراج الثلاثة شيئاً فشيئاً أيها الأمير تشارلي من الأخضر الداكن القبيح إلى الأزرق كما عهدناه في الأيام الخوالي ويحاول بعض الخبراء إصلاح أسلاك العربات اعتماداً على ذاكرتهم، وسيمر وقت طويل قبل رؤية السيارات تعمل مجدداً، ورغم أنها تعطلت دوماً في أحسن حالاتها، إلا أن وجودها أمر جميل».

قلت: «ما زلت أجهل كيف تعمل تلك العربات في غياب الكهرباء، باستثناء الناتجة عن المولد الصغير القابع في مستويات القصر الدنيا، وأعتقد أن صديقي السيد بوديتش قد أحضره».

بدا بيرسيفال محتاراً لأنه يجهل معنى كلمة كهرباء، وأعتقد أنني نطقتها بالإنكليزية وليس الإمبيسية.

قلت: «أقصد الطاقة، من أين تستمد العربات الطاقة؟».

أشرق وجهه كثير الحفر، وبطيء التحسن، وقال: «لقد فهمت الآن، نحصل عليها من المحطات طبعاً، وهي...».

لفظ بيرسيفال هنا كلمةً مبهمةً، وأدرك ذلك فحرك إحدى يديه على شكل موجة.

«لدينا محطات على النهر والجداول الكبيرة أيها الأمير تشارلي، ونستطيع الحصول الطاقة من البحر، كما توجد محطة كبيرة جداً في سيفرونت».

أعتقد أنه تحدث عن آلية توليد الكهرباء اعتماداً على حركة المياه، ولكن عجزت عن فهم كيفية تخزينها، وبقي ذلك غامضاً بالنسبة إلى جانب أمور كثيرة في إمبيس، ومقارنةً مع حقيقة وجود تلك البلاد – وموقعها، فقد بدا الاستفسار عن مخزن الطاقة تافهاً وعديم الجدوى أيضاً.

3

زارني أشخاص كثيرون من الأحياء والأموات بين شروق الشمس وغروبها، باستثناء من رافقتني إلى البئر.

ثم جاءت فتاة الإوز في أحد الأيام بعد أن أصبحت ملكة إمبيس.

بينما كنت جالساً على الشرفة وراء الستائر أتأمل ساحة القصر المركزية وأتذكر أموراً محزنةً، تحركت الستائر البيضاء إلى الخارج بدل الداخل ووقفت ليا بينها مرتديةً ثوباً أبيض تزينه سلسلة من الذهب الخالص حول خصرها النحيل (ما زال نحيلاً جداً) ولكنها لم تضع تاجاً على رأسها، ولكن وضعت في أحد أصابعها خاتماً يحمل فراشةً، وتصورت أنه رمز المملكة، ومنحوها إياه اتقاء أيّ متاعب قد يسببها التاج.

نهضت وانحنيت أمامها، وقبل أن أرفع يدي إلى جبهتي أمسكتها ووضعتها فوق قلبها وقالت: «لا، لا تفعل ذلك»، وبدت لهجتها قريبةً جداً من لهجة العاملين ما أضحكني كثيراً، وقد اختفت بحة صوتها ولكنه لا يزال أجش قليلاً، وجميلاً حقاً، ولكن أشك أنه يشبه ما كان عليه قبل اللعنة.

«أفضل الحصول على عناق في حال تسمح ذراعك المصابة بذلك».

عانقتها بشدة، وفاحت منها رائحة عطر خفيفة تشبه شجيرة العسلة[54]، وأردت احتضانها إلى الأبد.

قلت: «اعتقدت أنك لن تزوريني أبداً، ونسيت وجودي».

أجابت: «كنت مشغولةً جداً، تفضل واجلس يا عزيزي، أريد رؤيتك والتحدث إليك»، وقد حاولت تجنب تلاقي عيوننا.

4

أعفيت الممرضات من رعايتي كي يؤدين واجباتهن نظراً إلى كثرة الأعمال في الأسابيع التالية لسقوط قاتل الرحلة، ولكن بقيت دورا وأعدت من أجلنا إبريقاً كبيراً من الشاي الإمبيسي.

قالت ليا: «سأشرب كثيراً لأن حلقي يبقى جافاً دوماً، ولكن ازدادت سهولة الكلام وخف الوجع، ولا داعي كي أصف حال وجهي».

تلاشت قرحة التغذية القبيحة تقريباً، وانفتح فمها، ولكن ندبات كثيرة شوهت شفتيها، وحلت قشور حمراء قاتمة مكان جروحها، وستبقى عاجزةً عن تحريكه بشكل طبيعي، حالها كحال بصر وودي وسمع كلاوديا، ثمّ فكّرت في عبارة ستوكس: «لن أعود وسيماً مرة أخرى» وكيف انطبقت تماماً على حالة الملكة ليا، إلا أنها كانت جميلةً حقاً.

قالت: «خشيت أن تراني هكذا، إذ أميل إلى تغطية فمي عند التعامل مع الآخرين؛ أي معظم وقتي، ويجب أن أمنع نفسي عن ذلك، وحين أنظر إلى المرآة...»، رفعت يدها ولكنني أمسكتها وثبتها في حضنها قبل أن تضعها على فمها.

«أود تقبيله إن كان لا يؤلمك».

ارتسمت على شفتيها ابتسامة مائلة وساحرة في الوقت نفسه، لعل ميلانها منحها ذلك الجمال، وقالت: «تبدو صغيراً على قبلات الحب».

قلت في نفسي: «أحبك على أيّ حال».

سألتها: «كم عمرك؟»، ومن الوقاحة طبعاً طرح سؤال مثل هذا على الملكة، ولكن أردت معرفة نوع الفتيات اللواتي يجذبنني.

«أبلغ من العمر ضعف عمرك وربما أكثر».

فكرت في السيد بوديتش حينها وقلت: «هل سبق لك أن استخدمت الساعة الشمسية؟ أعني لست على وشك الاحتفال بعيد ميلادك المئة، أليس كذلك؟».

أستغرب كيف أمكن وجهها أن يجمع ملامح الذعر والدهشة في الوقت نفسه، وقالت: «لا أحد يذهب إلى الساعة الشمسية أبداً لأنها خطيرة جداً، وجرت العادة أن تقفل ويحرسها الجنود عند إقامة الألعاب في ملعب الفراشات – سنعيد إحياءها مجدداً بعد الانتهاء من أعمال الترميم الكثيرة – خشية أن تستميل واحداً من الجماهير الغفيرة في تلك الأيام، وقد أخبرني إلدن أنها قديمة جداً وموجودة قبل قيام ليليمار أو التفكير في بنائها».

أقلقني سماع تلك الأمور، فانحنيت ومسحت على كلبتي الراقدة بين قدمي وقلت: «ولكن رادار استعملتها، ولعل كلاوديا أخبرتك أن مرض رادار الشديد ما أحضرني إلى هنا».

انحنت الملكة ومسحت على رادار بنفسها فنظرت الأخيرة إليها متكاسلةً، ثمّ قالت ليا: «أعلم ذلك، ولكنها حيوان بريء مجرد من جذور الشر المتأصلة في قلوب البشر جميعاً، وأخي منهم، وقد دمرته في النهاية، وأعتقد أنها موجودة في عالمك أيضاً».

عجزت عن معارضة ذلك.

«تغير الساعة الشمسية الأفكار والمشاعر يا تشارلي، ناهيك عن تأثيرات أخرى، ولذلك يتجنب أفراد الأسرة الحاكمة استعمالها وإن لمرة واحدة».

«لقد صعد صديقي السيد بوديتش عليها، وكان شخصاً طيباً في الحقيقة».

ولكنها أدركت بعد التفكير في الأمر أنه ليس صحيحاً تماماً، حيث وجدت التعامل صعباً مع شخصية السيد بوديتش الانطوائية الغاضبة، بل مستحيلاً تقريباً، وكنت لأستسلم لولا قطعت عهداً أمام الرب (وكما يقول أفراد جمعية الكحوليين المجهولين)، وقد لعب سقوطه وكسر ساقه دوراً كبيراً في معرفتنا، إضافةً إلى وحدته دون زوجة أو أطفال أو أصدقاء، بل مجرد دلو من القطع الذهبية في خزنته، وتشبثه بمقتنياته القديمة: الأثاث، والمجلات، والتلفاز، وسيارة ستودبيكر القديمة، وقد كان، وأقتبس كلماته، شخصاً جباناً أحضر الهدايا بدل أخذ موقف، وإذا أردت وصفه بأسلوب قاس قليلاً لقلت إنه يشبه كريستوفر بولي بعض الشيء، وبالتالي رومبيلستيلتسكين، وهذا ليس رأيي الشخصي، بل مجرد مقارنة حاولت تجنبها كثيراً وعجزت إلا عن ذكرها، ولكن لولا وجودي ومحبة كلبة السيد بوديتش له، لتوفي في منزله على قمة التل دون أن يعرفه أحد أو يتذكره، تاركاً الممر بين العالمين دون حراسة وعرضةً كي يكتشفه أي شخص، ألم يخطر في باله هذا الأمر أبداً؟

في تلك الأثناء، تأملتني ليا ودورت خاتم الفراشة حول إصبعها، ثمّ ارتسمت الابتسامة المائلة على وجهها وقالت: «هل كان شخصاً لطيفاً من الداخل، أم أصبح كذلك بفضلك أيها الأمير تشارلي؟».

قلت: «أرجوك أن تتوقفي عن مناداتي بهذا اللقب»، لأنني أريد أن أكون أميرها فقط ولا أحد سواها، وكأن لدي خيار، وقد بدأ لون شعري وعيني يعود إلى طبيعته شيئاً فشيئاً.

وضعت ليا يدها على فمها، ثمّ أجبرت نفسها على إنزالها إلى حضنها مجدداً وقالت: «هل كان طيباً من تلقاء نفسه يا تشارلي، أم أرسلتك ملائكة السماء نعمةً إليه؟».

وجدت نفسي عاجزاً عن الإجابة، وأعلم مقدار ما امتلكت من الحكمة والقوة خلال وقتي في إمبيس، ولكن تلاشى ذلك وعدت ضعيفاً ومتردداً مجدداً، وقد أزعجتني كثيراً الذكريات المؤلمة عن السيد بوديتش، مثل كثرة غبار منزله والرائحة الكريهة التي استوطنته قبل أن أجدد هواءه بنفسي.

فجأةً قالت ليا: «هل استعملت الساعة الشمسية يا تشارلي؟».

«لا، بل أنزلت رادار عنها، كما أنها قفزت أيضاً، ولكن أحسست هالة طاقتها... هل أستطيع سؤالك شيئاً؟».

«أفكر في كيفية اعتلائنا المنصة الذهبية وصعودنا إلى أعلى قبل النزول إلى الأسفل عبر السلالم اللولبية».

ارتسمت ابتسامة صغيرة على وجه ليا، وكانت أقصى ما استطاعت: «لقد نجحنا رغم خطورة الأمر».

«هل تقود السلالم بين الجدران إلى الغرفة تحت الأرض؟».

«أجل، وقد عرف إلدن طريقين إليها؛ ما ذكرته الآن، وما عبرناه من غرفة الملابس، وربما يوجد غيرها، ولكنه لم يخبرني سوى عن هذين».

سألتها: «ولماذا سلكنا الطريق الطويل؟». وأوشكنا أن نسقط، ولكن أسررت الجملة الأخيرة.

«سمعت أن قاتل الرحلة يستطيع المشي بضع خطوات فقط، لذا فهو يُفضل السلالم بين الجدران لأنها أكثر أماناً، كما أردت تجنب لقاء حاشيته، ولكن نفدت الخيارات منا في النهاية».

«لولا عرجنا إلى شقة لورد هاي...لبقي آيوتا حياً».

«لقد فعلنا ما يجب فعله يا تشارلي، وأعترف أنك أصبت في حين أخطأت أنا حيال أمور كثيرةً، وأريدك أن تعلم شيئاً آخر، وهو أن وجهي

قبيح..».

«لا، إنه ليس قبيحاً».

رفعت يدها كي تسكتني وقالت: «كفى يا تشارلي. تنبع أقوالك هذه من وجهة نظر صديق، وأحبك الآن وأبداً من أجل ذلك، ولكن يجب أن أتزوج بصفتي الملكة قبل التقدم في السن أكثر سواء كنت قبيحةً أم لا، ويرغب كثيرون بمعاشرتي وإن في الظلام على الأقل، وليس التقبيل ضرورةً من أجل إنجاب وريث العرش، ولكن أي رجل يصعد الساعة الشمسية وإن لمرة واحدة يصبح عقيماً، وتصبح المرأة عاقراً؛ لأن الساعة تمنحك حياةً وتأخذ أخرى مقابلها».

قد يفسر ذلك عدم امتلاك السيد بوديتش أبناءً، قلت: «ولكن بيترا...».

ضحكت ليا باستهزاء وقالت: «بيترا! جل ما أرادته الاستيلاء على مملكة إلدن المنهارة، كما أنها عاقر أيضاً، ناهيك عن وحشيتها وجنونها، إن سقطت ليليمار في قبضتها، كانت ستصعد إلى الساعة الشمسية مراراً وتكراراً، وقد رأيت بنفسك حالها»، ثمّ تنهدت ليا وشربت كوب الشاي عن آخره وسكبت لنفسها واحداً آخر.

رأيتها فعلاً، وأحسستها، وما زلت كذلك، حيث استبدلت حكة شديدة بالسم والألم في جرحي، وقد أقسمت دورا إنها ستزول في أي وقت.

«تأخرت عن زيارتك بسبب إلدن يا تشارلي، ولكن رافقتني أفكار عنك على الدوام، وأعتقد أنها لن تفارقني أبداً».

أردت سؤالها إن كانت متأكدةً حيال فرق السن بيننا، ولكن منعتني أمور عدة عن ذلك؛ وهو أنني لست مناسباً كزوج للملكة، ناهيك عن منصب الملك، إضافةً إلى وجود والد يتوق إلى معرفة حال ابنه، وربما قضينا على تهديد غوغماغوغ عالمنا (في الوقت الراهن على الأقل)، ولكن ماذا لو انتشر

بين سكان الأرض خبر وجود إمبيس وإمكانية الوصول إلى ثرواتها الدفينة من مستودع محدد في إلينوي؟

«لقد شهدت يا تشارلي كيف قتلت شقيقي رغم أنني أحببت نفسه القديمة جداً وحاولت رؤيتها وإيجادها ولكنك أجبرتني أن أفتح عيني على الوحش الذي تحول إليه، ولذلك أتذكره عندما أنظر إليك، وأذكر ما اقترفت وما كلفني ذلك، هل تفهمني؟».

«لقد أحسنت صنيعاً يا ليا، لأنك أنقذت المملكة حباً بها وليس طمعاً في منصب الملكة».

«هذا صحيح، ولا داعي إلى ادعاء التواضع بين شخصين خاضا الكثير، ولكنك حتى الآن لا تفهم؛ لقد عرفت أنك ترى قاتل الرحلة وشقيقي شخصاً واحداً، وقد نعتت كلاوديا بالكاذبة حين أخبرتني ذلك قبل سنوات، ولكن يتملكني الندم لأنني تأخرت إلى هذا الحد عند رؤيتك، وقد منعتني رغبتي الأنانية في حب ذكراه عن المضي قدماً، فاعتنيت بطيور الإوز خاصتي وحديقتي في ظل معاناة المملكة وشعرت بالأسف حيال نفسي... أعتذر يا تشارلي، ولكنني أرى العار في نفسي عند النظر إليك لأنني اخترت حياة فتاة مزارعة بكماء وأنا أرى انهيار بلادي وشعبها شيئاً فشيئاً حولي، رغم معرفتي كل شيء من البداية».

وأخذت تبكي، حاولت الاقتراب منها، ولكنها هزت رأسها، وأشاحت عينيها عني وكأنها ترفض أن أرى دموعها.

قلت: «كنت أفكر في شيء سيئ ومعيب سبق لي أن اقترفته، ولكن قاطعني خروجك إلى الشرفة، هل تسمحين أن أخبرك به؟».

قالت من دون أن تنظر إليّ: «يمكنك ذلك إذا أردت».

«كان لي صديق طيب يدعى بيرتي بيرد، ولكن ليس طيباً بكل ما للكلمة من معنى، ولكن مررت بأوقات عصيبة بعد وفاة والدتي، وقد منعني تفكيري المحدود وصغر سني حينها عن استيعاب معاناة والدي، وجل ما أعرفه أنني احتجت إليه ولم أجده إلى جانبي، لعلك تفهمين ما أعنيه».

قالت ليا: «تعلم أنني أفهم»، وشربتْ مزيداً من الشاي وأوشكت على إنهاء الإبريق رغم حجمه الكبير.

«لقد اقترفنا أفعالاً سيئةً، وقد تذكرت قبل رؤيتك بين الستائر شيئاً فعلناه في متنزه كافاناو حيث اعتدنا المرور بعد المدرسة في طريقنا إلى المنزل. في أحد الأيام شاهدنا رجلاً مقعداً يطعم الحمامات، وقد ارتدى بنطالاً قصيراً وطوقين داعمين كبيرين على ساقيه، فوجدنا منظره مضحكاً، وأطلق عليه بيرتي لقب الرجل الآلي».

«لا أدري معنى...».

«انسي الأمر، ما يهم أنه كان مجرد شخص عاجز جالس على المقعد تحت أشعة الشمس، فتبادلت وبريتي النظرات، وقال الأخير: «دعنا نسرق عكازيه»، وأعتقد أن هذه بذور الشر التي تحدثت عنها، وقد فعلنا ذلك في النهاية وصرخ كي نعيدها إليه، ولكننا أخذناها إلى طرف المتنزه ورميناها في بركة طيور البط وضحكنا طوال الوقت؛ لقد رمينا عكازي الرجل المقعد في المياه وضحكنا من ذلك دون أن أدري حتّى الآن كيف عاد إلى منزله».

أفرغت ما بقي من الشاي في كوبي فلم يمتلئ سوى نصفه، وقد ناسبني ذلك بسبب ارتعاش يدي ودموع عيني؛ لم أبك قط بعد تلك المرة في ديب مالين من أجل والدي.

«ولماذا تخبرني هذا الأمر يا تشارلي؟».

تشوشت قليلاً، إذ اعتقدت أن تلك القصة ستموت معي، ثمّ أجبت: «ليس في جعبتي شيء أقوله سوى أنني اضطررت إلى ذلك».

لمست ليا جانب وجهي وقالت: «اهدأ يا تشارلي، تعجز عن العيش مرتاحاً في هذا العالم على أيّ حال لأنك غريب عنه، وإن أطلت الغياب عن عالمك، ستجده غريباً أيضاً... يجب أن أذهب الآن، فهناك أعمال كثيرة تنتظر إنجازها»، ثمّ نهضت.

رافقتها إلى الباب، وخطرت لي في أثناء ذلك قصيدة جميلة تعلمتها من شعر الهايكو الياباني في الصف الثامن، ثمّ وضعت أحد أصابعي بلطف كبير على قشور شفتيها وقلت: «تغدو الندبات جميلةً كالغمازات حيث يوجد الحب، وأنا أحبك يا ليا».

لمست ليا شفتي أيضاً وقالت: «وأنا أحبك أيضاً».

خرجت من الباب واختفت.

5

في اليوم التالي، زارتني إيريس وجايا وقد ارتدت كل منهما زي العمل واعتمرت قبعة قش كبيرةً مثل كل العاملين في الخارج، لأن الشمس أشرقت يومياً وكأنها أرادت تعويض ما خسرته إمبيس من الضوء خلال سنوات الغيوم الكثيفة، ولاحظت امتلاك الجميع بشرةً بيضاء ناصعةً، وليس مساجين الزنزانة الأبدية فقط.

قضينا وقتاً ممتعاً، وأخبرتني المرأتان عن عملهما اليومي وأطلعتهما على مستجدات شفائي وأنني أوشكت أن أتعافى كلياً، ولم ترغب أي منهما في ذكر ديب مالين، أو الفير ون، أو عملية الهروب، أو جنود الليل، وبالتأكيد ليس عن ضحايا الأحداث السابقة، وقد أضحكهما حديثي عن كيفية دخول ستوكس متبجحاً، ولكن كتمت أمر الزيارات الليلية من كيلين وبيترا، فلا

شيء مضحكاً حيالها، وسمعت منهما عن قدوم مجموعة عمالقة من كراتشي كي يعلنوا الولاء إلى الملكة الجديدة.

فحصت جايا حقيبتي ثمّ انحنت أمامها وتحسست قماشها الصنعي وحزاميها، وقد ركعت إيريس إلى جوار رادار وداعبت فراءها.

قالت جايا: «إنها رائعة يا تشارلي، هل صنعت في عالمك؟».

«أجل»، في فيتنام على الأرجح.

رفعتها جايا من الحزامين وقالت: «يا إلهي كم أود الحصول على واحدة، كما أنها ثقيلة جداً، هل تستطيع حملها؟».

قلت: «سأتدبر أمري»، وابتسمت مكرهاً، لأنها ثقيلة فعلاً وتضم ملابسي كلها وقرد رادار، إضافةً إلى مطرقة باب من الذهب الخالص وقد أصر وودي وكلاوديا أن أخذها.

سألتني إيريس: «متى ستغادر يا تشارلي؟».

«اشترطت دورا عليّ أن أستطيع المشي حتّى بوابة المدينة والعودة دون الإغماء كي تمنحني إذن الرحيل في اليوم التالي».

سألتني جايا: «هل ستغادر بهذه السرعة؟! هذا مؤسف، لأننا نقيم الحفلات ليلاً بعد انتهاء العمل».

قلت: «لا بأس، احتفلي من أجلي أيضاً».

في تلك الليلة، عادت إيريس وحدها وقد أسدلت شعرها وارتدت ثوباً جميلاً بدل ملابس عملها، وتجنبت إضاعة أي وقت أو كلمات وقالت مباشرةً: «هل معاشرتي يا تشارلي؟».

أخبرتها أن ذلك سيسعدني كثيراً، ولكن عليها التغاضي عن أيّ حماقات يحتمل أن أرتكبها لأنها تجربتي الأولى.

قالت: «هذا رائع، ويمكنك»، وبدأت تفك أزرار ثوبها.

وحدث ما حدث... ولست مهتماً في سببه سواء كان وسيلة شكر أم شفقة، وإن كانت شفقة فلتحيا الشفقة.

6

زارني ضيفان أخيران قبل مغادرة ليليمار؛ دخل وودي مرتدياً سترةً سوداء من صوف اللاما، وتقدمته كلاوديا ممسكة مرفقه، وقد انحلت ندبتا عينيه وتفتحتا قليلاً، ولكن جل ما استطعت رؤيته عبرهما كان بياضاً خالصاً.

صرخت كلاوديا قرب أذن وودي اليسرى، فأجفل وتراجع قليلاً: «لقد جئنا كي نشكرك ونتمنى لك حظاً سعيداً. نحن لا نستطيع رد جميلك كاملاً يا تشارلي، ولكن سنبني تمثالاً من أجلك قرب بحيرة إيلسا، وقد رأيت مخططاته بنفسي وهي...».

قاطعت كلاوديا، دون أن أدرك مدى غضبي منهما حتّى سمعت نبرة صوتي: «لقد قتلت إيلسا وترقد الآن في قاع البحيرة مع رمح يخترق بطنها، كما توفي عشرات، بل آلاف الناس على حدّ علمي، وجلستما تشاهدان ذلك، أتفهم موقف ليا لأن حب شقيقها قد أعمى بصيرتها وعجزت عن تصديق أنه اقترف كل تلك الجرائم الشنيعة، على عكسكما، لقد عرفتما كل شيء ولم تحركا ساكناً».

التزما الصمت، وتجنبت كلاوديا النظر إلّي في حين عجز وودي عن ذلك.

«أنتما آخر أفراد السلالة الحاكمة إلى جانب ليا، وكان الجميع سيسمعون توجيهاتكما».

قال وودي: «أنت مخطئ يا تشارلي، سيطيعون أمر ليا فقط، وقد حملها مجيؤك على أداء واجبها كملكة».

«ولماذا امتنعت عن نصحها؟ ألست أكبر سناً وأكثر حكمةً؟».

خيّم الصمت مجدداً، صحيح أنهما كاملان ومنيعان ضد الداء الرمادي، ولكن خاضا غمار مصائبهما الخاصة، وأتفهم كيف أضعفهما ذلك وزرع الخوف في قلبيهما، من دون أن تطفئ هذه الأفكار نيران غضبي.

«لقد احتاجت إليك».

أمسكت كلاوديا يديّ، وأوشكتُ أن أسحبهما، ولكنني تجنبت ذلك، وقالت في صوت خافت ربما عجزت عن سماعه: «لقد احتاجتك أنت يا تشارلي، لأنك الأمير المنتظر، وقد انتهى الانتظار الآن، أعترف بصحة كلامك؛ كنا ضعيفين، وخسرنا شجاعتنا، ولكن أرجوك ألا تغادرنا غاضباً».

هل يستطيع المرء اختيار الهدوء بدل الغضب؟ لا أعتقد ذلك، ولكن ما علمته أنني أردت المغادرة سعيداً.

قلت بصوت مرتفع كفايةً كي تسمعني كلاوديا: «أنا موافق، ولكن فقط لأنني ضيعت عربتك ثلاثية العجلات».

استقامت كلاوديا في جلستها وابتسمت، ثمّ أخذت رادار تشم حذاء وودي، فانحنى ومسح على فرائها وقال: «نعجز عن رد جميلك يا تشارلي، ولكن تستطيع أخذ أي شيء تريده».

حصلت على مطرقة الباب، وقدرت وزنها بكيلوغرامين تقريباً، أي ما يعادل 84 ألف دولار إن بقي سعر الذهب نفسه حتّى عودتي إلى سينتري، وأضف إليها القطع الذهبية في الدلو، وبالتالي كنت جاهزاً تماماً من أجل العودة إلى الوطن ثرياً، ولكن فكرت في شيء أخير أمكنني الاستفادة منه.

«ماذا عن المطرقة الثقيلة؟».

لقد استخدمت كلمةً أخرى، ولكن فهما ما قصدته.

7

سيبقى مشهد الوحش المجنح وهو يحاول الخروج من البئر عالقاً في ذهني ما حييت، وهذه ذكرى سيئة تحتاج واحدةً جيدةً كي تمحيها، مثل مغادرة ليليمار في اليوم التالي، ولكن الأخيرة غير كافية من ناحية، وتشبه قطعة خبز يابسة تسد بها رمقك في ظل غياب لطف الآخرين والتشويق من حياتك، وجميلة من ناحية أخرى وليس بسبب مغادرة ليليمار (وسأكذب لو أنكرت مقدار شوقي إلى رؤية والدي)، بل لأنهم يقيمون حفل وداع يليق بـ... كنت سأقول يليق بملك، ولكنني مجرد أمير يستعيد طبيعته بصفتى فتى من ضواحي إلينوي.

ركبت مقدمة عربة جرها بغلان أبيضان أمسكت دورا لجامهما، وقد وضعت وشاح رأسها الأحمر وانتعلت حذاءها القماشي الجميل، وجلست رادار خلفنا بأذنين منتصبتين وذيل يهتز ببطء إلى الأمام والخلف، واصطف الرماديون على جانبي طريق غالين، وركعوا واضعين راحات أيديهم على جباههم عندما اقتربنا منهم، ثمّ نهضوا وهتفوا مع مرور العربة، ومشى رفاقي من ديب مالين وراءنا، باستثناء الطبيب فريد الجالس على كرسي متحرك مطلي بالذهب دفعته إيريس من الخلف، التي نظرت إليّ مرةً واحدةً وغمزتني، وبادلتها ذلك أيضاً، كما حلّقت فوقنا سحابة كثيفة من الفراشات الكبيرة إلى درجة أنها حجبت ضوء الشمس، وحط بعضها على كتفي ورفرفت أجنحتها ببطء، كما هبطت واحدة على رأس رادار.

وقفت أمام البوابة المفتوحة امرأة ترتدي ثوباً أزرق داكناً بلون لون الأبراج الزجاجية الجديد، وتربع تاج غالين على رأسها؛ إنها ليا، وقد باعدت

بين قدميها قليلاً، فتذكرت كيفية وقوفها على الدرجات الحجرية أعلى البئر المظلمة بعد أن استلت سيفها، يا لها من حازمة حقاً.

حثت دورا البغلين كي يتوقفا، فخيّم الصمت على الحشد خلفنا، ولاحظت بين يدي ليا إكليلاً من الخشخاش الأحمر، نوع الزهور الوحيد الذي قاوم ونما في حقبة الداء الرمادي، وليس مفاجئاً أن شعب إمبيس قد أطلق عليه اسم الأمل الأحمر.

رفعت ليا صوتها كي يسمعها الجميع وقالت: «سيعود الأمير تشارلي إلى موطنه يا شعب إمبيس. حاملاً شكرنا وامتناني الخالص. أريدكم أن تتمنوا له رحلةً سعيدةً».

هتف الجميع، وحنيت رأسي كي أستلم الإكليل... وأخفي دموعي أيضاً، لأن الأمير لا يبكي أبداً في الحكايات الخيالية كما تعلم، ورغم ندبات شفتيها، إلا أن الملكة منحتني أفضل قبلة حصلت عليها بعد وفاة والدتي.

ما زلت أشعر بها حتّى الآن.

الفصل الثاني والثلاثون
إليك نهايةً سعيدةً

1

قضيت ليلتي الأخيرة في إمبيس كما الأولى؛ في منزل دورا الصغير قرب البئر بين العالمين، وتناولت الحساء معها، ثمّ خرجنا إلى الهواء الطلق كي نتأمل إكليل السماء الذهبي المضيء والباقي من حطام بيلا وأرابيلا، وقد بدا جميلاً مثل أشياء محطمة كثيرة، وتساءلت مجدداً عن موقع هذا العالم من الكون، ولكن أدركت عدم أهمية ذلك، لأن وجوده في حدّ ذاته كافٍ.

استلقيت مجدداً إلى جوار مدفأة دورا واضعاً رأسي على الوسادة المطبعة برسوم الفراشات، واستغرقت في النوم دون زائرين أو أحلام عن إلدن أو غوغماغوغ، واستيقظت قبل الظهر في أثناء انهماك دورا وسط عملها على آلة الخياطة التي أحضرها لها السيد بوديتش، وتراكمت الأحذية المرتقة على يمينها والتالفة على يسارها، وتساءلت متى ستنتهي من إصلاحها.

تناولنا وجبةً أخيرةً معاً من شرائح اللحم المقدد، وقطع سميكة من الخبز منزلي الصنع، والعجة المطهوة من بيض الإوز، وعندما انتهينا، وضعت حزام سلاح السيد بوديتش مرةً أخيرةً، وركعت على إحدى ركبتي، ووضعت راحة يدي على جبهتي.

قالت دورا: «لا، لا انهض يا تشارلي»، وقد تحسن صوتها بعض الشيء ولكنه لا يزال مختنقاً قليلاً، فنهضت، ثمّ فتحت ذراعيها أمامي، لم أحتضنها فحسب، بل حملتها وأرجحتها حتّى ضحكت، ثمّ انحنت كي تطعم كلبتي قطعتي لحم من مئزرها، ثمّ عانقتها وقالت: «أحبك يا راي».

رافقتني دورا حتّى نصف المسافة إلى قمة التل حيث عرائش الكرمة المتدلية أمام مدخل النفق، وقد اخضرت أوراقها في ذلك الوقت تحت جدائل الشمس اللطيفة، وقد تعبت بسبب حقيبتي الثقيلة، دون نسيان المطرقة المتأرجحة إلى جانبي الأيمن.

احتضنتني دورا للمرة الأخيرة، وداعبت رادار مودعةً إياها، وفاضت الدموع في عينيها أعلى ابتسامة لطيفة على شفتيها؛ إذ أمكنها الابتسام حينها، ثمّ افترقنا، وتابعت وحيداً رفقة كلبتي حتّى التقيت صديقاً قديماً آخر ينتظرنا، وقد برز لونه الأحمر على خلفية عرائش الكرمة الخضراء، فرقدت رادار على بطنها مباشرةً ليثب السناب إلى ظهرها وحدق إلي وقرناه يرتعشان.

جلست إلى جوارهما وخلعت الحزام ووضعت حقيبتي جانباً وقلت: «كيف حالك أيها السيد سناب؟ هل شفيت قائمتك تماماً؟».

نبحت رادار مرةً.

«هذا جيد، ولكن لن تسير معنا أكثر، أليس كذلك؟ إذ قد لا يناسبك طقس عالمي».

تربع فوق مطرقة الباب المصباح الصغير ملفوفاً وسط سترة ثانوية هيلفيو، وقد أطلقت دورا عليه اسماً غريباً حين واجهت مشكلةً في الحروف الساكنة، ولكن تصورت أن نطقها سيتحسن مع مرور الوقت، وتألف المصباح من كرة زجاجية تحوي داخلها ما يشبه شمعةً صغيرةً أشعلتها بواسطة عود ثقاب بعد أن ارتديت حقيبتي مجدداً.

«لقد حان وقت الرحيل يا رادار، هيّا بنا».

نهضت رادار، ونزل السناب قافزاً عن ظهرها، ووقف في مكانه وتأملتنا عيناه السوداوان الصغيرتان مرةً أخيرةً، ثمّ تابع طريقه وسط العشب، واستطعت رؤيته خلال طيرانه في الهواء الساكن، ولكن اختفى عن ناظري بعد دخوله بين أزهار الخشخاش.

ألقيت نظرةً أخيرةً أسفل التل إلى منزل دورا، وبدا جميلاً ومريحاً أكثر تحت أشعة الشمس، فلوحت ناحيته، ثمّ حملت المطرقة وأبعدت فروع الكرمة عن مدخل النفق كاشفاً عن الظلام خلفها.

«هل تودين العودة إلى المنزل يا عزيزتي؟».

تقدمت رادار طريقنا.

وصلنا إلى الحدود بين العالمين، وأصابني الدوار كما حدث خلال رحلاتي الأخرى، وعانيت قليلاً عندما انطفأ المصباح الصغير رغم سكون الهواء، فطلبت من رادار الانتظار في أثناء أخذ عود ثقاب آخر من قراب السيد بوديتش، ومررته على حجر خشن وأشعلت الشمعة مجدداً، وهنا رفرفت الخفافيش العملاقة وحلقت فوق رأسينا، ثمّ عادت إلى أماكنها واستقرت، فتابعنا طريقنا.

وصلنا إلى البئر ودرجات السلم اللولبي الضيقة، فغطيت الشمعة ونظرت إلى أعلى آملاً في عدم رؤية شيء سوى الظلام، لأن أي بصيص نور يعني تحريك أحدهم المجلات التي وضعتها كي أغطي فتحة البئر، ولكن لمحت ضوءاً خافتاً جداً فحسب، ولعله نتيجة سوء في تموضع المجلات لأن التمويه لم يكن مثالياً في نهاية المطاف.

صعدت رادار أربع أو خمس درجات، ثمّ التفتت خلفها تدعوني كي أتبعها، فقلت: «لا، لا يا كلبتي العزيزة، أريد أن أصعد في المقدمة».

أطاعتني رادار على مضض، إذ لعلها استطاعت شم رائحة عالمها القديم ينتظرها في الأعلى، لأن قدرة الشم لدى الكلاب أقوى أربعين مرةً منها لدى البشر، وأعلم أنها خاضت رحلة عودة مزعجةً بسبب حاجتي كي أستريح بين كل حينة والأخرى، ولكن أخبرني فريد أن أتجنب إرهاق نفسي حتّى أتحسن كلياً، وكنت ألتزم تعليماته فحسب.

بلغنا القمة، وشعرت بارتياح كبير بعد رؤية حزمة المجلات الأخيرة في مكانها، وأقصد التي وزانتها على رأسي وكأنها كومة ملابس تحتاج إلى غسييل، ولكن بقيت في الأسفل دقيقةً واحدةً على الأقل وربما أكثر، ليس من أجل الراحة فحسب، بل قاومت شوقي الكبير إلى المنزل واستسلمت أمام الخوف وبعض الحنين إلى منزل آخر تركته ورائي، حيث القصر والأميرة الجميلة والأعمال البطولية، ولعل مكاناً ما قبالة سواحل سيفرونت مثلاً يعج

حتّى الآن بحوريات البحر وأغنياتها، أما في الأعلى، فينتظرني إخراج القمامة وكتابة طلبات الالتحاق الجامعة.

دفعت رادار مؤخر ركبتي بأنفها ونبحت بقوة مرتين، ومن قال إن الكلاب تعجز عن الكلام؟

«انتظري قليلاً، سأنهض».

وضعت رأسي أسفل اللوح ورفعته، ثمّ دفعت اللوح الآخر جانباً ببطء بسبب ضعف ذراعي اليسرى بفضل تلك الساقطة بيترا (لقد تحسنت قليلاً، ولكن ليس إلى حدّ لعب مباريات كرة القدم أو القاعدة)، ونبحت رادار بضع مرات كي تستعجلني، وكأنني أواجه مشكلة في الخروج من بين الألواح التي وضعتها على فتحة البئر قبل الرحيل، فقد خسرت وزناً كثيراً خلال فترتي في إمبيس، وخاصةً ديب مالين، ولكن وجب أن أدفع حقيبتي إلى السطح أولاً، ولكن خرجت في نهاية المطاف، وقفزت رادار خلفي بسهولة تامة، ما أثار غيظي، ولكن نسيت ذلك بسبب الألم الشديد في ذراعي اليسرى، فتفقدت الوهدة مكان عضة بيترا خوفاً من نكس الجرح، ولكن بدا سليماً، وقد أدهشتني برودة الجو في المستودع إلى درجة قدرتي على رؤية أنفاسي.

وجدت المستودع على حاله، وتبين أن الضوء انسل دخله عبر الشقوق في جدرانه وهذا ما رأيته في الأسفل، ثمّ حاولت فتح الباب، ولكن أحدهم أقفله من الخارج، وأدركت أن آندي شين جاء بحثاً عني، رغم استبعادي احتمال تفقد أحدهم المستودع المهجور في الساحة الخلفية من أجلي (أو من أجل جثماني)، ولكن أسعدني الأمر، لأنه يعني الحاجة إلى استعمال المطرقة الثقيلة، وفعلت ذلك بيد واحدة.

أسعفتني ألواح الباب الخشبية القديمة والجافة، فتشقق أحدها مع الضربة الأولى وانكسر بعد الثانية، فاتحاً المجال أمام ضوء نهار إلينوي... وكومة من الثلج، فحطمت لوحين إضافيين وسط نباح رادار التحفيزي، وما

إن أصبحت الفتحة تسعها حتّى عبرتها مباشرةً وأخذت وضعية التبول، وفي أثناء ذلك لوحت بالمطرقة مرةً أخيرةً وحطمت لوحاً آخر، وألقيت حقيبتي خارجاً، واستدرت كي أخرج بشكل جانبي إلى أشعة الشمس المطلة على عشرة سنتمترات من الثلج.

3

قفزت رادار في أنحاء الفناء وتوقفت بين الفينة والأخرى كي تغرس أنفها في الأرض وترفعه فيتناثر الثلج في الهواء، وقد أضحكني تصرفها الطفولي هذا، ثمّ تابعت طريقي إلى الشرفة الخلفية، ونظراً إلى تعرقي بسبب صعود السلم اللولبي واستعمال المطرقة، فقد ارتجفت برداً في طريقي إليها، وتيقنت أن الحرارة لم تتجاوز خمساً وعشرين فهرنهايت، ولعلها نصف تلك القيمة مع إضافة نسيم الهواء الجليدي.

أخذت المفتاح الاحتياطي من مكانه تحت البساط (وقد أطلق عليه السيد بوديتش اسم بساط الترحيب)، ودخلت المنزل كي تخترق رائحة العفن أنفي، والبرودة جسدي، ولكن لعل أحدهم – ليس أبي غالباً – قد رفع حرارة المدفأة قليلاً كي يحمي الأنابيب من التجمد، وتذكرت رؤية معطف حظيرة قديم سابقاً في الخزانة الأمامية، ووجدته في مكانه إضافةً إلى حذاء جلدي برز من فردتيه جوربان صوفيان أحمران، وقد كان ضيقاً على قدمي، ولكن سأرتديه حتّى أسفل التل فقط، ثمّ وضعت حزام السيد بوديتش ومسدسه على رف في الخزانة، وأمكنني وضعهما في الخزنة لاحقاً... لقد تصورت دوماً أن الخزنة ومحتواها السري في مكانهما هناك.

خرجنا من الخلف ثمّ التففنا حول المنزل وعبرنا البوابة التي تسلقتها في المرة الأولى استجابةً إلى نباح رادار وصيحات السيد بوديتش الضعيفة طلباً للعون، وشعرت أن ذلك حدث قبل فترة طويلة جداً، ثمّ أردت متابعة طريقي باتجاه تل شارع سيكامور قبل أن يلفت شيء ما انتباهي، وكان هذا الشيء «أنا» شخصياً؛ إذ رأيت صورتي من صف قبل التخرج في الثانوية

ملصقةً على عمود الهاتف الواقع في تقاطع شارعي بين وسيكامور، أي كانوا يبحثون عني فعلاً، وجل ما فكرت فيه حينها ملامح وجهي الطفولية، وكيف بدوت طفلاً يجهل كل شيء عن أي شيء، واعتقد أنه يعرف الأمور كلها، ولكن لا، لا.

طبعت العبارة التالية في حروف حمراء كبيرة فوق الصورة: هل رأيتم هذا الفتى؟

وفي خط أحمر قان تحت ما سبق: تشارلز مكغي ريد، عمره سبعة عشر عاماً.

وتحتها أيضاً: اختفى تشارلز «تشارلي» ريد في شهر تشرين الأول من عام 2013، ويبلغ طوله ست أقدام وأربع بوصات، ويزن 117 كيلوغراماً، وقد شوهد للمرة الأخيرة...

صدمني شيئان في تلك اللحظة؛ أولهما كيف أفسد الطقس الملصق، وثانيهما عدم تطابق الوزن في الملصق مع وزني الحالي، فالتفتت حولي وتوقعت رؤية السيدة ريتشلاند تحدق إليّ وعيناها في ظل يدها، ولكن لم يكن في حقل بصري سوى رادار واقفةً على الرصيف المملح.

أوقفني دافع قوي جداً في منتصف طريقي إلى المنزل كي أعود أدراجي عبر البوابة إلى 1 سيكامور والتف حول المنزل وأدخل المستودع ثمّ أنزل السلم اللولبي وصولاً إلى إمبيس مجدداً، حيث أستطيع تعلم مهنة ما وبدء حياة جديدة، وربما أتمرن لدى فريد كي أصبح طبيباً جراحاً.

ولكن فكرت في الملصقات التي وزعها العم بوب ووالدي وليندي في أنحاء البلدة والريف، وربما ساهم في ذلك أصدقاؤه من جمعية الكحوليين المجهولين أيضاً، في حال كان مستمراً في إقلاعه عن شرب الكحول.

تمنيت أن يكون كذلك بالفعل.

تابعت المشي مجدداً، وصعدت التل وسط طقطقة مشبك حذاء الرجل الميت، وتبعتني كلبته التي استعادت شبابها، ولاحظت ولداً صغيراً يمشي متثاقلاً خلفي وقد ارتدى معطفاً أحمر وبنطالاً خاصاً بالثلج، وقد جر خلفه مزلاجاً بوساطة حبل قماشي، ولعله قصد تل التزلج في متنزه كافاناو.

«انتظر أيها الصغير».

نظر إليّ مرتاباً ولكنه توقف.

سألته: «في أي يوم نحن؟»، ورغم خروج الكلمات بسلاسة ولطف، إلا أنها بعثت في نفسه الشك، وأعلم أن الأمر غير منطقي، ولكن هذا ما بدت عليه، وذلك لأنني تحدثت الإنكليزية للمرة الأولى تقريباً بعد فترة طويلة.

رمقني الولد بنظرات تتساءل إن كنت غبياً، ثمّ قال: «إنه يوم السبت».

أي إن والدي في المنزل إلا في حال ذهب إلى اجتماع جمعية الكحوليين المجهولين.

«وأي شهر؟».

أجاب: «شهر شباط»، وقد تبينت من نظراته يقينه بغبائي.

«وفي العام 2014؟».

«أجل، يجب أن أذهب».

تابع طريقه إلى أعلى التل ثمّ نظر إليّ ورمقني وكلبتي بنظرةً مرتابةً أخيرةً، وربما أراد التأكد أننا لم نتبعه بقصد أذيته.

لقد غبت أربعة أشهر، ويبدو الأمر غريباً عند التفكير فيه، ولكن ليس أكثر غرابةً من الأمور التي رأيتها وفعلتها.

4

وقفت دقيقةً أو أكثر أمام المنزل أشجع نفسي على الدخول آملاً في إيجاد والدي حياً يرزق لا فاقداً وعيه على الأريكة خلال مشاهدة فيلم كيس أوف ديث أو ماي دارلينغ كليمينتين على قناة (تي أم سي)، ولكن لاحظت أن الثلج قد أزيل من الممر، فاعتبرتها علامةً جيدةً.

سئمت رادار من انتظاري فصعدت الدرجات وجلست استعداداً من أجل الدخول، ويحكى أنني امتلكت المفتاح يوماً، ولكن فقدته في مكان ما على الطريق، مثل حال دراجة كلاوديا ثلاثية العجلات، وعذريتي كذلك، ولكن اكتشفت أن الباب مفتوح، فدخلت وسمعت صوت مذيع نشرة الأخبار، وليس قناة (تي أم سي)، وانطلقت رادار تجري في أنحاء المنزل وتنبح معلنةً وصولنا.

دخلت غرفة المعيشة ورأيت رادار واقفةً على قائمتيها الخلفيتين وقد وضعت الأماميتين على صحيفة كان والدي يقرأها. في البدء، بدا أنه لم يتعرف إلينا، ثمّ ترهل وجهه من الصدمة، وسأذكر ما حييت كيف جمع وجهه حينها بين ملامح شخص في ستينات أو سبعينات عمره، وآخر شاباً مثلي، وكأن ساعةً شمسيةً داخله دارت باتجاهين متعاكسين في اللحظة نفسها.

«هل هذا أنت يا تشارلي؟».

حاول الوقوف، ولكن ساقيه خذلتاه فسقط مجدداً إلى كرسيه.

«هل هذا أنت حقاً؟».

«أجل يا أبي».

استطاع الوقوف حينها، وانهمرت الدموع من عينيه وعيني أيضاً، ثمّ اندفع إلي ولكن اصطدم بطاولة صغيرة وأوشك أن يقع لولا أنني أمسكته.

«شكراً للرب على سلامتك يا تشارلي. اعتقد الجميع وأنا بينهم أنك...».

عجزنا عن الكلام رغم امتلاكي أموراً كثيرة كي أقصها عليه، ولكن احتضننا بعضنا فحسب فوق رادار الجالسة بيننا تهز ذيلها وتنبح فرحاً.

لقد منحتك شيئاً أردته من البداية؛ إليك نهايةً سعيدةً أخيراً.

الخاتمة
بعض الأسئلة والإجابات. رحلة أخيرة إلى إمبيس.

1

أصبت في حال ظننت أن بعض المواضيع في هذه القصة ليست بقلم شاب يافع في السابعة عشرة من العمر، وذلك لأنني عدت من إمبيس قبل تسع سنوات، وقرأت وكتبت الكثير خلال هذه الفترة، وقد تخرجت في جامعة نيويورك بمرتبة شرف في اللغة الإنكليزية (بفاصل ضئيل جداً عن الامتياز ومرتبة الشرف)، وأعمل الآن مدرساً في كلية الفنون الليبرالية في شيكاغو، حيث أقيم ندوةً سيحضرها كثيرون بعنوان «الخرافة والحكايات الخيالية»، كما يعتبرونني هناك شخصيةً لامعةً وذكيةً، ويعود ذلك إلى مقال

موسع كتبته في سنة التخرج، وقد نشر في مجلة يونيان ستاديز العالمية، ورغم مردوده المادي بخس، ولكنه منحني مصداقيةً لا تقدر بثمن، وفي المقابل تعتقد إنني اقتبست قصتي من كتاب يحمل غلافه صورة مخروط ملأته النجوم.

قد تقول في نفسك: «أسعدتني معرفة ذلك، ولكن أريد طرح بعض الأسئلة».

لست وحدك، لأنني أريد معرفة كيف تسير الأمور في عهد الملكة ليا، وهل استعاد الرماديون عافيتهم، وهل ما زال صوت كلاوديا غالين صاخباً، كما أود الاستعلام عن حال الطريق إلى عالم غوغماغوغ المروع، وهل أغلقوه أم لا؟ ومن تدبر أمر جنود الليل الباقين، وهل شهد رفاقي في ديب مالين مصيرهم؟ (أستبعد ذلك، ولكن يمكن للمرء أن يتصور ما يشاء)، وقد أثار فضولي أيضاً كيف فتح جنود الليل بوابات زنزاناتنا عبر فتح أذرعهم أمامها.

لعلك تريد الاطمئنان عن حال رادار، إنها بحال جيدة وشكراً لسؤالك، ولكنها تقدمت في السن طبعاً بعد تسع سنوات، ما جعلها عجوزاً جداً نسبةً إلى كلبة شيبرد، خاصة إذا أضفنا حياتها الجديدة إلى سابقتها.

تود أيضاً معرفة إن أخبرت والدي حيال تلك الأشهر الأربعة، أود قبل الإجابة استعارة ملامح الفتى الذي سألته عن تاريخ ذلك اليوم، ثمّ أقول: «وكيف لا؟»، أم وجب إخباره إنني أحضرت دواءً عجيباً من شيكاغو امتلك تأثيراً حول رادار من كلبة عجوز أصابها التهاب المفاصل إلى كلبة شيبرد في الرابعة من عمرها؟

أخبرته عن الأمور الأساسية كلها، وليس كل شيء دفعةً واحدةً؛ أطلعته بدايةً على وجود علاقة بين عالمنا وعالم آخر (دون أن أذكر اسم إمبيس، بل أطلقت عليه اسم العالم الغريب، نفس ما أسميته عند الوصول

إليه للمرة الأولى)، كما قلت إنني ذهبت إلى هناك من مستودع السيد بوديتش، وقد أنصت إليّ باهتمام، ثمّ سألني – ولعلك توقعت ذلك – أن أفصح عن حيث ذهبت حقاً.

أريته ذراعي والوهدة العميقة التي سترافقنني ما حييت، دون أن يقنعه ذلك، ولذلك فتحت حقيبتي وأريته مطرقة الباب الذهبية، فتفحصها، وقدر وزنها، واقترح – مؤقتاً – أنها مجرد قطعة رخيصة مصنوعة من الرصاص ومطلية بالذهب.

قلت: «تستطيع كسرها والتأكد بنفسك، كما أننا سنصهرها ونبيعها في نهاية المطاف، ويوجد دلو من القطع الذهبية في خزنة السيد بوديتش وقد أحضرها من المكان نفسه، وأنا مستعد كي أريك إياه متى أردت ذلك، لقد اقتات السيد بوديتش منها، وقد بعت بعضها إلى تاجر مجوهرات في ستانتوفيل، ويدعى السيد هاينريك، ولكنه قُتل، وبالتالي يجب أن نبحث عن شخص آخر غيره».

حمله ذلك على تصديقي أكثر، وكانت رادار قطعة الأحجية الناقصة في إقناعه، لأنها عرفت الطريق إلى أماكنها المفضلة في منزلنا، وما أثبت هويتها إثباتاً قاطعاً بعض الندبات النقطية على منخرها جراء عراك صغير في طفولتها بينها وبين نيص (تعلمت رادار عدم العبث معه من المرة الأولى على عكس بقية الكلاب)، وقد لاحظها والدي سابقاً خلال إقامة رادار في منزلنا بعد أن كسر السيد بوديتش ساقه، ثمّ وفاته – وأوشكت أن تلحق به أيضاً، ولعل هذه الندبات بقيت لأنني أخرجتها من الساعة الشمسية قبل أن تصغر إلى سن سبق عراكها مع النيص، وقد تأملها والدي طويلاً، ثمّ التفت ناحيتي مذهولاً.

«هذا مستحيل».

قلت: «أعلم ذلك».

«هل يوجد دلو من القطع الذهبية في خزنة السيد بوديتش حقاً؟».

قلت مجدداً: «سأريك إياها متى شئت... أعلم مقدار الأمور التي تحاول استيعابها».

جلس عاقداً ساقيه على الأرض، وربت رأس رادار وسط دوامة أفكاره، ثمّ قال: «هل تزعم أنك زرت عالماً سحرياً، مثل إكزانث في روايات بيريس أنتوني التي اعتدت قراءتها في المدرسة الإعدادية؟ وقابلت الغوبلين[55] والباسيليك[56] وغيرها من المخلوقات؟».

أجبته: «في الحقية، لم أصادف أياً منها في إمبيس، ولكن توجد حوريات البحر... والعمالقة...».

«هل أستطيع الذهاب إلى هناك؟».

قلت: «بل يجب عليك ذلك، وإن لمرة واحدة»، لأن إمبيس مختلفة عن إكزانث، فقد خلت كتب بيريس أنتوني من ديب مالين أو غوغماغوغ.

قضيت أسبوعاً في المنزل أتناول طعاماً أمريكياً تقليدياً لذيذاً، وأنام في فراش أمريكي مريح وأجيب عن أسئلة رجال شرطة أمريكيين عجائز، ناهيك عن أسئلة العم بوب، وليندي فرانكلين، وأندي تشين، ومديري المدارس المختلفة، وحتى متلصصة الحي، السيدة ريتشلاند، ثمّ اتجهنا بعد مرور سبعة الأيام تلك إلى إمبيس، الأمير الذي ليس أميراً بعد الآن رفقة جورج ريد من شركة ريد إنشورنس، وأريته دلو قطع الذهب، والضوء الصغير، وقد تفحصه باهتمام كبير.

لفقت قصةً مع والدي الذي عمل سابقاً محققاً في الاحتيال على الضرائب؛ أي صادف أمثلةً كثيرةً عن الكذب حتّى أدرك تماماً كيف يخفي كذبته بإتقان، وأعلم أنك تريد معرفة تفاصيلها، ولكن سأخبرك بدايةً أن فقدان الذاكرة قد أدى دوراً فيها، وأضف إلى ذلك وفاة كلبة السيد بوديتش

في شيكاغو قبل أن أقع في مشكلة أعجز عن تذكرها (ولكن أذكر كيف تعرضت إلى ضربة على رأسي)، أي أملك ووالدي الآن النسخة الثانية من رادار، وأراهن أن السيد بوديتش، من عاد إلى سينتري بصفته بوديتش الابن، سيحبها أكثر من سابقتها. لقد طلب مراسل من ذا ويكلي سان المدعو بيل هاريمان الإذن كي يجري مقابلةً معي (أعلم أنه قابل أحد رجال الشرطة سابقاً)، ولكن رفضت ذلك، لأن الشهرة آخر ما أحتاجه.

هل تعلمون ماذا أصاب كريستوفر بولي شبيه رومبيلستيلتسكين القذر والذي أراد قتلي وسرقة كنز السيد بوديتش؟ لقد بحثت عبر الإنترنت ووجدت ما حدث.

قد تتذكر ما أخبرتك عنه في بداية قصتي عن خوفي حيال التشرد رفقة والدي في نهاية المطاف، والنوم تحت الجسور إلى جوار أشياءنا المتراكمة فوق بعضها في عربة تسوق، هذا ما أصاب بولي (ولست متأكداً من أمر عربة التسوق)، وقد وجدت الشرطة جثته تحت جسر تري ستيت تولواي في سكوكي، وكشفت في تقريرها أنه تعرض إلى طعن متكرر، ورغم غياب محفظته أو أشياء تعرف عنه في موقع الحادثة، ولكن اكتشفت هويته عن طريق تطابق بصمات أصابع الجثة مع نظيرتها في ملف اعتقالات كثيرة تعود إلى سنوات المراهقة، وقد نقل الخبر الصحفي تصريح رئيس شرطة سكوكي، براين بيكر حول أن الضحية عجز أن يدافع عن نفسه بسبب كسر في معصميه.

أعلم أن بولي كان سيلاقي المصير نفسه على أي حال لأن بنيته ضعيفة وقد سلبته مسدسه سابقاً، ولكن لا أستطيع إثبات ذلك أبداً، أو أن دافع القتل غنيمة كبيرة مسروقة من متجر مجوهرات، أي هل حاول بيعها إلى الشخص الخطأ ودفع حياته ثمناً؟ ربما لا، ولكنني على يقين من صحة ذلك، وما أشك فيه، هو مقتله في وقت مقتل بيتركين على يد ريد مولي بعد

أن ضربته بقوة كافية كي تقسمه إلى قسمين، ولكن احتمال تواقت الحدثين قائم.

أعلم تماماً أن بولي قد جر الأمر على نفسه، ولكن لا يتملكني سوى الأسف والعار عندما أتصور كيف طرحه قاتله أرضاً تحت الجسر وسط النفايات، وانحنى فوقه يطعنه في حين رفع بولي يديه العاجزتين كي يصد ضربات السكين، ولعلك تبرئني من الذنب لأن فعلي جاء دفاعاً عن حياتي وسر المستودع، ولكن يتقاطع الإحساس بالذنب مع الضحك والإلهام؛ أي يأتي ثلاثتهم فجأةً.

2

هبت عاصفة ثلجية قوية من جبال روكي في أول يوم سبت بعد عودتي إلى المنزل، وقد صعدنا حينها إلى منزل السيد بوديتش - انتعلت حذاءً مريحاً من أجل الرحلة - ثمّ اتجهنا إلى الخلف، وتفحص والدي جانب المستودع المحطم مستاءً.

«يحتاج بعض الإصلاحات».

«أعلم ذلك، ولكن عجزت عن الخروج سوى بهذه الطريقة بعد أن أقفل آندي الباب».

حملنا مصباحين يدويين، وبالتالي لا حاجة إلى المصباح الصغير، كما تركنا رادار في المنزل، لأنها ستجري ناحية منزل الأحذية فور خروجنا من النفق، ولكن الغاية من ذهابي إلى هناك إقناع والدي بحقيقة وجود ذلك العالم فقط دون أن تراني دورا أو أي أحد التقيته خلال فترتي هناك، إضافةً إلى شيء آخر غريب وربما أناني؛ لم أرغب في سماع والدي يتحدث الإمبيسية، وأردت الاحتفاظ بتلك الميزة لي.

تقدمت طريقنا عبر الدرجات اللولبية وسط تكرار والدي عبارة: «أعجز عن تصديق ذلك فحسب»، ودعوت ألا يصيبه انهيار نفسي بسببي، ولكن بقيت رؤية إمبيس الحل الوحيد أمامي.

ومازلت متمسكاً بصحة قراري حتّى الآن.

طلبت منه توجيه ضوء المصباح إلى الأرضية الصخرية عند دخول النفق بسبب وجود خفافيش كبيرة، وكي نتجنب طيرانها فوق رؤوسنا وإرباكنا لأننا سنصل إلى مكان نشعر فيه بالدوار، ونختبر ما يشبه انفصال الروح عن الجسد، وتلك هي نقطة العبور بين العالمين.

سأل والدي بصوت خافت: «يا إلهي، أخبرني من صنع هذا المكان يا تشارلي؟».

«اسأل نفسك من خلق الكون كله».

أعلم وجود عوالم أخرى، ولعل عددها يكافئ عدد نجوم السماء، كما نشعر بها وتؤدي جميعها إلى عالمنا في القصص القديمة كلها.

وصلنا إلى الحدود بين العالمين وأوشك والدي أن يسقط، ولكنني كنت مستعداً فوضعت يدي حول خصره.

قال: «أشعر بالغثيان، ربما يجدر بنا العودة».

«تحمّل قليلاً بعد، ألا ترى الضوء في نهاية النفق؟».

وصلنا إلى تعريشة الكرمة، فنحيتها عن طريقنا كي تطأ أقدامنا عالم إمبيس تحت سماءه الخالية من الغيوم، وقد تربع أمامنا منزل دورا أسفل التل، ولكن دون أيّ أحذية متدلية على السياج حوله، وقد لاحظت وجود فرس ترعى قرب طريق المملكة دون أن أتأكد من صحة ذلك نظراً إلى المسافة البعيدة الفاصلة بيننا، ولكن تيقنت من كونها فرساً أعرفها، وكيف

لا؟ لأن الملكة لم تعد تحتاج إلى فلادا كي تنطق باسمها، ناهيك عن أن المدينةً لا تلائم الأحصنة.

تأمل والدي المكان حوله مذهولاً، وخاصةً بعد رؤية حشرات صرصار الليل - ليست حمراء - تقفز وسط العشب الأخضر.

«يا لحجمها الكبير!».

قلت وقد شعرت أنه سيقع أرضاً: «اجلس واسترح يا أبي، وانتظر حتّى ترى الأرانب أيضاً».

جلسنا ومنحته بعض الوقت كي يستوعب ما رأته عيناه، وسألني عن كيفية وجود سماء تحت الأرض، وعن سبب كثرة الفراشات، ناهيك عن حجمها الكبير، وقد أجبته بشيء واحد فقط: «لا أدري».

أشار إلى منزل دورا وقال: «من يعيش هناك؟».

«إنه منزل دورا، ولكن أجهل اسم عائلتها».

«هل تعتقد أنها في المنزل الآن ونستطيع رؤيتها؟».

«لقد أحضرتك يا أبي كي تصدق ما أخبرتك إياه، وليس من أجل لقاء الآخرين والتعرف إليهم، وهذه زيارتنا الأخيرة إلى هنا، ويجب كتمان سر هذا العالم إلى الأبد، لأن كشفه يعني كارثةً كبيرةً».

«أعتقد أنك محق يا تشارلي نظراً إلى ما عانته شعوب كثيرة بسببنا ناهيك عن أذيتنا مناخ بلادنا... ما الذي تفكر فيه الآن؟».

أسعدتني بدايةً تمالكه نفسه، إذ خشيت أن يهلع أو ينكر الأمر تماماً، وأجبته: «أفكر في أشياء وجب أن يفعلها السيد بوديتش قبل سنوات طويلة».

ولكن ربما منعته الساعة الشمسية عنها، وقد ذكرت ليا مرةً شيئاً عن البذور الشريرة الموجودة في قلوب البشر أجمعين رجالاً كانوا أم نساءً.

«حان وقت العودة يا أبي».

نهض والدي، ولكنه توقف وألقى نظرةً أخيرةً على العالم في حين أبعدت الكرمة عن مدخل النفق، وقال: «يا له من عالم جميل، أليس كذلك؟».

«أجل، وسيبقى كذلك».

سنحمي إمبيس من عالمنا، ونحاول حمايته منها أيضاً بسبب الظلام القابع تحتها في قبضة غوغماغوغ، ولعله عاجز عن الخروج الآن بسبب تحول بيلا وأرابيلا إلى حطام بعد القبلة الأخيرة، ولكن يجب الحذر على الأقل عند التعامل مع مخلوقات مجهولة مثله.

تعاونت مع والدي خلال ذلك الربيع على إصلاح الفتحة في جانب المستودع، ثمّ حصلت على وظيفة صيفاً في شركة كرامر للإنشاءات، واقتصرت مهامي على الأمور المكتبية بسبب ذراعي المصابة، ولكن قضيت فترةً لا بأس بها وسط ورشات العمل، وتعلمت قدر الإمكان عن الإسمنت وأساسات البناء، ورغم وجود معظم المعلومات على موقع يوتيوب، ولكن لا شيء يضاهي الخبرة العملية عند وجود عمل مهم كي تنجزه.

وضعت برفقة والدي صفيحةً فولاذيةً على فتحة البئر قبل أسبوعين من مغادرتي لدراسة فصلي الأول في جامعة نيويورك، وفي الأسبوع التالي، فرشنا أرضية المستودع بالإسمنت، وشجعت رادار كي تضع بصمة قوائمها فيه قبل أن يجف.

سأخبرك الحقيقة: لقد آلمني حقاً إخفاء البئر تحت صفيحة فولاذية وطبقة إسمنتية سميكة، لأنها طريق إلى عالم سحري، وموطن أشخاص

أحببتهم، وأخص أحدهم بذلك، وبينما صبت الإسمنت أمام عيني شاحنة استعرتها من كرامر، فكرت في ليا، وكيف وقفت على الدرجات بعد أن استلت سيفها، وجعلت ساقيها في وضعية المبارزة، ومزقت فمها كي تصرخ باسم شقيقها.

لقد كذبت في هذا الموضع فقط؛ لأن قلبي لم يؤلمني فحسب، بل شعرت أنه يتمزق ويصيح رافضاً فعل ذلك، ويسألني كيف أمكنني ترك السحر ورائي، وإن أردت فعلاً سد فوهة القمع ومنع النجوم عن التدفق عبرها.

فعلت ذلك مجبراً، وقد تفهم والدي ذلك.

3

لعلك تسألني: «هل تراودك أحلام؟»، طبعاً، ويدور بعضها حول وحش البئر المظلمة، وأستيقظ منها واضعاً يدي على فمي كي أكتم صراخي، ولكن مرت سنوات كثيرة، وأصبحت هذه الكوابيس أقل تواتراً أمام أحلام تأخذني إلى حقل من زهور الخشخاش؛ الأمل الأحمر.

أعلم أننا فعلنا الشيء الصحيح، والوحيد أيضاً، وما زال والدي يراقب المنزل الواقع في 1 شارع سيكامور، وأفعل المثل عند عودتي من الجامعة، وسيأتي يوم أستقر فيه وسط ربوع سينتري إلى الأبد، وربما أتزوج، وفي حال رزقت بأطفال، سأمنحهم ذلك المنزل، وحين يتساءلون عنه في طفولتهم، سأقرأ عليهم القصص القديمة التي تبدأ بعبارة يحكى أن.

الخامس والعشرون من تشرين الثاني عام 2020 –
السابع من شباط عام 2022

Notes

[1←]
Bits-Alpha والمعروفة أيضاً باسم فروستد ألفا-بيتس، علامة تجارية لحبوب الفطور التي صنعتها بوست كونسيومر براندز، والتي تحتوي على قطع حبوب متعددة على شكل أبجدية (شوفان كامل الحبوب ودقيق الذرة). (المترجم)

[2←]
Jacks Apple هي علامة تجارية أمريكية لحبوب الفطور تنتجها كيلوغز وتستهدف الأطفال بشكل أساسي. (المترجم)

[3←]
ممثل وكاتب سيناريو أميركي. (المترجم)

[4←]
Glade هي علامة تجارية أمريكية من معطرات الجو المنزلية التي تم طرحها لأول مرة في عام 1956. (المترجم)

[5←]
المورمون مجموعة دينية وثقافية بدأها جوزيف سميث أواسط القرن التاسع عشر. يعتبر المورمون أنفسهم جزءاً من الديانة المسيحية، ثقلهم السكاني في ولاية يوتا، رغم أن أغلبية المورمون يعيشون خارج الولايات المتحدة. وهم يشكلون 1.7 بالمئة من سكان الولايات المتحدة، من ممارساتهم رفضهم العلاقات الجنسية قبل الزواج، ويمتنعون عن العمل يوم الأحد غالبية أتباع المورمونية لا يشربون الشاي والقهوة وكل ما يحتوي على الكافيين، كما أنهم لا يدخنون السجائر. وبعض المتشددين من المورمون يمنعون النساء من لبس التنانير القصيرة والسراويل. (المترجم)

[6←]
اختبار الكفاءة الدراسية.

[7←]
Stanwyck Barbara ممثلة أميركية توفيت سنة 1990 رُشحت لجائزة الأوسكار. وكانت نجمة سينمائية وتليفزيونية، اشتهرت خلال مسيرتها الفنية التي دامت 60 عامًا ببراعتها الشديدة وتنوعها، بالإضافة إلى حضورها القوي. (المترجم)

[8←]
Powell Dick ممثل ومغنٍ ومخرج ومنتج وعازف جاز توفي عن عمر 59 سنة بسبب اللمفوما. (المترجم)

[9←]
هنا يقتبس عبارة لجاكوب. (المترجم)

[10←]
الرطل يساوي 16 أونصة. (المترجم)

[11←]
وليام كيد المعروف بلقب كابتن كيد هو ملاح وقرصان بالوكالة من إسكتلندا تحول لاحقاً إلى قرصان، وكان أحد أعلام القراصنة في الأدب الغربي. (المترجم)

[12←]
يقصد السيد بوديتش.

[13←]
(ميثولوجيا) عملاق أسطوري في الويلزية ولاحقًا في الفولكلور الإنكليزي. يُقال إنه كان أحد سكان ألبيون، العملاق الذي تم إلقاؤه من جرف خلال مباراة مصارعة مع كورينيوس، رفيق بروتوس طروادة.

[14←]
خيار هوبسون choice s'Hobson هو خيار يتم فيه تقديم شيء واحد فقط، والشخص المقابل يجب عليه أن يقرر أن يختاره أو يرفضه، فهو أمام الخيارين فقط لا ثالث لهما؛ أخذه ما عرض عليه أو رفضه وخسارة ما عرض عليه. بعبارة أخرى بسيطة «خذها أو اتركها». (المترجم)

[15←]
الشهادة الفضية هي نوع من الصكوك القانونية في شكل عملة ورقية تم إصدارها من قبل حكومة الولايات المتحدة بداية من عام 1878. تم التخلص من هذه الشهادات في نهاية المطاف في عام 1964 ويمكن اليوم استبدالها بقيمتها الاسمية نقداً فقط. (المترجم).

[16←]
نورمان بيتس هو شخصية خيالية ابتكرها المؤلف الأمريكي روبرت بلوخ باعتباره الخصم الرئيسي في روايته المثيرة التي صدرت عام 1959 بعنوان «نفسية». (المترجم)

[17←]
مادة سائلة زيتية لا لون لها، وهي شديدة الحساسية للصدمات والارتجاج، وشديدة الانفجار. وهي أساس مركب الديناميت. (المترجم).

[18←]
أفراد شباب يملكون ثقافة ملابس خاصة. (المترجم)

[19←]
شخصية في فيلم حرب النجوم. (المترجم)

[20←]
عاصمة ولاية آيوا. (المترجم)

[21←]
نسبةً إلى عالم الرياضيات والهندسة إقليدس، والمقصود هنا أن العالم عشوائي وغير منتظم. (المترجم)

[22←]
واحد من أرقى أحياء التسوق في العالم. (المترجم)

[23←]
فطر سام يتألف من ساق تعلوها ما تشبه القبعة. (المترجم)

[24←]
فنان يرسم في لوحاته الكثير من التركيبات المستحيلة. (المترجم)

[25←]
حيوان أسطوري يملك رأس وجناحي النسر وجسد الأسد. (المترجم)

[26←]
فرقة كوميدية. (المترجم)

[27←]
باب الاصطبل، وهو باب يقسم أفقياً إلى قسمين: علوي يبقى مفتوحاً من أجل رأس الحيوان، وسفلي مغلق كي يمنع هروبها. (المترجم)

[28←]
آليتها الضغط على أطراف الشخص حتّى تتمزق عضلاته. (المترجم)

[29←]
تابوت حديدي بطول الإنسان توضع الضحية فيها واقفة ولها ثقب صغير يستطيع الجلاد تعذيبها أو قتلها عبره. (المترجم)

[30←]
نبات يستخرج منه دواء يدعى الأتروبين. (المترجم)

[31←]
داء يتظاهر بنقص تخثر الدم، وتشوه وجهي يدعى فك هابسبرغ. (المترجم).

[32←]
جمعية دولية من أجل أذكى اثنين بالمئة من البشر. (المترجم)

[33←]
شخصيتان كرتونيتان. (المترجم)

[34←]
شخصية في سلسلة أفلام حرب النجوم. (المترجم)

[35←]
مصطلح يشير إلى شخص مكروه جداً ويعامل بسوء. (المترجم)

[36←]
يفيد المصطلحان الأخيران معنى المصطلح الأول نفسه. (المترجم)

[37←]
القدم الحنفاء، تشوه خلقي تبدو القدم فيه معوجة إلى الداخل. (المترجم)

[38←]
نباتات ذات أزهار حمراء وصفراء. (المترجم)

[39←]
ألكساندر دوما، مؤلف رواية الفرسان الثلاثة. (المترجم)

[40←]
تركي بأول (Bowl Turkey) هو لقب يطلق على المباريات غير الرسمية التي تقام خلال عيد الشكر. (المترجم)

[41←]
قطعة من الجلد تنفصل عنه جزئياً.(المترجم)

[42←]
جنون آذار، حالة الهوس في مشاهدة مباريات كرة السلة للفئة الأولى للرابطة الوطنية للرياضات الجامعية، النخبة الثمانية. (المترجم)

[43←]
من أغنية أطفال إنكليزية كُتبت عام 1639. (المترجم)

[44←]
القشرة الكيتينية: تغطي الحشرات. (المترجم)

[45←]
رائحة تلي حادثة الاحتراق في الأجهزة الكهربائية. (المترجم)

[46←]
إحدى شخصيات رواية ساحر أوز. (المترجم)

[47←]
إحدى العلامات التجارية التي تصنع زبدة الفستق. (المترجم)

[48←]
لعبة أطفال يقول فيها أحدهم إلى ممثل دور (الأم): «هل تسمحين لي يا أمي أن...»، ويطلب منه إذن تنفيذ حركة محددة كي يجيب الأخير بالإيجاب أو النفي. (المترجم)

[49←]
شكّل يتغير باستمرار. (المترجم)

[50←]
نسبةً إلى الرجل العنكبوت، أي يحس وجود الخطر. (المترجم)

[51←]
شخصية خيالية من قصة أطفال. (المترجم)

[52←]
«كتاب العزيف». (المترجم)

[53←]
مدينة خيالية غارقة في المحيط الهادئ، وذكرها لوفكرافت في قصته القصيرة بعنوان «نداء كثولو». (المترجم)

[54←]
من أشجار الزينة، دائمة الخضرة ومعمرة. (المترجم)

[55←]
كائن خيالي أسطوري يرمز إلى الشر، ويصور عادةً في هيئة كائن صغير مزعج. (المترجم)

[56←]
حيوان أسطوري، وهو ملك الثعابين، ويقال إن نظرته تسبب الموت. (المترجم)